تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس ابن المقفع

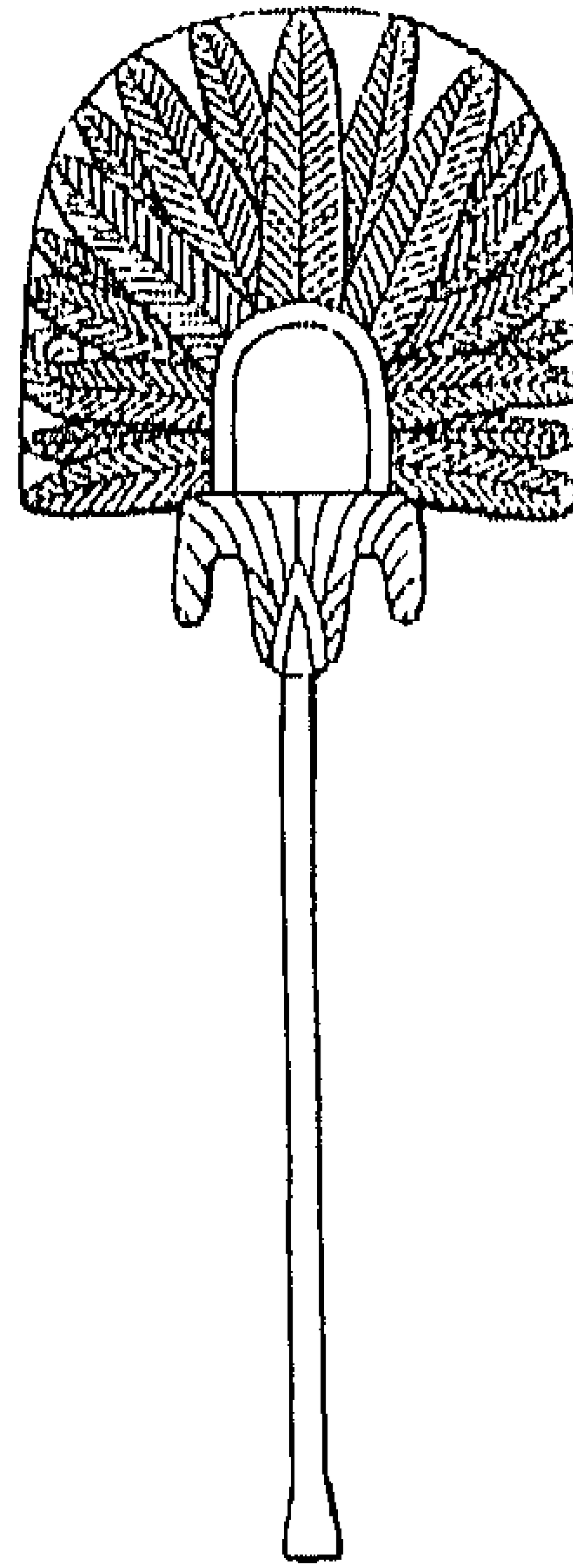
إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

الجزء الأول

من مار مرقس حتى البطرك ٣٨ بنيامين الأول ٦٢٢/ ٦٦١م

مكتبة مدبولى



تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين
من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

الجزء الأول

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى

حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس ابن المقفع

الجزء الأول

إعداد وتحقيق:

عبد العزيز جمال الدين

الإخراج الفنى:

تامر ومصرية عبد العزيز

الطبعة: الأولى ٢٠٠٦

الناشر: مكتبة مدبولى

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة

ت: ٥٧٥٦٤٢١ . تليفاكس: ٥٧٥٢٨٥٤

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٣٤٣٧

الترقيم الدولى: 977-208-549-6

الجمع التصويرى والتنسيق الداخلى:

دار جهاد - ٢٦ ش اسماعيل أباظة -

لاظوغلى - ت: ٧٩٦٤٧٨٣

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين
من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس ابن المقفع

الجزء الأول : من مارمرقس حتى البطرك ٣٨ بنيامين الأول ٦٢٢ / ٦٦١ م

إعداد وتحقيق
عبد العزيز جمال الدين

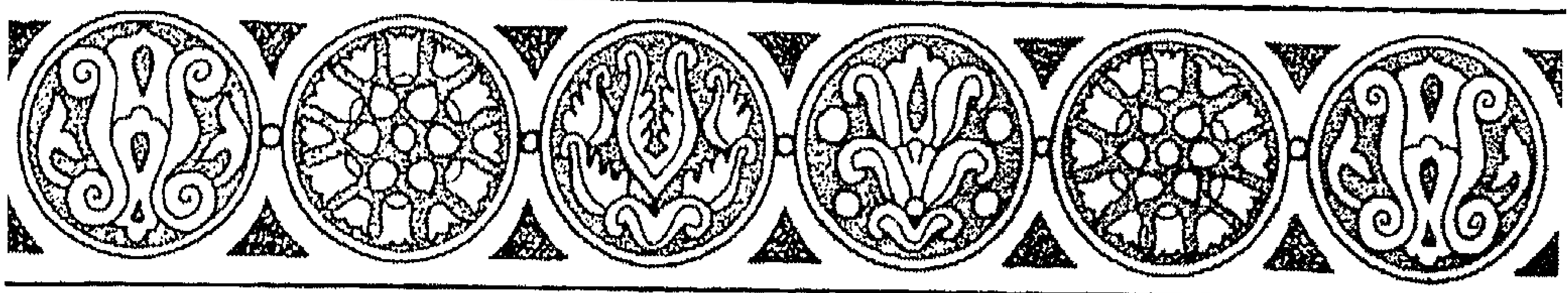
الناشر :
مكتبة مدبولى
٢٠٠٦

إن أهم الأسئلة هو هذا: أين يبدأ التاريخ؟ ومن الذى يصنعه؟ وكيف حصلنا على أثاره ومدوناته؟.

مبدئياً علينا أن نؤمن بأن هناك ما يسمي بالقوة الطليعية التي واتتها الفرصة لتقود البشرية نحو التطور والتقدم. فمثلاً حين نرى المصريين وقد تحولوا إلى أمة متحدة تقيم الدولة الواحدة لأول مرة فى التاريخ، وحين تظهر الدولة بمؤسساتها الهرمية المتعددة المعقدة، والقوانين التى تنظم علاقاتها الاجتماعية، والسلطة التى يتربع فوقها ملك، وما تمارسه فيها اللغة والكتابة كوظيفة كبرى. حينئذ تماماً يبدأ تاريخ البشرية الذى صنعه المصريون منذ سبعة آلاف سنة على ضفاف نيلهم، وسجلوه كتابة على جدران المعابد والمسلات والأضرحة والأهرامات والتوابيت وأوراق البردى فأمكننا بذلك معرفة أين بدأت البشرية تاريخها، ومن الذى صنعه.

من أجل هذا يُعد التاريخ من الأعمال الأدبية والفنية الرائعة التى أسسها المصريون ومارسوها منذ القدم، وظلوا طوال تاريخهم شغوفون بالتدوين والكتابة التاريخية. لهذا يحفل التاريخ المصرى بالعديد من المصادر الوثائقية المخطوطة التى تكشف عن أحداثه، وأشتهرت فى مكتبات العالم منذ مكتبة الإسكندرية أعظم مكتبة فى تاريخ البشر. ولكن مخطوطة «تاريخ البطاركة» لساويرس ابن المقفع تعد أكبر هذه المخطوطات من حيث الفترة التاريخية التى تغطيها، فهى المخطوطة الوحيدة التى تغطى تاريخ مصر منذ الاحتلال الرومانى (أى من بدايات القرن الأول الميلادى على وجه التقريب) وحتى عهد الملك فؤاد فى بدايات القرن العشرين. وبالرغم من ذلك فإن معظم مؤرخى مصر يتجاهلونها بسبب ندرتها بين يدى الباحثين وبسبب ظن من يسمعون عنها أنها تاريخ للكنيسة المصرية فقط غير مدركين للرصد التاريخى الهام لوقائع مصر العديدة التى ترصدها هذه المخطوطة الهامة.

عبدالعزيز جمال الدين



تقديم المحقق

ساورى (ساويرس) ابن المقفع

كل ما نعلمه عن حياة ساورى المعروف باسم «أبى البشر بن المقفع الكاتب» أو «أبى البشرجا ـ رود الكاتب المصرى» ينحصر فى ثلاثة تواريخ:

١ـ نوفمبر ٩٥٠م، وهو تاريخ تأليفه لكتاب «تفسير الأمانة»، الذى استكمل به كتابه السابق لهذا التاريخ وهو كتاب «المجامع»، وهو رد على كتاب «نظم الجوهر» لسعيد بن بطريق البطريرك الملكانى المقرب للفاطميين.

٢ـ سبتمبر ٩٥٥م. تاريخ إعادة تفسير كتابه السابق.

٣ـ سنة ٩٨٧م. مساهمته فى تحرير الرسالة المجمعية إلى بطرك السريان.

هذه هى التواريخ الأكيدة، وكل ما يضاف بعد ذلك هو استنتاج ومحاولة للاقتراب من الحقيقة.

* * *

ولد ساورى حوالى عام ٩١٥م من والد لُقب بالمقفع، وقد درج بعض الكتاب على استعارة

معنى «المقفع» الذى عُرف به عبدالله بن المقفع الكاتب الشهير الذى عاش فى القرن الثامن الميلادى، والذى نقل كتاب «كليلة ودمنة» من «البهلوية» إلى «العربية» والذى اتهم باختلاس مال الخراج، فعوقب بالضرب على يديه حتى «تفقعت أى تشنّجت، كما ذكر البعض فى تفسير «المقفع» إنها تعنى «منكس الرأس أبداً».

وحقيقة تفسير معنى «المقفع» ترجع غالباً إلى الكلمة المصرية «قفّه» التى حُرفت إلى «قفعه» ـ ولكنها ما زالت تنطق حتى اليوم فى لفظها الأول «قفّه» وهى تطلق على وعاء من الخوص أو حبال ليف النخيل، يصنعه عادة الفلاحون فى الريف المصرى، وكذلك الرهبان والمتصوفة، ولعل والد ساورى كان يمتهن هذه المهنة فاشتهر بالمقفع، أى صانع «القفع». أما السين المضافة إلى ساورى فهى من اللواحق المقدونية.

وأغلب الظن أن ساورى نشأ فى منف الشرقية فى المكان الذى كان يعرف باسمه المصرى«كا ـ هى ـ رع» الذى يعنى بيت (معبد) روح الإله رع، والذى حُرّف بعد ذلك إلى كاهرا «القاهرة» التى أسسها فى نفسى الموضع جوهر الصقلى بأمر خليفته المعز لدين الله الفاطمى».

تربى ساورى تربة علمية تليق بمثقف ذلك الوقت «القرن العاشر الميلادى» فجمع بين العلوم الدينية، والعلوم الدنيوية، فعرف الفلسفة التى كانت مزدهرة فى الإسكندرية، وعلوم الكلام التى قرأها فى مصادرها، وأتقن اللغة العربية الوافدة وطورها فى شكلها المصرى وعمل فى الوظائف الإدارية والدواوين.

ثم أخذ يتدرج فى الوظائف، أيام حكم الأسرة الأخشيدية حتى أصبح كاتباً ماهراً، وكانت رتبة الكاتب آنذاك رتبة مهمة فى الجهاز الإدارى للحكام الوافدين، وقد عُرف فى هذا الوقت بكنيته «أبى البشر ساورى ابن المقفع، والشاهد على ذلك عنوان رسالته إلى الوزير القبطى أبى اليُمن قزمان بن مينا، الذى كان تولى الوزارة على أيام أبى المسك كافور الأخشيد (٩٦٦ ـ ٩٦٨م) ونال ثقة الملك المعز لدين الله (٩٧٢ ـ ٩٧٥) فقد جاء فى عنوان الرسالة: «نبتدى بعون الله وتأييده نكتب رسالة انبا ساويرى أسقف الأشمونيين المعروف قبل رهبنته بأبى البشر ابن المقفع الكاتب، إلى أبى اليُمن قزمان بن ميناء، عامل مصر (أيده الله!) فيما سأله من الكتاب إليه بمذاهب النصارى، على طريق الاختصار والإيجاز» وهذه الكنية «أبو البشر» لا تعنى أنه أنجب ولداً سماه «بشر» وإنما تدل على مكانته الوظيفية فى الديوان، ولا ندرى إذا

كان أبو البشر قد تزوج أم لا، إلا أن أغلب الظن أنه كان عازباً، إذا لم يذكر أحد من المؤرخين أنه ترك امرأته عندما ترهب، وإن لم يكن ذلك دليلاً قاطعاً.

ولا يخفى على القارىء أن من أهم شروط وظيفة الكاتب في الدواوين حينذاك أن يكون متضلعاً في اللغة العربية الوافدة قادراً على تطويرها وتطويعها للعصر، ومن هنا نكتشف مدى الجهد الشاق الواعي الذى بذله ساويرى لينقل إلى اللغة الوافدة منجزات لغة أخرى أكثر منها تطوراً في صوتياتها ونحوها وكتابتها، ومحتوى ألفاظها الحضارية والدينية والأدبية، فكان ساويرى هكذا واضعاً لأول قاموس للترجمة من المصرية إلى العربية (لم يعثر بالطبع على هذا القاموس، ولكن من المؤكد أنه كان متوافراً عنده).

ولقد كان ساويرس يتمتع ـ كما هى عادة المصريين ـ بروح فكاهة عالية تنبع من حدة ذهنه وحضور بداهته، يتضح ذلك من القصة التى ذكرها مؤلف الجزء الثالث، من كتابنا هذا وهى: «اتفق أنه (ساورى) كان جالس عند قاضى القضاه إذ عبر عليهم كلب، وكان يوم الجمعة، وكان هناك جماعة من الشهود، فقال له قاضى القضاة: ماذا تقول يا سويرس فى هذا الكلب، هو نصرانى أو مسلم؟[1] فقال له: اسأله فهو يجيبك عن نفسه، فقال له القاضى: هل الكلب يتكلم؟ إنما نريدك أنت تقول لنا، قال: نعم يجب أن نجرب هذا الكلب، وذلك أن اليوم يوم جمعة والنصارى يصوموا ولا يأكلوا فيه لحم، فإذا فطروا عشيه يشربوا النبيذ والمسلمين ما يصوموه ولا يشربوا فيه النبيذ ويأكلوا فيه اللحم فحطوا قدامه لحم ونبيذ فإن أكل اللحم فهو مسلم وإن لم يأكله وشرب النبيذ فهو نصرانى، فلما سمعوا كلامه تعجبوا من حكمته وقوة جوابه وتركوه».

ترهبه واختياره أسقفا

بعد أن ترقى أبو البشر إلى أعلى المناصب،تخلى عن وظيفته ليترهبن فى أحد الأديرة، ولا ندرى أين ترهب، ولا متى، كما أننا نجهل السبب الذى جعله يترك العالم، ليذهب إلى البرية، إلا أن هذا دليل قاطع عن تقواه، وورعه وخبرته بأمور السلطة التى خدمها وعرف عنها الغدر السريع، والانتقام لأتفه الأسباب.

(١) لاحظ هنا حذف آداة الاستفهام وهي الهمزة في قول القاضي: هو نصراني.. ففي اللغة الوافدة تكتب «أهو نصراني..» وكذلك استبدلت «أم» بـ«أو» عند قول القاضي «أو مسلم». كما نلاحظ هنا ظاهرة حذف نون «الأفعال الخمسة بغير ناصب ولا جازم كما جاء في الكلمات «يصوموا»، «يأكلوا»«يشربوا».

ولذ أتقن ساويرس (ساورى) فى ظل رهبنته علوم الكتاب المقدس، وألف فيها بالعربية العديد من الكتب منها كتاب «الدر الثمين فى إيضاح الاعتقاد فى الدين» الذى ينقسم إلى ١٥ بابا، يذكر فيها ساويرس ١١٦١ (ألف ومائة وواحد وستون) نصاً من الكتاب المقدس (هذا بصرف النظر عن التلميحات إلى نصوص كتابية)، منها ٣٠٧ مرجع إلى العهد القديم، و٨٥٤ إلى العهد الجديد ترجمها جميعها بجهده الذاتى من اللغة القبطية إلى العربية، دون أن يسبقه إلى ذلك أحد، حتى أن أحد الكتاب يذكر عنه أنه لم يوجد فى عصره من يضاهيه فى معرفة الكتاب المقدس.

كذلك معرفته لآباء الكنيسة تفوق مستوى معاصريه، ففى نفس كتاب «الدر الثمين» المذكور، قد أحصى الناشر الألمانى لهذا الكتاب ١٩١ مرجعاً لآباء الكنيسة، سوى نصوص أخرى لم يعتبرها من التراث الآبائى.

وإذا تذكرنا أن كثيراً من هذه النصوص، أو قل معظمها، لم تكن مترجمة بعد إلى العربية، لفهمنا المجهود الذى بذله ساويرس للتعرف على الآباء فى الأصول.

لكل ما سبق اختير ساويرس ليسام أسقفاً على مدينة الأشمونين[(١)]، فغير اسمه من أبو البشر إلى الأنبا ساويرس، ولم يذكر ساويرس، اسم البطرك الذى وسمه، وإن كان فى شبه المؤكد أنه البطرك الستينى (تاوفانيوس) الذى أدار شئون الكنيسة القبطية من سنة ٩٥٣إلى سنة ٩٥٦، أو على يد البطرك أنبا مينا الثانى (٩٥٦ ـ ٩٧٥).

---

(١) الأشمونيين: هو إقليم هرموبولس .Hermopolis فى ظل العصر البطلمى، تقع شمال غرب ملوى بحوالى ٨كم. وردت فى كشف الأسقفيات عند أميلنو هكذا: «مدينة الأشمونيين» = Schemoun Ermoueno وهى Eshomunein ، ثم قال: إنه ورد فى بعض الأوراق القبطية مدينتان، أحدهما باسم أشمون رقم (١)، والثانية باسم أشمون رقم (٢) وكانت أشمون رقم (١) واقعة على النيل، فلما شعر أهل المدينة بقرب وصول الملك قمبيز بجيشه إليهم تخلوا عنها من الخوف والتجئوا إلى أشمون رقم (٢).
ثم قال: وإن مدينة أشمون رقم (١) سميت فى عهد البطالمة Kleopatris «كليوباتريس» وكانت هى الميناء لبعد أشمون الأصلية عن النيل، ولما اختفى أسمها صاروا يطلقون بعد ذلك على أشمون (٢) اسم مدينة الأشمونيين، التى كانت تسمى بالمصرية Sesounnou، ويقال لها Schemoun . أما كليوباتريس ميناء الأشمونيين الحالية فقد صار اسمها «الروضة» اشتهرت الأشمونين بنوع خاص من إلثياب الجيدة الثمينة، كما كانت قاعدة لمقاطعة «أونو» فى ظل الممالك الفرعونية، ثم قاعدة لكورة الاشمونين فى ظل الاحتلال العربى، ثم قاعدة لأعمال الأشمونيين خلال حكم الأيوبيين إلى آخر أيام المماليك الجراكسة، ثم قاعدة لولاية الأشمونيين فى ظل الاحتلال العثمانى.
وفى سنة ١٨٢٦ صدر أمر من الوالى بتسمية ولاية الأشمونيين باسم مأمورية أسيوط، وجعلت مدينة أسيوط قاعدة لهذه المأمورية، وبذلك حذف اسم الأشمونيين من الأقسام الإدارية بمصر، وأصبحت قرية من قرى مركز ملوى/ محافظة أسيوط.

أول تأليفه

ألف ساويرس قبل سنة ٩٥٠ كتاب «المجامع» وهو رد على كتاب «نظم الجوهر» لسعيد بن بطريق،البطريرك الملكى، وكان الخلاف كبيراً بين الكنيسة القبطية والملكيين،خصوصاً أن الملكانيين كانوا مقربين لدى الفاطميين، حتى أن العزيز ٩٧٥٠ ـ ٩٩٦) اتخذ سرية رومية كانت أخت بطريرك الروم فى القدس وفى الإسكندرية.

وفى نوفمبر سنة ٩٥٠م ألف ساويرس كتاب «تفسير الأمانة» ولكنه ضاع منه، فلما فقد الأمل فى العثور عليه أعاد كتابته فى سبتمبر ٩٥٥م.

علاقته بالملك المعز

كان المعز مؤسس الخلافة الفاطمية رجل علم وسياسة، يقضى أيامه فى تعلم العلوم واللغات حتى أنه حسبما قال المقريزى فى خططه «أخذ يحفظ اللغات فابتدأ بتعلم اللغة البربرية حتى أحكمها، ثم تعلم الرومية، والسودانية، حتى أتقنهما، ثم أخذ يتعلم الصقلية».

كانت علاقة المعز بالبطرك ابرام (إفراهام) علاقة طيبة، حتى حسده الوزير اليهودى «يعقوب بن كلس» ولما كان ساويرس من أصدقاء ابرام البطرك، وأكبر علماء الكنيسة فى ذلك الوقت، كان كثيراً ما يتردد على ديوان الملك وكان المعز يدعوه للمناظرة مع أئمة المسلمين واليهود فى حضوره و«دفعات كثيرة جادل قضاة من شيوخ المسلمين بأمر الملك المعز».

الرسالة المجمعية

كانت العادة جارية بين الكنيستين السريانية والقبطية، عند اختيار بطرك جديد، أن يرسل رسالة إلى نظيره فى الكنيسة الأخرى يوضح فيها عقيدته، فيرد عليه البطريرك الآخر برسالة يعترف فيها به، ويعلن عن إيمانه وكانت تسمى هذه الرسالة «السنيوديكا» أو الرسالة المجمعية، وقد جمعت هذه الرسائل المجمعية فى كتاب «اعتراف الأباء» فى سنة ١٠٧٨م.

وفى سنة ٩٨٧ أو بعدها بقليل، أرسل البطريرك الانطاكى أتناسيوس الخامس (٩٨٧ ـ ١٠٠٣م) أربعة مندوبين عنه إلى البطريرك فيليوتاوس (٩٧٩ ـ ١٠٠٣). وهم: توفيل المفسر مطران دمشق، وباسيلوس مطران طبرية، والقمص يوحنا، والشماس سلمون، وكان هؤلاء المندوبون حاملين رسالة من البطريرك الانطاكى تعبر عن إيمانهم[1] .

---

(١) انظر الخريدة النفيسة جـ٢ ص٢٦٨ ـ ٢٧٣ للأسقف أيسودوروس (القاهرة . د.ت).

وتضمنت هذه الرسالة مسألة لاهوتية يطلب من البطريرك المصرى حلها، وها هى المسألة «أن موت سيدنا المسيح، لما كان من مفارقة النفس للجسد بحيث لم يفارقه اللاهوت، كما لم يفارق النفس حال فارقها الجسد، فلم يكن موتاً لأن اللاهوت أعظم وأجل وأقوى من النفس المخلوقة، وكيف كان حياً حال اتحاد نفسه بجسده المخلوقين، ولم يكن كذلك. فى حين أن اللاهوت لم يفارق الجسد؟»(١).

فرحب البطريرك فيلوتاوس بالضيوف الكرام أحسن ترحيب، وطلب من كل أساقفة مصر أن يذكروا البطريرك الانطاكى الجديد فى قداساتهم. إذ يقول: «ونخبركم أنه على أثر مجيهم له «مجيء المندوبين الأربع» وقراءة الرسايل التى بأيديهم، أصدرنا منشوراً إلى عموم الأبروشيات المصرية أن يدرجوا اسمكم الكريم فى الطلبات، ويذكروكم فى كل قداس حسب المعتاد».

ثم جمع فيلوتاوس بعض الأساقفة العلماء وحرر رسالة يرد فيها على مسألة اتناسيوس.

وكان ساويرس فى مقدمة هؤلاء الأساقفة، فزودهم بعلمه وثقافته الدينية، فجاءت الرسالة حافلة بنصوص أباء الكنيسة، مزودة بالتعليقات اللاهوتية، مما جعلها من أجود الرسائل المجمعية لهذا العصر.

وقد اعترف فيلوتاوس بفضل أنبا ساويرس فى تحرير هذه الرسالة، إذ ختمها بقوله: ومن عندنا، يقدم إلى قدسكم السلام بخضوع آباؤنا الأساقفةالحاضرون معنا، كل واحد باسمه، لاسيما أنباساويرس أسقف الأشمونيين، وأنبا مرقس أسقف البهنسا الكاتب، والقسوس والشمامسة، والرهبان، والاراخنه المحبون لله، وعموم شعب كرسى مارمرقس الإنجيلى المؤمنين، وأبو رهبان ديركم الذى عندنا، والأخوة الذين فيه.

فقد ذكر ساويرس أول الكل ولم يذكر معه إلا أسقف البهنسا، وكان ساويرس قد بلغ الثمانين عام وأكثر عند تحرير هذه الرسالة، ولم يزل عضواً عاملاً فى كنيسته، يؤلف الأبحاث اللاهوتية وكتبه التاريخية.

قائمة مؤلفات ساويرس

لساويرس مؤلفات عديدة، بعضها مطبوع وبعضها مخطوط وبعضها مفقود.

وقد ذكر أنبا ميخاييل، أسقف تنيس فى زمن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله، وأحد الذين

(١) الخريدة جـ٢ ص ٢٦٩ .

أكملوا كتاب ساويرس، سنة ١٠٥١، عشرين كتاباً له وصلت إليه، ثم أضاف إلى هذه المؤلفات عدة ميامر وتفاسير وأجوبة على مسائل لأبى البشر ابن جارود الكاتب المصرى.

أما أبو البركات بن كبر، المتوفى سنة ١٣٢٤م، فقد ذكر له ٢٦ مؤلفاً فى الباب السابع من موسوعته المعروفة بكتاب «مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة» وهى كالآتى:

١ـ فى التوحيد.

وقد ذكر ساويرس هذا الكتاب فى الباب الثانى من «مصباح العقل» إذ قال: «وهذه الأسماء (أعنى: الآب والابن وروح القدس) مما قد استعمله الأوايل وقالوا به ودانوا بصحته، أعنى قدما الفلاسفة، منهم: هرمس (أوزير)، أفلاطون، فيثاغورس، أمونيوس، ونظائرهم، وتوالت به الكتب العتيقة، وأنا أذكر أقاويلهم فى كتاب التوحيد.

٢ـ فى الاتحاد.

٣ـ الباهر، فى الرد على اليهود والمعتزلة.

ذكر ساويرس كتابه عن المعتزلة واليهود دون تحديد عنوان فى كتاب «مصباح العقل» مرتين كما يلى:

أ ـ «فمن أنكر ثبات هذه الصفات وقيامها وأزليتها، فقد أنكر ما قد اعترف به، وجحد ما قد أقر بوجوده، كما فعل اليهود وباسيليوس، والمعتزلة الذين يجعلون صفات البارى أسماء خالية من المعانى، ولأنا قد قلنا أن غرضنا ها هنا الاختصار والإيجاز، رأينا ترك الاحتجاج والرد على المخالفيين، لأنا قد فعلنا ذلك فى كتبنا عليهم».

ب ـ « فأما ما وصفته التوراة من تحريم أشيا بأعيانها، أو تحليل أشيا بأعيانها، فأمر قد نسخ بشريعة المسيح، وذلك إنما كان لعلة ما، قد بينا الأمر، فى هذا وغيره، فى كتبنا فى الرد على اليهود».

٤ـ البليغ، فى مثل ذلك.

٥ ـ فى الرد على سعيد بن بطريق الملكى، البطريرك المعروف بابن الفراش، صاحب كتاب التاريخ [مطبوع].

٦ـ الشرح والتفصيل فى الرد على نسطور وشيعته.

٧ـ رسالة فى الديانة. كتبها إلى ابن أبى اليمن قزمان بن مينا الكاتب.

٨ـ نظم الجوهر والدر، فى الرد على القول بالقضاء والقدر.

٩ـ المجالس.

١٠ـ طب الفم وشفا الحزين.

١١ـ المجامع.

١٢ـ تفسير الأمانة الأرتودكسية. [طبعة الأب لورواه].

١٣ـ رسالة فى حال الأطفال، من المؤمنين والكافرين، وكيف تقوم النفس فى الحكم وهى رسالة تربوية.

١٤ـ فى الإستبصار، وهو مصباح العقل [نشرة الأب سمير خليل].

١٥ـ السير.

وهو الكتاب الذى بين يدينا الآن، والمعروف باسم تاريخ بطاركة كنيسة الإسكندرية» وقد طبع مراراً وترجم إلى اللاتينية والإنجليزية والفرنسية، كما طبعت منه أيضاً روايات مختصرة. [انظر ما كتبناه عن هذا المؤلف فى هذا التقديم].

١٦ـ الإنتصار.

١٧ـ ترتيب الكهنوت، وهو الانباء عن طقوس الكنيسة [طبعة يوليوس أسفلج].

١٨ـ فى إختلاف الفرق. [طبعة يوليوس أسفلج، ثم طبع جزءاً منه الأب سمير خليل، ثم طبعه بكامله المطران بطرس كامل مدور].

١٩ـ فى الأحكام. ذكر ساويرس هذا الكتاب فى الباب الأخير من «مصباح العقل» إذ يقول: «لأن الغرض فى هذه الشريعة: معرفة الله وتقديسه وتمجيده، واستعمال العدل والفضايل والإنصاف، والمواساة، وطلب الدايم الباقى، والإعراض عن الزايل الفانى. وأما ما سوى ذلك من الشرايع والأحكام فأثبتها فى كتاب الأحكام»، ويبدو أن هذا الكتاب اليوم مفقود.

٢٠ـ إيضاح الاتحاد، والقول على تجسد الرب. هذا الكتاب إما أن يكون «كتاب الدر الثمين» وإما أن يكون المقالة الثانية من «كتاب الإيضاح» وعنوانها «كتاب إيضاح تأنيس ابن الله وصلبه»، وقد ذكر ساويرس نفسه كتاب «إيضاح الاتحاد» مرتين فى «مصباح العقل» كما يلى:

أ ـ «فأما لم تجسد؟» و«كيف تجسد القديم بالمحدث؟» فقد شرحته شرحاً بيناً، وأوضحته إيضاحاً مستفيضاً فى كتابى «فى إيضاح الاتحاد».

ب ـ أنه، لما تجسد، كان تجسده بجسد تام، ذى نفس وعقل، [تجسداً] كاملاً تاماً، أى أنه خلق الجسد، وحدد الصورة، وصار إنساناً كاملاً من غير تغير ذات، فجعله له هيكلاً ومحلاً وحجاباً، على أنه اتحد به اتحاداً تركيبياً، كما بينت فى كتابى «فى إيضاح الاتحاد».

٢١ـ تفسيير الأناجيل المقدسة، ذكر ساويرس هذا التفسير للأناجيل عندما تحدث عن صلاة «أبانا الذى فى السموات» فى الباب العاشر، إذ قال: «ومن كان لا يعلم شيأ غير تلك الصلاة أجيز له، لأنها قد جمعت كل الأمور: من الإيمان والإقرار والتسبيح والتمجيد والطلبة والإستغاثة والمسألة، فمن أراد أن يعلم ذلك فلينظر فى «تفسير الإنجيل» فإنا هناك قد بينا معانى تلك الصلاة على الشرح».

٢٢ـ أجوبة مسائل لابن جارود (ساويرس).

٢٣ـ شرح أصول الدين، وترتيب الخدمة، والبخور، ورشم الصليب، ونسبة السيده.

٢٤ـ كتاب البيان المختصر فى الأيمان.

٢٥ـ كتاب المثاليات والرموز. من المحتمل أن يكون هذا الكتاب هو المقالة الثالثة من «كتاب الإيضاح» وعنوانها «كتاب تفسير الكلام من سفر يشوع بن نون، والتوراة بحق المذهب المسيحى، أو المقالة الرابعة «إيضاح تفسير الفصح والحروف، وكيف يصير الخبز والخمر لحم المسيح ودمه» إذ أن المقالتين تطرق موضوع المثالات والرموز.

٢٦ـ كتاب التعاليم فى الإعتراف والذنوب.

وجدير بالذكر أن عناوين مؤلفات ساويرس تختلف كثيراً بين نسخة ونسخة، وكان قد أشار إلى ذلك أنبا ميخاييل أسقف تنيس (١٠٥١م) فيقول: «وهذه الكتب قد سمى بعضها بخلاف ما ذكرناه، وربما للكتاب أسمان» وهذه الظاهرة تدل دلالة واضحة على انتشار كتب ساويرس، إذ أن أسماءها اختلفت لكثرة نقلها وتداولها، وذلك فى أقل من نصف قرن بعد وفاة المؤلف.

ونحن لا نعرف سنة وفاة ساويرس ولكن يتضح لنا مما كتب فى سير الآباء البطاركة أنه عاش حتى زمن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله أى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وفى أواخر القرن العاشر الميلادى.



الأهمية التاريخية لكتاب ساويرس

تمهيد

من بين المصادر التى يعتمد عليها الباحثون فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى، كتب أرخها كتاب ومؤرخون مسيحيون من مصر، أو غيرها من البلدان، مثل سعيد بن بطريق، البطرك الملكانى فى مصر والمعروف باسم أوتيخا صاحب كتاب «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» (ت٩٤٠م) ويحيى بن سعيد الأنطاكى (ت١٠٦٦م) صاحب «التاريخ» أو «صلة كتاب سعيد بن بطريق» وابن مماتى (ت١٢٠٩م) صاحب كتاب «قوانين الدواوين» وابن العبرى «أبو الفرج بن هارون الملطى» (ت١٢٨٦م) صاحب كتاب «تاريخ مختصر الدول» وابن العميد المعروف بالمكين (ت١٢٧٤م) صاحب كتاب «تاريخ المسلمين».

أما صاحبنا ساويرس بن المقفع فقلما يعرفه العلماء والطلاب الباحثون فى تاريخنا الوسيط، ولعل ذلك يرجع إلى أن ساويرس أرخ لبطاركة الكنيسة، فظن الباحثون ـ خطأ ـ أن تاريخ البطاركة والكنيسة المصرية لا يرتبط بتاريخ مصر.

ولم يترجم لساويرس أحد من أصحاب كتب التراجم المعروفة وإنما نعرف عنه مما كتب هو

عن نفسه، ومما كُتب عنه في الكتاب المنسوب إليه وهو كتاب «سير الآباء البطاركة» أو تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية».

مصادر كتاب ساويرس:

وقد جمع ساويرس معلوماته وأخباره مما وجده فى الأديرة المختلفة مثل دير القديس أبى مقار ودير نهيا ودير وادى هبيب (وادى النطرون) وغيرها من الديارات، ومما وجده فى أيدى النصارى، ويذكر ساويرس أنه أضاف إلى معلومات الأوائل ما عرفه هو من سير من شاهدهم من الآباء البطاركة.

ويذكر ساويرس أنه لاقى مشقة كبيرة فى ترجمة الوثائق القبطية واليونانية إلى العربية، وأنه استعان ببعض القبط ممن كان لهم دراية باللسان القبطى أو اليونانى. منهم الشماس ميخاييل ابن بدير والواضح بولس بن رجا، وقد ورد خبر الأخير فى سيرة أنبا فيلوتاوس البطرك (٦٣).

وقد أتم كتاب ساويرس من أتى بعده من الكتاب والأساقفة، ولكن الكتاب ينسب إلى ساويرس، ولعل ذلك يرجع إلى أن ساويرس كان أول من تكبد جمع السير والوقوف عليها وترجمتها.

منهج كتاب ساويرس:

يعتبر كتاب ساويرس خاص بتراجم البطاركة فى مصر من أيام ظهور المسيحية فيها زمن الإمبراطور الرومانى أغسطس قيصر، وقد وصل ما نشر من هذه التراجم إلى بداية حكم الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله سنة ١١٠٩م حوالى ٦٨ بطركاً.

ويبدو من هذه التراجم التى صنفها وجمعها ساويرس، أنها كانت بمثابة تقويم أو روزنامة للكنيسة المصرية، وأنها كانت تعتمد على المشاهدات والإتصال بأبطال الحوادث، أو كتابة الأخبار المتواردة حينذاك، فهى أشبه شيء «بالمذكرات» أو «اليوميات»، ولا نتبين من كتابتها الرجوع إلى مؤلفات سابقةأو معاصرة اللهم إلا فى النادر، فنرى ساويرس يستشهد أحياناً بسعيد أبن بطريق لتأكيد صحة بعض ما يكتبه من الأخبار.

ونلاحظ أنه منذ القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) ـ وخاصة منذ غزو العرب لمصر ـ يصبح تاريخ البطاركة أكثر اكتمالاً وأعظم أهمية، إذ يدون الأخبار ويكتب التراجم كتبة معاصرون.

ويهدف ساويرس من تراجم البطاركة وسيرهم إلى غرض دينى بحت وهو تمجيد الدين المسيحى والإشادة بالمذهب الأرتودكسى أو ـ كما يسميه ساويرس ـ الأمانة المستقيمة، وبيان جهاد البطاركة فى سبيل حمل أمانتهم.

فهذا الكتاب يختلف فى هدفه عن الكتب التاريخية العامة أو الخاصة ومع ذلك فهو يشترك معها جميعاً فى أن الدين كان يمتزج بالتاريخ امتزاجاً شديداً وهذه ظاهرة نلمسها فى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى كما نلمسها فى التاريخ الإسلامى، ومن هنا نرى أن ساويرس وإن كان قد أرخ للبطاركة وللكنيسة القبطية فى ظل الحكم الإسلامى إلا أنه اشترك مع المؤرخين المسلمين ومؤرخى العصور الوسطى الأوروبية فى أنه مزج بين الدين والتاريخ.

كذلك نرى مؤرخ البطاركة يشترك مع المؤرخين المسلمين ومؤرخى أوربا فى العصور الوسطى فى سرد الأساطير والقصص العجيبة والخوارق والكرامات، فيحدثنا مثلاً عن الدموع التى تسيل من صور القديسين والشهداء، والدم الذى يقطر من هذه الصور والأيدى التى تمتد خارجها، كما يكثر ساويرس من ذكر كرامات بعض البطاركة ورجال الدين المسيحيين، مثل إعادة البصر لمن فقده وإعادة الحياة لمن غرق، وإعادة الصحة لمن استعصى شفاؤه.

وليس هذا الكلام بمستغرب على ساويرس، فإن ساويرس يمثل عقلية العصور الوسطى، إذ كان الاعتقاد بالخرافات والكرامات لا يقتصر على الطبقة العامة كما هو معروف الآن وإنما كان هذا الاعتقاد شائعاً بين مختلف طبقات الشعب، بل أننا نرى أمير مصر فى أوائل القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى، محمد بن طغج الأخشيد، يكرم رجلاً من دمياط قيل أن يده كانت مقطوعة وأنه غاب عن البلد زماناً ثم عاد ويده صحيحة.

ولعل الإكثار من الكلام على كرامات البطاركة ورجال الدين المسيحيين كان الغرض منه حث الأقباط على الاستمساك بدينهم والإلتفاف حول كنيستهم وتقوية روحهم المعنوية فى أوقات المحن والشدائد.

كذلك نرى ساويرس ـ مثل غيره من مؤرخى العصور الوسطى ـ يعلل الأشياء فى الغالب تعليلاً الهياً سماوياً فكل ما يحدث سببه رضا الله أو غضبه وسخطه، ولا يحاول بعد ذلك تعليل الأشياء بالدرس والنقد والتمحيص، فيذكر مثلا أن الله كان يخذل جيوش الروم عند غزو العرب مصر بسبب أمانتهم الفاسدة وبسبب عقيدتهم الخلقدونية، دون أن يحاول بيان أسباب انتصار العرب وخذلان الروم، وليست تلك العقلية ببعيدة عنا، فعندما أرادت وزارة

المعارف العمومية فى مستهل القرن العشرين إدخال مادتى الطبيعة والكيمياء فى الأزهر اعترض بعض رجاله على ذلك وقال أحدهم:

فمن يقل بالطبع أو بالعلة   فذاك كفر عند أهل الملــة

ثم أدخلت هاتات المادتان ضمن برامج الدراسة فى الأزهر الشريف بعنوان: «علم خواص الأشياء التى أودعها الله فى المخلوقات».

ونلاحظ أن مؤرخ البطاركة يستخدم بعض الألفاظ الدخيلة الوافدة مثل كلمة المؤمنين ويعنى بهم الأرتدكسيين، والمصاحف ويعنى بها المجلدات، كذلك يطلق لفظ المصطفى على القديسين فيقول مثلاً القديس مرقص الإنجيلى المصطفى.

أهمية كتاب ساويرس فى تاريخ مصر القومى:

يتعرض كتاب ساويرس ـ خلال تراجم البطاركة ـ لتاريخ العصور الوسطى وطبيعى أن يركز ساويرس اهتمامه بتاريخ مصر، فيبين لنا كيف تم غزوها على يد العرب، ثم كيف كانت معاملة العرب للمصريين من النواحى الدينية والمالية والاجتماعية والإدارية.

كذلك يفصل ساويرس الكلام على الأحداث الهامة السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية التى حدثت فى العصر الذى اصطلحنا على تسميته «عصر الولاة» وهو الذى يبدأ بغزو العرب لمصر وينتهى بقدوم أحمد بن طولون إليها وتأسيسه الدولة الطولونية فيها، ويبين ساويرس انتقال مصر من التبعية للخلافة إلى الاستقلال الذاتى أيام الدولتين الطولونية والأخشيدية، ثم قيام الخلافة الفاطمية فى مصر التى نافست الخلافة العباسية فى بغداد لفترة من الزمن، كذلك يبين ساويرس علاقة البطاركة المصريين بولاة مصر وأمرائها وخلفائها من ناحية، ثم علاقة هؤلاء البطاركة بالنوبة والحبشة وشمال أفريقية والشام من ناحية أخرى.

وقد أشار ساويرس فى تاريخه إلى الرخاء فى مصر، كما فصل الكلام عن القحط والوباء والمجاعات فى بعض السنين، بل إن ساويرس يهتم بهذه الظواهر التى ترد فى حوليات الكنيسة المصرية أكثر من اهتمام سائر المؤرخين بها، وينفرد بذكر بعض المجاعات التى لم يرد ذكرها لدى غيره من المؤرخين المصريين.

ولاشك أن ساويرس يشترك مع بقية المؤرخين فى ذكر كافة الأحداث الهامة مع العناية بشئون مصر على غرار المؤرخين المصريين مسلمين كانوا أم مسيحيين، لكنه يمتاز عليهم جميعاً بأن كتابه له قيمة الحوليات، والمذكرات، والمصادر المعاصرة، فى وقت نتلمس فيه المصادر

المعاصرة للغزو العربى لمصر وما بعد الغزو بحوالى قرنين ونصف من الزمان فلا نكاد نجدها اللهم إلا فى بعض الأوراق البردية، وكتاب «التاريخ» للمؤرخ حنا أسقف نقيوس[1] الذى توفى فى القرن السابع الميلادى.

وقد وضع حنا النقيوسى كتابه فى تاريخ مصر باللغة القبطية، وجاء فيه ذكر الحوادث التى وقعت زمن الغزو العربى لمصر، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اليونانة والعربية، ثم قام أحد القساوسة المصريين بترجمة النسخة العربية إلى اللغة الأثيوبية، ولم يبق مما كتبه هذا المؤرخ المصرى سوى النسخة الأثيوبية التى نشرها الدكتور M.H.Zotenberg مع ترجمة فرنسية لها.

أما أقدم مؤرخ مسلم نعرفه بعد ذلك فهو ابن عبدالحكم صاحب كتاب «فتوح مصر وأخبارها» والمتوفى سنة (٨٧٠ ـ ٨٧١م).

ومما يزيد فى قيمة كتاب ساويرس أنه يبين منذ غزو العرب لمصر وجهة نظر المصريين فى الحكومات الإسلامية المتتالية.

ولا يهمنا الآن الحديث فيما اشترك فيه ساويرس مع بقية مؤرخى الخلافة الإسلامية، وإنما يهمنا الكلام فى حديثنا هذا على بعض ما انفرد ساويرس بالكتابة فيه أو توضيحه.

ولعل من أهم الأمور التى انفرد ساويرس ببيانها أو توضيحها بحكم تأريخه للبطاركة وللكنيسة وللأقباط، ما كتبه عن مركز المصريين فى ظل السلطة الإسلامية من الناحية الاجتماعية، ومدى تمتعهم بالحرية الدينية، وقيامهم بشعائرهم، والاحتفال بأعيادهم، وبناء أو تجديد كنائسهم، وعلاقة المصريين بالمسلمين فى مصر وفى غيرها من البلدان، وموقفهم من الحكومات الإسلامية المتعاقبة فى مصر.

كذلك أفاض ساويرس فى حديثه عن نشر الإسلام فى مصر بل إنه فى بعض الأحيان يعطينا أرقاماً بعدد الذين تحولوا إلى الدين الإسلامى فى ظل الظروف الاقتصادية القاسية تخلصاً من الجزية.

وقد أكد ساويرس أن العرب منذ البداية، انتصروا لكنيسة اليعاقبة على أعداءهم فى المذهب وهم الملكانيين وغيرهم.

وكما اعتبر الأقباط أن الملكانيين هم أتباع الملك البيزنطى، وأنهم ليسوا أعداءهم فى المذهب الدينى فقط وإنما أعداءهم فى القومية. كذلك آزر العرب الأرثوذكس المصريين باعتبارهم أصحاب البلاد، واعتبروا الملكانيين سنداً لأعدائهم الروم.

(١) نقيوس: قرية أبشادى الآن ـ مركز تلا بالمنوفية.

ويذكر ساويرس أن الملكانيين في مصر، لم يتمتعوا بالحرية الدينية إلا في فترات وتحت ظروف محددة.

ولم تكن للسلطة الإسلامية سياسة ثابتة بشأن بناء الكنائس والأديرة فكانت تسمح للمسيحيين في بعض الأحيان ببناء كنائس جديدة، وكانت تمنعهم في بعض الأحيان حتى من إصلاح الكنائس القديمة.

كذلك يبين لنا ساويرس أن الأقباط شغلوا كثيراً من الوظائف في ظل السلطة الإسلامية خاصة الوظائف المالية والادارية، ويورد ساويرس في مناسبات مختلفة أسماء كثير من كبار الموظفين الأقباط.

ويشيد ساويرس بتسامح الخلفاء الفاطميين، اللهم إلا عهد الحاكم بأمر الله الذى كان يمتاز بالتقلب مع جميع المذاهب، بل إن ساويرس يذكر أنه في العصر الفاطمي أصبح «جميع مقدمى المملكة والناظرين في دواوينها وتدبير أمورها كلهم نصارى».

أما عن انتشار الإسلام في مصر منذ أواخر عصر الولاة، فيتضح لنا مما كتبه ساوريرس أن العامل المالي من أهم العوامل التي حولت أغلبية الأقباط إلى اتباع الدين الإسلامي.

ويتضح من كتابات ساويرس أن الرهبان كانوا يبغضون السلطة الإسلامية لأنهم كانوا يفلتون في البداية من دفع الجزية والخراج إلى أن بدأ والى مصر عبدالعزيز ابن مروان (٦٨٤ ـ ٧٠٥م) سنة فرض الجزية عليهم.

فمن المعروف أن الرهبنة كانت منتشرة حينذاك في مصر. وقد ساعد على انتشارها ما وقع للمصريين من ظلم واضطهاد زمن البيزنطيين، ففضل الكثيرون أن يعيشوا في عزلة عن العالم، لذا لم تفرض عليهم أى ضريبة في عهد الرومان والبيزنطيين بل أعفيت الأديرة والرهبان من الضرائب.

ولما احتل العرب مصر حافظوا على هذا التقليد تقرباً من الكنيسة اليعقوبية وما لبث العرب أن فطنوا إلى أن الأديرة أصبحت تملك ثروات ضخمة وإلى أن كثيراً من الأقباط لجئوا إليها كي يتخلصوا من الضرائب.

ولذا نرى والي مصر عبدالعزيز بن مروان ـ وأخ الخليفة عبدالملك بن مروان ـ يأمر بإحصاء الرهبان وفرض الجزية عليهم. كما أنه ألزم الأساقفة بأن يؤدوا قدراً معيناً من المال سنوياً بالإضافة إلى خراج أوقاف الأديرة والكنائس.

وكانت السلطة الإسلامية تفرض أشد العقاب على الرهبان أو رجال الدين الفارين من الجزية والضرائب، كما كانت تتشدد فى جمع الجزية من المصريين.

ويبين ساويرس أن كثيراً من المصريين أسلموا ليتخلصوا من الجزية والضرائب المفروضة عليهم، كما يذكر أن الأقباط الذين بقوا على دينهم قاموا بمقاومة سلبية ضد الحكومة، تنطوى على الهروب من مكان إلى مكان، وهجر الأراضى الزراعية، وذلك منذ خلافة الوليد بن عبدالملك الأموى (٧٠٥ ـ ٧١٤). وفى أثناء ولاية أخيه عبدالله بن عبدالملك أصدر والى مصر أمراً بوسم الفارين الذين وجدوا فى الأقاليم المختلفة، على أيديهم بالإختام المحماة بالنار مثلما يفعل مع البهايم ونفيهم إلى أماكن مختلفة بلغت حد نفى البشمور إلى مستنقعات جنوب دجله والفرات.

واستمرت حركة الهروب فى ولاية قرة بن شريك الذى أتى بعد عبدالله بن عبدالملك. وتشدد قرة فى قمع تلك الحركة والقضاء عليها.

وقد اتخذت حركة الهروب فى عهد قرة بن شريك شكلاً واسعاً. فيذكر ساويرس أن أسر بأكملها كانت تهرب من مكان إلى مكان فراراً من دفع الضرائب والجزية. واضطر قرة إزاء هذا إلى إنشاء هيئة خاصة مسلحة لوقف تلك الحركة وإعادة كل شخص إلى موضعه. وظل قرة يقاوم تلك الحركة بنشاط إلى أن توفى سنة ٧١٤م.

ويؤكد كلام ساويرس ما استخلصناه من الأوراق البردية العربية واليونانية التى ترجع إلى عهد هذا الوالى (انظر جروهمان).

وبعد وفاة قرة والخليفة الوليد، ولى خراج مصر أسامة بن زيد التنوخى فى خلافة سليمان ابن عبدالملك.

وقد تشدد أسامة بن زيد فى طلب الجزية والخراج. وأسلم الكثيرون فى أيامه كى يتخلصوا من الأعباء المالية، ولكن حركة الهرب استمرت، من جانب الذين أثقلت كاهلهم الأعباء المالية والجزية ولم يرغبوا فى اعتناق الدين الإسلامى.

ولكى لا يتمكن أحد من الهروب من منطقة إلى أخرى عملت سجلات للأهالى أشبه بالبطاقات الشخصية اليوم. فألزم كل شخصى يريد الإنتقال من جهة إلى أخرى فى أنحاء القطر، أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها، أن يحمل معه سجله. أما من فقد سجله أو أتلفه فقد ألزمه الوالى بالحصول على سجل آخر مقابل دفع خمسة دنانير.

والواقع أن ساويرس هو المؤرخ الوحيد الذى كتب وفصل لنا الكلام على حركة الهروب، تلك الحركة التى تنطوى على مقاومة المصريون لسلطة العرب مقاومة سلبية بعدما أصبح الإلتجاء إلى الأديرة، لا يعفهم من الإلتزامات المالية منذ خلافة عبدالملك بن مروان وولاية أخيه عبدالعزيز على مصر.

كذلك يذكر ساويرس أن الخليفة العباسى الأول أبا العباس عبدالله السفاح قرر أن يعفى من الجزية كل من يعتنق الدين الإسلامى ويقيم شعائره، فتخلى كثير من المسيحيين، أغنياء كانوا أو فقراء، عن يدنهم وأعتنقوا الدين الإسلامى بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاه عليهم.

ومما لاشك فيه أن الأمثلة التى يوردها ساويرس، والتى تبين أن الأقباط الأغنياء ضجوا من الجزية والضرائب كما ضج الفقراء، تظهر أن الجزية كانت المورد الرئيسى للمال الذى تعنى به السلطة الإسلامية، وأنها كانت أمراً ثقيلا، ولم تكن بالضريبة الهينة وإلا لما حملت الكثيرين على التخلى عن دينهم.

وتؤكد كتابات ساويرس أن الحكومة الإسلامية فى مصر لم تحدد الجزية على أهل الذمة بعد الفتح، وإنما أكتفت بفرضها وتركت تقديرها للظروف. وهذا يذكرنا برواية كتبها أقدم مؤرخ مسلم وهو ابن عبدالحكم، إذ يقول أن أحد أصحاب الكور الأقباط (والكورة لفظ مشتقى من اليونانية ومعناه قسم من أقسام مصر) قدم على عمرو بن العاص فقال له: «أخبرنا ما على أحدنا من الجزية..». فقال عمرو وهو يشير إلى ركن الكنيسة: «لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك. إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثر عليكم، وإن خفف عنا خففنا عنكم.

على أن الأقباط بدءوا منذ سنة ٧٢٥م فى التخلى عن مقاومتهم السلبية وأخذوا يقاومون سلطة العرب مقاومة إيجابية وذلك بالقيام بالثورات العلنية ضدهم.

والمعروف أن العرب بعد احتلالهم لمصر فرضوا على المصريين الجزية وعلى أراضهم الخراج، في الوقت الذى عاملوا فيه الأراضى التى نهبتها قبائلهم البدوية بنظام الزكاة (أى تحصيل العُشر).

ونلاحظ أن الأراضى التى كانت ملكا خاصاً للأباطرة أو التى هرب أهلها أو هلكوا زمن الغزو العربى، آلت إلى القبائل البدوية فى مصر. وقد زادت تلك الأراضى زيادة كبيرةأثناء الحكم العربى نفسه بما أضيف إليها من الأراضى المهجورة والمستقطعة والمصادرة وطرح النهر والتى هاجر عنها أهلها بسبب الظلم وفداحة الأعباء المالية المفروضة عليها.

ومن الوجهة النظرية كان المصرى الذى يعتنق الإسلام تصبح أرضه عشرية ولكن الحكام العرب رأوا في هذا جل الخطر على ماليتهم، وأصبح المصرى إذا أعتنق الإسلام لا تعفى أرضه من الخراج حتى لو أسقطت عنه الجزية. كأن الأرض ظلت كافرة رغم إسلام صاحبها.

ثورة البشمور:

وحين بدأ المصريون الأقباط يثورون ضد سلطة العرب بسبب مطالبها المالية المجحفة، وجدوا فى المصريين المسلمين الذين زاد عددهم فى مصر وأصبحوا يملكون أراضى خراجية، شريكا لهم فى تلك الثورات. ولذلك نرى سائر مؤرخى مصر المسلمين يشتركون مع ساويرس فى ذكر تلك الثورات بل يفصلون الكلام أحيانا فيما لا يفصل فيه مؤرخ البطاركة.

وقد تعددت ثورات المصريين وشملت الوجهين البحرى والقبلى. وكانت أعنف هذه الثورات تلك التى كان يقوم بها أهل البشمور أو البشرود، وهى المنطقة الرملية الساحلية بين فرعى دمياط ورشيد.

ولقد ظل المصريون الأقباط يقومون بالثورة بعد الأخرى طوال القرن الثامن الميلادى، وكانت حكومة العرب تقابل تلك الثورات بالقوة.

وكان يتبع أخماد تلك الثورات فى العادة تحول عدد كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامى.

وكان آخر تلك الثورات وأعظمها تلك التى أنتهت فى بداية القرن التاسع الميلادى (٨٣٢م) بمجىء الخليفة المأمون وإبادته للثائرين والتى كان من نتائجها أن أصبح الإسلام أغلبية فى القطر المصرى.

ويخبرنا ساويرس عن هذه الثورة فيقول أن الخليفة المأمون صحب معه إلى مصر البطرك ديونوسيوس بطرك أنطاكية وأنه استعان به وببطرك الأقباط الأنبا يوساب، لإخماد ثورة البشموريين وسير إليهم قائدة الأفشين لمحاربتهم، ثم سار إليهم بنفسه وجحافلة وقضى على حركتهم.

يتضح لنا مما كتبه ساويرس أن الشعور الوطنى كان ضعيفاً بين المصريين آنذاك، فلم يكن فى ثورات الأقباط ضد سلطة العرب عنصر وطنى، بل كانت كلها بسبب الضرائب والجزية إما لحمل الحكام المسلمين على تخفيفها وعدم اتباع القوة فى جبايتها، وأما للهرب من دفعها. ولعل ضعف هذا الشعور الوطنى كان أكبر عون للحكام المسلمين للقضاء على حركات المصريين.

ويؤكد سلبية الشعب المصرى حينئذ ما نعرفه من أن أهل البلاد لم يشتركوا فى الحركات السياسية والدينية التى قامت فى ظل الخلافة، والتى اشترك فيها الجند العربى فى مصر والإجناد الأخرى الذين أتوا إليها فى عهد الدولة العباسية من الترك والفرس، مثل الثورة التى أنتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان، والنزاع بين على ومعاوية، والخلاف بين الأمين والمأمون.

أما الأقباط فقد اشتركوا فقط فى معاونة العباسيين الذين كانوا قد نجحوا فى إسقاط الدولة الأموية فى المشرق والذين أتت جيوشهم وراء الخليفة الأموى مروان بن محمد فى مصر.

ولا يدعنا ساويرس نتلمس الأسباب التى دعت المصريين إلى معاونة العباسيين فى مصر فيذكر صراحة أن العباسيين وعدوا الأقباط بتخفيف الجزية والخراج عنهم.

والواقع أننا لا نجد مؤرخاً غير ساويرس يفسر لنا السبب الذى حمل أغلبية القبط على التحول إلى الدين الإسلامى. فساويرس يؤكد دائما أن الهروب من الجزية ومن الخراج كان أكبر عامل على إنتشار الإسلام فى مصر.

وهو يزن دائما الولاة والأمراء والخلفاء الفواطم بالميزان المالى، ولهذا نرى مؤرخ البطاركة قد يحكم على أمير أو خليفة واحد حكمين على طرفى نقيض، لأن هذا الأمير قد يكون رحيما بأهل الذمة فى وقت من الأوقاف، وقد يشتد فى جمع الضرائب والجزية، عندما يحتاج إلى الأموال فى وقت آخر، ومثل ذلك كلام ساويرس على الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وهشام بن عبدالملك، والخليفة المتوكل على الله العباسى وأمير مصر أحمد بن طولون والحاكم بأمر الله.

وواضح من كتابات ساويرس أن الأساقفة والبطاركة ورجال الدين المسيحيين كان يفرض عليهم أموال كثيرة، وكان رجال الدين يلجئون بدورهم إلى الشعب المصرى القبطى ليدفع هذه الأموال، وكانت أحسن فرصة للخلاص من كل هذه الأعباء الدخول فى الدين الإسلامى، تحت أمل إعفائهم من أموال الجزية والخراج.

ومن الأمثلة الصارخة التى يبين فيها ساويرس إسلام الكثيرين بسبب الفقر وقلة ما معهم من المال ما حدث فى خلافة المنتصر العباسى (٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ ٨٦١ ـ ٨٦٢م) حينما ولى خراج مصر أحمد بن محمد بن المدبر، إذ فرض هذا الوالى ضرائب باهظة على الكنيسة وعلى المصريين عامة مما دفع الكثيرين إلى التحول إلى الإسلام تحت أمل إعفائهم من الجزية والخراج.

والمعروف أنه أنشىء فى العصر العباسى ديوان خاص للنظر فى شئون أهل الذمة المصريين سمى «ديوان الجوالى» وكان على رأسه موظف من كبار المسلمين.

ويحدثنا ساويرس عن شخصيات من رجال الدين الأقباط الذين خرجوا للشكوى فى مقر الخلافة العباسية من الأعباء المالية وأعمال السلب، ومثل ذلك خروج أحد رجال الدين المسيحيين فى مصر واسمه إبراهيم إلى مقر الخلافة فى أيام المعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ ـ ٨٦٦ ـ ٨٦٩م) يشكو تعسف ابن الدبر، فكتب الخليفة سجلاً بالتخفيف عن النصارى، ثم أكد هذا السجل الخليفة المهتدى (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ) الذى ولى بعد المعتز والذى أمر بأن يرد إلى النصارى ما اغتصب منهم من المنقولات والأراضى.

وقد أتيح لأهل الذمة فى مصر وفى مختلف أنحاء الخلافة أن يتقلدوا وظائف مختلفة فى الدولة وأن يزداد نفوذهم حتى وصل بعضهم إلى الوظائف العليا فى الإدارة، كما وصل آخرون إلى أن يصبحوا الكتاب الرئيسيين والوزراء عند بعض الولاة والأمراء والخلفاء، وذلك بسبب عدم كفاءة الجهاز الإدارى وحاجته إلى خبرات غير المسلمين فى إدارته.

وكان هذا يؤدى فى بعض الأحيان إلى احتجاج فقهاء الدين، وثورة المسلمين أصحاب المصلحة للمطالبة بالحيلولة دون سيطرة أهل الذمة المصريين أو ابتزازهم، مما كان يستتبع إصدار تشريعات تحد من نشاط أهل الذمة المصريين وتبعدهم عن وظائف الحكومة وتلزمهم بالتزام زىّ يميزهم عن المسلمين.

ومن ذلك ما حدث فى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز الذى أمر بعزل أهل الذمة من مناصب الدولة الهامة ومنعهم من إنشاء الكنائس أو المعابد الجديدة ومن لبس العمائم، ويحدثنا ساويرس عن عمر بن عبدالعزيز بأنه كان يفعل خيراً عظيماً أمام الناس، ويفعل السوء أمام الله، إذ أمر بإعفاء الأساقفة والكنائس من الخراج، وعمر المدن التى خربت، وأبطل الجبايات (الضرائب المستحدثة) فعاش الأقباط فى أمن وهدوء، ولكنه ما لبث أن أرسل كتاباً يأمر فيه الأقباط بالتخلى عن أعمالهم فى الدولة ما داموا على دينهم، أما من يريد منهم الاحتفاظ بعمله فليكن على دين محمد، ولهذا سلم الأقباط ما بيدهم من الوظائف والأعمال إلى المسلمين.

كذلك يذكر ساويرس أن الخليفة المتوكل على الله العباسى ٧٣٢٠ ـ ٢٤٧هـ = ٨٤٧ ـ ٨٦١م) أمر بهدم الكنائس وأن يتميز المسيحيون واليهود فى لباسهم عن المسلمين كما أمر أن

يشغل الوظائف المسلمون فقط، ويذكر ساويرس أن كثيرين أسلموا حينئذ إما لحاجتهم وفقرهم، وإما رغبة منهم فى الإبقاء على مناصبهم.

والواقع أن مؤرخى الخلافة يشتركون مع ساويرس فى تفصيل اضطهاد المتوكل لأهل الذمة المصريين.

لكن من الملاحظ أن التشريعات التى كانت تصدر ضد أهل الذمة، لم تكن تنفذ كاملة فى بعض الأحيان خوفاً من ازدياد التذمر واندلا ع الثورات، وكان أثرها يخف كثيراً إلى أن تقوم تشريعات جديدة لتأكيدها.

ولعل أبلغ مثل لذلك أن ساويرس نفسه يعود فيمتدح المتوكل مدحاً كثيراً، فيقول أنه فى أواخر أيام المتوكل استقامت أمور النصارى وأسبغت عليهم النعم العظيمة.

المساجلات الدينية

ونعرف مما كتبه ساويرس أنه كانت هناك مساجلات دينية فى بلاط الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (٦٣٢ ـ ٣٦٥ هـ = ٩٧٣ ـ ٩٧٥م) للمناظرة والتحدث فى الأديان السماوية الثلاثة والمفاضلة بينها، وكان ساويرس نفسه ممن جادل شيوخ المسلمين واليهود فى بلاط المعز [انظر قصة نقل جبل المقطم].

استشهد المؤلف فى هذا الكتاب بنصوص كثيرة من الكتاب المقدس ولعله اعتمد فى ذلك على نص التوراة السريانى أو على ترجمة عربية قديمة.

والواقع أن أقساماً من التوراة كانت قد نقلت إلى العربية فى نهاية القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) عن السريانية أو اليونانية، ولكن أول ترجمة عربية هامة للتوراة كانت على يد سعيد الفيومى المصرى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (النصف الأول من القرن العاشر الميلادى) ولا تزال معتمدة عند اليهود المتكلمين بالعربية إلى اليوم.

الإسكندرية:

ونلاحظ أن ساويرس يعنى بالتأريخ للإسكندرية عناية خاصة، وليس هذا بمستغرب فالإسكندرية كانت مقراً لبطركية الأقباط، ولذا نراه يسميها فى معظم الأحيان المدينة العظمى.

ويذكر ساويرس أن الإسكندرية كانت تعرف باسم مدينة قيسرون ويقول أيضا أنها تسمى باللغة العبرانية مدينة آمون.

ويؤكد ساويرس فى مناسبات مختلفة ما نستشفه من سائر المصادر بأن الإسكندرية كانت

منذ العهد اليونانى حتى عصر الأخشيديين تعتبر فى معظم الأحيان جزءا مستقلا عن مصر حتى فى القضاء.

وبهذه المناسبة عندما وصل إلى الأمير أحمد بن طولون، تقليد بولاية جميع أعمال مصر من الخليفة العباسى، يذكر ساويرس أن هذا الأمر كان بخلاف ما جرت به العادة فإنه لم يكن بين والى الإسكندرية ووالى مصر معاملة ولا خطاباً بل كانوا يتهادون الهدايا فيما بينما وكانوا من تحت سلطان واحد.

كذلك يحدثنا ساويرس عن أهمية الإسكندرية التجارية وأنها احتفظت بتلك الأهمية بعد غزو العرب لها فظلت ميناءاً تجاريا هاماً تأتيها التجارة براً وبحراً.

ويثنى ساويرس على الخليفة المتوكل ثناءاً كثيراً لأنه أمر بتوصيل القناة التى تجلب ماء النيل إلى داخل الإسكندرية. وكان الماء العذب لا يصل قبل ذلك إلى الإسكندرية إلا وقت الفيضان، وبعد حفر هذا الخليج أصبحت المراكب الكبار تصل إلى داخل المدينة وكثرت المراكب والتجار فى الإسكندرية كما زرع الناس الكروم والبساتين على جانبى القناة.

ويحدثنا ساويرس عن ثائر من سكان الإسكندرية من بنى مدلج قام بثورة فى أواخر عصر الولاة فى الوجه البحرى وانضم إليه جماعة كبيرة مقاتلة من أصحابه، ومن البدو، وأخذوا يهاجمون عمال الخراج ويأخذون ما لديهم من أموال.

ويذكر أنه لما زادت جماعته، حاصر مدينة الإسكندرية، ولكنه لم يستطع فتحها بأى وجه من الوجوه، وذلك لوقوف حصونها حجر عثرة فى سبيل ذلك، ولعدم وجود آلات لدك الحصون لدى الثوار، ومع ذلك فأنهم حاصروها ومنعوا الميرة من الوصول إليها عن طريق البحر والبحيرة. ويذكر ساويرس أنه لما طال حصار الإسكندرية اجتمع رؤساؤها وتشاوروا مع واليها واتفقوا على إحاطتها بسور كبير حولها. وقد اشترك فى بناء هذا السور أهل الإسكندرية، إذ بنى كل صاحب دار أو أرض حائطاً أمامه ووصله إلى حائط جاره، وبذلك أصبح للإسكندرية سور حولها وجعلوا له أبواباً، ولم يكن يفتح إلا باب واحد فى المرة الواحدة وبذلك تحصنت الإسكندرية وأمن أهلها الأعداء.

ولما وصل والى مصر مزاحم بن خاقان (٢٥٣ ـ ٢٥٤هـ = ٨٦٧ ـ ٨٦٨م) استطاع أن يشتت هؤلاء الثوار الذين كانوا قد اتخذوا مراكز لهم بين بنا وأبو صير فى الوجه البحرى فأعمل فيهم القتل بالسيف وأغرق آخرين وانهزم من بقى منهم فى الجبال بالصعيد.

اللواتيون والشدة العظمى

ومن الأمور التى يوضحها ساويرس وتساعدنا على فهم الوضع الحقيقى للأمور ما يذكره عن الشدة العظمى التى حدثت أيام الخليفة المستنصربالله الفاطمى (الشدة المستنصرية).

فقد ذكر المؤرخون المصريون مثل ابن ميسر، والمقريزى، وأبى المحاسن ابن تغرى بردى، أن الشدة العظمى كان سببها انخفاض ماء النيل وانتشار الوباء فى مصر حتى انعدمت الغلات من أرض مصر وأكل الناس البغال والحمير والميتة ثم أكل بعضهم بعضا.

ولكن مؤرخ البطاركة يبين أثر القلاقل والفتن فى إيجاد هذه الشدة، فقد عمت الفوضى والحروب بين الجند وخاصة بين السودانية والأتراك، فكانت القاهرة فى يد الجند الترك، وكان الصعيد فى يد الجند السودانية، وكانت الإسكندرية وجزء كبير من الدلتا فى يد فريق آخر من الجند التركية تساعدهم قبائل قيس ولواتة. ويبين ساويرس تسلط اللواتيين، وهى قبائل بربرية الأصل، على الريف ويذكر أنهم ملكوا أسفل الأرض أى الوجه البحرى، وأصبحوا يزرعونه كما يريدون بلا خراج ولم يهتموا بحفر الترع أو عمل الجسور وانفردوا بالزراعة دون غيرهم وامتنعوا عن بيع الغلات، وكانت النتيجة أن رزئت مصر بفترة مجاعة قاربت من سبع سنين عرفت بالشدة العظمى (٤٥٩ ـ ٤٦٥هـ = ١٠٦٦ ـ ١٠٨٢م).

وقد استطاع بدر الجمالى (الارمنى) والى عكا الذى استدعاه الخليفة المستنصر لتولى الوزارة فى مصر، أن يقبض على ناصية الحال فيها فأباد اللواتين من الريف، وسار إلى الصعيد ففتحه ثم عاد إلى مصر وأقام بها ورتب الأمور فيها كما كانت عليه فى السابق.

ويذكر ساويرس أن أميراً عرف بكنز الدولة كان قد ملك الصعيد الأعلى فلما وصل بدر الجمالى إلى مصر هرب كنز الدولة إلى النوبة فأرسل بدر الجمالى رسولا إلى ملك النوبة كى يسلم له كنز الدولة. وقد سلمه الملك لرسول بدر الجمالى الذى قتله وصلبه عند باب الحديد الذى يحدد ساويرس موقعه فيما بين القاهرة المعزية وبين مصر أى الفسطاط أو مصر القديمة.

فكرة الحروب الصليبية

وحين يحدثنا ساويرس عن الصليبيين وقدومهم إلى الشرق لا يعتبر أن هذه الحروب حرب بين المسيحية والإسلام. وإنما ينظر إلى الصليبيين كغزاة أعداء للشرق. ويعلق على امتلاكهم لبيت المقدس بأن الأقباط اليعاقبة سوف لا يستطيعون الحج لإختلافهم والصليبيين فى المذهب الدينى.

المخطوطات الموجودة الآن لكتاب «سيرك البطاركة» تتوزع ما بين محفوظة بالمتحف القبطى تحت رقم (١) تاريخ، وأخرى فى مكتبة البطركية تحت رقم (٣) تاريخ ومخطوطة أخرى تحت رقم (١٥) تاريخ، ومخطوطة بالمكتبة الوطنية فى باريس تحت رقم ٣٠١، ٣٠٢ بالإضافة إلى مخطوطة فى المتحف البريطانى وأخرى بمكتبة الفاتيكان وصورة فوتوغرافية لمخطوطة المكتبة الوطنية بباريس بدار الكتب المصرية تحت رقم «تاريخ ٦٤٣٤ ح».

ولقد عرفت الأوساط الكنسية الأوربية كتاب «سير البطاركة» أول ما عرفته تحت اسم التاريخ اللاتينى للكنيسة القبطية» الذى كان قد نشره المستشرق الفرنسى يوساب رينوده وطبع فى باريس فى القرن الثامن عشر (حوالى عام ١٧١٣م) تحت اسم «تاريخ بطاركة الإسكندرية» Historia Patriarcharum Alixandrinorum 4: Paris, 1713.

ولكن يعيب ما فعله هذا العالم الكبير إنه لم يستطع أن يترجم كل ما فى مخطوط الكتاب والذى يحتوى على كم هائل من المعلومات المتعلقة بمعتقدات الكنيسة المصرية وشعائرها. وما يتعلقى بالعلاقات الاجتماعية بين الحكام المسلمين والأقباط، والحالة المزاجية لهؤلاء الأقباط وكذلك التاريخ العام لمصر.

وقد نشر المستشرق إفتس B.Evetts كتاب ساويرس بعنوان «سير الآباء البطاركة» أو «تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية فى الإسكندرية» ضمن مجموعة Patrologia Orientalis أى كتابات «آباء الكنيسة فى الشرق»، وذلك فى الجزء الأول من هذه المجموعة الذى نشر فى باريس عام ١٩٠٧م، والجزء الخامس، باريس عام ١٩١٥م.

وتولت جمعية الآثار القبطية، مشكورة، نشر الأجزاء الباقية من هذا الكتاب بمعاونة الأستاذ يسى عبدالمسيح أمين مكتبة المتحف القبطى سابقاً.

ونشرت الجمعية القبطية هذا الكتاب بعنوان «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروفة بسير البيعة المقدسة». واعتمد الناشرون على مخطوطة محفوظة بالمتحف القبطى، وعلى مخطوطة ثانية بمكتبة دار البطركية القبطية.

ونشرت الجمعية القبطية، الجزء الأول من المجلد الثانى فى القاهرة عام ١٩٤٣، ثم ظهر الجزء الثانى، من المجلد الثانى فى القاهرة عام ١٩٤٨م، ونشر أخيراً الجزء الثالث من المجلد

الثانى فى القاهرة ١٩٥٩م. ثم تتابعت إصدارات بقية أجزاء المخطوط حتى اكتملت بصدور المجلد الرابع عام ١٩٧٤م.

ولإعداد وضبط وانتخاب نص هذا الكتاب قمت بالإطلاع على المخطوطة المصورة من المكتبة الأهلية بباريس والموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤٣٤ح فى أربعة مجلدات وكذلك مخطوطاته الموجودة بالمتحف القبطى بالقاهرة باعتبارها الأصل فى التحقيق، وهى فى أربعة أجزاء الأول والثانى فى مخطوط تحت رقم ١ أ تاريخ (٩٣عام) باسم تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين ومن أتى بعده من المؤرخين، يحتوى على السير من مارمرقس إلى البابا شنودة الأول (الخامس والخمسين)، بمقدمة. نسخ فى القرن الثالث عشر الميلادى. عدد صفحاته ١٣٣ ورقة، عدد أسطر الورقة حوالى ٢٦ سطرا، قياس الورقة ٢٤ × ١٥ سم، بأوله حاشية مطالعة بالخط الكرشونى والعربى.

أما الجزءان الثالث والرابع ففى مخطوط تحت رقم ١ ب تاريخ (٩٤عام) بنفس الاسم السابق. وهو يحتوى السير من البابا خايال (البطرك ٥٦) إلى الباب كيرلس الخامس ـ (البطرك ١١٢)، يبتدىء من الورقة ١٣٣ إلى الورقة ٢٣٣. رممه وأكمل السير من البابا كيرلس الثالث (البطرك ٧٥) إلى الآخر، مرقس بن يوحنا جرجس سميكة باشا سنة ١٨٩٨م بخطه عن نسخة بالدار البطريركية، وذيله بجدول تاريخ البطاركة. مقاس الورقة ٢٤ × ١٥ سم عدد أسطرها من ٢٠ إلى ٢٦ سطرا.

وبعد أن أعددت من هذه المخطوطات نص كتاب تاريخ البطاركة أضفتُ إليه بعض الكلمات والعبارات وضعتها بين قوسين هكذا [ ]، إما للإيضاح، أو لإضافة يستدعيها السياق، وإما لأستكمال حروف كلمات المتن.. وأستخدمتُ علامات الترقيم ليسهل قراءة المتن، ووضعت عناوين جانبية، إضافة للمتن للكشف عما يتناوله من أحداث وغيرها.

كما قسمت المتن إلى فقرات، ووضعت له هوامش لشرح معنى بعض الكلمات أو معادلة التواريخ القبطية بالميلادية.

وقد أضفت إلى المتن المحقق للمخطوط (الموجود أعلى صفحات هذا الكتاب) الوقائع التاريخية المواكبة له (فى أسفل صفحات الكتاب)، وبهذا نحصل على متابعة إضافية لتاريخ مصر تمتد لأكثر من ألفى عام (منذ الإحتلال الرومانى وحتى عصرنا الحديث).

مقدمات تاريخية

(١) الإسكندر الأكبر وأسرته

الإسكندر الثالث (الأكبر)[١]	ملكا	٣٣٢	٣٢٣
فيليب أرهيدايوس (أخو الإسكندر)	ملكا	٣٢٣	٣١٧
الإسكندر الرابع (ابن الإسكندر الأكبر)	ملكا	٦/٣١٧	٣١٠[٣٠٥/ ٤][٢].

الملوك البطالمة

بطلميوس الأول	والياً	٣٢٣	٣٠٥/ ٤
(سوتير[٣]	ملكا[٤]	٣٠٥/ ٤	

(١) غزا الإسكندر الثالث (الأكبر) مصر فى خريف عام ٣٣٢ ق م. ولعله توج فى منف (ممفيس) ملكا على مصر فى آخر عام ٣٣٢. أسس الإسكندرية فى ٢٥ طوبة الموافق ٢٠ يناير عام ٣٣١.

ولكن الأستاذ E.Welles يذهب فى مقال له نشرة فى: The Discovery of Sarapis, Historia, ll, 1962 إلى أن تأسيس الإسكندرية كان فى يوم ٧ أبريل عقب زيارة الإسكندر لواحة آمون، وليس قبل هذه الزيارة (قارن إبراهيم نصحى «تاريخ مصر فى عصر البطالمة» جـ٢، ص٢٨٢، حاشية ٣). كما يذهب الأستاذ ولز إلى أن الإسكندر هو الذى أمر ببناء معبد سرابيس فى الإسكندرية.

ـ توفى الإسكندر فى بابل يوم ١٣ يونيو ٣٢٣. وفى رأى حديث آخر أن اليوم الذى توفى فيه الإسكندر وهو ٢٩ من شهر دايسيوس Daisios (المقدونى) يوافق مساء يوم ١٠ أى بداية يوم ١١ يونيو عام ٣٢٣ (لأن اليوم وفقا للتقويم المقدونى يبدأ فى المساء بينما يبدأ اليوم فى التقويم المصرى مع طلوع النهار.

(٢) قتل الإسكندر الرابع (ابن الإسكندر الأكبر من روكسانة) فى عام ٣١٠. ومع ذلك فقد ظلت الوثائق (الديموطيقية) فى مصر تؤرخ باسمه إلى ما بعد موته تأريخا صوريا حتى سنة ٣٠٥/ ٤ ق م، وهى السنة التى اتخذ فيها بطليموس الأول (سوتير) لقب ملك (basileus) بصفة رسمية بدلا من لقب ساترابيس (Satrapês) أى والى نائب عن الملك.

(٣) خلع أهل رودس على بطلميوس الأول لقب «سوتير» (المنقذ) بعد عام ٣٠٤ وفقا لرواية ديودور الصقلى (ك. ٢٠ ـ ١٠٠ ـ ٤) ورواية باوسنياس (ك١ ـ ٨ ـ ٦). لكن يبدو أن هذا اللقب (لقب الإله المنقذ) خلع عليه قبل اتخاذه لقب «ملك» بصفة رسمية، أى بين سنتى ٣٠٨، ٣٠٦، وذلك وفقا لما يفهم من نقش عثر عليه فى هليكرناسوس بآسيا الصغرى.

(٤) اتخذ بطلميوس الأول لقب «ملك» بصفة رسمية فيما بين ٧ نوفمبر ٣٠٥، ٦ نوفمبر ٣٠٤، أن لم يكن بين ٧ نوفمبر ٣٠٥، ١ فبراير ٣٠٤. وبينما يفضل الأستاذ «سكيت» التاريخ الأخير، يرجع باحث حديث (الن صامويل) أن بطلميوس الأول أعلن نفسه ملكا فى يوم ٧ نوفمبر ٣٠٥ الذى كان فى ذلك الوقت يوافق أول توت، رأس السنة المصرية. حيث يتضح أيضا أن شهر «دايسيوس» المقدونى كان ـ=

٢٨٣/ ٢(٥)

بطلميوس الثانى	مشتركا (مع أبيه)(٧)	٢٨٥/ ٤	٢٨٣/ ٢
(فيلادلفوس)(٦)	منفردا(٨)	٢٨٣/ ٢	٢٤٦

=فيما يبدو ـ يقابل شهر أكتوبر/ نوفمبر. وقد ظل الأمر كذلك حتى عهد يورجتيس الثانى حين قوبلت (بين سنتى ١٣١/ ١٣٠ ـ ١١٩/ ١١٨) الشهور المقدونية بالشهور المصرية وصار ديوس يوافق توت، أول شهر في السنة المصرية. ويلاحظ أيضا أن بداية أى شهر مقدونى توافق دائما يوم ٢١ من الشهر المصرى.
ـ وبعد مضى سنوات من حكمه كملك، رأى بطلميوس الأول أن يضيف سنوات حكمه كوال عند حساب مدة حكمه، وأرجع بداية حكمه (صوريا) إلى يوم وفاة الإسكندر الأكبر، أى إلى يوم ٢٩ من شهر دايسيوس Daisios (المقدونى) عام ٣٢٣ الموافق ١٠/ ١١ من شهر يونيو عام ٣٢٣. وبذلك يصبح المجموع الكلى لسنوات حكمه (كوال وملك) ٤١ عاما، وكملك فقط ٢٣ عاما. ولدينا وثائق (كلها يونانية) مؤرخة بعام ٤١ من حكمه لكن ذلك لا يظهر في الوثائق الديموطيقية لأن الكتبة المصريين لم يرجعوا ببداية حكمه إلى عام ٣٢٣، بل حسبوها ابتداء من تاريخ إعلانه نفسه ملكا فى نوفمبر ٣٠٥/ ٤.

(٥) تاريخ وفاة بطلميوس الأول غير معروف على وجه التحقيق. لكنه توفى بعد سنتين (وبضعة أشهر) من إشراكه لابنه معه فى الحكم، أى أنه توفى فى عام ٢٨٣/ ٢، وربما بين يناير ومارس عام ٢٨٢ على وجه أكثر تحديداً.

(٦) بطلميوس الثانى (فيلادلفوس) هو ابن بطلميوس الأول (سوتير) من زوجته الثانية برنيقى (Berenicê). وقد ولد فى يوم ٢٤ من شهر ديستروس (Dystros) المقدونى الموافق ٢١ مارس عام ٣٠٩، فى جزيرة قوس (Côs) قرب ساحل آسيا الصغرى.

(٧) أشرك سوتير ابنه بطلميوس الثانى معه فى الحكم بمناسبة عيد ميلاد (هذا الابن) الخامس والعشرين فى يوم ٢١ مارس عام ٢٨٥.

(٨) حسب بطلميوس فيلادلفوس سنوات حكمه إبتداء من عام ٢٨٣/ ٢ الذى انفرد فيه بالحكم عقب وفاة أبيه. لكن بعد مضى سنوات من حكمه، وفى عام ٢٦٧ على وجه التحديد، قرر ـ كما فعل أبوه من قبل ـ (ولسبب لا نعرفه) إرجاع بداية حكمه إلى سنة إشتراكه مع أبيه فى الحكم، أى إرجاعه إلى ٢١ مارس عام ٢٨٥/ ٤. وكان ذلك فى السنة الـ١٦ من حكمه وبمناسبة عيد ميلاده الثانى والأربعين (٢٤ ديستروس = ٢١ مارس عام ٢٦٧). وبذلك أصبح ٢١ مارس عام ٢٦٧ بداية السنة الـ١٩ من حكمه (وفقا للحساب الجديد) وليس بداية للسنة الـ ١٦ من حكمه. وهكذا صار يوم عيد ميلاده (genethlia) ٢١ مارس يوافق يوم عيد جلوسه على العرش (basileia) [كشريك لأبيه فى الحكم] فى يوم ٢١ مارس. ويلاحظ أن عيد الميلاد (والجلوس على العرش) لم يكن يحتفل به سنويا فقط، بل شهريا (فى نفس اليوم ٢١). وكان هذا تقليدا مقدونيا. ويلاحظ أيضا أنه نتيجة للتأريخ بأثر رجعى صارت سنة الحكم المقدونية متقدمة على السنة المصرية بمعنى أن السنة المصريية الثالثة ـ مثلا ـ كانت تقابلها السنة المقدونية الرابعة. كذلك كانت الحال فى عهد بطلميوس الثالث.

بطلميوس الثالث (يورجتيس)	ملكا	٢٤٦	٢٢٢/ ١
بطلميوس الرابع (فيلو باتور)	ملكا	٢٢١	٢٠٥
بطلميوس الخامس (إيفانيس)[٩]	ملكا	٢٠٥/٤	١٨٠
بطلميوس السادس (فيلوميتور)	منفردا	١٨٠	١٧٠
	مشتركا	١٧٠	١٦٤[١٠]

(مع أخويه):

بطلميوس الثامن وكليوبترة الثانية

مشتركاً (مع أخته):	١٦٣	١٤٥

كليوبترة الثانية

بطلميوس السابع	مشتركاً (مع أبيه)[١١]	١٤٥

(٩) زوجة إيبيفانيس هى كليوبترة (الأولى) وأم فيلوميتور. وجدير بالذكر أن حجر رشيد (Rosetta Stone) يرجع إلى عهد إبيفانيس، إذ يحمل تاريخ ٢٧ مارس عام ١٩٦. والحجر مدون عليه قرار أصدره الكهنة المصريون فى اجتماع عام فى منف (Memphis) وهو مكتوب بصورتين أو خطين من اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية والديموطيقية) مع ترجمة باللغة اليونانية. وكان هذا الحجر اكتشفه رجال الحملة الفرنسية فى بلدة رشيد عام ١٧٩٩، واستولى عليه الإنجليز عام ١٨٠١ وأودعوه المتحف البريطانى.

(١٠) فى عام ١٧٠ رأى البلاط البطلمى تدعيما للحكم (ربما بمناسبة غزو أنطيوخوس الرابع أيفانيس لمصر أن يتخذ إجراء ـ لا مثيل له من قبل ـ وهو أن يشرك مع فيلوميتور فى الحكم أخاه الأصغر بطلميوس (الثامن) وأخته ـ وهى زوجته أيضا ـ كليوبترة (الثانية). وبمناسبة هذا التغيير رؤى أيضا تغيير حساب سنوات الحكم فأصبح عام ١٧٠ ـ وهو السنة الثانية عشرة من حكم فيلوميتور وحده ـ يعتبر أيضا السنة الأولى من حكم الأخوة الثلاثة المشترك. ويسود الاضطراب السنوات الأولى من هذا الحكم المشترك، وطريقة التاريخ ليست موحدة أو متناسقة فى مختلف أنحاء الوادى. ولعل هذا يرجع إلى الغزو السورى وإلى النزاع الذى احتدم أواره بين فيلوميتور (وزوجته كليوبترة الثانية) من ناحية وبين أخيهما بطلميوس (الثامن) من ناحية أخرى، فقد انحاز الإسكندريون إلى جانب فيلوميتور وكليوبترة الثانية ضد بطلميوس (الثامن)، ومن ثم بدأت كراهية الأخير للإسكندريين وبخاصة أقطاابهم وتنكيله بهم، وثورتهم ضده وتمردهم عليه. كذلك انحاز اليهود ـ فيما يروى إلى فيلوميتور وأخته كليوبترة الثانية ضد بطلميوس (الثامن) مما أثار الأخير عليهم وبدأ فى اضطهادهم كالإسكندريين سواء بسواء.

وقد طرد بطلميوس فيلوميتور من عرشه فترة امتدت من أكتوبر ١٦٤ إلى ما قبل ٢٩ مايو ١٦٣. ويبدو أن أخاه الأصغر بطلميوس (الثامن) انفرد بالحكم فترة قصيرة تقع بين أبريل ومايو ١٦٣.

(١١) حكم نيوس فيلوباتور (أى فيلوباتور الجديد) مشتركا مع أبيه من ربيع إلى خريف عام ١٤٥ (الموافق ٣٦ من حكم أبيه فيلوميتور). وتوفى أبوه قبل ١٩ سبتمبر ١٤٥. لكن نيوس فيلوباتور لا يظهر هو الآخر=

(نيوس فيلوباتور)			
بطلميوس الثامن	منفردا[١٢]	١٤٥	١١٦
(يورجتيس الثانى)			

= بعد ذلك التاريخ. وفى أكبر الظن أنه قتل. ولعل هو ذلك الابن (ابن فيلوميتور وكليوبترة الثانية) الذى تخلص منه بطليموس الثامن ولم يلبث هذا الأخير أن تولى العرش فى نفس العام منفردا بالحكم. ولقد لقب نفسه يورجتيس (الثانى) أى «الخير» أو «المحسن»، ولقبه الإسكندريون ـ نظرا لسمنته المفرطة ـ بالبدين .

(١٢) تزوج بطلميوس الثامن مرتين، الأولى من أخته كليوبترة الثانية (وهى أرملة أخيه فيلوميتور) فى عام ١٤٤ (أى بعد انفراده بالحكم). لكن لم يلبث أن نشب بينهما صراع رهيب على السلطة، وساءت بينهما العلاقة. لذلك تزوج فى عام ١٤٢ مع ابنتها كليوبترة الثالثة (التى كانت قد أنجبتها من أخيها وزوجها فيلوميتور). وبذلك يكون قد تزوج أولا من أرملة أخيه (وهى أخته أيضا) المسماة كليوبترة الثانية، وبعدئذ تزوج من ابنتها كليوبترة الثالثة التى كان هو عمها وخالها فى الوقت نفسه. ولا ندرى إذا كان قد طلق كليوبترة الثانية عندئذ. لكنها ظلت تحكم معه بلقب «الملكة كليوبترة الأخت»، بينما لقب ابنتها كليوبترة الثالثة (التى تزوجها يورجتيس الثانى) «بالملكة كليوبترة الزوجة».
كيف رضيت كليوبترة الثانية أن تعيش على هذا الوضع؟ ربما بدافع حب السلطة والتمسك بلقب ملكة.
وقد كان لها ابنة أخرى (من أخيها فيلوميتور) اسمها كليوبترة نيا، وقد تزوجت ديميتريوس ملك سوريا.
ودبرت مقتله، وقتلت أحد أبنائها، وحاولت قتل الآخر عندما اعترضوا سبيل طموحها.
وقد أنجب يورجتيس الثانى من كليوبترة الثانية (أثناء تتويجه فرعونا فى منف عام ١٤٤) ابنا فلقب بالمفيسى (Memphites) بهذه المناسبة. وعندما ثار الإسكندريون عليه بتدبير من كليوبترة الثانية، واضطر إلى الفرار مع زوجته كليوبترة الثالثة إلى قبرص (١٣١ ـ ١٣٠)، انتقم من كليوبترة الثانية بأن قتل ابنها منه «ممفيس» الذى كان قد أخذه معه إلى المنفى، ومزقه أربا ووضع أشلاءه فى صندوق بعث به إلى كليوبترة فى الإسكندرية كهدية عيد ميلاده. ولم يكن هذا الابن الذى قتل بيد أبيه وهو فى سن الرابعة عشر، هو الابن الوحيد الذى أنجبه يورجتيس الثانى من أخته كليوبترة الثانية، إذ يبدو أنه أنجب ابنا آخر (ربما فى عام ١٤٢).
وتؤرخ ثورة كليوبترة الثانية بتأييد من الإسكندريين ضد زوجها يورجتيس الثانى بعام ١٣١ ـ ١٣٠ وقد أعلنت نفسها ملكة بلقب «كليوبترة فيلوميتور سوتيرا» لكنه لم يلبث أن عاد من منفاه فى قبرص بالقوة المسلحة، وطرد كليوبترة الثانية التى لجأت إلى زوج ابنتها ملك سوريا فى أنطاكية. ولم يلبث أن عاد الوئام بينهما فعادت إلى الإسكندرية حوالى عام ١٢٤. وفى الحق أن هذه السنوات (٢٣١ ـ ١١٨) هى سنوات حافلة بالاضطرابات وقد سميت بسنوات انقطاع الاتصال أو الفوضى (amixia).
كذلك أنجب يورجتيس الثانى من كليوبترة الثالثة أبناء من بينهم كليوبترة الملقبة بكليوبترة تريفانا (Tryphaena) وكليوبترة «الرابعة» وكليوبترة سيلينى (Selênê) هذا عدا من أنجبهم من محظياته (مثل ايرينى Eirênê) وقد نصب أحد هؤلاء الأبناء غير الشرعيين (وهو بطلميوس أبيون) ملكا على مدينة قورينة (ومكانها الآن بلدة الشحات فى برقة).
ـ وقد توفى يورجتيس الثانى فى ٢٨ يونيو ١١٦. وماتت عدوته اللدود كليوبترة الثانية فى العام نفسه (قبل ١٩ أكتوبر عام ١١٦).

كليوبترة الثالثة[١٣]	مشتركة مع أبنيها:		
	بطلميوس التاسع[١٤]	١١٦/ ١٥	١٠٧
	وبطلميوس العاشر	١٠٧	١٠١
بطلميوس العاشر	مشتركا مع زوجته:	١٠١	٨٨
(الإسكندر الأول)[١٥]	كليوبترة برينيقى[١٦]		
بطلميوس التاسع	منفردا	٨٨	٨١
(سوتير الثانى)[١٧]	(بعد العودة من المنفى)		
كليوبترة برينيقى[١٨]	منفردة	٨٠	
بطلميوس الحادى عشر	منفردا	٨٠	
(الإسكندر الثانى)[١٩]			

---

(١٣) كليوبترة الثالثة هى ـ كما ذكرنا ـ الزوجة الثانية ليورجتيس الثانى. وكانت تؤثر ابنها بطلميوس العاشر (الإسكندر الأول) على أخيه بطلميوس التاسع (سوتير الثانى).
وكانت تلقب بالملكة الربة الخيرة أو «بالملكة كليوبترة الربة أفروديتى الخيرة الشهيرة بفيلوميتور) أى محبة أمها.
وقد ماتت كليوبترة الثالثة قبل ٢٦ أكتوبر عام ١٠١.

(١٤) طرد بطلميوس التاسع (سوتير الثانى) الملقب لاثيروس (Lathyros) (أى الحمص) ثلاث مرات:
من آخر ١١٠ إلى أول ١٠٩، ثم بضعة أشهر أثناء عام ١٠٨، وأخيرا من قبل خريف ١٠٧ حتى ٨٨.

(١٥) مات بطلميوس العاشر (الإسكندر الأول) عام ٨٨ (قبل يوم ١٤ سبتمبر).

(١٦) كليوبترة برينيقى (Cleokpatra Berenice) هى برينيقى (الثالثة). وفى رأى البعض أنها ابنة بطلميوس التاسع (سوتير الثانى) من زوجته كليوبترة الرابعة (ابنة يورجتيس الثانى)، وفى رأى البعض الآخر أنها ابنة سيلينى (ابنة يورجتيس الثانى الصغرى) وقد تزوجها عمها بطلميوس العاشر (الإسكندر الأول) وتلقب بالملكة برينيقى الربة محبة أخيها (Thea Philadelphus) لكنها تلقب هى وزوجها معا بالالين المحبين لأمهما (Theoi Philomêtores).

(١٧) عاد بطلميوس التاسع (سوتير الثانى) من المنفى إلى العرش عقب وفاة أخيه الإسكندر الأول مباشرة فى خريف عام ٨٨. وكان قد نفى (للمرة الثالثة) على نحو ما ذكرنا قبل خريف ١٠٧.

(١٨) مات سوتير الثانى حوالى مارس عام ٨٠. وحكمت كليوبترة برينيقى حوالى ستة شهور أثناء ذلك العام.

(١٩) خلف بطلميوس الحادى عشر (الإسكندر الثانى) الملكة كليوبترة برينيقى على العرش وحكم ١٩ يوما فقط أثناء عام ٨٠.

بطلميوس الثانى عشر (نيوس ديونيسوس)[٢٠]	منفردا	٨٠	٥٨
برينيقى الرابعة[٢١]	مع كليوبترة تريفاينى[٢٢]	٧/٥٨	٥٦
	مع أرخيلاوس[٢٣]	٥٦	٥٥
بطلميوس الثانى عشر	منفردا	٥٥	٥٢
(نيوس ديونيسوس)	(بعد العودة من المنفى مع ابنيه:[٢٤] كليوبترة السابعة وبطلميوس الثالث عشر	٥٢	٥١
كليوبترة السابعة (فيلوباتور)[٢٥]	مع أخيها بطلميوس الثالث عشر[٢٦]	٥١	٤٧ =

(٢٠) طرد بطلميوس الثانى عشر (نيوس ديونيسوس) الملقب بأوليتيس (Aulêtês) أى «الزمار» من عام ٥٨ (بعد ٧ سبتمبر) إلى عام ٥٥ (قبل ٢٢ أبريل).

(٢١) برينيقى الرابعة هى ابنة بطلميوس «الزمار» الكبرى من زوجته كليوبترة تريفاينا. (Cleopatra Tryphaena) وقد قتلها أبوها بعد عودته من المنفى.

(٢٢) ليس من المعروف إذا كانت كليوبترة تريفاينا هذه هى زوجة بطلميوس «الزمار» أم ابنته التى كانت تحمل نفس الاسم.

(٢٣) أرخيلاوس (Archelaus) بن أرخيلاوس أحد قواد متريداتيس، ملك بنطوس؛ وقد انحاز إلى الرومان قبل الحرب المتريداتية الأخيرة. وقد أدعى أرخيلاوس الأصغر أنه ابن متريداتيس نفسه. وقد جىء به إلى الإسكندرية ليتزوج برينيقى الرابعة.

(٢٤) اشترك الابنان فى الحكم مع أبيهما ابتداء من ٥ سبتمبر ٥٢.

(٢٥) كليوباترة السابعة (فيلوباتور) ـ أى محبة أبيها ـ هى كليوباترة الشهيرة، آخر ملكات مصر البطلمية. وكان عمرها ١٨ سنة عند وفاة أبيها (بين فبراير ومارس ٥١). وأما أخواها فكان أحدهما عمره ١٠ والآخر ٨. وكان لها أخت أصغر منها هى أرسينوى «الرابعة» وعمرها عندئذ يتراوح بين ١٤، ١٧ سنة.

(٢٦) استبعدت كليوبترة أخاها بطلميوس الثالث عشر لفترة مؤقتة بعد ستة أشهر فقط من موت أبيها خلال عام ٥١.

ـ ثم عادت واستبعدته بصفة نهائية فى السنة الثالثة من حكمها (سبتمبر ٥٠ ـ سبتمبر ٤٩)، وأحلت مكانه أخاها بطلميوس الرابع عشر. ونتيجة لهذا التغيير الجوهرى أعادت نظام حساب سنوات حكمها فأصبحت السنة الأولى من حكمها تسمى أيضا بالسنة الثالثة. ويلاحظ أن اسمها يرد دائما سابقا على أسم شريكها.

ـ وهناك وثيقة أخرى مؤرخة بيوم ٢٧ أكتوبر عام ٥٠ فى عهد ملك غير مسمى وملكة غير مسماة. ومن المرجح أن الملك هنا هو بطلميوس الثالث عشر وأن الملكة أما كليوبترة السابعة متنازلة لأخيها ـ بمقتضى تسوية معينة ـ عن مركز الصدارة بحيث يرد اسمه سابقا على اسمها فى تاريخ الوثائق، أو أن تكون=

مع أخيها بطلميوس الرابع عشر(٢٧)	٤٧	٤٤
منفردة(٢٨)	٤٤	٣٦
مع ابنها بطلميوس قيصر(٢٩)	٣٦	٣٠
ـ سقوط الإسكندرية فى يد أكتافيانوس(٣٠)	٣ أغسطس	٣٠
ـ إنتحار كليوبترة(٣١)	١٢ أغسطس	٣٠
ـ بداية الحكم الرومانى فى مصر(٣٢)	٣١ أغسطس	٣٠ ق م

=الملكة هنا (كما يقترح الأستاذ سكيت) هى أرسينوى «الرابعة» أختها الصغيرة، وذلك فى الفترة التى طردت فيها كليوبترة من الإسكندرية ولجأت إلى شرق الدلتا قبل اغتيال بومبى [فى ٢٨ سبتمبر ٤٨ وفقا للتقويم الرومانى غير المنقح = ٢٤ وليو وفقا لتقويم يوليوس] ببضعة شهور، أى فى الشطر الأخير من سنة حكمها الثالثة (سبتمبر ٥٠ ـ سبتمبر ٤٩) وأوائل سنة حكمها الرابعة (سبتمبر ٤٩ ـ سبتمبر ٤٨)، ولعلها كانت قد طردت منذ ٢١ يناير ٤٨.

وقد مات بطلميوس الثالث عشر غريقا أثناء معركة النيل قبل عام ١٥ يناير عام ٤٧.

(٢٧) قتلت كليوبترة السابعة أخاها الأصغر بطلميوس الرابع عشر فى تاريخ يقع بين ٢٦ يوليو و٢ سبتمبر من عام ٤٤ ق م (أى فى نهاية السنة الثامنة من حكمها، والسنة الرابعة من حكمهما المشترك.

(٢٨) يظهر بطلميوس قيصر مع أمه كليوبترة كشريك لها فى الحكم لفترةقصيرة خلال عام ٤١.

(٢٩) أنجبت كليوبترة ابنها بطلميوس قيصر (وهو بطلميوس الخامس عشر) آخر ملوك البطالمة، من يوليوس قيصر، الدكتاتور الرومانى، أثناء وجوده فى مصر من أكتوبر ٤٨ حتى مايو أو يونيو ٤٧ .ولد يوم ٢٣ يونيو عام ٤٧. وقد أطلق عليه الإسكندريون لقب قيصرون (Caesarion) أى «قيصر الصغير» وقد أشركته معها فى الحكم بصفة مستديمة فى السنة الـ١٦ من حكمها.

وعن المدة التى قضاها قيصر فى مصر، انظر: عبداللطيف أحمد على «التاريخ الرومانى: عصر الثورة (١٩٦٧) ص٢٧٢، حاشية ٢.

(٣٠) سقطت الإسكندرية فى يد أكتافيانوس يوم ٨مسرى عام ٣٠ ق م. وكان يوم ٨ مسرى يوافق أول الشهر السادس (Sextilis) عند الرومان (وكان يسمى «السادس» لأن السنة كانت عندهم تبدأ أصلا فى مارس). وهذا الشهر «السادس» هو الذى سمى فيما بعد (عام ٢٧ ق م) بشهر أغسطس تكريما لاكتافيانوس الذى خلع عليه السناتو هذا اللقب (Augustus) ـ بمعنى الجليل أو العظيم ـ فى يناير عام ٢٧ ق م، تاريخ ميلاد الحكم الإمبراطورى. كان يوم ٨ مسرى إذن يوافق (فى السنوات غير الكبيسة) أول أغسطس، طبقا للتقويم الرومانى المعمول به وقتئذ من الناحية الواقعية، ولكنه كان يوافق يوم ٣ أغسطس طبقا «لتقويم يوليوس» النظرى المثالى الذ كان متبعا عند المؤرخين.

(٣١) لا يعرف أحد عن يقين متى انتحرت كليوبترة بالتحديد. لكن الأستاذ سكيت حاول أن يثبت أنها انتحرت فى يوم ١٧ مسرى الموافق ١٢ أغسطس عام ٣٠ ق م.

(٣٢) لا تاريخ سقوط الإسكندرية يوم ٨ مسرى الموافق ١ أغسطس (حسب التقوييم الرومانى المعمول به) أو الموافق ٣ أغسطس (حسب تقويم يوليوس النظرى المتبع عند المؤرخين) ولا تاريخ انتحار كليوبترة =

واختتم ثبت الملوك البطالمة بالملاحظات الآتية:

اتضح من إحدى البرديات الديموطيقية (P.Dem. Carlsberg,9) وجودة دورة قمرية مداها ٢٥ سنة بمعنى أن التقويم المقدوني (وهو تقويم قمرى) يحتاج إلى إضافة سنتين كل خمس وعشرين عاما لكى يتفق زمنياً مع التقويم الشمسى. وكان عام ٢٥٧/ ٦ ق م هو بداية الدورة القمرية الثانية مما يدل على أنها قد اتبعت منذ حوالى عام ٢٨٣ (قبل السنة الأربعين من حكم بطلميوس الأول سوتير). وعلى أى حال فمن المرجح الآن أنه للتوفيق بين السنة المقدونية القمرية والسنة الشمسية كان يضاف منذ عام ٢٨٠/ ٢٧٩ (وهو العام السادس من حكم فيلادلفوس) شهر مرة كل سنتين إلى السنة المقدونية. ويسمى بالشهر الكبيسى أو الإضافى أو النسىء (embolimos) وكان يضاف بعد شهر بريتيوس، وهو آخر شهر فى السنة المقدونية وقتئذ (حيث أن ديستريوس كان يوافق توت). ويسمى عندئذ Peritiosembolimos (بريتيوس الإضافى أو النسىء). ومن الجائز أن هذا النظام اتبع ـ كما ذكرنا ـ منذ آخر عهد بطلميوس الأول.

ـ ويتبين من قرار كانوب (OGIS, 56) أن بطلميوس الثالث (يورجتيس الأول) حاول

= يوم ١٧ مسرى الموافق ١٢ أغسطس عام ٣٠ ق م، لا هذا التاريخ ولا ذاك اتخذ كبداية رسمية للحكم الرومانى فى مصر. ذلك أن اكتافيانوس لاحظ أن السنة المصرية تبدأ يوم ١ توت الموافق ٢٩ أغسطس (من الناحية الواقعية) والموافق ٣١ أغسطس (من الناحية النظرية). لهذا رأى أن يتغاضى عن أيام شهر أغسطس الواقعة بين التاريخين المتقاربين (٣ أغسطس، ٣١ أغسطس) حتى لا يجعل للسنة الأولى من حكمه بدايتين متقاربتين، وأن يتخذ من بداية السنة المصرية وهى أول توت (الموافق ٢٩ أغسطس واقعيا، ٣١ أغسطس نظريا) أن يتخذ منها بداية رسمية لحكمه فى مصر.ومعنى هذا أنه قرب أو وفق بين تاريخ سقوط الإسكندرية ورأس السنة المصرية. وهكذا اعتبر يوم ٣١ أغسطس عام ٣٠ ق م هو البداية الرسمية للحكم الرومانى فى مصر، وذلك طبقا «لتقويم يوليوس» النظرى الذى كان يتبعه المؤرخون القدامى (ولو أن ١ توت يوافق ٢٩ أغسطس طبقا للتقويم الرومانى المستعمل فعلا فى ذلك الوقت، ويوافق ٣٠ أغسطس فى السنوات الكبيسة).

ويبقى بعد ذلك سؤال: من الذى كان يحكم مصر من ١ أو ٣ أغسطس حتى ٢٩ أو ٣١ أغسطس عام ٣٠ ق م؟ كان اكتافيانوس هو الحاكم من الناحية الواقعية. لكن كليوبترة كانت لا تزال ـ من الناحية النظرية ـ هى الملكة الحاكمة على الأقل حتى انتحارها فى يوم ١٢ أغسطس عام ٣٠ق م. ولهذا قيل أنها أكملت السنة الثانية والعشرين من حكمها (الذى بدأ فى سبتمبر عام ٥١) يوم ٥ نسىء (آخر يوم فى السنة المصرية) الموافق ٢٨ أغسطس (عام ٣٠ ق م). وفى رأى كاتب قديم (كليمنتس السكندرى) أن أبناءها حكموا مدة ١٨ يوما (من ١٢ إلى ٢٩ أغسطس عام ٣٠ ق م).

إصلاح التقويم المصرى، وربما أيضا تعديل نظام الدورة القمرية. لكن ذلك لم يتم، بل أن نظام الدورة القمرية الذى كان متبعا في عهد سلفه بانتظام، لم يتبع فى عهده إلا نادرا. وقد أعترى كلا من التقويمين المصرى والمقدونى الاضطراب، ولم تعد العلاقة بين التقويمين ثابتة أو مطردة، بل شابها التقلب والتناقض. والخلاصة هى أن التقويم فى عهد بطلميوس الثالث لم يحكمه نظام موحد فى كل مكان من مصر أو فى جميع الأوقات، وليس أدل على اضطراب التقويم من عدم إثبات أو اطراد الشهر النسىء (embolimos) فهو تارة يضاف إلى شهر بريتيوس (Peritios) وتارة أخرى إلى شهر هوبربويتايوس (Hyperberetaions) وتارة ثالثة إلى شهر باناموس أو بانيموس (Panemos) وكان الشهر النسىء فى أوائل عهد هذا الملك يضاف بعدئذ إلى السنوات الزوجية. وكانت الوثائق فى عهده تؤرخ أما بسنة الحكم المقدونية أو السنة المصرية أو بما يسمى بالسنة المالية (التى تبدأ من أمشير وتنتهى فى طوبة). وكان من أسباب اضطرابى التقويم - على ما يبدو - عدم الاستقرار على بداية سنة حكمه فكانت سنة حكمه المقدونية تبدأ - بمقتضى طرق مختلفة فى الحساب - فى أوقات مختلفة (ديوس - ديستروس - لويوس)، وإن كانت بدايتها فى شهر ديستروس هى الأرجح.

- ولم تحدث المقابلة أو التوفيق الزمنى بصفة نهائية بين السنة المقدونية والسنة المصرية ألا فى عهد بطلميوس الثامن (يورجتيس الثانى) بين سنتى ١٣١/ ١٣٠ - ١١٩ - ١١٨ على نحو ما ذكرنا وأصبح شهر ديوس (Dios)، وهو أول شهر فى السنة المقدونية، يقابل شهر توت، وهو أول شهر فى السنة المصرية. وقد استقر الأمر على ذلك الوضع حتى نهاية العصر الرومانى. وإليك جدول يبين ذلك ومقابلته مع تقويم يوليوس (أو الجريجورى) المعمول به حاليا:

Dios	= Thôth	(توت)	= 29 Aug.-27 Sept.
Apellaios	= Phaôphi	(بابة)	= 28 Sept .-27 Oct.
Audnaios	= Hathyr	(هاتور)	= 28 Oct.-26 Nov.
Peritios	= Choiach	(كيهك)	= 27 Nov.-26 Dec.
Dystros	= Tybi	(طوبة)	= 27 Dec.-25 Jan.
Xandikos	= Mecheir	(أمشير)	= 26 Tan.-24 Fed.
Artemisios	= Phamenôth	(برمهات)	= 25 Feb.-26 Mar.

Daisios	= Pharmouthi	(برمودة)	= 27 Mar.-25 Apr.
Panêmos	= Pachôn (s)	(بشنس)	= 26 Apr.-25 May.
Loios	= Paüni	(بؤونة)	= 26 May.-24 June.
Gorpiaios	= Epeiph	(أبيب)	= 25 June.-24 July.
Hyperberetaios	= Mesorê	(مسرى)	= 25 July-23 Aug.

ـ ويلاحظ أن السنة المصرية المنتهية بيوم ٢٣ أغسطس كان يضاف إليها ـ لاستكمالها ـ خمسة أيام تسمى بأيام النسيء (epagomenai) تبدأ من يوم ٢٤ أغسطس وتنتهى يوم ٢٨ أغسطس وقد ثبت الإمبراطور اكتافيانوس أغسطس بداية السنة المصرية بأن جعل يوم ١ توت يوافق ٢٩ من شهر أغسطس.

ـ لكن لما كانت السنة المصرية (وهى سنة شمسية) تتألف أصلا من ١٢ شهرا كل منها يشتمل على ٣٠ يوما + ٥ أيام نسيء فإن المجموع الكلى للأيام كان ٣٦٥. معنى ذلك أنها كانت متخلفة عن السنة الشمسية الواقعية بحوالى ربع يوم.

ـ وعلى ذلك فقد قرر الإمبراطور أغسطس أن يزداد عدد أيام النسيء فى السنوات الكبيسة (أى مرة كل أربع سنوات) إلى ستة أيام تبدأ من يوم ٢٤ أغسطس وتنتهى فى يوم ٢٩ أغسطس ومعنى هذا أن السنة الكبيسة تبدأ من يوم ٣٠ أغسطس (ومع هذا فقد تبين من بعض الوثائق البردية أن بعض المصريين كانوا يؤرخون العقود وفقا للسنة المصرية القديمة (Kat'archaious) غير المستقرة (annus vagus) غير حافلين بتنظيم أغسطس).

ـ وقد تعرفنا على السنوات الكبيسة منذ بداية العصر الرومانى، وتبين أنها السنوات ٢٢ ـ ١٨ ـ ١٤ ـ ١٠ ـ ٦ ـ ٢ قبل الميلاد؛ والسنوات: ٣ ـ ٧ ـ ١١ ـ ١٥ ـ ١٩ .. إلخ بعد الميلاد.

ـ وعند مقابلة يوم فى التقويم الجريجورى (يقع قبل شهر Phamenôth برمهات) بنظيره فى التقويم المصرى، يراعى إضافة يوم آخر إلى اليوم الأول وذلك فى السنوات الكبيسة فقط.

ـ وأما فى التقويم المقدونى فكانت السنة قمرية تنقسم إلى ١٢ شهرا أحدها ٣٠ يوما والآخر ٢٩ على التوالى. وقد رأينا كيف طغت عليها السنة المصرية، وكيف قامت محاولات

منذ نهاية القرن الثالث ق م للتوفيق بينهما انتهت عند نهاية القرن الثانى ق م بالمقابلة بينهما بصفة نهائية. ومن الغريب أن التاريخ المقدونى ظل فى بعض الأحيان يوضع قبل التاريخ المصرى (حتى العصر الرومانى) كمجرد تقليد شكلى لا معنى له.

ـ كان تاريخ الوثائق فى العصر البطلمى والعصر الرومانى بسنوات حكم الملوك والأباطرة. وبعد عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥) صار التاريخ بسنوات حكم القناصل. ولما جاء جستنيان قرر فى عام ٥٣٧ أن تؤرخ الوثائق بسنوات حكم الأباطرة أيضا على أن تسبق سنوات القناصل: حيث يقول الأستاذ «بل» أن القنصلية ألغيت على أيام الإمبراطور جستنيان [عام ٥٤١]. لكن نظام القنصلية ـ فى الواقع ـ ظل معمولا به حتى عهد الإمبراطور هرقل [عام ٦١٣] وإن كان المنصب اقتصر على الأباطرة أنفسهم، ولم يعد يتولاه سواهم.

ـ ومنذ عام ٣١٢م كان هناك تاريخ حسب الدورة الضريبية المسماة إندكتيو (indictio). ولكنها لا تصلح لتحديد السنة التى دونت فيها الوثيقة، إلا إذا كان أمكن بمعلومات إضافية تحديد موضع هذه الدورة التى كان مداها ١٥ سنة.





(٢) علاقات مصر البطلمية بروما

تتطور علاقات مصر البطلمية بروما وتتخذ مظهراً يتمثل فى ازدياد اهتمام الرومان بشئون مصر، والتعرف على أحوالها، طمعاً فى ثروتها، وتمهيداً للاستيلاء عليها عندما تسنح الفرصة. ففى عام ١٤٠ ـ ١٣٩ زارت مصر سفارة رومانية على رأسها سكيبيو ايميليانوس (Scipio Aemilianus). وكان سكيبيو، الذى دمر قرطاجة عام ١٤٦ فيما يعرف بالحرب البونية الثالثة، قطباً من أقطاب الرومان، عهد إليه السناتو بمهمة تفقد الأحوال فى ذلك الشرق وتسوية المنازعات القائمة فيها. وقد نزل الإسكندرية حيث استقبله يورجتيس بحفاوة بالغة، ومشى معه من الميناء إلى القصر الملكى وهو يلهث من بدانته. وتروى القصة أن سكيبيو أسر فى أذن بنايتيوس الفيلسوف الرواقى، وأحد رفقائه فى الرحلة، أن مواطنى الإسكندرية مدينون له بشىء واحد وهو أنهم شاهدوا ملكهم يسير على قدميه. ومع أن طبيعة المهمة التى وكلت إليه فى مصر لا تزال غير واضحة، إلا أننا نرجح أنه كان يدخل فى نطاقها توطيد النفوذ الرومانى فيها عن طريق اتصال شخصية كبيرة مثل سكيبيو بعاهلها البطلمى، إلى جانب التعرف على موارد البلاد. فقد تابع سكيبيو جولته فركب النيل حتى ممفيس وشاهد فى الطريق الحقول الفسيحة الخصبة والقرى المتناثرة الآهلة بالسكان. ولا يساورنا الشك فى أنه عاد إلى

روما بتقرير وافٍ كان له أثر فى توجيه سياسة السناتو إزاء مصر. ولم يقتصر الأمر على المهام الرسمية، فتوافدت على مصر شخصيات رومانية فى زيارات لا تتسم فى ظاهرها بأى طابع رسمى. والوثيقة التالية وهى بردية من تبتونيس (Tebtunis) (أم البرجات) بجنوب الفيوم، تنهض دليلاً ساطعاً على مدى اطراد اهتمام السناتو بأحوال مصر وما أحرزته روما من مكانه فى وادى النيل. وهذه الوثيقة الطريفة صورة من خطاب أرسله أحد كبار الموظفين بالإسكندرية إلى موظف آخر من مرءوسيه يدعى اسكليبيادس بمناسبة زيارة أحد أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى لإقليم الفيوم فى مارس من عام ١١٢(١):

من هرمياس إلى حورس، تحية. فيما يلى صورة من الخطاب المرسل إلى اسكليبيادس. فلتعمل على اتباع التعليمات الواردة به. والسلام. السنة الخامسة، كسانديكوس ١٧ الموافق أمشير ١٧ (= ٥ مارس ١١٢).

إلى اسكليباديس لوكيوس مميوس عضو مجلس الشيوخ (الرومانى)، وهو رجل كبير المقام ويشغل منصبا رفيعا سيقوم برحلة (نيلية) من المدينة (الإسكندرية) إلى إقليم أرسينوى (الفيوم) لمشاهدة مناظرة. فلتعمل على استقباله استقبالا بالغ الفخامة، واحرص على إعداد قاعات الضيافة فى الأماكن المناسبة، والانتهاء من تهيئة أماكن النزول إليها، وتقديم الهدايا المذكورة أدناه عند نزوله (من المركب)، وتجهيز أثاث قاعة الضيافة، والطعام لبيتيسوخوس (اله الغيوم) وللتماسيح، وما يلزم للتفرج على اللابيرنت، وكذلك للأضاحى وحفل القرابين. وبالإجمال أبذل أقصى عنايتك فى كل شىء لإرضاء الزائر، وأظهر كل اهتمامك.... [وهنا تنتهى البردية].

ولا تلبث روما أن تكشف القناع عن نواياها الاستعمارية، فتتعمد اختلاق مشكلة أوتتلمس عذراً واهياً للتحكم فى ملوك مصر وفرض مطالبها عليهم. فما أن ارتقى العرش بطلميوس الثانى عشر أوليتيس (Aulêtês) (الزّمار) فى عام ٨٠ حتى بدأت متاعبه التى لم تنته إلا بوفاته. فقد رفضت روما الاعتراف به ملكا شرعياً على مصر، بدعوى أن سلفه بطلميوس الحادى عشر الملقب بالإسكندر الثانى، والذى لم يحكم سوى عدة أيام، كان قد أوصى

---

(1) P.Teot. 33 = Set Pap. II, 416

انظر تصويبات قراءة هذه الوثيقة فى:

A. Wiihelm "Papyrus Tebtunis 33", J.R.S. 27 (1937), PP. 145 - 151.

بمملكته للرومان، وهى وصية لم تثبت صحتها بصورة قاطعة ولا يستبعد أنها كانت مختلقة(١) . وقضى بطلميوس الزمار حياته مدافعاً عن حقه، مريقاً ماء وجهه فى سبيل الحصول على اعتراف الرومان به، فما أن تم له ذلك حتى ثار شعب الإسكندرية فى وجهه فعاش طريداً مرتمياً مرة أخرى فى أحضان زعماء الرومان، ومبدداً ثروة بلاده عليهم، ومستديناً من مرابيهم، كل ذلك حتى يعيدوه إلى عرشه. وظهرت تبعاً لذلك على مسرح السياسة الرومانية «مسألة مصرية» وهى مسألة استغلتها الأحزاب المتطاحنة لتحقيق مآربها وتدعيم مركز زعمائها. وحسب القارىء أن يرجع إلى الشذرات المتبقية من الخطاب الذى ألقاه شيشرون عن الملك الإسكندرى (De rege Alexandrino) بوصفه نصيراً لبومبى ليرى كيف أن الحرص على المصلحة الحزبية وليس الحرص على مصلحة مصر هو الذى دفعه إلى عرقلة مشروع كراسوس الرقيب، ذلك المشروع الذى كان يرمى به إلى فرض الجزية على مصر فى عام ٦٥، أو أن يقرأ فقرات من خطابه ضد مشروع الأراضى (in Legem agrariam) الذى اقترحه روللوس، نقيب العامة، فى ديسمبر من عام ٦٤ بإيعاز من كراسوس ويوليوس قيصر مستهدفاً به ضم مصر إلى ممتلكات الجمهورية واتخاذها قاعدة لمناهضة نفوذ بومبى. فلما استطاع قيصر أن يوفق بين الزعيمين الكبيرين بومبى وكراسوس وفاز بالقنصلية فى عام ٥٩ وألف معهما جبهة ديمقراطية لمناوأة حزب السناتو أو الحزب الأرستقراطى، وهى ما عرفت فى التاريخ باسم «الائتلاف الثلاثى الأول»، حصل بطلميوس على اعتراف رسمى بحقه فى تاج مصر ولقب «بصديق وحليف الشعب الرومانى» بعد أن دفع لأعضاء الائتلاف رشوة ضخمة.

غير أن ذلك لم ينه المسألة المصرية، التى احتدمت من جديد، وأدت فى النهاية ـ مع عوامل أخرى ـ إلى تصدع هذا الائتلاف. ذلك أن مواطنى الإسكندرية ما لبثوا أن ثاروا على بطلميوس الزمار لتفريطه فى قبرص وتعسفه معهم، وأكرهوه على الفرار من المدينة فالتجأ إلى روما ليناشد أصدقاءه هناك مساعدته على استرداد عرشه. وأكرم بومبى وفادته وأنزله بأحد قصوره. ولكنه لم يكد يستقر بالعاصمة الرومانية حتى جاءها فى أعقابه وفد كبير بعث به الإسكندريون ليشكوه إلى السناتو ويناشدوه ألا يعيده إليهم. واحتدمت المناقشات حول «المسألة المصرية»، فقرر السناتو أن يسند إلى لنتولوس سبنثر، قنصل عام ٥٧، الذى كان يتأهب

....

(1) Cf. E. Volterra, "Le Testament de Ptolémée Alexandre II Roi d'Egypte", Bull Inst. d'Eg., 21 (1938 - 39), pp. 67 ff.

للرحيل إلى قيليقية ليتولى حكمها، مهمة إعادة بطلميوس إلى عرشه. غير أن أنصار بومبى بذلوا كل ما فى وسعهم لنقض هذا القرار وتحويل المهمة إليه حتى تتاح له فرصة قيادة أحد الجيوش الرومانية. ولما وجدوا أن الحزب الأرستقراطى يقف حائلا دون تحقيق غايتهم، بحثوا عن وسيلة أخرى. وحدث أن نزلت صاعقة بتمثال الإله جوبيتر فى يناير من عام ٥٦ ـ وهى ظاهرة كانت تعتبر من نذر الشر ـ فعهد السناتو إلى جماعة الكهنة الخمسة عشر باستشارة كتب النبوءات السيبولِّية فيما ينبغى عمله. وأوصت النبوءة بمساعدة بطلميوس ولكنها حذرت من استخدام الجيش لمساعدته. وعندئذ أرغم أحد نقباء العامة الموالين لكراسوس جماعة الكهنة على إذاعة النبوءة دون إذن من السناتو خلافا للعرف المتبع. وبديهى أن كراسوس هو الذى حمل الكهنة على اختلاق النبوءة وأن المناورة الدينية كان يقصد منها إبطال قرار السناتو واستبعاد لنتولوس سبنثر وتزهيد بومبى فى المهمة بعد أن فقدت صفتها العسكرية. ولكن أنصاره نادوا بأنه طالما كانت الحملة العسكرية قد تحولت إلى سفارة دبلوماسية فليس هناك من هو أجدر منه برئاستها نظراً لمكانته وسمعته فى الشرق، وزعموا أن بطلميوس نفسه ـ الذى غادر العاصمة ـ أرسل يقول إنه يفضل أن تتم عودته إلى عرشه على يديه. وكاد بومبى الذى تظاهر بعدم الاكتراث بالموضوع يظفر برئاسة البعثة إلى الإسكندرية لولا معارضة السناتو ومناوأة كلوديوس الزعيم الديماجوجى الذى وقف له بالمرصاد وأوعز إلى الغوغاء بأن يطالبوا بإسناد المهمة إلى كراسوس.

وهكذا اتضح أن الأخير كان ما يزال يحقد على بومبى ويطمع فى الظفر برئاسة البعثة من دونه. وقد أفضى ذلك بداهة إلى توتر العلاقة بين بومبى وكراسوس، عضوى الائتلاف الثلاثى، مما عجل بتصدعه. وأبديت آراء أخرى بشأن المسألة المصرية، فاقترح فريق تأليف وفد من ثلاثة سفراء متساوين فى السلطة لإنجاز المهمة، ونادى فريق آخر بعدم معاونة بطلميوس إطلاقاً. وجدير بالذكر أن شيشرون كان من أنصار إسناد المهمة إلى لنتولوس سبنثر الذى اقترح وهو قنصل إعادة الخطيب الكبير من المنفى. ولما كان بومبى قد تظاهر بعدم الاعتراض عليه، فقد كتب شيشرون إلى لنتولوس بعد رحيله إلى قيليقية، فى مايو عام ٥٦، يقول إن بومبى يقترح أنه ليس هناك ما يمنع من استخدام الجيش لإعادة النظام إلى مصر، وبعدئذ إعادة بطلميوس إلى عرشه بدون الجيش عملا بما جاء فى النبوءة السيبولية. وإزاء هذا التضارب الشديد وضيق الوقت أرجأ السناتو البت فى المسألة المصرية[١] .

---

(١) عن هذه الأحداث راجع:

Cicero, Pro Caelio; ad jam. I, 1,2.4.7; adQ. fr. II, 2.3.4.

ولم يبق هناك من حل «المسألة المصرية» سوى الالتجاء إلى القوة. وبذلك تنتقل علاقات روما بمصر إلى دور التدخل المسلح. فقد تراءى لجابينيوس، والى سوريا فى عام ٥٧، وعميل حكومة الائتلاف الثلاثي، أن يقدم على مغامرة عسكرية مربحة. فقد اتصل ببطلميوس أو اتصل بطلميوس به وهو فى منفاه ووعده بمبلغ ضخم إذا هو أعانه على استرداد عرشه. واستجاب جابينيوس إلى طلبه وترك ولايته دون إذن من السناتو منتهكاً إحدى مواد دستور سلا فى هذا الصدد. واقتحم مصر فى ربيع عام ٥٥ متجاهلا قرار عدم استخدام القوة فى إرجاع بطلميوس إلى عرشه، ومتذرعاً بحجة أن الملك الذى ولاه الإسكندريون عليهم كان يتأهب لغزو سوريا. وبلغ جابينيوس بيلوزيوم (الفرما)، فاستسلمت له الحامية اليهودية دون مقاومة، وسار إلى الإسكندرية حيث أجلس بطلميوس على عرشه الذى افتقده عدة سنوات. وسرعان ما عاد جابينيوس إلى ولايته فى سوريا التى اختل فيها الأمن تاركاً وراءه فى مصر حامية من بضع كتائب مؤلفة من جنود رومان وجرمان وغال لتشد أزر بطلميوس. وكان من الجائز أن تصبح مصر ولاية رومانية منذ هذا التاريخ لولا الحرب الأهلية التى نشبت بين زعماء روما وأرجأت ذلك إلى حين.

ولم تلبث مصر أن تعرضت مرة أخرى للتدخل المسلح من جانب الرومان بعد وفاة بطلميوس الزمار فى عام ٥١. وكان قد أوصى بعرشه لكبرى بناته كليوبطرة (السابعة) أشهر ملكات مصر البطلمية، التى كانت تبلغ من العمر ١٨ عاماً، ولأكبر أبنائه بطلميوس (الثالث عشر) الذى كان أصغر من أخته. وقد أرسل إلى روما صورة من وصيته ناشد فيها الشعب الرومانى مراعاة تنفيذها وحماية ابنيه. ولما وجد أوصياء الملك الصغير أن كليوبطرة لم تعد بمرور الزمن أداة طيعة فى أيديهم اتهموها بالرغبة فى الانفراد بالحكم دون أخيها مثيرين عليها غضب جمهور الإسكندرية. وقد أرغمها ذلك على الفرار إلى الحدود الشرقية حيث استطاعت أن تجمع شيئاً من القبائل الساميّة البدوية القاطنة هناك وتأهبت للزحف على الإسكندرية. وأعد الأوصياء لبطلميوس الصغير جيشاً رابط على مقربة من بيلوزيوم (الفرما) لصد قوات أخته. وفى تلك الأثناء كان مصير العالم الرومانى بل مصير العالم القديم كله معلقاً على نتيجة الحرب الأهلية التى دارت رحاها بين يوليوس قيصر زعيم الحزب الديمقراطى وبومبى الذى انضوى الحزب الأرستقراطى تحت لوائه.

وقد تمخضت هذه الحرب عن انهزام بومبى فى معركة فرسالوس (Pharsalus) فى بلاد

اليونان عام ٤٨ . ولم يلبث أن فر بعدها إلى مصر حيث كان يأمل أن يجد ملاذاً وعوناً فى ساعة الشدة لدى أبناء بطلميوس «الزمار» ، الملك الراحل الذى كانت تربطه به صلات ودية. ولم يتجه بومبى إلى الإسكندرية، بل اتجه إلى مكان قريب من بيلوزيوم حيث كانت ترابط قوات الملك الصغير. ولم يكد يدنو بقاربه من الساحل المصرى حتى اغتاله ضابط رومانى بأمر من قائد جيش بطلميوس. وكان القصد من الجريمة ألا تتهيأ لقيصر فرصة لغزو مصر بحجة إيوائها لخصمه وتأييده. ولم تمض أيام ثلاثة حتى وصل قيصر مع قواته إلى نفس المكان وعلم بمصرع غريمه، وحزن عليه، ولكنه لم يرحل بل نزل بالإسكندرية فى أكتوبر من عام ٤٨ . ولم يكد يسير فى شوارعها تتقدمه شارات سلطته القنصلية حتى أثار ذلك المشهد امتعاض جمهور المدينة وغلى مرجل غضبه لما ينطوى عليه من امتهان للسلطة الملكية. وسرعان ما حدثت اشتباكات سقط فيها عدد كبير من الجنود الرومان فى مختلف أنحاء المدينة.

وعندئذ دعا قيصر، بوصفه دكتاتوراً متمتعاً بكامل السلطة وممثلاً للشعب الرومانى، الأخوين لتسريح قواتهما وقبول التحكيم، فجاء بطلميوس إلى الإسكندرية، ولكنه لم يسرح جيشه، بل تركه مرابطاً عند بيلوزيوم تحت قيادة أحد أوصيائه. ولم تلبث كليوبطرة هى الأخرى أن جاءت من الحدود الشرقية عن طريق البحر، وتسللت إلى القصر خفية، والتقت بقيصر لأول مرة، وأثارت عطفه عليها، وفتنته بجما لها ولباقتها. وفى تلك الأثناء كان شعور العداء يشتد ضد قيصر الذى كان الشعب الإسكندرى يرتاب فى نواياه منذ زمن طويل ويتوجس خيفة من تحيزه لكليوبطرة. وعندئذ اتصل كبير أوصياء الملك سراً بالجيش البطلمى ودعاه للزحف على الإسكندرية. وتحرج مركز قيصر لضآلة قواته فقرر أن يتخذ موقف الدفاع فى الحى المجاور للميناء الكبير (الشرقى) ريثما تصله الإمدادات. وأوفد رسولين إلى قائد الجيش البطلمى ا لمهاجم فقبض عليهما، وقتل أحدهما، وجرح الآخر. وكان ذلك إيذاناً ببداية الحرب المعروفة فى التاريخ «بحرب الإسكندرية» ، والتى وصفها لنا قيصر أو أحد ضباطه وصفاً مسهباً. ولسنا بحاجة إلى سرد أحداث تلك الحرب المعقدة التى دارت رحاها فى شوارع المدينة ومينائيها وعلى مقربة منها، والتى أبلى فيها الإسكندريون بلاءً حسناً فى البر والبحر، وتعرضت فيها حياة قيصر للخطر. وحسبى هنا أن أنقل للقارىء بعض فقرات من كتاب «حرب الإسكندرية» يصور فيها الكاتب الموقف تصويراً صادقاً:

«وإذ كانت (الإسكندرية) مدينة غزيرة الإنتاج وافرة الثراء فقد أخذت تجهز معدات من جميع الأنواع. وكان سكانها أنفسهم على أكبر قدر من الذكاء وسعة الحيلة، وعندما رأوا ما

صنعناه من معدات صنعوا مثلها بمهارة فائقة حتى بدا كأن رجالنا اقتبسوها منهم. كما ابتكروا أنفسهم أشياء كثيرة، ولم يكفوا عن مهاجمة تحصيناتنا فى نفس الوقت الذى كانوا يدافعون فيه عن مراكزهم. وقد أخذ زعماؤهم يسوقون مثل هذه الحجج فى المجالس والاجتماعات الشعبية: أن الشعب الرومانى قد وطن نفسه تدريجيا على اغتصاب هذه المملكة، فقد حضر أولوس جابينيوس إلى مصر مع جيشه منذ سنوات قليلة مضت، كما التجأ بومبى إليها بعد فراره، وها هو ذا قيصر قد جاء مع قواته، ولم يحمله موت بومبى على العدول عن البقاء بينكم. فإذا لم تطردوه، فستصبح مصر ولاية بعد أن كانت مملكة (مستقلة)، ولابد أن يتم جلاؤه بسرعة، لأنه معزول بفضل العواصف فى مثل هذا الفصل من السنة، فلا يستطيع أن يتلقى إمدادات من وراء البحر».

وقد انتهت حرب الإسكندرية بهزيمة قوات بطلميوس الصغير وموته غرقاً وانتصار القائد الرومانى فى يناير عام ٤٧. وحسم قيصر مشكلة الوراثة بأن أقام كليوبطرة ملكة بالاشتراك مع أصغر أخويها بطلميوس الرابع عشر. وأما أرسينوى، أختهما العنيدة فقد أرسلت إلى روما حيث زج بها فى السجن عقاباً لها على مقاومة الرومان. ولم يلبث قيصر أن غادر مصر فى يونيو من عام ٤٧ تاركاً بها بعض الفرق الرومانية لدعم سلطة كليوبطرة.

وفى أواخر عام ٤٦ لحقت كليوبطرة بقيصر حيث نزلت فى أحد قصوره على ضفاف التيبر. ولم تتخل هناك عن مظاهر الأبهة، بل أثارت بكبريائها امتعاض الرومان، الذين عرفوها باسم «الملكة» حتى أن شيشرون يقول صراحة فى إحدى رسائله إلى صديقه الحميم أتيكوس «إننى أكره الملكة»، وإن كان قد وعدت بأن تهديه بعض الكتب من مكتبة الإسكندرية. وكانت كليوبطرة قد أنجبت من قيصر ولداً باسم بطلميوس قيصر فأطلق عليه الإسكندريون اسم «قيصرون». ومع أن قيصر اعترف بهذا الابن إلا أن كليوبطرة لم تكن فى نظر الرومان سوى خليلته، لأن زوجته الشرعية كانت لا تزال على قيد الحياة.

ولما كان سلوك قيصر يوحى حينئذ بأنه يعمل على قلب نظام الحكم الجمهورى، فقد أخذت كليوبطرة تعقد على المستقبل أكبر الآمال، فتصورت نفسها ملكة تتربع إلى جانبه لا على عرش مصر وحدها بل على عرش العالم الرومانى كله. ولمس الرومان فيها هذا الطموح فعز عليهم أن يصبحوا رعايا «ملكة مصرية» كانوا ينظرون إليها شذراً. وأخيراً نجحت المؤامرة التى دبرها أنصار الحزب (الأرستقراطى) الجمهورى، واغتيل الدكتاتور فى ١٥ مارس عام ٤٤. واستيقظت كليوبطرة من حلمها العذب عل الحقيقة المرة فوجدت نفسها بغير نصير، وتحرج

مركزها، فعادت أدراجها إلى الإسكندرية لتقنع بمملكتها الصغيرة على ضفاف النيل. وهناك تخلصت من أخيها الصغير وأشركت معها في الحكم ابنها (قيصرون)، بطلميوس الخامس عشر[1].

٢ـ أكتيوم وكليوبطرة والشعراء اللاتين:

ومن مصر أخذت كليوبطرة ترقب الصراع الهائل الذى دارت رحاه فى أنحاء العالم الرومانى بين أنصار قيصر وخصومه أو بالأحرى بين أعضاء الحكومة الثلاثية (الثانية) التى تألفت فى نوفمبر عام ٤٣ من أكتافيانوس بن يوليوس قيصر المتبنى، وماركوس أنطونيوس، رئيس فرسانه، ولبيدوس من ناحية وبين بروتوس وكاسيوس وغيرهما من أقطاب الحزب الأرستقراطى من ناحية أخرى. وقد تمخض هذا الصراع عن انتصار حزب قيصر فى معركة فيليبى عام ٤٢ ولم تشرك كليوبطرة فية بل آثرت أن تقف موقف الحياد حتى تتيقن نتيجته. ولما آلت إلى أنطونيوس مهمة تنظيم شئون الولايات الشرقية، أرسل من مدينة طرسوس يستدعى كليوبطرة لكى يحاسبها على موقفها السلبى وعدم معاونتها لأنصار قيصر كما كان متوقعاً. ولبت دعوته ورحلت إلى طرسوس فى موكب بحرى فاخر خلال صيف عام ٤١. وهناك استطاعات أن تبرر مسلكها بلباقتها وتفتنه، مثلما فتنت قيصر، بجمالها، وتغريه على المجيء فى أعقابها إلى مصر حيث أمضى معها عام ٤١ ـ ٤٠.

وفيما عدا السنوات الأربع التى تلت هذا اللقاء لم يفترق أنطونيوس عن كليوبطرة إلا مضطراً ليقود حملة على بارثيا أو على أرمينيا. وليس ثمة شك فى أنه شغف بها حباً وأنها ألهته عن واجباته وأثارت حوله الشبهات فى الأوساط الرومانية. وكان طبيعياً أن يؤثر ذلك على علاقته بأكتافيانوس، شقيق أكتافيا التى تزوجها فى عام ٤٠، ولم تدخر كليوبطرة وسعاً لإقصائه عنها. وقد زاد هذه العلاقة توتراً أن أكتافيانوس لم يوف بالتزاماته نحوه ويمده بالفرق الأربع التى وعده بها طبقاً لاتفاقية تارنتوم فى عام ٣٧ لاستخدامها ضد البارثيين. فلما انتهت

---

(١) يتضح من إحدى برديات البهنسا (P.Oxy. 1629) أن شقيق كليوبطرة الصغير بطلميوس الرابع عشر كان لا يزال على قيد الحياة فى ٢٦ يوليو عام ٤٤. ولابد أن كليوبطرة تخلصت منه بعد ذلك التاريخ بوقت قصير لأن بورفيريوس يقول إنها قتلته فى السنة الرابعة من حكمه التى تقابل السنة الثامنة من حكمها أى فى عام ٤٤؛ راجع:

T.C. S.keat, The Reigns of Ptolemies. Münchener Beiträge zur Papyrusforchung und antiken Rechtsgeschichte. Hetl 39 (1954), p. 42.

حملة أنطونيوس على بارثيا بالفشل فى عام ٣٦، تزعزع مركزه الأدبى والمادى. هذا فى الوقت الذى أصبحى فيه أكتافيانوس، بعد انتصاره على بومبى الأصغر وإقصاء لبيدوس عن الحكومة الثلاثية، سيد الجانب الغربى من الإمبراطورية دون منازع. وكان ذلك كفيلا بإلهاب المنافسة وتعجيل الصدام بينهما. وعندئذ اغتنمت كليوبطرة الفرصة وعرضت على أنطونيوس مساعدتها ووضعت تحت تصرفه جميع موارد مملكتها، وزينت له أن يتحدى زميله وينازعه السلطة على أمل أن تحقق على يديه حلمها القديم الذى تبدد بمصرع يوليوس قيصر. ولا مراء فى أنها بدأت تحلم من جديد بالسيطرة على العالم الرومانى والتحكم فى روما نفسها التى استذلت أسرتها منذ عهد بعيد.

وكان الشرق الهلينستى قد بدأ يئن من وطأة الحكم الرومانى وفساده وأصبح يتمنى الخلاص من نيره. ولعله وجد فى كليوبطرة زعيمته المرتقبة فعقد عليها أمله فى الإطاحة به. وليس من المستبعد أن تكون كليوبطرة قد فطنت إلى حقيقة هذا الشعور فاستغلته لترفع من الروح المعنوية بين سكان الشرق باختلاق نبوءات تنذر بسقوط روما على يد ملكة يبدأ بحكمها عصر ذهبى جديد. ولما كان عزمها قد استقر على أن يكون أنطونيوس هو أداتها فى تحقيق هذه الغاية، فقد رأت أن تربط مصيره بمصيرها وتنصب حوله شباكا لا يستطيع منها فكاكا. ففى أواخر عام ٣٧ عندما التقت به فى أنطاكيه قبيل قيامه بالحملة البارثية، أقنعته بالزواج منها فى الوقت الذى كان لا يزال فيه متزوجاً من أكتافيا. ولما أهداها بهذه المناسبة منطقة خالكيس (فى شمال ولاية سوريا) فى عام ٣٧/ ٣٦[١] اتخذت من هذه السنة وهى السنة السادسة عشر من اعتلائها عرش مصر، بداية لتاريخ حكمها كملكة على تلك المنطقة[٢] . وعندما عاد من حملته على أرمينيا منتصراً فى عام ٣٤ شجعته على الإحتفال

---

(١) عن هذه الهبة وغيرها التى حصلت عليها كليوبطرة، انظر:
J. Dobias, "La Donation d'Antoine a Cléopâtre", Ann, de l'Inst. de Philol. et d'Hist., Orient. II (= Mélanges Bidez I), 1934, pp. 287 - 314:
ويتفق الأستا دوبياس مع غيره من الباحثين فى أن خالكيس أهديت إلى كليوبطرة فى عام ٣٧/ ٣٦ إلا أنه يرى أن جوف سوريا (Koilê Syria) ـ وهو فى الواقع جزء من فلسطين ـ أهدى إليها فى ربيع عام ٣٤؛ وأن فينيقيا وييريحو (أريحا) والأراضى النبطية أهديت إليها بعد ذلك بقليل فى نفس العام.

(٢) ابتداء من تلك السنة تحمل وثائق عهد كليوبطرة تاريخاً مزدوجاً، مثال ذلك، السنة السادسة عشر التى هى السنة الأولى وهكذا حتى السنة الأخيرة من حكمها وهى السنة الثانية والعشرين التى هى السنة السابعة. وهذا التاريخ المزدوج لايشير ـ كما يعتقد مثلا الأستاذ تارن (C.A.H.X, p. 81) ـ إلى حكم=

بانتصاره فى الإسكندرية خلافاً للعرف الرومانى الذى جرى على أن يقام موكب انتصار القواد فى روما ولو فى وقت متأخر. وكأنها أرادت بذلك أن توعز إليه باتخاذ الإسكندرية عاصمة بدلاً من رومابعد انفرادهما بالسلطة. ومن العسير التيقن من أن أنطونيوس فعل ذلك استجابة لرغبتها أو أنه تعمد ذلك ليكيد خصمه. وعلى أى حال فقد حملته على أن يهبها هى وابنها قيصرون وأبناءها منه بعض الولايات الرومانية والممالك المتاخمة. ومع أن بعض هذه الهبات ــ التى عرفت باسم الهبات السكندرية ــ لم يكن قد دخل بعد فى حوزة الرومان إلا أن الرأى العام الرومانى استنكر تفريطه فى حقوقه وارتاب فى نواياه. ولم تزل كليوبطرة به حتى دفعته إلى البحث عن سلاح يطعن به دعوى أكتافيانوس بأنه الوريث الوحيد لقيصر، فاعترف بشرعية ابنها قيصرون، على أمل إضعاف مركز أكتافيانوس الأدبى بين جنوده وصرفهم عن الولاء له. وقد اتسعت شقة الخلاف عندما أرسل أنطونيوس بعد انتهاء مدة تجديد الحكومة الثلاثية فى آخر عام ٣٣ رسالة إلى السناتو يطلب فيها إقرار جميع التدابير والتنظيمات التى قام بها فى الشرق، ويعرض أيضاً التنحى عن سلطته الاستثنائية كعضو فى تلك الحكومة، وإرجاع الدستور القديم. وكان يرمى بالعرض الأخير إلى تدعيم مركزه المنهار وإحراج خصمه حتى يحذو حذوه. غير أن أكتافيانوس رفض أن يتخلى عن سلطته العليا، وأحبط نقيب للعامة من أنصاره مشروعاً تقدم به أحد القنصلين لتحقيق ذلك، والتجأ هو نفسه إلى القوة لإرهاب أعضاء السناتو الموالين لخصمه. وقد رد أنطونيوس بإعلان طلاقه رسمياً من أكتافيا، مجاهراً أخاها بالعداوة.

وهكذا أصبح من اليسير على أكتافيانوس، بحكم وجوده بالعاصمة، أن يستغل الأخطاء التى ارتكبها أنطونيوس للدعاية ضده والتشهير به وتأليب الرأى العام عليه. وعندئذ نشر بعض أجزاء من وصية قيل إن أنطونيوس قد أودعها فى معبد الربة فستا، وهى أجزاء من شأنها إثارة الرأى العام عليه وعلى كليو بطرة[١] وعندما تأكد من أن شعور العداء نحو الملكة المصرية بلغ

=كليوبطرة وأنطونيوس المشترك منذ عام ٣٧، بل يشير إلى حكمها وحدها بوصفها ملكة على مصر (منذ عام ٥١) وملكة على خالكيس (منذ آخر عام ٣٧).

(١) عن هذه الوصية التى يعتقدالبعض أنها مزورة، راجع:

T.R. Holmes, The Architect of The Roman Empire I (1928). P. 246 f.: R. Syme. The Roman Revolution (1939), p. 282 f., and n.l.

وكانت هذه الأجزاء من الوصية التى يقول المؤرخ ديون كاسيوس (L, 3, 5) إن أكتافيانوس قرأها على=

ذروته، أوعز إلي أعضاء السناتو المتخلفين في روما وسكان البلاد الإيطالية والولايات الغربية أن يقسموا له يمين الولاء (coniuratio). وكان هذا القسم بمثابة السند الرئيسى لسلطته فى السنوات التالية، لأن أكتافيانوس لم يعد يعتبر نفسه عضواً فى الحكومة الثلاثية التى فقدت مقومات وجودها. وعلى ذلك استصدر قراراً بإلغاء سلطة أنطونيوس العليا وإبطال انتخابه قنصلاً لعام ٣١. ولما كان يدرك أن لأنطونيوس أنصاراً بين الرومان، فإنه لم يعلن الحرب عليه بل أعلنها على كليوبطرة عدوة الشعب الرومانى. وقد أراد بذلك أن يكسبها صفة الحرب القومية ضد الملكة المغتصبة أو صفة الجهاد المقدس ضد الخطر الأجنبى الوافد من الشرق.

ولم تشأ كليوبطرة أن تدع أنطونيوس يخوض المعركة الأخيرة وحده، فرافقته إلى الميدان بوصفها شريكة فى المغامرة. وإذا كان هو الذى أخذ على عاتقه إدارة الحرب وقيادتها، فهى التى أمدته بالمال والمئونة اللازمين لها. وكانت نتيجة الحرب تعنيها بقدر ما كانت تعنيه. ولم يدر بخلدها أن مرافقتها له سوف تثير الشقاق فى معسكره.. فقد رأى فريق من ضباط أنطونيوس، ممن سبق لهم الخدمة تحت لواء قيصر، أن فى وجود الملكة بساحة القتال إضعافاً لمركزه فى نظر الشعب الرومانى، وإيحاء للجنود بأنهم يقاتلون من أجلها لا من أجل الزعيم

= مجلس الشيوخ والجمعية الشعبية، تتضمن البنود التالية (أ) اعتراف أنطونيوس بأن قيصرون ابن منحدر من صلب يوليوس قيصر (ب) منحه هبات ضخمة لأبنائه من كليوبطرة، (جـ) مطالبته بأن يدفن جثمانه مع جثمان كليوبطرة فى الإسكندرية وأما المؤرخ سويتونيوس (Div. Aug. XVII, 1) فيقول:

et quo magis degenerasse eum a civili more approbaret, testamentum. quod is Romae etiam de Cleopatra liberis inter heredes nuncupatis reliquerat, aperiundum recitandumque pro contione curavit:

ولكى يزيد من اقتناع الناس بأنه (أى أنطونيوس) قد خرج على العرف الرومانى، فقد عمل على فتح الوصية التى كان قد تركها فى روما وعين فيها ابناءه أيضا من كليوبطرة بين الورثة، وعلى تلاوتها فى اجتماع شعبى.

وإذا صح أن أنطونيوس ترك وصية بهذا الشكل، فإنها لم تكن كلها قانونية، ولم يكن أكتافيانوس بحاجة إلى تزويرها. ولكن لعل الوصية لم تتضمن فى الأصل سوى أبناء أنطونيوس من زوجتيه الرومانيتين فولفيا وأكتافيا، وأن تزوير أكتافيانوس اقتصر على إقحام أسماء أبناء أنطونيوس (وابن يوليوس قيصر) من كليوبطرة الذين كانوا يعتبرون أبناء من زواج غير شرعى أو زواج غير كامل الأهلية (matrimonium iniustum)، وبالتالى كانوا يعتبرون أجانب (peregrini) ولا يجوز تعيينهم ورثة حيث أن أباهم رومانى. وعن هذه النقطة القانونية، انظر.

J. Crook. "A Legal Point about Mark Antony's Will", J.R.S. 47 (1957), pp. 36 - 38.

الرومانى. ولذلك نصحوا بإعادتها إلى مصر. ولما سمعت الملكة بذلك استشاطت غضباً وأصرت على البقاء. وأثار عنادها بعض أنصار أنطونيوس البارزين فانفضوا من حوله ملتجئين إلى معسكر خصمه. وزاد مركز أنطونيوس وكليوبطرة ضعفاً سوء اختيار مكان المعركة. فقد ركزا قواتهما البحرية والبرية فى خليج شبه جزيرة أكتيوم عند المدخل الضيق لخليج أمبراكيا، ووزعا بقية القوات على خط قتال يمتد مسافة طويلة على الساحل الغربى من بلاد اليونان. ولم يكن هذا الخط من السهل اختراقه فحسب، بل كان مكشوفاً أيضاً من ناحية إيطاليا. ولعل كليوبطرة كان لها يد فى هذا الاختيار الذى أملته بعض عوامل كان فى مقدمتها سهولة الاتصال بمصر والاحتفاظ بخط الرجعة فى حالة الانكسار. ولقد قيل إن أنطونيوس كان يجب عليه أن يبادر بالنزول إلى إيطاليا ومهاجمة خصمه فى عقر داره. غير أن ذلك لم يكن من المستطاع لأن أكتافيانوس كان قد احتل تارنتوم وبرنديزى وأحكم خط الدفاع عنهما، وهما الميناءان الذان كان من المستطاع إنزال الجنود فيهما.

ولم يأت ربيع عام ٣١ حتى كان أكتافيانوس قد عبر البحر الأدرياتى مع جيش يعادل جيش أنطونيوس (حوالى ٨٥,٠٠٠ مقاتل) وأسطول قوامه ٤٠٠ سفينة، أى يقل بمائة سفينة عن أسطول غريمه. ورابط فى مواجهة خليج أكتيوم حيث اعتصمت قوات أنطونيوس. وفى العمليات العسكرية التى أعقبت ذلك تمكن أجريبا، أكفأ قودا أكتافيانوس، من تطويق أسطول أنطونيوس فى خليج أرتا وأخفقت جميع محاولات الأخير لإرغام العدو على منازلته براً فى معركة فاصلة أو إعاقة وصول الإمدادات إليه من البر. وباستيلاء أكتافيانوس على كورنثة وغيرها من المواقع الهامة، وبفضل تفوق فرسانه، قطع على قوات عدوه طريق الاتصال بداخل بلاد اليونان. وبدأ جنود أنطونيوس يعانون من قلة المئونة وتفشى الأمراض، واستفحلت حركة التمرد وازداد عدد المتخلين عنه حتى تحرج مركزه ولم يعد أمامه سوى أن يخاطر باقتحام معركة بحرية ضد خصمه. ولا تتضح لنا تماماً نواياه فى تلك اللحظة. لعله عقد عزمه على القتال حتى يحرز نصراً حاسماً. غير أن الأرجح أنه كان قد قرر أن يدع الجانب الأكبر من قواته يدافع عن نفسه فى المعاقل الحصينة على ساحل بلاد اليونان، بينما ينسحب هو وكليوبطرة وبقية القوات مع الأسطول المحمل بكنز الملكة محاولاً اختراق الحصار المضروب عليه. وقد عقد أمله على حشد جنود الحاميات التى تركها فى الشرق واستئناف النضال بعد أن يستجمع قواه. وطبقاً للخطة الموضوعة اخترقت كليوبطرة وسفنها خط الحصار عائدة إلى الإسكندرية. ولم يلبث أن لحق بها أنطونيوس بعد أن تحطمت معظم سفنه أو وقعت فى يد

العدو. وسرعان ما استسلمت للعدو قواته البرية التى تركها وراءه على ساحل بلاد اليونان. ولم يحطم هذا الانسحاب روح كليو بطرة المعنوية فدخلت ميناء الإسكندرية مرفوعة الرأس وقد زينت مقدمة سفينتها بشارات النصر حتى توهم الشعب أنها عادت منتصرة. وقد حاول أنطونيوس أن يستعين بالحامية الرومانية فى برقة غير أن قائدها، بيناريوس سكاربوس، تنكر له، فقفل راجعاً إلى الإسكندرية.

وتقدم أكتافيانوس نحو الشرق ونزل آسيا الصغرى. غير أنه لم يلبث أن اضطر إلى العودة إلى إيطاليا ليقمع بعض اضطرابات نشبت بسبب تمرد المحاربين القدماء. ولما فرغ من تهدئة الحال عاد إلى الشرق على وجه السرعة ماراً بجزيرة رودس.. وبعدئذ نزل بسوريا حيث شرع فى أوائل صيف عام ٣٠ يعد العدة للزحف على مصر. وفى تلك الأثناء حاولت كليوبطر، وربما أنطونيوس أيضاً، التفاهم مع أكتافيانوس عن طريق السفراء . وقد عرضت عليه فيما يبدو التنازل عن عرشها لأبنائها، وعرض عليه أنطونيوس اعتزاله الحياة العامة وانزواءه كمواطن عادى. وبينما قبل أكتافيانوس هدايا الملكة ومناها ببعض الوعود، صم أذنيه عن رسائل أنطونيوس. ولا سبيل إلى التحقق من صحة المشروعات التى خطرت لكليوبطرة آنئذ، كالنزول فى أسبانيا الغنية بالفضة وإثارة الغرب على أكتافيانوس أو الانسحاب إلى النوبة فى جنوب الوادى أو الفرار إلى شواطىء المحيط الهندى، وهى مشروعات لم تخرج أبداً إلى حيز التنفيذ. وزاد الموقف سوءاً أن كورنيليوس جاللوس، أحد قوادا أكتافيانوس، استمال إلى جانبه فرق أنطونيوس المرابطة فى برقة واستولى على برايتونيوم (Paraetonium) (مرسى مطروح)، وأحبط محاولة قام بها الأخير لاسترداد المدينة.

واقتحم أكتافيانوس الحدود الشرقية واستولى على بيلوزيوم (الفرما) ثم تابع سيره إلى الإسكندرية. وخرج أنطونيوس لملاقاته وتمكن من إنزال الهزيمة بفرسانه. غير أن سفنه الراسية فى الميناء استسلمت لأسطول العدو. ولم تلبث فصائل فرسانه أن حذت حذو وحدات أسطوله، واندحرت كتائب مشاته عند ضاحية المدينة (الرمل) التى أطلق عليها اسم نيقوبوليس (Nicopolis) تخليداً لانتصاره. واستبد اليأس بأنطونيوس فانتحر (أول أغسطس عام ٣٠). وحاولت كليوبطرة أن تضمن العرش لأحد أبنائها ولكن أكتافيانوس الظافر صم أذنيه عن رجائها. ولم يشأ أن يتحمل وزر مقتلها فأوعز إليها بأنه قد يسوقها ـ مثلما ساق قيصر أختها أرسينوى ـ فى موكب نصره بعد عودته إلى روما. ولذا آثرت كليوبطرة أن تنتحر على أن

تدخل روما فى ثياب الذل وتعرض كالسبى على رجالها. واختارت أن تموت بلدغة الكوبرا، وهو اختيار له مغزاه، لأن الكوبرا كانت أفعى تاج مصر السفلى، وخادمة رع إله الشمس، التى لا تمنح لدغتها الخلود وحسب بل الألوهية أيضا.

هكذا لقيت كليوبطرة حتفها (١٠ أغسطس عام ٣٠ ؟)(١). ولم تكن فى حقيقة الأمر مصرية الدم، غير أنها كانت أكثر أفراد أسرتها تشبعاً بالروح المصرية. فكانت الوحيدة من بينهم التى تعلمت اللغة المصرية، وكان يروق لها أن تنسب نفسها إلى رع وتظهر فى زى إيزيس. ولعلها كانت أقرب البطالمة إلى قلوب رعاياها. ومن الإجحاف وصفها بأنها كانت مجرد غانية لعوب. لقد كانت كليوبطرة ملكة واسعة الثقافة، مليئة بالحيوية، ومنظِّمة بارعة. وحبتها الطبيعة بالجاذبية والذكاء وعذوبة الصوت. وأوتيت من مضاء العزم والشجاعة والطموح قدراً كبيراً. ولا يستطيع مؤرخ منصف أن يأخذ عليها استغلال كل هذه المواهب فى تسخير قادة الرومان لتحقيق أطماعها وصيانة استقلال بلادها. وقد شاء حظها العاثر ـ وهونّ من هزيمتها فى الوقت نفسه ـ أنها اصطرعت مع رجل ليس كغيره من الرجال، لأن أكتافيانوس لم يكن مجرد وريث أو خليفة عاهل كبير، بل كان مؤسس امبراطورية عتيدة وخالق عهد جديد. لكن حسب الملكة «المصرية» خطراً أنها صارت رمزاً للكفاح المجيد ضد روما المغتصبة التى كان الشرق الهلينستى كله يتمنى الخلاص من نيرها، وأنها لم تثر الحقد فقط فى قلوب أعدائها بل أثارت الخوف أيضا. لقد كانت ثانى اثنين امتلأت روما منهما رعبا ولعل خير شاهد على ذلك قصائد فرجيل وهوراتيوس وبروبرتيوس واوفيد، أئمة شعراء العصر الأغسطى. وكان أولهم بمثابة شاعر البلاط، وشغل الثانى مكانه من بعده. وقد قاموا جميعاً بالدعاية للحكم الجديد، وأشادوا به وكالوا المديح لصاحبه. وكان من الطبيعى أن يهجوا خصمه أنطونيوس وزوجته كليوبطرة. ويهبط هذا الهجاء أحياناً إلى حد الإسفاف، لكنه يكشف عن مبلغ الخوف الكامن فى نفوسهم(*).

(١) فى رأى الأستاذ سكيت أن كليوبطرة انتحرت فى ١٧ مسرى الموافق ١٠ أغسطس من عام ٣٠ ق. م. أى فى اليوم العاشر بعد دخول أكتافيانوس الإسكندرية، راجع مقاله:
T.C. Skeat, "The Last Days, of Cleopatra: A Chronological Problem". J.R.S. 43 (1953). pp. 98 - 100.

(*) مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية.
تأليف: د. عبداللطيف أحمد على. دار النهضة العربية ١٩٦٥. القاهرة.



(٣) الموقف الدينى للإمبراطورية الرومانية فى مصر قبل اعتناقها المسيحية

احتلت بعض الآلهة الزعامة الرسمية فى البانثيون الرومانى، وظلت لفترة طويلة تعبد فى العصر الجمهورى، وخاصة Jupiter Capitolinus رب الأرباب ويقابل زيوس عند الإغريق وما يرتبط به مثل Minerva و Juno و Mars . غير أن الطبقة المثقفة ورجال السناتو، والنبلاء، والعائلات الثرية والعريقة من حكام المدن والذين يكونون الطبقة المثقفة ورجال السناتو والنبلاء، والعائلات الثرية والعريقة من حكام المدن والذين يكونون الطبقة الأرستقراطية فى الولايات، والتى أشربت منذ الصغر التراث الكلاسيكى اليونانى والرومانى، ربطت مجدها الدينى وتراثها فى الادب والفن وتاريخها بهذه الآله، وان لم يكن هذا فى الغالب أكثر من ارتباط عاطفى تاريخى.

كما وجدت هذه الطبقة إلى حد ما سلواها فى الرواقية[١] بما تنطوى عليه من أخلاق

---

(١) تقوم الرواقية على جعل المعانى الفلسفية فى متناول الخلق جميعا. وعلى فتح باب الفلسفة على مصراعيه، وهى تقدم للإنسان الحائر فى مجتمع شاعت فيه الفوضى ودب فيه الإنحلال، أساسا=

سامية وإيمان بكل الالهة. وإلى جوار هذه كانت توجد أيضًا الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية الجديدة وكانتا تقومان على نظام ثنوى فى الاعتقاد، وتعتبران المادة شرا، والجسد سجنا، والخلاص لا يتأتى إلا عن طريق إذلال الجسد والتأمل فى طهارة الروح الإلهية وممارسة التصوف والزهد.

ومن بين العبادات الشرقية العديدة كان هناك الآلهة المصرية ايزيس فإنها عبدت كأم عالمية تحب الخير للنوع الإنسانى، وقد عبد معها قرينها سيرابيس (اوزوريس)، ولقيا انتباها خاصا عند كل من التجار والملاحين الذين كانوا يبشرون بهذه العبادة فى كل ميناء من موانى البحر المتوسط يحطون فيه رحالهم وقد ساعد على انتشار عبادة ايزيس فى الإمبراطورية ما انطوت عليه قصة هذه الآلهة من الحنو والرأفة، وما اختصت به طقوسها من الرقة، وما كان يسود هياكلها من جو مرح، وما تشتمل عليه صلواتها المسائية من ألحان موسيقية مؤثرة، ولترحيبها الشامل بالناس جميعا على اختلاف أممهم وطبقاتهم كما أنها رحبت بالنساء.

وقد انتقلت هذه العبادة إلى روما فى غضون القرن الثانى قبل الميلاد إن لم يكن قبل ذلك. وتم هذا على يد الإغريق الذين كانوا يفدون على روما من مصر مباشرة أو من المناطق المجاورة لإيطاليا كبلاد اليونان وجزر البحر الإيجى وصقلية، وقد انتشرت عبادتها بين العبيد وفقراء الرومان وبعض سيدات الطبقة الارستقراطية مما دفع السناتو إلى تحديها، كما أصدر أحد قنصلى عام ١٦٨ق. م أمر بهدم هياكل ايزيس وسيرابيس القائمة بالمدينة، غير أن الحكومة الرومانية تركت أتباع ايزيس يمارسون شعائرهم خارج أسوار روما. وفى عهد صلا Sulla اشتد ساعد هذه الديانة مرة أخرى لانتهاجه سياسة التسامح، ونتيجة لتأثير كليوباترة على يوليوس قيصر ازدهرت عبادة ايزيس خاصة وأنه كان زعيما للحزب الديمقراطى أو الشعبى الذى كان يضم بين صفوفه كثيرين من أفراد الطبقة الشعبية وهى أكثر الطبقات إقبالا على العبادات الأجنبية، وأحرزت ديانة ايزيس تقدما مطردا حتى أن الحكومة الثلاثية (الثانية) اعترفت بها رسميا فى عام ٤٣ ق. م. وقد تعثرت عبادة ايزيس بعد ذلك نتيجة للحرب الأهلية بين اكتافيانوس Octavianus وماركوس انطونيوس Marcus Antonius ثم صدر قرار بتحريم عبادتها داخل العاصمة الرومانية سنة ٣٨ ق. م. ثم طوردت فى كل أنحاء إيطاليا على

=أخلاقيا للسلوك، ومبدأ راسخا للحياة الفاضلة. ومن ثم فهى من هذا الناحية تعد عقيدة أخلاقية. كان من أشهر رجالاتها ابيكتيت Epictetus الذى استطاع أن يضم الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧) إلى حلقة سامعيه، وكان الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠) من أعلام الرواقيين.

عهد تيبيريوس Tiberius (١٤ ـ ٣٧)م إلا أن هذه العبادة حظيت بالاعتراف الرسمى من جانب كاليجولا Caligula (٣٧ ـ ٤١) واستمرت عبادتها فى الازدهار على عهد خلفائه حتى أن أتباعها كانوا يمارسون شعائرهم فوق الكابيتول باطمئنان أثناء الحرب الأهلية سنة ٦٩، وبارتقاء الأسرة الفلافية (٧٠ ـ ٩٦) العرش بدأ العصر الذهبى لعبادة ايزيس فى روما.

وعلى الرغم من أنها حوربت أكثر من مرة على يد الحكام الرومان فى العاصمة ذاتها، غير أنها كانت سرعان ما تعود إلى استعادة مركزها ثانية، ولكن بمجىء عصر أنطونينوس بيوس Antoninus Pius (١٣٨ـ ١٦١) بدأت تفقد مركزها متخلية عنه لعبادة الإله الفارسى مثرا Mithra الذى استقرت عبادته لفترة طويلة فى شرق آسيا الصغرى ثم بدأت تأخذ طريقها إلى الغرب فى فترة متأخرة فى القرن الأول الميلادى، وما أن وافت القرون الأولى من التاريخ الميلادى حتى انتشرت فى جميع انحناء الدولة الرومانية عباده مثرا، الإله الشاب ذى الوجه الوسيم الذى تعلوه هالة من نور ترمز إلى الوحدة القديمة بينه وبين الشمس بأعتباره إلهاً للذكورة والفحولة.

ولقد تركت المثرائية أثارها الواضحة فى روما والولايات الغربية وأخذت فى الانتشار السريع خاصة فى الأوساط العسكرية بعد أن أصبح مثرا إلهاً للمعارك الحربية، وحاميا للجنود الذين غدوا أداة تبشير حماسية له على معسكرات الحدود.

وكان قانون العقيدة المثرائية يقسم العالم قسمين، ويجعل الصراع قائما بينهما، بين قوة النور وقوة الظلمة، ومن ثم كان على المؤمنين بمثرا أن يحاربوا فى صفة حتى يستطيعوا الاتحاد به، كما كانت الطهارة والعفة الأخلاقية فى عبادة ايزيس مطلوبة من عبادها إذا كانوا يريدون الحصول على السماح والغفران عند القضاء بعد الموت، ونيل البركات والنعيم المقيم.

وكان يحمل هذا المبدأ الأخير ديانة شرقية جديدة تمثلت فى المسيحية، تبدت عقيدتها فى إله مخلص سار فى طريق الآلام والتعذيب ليكفر عن خطايا البشر. مات ثم قام ثانية من بين الأموات. وكان لهذه العقيدة المسيحية الجديدة أسرارها الخفية، وغموضها الذى كانت تشترك به مع العبادات الشرقية كلها آنذاك.

فاقت المسيحية سائر الديانات الشرقية القديمة لأن يسوع المسيح كانت له جاذبية أحدثت فى النفوس راحة، فهو قد نال الموت من أجل خلاص الناس أجمعين، وتفردت بتعاليم أخلاقية

قابلت الهوى. وعلى خلاف المثرائية التى قصرت عضويتها وإقامة شعائرها على الرجال دون النساء، وعبادتى الحنان الأنثوى كيبيلى وايزيس، ملكت المسيحية على الجموع الأفئدة.

فى ظل هذه الظروف ظهرت المسيحية فى مصر فى ظروف لا تزال معلوماتنا التاريخية عنها طفيفة، إلا أننا نظن أن الدين الجديدى لم يكن ليتأخر فى الوصول إلى أكبر ميناء فى شرقى البحر المتوسط، فى حالة قدومه من الخارج، وأنه لم يكن هناك محيص بعد ذلك عن انتشاره فى سائر أنحاء مصر. ومع هذا فلم يترك الدين الجديد أى أثر فى برديات القرن الأول التى عثرنا عليها حتى الآن، بل لا تمدنا حتى برديات القرن الثانى إلا بمعلومات ضئيلة جدا عن مدى تأثيره. على أننا نستخلص من أوراق البردى الأدبية أن المسيحية قد تغلغلت فى مصر الوسطى ومصر العليا، ولدينا الآن ما لا يقل عن سبع قصاصات من البرديات الإنجيلية، التى يمكن أن ننسبها باطمئنان إلى القرن الثانى، بل إن جميع الباحثين الثقات ينسبون إحدى هذه القاصات، التى تتضمن بعض فقرات من أنجيل القديس يوحنا (أهم الاناجيل التى وضعت بمصر)، إلى مستهل القرن الثانى. ولابد أنه كان يوجد فى مقابل كل بردية مسيحية حفظتها لنا محض الصدف، مئات من البرديات التى عفا عليها الزمن، وأن كل مسيحى كان لديه مثل هذه البردية يقابله عشرات لم يكن لديهم شيء.

ولدينا من منتصف القرن التالى طائفة من البرديات التى توضح بجلاء اضطهاد المسيحيين على أيام الإمبراطور ديكيوس (Decius) وهى عبارة عن شهادات بتقديم القرابين للآلهة (libelli)، كان الإمبراطور قد أصدرأمراً بأن يقدمها جميع رعايا الإمبراطورية للسلطات الرومانية. وكان الذين لا يقدمون هذه الشهادات يعتبرون مسيحيين. على أن بعض ضعاف النفوس من المسيحين سمحت لهم ضمائرهم أن يقدموا للسلطات شهادات مزورة.

وكانت المسيحية فى مصر تميل فيما يبدو إلى «الهرطقة»، أى الأخذ بالمعتقدات المخالفة لآراء الكنيسة، وخاصة بمذهب «الغنوسية» «gnôsis»[(١)]، ولعل ذلك يفسر سبب ذيوع إنجيل

---

(١) اللفظ اليونانى gnôsis معناه «معرفة أو أدرية» والغنوسية مذهب لشيعة دينية فلسفية، «ومبدؤها أن العرفان الحق ليس العلم بوساطة المعانى المجردة والاستدلال كالفلسفة، وإنما هو العرفان الحدسى التجريبى الحاصل على اتحاد العارف بالمعروف. وأما غايتها فهى الوصول إلى عرفان الله على هذا النحو، بكل ما فى النفس من قوة حدس وعاطفة، وخيال. فالغنوسية صوفية تزعم أنها المثل الأعلى للمعرفة، وترجع بأصلها إلى وحى أنزله الله منذ البدء وتناقله المريدون سرا، وتعد مريديها بكشف الأسرار الإلهية وتحقيق النجاة.=

يوحنا فى مصر، ومذهبه عن «اللوجوس» أو الكلمة (Logos)، وإبهامه الصوفى. ويرى بعض العلماء أن هذا الإنجيل كتب فى الإسكندرية، الأمر الذى يعيننا دون شك على تفسير عدم معرفة القديس بوليكارب (Polycarpus) بهذا الإنجيل. وبعد ما عانت الإسكندرية كثيراً من جراء الحروب الأهلية والاضطرابات العنيفة التى كدرت صفو الأمن فى مصر خلال الحقبة الأخيرة من عصر البطالمة، وكانت هى نفسها مركزاً لهذه الاضطرابات أكثر من مرة، تمتعت بفترة من الرخاء المطرد تحت الحكم الرومانى. كانت الإسكندرية ثان مدن الإمبراطورية، وأعظم موانىء البحر المتوسط، ومركزاً للتجارة الرائجة مع الغرب والشمال حتى إيطاليا والولايات الغربية ومع بلاد الإغريق وآسيا الصغرى، ومع الشر ق حتى الهند. وبرغم أن المدينة لم تعد كما كانت فى القرن الثالث قبل الميلاد موطنا لفحول الشعراء، فقد كانت لا تزال بها مدرسة للشعر والأدب التصويرى، وقد تألق صيتها بفضل العلماء من أمثال بطلميوس وهيرون، كما أنجبت الجالية اليهودية السكندرية بالمدينة كتابا نابهين مثل فيلون، واجتذبت جامعة الإسكندرية الطلاب لا من مصر وحدها بل من وراء البحار.

لكن هذا الرخاء لم يؤد إلى استمالة مواطنى الإسكندرية إلى جانب الرومان. وكان هؤلاء المواطنون قد أثاروا فى وجه الملوك المقدونيين متاعب جمة، غير أن ضياع المركز الذى تمتعت

=فكان العامة منهم يؤخذون بسحر طقوسها، وكان الخاصة يتعلقون بتعاليمها النظرية ... وكانت الغنوسية تعلو على الأديان والمذاهب بالتأويل والتحوير، مدعية تحويلها إلى معنى أعمق. (من كتاب الفلسفة اليونانية) ليوسف كرم ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٤٦، ص٢٤٤).

«وما كادت المسيحية تظهر حتى تناولتها الغنوسية، فتزيت بزيها ونافستها منافسة قوية... فكانت خطرا كبيرا عليها طوال القرون الأربعة الأولى... والغنوسيون المسيحيون بالإجمال يؤولون عقائد المسيحية تبعا لمذهبهم، ويصوغون أساطيرهم بألفاظها. فهم يقيمون الثنائية عل ما يزعمون من تعارض بين التوراة والإنجيل، إذ يقولون أن التوراة تصور إلها قاسيا جبارا: بينما الإنجيل يكشف لنا عن إله وديع حليم خير للغاية... وإله العهد الجديد هو الإله الأعلى،الإله الأب، خالق العالم المعقول، أبو المسيحية وإله المسيحيين، وإله العهد القديم صانع العالم المحسوس هو إله اليهود... فالغنوسيون ينبذون التوراة نبذا تاما، ويقبلون من بين الأناجيل ما يروقهم، ويحذفون الفصول والآيات المناقضة لآرائهم» يوسف كرم «نفس المرجع» ص٢٥٥ ـ ٢٥٨.

وعن الكتب أو الدفاتر البردية (codices) القبطية الخاصةبالغنوسية والتى حصل عليها المتحف القبطى فى عام ١٩٤٦ وعرف أنها من خينوبوسكيون (Chênoboskeion) وهى قرية الصياد «المتاخمة لدير الملاك» ودير «أنبا بلامون» قرب نجع حمادى انظر:

J.Doresse, The Secret Books of The Egyptian Gnostics. London, 1960.

The Nag Hammadi Library. San Francisco. Harper & Row. 1977.

به الإسكندرية كمقر للملك البطلمى، وعاصمة لدولة مستقلة، أوغر صدورهم فاستمروا طوال العصر الرومانى يناصبون الحكومة العداء الشديد. ولما كان أغسطس قد أقر لليهود جميع امتيازاتهم، فى حين أنه رفض مطلب مواطنى الإسكندرية بإنشاء مجلس للشورى، فقد اتخذ عداء المواطنين للرومان مظهر عداء لليهود إذ كان الهجوم عليهم أسلم عاقبة للإسكندريين من الهجوم على الرومان مباشرة. وكثيراً ما أدت المذابح الطائفية العديدة التى وقعت فى شوارع المدينة إلى تدخل الحامية الرومانية لقمع الاضطرابات، وإلى محاكمة بعض زعماء الإسكندرية أمام مجلس الإمبراطور. وقد نشأ عن ذلك نوع من الأدب الوطنى أحرز رواجاً واسعاً بين الجماهير ويسميه العلماء الآن، نظراً لما بينه وبين «أعمال الشهداء المسيحيين» من تشابه «بأعمال الشهداء السكندريين» (Acta Alexandrindrinorum)[1]، هذه الرسائل تبالغ فى وصف شجاعة زعماء الإسكندرية واعتدادهم بأنفسهم، وتصورهم وهم يخاطبون الإمبراطور بقحة متناهية، حتى أن أحد مديرى معاهد التربية بالمدينة يقول لكلوديوس «أنت الابن الذى تبرأت منه سالومى اليهودية» ويصف بازدراء هيروديس أجريبا (Herodês Agrippa)، صديق الإمبراطور، بأنه «يهودى لا يساوى شروى نقير». وقد أحضر الوفد السكندرى معه إلى روما ذات مرة تمثالا نصفياً لراعى المدينة الإله سرابيس، لم يلبث (فيما يروى) أن تصبب عرقا بمعجزة فامتلأت قلوب الرومان رعباً. وقد ظلت ذكرى هؤلاء الشهداء ماثلة فى قلوب أهل الإسكندرية مدة طويلة، مثلما كان المسيحيون يجلون ذكرى شهدائهم.

وكما شهدت الإسكندرية على عهد البطالمة ترجمة التوراة إلى اليونانية لتستخدمها الجالية اليهودية السكندرية، وكما وضع فيلون هناك فى القرن الأول الميلادى فلسفة يهودية باللغة اليونانية، ناهجاً فيها منهج التفكير الفلسفى السكندرى، كذلك غدت الإسكندرية فى القرنين التالى والثالث مركزا للتقريب بين اسمى الأفكار فى الديانات القديمة والأفكار الوليدة فى المسيحية. وإنها لحقيقة جديرة بالتنويه أن يختار أهالى الإسكندرية أحد مواطنيهم، وهو أناتوليوس (Anatolius) الذى رسم أسقفا للادقية (Laodicea) فى عام ٢٦٩م، أستاذاً للفلسفة الأرسطية فى تلك المدينة. وقد ازدهرت جنباً إلى جنب مع الأكاديمية، ودراستها الفلسفية، المدرسة «المسيحية الكبرى» و[وهى مدرسة كانت أصول الايمان تلقن فيها (شفويا) عن طريق السؤال والجواب (Katêchêsis) التى أسسها بنتاينوس (Pantaenus)]، وكان من ألمع نجومها كليمنس السكندرى (Clêmens) وأوريجينيس (Origenês). كان الأول [١٥٠

(١) معنى كلمة Acta أما «رسائل» كرسائل القديس بوليكارب مثلا، أو «محاضر جلسات محاكمة الشهداء».

ـ ٢١٢م.] من اتباع سرابيس ثم اعتنق المسيحية، وكان رجلا واسع الاطلاع (ولعله كان شديد الولع بإظهار علمه)، وقد أسهم بنصيب كبير فى التوفيق بين الديانة المسيحية والثقافة السكندرية. ومع أنه كان شديد الإيمان بالمسيحية، متمسكا بعقائدها الأصلية القويمة، ونصيراً متزمتاً بل متطرفاً للأخلاق، إلا أنه كان خبيراً بالطبيعة البشرية، فهو يحلل شرب النبيذ بل ويبرره أيضا، ولا يحرم تحريماً باتاً الاستمتاع بما فى الحياة من جمال ومباهج. وقد ظل حريصا حتى بعد دخوله المسيحية على قراءة الأدب الإغريقى، وعلى إجلاله لأفلاطون، وأما أوريجينيس [١٨٥ ـ ٢٥٣م.] فكان أقل من كليمنس معرفة بالأدب الإغريقى، ولكنه كان أعمق منه تفكيراً وأرسخ فهما للمذاهب الفلسفية، وأدق إلماماً بمناهج البحث العلمى، وأقدر على الإبتكار.

الحق أنه يعتبر من أعظم رجالات الكنيسة المسيحية. وأخيراً، فكما تركت الإسكندرية أثراً باقياً فى نصوص كتاب العصر الكلاسيكى، فقد أسهمت مساهمة جليلة أثناء تلك الفترة فى تحقيق نص للإنجيل موثوق به، ولا تزال طبيعة هذه المساهمة ومداها مثاراً للجدل بين العلماء، وإن لم يشك أحد منهم فى قيمتها الكبيرة، وإذا كان أوريجينيس قد أتم مؤلفه العلمى الضخم، المعروف باسم Hexapla، فى قيسارية (Caesareal) لا فى الإسكندرية، فقد بدأه أصلا فى الإسكندرية، مسقط رأسه، حيث تزود بالمعرفة التى تؤهله للاضطلاع بتأليفه.


الإسكندر الأكبر
يوليوس قيصر

[تقديم ناسخ المخطوط]

بسم الآب والأبن والروح القدس

الاله الواحد

كتاب سير الابا البطاركه(*)

رزقنا الله بركة صلواتهم [آمين]

خلفا الاب البشير مارى مرقس الانجيلى المبشر بالانجيل المقدس وبشرى السيد المسيح بالمدينة العظمى اسكندريه واقليم مصر واقاليم الحبشة

(*) البطاركة: جمع مفرده بطرك. وهو فى النظام الرومانى من رجال السناتو أى مجلس الحكام فى الإدارة الرومانية. وكان عددهم أثناعشرة، منهم بطرك الاكليروس المختص بالشئون الدينية. والكلمة فى اللغة اليونانية تعني رئيس الآباء، فالبطرك يتربع على قمة الهرم الكهنوتى الذى يبدأ بالشماس فالكاهن «القسيس» فالمطران فالاسقف.

وضع مصر الفريد فى الإمبراطورية الرومانية

سقطت الإسكندرية فى يد أكتاڤيانوس فى اليوم الثامن من شهر مسرى الموافق أول أغسطس عام ٣٠ ق.م.(١). ودخلت مصر فى نطاق الامبراطورية الرومانية. وأصدر السناتو (مجلس الشيوخ) قراراً باعتبار هذا اليوم عيداً وطنياً فى روما ونقطة بداية التقويم المحلى فى مصر. غير أن حكم أكتاڤيانوس لا يبدأ فى الواقع إلا مع رأس السنة المصرية القديمة، أى فى أول توت الموافق ٢٩ أغسطس عام ٣٠ ق.م(٢).

(١) لم يكن شهر أغسطس قد سمى بعد بهذا الاسم بل كان يعرف وقتئذ بالشهر السادس (mensis Sextilis) وفقاً للتقويم الرومانى القديم الذى كانت السنة تبدأ فيه بشهر مارس. وقد سمى بشهر أغسطس تخليداً لذكرى أكتاڤيانوس (الذى منح هذا اللقب، بمعنى الجليل، فى يوم ١٦ يناير عام ٢٧ ق.م) أكبر الظن فى العام نفسه وليس فى عام ٨ ق.م. كما يفهم من بعض الكتاب.

(٢) تاريخ هذه الوثيقة التى يوصف فيها قيصر (أكتاڤيانوس) بأنه إله ابن إله (راجع: Bell. Cults and Creeds. p. 65) ٢٩ أغسطس ٣٠ ق. م. وعلى ذلك فهى أقدم بردية وصلتنا من العصر الرومانى.

ولتفسير ذلك نقول إننا نجد طريقتين متبعتين فى تاريخ الوثائق البردية من عصر أغسطس إحداهما هى التقليدية أى التأريخ بسنوات الحكم، مثال ذلك السنة الرابعة من حكم قيصر، وقيصر إذا ذكرت مجردة فى الوثائق تعنى أكتاڤيانوس والأخرى ـ التى لفت العلامة فيلكن نظر الباحثين إليها ـ هى التأريخ بسيادة قيصر (Kratêsis Kaisaros) فى بعض وثائق غير رسمية، مثال ذلك السنة الرابعة من سيادة قيصر.=

(*) الخمس مدن: بتنابولس، انظر ص٧٩٣.

والنوبة والخمس مدن بالمغرب(*) وهى افريقيه ومامعها.

(*) الكرازه: الدعوة الرسولية وخدمة كنيسة الله.

كل هذه وقعت بالقرعة فى كرازته(*) بالهام روح القدس، وكانت شهادته بعد تمام كرازته وبشارته وكتابته الانجيل باليونانية وكمال سعيه فى مدينة قيسرون وهى اسكندرية، وتسمى باللغة العبرانية مدينة امون.

وقد منع أكتافيانوس جنوده من نهب المدينة أو تخريبها وألقى على مواطنيها خطاباً باليونانية أعلن فيه صفحة عنهم. وعندما أحضروا إليه تابوت الإسكندر الأكبر من قبره تمعن فى جثمانه ووفاه ما يستحقه من تبجيل بأن وضع عليه تاجاً من اذهب ونثر فوقه الزهور. وعندما سألوه ان كان يرغب فى مشاهدة ضريح البطالمة، أجاب أنه رغب فى أن يشاهد ملكا لا أن يشاهد أمواتا ولم يمتهن أكتافيانوس بهذه الملاحظة ذكرى البطالمة بقدر ما جرح كبرياء

= والأخيرة رومانية الأصل إذ يوصف فيها قيصر (أغسطس) عادة بأنه ابن المؤله (Divi filius) أى ابن يوليوس قيصر الذى تبناه ورفعه السناتو إلى مصاف الآلهة بعد موته. ولدينا الآن وثيقة مؤرخة بالصورتين (P. Ryl. 601) ولا يبدأ عصر سيادة قيصر بيوم سقوط الاسكندرية (أول أغسطس ٣٠ ق. م.) ولا بيوم موت كليوبطره (١٠ أغسطس ٣٠ ق.م، بل يبدأ، كصورة للتأريخ بسنوات الحكم، بأول توت أى بيوم ٢٩ أغسطس ٣٠ ق. م. ولعل ذلك يرجع إلى أن أكتافيانوس أراد أن يؤكد فكرة سيادته على مصر كلها لا سقوط الإسكندرية وحدها، فعدل قرار السناتو حتى لا يجعل لسنة الأولى من حكمه فى مصر بدايتين متقاربتين هذا التقارب (أول أغسطس، ٢٩ أغسطس عام ٣٠ ق. م.) «وأما عن المصريين والاسكندريين فقد عفا عنهم جميعا حتى انه لم يهلك منهم أحد، والحق أنه لم يشأ ان ينزل ضررا لا يمكن علاجه بشعب كثيف العدد قد ينفع الرومان نفعا عظيما من نواح كثيرة. ومع هذا فقد برر صفحه عنهم بالاله سرابيس، والاسكندر مؤسس مدينتهم، وبأريوس أحد مواطنيهم الذى انتفع هو بعلمه وصحبته. وقد ألقى الخطبة التى عفا فيها عنهم باليونانية لكى يفهموه، وبعد ذلك شاهد جثمان الاسكندر بل انه لمسه بيده حتى يروى أن جزءا من الانف تفتت، ولكنه لم يشاهد جثث البطالمة ـ مع أن الاسكندريين كانوا شديدى الرغبة فى عرضها عليه ـ قائلا انه رغب فى ان يشاهد ملكا لا امواتا.».

وسيـرته تذكـر ما جرى له وبشـارته ومـا جـرى عليه مـشروحة فى اول السير الذى تضـمنهـا هذا الكتاب.

وورثوا ابهـاتنا الارتدكـسين البطاركـه من بعـده تعاليمه المخلصه للنفوس من الجحيم، وتبتو على ما سلمه لهم من حفظ الامانة الارتدكسيه والتمسك بها والصبر على الشدايد بسببها فى كل زمان الى النفس الاخـيـر، يعنى إلى الموت، وجلسـو على



شاهد قبر من الحجر الجيرى عليه
شخص فى حالة تعبد
(من القرن الخامس)

الإسكندريين. ولعله أراد أن يفهـمهم أن نفـوذهم فى الدولة قد تلاشى، وأن الأسرة التى كانوا رعاياها بالأمس قد اندثرت إلى الأبد. ولما كان يعلم أن الإسكندريين شعب ميال إلى الشغب يثور لأوهى الأسباب، فقد وضع بالمعسكر الكبير الذى أقامه فى نيقوبوليس[1]، فرقة رومانية، وهى الفرقة الثانية والعشرين التى أضيف إلى رقمها فيما بعد اسم ديوّطاروس (legio XXII Deiotariana)، وعززها بثلاث كتائب مساعدة من المشاة (cohortes). وليس من المستبعد أن يكون مـواطنو الإسكندرية ــ كـما يفـهم من بردية نشـرت فى سنة ١٩٣٠ ــ قد تقـدمـوا إليـه ملتمسين إعادة مجلس الشورى (Boulê) ــ وهو مجلس كان فيما يرجح قائماً فى المدينة منذ تأسيسها ولكنه ألغى فى وقت غير معروف قبل مجىء الرومان. فإذا كان قيصر المذكور فى البردية هو أكتاڤيانوس، فإنه لم يستجب لهذا المطلب بينما أقر لليهود حقوقهم القديمة. ولعله كان يرمى بذلك إلى إيجاد نوع من التوازن بين الإغريق واليهود حتى لا يطغى فريق على فريق عملا بالمبدأ الرومانى المشهور «فرّق تسد».

وليس من المؤكد إن كان أكتاڤيانوس قد اتجه بعد ذلك إلى ممفيس (ميت رهينة) ووضع عند بابليون (مصر القديمة) فرقة رومانية أخرى، رآها استرابون، ولكن اسمها لا يزال مجهولا

---

(١) كانت نيقـوبوليس تبعد عن الاسكندرية نفسـها بحوالى أربعة أميـال وفقاً لرواية اسـترابون ، ومكانها الآن ما بين مصطفى باشا (مصطفى كامل) وجليمونوبولو برمل اسكندرية.

كرسيه واحد بعد واحد خلفاً بعد سلف، فكلهم خلفاه ورعاة رعيته ومقتدون به وبايمانه فى المسيح.

هذه السير جمعها واهتم [بجمعها] من كل مكان الاب الجليل انبا سويرس بن المقفع اسقف مدينة الاشمونين، ذكر انه جمعها من دير القديس ابي مقار ودير نهيا وغيرهما من الديارات، وما وجده في ايدى النصارى منها اجزاء متفرقه. فلما جمعها اخوكم المسكين فى هذا الكتاب الواحد بعد بحث واجتهاد وهب الرب له مدة طويلة من العمر حتى وصل يوم ان كتب هذه السيره واهتم



حصن بابليون
(فسيفساء بيزنطية)

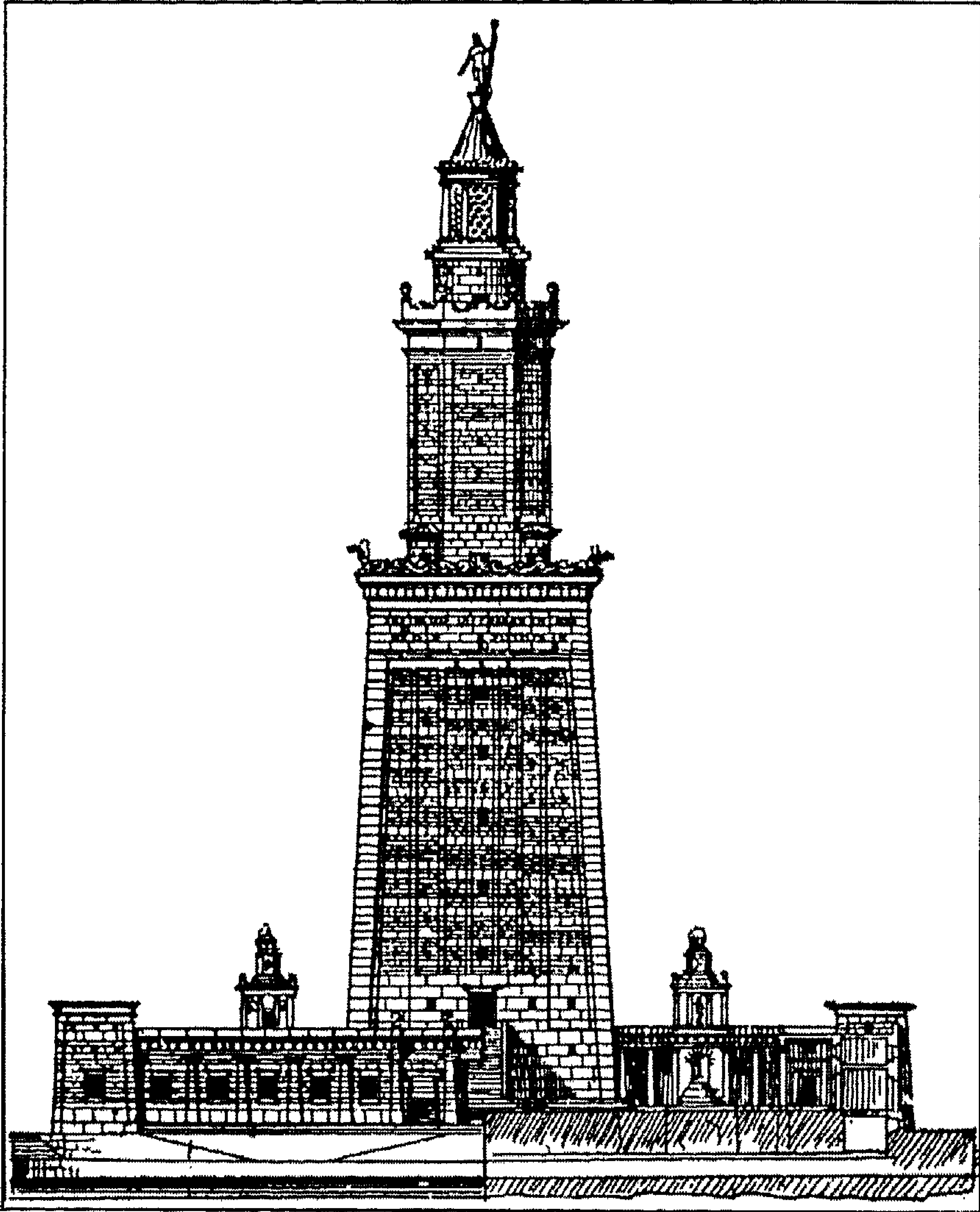
ولم ينس الفاتح الجديد أن جنوب الوادى، مركز عبادة آمون، كان معقلا للحركات القومية ضد البطالمة، فبعث إليه بفرقة رومانية ثالثة، يرجح أنها فرقة كورنيثة الثالثة (legio III Cyrenaica) التى تشير أقدم الوثائق إلى وجود جانب منها فى منطقة طيبة[١]، وعززها بثلاث كتائب مساعدة رابطت على الحدود الأثيوبية (النوبية) عند سوينى Syênê (أسوان). كما وزع أكتافيانوس ثلاث كتائب أخرى مساعدة فى بقية القطر. ومن العسير أن نتعرف على مراكزها على وجه التحديد؛ غير أنه من المرجح، استناداً إلى وثائق الفترة التالية، أنها رابطت عند مداخل إقليم هام كأرسينوى (الفيوم)، وهرموبوليس (الأشمونين)، التى كانت محطة جمركية للسلع الواردة من مصر العليا، وكبتوس (قفط)، وهى نقطة تجميع وتوزيع هامة للبضائع الآتية من موانى البحر الأحمر مثل ميوس هرموس Myos Hormos (أبو شعر القبلى؟) وبرنيقى Berenicê (الهرّاس) ولمنتجات المناجم والمحاجر العديدة بجبال الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر. وقد بلغ من اهتمام أكتافيانوس بالمنطقة الأخيرة أنه وضعها تحت إمرة ضابط يحمل لقب قائد برنيقى (praefectus Berenicês) أو قائد جبل برنيقى (praefectus

---

(١) انقسمت مصر إدارياً فى عصر الرومان إلى ثلاثة أقسام أو مناطق كبرى: الدلتا (تقابل مصر السفلى) والأقاليم السبعة، وإقليم أرسينوى (تقابل مصر الوسطى)، وطيبة (تقابل مصر العليا)، وكان على رأس كل منها قائد عام أو بالأحرى مدير عام (epistrategos). ولعل هذا التقسيم لم يستحدثه الرومان بل كان موجوداً منذ أيام البطالمة. =

بها ولم تكمل له إلى كمال تمنين سنة من عمره.

وإلى الله ارغب الاعانه على فهم ما نقراه منها والطاعــه لهم والعــمل باوامــرهـم واتبـا ع اثارهم والتـمـسك بايمـانهم انه سـمـيع مـجيب والشكر لله دايما سرمدا امين.



فنارة الاسكندرية احد عجايب الدنيا السبع

[تقديم ساويرس لكتابه]

بسم الآب والأبن والروح القدس الاله الواحد

المجد لله باعث العلوم ومبديها، وخالق الامور ومنشيها، وصانع الخلايق [عبيده] ومكونها ومهدى من يشا ويصطفيه، ورافع من يختاره من عبيده صفوته وخلقه الصالحين وينتخبه ويرتضيه، الذى يرفع من الارض مسكينا، ومن المزبلة فقيرا فيجعله ملكا على خلقه ومسلطا على تدبير عباده

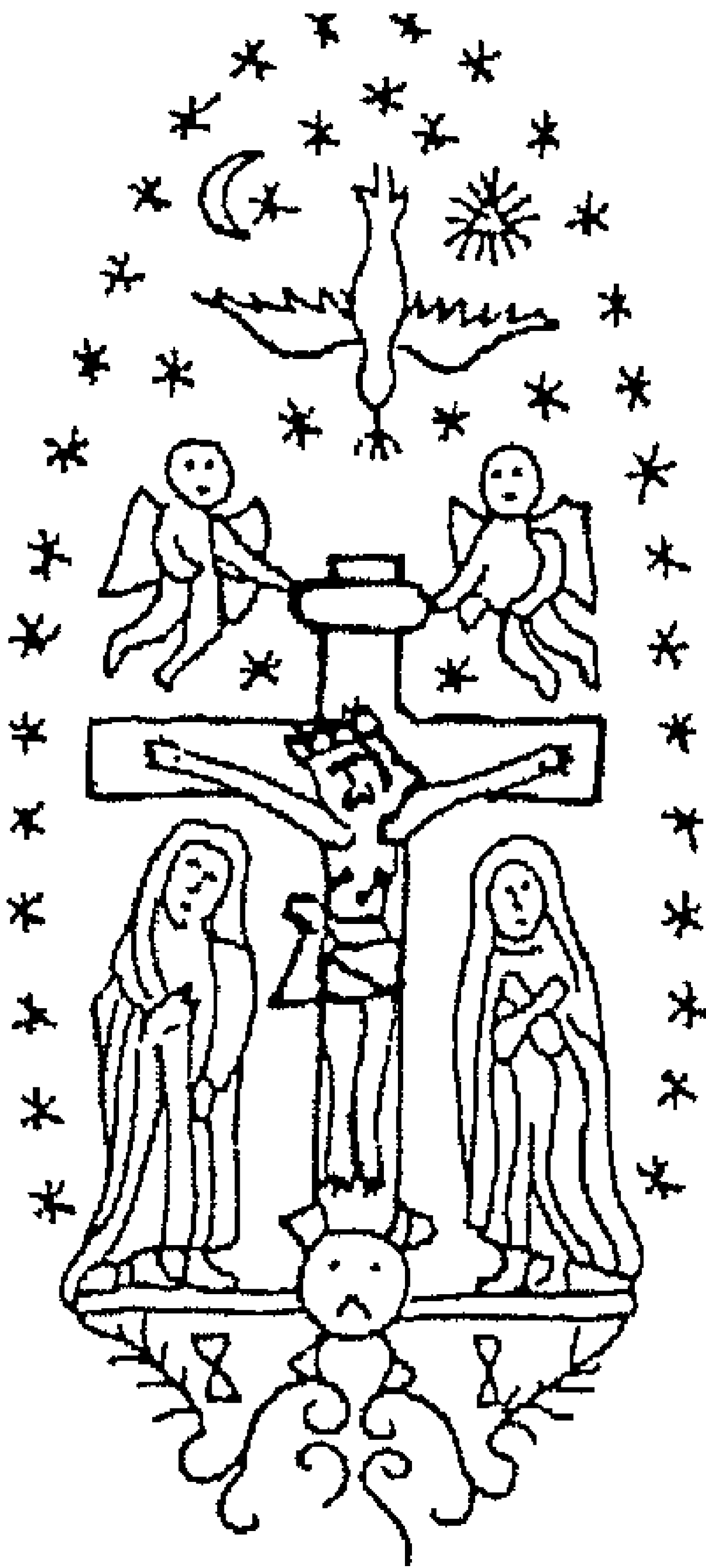
(montis Berenicidis)، الذى كان يتولى، إلى جانب إدارة المنطقة والإشراف على المناجم والمحاجر بمساعدة مشرف (procurator)، قيادة الحاميات التى وضعت لحراسة هذه المناجم وتأمين الطرق الصحراوية بين النيل والبحر الأحمر، وما فيها من آبار وصهاريج. ويضيف استرابون إلى هذه القوات ثلاث آلايات أو فصائل من الفرسان (alae) وزعت على المراكز الحيوية. ولا جدال فى أن نقطة دفاع رئيسية مثل بيلوزيوم قد عسكرت فيها إحدى هذه الفصائل أو غيرها من الوحدات التى نقلت من الفرق الأصلية أو الكتائب الإضافية لتقوم بحراسة نقط معينة على الطريق الساحلى الممتد بين بيلوزيوم عبر الصحراء إلى فلسطين أو من الإسكندرية حتى برايتونيوم (مرسى مطروح) أو على الطرق الممتدة على جانبى الدلتا بين هاتين المدينتين وممفيس عند رأس الدلتا[١].

وقام أكتافيانوس ببعض إصلاحات عاجلة لوقف التدهور الاقتصادى الذى انتاب مصر فى أواخر عصر البطالمة. ولا مراء فى أنه رسم الخطوط العريضة للنظام الإدارى ووضع الأسس التى

=وكانت هذه المناطق الكبرى بدورها منقسمة إلى أقليم (تقابل المحافظات الحالية) على رأس كل منها قائد أو بالأحرى محافظ (strategos).

(١) عن القوات الرومانية وتوزيعها فى مصر بعد الاحتلال، انظر:

Strabo XVII, 1.12 (Cf.also 30: 53): =


* وشم يمثل صلب المسيح
ينتشر فى صعيد مصر

وبلاده، وكرسى العز يورثه ليحكم فى الارض بالعدل بين الناس بالحق، ليقمع القوى عن الضعيف وينقذ المظلوم من الظالم.

وذلك حكم الله وحكمته التى لا يفهمها احد من المخلوقين، المخفية سرايره عن الحكما وذوى الالباب، الذى يقيم فى كل زمان من يضاهى اهله، الر [ؤ] ف المتحنن السيد المسيح الذى ابذل نفسه بسر تجسده عن خلاص خلقه، وغلب الاقويا بالتواضع والسكون الناطق على افواه انبياه بروح

قام عليها الحكم الرومانى فترة طويلة من بعده. ولم يكن فى وسعه أن يبقى فى مصر مدة أطول فغادرها عائداً إلى روما ليواجه المشكلات الكثيرة التى نجمت عن الحروب الأهلية الطويلة. وهناك تبين له أن العلاج الوحيد هو تغيير نظام الحكم الجمهورى وإقامة حكم تواضع المؤرخون على تسميته بحكم المواطن الأول (Principatus)، وإن كان فى حقيقة الأمر حكما ملكياً تتركز فيه السلطة العسكرية ـ على الأقل ـ فى يد شخص واحد. غير أنه لم يشأ أن يظهر فى صورة الحاكم المفرد المطلق السلطة، فأبقى على بعض مظاهر الحكم الجمهورى القديم، وأشرك معه السناتو فى تصريف شئون الإمبراطورية. وبمقتضى التسوية التى تمت فى ١٣ يناير عام ٢٧ ق.م. ـ وهو تاريخ ميلاد الحكم الامبراطورى الجديد ـ قسمت أعباء إدارة الولايات بينه وبين السناتو الذى منحه فى العام نفسه لقب أغسطس.

لكن ينبغى قبل الكلام عن الدور الذى قامت به مصر فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية أن أحدد وضعها فى تلك الامبراطورية. هذا الوضع كان ولا يزال مثار جدل بين الباحثين. ففى

= ويوجد فى مصر ثلاث فرق عسكرية (tagmata = l. legiones) احداها فى المدينة (الإسكندرية) والاخريان فى القطر (chôra). وتوجد غير هذه تسع كتائب رومانية Speirai = L.cohortes ثلاث منها فى المدينة وثلاث على الحدود الاثيوبية (النوبية) فى سوينى (أسوان) وثلاث فى بقية القطر. وهناك أيضا ثلاث فصائل من الفرسان (hipparchiai= L. alae) موزعة بالمثل على المراكز الحيوية.

قدسه، فى الوقت الذى شا[ء] ان يظهر فيه على الارض وتجسد لخلاص عالمه الذى خلقهم كشبه صورة سلطانه، ظهر فيهم متجسدا من مريم العدرا افضل نسا[ء] العالمين التى اصطفها من درية ادم، الذى اخطا وخالف ربه واطاع عدوه وترك وصية خالقه فوجب ان يموت بالموت كما قال الله له، وحذره من معصيته فلم يقبل واراد ان يكون الها ويتشبه بخالقه فانوهق(*) فى فخ العثره، فتحنن الله الكلمه عليه ورحمه.

(*) انوهق سقط ووقع.

رأى فريق منهم أن مصر لم تكن ولاية (Provincia) بالمعنى المألوف للكلمة، بل كانت إحدى ممتلكات الإمبراطور الخاصة التى ترتبط بشخصه ارتباطاً وثيقاً وتخضع له خضوعاً مباشراً ويستندون فى ذلك إلى أن أغسطس لا يصفها فى الوثيقة المشهورة باسم «أثر أنقرة»[1] بأنها ولاية، على حين أنه يتحدث عن احتمال تحويل أرمينيا الكبرى إلى ولاية فى الفقرة الثالثة، وأن السجلات الرسمية المعاصرة لا تذكر اسم مصر مقروناً بكلمة ولاية، وأنه إذا كان المؤرخ ديون

(١) أثرأ نقـرة (Monumentum Ancyranum) نقش لا تينى مع الترجمة اليونانية عثر عليه أول مرة عام ١٥٥٥ فى أنقرة (أنجورا Angora قديما) بتركيا (مكان ولاية جلاتيا Galatia الرومانية). وقد نقل نقلا علمياً صحيحاً فى ١٨٦١، وبصورة أدق فى عام ١٨٨١، ونشره العلامة مومسن (Mommsen) فى طبعة ثانية فى موسوعة النقوش اللاتينية (C.I.L.) عام ١٨٨٣. وقد عثر على صورة أخرى يونانية (غير كاملة) من هذا النقش فى بلدة أبو للونيا بإقليم بيسيديا بآسيا الصغرى (Monumentum Apolloniense)، وعلى صورة ثالثة لاتينية (غير كاملة) فى بلدة أنطاكية بنفس الإقليم المذكور (Monumentum Antiochenum. وأما الأصل الذى أمر أغسطس بحفره على عمودين مكسوين بالبرونز وإقامهما أمام ضريحه (Mausoleum) فى ساحة مارس (Campus Martius) خارج روما، فلم يعثر عليه. ويحتوى هذا النقش على موجز بأعمال أغسطس فى الناحيتين العسكرية والمالية وقد أشار إليه المؤرخان سويتونيوس (Div. Aug. CI, 6) وديون كاسيوس (LXI, 33) ويتبين من كل ذلك أن عنوان الوثيقة الصحيح هو Res Gestae Divi Augusti، أى «أعمال أغسطس المؤله». وقد بلغ من أهمية هذا النقش أن العلامة الألمانى مومسن أطلق عليه إسم «غرة النقوش اللاتينية titulus inter Latinos primarius».

وتجسد الغير مخلوق فى لاهوته المر[ء] بناسوته، البرى من كل خطيه، وحملته مريم العدرا الطاهره وولدته بالسر الذى لا تدركه عقول المخلوقين، مفضلها بذلك على جميع العلمين السماوين والارضيين والملايكه والقوات والارباب والكاروبيم والسارافيم وكلمن خلق من السماوين الارضيين، وصارت كرسى الاولين والاخرين من غير افتراق ولا تغيير لا يحويه مكان ولا يحصره زمان.


السيدة العذراء تحمل السيد المسيح

كاسيوس يذكرها بين الولايات التى أسندت إدارتها للامبراطور فى عام ٢٧ ق.م. فإنها لم تتأثر فى الواقع بالتسوية التى تمت فى ذلك العام، بل ظلت النظم التى وضعت لها عند الفتح على ما هى عليه، وهى نظم تختلف اختلافاً جوهرياً عن نظم سائر الولايات. ويستشهد فريق آخر بنفس عبارة أغسطس فى الوثيقة المذكورة «لقد ضممتُ مصر إلى سلطان الشعب الرومانى»، لأنها ـ فى رأيهم ـ من الوضوح بحيث لا تحتمل سوى تأويل واحد، وهو أن مصر كانت ولاية استغلت مواردها ـ كغيرها من الولايات ـ لمصلحة الشعب الرومانى. فقد وصفها أكثر من مؤرخ قديم بأنها ولاية (provincia) واحتلها جيش رومانى، أمدت فرقه الأصلية وقواته الإضافية بكثير من الجنود، ولم يحكمها وكيل مالى (Procurator) من وكلاء الإمبراطورية الذين كان يعهد إليهم بإدارة بعض الولايات الصغيرة التى لا ترابط فيها سوى حاميات ضئيلة، بل حكمها وال تدرب فى سلك وظائف «الفرسان»، العسكرى والمدنى، وتدرج فيه حتى أن منصبه كان فى أول الأمر أرقى مناصب ذلك السلك. وكانت إيراداتها تحول إلى الخزانة المركزية فى روما لكى تنفق مع الأموال الأخرى المحصلة من بقية الولايات فى إطعام الشعب الرومانى وسد حاجات الإمبراطورية. ويستبعد هذا الفريق أن عاهلا كأغسطس ـ اتسمت سياسته بالحذر والحرص على أن لا يزاول سلطات دون تفويض من السناتو والشعب ـ كان يستأثر بمصر وجميع مواردها. وثمة فريق ثالث يرى أن مصر، التى تقول النصوص والوثائق إن

ولما قضى تدبيره بحكمته الغير مدركه واتحاده المخفى سره عن كلمن فى السما والارض، اصطفى تلاميذه الحواريين واعطاهم السلطان العظيم وجعل لهم ان يربطو ويحلو، كذلك خلفاهم من بعدهم يرثوا هذه العطيه فى كل اقاليم الدنيا خلف بعد سلف، فانتقل ميراث هذا السلطان الذى دفعه المسيح، للاب البشير العظيم مرقس الحوارى الى خليفته الذى يجلس على كرسيه من البطاركه بالمدينه العظمى اسكندريه وما يليها من اقاليم كرازته، فهو اول بطرك رعى رعيه المسيح، ثم تبعوه



ايزيس وعلى رأسها كرسى العرش. (مقبرة سيتى الأول)

أغسطس أخضعها لسلطة الشعب الرومانى، كانت ولاية، غير أن الشعب فوض الإمبراطور فى إدارتها باسمه وفقاً لتقاليدها الخاصة ومقتضيات ظروفها السياسية. ومع هذا الاختلاف فى تحديد وضع مصر إزاء الحكومة المركزية، فإن الرأى الراجح الآن هو أنها كانت ولاية، ولكنها من طراز فريد، فى الإمبراطورية.

لقد أدرك أغسطس أهمية مصر كمستودع للقمح لاغناء عنه لإطعام الشعب الرومانى فقد كان محصول إيطاليا منه لا يكفى لسد رمقه، وأدرك أهميتها كمورد للمال لابد منه لتدعيم الخزانة التى نضبت من جراء الحروب الأهلية. لذلك وضع فى مصر من الفرق الرومانية (legiones) والقوات المساعدة (auxilia) أكثر مما تستلزمه حاجة الدفاع حتى يضمن تماماً عدم وقوعها فى يد عدو من أعداء روما، قد يمنع عنها المؤونة أو يقطع عليها طريق الاتصال بالشرق. كما أدرك ميزة موقعها الاستراتيجى، لأن مصر بلد من السهل الدفاع عنه، وفى وسع من يتحكم فى مدخليها أو مفتاحيها، بيلوزيوم فى الشرق، وفاروس فى الغرب، الذين يوصفان بأنهما النقطتان الرئيسيتان للدفاع عنها من البر والبحر، فى وسعه أن يصد بسهولة أى هجوم عليها ويستقل بها ويناوىء روما منها كما كانت مصر بلداً كثيف السكان، اشتهر أهلها، وبخاصة أهل الإسكندرية، بالميل إلى الفوضى والشغب. لذلك حرص أغسطس أشد الحرص

الاباء البطاركه المويدين جيلا بعد جيل. وهذا الكرسى خاصته دون غيره من الكراسى، لا يتقدم عليه بطرك، و[لا] ينال عند الله المنزلة الشريفه والدرجه العاليه والمنيفه الا من قد جربه وابتلاه ولقى من التعب والنصب ومقاومه الاعدا والجهاد من المخالفين ما ضاها به تلاميذه ورسله المويدين بروح قدسه، والاطهار المبشرين الذين اصابهم من الهوان والضرب بالسياط والرجم والصلب والتغريق فى لجج البحار وحريق النار والجراح، والرمى من الاماكن العاليه الى الارض، والقتل



من الفن القبطى. السمكة والصليب. كانت السمكة رمزاً للمسيح

على تأمينها من الوقوع فى يد المنافسين، فلم يقم عليها، كما هو الحال فى سائر الولايات، والياً من هيئة السناتو، وهى الهيئة الأرستقراطية ذات الميول الجمهورية التى لم يكن ليطمئن إليها كل الاطمئنان، بل أقام عليها والياً من هيئة الفرسان (ordo equester)، وهى فى الأصل هيئة رجال الأعمال الذين اكتسبوا من ممارسة التجارة والتزام جباية الضرائب خبرة بالشئون المالية. ولم يكن هذا الوالى مسئولا أمام أحد سواه. ولم يحمل لقب مندوب أغسطس (legatus Augusti)، كما هو الحال فى ولايات الإمبراطور، ولا لقب نائب قنصل (Pro consule) أو نائب بريتور (pro praetore)، كما هو الحال فى الولايات السناتورية، بل حمل لقباً من ألقاب سلك الفرسان بمعنى حاكم أو وال (Praefectus). وقد أسندت إلى هذا الوالى، الذى عرف رسمياً باسم «والى الإسكندرية ومصر (praefectus Alexandreae et Aegypti) ـ لأن مصر كانت شيئاً والإسكندرية شيئاً آخر ـ أسندت إليه قيادة جيش قوامه من الفرق الرومانية التى لم يكن يتولى قيادتها خارج مصر سوى رجال من طبقة السناتو. وزيادة فى الحيطة استن أغسطس قاعدة حرم بمقتضاها على أعضاء السناتو (بل والفرسان اللامعين من أعضاء السناتو) دخول مصر إلا بعد الحصول على إذن خاص من الإمبراطور. وسواء أكان هذا التحريم يشمل هيئة السناتو بمقتضى قانون خاص أم تحريماً يشمل أعضاءه وغيرهم بمقتضى السلطة الأعلى (imperium maius) التى فى يد الإمبراطور، فإن خلفاءه احتذوا هذه


العذراء ترضع سمكة، رمز المسيح. (كنيسة نوتردام دى لوزان)

بالسيف واصناف العذاب، مما لو شرحنا على نصه لطال شرحه وعظم وصفه واقشعرت من سماعه الابدان، ولم تسع الكتب ولا المصاحف بسيره، وكانو فى الصبر والاحتمال لذلك كله مقتدين بربهم ومعلمهم ومسيحهم ومرسلهم ليعمدو الامم والخلايق ويجذبوهم الى الايمان به، وعلموهم ما ينتفعون به على طول الدهور والاجيال والاحقاب الى اخر ايام الدنيا مما فيه خلاص نفوسهم فى الاخره والدنيا. وورثو علومهم لخلفاهم الاباهات البطاركه بكل اقليم وصلت اليه

القاعدة التى غدت بمثابة سر من أسرار توطيد السيادة، ولم يخرجوا عنها إلا بعد أن تدهورت أحوال مصر الاقتصادية وفقدت مركزها الفريد فى الإمبراطورية.

٢. تأمين الحدود وطريق التجارة مع الشرق

وكانت مصر البطلمية قد قامت بدور هام فى سياسة العالم الهلينستى عندما كانت دولة مستقلة قوية فى القرن الثالث قبل الميلاد. وقد شهد ذلك العالم كثيراً من الحروب التى استعر أوارها بين الممالك الكبرى: مصر وسوريا ومقدونيا. ولم تستفد الإنسانية شيئاً من هذه الحروب التى استنفدت موارد تلك الممالك وأنهكت قواها وانتهت بسقوطها الواحدة تلو الأخرى فى يد الجمهورية الرومانية. ولم تلبث روما ـ بعد فترة أخرى من الحروب الأهلية ـ أن بسطت سيادتها على الأقطار المطلة على حوض البحر المتوسط، ولم يأت الامبراطور أغسطس حتى انتشرت فى ربوعها ألوية السلم، الذى يعرف أحياناً باسم «السلم الأغسطى» (Pax Augusta). وكان من الطبيعى أن يتضاءل دور مصر السياسى بعد أن أصبحت ولاية رومانية. غير أن هذا الدور لم يتضاءل إلى الحد الذى يذهب إليه العلامة شوبارت حين يقول إن زيارات الأباطرة لمصر صارت أهم أحداث ذلك القطر. لقد كانت مصر من أكثر الولايات كثافة فى السكان وأوفرها ثراء لذلك احتفظت بمركز هام بين هذه الولايات. ومع أن مصيرها ارتبط بمصير الإمبراطورية، إلا أنها لم تفقد شخصيتها، فأثرت فى مجرى تاريخ الإمبراطورية مثلما تأثرت به.



شرقية (Abside أو قبله) كنيسة من مدينة باويط، عليها رسوم بالفرسكو المتعددة الألوان. وتمثل هذه الرسوم السيد المسيح عليه السلام يجلس على عرش، ويحمل بيسراه السفر، ويومىء بإشارة البركة بيمناه، ومحيط بعرشه حيوانات ترمز إلى الرسل الأربعة؛ فالأسد يرمز إلى الرسول مرقس، ورأس العجل ترمز إلى الرسول لونا، ورأس النسر ترمز إلى القديس يوحنا، أما وجه الإنسان فيرمز للرسول متى. ويحيط بالعرش يمنة ويسرى رئيسا الملائكة ميخائيل وجبرائيل.

وقد احتوى تجويف الشرقية على رسوم أخرى تحت صورة السيد المسيح، تمثل السيدة العذراء وهى تحمل السيد المسيح، وحولها الإثنى عشر رسولا، وقد حمل كل منهم إنجيلا فى يده، وأسماؤهم مدونة فوق رؤوسهم باللغة القبطية.

والأسلوب التصويرى لهذه الشرقية يتبع إلى حد كبير الأسلوب القبطى الذى كان سائدا فى مصر فى العصر الرومانى، وخاصة فى رسوم الأجسام والملابس، ونلاحظ أن الرؤوس كلها حولها دوائر هى عبارة عن هالة التقديس، وعلى ذلك يمكننا القول بأن القبط استخدموا فى الرسوم الحائطية وكذا المخطوطات، أسلوباً فنيا متطوراً، أما فى المنسوجات وحاجياتهم الخاصة، فقد ظلوا يستعملون فناً خاصاً بهم، هو الأسلوب القبطى.

والشرقية بكاملها نقلت من واحة باويط إلى المتحف القبطى بالقاهرة.

ويمكن إرجاع هذه الرسوم إلى القرن (٥ ـ ٦ م).

كــرازتهـم وبشـــراهـم ، لان البطاركـــه خلفــاهـم واتباعهـم بذلو نفوسهـم فى حفظ من ايتمنو عليه من بنى المعموديه المومنين الارتدكسيين، كما قال الرسول العظيم المعلم الفضل بولس المصطفى سراج بيعه(*) الله: بل قد نفتخر بما نقاسى من الضيق لانا نعلم ان الضيق يكمل الصبر فينا والصبر محنه وابتلا والشدايد داعيه الى الرجا والرجا لا يخيب لانه يفيض على قلوبنا محبه الله بروح القدس. كما قال ايضا: انكم ان اهملتم وتركتم بغير ادب ولم تلدعو بما لدع به الصفوه

(*) بيعه الله: هى الكنيسة المسيحية، وهى ترد بعدة اسماء فى المصادر التاريخية مثل: بيت الله، بيت الصلاة، بيت الشهداء، بيت الجماعة، البيعة، كنيسة الله، اورشليم السماوية، الحمامة الوحيدة، جسد المسيح، سفينة نوح.

ولما كانت حدود مصر الجنوبية هى أيضاً حدود الإمبراطورية الرومانية. فقد حرص أكتافيانوس، والأباطرة من بعده، على تأمين هذه الحدود ضد الغزو الأجنبى. ولم يمض عام على الفتح الرومانى، حتى هبّت منطقة طيبة ثائرة فى وجه الرومان إما لتعسف جباتهم أو محاولتهم فرض ضرائب جديدة أو لمجرد الثورة فى وجهى الحكام الجدد. وبلغ من خطورتها أن كورنيليوس جاللوس، وهو أول وال على مصر، اضطر إلى أن يقود القوات الرومانية بنفسه ويزحف جنوباً لقمعها. وقد أشار استرابون إشارة عابرة إلى هذه الثورة قائلا «وقمع (أى كورنيليوس جاللوس) فى زمن وجيز ثورة قامت فى طيبة بسبب الضرائب». ويشاء الحظ أن تصلنا عنها معلومات أوفى سجلها هذا الوالى على حجر من الجرانيت وجدناه فى جزيرة فيلاى Philae (أنس الوجود). وهذا الحجر مكتوب بلغات ثلاث: المصرية واللاتينية واليونانية. ويحمل النص الهيروغليفى تاريخ ٢٠ برمودة من السنة الأولى من حكم قيصر (أكتافيانوس) الموافق ١٥ أبريل من عام ٢٩ ق. م. يقول الوالى مفتخراً بانتصاراته:

جايوس كورنيليوس جاللوس بن جنايوس، الفارس الرومانى، أول وال على الإسكندرية ومصر بعد اندحار الملوك على يد قيصر بن المؤله، وقاهر ثورة طيبة فى ١٥ يوما، هزم خلالها العدو مرتين فى معركة عامة، واستولى عنوة على ٥ مدن: بوريسيس وكبتوس وكيراميكى وديوسبوليس مجالى وأوفيون، وأسر زعماء تلك الثورات، وقاد الجيش إلى ما وراء شلال النيل،

من قبلكم من اوليا الله فقد صرتم غربا من الله غير قريبين منه.

ومتل هذه الشهادات كتير فى كتب البيعه منه ومن غيره من الرسل المويدين والابا المعلمين بعد الانبيا المكرمين. ولم يزالوا دافعين لاقوال المخالفين مجتهدين فى الرد عليهم معاندين لهم داحضين مذاهبهم مظهرين للناس كفرهم وفساد اعتقادهم. ويضعون على كل كلمة ميمرا(*) الى ان ملو بيعه الله ميامر ومواعظ وعلوما روحانيه. ولم يهملو

(*) الميمر: الشروح والتفاسير.

وهو مكان لم تبلغه من قبل قوات الشعب الرومانى أو ملوك مصر، وأخضع طيبة، مصدر الذعر لجميع الملوك، واستمع إلى سفراء ملك الأثيوبيين عند فيلاى، وقبل ذلك الملك تحت الحماية، وعينه حاكما على ترياكنتا سخوينوس الأثيوبية. وقد قدم (هذا النصب) هدية للآلهة القومية وللنيل الذى أعانه.

وتحتاج هذه الوثيقة إلى بعض التفسير. فكاتبها هو كورنيليوس جاللوس الذى كان أحد قواد أكتافيانوس وقد أسدى هذا القائد خدمة جليلة له عندما استولى على برايتونيوم (مرسى مطروح) ورد الهجوم البرى والبحرى الذى قام به أنطونيوس على المدينة لاسترداد فرقه العسكرية التى تخلت عنه. ولا مراء فى أنه كان مقرباً من أكتافيانوس لأنه كان أحد رسله إلى كليو بطرة فى أيامها الأخيرة. وقد كوفىء بعد الفتح بتعيينه والياً على مصر (أغسطس ٣٠ ق.م ـ ٢٧ أو ٢٦، ق.م). ويصف جاللوس نفسه بأنه فارس رومانى أى أحد أعضاء هيئة الفرسان (ordo equester) التى كان الانتماء إليها يتطلب امتلاك نصاب لا يقل عن ٤٠٠,٠٠٠ سترتيوس أى حوالى ٤٠٠٠ جنيه. وتؤيد عبارته «أول وال على الإسكندرية ومصر» ما ذكرناه آنفاً، من أن الإسكندرية لم تكن تعتبر فى العصر الرومانى جزءاً من مصر على الأقل من الناحية الرسمية ويقصد هنا بالملوك، ملوك البطالمة، وإن كان قيصر لم يدحر فى الواقع سوى كليو بطرة. لكن لعل المقصود بالجمع هنا أن اندحارها كان خاتمة حكم

درس كتب الله وادابه ووصاياه غير مهملين، ولكل اداب البيعه وغيرها من الالفاظ التى يحتاجون اليها فى وضع ميامرهم طالبين، والى كل جواهر الكلام الالهى والادب راغبين. حتى بلغو وادركو بغيتهم وحضرو دعوه باريهم وداعيهم قايلين كلمتهم: هو دا انا والبنون الذين اعطيتنى ولم يهلك منهم احد. ففازو بالدرجات العاليه والمنازل التى بالنعيم والنور متلاليه التى خيراتها دايمه غير باليه.

البطالمة أو لعل المقصود به كليوبطرة وأبناءها. وأما قيصر فهو أكتافيوس الذى حمل اسم أبيه جايوس يوليوس قيصر الذى تبناه فسمى جايوس يوليوس قيصر أكتافيانوس أو بالإسم الأخير فقط، وإن عرف بين القدماء باسم «قيصر» واشتهر بلقب «أغسطس». ويستطرد جاللوس قائلا إنه أخمد ثورة طيبة، وهى أحد الأقسام الثلاثة الكبرى التى انقسمت إليها مصر إدارياً منذ الفتح الرومانى، إن لم يكن منذ عصر البطالمة، وتقابل مصر العليا. وليس بين المدن الخمس التى استولى عليها: بوريسيس (غير معروفة) وكبتوس (قفط)، وديوسبوليس مجالى (مجنا فى اللاتينية) أى مدينة زيوس الذى شبه بآمون، وهى طيبة (الأقصر الحالية)، وأوفيون (أو أوفيس) ـ وهى الكرنك الآن ـ وكيراميكى (ميدامود أو البلات)، ليس من بينها ما هى جديرة باسم مدينة سوى طيبة، بل إن المكانين الأخيرين لم يكونا فى حقيقة الأمر سوى قريتين أو حيين تابعين لها. ولعله أسر فعلا زعماء تلك الثورات. وقد يستدل من صيغة الجمع على قيام أكثر من ثورة فى بلاد مصر العليا ضد الرومان. وفى الحق إن الثورات لم تقتصر على مصر العليا وحدها، بل قامت أيضاً فى الطرف الشرقى من الدلتا إذا يحدثنا استرابون بأن كورنيليوس جاللوس «هاجم هيرونبوليس Heroônpolis (تل المسخوطة) التى كانت قد ثارت وأخذها بنفر قليل.

ولنتتبع الوالى الذى يقول إنه قاد جيشه إلى ما بعد شلال النيل، وهو الشلال الأول. وإذا

ولم يكونو فى حين رعايتهم يخافون من الملوك الطاغيـه ولا زالت قلوبهم ونيـاتهم فى حب الله وتعليم الناس ما فيه خلاص نفوسهم سرا وعلانيه. ولا كانو فى رعايتهم ساهين ولا لاهين ولا مقتنين لشى من متاع الدنيا الفانيه. بل سامعين طايعين لامر ربهم، وعلى تاديبهم وتعاليمهم منكفين، وبقوانين الله واحكامه قايمين. وكانو فى عيون رعاياهم عظما عالمين. واذا شاهدهم احد منهم، او من المخالفين لهم ولمداهبهم، مجدو الله من اجل اعمالهم لتمام الكلام الانجيلى الذى قال: انتم نور

صدق قوله فى أن هذه المنطقة لم تسبقه إليها قوات رومانية فهو مدع حين يزعم بأن قوات البطالمة لم تبلغها من قبل. وهو صادق فى وصفه طيبة بأنها مصدر ذعر لجميع الملوك (الملوك البطالمة) لأن طيبة بوصفها مركز عبادة آمون كانت معقلا للحركات القومية بزعامة الكهنة المصريين ضد الغزاة الأجانب وكثيراً ما هبت ثائرة فى وجه البطالمة حتى أنها كادت تستقل فى أواخر عهدهم، مما أوغر صدر بطليموس سوتير (الثانى) عليها فدمرها فى عام ٨٨ ق.م. فلا عجب أن سبقت غيرها من المدن إلى شق عصا الطاعة فى وجه الغزاة الجدد. ولعلها نكلت بالجباة الذين جاءوا لتحصيل الضرائب باسم الرومان. ويستطرد جاللوس قائلا إنه استقبل عند جزيرة فيله (قصر أنس الوجود) سفراء ملك الأثيوبيين (النوبيين). ولعل هذا الملك هو تيريتيكاس (Tireteqas)، زوج كنداكى (Kandakê) الملكة الشهيرة، التى حكمت النوبة من بعده. ويزعم جاللوس أن ملك النوبة قبل الحماية الرومانية وأنه عينه حاكما على تريا كنتاسخوينوس[1]، وهى منطقة نعلم أنها خضعت مرة للحكم البطلمى وربما كانت تمتد من الشلال الأول حتى الشلال الثانى عند وادى حلفا، أى بين حدود مصر وحدود النوبة الأصلية. ويختتم الوالى سجل انتصاراته بأنه أهدى هذا النصب التذكارى للآلهة الوطنية وللنيل بوصفه

---

(١) الكلمة يونانية ومعناها ثلاثون اسخوينوس، والأخير يساوى ستين استاديون، والاستاديون ١٨٥ متراً؛ أى مسافة طولها حوالى ٣٣٣ كيلو متراً.

العالم لاتستطيع مدينه تخفى وهى على جبل، ولا يوقد سراج فيوضع تحت مكيال بل على منارة ليضى لساير من فى البيت، هكذا يضى نوركم قدام الناس فيروا اعمالكم الحسنه فيمجدو اباكم الذى فى السموات.

كما قال بعض الحكما: من رقى درجات العلوم والهمم عظم فى عيون الامم. ومن كرم خلقه وجب حقه. ومن هان عليه المال توجهت اليه الامال. من عقل ذال ظلمه ومن عدل نفذ حكمه.

نهراً جباراً أثار دهشته أو إلهاً أظهر له بعض آياته، كفيضانه أو غيضانه فجأة أو هدوء مائه الذى يسر لمراكب الرومان الملاحة فيه، وأعان قائدهم أثناء حملته على قمع الثورة.

وهذا النقش على جانب كبير من الأهمية، لا لأنه من أقدم الوثائق التى وصلتنا من الفترة الرومانية فحسب، بل لأنه يبين لنا أيضاً مدى اهتمام الحكومة الرومانية بتأمين الحدود الجنوبية للامبراطورية، ويلقى ضوءاً على سياسة أكتاڤيانوس الخارجية فى عدم توسيع رقعتها والاكتفاء بخلق مناطق حرام، تعترف فقط بالسيادة الرومانية الإسمية متاخمة لحدود الإمبراطورية تجنباً للنزاع مع الدول القريبة منها. على أن النقش يتسم أيضاً بطابع المغالاة ويشبه البلاغات العسكرية التى تجنح عادة إلى التهويل. وليس أدل على ذلك من حملة جاللوس التى وإن كانت قد قمعت ثورة طيبة، فإنها لم تؤمن حدود مصر الجنوبية، على نحو ما سنرى بعد قليل. ولقد روى أن هذا الوالى أسكرته خمر الانتصارات السهلة فسجل أخبارها على الأهرام وتملكه الزهو فنصب تماثيله فى جهات كثيرة من الوادى وطفق يتفاخر بأعماله متفوهاً بكلام فيه مساس بالإمبراطور. واستنكر أكتاڤيانوس مسلكه وتوجس خيفة من أطماعه فعزله من منصبه وجرده من حقوق المواطن ونفاه. ويروى ديون كاسيوس ــ وروايته لا تخلو من الاضطراب ــ أن أصدقاء جاللوس أنفسهم كالوا له التهم أمام المحاكم وقرر السناتو بالإجماع إدانته ــ أكبر الظن بتهمة الخيانة العظمى (maiestas) ــ ونفيه ومصادرة ضيعته وضمها إلى أملاك أغسطس.

الريس من يذب بملكه عن دينه ولا يذب بدينه عن ملكه. واحسن ما قيل في بعض جواهر الكلام: ان الراعى الصالح يصلح الرعيه وبالعدل يملك البريه. من عدل فى سلطانه استغنى عن اعوانه. من كان فضله على الناس بمرتبه الرياسه ومزيه السياسه فحقيق عليه ان يحفظ بحسن الرعايه مرتبته لتدوم له النعمة ويسعد فى الدين والدنيا، ومن مكنه الله من ارضه وبلاده وايتمنه على خلقه وعباده ورفع محله ومكانه فحقيق عليه ان يودى شكر الله بالامانه ويخلص الديانه ويجمل

واشتد الحزن بجاللوس فانتحر فى عام ٢٦ ق.م. ومن العسير التيقن من صحة الأسباب التى أغضبت أغسطس على صديقه المقرب، وأول وال على مصر، وصديق ڤرجيل، الذى رثاه كشاعر مثله. وعلى أى حال فإن حادثة عزله تنهض دليلا على مدى حذر الإمبراطور من والى مصر الذى قد تغريه انتصاراته على تجاوز الحد المرسوم له والتفكير فى التمرد عليه والاستقلال بالولاية الغنية.

وقد رأى أغسطس ـ كما رأى البطالمة من قبله ـ أن يحول طريق التجارة فى البحر الأحمر إلى الموانى المصرية الواقعة على هذا البحر مثل برنيقى وميوس هُرموس وكانت القبائل العربية التى تقطن ببلاد العرب السعيدة Arabia Eudaemon = Ar. Felix (اليمن) والقبائل التى تقطن تروجلوديتيس Troglodytis (الصومال) تحتكر التجارة فى سلع هامة كالعطور والتوابل والأخشاب والأحجار الكريمة الواردة من الشرق الأقصى والهند وأواسط أفريقيا ولذلك حاد أغسطس عن سياسة عدم التوسع لتحقيق هدف اقتصادى هام، فعهد إلى آيليوس جاللوس (Aelius Gallus)، ثانى ولاة مصر (٢٦ ـ ٢٤ ق.م.) بتجريد حملة على اليمن. وحشد هذا الوالى جيشاً كبيراً قوامه عشرة آلاف جندى وبعض وحدات مساعدة من الحامية المرابطة فى مصر، وألف رجل من الأنباط بعث بهم الملك عبادة (الثالث) مع وزيره سُلاَيوس ليكون دليلاً للحملة، وخمسمائة مقاتل يهودى أرسلهم هيرود. وأعد آيليوس جاللوس فى ميناء كليوباتريس

السيره ويحسن السريره ويجعل الخير دأبه المعهود والاجر غرضه المقصود. فالظلم يزل القدم ويجلب النقم ويزيل النعم ويهلك الامم، والعجول مخطى وان ملك، والمتأنى مصيب وان هلك. من استبد برأيه وقع فى شرك اعداه. من ركب العجل ادرك الزلل. من فعل ما شا [ء] لقى ما سا [ء]. زوال الدول من اصطناع السفل. من استعان بذوى العقول ادرك المأمول. من استشار ذوى الالباب سلك الصواب. حسن السياسه نور الرياسه. سو

(أرسينوى) ـ قرب السويس الحالية ـ أسطولاً من ثمانين سفينة ومائة وثلاثين حاملة للجنود. وأقلعت الحملة من هذا الميناء فى عام ٢٥ ق.م. واتجهت إلى ليوكى كومى Leukê Komê (الحوراء)، وهو ميناء نبطى على الساحل الشرقى للبحر الأحمر. وليس من المعروف لماذا نقل جاللوس قواته إلى مكان يبعد عن هدفه (أرض سبأ) بمسافة لا تقل عن ٩٠٠ ميل بدلاً من أن يحشدها فى ميناء جنوبى مثل برنيقى (مدينة الهرّاس) وينقلها بعدئذ عبر البحر إلى الساحل العربى تحت حراسة أسطول صغير بينما تحمى سفنه الحربية مواصلاته مع الساحل المصرى. وقد بلغت الحملة ليوكى كومى بعد خمسة عشر يوماً تكبدت أثناءها خسائر جسيمة فى الأرواح والسفن. فإلى جانب أن أسطوله الكبير كان عديم الجدوى ضد قوم لا يملكون أى سفن حربية، لم يقدر جاللوس خطر الشعاب المرجانية المنبثة قرب ساحل خليج السويس ولا الجزر الصخرية المتناثرة فى البحر الأحمر أو المياه الضحلة عند الشواطىء التى لا تصلح لرسو ناقلاته. ولم يكد يستقر فى ذلك الميناء حتى فتكت الأمراض الناجمة عن سوء التغذية وقلة المؤونة والقيظ والإعياء بعدد كبير من جنوده. واضطر إلى أن يقضى فيه بقية الصيف الحار والشتاء التالى كله ولم يتابع زحفه إلا فى ربيع عام ٢٤ ق.م. وبلغ نجران بعد حوالى خمسين يوماً عانى فيها مشاقاً جمة بسبب جهله بحرب الصحراء. ثم تقدم نحو ماريبا Mariba (مأرب؟)، وحاصرها ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها. وأخيراً نفد الماء فرفع عنها الحصار

التدبير سبب التدمير. اصطناع الجاهل اقبح رذيله واصطناع العاقل احسن فضيله، لان اصطناع العاقل يدل على استحكام العقل واصطناع الجاهل يدل على استحكام الجهل. وكل امر [ء] يميل الى مثله، وكل طير ياوى مع شكله. اعلم بأن سبب هلاك الملوك اطراح ذوى الفضايل واصطناع ذوى الرذايل والاستخفاف بنصح الناصح و الاغترار بتزكيه المادح.

والله الموفق للصواب بجوده وقدرته وعظمته انه على ما شا[ء] قدير له المجد دايما.

وانسحب نهائياً من تلك البلاد. وقد عاد فى هذه المرة عن طريق ميناء غار (ميناء المدينة) وركب البحر إلى ميوس هرموس (أبو شعر القبلى) واجتاز الصحراء الشرقية وبلغ قفط، ومنها سار إلى الدلتا والإسكندرية. ومع أن هذه الحملة أخفقت من الناحية العسكرية إلا أنها حققت جانباً من الهدف الاقتصادى المنشود منها. فقد بدأت هذه المنطقة تستشعر قوة الرومان وتحوّل جانب من تجارة الشرق من ميناء ليوكى كومى النبطى إلى ميناء ميوس هرموس المصرى، كما أتيحت للتجار الرومان فرصة استخدام موان جيدة وهم فى طريقهم من مصر إلى موانى الهند. ولم يتخل خلفاء أغسطس عن سياسة الاهتمام بطريق التجارة فى البحر الأحمر، وسرعان ما انتزعوا السيطرة من القبائل العربية. ويحدثنا مؤلف «دليل الملاحة فى البحر الأحمر» Periplus maris Erythraei ـ وهو كتاب من القرن الأول الميلادى يصف للملاحين والتجار الطرق الساحلية من مصر إلى الهند ـ بأن ملوك سبأ وحمير صاروا أصدقاء للأباطرة. ولم تلبث أدانا Adana (عدن) ـ وهى مركز هام للتجارة العابرة (الترانزيت) ـ أن وقعت تحت سيطرة الرومان، وإن كان تاريخ ذلك لا يزال موضع خلاف.

وقد انتهز الأثيوبيون (النوبيون) فرصة غياب جانب كبير من القوات الرومانية فى الحملة على بلاد العرب ونقضوا اتفاقهم مع كورنيليوس جاللوس وأغاروا تحت قيادة الملكة كنداكى (Kandakê) على المراكز العسكرية الرومانية فى جنوب الوادى وتغلبوا على الحامية

(مقدمة المؤلف)

[قال المصنف لهذه السيره ساويرس ابن المقفع الجامع]

لما علمت انا البايس الخاطى الغارق فى بحار اثامه النادم المفنى بالخطايا ايامه المتأسف على تفريطه وتضييع شهور عمره واعوامه بالامل والتسويف المفسدين لدينه وقوامه.

وتحققت ما انعم به السيد المسيح المخلص، [لذكره السجود على جميع بنى المعموديه]الذى اشتراهم بدمه العظيم، ومعطى سلطانه وموهبة

المؤلفة من ثلاث كتائب ونهبوا جزيرتى فيله وإلفانتين وأسوان ثم حملوا معهم تماثيل أغسطس وأسروا بعض الأهالى. وقد أزعجت هذه الغارات السلطات الرومانية فى مصر فزحف جايوس بترونيوس (G. Petronius)، ثالث الولاة (٢٤ ـ ٢١ ق.م.)، صوب الجنوب على رأس قوة كبيرة قولها ١٠,٠٠٠ جندى من المشاة و ٨٠٠ فارس ليصد هجمات النوبيين ويكبح جماحهم. وقد ردهم على أعقابهم وتعقب فلولهم ودحرهم عند بسلكيس (الدكه)، وتابع زحفه واستولى على حصن بريميس Primis (قصر إبريم). وتوغل جنوباً حتى بلغ نباته Napata (جبل برقل)، العاصمة الشمالية للنوبيين على مقربة من الشلال الرابع فسقطت فى يده. وعندئذ أرسلت إليه كنداكى التى اعتصمت بمكان قريب تطلب المفاوضة. ورأى بترونيوس أن من الحكمة ألا يتوغل أبعد من ذلك فى منطقة وعرة مجهولة فاكتفى بأن استرد من النوبيين الأسرى الذين اختطفوهم من منطقة أسوان وكذلك تماثيل أغسطس. وعاد أدراجه شمالا إلى بريميس التى حصنها وترك بها حامية من أربعمائة جندى وزودها بمئونة عامين. ومن ضآلة الحامية يتبين أن بترونيوس لم يعتزم احتلال المنطقة إلا بصفة مؤقتة. وبعدئذ قفل راجعاً إلى الإسكندرية. ولم تمض سنتان حتى عاد النوبيون إلى مهاجمة الحامية الرومانية المرابطة وراء الحدود. واضطر بترونيوس إلى العودة على رأس قوات جديدة استطاع أن ينتزع بها قلعة بريميس من أيدى النوبيين ويعزز حصونها. وفى قصاصة بردية من مجموعة ميلان إشارة عابرة إلى هذه الحملة التى قام بها بترونيوس ضد الأثيوبيين. ولا تذكر البردية اسم الوالى بل تذكر

روح قدسه لتلاميذه واتباعه الاثنى عشر، والسبعين المنتخبين(*)، ومن يتبعهم متل بولس معلم البيعه الذى خصه الله بدعوته لعلمه بقوه ايمانه وغيرته، ومن اصطفاه لكرسى شهيده وتلميذه المبشر بانجيله ورسوله الى خلقه وشعوبه.

اول بطاركه اقليم مصر والخمس مدن وهى برقه وفزان والقيروان وطرابلس الغرب وافريقيه والحبشه والنوبه كل هذه وقعت فى كرازته بأمر روح القدس. وكانت شهادته بعد كرازته باسم

(*) الاتباع الاثنى عشر: هم الاثنى عشرة رسولاً: (١) بطرس. (٢) اندراوس، كان أخاً لبطرس. (٣) يعقوب، كان أخاً ليوحنا. (٤)يوحنا. (٥) فيلبس. (٦) برتولماوس، ناثان إيل. (٧) متى، لاوى بن حلفا. (٨) توما. (٩) يعقوب بنى حلفا، وهو أبن خالة المسيح وأخو يهوذا. (١٠) سمعان. (١١) يهوذا. (١٢) متياس، أحصى مع الرسل بدل يهوذا الذى شنق نفسه بعد خيانته للمسيح.

فقط اسم ضابطين من مساعديه، أحدهما روفوس قائد المشاة، والآخر تروجوس قائد الفرسان. وعندئذ كفت كنداكى عن القتال وجنحت للسلم وطلبت الصلح، فأحال بترونيوس الوفد النوبى على الإمبراطور الذى كان يقيم وقتئذ بجزيرة ساموس (شتاء عام ٢١ ـ ٢٠ ق.م.). وقد نص الصلح الذى عقد بين الطرفين على إعفاء النوبيين من دفع الجزية، واحتلال الرومان دوديكاسخوينوس (Dôdekaschoinos)، وهى المنطقة الممتدة بين سوينى (أسوان وهيراسيكامينوس Hierasykaminos (المحرّقة). وقد ألحقها الرومان بإقليم إلفانتين الذى يقع فى أقصى جنوب مصر، وأنشأوا فيها بضعة مراكز عسكرية لا تزال آثارها تشاهد حتى اليوم فى بسلكيس pselkis (الدكه) وتالميس Talmis (كلابشة) وتزتزيس Tzitzis (كرتاسى) وبارمبولى Parembolê (دبود). وبفضل هذه الاستحكامات القوية، وولاء كهنة الربة إيزيس فى جزيرة فيله، التى اعتبرت المنطقة المفتوحة من أملاكها الخاصة، استقر السلام فترة طويلة فى الجزء الشمالى من النوبة. وفى نقش يونانى من الدكة يرجع إلى عام ١٣ ق.م، نجد بعض السفراء النوبيين ممن يحملون أسماء يونانية يؤدون ـ بعد عودتهم (من عند أغسطس؟) إلى الملكة كنداكى ـ فرائض العبادة لأحد الآلهة المحلية. وبغض النظر عن الحملة التى أزمع الإمبراطور نيرون القيام بها فى النوبة، فإننا لا نسمع أن هذه البلاد عادت إلى شهر السلاح فى وجه الرومان قبل منتصف القرن الثالث الميلادى.

السيد المسيح فى مدينة اسكندريه على ما شهدت به سيرته. وورثوا ابهاتنا البطاركه تعاليمه المخلصه للنفوس من الجحيم وجلسو على كرسيه واحد بعد واحد خلف بعد سلف [فكلهم خلفاه الناقلون عنه ورعاة رعيته ومقتدون بايمانه فى المسيح]، مارى مرقس الانجيلى الطاهر والناظر وجهه. ومن بعده من خلفاه البطاركه واردة معرفة سيرهم واسماهم وتقلبهم كل منهم فى عصره وزمانه وما لقيه من التعب والنصب والجهاد على

خريطة قديمة لمدينة الاسكندرية بأسوارها. تظهر بها أفرع القنوات التى كانت تربطها بالنيل. لاحظ أن الخريطة رسمت مقلوبة كما كانت عادة رسامى خرائط ذلك العصر بحيث صار الشمال لأسفل والجنوب لأعلى.

اسم سيده ومسيحه، وحفظ رعيته وقتا بعد وقت وزمانا بعد زمان.

وانا ممن لا يجب له ان يكتب بخط يده البالية الفانيه شيا من اخبارهم فاستعنت بمن اعلم استحقاقهم من الاخوة المسيحين وسألتهم مساعدتى على نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطى الى القلم العربى الذى هو اليوم معروف عند اهل هذا الزمان باقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى(*) من اكثرهم ليكتفى بذلك عند وقوفه عليه.

(*) المقصود بعدم اللسان القبطى هنا أختفاءه من الدواوين وليس بين الشعب المصرى.

وفيما عدا التعديلات التى أدخلها أغسطس على نظام الإدارة البطلمية، والإصلاحات العاجلة التى قام بها لتحسين الزراعة وتنمية التجارة كتطهير القنوات وشق الترع وبناء صهاريج المياه على الطرق الصحراوية بين قفط وميوس هرموس مما أدى إلى انتعاش الحالة الاقتصادية فى البلاد بوجه عام، لم تقع أى أحداث هامة تمس علاقة مصر بالإمبراطورية. وليس أدل على هدوء الأحوال واستتباب الأمن من أن تيبريوس (Tiberius) الذى خلف أغسطس على عرش الإمبراطورية (١٤م ـ ٣٧م) سحب من مصر إحدى الفرق العسكرية الثلاث حوالى عام ٢٣، هذا إذا لم تكن قد سحبت من قبل فى عام ٧م أثناء عصر أغسطس. وقد اشتهر هذا العاهل بحزمه مع مرءوسيه وحرصه على إنصاف رعاياه فلم يتوان عن حمايتهم من تعسف الولاة وابتزازهم حتى لا تنشب اضطرابات تعكر صفو السلم. وعندما أرسل إليه أحد ولاة مصر الجزية السنوية زائدة عن القيمة المقدرة، لفت نظره قائلاً إنه إنما أوفده إلى مصر ليجز وَبرها لا ليسلخ فراءها[1]. ولعل ذلك يفسر لماذا بدأ فى عهده يستبدل بنظام التزام الضرائب المباشرة نظام

(١) الترجمة الحرفية للفقرة اليونانية كما وردت عند المؤرخ ديون كاسيوس (LVII,10,5) هى: «أريد أن يُقص وبر أغنامى لا أن يجز كله جزاً». غير أن الترجمة الواردة أعلاه أدل على المعنى المقصود ويعتمدها القاموس اليونانى ـ الانجليزى: والكلام موجه إلى آيميلوس ركتوس (Aemilius Rectus). الذى لم يكن والياً على مصر إلا فى عصير كلوديوس. ولعل المؤرخ يقصد بتيبريوس الإمبراطور «تيبريوس كلوديوس قيصر» غير أن الأستاذ شتاين لا يستبعد أن ايميليوس ركتوس كان والياً فى السنة الأولى من حكم=

وابتـهلت الى واهب كل عـتى المنطق، ومفـوه
كل بليـد، وداعـى المشـقلين بالاوزار مـثلى كـالقـول
الانجيلى القـايل من فـمـه المقـدس: تعـالو الى ايهـا
المتعـوبون الحـاملو الاثقـال لاريحكم وتعلمـو منى
فانى ساكن متواضع القلب لتجدو راحه لانفسكم،
واحملو نيرى خفيف. ومحملى طيب ان يسامحنى
بزللى واقدامى على ما يضاهى افعـالى الدميمه
واثامى وخطاياى العـمـيـمـة. واستنسـخت مـا لم
اعلمه من الاوايل حسبما تضمنته قوانين البيعه

جبايتها على يد محصلين من قبل السلطة العامة (Praktores) . غير أن عهده شهد أيضاً بداية نظام الخدمات الإلزامية (leitourgiai)، ذلك النظام الذى أرهق الأهالى إرهاقاً شديداً وعاد تطبيقه بأوخم العواقب على اقتصاديات البلاد.

٣. زيارة جرمانيكوس:

وينبغى أن نذكر هنا حادثة زيارة جرمانيكوس لمصر. كان جرمانيكوس ابناً لدروسوس، شقيق تيبريوس[١]. وبعد موت أبيه فى عام ٩ .قم. تبناه عمه فى سنة ٤م تلبية لرغبة أغسطس. فلما اعتلى تيبريوس العرش فى عام ١٤م أصبح جرمانيوس بمثابة ولى للعهد. وبينما كان الإمبراطور رجلا مسناً عبوساً مقتراً سيء الظن بالناس، كان جرمانيكوس شابا بشوشاً كريماً لطيف المعشر محبوباً من الجماهير. وكان قد قمع حركة تمرد بين صفوف الجيش الرومانى المرابط على الرين واسترد ولاءه ثم قاد هذا الجيش، دون استئذان الإمبراطور، عبر النهر حيث

= تيبريوس (١٤م)، وأن الوالى الذى حكم مصر فى عصر كلوديوس، ويرد اسمه فى وثائق كثيرة، هو ابن الأول.

(١) كان دروسوس وتيبريوس ابنى ليڤيا زوجة أكتاڤيانوس (أغسطس) بعد طلاقها من تيبريوس كلوديوس نيرون. وقد خلع عليه السناتو بعد وفاته فى عام ٩ ق.م. وعلى ذريته لقب جرمانيكوس أى قاهر ألمانيا لانتصاراته فى أراضى الرين. وجرمانيكوس الذى نروى قصته أعلاه هو والد كاليجولا الذى اعتلى العرش بعد تيبريوس (٣٧ ـ ٤١م.) وشقيق كلوديوس الذى اعتلى العرش بعد كاليجولا (٤١ ـ ٥٤م.).

على ما يأتى به الشرح وما نادت بهاالاحاديث والاخبار،واضفت الى ذلك ما عرفته من سير من شاهدته من الابا [ء] البطاركه. وسألته،جلت قدرته، ان يغفر لى ما جا[ء] فيه من زايد لفظ او تحسين كلام، وما نسبته الى نفسى الخاطيه من تسطير خبر من لا استحق ان اكون اقل تلاميذه، واشرحه من فضايل رهبان) قديسين مو(ء) يدين بنعمة روح القدس بالمشاهده، ونقل الاخبار. وانا اضع مطانوات (*) عده لمن قرا ما كتبته ان يستغفر

(*) مطانونات: دعوات واسترحامات.

أنزل بالجرمان ثلاث هزائم، ولكنه لم يستطع إخضاعهم إخضاعاً هاماً، بل إن جيشه منى بخسائر فادحة وكاد مرة أن يقع كله فى كمين نصبه الأعداء (١٤ ـ ١٧م). ورأى تيبريوس ألا يطيل أمد الحرب فاستدعى ابن أخيه إلى روما، إما لعدم ثقته فى كفايته أو قلقه من طموحه أو غيرته منه، ولعله تذرع بالحاجة إليه فى ميدان آخر. فقد حدث أن اضطربت أحوال بعض الولايات الشرقية بآسيا الصغرى وبخاصة فى أرمينيا. ولما كانت مهمة تنظيم شئون كل هذه الولايات مهمة غير عادية، فقد آثر تيبريوس أن يعهد بها إلى أمير من الأسرة المالكة. وحار الإمبراطور لأنه لم يكن فى وسعه أن يتجاهل جرمانيكوس الذى عاد من الرين على مضض منه. ولم يلبث السناتو أن منح الأمير سلطة بروقنصلية استثنائية (imperium Proconsulare maius) أكبر من سلطة حكام الولايات الشرقية المحتاجة إلى التنظيم. وصادق الإمبراطور على قرار السناتور وإن لم يكن فى قرارة نفسه واثقاً فى مقدرة جرمانيكوس أو مطمئناً إلى سلوكه.

ورحل جرمانيكوس إلى الشرق فى رفقة رهط من كبار العسكريين والأدباء، ومر فى طريقه ببلاد اليونان وآسيا الصغرى حيث زار أماكن تاريخية شهيرة. وكان يقابل أينما حل بحفاوة منقطعة النظير. فقد نظمت المدن مواكب فاخرة ترحيباً به، واعتبرت يوم ميلاده عيداً قومياً وخلعت عليه ألقاباً إلاهية وشبه إلاهية كالظاهر والمنقذ والخير، وشيدت له تماثيل تكاد لا يحصرها العد، وسكت نقوداً تحمل اسمه، وهو عمل فيه افتئات على حق الإمبراطور. وبعدئذ

لى فيما اقدم عليه ونسبت اليه، ويدعو لى بالعفو والمسامحه والغفران بشفاعة سيدة الاولين والاخرين المختاره كرسى رب العالمين [مريم العدرا]، والملايكه المقربين والطغمات الروحانيات، والانبيا الصديقين المويدين، والرسل الاطهار المنتخبين، والشهدا المجاهدين الابا القديسين، والابرار والشيوخ الصالحين وكلمن ارضاه بعمله من ذرية ادم امين.

اللهم انى اسيلك ان تفتح عينى قلبى وبصرى

شرع جرمانيكوس ينظم شئون بعض هذه الولايات الشرقية مستعيناً بمساعديه فى تنظيم بعضها الآخر. وأرهق نفسه بالعمل فشعر بالحاجة إلى الاستجمام. وخطر له أن يزور مصر فرحل إليها فى أول عام ١٩ لمشاهدة آثارها على نحو ما يفعل السواح فى وقتنا الحاضر. غير أن الحجة التى ساقها جرمانيكوس لتبرير زيارته هو اهتمامه الشديد بأمر الولاية أو رغبته فى تخليصها من أزمة اقتصادية ألمت بها بسبب القحط. لقد كانت خطوة جريئة تتفق وما نعرفه عن استهتار جرمانيكوس وتكشف عن استخفافه بالجالس على العرش. وفيما يلى ما ذكره المؤرخ تاكيتوس عن هذه الرحلة (١).

٥٩ـ « فى أثناء قنصلية ماركوس سيلانوس ولوكيوس نوربانوس ذهب جرمانيكوس إلى مصر للتعرف على تاريخها القديم، غير أنه تذرع بحجة الاهتمام بالولاية، وقد خفض الاسعار بأن فتح صوامع الغلال واصطنع أشياء كثيرة محببة إلى قلب الجمهور. فقد مشى دون حرس وانتعل صندلا وارتدى زيا كزى الاغريق مجاراة لبوبليوس سكيبيو الذى سمعنا أنه اعتاد أن يفعل عين الأشياء فى صقلية مع أن الحرب البونية كانت ما تزال مشتعلة» وقد انتقد تبيريوس (ارتداءه) الزى (الاغريقى) ومسلكه انتقادا هينا ولكنه وبخه توبيخا لاذعا لانه دخل الاسكندرية دون ارادة الامبراطور متخطيا قواعد أغسطس. ذلك أن أغسطس من بين الأسرار

(1) Tacitus, Ann II, 59 - 61 (O.C. T. by CD. Fisher).

لافهم كلامك وسمعى لا سمع واعمل ما ينبغى
وانعم على ان لا تواخذنى عليه وتسامحنى وتغفر
لى هفوة انبساطى اليه واحسن قايلا واثقا. بعفو
الله تعالى.

الأخرى الخاصة بتوطيد سيادته، قد عزل مصر مانعا أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الرومان اللامعين من دخولها الا باذن مخافة أن يصيب ايطاليا بمجاعة أى شخص قد يحتل تلك الولاية ونقطتى الدفاع عنها من البر والبحر، ولو بحامية بسيطة ضد جيوش ضخمة.

٦٠ــ غير أن جرمانيكوس الذى لم يكن قد بلغه بعد أن رحلته تلك كانت موضع الهجوم، صعد فى النيل (الى مصر العليا) بادئا من كانوب[١]، وهى بلدة أسسها الاسبرطيون تخليداً لذكرى كانوبوس، ربان السفينة الذى دفن هناك عندما هبت عاصفة أثناء عودة مينيلاوس الى بلاد اليونان[٢]، فجعلته ينحرف الى عرض البحر ثم قذفت به على ساحل ليبيا (أفريقيا)، ومن هناك زار مصب النيل التالى، وهو موقوف على عبادة هرقل[٣].

... وبعدئذ زار الاثار العظيمة فى طيبة القديمة[٤]، وكانت لا تزال باقية على الصروح الضخمة كتابات مصرية[٥] تشرح قصة البذخ الغابر..

(١) كوم سمعدى جنوبى أبى قير.
(٢) أى عودته من الحملة على طروادة. ومينيلاوس هو أمير اسبرطه وشقيق أجاممنون وزوج هلينى التى أغواها باريس بن بريامـوس ملك طرواده وفـرت معـه فـثـارت من أجل ذلك الحـرب الطروادية مـوضـوع إليـاذة هوميروس.
(٣) عن هرقل الذى يقارنه الأستاذ بروجش بخونسو ــ نفر حتب، إله القمر وأحياناً إله الشمس فى طيبة، أنظر: Herodotus II. 43 ff.
(٤) الأقصر والكرنك ومدينة حابو.
(٥) أى نقوش هيروغليفية.

بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد

عظيم هو الرب ومسبح جداً، وعظيمه اعماله لا تفحص اسراره ولا حكمته ولا يقدر بشرى على ادراك شي من اموره العاليه عن افهام الفهما والفقها، وبالمسأله ضارعين قايلين: اللهم الذى خلقتنا ورزقتنا وامرتنا ونهيتنا وخوفتنا بالعقاب على ما نهيتنا عنه، وارشدتنا الى نجاة انفسنا والطرق الصالحه، فهفونا بارائنا وتمردنا باختيارنا. فنضرع اليك يا ذا الطول والاحسان والقدره والامتنان

٦١ـ غير أن عجائب أخرى استرعت كذلك انتباه جرمانيكوس وعلى الأخص تمثال ممنون الحجرى الذى يرجع نغما موسيقيا عندما تمسه أشعة الشمس(١)، والاهرام التى شادها ملوك

(١) ممنون في الأساطير اليونانية هو ابن ربة الفجر أيوس (Eos) من تيثونوس (Tithonos) الذى عاشرها متقمصاً شكل الفراشة. وقد وفد إلى طرواده من إثيوبيا، بلاد الشمس الشرقية، لمساعدة أسرة أبيه ولكنه هلك على يد أخيليوس (أخيل)، وهى حادثة مفجعة من أساطير البطولة أثارت لوعة ربة الفجر وأغرقها فى حزن عميق. وقد أطلق اليونان اسمه على تمثالى أمنحتب (أمينوفيس) الثالث وزوجته تى (حوالى ١٤٥٠ . ق.م.) فى مدينة حابو. وأول من وصف ظاهرة النغم الصادر من هذين التمثالين هو استرابون (XVII, 1, 46) الذى زار طيبة فى رفقة صديقه آيليوس جاللوس والى مصر فى عام ٢٥ ق. م. وسمع استرابون صفيراً خافتاً فى الساعة الواحدة (بعد شروق الشمس، أى الساعة ١٥ ,٨ إذا كان الوقت شتاء، ٤٠ ,٥ إذا كان الوقت صيفا)، ولكنه لم يستطع أن يجزم إن كان الصوت قد صدر من القاعدة أم من التمثال أم من أحد الواقفين قرب القاعدة. ويضيف أنه ربما صدر من الحجارة المصفوفة على هذا النحو. وعن تمثالى ممنون أنظر أيضاً جوڤينال (Sat.XV, 5-6). ومن بين الشخصيات الرومانية التى زارت هذا المكان فونيسولانا ڤيتولا زوجة الوالى تتيوس أفريكانوس فى يوم ١٢ فبراير عام ٨١ وسمعت الصوت (للمرة الثالثة!) فى الساعة الواحدة والنصف أى الساعة ٤٥ ,٨ صباحا = I.L.S. 8759 C) (Barrow, Selection of Latin Insctiptions, No. 152 كما زاره أيضاً الإمبراطور هدريان فى نوفمبر عام ١٣٠م. مع رجال حاشيته وسجلت بالبيلا، إحدى الوصفيات، بعض الأشعار (epigrammata) على أحد التمثالين: (C.I.G.III. 4725, 4727, 4729-4731). وعندما جاء الإمبراطور سبتميوس سڤيروس إلى مصر فى آخر عام ١٩٩م زار طيبة فى عام ٢٠٠ وأمر بترميم التمثال المتصدع فلم يصدر عنه صوت منذ ذلك الحين.

الغافر لكل من اقبل اليه بنية صادقه ان تنعم علينا وان تكون لنا ابتدا [ء] وعونا و تماما في الطريق التي نسلك اليك فيها، وان تفتح عيون قلوبنا المظلمه وافكارنا المدلهمه لنحفظ ونعمل بما نقراه في كتبك المقدسه، واخبار من احببته واصطفيته من اوليا[ء]ك ومن انتخبته، المجاهدين القاهرين شهواتهم الرافضين العالم لمحبتهم فيك وسماعهم وصاياك واوامرك. وتنعم علينا بخاتمة خير ليكون خروجنا من هذا العالم بخروج من اصطفيته، مخلصين من الخطايا والذنوب التي لا يسلم منها

متنافسون بثرائهم في ضخامة الجبال وسط رمال متناثرة من العسير اجتيازها، والبحيرة التي حفرت في الارض لتخزن ماء فيضان النيل[١]، وفي مكان آخر خوانق ضيقة وأعماق شديدة لاتستطيع أن تسبر غورها مسابر المستكشفين. وبعدئذ وصل إلى الفانتين وأسوان، وهما حصنا الدفاع قديما عن حدود الامبراطورية، التي امتدت الآن الى البحر الأحمر[٢].

يتضح من هذا النص الهام أن القواعد التي وضعها أغسطس محرماً بها على أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان اللامعين دخول مصر إلا بإذن صريح من الإمبراطور، كانت تنطبق أيضاً على أعضاء الأسرة المالكة. وفي الحق أن جرمانيكوس بوصفه پروقنصلاً (نائب قنصل) كان في عداد هيئة السناتو إن لم يكن بحكم مركزه عضواً في ذلك المجلس. وعلى أي حال فالنص دليل واضح على مدى حرص الأباطرة على تأمين مصر من أطماع الشخصيات الكبيرة حتى ولو كانت من أمراء أسرته. ولا ندري كيف اجترأ جرمانيكوس على اتخاذ مثل هذه الخطوة. لعله اعتقد أن «سلطته البروقنصلية الكبرى» تخوله ـ مثلما خولت لجايوس قيصر من قبله[٣] ـ حق دخول مصر دون استئذان الإمبراطور، أو لعله لم يفكر في الأمر

---

(١) المقصود هنا بحيرة موريس، المعروفة الآن ببركة قارون بالفيوم.

(٢) المقصود بالبحر الأحمر، بحر العرب الذى امتدت حدود الامبراطورية إليه بعد فتوحات تراجان في عام ١١٥/١١٦م.

(٣) جايوس قيصر (c.Caesar) أكبر أبناء چوليا، بنت أغسطس، من أجريپا، أخلص مساعديه. ولد في=

بشر. ولكى نخلص من المقام المفزع المرهوب اذ انعمت علينا وعتقتنا من سلطان ابليس ومن عبودية الخطيه، وتنعم علينا بحكمه روحانيه ندوس بها الشهوات العالميه [الدنيوية] مع العمل بحفظ وصاياك والخروج من هذه الدنيا الزايله بزاد الحياه المؤبده، وبجواب مقبول امام منبرك الهايل المرهوب، واجعل سعينا فيما انعمت به علينا ايام مقامنا فى هذا العالم فيما يرضيك وفى طاعتك واتباع شريعتك المهديه المحيه، واهدنا الى سيرتك

إطلاقا. ومن العسير أن نعرف الباعث الحقيقى على تلك الزيارة التى أثارت قلق تيبريوس، وإن كنا نستبعد أنها كانت تخفى ورائها أى هدف سياسى.

وقد شاء القدر أن تصلنا بردية يونانية تحتوى على منشورين أصدرهما هذا الأمير أثناء إقامته فى مصر. ويثير ذلك السؤال التالى: هل كان من حق جرمانيكوس أن يصدر منشورات فى مصر مع وجود الوالى الشرعى، نائب الامبراطور؟ من الواضح من رواية تاكيتوس أنه لم يكن يجوز له أن يدخل مصر دون تصريح، ومن باب أولى أنه لم يكن يجوز له أن يصدر فيها أى منشورات أو أن يأمر بفتح صوامع الغلال، حتى ولو لم تكن هذه صوامع القمح المعد

= عام ٢٠ ق.م. وتبناه أغسطس فى عام ١٧ ق.م. وعين عضواً فى مجلس الشيوخ عام ٥ ق. م. وهو فى سن الخامسة عشرة ونادى به الفرسان زعيما للشباب (Princeps Iuventutis)، وكان أغسطس ينتوى أن يستخلفه. وعندما طرد سكان أرمينيا بتحريض البارثيين الملك الموالى لروما قبيل عام ١ ق. م. أوفد أغسطس جايوس قيصر إلى أرمينيا لاسترجاع النفوذ الرومانى وزوده بسلطة بروقنصلية (imperium proconsulare) أعلى من سلطة حكام الولايات الشرقية. وفى طريقه إلى الشرق زار جايوس قيصر جزيرة سلموس ومنها عرج على مصر ربما ليقف بنفسه على أحوال تلك الولاية ذات الأهمية الاقتصادية الحيوية، وإن قيل إنه زارها ليبدأ الاستعدادات لحملة جديدة على اليمن عوضاً عن حملة جاللوس الفاشلة، أو ـ فى أغلب الظن ـ على بلاد العرب البتراء. ومن مصر أبحر إلى سوريا حيث بلغه نبأ اختياره قنصلا لعام ١ م. وقد مات متأثراً بجراح أصابته فى إحدى معارك تومينيا أثناء عودته إلى إيطاليا فى ٢١ فبراير من عام ٤م. بإقليم ليكيا. وقد حزن أغسطس عليه أشد الحزن وبخاصة أن أخاه لوكيوس قيصر الذى كان يصغره بثلاث سنوات لقى حتفه هو الآخر قبل ذلك بعامين فى ٢م.

المهديه لتساق عقولنا الى ملكوتك، وتكون اعمالنا محققه لتعاليم انجيلك المقدس.

انت قلت يا رب: سلو تعطو اطلبو تجدو اقرعو يفتح لكم، وانا اطلب اليك، ثقه بقولك من غير عمل عملته يرضيك و لا لى حسنات قدمتها اليك بل لاجل اسمك المسمى علينا كما قال داود المغبوط في مزمور: ليس لنا يا رب ليس لنا لكن لا سمك اعط المجد على رحمتك وحقك لئلا تقول الامم اين الاههم، والاهنا فى السما والارض

للتصدير إلى روما. لقد افتأت جرمانيكوس على حق الوالى لأن سلطته البروقنصلية التى خوِّلت له في بعض الولايات لم تكن تسرى فى مصر. غير أن جرمانيكوس، وقد اعتقد أن مصر تدخل فى نطاق هذه الولايات، اعتقد بداهة أن سلطته ـ وهى سلطة أكبر (maius) من سلطة حكام الولايات ـ تجعله فى مركز أعلى من الوالى. ومن ثم لم يعترف بسلطة الوالى ولم يستعن به. ولو أنه فعل ذلك لكان فى هذا اعتراف رسمى منه بعدم دستورية وضعه فى مصر. وفى رأى أحد الباحثين أن جرمانيكوس لم يدخل مصر بمقتضى سلطته الاستثنائية، بل دخلها وتصرف فيها على هذا النحو بوصفه ولياً للعهد، أى بوصفه ابناً للامبراطور الذى كان بمثابة أحد الفراعنة. وأياً كان الأمر فإن لهجة المنشورين توحى بأن جرمانيكوس أضطر إلى إصدارهما، فقد أصدر الأول ليكبح جماح موظفى السلطة المحلية وأفراد حاشيته الذين استغلوا تعلق الناس به ففرضوا عليهم تقديم مختلف التبرعات والخدمات إرضاء للأمير وحرصاً على راحته، وأصدر الثانى ليناشد الأهالى عدم المغالاة فى الترحيب به والكف عن مناداته بالقاب لا تليق إلا بالجالس على العرش. يقول جرمانيكوس فى المنشور الأول: «جرمانيكوس قيصر بن أغسطس حفيد أغسطس المؤله[1] نائب القنصل، يعلن: (بلغنى انه بمناسبة زيارتى) قد أكره

---

(١) المقصود بابن أغسطس، بن تيبريوس (بالتبنى) الذى حمل كسائر الأباطرة من بعده لقب أغسطس. ومعنى حفيد أغسطس المؤله، أى حفيد أكتافيانوس (أغسطس) الذى كان أبا (بالتبنى)لتيبريوس نفسه، ابن زوجته.

كلما شا [ء] فعل. يا رب نجنا وخلصنا وكن لنا في دنيانا هذه حافظا ومسلما في جميع امورنا صغيرها وكبيرها جليلها وحقيرها، وترأف يا رحوم وانعم يا ر[ء]وف بهدايتنا الى ما يرضيك وابعادنا مما يسخطك. فانت قلت يارب: ارجعو الى فاغفر لكم ولو كانت ذنوبكم عدد رمل البحر ونجوم السما. فتمم وعدك لنا نحن الخطاه، ولا تلتمس منا توبه ولا عملا بل برأفتك ورحمتك واحسانك انعم بالمعونه على طلب عبدك الخاطى الغافل عن وصاياك من كتب هذه السير الجليله مبتديا قايلا:

الناس على تقديم مراكب ودواب وان منازل للضيافة قد أخذت بالقوة للاقامة وأن وسائل الارهاب قد استعملت مع الافراد. لذلك رأيت من الضرورى أن أعلن أننى لا أريد أن يستولى أحد على مركب أو دابة الا بأمر بايبيوس صديقى وأمينى: ولا ان تغتصب منازل للضيافة. فان تكن هناك حاجة، فان بايبيوس نفسه سيوزع منازل الضيافة بالعدل والقسطاس. وبالنسبة لما يلزمنا من المراكب أو الدواب فانى آمر بدفع الاجور وفقا للجدول الذى قدمته. وانى لارغب في احضار المخالفين إلى أمينى الذى سيتولى هو نفسه منع الظلم عن الافراد أو يبلغنى الأمر. وامنع من يلتقون بالدواب أثناء مرورها بالمدينة من اغتصابها بالقوة، لان ذلك عمل من أعمال اللصوصية الفاضحة».

ومع هذا كله نجد السلطات فى طيبة التى يبدو أن هذا المنشور لم يبلغها إلا فى وقت متأخر، تلزم مزارعاً بتقديم مقدار من القمح بمناسبة زيارة جرمانيكوس. فلما عجز عن ذلك ألزمته فى **٢٥** يناير عام ١٩ بتقديم ما يعادل قيمته نقداً. وأما فى المنشور الثانى فيقول جرمانيكوس بعد الديباجة.

«اننى أرحب بالشعور الطيب الذى تبدونه دائما نحوى كلما رايتمونى. غير اننى أستنكر استنكارا تاما مناداتكم اياى بألقاب تثير على البغضاء لانها كالقاب الآلهة، ولا تليق الا بأبى المنقذ الحقيقى للجنس البشرى كافة ومسدى الخير له، وبأمه التى هى جدتى، فكل ما نملك لا

بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد

نبتدى بعون الله وحسن توفيقه بكتب سير البيعه المقدسه. قال المصنف فيما صنفته انا الخاطى جمعته من دير القديس ابى مقار وديارات الصعيد وتولى نقل بعضه الشماس الدين ميخايل ابن بدير من لغة القبطى الى العربى مما ياتى ذكره فى موضعه سوى ما كان فى المدينة العظمى [اسكندريه] وما وجد منها مختصرا من سير الاول منها، المسيح عونى ورجانى وناصرى وخلاصى.

يعدو أن يكون أثرا من آثار ألوهيتهما، وإذا لم تمتثلوا لامرى فسوف ترغموننى على ان لا أظهر بينكم كثيرا».

وينبغى أن نسأل أولا عن أسباب ذلك الحماس الشديد الذى استقبل به مواطنو الإسكندرية وسكان مصر جرمانيكوس وحفاوتهم البالغة به. لقد ذكر المؤرخ تاكيتوس فى النص الذى تقدمت ترجمته بعض هذه الأسباب: كسلوك الأمير مسلكا من شأنه تحبيب الجماهير إليه وتودده إليهم ببساطته واختلاطه بهم دون حرس، وانتعاله صندلاً يونانياً وارتدائه ـ مثلما فعل ماركوس أنطونيوس ـ قميصاً يونانياً، ومخاطبته إياهم ـ وهذا ما نعرفه من مصدر وثيق آخر ـ بلغتهم اليونانية التى كان يتقنها. كما أنه لم يترفع ـ على نقيض أغسطس ـ عن زيارة معبد أبيس. وأهم من ذلك أنه أمر بفتح صوامع الغلال فهبطت أسعارها فى السوق، وبتوزيع القمح على سكان المدينة دون اليهود. وكان هذا وحده كفيلا بإلهاب حماس الإسكندريين له ورضائهم عنه. وفى وسعنا أن نضيف سبباً آخر. لقد كان جرمانيكوس ـ بغض النظر عن جايوس قيصر، حفيد أغسطس، الذى قيل إنه زار مصر فى عام ١ م. ولكننا لا نعرف أى تفاصيل عن زيارته ـ أول أمير رومانى يزور الإسكندرية منذ دخلها أغسطس غازياً فى عام ٣٠ ق.م ويطوف بأنحاء مصر سائحاً لمشاهدة آثارها. وكان هذا أيضاً خليقاً بإثارة حماس الإسكندريين الذين عرفوا بميلهم إلى الصخب والمظاهرات ـ أكبر الظن تنفيساً عما فى

فاول ذلك ما نقل بدير السيده [العدرا] بنهيا عن سبب كهنوت المسيح السيد جل اسمه ودخوله الى الهيكل بسلام الله امين امين امين.

انه لما كان فى زمان يوليانوس الملك الكافر، كان رجل يهودى كاهن لليهود اسمه تاودوسيوس شيخ مقدم، وكان انسان نصرانى صايغ يعرفه، وبينه وبينه موده اكيده، واسم النصرانى فيلبس. ولما كان فى بعض الايام وصل فيليبس الى بعض مدن الشام وارسى مركبه فى المينا ليبيع تجاره

صدورهم من كبت وضيق من استبداد المحتلين ـ واشتهروا بالمغالاة فى مدح المحسنين وذم المسيئين. ومع هذا فنحن لا نستبعد أن يكون سبب تهافت مواطنى الإسكندرية على جرمانيكوس شيئاً آخر. لقد كانوا ـ فيما يبدو ـ على علم بما بين تيبريوس وجرمانيكوس من جفوة ونفور، فبادروا إلى الترحيب بالأمير الشاب نكاية فى الإمبراطور، صاحب السلطة الشرعية فى روما. وسنرى فى الفصول التالية كيف كانت الإسكندرية تسارع دائماً إلى تأييد أدعياء العرش المتمردين على الأباطرة.

وقد بدأ جرمانيكوس يشعر بما قد تجره عليه هذه الزيارة من عواقب وخيمة وأن زمام الموقف قد يفلت من يديه. وزاد من قلقه أن أهالى مصر نادوه بألقاب أشبه ما تكون بألقاب الآلهة، بل هى ترفعه إلى مصاف الآلهة، ولا تليق إلا بالإمبراطور وزوجته. فما هى هذه الألقاب؟ إن سياق المنشور يوحي بأن هذه الألقاب لم تتعد المنقذ (sôtêr) والخيّر (euergetês). غير أن هذين اللقبين كثيراً ما خلعا على من هم دونه مقاما، فضلا عن أن مدن آسيا الصغرى ـ كما قدمنا ـ قد خلعت عليه عين الألقاب، بل إن بلدة پتارا (Patara) نادته هو وابن عمه دروسوس بالإلهين الظاهرين (theoi epiphaneis). ومع هذا فلم نسمع أن جرمانيكوس صد أهالى تلك المدن أو زجرهم. لابد إذن ـ كما يعتقد أحد الباحثين ـ من أن أهالى مصر نادوه أيضاً بلقب معين آخر لا يجوز خلعه إلا على الإمبراطور وحده. هذا اللقب ـ

كانت معه، فاجتمع فيلبس باليهودى الكاهن تاودوسيوس صديقه فوادده وحادثه وقال له: يا اخى احب ان تكون نصرانيا لتصح مودتنا وتربح الدنيا والاخره.

فاجابه تاودوسيوس وقال له بمحبه عظيمه: قد اهتممت بخلاصى وقد افتكرت فيما اردت اطلاعك عليه ولا ادعك خاليا من معرفة الله تعالى الشاهد علىّ فيما ذكرته لك، ولا تشك فى ذلك لاجل اظهارك لى محبتك، واوثر ان تحفظ ما اقوله

فيما يرجح ـ هو لقب أغسطس (Augustus = Sebastos) الذى يتضمن معنى ذى الجلال أو صاحب الجلالة. ولابد أيضاً أن جرمانيكوس كان قد بلغه عندئذ نبأ انزعاج تيبريوس واستيائه منه وتنديده بمسلكه فى مجلس الشيوخ، فبادر إلى نفى الشبهات عن نفسه. ونحن نعلم من مصادر أخرى أنه عاد إلى سوريا حيث تنازع مع واليها بيسو (Piso)، وأنه مات فجأة فى أنطاكية. واتهم بيسو بدس السم له وحكم عليه بالموت فآثر الانتحار. غير أن أم جرمانيكوس اعتقدت ـ والشائعات راجت ـ بأن الإمبراطور نفسه كان ضالعاً فى المؤامرة التى أودت بحياة الأمير المحبوب.

كاليجولا وكلوديوس ونيرون

١. بدء النزاع بين اليهود والاغريق وفتنة عام ٣٨:

لم يحدث فى مصر خلال السنوات الأخيرة من حكم تيبريوس ما يستحق الذكر سوى ذلك المنشور الذى أصدره الوالى أفيليوس فلاكوس فى عام ٣٥/٣٤، محرما فيه على الأهالى حمل الأسلحة أو إحرازها، وهدد فيه المخالفين بعقوبة الموت. هذا المنشور وصلنا فى شكل بردية أو بالأحرى قصاصة مهلهلة لا يتبين منها سبب ذلك الإجراء. وعلى أى حال فهو يشير إلى توقع حدوث اضطرابات فى ذلك الحين. ولا مراء فى أن لهذا المنشور صلة وثيقة بما ورد عند

لك فى قلبك ولا تقوله لاحد، وهو ان الذى بشر به روح القدس والانبيا هو المسيح الذى انتم تسجدون له و تعترفون انه بحق قد جا[ء]، وانا أومن بقلب صادق نقى بغير شك بالجمله لانك اخ وودود ولذلك اظهر لك هذا السر فاثبته لديك لما قد ظهر لى من محبتك وارادتك لى الخير والجيد، فصدقنى الان يا اخى فان افكارى الجسدانيه منعتنى ان اتعمد لانى غير متواضع ولا اصلح لانى عاجز، وانا كاهن لهذا الشعب ولى منهم مجد

فيلون، الكاتب اليهودى، الذى يذهب إلى أن فلاكوس كان متحاملا على اليهود فأمر فى عام ٣٧ / ٣٨ ؟ بتفتيش منازلهم ومصادرة الأسلحة المخفاة فيها، ولكنه لم يعثر فيها على شىء، بينما عثر ـ قبل ذلك بفترة غير طويلة ـ على أكداس منها مخبأة فى بيوت المصريين «الذين كثيراً ما ثاروا على السلطات التى ارتابت فى أنهم يدبرون ثورة جديدة». لعل المصريين بدأوا يضيقون ذرعا بتعسف السلطات المحلية ووطأة الاحتلال الرومانى. ومن المؤكد أن موجة التذمر بدأت تسرى فى الإسكندرية أيضاً، لأنه من العسير ألا يقرن المرء بين هذا المنشور ورواية فيلون وبين الاضطرابات التى نشبت عقب اعتلاء كاليجولا العرش.

ولعل القارىء يذكر أن أغسطس اتخذ من التدابير ما يكفل رد الإسكندريين إلى صوابهم إذا ما خطر لهم أن يثيروا الشغب أو يقوموا بالثورة فى وجه الرومان، وأنه وضع فرقة كاملة عند ضاحية نيقوپوليس تحذيراً لهم. غير أن هذه التدابير الصارمة لم تثن مواطنى المدينة عن مناصبة روما العداء، مع أن ضم مصر إلى الإمبراطورية أفاد الإسكندرية من الناحية الإقتصادية. فقد ظلت، كما كانت على أيام البطالمة، عاصمة للبلاد، ومقراً للوالى، تتركز فيها الدور الحكومية الرئيسية والمحاكم الهامة وتودع فيها السجلات الرسمية، ويتردد عليها المتقاضون والتجار وأصحاب الحاجات، وكذلك ضباط وجنود الجيش الرومانى المرابط بمعسكر

عظيم وكرامات وتقدمه وقد كسبت منهم ذخاير واموالا، وانا ان خرجت منهم اعدمت ذلك كله، وليس شعبى وحده يرفضنى بل والنصارى ايضا لما اشاهد من اليهود اذا تعمدوا وكيف يكونون، وسمعت ايضا انكم تقولون: اذا تعمد يهودى كمن عمد حمارا، فبأى وجه الان اتعمد. وايضا اننى ارى النصارى يخطون ويغضبون الله ويرفضون الناموس عوض ما يسلكون فى الادب المستقيم والحق الذى قد صار لهم، واشاهد قوما اذا رأوهم

نيقوپوليس الذين كانوا ينفقون فيها عن سعة. لقد كانت بمثابة السوق المزدحمة التى تنبض بالحركة والنشاط، وزاد من نشاطها الأساطيل الرومانية (كالأسطول الأغسطى السكندرى وأسطول ميسينوم) التى كانت تبحر منها بانتظام إلى إيطاليا محملة بالقمح غير متعرضة لخطر القراصنة الذين طهرت روما البحر منهم. جميع هذه العوامل روّجت الأعمال التجارية بأنواعها كافة وزادت من رخاء المدينة على الأقل فى صدر العصر الرومانى. غير أن هذا الربح المادى أو الكسب التجارى لم يله الإسكندرية عن خسارتها الأدبية الجسيمة وأفول نجمها السياسى. فقد ساءها أن تفقد مكانتها القديمة كعاصمة لمملكة مستقلة قوية، بل إمبراطورية واسعة، بينما يصعد نجم روما التى كانت الإسكندرية ـ على حداثة نشأتها ـ تنظر إليها شزراً بوصفها مدينة حديثة النعمة. وحز فى صدر الإسكندريين أن يصبحوا رعايا عاهل لا يقيم بينهم ويتحكم فى مصائرهم عن طريق نائب يتمتع بسلطة تكاد تكون مطلقة. وقد زاد من شعورهم بالمرارة أن أغسطس استحدث فى عواصم الأقاليم (metropoleis) نظاماً قريب الشبه من نظام المجالس البلدية، على غرار ما كان فى الإسكندرية، طامساً بذلك الفارق بين هذه العواصم الريفية وبين مدينتهم. وأدهى من ذلك وأمر أنه رفض مطلباً عزيزاً عليهم، وهو إنشاء مجلس للشورى (boulê) على غرار مجالس المدن اليونانية الحرة، وهو مجلس يرجح ـ كما أسلفنا ـ أنه كان قائماً بالمدينة منذ تأسيسها ثم ألغى فى فترة من فترات الإضطراب فى أواخر عصر البطالمة.

هكذا ضعفت قلوبهم وامانتهم وتأسوا بهم. ولما فتشنا عن الخلاص الذى كان لكم منا عرفنا المسيح بالحقيقه والرسل الذين صارو لكم معلمين فهم ايضا من جنسنا وانتم ترفضون ما بشروكم به وما علموكم اياه، ولا جل ان بقية الامم لم يتعمدو ولم يؤمنو الى الان، كذلك انا ايضا لم اتعمد لاجل مجد العالم والكرامات التى انالها من شعبى، ولاجل ما اشاهدكم تفرطون فيه من امر المسيح لكم ووصيته ووصية تلاميذه لكم به، فامتنعت ان يضيع على مجدى وكرامتى واصير

ولم يشأ أغسطس أن يستجيب لهم لأن مجلس الشورى كان يتعارض والسلطة التى خولها لنائبه فى مصر، فعل أغسطس ذلك بينما أقر لليهود امتيازاتهم القديمة، تاركاً لهم أمر تنظيم طائفتهم الدينية على شكل جالية مستقلة لها رئيس (ethnarchês, genarchês) ومجلس من المسنين أشبه ما يكون بمجلس الشيوخ (gerousia)، ودار للسجلات (archeion) وبيع (synagôgai) يمارسون فيها شعائر ديانتهم وقد زاد الطين بلة عدم قناعة اليهود بامتيازاتهم، فطمعوا فى الظفر بحقوق المواطنة بالمدينة. وأثار ذلك حفيظة الإسكندريين فصبوا عليهم جام غضبهم بوصفهم من أنصار الغزاة عند دخولهم البلاد، وتربصوا بهم الدوائر لأن مهاجمة اليهود كانت أسلم عاقبة من مهاجمة الرومان أنفسهم. وهكذا تحولت الكراهية العنصرية لليهود إلى كراهية سياسية أو أصبحت مزيجاً منهما.

وكان من الطبيعى أن يظهر فى الإسكندرية أثر ضعف الحكومة المركزية ففى ١٨ مارس عام ٣٧ ارتقى عرش الإمبراطورية جايوس قيصر المشهور باسم كاليجولا (Caligula)، وهو ابن جرمانيكوس، الأمير المحبوب الذى تقدم الكلام عن زيارته لمصر. واستبشر سكان إيطاليا والولايات بمقدم العاهل الجديد وتوقعوا على يديه الخير العميم. لكن سرعان ما انحرف عن الطريق السوى وخيب أملهم فيه. فقد تكالبت عليه عدة عوامل حولته إلى حاكم شبه مجنون، وكان من بينها مرض شديد أو لوثة لم يبرأ منها تماماً، ووفاة أخته، أحب الناس إليه،

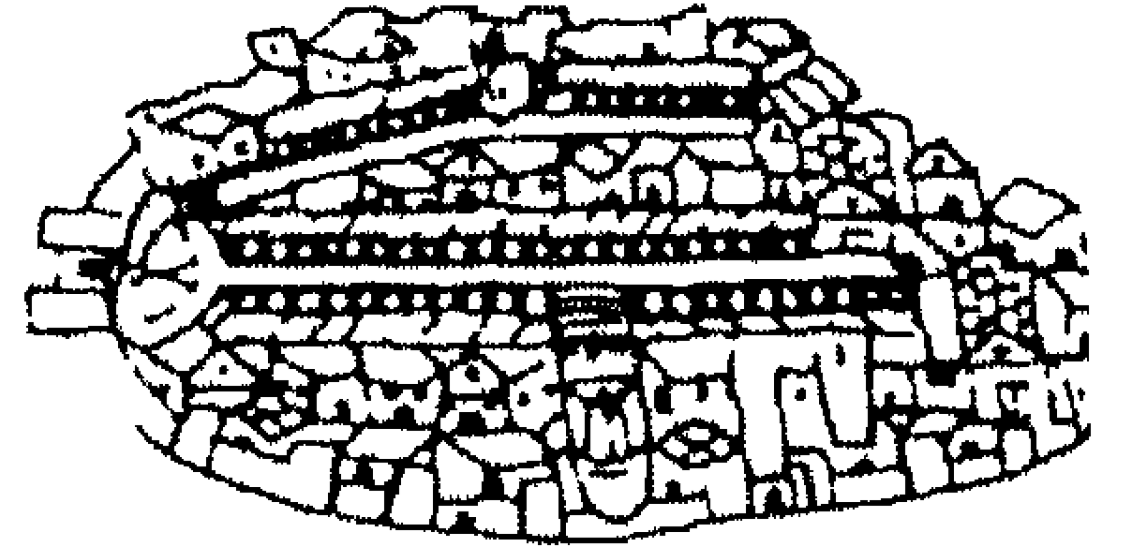
مفرطا مثلكم فيما قد اعطيتموه، وهذا الذى يمنعنى من المعموديه. واكثر جماعتنا اليهود تحققوا حقيقه امر المسيح وعجايبه اكثر منكم غير انهم بعيدين من الخلاص الذى صار لكم.

والان فانا اطيب قلبك بالاسرار الجليله عندنا من البدء و اظهر ذلك لك لانا عارفون محققون بعجايبه وافعاله اكتر منكم انتم النصارى، ونعلم حقا انه المسيح الذى اتى، فاسمع عنى هذا السر.

فضلا عن حداثة سنه، وتزلف رجال حاشيته، وهلعه الشديد من المؤامرات على حياته، ذلك الهلع الذى انقلب إلى قسوة متناهية. وقد زينت له أوهامه أنه فوق البشر فطالب رعاياه بتأليهه وإقامة تماثيله فى مختلف المعابد. ولعله قد تأثر فى حداثته بفكرة تأليه الملوك الأحياء، وهى فكرة كانت شائعة فى ممالك الشرق الهلينستى ولا سيما فى مصر، ولكنها كانت غريبة على الرومان فلم تلق بينهم رواجاً كبيراً.

واتفق أن وفد أجريبا (Agrippa)، حفيد هيرود الأكبر على الإسكندرية فى أوائل أغسطس من عام ٣٨. وكان هذا الأمير اليهودى قد قضى شطراً من صباه بالقصر الإمبراطورى فى روما مع أبناء الأسرة المالكة فتوثقت صلته بكاليجولا. وقد مر بالإسكندرية يرافقه حرس شخصى وهو فى طريقه إلى فلسطين ليرتقى عرش مملكة صغيرة على حدود بلاد يهودا (Judaea). وكان أجريبا قبل أن يبتسم له الحظ قد بدد ثروته بإسرافه وبذخه حتى أثقلت الديون كاهله ففر إلى الإسكندرية يلتمس المعونة من بنى جلدته، وبخاصة من الإسكندر ليسيماخوس، اليهودى الثرى ـ شقيق الفيلسوف فيلون ـ الذى كان يشغل منصب مدير الضرائب الجمركية (arabarchês). ولما سددت ديونه وتحسنت أحواله عاد إلى روما حيث نال الحظوة لدى كاليجولا الذى منحه مملكة صغيرة فى فلسطين. ولذلك دهش إغريق الإسكندرية من أن يصبح هذا المفلس ملكاً بين يوم وليلة، وتذكروا مجيئه بالأمس خاوى الوفاض هارباً من دائنيه.

كان فى الزمان الاول والهيكل مبنى باروشليم وكان لليهود عاده يقيموا اثنين وعشرين كاهنا فى الهيكل امر لازما لهم، وكان فى الهيكل كتاب مكتوب بنسبه كلمن يصير كاهنا واسم ابوه وامه ليعلم انه متبع لامر الله تعالى، وكانوا اليهود مستمرين على هذه العاده، وكان يسوع المسيح فى ذلك الزمان فى اليهوديه، وكانت هذه الكتابه قبل ظهوره، فمات كاهن من الاتنين وعشرين كاهنا فاجتمعوا الكهنه وحدهم يختارون من



أروشليم، عن فسيفساء ميدبا (قرب جبل نبو، فى الاردن.
من القرن السادس الميلادى.



جزء من قاع إناء من الخزف ذو البريق المعدنى، عليه صورة المسيح رافعاً يده بشارة التثليث. من القرن ١١ ـ ١٢. المتحف الاسلامى بالقاهرة

يقـدمـونه عـوضـا منه فلم يتـفق رأيهم على من يصلحـونه، وكانوا يقاومون بعضهم بعضا وكلما ذكرو احـد لم يرضـو به، ثم انهم تقارعـو على ان من وقعت قرعتهم عليه بعد تخيره يصلحوه اذا لم يكن فيـه عـيب ولا عله ولا فى جنسه عـيب ولا سـبب، فـاذا وجـدو من له نسب وليس هو عـالم رفضوه ولا يقدمونه. وهذا كان تدبيرا من الله تعالى لاجل مقاومتـهم كيلا يتقدم الاصاحب الكهنوت المستحق لذلك وهو يسوع المسيح، واذا واحد من

وساءهم أن يستقبله اليهود استقبالاً ملكياً فخما، بل ساورتهم الظنون أن لا يكون قدومه آنئذ بمحض المصـادفة. ولهـذا قرروا أن يعكروا عليه صفـو الزيارة المريبة وأن يتخـذوا منهـا تُكأة لمهاجمة اليهود فى شخصه. فأحضروا معتوهاً يعرفه سكان المدينية باسم كراباس Karabas (أى الكرنب!)، وأحاطوه بحرس هزلى واقتـادوه إلى الجيمنازيوم (ناديهم الرياضى الثقـافى) حيث عصبوا رأسه بإكليل من لحاء نبات البردى ودثروه بسجادة بالية كأنها العباءة، ووضعوا فى يده صولجاناً من ساق البردى، ثم ساروا به عبر شوارع المدينة هاتفين «مارَنْ، مارَنْ»، وهى كلمة سريانية معناها المولى أو الملك. وكان القصد بداهةً من هذا الموكب الهزلى هو السخرية من أجريبا والاستهزاء به.

ولكنهم سرعان ما ندموا على فعلتهم تلك عندما تذكروا ما نسوه فى غمرة حماسهم. لقد تذكروا أن أجريبا صديق حميم للامبراطور وأنه سوف يشكوهم إليه وأن كاليجولا لابد من أن يقتص منهم لإهانتهم صديقه. وتدبروا الأمر ملياً فتفتق ذهنهم عن حيلة تخلصهم من ورطتهم. لقد تراءى لهم أن يوقعوا بين كاجولا واليهود فراحوا يزعمون أنهم لم يدبروا المظاهرة العدائية إلا لأن اليهود رفضوا الامتثال لأمر الإمبراطور الخاص بإقامة تماثيله فى جميع المعابد. ولم يكن من المعقول أن يقبل اليهود تدنيس بيعهم بتماثيل البشر، مهما جل قدرهم، وهم يؤمنون بإله واحد. لذلك اقتحم الإسكندريون معابدهم عنوة ونصبوا فيها تماثيل كاليجولا

الكهنه بعد ذلك قد تحرك فيه روح القدس فغار الله تعالى فوقف في وسطهم و قال: لنا اليوم عشرة ايام مجتمعين ولم نستطع ان نقدم احدا، وانا اتحقق واعلم ان الخطاب وتطويله لاجل من يقدمه الله تعالى وهذا سبب الخلاف بيننا وفساد رأينا وسوف يظهر ذلك بارادة الله تعالى. فقالو له: ان كنت تعرف احدا فاذكره لنا علانيه ونعترف جميعنا لك بمنه عظيمه. فقال لهم: حتى تعاهدوني الا تردو ما اقوله وتقبلو مني وانا قول

بالقوة. فلما قاومهم اليهود اتهموهم بعدم الولاء للامبراطور وأسقط في يد الوالى فلا كوس ولم يدر ماذا يفعل. فقد أحرجه الإسكندريون عندما تذرعوا بحجة أنهم ينفذون أمر قيصر. وزاد موقفه حرجاً أن الإمبراطور انقلب على أوليائه في روما فخشى أن يتخذ خطوة تضاعف سخطه عليه. وأخيراً لم يجد مناصاً من أن ينحاز إلى الإسكندريين على أمل أن يقربه ذلك من سيده. ولم يلبث أن أصدر منشوراً بأن اليهود أجانب دخلاء. وسحب منهم الامتيازات التى اكتسبوها عرفاً بطول إقامتهم في المدينة تاركاً لهم فقط ما اكتسبوه منها بطريق القانون. ولم يتح لهم فرصة الدفاع عن أنفسهم وأدانهم دون محاكمة، وأقام من نفسه «مدعياً وخصماً وشاهداً وقاضياً وجلاداً». وعندما اطمأن الإسكندريون إلى وقوف الوالى في صفهم انطلقوا إلى مساكن اليهود. وكان بالمدينة خمسة أحياء مرقومة بالحروف الأولى من الأبجدية اليونانية، وإن صدقت رواية فيلون فإن معظم اليهود كانوا محتشدين في حيين غير أنهم انتشروا بمضى الزمن فى أربعة من هذه الأحياء. انطلق الإسكندريون إليها وطردوا اليهود منها وساقوهم جميعاً إلى حى واحد، أكبر الظن هو حيهم الأصلى، المرقوم بحرف دلتا "Delta"، أى الحى الرابع، وحصروهم فى قطاع منه ونكلوا بهم تنكيلا. ومع أن الحوانيت كانت مغلقة بمناسبة الحداد على وفاة دروسيلا، أخت الإمبراطور، إلا أن الإسكندريين لم يتورعوا عن اقتحام هذه الحوانيت ونهب ما فيها من بضائع وسلع. وتحولوا إلى دورهم وخربوها وإلى معابدهم ودمروا بعضها



صفحة من مخطوط قبطى تمثل عماد المسيح بيد يوحنا من القرن ١٢ . المكتبة الوطنية، باريس

وأضرموا النيران فى بعضها الآخر. وعندما عض الجوع بطون اليهود واضطروا إلى الخروج إلى سوق المدينة لشراء ما يقيم أودهم، انقض دهماء الإسكندريين عليهم وأوسعوهم ضرباً ورجموهم بالحجارة وانهالوا عليهم بالهراوات أو قتلوهم بالسيوف أو أحرقوهم أحياء. ولم يرحموا النساء والأطفال والشيوخ. لقد انقلبت المظاهرات الصاخبة إلى معارك حامية بل إلى مذابح رهيبة. وأفلت زمام الموقف من يد الوالى، الذى كان واجبه يقتضى منه أن يأمر الفرقة المرابطة عند ضاحية نيقوبوليس بالنزول إلى المدينة لإقرار النظام. ولكنه بدلا من ذلك ألقى القبض على ثمانية وثلاثين عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ اليهودى (gerousia) البالغ عده واحد وسبعون عضواً، وهم قوم كانوا يتمتعون بمكانة كبيرة بين قومهم، واقتادهم عبر السوق مقيدين بالحبال أو بالأغلال من خلاف إلى المسرح، حيث جلدوا بالسياط مثلما يجلد المذنبون من «المصريين» وزاد من بشاعة هذه العقوبة أن اليهود كانوا معفيين منها عرفاً كالمواطنين، وأنها نفذت فى يوم ٣١ أغسطس، وهو عيد ميلاد الإمبراطور. ولم يقف مواطنو الإسكندرية عند هذا الحد بل ساقوا كثيرات من نساء اليهود عنوة إلى المسريح حيث أرغموهن على أكل لحم الخنزير [المحّرم دينياً] على مر أى من الجمهور المحتشد. وما إن هدأت العاصفة حتى كان اليهود فى حالة يرثى لها.

ومن محاسن الصدف أن وصلتنا برديتان إحداهما من البهنسا والأخرى من الفيوم يرجح

لكم من يصلح واعلم انكم لا تقدرون على رده. فلما سمعو جميع الكهنه ذلك حلفو له ايمان حق وصدق انهم اذا ظهر لهم من هو مستحق يقبلونه ويقدمونه. فلما توثق منهم قال لهم: يا اخوتى ان الله تعالى طرح فى فكرى من هو مستحق لهذا هو يسوع الذى يعرف بابن يوسف لانه رجل كامل فى جنسه و جماله وافعاله وله القدره على الكلام والفعال قدام الله تعالى والناس، واعلمو انكم لا تجدون مثله فى هذا الشعب الذى ليس فيه رياء ولا عله.

أن لهما صلة بهذه الأحداث. وما تبقى من البردية الأولى المشوهة يشير إلى مقابلة بين شيخ وديويسيوس وإسيدوروس وامرأة تدعى أفروديسيا وبين فلا كوس فى معبد سرابيس بالإسكندرية. وأما فلا كوس فهو وإلى مصر (٣٢ ـ ٣٨) الذى سلف الكلام عن موقفه من اليهود أثناء فتنة أغسطس عام ٣٨. وإسيدوروس وديونيسيوس قطبان إسكندريان يصفهما فيلون فى كتابه الذى هجا فيه فلا كوس بأنهما كانا من متزعمى الحركة ضد اليهود.. ولا نعرف ما هو دور أفروديسيا فى هذا الاجتماع وهل كان وجودها فيه من قبيل المصادفة أم حضرته بوصفها على صلة بإسيدوروس وإليك ما يحتويه الجزء السليم (وهو النهر الثانى) من البرديةى اليونانية.

«وعلى ذلك صعد فلاكوس إلى معبد سرابيس بعد أن أمر بتسوية الموضوع (أو اتمام الصفقة) سرا. وصعد إليه أيضا اسيدوروس مع افروديسيا وديونيسيوس. وبعد دخولهم حرم المعبد سجد اسيدوروس وديونيسيوس لتمثال الاله. وعندئذ ألقى الشيخ بنفسه (على الأرض)، وتعلق بديونيسيوس وهو جاث على ركبتيه، قائلا: انظر، يا سيدى ديونيسيوس، إلى، وأنا شيخ فى مواجهة سرابيس. لا تستعمل العنف مع فلاكوس، بل اجلس مع الشيوخ (وشاورهم الأمر؟). فإذا سافرت (؟)... فلتعدل، يا ولدى ديونيسيوس، عن رأيك. وأجابه (ديونيسيوس): اننى سأسوى الموضوع، ولكنك لا تريدنى ان أرفض فلاكوس (أو لا تريد أن يرفضنى

فلما سمعو الكهنه كلامه وعرفو منه هذا القول بهتو وتحيرو لاجل الايمان فقالو له بمكر وظنو يردو خطابه: نعم من ذكرت لانا نطلب الجيد لكن ليس هو من قبيل الكهنه والشعب ايضا يقذفون ميلاده لاجل الاطفال الذين قتلهم هيرودس بسببه بالسيف. فاجاب وقال لهم بغير غضب: اثبتو على الحق فانى اهديكم الى الصواب من اجله لئلا تزوغو عن الله تعالى فنبعد من الحق ونصدق الكذب لانى اعلم انه اذا فحصنا عن الحق اظهره

فلاكوس) ثانية؟ فان اقتضى الأمر ان التقى به مع القمر الجديد فسأذهب عن طيب خاطر. وأقبل فلاكوس وعندما رأى اسيدوروس قال: ان الموضوع قد سوى..»».

وعلى الرغم مما يكتف النص من غموض شديد حار فيه الباحثون، إلا أنه يكشف على الأقل عن واقعة ثابتة وهى أن ديونيسيوس كان ينتوى القيام بعمل لا يقره عليه «الشيوخ»، وأن أحد هؤلاء «الشيوخ» كان يناشده أن لا يفعله. وإذ كان النص يشير أيضاً إلى رحلة، فقد يستخلص من ذلك أن ديونيسيوس كان ينتوى السفر إلى روما، وفى هذه الحالة كان لابد من الحصول على موافقة الوالى لمغادرة البلاد. وبعد هذا الحديث يدخل فلا كوس فجأة وكأنه كان مختبئاً فى مكان قريب. ويدور حوار بينه وبين إسيدوروس وديونيسيوس. ويقطع هذا الحوار موظف لا نعرف إن كان رئيس سدنة المعبد أو رئيس «مجلس الشيوخ». ويستحلف الوالى بالرب سرابيس ألا يلحق أى أذى بإسيدوروس أو بديونيسيوس. ويستجيب إليه فلا كوس. وبعد هذه النقطة يتعذر استجلاء أى معنى مسلسل لكثرة الفجوات. وأخيراً يأتى ذكر خمسة تالنتات كلها من الذهب، وأنها تحصى أو تدفع فى وسط المعبد، مع الإشارة إلى الفائدة. وقد أثار ذكر هذا المبلغ الضخم فى البردية نقاشاً طويلا بين الباحثين. ففريق يرى أنه رشوة يتقاضاها فلاكوس لكى يمنح ديونيسيوس إذناً بمغادرة الإسكندرية إلى روما ـ وهو أمر ضعيف

الله تعالى. فقالوا طيب قلوبنا كما تعلم لاجل ميلاده وقبيلته ونحن نساعد فيما تذكره. فقال لهم: فتشو لتعلمو ان فى زمان هرون الكاهن قد كان اختلاط من هرون ويهوذا وقد شهد داود النبى على ذلك، وقد فحصت انا كثير لاجل سر عظيم اخر، ومن اجل ذلك انا افرح ان تفتشو لتعرفو بالحقيقه صحة قولى وتعرفو انى عندكم صادق .فظنو انهم بهذا الفكر يبطلو امره وبدأو يفحصون عن الجنس فوجدو مريم توحد القبيلتين

الاحتمال؛ وفريق آخر يرى أن المبلغ المشفوع بالفائدة ينم عن أعمال ربوية يمارسها الوالى نفسه، بينما يرى فريق ثالث أن المبلغ رشوة يتناولها الوالى خفية إما لكى يعيد فتح جمعيات ونوادى الإسكندريين التى أغلقها فى بدء ولايته أو لكى يتغاضى عن اضطهاد الإسكندريين لليهود. وإن صح الرأى الأخير فإن البردية تشير إلى تقارب أو صلح مؤقت بين زعماء الإغريق وبين فلاكوس على حساب اليهود، أكبر الظن أثناء عام ٣٩/٣٨. ولعل هذا التقارب هو الذى دفع الوالى إلى أن يقف موقفاً عدائياً من اليهود، مما عجل بوقوع فتنة عام ٣٨. وفى الحق إن هذا الرأى يلقى تعزيزاً فيما ورد عند فيلون من أن تواطؤاً حدث بين فلاكوس وأقطاب الإسكندريين وأن الوالى ـ وإن بدأ حكمه بداية طيبة تدل على حزمه ونزاهته ـ قد انحرف فى أواخر عهده عن جادة الصواب وتدهورت أخلاقه وفسدت ذمته. وثمة حقيقة أخرى ربما تكشف عنها البردية وهى أنه كان هناك انقسام فى الرأى بين زعماء الإسكندريين. وسنرى بعد قليل كيف كان اليهود منقسمين إلى فريقين، فريق متزمت، وفريق متحلل بعض الشىء من قيود الشريعة الموسوية، ومتأثر بأساليب الحياة اليونانية. لعله كان هناك أيضاً حزبان بين الإسكندريين: حزب المتهورين أو المتطرفين وحزب المتزنين أو المعتدلين فى موقفهم من السلطات الرومانية. لكن ينبغى أن نلاحظ أن هذه البردية ـ وإن عُدَّت من ضمن مجموعة «أعمال الإسكندريين» التى سيأتى الكلام عنها بعد قليل ـ تختلف عنها فى أنها ليست

فما قدرو ان يزوغو عنه لاجل الايمان فبدو ان
يتخاصمو عن القبيله و قالو رأى آخر: نريد نعلم
كيف كان ميلاده لا يكون من زنا. لان امه لما
سلمت ليوسف تكلمو عليها. واتفقو جميعهم
على هذا الكلام، واحضرو مريم امه الى الهيكل
وخاطبوها بلطف لتعلمهم السبب فى حبلها
بيسوع ومن اين هو. وكان الناموس فى ايديهم
شاهد عليهم معها لئلا يظنو بها سو اذا قالت
الحق وحلفو لها على ذلك. وقالو لها: ايتها

محضر جلسة قضائية، وأنها تصطبغ بصبغة روائية واضحة. ولا مراء فى أن الكاتب الذى أعاد تدوينها فى القرن الثالث لم يشوه الحقائق ويظهر فلا كوس بمظهر المرتشى إلا بقصد الدعاية ضد الحكم الرومانى.

ولعل القارىء لم ينس الإشارة إلى الشيخ (geraios) الذى حاول أن يثنى ديونيسيوس عن عزمه فى معبد سرابيس. وقد ظل الاعتقاد سائداً فترة أن هذا الشيخ لابد أن يكون أحد أعضاء مجلس الشيوخ (gerousia)، الذى كان أحد امتيازات اليهود. وكان هذا الاعتقاد يزيد النص إبهاماً، ولم يفهم أحد دور اليهود فى هذا اللقاء بين فلاكوس وقادة الإسكندريين، بل ارتاب كثيرون فى أنه كان يجوز ليهودى أن يدخل معبد سرابيس. وأخيراً أمدتنا بردية من برديات مكتبة جامعة جيسن بقبس بدد بعض هذا الغموض. هذه البردية التى ترجع إلى أواخر القرن الثانى أو أوائل القرن الثالث الميلادى مشوهة كغيرها من برديات «أعمال الإسكندريين»، بل هى أكثر منها تشويهاً إذ لا يكاد يوجد بها سطر واحد كامل. وقد بذل الأستاذ بريمرشتاين ـ الذى درسها ثم نشرها زميل له بعد وفاته ـ كل ما فى وسعه لملء ثغراتها العديدة وربط شذراتها المشوهة. غير أنه ـ على علمه الغزير ـ قد أطلق لخياله العنان فى ترميم النص حتى يستخرج منه معنى متصلا، فكانت النتيجة أن جاءت معظم تفسيراته خاطئة لقيامها على قراءات ليست تخمينية وحسب بل مجافية لقواعد اللغة اليونانية أيضاً. ومع هذا فإن جهده لم يضع كله سدى. فقد أثبت أن البردية تشير إشارة ـ لا يرتاب فيها أحد ـ إلى مجلس للشيوخ

الامرأة هوذا ترينا كلنا مجتمعين لخير لا لشر بل لامر الله تعالى نقيمه و قد انقضينا على رأى واحد لاجل ولدك لانا نراه يرضى الله تعالى والناس وهو عجيب عندهم وجماعة يمجدون الله تعالى من اجله لانه فى هذا الزمان عندهم شبه سليمان بن داود الذى رزقه من امرأه اوريا الحتى، ولذلك اصطفيناه وتقارعنا عليه لنقيمه كاهنا لاجل صلاحه، ولاجل كلمه واحده، نحن شاكون الى الان ونريد ان نعرف منك من اين هو او ممن



البشارة (الكنيسة المعلقة)

(gerousia) يتألف من ١٧٣ عضواً من مواطنى الإسكندرية. وتلك حقيقة لم نكن نعرفها قبل نشر هذه الوثيقة، وهى ترِّجح أن «الشيخ» الذى شهد اجتماع ديونيسيوس وإسيدوروس مع فلاكوس فى معبد سرابيس كان أحد أعضاء مجلس الشيوخ الإسكندرى. إذن فقد كان لمواطنى الإسكندرية الإغريق ـ مثلما كان للجالية اليهودية ـ مجلس شيوخ. وليس من المعروف متى أنشىء هذا المجلس، وإنى كانت الأدلة الطفيفة التى لدينا تشير إلى أنه يرجع إلى أيام البطالمة وتتزايد الأدلة على قيامه فى الإسكندرية فى صدر عصر الأباطرة. ولا ينبغى أن يفهم من اسمه أنه كان مجلساً دستورياً يتمتع بسلطة تشريعية، بل كان ـ فى أكبر الظن ـ هيئة اجتماعية، وثيقة الصلة بمعهد التربية (gymnasium)، تتمتع عرفاً بنفوذ أدبى كبير فى الشئون البلدية. لقد كان بمثابة حلقة الاتصال أو أداة التفاهم بين روما وجالية المواطنين الإغريق (politeuma)، ولعله هو الذى كان يختار السفراء المبعوثين من قبل المدينة إلى الأباطرة لعرض شكاوى المواطنين أو الدفاع عن قضاياهم فى بعض الأحيان، ويصدر أيضاً القرارات (psêphismata) الخاصة بتكريم القياصرة. ويرد فى البردية ذكر الرقم ١٨٠,٠٠٠ مرتين، ولكننا لا نعرف إن كان يدل على مبلغ من النقود أو على عدد من الأشخاص. ويرى بريمرشتاين ـ ويتبعه فى ذلك قلة من الباحثين ـ أن هذا العدد يمثل مجموعة مواطنى الإسكندرية من الذكور البالغين الذين يتألف منهم ما يشبه الجمعية الشعبية. على أن هذا لا يعدو أن يكون مجرد افتراض، وما يزال يفتقر إلى قرائن أخرى لتأييده.


الملاك يبشر مريم بالمسيح

حبلت وولدتيه ليعلم الحق منك لئلا يقال عنك كلام ردى و لا عن الكهنوت، فلهذا احضرناك لنعلم الصحيح ولا نكون مشككين ثم تزيلين الخصومه فيما بيننا، وهو ذا الناموس قدامنا ونحن معترفون قدام الله تعالى الذى لا يرى انه لا ينالك منا شر ولا تبكيت بل نشكرك كثيرا لانك لم تخف عنا الحق.

وكانت تظن ان السر المخفى الذى لولادتها العجيبه اذا اظهرته لهم لا يومنون به لاجل عظم

وفيما عدا هذه الحقيقة الخاصة بمجلس الشيوخ يتعذر أن يستخلص المرء من البردية شيئاً آخر مؤكداً. ومع هذا فليس من المستبعد أن يكون لفحواها صلة ببردية البهنسا التى سبق الكلام عنها وبأحداث فتنة عام ٣٨. فهى تتحدث ـ مثلا ـ عن رحلة قام بها (سفراء الإسكندريين) إلى أوستيا، ميناء روما، حيث اضطروا للبقاء مدة لا تقل عن شهر. وأخيراً جاءهم حاجب تيبريوس وحياهم. فهل معنى هذا أن البردية تتكلم عن مقابلة بين الوفد الإسكندرى والإمبراطور تيبريوس؟ إن هذا أمر جائز، غير أن التفسير الراجح هو أن الحاجب جاء إلى أوستيا ليبلغ الوفد الإسكندرى خبر وفاة تيبريوس فى ١٦ مارس عام ٣٧. وقد يعزز ذلك أن البردية لا تلبث أن تشير إلى الإمبراطور جايوس (كاليجولا) الذى نودى به فى ١٨ مارس عام ٣٧، ولكنه لم يستطع مقابلة الوفد إلا بعد يوم ٣ أبريل عام ٣٧، أى بعد يوم الاحتفال الرسمى بجنازة تيبريوس. وتعقب هذه الإشارة سلسلة من التحيات، ثم إشارة إلى رجل يدعى يولايوس، ومدع (katêgoros)، وشخص ثالث يدعى أريوس، لعله من سلالة أرّيوس (ديديموس) الفيلسوف الرواقى، ومربى أكتاڤيانوس (أغسطس) الذى قيل إن الأخير عفا عن الإسكندريين من أجله. وثمة إشارة أخرى طريفة إلى عدد من السنين يبلغ ٦٣٠، يفسره الناشر تفسيراً مقنعاً بأنه يمثل عدد السنوات التى انقضت منذ نزول الإغريق، فى شكل حامية مرتزقة وضعها أبسمتيك الثانى، أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين (٥٩٤/٥٩٥ ـ

الامر عليهم، وانه لا تقبله عقولهم ان تلد امرأه من غير رجل او يكون ابن بلا اب.

فقالت لهم: اذا قلت لكم ما اعرفه [لا] تقبلونه منى، فاذا اظهرت لكم السر فى حملى وولادتى العجيبه ما تومنون بكلامى والجيد لى ان اسكت. اما هم فلاجل فكرهم الردى قالوا . لها: يا مريم بالحقيقة نريد ان نسمع منك ابن من هو فقد مات ابوه يوسف وقلبنا يشك فيه ان كان هو اباه، ولهذا طلبنا منك القول الصحيح وتكف كل خصومه

---

٥٨٩ ق.م.)، بالطرف الشمالى الغربى من الدلتا، أى عند قرية راكوتيس (راقوده) التى شيدت عليها مدينة الإسكندرية، لتقوم بحراسة الساحل من إغارة قراصنة البحر. ولعلها حجة يسوقها الوفد الإسكندرى على قدم استيطان اليونان الإسكندرية أو بقائهم على ولائهم للملوك والأباطرة منذ ذلك الحين.

ويلى ذلك خطبة يلقيها أريوس ويشيد فيها بكاليجولا واصفاً إياه بمنقذ الكون والخيِّر، وهما صفتان تجافيان ما نألفه من روح عدائية ضد الرومان فى مثل هذه البرديات. ويفهم من الوثيقة أيضاً أن محاكمة جرت وأن المدعى ثبت بطلان دعواه فأمر كاليجولا إما بكيه بالنار أو بحرقه حياً. وبعدئذ يقول النص إن كاليجولا كتب رسالة إلى مدينة الإسكندريين، ويرد فيها اسم إسيدوروس، الذى يقول إن ثمة أشخاصاً لا ينبغى أن يحصلوا على إكليل التفوق أو البسالة. وإذ كان الجزء التالى من البردية (النهر الرابع) يتحدث عن اضطرابات والقبض على أشخاص وإعدامهم، فمن المحتمل أن يكون للبردية صلة بالتهم التى كالها إسيدوروس لفلاكوس فى روما بعد عزل الأخير من منصبه نتيجة لسوء تصرفه فى فتنة عام ٣٨.

وكان من البديهى ألا يسكت اليهود على ما أصابهم من هوان تجاوز حد الاحتمال فى تلك الفتنة. ويروى فيلون أن بنى قومه كانوا قد سلموا للوالى قراراً بتهنئة الإمبراطور غداة ارتقائه العرش، ووعدهم برفعه إليه ولكنه احتجزه فى مكتبه. لذلك حرصوا فى هذه المرة على إبلاغ

لاجل ولادتك ونحن نسيلك ان تظهرى لنا هذا السر بالحقيقه بغير شك ولا تحتشمى من احد لانا ما يخفى عنا الصواب ومتى كتمت الامر الناموس يحكم عليك باللعنه الى الابد. قالوا لها هذا وشبهه فاضطربت مريم قايله: انى قلقت من كل وجه لاجل الذى ولدته الغير مدرك، وهوذا اليوم حتى اظهره وانا الان عارفه بالولاده التى تلزمونى باظهارها واذا سمعتموها ما تصدقونها ولا تقبلون ما اقول لكم، ويوسف الذى قلتم مات كان قد

شكواهم لكاليجولا على يد صديقه أجريبا. وكان طبيعياً أن تنصب هذه الشكوى على مسلك فلاكوس الذى وقف من النزاع فى أول الأمر مكتوف اليدين حتى سادت الفوضى وبعدئذ انحاز جهاراً إلى جانب الإسكندريين. وأحيط كاليجولا علماً بما حدث فأرسل إلى الإسكندرية قوة عسكرية تحت إمرة قائد سرية يدعى باسوس. وحرصت القوة على أن تنزل بالميناء ليلاً ثم تسللت إلى داخل المدينة واتجهت أولاً إلى بيت قائد الجيش الرومانى، وأبلغته أمر القبض على الوالى. وبعدئذ بحثت عن فلاكوس فعرفت أنه مدعو فى وليمة عند أحد أصدقائه فاقتحمت المكان وألقت القبض عليه ونقلته إلى روما فى أكتوبر من عام ٣٨. وهناك تعرض فلاكوس للهجوم، لا من جانب أنصار اليهود وحدهم بل من جانب زعماء الإسكندريين: (ديونيسيوس) ولامبون وإسيدوروس. ذلك أن فلاكوس كان قد أمر فى عام ٣٣، أى فى بداية حكمه، بحل النوادى والجمعيات اليونانية وحرّم إحراز الأسلحة مشيراً بذلك غضب مواطنى الإسكندرية. واحتدمت الخصومة بينه وبين إسيدوروس، أحد أقطاب المدينة، والسيطر على هذه الجمعيات والنوادى، الذى ساءه أن لا يعامله الوالى باحترام فشن عليه حملة شعواء. وقدمه فلاكوس للمحاكمة وأرغمه على الخروج من المدينة. ولا نستطيع أن نجزم، إزاء غموض فيلون فى هذه النقطة، بأن إسيدوروس قد عاد إلى الإسكندرية قبل اضطرابات عام ٣٨. غير أن بردية أكسيرنخوس (البهنسا) التى سبق شرحها ترجح ـ إن صح تأريخها ـ أنه عاد إلى المدينة حيث

شـــك في حبلي به مثلكم سالنى قايلا (ما الذى حل بك) فحلفت له ان لم يمسنى رجل قط فلم يصدقنى حتى ظهر له ملاك الله وطيب قلبه، وليس هو حى فيشهد لى عندكم بصحة ما قلته، لان الناموس يقبل شهادة شاهدين اكثر من شهادة واحد، فانا اعترف قدام الله وهذا الناموس انى ولدت ابنى يسوع بلا رجل وانا اذكر لكم كيف كان حبلى به. فقالوا لها: ان الامر ظاهر ونحن نعترف قدام الله وناموسه المقدس انك بالحقيقه

تم بين الأقطاب الإسكندريين وبين فلاكوس تفاهم مؤقت أو صفقة مريبة على حساب اليهود في معبد سرابيس. ولم تلبث العلاقة أن ساءت من جديد بين الطرفين وبخاصة بعد غضب كاليجولا على الوالى. وعجل بعض زعماء الإغريق بالسفر إلى روما بعد انتهاء الفتنة للتشهير بفلاكوس وتوجيه تهمة الخيانة ضده. وانتهى الأمر بإدانته وقضى كاليجولا بمصادرة أملاكه ونفيه إلى جزيرة أندروس حيث أعدم فيما بعد. وهكذا انتقمت العدالة الإلهية ـ كما يقول فيلون ـ من الرجل الذى نكل باليهود، إذ قبض عليه فى يوم ميمون، هو يوم «عيد المظال» عند بنى إسرائيل.

وفى شتاء عام ٣٩/٣٨ أو ٤٠/٣٩ على الأرجح أوفد اليهود إلى روما سفارة من خمسة أعضاء على رأسهم فيلون. وأوفد الإسكندريون سفارة مثلها على رأسها أبيون، لكى يعرض كل من الفريقين قضيته على الإمبراطور. وقد وصف لنا فيلون نفسه فى كتاب «السفارة إلى جايوس» ما حدث وصفاً مسهباً شائقا. لقد عاد كاليجولا من حملته الفاشلة على الرين فى أول يونيو عام ٤٠، والتقى بالسفارتين فى ساحة مارس خارج أسوار روما وحياهما تحية رسمية عابرة ثم انصرف عنهما على عجل واعداً بتحديد موعد للمقابلة فيما بعد. ولم يلبث أن غادر العاصمة إلى مصيفه فى كمبانيا. وتبعته السفارتان إلى بلدة بوتيولى على أمل أن يدعوهما للمثول بين يديه فى أية لحظة. وإذا صدق أن اليهود حاولوا الاتصال بكاليجولا عن طريق

ولدت هذا المولود، وهذا شئ غير مخفى لان امرأه تقبل الحبل والاوجاع والم الولاده هى التى تفرح بولادتها دون غيرها، فقد اعترفت الان بالحق انك ولدتيه و نحن لنا زمان ما خطبنا احد والان فنحن جلوس تخاطب امرأه وقد قلنا لك انا ما نبكتك اذا قلت ما يجوز ان نسمعه منك و نقبله. وكانت مريم مفكره حايره خايفه مطرقه بوجهها على الارض باكيه فقالت: الان انا عالمه اننى ولدت يسوع كما تقولون وانا معترفه بذلك، فاما قولكم ان رجلا



ميلاد السيد المسيح من مريم

هليكون، أحد المقربين إليه، فإن الإسكندريين قد تمكنوا من شراء ذمة هذا الرجل حتى لا يسبقهم خصومهم إلى مقابلة الإمبراطور. وشاء حظ اليهود التعس أن يتلقى كاليجولا وقتئذ نبأ تدمير الجالية اليهودية لمعبدٍ أقامه له الإغريق فى بلدة يامنيا على ساحل فلسطين، فتثور ثائرته ويبعث إلى بترونيوس حاكم سوريا، يأمره بصنع تمثال له وتنصيبه فى معبد اليهود الكبير بأورشليم.

وفى آخر أغسطس من عام ٤٠ عاد الإمبراطور إلى روما. وعبثاً حاولت السفارتان أن تحظيا بمقابلته، إذ انشغل عنهما بأمور تافهة. وأخيراً مثلت السفارتان بين يديه بعد عناء ولأى فى أوائل أكتوبر من نفس العام. وقد تضمنت مطالب اليهود ـ فيما يبدو ـ حرية العبادة وفقاً للشريعة الموسوية وتحديد وضع جاليتهم فى المدينة أو بالأحرى اكتساب حقوق المواطنة السكندرية. لكنهم صدموا عندما ابتدرهم كاليجولا بأنهم قوم كفرة لا يؤمنون بألوهيته التى آمن بها غيرهم من الناس. وابتهج الإسكندريون عند سماع هذا التقريع واغتنموا الفرصة لإيغار صدره واستثارته عليهم. قال رئيسهم مخاطباً الإمبراطور: إن كرهك لليهود قد يزداد إذا علمت أن البشر جميعاً ما عداهم قدموا لك القرابين. فأجاب اليهود بأنهم نحروا الثيران من أجل الإمبراطور: مرة عند اعتلائه العرش. ومرة أخرى بعد شفائه من مرضه، ومرة ثالثة ابتهالاً بانتصاره فى حملته على الرين. وعندئذ قال كاليجولا: قد يكون صحيحاً أنكم قدمتم القرابين

سرقنى فان خاتم عذرتى يشهد لى بصحة قولى لكم. فلما سمعو هذا اضطربو وقالو: هذا ما لا نقبله لانه كلام عجيب وكيف نقدر ان نكتب اسم ابنك فى النسبه بغير اسم ابوه ومن اى سبط(*) هو كما جرت العاده. فلما سمعت مريم هذا من الكهنه قالت لهم: قد قلت لكم من الاول أنى ما اعرف شيا مما قلتم فافعلو ما اردتم لانى ما اقول لكم ما لم يجرى على.

فلما قالت هذا لم يراددها احد منهم بل تحركو

(*) السبط: هو القبيلة.

من أجلى. ولكنكم قدمتوها لإله آخر، فما فائدة ذلك؟ إنكم لم تقدموا القرابين لشخصى. ثم انصرف ليتفقد أحد المبانى الجديدة، وتبعه السفراء وهم يلهثون وراءه من طابق إلى طابق ومن حجرة إلى حجرة. وفجأة استدار موجهاً السؤال لليهود: لماذا لا تأكلون لحم الخنزير؟ وضج الحاضرون بالضحك وأرتبك اليهود ووجموا. وأخيراً قطع سفير يهودى حبل السكوت قائلاً: إن هذا مرجعه اختلاف العادات، فكثير من الناس لا يأكلون، مثلا، لحم الضأن. وعندئذ أجاب الإمبراطور ساخراً: لهم كل العذر فهو طعام غير شهى. ولم يفز اليهود منه بطائل، إذ صرفهم قائلاً: يبدو لى أن من تبلغ بهم الغباوة إلى الحد الذى لا يؤمنون معه بألوهيتى، هم أجدر بالرثاء منه بالعقاب. ولم ينقذ بنى إسرائيل من غضب كاليجولا المخبول سوى اغتياله فى ٢٤ يناير عام ٤١.

٢. رسالة كلوديوس إلى مدينة الإسكندريين:

وخلفه على العرش الإمبراطور كلوديوس (٤١ ـ ٥٤) الذى انتهج سياسة أكثر تسامحاً إزاء اليهود. ويروى المؤرخ يوسف أنه أصدر منشورين أقر فى أحدهما ليهود الإسكندرية الحقوق التى كانوا يتمتعون بها قبل أيام كاليجولا، ومنح فى الآخر الحقوق نفسها لجالياتهم فى جميع أنحاء الإمبراطورية. وجاء أجريبا نفسه الذى نال الحظوة لدى الإمبراطور الجديد، إلى الإسكندرية وقرأ المنشور الأول على الناس فى اجتماع رسمى. وتراءى ليهود المدينة أن الفرصة قد حانت لتسوية

بأمر الله وانفذو واحضرو الثقات عندهم من النسا القوابل وسالوهم باجتهاد وحرص ان يكشفن امرها ان كانت عدرا كما قالت قدام الله والناموس، فكشفنها وقلن لهم: حقا قالت فهى عدرا كما قالت تامه لم تنفك عذريتها عند ولادتها يسوع كما تعرفون جميعكم انه ولد منها.

ثم انهم فتشو من جيرانها ومعارفها لعلهم يجدون احدا يقاوم الولاده فما وجدو، بل كل احد مصدق لولادتها وزمانها الذى ولدت فيه الولاد

حسابهم مع الإغريق. ولعلهم بادروا خلال فترة الهدوء التى أعقبت مذابح عام ٣٨ إلى جمع السلاح من كل مكان تأهباً للمعركة، وسرعان ما نشب تطاحن جديد روى لنا يوسف أخباره، ويؤيد روايته ما ورد فى رسالة كلوديوس إلى الإسكندريين، التى سيأتى الكلام عنها بعد قليل. ويلوح أن اليهود كانوا البادئين بالعدوان فى هذه المرة، وقد شد من أزرهم بعض بنى جلدتهم الذين تسللوا إلى مصر من فلسطين. ولما احتدم النزاع واستفحل الخطر أمر كلوديوس نائبه فى مصر أن يقمع الفتنة بكل الوسائل.

ولم تكد الأحوال تهدأ حتى بادر كل من الفريقين بإرسال وفد إلى الإمبراطور لتهنئته بالجلوس على العرش، والاعتذار عن الاضطرابات الأخيرة، والتقدم ببعض المطالب. كما التمس منه الوفد الإسكندرى أن يقبل قراراً (psêphisma) أصدره مواطنو المدينة، ربما عن طريق مجلس شيوخهم (gerousia) لتكريمه وتأكيد الولاء له. على أن أهم مطلب تقدم به الإسكندريون كان إنشاء مجلس شورى بالمدينة. وأما اليهود فقد طالبوا بحقوق المواطنة الكاملة بها. وفى الحق أن الجنسية السكندرية كانت ميزة كبيرة تكسب حاملها مكانة اجتماعية مرموقة وتعفيه من ضريبة الرأس ومن الخدمات الإلزامية، وتمهد له طريق الحصول على الجنسية الرومانية. لهذا ألح اليهود فى المطالبة بها. غير أنهم تطلعوا إلى أزيد مما كان ينبغى لهم. ذلك أن المدينة اليونانية (polis) كانت مدينة وثنية تؤمن بأكثر من إله واحد، وكان الدين فيها

العـجـيب بالسـر الـذى لا يدرك ولـم يـجـدو الكهنه شـيـا يحـتـجـون بـه عليـهـا او يكذبونهـا بل حـقـا ظاهـرا.

ثم بعـد ذلك قدموها اليـهم بخوف وقالوا لهـا: قد فتشنا فلم نجد شيا يخالف قولك وما ذكرتيه، وليس هو صواب ان نكتب ما تقولينه ونحن الان نقـسم بالله الضـابط الكل ان تعـرفـينا من هو ابو يسـوع الـذى ولدتيـه منه حـتى نكتب اسـمـه فى [المسـطـره](*) والنسبه. فامتلأت مـريم من روح

(*) المسطرة: هو الكتاب المسطور فيه انساب الكهنة اليهود.

مرتبطاً بالحياة الاجتماعية والسياسية ارتباطاً وثيقاً، فكان خليقاً باليهود إما أن ينأوا بأنفسهم عن هذه الحيـاة أو أن يتخلوا عن دعواهم بأنهم عبـدة الإله الحق الأوحد. لقـد كان مطلب اليـهود يظهرهم بمظهر الطامع فى الظفر بنعيم الدنيويين وينطوى على الأثرة واشتهاء ما للغير والزج بأنفسهم فى حياة طالما تظاهروا باستهجان مقوماتها الروحية والمادية. وقد أقحم الشبان اليهود أنفسهم دون وجه حق فى مباريات معاهد التربية وفى منظمات الشباب اليونانية التى كانت مقصورة على المواطنين الإسكندريين أو من هم فى سبيلهم إلى أن يصبحوا مواطنين. فعلوا ذلك على الرغم من تحذير شيوخهم المتزمتين من أن الاشتراك فى هذه المباريات ـ التى قد يتجرد فيها اللاعبون من ثيابهم ـ رجس ينبغى اجتنابه. ويرجح كثير من الباحثين الآن أن اليهود كانوا منقسمين فلم يرسلوا إلى الإمبراطور بعثة واحدة كما فعل الإسكندريون بل أرسلوا بعثتين. إحداهما تمثل الطائفة المحافظة، والأخرى تمثل الطائفة المتحررة التى تأثرت بالثقافة وأساليب الحياة اليونانية.

وقد شاء القدر أن يصلنا رد الإمبراطور كلوديوس على مطالب الإسكندريين واليهود فى بردية وجدت عام ١٩٢٠ أو ١٩٢١ فى قرية فيلادلفيا، وهى جرزة الحالية بشمال شرق الفيوم، وآلت إلى المتحف البريطانى، ثم نشرها الأستاذ آيدرس بل فى عام ١٩٢٤. وقد أحدثت هذه البردية التى تعرف عادة باسم «رسالة كلوديوس إلى الإسكندريين» دوياً كبيراً فى

القدس وقالت: ما اقول شيا بمكر ولا كذب والله الذى اقسمتم على باسمه شاهد. وبدت تقول لهم ان جبريل الملاك جا الى وبشرنى. وشرحت لهم قضية حالها فبهتو وتعجبو وطلبو الى الله ان يغفر لهم ما قد ظلموها به من القول. وقال بعضهم: حقا ان هذا هو المسيح الذى تنبت عنه الانبيا انه يأتى من بيت داود و من بيت لحم من سبط يهودا. فدعو يسوع واقسموه كاهنا وكتبوه فى النسبه اليوم والشهر والسنه وقالوا: يسوع ابن الله وابن



سجادة قبطية من القرن السادس عليها رسم للست مريم والسيد المسيح

الأوساط العلمية، وقلما ظفرت وثيقة أخرى بما ظفرت به هذه البردية من اهتمام بين الباحثين. ومن المرجح أن الرسالة حررت أولاً باللغة اللاتينية ثم تولى المترجمون فى الديوان الإمبراطورى نقلها إلى اليونانية. وأرسلت الصورة اليونانية إلى الإسكندرية حيث قرئت على الأهالى. ثم رأى الوالى أن ينشرها فى ١٤ من شهر هاتور (الموافق ١٠ من نوفمبر) عام ٤١ حتى يطلع عليها جميع السكان. ويستهل الإمبراطور رسالته بالتحية:

«تيبريوس كلوديوس قيصر أغسطس جرمانيكوس الإمبراطور، الكاهن الأعظم، حامل السلطة التريبونية، المرشح قنصلا، إلى مدينة الاسكندريين سلاما».

ثم يقول إنه تلقى من السفراء قرار الإسكندريين بتكريمه ويعقب على ذلك قائلا:

«انهم أوضحوا لى ما تكنون من شعور طيب نحونا، وهو شعور ادخرته لكم فى نفسى ـ كما تعلمون جيدا ـ منذ زمن طويل، فانتم بطبيعتكم تجلون الأباطرة. كما أعلم من أدلة كثيرة، ولا سيما من اهتمامكم الشديد باسرتى، وهو اهتمام متبادل، لعل أعظم شاهد عليه ـ ولأذكر أقرب مثل ضاربا صفحا عن الامثلة الأخرى ـ هو أخى جرمانيكوس قيصر الذى خاطبكم بلغة واضحة صريحة.

وينقسم متن الرسالة إلى ثلاثة أقسام، يتناول الأول منها مقترحات الإسكندريين لتكريم

مريم العدرا الذى ولدته وهى عدرا انه كاهن وهو مستحق. وهذا الذى كان من التدبير كما قال لوقا الانجيلى المتطيب فى فصل من انجيله، ان يسوع لما رجع من الجليل بقوه الروح خرج خبره فى كل الكوره وكان يعلم فى مجامعهم ويمجده كل احد، وجا الى الناصره، حيث كن تربى، و دخل كعادته الى مجمعهم يوم سبت فدفع له الخادم السفر الذى فيه نبوءة اشعيا النبى المكتوب فيه:

(روح الرب عليّ ومن اجل هذا مسحنى

الإمبراطور. ويقبل كلوديوس بعضها ويرفض البعض الآخر. فهو يقبل، مثلا، أن يكون يوم ميلاده عيداً رسمياً، وأن تقام له ولأفراد أسرته تماثيل فى عدة أماكن. ومن بين تمثالين من الذهب يوافق على أن يقام أحدهما ـ وهو ما يرمز إلى فكرة السلام الذى وطد أغسطس وكلوديوس دعائمه ـ فى روما، وإن كان قد أراد أن يرفضه حتى لا يثير استهجان الناس لولا أن ألح عليه صديقه الأعز باليلوس، وأن يحمل الآخر فى مواكب أعياد البلاد والجلوس الإمبراطورية فى مدينة الإسكندرية. ويستجيب لرغبة المواطنين فى إنشاء جمعية تحمل اسمه، وغرس أيك صغيرة مقدسة وفقاً للعادة المتبعة فى مصر. ولا يعترض على أن تنصب له تماثيل يمتطى فيها صهوة جواده، وأخرى تمثله واقفاً فى عجلات حربية تجر كل منها أربعة جياد وتقوم عند مداخل القطر: أحدها عند تابوسيريس (أبو صير) فى الصحراء الليبية، والآخر عند فاروس (رأس التين) فى الإسكندرية، والثالث عند بيلوزيوم (الفرما) فى مصر. ولكن كلوديوس يستنكر تعيين كاهن أعلى وتشييد معابد له، لأنه لا يريد أن يسيء إلى شعور معاصريه «اذ أن المعابد وما شاكلها هى ـ فى رأيه ـ امتيازات خاصة تمنح للآلهة وحدهم فى كل زمان».

ويتناول القسم الثانى مطالب الإسكندريين التى يوافق كلوديوس عليها ما عدا المطلب الأخير. فهو يؤكد حق الجنسية السكندرية لجميع من استوفوا شروط الإندماج فى منظمات الشباب (ephêboi) حتى وقت اعتلائه العرش مع تمتعهم بكل الامتيازات والإعفاءات التى

وارسلنى لابشر المساكين وانذر المأسورين بالتخليه، والعميان بالنظر،وارسل المربوطين، وابشر بالسنه المقبوله للرب) ثم طوى الكتاب و دفعه للخادم وجلس، وكانت عيون الحاضرين شاخصه اليه، وبدا يقول لهم: اليوم كملت هذا النبوة فى مسامعكم . و كانوا جميعهم يشهدون له ويتعجبون من كلام النعمه الخارجه من فمه.

فلما سمع فيلبس النصرانى هذا من تاودوسيوس واليهودى فرح فرحا عظيما ثم قال

تتمتع بها المدينة ما عدا من اندسوا خلسة فى هذه المنظمات مع أنهم ينحدرون عن آباء أرقاء. ويرغب الإمبراطور فى أن يختار المشرفون (neokoroi) على معبد أغسطس المؤله بالإسكندرية عن طريق الاقتراع على نحو ما هو متبع فى حالة المشرفين على معبد أغسطس المؤله بكانوب. ويقر للاسكندريين بالمثل جميع الامتيازات التى منحها إياهم من سبقوه من الأباطرة والملوك والولاة وعلى نحو ما أقرها أغسطس المؤله نفسه. ويحبذ كل التحبيذ اقتراح الإسكندريين بأن تحدد مدة المناصب البلدية بثلاث سنوات «لأن حكامكم سوف يسلكون أثناء فترة توليهم مناصبهم مسلكا حذرا خشية أن يتعرضوا للحساب على اساءة استعمال السلطة».

وأما المطلب الأخير فيروغ منه كلوديوس ويرجىء البت فيه حتى يتحقق من فائدته:

«وأما عن مجلس الشورى، فليس فى وسعى أن أقول ما هى السنة التى درجتم عليها فى عهد الملوك القدماء. ولكنكم تعلمون جيدا أنه لم يكن لديكم مجلس فى عهد من سبقونى من الأباطرة. وحيث أن هذا مقترح جديد يثار الآن للمرة الأولى، ولا يتضح اذا ما كان سيعود بالفائدة على المدينة وحكومتى، فقد كتبت إلى أيميليوس ركتوس (الوالى) ليبحث الموضوع ويخبرنى عما اذا كان من الضرورى انشاؤه أصلا، وكيف ستكون طريقة انشائه اذا تبين أنه ضرورى».

له: انما عـرفت هذا وتكلمت به لانى من مـعلمى الناموس وقاريه وهو الذى ثبت فى قلبى ان الذى ولدته مريم هو المسيح وتمت عليه نبوة يعقوب ليهودا ولده لا على غيره، وانه لا يأتى بعده مسيح اخر، وقد صح لنا انه الذى تنتظره الامم وهو الاتى الى العالم المنجى لمن امن به، ولا يكون بعده ريس ولا مقدم ولا كاهن فى اسرايل، كقول داود النبى عنه فى مزمور ١١٠: (اقسم الرب ولم يندم انك الكاهن الى الابد كشبه طقس ملكيصداق فمن

والقسم الثالث والأخير من رسالة كلوديوس أكثر من سابقيه طرافة إن لم يكن أكثر أهمية لأنه يتناول النزاع بين اليهود ومواطنى الإسكندرية الإغريق وقد ثار حول تفسيره ـ مثلما ثار حول سابقه ـ جدل شديد وتشعبت فيه الآراء وبخاصة حول موضوع الجنسية السكندرية وهل كان اليهود يتمتعون بها كالإغريق من المواطنين. ولا يعنينا الآن أن نخوض فى وجهات النظر المتضاربة، تاركين للقارىء أن يستخلص لنفسه ما يشاء من رد الإمبراطور:

«وأما عن الفريق المسئول عن الشغب والنزاع ـ وان شئتم الصدق ـ عن الحرب مع اليهود، فعلى الرغم من أن سفراءكم، ولا سيما ديونيسيوس ابن ثيون. قد دافعوا (عن قضيتكم) دفاعا مجيدا عندما ووجهوا (بخصومكم). الا أننى لم أشأ أن أقوم بتحقيق دقيق، مختزنا فى صدرى سخطا دفينا على من يبداون (العدوان) من جديد. وانبئكم بصراحة أنه ان لم تكفوا عن تبادل العداوة المستحكمة القاتلة فسوف اضطر إلى أن أظهر لكم كيف يصير العاهل الشفوق عندما يتملكه غضب هو محق فيه. ولهذا فاننى، من ناحية، اناشد الاسكندريين مرة أخرى، أن يبدوا روح التسامح والود لليهود الذين يعيشون فى المدينة نفسها منذ زمن طويل، وألا ينتهكوا شعائر عبادتهم الدينية، بل أن يدعوهم يمارسون عاداتهم التى مارسوها أيام أغسطس المؤله، والتى أقررتها أنا كذلك بعد أن سمعت أقوال الطرفين. ومن

هو من درية ادم كـاهن يعـيش الى الابد). وداود ايضـا يقـول فى مزمـور ٩٨: من هو الانسان الذى يعيش ولا يعاين الموت فهو المسيح الذى قـال عنه داود انه الكاهـن الحى الدايم. فـاجـاب فـيلبس و قـال له: يجب ان تعلم ان كـتـمـانك هذا الامـر يوجب عليك دينونه(*) فى اليوم العظيم انا اوثر ان اظهـر الذى سـمعـتـه منك للملك المحب لله وينفـذ ويحـضـر النسبـه المكتـوبــه فـى المسطـرة لكى يظـهـر تبكيت اليـهـودى وقلة ايمانهم. فـاجـاب اليهـود وقـال للنصـراني: انت تعلم انك تأتى على

(*) دينونة: أى يوجب عليـه خطيـة عـدم الإفصـاح عن هذه القصـة والحساب عليها.

ناحيـة أخرى فانى آمر ايهـود صراحة ألا يضيعـوا جهـدهـم فى السعى وراء (حقـوق) أكثـر مما حصلوا عليه من قبل، وألا يرسلوا بعد اليوم سفارتين كأنهم يعيشون فى مدينتين، فذلك أمر لم يحدث أبدا من قبل، وألا يقحموا أنفسهم فى مباريات معاهد التربية أو منظمات الشباب، بل أن ينتفعـوا بما فى حـوزتهم (من امتيازات)، ويتمتعـوا فى مدينة ليست مـدينتـهم بوفـرة من الخيرات الجمة، وعليهم ألا يستقدموا أو يستدعوا يهودا ممن يفدون (إلى المدينة) من سوريا أو من مصر عن طريق النهر، مثيرين فى نفسى مزيدا من الريبة. ولئن لم يمتثلوا لأنتقمن منهم بكل الوسائل بوصفهم قوما ينشرون الوباء الشامل فى انحاء المعمورة. فان كف كل منكما عن هذه الأعمال ورضى أن يعيش فى تسامح وود مع الآخر، فسوف أولى من جانبى اهتماما للمدينة التى تربطها بنا صداقة تقليدية قديمة».

هذه الرسالة المتزنة التى تنم عن فطنة ولباقة دبلوماسية، والتى أنصفت كلوديوس من المؤرخين وغيرت رأيهم فيه، لم ترض اليهود لأنها قضت على أملهم فى الحصول على مزيد من الامتيازات؛ ولم ترض كذلك الإسكندريين لأنها أقرت لليهود حقوقهم وامتيازاتهم القديمة. وأدهى من ذلك أنها أرجأت البت فى طلب إنشاء مجلس الشورى، وهو إرجاء لم يقصد به سوى التخلص من الحرج والتهرب من مطلب لم يكن يتفق ومصلحة الإمبراطور. وقد ظلت

نفسك بدينونه العهد الذى بيننا والامر الذى تظن انك تظفر به فلا تقدر عليه ولا تتمكن منه، لان اليهود اذا علموا بهذا اثارو حربا كبيرا و تجرى امور يموت فيها خلق كثير، واذا الزمو باظهار النسبه وما فيها مكتوب رأو ان يحرقوها بالنار او يقتل جمعهم بالسيف و لا يظهرونها، وتكون انت المخطى وتضيع النسبه بعد ذلك، والنصارى ماهم محتاجين لها لانها مسطرة كهنة اليهودوانتم قد امنتم به وعرفتموه من اقوال الانبيا والرسل وتحققتم امر دينكم، وهذا [المسطره] فهو يبكت اليهود الى

الإسكندرية بغير مجلس شورى حتى عام ٢٠٠ . وأيقنت الحكومة الرومانية بعد هذه الاضطرابات الدامية أن الإسكندرية هى منبع الخطر الحقيقى فى البلاد، فنقلت فى عصر كاليجولا أو فى أوائل عصر كلوديوس فرقة قورينة الثالثة (leg. III Cyr.) التى كانت ترابط ـ على ما يرجح ـ عند قفط أو طيبة، نقلتها إلى الإسكندرية حيث رابطت مع فرقة ديوطاروس الثانية والعشرين فى معسكر نيقوبوليس بضاحية المدينة.

٣. أعمال الإسكندريين وأدب الشهداء:

ولعل هذا الإجراء العسكرى، إلى جانب تحذير كلوديوس الشديد، قد ردع الفريقين وكبح جماحهما إلى حين. ولكن لم تمض سنوات قليلة حتى تجددت الاضطرابات فى الإسكندرية. ولم تصلنا أخبار هذه الاضطرابات عن طريق المؤرخين، بل وصلتنا فى شكل برديات، هى فى الغالب قصاصات، تؤلف مجموعة طريفة يسميها العلماء الآن «أعمال الشهداء السكندريين» (Acta Alexanorinorum) نظراً لما بينها وبين «أعمال الشهداء المسيحيين» من تشابه. ولعل أوجه الشبه تنحصر فى كتابة كل منهما فى شكل محاضر الجلسات القضائية[١]، وتبادل

---

(١) ظهرت «أعمال الشهداء المسيحيين» فى صورتين أدبيتين إحداهما هى صورة الرسائل (كاستشهاد پوليكارپوس فى عام ١٥٦) والأخرى صورة محاضر الجلسات القضائية (كأعمال شهداء سكيللى الذين حوكموا أمام مجلس الپر وقنصل ساتورنينوس فى قرطاجه فى أعمال أغسطس عام ١٨٠) والثانية هى التى راجت فيما بعد.

الابد فى بقاه عندهم، فلماذا تريد ازالته من بينهم، فصدقنى يا صديقى ان كل كتاب قريته من الناموس ومن نبوات الانبيا من اجل المسيح كانت هذه، وهذه نسخه النسبه عندى اقوى بها على ايمانى بالمسيح الذى تعبدونه انتم، وقد ظهر هذا لجميع المعلمين وانا اعلم انك ان ذكرتها ضيعتها. فقبلت انا فيلبس منه مع سؤال كثير ان لا اظهر هذا الامر وخوفنى فامسكت لانه استحكم على الله. وقال: ان هذه الشهادات تقنع انه يسوع المسيح بتبكيت اليهود وتثبت لنا و لا مانتنا.

الألفاظ القارصة بين المتهمين والإمبراطور، وإلقاء الشهداء خطباً طويلة وتجسيم عيوب الحكم الرومانى. بيد أن هذا الشبه ظاهرى أكثر منه حقيقى وقد كتبت من وجهة نظر الإسكندريين وبالأخرى من وجهة نظر فريق معين أو طبقة اجتماعية بينهم. ومع أنها لا تعد من قبيل القصص التاريخية أو الروايات الخرافية، إلا إنها لا تخلو من الطابع الخيالى الروائى. وقد أحرزت رواجاً واسعاً بين الإغريق فى الإسكندرية وفى أنحاء مصر الأخرى لأنها كانت تنفس عما فى صدورهم من حقد على الرومان وبغض لصنائعهم من اليهود. ولما كان كثير من هذه الأعمال يدور حول النزاع الذى احتدم أواره لفترة طويلة بين الإسكندريين واليهود، فإنها توصف أحياناً «بالأدب المناهض لليهودية». غير أن «أعمال الإسكندريين» كانت دعاية موجهة ضد الرومان بالذات، ولم تكن مناهضة لليهود بقدر ما كانت مناهضة للرومان، ولم يستخدم اليهود فيها إلا كوسيلة أو تكأة لمهاجمة الحكم الرومانى. لقد كانت بمثابة الأدب القومى الذى يهدف إلى إذكاء الشعور الوطنى فى الإسكندرية وغيرها من مواطنى الإغريق فى مصر، وتمجيد بطولة زعماء المدينة، وإلهاب روح العداوة ضد الحكم الأجنبى.

لكن ينبغى قبل أن نعرض نماذج لهذا الأدب الشعبى أن نذكر شيئاً عن أصله وتاريخه والهدف منه، وهى مسائل قام حولها جدل بين الدارسين، وما يزال هذا الجدل قائماً حتى اليوم. فلنتناول أولا مسألة تأليف هذه النصوص الأدبية أو شبه الأدبية. ففريق من الباحثين يرى

انا فيلبس كتبت هذا واحضرته قدام جماعة البيعه واساقفه قديسين ورهبان مصطفين، فلما علموا تعجبوا من ذلك و تحققو صحة قول اليهودى وشهادة اليهود للسيد المسيح فى الكهنوت، كما قد كتب فى [المسطره].

ثم كتبو الاساقفه والرهبان كتبا بسبب الكهنوت فوجدو يوسابيوس بنفلوس يذكر هذا فى مواضع كثيره فى سير البيعه، لان يسيبوس [بسنتيوس = باسنت] اظهره فى كتب الهيكل.


تمثال نصفى لكاركالا
(٢١١ - ٢١٧)

أنها كتبت فى أوقات مختلفة بقلم مؤلفين مختلفين. وفريق آخر، يتزعمه الأستاذ بريمر شتاين، يرى أنها كلها تمثل كتاباً أدبياً واحداً وضعه مؤلف واحد فى مستهل القرن الثالث الميلادى، ربما فى عصر الإمبراطور كراكلا، عندما بلغ عداء الإسكندرية للرومان ذروته وينبغى أن أنبه مرة أخرى إلى أن كثيراً من هذه النصوص مكتوب فى شكل محاضر جلسات قضائية حتى أن العلامة ڤيلكن يعتقد أنها ربما نقلت - بطريقة أو بأخرى - عن مذكرات الإمبراطور (commenterii Principis) ثم ترجمت إلى اليونانية وأقحمت فيها عناصر خيالية لتخدم غرض الدعاية السياسية. ولا يقبل بريمر شتاين هذا التفسير ويرى أن هذه النصوص لا يمكن أن تكون صوراً محرفة من المحاضر الرسمية، ويذهب إلى أن كتابتها على هذا النحو لا تعدو أن تكون حيلة من الحيل الأدبية القصد منها إلباس هذه النصوص ثوب الحقيقة وإيهاء القارىء بأنها صحيحة غير زائفة. غير أن رأى ڤيلكن - كما سنرى بعد قليل - هو الأقرب إلى الصواب لأن من يقرأ هذه البرديات لا يستطيع أن ينكر صلتها بمضابط الجلسات القضائية ولن يساوره الشك فى أن هذه المضابط كانت أحد المصادر التى استقى منها كتاب هذه النصوص مادتهم. ويتضح من دراسة مجموعة «أعمال الإسكندريين» ومقارنة بعض نصوصها بالبعض الآخر أنها تختلف فيما بينها إختلافاً بيناً سواء من ناحية الأسلوب أو الإنشاء، ومن ثم لا يمكن أن تكون من تأليف كاتب واحد. فكل قطعة منها تتميز عن الأخرى بخواص لغوية معينة. ففى إحداها

وذكـر هذا يسـيـبـوس [الاب بسنتيـوس اسـقف قفط(*)] انه نظر يسوع مع الكهنه يدخل الهيكل فى وقت التطهيـر، ثم يذكـر ايضـا شـهـادة لوقـا الانجيلى على ما قدمنا شرحه. ولاجل ان السيد المسيح ايضا صنع مخصره(*) من حبل واخـرج [التـجـار] من الهـيكل . صح هذا وجـمـيـع هذه الشـهـادات ان قـول اليـهـودى صـحـيح وانه لاجل صدقته مع فيلبس اظهر له هذا الامر المخفى وشهد له به.

(*) هو الأب بسنتيوس مؤلف كتاب الهياكل.

(*) مخصرة من حبل: سوط من حبل.

تغلب الأسئلة البلاغية، وفى أخرى يغلب الأسلوب الروائى، وفى ثالثة يظهر واضحاً أثر اللغة اللاتينية، بينما تتكرر فى رابعة كلمة بعينها فى أول الجمل. وفى خامسة تلمس أسلوب المحاضر الرسمية، وفى سادسة يغلب استعمال أداة العطف المألوفة، وفى سابعة يغلب حذف أدوات الوصل. وأوجه الشبه طفيفة بين هذه القطع من ناحية الأسلوب اللهم إلا بصورة عامة كالتعقيد البلاغى فى بعضها أو المسحة الأدبية الواضحة فى بعضها الآخر. على أن القواعد النحوية فيها بسيطة وأسلوبها واضح لا التواء فيه وهو قريب الشبه من أسلوب المحاضر العادية فى الوثائق البردية.

ولعل ما أوحى إلى پريمرشتاين بنظرية المؤلف الواحد هو أن معظم برديات «أعمال الإسكندريين» ترجع إلى نهاية القرن الثانى أو بداية القرن الثالث على أنه يسوق تأييداً لنظريته حججاً أخرى متعلقة بالتفاصيل، كتكرار نفس الأفكار أو الموضوعات وتشابه طرائق التعبير وتصوير الأباطرة فى صورة تقليدية ثابتة، الأمر الذى يوحى بأن المؤلف يكتب فى زمن بعيد عن زمن الأحداث نفسها. لكن يرد عليه بأن معظم هذه البرديات، وإن كانت قد أُرِّخت بعام ٢٠٠ على وجه التقريب، إلا أن تأريخها استناداً إلى الخط وحده أمر يحتمل قدر من الخطأ، ولابد من الافتراض بأنها كتبت فيما بين عامى ١٨٠ ، ٢٢٠ أى خلال فترة لا يقل مداها عن أربعين عاماً. وقد سلم پريمرشتاين نفسه بأن إحدى هذه البرديات، وهى النسخة المطوّلة من

فلمـا تمم اليـهـودى تاودوسيـوس هذا الكلام الصحـيح لصديقـه فيلبس تعمـد وصار نصـرانيا وختم بخـاتم المعـموديه واخـذ السـراير المقدسـه. وتعجب كل احـد من حسن ايمانه بالسيـد المسيح جلت قدرته، وكانت مسره عظيمـه لى أنا فـيلبس مع تاودسيوس المتعمد.

ولما رأى كثير من اليهـود ذلك مع معرفتهم به انه من مـعلمى النامـوس عندهم وانـه كان مقـدما عليهم وينال منهم كرامات عظيمـه فرفض جميع ذلك وصار نصرانيا امن منهم جماعه و تعمدو.

«أعمال پاولوس وأنطونينوس» قد كتبت فى النصف الأول من القرن الثانى، أى بعد مدة غير طويلة من وقوع الحادثة نفسها. وفضلا عن ذلك فإن اكتشـاف بعض برديات من «أعمـال الإسكندريين» فى السنوات الأخيرة تنتمى إلى القرن الأول أو مستهل القرن الثانى كفيل وحده بتجريح نظرية پريمرشتاين القائلة بأن كل هذه البرديات كتبت فى أوائل القرن الثالث. وإذا كان نص معين للدعاية من عصر هدريان قد أعيد نشره بعد تحويره فى نهاية القرن الثانى، فليس ثمة ما يمنع من أن تكون نصوص أقدم منه على شاكلته قد عولجت بالطريقة عينها. وأما عن التشابه بين هذه النصـوص فى الأسلوب أو طريقة التعبير أو الموضوع، فإن ذلك لا يعدو أن يكون توافقاً طبيعياً بين نصوص من صنف أدبى واحد، نابعة كلها من مصدر واحد أو بالأخرى من طبقة اجتماعية معينة، وتستهدف غرضاً واحداً هو الدعاية.

وفى رأى الأستاذ «بل» أنه حتى إذا سلمنا جدلاً بأن معظم هذه البرديات يرجع إلى أوائل القرن الثالث، ففى وسعنا أن نسوق تفسيرين أقرب إلى الواقع من تفسير پريمرشتاين. ذلك أن اشتداد عداوة الإسكندرية للحكم الرومانى، وبخاصة للامبراطور كراكلا فى أوائل القرن الثالث قد زاد من رواج هذا النوع من منشورات الدعاية بين الجماهير. وليس من المستبعد أن بعض المنشورات القديمة ظلت متداولة بين مواطنى الإسكندرية. أليس من الطبيعى إذن أن يؤدى ازدياد الطلب عليها إذ ذاك إلى بعثها من جديد؟ ومن الجائز أيضاً أن كاتباً واحداً

فمجدت الله تعالى انا فيلبس على ربحى نفس صديقى اليهودى كان، وهو الان نصرانى.

والمجد للسيد يسوع المسيح مع الاب والروح القدس الان و كل اوان والى دهر الداهرين امين امين امين.

[نبتدى بعون الله وارشاده بنسخ قليلا من كثير من سير الاباء القديسين، الفضلا المويدين بنعمة الروح القدس، البطاركه بكورة مصر و ما ينسب اليها خلفا الاب القديس مارى مرقس الانجيلى

خطرت له فكرة جمع ونشر ما أمكنه العثور عليه من الكتابات الخاصة بمحاكمة زعماء الإسكندرية أمام الأباطرة بعد إدخال بعض تعديلات عليها سواء بالإضافة أو الحذف حسبما تراءى له. لعل ذلك يفسر ما بين قطع «أعمال الإسكندريين» من تباين شديد فى الأسلوب والإنشاء تفسيراً أفضل من نظرية العالم الألمانى القائلة بأنها كلها من كتاب واحد بقلم كاتب واحد.

وأما عن نشأة وتطور هذا النوع من الأدب الذى يصور زعماء الإسكندرية فى صورة أبطال يتحدون القوة الغاشمة مضحين بأنفسهم فى سبيل رفعة مدينتهم، والذى يوصف أحياناً «بأدب الشهداء»، فحسبى أن أقول إن كلمة «شهيد» (martus = martyr) هى صفة أطلقت فيما قبل المسيحية بمصر على كل من كان يلقى حتفه أيام الاضطهادات فى سبيل عقيدته الدينية والأقدم من ذلك اوزيريس (الشهيد الحى) أول الشهداء المدافعين عن مصر ضد إله الشر «ست»، ومن بعده بشهداء الغرق فى النيل الذين تعمدوا بالماء المقدس لاوزيريس فنشأت حولهم قدسية خاصة فى المعتقدات المصرية القديمة. لكن بمضى الزمن اتسع مفهوم الكلمة فأصبحت تطلق أيضاً على كل من كان يضحى بنفسه دفاعاً عن فكرة أو مبدأ أو مثل أعلى. وفى وسعنا أن نرجع «بفكرة الموت» أو «الإصرار على الموت» فى الأدب اليونانى إلى إلياذة هوميروس، وموضوع غضب أخيليوس (أخيل). ونلمس نفس النزعة فى مأساة أنتيجونى لسوفوكليس. غير أن أفلاطون الذى عنى بمشكلة خلود الروح هو أول من نلقى عنده فكرة

كاروز الديار المصريه وهو اول بطاركتها، وما لقيوه وما صبروا عليه من الجهاد من قبل الامانه المقدسه من الملوك والولاه وغيرهم وذلك قليل من كثير منقول من سيرهم العجيبه لاجل الاقتصار وعدم ضجر القارى. بركاتهم وصلواتهم تكون حافظه لنا الى الابد امين.

اول ذلك الاب الطاهر البشير مارى مرقس الانجيلى الرسول و هو الاول من العدد].

الارتباط بين الفيلسوف والموت: «فالفلاسفة الحقيقيون هم من يروضون أنفسهم على الموت». ولعل أصدق مثل على ذلك قصة سقراط وإيثاره الموت على التخلى عن مبادئه. وقد كان لموت سقراط الذى أكسبه أفلاطون لمحة مثالية تأثير قوى على تطور فكرة الموت بوصفها مثلا أعلى للبطولة. ومنذ القرن الرابع ق.م. كانت هذه الفكرة المثالية موضوعاً للجدل بين فلاسفة أثينا. يقول أرسطو فى إحدى فقرات كتابه «الأخلاق عند نيقوماخوس» إن الرجل الفاضل هو من يجود بنفسه عند الضرورة من أجل أحبائه ومدينته. وتطورت الفكرة عند الرواقيين إلى عقيدة الاستهانة بالموت. كما سمع اليونان عن التضحية بالنفس عند المصريين الذين التقى بهم الإسكندر الأكبر. ولم يأت العصر الهلينستى حتى كانت قد جمعت فى الكتب كثير من القصص التى تروى مصارع الفلاسفة والأبطال (Teleutai). وكان من أبرزها قصة مصرع كاليستنيس على يد الإسكندر. ولما جاء العصر المسيحى أعاد آباء الكنيسة رواية هذه القصص. وقد راجت عند المصريين فى العصر الهلينستى قصص كثيرة عن الاستشهاد وإيثار الموت على أكل لحم الخنزير (الذى كان يحرمه المصريين بأعتباره ممثلاً للإله ست) وبخاصة فى زمن اضطهادات الملك السليوكى، أنطيوخوس الرابع، الملقب بالظاهر (١٧٦ ـ ١٦٣ ق. م.). فإذا عدنا إلى عالم الرومان وجدناه حافلاً بحكايات عديدة عن مقاومة الرواقيين لطغيان بعض الأباطرة. وتزخر رسائل پلينيوس الأصغر وإيبكتيتوس وفيلوسترات‍وس الأكبر بمثل هذه الحكايات. ولا ريب فى أن هذه الفكرة، فكرة الموت والترحيب به دفاعاً عن مبدأ أو عقيدة وما نسج

بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد

السيرة الأولى من سير البيعة المقدسة

سيرة مارى مرقس [يوحنا] الحوارى الانجيلى

ريس اساقفه(*) المدينه العظمى اسكندريه واولهم

لما كـان فى زمـان تدبيـر الرب المخلص الرحـوم يسوع المسيح عند ما جعل له تلاميذ يتبعونه،كان اخوان ساكنين فى مدينه من اعمال الخمس مدن التى فى المغرب تدعى كيرنابولوس، اسم اكبرهم

(*) اساقفة: جمع اسقف، وهو الراعى لأمانته ورعيته من الناس. والقديس بطرس يطلق هذا اللقب على السيد المسيح فى العهد الجديد حيث يقول: «انكم كنتم كخراف ضالة، ولكنكم رجعتم الآن إلى راعى نفوسكم وأسقفها» [١بط ٢ :٥].

حولها من قصص أو أساطير، كانت معروفة بين الأوساط المثقفة فى الإسكندرية. وليس من المستبعد أن تكون «أعمال الإسكندريين» أو «أعمال الشهداء» قد تأثرت بها. غير أن هذا الأثر كان بعيداً أو غير مباشر.

وقد حاول العلامة رستوفتزف أن يثبت تأثر «أعمال الإسكندريين» بتعاليم فلسفة الكلبيين التى شهدت الإسكندرية كثيراً من أتباعها وهم يهيمون فى شوارعها على وجوههم من أمثال پريجرينوس المشهور باسم پروتيوس، ممن كانوا يتسولون فى ثياب رثة وهيئة زرية ويأتون بأفعال منكرة، أو يحضون الناس، مثلما فعل ديوجينس، على انتهاج أسلوب معين فى الحياة، يتخلون فيه عن بذخ الدنيا، ويهبون أنفسهم للشظف والعناء، ويفترشون الأرض، ولا يشربون سوى الماء، ويعزفون عن الزواج ويزهدون فى الأبناء وينكرون الوطن. ويبشرون بين الناس قائلين لمن يلتقون به «ينبغى أن تكون جريئاً وقحاً، وأن تهين الناس جميعاً أمراء وسوقة؛ ولتكن فظاً غليظ القلب، ولا تدع التواضع أو الشفقة أو الاعتدال يتسرب إلى نفسك. ولا تتحرج عن أن تفعل فى العلانية ما قد يتحرج سواك عن فعله فى السر..». ونحن نعرف أن ديوجينس هذا كان ينادى بالابتعاد عن الحياة السياسية، وكان فى رأيه أن نبل الأصل وذيوع الصيت وما إلى ذلك إنما هى زخارف أو أقنعة زائفة تخفى تحتها روح الخسة واللؤم. وقد سئل مرة ما هو وطنه، فأجاب بأن العالم وطن له (kosmopolitês). وبغض النظر عن استهتاره الدينى وإباحيته الأخلاقية، فقد سعى جاهداً إلى تحرير الناس مما أسماه أوهام الدين وخزعبلاته، وقد ضرب

ارستوبولس واسم الاخر برنابس، وكانا فلاحين، وكانا يزرعان ويحصدان، وكان لهما اواسى كثيره، وكانا [يهوديين] عارفين بنامّوس موسى معرفه جيده وحفظا كتبا كتيره من العتيقه، ونالهما بلايا عظيمه من قبيلتى البربر والحبش [النوبه] ونهب جميع ما كان لهما في زمان اوغسطس قيصر ملك الروم. ولاجل ذهاب مالهما وما نزل عليهما من البلايا رحلا من تلك الكوره واهتما بخلاص انفسهما واتجها إلى بلاد اليهود، و كان لا

ويقابلهما في اليونانية كلمة بمعنى المراقب في ابراج الحصون. وهي تترجم في الكتاب المقدس بكلمة «يتفقد» أو «يلاحظ»، ومن هنا كان المسيح رأس الطغمة (Togma تعني رتبة). والمعنى الوظيفي لكلمة اسقف هو الخادم والوكيل والمؤتمن على تكميل اسقفية المسيح على كنيسته.

المثل بازدرائه للآلهة، ولم يسلم سرابيس من سليط لسانه. فكيف تتفق روح هذه الفلسفة و«أعمال الإسكندريين» التي تؤكد الاعتزاز بنبل الأصل، وحب الوطن، والتقوى للآلهة؟ إن نظرية روستوفتزف عن تأثر أدب الشهداء بالفلسفة الكلبية لا يمكن، على وجاهتها، أن تكون صحيحة. ولابد من أن نبحث عن مؤثرات أخرى تأثرت بها كتابة «أعمال الإسكندريين».

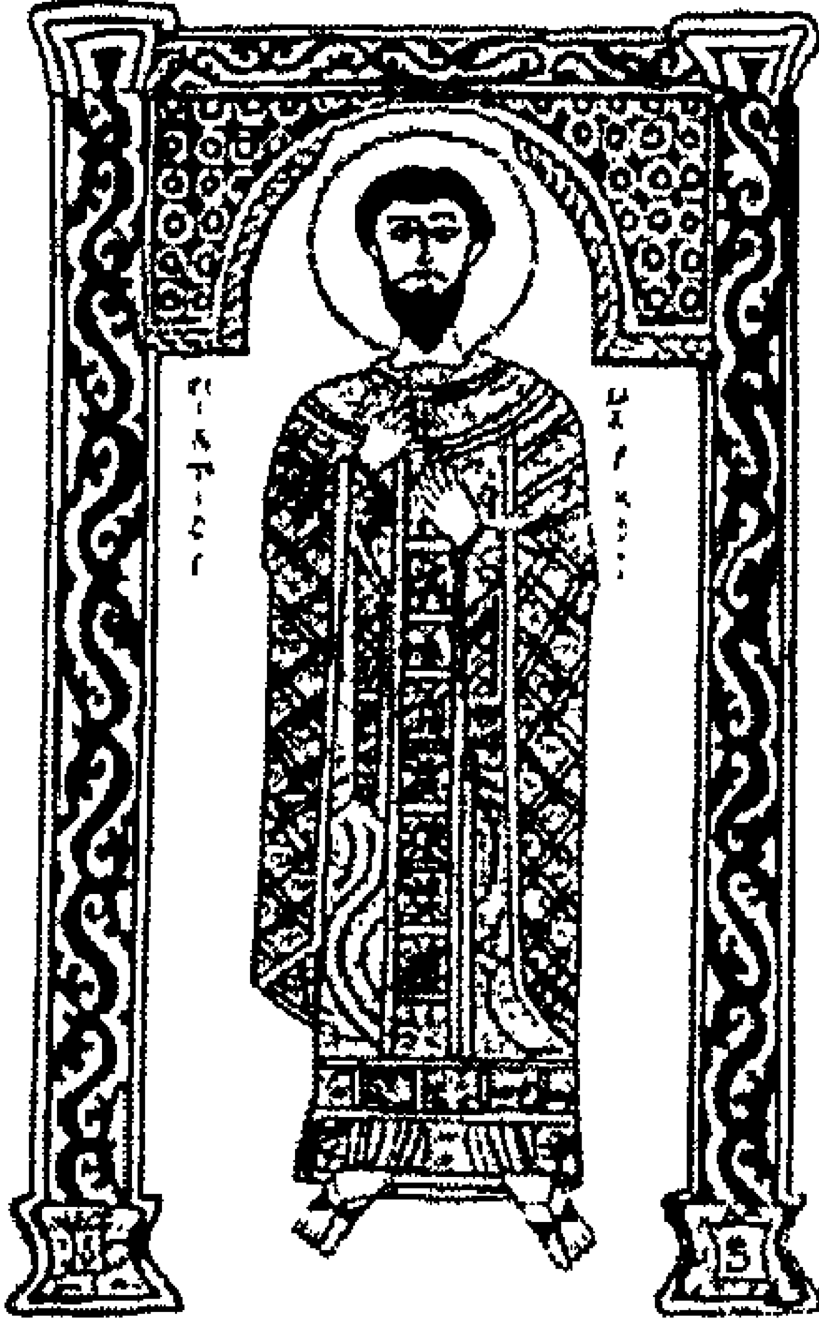
إن هذه المؤثرات المباشرة يمكن حصرها في ثلاث: التمثيليات الهزلية المعاصرة، ومحاضر الجلسات القضائية، والقصة اليونانية الطويلة، وإن كانت «أعمال الشهداء السكندريين» تتميز عنها جميعاً بخصائص فريدة ترجع إلى الديانة الاوزيرية في الاساس التي تؤمن ببعث الشهيد حياً في جنة الخلود. وقد راجت التمثيليات الهزلية، (mimoi) في العصر الهلينستي رواجاً كبيراً[١]. ونلحظ أثرها واضحاً في تلك المسرحيات الفكاهية التي وضعت بتحريض زعيم مثل

(١) وبخاصة الشاعر هيروندااس. وعن سبق الإسكندريين في هذا النوع من التمثيل الهزلي (mimos)، أنظر:

Cicero, Pro Rab. Post. 35: Audiebamus Alexandriam: nunc cognos cimus: illinc omnes praestigiae, illinc, inquam, omnes fallaciae, omnia denique ab eis mimorum argumenta nata sunt: Nec mihi longius quicquam est, iudices, quam videre hominum voltus:

لقد كنا نسمع (من قبل) عن الاسكندرية، والأن نحن نعرفها. انها منبع كل البدع ـ أقول ـ انها مصدر كل الحيل، وأخيرا فان سكانها هم الذين ابتكروا كل موضوعات التمثيليات الهزلية. وليس هناك شيء اتوق إليه ـ حضرات المحلفين ـ أكثر من أن أرى وجوه قومها. =

رستوبولس ولد ذكر يسمى يوحنا، فلما سكنوا فى اعمال فلسطين بالقرب من مدينة اورشليم وكان يوحنا الطفل ينمو وينشأ فى قامته بنعمة روح القدس وكان لهذين الاخوين ابنة عم وهى زوجة سمعان بطرس الذى صار ريس تلاميذ السيد المسيح وكان يوحنا المذكور قد سموه مرقس، وكان ياوى عند بطرس ويتعلم منه من الكتب المقدسه التعاليم المسيحيه. ولما كان يوم من الايام اخذ ارستوبولس ولده مرقس الى الاردن، فبينما هما ما شيان لقيهما اسد ولبوه .



رسم للقديس مرقس (يوحنا) من مخطوط يعود للقرن ١٣

إسيدوروس للسخرية من الوالى فلاكوس عندما احتدمت بينهما الخصومة بسبب إغلاق نوادى المدينة وجمعياتها فى عام ٣٤/٣٣؛ وفى الموكب الملكى الهزلى الذى نظمه الإسكندريون للاستهزاء بأجريبا اليهودى فى عام ٣٨؛ والتمثيليات التى عرضت فى الإسكندرية للتفكه بمصائب اليهود إبان محنتهم؛ والأراجيز التى نظمت والمسرحية الهزلية التى مثلت فى الإسكندرية للتعريض بلوكواس ملك اليهود الذى تزعم ثورتهم الكبرى فى برقة ومصر وقبرص

= وعن شغف الإسكندريين بهذا النوع من التمثيل دون تقدير للعواقب التى قد تنجم عنه، راجع:
Dio Cnrysost. Or. XXXII, 86, 89, & Passim.

وعن طبيعته وانتشاره فى مصر وبعض نماذج منه، أنظر:

- T. Grassi, "Musica, Mimica e Danza secondo i documentl papira cel greco- egizi", Studi della Scuola papirologicc III. MIlan (1920). PP. 111 - 135.
- G. Manteuffel, De Opusculis Graecis Aegyptie Papytis, Ostracis Lapidibusque Collectis. Travaux de La Societe des Sciences et des Lettres de Varsovie, No. 12 (Warsaw. 1930), PP. 41 ff.: idem. "Zwei Bemerkungen zu den griechischen Mimen aus Aegypten". Hermes 65. (1930). PP. 123- 128.
- H. Box, philonis Alexandrini in Flaccum. Oxford (1939), P. 88 f. r. 34.
- D.L page, Greek Literary papyri. poetry, vol. I (Loed Classical Library) 1942, Nos. 73-79.
- A. Swiderek, "Le mime grec en Egypte", Eos 47 (1954), PP. 63-74.

فلما نظر ارستوبولوس اليهما مقبلين اليه ونظر شده غضبهما قال لولده مرقس: يا ولدى هوذا تنظر غضب هذا الاسد المقبل ليهلكنا فامض انت الان وانج بنفسك يا ولدى و دعهما ان ياكلانى. كما اراد الله ضابط الكل اجاب تلميذ المسيح مرقس القديس قايلا لا بيه: لا تخف يا أبت المسيح الذى اومن به ينجينا من كل شده.

فلما قرب منهم الاسدين صاح عليهما مرقس تلميذ السيد المسيح بصوت عظيم وقال: السيد

(١١٥ ـ ١١٧). وتوحى بعض فقرات فى «أعمال الشهداء السكندريين» بأنها قد تأثرت بفن التمثيل المسرحى، مثال ذلك: مخاطبة أپيانوس لجثة الميت فى روما، ومواساة هليودوروس له، وخطاب أپيانوس المؤثر بعد أن أتشح بأوسمة منصبه الرفيع كمدير لمعهد التربية، وخطبة الموت لپاولوس، والحوار العنيف بين الإمبراطور كلوديوس وإسيدوروس، وبين تراچان وهرمايسكوس، وبين كومودوس وأپيانوس؛ وأخيراً تجسيم عيوب الأباطرة وتصويرهم فى صورة ساخرة كرجال خاضعين لزوجاتهم أو طغاة أجلاف لا يعرفون كيف يحكمون العالم الذى فتحوه، والتنديد بافتقارهم إلى الحزم، وتخوفهم من الشعب، واستعانتهم فى آخر الأمر بالجلاد للتخلص من خصومهم. وعلى نقيض ذلك فإن «أعمال الشهداء السكندريين» تنوه باستقامة خلق الإسكندريين وكريم أرومتهم وثقافتهم وشجاعتهم وتحديهم قوى الظلم واستهانتهم بالتعذيب. إن جميع هذه العناصر المسرحية أو شبه المسرحية قد تعزى أصلاً إلى جمهور القراء فى معاهد التربية أو النوادى أو الجمعيات السكندرية. غير أنه لا ينبغى أن نؤكد أثر التمثيليات الهزلية فى «أعمال الإسكندريين». فثمة فرق واضح بينهما وهو افتقار الثانية إلى عنصر الفكاهة والمزاح، واتسامها بروح الجد التى نألفها فى المآسى اليونانية.

والمصدر الآخر الذى اعتمدت عليه «أعمال الإسكندريين» وتأثرت به هو محاضر الجلسات القضائية. غير أن أثر محاضر الجلسات الرسمية لا يظهر فيها كلها أو يظهر فيها لكن بدرجات

يسوع المسيح ابن الله الحى يأمركما تنشقا وينقطع
جنسكما من هذا الجبل ولا يكون لكما فيه ولد
إلى الابد. فانشقا الاسد واللبوة للوقت و الساعه
من وسطهما وماتا لوقتهما من تلك الساعه،
وانقطع نسلهما. فلما نظر ارستوبولس ابوه هذه
الاعجوبه العظيمه التى ظهرت من مرقس ولده
بقوة الرب يسوع المسيح الذى لا يغلب قال لولده:
انا ابوك الذى ولدتك يا مرقس ابنى وانت اليوم ابى

متفاوتة. فبعضها مكتوب فعلاً فى شكل محضر قضائى مما يدل على أن مؤلفة اقتبس مادته من صورة وثيقة رسمية وصلت إليه بطريقة أو بأخرى. وبعضها الآخر يمثل محضراً رسمياً محرفاً أو ملفقاً قد أقحمت فيه عناصر روائية أو خيالية ليخدم غرض الدعاية. وبينما يصطبغ نص بصبغة بلاغية واضحة توحى بأنه مستمد من خطبة المحامى الذى تولى الدفاع فى الجلسة الحقيقية، يستقى نص آخر مادته جزئياً أو بصورة غير مباشرة من وثيقة مكتوبة، ويستند ثالث إلى رواية شفوية، ورابع أشبه ما يكوين بالقصة الخيالية البحتة[١].

والمصدر الثالث الذى يحتمل أن تكون «أعمال الإسكندريين» قد أخذت عنه بعض موضوعاتها الأدبية هو القصة الطويلة. وقد كان طبيعياً أن يتأثر كتّاب هذه «الأعمال» ومن أعادوا تدوينها بصنف من الأدب الترويحى كان رائجاً فى العصر اليونانى المتأخر والعصر الرومانى. غير أن هذا الأثر كان سطحياً غير عميق. ولا يتبين من المقارنة سوى تشابه طفيف بين أسلوب «أعمال الشهداء» وأسلوب بعض كتاب القصة من أمثال خاريتون وهليودوروس. ولعل ما بينهما من تشابه لا يظهر فى الأسلوب بقدر ما يظهر فى بعض ملامح عامة عاطفية كتقوى الآلهة وحب الوطن.

---

(١) تتضمن قصاصة بردية جديدة، تنتمى فيما يبدو إلى «أعمال الإسكندريين»، خليطاً من الأساليب المختلفة (أسلوب محاضر الجلسات القضائية، والأسلوب البلاغى، والأسلوب الروائى)، أنظر:
Musurillo, "A New Fragment of the Acta Alerandrinorum". J.R.S. 47 (1957), P. 185.

ومخلصى ومنجينى، والان يا ولدى الحبيب انا و اخى نسيلك [نسألك] ان تجعلنا عبيدا للرب يسوع المسيح الذى تبشر به. وحينذ تعلم ابو القديس مرقس وعمه تعاليم المسيح من ذلك اليوم. ومريم امه هى اخت برنابا تلميذ الرسل.

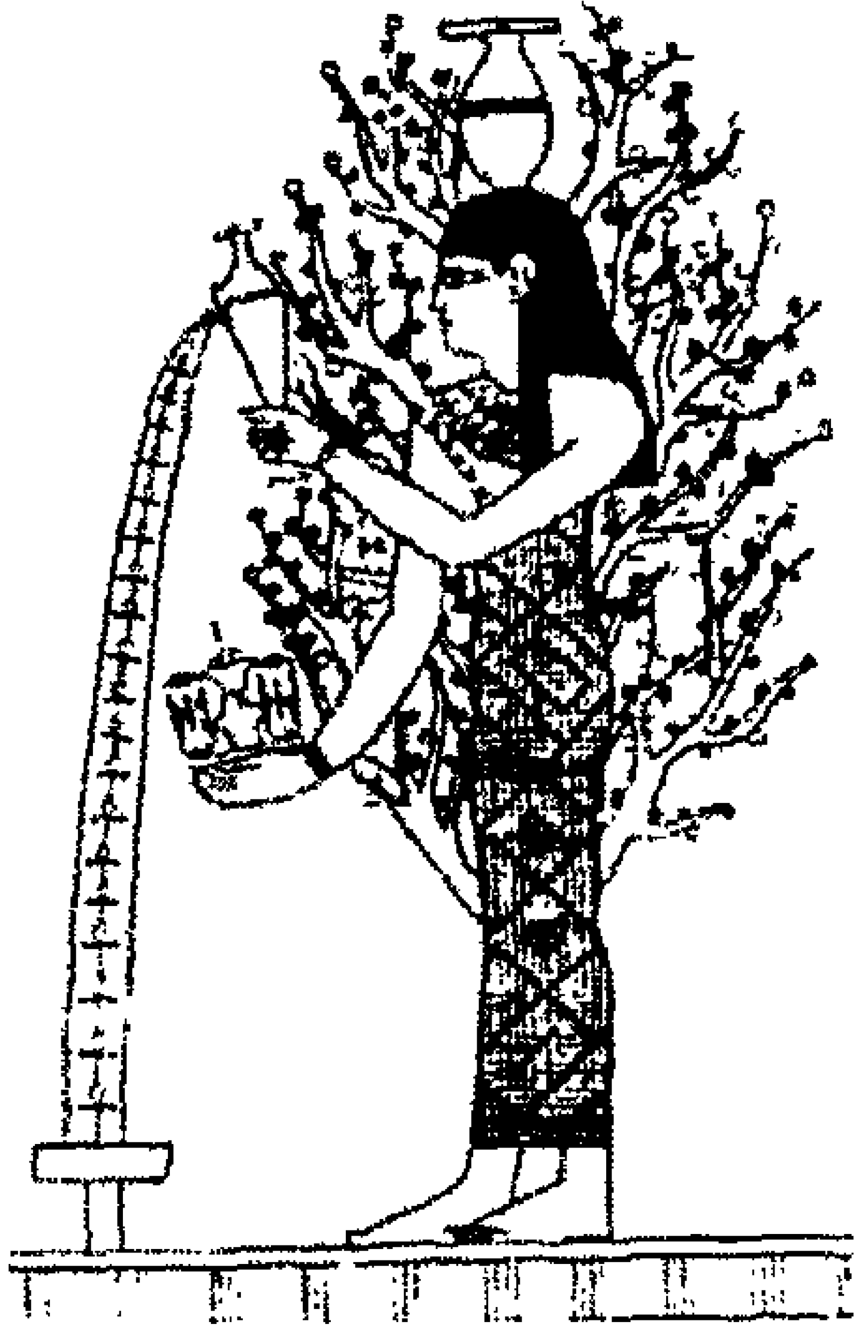
وبعد هذا كان فى تلك النواحى فى بلد يسمى ازدود(*) اصل. زيتون كبير جدا وكان الناس يتعجبون من عظمه وكان اهل تلك المدينه يسجدون للقمر ويصلون لشجرة الزيتون. فنظر

(*) ازدود = اسدود: هى احد موانى الساحل الفلسطينى القديمة.

وفى رأى القس موسير يللو الذى عكف على دراسة هذا الموضوع مدة طويلة أن من الجائز أن تكون «أعمال الإسكندريين» قد نبعت أيضاً من مصدر آخر. فقد استرعى انتباهه عند قراءة نصوصها تكرار أسماء ينتمى أصحابها إلى طبقة معينة، هى طبقة الجيمنازيوم أى معهد التربية الرياضى الثقافى، أسماء كإسيدوروس ولامپون وثيون وديونيسيوس وأبيانوس، الذين شغلوا كلهم فى الإسكندرية أرفع المناصب البلدية، وربما كانوا أعضاء فى مجلس شيوخها (gerousia)، وغالباً ما كانوا يمثلون المدينة كرؤساء أو أعضاء فى السفارات الموفدة منها إلى الأباطرة. وفى «أعمال أبيانوس»، التى وقعت حوادثها فى أواخر القرن الثانى إشارة إلى ثلاثة من هؤلاء الشهداء الذين لقوا حتفهم قبل منتصف القرن الأول، وهى إشارة لها مغزاها كان القصد منها استثارة القراء الذين كانوا يعرفون هذه الأسماء عن ظهر قلب وربما كانوا من سلالتهم. لقد كانت «النوادى»، و«معهد التربية»، وربما أيضاً «مجلس الشيوخ» هى مركز الحياة الاجتماعية للطبقة الميسورة. وقد رأينا كيف كان رجل مثل إسيدوروس يسيطر على هذه النوادى فى أيامه وكيف كانت تأتمر بأمره. وقد استخدم نفوذه، على الرغم من منشور الوالى بإلغاء النوادى، لتسخير بعض الكتاب فى تأليف أراجيز ماجنة أو تمثيليات هزلية للسخرية من فلاكوس. ولن نجانب الصواب كثيراً إذا قلنا إن هذه النوادى والجمعيات كانت أشد الهيئات تنديداً بالحكم الرومانى لأنها كانت تمثل آخر مظهر للحياة الثقافية القديمة، تلك الحياة التى ازدهرت فى ظل الاسكندرية.

القديس مرقس صلاتهم وقال لهم: هذه الزيتونه التى تأكلون ثمرتها وتوقدون اغصانها للنار ثم تسجدون لها كالاله ماذا تصنع، هوذا بكلمه الله الذى اعبده امر هذه الشجره ان تسقط على الارض بلا حديد يدنو منها. فقالوا له: نحن نعلم انك تعمل سحر الجليلى صاحبك ومهما اردته فعلته ونحن فندعو الهنا القمر الذى اقام لنا هذه الشجره الزيتون نصلى لها .

اجاب القديس مرقس وقال لهم : انا أطرحها

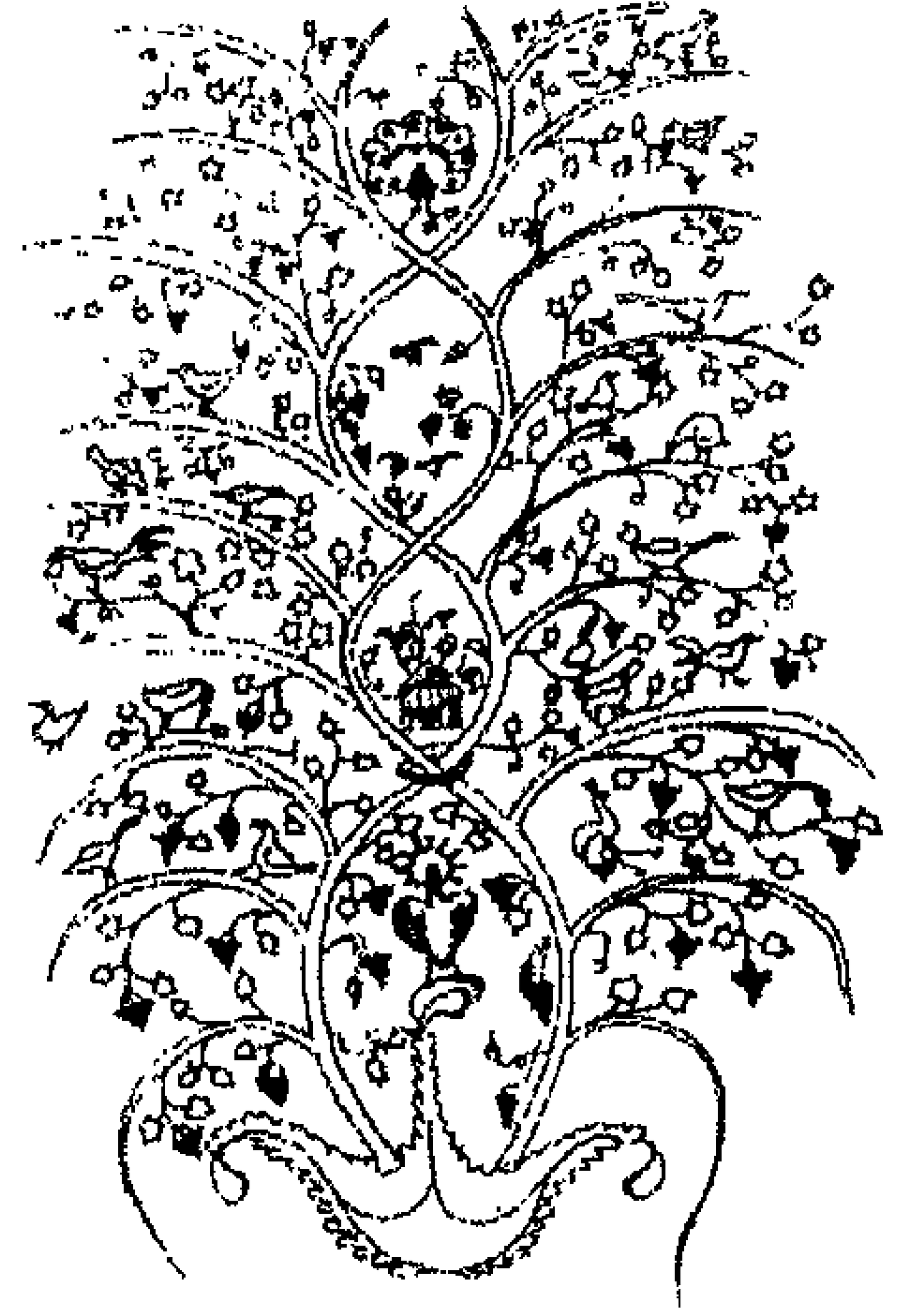


الالهة نوت متمثلة فى شجرة الجميز تصب الحياة على هيئة علامات عنخ من الوعاء الذى يحمل ماء الحياة والخلود

من الأجدى إذن أن نبحث عن مصدر «أعمال الإسكندريين» بين أسر أقطاب من أمثال إسيدوروس ولامپون وثيون وديونيسيوس ومحيط أصدقائهم أو على الأقل بين أعضاء طبقتهم ونواديهم. وقد كان فى وسع هؤلاء الأقطاب، بفضل تربيتهم اليونانية المقترنة بالاعتزاز بالأصل اليونانى، وبفضل نفوذهم القوى، وربما أيضاً بفضل ثرائهم، أن يوجهوا النوادى، مثلما فعل إسيدوروس، وجهة معينة، ويستأجروا بعض الكتاب لتأليف هذه المقطوعات الأدبية بعد تزويدهم بتقارير السفارات أو صور محاضر الجلسات الرسمية. ولعل هذه المقطوعات لم توضع إلا للتداول الخاص والتوزيع فى دائرة محدودة أى لتلاوتها فى المنازل أو النوادى المحلية أو معاهد التربية. وفى هذه الحالة كانت نصوصها التى كتبت فى أوقات متباينة خلال القرنين الأول والثانى تتعرض للتحريف من وقت لآخر سواء بالحذف أو بالإضافة أو بالتغيير بأقلام عدة كتاب متفاوتين فى الكفاية الأدبية. ولا مراء فى أنه كانت توجد منها نسخ مختلفة خلال القرنين الأول والثانى وأنها كانت توزع بين الأصدقاء أو الأقارب المقيمين فى جهات مصر الأخرى. وأخيراً فإنه من الجائز أن بعض هذه المقطوعات قد نسخت من جديد بإيعاز أفراد من هذه الطبقة، طبقة الجيمنازيوم، فى مستهل القرن الثالث، أى فى عصر كراكلا، عندما اشتدت عداوة الإسكندريين للحكم الرومانى.

ويرجع العلماء نشأة وتطور «اعمال الشهداء» الى الفكرة المصرية الاصلية التى تؤمن

على الارض فان اقامها الهكم فانا اعبده معكم. فرضوا بهذا القول منه وابعدو جميع الناس عنها وقالو: انظرو لئلا يكون انسان مختفيا فيها. حينذ رفع القديس مرقس وجهه الى السما [وصلى] وحول وجهه الى ناحيه المشرق وفتح فاه ودعا و قال: يا سيدى يسوع المسيح ابن الله الحى اسمع عبدك وامر القمر الذى هو خادم تان لهذا العالم الذى يضى فى الليل بامرك وسلطانك ان يظهر صوته على هولا الذين ليس لهم اله، و يعرفهم من



شجرة الحياة المسيحية فى احد كنايس بنتابولس غرب اسكندرية. فسيفساء من القرن ٤. الطاووس فى اعلاها والعنقاء فى اسفلها رمز للقيامة وبينهما طير فى قفص رمزاً للروح السجينة فى الجسد

بالبعث والخلود مماجعل المصرى منذ فجر تاريخه لا تلين له قناة فى مقاومة الغزاة فهو يعلم ان نهاية كفاحه إما العيش فى وطن كريم واما الخلود فى الجنة جزاء لا ستشهاده وهكذا لم يكن المصريون هم الذين ابدعوا فكرة الشهيد فقط بل وربطوها بالذود عن الوطن. فقدموا للعالم بذلك انجازا سمت به الحضارة المصرية على كل حضارات العالم.

وفى وسعنا أن نحصر الموضوعات الأدبية التى تميزت بها «أعمال السكندريين» تحت رؤوس ثلاث: الوطنية والاستشهاد والدعاية ضد الرومان. وتتلخص عناصر الموضوع الأول فى التنويه بنبل أصل زعماء الإسكندرية، وتقواهم للآلهة، وحبهم لمدينتهم، وجرأتهم فى الحق، واعتزازهم بمناصبهم البلدية، يتمثل العنصر الثانى فى الإشارة إلى الموت أو القبر أو جثث الموتى بطريقة مؤثرة محزنة وإلى تعذيب الإسكندريين وترحيبهم بالموت وتحديهم الأباطرة، وإن كان الزعماء يظهرون عادة الاحترام لهم إلى أن يستثيروهم فتنطلق ألسنتهم عندئذ بالهجاء؛ وأما عناصر الموضوع الثالث فأبرزها التنديد بظلم الرومان، وضعة أصل أباطرتهم وجشعهم، والطعن فى ذمة ولاتهم، وجبن شعبهم، وفساد حكومتهم، والتدليل على ذلك بتدخل امرأة كأفلوطينا، زوجة تراچان، للتأثير على سير العدالة، وبضعف الأباطرة وترددهم وتأجيلهم الأحكام أو تبديلها فجأة، ورضوخهم لعتقائهم وخضوعهم لزوجاتهم. ويقع تحت رأس هذا الموضوع، موضوع الدعاية ضد الرومان، تندد أعمال الشهداء بوقوع الأباطرة تحت تأثير اليهود، وامتلاء

خلقه جميع الخليقه، ومن هو الله حتى يعبدوه، وانا اعلم يا ربى والاهى ان ليس له صـــوت ولانطق ولاجرت عادته ان يكلم احدا لكى يسمع كلامه فى هذه الساعه بقوتك التى لا تقاوم ليعرف هولا الذين لهم الاه ان ليس هو الاها لكنه خادم تحت سلطانك، وانت الهه، وهذه الشجره التى يصلون لها تقع على الارض ليعرف الكل ربوبيتك ان ليس الاه الا انت، والاب الصالح والروح القدس المحى الى الابد امين. وفى تلك الساعه عند تمام صلاته

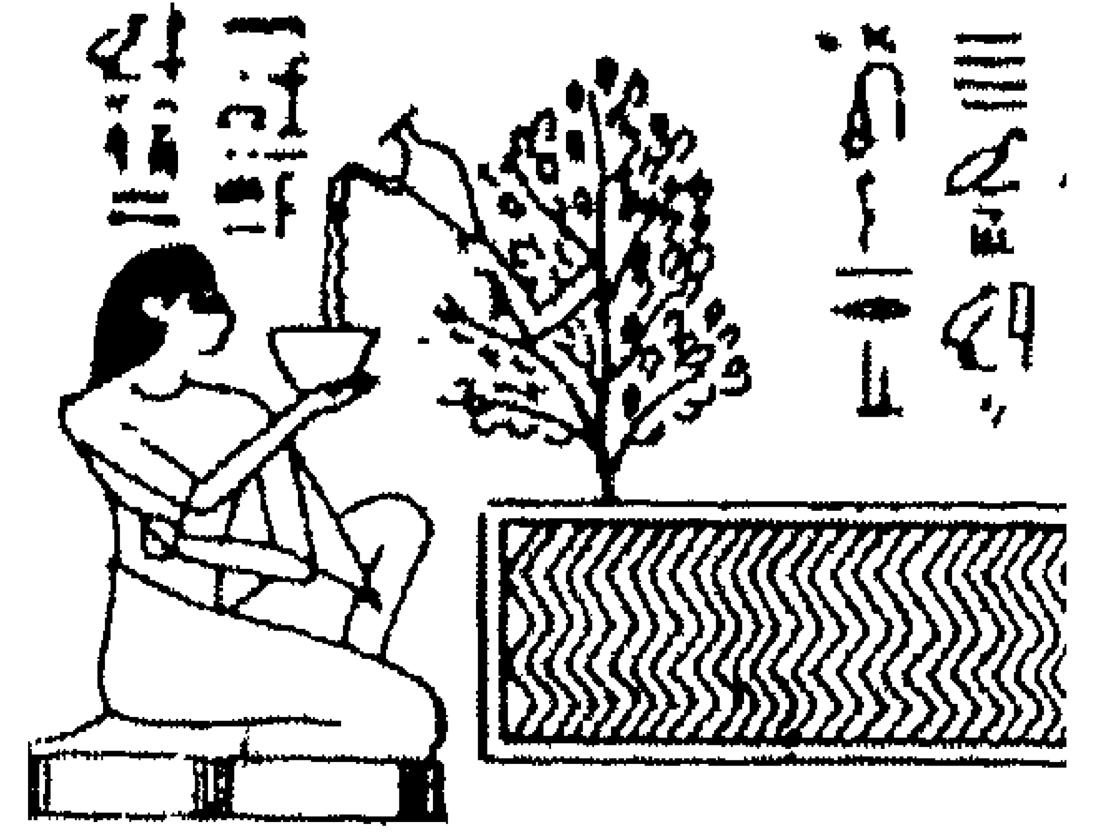

ألهة تطعم الموتى من شجرتها

مجلسهم القضائى بهم أو تحيزهم لهم، وبالتالى مهاجمة اليهود أنفسهم والتعريض بربهم يَهْوه أو الزراية بملكهم أجريبا، ونعتهم بأنهم كفرة، يسيئون معاملة الإسكندريين، ويندسون خلسة دون وجه حق فى منظمات الشباب الوطنية.

وفى الحق إن هذا الموضوع الأدبى الأخير، موضوع الدعاية ضد الرومان واليهود، هو الذى يميز «أعمال الإسكندريين» ويجعلها صنفاً من الأدب مستقلاً عن القصة الطويلة والتمثيلية الهزلية ومحاضر الجلسات القضائية. ومع أن عنصر الكراهية لليهود ليس أبرز العناصر ـ ولا أقول، كما يذهب البعض، عنصراً ثانوياً ـ إلا أن «أعمال السكندريين» تعكس حالة التوتر التى كانت قائمة بينهم وبين مواطنى المدينة واحتدمت احتداماً شديداً فى بعض الأحيان. غير أن شعور الكراهية نحو الرومان، الذى لا نظير له فى أى مؤلفات أدبية يونانية أخرى، هو ما حدا بالبحاثين إلى وصف هذه «الأعمال» بأنها أعنف دعاية قامت ضد الرومان. ففى هذا الموضوع بالذات نلمس بسهولة التحوير الذى أحدثه قلم الكاتب فى النص عند تدوينه من جديد، وإن كان من العسير التحقق من المرحلة التى ظهرت فيها عناصر هذا الموضوع لأول مرة. وبعض هذه العناصر حقيقية وإن كان كاتب الجلسة الرومانى قد أسقطها من المحضر الرسمى. وبعضها الآخر كان موجوداً على الأقل منذ أن دونت «أعمال السكندريين» المختلفة للمرة الأولى؛ ولعل جانباً منها يعزى إلى التعديل الذى طرأ عليها فيما بعد عند إعادة تدوينها.

[مارى مرقس]

حدثت ظلمه عظيمه نصف النهار وظهر لهم القمر مضيا فى السما وسمعو صوتا من القمر قايلا: ايها الناس القليلو الايمان لست أنا الله فتعبدونى بل انا عـبدالله ومن بعض خلقـه، انا خـادم المسيح ربى الذى يبشر به هذا مرقس تلميذه فهو وحده الذى نعبده ونخـدمه. عند ذلك سقطت شـجرة الزيتون وصـار خـوف عظيم على كلمن شـاهد هذه الاعجوبه. فاما القوم الذين كانو يخدمون الشجره ويسجدون لها فانهم غضبو وخرقو ثيابهم ومسكو



شجرة ماء الحياه

وبقى سؤال هام: ما هو الهدف الأقصى من «أعمال الإسكندريين»؟ إن هذه القصصات البردية ـ كما رأينا ـ لا تمثل كتاباً واحداً صنّفه أو ألتمه كاتب واحد. ويتميز كل نص فيها بطابع خاص نظراً لتأثره بمؤثرات مختلفة عن النصوص الأخرى. ومن ثم قد يبدو من المستحيل أن تكون كلها قد كتبت لتحقيق هدف معين واحد. ومن الواضح أن موضوع الدعاية ضد الرومان يحتل فى معظم هذه القصاصات ـ وإن لم يكن فيها جميعاً ـ مكاناً أبرز من أى موضوع آخر؛ غير أن البعض قد يجدون فى أن مختلف هذه الجذاذات الحافلة بالفضائح والإشاعات والطعون كانت كلها موجهة نحو غاية محددة.

إنه لأمر عسير فى أغلب الأحيان أن نحدد الغرض من العمل الأدبى: متى تكون الدعاية هى الغرض الأساسى من كتابته، ومتى يكون هذا الغرض هو الترويح، وإن يكن مصطبغاً بصبغة سياسية واضحة. فهذه المشكلات لا توجد لحلها قواعد. ولا سبيل إلى الفصل فيها إلا بالاحتكام إلى الطابع العام الذى يتميز به العمل الأدبى، وتحديد البواعث السياسية أو الاجتماعية التى دفعت إلى كتابته. إن الحقائق المتصلة «بأعمال السكندريين» ليست موفورة فحسب بل هى معروفة للجميع. ومع هذا فقد توصل الباحثون فى هذه «الأعمال» إلى نتائج متضاربة على الرغم من استنادهم إلى معلومات ليس بينها أى تضارب! لعل ذلك يرجع ـ كما يعتقد موسير يللو ـ إلى أن بعضهم عالجوها معالجة غير موضوعية. ففى رأيه أن ما تجمع

القديس مرقس وضربوه وسلموه لليهود المخالفين وطرحوه فى السجن.

وفى تلك الليله رأى القديس مرقس فى نومه السيد المسيح يقول لبطرس(*): أنا أخرج كلمن هو معتقل. فلما انتبه من نومه رأى ابواب السجن مفتوحه، فخرج هو وكلمن كان معه فى السجن وكانو حفظه السجن نياما كلاموات. فاما الجموع الذين شاهدو ما كان قالو : ما يتم لنا عمل مع

(*) بطرس: يعتقد أنه ولد فى الجليل. ومهنته كانت صيد السمك. هو أول من آمن بالسيد المسيح من الرسل لذلك سمى «رأس الرسل» صلب فى عهد الوالى الرومانى هيرودس. لامه المسيحيون الاول على تبشيره بين غير اليهود ذوى الغلفة، ولذلك سمى كذلك برسول الأمم.

لدينا من معلومات يحملنا على التسليم بأمرين: أحدهما هو أن معظم برديات «أعمال الاسكندريين» هى «محاضر محوّرة» تستند أصلاً، استناداً مباشراً أو غير مباشر، إلى صور مضابط الجلسات القضائية أو صور «تقارير السفارات». ومن ثم نجانب الصواب إذا وصفنا «شكل المحضر» فيها بأنه مجرد حيلة أدبية؛ والآخر هو أن دراسة الموضوعات الأدبية التى ترد بكثرة فى هذه «الأعمال» تشير إلى أن المقصود منها كان تشجيع اتجاهات طبقة أو جماعة معينة، وهى اتجاهات مناهضة للرومان واليهود، وإذكاء روح الاعتزاز بأمجاد الماضى المنصرم بين أفرادها. ولا مراء فى أن أهل الإسكندرية وأنحاء مصر الأخرى قد تقمصوا شخصيات أبطالهم الذين مجدوهم كضحايا لقوا حتفهم أثناء محاولتهم الاحتفاظ بنقاء حضارتهم ووقايتها من عدوان حضارة (رومانية) متبربرة.

غير أن نظرة فاحصة إلى «أعمال السكندريين» قد تطلعنا على نتيجة أخرى بالغة الأهمية، وهى أن الجماعة أو الطبقة الاجتماعية التى روجت هذه «المنشورات» كانت نفسها منقسمة إلى فريقين أو حزبين، حزب متطرف فى عداوته للرومان يتزعمه رجال على شاكلة إسيدوروس وهرمايسكوس وأبيانوس، وحزب محافظ معتدل فى شعوره نحوهم، إن لم يكن يميل إليهم، ويتزعمه رجال ممن اكتسبوا الجنسية الرومانية مثل جايوس يوليوس ديونيسيوس وتيبربوس كلوديوس بالبيلوس. ومع أن هذين الحزبين، حزب اليسار وحزب اليمين ـ ان جاز هذا التعبير ـ


أيقونة من الخشب فى كنيسة ابو سرجه عليها حفر يمثل العشاد الاخير للسيد المسيح وحوارييه. كنيسة ابو سرجه. مصر عتيقة من القرن ١١

هولا الجليليين لانهم يفعلون هذه الافعال بعلزبول ريس الشياطين.

وكان مرقس من السبعين تلميذا، وهو من جملة الخدام الذين استقو الما[ء] الذى صيره سيدنا خمر فى عرس قانا الجليل، و هو الذى حمل الجرة الما فى بيت سمعان القريانى فى وقت العشا السرى، وهو ايضا الذى كان ياوى التلاميذ فى منزله فى زمان الام السيد المسيح ومن بعد قيامته

قد جاهر أحدها الآخر بالعداوة فى بعض الأحيان، إلا أنهما كانا متفقين على شىء واحد، هو حب الاسكندرية. ويتضح تعاون الفريقين من ذلك النشاط المشترك فى إرسال مختلف السفارات الدبلوماسية إلى الأباطرة، وفى السياسة الموحدة إزاء يهود المدينة. وكان يعنى كلاً منهما أن يحتفظ بمحاضر جلسات المحاكمات أو تقارير السفارات وإعادة كتابتها بما يتفق وأغراضه. لكن مع هذا الفارق: وهو أن الحزب المتطرف فى عداوته للرومان هو الذى كان يروج القطع المقذعة الهجاء الزاخرة بالحقد والبغضاء، على حين أن الحزب المعتدل أو الموالى للرومان هو الذى كان يروج القطع الأقل عداوة والتى تتناول مسائل تهم السكندريين كافة.

لكن على الرغم من اختلاف هذين الحزبين فى موقفهما من روما، إلا أنهما لم يختلفا على الأقل فى مسألة هامة. فمن المعروف أنه لم تصلنا أى بردية من برديات «أعمال السكندريين» اليقينية تشير إلى وقائع حدثت بعد عصر الإمبراطور كومودوس (١٨٠ ـ ١٩٢). هذه الحقيقة تحملنا على الإعتقاد أن أحد الأسباب السياسية الرئيسية للسخط على الرومان، والتى ساعدت على ترويج هذه المنشورات يتمثل فى رفضهم المستمر قيام مجلس شورى بالاسكندرية. وبدهى أن الاسكندريين ممن لم يكتسبوا الجنسية الرومانية كانوا أشد من سواهم إحساساً بالمرارة، غير أن الحزبين، حزب اليسار وحزب اليمين، كانا يجدان هنا ـ فى المطالبة بمجلس الشورى ـ نقطة للالتقاء والتعاون. وبعد أن منح الإمبراطور سبتيميوس سفيروس الاسكندرية (وجميع

من الامـــوات، حـــيـث دخل عليـــهـم والابواب مغلقــه.

وبعد صعوده الى السما مضى مرقس مع بطرس الى يروشليم وبشــرا الجـمــوع بكلام الله. وظهــر الروح القـدس لبطـرس و امـره ان يمضـى الى المدن والقـرى التى هناك. فـمـضى بطرس و معـه مـرقس الى عمل بيت عنيا وبشرا بكـلام الله. واقـام بطـرس هناك اياما فنظر فى المنام مـلاك الله يقـول له: فى


تمثال نصفى لسبتيميوس سفيروس
(١٩٣ ـ ٢١١ ب. م.)

عواصم المديريات) الحق فى إنشاء مجلس للشورى عام ٢٠٠، فترت حركة المقاومة ضد روما بالتدريج، وتضاءلت تبعاً لذلك قوة الحزب المناوىء للرومان. غير أن شغف الناس بقصة نضال الاسكندرية من أجل الاستقلال السياسى ظل على شدته، ويؤيد ذلك أن فصولاً من هذه القصة كانت ما تزال تدون للاحتفاظ بها فى المكتبات الخاصة فى جهات مصر الأخرى حتى بعد أن انتفى الغرض الأصلى منها.

وأخيراً: «إن أعمال السكندريين» كما يقول الأستاذ بل «لا يمكن أن تعد من بين الدرر الأدبية. غير أنها ذات قيمة حقيقية. فهى، من ناحية، تمدنا بنماذج من صنف من الأدب ليس ممثلا سوى تمثيل هزيل بين مخلفات الأدب السكندرى. وهى ليست من تأليف كتاب متفقهين فى اللغة، أو أدباء نوابغ يكتبون للقلة المثقفة، ولا هى من إنشاء خطباء يخطبون فى الكثرة من الناس ولو أنهم يستخدمون للاقناع كل الحيل البلاغية. إنما هى مؤلفات تمثل الأدب الشعبى فى ذلك العصر، وضعت لتحقيق هدف عابر، ووجهت للقارىء العادى؛ وهى مكتوبة بأسلوب حى شائق، ولكنها لم تصقل سوى صقل أدبى طفيف. وفى الحق أنها ذات طابع صحفى. وهى من ناحية أخرى تطلعنا على وجهة نظر جديدة لم نألفها من قبل. فقد ألفنا أن ننظر إلى تاريخ الإمبراطورية الرومانية بأعين الرومان أنفسهم. لكن «أعمال الشهداء السكندريين» تتيح لنا أن ننظر إلى هذا التاريخ من زاوية مضادة: من جانب قوم كانوا يكنون العداوة والسخط

كورتين غلا عظيم. فقال بطرس للملاك: اى الكور تعنى قال له: مدينة اسكندريه وكورة مصر وكورة روميه، و ليس هو غلا من خبز وما [ء] بل هو غلا من قلة معرفة كلام الله الذى تبشر به. فلما استيقظ بطرس من نومه قال لمرقس ما شاهده فى منامه. ومن بعد ذلك مضى بطرس ومرقس الى اعمال روميه وبشرا هناك بكلام الله.

ولما كان فى السنه الخامسه عشر من بعد صعود المسيح انفذ القديس بطرس مارى مرقس الاب

الدفين على روما التى لم تكن فى نظرهم تلك الدولة العظيمة التى نشرت النظام والمدنية وحفظت. للأجيال التالية تراث الثقافة السكندرية والعلم السكندرى، بل كانت فاتحاً أجنبياً مستبداً. ومن ناحية ثالثة، أن «أعمال السكندريين» وإن كان غرضها الأساسى الدعاية ضد الرومان أكثر منه الدعاية ضد اليهود.

ونحن لا نعرف على وجه التحقيق الأسباب المباشرة التى أدت إلى إثارة الفتنة من جديد بين اليهود والإسكندريين والتى دعت إلى محاكمة بعض زعماء الإغريق فى عامٍ ثار حول تحديده نقاش طويل، فمن قائل بأنه عام ٤١ ومن قائل بأنه عام ٥٣، وإن كنا أميل إلى الأخذ بالتاريخ الأخير. وعلى أى حال فلسنا بحاجة إلى البحث عن أسباب للفتنة لأن العداوة كانت قد تأصلت بين السكندريين واليهود الذين اتهموا بأنهم أداة طيعة فى يد السلطات الرومانية فى ذلك الوقت.

فسبسيان وتيتوس ودوميتيان

فسبسيان فى الاسكندرية:

يعرف العام التالى لمصرع نيرون ـ عام ٦٩ ـ فى التاريخ «بعام الأباطرة الأربعة». ولا يعنينا من الصراع الذى احتدم بين المتنافسين على عرش الإمبراطورية سوى ما حدث فى الشرق،

الانجيلى الى مدينة اسكندريه ليبشر فيها ويكرز بكلام الله وانجيل السيد يسوع المسيح الذى له ينبغى المجد والكرامه والسجود وللاب و الروح القدس الله الواحد الى الابد امين.

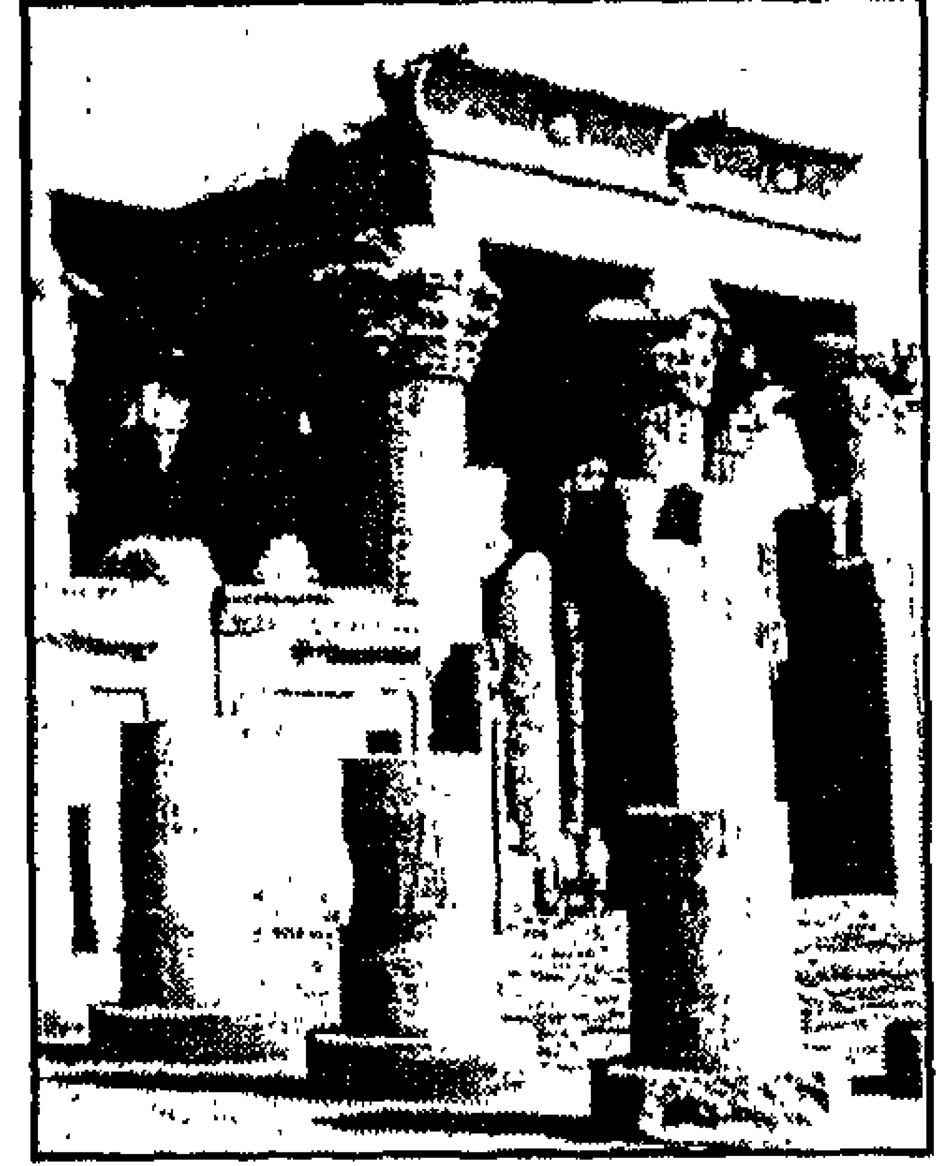
شهادة القديس
مارى مرقس وبشارته بمدينة اسكندريه
وهى التانيه من سير البيعه

لما كان فى زمان تدبير الرب المخلص يسوع المسيح من بعد صعوده الى السما قسم جميع



الطريقة الجديدة لاختيار الإمبراطور. ما أن يتوفى الإمبراطور القديم، حتى يتجمع أفراد معسكر أحد الفيالق على الحدود وينادون بقائدهم إمبراطور (ويبدو واقفا على المنصة)

الكور على الرسل بالهام الروح القدس ليكرزو فيها بكلام البشاره بالسيد يسوع المسيح. ومن بعد زمان وقع نصيب مرقس الانجيلي ان يمضى الى كورة مصر ومدينة اسكندريه العظمى بأمر الروح القدس لكى يسمعهم كلام انجيل السيد المسيح ويثبتهم عليه لاجل ضلالتهم وانغماسهم فى عبادة الاوثان وعبادة المخلوق دون الخالق، وكان عندهم برابى(*) كثيرة لالهتهم المرذوله يخدمونها فى كل مكان ويعبدونها بكل اثم وسحر ويذبحون لها بينهم



(*) برابى: هى المعابد الفرعونية.

وفى مصر بوجه خاص. ولم تكن مصر قد قامت باى دور سياسى هام فى تاريخ الإمبراطورية حتى ذلك الحين. لكن نجمها سطع فجأة عندما أسهمت فى رفع قائد من قواد الشرق إلى أريكة الحكم، كاشفة بذلك سر الإمبراطورية الذى أفضى فى النهاية إلى انهيارها، ألا وهو إمكان ترشيح الإمبراطور فى مكان آخر غير روما. فقد تعاقب على العرش أربعة قواد: جالبا (Galba) وأوتو (Otho) وڤيتلليوس (Vitellius) الذين حكم كل منهم فترة لا تزيد على شهور قليلة انتهت فى ديسمبر من عام ٦٩، وأخيراً فلاڤيوس ڤسپسيانوس (T. Flavius Vespasianus) أو ڤسپسيان الذى قدر له أن يتربع على عرش الإمبراطورية عشر سنوات (٦٩ ـ ٧٩) وأن يمتد حكم أسرته، أسرة فلاڤيوسى، حتى عام ٩٦. وكان ڤسپسيان هو القائد الذى ولاه نيرون على أرض يهودا (Iudaea) ثم عهد إليه بقمع ثورة اليهود فى عام ٦٧، فاجتاح فلسطين واستولى على مواقعها الحصينة، وتأهب لمحاصرة أورشليم حيث احتشد اليهود واستعدوا لمقاومة الرومان. ولما بلغه نبأ موت نيرون أرجأ الهجوم على المدينة ولم يستأنفه إلا بعد المناداة بڤيتلليوس إمبراطوراً فى أبريل من عام ٦٩.

وهنا يأتى دور مصر فى معركة التطاحن على عرش الإمبراطورية، فقد أثار هذا المدعى الأخير ڤيتلليوس بسوء خلقه تذمر جنود الفرق المرابطة فى ولايات الدانوب. ولما كان لا يوجد بين قواد هذه الفرق من هو جدير بترشيحه إمبراطوراً، فقد اتجهت الأنظار إلى والى أرض يهودا

قرابين، لانه اول من كرز فى كورة مصر وافريقيه والخمس المدن وجميع اعمالها، فلما عاد القديس مرقس من روميه قصد الى الخمس مدن اولا وبشر فى جميع اعمالها بكلام الله، وأظهر عجايب كتيره حتى انه ابرأ الاعلا وطهر البرص واخرج الشياطين بنعمة الله الحالة فيه، وامن كثير بالسيد المسيح من اجله وكسرو أوثانهم التى كانو يعبدونها، و كل الشجر التى كانت الشياطين تأوى اليها وتخاطب الناس منها، وعمدهم باسم الاب

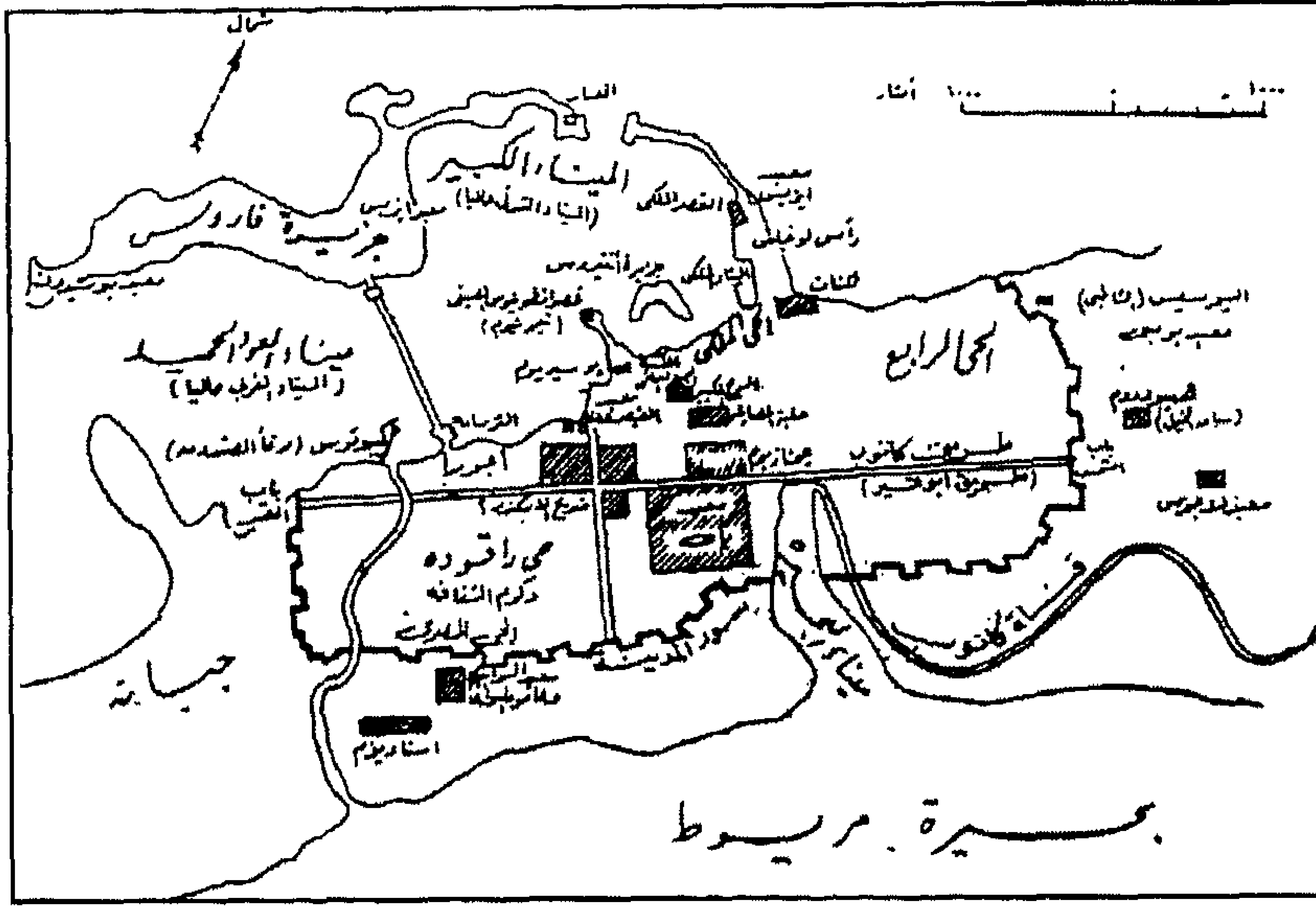
وقائد الحملة ضد اليهود. وعندئذ بادرت الفرقتان المرابطتان فى الإسكندرية بالمناداة بڤسپسيان إمبراطوراً فى أول يوليو عام ٦٩[١]. وكان ذلك بإيعاز من تيبريوس يوليوس الإسكندر، والى مصر عندئذ. وكان الإسكندر هو الوحيد بين ولاة مصر الذى يمكن وصفه بأنه «مصرى» لأنه ولد بالإسكندرية، والوحيد الذى شغل فى مصر قبل ولايته عليها منصب مدير عام إحدى مناطقها الإدارية الثلاث (منطقة طيبة) فى عام ٤٢. وكان - كما أسلفنا - يهودياً من أسرة ثرية مرموقة المكانة، ثم ارتد إلى الوثنية واكتسب الجنسية الرومانية، وانتظم فى سلك الفرسان الرومان وتدرج فى مناصب هذا السلك العسكرية والإدارية المختلفة وأخيراً عينه نيرون والياً على مصر فى عام ٦٦. وقد استطاع بدهائه أن يحتفظ بمنصبه على الرغم من فوضى الحرب الأهلية وتعاقب الأباطرة فى عام ٦٩. ولم تلبث الفرق المرابطة فى فلسطين أن نادت هى الأخرى بڤسپسيان إمبراطوراً فى ٣ يوليو من العام نفسه. وحذا حذوها الجيش الرومانى فى سوريا بعد أسابيع قليلة. وزحف ڤسپسبيان إلى مصر بانيا خطته، فيما يبدو، على تأمين

(١) وقد اعتبر هذا اليوم فيما بعد بداية حكمه (Tacitus. Hist. II, 79)، وإن كان السناتو الرومانى لم يعلنه إمبراطوراً إلا فى يوم ٢٢ ديسمبر عام ٦٩ بعد مصرع ڤيتلليوس. ولم تمتد السنة الأولى من حكمه فى مصر إلا من أول يوليو ٦٩ حتى ٢٨ أغسطس ٦٩ وفقاً للتقويم المصرى، أى من ٧ أبيب إلى ٥ نسىء، آخر يوم فى السنة المصرية (غير الكبيسة) راجع:
Stein. Die Praefekten Von Aegypten in der romischen Kaiserzeit (1950), p. 39.

والابن والروح القدس الاله الواحد. ولذلك ظهر له الروح القدس وقال له: قم امض الى مدينة اسكندريه لتزرع فيها الزرع الجيد الذى هو كلام الله. فقام تلميذ المسيح ونهض وتقوى بروح القدس كمثل مقاتل فى الحرب وسلم على الاخوه وودعهم وقال لهم: السيد يسوع المسيح يسهل طريقى لامضى الى اسكندريه وابشر فيها بانجيله المقدس. ثم دعا وقال : يا رب ثبت الاخوة الذين قد عرفوا اسمك المقدس واعود اليهم فرحا بهم.

مفتاحيها، وبيلوزيوم وفاروس، وإرغام منافسه فى روما على الاستسلام بقطع إمدادات القمح عن العاصمة الرومانية.

وقد روى لنا المؤرخ الرومانى تاكيتوس أحداث «عام الأباطرة الأربعة» فى تواريخه (Historiae) وصفاً مسهباً مؤثراً، غير أنه لم يعلم أو لعله تعمد أن يغفل حقيقة أخرى كشفت عنها قصاصة بردية. هذه الحقيقة تتلخص فى أن الإسكندرية هبت كلها مرحبة بمغتصب العرش الذى تمرد على ڤيتلليوس، ممثل السلطة المركزية فى روما. وكانت الإسكندرية ـ ثانية مدن الإمبراطورية ـ تحمل ضغناً لروما منذ أيام أكتيوم. فلما سنحت لها الفرصة شفت غليلها وتزعمت حركة التمرد على غريمتها. وسنلمس تكرار هذه الظاهرة فيما يلى من أحداث. فكم تمنت أن تتحرر من ربقة الحكم الرومانى، غير أن قوات الاحتلال كانت أقوى من أن تغلب بالمظاهرات. ولم تجد المدينة بل مصر قاطبة سبيلاً للتعبير عن عداوتها للرومان سوى ترويج المنشورات (أعمال السكندريين) وتأييد أدعياء العرش ممن كانوا يشقون عصا الطاعة على روما، عاصمة الإمبراطورية. ولم تكن الإسكندرية قد شهدت أى إمبراطور رومانى منذ سقوطها فى يد أغسطس عام ٣٠ ق.م. فما أن اقترب ڤسپسيان من مشارف المدينة الشرقية (أوائل عام ٧٠) حتى خفت الجماهير إلى استقباله فى ملعب سباق الخيل عند باب كانوب. وغمرها حماس



الاسكندرية فى العصر اليونانى الرومانى

شديد وتعالت هتفاتها له. ولعل الموقف أعاد إلى ذاكرة المواطنين مشاهد مماثلة من عصر البطالمة عندما كان لأسلافهم يد فى تنصيب الملوك وخلعهم. فإذا كانت هذه الأيام قد ولت إلى الأبد، فلا أقل من أن يوهموا أنفسهم بأنهم أصحاب الفضل الأول فى المناداة بڤسپسيان إمبراطوراً. وقد عومل ڤسپسيان كأنه إله، وظهرت له آيات، إذ هرع إليه ضرير فرد إليه بصره، وتوسل إليه عاجز اليد (أو الساق؟) فشفاه من عاهته. وقد زعم الرجلان أن سرابيس أوحى إليهما أن يلتمسا الشفاه لديه. وأثارت المعجزة فى قلب ڤسپسيان الرغبة فى زيارة معبد سرابيس (Serapeum) ليستنبىء الإله عن حكمه. وقد أمر بإخراج جميع من فى المعبد أولاً ثم دخله حيث غرق فى التهجد ومناجاة سرابيس، ورأى رؤيا تبشر بقرب اعتلائه العرش: إذ خيل إليه، وهو يتلفت، بعد أن قدم قرابين كثيرة لاسترضاء الإله، أن باسيليديس، أحد معتقيه، قد أهداه غصوناً وأكاليل وأرغفة (مقدسة)، وفقاً لما جرت به العادة هناك(١).

لكن سرعان ما تبين للاسكندريين أن الإله الجديد إنما هو إنسان كسائر البشر، ورجل مال

(١) فى رأى أحد الباحثين أن رواية سويتونيوس عن زيارة ڤسپسيان لمعبد سرابيس أصدق من غيرها. ويرجح أنها مستمدة من مصدر سكندرى. ويقارن هذه الزيارة بزيارة الملك بعنخى الإثيوبى لمعبد هليوبوليس، عندما جاء مصر غازيا، وبزيارة الإسكندر الأكبر لمعبد آمون فى سيوه. ويرى أن ما جرى بداخل المعبد وتقديم الغصون والأكاليل والخبز لڤسپسيان هى طقوس شبيهة بطقوس التتويج الفرعونية، ولكنه لا يرى أن ڤسپسيان توج فى الإسكندرية.

فشيعوه الاخوه و توجه الى مدينة اسكندريه، فلما دخل من بابها انقطع شسع(*) حذاه، فلما رأى ذلك قال: (الان قد علمت ان الرب سهل طريقى. ثم التفت فنظر الى اسكاف هناك فتقدم اليه ودفع له الحذا ليصلحه، فلما اخذه الاسكاف وتناول الشفا(*) ليعمله، ثقب الشفا كفه فقال [ايس او ثاوس] الذى تاويله الواحد الله، فلما سمعه القديس مرقس يذكر اسم الله فرح جدا وحول وجهه الى الشرق وقال: يا سيدى يسوع انت الذى

(*) شسع: سير فى النعل يدخل حول الاصبعين ويشد إلى زمامه.

(*) الشفاء: مخراز أو مثقاب يستخدمه الاسكافية لعمل حزوم فى الجلد ليشد من خلالها الخيط لربط الحذاء أو الصندل بقوة بدلاً

من رجال الأعمال، حريص على تحصيل الضرائب كاملة كغيرة من الأباطرة. فقد خيب ظنهم بفرض ضرائب جديدة وإحياء أخرى ملغاة. وعندئذ لجأ الإسكندريون، إلى سلاحهم التقليدى، سلاح التشهير، وسلطوا عليه ألسنتهم اللاذعة، فلقبوه «بتاجر الأسماك المملحة» (kubiosaktês) وغير ذلك من ألقاب السخرية، وهجوه بأغان مقذعة. واستشاط فسپسيان غضباً فأخضعهم لضريبة الرأس امتهاناً لهم، غير أن ابنه تيتوس توسط لهم عنده فصفح عنهم وأعفاهم منها. وبرغم هذه الوساطة فقد تعالت أصوات الجماهير الغاضبة قائلة «إننا نصفح عنه ـ أى عن فسپسيان ـ فهو لا يعرف كيف يتصرف تصرف القياصرة»(١) !

(1) Dio cassius, LXV, 8.C.

تحتوى بردية من البهنسا يكتنفها الغموض الشديد على خطبة موجهة ضد شخص أو أشخاص متهمين بترويج إشاعات كاذبة عن الأباطرة وانتقاد مسلكهم. ويبدو أن أحد المتهمين كان فى المنفى، والآخر قد نفذ فيه حكم الإعدام، بينما كان الثالث قد وجهت إليه التهمة نفسها قبل ذلك باثنتى عشرة سنة عندما هاجم نيرون وموقفه من الأثرياء والوجهاء. ولا نعرف من هو الإمبراطور الذى ألقيت الخطبة أمامه. لكن القرائن ترجح أنه فسبسيان. ولعل البردية لها صلة بحادثة طرده الفلاسفة الرواقيين والكلبيين من روما، والذين كان من بينهم بعض الإسكندريين. وليس من المستبعد أن تكون البردية، برغم خلوها من روح العداء للرومان، قطعة من «أعمال الإسكندريين»، تصور هذا الصدام الذى حدث بين فسپسيان والإسكندريين، وأن مصدرها هو الفريق أو الحزب الإسكندرى الذى لم يكن شديد العداوة للرومان، راجع:

Acta Diogenis = Musurillo. Acta Alerandrinorum, No. V A (Text, pp. 27-30: Comment, pp. 141-6).

تسهل طريقى فى كل مكان. ثم تفل على الارض واخذ منه طينا ووضعه على موضع ثقب الشفا فى يد الاسكاف وقـــال: باسم الاب والابن والروح القـدس الاله الواحـد الحى الابدى تعـافى يد هذا الانسان فى هذه الساعه ليتمجد أسمك القدوس. فعوفيت يده فى تلك الساعه [ثم] قال له القديس مرقس: اذا كنت تعرف ان الله واحد فلماذا تعبد هذه الالهه الكثيره. قل له: نحن نذكر الله بافواهنا لا غير وما نعرف من هو . وبقى الاسكاف متعجبا

من ماكينة خياطة الجلد الحديثة.

وكان ڤسپسيان قد عهد إلى تيتوس بقيادة الحملة ضد اليهود فخرج من الاسكندرية قاصداً فلسطين فى مستهل عام ٧٠. وقد خرج معه فى هذه الحملة ليترنيوس فرونتو، قائد معسكر نيقوپوليس، الذى تولى قيادة فصيلتين (vexillationes) قوامهما ٢٠٠٠ جندى، من فرقتى قورينة الثالث ودّيوطاروس الثانية والعشرين. كما خرج معه أيضاً والى مصر نفسه، تيبريوس يوليوس الإسكندر، الذى شغل أثناء حصار أورشليم منصب رئيس هيئة أركان الحرب ضد اليهود. وقد تبين من نقش قصير مدون على عنق مزهرية أن ليترنيوس فرونتو، قائد معسكر نيقوپوليس (praefectus castrorum)، قد ارتقى إلى منصب والى مصر فى عام ٧٨ ـ ٧٩، أى بعد حوالى تسع سنوات من تاريخ الحملة اليهودية. وأما عن تيبريوس يوليوس الإسكندر فلدينا الآن بردية جديدة تشير إلى أنه قد ارتقى إلى منصب قائد الحرس الپريتورى (الإمبراطورى) فى روما (Praefectus praetorio) منذ ربيع أو صيف عام ٧١، وهو منصب أصبح أرفع من منصب والى مصر، بل من أكبر مناصب الإمبراطورية خطراً. وبعد سقوط أورشليم وتدمير الهيكل الكبير فى ٢ سبتمبر من عام ٧٠ عاد تيتوس إلى الإسكندرية حيث أظهر من الشعور الطيب نحو مواطنيها ما جعلهم يتعلقون به. ولم يتودد تيتوس إلى الإغريق وحدهم بل تودد أيضاً إلى المصريين حتى أنه حضر حفل اختيار عجل أبيس الجديد فى ممفيس

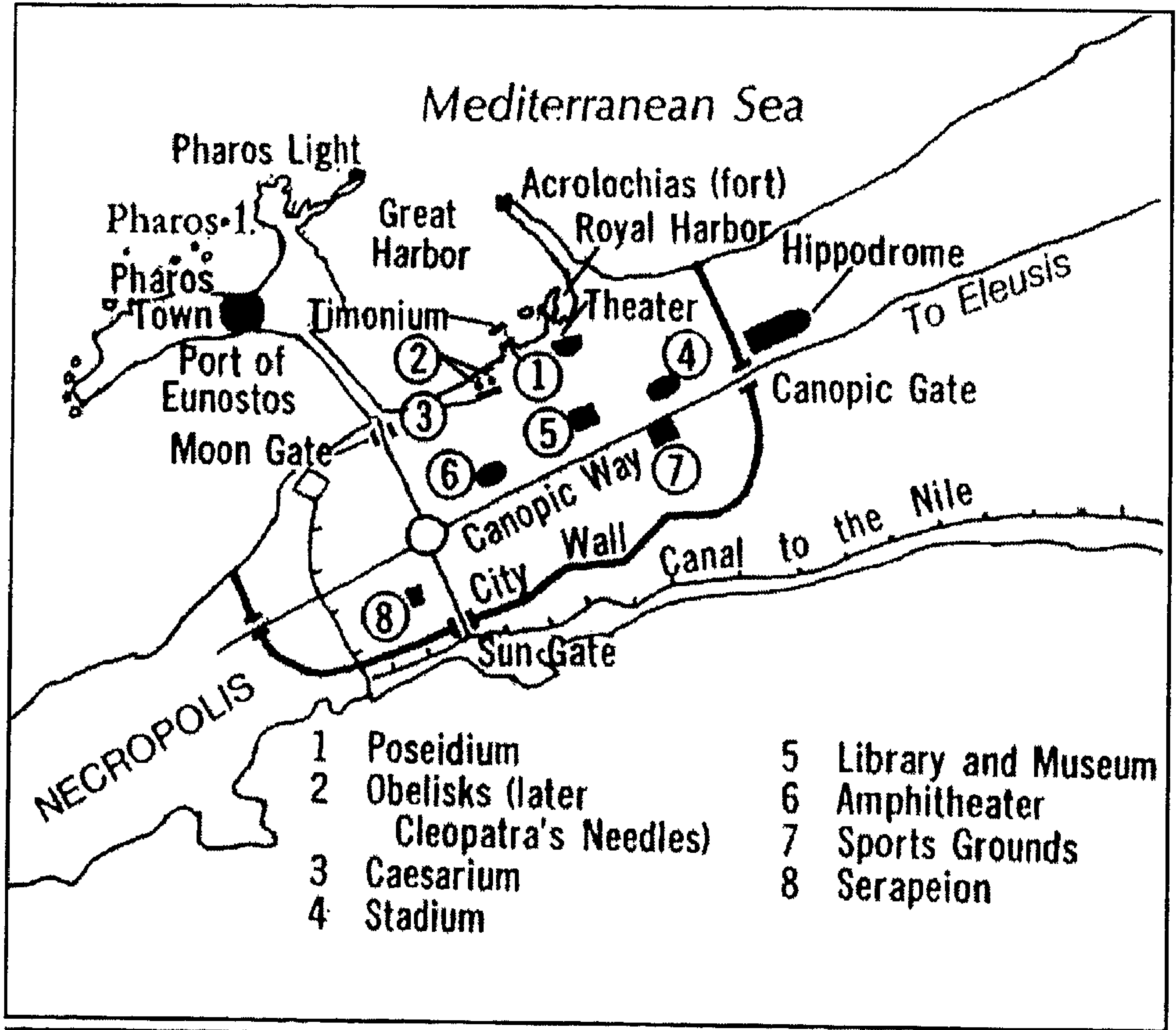
من قوة الله الحاله فى القديس مرقس ثم قال له : انا اسلك يا رجل الله ان تصير الى منزل عبدك تستريح و تأكل خبزا لاننى اراك اليوم قد رحمتنى. ففرح القديس مرقس وقال له : يعطيك الرب خبز الحياه فى السموات . ومضى معه الى بيته فلما دخل منزله قال: بركة الله تكون فى هذا البيت. وصلى فلما اكلو قال له الاسكاف : يا ابى اريد ان تعرفنى من انت الذى عملت هذه الاعجوبه العظيمه. فاجاب القديس وقال له : انا أعبد يسوع المسيح ابن الله الحى الى الابد. قاله له

وحرص على أن يلبس التاج التقليدى فى مثل هذه المناسبة. ومع أن هذا المسلك كان من شأنه استمالة قلوب الأهلين إلا أن الحكومة المركزية ممثلة فى شخص أبيه لم تنظر إلى مسلكه بعين الارتياح بل ارتابت فى أنه يتطلع إلى العرش قبل الأوان.

وحدث بعد سقوط. أورشليم أن فر إلى الإسكندرية نفر من السفاحين اليهود (sicarii) الذين أفضى تعصبهم الأعمى إلى الكارثة التى نزلت بأمتهم، وحاولوا إثارة الشغب فى المدينة من جديد وتحريض بنى جلدتهم على ألا يعترفوا يحاكم عليهم سوى يهوه. ولكن شيوخ الجالية رفضوا الاستجابة إليهم وتبرأوا منهم وقبضوا على البعض وسلموهم للسلطات الرومانية، وأما البعض الآخر فقد لاذوا بالفرار إلى جنوب الوادى حيث طوردوا وأبيدوا بعد قليل. وعلى الرغم مما أظهره أقطاب اليهود من اتزان وحكمة، فقد قررت الحكومة الرومانية فى عام ٧٣ أن تغلق معبد أونياس (Onias) فى ليونتوپوليس (Leontopolis)[(١)]، الذى ارتابت فى أنه كان مركزاً لنشاط الحركة اليهودية الأخيرة، وصادرت أملاكه، وهو معبد كان قد شيد حوالى عام ١٦٠ ق.م. لمنافسة معبد أورشليم. وبذلك حالت دون انتقال نفوذ المعبد الكبير فى فلسطين بعد زواله إلى نظيره فى مصر. وذهب الإمبراطور ڤسپسيان إلى أبعد من ذلك فأمر فى صيف عام ٧١ بأن يدفع اليهود جميعاً، ذكوراً وإناثاً، على اختلاف أعمارهم، ضريبة دينارين

(١) فى إقليم هليوبوليس، وهى تل اليهودية قرب شبين القناطر.

الاسكاف: اريد ابصره . قال له القديس مرقس: انا ادعك ان تنظره. ثم بدأ يقص له انجيل البشاره وقوله المجد والعز والسلطان الذى لله من البدايه، ووعظه بمواعظ وتعاليم كتيره يشهد بها سيرته. ثم انتهى معه الى ان قال له: ان السيد المسيح فى اخر الزمان تجسد من مريم العدرا وجا الى العالم وخلصنا من خطايانا. وبين له ما تنبت به الانبيا عليه شيا شيا. فقال له الاسكاف: هذه الكتب التى ذكرتها ما سمعت بها قط لكن كتب الفلاسفه



اليـونانين هى التى تعلمـهـا الناس لاولادهم هاهنا وكـذلك المصـريين. فـقـال له القـديس مـرقس: فـلاسـفـة هذا العـالم باطل عند حكمـة الله. فلمـا سـمـع الاسكاف الحكمــه وكــلام الكتب من القـديس مـرقس ومما نظره من العـجب العظيم الذى فـعله فى يده مـال قلبـه اليـه وامن بالرب وتعمـد هو وكل اهل بيته وكلمن يجاوره، وكـان اسمه انيانوس(*).

فلما كترو المومنون بالمسيح وسمع اهل المدينه

(*) أنيـانوس: هو حنانيا. خلف مارمرقس على رياسة الكنيسة المصرية من سنة ٦٢ إلى ٨٥م. وهو الذى أقام كنيسة باسم مار مرقس فى الموضع الذى استشهد فيه بالاسكندرية فى المكان المعروف ببوكلى (مرعى البقر).

سنوياً لمعبد الإله چوبيتر الكابيتولينى فى روما، وهى ضريبة النصف شاقل التى كان الذكور البالغون منهم يدفعونها من قبل لمعبد أورشليم[1].

إيزيس فى روما:

وارتقى تيتوس العرش بعد أبيه ڤسپسيان ولكنه قضى نحبه بعد قليل (٧٩ ـ ٨١)[2]. غير

(1) Cf. S.L. Wallace, Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian. Princeton (1938), PP. 170-176.

إن هذه الضريبة (Ioudaion telesma) قررها ڤسپسيان حوالى صيف عام ٧١ أى فى السنة الثالث من حكمه، على أن تفرض على اليهود ابتداء من عام ٧٠ (السنة الثانية من حكمه) الذى تحدى فيه يهود أورشليم الحصار الذى ضربه عليهم جيش تيتوس. غير أن إعداد كشوف هذه الضريبة وما إلى ذلك أخر جبايتها حتى عام ٧٢، وهى السنة الرابعة من حكم ڤسپسيان، والتى ظهرت فيها أول إيصالات عنها فى أپوللونوپوليس مجنا (إدفو) وأرسينوى (مدينة الفيوم). وفى هذا العام كان مواليد اليهود فى عام ٧٠ قد بلغوا سن الثالثة. ولهذا تقرر أن تجبى الضريبة من اليهود عند بلوغهم هذه السن حتى سن الستين أو الثانية والستين. ويعتقد الأستاذ ولاس (نفس المرجع، ص ١٧٤) أن يهود مصر كانوا يدفعون ضريبة النصف شاقل (didrachmon) لا إلى معبد أورشليم بل إلى معبد أو نياس. ويبدو أن هدريان ألغى ضريبة الديناريين لأننا لا نجد أى إيصالات عنها بعد عام ١١٦.

(٢) فى قصاصة بردية صغيرة تعتبر من أقدم مخطوطات «أعمال الشهداء» لأنها نسخت حوالى منتصف القرن الثانى إشارة إلى محاكمة رجل يدعى هرمياس (Hermias)، لعله زعيم سكندرى، أمام الإمبراطور تيتوس الذى حكم، كما رأينا، فترة قصيرة (١ يوليو ٧٩ ـ ١٣ سبتمبر ٨١). وفيها يطلب هرمياس =

ان رجلا يهوديا جليليا قد دخل اليها وهو يريد ان يقلب عبادة الاوثان الهتهم، وقد منع جماعه من عبادتها، طلبوه فى كل مكان ونصبو له قوما يرصدونه. فلما علم القديس مرقس مؤامرتهم قسم انيانوس اسقفا لاسكندريه وتلته قسوس وسبعه شمامسه، هولا الاحد عشر جعلهم يخدمون ويثبتون الاخوه المومنين. وخرج من عندهم ومضى الى الخمس مدن واقام بها سنتين يبشر ويرسم اساقفه وقسوسا وشمامسه فى كل اعمالها، و عاد

أن ما أظهره ذلك العاهل من احترام للديانة المصرية قد يشير إلى تحول فى موقف الحكومة الرومانية إزاء الآلهة المصرية الخالصة. ولكى نفهم ذلك ينبغى أن نعود بالقارىء إلى ما قبل أيام واقعة أكتيوم لقد انتقلت عبادة الآلهة المصرية ـ وبخاصة عبادة إيزيس إلى روما فى غضون القرن الثانى قبل الميلاد، إن لم يكن قبل ذلك التاريخ. وقد تم ذلك على يد الإغريق الذين كانوا يفدون على روما من مصر مباشرة أو من المناطق المجاورة لإيطاليا كبلاد اليونان وجزر البحر الإيجى وصقلية أو حتى من كمپانيا نفسها. على أن معظم أتباع الربة المصرية كانوا

=أن يسمح لشخص آخر، أكبر الظن أنه رومانى، بالدفاع عن نفسه، ولكن هذا الأخير يأبى ذلك. ومن العسير التحقق من الظروف التى جرت فيها هذه المحاكمة. فالمؤرخ سويتونيوس يكيل المديح لتيتوس ويصفه بأنه أكثر الناس طيبة (Titus, VIII, 1: natura autem benevoientissimus) وأنه حبيب الناس وقرة عينهم (Titus, I: amor ac deliciae generis humani). ويقول ديون كاسيوس إنه لم يقتل أحداً أثناء حكمه(LXVI,18,1) ولم يقر كأبيه تهمة الخيانة العظمى maiestas (LXVI, 19,1)، وإن كان ڤسپسيان قد عاقب الفيلسوفين الكلبيين هيراس وديوجنيس لانتقادهما الملك تيتوس وعلاقته الغرامية مع برنيقى (Berenicê) اليهودية. ولعل الإسكندريين، مع كل هذا، قد سخروا منه مثلما سخروا من أبيه بسبب هذه العلاقة. ويرجح موسيريللو أن محاكمة هرمياس كانت بسبب تنديده بمسلك موظف رومانى لم يراع تنفيذ الإعفاءات التى منحها الإمبراطور كلوديوس للاسكندريين وأيدها الوالى تيبريوس يوليوس الإسكندر فى منشوره الذى أصدره فى يوليو عام ٦٨. ويرد فى القصاصة البردية اسم ڤستينوس ولعله لوكيوس يوليوس ڤستينوس الذى كان والياً على مصر (٥٩ ـ ٦١)، واستدعاه تيتوس (إلى المجلس القضائى؟) للاستفادة من سابق خبرته بشئون مصر.

الى مدينة اسكندريه فوجد الاخوه قد تثبتو على الامانه وكترو بنعمة الله واهتمو ان يبنو بيعه فى موضع يعرف بمرعى البهايم قريبه من البحر عند صخره يقطع منها الحجاره. ففرح القديس مرقس بذلك فرحا عظيما وسجد على ركبتيه وبارك الله اذ اثبت خدام الامانه الذين رتبهم فى تعاليم السيد المسيح ونكثو عن عبادة الاوثان.

فلما علم اوليك الكفره ان القديس مرقس قد

عادة من الأجانب والعبيد والمعتقين وفقراء الرومان، وإن ظهر بين صفوفهم أحياناً بعض سيدات الطبقة الأرستقراطية القديمة والجديدة. فلما تكاثر عدد هؤلاء الأتباع على مر الأيام ارتابت الحكومة الرومانية فى نشاطهم مثلما ارتابت فى نشاط جمعيات الإله باخوس (Bacchus) (ديونيسوس) فى عام ١٨٦ ق.م. وعاد السناتو (مجلس الشيوخ الرمانى) إلى سياسة التزمت ومكافحة البدع الدينية، وبخاصة بعد زوال خطر الحرب البونية، إذ لم يعد بحاجة إلى عون البطالمة بعد أن انتاب الضعف دولتهم. لذلك نجد أحد قنصلى عام ١٦٨ ق. م. يأمر بهدم هياكل إيزيس وسرابيس القائمة بالمدينة؛ غير أن الحكومة الرومانية تركت أشياع إيزيس يمارسون شعائر عبادتهم خارج أسوار روما (extra pomerium). وفى أيام الدكتاتور سُلا اشتد ساعد أنصار إيزيس فنظموا جمعيات دينية فى ساحة مارس خارج المدينة. ويبدو أن سُلا انتهج سياسة التسامح إزاء العقائد الأجنبية. لكن لم تلبث ديانة إيزيس أن تعرضت لأكثر من اضطهاد خلال فترة الاضطرابات الأهلية التى أعقبت وفاته واستمرت حتى انفرد يوليوس قيصر بالسلطة فى عام ٤٧ ق.م. وازدهرت عبادة إيزيس نتيجة لتأثير كليو بطرة على الدكتاتور الرومانى. ولا ينبغى أن ننسى أن يوليوس قيصر كان زعيماً للحزب الديمقراطى أو الشعبى الذى كان يضم بين صفوفه كثير من أفراد الطبقة الدنيا، وهى أكثر الطبقات إقبالاً على العبادات الأجنبية. وأحرزت ديانة إيزيس تقدماً مطرداً حتى أن الحكومة الثلاثية (الثانية) اعترفت بها رسمياً فى عام ٤٣ ق.م.

عاد الى اسكندريه امتلو غضبا لاجل الاعمال التى
يعملها المومنون بالمسيح من ابرا [ء] الامراض
واخرج الشياطين واطلاق السنة الخرس واسماع
الطرش وتطهير البرص، وبحثو عن القديس مرقس
بغضب عظيم فلم يجدوه وصرو عليه باسنانهم
في برابيهم ومواضع اوثانهم بغضب. وقالو: ما
تنظرون ظلم هذا الساحر. فلما كان فى احد
السبوت يوم عيد فصح(*) السيد المسيح اتفق فى

(*) عيد الفصح: كانت اليهود

- -

لكن سرعان ما تعثر هذا التقدم عندما نشب النزاع بين أكتافيانوس وماركوس أنطونيوس. وقد رأينا كيف أعلنت روما الحرب على كليوبطرة وكيف تعرضت ملكة مصر لهجاء الشعراء الرومان، وما صحب ذلك من تشهير بالآلهة المصرية، وبخاصة بإيزيس التى كثيراً ما ظهرت كليو بطرة فى صورتها ولقيت عبادتها رواجاً في روما أثناء إقامة الملكة فيها. واستتبع ذلك صدور قرار فى عام ٢٨ ق.م. يقضى بتحريم عبادة الآلهة المصرية داخل العاصمة الرومانية. وعندما ثارت بعض الاضطرابات فى روما سنة ٢١ ق. م. أثناء غياب أغسطس فى الشرق انتهز أنصار إيزيس الفرصة وتسللوا ثانية إلى داخل العاصمة، فصدر قرار بتحريم ممارسة طقوس عبادتها إلى مسافة ميل واحد من روما. ولم تنحسر موجة الإضطهاد فى أيام تيبريوس الذى اشتهر بتحفظه حتى أنه أخذ على عاتقه إصلاح ما اعوج من الأخلاق الرومانية، فأوعز إلى السناتوفى عام ١٩م بإصدار قرار بتحريم عبادة الآلهة المصرية واليهودية وطرد أشياعها من إيطاليا إذا لم يرتدوا عنها ويتبرأوا منها خلال أجل معين. وليس من المستبعد أن يكون الباعث المباشر على هذا الإجراء هو تخوفه من ابن أخيه جرمانيكوس، الأمير المحبوب، الذى زار مصر فى نفس العام دون استئذانه ولقى من سكان الإسكندرية ومصر حفاوة بالغة.

لكن نفوذ ديانة إيزيس عاد إلى سابق قوته عندما اعتلى العرش كاليجولا الذى أعاد بناء معبدها فى ساحة مارس أو أعاد فتحه. وقد ثبت أن المحراب الذى عثر عليه فى القصر

تلك السنه يوم تسعه وعشرين من برموده وكان فيه ايضا عيد الكفار الوثنين، طلبوه باجتهاد فوجدوه على الهيكل فهجمو [عليه] واخدوه وجعلو فى حلقه حبلا و جروه على الارض. وكانو يقولون: جرواالتنين فى دار البقر. وكان القديس اذا جروه يسبح الله ويقول: الشكر لك يارب اذ جعلتنى مستحقا ان اتالم على اسمك القدوس. وكان لحمه يتقطع ويلتصق بحجارة الشوارع ودمه

تسميه عيد الأغفال لأن يهوه ترك بيوت الاسرائيلين وقتل بكور العائلات المصرية فقط في منتصف ليلة هروب بني اسرائيل بما نهبوه وسرقوه من المصريين: «وفى منتصف الليل بدأ يهوه هجومه على بيوت المصرين قتل البكور من الاولاد، وليس هذا وحسب بل أهلك أيضا كل بكر من بكور البهائم».

ولكن المسيحين احتفلوا به باعتباره اليوم الذى صلب فيه المسيح. أنظر حول الخلاف على تعييد عيد

الإمبراطورى كان معبداً أقامه ذلك الحاكم للربة المصرية. ولعل القارئ يذكر كيف استقبل كاليجولا السفارتين السكندرية واليهودية فى عام ٣٩ وأنه كان أكثر عطفاً على الأولى منه على الثانية. ويحدثنا فيلون بأنه قد تملكته رغبة جامحة فى مشاهدة الإسكندرية التى كان حريصاً على الذهاب إليها بأقصى سرعة حيث اعتزم الإقامة مدة طويلة لعل فكرة تأليهه، التى كانت تشغل باله، تنبثق فى يسر وتلقى رواجاً فى تلك المدينة قبل غيرها. ويضيف فيلون أنه لم يكن هناك بين الناس من هم أكثر من الإسكندريين طواعية لتأييد ألوهيته. وقد شغف كاليجولا بالعقائد الشرقية وطقوسها السرية، ولعله وجد فى الديانة المصرية سنداً ترتكز عليه فكرة عبادته. لذلك يرجح بعض الباحثين أن كاليجولا هو الذى أصدر قراراً بالاعتراف الرسمى بديانه إيزيس، مناقضاً بذلك سياسة أغسطس وتيبريوس. ولم تتعرض عبادة إيزيس للاضطهاد فى زمن خليفته كلوديوس الذى روى أنه طرد اليهود من روما بسبب ما أثاروه من شغب(١)

(١) طرد اليهود من روما لإثارتهم اضطرابات مستمرة بتحريض خريستوس (هل Chrestus هو Christus أى المسيح؟ إن تاكيتوس (Ann. XV. 44) يذكر الإسم صحيحاً ويقول إنه أعدم على يد بنطيوس پيلاطوس، حاكم أرض يهودا، فى عصر تيبريوس)؛ ويؤيد رواية سويتونيوس عن اليهود ما ورد فى أعمال الرسل (الإصحاح ١٨، ٢: لأن كلوديوس كان قد أمر أن يمضى جميع اليهود من رومية). غير أن ديون كاسيو يقول إن كلوديوس لم يطرد اليهود من روما بل حظر عليهم فقط عقد الاجتماعات. لعل الشغب المشار إليه نشأ عن دعاية المسيحيين وتبشيرهم بالدين الجديدة بين اليهود المقيمين فى روما.

يجـرى على الارض.فلمـا انتـصف الليل وابواب السجن مغلقه والحراس نيام على الابواب واذا زلزله عظيمـه واضطراب شـديد، وفنزل له مـلاك الرب من السمـا ودخل الى القـديس وقـال له: يا مـرقس عـبدالله هوذا قـد كـتب اسـمك فى سـفـر الحيـاه وعددت فى جمـاعـة القـديسين وروحك تسبح مع ملايكه فى السموات و جسدك لا يهلك ولا يزول من على الارض. فلما استيقظ من نومه رفع عينه

الفصح فى هامش الصـفحات الاخيرة من سيرة القديس مكسيمـوس البطرك رقم ١٥ فى هذا الكتاب.

وإلى عصره ينسب أقدم نقش عن عودة ظهور إيزيس بعد طردها فى عصر تيبريوس. وإذا كان نيـرون قد ازدرى العبادات الشرقيـة ما عدا عبادة الربة السـورية (Dea Syria)، فـإن بلاطه قـد وقع تحت تأثيـراً أشـخاص ذوى ميـول مـصرية من أمـثال خير يمون النقراطيس مربى القـصر، وبالبيللوس العالـم الفذ الذى برع فى التنجيم، وكان ـ فيما يحتمل ـ والياً على مصر من عام ٥٥ حتى عام ٥٩، ومن أمثال أو تو، صديقه المتفانى فى عبادة إيزيس، وأخيراً سابينا مطلقة أوتو، وزوجـة نيرون التى تشبـهت بإيزيس وأحـاطت نفسـها بنفر من المنجمين الشـرقيين، وقد ينهض تحنيط جثتها بعد وفاتها دليلاعلى تأثرها بالعقائد المصرية.ولقد تأثر نيرون نفسه بذلك ولم يكن بأى حال يكره المصريين، فقد اعتزم ـ كما رأينا ـ زيارة الإسكندرية وتوسل،عندما تخلى عنه الجيش،أن ينصب والياً على مصـر. لهـذا كله يرجح بعض المؤرخين أن الاعتـراف الرسمى بعبادة إيزيس قد تم فى عهد نيرون، هذا إذا لم يكن قد تم فى عهد كاليجولا. غير أن هذا لا يعدو أن يكون محض افتراض. وأما أوتو الذى نودى به إمبراطوراً بعد مصرع جالبا فى ١٥ يناير عام ٦٩ فكان من أنصار ديانة إيزيس المتحمسين حتى أنه كان يمارس شعائرها علناً ويرتدى الثوب الكتانى الذى تقتضيـه عبادتها. وبلغ نفوذ إيزيس من القـوة حينئذ ما جعل أتباعها يمارسون شعائر ديانتها فى اطمئنان فوق الكابتول نفسه على الرغم من احتدام الحرب الأهلية فى عام ٦٩. ولقد روى أن دوميتيان ابن الإمبراطور فسبسيان احتمى بالكابتول عندما

الى السما وقال: اشكرك يا ربى يسوع المسيح واسيلك ان تقبلنى اليك لا تنعم بصلاحك. فلما تم هذا القول نام ايضا فظهر له السيد المسيح فى [صورة] الشخص الذى يعرفه التلاميذ [واعطاه السلام وعزاه] وقال له: السلام لك يا مرقس الانجيلى المصطفى فقال له القديس: اشكرك يا مخلصى يسوع المسيح اذ جعلتنى مستحقا ان اتألم على اسمك القدوس. ودفع له السيد المخلص سلامه وغاب عنه، فلما انتبه واصبح الصبح

شق جنود فيتلليوس طريقهم إلى هذا الجبل وأضرموا النار فى معبده الكبير، وقضى الليلة مختبئاً فى بيت حارس المعبد، ولما طلع النهار تنكر فى زى أحد أشياع إيزيس ثم عبر التيبر مع خليط من كهنتها دون أن يكشف أحد أمره.

وبارتقاء أسرة فلافيوس عرش الإمبراطورية يبدأ العصر الذهبى لعبادة إيزيس فى روما. ومع أننا لا نعرف على وجه الدقة ما قام به فسبسيان من أجل الديانة المصرية، إلا أننا لا نرتاب فى أنه غمرها بأفضاله. لقد أنقذت إيزيس ابنه دوميتان من موت محقق، وقام سرابيس بالشئ الكثير لشد أزره. وفى الحق أن سرابيس ـ كما يروى سويتونيوس ـ قد منح هذا الرجل المغمور الأصل ما كان يعوزه من نفوذ وجلال. وكان بلاطه ـ فيما يبدو ـ غاصاً بأشياع إيزيس وسرابيس. ولدينا نقش من عصره كتبه أحد عبيد تيتوس تمجيداً لإيزيس التى لا تقهر (Isis Invicta). وفى عصره أيضاً أقيم تمثال ضخم للنيل مجسداً فى هيئة رجل يحيط به ستة عشر ولداً يرمزون إلى الستة عشر ذراعاً التى إن يبلغها ماء الفيضان، يبشر بالرخاء فى جميع أنحاء مصر ـ وهو تمثال شديد الشبه بالتمثال المحفوظ الآن فى متحف الفاتيكان. وتحمل نقود فسبسيان التى سكت فى روما وترا كووليون صورة إيزيس فى معبدها بساحة مارس.

وقد ضربت هذه النقود لتخليد ذكرى أسعد حادثة فى تاريخ إيزيس فى روما عندما أمضى فيبسيان وابنه تيتوس الليلة السابقة على يوم الانتصار الأخير على اليهود فى معبدها بساحة

اجتمع الجمع واخرجو القديس من الحبس وجعلو
فى حلقه ايضا حبلا وقالو: جرو التنين فى دار
البقر. وزحفو بالقديس على الارض وهو يشكر
السيد المسيح ويمجده ويقول: انا اسلم روحى فى
يديك يا الاهى. قال القديس هذا القول واسلم
الروح، فجمع خدام الاوثان الانجاس حطبا كتيرا
فى موضع يدعى الانجيليون ليحرقو جسد القديس
هناك، وكان بامر الله ضباب عظيم وريح شديده
حتى ارتعدت الارض وهطلت امطار كتيره ومات

مارس(Iseum Campense). وقد ذكرنا كيف زار تيتوس ممفيس واشترك فى حفل تنصيب أبيس الجديد ولبس التاج التقليدى جرياً على سنة الفراعنة فى مثل هذه المناسبة. وعندما تولى دوميتيان الحكم من بعده وجدت فيه إيزيس راعياً لديانتها إذ كان يشعر بأنه مدين لها بحياته، فضلاً عن أنه وجد فى الديانة المصرية ـ مثلما وجد كاليجولا من قبله ـ ما يبرر به مطالبة رعاياه بتأليهه. ومع أنه كان يبغض الديانات الأجنبية إلا أنه استثنى إيزيس من بغضه. فقد أعاد فى عام ٩٤ بناء معبدها فى ساحة مارس الذى كان الحريق قد دمره فى عام ٨٠. وتحمل المسلة التى أقامها أمام مدخل ذلك المعبد نقشاً هيروغليفياً يخلد عمله.

وفى عام ٨٩/٨٨ شيد لوكيليوس، وهو احد مواطنى بلدة بنيفنتوم بجنوب إيطاليا معبداً لإيزيس من أجل نجاة الإمبراطور وعودته، ونصب أمامه مسلتين تحملان نقوشاً هيروغليفية، توصف فيها إيزيس بأنها سيدة بنيفنتوم. فكان دوميتيان فى الواقع قد أسبغ على عبادة إيزيس صفة شبه رسمية. ولعل ذلك يفسر سبب انتهاج السلطات الرومانية فى مصر سياسة تنم عن التسامح إزاء الديانة المصرية. ويتضح من النقوش بناء معابد لأفروديتى وهى الربة اليونانية المقابلة لهاتور (حتحور) المصرية، ربة كوم أمبو، وكذلك لهيرا التى تمثل سثيت، (Satis) ربة الشلال الأول عند إلفانتين (جزيرة أسوان). ومن العملة يتضح أن صور الآلهة الإقليمية بدأت تحل محل صور الآلهة المصرية ـ السكندرية الشهيرة كإيزيس وسرابيس وأجاتوس دايمون.

قوم كثير من الخوف والرعب وكانوا يقولون ان زربس [سرابيس] الصنم افتقد الانسان الذى قتل فى هذا اليوم، فاجتمع الاخوه المومنون و اخذو جسد القديس مارى مرقس من الرماد ولم يتغير فيه شي ومضو به الى البيعه التى كانو يقدسون فيها وكفنوه وصلو عليه كما جرت العاده وحفرو له موضعا ودفنو جسده فيه ليتممو تذكاره فى كل وقت بفرح وابتهال وبركه لاجل النعمه التى دفعها لهم السيد المسيح على يديه فى مدينة اسكندريه،



زربس سرابيس فى هيئة زيوس سيرابيس
بقرنى كبش الاله آمون

ولدينا مجموعة من النقود البرنزية التى ضربت فى عام ٨٧/ ٨٨ تحمل صور آلهة محلية، ومع أنها تظهر فى أزياء يونانية إلا أنها توصف بألقابها المصرية. ومنذ هذا التاريخ تظهر أشكال الآلهة الوطنية بكثرة فى العملة السكندرية.

غير أن ما فعله دوميتيان من أجل إيزيس لبواعث شخصية لم يكن فى حقيقة الأمر يمثل شعور الرومان بوجه عام نحو الآلهة المصرية، وبخاصة آلهة الإقاليم المحلية. لقد كان الرومان، ولاسيما أفراد الطبقة الأرستقراطية المثقفة، ينظرون شذراً إلى هذه الآلهة ويستهجنون كثيراً من طقوسها الدينية.

تراجان وهدريان

١ . فضيحة مكسيموس وسلطات الوالى:

استمرت الأحوال هادئة فى مصر على عهد نرفا (Nerva) (٩٦ ـ ٩٨) وأوائل عهد تراجان (Traianus) (٩٨ ـ ١١٧). غير أن وثيقة بردية تطلعنا على محاكمة قضائية جرت بين عامى ١٠٧ ، ١٠٩ على التقريب، إن لم يكن بعد هذا التاريخ بسنوات. وكان المتهم فيها موظفاً رومانياً كبيراً يدعى مكسيموس. وما تزال طبيعة هذه الوثيقة مثار جدل بين المتخصصين، فبينما يرى فريق أنها صورة محرفة من محضر رسمى لمحاكمة حقيقية جرت أمام

وجعلوه فى الشرق من البيعه، فى اليوم الذى تمت فيه شهادته، وهو اول من استشهد من الجليليين على اسم السيد يسوع المسيح باسكندريه فى اخر يوم من برموده للمصريين. وهو ثمانيه من قلنطر مايس[مارس] من شهور الروم و هو اربعه وعشرون يوما من نيسان من شهور العبرانين.

ونحن ايضا بنو الارتدكسين نصعد المجد والتقديس والترتيل لسيدنا مخلصنا يسوع المسيح

الإمبراطور، يرى فريق آخر أنها لا تعدو أن تكون منشوراً من منشورات الدعاية السياسية، وثيق الصلة بذلك الأدب الوطنى ذى الطابع الخيالى الذى روجه السكندريون للتشهير بالحكم الرومانى، أى أنها جزء من مجموعة «أعمال الشهداء السكندريين»، على الرغم من اختلافها عنها فى الأسلوب، وخلوها من الحوار، وافتقارها إلى بعض الخصائص الأخرى التى تتميز بها هذه المجموعة. وأيا كان الأمر، فمن المرجح الآن أن الموظف المتهم كان جايوس فيبيوس مكسيموس (C. Vibius Maximus)، والى مصر فى الفترة بين عامى ١٠٣، ١٠٧. ويتبين من عريضة الدعوى أنها تضمنت عدة اتهامات كالابتزاز والربا واستغلال السلطة فى تعيين مديرى معهد التربية فى الإسكندرية، وإفساد شاب ثرى نعرف من جذاذة بردية أخرى، أنه يدعى ثيون، وهى اتهامات كانت عقوبتها إلحاق الوصمة ومصادرة الأموال المبتزة والنفى فى بعض الأحيان. ومع أن الدعوى الأساسية التى أقيمت على مكسيموس فى روما كانت دعوى ابتزاز (de repetundis)، إلا أن المتكلم بلسان السكندريين ركز اهتمامه فى تهمة إفساد الغلام:

«ولهذا سأضيف، يا مولاى، نقطة أخرى أعتقد أنها سوف تثير دهشتك فترتاب فى صحتها حتى تقرأ المستندات. فقد كان يحكم على بعض الناس بدفع فائدة عن مدة لم يتسلموا

الذى له ينبغى المجد والكرامه و السجود، وللاب والروح القدس ليمحى المساوى الان وكل اوان والى دهر الداهرين امين.

السيره الثالثه من سير البيعه

انيانوس(*) البطرك وهو الثانى من العدد

٦٢ / ٨٥م

فلما توفى الانجيلى مرقس رسول السيد يسوع المسيح جلس بعده انيانوس بطركا وكثرت الاخوه

(*) تولى على كرسى الامبراطورية فى عهده سبعة قياصرة هم نيرون، جلبا، اوثون، فيتبليوس، وسياسيان، تيطس، دومتيان.

أثناءها الدين. فما رده على ذلك؟ لقد كنتم غائبين فلم تحاطوا علما بالرسائل التى كتبت لجلالتكم بشأن صرامة مكسيموس ونشاطه فى هذا الصدد....

وبينما نحن نقاسى الاهوال كلما يترك الولاية (؟)... وصدر الأمر بأن يتولى برينيكيانوس منصب رئيس معهد التربية حتى السنة التاسعة عشر من حكم الامبراطور، وأنيكيتوس حتى السنة التاسعة والعشرين. لماذا سكت على هذا؟ أستقول أنه ضلل بك أو تقبلت هدايا؟ أنه من الأنفع اذن ان تعترف بأهون الجريمتين. انما نحن نقول انك لم تأخذ هدايا بل انك اعطيتها.

والمستند الأخير يدمغه بتهمة الشغف بالغلام وهيامه به. ماذا أقول؟ لقد أعتاد شاب يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً أن يتناول معك العشاء فى كل يوم. وقلما كان كل فرد من هؤلاء الحاضرين يحظى بشرف المشاركة فى مأدبتك ـ فأنت لم تكن تغدق مثل هذا الشرف على أحد بسهولة بعد أن ارتقيت منصبا ملكيا ـ كل واحد منهم رأى الغلام فى حفل الشراب تارة برفقة والده وتارة وحده. ورأى كذلك النظرات الوقحة وما كان يتبادله هذان العاشقان الخشنان بصورة شائنة. وفضلا عن ذلك فقد كان (هذا الغلام) يقدم التحية (للوالى) يوميا. ويشهد هؤلاء الرجال ـ يا مولاى ـ بروحك الحارسة أنهم بينما كانوا يقفون عند باب (قصره)

المومنون بالمسيح ووسمهم كهنه وخداما واقام اتين وعشرين سنه وتنيح فى العشرين من هتور السنه التانيه من ملك دوماتيوس[دومتيان](*) ملك روميه.

(*) يذكر ايسذورس فى كتابه «الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ص ٩١ أنه تنيح سنة ٨٦.

مليانوس (*) البطرك

وهو التالت من العدد

٨٥ / ٩٦م

(*) مليانوس أو ميليوس.

فاجتمع الشعب الارتدكسى وتشاورو واخذو

انتظاراً لتحيته تحية الصباح، قد رأوا الغلام خارجاً من غرفة نومه وقد ظهرت عليه علامات اتصاله بهذا الرجل. وما أن ألف الغلام الوسيم الثرى (هذا) السلوك المشين حتى ازداد رقاعة ووقاحة، فكان يمزح مع يوتيخوس الحاجب ويتعلق بيديه أمام الجميع ويضحك ضحكا عاليا في غير كلفة وسط جموع القادمين للتحية. لماذا اذن لم تحاول وقفه عند حده بما عهد فيك من نظرة صارمة وقسوة بالغة؟ لكن أن يتقدم اليك بالشكوى رجل معدم فى ثياب رثة، تأمر بمصادرة أملاكه وأملاك زوجته وأصدقائه. ولقد قضيت بالموت على الرجل الذى جلس فى المسرح دون أن يرتدى ملابس بيضاء. وأما هذا الغلام الوسيم الأمرد الوجه، فكنت تستبقيه كل يوم فى مقرك الرسمى ولم تكن ترسله الى المدارس أو (ممارسة) التدريبات اللائقة بالشباب. وكم كنت تحاسب والده ـ بحق ـ حسابا عسيرا لو أنه لم يعمل على ارساله للمدرسة؟ وها أنت تجوب جميع أنحاء مصر فى صحبة (هذا) الغلام، أو لم يتبعك الغلام ذو السبعة عشر ربيعا حتى الى المحكمة أثناء انعقاد مجلسك الرسمى؟ نعم! وقد كان برفقتك، يا مكسميوس، فى كل من ممفيس وبيلوزيون وحيثما كنت. وأما نحن الآخرين فكنا جميعا نعزف عن (أماكن) جولاتك (التفتيشية) وعن مجالسك القضائية».

هذه الوثيقة برغم جنوح كاتبها إلى المغالاة فى تصوير نقائص الوالى الرومانى وتجاوزه حدود الاحتشام فى وصف الجريمة الخلقية الموجهة إليه، تطوى بين ثناياها، كمعظم برديات

انسانا اسمه مليانوس وقسموه بطركا على كرسى مارى مرقس الانجيلى عوض انيانوس وكان هذا مليانوس ذا عفاف وثبت الشعب على معرفة المسيح وكثر شعب الارتدكسيين بمصر والخمس مدن وافريقيه واقام اثنتى عشره سنه على الكرسى، كانت البيعه فى ايامه تحت سلامه.

وتنيح فى اول يوم من توت فى خامس عشر سنه من ملك الملك المقدم ذكره [دوماتيوس] فسمع الكهنه والاساقفه الذين كانو من قبله على

«أعمال السكندريين»، لمسات واقعية لا يستطيع أن يغفلها المؤرخ المدقق. فلو أمعنا النظر لأمكننا أن نستخلص منها بعض معلومات طريفة وقيمة عن وضع الوالى بوصفه ممثلاً للامبراطور فى مصر: نعرف منها ـ مثلاً ـ صيغة القسم عند الشهادة وكيف كان الشهود يحلفون بالملاك الحارس أو القرين (Daimon). وقد حلت هذه الصيغة محل صيغة القسم بالإمبراطور نفسه منذ عصر دوميتيان. نعرف أيضاً كيف كان بعض ولاة مصر يستغلون سلطتهم فى ابتزاز الأموال أو فى إقراضها بالربا، مستعينين فى ذلك بخبرتهم السابقة بوصفهم رجالاً من طبقة الفرسان وهى ـ كما أسلفنا ـ طبقة رجال الأعمال الذين كانوا يمارسون منذ عصر الجمهورية التجارة والتزام جباية الضرائب والأعمال المصرفية. وتتردد النغمة نفسها فى بردية أخرى، لعلها من مجموعة «أعمال السكندريين» تتضمن ـ كما قدمنا ـ إشارة عابرة إلى ارتشاء الوالى أفيليوس فلا كوس أو ممارسته إقراض الأموال بالربا فى عصر كاليجولا. ومن الواضح أن منصب مدير معهد التربية بالإسكندرية (gymnasiarchos) كان منصباً رفيعاً، لعله كان أرفع المناصب البلدية فى المدينة، وإن كان ذا طابع اجتماعى لا سياسى، ولا مراء فى أن شاغله كان بمثابة زعيم جالية المواطنين الإغريق. وقد حدا ذلك بالوالى إلى استغلال سلطته فى فرض مرشحيه لملء هذا المنصب. ومن المؤسف أن الوثيقة لا

[٣: مليانوس ٨٥ / ٩٨م]

البـلاد بأن البطـرك قد تنيح فحزنــو و اجتمعــو
الى مــدينة اسكندريه وتشــاورو مع الشــعب
الارتدكسى الذين فـيـها وطرحـو القـرعـه لكى
يعرفـو من يسـتحق يجلس على كرسى القـديس
مـرقس الانجيلى تلميـذ السيـد المسيح بعـد هـذا
الاب مليـانوس، فاتفق رأيهم بتأييد السيـد المسيح
ربنا على رجل مـخـتـار خـايف من الله اسـمـه
كردنوس.

يتضح منها إذا كان الوالى يبيعه لأصدقائه أو كان يرغم من لا يدفعون له رشوة على النهوض بأعبائه. ونحن نعرف من مصادر أخرى أنه لم يعد اختيارياً منذ وقت مبكر، بل أصبح بمرور الزمن عبئاً إلزامياً ثقيلاً على أصحابه. غير أن إشارة البردية إلى شغله لمدة عشر سنوات تتعارض وما فهمناه من رسالة كلوديوس بأن الإمبراطور وافق على مقترح الإسكندريين بتحديد مدته بثلاث سنوات فقط.

وتتضمن الدعوى أيضاً إشارة عابرة إلى أن الوالى قد شغل مركزاً ملكياً، وهى إشارة تؤيدها ثلاث روايات أخرى وردت إحداها عند استرابون (XVII, 1, 12) حيث يقول «ومصر الآن ولاية... يحكمها رجال راشدون هم الولاة الذين يبعثون إليها باستمرار، ومن يبعث إليها (من قبل الإمبراطور) يتمتع بمركز الملك»؛ ووردت الأخرى عند تاكيتوس (Hist. I, 11) الذى يقول «تولى مصر... فرسان رومان فى منزلة الملوك»؛ والثالثة عند أميانوس ماركيللينوس (xxii, 16, 6) الذى يقول «ومصر نفسها أصبحت تحكم... بواسطة ولاة لهم مقام الملوك». وإذا كان الولاة فى وضع نواب الأباطرة الذين حلو محل البطالمة والفراعنة من قبلهم فقد كان محرماً عليهم ـ كالملوك القدامى سواء بسواء ـ أن يركبوا النيل فى زمن الفيضان. ويتبين من «محاكمة مكسيموس» كيف كانت جموع الأتباع (clientes) تنتظر الوالى أمام باب قصره (praetorium) لتزجى إليه تحية الصباح (aspasmos). وكان له

كردنوس البطرك
وهو الرابع من العدد
٩٦/١٠٦م

فاخذوه واوسموه على كرسى اسكندريه وكان عفيفا متضعا معفيا فى ايامه كلها واقام احدى عشره سنه فى رياسته وتنيح فى الحادى والعشرين يوما من بوونه فى تسع سنين من ملك ادريانوس الملك(*).

(*) خلا الكرسى بعده ثلاث سنوات بسبب شدة الاضطهاد وعدم تمكن الشعب المسيحى من انتخاب خليفة له.

حاجب (koitônitês = cubicularius) عند غرفة نومه. وإليه كانت ترفع الشكاوى. وكان يتمتع بحق مصادرة الأملاك، وإصدار حكم الإعدام حتى فى حالة جريمة غير خطيرة كإغفال ارتداء الملابس البيضاء فى حفلة هامة، أكبر الظن أن الوالى أمر بإقامتها فى مسرح ديونيسوس ابتهاجاً بعيد ميلاد تراجان. ويعرّف الفقيه أولبيانوس هذا الحق فى كتاب الجامع (Digesta) بحق السيف (ius gladii)، ويشفعه بحق الحكم على المذنبين بالأشغال الشاقة فى المناجم والمحاجر (damnare in metalla). ويتبين أيضاً أن الوالى كان يقوم بجولات تفتيشية (epidêmiai) فى شتى أنحاء الوادى. ونحن نعرف من الوثائق الأخرى كيف كانت السلطات المحلية تحرص على الاستعداد لمثل هذه الزيارات فترهق الأهالى بالمطالب أثناءها. وما أعظم الحفاوة التى كان يستقبل بها الوالى، إذ كانت تنظم له المواكب وتلقى الخطب بين يديه وتزين تماثيل الآلهة فى المعابد بأكاليل الزهر احتفاءً بمقدمه، وتقام الحفلات تكريماً له، وتتعالى الأصوات هاتفة باسمه.

وتؤيد البردية ـ بردية محاكمة مكسيموس ـ ما توصل إليه العلامة فيلكن من أن الوالى، بوصفه المهيمن على شئون العدل، كان يعقد مجلسه القضائى (conventus) ثلاث مرات فى السنة: مرة فى بيلوزيون للنظر فى قضايا أقاليم شرق الدلتا (يناير)، ومرة فى ممفيس للنظر فى قضايا أقاليم مصر الوسطى والعليا (فبراير ـ مارس/ أبريل)، ومرة فى الاسكندرية للنظر فى قضايا أقاليم غرب الدلتا (يونيو ـ يوليو). على أنه لم يكن ثمة ما يمنع من إعلانه مقدماً

ابريموس البطرك
وهو الخامس من العدد
١٠٩ / ١٢٢م

وبعد هذا كان فى شعب المسيح الارتدكسى انسان اسمه ابريموس وكان عفيفا كالملايكه ويفعل افعالا حسنه بنسك فتشاورو عليه واخذوه واوسموه على الكرسى الانجيلى بطركا فاقام اثنى عشر سنه وكانت السلامه فى البيعه فى ايامه وتنيح فى التالت من مسرى فى

عن عقد مجلسه القضائى فى أماكن أخرى من الدلتا مثل هرموبوليس برفا (دمنهور) أو نقراطيس (كوم جعيف). أو حتى فى بلدة صغيرة مثل كسويس (Xois) (سخا)، أو فى أماكن أخرى إلى الجنوب من ممفيس مثل أرسينوس (مدينة الفيوم) وأكسيرينخوس (البهنسا). وأنتينوبوليس (الشيخ عباده) وكبتوس (قفط) وما وراءها. وكان ذلك للتيسير على المتقاضين من سكان الصعيد وتجنيبهم مشاق السفر الطويل إلى الدلتا.

وينبغى التنبيه إلى أن مجلسه لم يقتصر على الفصل فى القضايا، بل كان ينظر أيضاً فى مسائل إدارية ومالية كمراجعة التقارير وفحص كشوف الضريبة المقدمة من موظفى الأقاليم. وفى الحق أن الكلمة اليونانية التى تدل على هذا المجلس تعنيى أصلاً مراجعة الحسابات أو موازنتها (dialogismos). ويحدثنا المؤرخ تاكيتوس «بأن أغسطس المؤله كان قد أمر بأن يكون للفرسان الذين يحكمون مصر سلطة الفصل فى القضايا وأن تعتبر أحكامهم كأنها قد صدرت عن الحكام الرومان» ، والمقصود هنا ليس فقط حكام روما القضائيين (praetores) والقناصل (consules) بل كذلك نوابهم من حكام الولايات. ويقول الفقيه أولبيانوس أن والى مصر لم يكن له أن يتنحى عن ولايته وسلطته (imperium) قبل أن يدخل خلفه لا مصر فقط بل الإسكندرية نفسها، ويضيف هو أو شارحه «أن هذه السلطة التى منحت بمقتضى قانون فى زمن أغسطس كانت شبيهة بسلطة القنصل». ولا ينبغى أن ننسى أن منصب والى

خـامس سنه من ملك ادريانوس الملك ودفن مع ابايه.

يستس البطرك
وهو السادس فى العدد
١٢٢ / ١٣٠م

وبعد هذا اجتمع الشعب ووقع اختيارهم على انسان فاضل حكيم منهم اسمه يستس فوسموه بطركا واقام احدى عشره سنه [فى هدو وسلامه لايمل من الوعظ والتعليم] وتنيح فى التانى عشر

بمصر (praefectus Aegypti) كان فى أول الأمر ـ على نحو ما ذكرناه ـ أعلى منصب فى سلك وظائف الفرسان، أى أعلى من منصب قومندان الشرطة (praefectus vigilum) ومدير التموين (praefectus annonae)، وقائد الحرس البريتورى (praefectus praetorio)، وبعدئذ أصبح، منذ عصر أسرة فلافيوس، يلى المنصب الأخير. الذى كان كثير من ولاة مصر يرقون إليه بعد أن أصبح من أخطر مناصب الإمبراطورية.

لكن على الرغم من أن السلطة العليا تركزت فى يد الوالى، العسكرية منها والإدارية والقضائية ـ بغض النظر عما كان فى يد بعض كبار الموظفين المركزيين من سلطات محدودة للفصل فى قضايا معينة ـ فإن هذه السلطة لم تكن مطلقة. وإذا كان حقاً أنه تمتع بسلطة (imperium) شبيهة بسلطة نائب القنصل (حاكم الولاية السناتورية) فإن سلطته هذه كانت خاضعة لسلطة أغسطس التى كانت أكبر (imperium maius) من سلطة حكام الولايات. وكان ذلك أظهر ما يكون فى مصر التى كان واليها لا يعين إلا بأمر الإمبراطور، وكان بمثابة نائبة فيها ويستمد سلطته منه ويعتبر مسؤلاً أمامه وحده. وقد اختار أكتافيانوس ولاة مصر لا من بين هيئة السناتو بل من بين هيئة الفرسان حتى يربطها بالبيت المالك ربطاً وثيقاً ويحكم سيطرته عليها «فمنذ أيام أغسطس المؤله تولى مصر والقوات اللازمة لاخضاعها، فرسان رومان فى منزلة الملوك. هكذا رأى من المصلحة أن يضع تحت سيطرته (المباشرة) ولاية عسيرة

من بوونه فى سادس عشر سنه من ملك ادريانوس ودفن مع ابايه.

اومانيوس البطرك

وهو السابع من عدد الابا

١٣٠/ ١٤٢م

وبعد ذلك وسمو اوما نيوس بطركا على كرسى اسكندريه فاقام تلات عشره سنه يرضى الله والشعب وتنيح فى العاشر من بابه فى السنه السادسه لانتونيس الملك.

المدخل، وفيرة الغلال، متنافرة الأهواء، سريعة الهياج لايمانها بالخرافات وميلها للفوضى، جاهلة بالقوانين، ولا دراية لها بالحكام».

لقد اختار الفرسان ـ كما قدمنا ـ لأن ثقته فيهم كانت أكبر من ثقته فى رجال السناتو الأرستقراطيين الذين قد يدفعهم الطموح إلى الإستقلال بمصر اعتماداً على مواردها الوفيرة وصعوبة غزوها. ومن ناحية أخرى فإن الفرسان كانوا، بحكم خبرتهم العملية فى الشئون المالية والتجارية، وممارستهم لمنصب مدير التموين قيل مجيئهم إلى مصر مباشرة، أقدر من رجال الطبقة الأخرى على إدراك الأهمية الاقتصادية وتفاصيل الإدارة فى بلد بيروقراطى مثل مصر لم يعرف القوانين بالمعنى الذى عرفه بها الرومان، إذ كان يحكم من قبل بالمراسيم الصادرة من التاج، ولم يألف الحكام المنتخبين على يد الشعب والمسئولين أمامه، بل كان يألف الموظفين الخاضعين للملك المؤله خضوعاً تاماً. وفى الحق أن الوالى لم يكن يزاول سلطته إلا وفقاً للقواعد العامة التى يستنها الإمبراطور. وكان احتفاظه بمنصبه مرهوناً بمشيئة سيده. وقد عزل أغسطس كورنيليوس جاللوس، أول والٍ على مصر، لأن هذا الرجل تملكه الزهو فتجاوز حدود منصبه. وبغض النظر عن النصب الذى أقامه جاللوس فى جزيرة فيلاى ـ أنس الوجود مفاخراً فيه بانتصاراته، فلم نعثر فى مصر على نصب أقيم لتكريم والٍ دون أن يكون اسمه مقروناً باسم الإمبراطور الذى أوفده. وعندما غضب كاليجولا على فلاكّوس سواء لسوء

مركيانوس البطرك
وهو التامن من عدد الابا
١٤٢ / ١٥١م

فلما مضى البطرك المذكور اجتمع الشعب واخذوا انسانا محب لله اسمه مركيانوس واوسموه بطركا واجلسوه على كرسى البشير مارى مرقس واقام تسع سنين وشهورا بسيرة عجيبه و تنيح في اليوم السادس من طوبه في السنه الخامسه عشره لانتونيس الملك.

تصرفه أثناء فتنة عام ٣٨ أم لغير ذلك من الأسباب، أرسل إلى مصر قوة نزلت بالإسكندرية ليلاً وألقت القبض على الوالى.

وقليل هم الولاة الذين بقوا فى منصبهم مدة طويلة. فقد تبين من دراسة الوثائق البردية أن متوسط طول فترات الولاية على مصر فى زمن الرومان لم يزد على ثلاث سنوات وبضعة أشهر، وهى مدة ـ وإن كانت أطول من مدة الولاية فى عصر الجمهورية ـ إلا أنها كانت قصيرة بالقياس إلى طول عهود الأباطرة. ولا ريب فى أن ذلك كان جزءاً من سياسة مرسومة القصد منها أن لا تمتد ولاية حاكم طموح امتداداً قد يغريه بتوطيد مركزه ومناوأة روما نفسها. وغالباً ما كان الوالى يتغير بتغير الإمبراطور، لأن العاهل الجديد كان يفضل أن يرشح للولاية صديقاً حميماً أو تابعاً شديد الولاء له.

ولقد ذكرت أن سلطة الوالى لم تكن مطلقة، إذ أن الرسائل (epistulae) والفتاوى (rescripta) والتعليمات (mandata) الصادرة من الإمبراطور كانت تنظم مهامه وتحددها من وقت لآخر. فالإمبراطور هو الذى كان يحدد قيمة الضرائب التى ينبغى جبايتها من مصر فى سنة معينة، ولم يكن للوالى أن يعفى أحداً من الخدمات الإلزامية (leitourgiai) إلا بمقتضى الشروط التى استقرت بتعاقب الأباطرة. ولعل القارىء يذكر كيف آخذ الإمبراطور تيبريوس الوالى الذى أرسل إلى روما مقداراً من الجزية أزيد مما قرره، مذكراً إياه بأنه أوفده إلى

كلاديانوس البطرك

وهو التاسع من عدد الابا

١٥١ / ١٦٧م

وكان فى تلك الايام فى الشعب انسان محب لله اسمه كلاديانوس فاجتمع الشعب والاساقفه الذين كانو فى اسكندريه فى تلك الايام واخذوه ووسموه بطركا على الكرسى الانجيلى. وكان محبوبا من جميع الشعب، واقام اربع عشره سنه

مصر ليجز صوفها لا ليسلخ جلدها. وقد كان هناك من المسائل ما ينبغى الرجوع فيها إالى الإمبراطور ليبت فيها بنفسه ويصدر قراراته النهائية. ويتضح ذلك من عبارة وردت فى المنشور الخطير الذى أصدره الوالى تيبريوس يوليوس الإسكندر فى ٦ يوليو عام ٦٨ مشيراً فيه إلى الإجراءات التى وعدت الحكومة باتخاذها للقضاء على ما تفشى فى البلاد من فساد وظلم. وفى الجزء الأخير من هذا المنشور يقول الوالى «وأما عن متأخر الضريبة القديم ـ إذ أن شكاواكم تنصب على ذلك الذى أراد البعض تحصيله كاملا بانتظام أو تحديده تحديدا نهائيا فلم ينجم عن عملهم شيء فى الغالب سوى اثراء الموظفين وخراب بيوت الناس ـ فسوف أكتب ـ ضمن أشياء أخرى ـ الى قيصر أغسطس الامبراطورا (جالبا)، لأنه هو وحده الذى يستطيع أن يستأصل مثل هذه المفاسد استئصالا تاما».

وقد سبق أن ذكرت ما يفهم منه أن الوالى كان يملك وحده حق عقد المجلس القضائى (conventus). لكن ينبغى أن أضيف أنه إذا زار الإمبراطور مصر انتقلت إليه سلطة الوالى القضائية. وكان مجلس الإمبراطور المؤلف من المستشارين المرافقين له هو الذى ينظر فى القضايا ويصدر الأحكام. كما كان الإمبراطور، لا الوالى ـ فيما يرجح ـ هو الذى يصدر الفتاوى (rescripta) سواء فى صورة توقيعات (subscriptiones) أو رسائل (epistulae) إلى الأفراد فيما يعرضونه عليه من قضايا كتلك القرارات أو الفتاوى (apokrimata) التى أصدرها الإمبراطور سبتميوس سفيروس وعلقت فى رواق معهد التربية بالإسكندرية عندما زار

من ملك اوراليـــاس والارياس ولدى الملوك، وتنيح في التاسع من ابيب وكفن ودفن مع ابايه البطاركه المقدم ذكرهم.

اجريينوس البطرك
وهو العاشر من العدد
١٦٧ / ١٨٠م

ثم ان الشعب اجتمعو ايضا باتفاق وجعلو ايديهم على انسان من الشعب خايف من الله

المدينة فى نوفمبر عام ١٩٩ (ــ ٢٠٠). وبالإجمال فإن الوالى لم يكن له أن يتخذ قراراً فى أى شأن من الشئون الإدارية لا يتفق وسياسة الإمبراطور. صحيح أن الأخير غالباً ما كان يمارس سلطته فى مصر عن طريق نائبه، غير أنه مارسها فى بعض الأحيان دون وساطته. وإذا كان الوالى فى نظر سكان مصر حاكماً مطلق السلطان، فإنه كان فى نظر الإمبراطور خادماً عليه تنفيذ أتفه رغبات سيده.

وثمة نقطة أخرى تزيدها «محاكمة مكسيموس» وضوحاً، وهى أن سكان مصر بوجه عام لم يكن فى وسعهم الاتصال بالإمبراطورو الرومانى إلا عن طريق الوالى. ونحن نعرف من بعض النصوص التاريخية والوثائق البردية أن الوالى هو الذى كان يملك وحده حق التصريح للأفراد بدخول البلاد ومغادرتها. وقد أحكمت رقابة مداخل مصر ومخارجها إحكاماً شديداً إلى درجة أنه كان يتعذر على أى شخص مبارحتها دون علم السلطات. ففى البردية المعروفة باسم بردية القواعد المالية (P.Gnomon) لمراقب الحسابات الخاصة (Idios Logos)، والتى تعد أهم وثيقة فى دراسة السياسة الاقتصادية والأوضاع القانونية فى مصر على أيام الرومان، نجد عدة مواد تنص إحداها صراحة على أن المسائل المتعلقة بمغادرة مصر عن طريق البحر بدون جواز بالسفر (apostolos) تقع تحت طائلة سلطة الوالى. وتنص مادة أخرى على أن الأشخاص الذين يجوز لهم مغادرة مصر بحراً، إذا غادروها دون الحصول على جواز بالسفر، تصادر كل أملاكهم؛ ومادة ثالثة تقول إن رومانياً غادر البلاد بحراً دون أن يحصل على أوراق

اسمه اجرbينوس، ووسموه بطركا و اجلسوه على الكرسى الانجيلى واقام اثنتى عشره سنه وتنيح فى الخامس من امشير فى السنه التاسعه عشره من ملك الملوك المذكورين.

يوليانوس البطرك

وهو الحادى عشر من العدد

١٨٠ / ١٨٩م

كان انسان قس حكيم قد درس كتب الله اسمه

السفر مستوفاة، فغرم عدداً معيناً من التالنتات، وهى غرامة باهظة على أى حال. ولدينا طلب طريف تقدمت به سيدة تدعى أوريليا مايكيانا إلى والى مصر، فاليريوس فيرموس، فى عام ٢٤٦ ملتمسة منه أن يكتب إلى مدير ميناء فاروس (رأس التين) لكى يسمح لها بالخروج من البلاد وفقاً للعادة المتبعة. ولا ندرى أكانت أورليليا فى زيارة لبعض أقاربها فى مصر أم كانت مقيمة فيها وتطلب تصريحاً بالسفر لزيارة أهلها فى موطنها الأصلى ببلدة سيدى (Sidê) فى إقليم بامفيليا (بآسيا الصغرى). وعلى أى حال فإن الطلب يرد فى ذيله تأشيرة للوالى مكتوبة باللاتينية وتتضمن الإذن بالسفر أو ما يقابل جواز السفر. وإذ كان الوالى هو الذى يرفع الشكاوى إلى الإمبراطور فقد كان فى وسعه أن يعرقل وصولها إليه إذا شاء.

ففى بردية من «أعمال الشهداء السكندريين» ما يفيد بأن الوالى كان يحول دون إبلاغ الإمبراطور شكاوى مواطنى الاسكندرية. وقد ورد على لسان محامى الإتهام فى قضية مكسيموس أن الإمبراطور لم يحط علماً بالرسائل (أى الشكاوى) التى كتبها الإسكندريون إليه. ولم يكن مرد ذلك ـ كما يزعم الوالى ـ إلى أن تراجان كان متغيباً (فى حرب داكيا الثانية عام ١٠٥ ـ ١٠٦)، بل أكبر الظن لأن الوالى احتجزها فى مكتبه حتى لا تبلغ مسامع سيده(*).

(*) انظر: مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية. د. عبداللطيف أحمد على. دار النهضة العربية. القاهرة. ١٩٦٥.

يوليانوس سالكا فى طريق العفاف والتدين والهدو، فاجتمع جماعه اساقفه من السنودس والشعب الارتدكسى بمدينة اسكندريه وبحثوا عن جميع الشعب فلم يجدوا مثل هذا القس فجعلو ايديهم عليه و اوسموه بطركا، فوضع ميامر ومقالات للقديسين واقام عشر سنين. ومن بعد هذا البطرك لم يقم اسقف اسكندريه فيها بل صار يخرج سرا ويوسم كهنه فى كل مكان كمارى مرقس الانجيلى. وتنيح المذكور فى اليوم التامن من

الامبراطورية الرومانية حتى اعتزال دقلديانوس

فى ستينيات القرن الأول الميلادى ثار اليهود فى جودايا ثورة عارمة غير أن جيوش الامبراطورية بقيادة تيطس Titus استطاعت أن تقضى على هذا التمرد. وأن تدمر الهيكل وأن تذبح اعداد كبيرة منهم، وفرض الامبراطور فسباسيان Vespasanus (٦٩ ـ ٧٩) على كل يهودى أن يحول الضريبة التى كان يدفعها للهيكل فى أورشليم الى الهيكل الامبراطورى فى روما. غير أن اليهود ما لبثوا أن جددوا ثورتهم ضد روما مرة أخرى فى عامى ١١٥ ـ ١١٦، وشملت الثورة هذه المرة مناطق عدة من الامبراطورية خاصة فى برقة ومصر وقبرص وأرض الجزيرة ولكن الامبراطور هادريان Hadrianus أخمد بلا هوادة هذا التمرد الخطير، وأصدر فى سنة ١٣١ مرسوما يحرم الختان أو الاحتفال بأى عيد من أعياد اليهود أو إقامة أى طقس من الطقوس اليهودية علانية، وفرضت ضريبة شخصية جديدة وباهظة، وحرم عليهم دخول بيت المقدس الا فى يوم واحد فى العام ليسمح لهم فيه بالمجئ للبكاء أمام خرائب الهيكل.

وهكذا شتت اليهود فى كل ولايات الامبراطورية الرمانية، ونظر اليهود الى ماضيهم فألفوا أنفسهم وقد تعرضوا لتاريخ طويل من الاذلال والشتات، بدأ بالاشوريين فالبابليين فالفرس فالاغريق ثم فى النهاية الرومان، ومن ثم تولد لدى اليهود كبير أمل، وتوقع محدد صريح أن الههم لابد وأن يخلصهم يوما ما من هذه التبعية السياسية للسيد الأجنبى . وكان التفكير

---

١١ : يوليانوس ١٨٠/١٨٩م



برمهات وقيل فى تانى عشر بابه فى السنه الخامس من ملك سوريانوس الملك.

ديمتريوس [الاول] البطرك

وهو من العدد الثانى عشر

١٨٩ / ٢٣١م

وعند وفاة يوليانوس البطرك جا اليه ملاك الرب فى منامه ليلة وفاته وقال له: الذى يدخل لك فى غد بعنقود عنب هو البطرك بعدك، فلما اصبح جا اليه رجل فلاح متزوج لا يقرا ولا يكتب اسمه

السائد ـ حسبما جاء فى نبوءات أنبياء بنى اسرائيل[١] أن الوسيلة الوحيدة لذلك هو أن يرسل يهوه مسيحا خصيصا لهذا الغرض، يخرجهم من الظلمات الى النور ويعيد لهم على الأرض مملكة داود وسليمان، ويحقق لهم عهداً جديداً من السلام والرخاء، ومن القوة والعظمة، وينهى بقوته والى الأبد حالات الحزن والقنوط والتبعية والاذلال، وأن يهوه لابد وأن يعيد الى شعبه ميراثه الصحيح ووضعه المرموق.

غير أن اليهود أصيبوا بخيبة أمل بالغة عندما جاءهم المسيح يزين لهم ملكوت السماوات. ويعدهم وعدا حسنا فى الدار الآخرة، وأدرك رجال السطوة والنفوذ فيهم من الصدوقيين والفريسيين والكتبة ومختلف الطوائف الأخرى، وأعضاء مجلس السنهدرين اليهودى [٢] أن

---

(١) جاء فى سفر أشعياء (٦/٩ ـ ٧) لأنه يولد لنا ولد، ونعطى ابنا، وتكون الرياسة، ويدعى اسمه عجيبا مشيرا الها قديرا أبا أبديا، رئيس السلام، لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسى داود وعلى مملكته ليثبتها وبعضدها بالحق وبالبر من الآن الى الأبد.

وجاء أيضا فى نفس السفر (١/١١ ـ ٢) «ويخرج قضيب من جذع يسى، يثبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب».

(٢) هو المجلس الأعظم المكون من كبراء اسرائيل ، ويظن أنه نشأ فى أثناء حكم السلوقيين (حوالى عام ٢٠٠ ق. م.). وكان الحاخام الأعظم هو الذى يختار فى بادئ الأمر أعضاء المجلس من بين طبقة الأشراف الكهنوت ، ويضم المجلس واحداً وسبعين عضوا يدعون لأنفسهم السلطة العليا على جميع اليهود أيا كان موطنهم، وكان اليهود المستمسكون بدينهم فى كل مكان يعترفون لهم بهذه السلطة.

ديمتريوس، وكان قد خرج يقلم كرمه فوجد فيه عنقود عنب فى غير زمان العنب فجا به الى البطرك فقال يوليانوس البطرك للشعب الذين حاضرين عنده: هذا بطرككم كما قال لى ملاك الرب البارحه. فأخذوه قهرا وقيدوه بقيد حديد، وتنيح يوليانوس فى ذلك اليوم فكرزوا ديمتريوس بطركا وحلت عليه النعمه الالهيه.

وكان يشبه يوسف بن يعقوب لانه كان متزوجا، وكان افضل من يوسف لانه كان تزوج

مكانتهم الى نهاية، وأن نفوذهم لا محالة ضائع. ومن ثم كفروا بالمسيح وبما جاءهم به، ونالوا منه ومن دعوته وأتباعه، وراحوا يؤلبون عليه وعليهم جميعا شعب الرومان والحكومة. وبذلك لقى المسيحيون من اليهود كبير عنت.

أما المجتمع الرومانى فكانت نظرته الى المسيحية تختلف باختلاف الطبقة التى ينتمى اليها هذا البعض أو ذاك، هذا بالأضافة الى موقف السلطات ذاتها، فالطبقة المترفة كانت تعتقد أن المسيحية تهدد كيانها بما تحمله من تعاليم تدعو الى المساواة والأخذ بيد الفقراء، والتصدق بالأموال وعدم اكتنازها، واحتقار الحياة الدنيا وملذاتها [١]، وهى مظاهر لم يألفها الرومان فى تلك الأعصر. ومن ثم أتهمت هذه الطبقة المسيحية بأنها تعمل على تبديد الثروات التى جمعوها بطرق مشروعة أو غيرها، وراحوا ينظرون اليها بعين الشك والارتياب.

ولم تكن الجموع الرومانية فى حاجة الى من يثير عاطفتها ضد هذه الدعوة الجديدة وأتباعها، وكان الذى أدى الى هذا الاتجاه هو ذلك الموقف الخاص النابع من المسيحية . ففى الوقت الذى لم يكن لدى روما فيه أى تعصب فى الوصول الى اتفاق معين يتوافق مع

(١) حفل العهد الجديد بالآيات العديدة الدالة على ذلك، «لاتكنزوا لكم كنوزا على الارض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون» (متى ١٥/٦)، «ا ن اردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء» (متى ١٩ /٢١، مرقس ٢١/١٠)، «مرور جمل من ثقب أبرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله » (مرقس ٢٥/١٠).

ولم يعرف امرأته، واذا قال قايل: كيف يجوز ان يكون بطرك متزوجا. نقول لهم قد قال التلاميذ فى قوانينهم ان الاسقف اذا كان متزوجا بامرأه واحده فلا يمنع من ذلك لان الزوجه المومنه طاهره وفراشها طاهر و لا ذنب عليه. والبطرك فهو اسقف مدينة اسكندريه وله الرياسه على ا ساقفة اعمالها لاجل انه خليفة مارى مرقس الرسول البشير فيها بشرى بالانجيل، ولهذا وجب ان يكون حكم اسقف اسكندريه على جميعها. وكان

العبادات الأجنبية الأخرى. وكان مذهب تعدد الآلة على استعداد لأن يقبل فى البانثيون الرومانى ألهة جددا، وتجلى ذلك فى أن آلهة الشرق كانت تقام لها الاحتفالات والأعياد كما لو كانت أى اله رومانى، وبينما كان البانثيون لا يرضى طواعية باله واحد، بدأت المسيحية ديانة توحيدية، وقد أظهر هذا الاله نفسه فى «العهد القديم» غير متسامح البتة مع الآلهة الأخرى. ولم تكن المسيحية التوحيدية ترضى بحل وسط يمكن استخدامه مع الديانات المتعددة الآلهة فى الامبراطورية الرومانية أو غيرها، بل يجب فى ـ نظرها ـ الا يكون هناك تسامح مطلقا لا معها ولا مع اتباعها.

وبناء على هذا المعتقد لدى المسيحيين، عزل هؤلاء أنفسهم عن المجتمع الرومانى وأنشطته المختلفة، فلا هم يشتركون فى حفلاته وندواته العامة، ولا هم يختلطون بالرومان ويندمجون فيهم، بل اغلقوا على أنفسهم باب العزلة فى ظل التعاليم التى اشاعها أباء المسيحية الأول من فساد الحياة الدنيا وغوايتها ووجوب الزهد، وأن من اتبع هواه وأطلق لنفسه وشهواته العنان فى هذه الدنيا فقد ضل وغوى، وأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى وسار فى طريق المسيح وتحمل الآلام والتعذيب، واحتقر الحياة الدنيا. فسوف يلقى جزاء الحسنى بأن يكون رفيق المسيح فى السماوات العلا. ولقد كانت هذه المحاولة لاقامة مجتمع من الاخيار بين الأخوة، والدفاع العنيف عن حياة التبتل، تجرى فى تيار مخالف تماما لما كانت عليه الحال فى تلك الفترة.

١٢: ديمتريوس ١٨٩/٢٣١م

الشعب يحب هذا البطرك ويقولون انه التانى عشر من مرقس البشير وكلهم غير متزوجين الا هذا، وكانوا يحسرون عليه.

وكان له موهبه من الله، وذلك انه كان اذا كمل القداس، ومن قبل ان يقرب احدا من الشعب، ينظر السيد المسيح يدفع القربان بيده فاذا تقدم انسان لا يستحق ان يتناول السراير(*) اظهر له السيد المسيح ذنبه ولا يقربه، فيعرفه سبب فعله ويعترف بخطيته ويونبه عليها ويقول له تنح عن

(*) السرائر المقدسة رتب الكنيسة القبطية سر الاعتراف منذ العصور الأولى. كما أنه مازال يعقد حتى اليوم انطلاقا من

ولما كان زعماء المسيحيين يحضونهم على أن يتجنبوا غير المسيحيين، وأن يبتعدوا عن الألعاب الهمجية التى يقيمونها فى أعيادهم والايغشوا دور تمثيلهم لأنها مباءة فجور، فقد بدا اعتزال المسيحى للشئون الدنيوية وكأنه هروب من الواجبات المدينة وضعف للروح القومى والارادة القومية. وقد جاء هذا الاعتزال أيضا نتيجة لما كان يعتنقه المسيحيون من أن الحياة الأرضية أضحت غير ذات بال، والمسيحيون فيها غرباء، فموطنهم الأصلى هو السماء، انهم مواطنون فى مملكة الله الآتية. وكانت الكنيسة الأولى تعتقد باخلاص فى قرب مجئ ملكوت السماوات، ومن ثم لم تقدم شيئا لهذا العالم الذى تعيش فيه، بل ركزت كل جهدها للاستعداد للحياة الآخرة.و لما كان قد حرم على المسيحى أن يتزوج بغير مسيحية، وعلى المسيحية الا تقترن بغير مسيحى، ا تهم المسيحيون بأنهم بذلك يبذرون الشقاق فى المجتمع، واتهم الدين المسحى بأنه يعمل على تشتيت الأسر وخراب البيوت، ومما أكد هذا الاتهام أيضا أن حماس المسيحيين فى تلك الآونة كان يدفع الواحد منهم، تبعا للتعاليم المسيحية الى أن يهجر عائلته وأرضه فى سبيل ايمانه، وأن يشترك فى وحدة مع جماعته المسيحية الجديدة. واتهم المسيحيون بالتعالى والتكبر على بقية أفراد المجتمع لأنهم كانوا يضعون الصعوبات فى وجه تناول الطعام خارج دورهم، حيث أن معظم اللحوم فى الحوانيت مضحى بها أصلا للآلة الأخرى . وكان اظهار الشماتة من جانب المسيحيين اذا ما حل بالامبراطورية مكروه، وما أذاعوه

خطيتك التى تفعلها وحينذ تاتى لتاخذ السراير المقدسه.

و اقام على هذا مده طويله حتى ان المومنين كانو باسكندريه لا يخطون خوفا من هذا البطرك لئلا يفضحهم، وكان كل واحد من المومنين يقول لصديقه او قريبه اياك ان تخطى لئلا يفضحك البطرك قدام الشعب.

وكان بعض الناس يقول: هذا رجل متزوج فكيف يوبخنا و قد وصم هذا الكرسى لانه ما كان

ثبات المبدأ ولسنا فى حاجة للقول بأن المبدأ والممارسة قد اختلطا فى مسائل عديدة على مدى التاريخ القبطى. وقد قيل ان الأنبا يوحنا البطريرك الثانى والسبعون الذى عاش خلال القرن الثانى عشر قد ألغى هذا السر. وحوالى سنة ١١٧٤ قام مرقس ابن القنبرى بعمل جولة عظيمة فى ربوع مصر معلما بأنه لا غفران للخطايا بدون الاعتراف،. وقبل ذلك بحوالى قرنين تحدث الأنبا ساويرس البطريرك الخامس والخمسون فى هذه

من تنبؤات صريحة عن الكوارث والمحن التى تنتظر الامبراطورية، كل ذلك أوحى الى الرومان بانطباع معين عن خطر متوقع من وراء هذه الطائفة.

وبهذا السلوك أدرك جموع الرومان أنهم ازاء جماعة منعزلة تأبى الاشتراك فى الحياة العامة بل وتزدريها وترفض الانخراط فيها، ولا تؤدى أى خدمة للمجتمع الذى فيه تعيش، و من ثم كان سخط الرومان ومعارضتها للدين الجديد أشد من سخط الأباطرة أنفسهم فى بادئ الأمر.

ولم يكن ارتياب الأباطرة الرومان فى المسيحية بأقل منه عند هذه الفئة أو تلك، بل أخذ يزداد بمرور الزمن حدة وصرامة، كانت المشكلة الجوهرية التى أقلقت بال الأباطرة، وزادت من حدة النزاع بينهم وبين المسيحيين هى رفض مشاركة هؤلاء بقية الرومان عبادة الامبراطور وتأليهه ، وتقديم القرابين لتمثاله وحرق البخور أمامه فى المناسبات العامة، وكان احراق البخور أمام تمثال الامبراطور قد أصبح رمزا للولاء للامبراطورية وتوكيدا لهذا الولاء.

وقد آلم الأباطرة كثيرا أن يجدوا المسيحيين لا يشتركون فى تقديس ذواتهم ، وكانت المسألة بالنسبة للمسيحيين غاية فى الأهمية لانها تتصل بجوهر العقيدة المسيحية ذاتها، وكانوا يشعرون أنهم بعبادتهم آلهة الدولة، واعترافهم بالوهية الحاكم سوف يخرجون عن هذه العقيدة التوحيدية الى صفوف الوثنيين، وكانت الكنيسة ترى فى عبادة الامبراطور ضربا من الشرك

١٢: ديمتريوس ١٨٩/ ٢٣١م

النقطة بوضوح لأنه كتب فى خطاب حل لشماس معين ـ ما يلى:

«حلت أربطة هذه الشماس بكلمتى، ولذلك لا يوجد سبب يستدعى أن يعوقه أحد من المؤمنين عن التقدم للتناول». وبعد ذلك أعلن رأيه بأن من يتقدم للتناول بدون اعتراف بخطيئته فانه يجعل خطيئته أعظم».

ويتم الاعتراف أمام الكاهن فقط وقد تجدد فى أيامنا هذه بأن يكون القمص أو كبير الكهنة هو الذى

يجلس عليه الى اليوم الا بتول[أعزب]. وبعض الناس كان يقول: ما هذا شى ينقصه لان التزويج طاهر نقى قدام الله. فاراد الله ان يظهر فضايله حتى يتمجد ولا يدع هذا السر العظيم مخفيا كما قال فى انجيله المقدس من فيه [فمه] الطاهر: لا تستطيع مدينه تخفى وهى على جبل. فاظهر لهذا البطرك فضايله ليزداد شعبه به صلاحا. وذلك انه اتاه فى بعض الليالى ملاك الرب وقال له: يا ديمتريوس لا تطلب خلاصك وتدع قريبك واذكر

وعبادة الأصنام، وبذلك أمرت أتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما تعرضوا له من الاذى بسبب هذا الرفض. لقد كان ولاء المسيحيين لدينهم فوق ولائهم للدولة.

كان فى وسع المسيحيين أن يصلوا من أجل الامبراطور ولكن ليس للامبراطور، وأن يدعوا للامبراطورية وأن أبوا أن يحاربوا من أجلها. ذلك أن المسيحيين فى بادئ الأمر كانوا يرفضون الاشتراك فى الخدمة العسكرية للدفاع عن الامبراطورية، فهم بأدائهم العمل العسكرى ينخرطون فى العبادة الوثنية، وباعتبارهم جنود الرب فانهم لم يكونوا يستطيعون اعطاء ولائهم لقوة أخرى كانوا فى كثير من الأحيان يساوونها مع الشيطان، فالمسيحى كان يدين بالولاء للمسيح لا لقيصر، ويعظم أسقفه أكثر مما يعظم الحاكم الرومانى، ويعرض ما يقع بينه وبين زملائه المسيحيين من مشاكل قانونية على رؤساء الكنيسة لا على موظفى الدولة.

فاذا اضفنا الى احتقار المسيحيين لآلهة الدولة، ورفضهم عبادة الامبراطور، وامتناعهم عن الاشتراك فى الخدمة العسكرية، اذا اضفنا الى ذلك كله رفض أثريائهم قبول تولى المناصب العامة فى ا لدولة مما عد تهربا من تحمل مسئوليات المجتمع الذى يحتويهم، أدركنا الى أى حد كان الأباطرة ينظرون الى هذه الطائفة بعين ملؤها الشك والارتياب.

ونتيجة لهذه النظرة التى أحيط بها المسيحيون راحوا يلتقون خفية ويعقدون اجتماعاتهم فى سرية، مما زاد الطين بلة ، وأوقع بهم تحت دعوى الاتهام بأنهم جماعة سياسية خطيرة يخشى

ما قاله الانجيل: ان الراعي الصالح يبذل نفسه عن خرفانه. فقال ديمتريوس للملاك: يا سيدى عرفنى ما تأمرنى به فان كنت تريد ترسلنى للشهاده فانا مستعد ان يسفك دمى على اسم المسيح. فقال له الملاك: اسمع منى يا ديمتريوس واعلم ان السيد المسيح انما تجسد ليخلص شعبه وما يجب لك الان ان تخلص نفسك فقط وتدع هذا الشعب يشك فيك. قال دمتريوس: وما خطيتى الى الشعب يا سيدى عرفنى لكى اتوب عنها. فقال له الملاك:

يمنح الحل. وبعد سماع الاعتراف يأمر بالتأديبات الكنسية التى يراها مناسبة، ويجب اتمام هذه التأديبات قبل منح الحل. ولا يعتبر الاقرار العام بالخطيئة كافياً، كما أن الكاهن لا يستطيع تحديد التأديب المناسب للخطيئة المختفية خلف التعبيرات العمومية وقيل أنه عندما الغى الأنبا يوحنا هذا الطقس اعتبر أن الاعتراف الصامت أثناء انطلاق سحب البخور بمثابة بديل للاعتراف الصريح بالذنب. وقد أنتشرت نفس هذه العادة

بأسها على سلامة الدولة، خاصة وان قيام هيئة دينية تجمعهم منفصلة عن الدولة كان يعد شيئا غريبا تماما عن الفكر الرومانى عندئذ، فتبعا للنظم التى كانت سائدة فى العصرين الجمهورى والامبراطورى، كانت مجموعة واحدة من الحكام أو الموظفين تختص بالشئون المدنية والعسكرية والدينية على السواء، وما دام المواطن الرومانى يخضع للعبادات الرسمية للدولة، فقد كان له مطلق الحرية بعد ذلك أن يعتنق ما يريد، ومن ثم لم يكن يسمح للمواطنين باتخاذ عقيدة تتصارع مع السلام الرومانى والنظام العام.

وكان من المستحيل أن تلتقى هذه الفكرة مع عقيدة الكنيسة التى كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة. وكان من المستحيل بالتالى على الأباطرة أن يقبلوا بوجود دولة داخل الدولة.

ونتيجة لذلك غدا المسيحيون فى نظر الرومان ليسوا الا منشقين متآمرين مبتدعين لعبادة جديدة غير مرغوب فيها.وقد أدى ذلك بالمسيحيين الى أن يتعرضوا للاضطهاد لامن جانب الأباطرة الطغاة فحسب، بل من جانب أباطرة خيرين أمثال تراجان وهادريان وانطونينوس بيوس وماركوس أوريليوس.

ويتضح اتجاه الحكومة الرومانية ازاء المسيحيين فى مطلع القرن الثانى من تلك الرسائل التى تبودلت بين بلينى الأصغر Plinius حاكم بيثينا سنة ١١٢ والامبراطور تراجان (٩٧ ـ ١١٧)،

بين الاحبـاش. و لكن هذا الخروج على القانون الكنسى كان مؤقتا، رغم أن تجاهل الاعتراف الصحيح استمر فترة طويلة.

ويقف المعترف أمام الكاهن جاثيا على ركبتيه ومطاطئا رأسه الى الأرض. ويتلو الاثنان معا الصلاة الربانية وبعد تلاوة بعض الصلوات الأخرى يمنح الكاهن الحل للمعترف ويباركه. وأثناء الصلوات يؤدى المعترف ثلاث ميطانيات أمام المذبح وميطانية واحدة أمام أب الاعتراف

هذا السر الذى بينك وبين زوجتك وانك لم تقربها قط اظهره للشعب. قال دمتريوس للملاك: انا اطلب اليك ان اموت قدامك ولا تدع احدا من الناس يعرف هذا. قال له الملاك: يجب ان تعرف ان الكتاب يقول: من لا يطيع فهو هالك. فاذا اصبحت بالغداه بعد فراغ القداس اجمع الكهنه والشعب وعرفهم هذا السر الذى بينك وبين زوجتك. فلما سمع البطرك هذا تعجب وقال: مبارك الرب الذى لا يرفض المتوكلين عليه. ثم

وقد جاء فى رسالة بلينى «أن الطريقة التى اتبعتها مع من اتهموا أمامى بأنهم مسيحيون هى هذه: لقد سألتهم هل هم مسيحيون فاذا اعترفوا بأنهم كذلك أعدت السؤال عليهم مرة أخرى، وأنذرتهم فى الوقت نفسه بأنهم سيقتلون اذا أصروا على قولهم، فاذا أصروا عليها أمرت بقتلهم» وقد جاء فى رد تراجان على بلينى امتداح تصرفه بأنه غاية فى الحكمة، كما أمر الامبراطور بعدم الجد فى البحث عن المسيحيين وعدم السماح لاتهامات مجهولة، ولكن اذا وجد المسيحيون ورفضوا اظهار الولاء للآلهة الرومانية وقعوا بذلك تحت طائلة العقاب، أما هادريان (١١٧ ـ ١٣٨) فقد أرسل الى واليه فى أسيا مينوكيوس الفوندى Minucius Fundanus يأمره أن تعطى للمسيحيين فرصة عادلة للدفاع عن أنفسهم فى محاكمة عادلة، ويجب الا يتعرض أى مسيحى للعقوبة الا بعد التحقق من ذلك، وأرسل أنطونيوس بيوس (١٣٨ ـ ١٦١) الى الجمعية العامة فى افسوس رسالة بهذا المعنى أيضا، ولم يكن اضطهادات المسيحيين فى ليون على عهد ماركوس أوريليوس (١٦١ ـ ١٨٠) استثناء من السياسة العامة التى درج عليها أباطرة القرن الثانى، وكانت الاضطهادات التى وقعت على عهد هذا الامبراطور نتيجة لما حل بالبلاد من كوارث نجمت من الفيضانات والاوبئة والحروب، فساد الاعتقاد بأن سبب هذه النكبات راجع الى الانصراف عن آلهة الرمان وانكارها، وشارك أوريليوس الجماهير فى ذعرها، أو لعله خضع لها فأصدر فى عام ١٧٧ مرسوما يقضى بعقاب الشيع الدينية التى تنشر الاضطراب باستثارة أصحاب العقول غير المتزنة بتلقينها عقائد جديدة.

غــاب الملاك عنه فلمــا كــان بالغــداة يوم عــيــد العنصره قدس البطرك وامـر ريس الشـمـامـسـه ان يعلم الكهنه والشعب ان لا يخرجو من البيعه بل يجـتـمـعـوا عند الكرسى. فـقـال الارشى دياقن للجـمـع: ان البطـرك يقـول لجـمـيـعكم انى اريد مـخاطبتكم فلا يخرج احد منكم حتى يسمع ما اقوله. فلما جلسو امر ان يجمع الاخوه حطبا كتيرا ففعلو ذلك وهم متعجبون قايلون: ماذا يصنع البطرك. فقال لهم: قومو نصلى . فصلو وجلسو

الذى يقبل المعترف قدميه ملتمسا صلواته، ويلى ذلك فـرض التـأديب ولابد من تنفـيـذه بدقـة . ويحكى التائب كافة أفكاره وأفعاله للكاهن. وبعد أن ينفذ التائب كافة التزاماته، يصلى عليه الكاهن صلاة تحليل ثانية، وبعد ذلك يسمح له بالاشتراك فى التناول.

- -

وقد خفت حدة الاضطهاد فى عهد كومودوس Commodus (١٨٠ ـ ١٩٢) وتحسنت أحوال المسيحيين وتمتعت الكنائس بالسلام ولكن سرعان ما عادت الى ما كانت عليه بتولى سبتميوس سفروس Septmuis Severus (١٩٣ ـ ٢١١) عرش الامبراطورية وربما كان ذلك راجعا الى ما تعرضت اليه الدولة من كوارث لحروبه مع البارثيين. وتابع من جديد ماكسيمين قيصر Maximinus ٢٣٥٠ ـ ٢٣٨) سياسة الاضطهاد، وأصدر أمرا بقتل أباء الكنائس باعتبارهم أصحاب المسئولية الأولى عن بث هذه التعاليم، وعلى ذلك كتب أوريجين Origenes اللاهوتى المسيحى الشهير فى القرن الثالث مؤلفه عن الاستشهاد.

هذا الموقف الذى اتخذته الامبراطورية الرومانية تجاه المسيحية حتى نهاية النصف الأول من القرن الثالث كان يتميز بالطابع المحلى. اذا لم يكن هناك قانون عام يسرى فى الامبراطورية بأسرها يحدد معاملة المسيحيين، ولكن ذلك ترك لحكام الولايات أنفسهم حسبما يقضى به الصالح العام للامبراطورية، ورغم هذه الاضطهادات واجراءات القمع التى اتخذت الا أنها كانت متقطعة ومتباعدة، ولم تتخذ الحكومة الامبراطورية اجراءات نشيطة وحاسمة وعامة ضد هذه العبادات المسيحية، وكان هؤلاء الأباطرة الذين أقدموا على الاضطهاد فى تلك الفترة ـ اذا ما قورنوا بأباطرة النصف الثانى من القرن الثالث - غير عنيفين فى اضطهاداتهم، كما أن الكنيسة نعمت فى عهد كثيرين من أباطرة هذه الفترة بعهود من السلام والهدوء. غير أن الحال بدأ فى التغيير التام مع بداية النصف الثانى من القرن الثالث، حيث تعد هذه الفترة

فقال لهم: انا اطلب من محبتكم ان تحضر عندكم زوجتى تاخد بركتكم. فعجبو وقالو فى قلوبهم: ايش هذا الفعل. ثم قالو له: كلما تأمرنا به يكون. فامر البطرك احد عبيده وقال له: ادع زوجتى عبدة القديسين لتأخد بركتهم. فجات الامرأه القديسه ووقفت فى وسط الاخوه، وقام زوجها البطرك بحيث يشاهدونه جميعهم ووقف على الجمر وهى تقد، وفرش بلاريته(*) واخذ بيده جمرا من النار، فشهق جميعهم من كترة الجمر التى فى البلاريه

(*) بلارية: جبة كنسية.



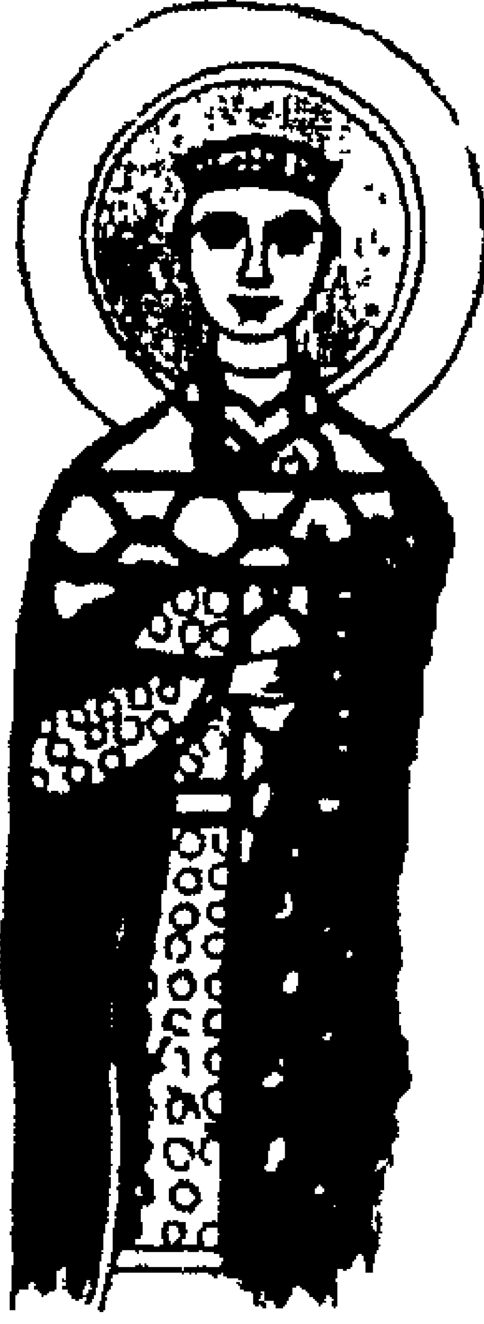
تمثال نصفى لدقلديانوس
(٢٨٤ ـ ٣٠٥م)

التى تمتد حتى سنة ٢٨٤، عندما اعتلى دقلديانوس العرش الامبراطورى من أحلك الفترات التى مرت بها الامبراطورية وأشدها خطورة، نتيجة للحروب الأهلية التى وقعت بين قواد الفرق الرومانية فى الولايات المختلفة، وغزوات الجرمان من الشمال والغرب، والفرس من الشرق، وازدياد متطلبات الامبراطورية واحتياجاتها لمواجهة تلك الاخطار، ونقص عدد السكان بسبب تفشى الامراض والاوبئة والطواعين، وانحطاط الزراعة وتدهور الصناعة وكساد التجارة وانخفاض قيمة العملة، تلك صورة عامة كانت تدعو للتشاؤم والقنوط.

لقد كان السبب الجذرى لهذه المتاعب التى سادت الامبراطورية على مدى جيلين يتركز فى عدم انتظام الجيش، وفى الطموح السياسى لقواده العسكريين، وكان الاباطرة ولا شك يتحملون جزءا من هذه الفوضى التى تردى فيها النظام العسكرى الرومانى، ذلك أن الأباطرة كانوا يحجمون عن أن يطعموا الجيش بالعناصر الأرستقراطية خشية استيلاء هؤلاء على السلطة الامبراطورية حيث أنه لم يكن هناك نظام ثابت فى وراثة العرش، هذا بالاضافة الى أن الطبقة المالية كانت غير راغبة فى هجر أعمالها للالتحاق بالخدمة العسكرية، ومن ثم لم يصبح أمام الأباطرة الاطريقين لا ثالث لهما لتكوين جيوشهم، اما من العبيد وطبقة العامة، واما من أعداء الدولة ذاتها الرابضين على حدودها والمتمثلين فى القبائل الجرمانية، وأدت الحرب الأهلية التى أعقبت مقتل كومودوس عام ١٩٢ الى نتائج هامة كان أبرزها اقتناع

ولم تحترق، ثم قال لزوجته: افرشي بلينك الصوف الذى عليك.ففرشته و اقلب الاب البطرك تلك الجمر فيه وهى قايمه، ورفع فى النار بخورا وامرها ان تبخر جميعهم، ففعلت كذلك، هذا كله ولم يحترق البلين. فقال البطرك تانى دفعه: قومو نصلى وكانت الجمر تقد فى وسط بلين الامرأه ولم يحترق منه شى.

سمعتم الان يا احباى هذا العجب العظيم، اذا صير انسان نفسه خصيا باختياره فهو اجل من



رسم بالفريسك فى الكنيسة المعلقة لقديس يرتدى البلين

سبتيميوس سفروس بأن القوة العسكرية هى كل شئ وقد تجلى ذلك فى رفعه مرتبات جنوده، ونصيحته الى ولده قائلا «أجزل العطاء للجند ولا تلق بالا للآخرين».

وليس أدل على هذه الفوضى العسكرية، وتدخل الجيش فى شئون الحكم، وما نجم عن ذلك من الحروب الأهلية من أنه فى فترة نصف القرن الواقعة بين عامى ٢٣٥ ـ ٢٨٥ تولى عرش الامبراطورية ستة وعشرون امبراطورا لم يمت منهم ميتة طبيعة الا امبراطور واحد. وفى غالة وحدها بين سنتى ٢٥٧ ـ ٢٧٣ كان هناك خمسة أباطرة. وساعدت الفوضى أيضا على أن يسيطر أذينه ومن بعده أرملته زنوبيا من تدمر على كل الأقاليم المتمدة من آسيا الصغرى الى مصر بصورة أضطر معها الامبراطر جاللينوس Gallienus (٢٦٠ ـ ٢٦٧) أن يمنح أذينة لقب قائد الشرق ويجعله رئيسا للفيالق الرومانية على الفرات ومصر.

وزاد الأمر سوءا ضغط الجرمان على الراين والدانوب، فعلى الراين الأدنى ظهرت عناصر الفرنجة، بينما هدد الالمان أعالى الراين والدانوب، واحتل القوط الدانوب الأدنى واكتسحت قبائلهم ـ على عهد الامبراطور دكيوس Decius (٢٤٩ ـ ٢٥١) شبه جزيرة البلقان وعادوا لمهاجمتها ثانية، وأخذوا بيزنطة Byzantiun بغتة، وعبروا البسفور الى آسيا الصغرى حيث وقعت معظم مدن بيثينيا فى أيديهم سنة ٢٦٧، ولم تنج الأمبراطورية من شرهم الا بعد أن أوقع بهم الامبراطور كلوديوس هزيمة ساحقة فى ٢٦٩ / ٢٧٠.

الذى يولد خصيا. ولاجل هذا لم يحترق هذا القديس ولا شى من لباسه ولباس زوجته، لانه اطفا لهيب الشهوه.

والان فلنختصر الكلام فى هذا ونعود الى السيره ونمجد الله الى الابد، فنقول ان الكهنه لما صلو قالو للبطرك نطلب من قدسك ان تعرفنا هذا السر العجيب قال لهم البطرك: ليسمع الان جميعكم ما ا قوله، اعلمو انى ما فعلت هذا اطلب مجد الناس، انا عمرى اليوم تلت وستون سنه

ولم تكن المسألة بقاصرة على الخطر الجرمانى فى الشمال والغرب فقط، بل تعرضت لما هو أسوأ من ذلك على الجبهة الشرقية عند الفرات، وتجسد هذه الخطر فى الامبراطورية الفارسية تحت حكم الأسرة الساسانية القوية، وكانت أوضح صورة لهذا الخطر الداهم تلك التى شهدتها الامبراطورية فى مطلع النصف الثانى من القرن الثالث عندما استطاعت قوات سابور الفارسى أن تستولى على الأقاليم الشرقية للامبراطورية الرومانية، وأن توقع بالامبراطور فاليريان Valerianus هزيمة قاسية وتأسره سنة ٢٦٠. فتعرضت هيبة الامبراطورية فى الشرق لهزة عنيفة .

فاذا ما أضفنا الى هذه النواحى ما نجم عنها تبدت حالة الامبراطورية غاية فى السوء، فدولاب العمل الاقتصادى كان لابد له أن يقفل أبوابه ويتوقف نتيجة لاقفار الأراضى الزراعية من منتجاتها وفلاحيها بسبب الغزوات الخارجية من جانب الجرمان والفرس الذين عاثوا فسادا فى أراضى الامبراطورية فى الشمال والغرب والشرق، ولم يكن خطر الحروب الأهلية أقل شأنا من الخطر الخار جى، وأثر خراب الأراضى الزراعية وضعف الانتاج على الناحيتين الصناعية والتجارية، وتوقفت الأخيرة أيضا نتيجة اضطراب الأمن وعدم صلاحية طرق المواصلات لسبب أو لأخر. ومع ازدياد عدد المتنافسين على عرش الامبراطورية الطامعين فيه، ازداد عدد الجيش بما حاوله كل منهم أن يجمعه من الجنود، وترتب على ذلك زيادة أعطياتهم، ولم يكن من سبيل

وزوجـتى الان التى هى قـدامكم هى ابنة عـمى ومات ابوها وامها وتركوها طفله فدخل بها والدى على ولم يكن له ولد غيـرى ولم يكن لعمى ولد غيرها، فتربيت معها فى بيت ابى وكنا فى مكان واحد، فلما صار لها خمس عشره سنه اراد ابى وامى يزوجونى اياها وكان غرضهم فى ذلك ان لا يضيع مالهم للغريب بل نرثه، فعملو العرس كما تفعل الناس لاولادهم ودخلت عليها، فلما اخلونا قالت لى: كيف دفعونى لك وانا اختك. فقلت

لزيادة الدخل لسد هذه النفقات الجديدة ألا عن طريق زيادة الضرائب التى أثقلت كواهل الأهلين، ومزقت الأوبئة شمل الصحة العامة فى الامبراطورية. فغرقت نتيجة هذه كله حتى آذانها فى حالة من الاعياء الشامل والشلل التام، ولم ينقذها من هذا الهول الا اعتلاء دقلديانوس عرشها سنة ٢٨٤.

فى وسط هذا الجو المتوتر المخيف اجتاحت الامبراطورية موجة من النشوة الدينية القوية، هرع على أثرها الرجال والنساء الى الهياكل يحيطون بالآلهة ويضرعون اليها بالصلوات والدعوات، فى الوقت الذى وقف فيه المسيحيون على البعد وقفة المتفرج الذى لا يعنيه الأمر، وظلوا كسابق عهدهم يستنكرون الخدمة العسكرية ويقاومونها ويسخرون من الآلهة، ويشجعهم على التمادى فى ذلك زعماؤهم، ويفسرون انهيار الامبراطورية بأنه هو البشرى التى وردت فى النبوءات عن تدمير «بابل» وعودة المسيح.

وقد رأى الامبراطور دكيوس فى حالة الشعب النفسية فرصة يستعين بها على تقوية روح الحماس الوطنى والوحدة القومية، فأصدر مرسوما يطلب فيه الى جميع سكان الامبراطورية أن يتقدموا الى آلهة روما بعمل يتقربون به اليها ويردون به غضبها، ويلوح أنه لم يطلب الى المسيحيين التنكر لدينهم، بل أمروا أن يشتركوا فى التوسل الى الآلهة التى طالما أنقذت روما من الخطر المحدق بها كما كان يعتقد العامة وكان النجاح الظاهرى لهذه الاجراءات واضحا جليا، فقد استسلم الالاف من المسيحيين ـ خاصة الطبقات الأرستقراطية ـ لقرارات الامبراطور،

لها: اسمعى منى ما اقوله، يجب ان نكون فى هذا المكان ولا نفترق ابدا، ولا يكون بيننا شى حتى يفرق الموت بيننا، و اذا بقينا هاهنا بطهارة فنحن نجتمع فى اورشليم السماويه و يشبع بعضنا مع بعض فى النعيم الدايم. فلما سمعت منى هذا قبلته وبقى جسدها طاهرا ولم يرجع ابواى يعلمان ما بيننا. وكانو المدعيون فى العرس طلبو ما جرت به العاده(*) من حال الزيجه، كما تعلمون من افعال الناس البطاله، فقالت لهم امى: هولا صبيان والايام

* هى عادة فض غشاء بكارة العروسه بيد العريس على مرأى ومساعدة أمه وحماته، حيث كان العريس يلطخ منديل بدماء فض البكارة لعرضه على المدعوين لإثبات عذريتها.

هذا فى الوقت الذى اختفى فيه كثيرون منهم، وتحدى بعضهم الثالث الحكومة فكان جزاؤه الاضطهاد والتعذيب والاعدام.

كان دكيوس أول الأباطرة الذين جعلوا الاضطهاد عاما فى الامبراطورية ، وكان فيما سبق يمتاز بالطابع المحلى، وقد قتل فى هذا الاضطهاد فابيانوس Fabianus أسقف روما ، وأسكندر Alexander أسقف أورشليم، وبابيلاس Babylas أسقف انطاكية، كما عذب أوريجين السكندرى، وديونيسيوس Dionysius أسقف الاسكندرية، هذا بالاضافة الى أعداد كثيرة احرقت أو القيت لتفترسها الحيوانات فى الاحتفالات والأعياد.

وقد انتهى اضطهاد دكيوس بموته سنة ٢٥١ ، غير أن سياسته سرعان ماعادت من جديد على عهد فاليريان سنة ٢٥٧ . فنتيجة لأزمة أخرى بث الرعب فى نفوس الامبراطور والرومان، تمثلت فى الأخطار التى كانت تهدد الامبراطور من كل ناحية، فالفرنجة والألمان وقبائل جرمانية أخرى تهدد الراين، والقوط يهددون شواطئ البحر الأسو د وبحر ايجه، وثورات البربر فى شمال افريقيا لاتهدأ، والغزو الفارسى للولايات الشرقية سائر قدما، نتيجة لكل ذلك أمر الامبراطور أن يمتثل كل شخص للشعائر الرومانية، وأن يقوم الجميع بتقديم القرابين للآرباب، وحرم كل الاجتماعات المسيحية، ثم قام باضطهاد المخالفين واعدام عدد كبير من الأساقفة والقساوسة، وتعرض أسقفا الاسكندرية فى عهده ديونيسيوس وخلفه ما كسيموس

قدامهم طويله. وبقينا على ما نحن عليه. فلما ماتا ابواى وابوها بقينا جميعا ايتاما . ولى منذ تزوجتها تمان واربعون سنه ونحن نام على سرير واحد وفراش واحد وغطا واحد علينا جميعنا، والرب الذى يعلم ويدين الاحيا والاموات هو العارف بخفايا القلوب، وهو يعلم اننى ماعلمت قط انها امرأه ولا علمت هى ايضا انى رجل، بل بعضنا ينظر وجه بعض فقط، ومرقد واحد يجمعنا ومضجع هذا العالم ما عرفناه قط بالجمله، واذا

لاشد أنواع الاضطهاد ونفيا الى ليبيا. وأنهى الامبراطور فاليريان اضطهاده بوقوعه أسيرا فى يد الفرس سنة ٢٦٠.

وكان موت هؤلاء الأباطرة المضطهدين وغيرهم بالطريقة التى تم بها من الاغتيال والأسر و ما شاكله – فى نظر مؤرخى الكنيسة ـ انتقاما عادلا من الرب الذى كان لأعداء رعيته بالمرصاد، ومن ثم عد مقتل دكيوس وأسر فاليريان ضربا من ضروب الانتقام الالهى.

ولقد نعمت المسيحية بفترة من السلام والهدوء دامت أربعين عاماً، دخل الناس خلالها فيها أفواجا، بعد أن أخذوا يفرون من أربابهم الذين لم يجدوا لديهم المأوى، والذين لم يستطيعوا حماية الدولة من أعدائها، ووجدوا السلوى فى المسيحية أكثر مما وجدوها فى غيرها، ونتيجة لتحول عدد من الاغنياء الى المسيحية، شيدت الكنائس الفخمة فى كثير من المدن وترتب على ذلك أيضا أن أخذت الاعتراضات على تولى الوظائف العامة من جانب أثرياء المسيحيين تتوارى، بل وأصبح المسيحيون حكاما للولايات ووجد منهم أيضا من يحتل مناصب عليا فى البلاط الامبراطورى. وكانت هذه الفترة من السلام فرصة كبيرة للكنيسة كى تستكمل فيها بناءها وتنظيمها الداخلى وأصبح التقليد العملى أن يجتمع اساقفة كل أقليم أو ولاية فى عاصمتها بصورة منتظمة، كما كان لا سقف العاصمة أوالمطران سلطات معينة على المناطق التابعة لمطرانيته، وأخذ التنظيم الكنسى يميل الى تشكيل نفسه على أسس مدينة ،

نمنا جميعا ننظر شخصا كالنسر يأتى طايرا يحط
على مرقدنا فيما بينى وبينها فيجعل جناحه الايمن
على وجناحه الايسر عليها الى الصباح يروح
ونحن ننظره حتى يغيب. ولا تظنو ايها الاخوه
والشعب المحب لله اننى اظهرت لكم هذه الاسرار
طلبا لمجد هذا العالم الفانى ولا اعلمتكم به بارادتى
بل هو امر الرب امرنى به الذى يريد الخير لجميع
الناس وهو المسيح المخلص. فلما قال لهم هذا
القول سجدو كلهم على وجوههم على الارض

فأصبحت المدينة التى يقيم فيها نائب الحاكم المركز الطبيعى للاجتماعات الكبرى، وحصل أسقفها على سلطات واسعة فى دائرة اختصاصه، فقد اعترف بقرطاجنة كعاصمة دينية لافريقيا، وأنطاكية للشرق عدا مصر حيث تبوأت الاسكندرية مركزا مرموقا.

ولقد كان الامبراطور جاللينوس صاحب الفضل الأول فى بدء اقرار هذه الفترة من الهدوء بالنسبة للمسيحية، ، ذلك أنه صدر مرسوما سنة ٢٦١ يعد أول مرسوم يقضى بالتسامح الدينى، اعترف فيه بأن المسيحية مسموح بها، وأمر بأن يرد الى المسيحيين ما كان قد صودر من أملاكهم وقد حفظ لنا المؤرخ الكنسى يوساب صورة رسالة موجهة من الامبراطور الى أسقف الاسكندرية وأسقف أنطاكية جاء فيها «لقد أصدرت أمرى باغداق هباتى على كل العالم، وأن يبتعدوا (الوثنيين) عن أماكن العبادة ولهذا يمكنكم استخدام هذه الصورة من أمرى كى لا يزعجكم أحد.

وهكذا أقدم الامبراطور جاللينوس على خطوة جريئة لم يسبقه اليها امبراطور، وسبق هو بها ما صدر من مراسيم بعد ذلك سنة ٣١١ على عهد جاليريوس وسنة ٣١٣ من جانب قسطنطين وليكينيوس، وحظيت المسيحية لأول مرة على صك حكومى يرفع عن كاهل أتباعها ويلات الاضطهاد ويسمح لهؤلاء بممارسة طقوسهم الدينية، ويحرم على الوثنيين التعرض لدور العبادة المسيحية.

وقالوا: حقا يا ابانا انك افضل من كثير من اهل الصلاح وقد رحمنا الرب لما جعلك ريسا علينا. وشكروه وسالوه ان يصفح عن ظنونهم فيه، فبارك عليهم ودعا لهم فانصرفو الى منازلهم يسبحون الله. وبعد هذا امر الامرأة ان تمضى الى بيتها.

فهل سمعتم ايها السامعون بمثل هذه العجايب. واقام هذا الاب الجليل القديس مع هذه الامرأه الجميله الحسنه طول هذه المده وصبر، فاين هم المتزوجون الان الذين يزنون ايضا ويقولون انا

على أن سمعة دقلديانوس قاست كثيرا من جراء اتهامه بالمسئولية الأولى فى الاقدام على البدء بالاضطهاد الأخير والاعظم للمسيحيين.

ولا يمكن القول مطلقا ان إقدام الامبراطور على الاضطهاد كان استجابة لثورة جماهيرية غاضبة، كما شهدناه يحدث مثلا على عهدى دكيوس وفاليريان. فالأمور فى الامبراطورية كانت مستقرة بوجه عام فى هذه الآونة سنة ٣٠٣، ولم تكن هناك أخطار خارجية تهددها، وكان دقلديانوس قد أعاد تنظيم الادارة الامبراطورية، والجيش الرومانى، والأحوال الاقتصادية وكافة شئون الدولة. وعلى ذلك فلم يكن هناك غضب جماهيرى يتأجج فى صدور الأهلين يطالب بالانتقام من المسيحيين لسبب أو لأخر.

لقد كان دقلديانوس خير أنموذج للحاكم الأوتوقراطى الذى أراد أن يجمع السلطة المركزية كلها فى يده، ويشرف بنفسه وجهازه البيروقراطى على كل صغيرة وكبيرة فى الدولة، وقد سعى جاهدا ليحقق ذلك ونجح فيه الى حد كبير ، ومن ثم لم يكن دقلديانوس يتصور مطلقا أن تخرج الكنيسة عن دائرة نفوذه، وأن تغدو بذلك دولة داخل الدولة، وكان يعتقد ـ والقلق يملأ عليه كل نفسه ـ أن النظام المسيحى على هذه الصور ة سوف يودى بجهوده الضخمة التى بذلها طيلة هذه السنوات فى سبيل وحدة الامبراطورية وتقويتها. ولما كان قد قضى من سنوات حكمه فى نيقوميديا الشئ الكثير، وتشرب مبادئ الشرق الهلنستى

نصارى، يأتون الان ويسمعون الاب دمتريوس البطرك الذى يقول اننى لم اعرف الا وجه زوجتى فقط فيخزو ويفضحو، يا لهذا الاب المجاهد القديس المقاتل للافكار الجسدانيه. يا لهذا العجب كيف لم يضطرب قلبه وهو ينظر هذه الامرأه الحسنه الجميله، وكيف لم تحرك جسمه نعومة جسمها، ما اعجب كلامك ايها القديس فى الخلوه، ولم يرمك صاحب النشاب الذى يرمى جميع الناس، اعنى الشيطان، قال انا انسان ولى

والامبراطورية الفارسية عن عظمة الحاكم وتقديسه، فقد سعى الى تقليد تلك النظم وغدا الامبراطور وكل ما يخصه ذا قدسية وجلال. وأضحى السلطة المطلقة فى الامبراطورية كلها، وبذلك كان يرى أن المسيحية هى أخر العقبات القائمة فى سبيل هذه السلطة.

ولنضف الى هذا سببا على جانب كبير من الأهمية، ذلك أن عددا ليس بالقليل من أفراد الجيش كان قد اعتنق المسيحية، فامتنعوا بذلك عن ممارسة الطقوس الوثنية الخاصة بتقريب الاضحيات واحراق البخور أمام تمثال الامبراطور رأس الدولة ـ كما قدمنا ـ وأدرك دقلديانوس بذلك أن هذه العقيدة سوف تعصف بولاء الجند لشخصه وهو أخشى ما كان يخشاه الامبراطور، فما «الحكومة الرباعية» التى انشأها لادارة شئون الامبراطورية الا نظام قصد به القضاء على تلاعب الجيش بالأباطرة فكيف يصبح الحال الآن والجند لا يكنون لقوادهم الوثنيين ولا لامبراطورهم الوثنى كذلك أى عاطفة من الولاء؟

ولعل مما يدعم هذا القول ما يذكره المؤرخ الكنسى يوساب من أن الآضطهاد بدأ «بالاخوة الذين فى الجيش».

على أيه حال تضمن اضطهاد دقلديانوس مراسيم أربعة صدرت ثلاثة منها عام ٣٠٣، ينص الأول على تدمير الكنائس المسيحية، واحراق الكتب المقدسة، ويقضى الثانى والثالث بالقبض على كافة رجال الاكليروس بمختلف طبقاتهم وعدم الافراج عنهم الا بعد أن يقدموا

---

١٢ : ديمتريوس ١٨٩/٢٣١م

جسد مثل جميع الناس. ولكنى اعلمكم الجواب، كنت اذا اضطرب على قلبى بالفكر الردى ذكرت العهد الذى قررته مع المسيح وانى اذا فسخته خفت ان ينكرنى فى السموات قدام الاب وملايكته القديسين، وايضا اذا رأيت حسن جسمها ونعومته تذكرت الاجساد التى تصير فى القبور ونتن ريحتها الكريهه فامنع نفسى من كلام غريب خوفا من النار التى لا تطفأ والدود الذى لا ينام فى الاخره حيث لا يقدر يكون فيها من يفتح فاه.

القرابين لآلهة الدولة، أما المرسوم الرابع فقد صدر سنة ٣٠٤ ويلزم كل فرد فى الدولة أن يقرب للآلهة أضحياته.

على أية حال فان الاتجاه العدائى السافر من جانب الامبراطورية الرومانية تجاه الكنيسة المسيحية فى هذه الفترة بالذات جاء متأخرا جدا، فلقد كان من المستحيل فى هذه الآونة أن تجتث جذور نظام أصبح يدين له بالولاء قرابة خمس سكان العالم الرومانى.

الحروب الأهلية وسياسة المتصارعين ازاء المسيحية

بدا لفترة ما أن نظام «الحكومة الرباعية» الذى أقامه دقلديانوس قد أضحى وطيد الأركان. ولكن هذه النظام لم يكن راجعا فى ثباته الى طبيعته فى حد ذاته بقدر ما كان راجعا الى سطوة الامبراطور التى وضعت حدا لطموح شركائه، ولم يستطع ذهن دقلديانوس أن يتصور أنه إذا كان هؤلاء الشركاء قد ارتضوه امبراطورا لهم وسيدا، حيث كان ولى نعمتهم، فلقد كان من الصعب على أحدهم أن يعترف لزميله بهذه الأولوية بعد اعتزال دقلديانوس ـ طالما كانوا جميعا شركاء فى حكومة واحدة حتى ولو كان بعضهم يحمل لقب الأوغسطس والاخر لقب القيصر. فما أن القى هذا النظام فى ميدان التجربة بعد أن تخلى دقلديانوس وزميله ماكسيميان Maximianus عن السلطة سنة ٣٠٥ حتى عصف طموح أولئك الرفاق وصراعهم، بما قضى دقلديانوس يقيم منه القواعد سنين عددا.

يا احباى هذا الاب مصطفى من الله فى جهاده وشجاعته اشجع ممن يقتل السباع كما قال بعض المعلمين: ليس الشجيع من يقتل الاسد لكن الذى يموت وهو طاهر من مضاجعه الامرأه ومن مصايد النسا، فطوبى لهذا القديس لانه قد تعالت درجته مثل يوسف لما كان فى بيت المصريه، وكانت تخاطبه فى كل وقت تجد السبيل الى خطابه، وهذا كان يقاتل افكاره فى كل يوم وليله.

وهكذا تم جهاده وحفظ بتوليته وامانته المستقيمه واقام تلت واربعين سنه بطركا.


قسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٢٧)

ما أن تخلى الرفيقان عن السلطة الامبراطورية فى مايو ٣٠٥ حتى ارتقى كل من جاليريوس Galerius وقسطنطيوس Constantius الى مرتبة الأوغسطس بدلا منهما، أولهما فى الشرق، وثانيهما فى الغرب.

ولفترة قصيرة جدا اتخذت «الحكومة الرباعية الثانية» شكلها فأخذ جاليريوس أو غسطس الشرق Pontica, Asiana, Thrae, Moesia بينما أضاف قسطنطيوس ـ أو غسطس الغرب ـ اسبانيا الى أقاليمه الأصلية فى غالة وبريطانيا، أما سفروس فقد خصصت له ايطاليا وأفريقيا وبانونيا Pannonia، على حين حكم ماكسيمين المناطق الشرقية (مصر وسوريا). وبذلك كان جاليريوس يسيطر بالفعل على ثلاثة أرباع الامبراطورية بسيادته على تابعيه سفروس وماكسيمين بالاضافة الى دائرة نفوذه. وكانت الأحلام تداعب خياله فى الانفراد بحكم الامبراطورية كلها بلا منازع. ومن ثم كان ينتظر بقلق بالغ موت قسطنطيوس، غير أن أحلام جاليريوس سرعان ما تحطمت على صخرة واقعتين هامتين عصفتا بطموحه فى توحيد الامبراطورية تحت سلطانه وحده، هما اختيار قسطنطين خلفا لأبيه فى الغرب، والمناداة بما كسنتيوس امبراطورا فى روما سنة ٣٠٦.

وعلى الرغم من أن جاليريوس كان يتميز غيظا لما اعتبره اغتصابا للسلطة من جانب قسطنطين، الا أنه أثر قبول سياسة الأمر الواقع. فاعترف بقسطنطين قيصرا وليس امبراطور،

وكان قد جرى هيج باسكندريه ونفاه الملك سوريانوس الى موضع يعرف بمدينة موسين وتنيح هناك في اليوم التانى عشر من برمهات واظنه يوم ظهور بتوليته.

واستشهد فى ايام سوريانوس الملك شهدا كتيره بمحبه، منهم والد رجل يعرف ببرجانوس(*) [أورجانوس] قد تعلم العلوم البرانيه(*) ورفض كتب الله وبدأ يطعن عليها فلما علم به الاب دمتريوس ورأى الجمع قد ضل بعضهم الى كذبه ابعده عن البيعه.

(*) العلوم البرانية: هى العلوم الفلسفية وغيرها من العلوم الغير دينية.

(*) اورجانوس:
ولد هذا العلامة العظيم بمدينة الاسكندرية سنة ١٨٥م من والدين مسيحين تقيين وكان أبوه يدعى ليونيدس وله سبعة أولاد أكبرهم

بينما انعم على سفروس بلقب الامبراطور، فهبط قسطنطين بذلك من المرتبة الثانية الى الرابعة وهكذا ـ ولزمن يسير ـ عادت الحكومة الرباعية من جديد، فحمل كل من جاليريوس وسفروس لقب أو غسطس، بينما استحوذ كل من ماكسيمين وقسطنطين على مرتبة القيصر. ولقد قبل قسطنطين هذا اللقب «المتواضع» انتظارا لما تأتى به الأيام.

غير أن ثورة شبت فى نفس العام فى روما، قام بها الحرس البريتورى، وقتل محافظ المدينة وأعلن ماكسنتيوس بن ماكسيميان امبراطور فى ٢٨ أكتوبر، وبدا أن ايطاليا كلها قد اضحت فى قبضة ذلك المغتصب، وقد سعى ما كسنتيوس لضمان اعتراف جاليريوس به، وسمى نفسه على عملته عندئذ «الأمير الذى لا يقهر». وقد اضطرب جاليريوس لدى سماعه بهذه الأنباء ولكنه لم يفزع، وملأ الكره قلبه نحو ما كسنتيوس، الذى كان زوجا لابنته، لما لم يكن هناك مكان لقيصرثالث، فقد رفض جاليريوس أن يمنحه هذا اللقب. وترجع هذه الثورة التى أتت بما كسنتيوس للعرش الى ما أقدم عليه سفروس من اجراء تعداد للسكان فى ايطاليا وروما مما سبب سخطا وتذمرا بين الأهلين الذين كانوا يعيشون لقرون خلت متحررين من عبء الضرائب. وان كان لاكتانتيوس يحمل مسئولية ما أقدم عليه سفروس، وازاء ذلك أرسل جاليريوس الى سفروس يستحثه على استعادة سلطته وأقاليمه الضائعة من قبضة ما كسنتيوس، ووضع تحت امرته ذلك الجيش الذى كان ما كسيميان يرأسه من قبل وكان على

فـأمـا الشـهـدا الذين هم فلوترخس وسـرنس فـاحـرقـوهم احيـا، واما اركـلادا وارون فـاخـذوا روسـهـمـا، وكـذلك سـيـرنس وأرائى الامـرأه و بسيليتس وابتومينا [بوتامينا] وامها مركلا فلحقهم تعب عظيم وجهاد شديد، وانتلاس هو اب الملوك و اوسـابيـوس ومـقـاريوس هو خـال قـلاديانوس، ويستس وتادرس المشرقى هولا الشهدا كلهم اقـربا بعضهم لبعض، وايضا عدرا اخرى اسمها تكلا،

اوريجـانوس قـيل ان ابا اوريجـانوس كـان من معلمى الفـصـاحـة والمنطق فـرباه باعظم اهتـمـام ولـم يكتف بأن يروضـه فى العلوم والقـوى العـقليـة والرياضية بل فقهه أيضاً فى الكتب المقدسة وكان يختبر ذكاءه فيأمره بأن يحفظ كل يوم بعض آيات منها حتى حـفظ أغلب نصـوص الكتـاب المقدس.

ولما اسـتكمل قـواه وضـعـه فى المدرسـة اللاهوتيـة فـتتلمـذ للعلامـة اكلميندس وقرأ عليه الكتاب المقدس وتوسـع فى درس مـؤلفـات افـلاطون والرواقين. وحالا تحقق حسن ظن أبيه

ما كسنتيوس أن يستعد لمواجهة هذا التحدى، فبعث الى أبيه ما كسيميان يطلب اليه العون، محييا اياه ثانية بلقب «الأوغسطس» واهتبل الأب، الذى كان قد تخلى كارها عن السلطة مع دقلديانوس، الفـرصـة وعـاد من جـديد الى ارتداء العـبـاءة الامـبـراطورية. وهكذا اصـبـح فى الامبراطورية أباطرة أربعة هم جاليريوس وسفروس وماكسنتيوس وماكسيميان، وقيصران هما ما كسيمين وقسطنطين.

ولم يكد يمضى على هذه الأحداث عام حتى مات جاليريوس (مايو ٣١١) بعد أن دهمه المرض فترة طويلة، فأعطى موته اشارة البدء فى ذلك الصراع المتوقع بين الأباطرة الأربعة، فقسطنطين كان يسود غالة وبريطانيا، بينما كان ماكسنتيوس يحكم ايطاليا واسبانيا وأفريقيا، أماليكين فخضعت له الليريا وبلاد الونان وتراقيا، على حين اختص ما كسيمين بكل ما يقع وراء البسفور من الأراضى الاسيوية ومصر وقبل أن نشهد هذه الصراع العنيف يجدر بنا أن نتوقف بعض الشئ لنتعرف على سياسة جاليريوس ازاء المسيحية.

كان جاليروس يكن للمسيحية والمسيحيين كبير عداء، ومنذ كان قيصرا على عهد الامبراطور دقلديانوس، فلما اعتلى عرش الامبراطورية تمادى فى عدائه هذا وصب عليهم جام غضبه فى الولايات الخاضعة لحكمه فى تراقيا وآسيا والمناطق الخاضعة لقيصره ما كسيمين فى سوريا وفلسطين ومصر، ففى سنة ٣٠٦ أعدت قوائم والزم الامبراطور الأفراد جميعا بتقديم

وكان بسيليتس [باسيلوس] من الجند فتقدم باختياره ولما سألوه قال انا نصرانى لانى رأيت منذ ثلثة ايام فى منامى امرأه ظهرت لى وجعلت على رأسى اكليلا من عند يسوع المسيح، وكذلك نال اكليل الشهاده.

وهكذا جماعة كثيره استشهدو وكانت ابتومانيا [بوتامينا] الامرأه تظهر لهم فى المنام وتدعوهم الى الامانه بالسيد المسيح حتى نالو اكليل الشهاده.

به فبرز أوريجانوس على جميع أترابه ونشأ وقلبه مفعم بحب الدين والغيرة عليه وبه وجد وهيام الى نيل اكليل الشهادة حتى أنه عرض نفسه مرات ليكون فى عداد الشهداء.

وفى سنة ٢٠٢م لما أثار ساويرس قيصر الاضطهاد قبض على ليونيدس واودع السجن. فأرسل لابيه خطاب تعزية يشجعه فيه على احتمال الخطوب ويطلب منه أن لا يشتغل بهم بقوله «حذار أن يغير العذاب رأيك فى دعوانا لا تهتم باولادك فان ←

القرابين، وفى سنة ٣٠٨ صدرت الأوامر لرؤساء المدن والموثقين الذين يحتفظون لديهم بسجلات التعداد بتنفيذ المرسوم السابق الذكر وامعانا فى تنفيذ هذا الأمر وضع الحراس على أبواب الحمامات العامة لقهر الداخلين على تقريب الأضحيات للامبراطور ولم يقتصر الأمر على هذه الاضطهادات بأنواعها المختلفة بل تعداه الى كل شئون الحياة، «فتوقفت دواليب العمل وأهملت سيادة القانون وذهبت أدراج الرياح صيحات الخطباء. وما زاد الطين بلة. تلك الضرائب الفادحة التى فرضت على كل ولاية ومدينة، وانتشر الصيارفة فى مختلف الأحياء يحصون كل شئ، الناس والشجر والدواب.

غير أن جاليريوس فجأ الجميع فى ٣٠ أبريل سنة ٣١١ بمرسوم أصدره جاء فيه:

«كان من بين الأمور التى رتبناها حفاظا على الصالح العام ما سبق أن أبدينا من الرغبة فى ر د الأوضاع الى الحالة اللائقة بالقوانين القديمة ونظام الرومان العام، وضمان عودة المسيحيين الذين هجروا ديانة أجدادهم الى حالة طيبة، لأنه تملكهم الكبر الى حد، وغلبت عليهم الغباوة حتى رفضوا اتباع الشرائع القديمة التى سبق أن أسسها أجدادهم، وأقاموا لهم قوانين حسبما تهوى أنفسهم، واجتمعوا جماعات متفرقة فى أماكن مختلفة. ولما اصدرنا أوامرنا بوجوب رجوعهم الى نظم الاقدمين خضع الكثيرون لأوامرنا. ولكن عددا ليس باليسير رفض الانصياع وتحمل صنوف الموت، ورغم أن كثيرين قد استمروا فى حماقتهم لا يقدمون لآلهة

الله سبحانه وتعالى يعتنى بنا» وقيل أن اوريجانوس كان معتادا أن يرسل أمثال هذه الخطابات لتشجيع المؤمنين الذين كانوا واقعين تحت طائلة عذاب الاضطهاد(قد جمع اوسابيوس المؤرخ مجموعة تحتوى على أكثر من مائة مكتوب رقمتها يد اوريجانوس فى مثل تلك الظروف الحرجه ولم يبق منها شئ الآن بل ذهبت طعاما للنار التى أحرقت المكتبة فى الاسكندرية واوسابيوس هو أول من اعتنى بكتابة تاريخ أوريجانوس آخذا بعضه عن رسائله وبعضه عن تلامذته الذين بقوا احياء الى أيام أوسابيوس فى القرن الثالث).

أما ليونيدس فقطعت رأسه ٢٠٣م وتبعاً لقوانين الاضطهاد حينئذ ضمت أملاكه الى الحكومة فباتت أرملته وأولاده فى فقر مدقع وأصبح اوريجانوس مكلفا بالقيام باودهم وكان عمره وقتئذ سبع عشرة سنة. ولم يكد يشعر بضيق الحال حتى سخرت له العناية الالهية امرأة غنية فاضلة كانت ملجأ لكثيرين من المنكوبين فى ابان الاضطهاد فرقت لحال اوريجانوس وآوته فى بيتها ولبث عندها طول مدة الاضطهاد وهى تنفق على تعليمه فى مدرسة اكليمندس.

وخرج أوريجانوس من ذلك المأوى وأخذ يزاول مهنة التعليم ليقوم بنفقة نفسه وفى أثناء ذلك كان يذهب يفتقد من كان باقيا من المسيحيين فى السجون وطفق يعزيهم بكلمات روحية ويشجعهم على شرب كأس الموت بصبر. وكان يرافق الكثيرين منهم الى الحاكم وحتى الى منقع العذاب ويشدد عزائمهم على الثبات فى الايمان تارة بالاشارات وتارة بالخطب البليغة مراراً شتى عرض حياته للخطر وهو يباشر أفعال الغيرة هذه. فاشتهر بعمله هذا واستحق اعجاب الجميع لا سيما البابا ديمتريوس الذى قربه اليه وأظهر له سروره من سعيه المبارك وزاد ابتهاجه به عندما رآه فضلا عن تعبه فى تخفيف ويلات المتضايقين منكبا على الدرس ومواصلا المطالعة فشجعه على الاستمرار فى جهاده.

وكانت المدرسة اللاهوتية حينئذ مغلقه بسبب هروب أساتذتها من وجه الاضطهاد فجد البطريرك حتى جمع بعض الطلبة فى تلك الاوقات المخيفة وكلف اوريجانوس بتعليمهم فشرع يعلم مبادئ الآداب اليونانية ثم تعاطى تفسير الدين المسيحى للموعظين. وكانت للتلاميذ مرتبات من الاموال المخصصة للفقراء.

ولم يكد اوريجانوس ينجح فى عمله حتى قبض اكويلا والى مصر بأمر كاركلا قيصر على خمسة من تلاميذه وبعد أن عذبوا عذابا شديدا حكم عليهم بالموت المريع لانهم أبوا أن ينكروا ايمانهم. وكان بين الخمسة اثنان باسم ساويرس أحدهما حرق والاخر قطعت رأسه بعد أن عذب طويلا. وهيراكليدس وهرون قطعت رأساهما أيضا. أما الخامس وهو ياروكلا فكان صديقا حميما لا وريجانوس فلم يتركه عند القبض عليه بل رافقه الى موضع الاعدام. ولما شاهد الجنود يقتربون من ياروكلاس تقدم اليه بشجاعة وقبله قبلة الوداع على مشهد من الجميع فاغتاظ منه الرعاع وهموا برجمه ولكنه أسرع بالهروب ويظهر أن مطاردتهم له مكنت ياروكلا من الفرار بطريقة ما وعاش حتى صار رئيسا للمدرسة اللاهوتية فبطريركا للكرازة المرقسية (٢٣١ / ٢٤٧) انظر ص٢٣٥. الا أن التعليم فى تلك المدرسة أبطل من ذلك الحين وطرد أوريجانوس من المدينة.

وفى سنة ٢٠٢م عينه البابا ديمتريوس رئيسا للمدرسة اللاهوتية.

ويظهر أن انعكافه الزائد وسعيه المتواصل لنوال أسمى درجة فى العلم والفضيلة قد

جعله زاهدا في الحياة لدرجة متناهية فرفض جميع ما كان يقدم له جزاء لا تعابه وتقسى على جسده فكان يقتات فقط بما يدرأ عنه الم الجوع ولا يشرب شيئا من المشروبات وكان ينام على الارض دون فراش ويلبس ثوبا واحداً ويمشي دون حذاء. يصرف كل النهار في التعليم والاشغال المتعبة ويقضى أكثر الليل في الدرس والمطالعة. وفي تلك المدة تخلى عن مكتبته التي جمعها من مؤلفات الفلاسفة والتي كتبها بيده من مكتبة الاسكندرية لرجل وثني مقابل راتب يومي قدره أربع بارات.

وكان اوريجانوس حريصا على عفته وطهارة ذيله ويخشى أن يرشقه حساده وخصماؤه بنبال اغتيابهم. وكان يشعر بأن مضطرا الى التردد على بيوت المؤمنين لتعليم العائلات أصول الدين ورأى كثيرات من التلميذات يتبعنه. وفيما كان سنة ١٠٦م يطالع في الاصحاح التاسع عشر في انجيل متى انتبه للآية الثانية عشر وأخذها على ظاهر معناها فخصى نفسه لكي يمنع عنه التجربة ولم يكاشف بأمره الا البابا ديمتريوس. قيل ان هذا ما كان يرومه اوريجانوس كي لا يكون أهلا لنوال درجة الكهنوت.

ولم يكتف أوريجانوس بما حصله من العلوم الكثيرة في المدرسة اللاهوتية فعكف على درس العلوم الطبيعية والادبية في المدرسة الفلسفية التي كان يديرها أمونيوس السقاص وما سطره الاقدمون من الاقوال المفيدة ولما عاب عليه البعض ذلك كتب يقول «لما كنت قد كرست نفسي لخدمة كلمة الخلاص وكان قد ذاع صيتي في الآفاق نظرا لبراعتي واقتداري وكثيراً ما كنت معضدا لهراطقة وأهل البدع الذين يجيئون لزيارتي والبحث معي وكنت مرمرقا بجماعة من المغرمين بالعلوم اليونانية خصوصا المتعمقة في الفلسفة ـ قصدت أن أفحص أفكار الهراطقة وأمتحن تآليف الفلاسفة الذين أحيانا ينطقون بحقائق مهمة وقد اتبعت في هذا خطوات بنتينوس الذى أفاد الكثيرين قبل أن أوجد أنا ولم تكن معارفه قاصره على هذا الحد كما انني قفوت آثار هاراكلامى الذى كان عضوا في مجمع الاسكندرية وقد علمت انه واظب مدة خمس سنوات يحضر عند معلم الفلسفة قبل أن ابتدئ أنا في استيعاب هذه العلوم».

فأنكب أوريجانوس على درس الفلسفة على مذهب فيثاغورس وأفلاطون ولهذا كان أيضا صديقا لامونيوس السقاص.

وفي سنة ٢١١م زار مدينة رومية فقوبل فيها بكل اجلال كما يليق بعالم فاضل مثله وتقابل بزفرينوس أسقف تلك المدينة بعد فكتور. فثبت هناك في ما عزم عليه من عمل شئ يكون له نفع عظيم لعلماء التوراه واذ صرف في الامر غايته لم يرّ بداً من أن يشرك معه في تدبير المدرسة اللاهوتية يا روكلا أحد تلاميذه المتقدمين. ثم انصب على درس اللغة العبرانية فلم يلبث أن برع فيها وكان غرضه أن يستقصى معاني آيات الكتاب المقدس الحقيقة ليضع لها تفسيرا وافيا وليؤهل نفسه الى ترجمة الكتب المقدسة الى ست لغات وهو عمل يعد من أعظم الاعمال التى قام بها اوريجانوس في حياته ولو ان هذه الترجمة لم تنشر الا بعد وفاته بسنين قليلة.

وكان صيته حينئذ قد قرع كل الاسماع ودوى في جميع الاماكن فتوافد عليه الكثيرون طلبا للاستفادة من معلوماته. وكان من أجل خدماته قيامه بثلاث رحلات الى بلاد العرب أولها كان بين سنة ٢١٢ و٢١٣، وسبب ذهابه هو أن حاكم بلاد العرب أرسل بعد هدوء الاضطهاد

الى والى مصر وبطريرك الاسكندرية يطلب منهما ارسال الرجل المسيحى المسمى اوريجانوس بدون تأخير وذلك لكى يشرح له تعاليم الديانه المسيحية ويرشده الى طريق الخلاص فترك أوريجانوس فى مكانه ياروكلا وذهب لاتمام هذه المهمة ولم يستمر فيها طويلا لان البطريك عين شخصا اسمه بيرلوس أسقفا على البصرة لهداية بلاد العرب. والمرة الثانية كانت ليحضر مجمعا انعقد بسبب سقوط بيولوس أسقف بصرة المتقدم ذكره فى الهرطقة فتمكن اوريجانوس من ارجاعة الى حضن الكنيسة. والثالثة كانت لدحض بدعة انتشرت هناك ومؤداها ان اللاهوت مات مع الناسوت وقام معه ثانية فى وقت واحد.

وفى سنة ٢١٢م تعرف أوريجانوس برجل من أرباب الثروة والنفوذ يدعى امبروسيوس وكان تابعا لضلالة فالنتينوس فهداه أوريجانوس الى الايمان وصار له صديقا حميما وتمكن بواسطته من توسيع دائرة تعليمه وجعل درس جميع الفلسفة المعروفة تمهيداً لدرس اللاهوت المسيحى. ولم يكتف امبروسيوس بمساعدته على التعليم بل حثه على وضع أكثر الكتب التى ألفها ونسخها على مصاريفه الخصوصية. فاشترى واستأجر سبعة نساخ وكان يملى عليهم أوريجانوس متعاقبين (لايلقنهم معا كما توهم البعض) فنشر فى الاسكندرية تفسيره لسفر التكوين والمزامير ومراثى ارميا والاقسام الخمسة الأولى من كتابه فى انجيل يوحنا ورسالة فى القيامة ورسالة عنوانها (ستروماتا أى مجموع فوائد) وتأليفه المعنون «بالمبادئ» وقد روى بعض الكتاب أنه كتب بعد ذلك الى فابيبانوس أسقف رومية أن امبروسيوس نشر المؤلف الاخير خلافا لارادته لان فى ذلك الكتاب المذكور خلط المبادئ المسيحية بالفسلفة الافلاطونية فجعل لمضاديه سبيلا الى رجمه بتهمات قوية. ولكن أفضل المحققين يصرحون بأن كتاب المبادئ كان خاليا من كل عيب بشهادة البابا اثناسيوس الرسولى الذى رفع شأن هذا الكتاب ودفع عنه كل تهمة وحكم بقصر نظر من يرون فيه ضلالاً ولقد أشار القديس اثناسيوس على من يطالع هذا الكتاب بأن يفرق بين آراء أوريجانوس وبين الآراء المناقضة التى أوردها ذلك العلامة للرد عليها (قرارات مجمع نيقية رقم ٢٧) وقال العلامة ديديموس الضرير «ان كتاب المبادئ هو ارثوذكسى المبنى والمعنى. أما الذين يرون فيه هرطقة فقاصرون عن ادراك مكنون اسراره» (سقراط ك ٣ف ٢٣).

وفى سنة ٢١٥م اشتد الاضطهاد فى الاسكندرية فى عهد كاركلا قيصر فهرب أوريجانوس الى قيصرية فى فلسطين حيث لقى كل اعتبار واكرام. ومع أن وظيفة الوعظ كانت حينئذ خاصة برجال الكهنوت ولم يكن اوريجانوس قد نال رتبة كهنوتية مع توافر علمه وتقواه بسبب زهده فى الرتب والوظائف الا أن اسكندر أسقف أورشليم رفيقه فى التلمذة وثيوسيتوس أسقف قيصرية طلبا منه أن يشرح الاسفار المقدسة جهاراً لفائدة الجمهور بحضورهما ولما سمعاه أطلقا عليه لقب «سيد مفسرى الكتاب المقدس» وكان ميليانوس أسقف قيصرية الكبادوك ينتظر حضور أوريجانوس بفروغ صبر ولما استبطأه أسرع الى فلسطين ليتلقى العلوم ممن كان يفتخر بأن يدعوه استاذه.

فلما وصلت أخبار أوريجانوس الى مسامع البابا ديمتريوس اعترض على أولئك الاساقفة لسماحهم لاوريجانوس بمزاولة مهنة خاصة بالكهنة فجاو به

الاساقفة بما يدل على احترامهم له ودافعا عن أنفسهما بأنهما سارا على منوال السالف الصالح الا أن البابا ديمتريوس لم يقتنع فأرسل رسائل لأوريجانوس مع بعض الشمامسة يأمره بعدم القيام بأية خدمة ويخبره بهدوء الاضطهاد ليحضر ويمارس أعماله فرجع أوريجانوس بسرعة الى الاسكندرية واستلم زمام أعماله.

ولم يمض الا القليل بعد ذلك حتى أتيح لا وريجانوس زيارة العربية حيث اجتمع بهيبوليتوس أحد فلاسفة المسيحية وقتئذ وقد وضع هذا كتاب عنوانه (Philosophumena) نسب الجزء الاول منه الى أوريجانوس. وسنة ٢١٩م استدعته ماميا أم الملك اسكندر محب المسيحيين الى انطاكية لتسمع وعظه واستمر مدة كان فيها موضوع الاجلال والاكرام. وكان لمعارفه وادابه تاثير عظيم وبسببه خف الاضطهاد الذى كان واقعا على المسحيين أو انئذ.

وفى سنة ٢٢٨م أرسله البابا ديمتريوس الى اخائيه ببلاد اليونان ليقاوم الهراطقة الذين أقلقوا راحة الكنيسة هناك فزار فى طريقه فلسطين وكان فى كل مدينة أو قرية نزلها يدعى الى الوعظ فى الكنائس ولما مر بفلسطين عند رجوعه خاطبه اسقفها ثوسيستوس بالاشتراك مع اسكندر أسقف أورشليم بأنه لا يجوز باستاذ الكهنة والاساقفة أو يكون مجردا من كل الكهنوت. ويظهر ان أوريجانوس كان بسيط القلب بكلامهما وارتضى أن يقبل منهما درجة القسوسية وهو فى السنة الثالثة والاربعين من العمر.

غير ان ديمتريوس البابا الاسكندرى اعتبر هذه السياسة تعديا على حقوقه. ومن ذلك الحين بدأ سوء التفاهم يجد مكانا بين أوريجانوس والبطربرك وا لحقيقة فى هذا الأمر كما يرويها المدققون ان البطريرك الاسكندرى امتنع عن ترقية أوريجانوس لدرجة كهنوتية لسببين أولهما لأنه خصى نفسه. ثانيهما نحول جسمه وضعفه. وفى سنة ٢٣١م عقد البطرك (يمتريوس مجمع حرم فيه أورجانوس ونفاه وعين مكانه ياروكلا اخر تلاميذ اورجانوس.

ولما رجع أوريجانوس الى الاسكندرية بعد رسامته رأى البطريرك ديمتريوس حاقدا عليه ووجد مركزه قد سقط فحصل بينه وبين البطريرك نزاع عقد بسببه هذا مجمعا بالاسكندرية سنة ٢٣١م حكم فيه بنفى أوريجانوس وبحرمه لانه رسم من أسقفين غير تابعين للكرازة المرقسية ولانه خصى نفسه الامر الذى بالغ أوريجانوس فى كتمانه وساعده البطريرك على ذلك ولكنه اضطر الى اشهاره رغما عنه ثم أرسل خطابات الى جميع الكنائس يعلمها بحكمه على اوريجانوس.

أما أوريجانوس فمع كونه عرف ان هذا الحكم فى غاية القساوة الا انه تدارك الامر بحكمته ولم يشأ أن يمكث فى الاسكندرية ليوسع هذا الخلاف بل تركها تركا لارجوع بعده. وكان قد أكمل القسم الخامس من كتابه فى انجيل القديس يوحنا ففزع الى قيصرية. وفى تلك الاثناء عقد ديمتريوس البطرك مجمع آخر فى الاسكندرية طارد فيه اوريجانوس وفحص كتاب «المبادئ» وحكم بأنه هرطوقى وحرم مؤلفه.

ولما وصل أوريجانوس الى فلسطين استقبل فيها استقبال القائد المنتصر فاستاء البابا ديمتريوس من كثرة تعدى أساقفة تلك الجهة على حقوقه. ولحق باوريجانوس امبروسيوس وعائلته وتبعه كثيرون من طلاب العلم ولهذا عزم على فتح مدرسة فى قيصرية فلسطين يعلم فيها تفسير الكتاب المقدس وكمل فى تلك

المدينة المذكورة تفسيره لا نجيل يوحنا.

وقد كتب حينئذ عما كان يجول بصدره قائلا «وحدث بعد هذه الامور أن الله أخرجنى من أرض مصر بيت العبودية كما خلص شعبه منها قديما. ثم قام عدوى (يعنى البطريرك) وأقام فى وجهى حربا عوانا بواسطة مكاتيبه التافهة التى تغاير مبادئ الانجيل تماما وحرك ضدى ريحا صرصرا فرأيت من الصواب أن أقاوم جهد استطاعتى مدافعا عن المبدأ المهم الذى اختطيته لنفسى وسرت عليه وهو الافادة والاستفادة وكنت أخشى من أن هذه المماحكات العقيمة يستفحل شرها فتثير ثائرة النفس الأمارة فتضعف الذاكرة حينئذ وأعجز عن اتمام شرح الكتاب المقدس الذى بدأت به قبل أن ينطمس ذهنى خصوصا وأن ابتعادى عن النساخ الذين كانوا يكتبون الخط المختذل منعنى من تملية ما يخطر على بالى من الافكار. أما الآن وقد بعدت عن كل عوامل التأثير وقدر الله جل وعلا ان تخيب تلك السهام النارية التى صوبت نحوى وتذهب فى الهواء الفت نفسى حينئذ وقوع الملمات التى كانت تصيبنى بسبب لتبشير بكلمة الانجيل واضطرت هذه النفس أن تتحمل بطيب خاطر جميع المصائب التى انتابتنى فهدأ روعى وسكن جأشى لجودة الهواء وحسن الطقس فعقدت النية على عدم تأجيل نسخ وتملية المؤلفات المطلوب منى اتمامها».

وفى ذلك الحين كان أساقفة الكنائس الشرقية يطعنون فى سيامة أوريجانوس ويظهرون هرطقته. أما اساقفة فلسطين وفينيقية فكانوا يعضدونه ويدفعونه عنه الملامة. أما مدرسة قيصرية فاستمرت تزهو وتزهر ونبغ من تلاميذ أوريجانوس جماعة مشهورون فنشروا صيته وأذاعوا مبادئه فى التفسير وكان منهم كثيرون هداهم الى الايمان وصاروا فيما بعد قديسين منهم اغر يغوريوس ثافماتورغوس (صانع العجائب) الذى سقف فيما بعد على قيصرية الجديدة من أعمال تيطس وأخوه اثينودوروس الذى صار أسقفا أيضا على تلك البلاد. أما أوريجانوس فلم يعدل عن مشروعاته الادبية بل زاد همة ونشاطا وحمية والف رسالة فى فائدة الصلاة وأخرى فى تفسير الصلاة الربانية وكان يراسل كثيراً أشهر اساقفة آسيا ودعى الى كثير من المجامع الكنيسة.

ومع انه مدح كثيرا لتجلده الذى أظهره ازاء ما أصابه الا انه لم يسلم من الغلطات التى يرتكبها كثيرون ممن يكونون فى حال كحاله. فقيل انه وجه لخصمه البطريرك كثيرا من الانتقادات وتحرك أحيانا للانتقام منه لولا تبكيت ضميره وصفاته المسيحية. وحدث انه كان يعظ يوما بأورشليم على الآية القائلة «وللشرير قال الله مالك تحدث بفرائضى وتحمل عهدى على فمك» (مز ٥٠ : ١٦) ولم ينته من قراءة هذه الآية حتى وبخته حواسه وخشى أن يفهم السامعون انه يقصد توجيه الكلام لديمتريوس وانهالت الدموع على خديه بغزارة وارتفع صوته بالبكاء حتى لم يقو على التفوه بكلمة واحدة فشاركه السامعون فى التأثر والبكاء. وعقب ذلك تنيح البابا ديمتريوس وخلفه ياروكلا تلميذ أوريجانوس ويظهر انه كان موافقا لسلفه على اجراءاته ضد أوريجانوس فلم يفكر فى اثناء رئاسته أن يدعوه ليعود الى الاسكندرية (انظر دور اوريجانوس فى انقاذ ياروكلا من الموت ص٢٠٢).

وفى ابان الاضطهاد الذى قام به مكسيمينوس قيصر سنة ٢٣٦م سجن امبروسيوس صديق أوريجانوس وبروتكتسيتوس احد

قسوس قيصرية وعوملا بمزيد القساوة فالف لتعزيتهما رسالة فى الاستشهاد وقبض أيضا على كثيرين من اتباعه واكره هو نفسه على الفرار من قيصرية فالتجأ الى فرميتيانوس أسقف قيصرية فى كبدوكية أحد أصدقائه المعجبين به كثيرا. ولما حدث الاضطهاد هناك أختبأ مدة سنتين فى بيت يوليانه امرأة غنية فاضلة وأذنت له فى استعمال مكتبة ابتاعتها من سيماخوس أحد علماء الابيونيين (كانوا يعتقدون بحفظ ناموس موسى وبأن المسيح خاص باليهود ورفضوا رسائل بولس لانها توجب الخلاص للام) الذى ترجم العهد القديم الى اليونانية فانكب اوريجانوس على مطالعة ما فى هذه المكتبة من الصحف وكمل فيه مقابلة النسخة العبرانية والنسخة اليونانية من التوراة وتهيأ بذلك لعمله العظيم بوضع كتاب «المسدسات» اى وضع آيات الكتاب المقدس فى ستة حقول ليظهر للعالم الكتاب المقدس منشورا فى ست لغات كما سيأتى ذكره.

وفى السنة الستين من عمره أى فى ٢٤٥م سمح للستينوغرافين (أى الذين يكتبون بخط مختصر) أن ينقلوا خطبه وكانت المجامع تستشيره فى المسائل الصعبة وتنتهى اليه فى عظيم المشاكل.

وفى الاضطهاد الذى قام به ديسيوس قيصر نظر الى أوريجانوس كأكبر مدافع عن حقائق الديانة المسيحية فقبض عليه وطرح فى السجن وعذب عذابا شديدا وكتب فى السجن رسالة تتضمن النصيحة والتشجيع لمشاركيه فى العذاب الا أن صحته اعتلت لما حل به من الآلام وقد كتب يوسيبيوس عما عاناه أوريجانوس فى سياق كلامه عن استشهاد القديسين اسكندر أسقف أورشليم وبيسلسيوس أسقف انطاكيه يقول «يصعب على الكاتب الماهر وصف ما قاساه أوريجانوس واحتمله بصبر وفرح من العذاب الشديد والآلام القاسية أثناء هذا الاضطهاد اذ وضعوه فى مقطرة من حديد وزجوهد فى اعماق السجن حيث ظل بضعة ايام مطروحاً على خشبة وهو مشدود بأربعة وثاقات لا يستطيع معها الحراك وهم يشعلون النار من حوله تهديدا له وتخويفا وغير ذلك من مرائر شرحها يطول ووصفها يهول ذاقها هذا المسيحى من اعدائه العديدين ولكنه لم يبد ضجرا ولا أظهر مللا ولم يقل يا أزمة انفرجى. وعندما انتهى القوم من تجريع أوريجانوس كل أصناف العذاب قدموه للحكم عليه بالموت فسعى القاضى الموكل بالحكم جهده فى تأخير مدته ليس لينجى أوريجانوس منه بل ليطيل عذابه باطالة أيام حياته. فالذى تم لاوريجانوس من آلام وعذاب يجدر بأن يكون عبرة لم يعتبر وذكرى لمن يذكر وتعزية للذى وقع فى مصاب أو أصابة شر و تجربة .

والمعلوم انه لم يفرج عن أوريجانوس الا بعد موت ديسيوس قيصر وأمسى بعد ما عاناه من التعذيب اكسح من قبل الجراح التى انزلتها القيود فى رجله فلبث مدة بعد خروجه من السجن يتجرع الاما مبرحة ويتقلب على فراش الضنى والنحول وهو يقترب بسرعة الى حافة الموت. ولكن انتعش حينئذ عندما وصله كتاب من البابا ديونسيوس البطريرك الاسكندرى الذى خلف ياروكلا يشجعه فيه على احتمال المشقات ويظهر له حزنه العميق على حالته التعيسة. غير أن حياة اوريجانوس لم تطل بعد خروجه الا أربع سنوات على قول بعضهم كان فيها غير منكف عن جهده فى التأليف والمكاتبات والخطب وعلى قول آخرين لم يعش سوى سنة واحدة وعلى كل حال فقد اثر عليه ما عوقب به

من الالام المبرحة التى انهكت جسمه وسحقته فمات سنة ٢٥٤م فى مدينة صور وله من العمر ٦٩ سنة ويحق لنا أن ندعوه شهيدا ودفن فى المكان الذى مات فيه بصور وظل قبره معروفا حتى شيدت فوقه كنيسة وذكر كثيرون من أصدقائه انه مات تحت العذاب سنة ٢٥٤م وحفظ ضريحه مد قرون عديدة بقرب المذبح فى كنيسة صور الاسقفية واستمر قبره مزار للكثيرين حتى القرن السادس. قال مؤرخ «واذا سألت أهل صور عن مكان قبره لاشاروا لك الى اطلال كنيسة قديمة بنيت عليها أكواخهم وقالوا لك هنا قبر (أورسنيوس) يريدون أوريجانوس مدفون فى قباب تلك الكنيسة وهو الآن تحت الارض».

فرجل مسيحى فاضل كهذا كيف يتهمونه بالهرطقة وقد كانت حياته كلها بريئة من كل ما يشين وأجمع الكل على طهارة ثيابه ونزاهة نفسه حتى قال عنه يوسابيوس «ان حياة هذا الرجل أفضل مفسر لعظاته» وقال موسهيم المؤرخ «ان بيانه الساحر وعلمه الكثير وطبعه المحبوب وصيته الحسن فى التقوى الحارة الخالصة أعطته سطوة عظيمة. ولا سيما بين العلماء وذوى المراتب الاولى فى الهيئة الاجتماعية. ولم يقم أحد منذ زمن الرسل أكثر منه مناضلة واجتهادا فى اذاعة المعرفة وتفقية المسيحيين وتنويرهم وتوقيرهم فى عيون البشر».

ومن يطالع أقوال آباء الكنيسة بشأن اوريجانوس لانعلم انما شجبت تلك الضلالات التى اذاعها الخصوم. وتاريخ الكنيسة مشحون بأخبار الانشقاقات التى قامت بين الاباء بسبب اوريجانوس فمنهم من كانوا يعتبرونه هرطوقيا ومنهم من كانوا يعتبرونه من معلمى البيعة الافاضل فمن خصومه.

(١) البابا ديمتريوس كما ذكر.

(٢) متيوديوس أسقف اولمبيا. وضع ضده ثلاثة كتب غير انه فى اخر حياته ادرك خطأه وذكر اويجانوس بكل احترام.

(٣) ابيفانيوس أسقف قبرص. هو اول من اذاع البدع عن اوريجانوس وعنه أخذ الاخرون.

(٤) ثوفيلس بابا الاسكندرية.

(٥) ايرونيموس أحد علماء سوريا فى القرن الرابع كان فى مبدأ الامر من انصار أوريجانوس ولكنه بسبب منازعات مع روفينوس المذكور أنه نقل كتب اوريجانوس للاتينية صار من الد أخصامه الا انه كتب عنه قبل ان يكون خصمه قائلا «لم يكن اوريجانوس مجرد كاتب عذب المشرب يرتاح اليه امراء الكتاب أو مجرد مؤلف فاق نظراءه بمؤلفاته الدانية القطوف بل كان بلا جدال المعلم الاول لجميع الكنائس بعد الرسل ولا مشاحة فى أن اراءه تعبر عن الارثوذكسية التى لم يشبها ضلال اما الذين استوقد الحسد ضلوعهم فاتهموه بالهرطقة فان هم الا كلاب كلبة». ولما اصبح يقاوم الاوريجانيين قال لهم «وافقونا على انا وريجانوس اتخدع فى بعض المسائل فلا يبقى لى ما أقول وان اعترضنا من يحسدونه على فخره ببعض اغلاط له فليعلموا ان الخطأ من شيم كبار الرجال فلا نتشبث بزلات من لا نستطيع مباراته فى فضائله».

ومن محبى اوريجانوس والمدافعين عنه:

(١) البابا ديونوسيوس الاسكندرى البطريرك الرابع عشر.

(٢) ثيوسيستوس أسقف فلسطين.

(٣) غر يغوريوس العجايبى.

(٤) اخوه ثينودوروس

(٥، ٦) غر يغوريوس النزينزى وباسيليوس الكبير. درسا العلم عن مؤلفات اوريجانوس وخصا منها رسائل عرفت باسم فيلوكالى

(محب الجمال) لتعليم الناشئة المسيحية واطلق عليها هذا الاسم لميل اوريجانوس الى كل مبدأ سام.

(٧) غريغوريوس أسقف نيصص بالكبادوك. كان كثير المطالعة لمؤلفات اوريجانوس حتى حفظ أغلبها وسار على منواله فى ماكتبه من الكتب وكان يلقب اوريجانوس بزعيم فلاسفة المسيحين.

(٨) بمفيليوس البيروتى تلميذ بيروس مدير المدرسة اللاهوتية نسخ معظم مؤلفات اوريجانوس بيده وشغف بمطالعتها وكتب عنه وهو سجين يقول «أن لخصوم هذا الفيلسوف عقولا قاصرة عن الخوض فى عباب مباحثه الواسعة وعاجزة عن ادراك سمو المعانى التى يرمى اليها من كان معلما للكنيسة بعد رسل الرب».

(٩) ديديموس الضرير مدير المدرسة اللاهوتية مدح كتاب المبادئ.

(١٠) البابا اثناسيوس الرسولى البطريرك العشرون دافع عن كتاب المبادئ.

(١١) القديس يوحنا فم الذهب. مات منفيا فى سبيل الدفاع عن مبادئ اوريجانوس التى كان كلفا بمطالعتها كما يتضح من تاريخ البابا ثاوفيلس البطريرك الثالث والعشرون.

(١٢) توتيم أسقف سيتى. أعترض على ابيفانيوس عندما قاوم القديس يوحنا فم الذهب لغرامه بكتب اوريجانوس بقوله «اعلم يا ابيفانيوس انه لا يمكننا أن نسئ الى الذى مات نقيا وليس فى استطاعتنا ان نحرم اسفارا اعتبرها آباؤنا ارثوذكسية فضلا عن أننا لم نجد فيها أثرا للهرطقه».

(١٣) ايسيذوروس مدير مدرسة الاسكندرية والاخوة الطوال القامة. دافعوا عن اوريجانوس دفاع الابطال وطردوا من الاسكندرية وصادفوا الاهوال فى سبيل تمسكهم باحترامه وقد اقسم هو والاخوة المذكورون على أن اوريجانوس برئ من كل هرطقة.

(١٤) يوحنا ٢ أسقف اورشليم. هام بكتب اوريجانوس وحاول ابيفانيوس وايرنيموس ان يجعلاه بنكف عن مدح اوريجانوس برسالة بعث بها اليه الاول ولكنه لم يفعل بل كتب محاماة عن اوريجانوس رسالة أرسلها الى البابا ثوفيلس البطريرك الاسكندرى حينما كان يجل اوريجانوس فيظهر لنا أن اصدقاء اوريجانوس أكثر اعتبارا فى نظر الكنيسة من خصومة فلو كان اوريجانوس هرطوقيا لما دافع عنه أولئك وبالتالى كانوا يعتبرون مثله محرومين لغرامهم بمطالعة كتبه واجلالهم لشخصه العظيم.

أما أكثر مؤلفات اورجانوس فقد وصلت الينا فى ترجمات غير صحيحة بقلم ايرونيموس وروفينوس وكثيرون من العلماء القدماء اقتبسوا منها. واشهر مصنفاته الى وصلت الينا فى اللغة الاصلية هى:

(١) كتاب عنوانه «الرد على كسلوس» كتبه فى ثمانية اجزاء.

(٢) مجموع مقالات فى «الصلاة الربانية» وهو الكتاب الثانى الذى وصل الينا بتمامه فى اللغة الاصلية.

(٣) كتابه فى «الشهداء»

(٤) فى «الرئاسات» وهو كتاب بالغ الخصوم فى انتقاده وأجزاؤه أربعة:

١ ـ يبحث عن الاقانيم فى الثالوث الاقدس وعن السقوط وعن الطبيعة العاقلة وعن المخلوقات المادية والروحية وعن الملائكة.

٢ ـ يبحث عن العالم وما فيه ويثبت ان اله العهد القديم واله العهد الجديد واحد ويفصح عن التجسد والقيامة وعقاب الصالحين.

٣ ـ يبحث عن حرية الارادة وعن الشيطان وعن تجربة الانسان وعن أصل العالم ونهايته.

٤ ـ يبحث عن الاسفار المقدسة وأصلها الالهى وعن كيفية مطلعتها ودرسها. ويوجد

الآن من هذا الكتاب قطع كبيرة في اللغة الاصلية ولا سيما من الجزء الثالث والرابع.

(٥) شرح الكتاب المقدس في ثلاثة أجزاء:

١ - يتضمن تفسير بعض الاسفار المقدسة كسفر التكوين والخروج وحزقيال الخ وانجيل متى ويوحنا والرسالة الى أهل رومية الخ ولم يبق من هذا الجزء سوى أوراق قليلة.

٢ - يتضمن ملاحظات على آيات غامضة من الكتاب وهو لا يعرف الا من الماع المعلمين الاولين اليه واقتباسهم منه

٣ - يتضمن مواعظ ومقالات قدمها في قيصرية أو ارتجلها بعد ان اتى عليه من العمر ستون سنة بعضها موجود الان في اللغة الاصلية ولكن اكثرها مترجم الى اللغة اللاتينية بقلم ايرونيموس وروفينوس.

(٦) كتاب موسوم «بالمتنوعات» في عشرة اجزاء الفه اقتداء باكليمندس استاذه غير ان هذا الكتاب فقد ولم تبق منه سوى فصول قليلة استشهد بها ايرونيموس في مصنفاته.

(٧) كتاب سماه «القيامة» لم يبق منه الا اجزاء قليلة.

(٨) كتاب عناه «بالمسدسات» وضع فيه آيات الكتاب المقدس في ستة حقول متوازية:

١ - يتضمن المتن في اللغة العبرانية. وبحروف عبرانية.

٢ - آيات الكتاب المقدس في اللغة العبرانية بأحرف يونانية.

٣ - الترجمة اليونانية التي وضعها اكويلا الدخيل اليهودي في أوائل القرن الثاني.

٤ - الترجمة اليونانية لسماخوس الابيوني السامري الذي نبغ في القرن الثالث.

٥ - الترجمة السبعينية التي نشأت في الاسكندرية في القرن الثالث قبل المسيح.

٦ - الترجمة اليونانية التي وضعها ثيودتيون الدخيل اليهودي بعد اكويلا يزمن قليل.

(٩) رسائل عديدة دوّن منها يوسيبيوس مائة رسالة غير أنها فقدت ما خلا القليل منها.

وقد وضع اوريجانوس في بعض كتبه ترجمة خامسة وسادسة وسابعة للكتاب المقدس وكان قصارى مرغوبة تنقيح الترجمة السبعينية بمعارضتها بسائر الترجمات فكان يدل على الآيات غير الواردة في الاصل العبراني بهذه العلامة × ويدخل الآيات المحذوفة في الترجمة السبعينية واضعا قبالتها هذه العلامة. وقد كانت نسخة هذا الكتاب الاصلية محفوظة في مكتبة قيصرية التي انشأها بامفيلوس الشهير المناضل عن اوريجانوس والارجح انها احرقت ولم تكن نسخة اخرى مثلها وقتئذ اذا كانت الترجمة السبعينية المنقحة متواترة وحدها. ولا يبعد أن اوريجانوس الف كتبا أخرى عديدة على الاسفار الالهية وكتب رسائل جمة ضد بعض البدع ولما كان جدول مؤلفاته الذي وضعه يوسيبيوس وايرونيموس مفقودا عزيت اليه رسائل لم يكن يعرفها مطلقا. كما انه اول من كتب كتبا لتعليم الديانة للمبتدئين ويعتبر كتاب «ستروماتا» وكتبه الاربعة المبادئ شرح اكثر تعليم المسيحية.

وقد جد العلماء في طبع مؤلفات اوريجانوس لا سيما ترجمات الكتاب المقدس وأهتموا باعادة ما فقد منها وجعلوها على نسق القطع الموجودة وطبع الجميع عدة طبعات اشهرها طبعة منتفوكون وهي في مجلدين طبعا في باريس سنة ١٧١٣م وطبع كتب المبادئ حسب ترجمة روفينوس اللاتينية مع نقصه وتغييره وتحريفه طبعه ردينيغ في ليبسيك سنة ١٨٣٦م وطبعة ثينتسر في شتوتجارت وطبع رسالة في الاستشهاد في بازل سنة ١٦٧٤ . وطبعت تآليفه كلها في باريس بين سنة ١٧٣٣ و١٧٥٩ فجاءت في اربعة مجلدات ضخمة.

وجـا الى اسكندريه وال عـوضـا من بنطنوس اسمه اكليموس وكان واليا الى تلك الايام، وصنع اكيلمس كتبا من نفسه يبطل به التواريخ.

ثم ان انسانا يهوديا كاتبا كان اسمه يهودا كان يقرا فى كتاب رويا دانيال النبى فى عاشر سنه من ملك سويرس وكان يسوى السنين والتواريخ الى زمان الدجال باختياره ويقول قد قرب الوقت من اجل افعال سويرس(*) الملك العدو، فلما نظره

(*) سويرس الملك: تولى سنة ١٩٣م. و جاء فى زيارة إلى مصر توغل فيها حتى طيبة فى الجنوب. وقع فى عهده اضطهاد للمصريين على يد نائبه بها ليتوس.

السماء ما يليق بها من عبادة، فان محبتنا وما الفناه من الصفح عن الجميع قد دفعتنا الى أن يشمل عفونا هذه الأمور أيضا، حتى يعودوا الى مسيحيتهم ويعيدوا بناء تلك الأماكن التى اعتادوا الاجتماع فيها، شريطة أن لا يقوموا بعمل ضد النظام العام. وفى رسالة أخرى سوف نبين للولاة ما يجب عليهم اتباعه. وبناء على ذلك يجب عليهم أن يضرعوا لالههم من أجل سلامتنا وسلامة الشعب، لكى يتم بذلك لهم وللشعب كافة الصالح العام، وحتى يحيوا فى ديارهم أمنين.

صدر هذا المرسوم فى ٣٠ أبريل ٣١١، ومات جاليريوس فى مايو بعد أن تمكن منه المرض.

وما أن تلقى ماكسيمين نبأ وفاة جاليريوس حتى هرع ليبسط سيطرته على أقاليمه فى الشرق، فلما دخل بيثينيا حاول اجتذاب الأهالى الى صفه فأمر بالغاء الضرائب التى كان الامبراطور الراحل قد فرضها. هذا بينما تباطأ ليكين فى أوروبا ليدعى لنفسه ملكية المناطق الممتدة حتى المضيق الخلقيدونى، وأنذرت الحوادث تلك بوقوع صدام سافر بين الامبراطورين الطامعين، وسرعان ما دب النزاع بينهما على اقتسام الغنيمة، ووقف كل منهما بجيوشه قبالة الآخر على شاطئ البسفور، ولكن الامبراطورين آثرا التمسك بأهداب سلام مؤقت، فتباعدت الحرب بينهما الى أجل أت لا ريب فيه، ولما اعتقد ماكسيمين أن كل شئ قد أنتهى عاد أدراجه الى نيقوميديا.

اروجانوس، الذى قطعه الاب ديمتريوس بسبب فعله ما لا يجوز من كتب السحر ورفضه كتب القديسين، وانه وضع كتب كثيره عن نفسه فيها تجديف كثير، منه ان الاب خلق الابن وان الابن خلق روح القدس، ولم يقل ان الاب والابن والروح القدس اله واحد، وان الثالوث لا يعجزه شي بل قوته واحده وربوبيته واحده. ولاجل سو اعتقاده رفضته البيعه اذا كان غريبا منها وليس هو من واولادها لفساد مقالته. فلما طرد منها وزال

أما فى الغرب فكان الزمن يجرى سراعا ليعجل صراعا محتوما بين قسطنطين وماكسنتيوس، فقد وجد هذا الابن العاق، الذى رفض مرارا أن يقبل والده شريكا له فى الحكم فى مقتل أبيه على يد قسطنطين نهزة لاشعال نيران الحرب ضده، ويسخر لاكتانتيوس من هذا التصرف من جانب ما كسنتيوس الذى غدا فجأة ابنا بارا بوالده.

وهكذا كان طموح الأباطرة الأربعة وأهواؤهم سببا فى اذكاء نيران حرب أهلية فى الامبراطورية استمرت قرابة ثلاث عشرة سنة. وفرضت ظروف التنافس بين الجيران على كل منهم أن يبحث عن حليف ضد جاره. فامبراطورا الشرق ليكين وما كسيمين يتربص كل منهما بصاحبه الدوائر لينفرد بحكم الجزء الشرقى، وهكذا كان امبراطورا الغرب قسطنطين وماكسنتيوس. وأملت طبيعة الصراع على كل منهم أن يوطد صداقته مع الحليف الأبعد ضدجاره القريب فقفز قسطنطين عبر ايطاليا وما كسنتيوس ليتحالف مع ليكين، بينما خطا ماكسيمين خطوة واسعة فوق الليريا وتراقيا وليكين ليصل الى ما كسنتيوس، ذلك أن قسطنطين قد رحب بزواج أخته قسطنيا من ليكين وكان هذا الزواج مدعاة لتوكيد الشكوك التى ساورت ما كسيمين عن نيات الامبراطورين فى التحالف ضده، خاصة بعد ما كان بينه وبين ليكين عقب وفاة جاليريوس، فسأرع الى ارسال سفرائه الى روما تعرض التحالف على ماكسنتيوس فرحب هذا بهم وأكرم وفادتهم، واعتبر ذلك العرض عونا الهيا، حيث كان على

طقسه خرج من اسكندريه ومضى الى فلسطين وتحيل حتى نال درجة الكهنوت واقسم قسا من يد اسقف قيساريه فلسطين، ثم عاد الى اسكندريه واعتقد ان يتم له فيها كهنوت ويفعل ما اراده، فلم يقبله الاب القديس ديمتريوس وقال له: يوجب قانون الابا الرسل ان لا يفارق كاهن المذبح الذى قسم عليه فامض الى الموضع الذى قسمت فيه قسا فاخدم فيه هناك باتضاع كالقانون، وانا فما احل قانون البيعه لجل مجد الناس، فبقى مطرودا.

وشك الدخول فى حرب مع قسطنطين. وقد تأكد أمر هذا التحالف بعد أن عثر قسطنطين فى روما على بعض الرسائل التى كان ما كسيمين قد بعث بها الى حليفه.

يذكر المؤرخ لاكتانتيوس أن قسطنطين قد أقدم على طرح تماثيل ما كسيميان أرضا وازالة الصور التى كانت قد أقيمت له. فرد عليه ماكسنتيوس باجراء مشابه، فحطم تماثيله وصوره فى روما ومدن ايطاليا. وهكذا أعلنت الحرب رسميا بين الامبراطورين. وكان لدى ماكسنتيوس من المشاة مائة وسبعون ألفا، وثمانية عشر ألف فارس، فاذا أسقطنا من حسابنا تلك القوات الموجودة فى أفريقيا وسردينيا وكورسيكا وصقلية، فان ماكسنتيوس لم يتمكن الا من وضع نصف هذا العدد فقط على خط القتال، هذا على حين كانت قوات قسطنطين تسعين ألفا من المشاة وثمانية آلاف على الخيل، وان كان قد ترك جزءا من هذه القوات لتحمى جبهة الرايـن.

وكانت خطة ماكسنتيوس تقوم على أساس الحيلولة دون اتصال قوات قسطنطين وليكين اذا ما حاولت قوات الآخير أن تنضم الى صهره، فمركز عددا ضخما من قواته عند فيرونا Verona التى تعد مدخل ممر برنر Brener بجبال الألب فى شمال ايطاليا، غير أن قسطنطين عبر الألب عن طريق Mont Cenis وهبط الى Susa حيث كانت توجد بعض التحصينات الصغيرة، واستطاع رجاله الاستيلاء عليها بعد أن أشعلوا النيران فى أبوابها، وتسلقوا اسوارها، وان كان

وكان هذا من قبل ان يعرف الاب البطرك تجديفه وكفره وهذا صار شكا لجميع الناس لانه صير نفسه معلما وهو لا يستحق ان يكون تلميذا.

واما سويرس الملك فاقام ثمان عشره سنه ملكا ومات وملك بعده انطونينوس ابنه، وبعدذلك ظهر قوم اقويا بتأييد المسيح بتدبير الله اسم احدهم الاكسندروس وهو المعترف و صار اسقفا على اورشليم بعد نركسوس. وهذا الانسان نركسوس

قسطنطين قد أصدر أو أمره باخماد هذه النيران وكبح جماح جنوده عن نهب المدينة. وأمام تورينو Augusta Taurinourm قوبل قسطنطين بخيالة عدوه فاستطاع بمناوره عسكرية أن يوقع مذبحة مروعة بهؤلاء الفرسان، فتحت على أثرها تورينو أبوابها للظافر، ثم استسلمت على أثرها ميلانو، فمكث فيها قسطنطين قليلا ثم واصل سيره، فالتقى بجزء آخر من فرسان عدوه عند بريشا Brescia (Vrixia) فكانت الغلبة لجنوده.

وكانت القوة الرئيسية لما كسنتيوس عند فيرونا تحت قيادة روريكيوس البومبى Ruricius Pompeianus، وكان موقفه قويا الى حد كبير حيث كانت المدينة محصنة وقد فرض قسطنطين عليها الحصار. الا أن القائد استطاع الافلات خلسة ليعود من جديد وفى صحبته مدد آخر وبعد صراع عنيف قتل روريكيوس واستسلمت قلعة فيرونا ولم تلبث المدن الآخرى أن أسلمت للمنتصر قيادها، فأصبح الطريق مفتوحاً الى روما، فشق طريقه ليصبح أمام التيبر فى ٢٦ أكتوبر ٣١٢.

وأثناء هذه الرحلة الموفقة تراءى لقسطنطين فى السماء ـ ما أخبر به المؤرخ المسيحى يوساب وهى تلك الهالة المضيئة تحيط صليبا ارتسمت تحت عبارة «بهذا سننتصر Tou Tw vika ثم زاره السيد المسيح أثناء نومه مؤكدا له ما سبق أن تراءى له».

كان يصنع عجايب كتيره فى حياته حتى انه لما عجزت البيعه عن زيت [القناديل] امرهم ان يملاو القناديل ماء، وكانت جمعه البصخه، وصلى فصار الما [ء] زيتا ووقدت القناديل. فعل هذا دفوعا عدة لايمانه باتحاد السيد المسيح، و كل احد يشهد له بذلك، وعرفنا خبره من الثقات، فحسده قوم بشرهم وارادوا قتله وكذبوا عليه وحلفو انه يفعل الردى، فوقف احدهم يوقد نارا فاحرقته، واخر نزل

كان واضحا أن ماكسنتيوس بعد أن تلقى الأنباء المتتالية عن هزيمة جيوشه فى الشمال، قد قرر البقاء فى روما وتحصينها، وكانت أسوارها منيعة للغاية، كما أنه كانت لديه كميات وفيرة من قمح مصر و أفريقيا، وقوة من الجند لايستهان بها، وقوى من هذا الاقتراح عنده ما أنبأ به العرافون من أن خروجه سيسبب له كارثة فادحة. غير أن اضطرابا وقع فى المدينة بعد ما أشيع بين الناس القول بأن قسطنطين لا يقهر نتيجة لهذه الانتصارات المتتالية، فانزعج ماكسنتيوس وأمر حاملى الكتب السيبيللية باستطلاع الغيب، فأخبروه أن هناك نبوءة تقول أنه فى يوم ٢٨ أكتوبر سوف يهلك أعداء الرومان، ولما كان ما كسنتيوس يؤمن بالطيرة والعرافة كما يذكر مؤرخو الكنيسة، فقد تأثر بهذا التلميح الذى يعنى يوم اعتلائه العرش، ومن ثم فقد عزم على أن يقابل عدوه فى هذا اليوم، وبناء على هذا الوحى الغامض عبر ماكسنتيوس التيبر ليلتق بعدوه فى مكان سمى الصخور الحمراء Saxa Rubra قرب القنطرة الملفية Mulvius Pons وكانت هذه الخطة التى أقدم عليها ماكسنتيوس جهلا بفنون الحرب، اذا بدلا من أن يترك لخصمه مشقة عبور النهر فيسهل القضاء عليه، تطوع هو للقيام بهذه المغامرة، فكان عاقبة أمره خسرا، حيث تمكن قسطنطين من انزال الهزيمة بقواته واجبارها على التراجع نحو التيبر حيث غرق الكثيرون منهم، ولما حاولت بعض الجموع وعلى رأسها ما كسنتيوس الدفاع عن القنطرة خارت قواهم وغرق الامبراطور، وهكذا تحققت النبوءة الغامضة بهلاك أعداء الرومان

كلما فى جوفه ومات، واخر مرض وذاب جسمه، واخر عمى. فعلموا الناس كذبهم عليه لما ظهر من قدسه. وصير اسقفا ولم ينله شى من السو لانه كان متعبدا حكيما معترفا بالسيد المسيح.

وكان امره انه هرب من البيعه واوى البريه لان الشعب كان مشتتا وبعضهم قذفوه بالمحال. فلم تصبر العين التى تنظر كل شى وجازى المخالفين باعتقادهم الردى وايمانهم الكاذب عليه، فالاول

فى ٢٨ أكتوبر ٣١٢. ويشبه يوساب ما حدث هنا بما كان من أمر فرعون وموسى حيث غرق فرعون وجنوده فى اليم لأنهم ـ كما كسنتيوس من بعد ـ عصوا أمر الرب.

وفى اليوم التالى لهذه الأحداث دخل قسطنطين روما دخول الظافر حيث قوبل بترحاب كبير من السناتو والأهالى الذين عمد هو منذ البداية الى التودد اليهم، وفرض بعض العقوبات على أتباع ماكسنتيوس، وفرق الحرس البريتورى وكانت تلك خطة بارعة أقدم عليها قسطنطين ليجرد المدينة من قوتها، وخلع السناتو الرومانى على قسطنطين لقب Maximus، بينما استخرجت جثة ما كسنتيرس من التيبر حيث احتزت رأسه وطيف بها فى روما حتى يشهدها العامة، ثم أرسل بها الى أفريقيا لتقر بتغيير سيدها.

بهذا غدت روما وايطاليا وأفريقيا واسبانيا فى قبضة قسطنطين، بالاضافة الى غالة وبريطانيا، فأضحى بذلك سيد الغرب الفرد بلا منازع، ولكن طموح قسطنطين كان أكبر من أن يتسع له هذا الجزء، فقنع مؤقتا بما جادت به الأيام وانتظر ما تجئ به، ولم يكن فى انتظاره سلبيا يتوقع الحوادث، بل يحركها ويدير دفتها حتى صار للامبراطورية كلها سيدا.

لم يمكث قسطنطين فى روما طويلا، فبعد أن تأكد لديه أن الأمور قد استقرت غادرها الى ميلانو حيث وافاه هناك ليكين ليتسلم زوجته قسطنديا. وشهدت المدينة الى جوار الاحتفالات الضخمة التى أقيمت فى هذه المناسبة اجتماعات عقدها الجانبان لتوكيد عرى الصداقة

منهم مات هو وكل بيته بحريق نار نزل عليهم، والاخر لحقه وجع من راسه الى قدمه بحرقه عظيمه، وبدا الاخر يهرب لعلمه بما صنع وعاجله الله وعمى للوقت واعترف على نفسه عند كل احد بعقله السو الذى صنعه فى القديس الاسقف، واكله قلبه وندم وبكى لاجل انه عدم بصره.

فاما نركسوس الاسقف فانه اختفى فى البريه

والتحالف، وللاتفاق على رسم سياسة معينة واضحة تجاه هذا البعض (المسيحيين) من رعايا الامبراطورية الذين قضوا من عمرهم أعواما طوالا يقاسون ويلات التعذيب والاضطهاد، ووضع حد لهذه المشكلة الدامية التى أرهقت السياسة الداخلية للامبراطورية دون أن تفلح هذه فى ايجاد حل لها، فاتفق الطوفان على اطلاق حرية العقيدة لجميع الرعايا الخاضعين لسلطانهم شريطة ألا يتعارض ذلك مع الصالح العام للامبراطورية وهو الاتفاق الذى شاع عند المؤرخين باسم «مرسوم ميلانو» فى عام ٣١٣.

هذا على حين كان ماكسيمين فى الولايات الشرقية من الامبراطورية ينهج نهجا مخالفا، فقد كان من أكبر أنصار اضطهاد الرعايا المسيحيين طيلة عهد جاليريوس، بل انه اشتط فى هذه السياسة حتى فاق بها كثيرين ممن سبقوه. فلما أصدر جاليريوس مرسوم التسامح سنة ٣١١، لم يكن ماكسيمين راغبا فى اتباعه، ولذلك فانه بدلا من ارسال نص المرسوم الى ولاته أعطاهم أوامر شفهية لتخفيف حدة الاضطهاد عن المسيحيين، لأنه لم يكن بمقدوره أن يبدو فى صورة المعارض لأوامر سيده. غير أن سابينوس Sabinus محافظ البريتورى، وجه رسائل خاصة الى كل حكام الولايات التابعة لما كسيمين جاء فيها:

«سبق لأصحاب الجلالة الأباطرة أن وجهوا تفكير رعاياهم دوما للسلوك فى سبيل الحياة النقية السليمة، وحتى يقدم أولئك الذين يحيون بصورة لاتتفق مع الرومان والعبادة الواجبة

ولم يعرف موضعه الابعد زمان كتير فاوجب الحال لاجل خلو البيع التى كان اسقفا عليها ممن يدبر ها ان وسموا عوضه انسانا اسمه ديوس فلم يقيم الا مده يسيره وتنيح، واوسم اخر عوضه يسمى كومانيون. وبعد ذلك ظهر الاب الجليل نركسوس كمثل من قام من الاموات، وسألوه ان يعود الى كرسيه وفرح به الشعب فرحا عظيما وكان قد افرغ نفسه للحكمه والنعمه التى استحقها من الله فلم يعد الى الخدمه لكرسيه.

للارباب الخالدين، ولكن عناد البعض وعزمهم الذى لا يلين ذهب الى حد بعيد فلم يتزحزحوا قيد أنمله عن مقصدهم رغم ما أعطى اليهم من أوامر، ولا خارت نفوسهم رغم ما توعدهم من قصاص. ونظرا لان الكثيرين ـ بمثل هذا السلوك ـ قد وضعوا أنفسهم تحت طائلة العقاب فان أصحاب الجلاله الاباطرة بسبب ما جلبت عليه نفوسهم من نبالة وتقى، وجدوا أنه مما يتنافى مع مقصد جلالتهم أن يعرضوا - نتيجة لذلك ـ أناسا للخطر، فامروا خادمهم الأمين ـ أعنى شخصى لكى أكتب الى فطنتك بأنه لا يجب أزعاج أى مسيحى يمارس طقوس ديانته أو تعريضه للخطر، لذلك احرص على أن تكتب لأولى الأمر والقضاة ورؤساء المدن مخبرا اياهم بهذا الأمر».

وبناء على ذلك قام حكام الولايات بنقل هذه الأوامر الى من تعنيهم، وسعوا بأسرع ما يمكن لاتمام ما حسبوه رغبة الامبراطور الحقة، فأطلقوا سراح اولئك المسجونين، واعادوا من النفى من كانوا قد بعثوا بهم إلى المناجم لأنهم. على حد قول يوساب، ظنوا خطأ أن هذه هى رغبة الامبراطور.

على أن ماكسيمين لم يسمح بذلك أكثر من ستة أشهر ثم عاد من جديد يمارس سياسة اضطهاد ا لمسيحيين، وكان ثيوتيكنوس Theoticnus والى انطاكية يوافق الامبراطور ميوله فصب جام غضبه على ا لمسيحيين، وأقام تمثالا هناك لرب الأرباب جوبيتر، وأوعز الى

واما الاكسندرس المقدم ذكره فانه كان فى كرسى اخر فرأى ملاك الله فى منامه يأمره بمساعدة نركسوس هذا ويخدم الله، لانه كان قسم اسقفا فى كبادوكيا اولا وجا الى يروشليم فى ذلك الزمان ليصلى فنظر البيع المقدسه التى كان يشتهى ان يراها وطاف حول المواضع المباركه كلها وعول على الرجوع الى كبادوكيا بلده، فمنعوه الاخوه. واعلم فى المنام وسمعو باجمعهم صوتا فى البيعه يقول اخرجو الى الباب فاول رجل يدخل منه

الامبراطور أن الآلهة أمرت بطرد المسيحيين - كأعداء له ـ خارج حدود المدينة وما جاورها من أقاليم، وقد أدى نجاحه فى ذلك الى اغراء كل مواطنى المدن الواقعة فى نفس المنطقة على أن يحذو حذوه ما دام ذلك يرضى الامبراطور، ومن ثم أنهالت على ماكسيمين رسائل عديدة من مختلف المناطق تطلب اليه منع المسيحيين من البقاء أو الاقامة داخل أسوار هذه المدن. وقد عين ما كسيمين فى كل مدينة كاهنا أعلى كانت مهمته مراقبة تقديم الأضحيات للأرباب ومنع المسيحيين عن التضحية للالهة، فاذا ما رفضوا وجب عليهم المثول أمام الحاكم المدنى لينالوا جزاءهم. واذا أصروا ـ المسيحيون ـ على ضلالتهم اللعينة، فليطردوا من مدينتك ومقاطعتك كما أردت لكى تستطيع مدينتك ـ اذ تتحرر من كل دنس وكفر ـ ممارسة الشعائر المقدسة للالهة الخالدة.

غير أنه قبل نهاية عام ٣١٢ عاد ماكسيمين من جديد يؤثر سياسة التراجع عن التمادى فى الاضطهاد، فبعث برسالة الى سابينوس، حاول فيها أن يبرر سياسته السابقة فى أمر الاضطهاد وأن يخفف عن نفسه مسئولية عنف هذه الاجراءات وتطالعنا افتتاحية الرسالة برغبة دقلديانوس وما كسيميان فى اعادة أولئك الذين هجروا عبادة الالهة واعتنقوا المسيحية الى سابق عهدهم عن طريق التأديب العلنى والقصاص، ويذكر أنه سعى الى تخفيف حدة هذه الاجراءات بعد ما رأى من امكانية الاعتماد على كثيرين ممن يتعرضون للتعذيب فى تأديه

تلقونه اجعلوه اسقفا ففعلو ذلك وتلقو الاكسندرس وتعلقو به فامتنع وقال: ما افعل. فاصلحوه قهرا بحضور جماعه من الاساقفه ببلد اورشليم وبامرهم وبرأى واحد واتفاق واحد.

وكتب الاكسندرس كتبه التى كان انفذها الى انصنا وذكر فيها نركسوس وانه معه بامانه واحده واتفاق واحد فى بيعه يروشليم.

وكان فى كل كتبه يقول: نركسوس يقرا

الخدمات العامة، فأمر القضاة ألا يشتطوا فى تنفيذ الأوامر السابقة، غير أنه عندما أتى الى نيقوميديا بعد وفاة جاليريوس، تقدم اليه بعض أهلها يلتمسون منه آن لا يسمح للمسيحيين بالاقامة بين ظهرانيهم، وتابعهم فى ذلك كثير من المدن الأخرى، فلم ير بدا من اجابتهم لما يريدون، ولكنه كان يرى، كما يذكر، أن الاقناع هو خير وسيلة لاعادة هذه القبيلة من الناس الى قدس الأرباب ثانية. ومن ثم فانه يجب أن لا يضار أحد بسبب عقيدته، بل تترك الحرية الدينية للجميع، وان كان من المفضل استمالة المواطنين بالنصح والترغيب، وليس بالعنف والترهيب، الى عبادة الالهة.

كانت الحرب بين ماكسيمين وخصمه أمرا لا مندوحة عنه خاصة وأن هذا الأخير لم يكن قد أشرك فى أى جزء من الأقاليم التى غنمها مؤخرا قسطنطين، بل تركه ليمد نفوذه هو الاخر على حساب جاره ماكسيمين ولم يكن هذا الأخير يقل طمعا عن صاحبيه، فقد كان لا يقنع بتلك المنطقة التى يسيطر عليها. وكادت الحرب أن تنشب بينه وبين ليكين عقب موت جاليريوس مباشرة سنة ٣١١ الى أن استبدلا بها معاهدة للسلام مؤقتة.

كانت خطة ماكسيمين تقوم على أساس أن حليفه ماكسنتيوس سوف يقاوم قسطنطين لفترة طويلة، مما يجعل ليكين يدفع بقواته لمناصره حليفه، وبهذا تسنح الفرصة لما كسيمين ليهاجم أقاليم جاره أثناء خلوها من القوات. ولكن الأمور سارت على عكس ما توقع وعلى

عليكم السلام الذى هو قبلى فى الاسقفيه فى هذا المكان وهو الان معى ويويدنى و يشدنى بصلواته لاقوى على هذه الخدمه. وقد اقام ما يه و ست عشره سنه على هذه الخدمه، وانا طلب اليكم ان تكونوا معى بقلب واحد.

ومنهم سرابيون الذى صار بطركا على انطاكيه وتنيح، ووسم اسكليباتوس المعترف ايضا وعلت درجته. وكان الاكسندروس قد كاتب اهل انطاكيه

غير ما كان يهوى فؤاده، ذلك أن حربا خاطفة طاحنة انقشعت عن ابتلاع التيبر لما كسنتيوس وجنوده، وماهو ألا يوم أو بعض يوم حتى فتحت روما أبوابها لقسطنطين، فهلل أهلوها ورفعه السناتو مكانا عليا، ثم لم تكن الا أشهر قلائل حتى التقى الحليفان فى ميلانو يرسمان للمستقبل سياستهما، ويدشنان تألفهما بحفل زواج ليكين وقسطنديا، ودخل فى روع ماكسيمين أن فى خطتهما للمستقبل نهايته، وأن فى ا نشغالهما بهذا العرش فرصته. ومن ثم صمم على أن يهتبلها ليضرب ضربته قبل أن تضيع الى الأبد.

التقى الجيشان قرب هرقليا Herraclia وأصبحت المعركة وشيكة الوقوع، يقول لاكتانتيوس أن ماكسيمين قد نذر لان أظفره جوبتر بعدوه ليمحون من الوجود اسم المسيحيين، ولكن هذا القول لا يتفق وما ذكرنا عن الخطة التى اتبعها ما كسيمين للتودد الى رعاياه المسيحيين بذلك المرسوم الذى أصدره فى شتاء ٣١٢ /٣١٣ يرفع عن كواهلهم نير الاضطهاد، ولم يكن ما كسيمين من البلاهة بحيث يظهر هذا التحدى السافر لشعور جزء كبير من رعيته وهوعلى أبواب معركة يحتاج فيها لأن يجمع الصفوف كلها حوله ومن خلفه. أضف الى ذلك أيضا أن ما أقدم عليه ما كسيمين بعد هزيمته أمام ليكين ازاء المسيحين من العفو عنهم يضع قول لاكتانتيوس فى محك الاختبار.

وان جعل لاكتانتيوس اعتماد ما كسيمين على جوبتر، فلابد أن يعتمد ليكين على قوة الهية

بسببه وقال هكذا الاكسندروس عبدالله المعترف بيسوع المسيح يكاتب البيعه المقدسه بانطاكيه بالرب بفرح على يد القس العفيف اكليمنتس: يا اخوتي احب ان تقدمو اسكليباتوس فهو مستحق لهذه المترله فوسموه.

وكتب ايضا اليهم كتابا يقول فيه ان انسانا يهوديا اسمه مركيانوس عمل كتاب نسبها الى بطرس رأس التلاميذ وذكر فيها كلاما كذبا

مضادة ولما كان قد اتفق وقسطنطين في ميلانو على منح المسيحيين حرية العقيدة فقد اعتمد على المسيح.

وفي ٣٠ أبريل ٣١٣ التقى الجمعان، فتحقق لما كسيمين بذلك بعض ما كان يبغى، غير أن أمله في النصر لم يأته أبدا، ففي معركة خاطفة هزم ماكسيمين هزيمة ساحقة وهرب إلى نيقوميديا.

حالما وصل ماكسيمين الى نيقوميديا أراد من جديد استرضاء رعاياه المسيحيين ليضمن وقوفهم الى جواره في معركة فاصلة قادمة بينه وبين ليكين، فأصدر مرسوما في صالحهم ذكر فيه حرصه الدائم على توفير أسباب الراحة والهدوء لمواطنيه، وأنه قد اتضح له أن كثيرين من الموظفين قد ارتكبواعديد من حوادث السلب والنهب تحت ستار تنفيذ الأوامر التي كان قد أصدرها دقلديانوس وما كسيميان لتحريم اجتماعات المسيحيين، ونلاحظ أنه يلقى بالتبعية كاملة هنا وفي رسالته السابقة الذكر الى سابينوس على هذين الامبراطورين، ويستطرد في مرسومه موضحا أنه نتيجة ذلك عمل على تخليص هؤلاء المسيحيين من عسف أولئك الموظفين، ثم يذكر ما كان من أمر رسالته الى سابينوس وما جاء فيها من حرية العبادة للمسيحيين، ولكن قضاته وموظفيه – على حد قوله ـ حرفوا هذه الأوامر، لذلك رأى أن يذيع أمرا امبراطوريا بحرية العقيدة لجميع مواطنيه، وممارسة الطقوس الدينية وبناء دور العبادة، كما

فاحرسو نفوسكم من هذه الكتب. ونحن نقبل بطرس وباقى التلاميذ كقبولنا امر المسيح لانهم شاهدوه وسمعو كلامه منه، واما هذه الكتب الكاذبه فليس نقبلها بل نبعدها لان ليس فيها شى من تعليم ابهاتنا. فلما وصل اليهم القس بالكتب قال لهم: اثبتوا على الامانه الصحيحه ولا ترجعو الى الكتاب الباطل الذى نسب الى بطرس فهوكذب وضلال وفيه بداية الخلف، ولهذا جيت

أمر برد الكنائس المصادرة الى ملكيتها المسيحية. غير أن ذلك كله لم يجده نفعا، فقد ضاعت فرصة النصر من يديه بهزيمته فى هرقليا، وأضحت جهوده اليائسة للم شعث جنود جدد من آسيا وسوريا محاولات لاجدوى وراءها.

ومن نيقوميديا ارتحل ماكسيمين وبصحبته أهله، وفى معيته بلاطه ميمما شطر سوريا، ولكنه توقف فى كبادوكيا حيث ارتدى من جديد عباءته الامبراطورية وكان قد خلعها أثناء فراره. فكان ذلك ايذانا بعزمه على مواصلة الحرب ضد ليكين، وكان هذا قد وصل الى نيقوميديا، وبعث فى ١٣ يونية ٣١٣ رسالة الى حاكم بيثينيا، وهى الرسالة التى ذاعت فى التاريخ خطأ باسم مرسوم ميلانو.

تقهقر ماكسيمين حتى وصل الى طرسوس Tarsus وتحصن بها، ولكن عاجلته المنية فوضع موته المفاجئ فى هذه اللحظة ليكين سيدا على الولايات الشرقية. وهكذا أصبح فى الحكم امبراطوران، ليكين فى الشرق، وفى الغرب قسطنطين.وكانت صفحة من صفحات الحروب الأهلية داخل الامبراطورية قد بقيت لم تطو بعد لتسجل صراعا عنيفا بين حليفين لدودين.

لما كان ليكين يتوجس فى نفسه خيفة من قسطنطين، فقد كان يدرك تماماً مبلغ طموح هذا الرجل منذ عرفه قيصرا، فامبراطورا شريكا، فحليفا، وكان فى سياسة قسطنطين قبل

ليكم مسرعا. وقد علمنا بان هذا مرقيانوس اليهودى قد اضل جماعه بكتبه و صارو مخالفين لان هذا المخالف قد كتب كتبا كثيره وشرح بعضها فى السيره، ولما فيها من التطويل استغنى عن كتبها.

فاما ديمتريوس بطرك اسكندريه القديس فاظهر العلوم و الحكمه بعد ان كان اميا لا يقرا ولا يكتب، وكانو جميع اولاده موبخين منه. فلما رأى

ماكسيميان وولده دليل واضح على نياته، مما زاد الشكوك فى صدر ليكين، وذهبت به الظنون كل مذهب، وقويت لديه بما أتت به الأحداث، فأقدم على ا رتكاب عدة حماقات وجد فيها قسطنطين فرصة عمر لم يتوان لحظة عن اهتبالها، فأضحى على أثرها سيد الامبراطورية.

ولقد كان لدى قسطنطين ما يثير شجونه وأحقاده ويدفعه لتلمس المبررات الضرورية لقتال حليف الأمس، فقد كانت قوته ترتكز أساسا على جزء يعد أشد مناطق العالم الرومانى فقرا وأقلها سكانا فى الوقت الذى كان فيه ليكين يحوز اقليم الليريا الذى طالما قدم للجيش الرومانى أقوى الرجال، ولم يكن قسطنطين بالذى يغفل عن هذه الناحية، فقد كان يدرك مدى ما لهذا الاقليم من أهمية بالنسبة لمشروعاته القادمة، ومن ثم عول على أن تكون وثبته التالية فوق هذا المعين البشرى الذى لا ينضب.

وقد أعطى ليكين بسياسته التى انتهجها الفرصة لمنافسه ليحقق منتهى آماله، ففى الوقت الذى سار فيه قسطنطين خطوات بعيدة المدى نحو تنفيذ السياسة الدينية التى اتفق عليها فى ميلانو، وحظى المسيحيون ورجال الاكليروس فى المناطق الخاضعة لسلطانه بامتيازات عديدة وحريات واسعة، لم يحاول ليكين أن يكون جادا فى تنفيذ هذه الاتفاقية. ومع أنه حتى عام ٣١٩ لم يكن قد أظهر عداوة ما نحو المسيحيين، الا أنه لم يتقدم بعد خطوة واحدة نحو كسب صداقتهم أو لضمان تأييدهم وحماسهم كما كان يفعل قسطنطين. ونتيجة هذا كان

انه قد شاخ وكبر فى الفحص على العلوم والكتب
الالهيه [حتى انه كان يحمل الى البيعه فى محفه]
وهو لا يفتــر من التـعليـم من الغـداة الى الليل،
والاخوه ماضون وجايون اليه ليستفيدو من تعاليمه،
واستخلف ياروكلا وكان رجلا مختارا عارفا بكتب
الله معلما بتعاليم البيعه ومعرفة كلام الله ويحفظ
قوانين البيعه.

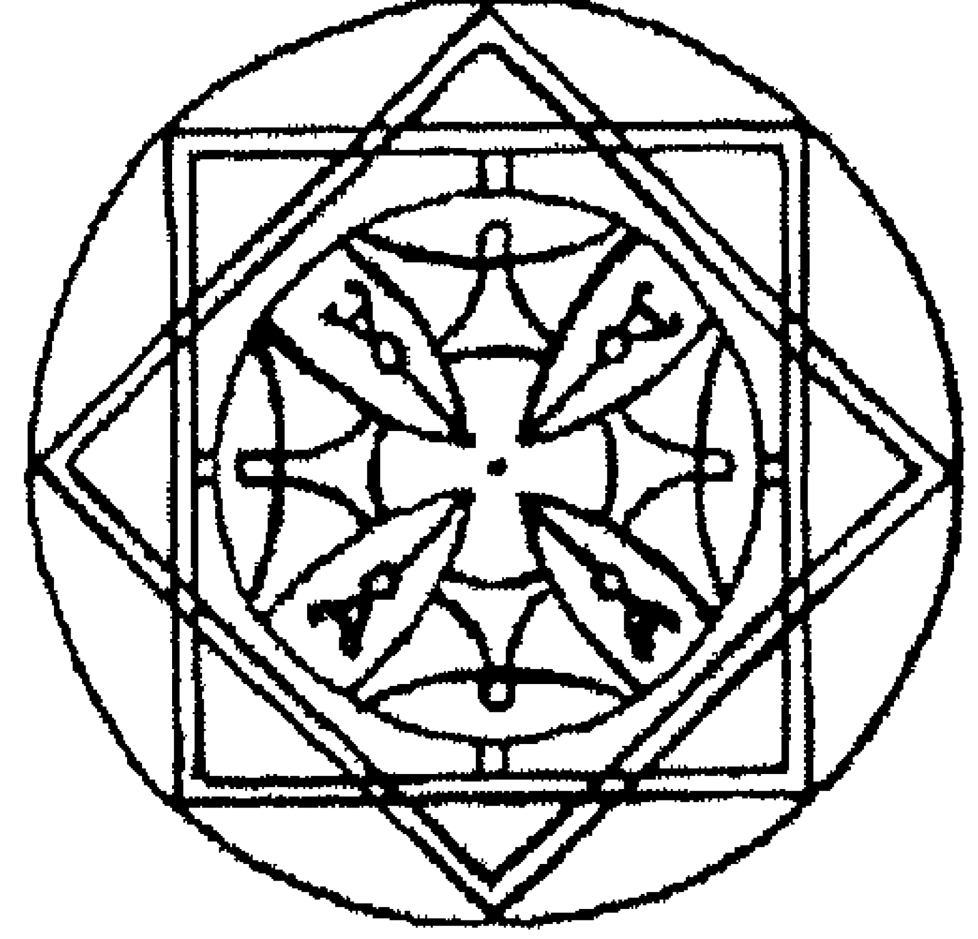
فلما رأى اورجانوس، الذى احرمه ديمتريوس،

مسيحو الشرق ينظرون بعين الحسد والغيرة الى زملائهم مسيحى الغرب لما يتقلبون فيه من نعم أغدقتها حكومة قسطنطين، وكانوا بالطبع فى نظرتهم هذه يعتبرون ليكين المسئول الأول عن عدم تمتعهم بنفس الامتيازات والمكاسب، فى نفس الوقت الذى رأوا فيه فى قسطنطين «محبوب الرب» فتعاطفت معه قلوبهم، فوجد انعدام الثقة بذلك باب نفذ منه بين ليكين وشعبه، فاعتبروه مضطهدا جديدا، وعدهم هو صنائع قسطنطين.

وخلال هذه الفترة راح قسطنطين يعد العدة لمعركة قادمة يضرب فيها ضربته الأخيرة ليحقق حلمه الكبير بالسيطرة على الامبراطورية منفردا، ولما أنس قسطنطين من نفسه قوة سنة ٣٢١، أقدم على أول عمل استفزازى ضد ليكن، فأعلن ولديه كريسبوس Crispus وقسطنطين قنصلين دون موافقة ليكين. وفى سنة ٣٢٢ عبر قسطنطين الدانوب وشن حملة ناجحة ضد السارماثيين Sarmatans، وقام بهجوم ضخم على القوط سنة ٣٢٣، واقتضاه تتبع القوط اجتياز اقليم تراقيا الخاضع لليكين، فلم يستطيع هذا أن يكظم غيظه أكثر من ذلك، فاحتج لدى قسطنطين على انتهاك حرمة أراضيه، ولكن هذا الأخير وجدها الفرصة التى كان يبحث عنها منذ أمد طويل، فرفض أن يقدم ترضية ما لزميله. فأعطى ذلك اشارة البدء لحرب أهلية أخيرة فى هذه الفترة.

كانت كل الظروف مهيأة لانتصار قسطنطين فى هذه الحرب، فهو قد أعد للأمر عدته منذ استولى على البلقان بعد حرب عام ٣١٤ وضمن تأييد المسيحيين الخاضعين لليكين، أو على

بان البيعه قد ابعدته مضى لليهود وفسر لهم كلاما من الكتب العبرانيه على غير جهتها واخفى ما فيها من نبوات الانبيا عن السيد المسيح، حتى انه لما جا الى ذكر الشجره التى كان فيها كبش ابراهم الخليل مربوطا بقرنيه وفسر الاباء انها مثال خشبه الصليب، اخفى ذكرها وازاله. وفسر كتبا كتيره كذبا ليست لها صحه. وصار معه مخالف اخر اسمه ساماخوس ظهر منه شقاق كثير قال



نقش لصليب مثمن على جدار
صومعة ناسك بمدينة أسنا

الأقل تخليهم عن نصرته، وبالطبع كانت هذه في حد ذاتها ـ أعني رغبته في نصرة المسيحيين وتحريرهم من رق العبودية تحت أضطهاد ليكين ـ هي الحجة التي تذرع بها ووجدها مبررا ليشن من ورائها هذه الحرب، وكانت تلك خطة بارعة ضمن بها ولاء المسيحيين في الشرق وتعاطفهم معه، ومن هذا السياق يتضح أن قسطنطين كان هو البادئ بالعدوان فعلا فى هذه الحرب، وأغراضه من هذه الحرب بادية للعيان ، ومن ثم فما يقدمه يوساب فى هذا السياق من اعتبار قسطنطين يحارب دفاعا عن المسيحية يعد حجة واهية اذا قيست بالوقائع القوية التى حفزته لأن يستولى على الجزء الباقى والهام من الامبراطورية.

وعند أدريانوبل (حاليا ادرونه Edrene) فى الثالث من يوليو ٣٢٣ لقى ليكين أول هزيمة فى هذا الصراع، وما لبث كريسبوس أن فرض الحصار على بيزنطة وتمكن من أن يحقق نصرا بحريا كبيرا على أسطول خصمه، وفى ١٨ سبتمبر حدثت الموقعة الفاصلة فى خريسوبوليس Chrysopolis حين فقد ليكين كل شئ، أسلم نفسه لقسطنطين فأمر بنفيه الى تسالونيكا، ولكنه سرعان ما أعدم فى العام التالى.

وهكذا قدر لحرب أهلية طويلة أن يخمد أوارها، وأن تشهد الامبراطورية من جديد عصر وحدة يتربع على عرشها فيه امبراطور فرد. وجنى قسطنطين بذلك النصر الباهر فى الشرق الآسيوى ثمار بذور غرستها يداه فى الغرب الأوروبى..

---

١٢ : ديمتريوس ١٨٩/٢٣١م

ان المسـيح مـولود من مـريم ويوسف، وانكر قـوه الولاده العجيبه، وان السيد المسيح المولود (هكذا) ولد من العـدرا بلا تعب هو الاله، وهو الانسـان بالحقـيقـه، وهو واحـد من اتنين. وخـالف الانجـيل الصـادق كمـا شـهـد متى وما قـال فى الولاده، ولا تقدر ابواب الجحيم ان تقاومها. وكان هذا المخالف يظهـر انه نصراني ودفعه يقـول انه حكيم وقـد قرا كتب الصابئه والمعتزله ثم صادق ارجانوس واضل جمـاعـه من السـواذج . وكـان فى ذلك الزمـان

قسطنطين والمسيحية

لم يختلف الدارسون فى شىء اختلافهم حول مسيحية قسطنطين، ولقد صاغت المشكلة ذاتها فى سؤال ذى شقين، هل كان رفع قسطنطين عن المسيحيين اصرهم والاغلال التى كانت عليهم نابعا عن معتقد يقينى بربهم، أم كان للدوافع السياسية كبير شأن فى اتخاذه جانبهم؟ وانجذابا إلى هذا الشق أو ذاك جاء من الدارسين قبيل هنا وراح غيره هناك، واعتلى كل منصة حجحه يدفع بأسانيد جمعها عن صدق رأيه، ويدحض بها قول معترضه. على أن الآراء على اختلافها وتعددها لا تخرج عن شقى سؤال سبق توا ذكره، يدعم أولهما مؤرخو الكنيسة مضيفين إلى حواريى المسيح الاثنى عشر رسولا جديدا، ويؤكد ثانيهما جل الدارسين المحدثين جاعلين من قسطنطين سياسيا حاذقا.

كان يوساب القيسارى أول من زاد قائمة الحواريين واحدا. ونسج بقلمه خيوط ضوء قدسى مهيب يزين فى جلال جبين قسطنطين، سداه احتواء كل فضيلة، ولحمته ترفع عن أية رذيلة، فحفظ للبشر على مر الأعصر، «حياة قسطنطين Vita Constantini.

ولم يكن قسطنطين فى رأى يوساب ومؤرخى الكنيسة ليهتدى إلى المسيحية على لسان بشر، اذن لغدا أحدهم، ولكنهم جعلوا السماء داعيه فى يقظته، ويسوع المسيح مبشره فى نومه، والصليب شارته، وخدام الرب مشاعل جنده، والرب يبارك منه الخطى!! كان ذلك فى

انسـان فـاضل قـديس له حكمـه الاهيـه اسـمـه امونيوس فرد عليهما واظهر كذبهما وما فسراه من الكتب بضد الواجب وكذبهما. ثم مضى ارجانوس الى قيساريه فلسطين التى كان صير فيها قسيسا وجا الى اسكندريه بكتب عنايه [توصية] فلم يقبله الاب ديمتريوس و انفاه لمعرفته بفعله، فمضى الى موضع يعرف بتمى من كوستانكيه ومـوه على اسقفها، وكان اسمه امونه، فجعله فى احدى البيع فلما انتهى خبره الى ديمتريوس القديس سار بنفسه

خريف عام ٣١٢ وقسطنطين يزحف بقواته إلى روما «ليخرج من الظلمات الى النور، أناسا طال عليهم الأمد، وليقضى على «طاغية» بها تجبر، عندما مالت شمس الظهيرة الى الغرب قليلا مؤذنة بنهار بدأ يمسي، واذا بهالة تضيء كبد السماء تعانق صليبا خط تحته بأحرف من نور «بهذا ستنتصر» Toutw vika فعقدت لسانه وجيشه الدهشة، وساورت الشكوك قسطنطين لهذا الذى يرى، وذهبت به الظنون كل مذهب، وتأخذه سنة من النوم فيتبدى له مسيح الرب والعلامة التى رأها بيمناه. يأمره أن يتخذ اياها له شعارا، وأن يجعل منها حارسا أمينا فى كل معاركه الآتية. وأسرع قسطنطين فى اليوم التالى فاستدعى الصناع وأمرهم أن يصنعوها تباعا بعد أن راح يصفها لهم بدقة، وأوصاهم أن تكون من الذهب والحجارة الكريمة لتوضع على رأس كل جندى من جيشه. وما لبث قسطنطين أن دعا اليه حاملى أسرار الديانة المقدسة ليخبروه عن هذا الذى فى نومه قد رأى، فأعطوه صفته وأنه الرب، الابن الوحيد المولود من الآب الواحد، وأن ما رآه هو علامة الخلود، فوطن قسطنطين نفسه منذ ذلك على قراءة الكتاب المقدس، واتخذ له من قساوسة الرب مستشارين، ومنى بعراض الآمال نفسه، ثم جهزها لملاقاة عدوه ماكسنتيوس.

بهذه الصورة يسوق يوساب قصة اهتداء قسطنطين إلى المسيحية، وعلى منواله ينهج مؤرخو الكنيسة التالون وعلى رأسهم سقراط وسوزومين.

---

١٢ : ديمتريوس ١٨٩/٢٣١م

الى تمى قاصدا نفى اورجانوس، وقطع الاسقف امونه الذى قبله وشق عليه واقام عوضه اسقفا غيره. ولما علم وتحقق انه قبل هذا الخالف وعرف حاله وكذبه اقسم عوضه اسقفا اسمه فلاوس وكان رجلا خايفا من الله مومنا، فقال ما اجلس على الكرسى وامونه بالحياه فلما مات امونه جلس الاسقف فلاوس المذكور واستشهد بعد ذلك بزمان ومضى الى الرب بسلام.

ومضى اورجانوس الممنوع الى مدينة قيساريه

دخل قسطنطين دخول الظافر روما، فرفعه الشعب والسناتو الى عليين، فأمر فى الحال أن يوضع فى يد تمثاله صليبا لالآم المخلص تذكارا، ونقش على قاعدته «بهذه العقيدة المقتدرة، رمز الشجاعة الخالصة، أنقذت مدينتكم، ومن نير الطاغية فككت عقلها، وحررت السناتو وشعب روما وأعدتهم الى قديم مجدهم وشرفهم».

بهذا السلوك أظهر قسطنطين تسامحه مع المسيحيين، ولكنه لم يقف عند حد المسامحة بل ذهب ـ بعد دخوله روما مباشرة ـ الى ما هو أبعد من ذلك، فأظل الكنيسة بوارف رحمته، وشملها بعطفه ورعايته، وهذا واضح من رسالة بعث بها فى شتاء عام ٣١٣/٣١٢ الى أنوللينوس Anullinus بروقنصل أفريقيا، يقول:

«أنوللينوس.. عزيزى. تحياتى. نظرا لما كشفت عنه ظروف كثيرة من أنه عندما تزدرى ديانة فيها يكمن أعظم التقدير للقوة السماوية المقدسة. يتعرض الصالح العام لأفدح الأخطار، على حين ينعم بالخير والرخاء الاسم الرومانى وكل مصالح بنى البشر، تهديهما رحمة الرب اذا ما حظيت بالاحياء والحماية ذات العبادة، فقد تقرر يا عزيزى أن ينال أولئك الذين يقدمون خدماتهم بالقداسة الواجبة وبمراعاة هذا القانون، متبعين هذه الديانة الالهية، تعويضا عن هذه الخدمات، ويسرنى أن يعفى تماما من أداء الواجبات العامة، أعضاء الكنيسة الجامعة التى يرأسها كايكليانوس Caecilianus والمدعوون رجال الدين، القائمون بخدمة هذه الديانة

فلسطين وصار يقدس هناك اسقفا، فكتب الاب ديمتريوس الى الاكسندرس اسقف يروشليم يقول له: ما سمعنا سابقا مارقا يعلم في موضع فيه اساقفه قيام. ويعتب على اسقف قيساريه المسمى باودكتس ويلومه عنده ويصعب عليه الامر، ويقول: ما ظننت ان هذا يكون في قيساريه على هذا الاسقف، وقد وجدنا في كتب هذا اورجانوس يقول ان الابن مخلوق والروح القدس. فقرا اسقف قيساريه كتاب الاب ديمتريوس في البيعه

المقدسة، المقيمون في دائرة ولايتك، حتى لا تلهيهم عن خدمة الرب خطية، أو يصرفهم دنس، ولشرائعهم بلا أى عائق يجب أن يكرسوا أنفسهم. فكم من خير تفيده الدولة حالما للاله قدم هؤلاء خالص العبادة. صحبتك السلامة عزيزى المحبوب أنوللينوس».

بهذا القول أعتق قسطنطين رجال الاكليروس من ربقة الواجبات العامة التى كانت تمثل عبئا ثقيلا ناءت به كواهل سراة القوم في الامبراطورية، وكانت تلك من جانب قسطنطين خطوة موفقة بارعة سبح له ويحمده نتيجة لها رجال الكنيسة، وصرفهم بها عن المشاركة فى شئون الدولة، وكف أيديهم بصورة لبقة عن التدخل فى أمور ولاية تعد آنئذ من أهم الولايات بالنسبة له من الناحية الاقتصادية، وحثهم على نحو لا يدع مجالا للشك أن ينصرفوا الى ممارسة شعائرهم وطقوسهم، ولا يعوقهم عن توقير ربهم عائق

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فاذا كان قسطنطين قد حرر رجال الاكليروس من عبء صدورهم به ضاقت، وهيأ لهم الفرصة الاجبارية لممارسة طقوسهم والشعائر، الا أن هؤلاء كانوا يتطلعون في حسرة إلى دور عبادتهم وملحقاتها التى نقلتها عاصفة الاضطهاد الى أيدى أفراد أخر. ولم يغب عن فطنة قسطنطين حيرة تلك العيون وتطلعاتها، فكانت أوامره لنائبه بأن يرد على الكنيسة ما كان قبل الزوبعة لها حقا. قال:

«سلاما عزيزى أنوللينوس.. ان طبيعتنا التى جبلت على حب الخير أيها العزيز تأبى الا أن

لان اسقف يروشليم انفذه اليه فقطع اورجانوس واخرجه من كرسي قيساريه، فعاد بقله حيا الى اسكندريه.

ولما تغيرت ملوك روميه [روما] وانطاكيه وبطاركتها، وصار على انطاكيه بطرك اسمه فيلبس، وظهر في ايامه رجل مخالف كتب كتبا برانيه. ومات فيلبس فسار عوضه على انطاكيه بطرك اسمه زاينوس فامر ان لا تقرا كتب هذا المخالف ولا كتب اورجانوس الذى نفى من

ترد على الآخرين حقوقهم، لذا فمقصدنا حالما تصلك هذه الرسالة أن تقوم على التو تعيد الى الكنيسة المسيحية الجامعة كل ما كان ملكا لها وهو الآن في حوزة المواطنين أو غيرهم، حيث قررنا أن تعود تلك الأشياء الى أصحابها. ولما كانت فطنتك تدرك مدى وضوح سياق أمرنا فأعد الى الكنائس كل ما كان في السابق لها ملكا، حدائق ودورا وأملاكا، حتى نعلم انك قد وضعت أمرى هذا موضع الطاعة والتنفيذ بكل حرص. ولتنعم بالسلامة أيها العزيز المحبوب أنوللينوس.

وهكذا ثنى قسطنطين خطوته الأولى، ولكن بقى شيء كان على الامبراطور حتما أن يفعله ليأسر بجميل فضله الكنيسة ورجالاتها ورعاياها، ذلك أن يهب الكنيسة ما حرمت منه سنين عددا، وهو عطف الدولة عيها عطفا واقعيا لا يقتصر على الناحية المعنوية بمنع الاضطهاد، بل يمتد للناحية المادية بالمساهمة في رفع القواعد من بيوت العبادة لهؤلاء المسيحيين، وكان ذلك فى حد ذاته شيئا يبهر أعين جماعة لم تحظ من الدولة قبلا الا بأوامر تهدم كنائسها، وتصادر أملاكها وتضطهد أفرادها، فاذا بقسطنطين يحرر الأنفس، ويعيد الأملاك، ثم ينعم بالاموال، فكيف للكنيسة بعد أن ترفع للدولة رأسها متمردة ثائرة؟! وكيف لا تسبح بحمد مبعوث العناية الالهية على الأرض وفى هذا المجال تلقى أسقف قرطاجة Carthage رسالة من الامبراطور جاء فيها:

اسكندريه، لان كتبه اشتهرت. وقال من يحب ان يقرا الكتب فليقرا الكتب التى هذه اسماها: الكتب العتيقه خمسة اسفار التوراه، كتاب يوشع بن نون، سفر القضاه كتاب روث الموابيه، اسفار الملوك البرالوبومانون، كتاب عزرا، مزامير داود النبى، كتاب حكمه سليمان، كتاب اشعيا، كتاب ارميا، كتاب حزقيال، كتاب دانيال، كتاب ايوب، كتاب استر، كتاب صمويل، كتاب شربيت، كتاب الاثنى عشر انبيا الصغار، انجيل متى كتبه بالعبرانى

«قسطنطين أوغسطس الى كايكيليانوس أسقف قرطاجة.. لما كنا قد قررنا أن نخصص فى كل ولايات أفريقيا ونوميديا وموريتانيا منحا يستعين بها على سد نفقات خدام الكنيسة الكاثوليكية، لذا سطرت الى أورسوس Ursus مأمور الحسابات فى أفريقيا أمره أن يدفع الى فطنتكم ثلاثة آلاف فلس... وإذا تبين لك أن عجزا هناك يحول ورغبتنا فى هذا الخصوص تجاه الجميع، فاطلب وبلا تردد من هراكليدس وكيل أملاكنا، ما أنت اليه فى حاجة، فقد أمرت شخصه أن يقدم دون تأخير أى مبلغ يطلبه جنابكم».

سلوك هذه مرآته حقيق أن يضع فى قبضة قسطنطين ولاء طائفة من الناس ذات نفوذ على جموع رعايا المسيحيين، وكان سيد الغرب فى تلك الآونة أشد ما يكون حاجة لمثل هذا الولاء، وإلى أن يأتلف قلوب الأهلين فى تلك المنطقة التى كانت قبلا تحت سيادة ماكسنتيوس واقعا، ومن أملاك ليكين قانونا. أما وقد نال الأول هزيمة فلابد أن تقع هذه الأقاليم وغيرها تحت سطوة المنتصر وتدخل ضمن دائرة نفوذه بمنطق القوة والغصب. أما ليكين صاحب الحق الشرعى فما عليه أمام هذا المنطق الا أن يوجه نشاطه نحو ناحية ثانية فى الشرق يطبق عليها الشريعة ذاتها. ومن ثم كان على السيد الجديد قسطنطين أن يقدم على مذبح الولاء قربانا. ولنا أن نتصور ما شاء لنا التصور ذلك الأثر النفسى الذى يحدثه انتشال جماعة، قاست صنوف العذاب ألوانا طيلة قرون ثلاثة، من غيابة الاضطهاد، ثم رد اليها ما كان لها، والاغداق عليها

في ورق طومار وهو في قيساريه عند انسان و ذريته يحفظونه جيلا بعد جيل وفسر بالرومي[اللاتينية]، ونقل الى كل اللغات بتقوة السيد المسيح، انجيل مرقس كتبه بالرومي. وكان بطرس ريس الرسل هناك، وقرى في مجمع الملوك ايضا، انجيل لوقا تلميذ بولس كتبه باليوناني في انطاكيه. انجيل يوحنا بن زبدى، سالوه التلاميذ بعد كبره سوالا كتيرا الى ان كتبه باليوناني في افسس . كتاب اخبار الرسل والتلاميذ وهو كتاب الابركس. كتاب

من جانب امبراطور كان أسلافه الذين قذفوا بها فيها. وكان قسطنطين بارع الدعائية، فقد احتزت رأس ماكسنتيوس وطيف بها ولاية أفريقيا تعلن جهارا نهاية عصر «الطاغية» في روما، وتومىء ضمنا أن ذلك جزاء من يقاوم السيد الجديد، وفي الناحية الأخرى اعفاءات تمنح وهبات تغدق.

ويلفت النظر في رسائل قسطنطين إلى أنوللينوس وكايكيليانوس قوله «الكنيسة الجامعة»، تلك العبارة التي ترددت دوما في تلك الرسائل، ثم يزيد الأمر وضوحا عندما يحدد ما يعنيه بهذه الكنيسة من أنها تلك «التي يرأسها كايكيليانوس، وقد دفع قسطنطين إلى هذا التحديد ما يذكره هو نفسه في رسالته الى أسقف قرطاجة كايكليانوس يقول: «لما كانت مسامعي قد صكتها أنباء تردد أن بعض ذوى العقول السقيمة يتحايلون لصرف الجموع عن الكنيسة المقدسة الجامعة بخزى المزاعم ودنسها» ـ وهو يشير ها هنا الى الدوناتيين ولنا بالطبع أن نتساءل عن المصدر الذى وجه قسطنطين الى تخصيص رعايا «الكنيسة المقدسة الجامعة» بالذات دون أتباع دوناتوس؟

جاء في رسالة الامبراطور السالفة الى أسقف قرطاجة: «متى تسلمت المبلغ المشار اليه، فاني أرى أن يوزع على جميع المذكورين أعلاه وفقا للقائمة التي بعث اليك بها هو سيوس Hosius. ونعلم من سقراط أن هوسيوس هذا كان أسقفا لقرطبة، وأنه كان عندئذ مستشار

رسايل بولس المنتخب وهواربع عشر رساله. كتاب القتاليقون. كتاب جليان يوحنا الانجيلى وهو الابوغالمسيس. كتاب الدسقليه وهو تعليم الرسل وقوانين البيعه التى كتبوها قبل افتراقهم للبشاره. هذه الكتب التى سلمت للبيعه الجامعه الرسوليه. وبعده كتب الاباء المعلمين التى وضعوها بتلقين روح القدس وهى الميامر وغيرها لم يزيدو عليها ولم ينقصو منها. فاما ما كتبه اورجانوس المخالف فهو مرذول من الله وليس فى كتبه شى مكتوب بالروح القدس، كما قال بولس الرسول: انا لم

قسطنطين للشئون الدينية، ومجىء أسمه هنا دليل على أنه كان فى معية قسطنطين على أقل تقدير قبل معركة القنطرة الملفية. ويذكر بوركهارت أن هوسيوس كان ذا دور كبير فى استمالة الامبراطور الى جانب المسيحيين بداءة. ومهما يكن من أمر فسنجد هوسيوس ناصحا لقسطنطين، متحركا نشطا فى الاحداث التى وقعت بعد ذلك خاصة فى مسألة الصراع الآريوسى، وسيظل كذلك الى أن يفقد مكانته عندما يهوى الآريوسيين فؤاد الامبراطور قسطنطيوس من بعد.

وربما كان اختيار قسطنطين لهوسيوس بالذات مستشارا دينيا راجعا الى أن كنيسة قرطبة لم تكن على درجة من الشهرة فى الأوساط المسيحية الغربية كبيرة، ولما كان قسطنطين يكره أن يكون لأحد ما أى سيطرة عليه فى توجيه دفة مختلف شئونه، ويخشى اذا استعان بأسقف كنيسة ذات مكانة مرموقة أن يستغل هذه الفرصة للتدخل فى سياسات قسطنطين، كان «هوسيوس» المغمور هو خير من يحقق لقسطنطين حب الانفراد بالسلطان وبلا منازع، ودليلنا على ذلك أنه كانت فى الغرب أسقفيات ذات شهرة ومركز ممتاز، لكنه أغفل أساقفتها، بل تغاضى عن أن يجعل أسقف روما هاديه حتى بعد دخوله روما، وظل مبقيا على هوسييوس يستشيره الرأى فى المسائل الكنسية والدينية التى عرضت له الفترة طويلة من عهده، وكان

---

١٢ : ديمتريوس ١٨٩/ ٢٣١م

ناخذ روحا من هذا العالم بل الروح الذى اعطيناه من الله.

واما الاب الجليل ديمتريوس فاقام تلت واربعين سنه وتنيح كما ذكرنا.

السيره الخامسه من سير البيعه المقدسه

ياروكلا البطرك(*)

وهو من العدد التالت عشر

٢٣١ / ٢٤٧م

كان هذا الاب فى زمان ديمتريوس البطرك

(*) ياروكلا: وهو أول من أطلق عليه لقب بابا، فيذكر القمص حنا سلامه فى كتابه «اللآلئ النفيسة فى شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة» هامش ص ٣٤١ مايلى: «قال سعيد بن بطريق وهو أوتيخا البطرك ٦٨

أولها كما رأينا ما يختص بقصر هبات الامبراطور على الكنيسة الكاثوليكية فقط دون أتباع دوناتوس.

بهذا الاعتراف الحكومى غدت المسيحية والديانات الأخرى داخل الامبراطورية على قدم المساواة، إن لم تفضل عليها، وأضحت دينا شرعيا وآن لها بعد ثلاثة قرون أن تتنسم عبير الحرية، وساد الكنيسة سلام طالما اليه تاقت، وقد هللت الكنيسة لهذه الفترة الجديدة التى توشك شمسها أن تبزغ، ولا أدل على ذلك مما عبر به يوساب عن هذه الفرحة التى تملكت نفوس المسيحيين آنئذ بقوله:

«أخيرا.. أشرق نهار صحو جميل لا يعكر صفوه غمام، وبأشعة نور سماوى أضاء فى العالم كنائس المسيح، وحتى أولئك الذين ليسوا من جماعتنا لم يحرموا من نعمة البركات، أو على الأقل من الانتفاع بمزاياها والتمتع بجزء من النعم التى أغدقها الرب علينا».

ويضيف يوساب ان الامبراطور خط بيمينه رسالة الى سكان الامبراطورية جمعاء يدين فيها الديانات السابقة ويمجد المسيحية، أورد فيها تقريرا عن الأخطاء الناجمة عن القول بتعدد الآلهة أو الشرك بالله، وبدأها بمقدمة عن الفضيلة والرذيلة.

وتنتاب قسطنطين من الحماس فورة فيكتب الى ملك فارس رسالة يردد فى صدرها من

معلما فى البيعه يتمجد بعلوم الله، وكان برمليانوس اسقف قيساريه كبادوكيه قد وجد اورجانوس قد اختلط هناك باليهود واقام معهم زمانا، وكان الاكسندرس قد ملك روميه تلت عشره سنه ملك بعده مكسيموس قيصر، فاقام على مقدمى البيعه خاصه اضطهادا كتيرا لانهم المعلمون لبنى المعموديه. واستشهد فى ايامه كتير [منهم]. ومات مكسيموس وملك كرديانوس بروميه، وكان بطركها بنطيوس اقام ست سنين ومات، وصار بعده

للملكانيين بالاسكندرية [٩٣٣ - ٩٤٠م] فى تاريخ المطبوع سنة ١٦٦١م: ان «لفظ بابا مركب من «أب أباء»، ثم تطورت إلى أبابا» وخففت بلفظ «بابا» ... وكان القبط هم الذين بدأوا بتلقيب بطاركتهم بالبابوات حيث أطلقوا لفظ بابا على الانبا يا روكلا».

ويذهب رأى آخر إلى أن كلمة «بابا» مأخوذة من ا لكلمة اليونانية «باباس» ومعناها الأب.

جديد أنغام فضله على المسيحيين وما نالهم تحت حكمه من جم الفوائد وأعظمها، فيفتتحها قائلا:

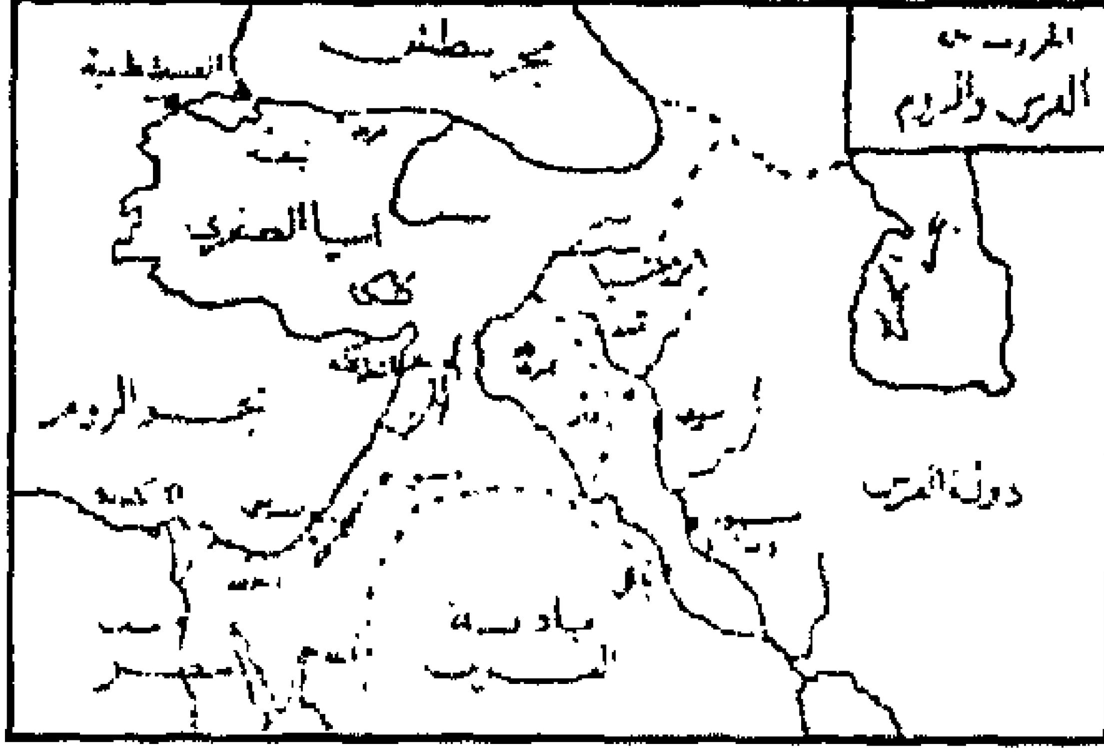
«انى كما تبرهن أعمالى أعترف بأقدس عقيدة، فهذه العبادة ذاتها تقودنى الى معرفة الرب القدوس، الذى بعونه وقوته أنهضت من الرقاد من أقاصى المحيط، كل أمة فى هذا العالم لتلمح الأمل فى الأمان، وعليه فان كل أولئك الذين يئنون تحت وطأة العبودية ويقاسون أعظم الويلات لأشد الطغاة قسوة، قد بعثوا من جديد بفضل حكمى وارسائى قواعد أسعد دولة».

ولكن الرسالة تضمر غير هذا المعنى معانى أخرى:

«هذا الرب.. وأنا على ركبتى جاث، اياه استعيذ من هول دماء تلك الأضحيات، واليه أبتهل أن يبدد رائحتها الكريهة المقيتة، ويطهر من الأراضى كل نار شيطانية، وما ذلك الا لأن هذه الشعوذات الدنسة الرجسة بشعائرها المستهجنة، قد أوردت جل لا بل كل أمم العالم الوثنى ورد الهلاك. فرب الكل السيد، وهبها البركات، ومن ثم لا يرضى جلاله ولا يسمح لقلة تعبث بها وتنحرف ارضاء لخاص الشهوات. وليس للرب على الانسان الا نقاوة عقل، واستقامة روح، وهو بهذا المعيار يزن صالح الأعمال وفاضلها، فمسرة الله لكياسة من البشر واعتدال. يحب الحليم ويبغض اللئيم.. يبتهج للايمان ومن الكفر يقتص. يهوى بجبروته كل عات، ومن

١٣: ياروكلا ٢٣١/٢٤٧م م

انتارس بطركا اقام شهرا واحدا وطلبوا منه من يوسمونه عوضا منه، فوجدو انسانا في الغيط قد عمل اعجوبه ظهرت له وحلت عليه روح القدس كالحمامه فاخذوه و جعلوه بطركا لروميه.

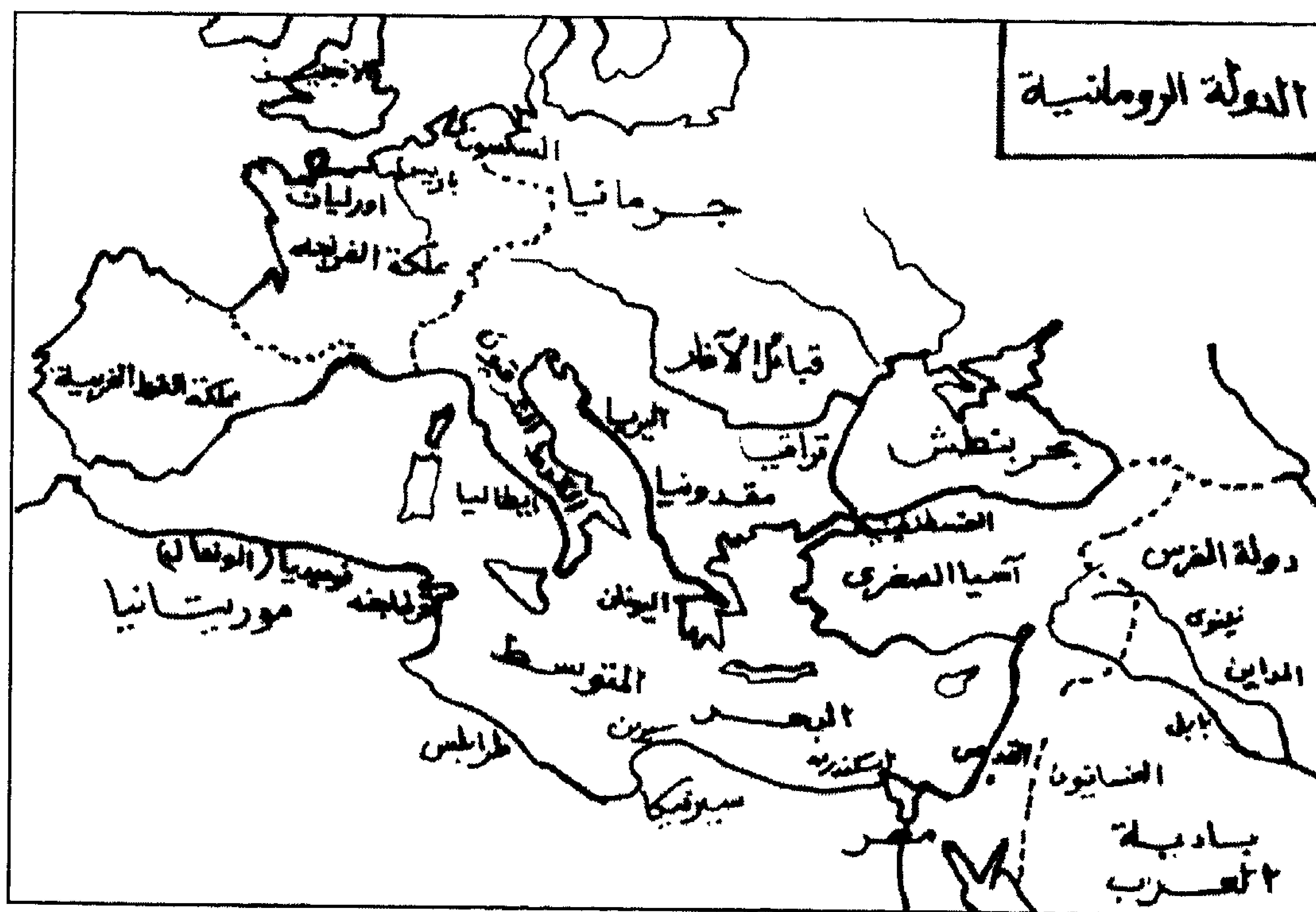


وتنيح زاوينوس بانطاكيه وجعل فيها بعده اوبلاس وجعل ياروكلا بطركا لاسكندريه بعد ديمتريوس، وكان مستحقا لخدمة الهيكل، وجعل النظر في الاحكام باسكندريه الى ديونوسيوس وفوض اليه جميع امور بطركيته، وكان هذا من

صلف كل متكبر ينتقم. وفي الدرك الأسفل يطيح بكل متعجرف غطريس، ولكنه يجزى المتضع، وبما استحق من جزاء يثيب، وبمثل هذا يمد الرب عونه لمملكة بالعدل قائمة، ويدعمها ومليكها بسكينة السلام... وبعد يا أخي.. فانا على يقين بأني غير مخطىء في اعترافي بهذا الاله الواحد. المبدع، الآب لكل الاشياء، الذى جافاه كثير من أسلافي، مقودين بجنون الخطيئة، مما جر عليهم رادع العقاب حتى راح ما تلاهم من آجيال يتندر بما حل بهم تحذيرا لمن تداعبه الرغبة في سلوك الدرب، ومن عداد هؤلاء واحد حدت به صاعقة العذاب فراح من هنا طريدا، وكانت أراضيكم له المنفي والمصير. وكان العار الذى لحق بسمعته مدعاة لذيوع صيت انتصاركم[1] وانها لمن اليقين مناسبة طيبة حيث أضحى الانتقام الذى حل بكل أولئك ـ على النحو الذى أوضحت ـ بينا للجميع في عصرنا، ذلك أني قد عاينت نهاية أولئك الذين، بكافر مراسيمهم، ناكدوا عباد الرب. وبهذه النهاية وجب تقديم الشكران لله. فبعونه الفياض سعد بشر يرعون ناموسه المقدس بعد أن عاد من جديد هناء السلام. وعليه فاني لموقن بأن الأمور كافة قد اتخذت الوضع الأفضل الآمن. فاذا ما اتقى الناس وآمنوا وتمسكوا بناموس الرب ولم يتفرقوا، يقدسون ذاته، تعطف الرب فآواهم الى رحابه».

(١) يشير قسطنطين هنا الى ما كان من أمر هزيمة الامبراطور الروماني فاليريان (٢٥٧ ـ ٢٦٠) على يد الفرس وأسره.

جنس جليل ومعلما مقدما وربى باسكندريه، وكان السبب في دعوته ودخوله فى الامانه الارتدكسيه ما يأتى شرحه: كان هذا ديونوسيوس رجلا يعبد الاوثان على رأى الصابئه مقدما فيها وكان حكيما، فبينما هو جالس فى بعض الايام اذا عبرت به عجوز ارمله ومعها كراسه مكتوبه من رسايل بولس الرسول، فقالت له: تشترى منى هذه. فاخذها وتأملها فاعجبته ووقعت منه موقعا عظيما وحلت من قبله محلا جليلا، ولما فهمها اعجب بها جدا



١٣ : ياروكلا ٢٣١/٢٤٧م م

وفرح بها فرحا شديدا. ثم قال للعجوز: كم تطلبين فيها. فقالت له: قيراط ذهب. فدفع لها تلت قراريط وقال لها: امضى وفتشى الموضع الذى وجدت هذه الكراسه فيه فمهما وجدتيه ايتينى به وانا ادفع لك اوفى من تمنه. فمضت العجوز وعادت اليه بتلت كراريس فاخذها منها ودفع لها تسعه قراريط وقراها فعلم ان قد بقى من الكتاب شى اخر فقال لها : ان وجدت بقيه هذا الكتاب دفعت لك ستة الدنانير. فقالت له العجوز لما رأت

بهذا الترديد فى رسالته يقدم قسطنطين لشىء واحد يريد قوله منذ البدء، ذلك هو حث سابور الثانى Sapor II على أن يرفع عن كواهل المسيحيين فى مملكته نير الاضطهاد، ولم يكن قسطنطين ليذكر ذلك جملة فى رسالة مقتضبة تحمل معنى عرف الساسة، ولكنه بعث بهذه الرسالة المسهبة منصبا من نفسه داعية ايمان يعظ أمام المذبح جموعا!!.

لقد كان فى مقدور الامبراطور الرومانى أن يهيب بالملك الفارسى انصاف عباد الاله الواحد بداءة وينتهى. ولكنه آثر أن يأتى بما يبتغى فى ختام رسالته، واذا جاز لنا أن نسبر غور نفس الامبراطور لرأيناه عمد الى ذلك قصدا مقصودا. فهو يعلم يقينا أن سابور لا يدين بذلك الاله الواحد الذى ملأ قسطنطين الدنيا ضجيجا من أنه بعبادته قائم، ولا يرتاب فى أن ما امتلأ به رسالته من ابتهالات لهذا الرب وضراعة لا تعنى البتة شيئا لدى هذا الملك الثنوى، وأن صراخ قسطنطين حول صحة اعترافه بمبدع كل الأشياء لا تهم سيد فارس من قريب أو بعيد. رغم علمه بكل ذلك، الا أنه ذكره مقرنا اياه بصور أخرى مضادة عن أولئك الأسلاف الذين ناهضوا هذه العبادة وآذوا ناسها، ولا تكاد فقرة من الرسالة تخلو من تصوير غضب سيد الجميع. وكم من أمة وثنية عصفت بها يد القادر، وكم من متجبر طاغية أطاحت به قوة العلى. وكأن قسطنطين أراد بذلك أن يضع أمام أعين الملك الفارسى صورة لما يمكن أن تصبح عليه مملكته وعليه هو يمسى، طالما أنه لا يؤمن بالواحد، وطالما كان يضطهد عباده. أما قسطنطين فالرب على الدوام آخذ بيده، ويبارك خطاه، وينصره على أعدائه أعداء الرب، لأنه

امانته واجتهاده وعلمت انه قد قبل نعمة الروح القدس عند قراته الكراريس: لا تتعب نفسك امض الى البيعه واطلب الكتاب مكملا من الكهنه فهم يدفعونه لك تقراه، وانما انا وجدت هذه الكراريس في كتب ابائي وكانوا قراء ومزمرين. فقال لها: واهل البيعه يؤمنونى على هذا الكتاب. قالت له: نعم ما يمنعون احدا من علم اذا طلبه بل يدفعون لكل من طلبه مجانا. فمضى الى اوغسطس احد خدام البيعه فدفع له رسايل بولس كامله فقراها

يسلك سبل دينه، ويهتدى بنور شرعه. والا فبماذا نعلل كل هذا السياق اذا لم يكن قسطنطين قد قصد الى ذلك فعلا؟.

ومهما يكن من أمر فقد أحدثت الرسالة رد فعل عنيفا فى الأوساط الفارسية، وساورت الشكوك الملك الفارسى فى نيات امبراطور الرومان وولاء هذه الطائفة من رعاياه معتبرا اياهم صنائع عدوه وربما يعود ذلك لما نمى الى علم الامبراطور من خاصته بأن كل المسيحيين فى مملكته يمثلون حزبا مؤيدا للامبراطورية الرومانية، وأن أسقف سلوقية Seleucia يرسل الى القسطنطينية أخبارا عن كل ما يحدث فى فارس ولعله مما يرجح هذا القول ما جاء فى رسالة قسطنطين سالفة الذكر الى سابور حيث يقول: «انه لفى روعى والسرور يملأنى، بعد أن اتتنى أنباء سارة تتناغم ورغبتنا، أن أكثر بقاع فارس تزخر بأولئك الرجال الذين من أجلهم أتحدث اليكم الآن.. أعنى المسيحيين». وهكذا اذكت رسائل قسطنطين الريبة والشك فى نفس الملك الفارسى الذى هاله انتشار المسيحية بين رعاياه وخاصة فى بابل وسلوقية وجندنسابور وآشور وغيرها فأنزل بهم اضطهادات واسعة النطاق ثلاث مرات فى سنوات ٣١٧، ٣٢٩، ٢٣٠، واستمر الاضطهاد الأخير أربعين عاما . وعقد فى سنة ٣٢٥ مجمعا زرادشتيا يضم كهنة الدين الفارسى أقر فيه نصا رسميا نهائيا لكتاب الأفستا.

وزاد فى خوف الملك الفارسى أن تيريداتس الثالث Tiridates III (٢٦١ ـ ٢١٧) ملك أرمينيا، الذى أعاده دقلديانوس الى عرشه، قد تحول فى مطلع القرن الرابع الى المسيحية،

وحفظها من قوة ذكاه، ومضى الى ديمتريوس المتنيح وطلب منه الميلاد التانى(*)، فقبله وعمده واعطاه النعمه وصار ملازما له مقيما فى البيعه. وبعد ان كان معلما للصابئه الوثنيين صار معلما فى البيعه، وصار له تلاميذ كتير. وعوض تعليمه الاول واخذه الاجره الفانيه. نقله الرب الى الكرسى العظيم بعد ذلك عوضا من تعبه وجعل بيته بيعه الى الان مسماه باسمه، وكان اسما تلاميذه تاودورس واغريغوريوس واثنادورس هولا كان

(*) الميلاد الثانى: أى تعميده وقبوله فى الديانة المسيحية.

وفرض بحماس جارف عقيدته الجديدة على رعيته. مما أدى بالتالى الى حدوث التباعد والنفور بينه وبين مملكة الساسانيين، ومن ثم لم يدخر قسطنطين وسعا فى تعضيد هذا الشريك المسيحى واحياء التحالف القديم ثانية. ولا شك أن ذلك كان يشكل خطورة ليست بالقليلة على الملك الفارسى ودولته. وهكذا تطورت الخصومة بين سابور الثانى وزميله الرومانى مما دفع الملك الفارسى الى القبض على تيجرانس Tigranes ملك أرمينيا المسيحى واحتلال بلاده، فاستنجد الحزب الموالى للرومان والمسيحية بقسطنطين وعرض عليه المملكة، فقبل على الفور وتوج عليها هانيباليان Hannibalianus ملكا، وكان هذا بالطبع يعنى الحرب مع فارس، ولم يؤخر انفجارها الا موت قسطنطين.

لم يقف عون قسطنطين للمسيحية عند حد الدعم المادى بصورة المختلفة، والتأييد المعنوى البادى فى رسائله العديدة، بل تخطاه الى حيز الواقع العملى، أعنى اقامة دور العبادة، فينبئنا يوساب أن الامبراطور بعد ارفضاض مجمع نيقية سنة ٣٢٥ نذر نفسه لعمل جديد فى خدمة المسيحية فى منطقة فلسطين بالذات، وكان هذا العمل هو انشاء كنيسة فى الموضع الذى «قام فيه المسيح ثانية من بين الأموات». بصورة تليق بالمخلص، واقامتها بصورة تبز بها سائر كنائس العالم المسيحى المعروف آنذاك فى جمال عمارتها. ويضيف يوساب أن الامبراطور زين هذه الكنيسة بما لا يمكن وصفه من الذهب والفضة والأحجار الكريمة. وقام الامبراطور أيضا بانشاء كنيستين آخريتين فى بيت لحم وفوق جبل الزيتون وزارت هيلينا Helena أم الامبراطور،

١٣: ياروكلا ٢٣١/٢٤٧م

علمهم الحكمه البرانيه اولا ثم عند تعميده وتقدمه نقلهم الى الحكمه البيعيه حتى انهم امتلوا من نعمة روح القدس، واقامو معه خمس سنين بعد تقدمته، ثم نالو رتبه الكهنوت. وكان له تلميذ اخر اسمه افريكنوس كتب خمسه كتب [من كتب الصابئة] وتعب فيها، فلما سمع بحكمه ياروكلا البطرك مضى الى اسكندريه ليتعلم منه، وكان ديونوسيوس يقول له اعلم ان كل دابه تاكل البرونيا(*) لا تنفع بها ولا تنجح، وكل انسان لا

(*) البرونيا: الطعام الجسدى وليس الروحى.

الشرق لتسير فى نفس الطريق التى سار فيها المسيح يحتمل الصعاب والآلام، ولتشرف بنفسها على تشييد وتزيين هاتين الكنيستين. وحظيت مناطق أخرى عديدة بما نالته فلسطين، وخاصة نيقوميديا وأنطاكية. ويذكر يوساب أيضا أن الامبراطور قام فى سنى حكمه الأخيرة بانشاء كنيسة الرسل فى القسطنطينية، ويعطينا وصفا دقيقا لفخامة هذه الكنيسة وعظمتها.

وفى الناحية الأخرى أقدم قسطنطين على هدم عدد من معابد الديانات المخالفة مثل معبد أسكليبيوس Asclepius فى ايجى بكيليكيا Aegae (cilicia) ومعبدى Apheca و Hiliopolis فى فينيقيا Uhoenicia وأقتلع أبوابها وأسقط أسقفها وامتدت يداه فيما وراء ذلك لتنزع عنها ما زانها قبلا من نفائس وآيات فنية رائعة. ويعلق جونز على ذلك بقوله ان قسطنطين استغل ما انتزعه من الذهب والفضة من تلك المعابد فى اصلاحه النقدى. كما صادر ضياع هذه المعابد.

وفى نفس الوقت من باب توكيد سلطاته الدينية أصدر قسطنطين مرسومين ضد بعض الفرق المسيحية، التى تنعتها الكنيسة بالهرطقة، مخافة الانقسام فى الدولة. وقد جاء فى المرسوم الأول:

«على رنين هذا انتبهوا الآن معاشر النوفاتيين Novatians والفالنتينيين Valentinians والماركيونيين Marcionites والبيالصة Paulians انتم أيها البلهاء Cataphrygians وجميعكم يا من تعضدون الهراطقة ولهم تخططون فى اجتماعاتكم السرية. انتبهوا الى أنكم

ياكل الطعام الروحانى فهو هالك. وقد كنت انا مشغولا بالطعام الفانى وغافلا عن خبز الحياه الباقى حتى هدانىَ الرب واستجذب التلميذ بهذا الكلام الى التعليم السماوى، حتى ان من فضله عرف صحة النسبتين فى انجيل متى ولوقا، ولم يجد فيها خلفا بالجملة. واقام يارو كلا(*) تلت عشرة سنه وتنيح فى اليوم التامن من كيهك ولحق بابايه.

(*) انظر قصة انقاذ اورجانوس له من الاعدام ص٢٠٢ فى الجزء السفلى منها.

بنسيج زيف وغرور، وسام الضلالة ومهلكها، تحيكون عقيدتكم. من أجل ذلك، وبكم تصاب بالداء كل روح طيب، ويمسى الحى فريسة هلاك مقيم، يا كارهى الحق. يا أعداء الحياة. يا أحلاف الخراب. ان آراءكم كلها للحقيقة ضد، تنضح بالخسة، تغص بالسخافات والأوهام. بها تصوغون النفاق، وتجيرون على البرىء وتحجبون الضياء عن ذوى الايمان. بآثامكم دوما تحت قناع التقوى. تملأون بالدنس كل شيء، وتنفذون بعميق الجراح فى تقى الضمائر، وتسلبون من أعين البشر ضياء النهار. ولكن مالى أطيل؟ ان الحديث عن جرمكم يتطلب من الوقت والفراغ مزيدا عما أعطيه. فكم هى مفعمة قائمة خطاياكم وكم هى شنيعة مقيتة.. يقصر عن سردها يوم، وكم يحسن بالمرء أن يصم الآذان عنها ويغمض العيون لئلا تضار بالخوض فى هذه الآثام نضارة مؤمن حسن الطوية. انى لأسائل نفسى.. علام الصبر اذن على شر مستطير، خاصة ان هذا الحلم تسبب فى أن يتسخ بعض الأصحاء بهذا الداء الوبيل. لم اذن لا يجتث من الجذور هذا الخبث؟ وما ذلك الا بأن نعلن على الملأ الاستياء».

ثم أردف مرسومه هذا بآخر يقرر فيه ما سبق أن حذر به فى السابق يقول:

«أما وقد ضاق الصدر عن تحمل ويل ضلالكم، فانا بهذا المرسوم نحرم عليكم الآن وبعد الآن عقد أى اجتماع. وبهذا أصدرنا أوامرنا.. نخرجكم من ديار جمعتكم، وامتدت ارادتنا لتبسط الحرمان أيضا على مقابلات لكم فى السر والعلن بالخزعبلات طفحت والخرافة. فلتدعوا أذن ذلك النفر منكم، الراغبين فى اعتناق دين الحق، ليسلكوا سبيل الصواب

السيره السادسه من سير البيعه
ديونوسيوس(*) البطرك الحكيم
وهو الرابع عشر من العدد
٢٤٧ / ٢٦٤م

(*) كــان مـن الصــابئــة ثـم آمن بالمسيحية.

اوسم بطركا من بعد ياروكلا وهو الذى تقدم ذكره، وكثرت البيع والمومنون فى ايامه وكانت ممتليه من تعاليم الله علانيه. وفى ذلك الزمان وضعوا قوم مقاله فى اعمال ارابيا بأن النفس

بالانضواء فى الكنيسة الكاثوليكية والاتحاد معا فى زمالة مقدسة حيث يستاهلون الوصول الى الحقيقة. ومهما يكن من أمر فان هوس فهمكم الأضل لابد وأن يحجم عن أن يشوب أو يعطب غبطة زماننا، نعني ميلا مزدوجا لدى الهرطقة والمنشقين تعسا ملحدا. فانه من واجب الوفاء بالنعمة، التى يفضل الرب منحنا، أن ندأب لنخرج أولئك الذين عاشوا فى الماضى يحلمون بنعمة المستقبل، من الشذوذ والآثام الى الصراط المستقيم، من الظلمات الى النور، من الضلال الى الحق، من الهلاك الى النجاة، وحتى يصبح هذا الحل ذا شأن أصدرنا أوامرنا ـ كما قيل من قبل ـ بانتزاع بيوتات لقاءاتكم المشعوذة، أقصد دور الصلاة، ان جاز استخدام هذا اللفظ، التى يملكها الهراطقة وبرصدها على الفور للكنيسة الجامعة، ومصادرة أى مواضع لصالح الدولة، ولن يشهد المستقبل لكم أية تسهيلات للقاء. فمن اليوم وبعده لن يسمح لاجتماعاتكم غير الشرعية ان تعقد فى السر أو العلن وليكن ذلك للجميع معلوما.

وأول ما نسجله على هذين المرسومين، والثانى منهما بخاصة أنهما يعتبران خروجا على السياسة التى جرى فى ميلانو رسمها سنة ٣١٣، فقد منحت رسالة نيقوميديا المتحدثة باسم سياسة ميلانو «سائر الناس الحرية فى اتباع ما ترضاه من الديانة نفوسهم، وأن لا يحرم أى انسان من حرية الاختيار فى اتباع عقيدة المسيحيين، أو فى اعتناق الديانة التى يراها متناغمة وهواه». ومن ثم فقد تخلى قسطنطين بقراراته هذه عما وعد بانتهاجه ازاء سائر العقائد. بل

تموت مع الجسد وتقوم معه في يوم القيامه، فابعدت البيعه المقدسه هذه المقاله بعد اجتماع مجمع للنظر فيها وظهرت مقاله اخرى مفسوده ثم اضمحلت وبطلت، بمعونه الله تعالى في مملكة فيلبس الملك الذى اقام سبع سنين وملك بعده داكيوس، وكان بينه وبين فيلبس الملك عداوة عظيمه، فاقام على البيعه بلايا كتيره. واستشهد فاويانوس البطرك وصار كرنيليوس بطركا عوضه، وكذلك الاكسندروس بطرك اورشليم اعترف

لقد ذهب الى حد اضطهاد أتباع فرق المسيحيين هذه أو تلك، ومصادرة دور عباداتهم، وهى اجراءات طالما قاسى منها المسيحيون جميعهم قبل ذلك. ولا شك أننا نلحظ هنا تغييرا فى سياسة الدولة تجاه المسيحية بصفة خاصة. فقد ذكرنا أن الامبراطورية كانت تنظر الى المسيحية بجميع فرقها المختلفة نظرة واحدة كلية، ولم يكن يعنيها أن تنقسم الكنيسة اى عدد من الفرق قليل أو كثير ـ أما الآن وقد أصبحت المسيحية ديانة شرعية فى الدولة، فان أى انقسام فى الرأى بين أولئك الاتباع لابد وأن يضر بالسلطة المركزية للامبراطورية. ومن ثم عول قسطنطين على القضاء على أى مظهر من هذا النوع. وتلك كانت سياسته دوما مع المسيحية(*).

هراطقة وأرثوذكس

تمسك آباء الكنسية الأولون بالسيرة التى تواترت عن تلاميذ المسيح وبإيمانهم الذى كان من إلهام الروح القدس. والرسل هم أول من عقدوا مجمعاً مسكونيّا، أى عالميّا، بمعناه الصحيح، ونجد أخباره فى سفر أعمال الرسل:

«ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معاً بنفس واحدة. وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين. وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم. وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون

(*) انظر: الدولة والكنيسة. د. رأفت عبد الحميد جـ٢.

دفعتين واظهر الامانه قدام المخالفين والقى فى السجن وتنيح فيه بعد ان لقى امور صعبه، وكان فيه من القدس والصبر والجهاد موهبه عظيمه جدا، وسمعوه فى الحبس يعترف ويمجد الى أن تنيح.

وجلس بعده بطرك يسمى ماساوانوس. وبطرك انطاكيه واويلاس اعترف ايضا وحبس وتنيح فى السجن. وجلس بعده فاوياس.

واما ديونوسيوس البطرك فقال: اذكر ما لقيته واشهد الله على. ثم قال: ان داكيوس ملك روميه

بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا... فرتيون وماديون وعيلاميون والساكنون ما بين النهرين واليهودية وكبدوكية وبنتس وأسيا وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحى ليبية التى نحو القيروان، والرومانيون المستوطنون يهود ودخلاء كريتيون وعرب».

وللرسل قانون للإيمان ورد فى رسالة تعرف باسم «رسالة الرسل» Epistola Apostolorum، وهى قد كتبت أصلا باللغة اليونانية، وليس لدينا الآن سوى صيغتها الأثيوبية، كما حفظ جزء منها باللغة القبطية وجزء صغير آخر حفظ باللغة اللاتينية. ويكاد معظم الدارسين يجمعون على أن تاريخها يسبق عام ١٥٠م، ورسالة الرسل على هذا هى أقدم نص تاريخى يحدد قوامه الإيمان وأركانه ومن ثم يوضح المفهوم الأول للأرثوذكسية السليمة. ولأهمية هذه النقطة رأينا أن نورد مضمون كل من رسالة الرسل، وقانون الإيمان فى الكنيسة القبطية، وقانون ارينايوس، ثم قانون الإيمان الإفريقى على الترتيب(١).

رسالة الرسل: «أؤمن بإلله الأب، وبيسوع المسيح مخلصنا، وبالروح القدوس الباراقليط، وبالكنيسة المقدسة، وبغفران الخطايا».

قانون الإيمان القبطى: «أؤمن بإله واحد الله الأب، وبابنه الوحيد مخلصنا يسوع المسيح، وبالروح القدس معطى الحياة، وبالكنيسة الأرثوذكسية المقدسة، وبالحياة الأبدية».

(1) See Badcock, F.J., The History of the Creeds, pt. II.

طلبنى طلبا شديدا وسترنى الله عنه ولم يعرف مكانى، ومن بعد اربعه ايام امرنى الله بالنقله فهربت وتلاميذى وجماعه من الاخوه ومشينا مشيا كثيرا، ولما مضى النهار وقد قربنا من أبو صير اخدونا الجند بعد اربعة ايام فتخلص منهم تيماتوس احد تلاميذى، وعاد الى البيت بعد أن التقى بزارع قال له: ما خبرك فعرفه خبر البطرك وإنه أخذ من كان صحبته. ولما أخذوا الجند ديوناسيوس البطرك

قانون ارينايوس : «أؤمن بالله الأب، وبيسوع المسيح ابنه الذى تجسد، ومات، وقام من الأموات، وبالروح القدس، وبغفران الخطايا، وبالحياة الأبدية».

ولا يختلف قانون الإيمان الإفريقى كثيراً عن قانون ارينايوس(١).

والمشاكل العويصة فى اللاهوت المسيحى تدور حول الثالوث (الأب، الابن، الروح القدس) فى القضايا الآتية: هل الابن مساو للأب فى الجوهر؟

هل للابن طبيعة واحدة أم طبيعتان؟

هل الروح القدس إله كامل؟

هل العذراء مريم أم للمسيح فى طبيعته البشرية أم فى طبيعته الإلهية؟

(1) "Credo in Deum Patrem omnipotentem universorum Creatorem,
Credo in Jesum Christum, Filium Eius unicum, Dominum nostrum, qui natum est,
Crucifixus, resurrexit;
Credo in Spiritum Sanctum;
Remissionem peccatorum;
Carnis resurrectionem
Et vitam acternam per sanctam Ecclesiam".
(Enchiridion Symbolorum Definitionum et Declarationum, Auctore Henrico Denzinger).
See Bibliography.

ركبوه حمارا عاريا، كما حكا عن نفسه، ومشوا تلاميذه.

وكان قد انفذ الى فاويانوس بطرك انطاكيه واعلمه بحال الشهدا الذين استشهدهم دكيوس باسكندريه [وما قاسوا من أنواع العذاب وجميع البلايا الذى صبرو عليها. وفى آخر كتابه قال له أن فى أوان الشدة أنكرو جماعة وعادو إلينا] ، وكتب له قصصهم ، حتى أن إنسانا شيخا اسمه مطر

هذه القضايا التى اختلف حولها الأولون وتنازعوا هى التى من أجلها عقدت المجامع المسكونية لمدارستها ولاتخاذ قرارات صار الالتزام بها هو الشرط الأساسى لتحديد الأرثوذكسية. ومن خرج على ما اتفق عليه الآباء فى هذه المجامع دمغ بالهرطقة.

انعقد المجمع المسكونى الأول فى مدينة نيقيا سنة ٣٢٥ برياسة الإمبراطور قنسطنطين العظيم لمناقشة تعاليم آريوس القس السكندرى، الذى نادى بأن الابن (المسيح) أقل من الآب في الجوهر، بل ووضع المسيح بين سائر المخلوقات. حقيقة أنه قال بسمو هذا المخلوق، ولكنه وضعه بين سائر البشر. وبعد نقاش طويل تجلت خلاله مواهب اثنا سيوس السكندرى وقوة حجته رفض المجلس آراء أريوس وأدانها بالهرطقة لأن «ألوهية المسيح هى الأمل الوحيد الذى يربطنا بالله الآب؛ لأنه لا أحد سوى الله وحده بقادر على احتواء المخلوق وضمه فى الخالق. والمسيح على هذا من نفس جوهر الآب، وهو ليس بشبه إله أو مخلوق مميز بل إله حق من إله حق، نور من نور، مولود غير مخلوق قبل كل الدهور، مساو للآب فى الجوهر»(١).

(1) "Credo in unum Dominum, Jesum Christum,
Filium Dei, natum de Deo, Deum de Deo,
Lumen de lumine,
Deum verum de Deo vero,
Natum ante omnia saecula, non factum.."

اخـذوه وقـالو له تسـجـد للاصنام فلم يفـعل ذلك فضربوه ضربا موجعا وجرحو وجهه ثم اخرجوه خارج المدينه ورجموه حتى تنيح.

وكذلك امرأه مومنه قدموها لتسجد للاصنام فامتنعت فضربوها وعروها وربطو رجليها وجروها على الحجاره حتى تقطع لحمها وجرى دمها على الأرض فى الشـوارع وهى تجلد الى أن اخـرجـوها من المدينه وقتلوها ورموها هناك، وعادو الى بيوت

وإلى جانب هذه المشكلة اللاهوتية عالج المجمع وسائل تنظيم الكنيسة فرتب القانون السادس الكنائس الرسولية على الوجه الآتى: روما، الإسكندرية، أنطاكية. أما أسقفية أورشليم، التى كانت واقعة تحت إشراف أبروشية قيسارية، فيأتى ترتيبها بعد هذه الكنائس الثلاث سالفة الذكـر[1]. وبالطبع لم يرد ذكر بيزنطة فى هذا التنظيم الكنسى لأن مدينة القسطنطينية لم تفتتح إلا بعد مجمع نيقيا بخمسة أعوام لتكون عاصمة للإمبراطورية. ولقد ظلت كنيسة بيزنطة خاضعة ـ كما كانت الحال من قبل ـ لأبروشية هيراقليا.

أما المجمع المسكونى الثانى فقد انعقد فى القسطنطينية فى سنة ٣٨١ على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس العظيم، لمناقشة آراء ماسيدونيوس الذى علم بأن الروح القدس أقل من الآب والابن فى الجوهر. ولذا عرف ماسيدونيوس وأتباعه باسم «أعداء الروح القدس» Pneumatomachoi. وكانت هذه النظرية تهدد أقنوما من الأقاليم الثلاثة ـ هو الروح القدس ـ بنفس القدر الذى هددت به الأريوسية نظرية التثليث. ولذلك جدد الآباء المؤتمرون فى مجمع القسطنطينية قانون الإيمان النيقى، وأكدوا ألوهية الروح القدس «الرب المحى المنبثق من الآب المسجود له مع الآب والابن الذى نطق به الرسل الأطهار»[2].

(١) راجع المخطوطة الخاصة بقوانين مجمع نيقيا ص ٢٨٠ .

(2)"... et in Spiritum Sanctum, Dominum et vivificantem, ex Patre procedentem, cum Patre et Filio adorandum et conglorificandum, qui locutus est per sanctos prophetas. E.t unam Sanctam catholicam et apostolicam Ecclesiam.

المومنين فنهبوها واخربوها وأخذو ما فيها من ذهب وفضه وأثاث.

وفى هذا الزمـان اسـتـشـهـد بولس السكندرى واخـذ اكليله بفـرح ولـم يكـن احـد يقـدر يتظاهر بمعرفة الله.

وفى تلك الأيام ايضـا اخذت عدرا مومنه اسمها بلونيه كسرت اعضاها كلها واحرقت بالنار وهى بالحياه خارج المدينه لأنها لم تطعهم فى الكفر ولم تجحد السيد المسيح. وكانت تنظر لهيب النار وهم


أيقونه للشهيده أوفيميه وأولادها الخمسة
(الكنيسة المعلقة. مصر عتيقه)

استقرت مسألة الثالوث بعد مجمع القسطنطينية هذا. على أنه يجب أن نذكر أن الكنيسة اللاتينية قد أضافت إلى قانون الإيمان النيقو قسطنطينى عبارة تقول بانبثاق الروح القدس «من الابن أيضـاً» Filioque. وهذه الإضافة الدخيلة على قانون الإيمان ظهرت أول ما ظهرت فى إسبانيا فى مؤتمر طليطلة (٥٨٩م)، ثم تبنتها الكنيسة الفرنجية. وقد كان لهذا آثار بالغة الخطورة فى تعميق الخلاف بين الكنيسة الشرقية وكنيسة روما مما أدى إلى الشقاق بين الجانبين.

ولقد قرر الآباء المجتمعون فى هذا المجمع المسكونى الثانى رفع كنيسة بيزنطة إلى الرتبة الثانية بعد كنيسة روما؛ لأنه لم يكن من اللائق تجاهل عاصمة الإمبراطورية المسيحية. وعلى هذا فإن القانون الثالث لهذا المجمع وضع كنيسة القسطنطينية قبل كنيسة الإسكندرية ذاتها، وصار أسقف بيزنطة «يتمتع بالشرف الذى يتلو الشرف الذى يتمتع به أسقف روما لأن القسطنطينية هى روما الجديدة».

كان قانون الإيمان الذى اتفق عليه فى مجمعى نيقيا والقسطنطينية والمعروف باسم Symbolum Nicaeeno Constantinopolitanum نتيجة لجهود القديس آثاناسيوس السكندرى بطل الأرثوذكسية الذى اهتدى إلى كلمة Homoousios «مساو للآب فى الجوهر» والتى سهلت على الآباء مشكلة صياغة قانون الإيمان هذا(١). ولقد حمل رسالة الأرثوذكسية

(1)"Credimus i unum Deum Patrem omnipotentem,.. Et in unum Ddominum Iesum =

يحـرقـونهـا فلم يهـولهـا بل صـبـرت على ذلك واسلمت روحـهـا. واخـذ رجل اخر اسمه سرابيون وعــذب عــذابا شــديدا ورمى من تالت طبــقــه فتكسرت عظامه واستشهد.

ولم يكن للمومنين ملجا ولا مسكن لا نهارا ولا ليلا فمكثو هكذا زمانا كتيرا. وكان هذا من فعل داكيـوس الملك، واستـشهـد شـهدا كتير لا تحصى اسماهم، واخذ أيضا المغبوط يوليانوس وكان رجلا جسـميـا كبيـر البطن لا يقدر يمشى ومعـه رجلان

من بعد القديس آثاناسيوس ثلاثة من آباء كبادوكيا هم القديس جريجورى من نازيانزوس الشهير بجريجورى اللاهوتى (٣٢٩ ـ ٣٩٠)، وبازيل الأعظم (٣٣٠ ـ ٣٧٩)، ثم شقيقه الأصغر جريجورى من نيسا (توفى سنة ٣٩٤).

ولقد ظهرت صيغة لاتينية لقانون الإيمان فى غرب أوربا نسبت إلى القديس أثاناسيوس ذاته، وهى الصيغة المعروفة باسم «إلى من يريد الخلاص». Quicunque vult salvus esse ولقد دس الغرب اللاتينى على هذا النص قول القديس أثاناسيوس بانبثاق الروح القدس من الابن مثلما هو منبثق من الآب[1]. وهذا تزييف مؤكد.

يمكننا أن نلمس من قصة المجامع إلى جانب الجدل اللاهوتى العميق تطلعات إلى الزعامة الكنسية بين الآباء الأساقفة، ذلك أن كل كرسى من كراسى الأسقفيات الرسولية أراد أن

=Christum.. Et in Spiritum Sanctum, Dominum et vivificantem, ex Patre procedentem.. Et unam Sanctam Catholicam et apostolicam Ecclesiam. confitemur unum baptisma in remis- sionem peccatorum. Exspectamus resurrectionem mortuorum, et vitam futuri saculi. Amen".

(1)"Fides autem Catholica haec est, ut unum Deum in Trinitate, et Trinitatem in unitate veneremur.. et tamen non tres domini, sed unus est Dominus..
Spiritus Sanctus a patre et Filio non factus nec creatus, nec genitus' sed ptocedens.?

وجـــازوا بهـم الى الايوان، فـــانكر أحــد الرجلين واعترف الأخر مع الشيخ يوليانوس فجـروهما فى المدينه واحـرقـوهمـا بالنار. وكـانوا شـرط[شـرطة] كثير منتبهين لعذاب الناس.

وأخـذو احدا فـصـرخ وقال: يارب تقبلنى إليك سريعا. فقطعت راسه واحرق بالنار. واثنان اخران أيضـا اسـتـشـهـدا مـعـه. وأخـر يسـمى الاكـسندروس ومعه جماعه ساقوهم الى الحبس ثم اخرجوهم منه وقتلوا. وامرأه تركت اولادها وقتلوها. وامرأه مومنه

يجعل من مدرسته الحكم الأوحد للأرثوذكسية، مما أدى إلى بروز النعرات المصرية والأنطاكية والطموح البيزنطى والمطامع الرومانية.

والواقع أن كـلا من الإسكندرية وروما قد غـضـبـتا من القـانون الثالث لمجمع القـسطنطينية الذى رفع كنيسـة بيزنطة من العدم إلى المرتبـة الثانية على حساب الإسكندرية، وتحرشاً بنفوذ روما. والإسكندرية حتى ذلك الوقت كانت صاحبة القول الفصل فى المسسائل اللاهوتية، فهى كـرسى القـديس مـرقص، ويكفـيـهـا اثناسـيـوس على مـدى التـاريخ لتطالب بـصـلاحـيـاتهـا الأرثوذكسية وبتفوقها فى تفهم المشكلات اللاهوتية المستعصية. أما روما فقد رأت فى تحركات أسقفية بيزنطة ما يدعو إلى الريبة:

فالقسطنطينية وهى العاصمة الجديدة للإمبـراطورية ومقر الإمبراطور المسيحى قد لا تكتفى بالرتبة الثانية بين الكنائس وإنما قد يأتى اليوم الذى تتطلع فيه إلى المكان الأول مما يضيع على أسقفية روما ما تستند إليه من مقومات رسولية وادعاءات فى الإمارة على الكنيسة العالمية. ولذا فقـد رفضت روما الموافقـة على هذا القـانون الثـالث إلى أن انعقـد مـجلس اللاتيـران فى عـام ١٢١٥، أى أن روما لم توافق على هذا القـانون إلا بعـد مـرور ٨٣٤ عـامـاً من إصـداره، وذلك حينما كانت الإمبراطورية البيزنطية قد سقطت بالفعل فى أيدى جنود الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤) التى كان قد بشر بها البابا أنوسنت الثالث. ومعنى هذا أن البابوية لم تعترف لكنيسة

أيضا من شده غيرتها لدينها دعت على الوالى فقتلها. وجماعه كتيره لا تحصى كانو يتقدمون للاستشهاد على اسم السيد المسيح بفرح عظيم كمثل من يسعى الى العرس. وكذلك جماعة من أهل المدن والقرى استشهدو. وساح فى الجبال جماعة كتيره لا تحصى هربو من الكفار ومات منهم كتير بالجوع والعطش والحر. وشيخ اسقف من مدينة تسمى مليج من كورة مصر هرب ومعه امراه تبعته فلم يقدرو عليهما ولا عرف لهما خبر.

بيزنطة بالمرتبة الثانية بين الكنائس الرسولية الخمس إلا بعد أن أصبحت بيزنطة خاضعة بالفعل للسلطان البابوى. هذا عن موقف روما.

أما عن الإسكندرية فقد دخلت بعد صدور هذا القانون الثالث فى صراع عنيف مع بيزنطة دام سبعين عاماً، وكان النصر خلال هذه الفترة فى جانب مدرسة الإسكندرية التى نجحت بالفعل فى إذلال أساقفة بيزنطة فى أكثر من موقف. والانتصار الأول الذى أحرزه السكندريون على بيزنطة كان فى عام ٤٠٣ عندما نجح ثاوفيلوس أسقف الإسكندرية فى خلع ونفى يوحنا ذهبى الفم من منصب الأسقفية لبيزنطة(١). أما الانتصار الثانى للإسكندرية فكان فى المجمع

(١) يوحنا ذهبى الفم: ولد فى أنطاكية فى عام ٣٤٧ وتوفى فى كومانة ببنطس فى ١٤ سبتمبر عام ٤٠٧. وكان يوحنا الابن الوحيد لأحد القواد فى الجيش الإمبراطورى، ولقد ربته والدته على تعاليم المسيحية، ولكنه لم يعمد إلا فى سن الرجولة. ولقد درس يوحنا القانون وتتلمذ على يد الفليسوف العظيم ليبانيوس. على أنه غير رأيه فجأة وتوحد فى الجبال، وفى عام ٣٨١ سيم قسا فى أنطاكية. ولقد ذاعت شهرة يوحنا كواعظ ينطق بدرر الكلام وبالحكمة فسمى بذهبى الفم. وفى عام ٣٩٨ اختير اسقفا لكرسى بيزنطة. ولقد اصطدم يوحنا بالإمبراطورة يدوكسيا زوج اركاديوس لأنه كان يوبخها علانية بسبب إسرافها ومجونها. وفى عام ٤٠٣ نجحت المؤامرة التى دبرتها يدوكسيا ضد الأسقف واجتمع مجلس خارج القسطنطينية برياسة ثاوفيلوس أسقف الإسكندرية، ولفق المجلس بعض الاتهامات ضد ذهبى الفم وقرروا عزله. ولقد نفاه الإمبراطور ولكنه سرعان ما استدعاه من المنفى. ولكن مؤامرات الأعداء كانت لا تكف فنفاه الإمبراطور مرة أخرى إلى أرمينيا، وفى عام ٤٠٧ أمر بترحيله إلى بتيس فى إيبيريا، ولكن القديس توفى أثناء هذه الرحلة المضنية. =

وجماعة كانوا الشرطيون يلقونهم فيأخذو منهم البرطيل * ويطلقونهم. وقوم هامو على وجوههم ولم يعـودو. هذا كله لم اقله أنا ديونوسيوس البطرك هشا* ولا باطلا، لكنى اعلمت ابوتك يا اخى فاويانوس جميع البلايا التى أحاطت بنا وما صبرنا عليه ولقيناه، وقد استحق الملكوت كلمن ذكرته لك يا أخى بتعبهم وجهادهم على اسم السيد المسيح.

ومن كان انكر الشدة جماعة عادوا إلينا

(*) البرطيل: الرشوة.

(*) هشا : زوراً.

المسكونى الثالث الذى انعقد فى أفيسوس سنة ٤٣١ على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى. وفى هذا المجمع نوقشت آراء نسطور Nestorius أسقف القسطنطينية الذى تبنى آراء المدرسة الأنطاكية التى كانت تنادى بضرورة التمييز بين طبيعتى المسيح البشرية والإلهية. وراح نسطور يفصل فى أمر الطبيعة الناسوتية للمسيح إلى حد بدا معه أن هنالك ازدواجاً فى شخصية المسيح: من ذلك قول نسطور أن مريم العذراء لم تكن أمّاً للمسيح فى طبيعته الإلهية وإنما هى أم للمسيح فى طبيعته البشرية فقط (والدة المسيح وليست والدة الإله). ووجد كيرلس أسقف الإسكندرية ـ وهو ابن أخ وخليفة ثاوفيلوس سابق الذكر ـ فرصته لإذلال أسقف بيزنطة مرة أخرى، فأخرج للآباء المجتمعين فى أفيسوس الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا وقرأ عليهم «لقد صارت الكلمة جسداً». وأدين نسطور والنساطرة بالهرطقة، وقرر مجمع أفيسوس أن العذراء مريم هى والدة الإله»[1] Theotokos وكسبت الإسكندرية الجولة الثانية وصار شعارها «الجوهر الواحد ووالدة الإله» ـ للتدليل على انتصارها على كل من الأريوسية والنسطورية ـ ولتتخذ منهما مبرراً لزعامتها فى الأرثوذكسية.

= ويعتبر ذهبى الفم واحداً من الأربعة المعلمين للكنيسة البيزنطية. وأهم مؤلفاته تعليقاته على رسائل القديس بولس، ومواعظه العديدة، ومدائحه لسيرة الشهداء، وشروحه لطقوس المعمودية.

(1) Anathematismi Cyrilli Contra Nestorium:
"Si quis non confitetur, Deumesse veraciter Emmanuel, et propterea Dei genitricem sanctam virginem: peperit enim secundum carnem factum. Dei verbum, anathema sit".

فقبلناهم بفرح لمعرفتنا بفرح من يريد توبه الخاطى ولايريد موته حتى يرجع فيحيا. وبحكم ما احققته من مشاركتك لى ايها الأخ الحبيب شرحت لك ما نالنا لأجل أنا[وأنت] روح واحده وأمانه واحده، وكذلك أنتم أيضا الأخوه والاولاد اردت اذكر هذا لكم بسبب الاولاد المباركين وصبرهم لتعلمو ما نال اخوتكم المومنين من الجهاد على الأمانه الارتدكسيه، وما صارو إليه من النعيم بصبرهم لأجل من صبر على الالام عنا وعنهم، واشترى

على أن النصر على ما يبدو كان قد أسكر السكندريين فتجاوزوا الحدود: ذلك أنهم عقدوا مجمعاً آخر فى أفيسوس سنة ٤٤٩ لتأكيد ألوهية المسيح. ولقد أدى حرص أتباع كيرلس على تأكيد هذا المعنى إلى أن جاءت براهينهم لتهدد ناسوت المسيح، فبدا وكأن لاهوته قد استوعب ناسوته. ومن وجهة نظر هذا الفريق لم تعد للمسيح طبيعتان يل طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية، ومن ثم عرف السكندريون وعلى رأسهم أسقفهم ديوسقورس بأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة: المنافزة أو المونوفيزيتيين Monophysites (مونو = واحد، فيوزيس = طبيعة).

وكان لديوسقورس السكندرى مؤيد مونوفيزى كبير هو أوطاخيا Eutyches الذى كان وكيلاً لأحد الأديرة فى القسطنطينية. ولقد لقيت تعاليم ديوسقورس وأوتيخا قبولا وتأييداً من جانب الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ ـ ٤٥٠). ولكن أسقف القسطنطينية والبابا ليو الأول العظيم وقفا بشدة يعارضان فكرة الطبيعة الواحدة. وبرغم هذا نجح ديوسقورس فى إقناع الإمبراطور بعقد مجمع فى أفيسوس سنة ٤٤٩. وقد ترأس ديوسقورس هذا المجمع وأجبر أعضاءه ـ برغم أنفهم ـ على الاعتراف بتعاليم أوتيخا المونوفيزيه.

ولقد صدق الإمبراطور على قرارات المجلس. ولكن البابا ليو لم يهدأ وشن حرباً ضد هذا المجمع حتى أسقطه من عداد المجامع المسكونية وعرف باسم «مجمع اللصوص» Latrocinium.

وفى سنة ٤٥١ انعقد المجمع المسكونى الرابع فى خلقيدونية على عهد إمبراطور مارقيان

جمعنا بدمه فتصبرو من اجله، ولم يجحدوه فى مجلس الكفار ولم يهولهم فى محبته حد السيف ولا نهب الأموال ولا حريق النار، فأظهر الله فضايلهم فى الدنيا ولهم فى الأخره جزيل الثواب وحسن الماب.

وكان قس من أهل روميه قد. افتخر وقال ليس يجوز أن نقبل احدا ممن انكر المسيح فى زمان الشده والاضطهاد ورجع الى الرب لاجل انه قد سقط ولم يصبر، بل يجعل من جملة المخالفين.

(٤٥٠ ـ ٤٥٧) وبدعوة من البابا ليو الأول العظيم، وذلك لمحاكمة تعاليم الإسكندرية المونوفيزية. وأكد الآباء المجتمعون فى خلقيدونية أن للمسيح طبيعتين: بشرية وإلهية. والحق أن الفضل فى حسم هذا النزاع يرجع إلى البابا ليو الذى قدم مقولته الشهيرة باسم Tomus وفند فيها آراء أوتيخا وديوسقورس، وأكد أن ناسوت المسيح كامل كما أن لاهوته كامل أيضاً فى غير لبس ولا امتزاج، فهو إنسان كامل وإله كامل[1]. وبهذا أدينت تعاليم المنافزة على أنها غير أرثوذكسية. وإلى جانب ذلك أكد مجمع خلقيدونية من جديد القانون الثالث لمجمع القسطنطينية الخاص برفع مركز أسقفية بيزنطة إلى الرتبة الثانية بعد أسقفية روما. وكان هذا إذلالا آخر للسكندريين الذين فقدت كنيستهم المركز الثانى. كذلك منح آباء خلقيدونية أساقفة الكنائس الخمس لقب بطريرك، وهى بالترتيب الخلقيدونى: روما، القسطنطينية، الإسكندرية، أنطاكية، وأورشليم.

....

(1)"Unum eundemque Christum Filium Dominum unigenitum, in duabus naturis inconfuse,.. unum eundemque confiteri Filium et dominum nostrum Iesum Christum consonan- ter omnes docemus, eundemque perfectum in deitate, et eundem perfectum in humanitate.."

"Qui enim verus est Deus, idem verus est homo, et nullum est in hac unitate mendacium, dum invicem sunt et humilitas hominis et altitudo Deitatis".

وكان يسمى الذين تثبتو الانقيا. وكان هذا القس ريسا على جماعته، فاجتمع بروميه مجمع فيه ستون اسقفا واقسا وشماسه بسبب هذا القس وغيره وكتبو الى كل موضع بما جرى.

وكان إنسان يسمى نواتوس مساعدا لهذا القس مبغضا للتايبين، وكان يساعده على إخراج كلمن يريد الرجوع الى البيعه منها، فاقبل يمنعهم أن يدفعوا للناس الدوا، وهو التوبه والندامه والصوم والسهر والبكا والتضرع الى الله فى المغفره، فكتبو

غير أن البابا ليو قد عارض القانون الثامن والعشرين لخلقيدونية الذى أعطى لكنيسة بيزنطة المركز الثانى بعد روما، فكتب إلى الإمبراطور مارقيان يستنكر هذا القرار ويلقى تبعة هذا التطرف فى أطماع كنيسة بيزنطة على أناتوليوس أسقف القسطنطينية متهماً إياه بالطمع الزائد والتطاول على حقوق روما، مذكراً الإمبراطور والبطريرك بأن القسطنطينية أصلا لم تكن لتستحق حتى مجرد لفظة «أسقفية» لأن ليس لها أصل رسولى[1].

ولعله من الضرورى هنا أن نوضح أن مبدأ الطبيعتين للمسيح، هذا المبدأ الذى أكده مجمع خلقيدونية هو من قول كل من ثيودور من مصيصه (موبوستيا) ونسطور ذاته. ولكن الغريب أن مجمع خلقيدونية وقد أمر بإعادة الأساقفة من أتباع مدرسة نسطور وثيودور إلى أبروشياتهم، إلا أنه أصر على إدانة نسطور بالاسم وذلك بسبب تجديفه السابق على العذراء مريم. والحق أن هنالك تناقضاً مريباً بين قرارات المجمع المسكونى الثالث فى أفيسوس وبين قرارات المجمع المسكونى الرابع فى خلقيدونية: فالأول يمثل انتصار آراء مدرسة كيرلس السكندرية القائلة «بتجسد الكلمة» في طبيعة واحدة، بينما يمثل الثانى انتصار مدرسة البابا ليو

(1)"Satis sit praedicto Anatolio quod vestrae pietatis auxilio, et mei favoris assensu, Episcopatum tantae urbis obtinuit. Non dedignetur Regiam civitatem, quam apostolicam non potest facere sedem' nec ullo sperst modo, quod per aliorum possit offensiones augeri".

كهنه روميه الى كهنه انطاكيه بما جرى فجاوبوهم واتفقو جميعا أن يقبلو العايدين الى البيعه ويغفرو لهم ويعاونوهم على التوبه، لأن الله هو الذى يقبلهم. ثم اخرجو القس المفتخر المتعاظم على هولا العايدين واحضرو كتب نواتوس بمساعدتهم وعرفو ما كتبه لأجلهم. ثم أن نواتوس غصب اسقفيه بغير استحقاق، وأقام تلت سنين و أوسم كهنه قوما جهالا لا يعرفون شيا، ثم وهمهم انه ريس اسقافه فكانو يكرمونه لأجل ذلك حتى

والمدرسة الأنطاكية أو النسطورية القائلة بالطبيعتين الكاملتين للمسيح. ويتضح هذا جليًا إذا علمنا أن أتباع ديوسقورس السكندرى كانوا قد أصدروا قراراً بالحرمان ضد النساطرة وأيضاً ضد البابا ليو ذاته بسبب مسألة الطبيعتين.

لم يشارك الآباء المصريون فى أعمال مجمع خلقيدونية أو بالأحرى لم يسمح لهم بذلك، وقد أدانهم المجمع بالهرطقة فنعتوا تارة باسم المنافزة وأخرى باسم اليوطاخية. ولعل النقطة التى يمكن أن تميز بين المنافزة وبين آراء أوطاخيا هى أنه فى حين علم المنافزة بالطبيعة الإلهية الواحدة للمسيح قال أوطاخيا بوجود طبيعتين فى المسيح قبل أن تتحدا، وطبيعة واحدة بعد الاتحاد، ولعله يقصد بذلك بعد قيامة المسيح من الأموات بعد الصلب.

ولقد ظهر فريق من غلاة المنافزة فى مصر وسوريا الذين نادوا بأن جسد المسيح لا يمكن أن يكون فاسداً؛ ولهذا فإنه لم يتألم وقت الصلب إلا ظاهريًا. وقد عرف هؤلاء باسم اليوليانيين أى أتباع يوليانوس من هاليكارناسوس الذين أطلقوا على أنفسهم لقب افثارتودوكيتاى Aphthartodocetae أو فانتازياستيس Fantasiastes أى الذين يؤمنون بنقاوة جسد المسيح، ومن ثم فإن هذا الجسد لم يكن أكثر من طيف عارض للمسيح الله.

على أن منافزة مصر تنكروا لتطرفات اليوليانيين وراحوا يتكلمون عن «خاصتين» للمسيح بدلا من «طبيعتين» ، الأمر الذى قربهم بهذا من آراء خلقيدونية. على أن النقطة الكبرى

انتهت أخباره الى روميه فصار بينهم سجس وافتراق عظيم. ثم اجتمع بعد ذلك جماعه من الأساقفه وابطلو جميع ما كان نواتوس عمله بكذبه، فاعلمو الذين قبلوه بانهم قوم سادجون لا معرفة لهم، وإن كل ما اوسمه وعمله لا صحه له. فتقدم حينذ واحد ممن كان نواتوس اوسمه واعترف بخطيته وبكى فقبلوه وسامحوه. وكاتبوا عنه الكراسي وحذروهم من قبول نواتوس ولا شي من تعليمه. وكان عدة من اشتهر امره ومن اوسمه

للخلاف بين الفريقين هى عدم اعتراف المنافزة بوجود طبيعة بشرية دائمة للمسيح، خاصة بعد القيامة.

والواقع أنه لو شارك آباء الإسكندرية مع الفريق الأخير المعتدل ربما كان سيقدر لهم أن يشرحوا وجهة نظرهم هذه. ولكن بطريركيتى بيزنطة وروما قد تعمدتا إذلال المدرسة السكندرية وانتزاع الزعامة منها. ويحدد عام ٤٥١ انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الأرثوذكسية، فبعدها نبذ المصريون كل ما هو يونانى ولا تينى وانطوت الكنيسة المصرية على نفسها واستخدمت اللغة الوطنية وهى اللغة القبطية فى قداساتها علامة على سخطها. وتسمت الكنيسة القبطية بالكنيسة الأرثوذكسية، ولكن أتباع خلقيدونية من لاتين ويونان لا يعترفون لها بهذا الاسم وإنما ما زالوا يدمغونها بوصمة المونوفيزية. أما فريق الكتاب الذين يقللون من قيمة الخلافات اللاهوتية بين المنافزة والخليقيدونية فهم يعالجون تاريخ الفترة بروح «أقيومينيقية» أى مسكونية تهدف إلى تبسيط الخلاف بين الطرفين سعياً وراء الفكرة الهادفة إلى وحدة الكنائس العالمية، فيما يعرف بالحركة المسكونية Ecumenical Movement.

أما المجمع المسكونى الخامس فقد انعقد سنة ٥٥٣ فى القسطنطينية بأمر من الإمبراطور جستينيان العظيم (٥٢٧ ـ ٥٦٥) وذلك للبحث عن حل وسط يرضى المنافزة فى سوريا وفلسطين ومصر. والمعروف أن الإمبراطورة ثيودورة زوج جستينيان كانت متعاطفة مع المنافزة

سبعة وأربعون قسا وسبعة أبودياقنين وسبعة أغنسطسين وبوابين. وكان عمل اشيا كتيره غير صحيحة لا حاجة الى ذكرها.

ثم كتب ديونوسيوس البطرك الى جميع المواضع كتبا يأمر بقبول من يرجع عن انكاره وجعل هذا قانونا باقيا لكلمن يعود من غلطة [ويأمر جميع الأساقفة الذى بكرسية بذلك. ثم أن داكيوس الملك الكافر مات]. وكتب أيضا الى قونون اسقف الأشمونين كتابا مفردا بمثل ذلك

هى وأنثيموس بطريرك القسطنطينية. ولكن البابا أغابيتوس وحزب الأرثوذكس المتطرفين من جماعة أكويميتوى Akoimetoi، أى السهارين الذين يواصلون الليل بالنهار فى الصلاة والطلبات من أجل نصرة قرارات خلقيدونية الأرثوذكسية، هاجموا سياسة البطريرك أنثيموس والإمبراطور جستنيان اللينة تجاه المنافزة. وأمام هذا اضطر جستينيان إلى التراجع فى موقفه فأقال أنثيموس وأحل محله ميناس وهو من غلاة أتباع خلقيدونية. ولكن جستينيان ظل يسعى ـ برغم هذا ـ لمصالحة المنافزة ومال نحو تأييدهم فى ضرورة إدانة الآراء النسطورية فى كتابات كل من ثيودور من مصيصه وثيودوريت من قورس وعباس الرهاوى والمعروفة باسم «الفصول الثلاثة» Tria Capitula بل ذهب إلى حد أنه عاب على مجمع خلقيدونية تواطؤه فى هذا الشأن. وعليه فقد استدعى البابا ڤيجيليوس إلى القسطنطينية، ثم وجه الدعوة إلى ساويرس بطريرك أنطاكية المونوفيزى الثائر لمدارسة الأمر. ولما وصل ساويرس إلى القسطنطينية أعلن أنه لن يتنازل عن مطالبه في ضرورة إنزال اللعنة بمقولة البابا ليو وبإدانة مجلس خلقيدونية «الحقير المدنس». وقد كانت هذه الآراء العلنية المتهورة سبباً فى إثارة الرأى العام فى القسطنطينية ضد جستينيان، فاضطر إلى إيداع ساويرس السجن لمدة عامين، ولكن ثيودورة أطلقت سراحه وهرب بعدها إلى مصر. ولقد نجح الإمبراطور جستينيان فى إقناع البابا فيجيليوس بضرورة إدانة آراء أصحاب «الفصول الثلاثة» سابقى الذكر، ووافق البابا على ذلك وأصدر إدانته ضدهم

سوى باقى الأساقفة. وكان ينبه الشعب المقيم معه باسكندرية ويعرفهم جميع ما عمله اورجانوس فى جميع البيع ويحذرهم منه. ثم كتب قوانين وخلدها فى البيعه فيها تعاليم وأداب شرعيه. ثم أن ديونوسيوس البطرك العظيم على مدينة اسكندرية العظمى كتب بما جرى عليه وما حل به فى مدة رياسته، وقد عرفنا ذلك من رسايله وتعاليمة التى رأيناها فى جميع البيع فى كل موضع.

وبجميع ما أقام داكيوس الملك سنتين ولأجل

بالفعل فيما عرف باسم Judicatum. ولكن موقف البابا قوبل باحتجاج شديد خاصة من جانب أساقفة أفريقيا الذين استنكروا إدانة الموتى فى قبورهم، واضطر البابا إلى سحب قراره هذا.

والواقع أن البابا فيجيليوس قد تهرب من حضور جلسات المجمع المسكونى الخامس متعللا بأسباب واهية. ولقد قرر المجمع إدانة الآراء النسطورية فى «الفصول الثلاثة» وإنزال اللعنة على أصحابها. ولما لم يوافق البابا فيجيليوس على هذه القرارات نفى إلى إحدى جزر بحر مرمرة، ولم يسمح له بمغادرة منفاه إلى روما إلا بعد أن وقع على قرارات المجمع الخامس(١). على أن البابا قد مات أثناء رحلة العودة. ولم يعترف غرب أوربا بالمجمع المسكونى الخامس هذا إلا على عهد البابا جريجورى الأول العظيم وذلك فى أواخر القرن السادس (٥٩٠ ـ ٦٠٤).

(1)"Si quis defendit impium Theodorum Mopsuestenum, qui dixit alium ese Deum Verbum, et alium Christum a passionibus animae et desideriis carnis molestias patientem, talis A.S..

Si quis defendit impia Theodoriti conscripta, quac contra rectam fidem et contra primam EPHESINAM sanctam Synodum, et Sanctum. Cyrillum et duodecim cius Capitula exposuit, talis A.S.

Si quis defendit cpistolam, quam dicitur Ibas ad Marin Persam haereticum scripsisse, quae abnegat quidem Deum Verbum de sancta Dei genitrice semper virgine Maria incarnatum.., talis A.S.".

اضطهاده لأولاد البيعه وقتله إياهم قتل هو وأولاده وأخذ ملكه وجلس بعده كلس ملكا، فكتب إليه ديونوسيوس كتبا، وكان كلس الملك قد عرف جميع ما عمله داكيوس، لأنه كان قد خلف صنم حجر كان يعبده ويقول إنه الذى دفع له الملك، وقتل الكهنة الذين كانوا يطلبون الى الله فى خلاصة وثبات ملكه. ثم كتب أيضا الى بطرك روميه كتبا قصدا منه فى إتصال المكاتبه بينهم وقبول من يعود إليه ممن انكر فى وقت الإضطهاد



تمثال لرأس الامبراطور كونستانس الثانى (٦٤١ ـ ٦٦٨م)

كان المنافزة يشكلون شوكة فى جنب الإمبراطورية، وظهرت المشكلة بشكل حاد بعد أن استردت الإمبراطورية البيزنطية أقاليم سوريا وفلسطين ومصر من يد الفرس. ولهذا فقد اقترح الإمبراطور هرقل (٦١٠ ـ ٦٤) مشروعاً لإعادة الوئام بين كل من النساطرة والمنافزة من جانب وبين أتباع مجمع خلقيدونية من جانب آخر. ويقضى اقتراح هرقل بأن يعترف الخلقيدونيون بوجود طبيعتين للمسيح وإرادة واحدة (Thelema)، ومن هنا جاءت كلمة «مونوثيليتية» Monotheletism أى مذهب الإرادة الواحدة. ولقد وافق على هذا الحل الوسط كل من بطارقة أنطاكية والإسكندرية والقسطنطينية كما أيده البابا هونوريوس (٦٢٥ ـ ٦٣٨). غير أن الراهب سوفرونيوس، الذى كان يعيش فى الإسكندرية ثم اختير بطريركا لأورشليم فيما بعد، عارض هذا الحل معارضة كاملة. ولما اشتد الجدل أصدر هرقل مرسوماً يعرف باسم Ecthesis أى «تفسير الإيمان» على أساس الاعتراف بطبيعتين للمسيح وإرادة واحدة له. ولكن البابا سيفيرينوس (٦٤٠) استنكر موقف سلفه هونوريوس ورفض المشروع الهرقلى «المونوثيليتى» ودمغه بالهرطقة.

ولما توفى هرقل خلفه على الحكم ابنه كونستانس الثانى (٦٤١ ـ ٦٦٨) الذى كان أيضا متحمساً للمذهب المونوثيليتى فأصدر مرسوماً جديداً عرف باسم Typus أى «أنموذج

فى أيام داكيوس، وذكر له فيه زوال كل اضطهاد كان فى كرسيه بأسكندرية، وإن السلامة قد صارت فى البيعه، وارداع نواتوس الضال عن فعله حتى لا يبقى للبيعه ضد، لأنه اغتصب الكهنوت لنفسه فقط ولم يكفر، ويحثهم على إتفاق الكلمة.

وكان يومئذ دمتريانوس بمدينة انطاكية وتاوكتستس بقيساريه وماسابانوس باورشليم، وهى إيليا، ومرينوس بصور وتنيح الأكسندروس بلادقية،

الإيمان» يقضى بالاعتراف بطبيعتين للمسيح وبإرادة واحد فى أسلوب غامض. ولكن «أنموذج» كونستانس هذا جاء ليزيد من بلبلة الأفكار وتعقيد الأمور. وعليه نقد عقد البابا مارتن الأول (٦٤٩ ــ ٦٥٥) مجلساً لاتيرانيّا فى روما عام ٦٤٩، حضره ممثلون من رجال الكنيسة البيزنطية، وفيه اتخذ قرار اللعنة ضد مشروعى هرقل وكونستانس[1].

ولقد عاقب الإمبراطور كونستانس هذا البابا على موقفه، فأرسل إليه حاكم راڤنا البيزنطى الذى قبض عليه وأرسله إلى القسطنطينية حيث حوكم واتهم بالخيانة ثم نفى إلى جزيرة القرم حيث خضع لصنوف من التعذيب والتجويع حتى مات بائساً فى منفاه. ولقد اضطر خلفه البابا ڤيتاليان (٦٥٧ ــ ٦٧٢) إلى عقد صلح مع الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الرابع (٦٦٨ ــ ٦٨٥) خوفاً من أن يحل به نفس المصير الذى كان كونستانس قد أوقعه بمارتن.

وفى عام ٦٨٠ ــ ٦٨١ دعا الإمبراطور قسطنطين الرابع إلى عقد المجمع المسكونى السادس فى القسطنطينية، حيث تقرر إدانة المذهب المونوثيليتى، واعترف الآباء المجتمعون بطبيعتين

---

(1) "..et super haec impiissimam Ecthesim, quae persuasione eiusdcm Sergii facta est ab Heraclio quondam imperatorcadversus orthodoxam fidcm, unam Christi Dei voluntatem.. et cum illis denuo scelerosum Typum, qui ex suasione praedicti pauli nuper factus est a serenissimo principe Constantino imperatore contra catholicam Ecclesiam.."



ايقونه قبطية فريدة مرسومة على الخشب للسيد المسيح واضعا يده على كتف الانبا مينا من كنيسة باويط من القرن السابع الميلادى. موجودة حالياً بمتحف اللوفر فى باريس

وكانت جميع البيع متفقه على الأمانة الارتدكسيه ووحدانية المسيح فى كل موضع وصقع، ببهجه وتعظيم وإتفاق قول الحق بمجد الله الاه السما وسيدنا يسوع المسيح الكلمه وروح القدس الاله الواحد بكل موضع يكون فيه إجتماع، بقول واحد ومحبة للأخوة. هذا قول ديوناسيوس.

ثم كتب أيضا الى استفانوس سبب تعميد الذين رجعو من انكارهم المسيح فى الإضطهاد وأن يميزو هذا الأمر فإنه عظيم جداً. وإن جماعة

وأرادتين للمسيح(١). وكان هذا كافياً لإرضاء مشاعر روما، على حساب مشاعر المنافزة بطبيعة الحال.

أما المجمع المسكونى السابع والأخير فقد انعقد فى نيقيا سنة ٧٨٧ لفض النزاع الطويل الذى دار حول الأيقونات. والأيقونات هى صور المسيح والعذراء والقديسين، وتشمل أيضاً الصلبان والتماثيل والمخلفات المقدسة، التى كانت بيوت العبادة فى الإمبراطورية البيزنطية وبخاصة البيوتات الديرانية تزخر بها. ولقد تورط المجتمع المسيحى فى العصور الوسطى فى تبجيل هذه الأيقونات إلى حد وصل إلى مصاف العبادة، مما يعيد للأذهان تجدد العادات المخالفة القديمة. ومنذ وقت مبكر حذّر الآباء الرعية من هذه الشعوذة: فذكر المؤرخ الكنسى يوسبيوس أنها عادة وثنية، كما وأن المجلس الذى عقد فى الڤيرا Elvira بإسبانيا فى بداية القرن الرابع أدان عبادة الأيقونات أيضاً. كذلك عبر البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ ـ ٦٠٤) عن معارضته لعبادة الأيقونات ورأى فى هذه الصور «مجرد أدوات للتعليم الدينى للعامة الذين «لا يجيدون القراءة».

(1) "et duas naturales voluntates in co, et duas naturales operationes indivise, inconvertibiliter, inseparabiliter, inconfuse secundum sanctorum patrum doctrinam adaeque praedicamus.."

الأساقفة المجتمعين قد ذكرو هذا كما سمعنا. وإن الذين يدخلون التعليم ويتركون الشقاق والخلاف يجب أن يحمو حتى يصيرو جدد بصبغة ليتخلصو من اختلاطهم بالإنجاس. ويكلم أيضا ديونوسيوس في كتابه بسبب خلف وشقاق سابليوس(*) لإنه سبب العله التى كانت طريقا الى التجديف على الله ضابط الكل. وقال ديونوسيوس فى كتابه: فقد انفذ الى بسبب الذين يحبون أن يعمدو الكل من المريدين وهم او ليانوس وديكسانوس وجماعة معهم.

(*) سابليوس: هوصاحب عقيدة «مؤلهى الأب» التى تعتقدان الله نفسه لا أحد اقاينمه هو الذى كفّر عن خطايا البشر. وقد حرمه البطرك ديونوسيوس فى مجمع عقده بالاسكندرية سنة ٢٦١م

وكان أول من اعتنق بدعة نوئيتوس وسابليوس زفيرينوس أسقف رومية وكاليسطوس خليفته وساعدا المبتدعين على نشر بدعتهما حتى انتشرت وعمت أنحاء الغرب.ومما زاد الطين بلة أن كاليسطوس سام أساقفة

والأباطرة الذين شنوا حرباً على عبادة الأيقونات هم أفراد الأسرة الأيسورية أو السورية التى أسسها ليو الثالث (٧١٧ ـ ٧٤١) وانتهت بانتهاء حكم ثيودورة (٨٢٩ ـ ٨٤٢). ويعرف الأباطرة الذين حاربوا الأيقونات «بمحطمى الأيقونات» Iconoclasts، فى حين أن عبادها يعرفون باسم Icondules. وقد كانت حرب الأيسوريين ضد الأيقونات على فترتين: الأولى من عام ٧٢٦ إلى ٧٨٠، والثانية من ٨١٣ إلى ٨٤٣[1]. ولقد اتسمت هذه الحركة بالشدة والقسوة، وكان جل الضحايا من الرهبان الذين عارضوا هذه السياسة اللاأيقونية فى عناد شديد. ويرى المؤرخون فى هذه السياسة اللا أيقونية إصلاحاً اجتماعيًا واقتصاديًا ودينيًا فى حين واحد: فهي محاولة من جانب الأباطرة لتطهير الكنيسة من العادات الوثنية، كما وأنها كانت فرصتهم أو حجتهم لتجريد البيوت الديرانية من أموالها الطائلة التى تكدست فيها من النذور والهدايا الوفيرة، وهى فى نفس الوقت تأكيد من جانب الجالس على عرش قنسطنطين بأنه صاحب صلاحيات الرأس الأعلى للكنيسة إلى جانب مهامه كقيصر: فالإمبراطور ليو الثالث (٧١٧ ـ ٧٤١) عندما كتب إلى البابا جريجورى الثانى أكد له أنه ذاتيًا لا غبار على أرثوذكسيته، وإنما هو ثائر على العادات الوثنية الرذيلة المتفشية فى كنائس الإمبراطورية، ثم أصر على حقه فى أنه «رجل دين وقيصر» فى آن واحد، وهذا هو حقه التقليدى المعروف

(1) See Vasiliev, op. cit., "The Isaurian Dynasty".

وأقامت البيعه هادية مدة يسيره حتى توفى الملك وملك بعده ملك كافر اسمه ولاريانوس فأخذوا نوابه ديونوسيوس واعتقلوه بامره، وقتلو جماعة شهدا لا يحصون، حتى إنهم كانو يشقون بطون الأطفال ويأخذون مصارينهم ويصلحونها لفايفا على أنابيب القصب ويرمون بها للشياطين.

ثم إنهم عاقبو ديونوسيوس البطرك وطالبوه أن يسجد لأوثانهم، فقال لهم: نحن نسجد لله تعالى وأنتم تسجدون لما تحبون وسجودنا للسيد المسيح

وقسوسا وشمامسة من الذين تزوجوا ثانية وثالثة ثم أباح العماد لمغفرة الخطايا وادعى بأن الاسقف لا يقطع من الكهنوت مهما جنى من الاثام. ولما لم يوافقه سابليوس على ذلك حرمه فجاء الى مصر سنة ٢٥٧م وأخذ ينشر فيها بدعة «مؤلهي الآب» فجذب اليه كثيرين ولما اتصل أمره بالبابا ديونيسيوس قاومه بشدة كما مر بنا في تاريخ حياة هذا القديس وانتهى الامر أخيرا بحرم سابيلوس في مجمع عقد سنة ٢٦١م.

بالقيصر ـ بابوية Caesaropapism الذى كان العامل الأكبر فى الصراع على مدار العصور الوسطى بين البابا وبين الإمبراطور.

والملاحظ أن جميع الأباطرة الذين أقدموا على تحطيم الأيقونات كانوا من أصل شرقى، ولعل هذا يعكس أثر الديانتين اليهودية والإسلامية على طريقة تفكير هؤلاء الأباطرة، ولقد عبر عن هذا المعنى المؤرخ المعاصر ثيوفانيس فى قوله بأن ليو الثالث كان صاحب «عقلية متأثرة بالتعاليم الإسلامية». ومما يلفت النظر أيضاً أن إرجاع عبادة الأيقونات قد تم على يد سيدتين من أصل إغريقي وهما: الإمبراطورتين إيرينى (٧٩٧ ـ ٨٠٢) وتيودورة (٨٢٩ ـ ٨٤٢).

هذا وفي سنة ٧٥٤ عقد الإمبراطور قنسطنطين الخامس كوبرونيموس (٧٤١ ـ ٧٧٥) مجلساً فى القسطنطينية حضره ثلثمائة من رجال الدين، ولكن لم يشارك فى هذا المجلس أحد من كراسى روما وأنطاكية وأورشليم والإسكندرية. وقرر المجلس اعتبار من يعبد الأيقونات عدواً للأرثوذكسية وللدولة وحقت لذلك محاكمته. واستمرت موجات العنف بين أنصار الأيقونية ودعاة اللا أيقونية إلى أن تولت الحكم الإمبراطورة إيرينى فدعت بمعونة البطريرك تارازيوس إلى عقد المجمع المسكونى السابع فى القسطنطينية فى عام ٧٨٦. وقد حضر إلى هذا المجمع



خالق السما والأرض الذى نحبه. فقال له الوالى: انت ما عرفت صبر الملوك عليك فإن سجدت لألهتهم أكرمناك وقدمناك وإن لم تفعل وخالفت الأمر ولم تسجد للآلهة فسترى ما يجرى عليك. وأخذ جماعة كانو معه فقتلهم بعد أن خاطبه خطابا كتيرا، ثم اخرجه ونفاه الى موضع يقال له قولوثى، وتفسيره حاجب، فعمل أهل ذلك الموضع معه الجميل ومع كلمن كان معه ممن لم يسجد للأصنام. وبعد ذلك اعادوه ليحكمو عليه بالموت

مندوبون من قبل البابا هادريان الأول. وبدأت الاجتماعات فى كنيسة الرسل بالقسطنطينية، غير أن كتائب الجند التى كانت ما زالت تؤيد الأباطرة الراحلين فى سياستهم اللا أيقونية هجموا على أعضاء المجمع شاهرين سيوفهم فى وجه البطريرك وأعضاء مؤتمره. واضطر المؤتمرون إلى الهروب والتفرق. ولكن الإمبراطورة إيرينى سرعان ما نجحت فى طرد العناصر المعارضة لسياستها من صفوف الجيش. ثم تابع المؤتمر جلساته فى سنة ٧٨٧ فى نيقيا هذه المرة. وقد عقدت الجلسة الختامية للمجمع المسكونى السابع فى القصر الإمبراطورى فى مدينة القسطنطينية، وفيها تقرر إعادة تبجيل الأيقونات كما كانت الحال من قديم، كما قدم المؤتمرون الشكر للإمبراطورة الأم إيرينى ولابنها القاصر قنسطنطين السادس وخلع عليهما لقب «قسطنطين الجديد وهيلانه الجديدة»(١).

* * *

---

(1) ".. Regiae quasi continuati semitae, sequentesque divinitus inspiratum sanctorum patrum nostrorum magisterium, et catholicae traditionem Ecclesiae, definimus in omni certitudine ac diligentia, sicut figuram pretiosae ac vivificae crucis..: tam videlicet imaginem Domini Dei et Salvatoris nostri Iesu Christi, quam intemeratae dominae nostrae sanctae Dei genitricis, honorabiliumque anglorum, et omnium sanctorum simul et almorum virorum.."

فاحضروه الى الوالى فقال له: بلغنا إنك تنفرد في الموضع وتقدس انت وأصحابك. فقال له: نحن ما ندع صلاتنا ليلا ونهار. وخاطبه خطابا كتيرا، ثم تركه والتفت البطرك الى الذين كانو معه وقال لهم: أمضو الى كل موضع وصلو وقدسو فإن غبت عنكم بالجسد فأنا معكم بالروح. ثم أن البطرك اعيد الى الموضع الذى كان فيه منفيا فحزن الذين كانو معه لأنه افترق منهم، لكنهم قالو: نحن نعلم أن السيد المسيح معه فى كل طرقه.

هذا عن الهرطقة وتاريخها فى النصف الشرقى من الإمبراطورية الرومانية. أما عن الهرطقة فى الغرب فإنا نكتفى هنا بالحديث عن طائفتين فقط هما الدوناتية والبيلاجية(١).

وترجع جذور الدوناتية إلى عهد دقلديانوس وشركاءه فى الحكم على زمن الاضطهاد. وقد ظهرت هذه الفرقة فى شمال أفريقيا، الذى كان واقعاً تحت نفوذ الإمبراطور ماكسيميان الذى ابتلى المسيحيين الأفريقيين بنار الاضطهاد ما بين عامى ٣٠٣ ـ ٣٠٥. فلقد أمر ماكسيميان محاكم التفتيش بإرهاب الكنائس الإفريقية، وكانت هذه القسوة سبباً فى أن البعض من رجال الإكليروس فى الشمال الإفريقى قد ضعفوا واضطروا إلى تسليم الكتب المقدسة والأوانى الخاصة بخدمة الأسرار الكنسية إلى السلطات التى تناولت هذه المقدسات بالتدنيس أو التدمير. ولقد ندم نفر كبير من هؤلاء الذين ضعف إيمانهم وقت الشدة ورغبوا فى التوبة والعودة إلى حظيرة الأرثوذكسية، ولكن فريقاً مغالياً رفض السماح لهم بالعودة ووصمهم بلقب الخونة Traditores أو المرتدين. ولعل فى قصة منصور (منسوريوس) أسقف قرطاجة ما يكشف عن أبعاد الموقف: فهو لم يقاوم السلطات عندما أقدمت على إزالة الكتب المقدسة من كنائس أبروشيته، ولم يتحرك وهو يرى المراسيم الوثنية تقام فى بعض الكنائس. ولهذا اتهمه فريق

(1) See Fliche et Martin, Histoire do I'Eglise' Hughes, P., A History of the Church' Hefele et Leclercq, Histoire des Conciles.

ثم استشهد فى تلك الأيام جماعة من الأخوه لا يحصى عددهم على اسم السيد يسوع المسيح لامتناعهم من السجود للأصنام، واستشهد ولاريانوس الملك قوما كثيرا فى كل صقع وكل موضع، ثم إنه ثار عليه جماعة من البربر واتعبوه تعبا عظيما، وكان له ولد حكيم جدا قام فى الملك وكان قد ربى فى أيام الإضطهاد، فدفع هذا لديونوسيوس واصحابه كتاب اطلاق [افراج] وأمر ان يكتب فيه: يوليوس قيصر ضابط الملك المحب

«المعترفين» أو «المتطهرين»، وهم ذلك النفر الذين لاقوا صنوف التعذيب والآلام فى صبر وجلد، بالخيانة والردة. ولم يكتف هؤلاء الغلاة بهذا الموقف وإنما نصبوا من أنفسهم حكاماً للكنيسة وراحوا يتحرشون بالحقوق الشرعية للأساقفة ومن بينهم منصور أسقف قرطاجة. ولكن منصور أعلن أن هنالك فرقاً شاسعاً بين الضحايا الحقيقيين للاضطهاد وبين بعض الناس الذين يتخذون من الاضطهاد ذريعة كاذبة لتحقيق مكاسب ذاتية مادية على حساب النظام الكنسى وشرعية الأساقفة. ورداً على هذا قامت جماعة «المعترفين» بقطع منصور من شركة التناول فى الكنيسة. ولما توفى منصور فى عام ٣١١ انتخبت الكنيسة القرطاجية خلفاً له الشماس سيسيليان الذى قرر السير على سياسة سيده الراحل تجاه جماعة «المعترفين» الغلاة. ودبت الفرقة والحزازات الشخصية بين الجماعتين:

فريق سيسيليان وجماعة المعترفين التى برز من بين أنصارها الخطرين امرأة مرموقة هى لوسيلا، وعدد من أساقفة نوميديا ثم دوناتوس Donatus أسقف مدينة Casae Nigrae فى نوميديا والذى كان يعيش وقتها فى قرطاجة. وإلى دوناتاس هذا تنسب الطائفة الدوناتية.

ولما احتدم الخلاف اضطر رئيس أساقفة نوميديا إلى الحضور إلى قرطاجة وفى معيته سبعون من الأساقفة للفصل فى هذا الموقف المتأزم. غير أن سيسيليان تجاهل هذا المجمع تماماً، فأعلن المؤتمرون أن سيسيليان غاصب لعرش الأسقفية وعينوا بدلا منه واحداً من حاشية السيدة

لله يكتب لديونوسيوس البطرك وديمتريوس ولباقى الأساقفه ويأمر بمراعاتهم، ومن كان يبغضهم فليبعد عنهم، وتفتح لهم بيعهم فيتقوو بكتابنا ولا ينالهم بعد اليوم عذاب ولاخزى ولاغم بعد هذا الزمان، لكى يكملو خدمتهم لله وصلواتهم، وقد أطلقناهم، وقد وليت أريليوس كيريلنوس وامرته أن يحفظهم ويراعيهم، ويصلون صلواتهم ويقدسو قداساتهم. وكان هذا الكتاب مكتوبا باليونانية. وكتب كتابا أخر للأساقفة بأن يأخذو دياراتهم

- -

لوسيلا واسمه مايورينوس. كذلك قرر المؤتمر أن فيلكس أسقف أبتونجا، الذى كان قد رسم سيسيليان للأسقفية، هو أيضاً من «المرتدين» الخونة، ومن ثم فإن نعمة الاكليروس يجب أن تسقط عنه لأنه لا يصح لمرتد أن يمارس أسرار الكنيسة من عماد وميرون وتناول وزيجة إلخ. وهذه الآراء ليست بالشيء الجديد على كنيسة شمال إفريقيا فهى ترديد لنظرية القديس كبريان.

ولقد تفاقم الموقف فى شمال إفريقيا فى عام ٣١٢، وهو نفس العام الذى شهد انتصار قسطنطين العظيم على أعدائه فى واقعة قنطرة ملفى، وهو أيضاً نقطة التحول فى موقف قسطنطين إلى جانب الديانة المسيحية بوجه عام. ولما وصلت تفاصيل النزاع إلى مسامع الإمبراطور جاء حكمه فى جانب الأسقف سيسيليان، كما أمر بخلع الأساقفة الدوناتيين عن كراسيهم. ولكن الدوناتيين احتجوا على هذا القرار وطعنوا فى شرعية حكم سيسيليان، طالبين تحكيم أساقفة غالة.

وافق قسطنطين على مطارحة المسألة من جديد، وشكل محكمة فى روما من عدد من أساقفة غالة وإيطاليا وعلى رأسهم البابا ذاته للفصل فى النزاع الدوناتى، وكان ذلك فى أكتوبر ٣١٣. وانعقدت المحكمة فى قصر اللاتيران Lateran، واستمع القضاة إلى رأى كل من الفريقين، وانتهوا إلى قرار بأن دوناتوس ليس على صواب فى موقفه، وبأن سيسيليان هو

ومواضعهم كلها. وكان فى ذلك الزمان كستس اسقف رومية وديمتريانوس اسقف انطاكية وبرميليانوس اسقف قيسارية كبادوكية واغريغوريوس اسقف بنتس واخوه اتاندرس أسقف قيسارية فلسطين واوماناوس أسقف يروشليم، وهو الذى أخذو رأسه لاعترافة بالمسيح. فلما طعن ديونوسيوس فى أيام ضعف جسده من كثرة ما لحقه من الإضطهاد ولم يفتر مع هذا ليلة واحدة من قراة الكتب المقدسه، فلما علم الله تعالى

الأسقف الشرعى لقرطاجة. ولكن هذا القرار لم ينه الصراع وإنما زاد النار ضرماً؛ إذ تحفز لكل أسقف كاثوليكى خصم دوناتى ينغص عليه حياته وعلى أبروشيته. وأمام هذا أمر الإمبراطور قسطنطين موظفيه المدنيين بفحص الأمر عن كثب. وتركزت القضية الآن حول شخصية فيلكس الذى اتهمه الدوناتيون بالخيانة والردة أيامى الاضطهاد. ونبش موظفو الإمبراطور فى ملفات محاكم التفتيش كما عثروا على القاضى الذى قيل إنه كان قد أصدر قراراً بالقبض على فيلكس. وأدلى القاضى بشهادته ونفى جميع الشبهات عن فيلكس، فهو لم يقبض عليه ألبتة. وكشفت التحقيقات أيضاً عن أن الدوناتيين قد زيفوا بعض الوثائق لتجريم فيلكس البرىء. وقد أرسل الإمبراطور بهذه الوثائق الخطيرة إلى المجمع المنعقد فى مدينة أرلس Arles بغالة (أغسطس ٣١٤). وقرر المجلس أن طائفة الدوناتية «متهوسة تعصباً»، وأنها خطر يهدد المسيحية ذاتها. وانتصر المجلس لسيسيليان على خصومه.

لم يكف الدوناتيون عن شغبهم واحتجوا مرة ثالثة إلى قسطنطين. واضطر الإمبراطور إلى أن يستدعى كلا من دوناتوس وسيسيليان للاجتماع به فى مدينة بريشيا، وبعد مدارسة الأمر مع مستشاريه قرر فى صالح سيسيليان، وأمر بأن تنزع الكنائس التى فى يد الدوناتيين وتسلم للكاثوليك، كما حرم على الدوناتيين عقد أية اجتماعات فيما بينهم. وقد تبع هذا قيام عدة ثورات خاصة فى نوميديا حيث كان الدوناتيون يسيطرون على الموقف، فأرهبوا الكاثوليك وقتلوا منهم أعداداً وفيرة.

محبته للكتب أنعم عليه بقوة بصره حتى إنه صار يبصر كما كان فى أيام شبابه. ولما لم يقدر يمضى الى المجمع الذى اجتمع على بوله السميساطى(*) أرسل رسلة برسالة مملوه حكمه وتعاليم الى الاساقفه المجتمعين بسببه، لأن بوله كان كالديب الذى يهر على الخراف، فمضى اساقفة المجمع مسرعين الى انطاكية بمجد السيد المسيح. ومن جملة من حضر المجمع برمليانوس أسقف قيساريه كبادوكية وغريغوريوس المقدم ذكره واخوه

(*) بولس السميساطى: ولد فى سميساط قرية فيما بين النهرين، وكانت له حظوة عند الملكة زنوبيا ملكة تدمر حتى أنها وكلت له جباية الخراج وبذلك تقلد وظيفة دوسناريوس (أى والى من الدرجة الاولى). زعم أن ابن الله لم يكن من الازل بل ولد انسانا حل فيه كلمة الله وحكمته عندما ولد من العذراء وأن هذه الحكمة التى مكنته من أن يعلم ويعمل العجائب فارقته حين قدم

والدوناتية، هذا التعبير عن الخلاف المذهبى فى ظاهرها، إنما كانت ثورة اجتماعية عارمة فى حقيقة أمرها، فهى الفرصة التى أتاحت الانفلات للعواطف المكبوتة والكراهيات القديمة والأحقاد الدفينة ضد السادة الرومان والنبالة الرومانية الفاحشة الثراء. وليس أدل على صدق ذلك من حقيقة أنه حيثما انتصرت الدوناتية انقضت عصابات من المفلسين والمعدمين، وهم يرفعون لواء الأسقف الدوناتى تميمة تحميهم، ترتكب جرائم السلب والقتل. وهكذا هلك كثير من كاثوليك شمالى إفريقيا وبخاصة من الأثرياء، فالدوناتيون كانوا يبغون من النبلاء والأساقفة الأعداء رؤوسهم ورؤوس أموالهم على حد سواء. أما هذا النفر من الكاثوليك الذين رفعوا راية الاستسلام للدوناتية فقد أجبروا على قبول المعمودية من جديد وفق المراسيم الدوناتية، وإن كانوا من الإكليروس أعيدت مراسيم سيامتهم مرة أخرى. وأما الكنائس الكاثوليكية التى سقطت فى أيديهم فقد غسلت ثم أعيد غسلها لتتطهر من طقوس الردة، فى حين أن ما تبقى فيها من قربان التناول قد ألقى به على قارعة الطريق وجبة ممقوتة للكلاب الضالة.

ولم تهدأ الأمور إلا فى عام ٣٢١ عندما أصدر الإمبراطور قنسطنطين قراراً بالتسامح للدوناتية، وأمنهم على عقيدتهم وحقوقهم فى المناطق التى كانوا قد سيطروا عليها. واستغل الدوناتيون هذا القرار وراحوا يثبتون مراكزهم ويدعمون حركتهم لمدة خمسة وعشرين عاماً.

اتاندروس والنوس أسقف طرسوس ونيكوموس اسقف ايكونيا واوماناوس اسقف اورشليم ومكسيموس اسقف وسترا وجماعة معهم اساقفة واقسة وشمامسه فاحضرو بوله[السميساطى] وسألوه عما قاله ووبخوه على تجديفه على السيد المسيح، فلما لم يرتد قطعوه ونفوه.

وفى هذا الزمان تنيح ديونوسيوس بطرك اسكندرية وكان مدة مقامه على الكرسى سبع عشره سنه، وتنيح فى تلته عشر يوما من برمهات، وفى نسخة بدير ابى مقار أن مقامه على الكرسى

على الالام. وبسبب اتحاد الكلمة الألهية هذا بالانسان يسوغ القول ان المسيح هو الله وليس بمعناها الحقيقى. ونشأ عن ذلك ضلاله أخرى وهى انه كان فى المسيح اقنومان وابنان لله أحدهما بالطبيعة والآخر بالتبنى. وبذلك شايع سابليوس فى انكار الثالوث الاقدس بقوله يوجد اله واحد تحسبه الكتب المقدسة بالاب وان حكمته وكلمته ليست اقنوما بل انها فى العقل الالهى بمقام الفهم فى العقل الانسانى.

وفى عام ٣٤٧ رأى الإمبراطور كونستانس (قنسطانز) ضرورة تحرير كاثوليك شمالى إفريقيا من إرهاب الدوناتيين، فقبض على جميع الأساقفة الدوناتيين فى نوميديا ونفاهم، ثم سلم كنائسهم إلى الكاثوليك. وساد السلام حتى ارتقاء جوليان المرتد العرش: فلقد رأى المرتد أن أكبر ضربة يمكنه أن يسددها للمسيحية هى أن يعيد الأساقفة الدوناتيين من المنفى، وذلك ليثير الفتنة من جديد بينهم وبين الكاثوليك فتضعف بذلك شوكة المسيحية. ولكن جوليان توفى بعد عام من إصدار هذا القرار.

ظلت الاضطرابات تعكر صفو الكنيسة فى شمال إفريقيا على عهود الأباطرة ڤالنتينيان الأول وجرانيان وڤالنتينيان الثانى. ولكن باعتلاء ثيودوسيوس العظيم العرش انكسرت شوكة الدوناتية؛ ذلك أن هذا الأمير الإسبانى الكاثوليكى العنيد لم يكن ليعرف أنصاف الحلول. ولعل العامل الآخر الذى ساهم فى كسر جناح الدوناتية هو ارتقاء القديس أغسطينوس عرش الأسقفية فى مدينة هيبو فى عام ٣٩٦. ولقد جادل أغسطينوس بحسن منطقه الأساقفة الدوناتيين وحاول إقناعهم بشتى الطرق، ولكنه تعفف عن سبل العنف والاضطهاد برغم أنه قد تعرض للهلاك ذات مرة على أيديهم. ولم يتوان أغسطينوس فى إصدار سيل من الرسائل والمواعظ والمقولات والأناشيد الكنسية لتفنيد النظريات الدوناتية، وكانت هذه تعلق على أبواب الكنائس والمساكن العامة لسد الطريق أمام الدوناتية. وقد وقف الأساقفة الكاثوليك صفًا

ولما بلغت القديس ديونيسيوس البطريرك الاسكندرى أخبار بولس أرسل اليه رسائل عديدة وبين له فيها مخالفة غواياته لنصوص الكتاب وشهادة الآباء. وقد جاوب بولس على بعض هذه الرسائل ولأجله عقد مجمع فى انطاكية تكرر انعقاد مرارا. وكان المتقدمون فيه فرميليانوس أسقف قيصرية واغريغوريوس أسقف قيصرية الجديدة وأخاه ايثنوذورس وايلينوس أسقف طرسوس وايماناوس أسقف أورشليم وغيرهم كثيرون. أما سبع سنين. وقد شهد سعيد ابن بطريق فى كتاب التأريخ إنها سبع عشرة سنة وهو موافق للسيرة التى نقلت منها هذه النسخة. ولربنا المجد دايما سرمدا.

مكسيموس البطرك
وهو من العدد الخامس عشر
٢٦٤ / ٢٨٢م

وجعل بعد ديونوسيوس مكسيموس على كرسى القديس مرقس بمدينة اسكندرية العظمى فى سبع

واحداً وراء أغسطينوس فى جهاده هذا ضد الوناتية ما بين عامى ٤٠١ ـ ٤٠٣. وفى عام ٤٠٥ أصدر الإمبراطور هونوريوس مرسوماً باعتبار الدوناتيين هراطقة يجب استئصال شأفتهم. وفى عام ٤١١ قرر مجمع قرطاجة إدانة الدوناتية واستمطرها اللعنات. وفى عام ٤١٢ أصدر هونوريوس أوامره بتنفيذ قرارات مجمع قرطاجة هذا، وبالفعل تم القضاء على فرقة الدوناتية أو هرطقتها ـ إن شئت.

أما عن البيلاجية فهى تنسب إلى بيلاجيوس الراهب الإنجليزى الأصل الذى عاش فى روما فى أواخر القرن الرابع، واشتهر بالزهد والتقشف. ويرتبط بالبيلاجية اسمان آخران هما سلستيوس البريطانى، وجوليان من اكلانوم الذى كان أرسطاطيلى النزعة. والنظرية البيلاجية تؤمن بحرية الإرادة عند الإنسان فى قضايا الخير والشر، وبأن ليست هنالك ثمة عوائق تتدخل فى حرية الاختيار للبشر، وعلى هذا فإنه فى مقدور الإنسان القوى الإرادة أن يعيش حياة تصل إلى مرتبة الكمال.

وفلسفة بيلاجيوس هذه تهدم الرأى الكاثوليكى التقليدى الذى يقول بأن الخطيئة الكبرى للإنسان الأول ـ آدم ـ قد أسقطت عن بنى البشر الامتيازات الفضال التى كان الله قد أودعها فى آدم وقت الخلق. كما ترفض البيلاجية من هذا المنطلق فكرة أن السقوط الأول فى جنة

عشرة سنه من ملك جليانوس ووالاريانوس. واعان الأخوه فى أمور البيعة بكل موضع، وأخرج بوله السميساطى من البيعه لما عرف بأنه مخالف، لأن كل ما جرى فى المجمع بإنطاكية على بوله كتبوا به الى ديونوسيوس بطرك رومية والى مكسيموس بطرك اسكندرية لما جلس بعد ديونوسيوس، وكتب جميع المجمع بإتفاق روحانى قطع بوله وقالوا إنه لا يجب أن يسمى باسم بولس الرسول.

وكتبوا الى ديونوسيوس بطرك رومية

القديس ديونيسيوس فلم يتمكن من أجابة دعوة المجمع لداعى شيخوخته واكتفى بما أرسل من الرسائل للمجمع.

وفى النهاية عزلة القيصر الرومانى أورليان عن الكرسى الانطاكى.

عدن قد أورث بنى آدم جميعاً نزوعاً نحو الإثم. وإنما بشر بيلاجيوس بأن الطبيعة البشرية لكل مخلوق فرد تشبه طبيعة آدم البكر النقية وقت الخلق؛ أى قبل السقوط، وهذا يعنى أنها لم ترث أوزار الإثم الأول. ومن هنا فالإنسان حر تماماً، بل وليس فى حاجة إلى أى عون خارجى لكى يسلك الصواب. وإذا كانت البشرية قد ضلت فإنها ضلت بمحض اختيارها وبحرية إرادتها: «لقد اختطت لنفسها الاختيار الخطأ». وفى وسع البشر أن يمارسوا بما زودهم الله به من ملكات تبيح لهم حق الاختيار للصواب، ولا يستلزم هذا إعادة لخلق الآدمية من جديد، ومن ثم فليس هنالك مبرر لمعمودية جديدة ولا لنظرية الفداء. وطقوس العماد ـ عند البيلاجيين ـ مراسيم ظاهرية لا تمس روح الإنسان فى شىء، فما هى إلا طقس خلقى يقصد به الموعظة، ويمكن الاستغناء عنه تماماً.

والصلاح إنما يكمن فى أعماق النفس البشرية التى هى من صنع الله، الخير الأعلى. وهكذا أفرغ بيلاجيوس سر «الفداء» المسيحى من مغزاه، بل إن تجسد «الكلمة» ذاتها لم يعد أكثر من معجزة كبقية المعجزات الأخرى كإحياء الموتى مثلا. وأخيراً يخلص بيلاجيوس إلى رأى جرىء: لئن نجح الإنسان فى الحصول على الخلاص تلقائيًا، أى دون عون خارجى، فإن هذا يعنى أنه غنى بذاته عن وسطاء السماء (الإكليروس والكنيسة) بل عن السماء ذاتها.

ومكسيموس بطرك اسكندرية والى جميع اساقفة المسكونه والقسوس والشمامسة وجميع بنى المعمودية والبيعه السماويه المتفقه ويسمونهم ويقولون فى كتابهم: الينس وهمناوس وتاوفيلس وتاوتكنص ومكسيموس وبركلس ونيكوموس وايليانوس وبولس وبروتجونوس وولانوس وهيركس واوتاخيوس وتادروس وملخيون ولوكيوس وبقيتهم الذين فى المدن والقرى القريبة منا[والبعيدة عنا] قد كتبنا إليكم ياأخوتنا الاساقفة القديسين

ويتساءل الفيلسوف الإنجليزى: هل هنالك إذن حاجة إلى الدين؟. والصلاة بشكلها المعروف تصبح عند بيلاجيوس مجرد هراء وعبث؛ لأن الله لا يهتم إلا بالقلوب وبالأفعال.

وصل بيلاجيوس ورفيقه سيلستيوس إلى شمالى إفريقيا فى عام ٤١٠ فراراً من جحافل آلاريك المحاصرة لروميا. وتقدم سيلستيوس إلى أسقف قرطاجة ليرسمه قسّا، ولكن الأسقف رفض طلبه واتهمه بالهرطقة ثم أصدر ضده قراراً بالحرمان. ولهذا ترك سيلستيوس شمالى إفريقيا مخلفاً وراء نفراً من الأتباع. ولما وصل إلى أفيسوس نجح فى الحصول على منصب كنسى دون عناء. أما بيلاجيوس فقد سافر إلى أورشليم وقوبل هناك بالترحيب الزائد، وافتتن الكثيرون بعظمة لسانه وحياته الزاهدة. ولكن القديس جيروم، الذى كان مقيماً آنذاك فى أورشليم، لم يلبث أن هاجم آراء بيلاجيوس برغم الحماية التى كان أسقف أورشليم قد بسطها على بيلاجيوس. ولما اشتد الجدل حول البيلاجية عقد مجلس فى أورشليم، ولكن المجلس لم يصل إلى نتيجة حاسمة فأحال الأمر إلى روما فى عام ٤١٥. كذلك التأم مجلس آخر فى مدينة ديوسبولس Diospolis فى عام ٤١٥، حضره أوروزيوس الإسبانى نيابة عن القديس أغسطينوس، وأسقفان من غالة، وتدارس المؤتمرون النظرية البيلاجية ولكنهم لم ينتهوا فيها إلى شىء. وفى عام ٤١٦ تلقى البابا أنوسنت الأول رسالة من القديس أغسطينوس ضمنها شرحاً وافياً لطبيعة الجدل حول البيلاجية، وبناء على هذا قرر البابا التصديق على قرارات

والشعوب المحبين للسيد المسيح ابن الله، ندعوكم
الى الصلاة للرب أن يزيل عنكم موامرة بوله
السميساطى فالذى معه يولد له الموت أكثر من
كل أحد، لكى تكونو معنا بقلب واحد مثل
ديونوسيوس بطرك اسكندرية وبرمليانوس أسقف
[قيسارية] كبادوكية الذين كتبو إلينا الى انطاكية
حتى هدمنا ريس الضلاله الذى لم يعلمو شيا من
اقاويله الرديه، لأنا نحن الذين قرانا كتبه فى المجمع
بالأمانه الفاسدة وشهدنا بهذا ومن معنا. ومن بعد

الحرمان ضد بيلاجيوس وسيلستيوس. وفى عام ٤١٨ أرسل البابا زوزيموس قراره المعروف باسم «تراكتوريا» Tractoria إلى شمالى إفريقيا يدين فيه البيلاجية صراحة بالهرطقة. وقد أصدر مجمع قرطاجة السادس عشر (سنة ٤١٨) قراراته بالآناثيما ضد أتباع البيلاجية[1]. أما جوليان من أكلانوم فكان واحداً من أساقفة جنوب إيطاليا المناصرين للبيلاجية، وقد هرب إلى الشرق عندما أصدر البابا زوزيموس ضده قراراً بالحرمان. وقد وصل جوليان إلى مصيصه حيث تعرف على اللاهوتى الشهير ثيودور أسقف المدينة، وقد تأثر ثيودور بالبيلاجية إلى حد كبير.

ولقد أفاض القديس أغسطينوس فى الرد على البيلاجية، وجاء رده متوافقاً، بطبيعة الحال، مع آراء الكنيسة الكاثوليكية. يقول القديس: إن الله خلق آدم ولم يكن محتاجاً إلى عبوديته بل إن البشر هو المحتاج إلى الربوبية. وزود الرب أبانا الأول بهبة الخلود وبإرادة خيرة تماماً، كما

(1) Carthaginense Conc., Can. 2.: "Item placuit, ut quicunque parvulos recentes ab uteris matrum baptizandos negat, aut dicit in remissionem quidem peccatorum eos baptizari, sed nihil ex Adam trahere originalis peccati, quod lavacro regenerationis expietur, unde sit conse - sed nihil ex Adam trahere originalis peccati, quod lavacro regenerationis expietur, unde sit conse- quens, ut in eis forma baptismatis "in remissionem peccatorum" non vera, sed falsa intelligatur- A.S."

ذلك عـاهـدنا إنه يتـوب وكـان ذلك منه هزو[ء]ا
وغـدرا وقـسـا قلبـه ولم يتب ويـبـقى على ضـلاله
مـفـتـريا على الله بكلامـه، فـأنكر جـحـد الرب فى
أمانته.

وصـفـة حـال هذا بوله إنه انتقل من أمـانتـه الى
الكفـر والضـلالة والهلاك، وكـان فـقـيراً فى جنسـه
فـقـراً ظاهرا لأنه لم يرث شيا عن سلفـه ولم يرزق
شيـا من صنعتـه بيـده، واسـتـغنى من مـال البـيـعـه.
وكـان ينهب الهيـاكل بالناموس، ويقطع مصـانعات

صـاغ فيه العقل والحواس وتوج آدميته بالمعرفة. ولكن آدم «اشتهى» ثمرة الشـجرة المحرمة، ثم أكل منهـا بغواية الحية وحواء وبهـذا يكون آدم قـد «هجر الله»(١). وتعـرى آدم وعـرف حـواء وولدت بالإثـم، وتوارث بنو آدم هذا الإثم(٢). وتشهـد سجلات التاريخ بتعاسة البـشرية منذ هذا السـقوط الأول. ولن يفلت من البـشـر واحـد بسـبب الخطيـئة الكبـرى وهى الجنس، فـابن آدم يجرى وراء الشهوة فيطأ بقدميه القوانين والضوابط.

وهذه النوازع الآدمية الآثمة الموروثة قد وأدت فى ذرية آدم عنصـر الخلود وحـرية الإرادة التى كـان الله قـد أودعهـا أصـلا فى «الوعـاء النقى»، فى آدم الطيب قـبل السـقـوط الأكـبـر. ولولا «الرعـاية» الربانيـة والعطف السـمـاوى لظلت البـشـرية مـتـردية فى هلاك الهـاوية إلى الأبدية،

(1) De Civitate Dei, Liber Dccimus Tertius, Cap. XV, Col. 387: "Nam in eo quod inobediens motus in carne animae inobedicntis exortus cst, propter qucm pudenda texerunt, sensa est mors una in qua deseruit animam Deus. Ea significata est verbis ejus, quando timore dementi scse abscondenti homini dixit, Adam, ubi es? non utique ignorando quaerens, sed increpando admonens, ut attenderet ubi essct in quo non csset Dcus. Cum vero corpus anima ipsa deseruit aetate corruptum et senectute confectum, venit in experimentum mors altera, de qua Deus peccatum adhuc puniens homini dixerat, Terra es, et in terra ibis.."

(2) "Hoc est malum peccati in quo nascitur omnis homo."

الأخوه فى الحكم، وإذا زادوه خصومهم برطيلا عاد معهم عليهم فاكتسب له غنى باطلا من كل وجوه الظلم. وكان مع هذا يظهر إنه [يحب] لله وكان يمشى مع الأعوان ويتسلط على[الصغار] ويدور فى الشوارع ويحب أن يسمى باسم الأسقفية ويقلق الناس بكثرة من يصحبه من الجمع. وكان معه كتب يقراها كأنه يطلب الخراج ويوجب الناس إنه مقدم، ويصحبه قوم متسلحين قدامه وخلفه، وكان يبغض التعليم الروحانى ويحب

ولكن الله أرسل «الكلمة» فصارت فى بطن العذراء جسداً، وولد المسيح ليفدى البشرية ويغسل آثامها. أما وقد صعد المسيح إلى السموات، فقد ترك لنا على الأرض كنيسته بأسرارها المقدسة مجسماً للفداء والخلاص، وما شركة التناول إلا تكرار للفداء وغفران دائم للذنوب والخطايا. والمسيحية على هذا رسالة كنسية تقوم على الفداء وتحيا «بالنعمة» الإلهية التى لا خلاص للبشرية من إثم هذا العالم بدونها.

وبهذه النظرية يكون أغسطينوس قد محا حرية الإرادة وحكم على الجنس البشرى بشىء أشبه بالإعدام، لأنه لا خلاص إلا من فوق! أليست هذه ردة إلى القدرية واليأس؟!

التـعـاليم البـرانيـة. ويرفض الغـريب إذا دخل فى البيـعه، ويطلب المجد من المقـدمين، ويحـتـال على المجد الفارغ بكل نوع، حتى إنه وضع له كرسيا له منبر عال كأنه تلميذ المسيح وهو غريب من البيعة، وكان قد جعل النسا يقرأن فى ليالى الأعياد وفى جمعة الفصح عوض المزامير والتسابيح، وكان الأخوة المومنون يسدون اذانهم إذا سمعوهن يقرأن. وكان لا يقبل شيا من الكتب، ولا يقول أن المسيح ابن الله ولا إنه نزل من السـمـا وتجسـد من مـريم

قوانين المجمع المسكونى الأول
نيقيا سنة ٣٢٥م

هذه المخطوطة جزء من كتاب «خطى» لكاتب مجهول الاسم. على أننا نستدل من فصله بعنوان «القول الفاتح» أنه من إكليروس أنطاكية الأرثوذكسيين وذلك من قوله «أما بعد فيقول الأب الجليل الأقـدس والراعى النبـيل الأنفس كـيـر سـيلبسـتـروس البطريرك الأنطاكى الكلى الغبطة، أدام الله تعالى رياسته، وأعاد علينا آثار بركاته من طيب أنفاس قداسته آمين». وكير (أو مار ويقابلها فى اللاتينية لقب دومينوس) سيلبستروس هذا جلس على كرسى أنطاكية سنة ١٧٢٤ وتوفى فى مارس ١٧٦٦. وفى عهده تمت ترجمة لهرطقات اللاتين. وعلى هذا فإن كاتبنا معاصر لهذه الفترة، وأغلب الظن أنه كتب كتابه هذا أثناء تولى هذا البطريرك للكرازة الأنطاكيـة. والكاتب على درجة رفيعة من العلم، وربما أنه كـان يشغل منصب الأسـقـفيـة، ونستدل على ذلك من قوله: «إن كـان حفظ النامـوس من أهم الأمور وأعـمـهـا فى سياسة المؤمنين ونظام أحوال المسيحيين فيما يخص الروساء ويعم المرءوسين، لأجل ذلك قد ينبهنا الرسول الإلهى قائلا: احترسوا إلى أنفسكم وإلى جماعة الرعية التى أقامكم روح القدس عليها أساقفة لترعوا كنيسة الله التى اقتناها بدمه».

ويحدثنا الكاتب عن الدافع الذى حثه على كتابة هذا المصنف القيم فيقول: ولما كان نظام الأصول جارياً على هذا المنوال، حذراً من التشويش والاختلال فى أمر الأحكام الشرعية

العدرا، بل كان يجدف تجديفا كثيرا، ويظهر إنه من جملتنا. فوجب أن اجتمعنا فى مجمع وقطعناه، واقمنا عوضه إنسانا خايف من الله اسمه دمنوس ولد الطوبانى ديمتريانوس، وهو الأن فى البيعه مستحق لمجدها. وقد كاتبناكم بهذا لتكاتبو هذا الجديد وتقبلو كتبه بالسلامه كترتيب البيعه. فاما بوله السميساطى فقد مرق من الأمانة وأخذ دمنوس اسقفيته ونحن بانطاكية.

وبدأ الملك وريليانوس [اورليان] يقيم الإضطهاد

والحدود الواجبة المرعية البيعية، لزم أننى راجعت النظر والاطلاع على القوانين المقدسة والحدود المدونة فى كتاب الناموس الموجود فى اللغة العربية، وقابلته على موضوع أصله فى اللغة اليونانية فرأيت أكثر القوانين التى فيه مشوشة المعانى مختلفة العبارات والمبانى. محرفة عن صحة أصلها اليونانى مع ما تداخلها من الزيادة الباطلة وما نقص منها من القوانين والحدود الكاملة. فقمت حينئذ على ساق الجد والإقدام وشمرت عن ساعد الجهد والاهتمام فى رد ما خل عن أصلها وتصحيح ما زل عن موضوع ذويها وأهلها، أعنى بها قوانين الرسل القديسين والآباء الإلهيين وحدود المجامع المقدسة المسكونية والمكانية المدونة فى داستير البيعة المقدسة الرسولية الجامعة الكلية بإلهام الروح القدس الواهب للأنام مراسيم العدل والحرية».

وقد اعتمد الكاتب فى مصادره عن هذه القوانين على «كتب مجموعات عمدتى الآباء الأفاضل وقدوتى العلماء الأماثل: يوحنا زوفراس (القرن ١٢) الشهير فضله، والأب الأكرم كير تاودروس بلصامون البطريرك الأنطاكى الجزيل قدسه، وغيرهما من العلماء الفاضلين الذين جمعوا القوانين المقدسة على أكمل صحة وسداد وأصدق نقل ما لا طعن عليه ولا انتقاد».

المخطوطة

قوانين المجمع المسكونى الأول الملتئم فى نيقية

القانون الأول: أى من خصى من الأطباء فى مرض، أو قطع من البربر فليقم فى الكليرس.

على البيعه ولم تكن معونة الرب معه فيما هم أن يفعله.

وبعد ست سنين مات وصار بعده فروبوس الملك.

وفى زمان هذا الملك ظهر إنسان ردى يسمى مانى(*) واظهر افعالا رديه وجدف على الرب ضابط الكل وعلى الابن الوحيد وعلى الروح القدس المنبثق من الأب، وجسر ان قال ان جميعه بارقليط. وكان هذا [مانى] عبدا لامرأه ارمله كان

(*) مانى: ولد حوالى سنة ٢٣٩م، وكان قد اسره الفرس فتعلم فى بلادهم علوم الديانات الفارسية والفنون والفلك والطب والفلسفة. وبعد أن اعتنق المسيحية خرج بمذهب خاص طفق ينشره منذ عام ٢٦٨م ويدعى فيه أنه. البارقليط: الذى بشر به عيسى ليكمل رسالته. فى هذه الفترة من حياته حاربه ملك الفرس وحكم باعدامه، ولكنه هرب منه لفترة حتى قضى عليه وسلخ

وأما من أخصى ذاته فى حال الصحة، هذا وإن كان معدوداً فى زمرة الكليرس، يجب أن يعزل عن خدمته. ومنذ الآن فصاعداً لا ينبغى أن ينتدب أحد مثل هذا، وهو لأمر واضح بأنه كما قيل فى الذين يفعلون مثل هذا الأمر ويجسرون بأن يخصون ذواتهم هكذا. فإن كان قوم قد أخصوا من البربر أو من مواليهم كانوا على جهة أخرى مستحقين. فالذين مثل هؤلاء قد يقبلهم القانون فى الكليرس.

القانون الثانى: من حيث إنه قد حدث من إلزام الناس أو من ضرورة لازمة، أو من وجه آخر صارت أمور كثيرة واقعة بخلاف القانون الكنسى، حتى إنهم يقدمون إلى الحميم الروحانى بسرعة قوماً قادمين إلى الأمانة حديثاً فى عيشة أممية، وموعوظين فى زمن يسير، ومع معموديتهم قد ينتدبون إلى الأسقفية أو إلى القسوسية فلاح لنا أنه لجيد بأنه منذ الآن فصاعدا لا يصير أمر مثل هذا ألبتة، لأن الموعوظ قد يحتاج إلى زمان ومهل، وبعد المعمودية إلى اختبار أكثر، كالقول الذى كتبه الرسول القائل: لا يكون غرسة جديدة لئلا يتصلف فيسقط فى دينونة وفى فخ المحال. وأما إذا كان مع تمادى الزمان وجد فى ذلك الشخص خطية ما نفسية واشتهر بها من شاهدين أو ثلاثة، فمن كان مثل هذا فليبطل من الكليرس. وأما من فعل بخلافه بما أنه متقح ضد المجمع العظيم، فإنه قد سقط فى مخاطرة أن يعدم ذاته من الكليرس.

القانون الثالث: إن المجمع العظيم منع من السكنى مع امرأة، على أنه لا يجوز للأسقف ولا

لها مال كتير، وكان قد اوى اليها ساحر عظيم من اهل فلسطين وقع من فوق السطح فمات، فاشترت الامرأه ذلك العبد السو وعلمته فى الكتب[المدرسة] ، فلما كبر دفعت له كتب ذلك الساحر فلما قراها وعرف منها السحر مضى الى الفرس وحضر الى الموضع الذى فيه السحره والعرافون والمنجمون، فلما قوى فى علم الخطيه ظهر له الشيطان وقواه وحبب له بغض البيعه، فأضل قوما كثيرا بسحره وصارت الاموال تحمل اليه وصار له صبيان وصبايا يخدمون شهواته

جلده وسلمه للوحوش لتأكله ثم حشى جلده تبنا وعلقه على باب المدينة. وبعد موته (نشط تابعوه فطاف أقدرهم وأفصحهم فى سوريا وفارس ومصر وأفريقيا وأكثر أماكن العالم وبصرامة آدابهم وبساطة ديانتهم تلمذوا فى كل مكان تلاميذ ومع كل الاضطهاد الذى ألمّ بهم فإن نسلهم باق للآن فى الجبال بين فارس والهند.

أما افكار مانى فيوضحها أحسن ايضاح موسهيم المؤرخ فروى انها كانت مؤلفة من تعاليم المسيحية

للقس ولا للشماس ولا بالجملة لكل من كان من آل الكليرس عموماً بأن يساكن امرأة دخيلة، أى أجنبية، ما خلا إذا كانت أمه أو أخته أو عمته أو خالته وتلك الأشخاص السالمة من كل ظن وحدها فقط[1].

القانون الرابع: إنه ينبغى أن يقام الأسقف خاصة من كافة أساقفة الأبروشية، فإذا كان ذلك عسراً لضرورة لازمة، أو لأجل طول مسافة الطريق، فلابد من اجتماع ثلاثة معاً بعد شركة الغائبين فى الانتخاب ومطابقتهم لهم بواسطة كتبهم. حينئذ تصير الشرطونية[2]. وأما إثبات الأمور الصايرة فى كل أبروشية ينتهى إلى المطروبوليت[3]. ويتفوض إليه.

القانون الخامس: فى الذين قد امتنعوا من الشركة من أساقفة كل أبروشية، إن كانوا من طغمة الكليروسية أو من العوام، حسب القانون الذى يأمر بأن المرذولين من آخرين لا يقبلون من غيرهم. إلا أنه يجب أن ينفحص فى أمرهم لئلا يكونوا قد أخرجوا من الجماعة من تلقاء صغر نفس أو مما حكة وحب الغلبة أو من تكره الأسقف لذلك الشخص. فلكيما يحصل التفحص الواجب فى هذا الأمر قد استبان صواباً بأن تصير المجامع فى كل أبروشية مرتين فى

(١) زواج رجال الدين فى الكاثوليكية ممنوع تماماً، وعند الأرثوذكسيين يتحتم على الرهبان والأساقفة والمطارنة التبتل ولكن القسيسين والقمامصة يجب عليهم أن يتزوجوا قبل سيامتهم. ويرى الكاثوليك فى زواج رجل الدين إثماً ويعرفونه بالنيقولاوية Nicolaism.

(٢) أى قانونية وشرعية سيامة الأسقف.

(٣) رئيس الأساقفة أو المطران أو Metropolitan.

وفلسفة الفرس القديمة التي تلقنها في مدارسهم وهو صغير. وما تكلم به الفرس عن ملكهم ميثراس تكلم به ماني عن المسيح فعلم بأنه يوجد لكل شئ مادتان الواحدة نور والاخرى ظلمة وللاثنتين ربان رب النور سمى الله ورب الظلمة سمى الشيطان وكلاهما متضادان في الطبيعة والاميال ولان اله النور سعيد فهو رحوم محسن ولان اله الظلمة شقي يسعى ليجعل الغير أشقياء وكل واحد منهما أوجد طائفة كبيرة من النجسة، وكان يستعبدهم بسحره ويضل جماعه من الناس ويقول لهم إنه البارقليط الذى وعد السيد المسيح فى انجيل يوحنا بارساله.

وكان انسان نصرانى غنى اسمه مرقلس ريس مدينه من اعمال الشام، وكان لها اسقف اسمه ارشلاوس، وكان ذلك الريس معه روح وبركه ابراهيم واسحق ويعقوب، وهو تلميذ البيعه وهو ملازم لها بكرة وعشيه مثل الفقير الذى ليس له شى، وكان يسمع مواعظ الاسقف كما يجب، ويفعل الخير من ماله مع اهل مدينته وكان بابه

السنة، لكيما باجتماع كافة أساقفة الأبروشية عموماً معاً يصير التفحص عن مثل هذه المسائل، وعلى هذه الحالة يستبان أولئك الذين أغاظوا الأسقف عند الكل بإثبات أكيد، بأنهم قد امتنعوا من الشركة بالصواب، إلى حين ما يبان لجماعة الأساقفة العامة بأن يبرزوا فيهم الأمر الصادر بالرفق والإشفاق. وأما هذه المجامع فليصر الواحد منها قبل صيام الأربعين، لكى بعد دحض كل صغر نفس تصير تقدمة القربان لله، أى الصوم. وأما الثانى فليكن نحواً من فصل الخريف.

القانون السادس: فلتحفظ السنن القديمة التى فى مصر وليبيا وبنطابوليس، فى أن أسقف الإسكندرية يكون له السلطان على هذه كلها، من حيث إن أسقف رومية له هذه العادة أيضاً. ومثل ذلك فلتحفظ الكرامة سالمة أيضاً فى الكنائس التى فى أنطاكية وفى الأبروشيات الأخرى. وذلك واضح عياناً مطلقاً بأن أيما أسقف سيم من غير رأى المطر وبوليت قدام المجمع العظيم، بأن مثل هذا لا ينبغى أن يكون أسقفاً. وأما إذا كان اثنان أو ثلاثة من تلقاء مما حكة تخصهم قاوموا انتخاب الكل العام الصاير بمقتضى الصواب وبموجب قانون كنسى، حينئذ فليثبت انتخاب الأكثر[١].

---

(١) كان هذا القانون السادس سبباً فى الصدام بين كنيستى روما وبيزنطة، لأنه على ثقل هذا القانون راحت كنيسة روما تطلب بالإمارة على الكنيسة العالمية.

مـفـتـوح لكلمن يأتيـه من المسـاكين والمظلومين باخراج وغيرهم، متل ايوب القديس.

ولما كـان فى ذلك الزمـان سـبى الفـرس اهل ضيعه قـريبه منه واخـربو البلد وقتلو اناسا كـتيـرا، فانفذ اليه المسببون وسالوه ان يفعل معهم رحمه، فـاجاب سـوالهم بمحبـه واسـتدعي مـقـدم الفـرس واخـذ منه عـدة المسـببين. فلمـا رأو فـعله الحسن امتنعو من ذلك وقالو له ما نفعل هذا لكن ادفع لنا مـا شـيت عن الرجال الذين معنا فـاستـقـر الحال بينهم على تلت دنانيـر عن كـل نسـمـه، فـخلص

نسلة على شكله ووزعها فى مملكته.

واستـمر اله الظلمة مـدة طويلة لا يعلم بوجود نور أو اله له ولكنه شـعـر بذلك من حـرب حـدثت فى مملكتـه فـحـاول أن يسـتـولى على اله النور فعارضه هذا بجنودة غيـر أن قائدهم المدعـــو الانســـان الاول لـم ينجح وتمكن جنود الظلمة من أخذ جانب عظيم من العناصر السماوية ومن النور ذاته الذى هو مـادة حيـوية فـمـزجـوها بالمادة الفـاسـدة فـقـام من جنود النور قـائد آخر يسـمى بالروح الحى ومع انه

القانون السابع: من حيث إنه قد جرت السنة القديمة والتقليد القديم فى أن أسقف إليا[(١)]. يكرم فلتستمر له الكرامة أيضاً مع إبقاء المقام الذى لمطر وبوليته[(٢)]. سالماً لها.

القانون الثامن: فى الذين كانوا وقتاً ما يسمون أنفسهم أنقياء[(٣)]، ثم يقبلون إلى الكنيسة الجامعة الرسولية: لقد لاح للمجمع المقدس العظيم بأنهم يقيمون فى الكليـروس على هذه الحالة التى فيها مشرطنين. إلا أنه قبل كل شيء ينبغى لهم أن يعترفوا مقرين بكتابة منهم؛ وهو أنهم ينضمون ويتبعون معتقدات البيعة الجامعة الرسولية، أعنى بهم أنهم يشاركون ذوى الزيجة الثـانيـة والذين سـقطوا فى الاضطهـاد. وقـد فـرض عليـهم زمـاناً وتحـدد لهم أواناً؛ حتى إنهم يكونون فى كل الأمور تابعين معتقدات الكنيسة الجامعة. فحيث ما وجد جميعهم سواء كان

(١) أورشليم. الاسم مـشتق من الإمبـراطور الرومانى آليـوس أدريانوس الذى أعاد بناء المدينة بعد الخراب الذى حل بها وقت الأسر البابلى.

(٢) يقصد القانون مطروبولية قيسارية فلسطين لأن أورشليم كانت فى وقت ما أسقفية تابعة لقيسارية.

(٣) تفسير هذا أن جماعة الأنقياء، «هم أتباع نواتس (Novatianus) أحد القسيسين فى روما الذى دعا إلى عدم قبول من ارتد عن المسيحية وقت الاضطهاد إلى شركة المؤمنين مرة أخرى. كما وأنه أصر على بتولية سائر رجال الإكليروس تعففا منه وصحبه الذين عرفوا بالنواتية أو «الأنقياء» (Catheros). وقد عقد البابا كورنيليوس مجمعاً فى روما على عهد الإمبراطور داكيوس لعن فيه نواتس وهرطقته هذه. ونواتس هذا. أو نوفاتيانوس فريجى شرقى كما ذكر فيلوستورجيوس فى تاريخه الكنسى (٨: ١٥). وقد أذاع خصمه كورنيليوس أسقف روما خاصة فى رسالته إلى فاڤيوس أسقف أنطاكية أن نوڤاتيانوس تعمد مريضا ولم يثبت (يوسبيوس ٦: ٤٣) وبالتالى فلم يكن لائقاً للكهنوت.

نجح كثيرا الا انه لم يتمكن من تحرير مـادة النور التي مـزجت بالعناصـر الرديئة.

وبعد ذلك أوجد اله الظلمة آدم وحواء فكل مولود من هذا المزيج قائم بجسد من المادة الفاسدة وبنفسين احداهما شهوانية من اله الظلمة والاخرى عقلية خالدة لانها من النور الالهي ولما صنع رئيس الظلمة الناس من عقول غطاها بالاجساد خلق اله النور بواسطة الروح الحي أرضنا هذه من المادة الرديئة وجعلها مسكنا

جميع من كان معهم وقام لهم بالمال، واكرمهم بشي اخر خارجا عن الثمن، وتسلم السبى منهم وقام بهم سبعة ايام. وكان يعامل المرضى منهم متل اولاده، وانفذهم الى بلادهم، ودفن من قتله الفرس منهم ثم بنى للاحيا الذين افتكهم [فكّ اسرهم] مواضعهم وطمن قلوب من بقى فى البلد، وبنى لهم جميع البيع واسكنهم فى بلدهم. فلما مضو الفرس من عنده الى بلدهم تحدتو بجميع ما فعله وكترة ماله ومحبة اهل بلده له.

فلما سمع ما نخاوس[مانى] الفاجر. ما فعله

فى قرى أو فى مدن، إن كان هم يوحدهم فقط قد يوجدون مشرطنين. فالموجودون فى الكليروس يكونون فى ذلك الزى نفسه. وأما إذا قبل قوم بوجود أسقف الكنيسة الجامعة أو القس، فمن البين الواضح هو أن أسقف الكنيسة يمتلك رتبة الأسقف. وأما المسمى أسقفاً عند الذين يقال لهم أنقياء فيمتلك كرامة القس، ما خلا إذا استبان للأسقف بأن يشاركه بكرامة الاسم. وأما إذا ما رضى بذلك فيجد له مقام خوريوبيسكوبوس أو قس، لكيما بالجملة يبان أنه فى الكليروس حتى لا يكون أسقفان فى مدينة واحدة.

القانون التاسع: إن كان قوم سيموا قسوساً من غير تفحص عنهم، أو عند التفحص قد اعترفوا بخطاياهم، وبعد إقرارهم بها قد تحرك قوم فوضعوا اليد عليهم وشرطنوهم بخلاف القانون فمثل هؤلاء لا يقبلهم القانون ألبتة؛ لأن الكنيسة الجامعة قد تنتصر لكل شىء عديم العيب والذلل.

القانون العاشر: أيما رجل من الذين سقطوا قد سيم كليروسياً، سواء كان من تلقاء الجهل به أو بمعرفة منه قد سامه، فلذلك الأمر لا يتقدم حكمه على القانون الكنسى؛ لأن من اشتهر بذلك قد يقطع.

القانون الحادى عشر: أما الذين خالفوا[1] من غير ضيق اضطرهم لذلك، أو من غير نهب أموالهم ولا استلاب أملاكهم أو فى غير خطر دهمهم ولا حيف طرأ عليهم وما يشبه ذلك من

(١) أى الذين جحدوا الله جل شأنه.

هذا الرجل ففكر وقال: ان انا ملكت وقبلت هذا الرجل فجميع الشام يكون تحت امرى. فكتب اليه كتابا يقول فيه: البارقليط مانى يكاتب مرقلس، اننى سمعت جودة افعالك فعلمت انك تكون لى تلميذا مصطفى لاعرفك الطريق المستقيم الذى انفذنى المسيح لاعلم الناس بها، والان فقد اضلكم معلموكم اذ يقولون ان الله جل ذكره حل فى بطن امرأه، وقد قالو الانبيا قولا غير الحق عن المسيح، لان إله العتيقه شرير لا يريد أن يوخذ منه شى، فاما

تخليص النفوس تدريخيا من أجسادها وافراز الجيد من الردى.

ثم أخرج الله بعد ذلك من نفسه كائنين عظيمين وهما المسيح والروح القدس لأعالة النفوس المغشاة بالاجساد فالمسيح هو الشخص الذى يدعوه الفرس ميثراس وهو مادة سامية جدا من أنقى نور الله واجبة الوجود حيوية فائقة الحكمة مسكنها الشمس. وكذلك الروح القدس مادة حيوية براقة منتشرة فى كل الجلد المحيط بأرضنا يدفئ نفوس البشر ويبهجها

النوائب الطارئة مما جرى فى عهد ليكينيوس الملك[١]، قد لاح للمجمع بأنهم وإن كانوا غير مستحقين للشفقة والمحبة البشرية، إلا أن الأولى بهم أن يعاملوا بلطف المعاملة والرفق؛ على أن كلا منهم قد تاب وندم حق الندامة الصادقة. فليقف المؤمن منهم مقيما مع السامعين[١]. ثلاث سنين، وسبع سنوات يقيم متخضعاً مع الجاثيين[٢]، وليشارك الشعب فى الصلوات سنتين، ما خلا شركة القربان[٣].

القانون الثانى عشر: أما الذين قد دعيوا من النعمة وأظهروا النهضة الأولى وطرحوا عنهم النطاق، ثم رجعوا مثل الكلاب إلى قيئهم حتى إن بعضهم أعطوا أموالا وجعلوا رجعتهم إلى الجندية بهدايا، هؤلاء فليخضعوا جاثيين عشر سنين، بعد مدة استماعهم ثلاث سنوات. وبعد هذا كله ينبغى أن يتفحص عن عزمهم وعن كيفية توبتهم ونشاطهم؛ لأن أولئك الذين يظهرون الرجوع بالفعل لا بالشكل، بل وبخوف ودموع وصبر وفعل الخير. هؤلاء بعد أن يتموا زمان الاستماع المحدود، فمن الواجب أنهم يشتركون فى الصلوات، مع تفويض أمرهم إلى الأسقف أيضاً، على أنه يتصور أمرهم بوجه أرفق وأشفق. وأما أولئك الذين استساروا بعدم

(١) ليكنيوس الإمبراطور (٣١١ ـ ٣٢٤) شريكاً لقسطنطين فى الحكم.
(١) أى يسمح لهم فقط بالوقوف بخارج الكنيسة ويسمعون الصلوات.
(٢) أى داخل الكنيسة.
(٣) أى بعد انقضاء مدة السبع سنين يشاركون المؤمنين فى الصلاة ولكن لا يحق لهم شركة التناول إلا بعد مرور عامين من شركة الصلاة.

ويجعل الارض مثمرة ويخرج منها تدريجا نطفات النار الالهية المنتشرة وينهضها حتى ترجع الى عالمها التى أتت منه.

وبعد أن أنذر الله طويلا النفوس المحبوسة فى الاجساد بواسطة ملائكة وأناس علمهم مشيئته أرسل أخيرا المسيح ابنه وأنزله من الشمس الى عالمنا هذا لكى يسرع برجوع الناس الى وطنهم السموى. فظهر المسيح بين اليهود لا بسا صورة وظل جسد انسانى لا جسدا حقيقيا وأعلن لهم أنه الواسطة الوحيدة لخلاص النفوس

إلاه الحديثه فهو صالح إذا أخذوا منه لا يتكلم. وقال فيه كلاما كتيرا تجديفا لا يجوز ذكره، ولا قال الشيطان قط متله. وسلم الكتاب الى واحد متله وانفذه الى مرقلس. فلما سار الرسول الى الشام لم يقبله احد من الناس فى طريقه ليأويه عنده، وناله صعوبة عظيمه من الجوع، وكان يغتدى بالحشيش الى ان وصل الى مرقلس. فلما اخذ مرقلس الكتاب وقراه انفذه الى الاسقف ارشلاوس وجعل الرسول فى مكان وقام بحاله،

تمييز وظنوا بأن شكل دخولهم إلى الكنيسة قد يكفيهم للرجوع، فهؤلاء على كل حال سبيلهم أن يتموا مدة الزمان المحدود.

القانون الثالث عشر: إن الذين يتوفون فليحفظ فيهم الناموس القانونى القديم، والآن أيضاً: وهو أنه إذا توفى أحد لا يعدم الزواد الأخير الضرورى جداً بالكلية. وأما إذا هو يئس[1] من الحياة وحظى بالشركة أيضاً ثم وجد فيما بين الأحياء فليكن مع المشاركين للمؤمنين فى الصلاة وحدها فقط. وعلى الإطلاق أى من كان من المدنفين إذا طلب أن يتناول قربان الشكر فليناوله الأسقف القربان بتفحص واختبار.

القانون الرابع عشر: لقد لاح للمجمع المقدس العظيم بأن الذين سقطوا من الموعوظين يكونون مع السامعين ثلاث سنين، وبعد ذلك يصلون مع الموعوظين.

القانون الخامس عشر: إنه من تلقاء كثرة السجس والتشويش والمشاجرات الحادثة، لقد استبان لنا بأن ترفع بالكلية تلك العادة الواقعة بخلاف القانون فى بعض النواحى: وهو أنه لا ينتقل من مدينة إلى أخرى؛ أسقفاً كان أو قسّاً أو شماساً. فأى من باشر أمراً مثل هذا بعد حدوث حد المجمع المقدس العظيم، أو أسلم ذاته وتورط متوهراً فى أمر مثل هذا، فليكن فعله

(١) فى الأصل أيس.

فلما قرا الاسقف الكتاب نتف شعر لحيته وراسه وقــال: ليت انى مت ولم اقــرا هذا الكتــاب التجديف. وانفذ الى مرقلس فأتاه بالرسول، فسأله عن سيرة هذا مانى وكيف حاله، فاعلمه ذلك. ورغب الرسول ان يقيم عندهما لما سمع كلامهما ورأى خيرهما وجودتهما، فعرض مرقلس عليه الرجوع بجواب الكتاب ودفع له تلت دنانير، فقال: اغفر لى ياسيدى اننى لا اعود اليه. ففرحو بخلاص نفسه من شباك الموت. وكتب مرقلس

من أجســادها وبرهن على لاهوته بعجائبه. ولكن اله الظلمة أغوى اليهود ليصلبوه. ولما لم يكن له جسد لم تؤثر عليه الآلام ولكن اليهـود حسبوه صلب فرجع المسيح الى الشمس مسكنه الاول بعد أن ترك تلاميذه لتعليم الناس ديانته ووعدهم بارسال رسول أعظم يفصح عن حقائق أسمى وهو البارقليط الذى كان يدعي ماني بانه هو

والذين يؤمنون بألوهية المسيح ينبغي أن لا يعبدوا اله اليهود وهو إله الظلمة وأن يطيعوا شرائع المسيح التى

هذا غير ثابت على كل حال، وليرجع مقيما فى تلك الكنيسة التى فيها قد سيم ذلك الأسقف أو القس.

القانونى السادس عشر: إن كافة القسوس والشمامسة وبالجملة كل من كان تحت تفحص القانون؛ الذين من تلقاء تورطهم فى المخاطرة وعدم امتلاكهم مخافة الله تجاه أعينهم ولجهلهم فى القانون الكنسى قد ينصرفون من كنيسة ما، فهؤلاء لا ينبغى أن يكونوا مقبولين فى كنيسة أخرى ألبتة، بل ينبغى أن يجتلب عليهم كل إلزام حتى يرجعوا إلى سكناهم، أو إذا بقوا مقرين على ما هم عليه من العناد، يجب أن يكونوا عادمى الشركة. وأما إذا تجاسر أحد بأن يختطف من كان يخص آخر غيره ويسميه فى كنيسته من غير أن يوافق لذلك رضى أسقفه الذى نزح عنه، ممن كان تحت تفحص القانون، فلتكن تلك الشرطونية غير ثابتة.

القانون السابع عشر: من حيث إن الكثيرين من الذين هم تحت تفحص القانون قد يسعون وراء الطمع والاستكثار والأرباح القبيحة، وقد تناسوا ما كتب فى النص الإلهى القائل: وفضة لم يعطها بالربا[1]، فيدينون مالا طالبين أرباح تعشير المئات بالربا، قد حكم المجمع المقدس العظيم بأن بعد صدور هذا الحد أى من وجد من الكليروسية آخذاً أرباحاً بالربا من معاملة يمارسها للمعيشة، أو أنه استعمل ذلك على وجه آخر طالباً نصف جملة المرابحة، أو أنه

(١) مزمور ١٤ : ٥٠.

أوضحها مانى ويقاومون بثبات شهوات النفس الشريرة وهكذا يتخلصون شيئا فشيأ من مادة رئيس الظلمة الفاسدة . غير أن كمال التطهير لا يفوز به الانسان فى هذه الحياة ولكن بعد الموت يحصل للنفس تطهيران الاول بالماء المقدس الموجود فى القمر ويلبثون فيه خمسة عشر يوما والثانى بالنار المقدسة الموجودة بالشمس وهذه تطهرهم تماما أما الاجساد فتنحل الى عنصرها الاصلى.

الى مانى جواب كتابه وبعته اليه مع احد عبيده. وقال الاب ارشلاوس لذلك العبد: لا تاخذ منه شيا ولا تأكل ولا تشرب عنده. ثم سيره، وبعد سبعة أيام وصل مانى الى مرقلس وهو لابس اسكيم دقيق لطيف لنطن واستخاره دقيقه من تحته، واشتمل برداء نازل على رجليه مزين بصور من قدامه ومن خلفه، ومعه اتنين وتلاتين صبيا وصبية يمشون خلفه. فلما دخل منزل مرقلس عمد الى كرسى فجلس عليه فى وسط المنزل. وكان يظن

يحدث شيئاً آخر بالجملة لأجل اغتنام مرابحة قبيحة فليخلع من الكليروس، ويكون غريباً من القانون.

القانون الثامن عشر: لقد بلغ المجمع المقدس العظيم بأنه فى بعض المدن والأماكن الشمامسة قد يناولون القربان للقسوس، وذلك ما لم يسلمه قانون ولا عادة أصلا، وهو أن الذين لم يمتلكوا سلطاناً على التقدمة بأنهم يناولون جسد المسيح للذين يقدمونه. وقد عرف هذا أيضاً: وهو أن بعض الشمامسة قد يتناولون القربان قبل الأساقفة. فليبطل هذا كله، ولتقف الشمامسة عند حدودها، عارفين ذواتهم أنهم خدام الأسقف، وأنهم أدنى مرتبة من القسوس، وليتناولوا القربان بحسب رتبتهم بعد القسوس، على أن الأسقف يناولهم أو القس. بل ولا يجوز للشمامسة أيضاً بأن يجلسوا فيما بين القسوس؛ لأن حدوث هذا الأمر هو واقع بخلاف القانون والترتيب. فكل من لا يريد الخضوع أيضاً والرضوخ بعد صدور هذا الحد أيضاً فليعزل عن خدمة الشموسية.

القانون التاسع عشر: لقد وضح الحد على أولئك الذين تبعوا رأى بولس السميساتى ثم التجئوا إلى الكنيسة الجامعة راجعين: فى أن تعاد معموديتهم على كل حال لا محالة. فإن كان قوم فى الزمن الماضى قد حسبوا فى الكليروس فإن هم قد استبانوا عدموا العيب والملامة فليساموا من أسقف الكنيسة الجامعة بعد إعادة معموديتهم. وأما إذا كان بعد التفحص عنهم

انهم استدعوه ليتعلمو منه. فانفذ مرقلس الى الاسقف ارشلاوس. فلما راه جالسا على الكرسى تعجب من قلة حياه. فسأله الاسقف وقال له: ما اسمك. قال: اسمى البارقليط. قال له ارشلاوس: انت البارقليط الذى قال السيد المسيح انه يرسله الينا. قال: نعم انا هو. قال له الاسقف: كم عمرك. قال: خمس وتلتين سنه. قال له ارشلاوس الاسقف: المخلص المسيح قد قال لتلاميذه اقيمو فى اورشليم ولا تمضو ولا تبشرو حتى تتدرعو بالقوه

أما النفوس التى لم تهتم بالتطهير فتسكن بعد الموت أجساد البهائم والبشر حتى تطهر. والاكثر انحطاطا يسلمون للارواح الشريرة المقيمة فى جلدنا ليعذبوا زمانا ما. وحين تتحرر أكثر النفوس وترجع الى عالم النور فحينئذ يأمر الله فتخرج نار جهنم من مقرها وتحرق وتلاشى هذا العالم. وبعد ذلك يرغم رئيس الظلمة وجنوده على الرجوع الى مقرهم الاصلى ويدومون فيه فى حال الشقاوة ويحاطون بحرس قوى من النفوس التى يئست من خلاصها حتى لا يقووا على محاربة اله النور ثانية.

قد يجدهم غير مناسبين، فينبغى أن يقطعوا. ومثل هذا الرسم نفسه فليحفظ فى أمر الشماسات المحسوبات فى الزى أيضاً، من حيث لم تكن عليهم شرطونية، إنما فليحصوا مع العوام على كل حال لا محالة.

القانون العشرون: من حيث إن قوماً قد يحنون الركب فى أيام الآحاد وفى الأيام الخمسينية، فلاح للمجمع المقدس بأننا نقدم الصلوات لله ونحن منتصبون وقوفاً، لكى تكون كافة الأمور محفوظة فى كل أبروشية.

حاشية

«اعلم أن هذا المجمع الأول المقدس لم تثبت له قوانين قط غير هذه القوانين العشرين، وهى الموجودة باللغة اليونانية واللاتينية فقط. وجميع العلماء الذين جمعوا قوانين المجامع المسكونية والمكانية ما نقلوا غير هذه العشرين قانوناً لهذا المجمع الأول المقدس فقط. وأما الأربعة والثمانون قانوناً الموجودة فى اللغة العربية التالية لهذه القوانين فى كتاب الناموس العربى لا صحة لها أصلا. واللاتينيون أيضاً قد نقلوها عن العربى، مترجمينها لاتينيّا أيضاً، كما هو مضمون عنوانها عندهم، وذلك رغبة منهم لأجل القانون الرابع والأربعين الداخل فيها الذى يستندون عليه نوعاً ما فى امتداد سلطان البابا مطلقاً على زعمهم. وقد قال بعضهم إنها قديماً

من العلا وهو البارقليط روح القدس، ومن بعد عشرة ايام من صعوده الى السما كما قال، حل البارقليط على الرسل فى يوم العنصره وهو تمام خمسين يوما بعد الفصح، والتلاميذ الى الان كما تذكر انت ينتظرونك باورشليم لهذا الامر نحو تلتمايه سنه منذ بشرو وخرجت اصواتهم فى جميع الارض وانتهى كلامهم الى اقطار المسكونه، ولو كان الأمر كما قلت ما كانو بشرو وما كانو باقين احيا فى اورشليم الى الان، ومن اين رأيت

ولكى يجعل مانى سبيلا لقبول مبادئه رفض أكثر العهد الجديد معتقد بأنه حرف عن اصله ولا سميا العهد القديم الذى كان يعتبره من انشاء اله الظلمة الذى يعبده اليهود ووضع انجيلا دعاه (ارتن) مجاهرا بأنه موحى به اليه من الله. ثم وضع لتابعيه عيشة صارمة فأمرهم بممارسة كل ما يضعف الجسد الذى هو عمل رئيس الظلمة. وقسم تابعيه الى قسمين المختارين الذين ينبغى أن يتمتعوا من اللحم والبيض والحليب والسمك والخمر وكل انواع المسكرات والزواج

قد كانت اغتالت من الأريوسية، وفيما بعد انوجدت محررة عربية. وذلك هذا كله لغو لا حقيقة له أصلا. والدليل على ذلك:

أولا: إن الآباء الثلثمائة والثمانية عشر الملتئمين فى هذا المجمع ما كتبوا قوانينهم باللغة العربية، بل باليونانية.

ثانياً: إن مضمون ذلك القانون الرابع والأربعين هو خلاف مضمون القانون السادس الذى هو فى جملة العشرين قانوناً الصحيحة ويناقضه؛ لأن هذا القانون السادس يأمر كلا من البطاركة أن يكون مسلطاً على أبروشياته التى وليها والمختصة به، وهم الرومانى والإسكندرى والأنطاكى والأورشليمى. وأما مضمون ذلك القانون الرباع والأربعين الزور يريد أنه كما أن للبطريرك[1] .سلطاناً على من هو دونه، كذلك لبابا رومية سلطان على البطاركة، وما يتلوه من نصه.

ثالثاً: إن المجمع الثانى المسكونى المقدس[2] الذى اعتقبه فإنه فى قانونه الثانى يأمر بأن كلاً من الأساقفة أى البطاركة يدبر أبرشياته وألا يتعدى أحدهم على حدود أبرشيات آخر غيره. وفى قانونه الثالث رتب أن تكون تقدمات الكرامة لأسقف القسطنطينية بعد أسقف رومية؛ لأن

(١) فى الأصل يريد أن كالبطريرك.
(٢) مجمع القسطنطينية المنعقد عام ٣٨١.

انت السيد المسيح وعمرك خمس وتلتين سنه، وهو قد امر ان لا نجلس فى صدور المجالس وها انت قد جلست فى اعلى موضع فى البيت. فقال له مانى: اليس الانجيل يقول انى انفذ اليكم البارقليط. قال له ارشلاوس: ان كنت تومن بالانجيل فهو يقول للسيده مرتمريم العذرا: روح القدس تحل عليك وقوة العلى تظللك والذى تلدينه قدوس وابن الله يدعى. ثم اخرج له كتابه الذى انفذه الى مرقلس وهو يجحد فيه ميلاد المسيح من امراه وينكر موته

وكل تمتع ناتج من مخالطة الذكور الاناث. وقد صرح لهم بامتلاك البيوت وبأكل قليل من اللحم والتزوج بنساء. ويغلب أن المختارين هم الاساقفة والقسوس و الشمامسة والعلمانيين هم السامعون.

القسطنطينية هى رومية الجديدة. وقد اقتدى به أيضاً المجمع الرابع[1] فى قانونه الثامن والعشرين، والمجمع السادس فى قانونه السادس والثلاثين؛ الذين حدوا بأن أسقف القسطنطينية يكون له التقدم بسوية أسقف رومية القديمة، وأنه يعظم فى الأمور الكنسية مثل ذاك أيضاً، وأنه يكون ثانى رتبة. فلو كان لذلك القانون الرابع والأربعين المذكور صحة، كيف كانت لعمرى الآباء القديسين فى المجامع المسكونية تجترىء على ذلك التقدم؟

رابعاً: إن زوسيموس البابا، كان قد ادعى بأن المجمع الأول بنيقية حدد بقانونه لأسقف رومية بأن دعاوى الأساقفة ترفع لديه، ويرجع استئنافها إليه، وهو يحكم بها، وطلب إجراء ذلك من المجمع المنعقد وقتئذ فى قرطاجنة من أعمال إفريقية. وأما الآباء هناك فما سلموا له بذلك، إذ لم يوجد مثل هذا القانون مقيداً عندهم، وراجعوا التفحص عنه فى سجلات قوانين المجامع المودع قيدها يونانياً منذ القديم فى كنيسة القسطنطينية وكنيسة الإسكندرية وكنيسة أنطاكية، وعند ذلك أتاهم الجواب من القديس كيرلس بطريرك الإسكندرية ومن أتيكوس بطريرك القسطنطينية مع نسخات قوانين مجمع نيقية الأصيلة وحدوده. وإذ لم يوجد فيها أمر هكذا كما ادعى به البابا المذكور ألبته، فحينئذ المجمع رد الجواب إليه يتضمن نقض ما ادعى به من مطلوبه وباطل إسناده. فلو كان لهذا القانون صحة لكان ظهر فى ذلك الحين من السجلات

(١) مجمع خلقدونية (٤٥١م).

وقيامته من بين الاموات. فبدا مانى يتكلم بقوله الباطل: انه ألاهان احدهما النور والاخر الظلمه. وما يشبه هذا من الكفر. فقال له الاسقف ارشلاوس: اذا انا ارذلتك بقدر كذبك فانت تثبت لى على مقالتك لكن هو ذا انفذ احضر لك امة لا يعرفون الله الاه السما ليرذلوك من كلامك. وانفذ أحضر له رجلين احدهما حكيم طبيب والاخر كاتب وقال لهم: اسمعو ما يقوله هذا الرجل، هل فى كتبكم كلام تقبلونه وكلام ترفضونه قالو بل

المرقومة القديمة؛ مع أن ادعاء البابا فى ذلك الوقت كان بصدد آخر خلاف نص هذا القانون الزور المذكور.

خامساً: إن المجمع الرابع الخلكيدونى لما أصدر القانون الثامن والعشرين فى باب تقدم أسقف القسطنطينية، رومية الجديدة، ومساواته أسقف رومية القديمة بالكرامة. وأما نواب لاون البابا فى ذلك الحين قاوموا ذلك القانون، وادعوا بالنيابة عن البابا المذكور بأن المجمع النيقاوى هذا قد حدد فى صدر قانونه السادس من العشرين قانوناً هكذا: إن الكنيسة الرومانية لها التقدم دائماً[1]. فعند ذلك لما راجعوا نص القوانين المذكورة، وتلى هذا القانون فى المجمع عياناً، لم يوجد فيه ذلك النص المزيد فى صدره أصلا. وعند ذلك خجل النواب وخابوا تجاه المجمع العظيم والقضاة ذوى النباهة المعينين من قبل الملك مركيانوس[2] الحسن العبادة والجزيل الورع. فلو كان هذا القانون معلوماً حقًا لكان النواب إذ ذاك قد أوردوه فى المجمع[3].

سادساً: إن اللاتينيين فى مجمعهم الفاورنتينى قط ما أوردوا هذا القانون عند ادعائهم فيما كانوا وقتئذ يحاولون على قيام تلك الرياسة المطلقة التى يرومونها.

(1) Romana Ecclesia semper habuit primatum.

(٢) الإمبراطور مرقيان (٤٥٠ ـ ٤٥٧).
(٣) فى الأصل: لكانت... أوردته.

كلما فى كتبنا نقبله ولا نرفض منه شيا ومتى ميزنا بعضها من بعض لم تستقيم لنا قراته ولا قبوله.

فاجاب الاسقف وقال لهما: هذا الرجل يبشر ويقول انه تلميذ المسيح وهو يرفض اوامر المسيح. فقالا له: ما نقبله ولا نقرب شيا من اموره. فلما تكلم وسمع الجميع كلامه المملو تجديفا وثبو عليه ليقتلوه فمنعهم الاسقف عنه وقال لهم: يقتل بيد غيرنا. ثم نفاه من المدينه، وقال له: احذر ان توجد فى اعمالنا لئلا تموت. فلما خرج مضى الى ضيعه

سابعاً: إن يوسف المصرى الذى كان من أبناء العرب فى عصر تاريخ الستة آلاف والتسعمائة لكون العالم يعيش بمصر[1]، وهو ترجم قوانين الأربعة مجامع المسكونية الكبار من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية، فإنه أورد ذكر العشرين قانوناً التى لمجمع نيقية الأول مترجماً عربيًا. وما أورد غيره لذلك المجمع قطعاً. وفى كتب قوانين المجامع عند ملة السريان وغيرهم من ملل النصارى المشارقة أيضاً لم يوجد أكثر من العشرين قانوناً لهذا المجمع أصلا. فالملحوظ إذاً أن اللاتينيين لما تملكوا فى هذه البلاد العربية دسوا هذه القوانين فى ذلك الكتاب ونسبوها للمجمع الأول المسكونى المقدس. وعنها قد أخذت نسخات عديدة، الموجودة الآن فى هذه البلاد العربية»[2].

---

(١) فى رأى العلامة جراف (المرجع السابق ذكره) أن يوسف المصرى هذا ما هو إلا قارىء مخطوطة أو مالك لمخطوطة مجهولة المؤلف. وأغلب الظن أن يوسف كان من رجال الإكليروس المصريين على المذهب الملكانى. سنة ٦٨٩٩ للعالم توافق ١٧ توت سنة ١١٠٧ للشهداء = ٣ شوال سنة ٧٩٢ للهجرة = سنة ١٣٩٠م.

هنالك ثلاثة تقاويم لكون العالم على النحو الآتى:ـ

فى التقويم السكندرى يبدأ الكون ٤٥٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح فى التقويم الأنطاكى يبدأ الكون ٥٤٩٠ سنة قبل ميلاد المسيح فى التقويم البيزنطى يبدأ الكون ٥٥٠٨ سنة قبل ميلاد المسيح (يلاحظ أن الكاتب اتبع التقويم البيزنطى لكون العالم).

(٢) فى الأصل: اتناخدت.

(*) انظر: د. اسحق عبيد: الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية: دار المعارف القاهرة ١٩٧٢. ط١.

فيها قس يحب الغربا فاوى اليه وقام عنده شهرا وهو لم يعرفه، فكلم القس باقاويله الرديه فقال له القس ما سمعت انا بهذا الكلام قط لكنني انفذ الى ارشلاوس ياتى ويسمع منك ما تقوله فان كان جيدا فقبلناه. فلما سمع مانى اسم ارشلاوس قلق لذلك لمعرفته بشجاعته وحكمة الله فيه وعاد من وقته الى بلاد الفرس، وجرى على عادته في التجديف فحكم عليه البارقليط الحقيقى بحكمته وسلط عليه ملك الفرس فسلخ جلده ورماه

ما ترتب على مجمع خلقدونية

ما ترتب على مجمع خلقدونية سنة ٤٥١، من سخط وكراهية فى مصر والشرق، ظل زمناً طويلا يهدد الإمبراطورية، وأدى إلى ما قام به زينون من محاولة لإعادة الوحدة الدينية بما اتخذه من صيغة التوفيق Henotikon، وما قام به جستنيان من محاولة لتهدئة ثائره المونوفيزتيين بما لجأ إليه من إنكار الفصول الثلاثة Three chapters. غير أن هاتين المحاولتين لم تحرزا نجاحاً ملحوظاً. وما أحرزه الفرس من الانتصارات عاجلة، جذب انتباه هرقل إلى هذه الأمور، وجعله يحاول تحقيق ما اقترحه سرجيوس، وهو سورى الأصل، الذى رأى أن المونوفيزتيين قد يقبلون صيغة «الطبيعتين» إذا اقتنعوا أنها لا تدل على «قوتين أو عملين». ولذا كتب سرجيوس حوالى سنة ٦١٨ إلى جورج ارساس المصرى، وهو ينتمى إلى الفئة البوليصية Paulianist، من المونوفيزتيين ومن اتباع بولص أسقف أنطاكية، المعزول سنة ٥٧٨، يسأله الأسانيد التى تؤيد مذهب الفعل الواحد، ويعرض الاتحاد على هذا الأساس. وما تلى ذلك من خطوات أوقفها احتلال الفرس لمصر. وفى سنة ٦٢٢ تحدث هرقل أثناء حملته فى أرمينيا، مع قائد مونوفيزتى اسميه بولص، ودعاه إلى مذهب الإرادة الواحدة، غير أنه لم يصب نجاحاً. ثم أصدر قراراً ضد بولص، أرسله إلى أركاديوس أسقف قبرص، أبطل فيه عقيدة الفعلين أو الإرادتين. وبينما كان هرقل فى لازيقا، سنة ٦٢٦، تحدث فى هذه المسألة مع كيرس أسقف

١٥ : مكسيموس ٢٦٤/٢٨٢م

للوحوش فاكلوه. وأقام هذا الأب مكسيموس على كرسى اسكندرية بطركا ثمانية عشر سنه، وتنيح فى رابع عشر برموده. صلاته وبركاته تكون معنا إلى الابد، آمين. وفى تلك الايام توفى فليكس بطرك روميه وجلس بعده او طيخيانوس، وكان مقام فيلكس فى البطركيه خمس سنين، واقام او طيخيانوس عشره شهور وتنيح وجلس بعده مرقلينوس. فى ذلك الزمان اخذ بطركية انطاكيه من بعد دمنوس تيماوس، ومات اوراليانوس الملك

فاسيس Phasls، الذى كان فيما يبدو عالماً بالموضوع، فكتب إلى سرجيوس يطلب منه مزيداً من التفاصيل. فرد سرجيوس على اعتراضاته، وبعث إليه بصورة خطاب من مينا أسقف القسطنطينية إلى البابا فيجيليوس، الذى تضمن الإشارة إلى الإرادة الواحدة، وعندئذ أظهر كيرس أنه مقتنع. ولما عاد الاتصال بالشرق فى سنة ٦٢٨، أرسل سرجيوس كتاب ميناس إلى تيودور، أسقف فاران بالقرب من سيناء، الذى قرر قبوله، وهذه الرسالة، وكتاب مينا جرى توجيههما إلى بولص المونوفيرتى أسقف أرزروم (أرض الروم) Theodosiopolis.

ولما تم استرداد الشرق، نشطت فكرة التوفيق بين المذهب الخلقدونى والمونوفيزتى. ففى سنة ٦٣٠ أو ٦٣١، اجتمع الأمبراطور هرقل فى هيرابوليس فى الشام بالبطريرك أثناسيوس، ووعده بأن يكون بطريركا على أنطاكية (بعد أن ظل كرسيها شاغراً منذ سنة ٦١٠)، إذا قبل مشاركة الخلقدونيين فى عقيدتهم على أساس الفعل الواحد، فأبدى استعداده لقول ذلك. غير أنه لما مات البطريرك سنة ٦٣١ تحطم المشروع، على الرغم من أن بعض الأديره، لا سيما دير ماروت فى لبنان، قبلت الاتحاد. وفى سنة ٦٣١ قدم إلى سوريا، بناء على دعوة هرقل، جاثيليق الأرمن، عزراً، وجرى حثه على قبول مشاركة الخلقدونيين، فلما عاد أقر الاتحاد فى مجمع انعقد فى أرزروم Theodoslopolis، غير أنه لم يعترف رسمياً بمجمع خلقدونية. وفى سنة ٦٣٢، عند وفاة البطريرك جورج، تقرر تعيين كيرس بطريركا فى الإسكندرية، فبادر إلى

واخـذ المملكه بعـده ابروبوس واقـام ست سنين ومات ثم ملك بعده كاروس وكرنوس ونوماريانوس اقـامـوا ثلث سنين ومـاتوا، وملك بعـدهم ديقـلاديانوس الذى حل منه على البيـعـه جـهـاد عظيم اكثر ممن تقدم، وهدم البيع واحرق الكتب وقتل الاساقفه والكهنه وخلقا كثيرا من المومنين. واما سقراطيس فانه توفى فى لادقية وصار عوضه اوساويوس، هذا جا من اسكندريه من اجل المجمع الذى اجـتمع بانطاكيه على بوله السميساطى.



جندى رومانى يعذب أحد القديسين

المفاوضة مع الحزب المونوفيزتى الأساسى بالمدينة، وهو حزب التيودوسيين. وتم الاتفاق مع هذه الفئة من المونوفيزتيين (٣ يونيه ٦٣٣). وتضمن الاتفاق تسع نقط، بمقتضاه جرى الاعتراف بنظرية الطبيعتين وصفتهما، وإقرار الفعل الواحد، ولم يجر الاعتراف بمجمع خلقدونية، أو إقرار لفئة القادة المونوفيرتيين.

وعندئذ ظهرت المعارضة، إذ توسل إلى كيرس، صفر ونيوس أحد الرهبان الذى كان وقتذاك بالإسكندرية، بألا يذيع هذه المواد، فأحاله كيرس إلى سرجيوس. ولما لم يستطع سرجيوس أن يقنع صفر ونيوس، كادت محاولة التوحيد (الاتحاد) تسبب انشقاقاً، وعندئذ وافق على إجراء اتفاق ينبغى أن يستبعد فيه الإشارة إلى «الفعل الواحد» أو «الفعلين». وعاد صفر ونيوس برسالة فى هذا المعنى، إلى بيت المقدس، حيث جرى انتخابه بطريركا لها فى أوائل سنة ٦٣٤. وفى تلك الأثناء كتب سرجيوس إلى كيرس بشأن التوفيق، ولما لم يرض كيرلس (بطرك اسكندرية) بنقض ما قام به من عمل، لم يقبل رأى سرجيوس. وأرسل سرجيوس إلى هرقل برسالة مينا التى تحتوى على ما يؤيد نظرية «الفعل الواحد» و «والإرادة الواحدة»، غير أنه اقترح أنه لابد من أن تتوقف المناقشة فى هذا الموضوع. وكتب سرجيوس إلى البابا هو نوريوس يقترح ابطال الصيغتين «الفعل الواحد» و«الفعلين». ووافق البابا على

وصار بعده اناتوليوس وكان قد وصل الى الشام من اسكندرية وجعل سبب دخوله اليها ومقامه بها ان يعلم اولادهم. وتمهر فى العلم حتى بلغ خبره الى روميه.

وزحف عسكر من روميه الى مدينة اسكندريه وحصرها ولم يزل اناتوليوس المعلم يسفر بينهم بالسداد حتى اصلح الحال وثبت السلامه وزال الحرب. وكانوا كبرا المدينه قد وجدوا عليه لانه الزمهم بما لا يريدون، فقال لهم: دعوا الشيوخ

ابطال الصيغتين، غير أنه أقر نظرية «الإرادة الواحدة» التى يسمى أنصارها بالمونوثلستيين Monotheletes. وكتب بذلك إلى صفرونيوس، الذى أراد أن يجتذب البابا إلى جانبه، فأعلن موافقته على كتاب البابا متى ووافق كيرلس بطريرك الإسكندرية على ذلك. على أن ما حدث من سقوط بيت المقدس فى يد المسلمين سنة ٦٣٧، وما تلى ذلك من وفاة صفرونيوس، أوقف كل ما يتعلق بذلك. وما حدث فى مصر من التخلى عن العقيدة التى قام عليها الاتحاد، حطمت الاتحاد نفسه، وما اتخذه كيرس من اجراءات عنيفة لتنفيذ غرضه؛ جعل الأمور تزداد سوءاً.

والخطوة التالية التى اتخذها سرجيوس، تتمثل فى وضع الصيغة المعروفة باسم Ecthesls، تضمنت المبادىء الواردة فى الرسالة الموجهة إلى هونوريوس، والتى اتخذت صورة اعتراف قانونى بالعقيدة. وأقر هرقل هذه الوثيقة، وجرى إعلانها على أسوار كنيسة القديسة صوفيا (خريف سنة ٦٣٨). وأرسلت منها صورة إلى كيرلس وإلى سفيرنيوس Severenus الذى صار بابا بعد هونوريوس (أكتوبر سنة ٦٣٨)، وقرر مجمع القسطنطينية انزال العقاب بكل من يقول بالفعل الواحد أو الفعلين. وكان ذلك آخر عمل قام به سرجيوس الذى مات سنة ٦٣٨.

والعجايز والاطفال يخرجون من المدينه لانهم غير مطلوبين وافعلو انتم ما تختارون ببلدكم وتبقون بما في ايديكم من الغــلات المخــزونه عندكم. فطابت قلوبهم بذلك واجتمع بالغداة جند المدينه وريساها وتشاورو في ذلك فرأوه صوابا فاخرجو الشيوخ والعجايز والاطفال وقوم كتير غيرهم خــرجــو من الابواب في الليل، فــأمــر الملك [ديقلاديانوس] بعد هذا بقتل جند المدينه لانهم ساعدو اهلها على الخروج منها واخربوها. وكان

«الشرق بعد مجمع خلقدونية وحتى الغزو العربى»

كانت النتيجة المباشرة لقرارات مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م، هى الانقسام الأول لكنيسة المسيح. فقد وصمت الكنائس الغربية، الكنائس الشرقية على أنها مونوفيزية Monophysite (أى تؤمن بطبيعة واحدة فى المسيح)، بينما وصفت الكنائس الشرقية الكنائس الغربية بأنها Diophysite (أى تؤمن بطبيعتين فى المسيح). وقد قاد أقباط مصر حركة المونوفيزية (الأرثوذكسية) فى كل الشرق... على أنه يجب أن ننظر إلى هذا الأمر ـ بالاضافة إلى كونه موضوعاً إيمانيا ـ على أنه تعبير خارجى لنمو الاتجاهات القومية فى مصر ضد الاحتلال البيزنطى المتزايد، الذى بلغ أقصى مدى فى حكم جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥).

وقد بلغ الجدل اللاهوتى بين الأرثوذكسيين (المونوفيزيين) فى كنيسة الاسكندرية وبين أصحاب مذاهب الطبيعتين فى روما والقسطنطينية مبلغا تجاوز حد اللياقة. وكان هو أساس الصدع الذى حدث بين الكنائس الشرقية والغربية... ولكننا لا نبحث هذا الأمر بالتفصيل على المستوى اللاهوتى، فان هذا لا يدخل فى دراستنا فى مادة التاريخ الكنسى..

لقد تأثرت العوامل التاريخية الخاصة بهذا الصراع من جراء كثرة التعقيد والتشابك، ولذا تعتبر دراسة تلك الفترة من أكثر المواضيع تعقيداً وصعوبة... لقد اتهم الغربيون كنيسة

---

١٥ : مكسيموس ٢٦٤/٢٨٢م

اوسابيوس ايضا فيما بينهم مثل الطبيب او الاب يداوى الجهتين جميعا. وكان هذا الرجل اسقف اللادقيه وجا الى كرسيه مع الاسقف الاخر من اسكندريه باتفاق جيد.

ومن بعد القتال الذى كان باسكندريه كتب اناتوليوس تعاليم كتيره ونفع به اهل المدينه وكتب لهم حساب الفصح(*) ايضا.

وفى اول يوم من الشهر بعد المجمع الذى كان بانطاكيه على بولا السيميساطى اقيم تاوتكنس

(*) عيد الفصح: كان يسمى يوم تذكار موت المسيح وتكفير الشعب «الفصح» وسمى كذلك لأن المسيح صلب يوم حفظ اليهود فصحهم. ولم

الاسكندرية بالأوطاخية، كنتيجة للتآمر الذى حدث فى خلقيدونية ضدها. فى الوقت الذى اعتبرت كنيسة الاسكندرية الأوطاخية بدعة حرمتها مراراً وتكراراً، لأنها علمت بأن طبيعة المسيح الناسوتية تلاشت فى طبيعته الالهية. هذا بينما يؤمن الأقباط (كنيسة الاسكندرية) بأن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين أو أن طبيعتى المسيح اللاهوتية والناسوتية صارا طبيعة واحدة ـ باتحادهما الفائق السرى ـ بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير... وقد أثبت آباء كنيسة الاسكندرية ومعلموها هذا المعتقد، مستندين إلى نصوص الكتاب المقدس، وما قرره مجمع نيقية المسكونى الأول سنة ٣٢٥، وتعاليم القديس كيرلس الكبير فى مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١.

والدوافع التى دفعت كنيسة روما والقسطنطينية على وجه الخصوص، إلى اتخاذ هذا الموقف المشين من كنيسة الاسكندرية والكنائس الشرقية، أمر لا يحتاج إلى كثير عناء لاظهاره.. فقد كان لآباء كنيسة الاسكندرية والكنائس الشرقية، وبالأخص آباء كنيسة الاسكندرية الدور القيادى فى المجامع المسكونية الثلاثة الأولى.. يكفى أن نقرأ للمؤرخ ستانلى فى كتابه «محاضرات عن الكنائس الشرقية» المطبوع فى اكسفورد سنة ١٨٦٤ قوله «وأصبح بطريرك الاسكندرية بعد مجمع نيقية قاضى المسيحية فى المسكونة كلها»! ويكفى أن نقرأ فى تاريخ المجمع المسكونى الأول بنيقية عن الملك قسطنطين الكبير أنه وقف وسط المجمع الكبير الذى

يكن يعيد سنويا فقط بل كان يعيد ذلك التذكار الخلاصى كل أحد. فكان يوم الاحد يعتبر أيضا من جميع المسيحيين يوم فرح وبهجة فيقضونه بالصلاة وقوفا وبلا صوم. غير ان الفصح السنوى كانت له شعائر خصوصية وكان يحتفل فيه بتذكار الآلام والقيامة معا.

غير أن فى ذلك الحين قام خلاف شديد بشأنه بين مسيحى آسيا الصغرى وكيليكيا وسوريا وبين النهرين وبين غيرهم من المسيحيين. فكلاهما صام الاسبوع المسمى الآلام

اسقفا على كرسى قيساريه فلسطين واوسابيوس المقدم ذكره على اللادقيه، وكان رجلا عظيما عند الرب وكذلك اناتوليوس، فكانا كلاهما مويدين بروح القدس والتعاليم الروحانيه. ثم تنيحا احدهما بعد الاخر وصار استفانوس اسقفا على اللادقيه وكان رجلا ممتليا حكمة ويتعجب منه كل احد، وليس حكمه الكلام فقط بل والامانه المستقيمه. وبنى البيع التى كانت هدمت فى مدينته وجددها بمعونة الله له.

ضم ٣١٨ أسقفا من أنحاء العالم المسيحى، ليصافح الشماس اثنا سيوس (البابا اثناسيوس فيما بعد)، ويقول له «أنت بطل كنيسة الله»... ثم يأتى المجمع الرابع الذى انعقد فى أفسس سنة ٤٤٩م برئاسة البابا ديسقورس وتسيطر عليه كنيسة الاسكندرية... كل هذا، كان له أثر عميق فى المدينتين الامبراطوريتين روما والقسطنطينية... إذ وصف الغرب مجمع أفسس الثانى بأنه «مجمع اللصوص» ليظهر مدى الغيظ الذى أعمل فى نفوس هؤلاء الغربيين ضد كنيسة الاسكندرية وآبائها. وكدليل على مدى هذا الغيظ، فقد وحد مركيان وكنائس الغرب جهودهم فى حشد أكبر عدد من الأساقفة الغربيين فى مجمع خلقيدونية بلغوا نحو ستمائة أسقف، اجتمعوا لينقضوا قرارات مجمع أفسس الثانى، وليؤكدوا بصورة علنية تقدم كرسى الامبراطورية فى روما على سائر كراسى العالم المسيحى.

لقد حاولت السلطة الحاكمة فى القسطنطينية فرض تعليم مجمع خلقيدونية بالقوة على الكنائس الشرقية. ولكن هذه الكنائس ـ وفى مقدمتها وعلى رأسها كنيسة الاسكندرية ـ لم تلن لها قناة، وتصدت لهؤلاء الهراطقة مهما بلغت مناصبهم، وفضلت أن يتجدد عصر الاستشهاد على أن يفرطوا فى الأمانة أو يعوجوها.. وهكذا قامت الفتن، واختل الأمن فى بلاد كثيرة، لاسيما فى مصر وفلسطين وسوريا وبلاد ما بين النهرين (العراق الحالية)، وأرمينيا وفارس (ايران الحالية).

وكـان تاودوتوس الاسـقف في زمـان الاضطهـاد وكان مسـتحقا الاسمين المسمى بهما لان اسمه تفسيره عطيه الله واسم الاسقفيه، وكـان محبـا للشعب وراعيا وطبيبا ماهرا لصلاح نفوسهم حتى قيل انه لم يكن له شبه في محبته. وكان اجابيوس اسقف قيساريه فلسطين مثله ايضا، وكان قد تعب مع شعبه بمحبه عظيمه وكان محبا للفقرا وممسكا شعبه مثل عبد امين لله، واستحق بعد ذلك اكليل الشـهـاده مع كـتـيـر من قـسـوس اسكندريه.

الذى مات فيه المسيح وفيه حفظوا عيدا مقدسا أو أكلوا خروفا كما كانت تفعل اليهود تذكارا لعشاء مخلصنا الأخير. غير أن مسيحى آسيا وما يجاورها كانوا يحفظون الفصح فى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبرى فى الوقت الذى اكل اليهود فصحهم فيه. وفى اليوم السادس عشر حفظوا تذكار قيامة المسيح فى اى يوم من الاسبوع اتفقا اعنى من دون مراعاة يومى الاحد والجمعة. فكانت تعتبر أهمية اليومين فى عددهما الشهرى ١٤ و ١٦ نيسان اللذين

وفى ٧ فبراير سنة ٤٥٢ أصدر مركيان مرسوماً يقضى بعزل الاكليروس وأصحاب المناصب فى الدولة إن هم ناقشوا موضوع الايمان بصورة عامة وعلنية. أما بالنسبة لغير الموظفين فى الدولة ممن يقيمون فى القسطنطينية فكان جزاؤهم النفى خارجها وتقديمهم للمحاكمة... وأثار مركيان اضطهادا عنيفاً ضد الأرثوذكسيين. واستشهد فى هذا الاضطهاد عديد من الأساقفة والكهنة والرهبان والمؤمنين فى الشرق، ممن رفضوا الخضوع لقرارات وتعليم خلقيدونية.. أما الأساقفة الذين زاغوا عن الحق إرضاء للملك وطمعاً فى مآرب خاصة، فقد كانوا سبباً فى إهدار دماء زكية لاسيما فى فلسطين ومصر.

إن ما حدث فى مجمع خلقيدونية من هزيمة لكنيسة الاسكندرية على المستوى المسكونى، ومحاولة إذلالها بحرم ونفى بطريركها البابا ديسقورس، لم يكن هو خاتمة المطاف فى ذلك الصراع، بل كان هو البداية.. وصل رسول امبراطورى إلى الاسكندرية يحمل قراراً بعزل البابا ديسقورس وتعيين القس الاسكندرى بروتيريوس Proterius (٤٥٢ ـ ٤٥٧). وقد تم ذلك بالقوة المسلحة. وإلى جانب هذا القرار كان رسول الملك مركيان يحمل معه رسالة امبراطورية بمعاقبة كل من يجرؤ على العصيان. على أن الأقباط لم يقبلوا هذا الوضع وأضرموا نار ثورة فى الاسكندرية وتجدد عصر الاستشهاد ثانية. ولكن على يد مسيحيين.. قيل أن عدد من سقطوا قتلى فى هذا الاستشهاد يعدون بالآلاف (ذكر البعض أن عددهم بلغ أربعة وعشرين

واستشهدوا ايضا الذين معهم بيريوس ومليتيوس الذى صار اسقف بنتس وهو المعروف بالعسل الشهد لاجل حلاوة لسانه المملوه من تعليم الله وحكمته. وكان محبا للصدقه على المساكين ولا يدخر شيا بالجمله، وكان جميع تعليمه من الانجيل، وكان فى زمان تشتيت الناس واضطهادهم، وكان ثابت التعليم.

ولما تنيح همنايوس اسقف اورشليم جعل عوضه زبداس، ولما تنيح صار بعده ارمون، وكان هذا متعبا

يهما بالتمام تألم وقام لا فى غيرهما. قالوا انهم أخذوا هذه القاعدة من لرسولين يوحنا وفيلبس وعضدوها يضا بمثال المسيح ذاته الذى عمل فصحه مع اليهود. وكانوا يعتبرون يوم الآلام من وجه عقائدى يوم تحرير من العبودية وخلاص فكان يعد عندهم يوم فرح ويمنعون بعد انقضائه الحزن والصوم معا.

ولكن الكنيسة المصرية لم تعتبر الاهمية فى عدم اليوم من الشهر بل فى اسمه الاسبوعى أعنى الجمعة والاحد. فكانت ترى من الضرورى ان

ألفا) معظمهم من الأساقفة والكهنة والرهبان.. ومن بين من استشهدوا القديس مقاريوس اتكو Tkoy بالصعيد. كان بالاسكندرية وحاول والى الاسكندرية أن يرغمه على أن يوقع قرارات مجمع خلقيدونية، لكنه رفض. فما كان من أحد الجنود إلا أن ركله فسقط على الأرض ميتاً نظراً لشيخوخته.. أما بقية الأساقفة الذين رفضوا التوقيع فقد نالهم النفى والتشريد.

توفى مركيان فى فبراير سنة ٤٥٧، وخلفه لاون الأول (٤٥٧ ـ ٤٧٤)، فاتخذها الكسندريون فرصة لرسامة بطريركا خلفاً للبابا ديسقورس المعترف الذى تنيح فى منفاه فى ٤ سبتمبر سنة ٤٥٤. وهكذا رسم البابا تيموثاوس الثانى البطريرك ٢٦ فى ١٦ مارس سنة ٤٥٧، ويعرف فى المراجع باسم تيموثاوس ايلوروس Aelurus. وتبع ذلك أن انشقت اسقفية الاسكندرية بين سلسلتين من البطاركة: الملكانيين Melkites وكانوا من الروم (الاغريق)، وتتم رساماتهم فى القسطنطينية غالباً، ويخضعون لمجمع خلقيدونية. والسلسلة الأخرى الأرثوذكسيين (مونوفيزيين) وكانوا أقباطا وطنيين تمسكوا بقوميتهم ورفضوا زعامة وسيطرة الروم والخلقيدونيين.. لكن رسامة البابا تيموثاوس الثانى، وما تبعها من عقده مجمعاً بالاسكندرية حرم مجمع خلقيدونية وبروتيريوس الدخيل، جعلت والى الاسكندرية يلقى القبض على البطريرك تيموثاوس ويبعده إلى أبو صير Taposiris أما النتيجة فكانت مزيد من القتلى.

فى بداية الأمر لم تنظر السلطة المدنية بعين الاكتراث إلى هذا الصدع الجديد الذى حدث

يكون تذكار الآلام يوم الجمعة وتذكار القيامة يوم الاحد. ولهذا السبب كانت فى السنين التى لا يتفق ان يكون اليوم الرابع عشر من نيسان يوم جمعة تعيد الآلام أول يوم جمعة بعده ثم القيامة يوم الاحد واسندوا هذه القاعدة الى بطرس وبولس الرسولين قائلين انهما أصلها. وكانوا يعتبرون اليوم على وجه تاريخى يوم حزن ولم يسمح عندهم بحل الصوم قبل تذكار القيامة وقد وافق اساقفة رومية وانطاكية واورشليم اذ ذاك على أن يتبعوا ما اتبعه مسيحيو الاسكندرية بناء على ما كتبه اليهم البابا ديمتريوس فى ذلك.

فكانت الكنائس متفقة على ضرورة تعييد الفصح ولكنها اختلفت فى تعين اليوم الذى يعيد فيه حتى كان بعضها يعيد بعد الآخر باسبوع أحيانا. وبين سنة ١٦٠ و ١٦٣م سافر القديس بوليكربوس أسقف ازمير الى رومية لينهى بعض مسائل من جملتها مسألة الفصح آملا باقناع أسقف رومية نيشيوس العاشر فى اساقفتها فى ان تعيد كنيسته الفصح مثل كنائس آسيا. وبعد جدال طويل لم يتمكن أحدهما من اقناع الآخر. وهكذا استمر كل من الفئتين على عادته المختصة به الى ان ابطل مسيحى آسيا المجمع النيقاوى فى القرن الرابع واناط بالاساقفة الاسكندريين تحديد يوم عيد الفصح فظلوا يعينونه لجميع الكنائس المسيحية قرونا طويلة وترتب من ذلك الحين ان يصدر بابوات الاسكندرية رسالة فى كل عيد فصح يرسلونها لجميع الكنائس المسيحية عموما والمصرية خصوصا فى اليوم الذى يقع فيه عيد القيامة من كل سنة. وكانت لهذه الرسائل أهمية عظمى حتى عند غير المسيحيين لما تضمنته من الحساب الفلكى الدقيق الذى جرى عليه المصريون القدماء بالضبط ولذلك عهد بكتابتها الى بطريرك الكنيسة القبطية المصرية وحده لعلمه بهذا الحساب التاريخى علما تاما.

وقيل ان الذى وضع ذلك الحساب المشهور بالابقطى (الابقطى هو عمر القمر فى أول توت من كل سنة هو بطليموس الفلكى الفرماوى صاحب كتاب المجسطى فى عهد الباب ديمتريوس فنسب اليه ودعى بحساب الكرمة.

ولبثت الكنائس سائرة على هذا الترتيب حتى سنة ١٥٨٢م حين وضع اغر يغوريوس الـ١٣ أسقف رومية تقويمه الغور يغورى الذى ادخل به اصلاحا على التقويم اليوليانى ولذلك صارت الطوائف الغربية التى سارت على التقويم الغريغورى تعيد الفصح بعد اكتمال البدر الذى يلى الاعتدال الربيعى مباشرة بدون نظر الى تاريخ ذبح الخروف اما الطوائف الشرقية فظلت باقية على العادة الاولى الى اليوم.

ففى بعض السنين يتفق ان يكتمل اول بدر عيد الاعتدال الربيعى فى الوقت الذى يأتى فيه ذبح الخروف فتعيد جميع الطوائف المسيحية فى يوم واحد. ولكن فى سنين اخرى يكون اكتمال البدر قبل ذبح الخروف فيأتى عيد الفصح عند الغربين متقدما على الشرقين. ومدة هذا التقدم تتراوح بين أسبوع على الاقل وخمسة أسابيع على الاكثر ولا يأتى عيد الشرقيين قبل عيد الغربيين مطلقا.

فالغرض من حساب الابقطى. انما هو تعيين يوم ذبح الخروف عند اليهود. ومنه يمكن تعين عيد الفصح والاعياد المرتبطة به كعيد الصعود وعيد العنصرة وذلك لانه بين السنة التوتية القبطية والسنة اليهودية فرقا نشأ من أن السنة الاولى شمسية والسنة الثانية ذات اشهر قمرية ولكى يقع الفصح اليهودى دائما بعد الاعتدال الربيعى يضيف اليهود شهرا على سنتهم كل سنتين أى انها فى السنتين الاوليين ١٢ شهراً وفى الثالثة ١٣ شهراً وبذلك جعلوها سنة شمسية ولو أن شهورها قمرية.

في زمـان الاضطهـاد وتنيح مكسيـمـوس بطريرك اسكندريه في اربع عشر برموده بعد ان اقام ثماني عشره سنه.

(*) ساونا البطرك
وهو من العدد السادس عشر
٢٨٢ / ٣٠٠م

ولما تنيح مكسيـمـوس جلس بعـده ساونا على الكرسي باسكندريه بعد اجتمـا ع الشعب واتفاق

(*) روى الانبـــا يؤنس مطران دمياط في مجموعته لتاريخ البطاركه أن الآباء البطاركة نصبوا بطركا قبل ساونا هذا اسمـه ببنوده جلس على الكرسي المرقسي سـتـة شـهـور في نهايتها اجتمع الاساقفه ضده وقرروا تجريده من رتبته لأنه قد خصى نفسه وأقـامـوا بدله البـابا سـاونا في شـهـر

في كنيسـة الاسكندرية نتيجة إقامة بطريرك يفرض عليهم من الخلقيدونيين. ولكن خطورة الموقف بدت واضحة حينما استغل شعب الاسكندرية فرصة انشغال حاكمها بمحاربة الوندال بشمالي افريقيا وقبائل البلميس Blemyes في صعيد مصر، فانقضوا على بروتيريوس الأمر الذى انتهى إلى قتله وسحله في شوارع الاسكندرية، وأحرقوا جثته وذروا رمادها في الهواء إمعانا في التشفي والانتقام. وكان ذلك في ٢٨ مارس سنة ٤٥٧.. وانتهى الأمر بصدور قرار الملك لاون بنفي البابا تيموثاوس الثاني إلى جزيرة جنجره Gangrain في بفـلاجـونيـا Paphlagonia حيث نفي البابا ديسقوروس. وإن كانوا قد نقلوه إلى منفى أخر... أما البابا تيموثاوس الثاني فقد كرس جهوده في المنفى لكتابة ضد النساطرة والخلقيدونيين والأوطاخيين.

بعد نفي البابا تيموثاوس أقام الخلقيدونيين بالاسكندرية بطريركا خلفاً لبروتيريوس دعوه تيموثاوس أيضاً وهو المعروف باسم تيموثاوس سالوفاكيولس Salophaciolus وكان تعيينه بقرار من الامبـراطور زينون Zeno. لكن الشعب قاطعه، وكانوا يقصدون الأديرة للصلاة. لكنهم كانوا لا يفتأون عن رفع الاحتجاجات إلى الامبراطور طالبين إعادة البابا تيموثاوس ثانية مين المنفى.. وما أن تولى زينون حتى لجأ إليه أقباط الاسكندرية الأرثوذكسيين يلتمسون عودة بطريركهم تيموثاوس الثاني من المنفى. لكن القائد باسيليسكوس Basiliscus تمكن من عزل زينون وملأ مكانه. ويبدو أن باسيليسكوس أراد أن يستعين بقوة الارثوذكسيين فأصدر أمره سنة

رأيهم على صلاحه فقدموه فى اول سنه من ملك نومريانوس وكاروس وكلوينوس الملوك وبنى بيعه حسنه على اسم السيده مرتمريم[العدرا] وسميت تاوماتار. والى هذا الوقت كانت الشعوب يقدسون فى المغاير والكهوف والمواضع المخفيه. فمن مارى مرقس الانجيلى الى السنه التالته من بطريركية ساونا مايتان وتسع عشره سنه. وتنيح فى التانى من طوبه بعد ان اقام تسع عشره سنه.

وكان فى ايام هذا الاب البطرك ساونا كاهن

كيهك سنة ٢٨٢م فى عهد الامبراطور بروفس.

ولما تولى القيصر ديوكلتيانوس عرش رومية أدخل فى معيتة عدداً كثيرا من الاقباط المسيحيين فأرسل اليهم هذا البطريرك رسائل يأمرهم فيها أن يقوموا بواجبهم وأن يميزوا أنفسهم كمسيحيين عن الموظفين الوثنيين بأعمالهم الصالحة وسيرتهم الطيبة فمن ذلك رسالة الى لوسيان ناظر بيت الملك وهو موظف مسيحى ارتقى الى رتبته بعد تملك

---

٤٧٦ باعادة البابا تيموثاوس من المنفى. وفعلا ترك منفاه ووصل إلى القسطنطينية حيث استقبل استقبالا حاراً بواسطة المؤمنين وحل ضيفاً على البلاط الملكى. وهناك زاره كثيرون للاستشفاء والتبرك.. ترك القسطنطينية إلى الاسكندرية وعرج على أفسس. وفى الاسكندرية استقبل استقبالا حافلا من كل الشعب والاكليروس والرهبان والراهبات، وهم يهتفون «مبارك الآتى باسم الرب».. ودخل الكنيسة الكبرى بعد أن غادرها البطريرك الدخيل.. ومما هو جدير بالذكر أن البابا تيموثاوس ـ بموافقة الامبراطور ـ نقل جسد البابا ديسقوروس فى صندوق فضى إلى الاسكندرية حيث جنز فى احتفال مهيب كمعترف، ووضع جسده فى مدفن الآباء البطاركة.

ومما يذكر أنه فى سنة ٤٧٦ حين تقابل البابا تيموثاوس الثانى مع الملك باسيليسكوس، طلب إلى الملك أن يصدر مرسوماً بحرم طومس لاون والزيادة التى أضافها مجمع خلقيدونية على الإيمان النيقاوى.. استجاب باسيليسكوس لهذا المطلب وعقد مجمعاً فى القسطنطينية حضره خمسمائة أسقف يتقدمهم البابا الاسكندرى تيموثاوس، ومار بطرس الثانى الانطاكى فحرموا المجمع الخلقيدونى ولاون الرومانى وطومسه ووضع صيغة قرار المجمع الراهب بولس أحد الرهبان الوافدين من الاسكندرية وأصدر به منشوراً عاماً وفيه أعلن وجوب التمسك بالايمان النيقاوى الذى ثبتته ثلاثة مجامع مسكونية فى القسطنطينية سنة ٣٨١، وأفسس

ديوكلتيانوس بقليل يقول له «ان الراحة التى تتمتع بها الكنيسة الآن تعزى الى سبب واحد فقط هو سلوك المسيحيين الحسن وأعمالهم الممدوحة التى تضىء كالشمس فى رابعة النهار ينعكس ضوؤها أمام أعين الكفرة والملحدين فتبهر أبصارهم وبذلك يتمجد أبونا الذى فى السموات. أما غرضنا الذى نرمى اليه والغاية القصوى التى نسعى خلفها هى أن نكون مسيحيين فعلا لا بالاسم فقط وأن نعمل أعمال المسيحيين الحقيقين

قديس وكان له زوجه طاهره وكانو جميعا سالكين فى طريق الرب حافظين وصاياه عاملين باوامره متمسكين بقوانين الديانه ثابتين على الامانه، ولم يكن لهما ولد وكانو حزينى القلب، لاجل ذلك كانا يكثران الصوم والصلاه والصدقه لينعم الرب عليهما ويرزقهما ولدا تقر عيونهما به، فلما حضر عيد التلميذين الجليلين بطرس وبولس فى اليوم الخامس من ابيب وحضرو جميع المومنين للبيعه ليعيدو لهما، وحضرت زوجة هذا الكاهن الى

الأول سنة ٤٣١ ، وافسس الثانى سنة ٤٤٩ ، كما أمر باحراق طومس لاون وتعليم مجمع خلقيدونية حيثما وجد.. وقد وقع هذا القرار تيموثاوس الاسكندرى وبطرس الانطاكى وبولس الافسسى ومعه أساقفة آسيا الصغرى والشرق، وانستاسيوس الأورشليمى وأساقفة ولايته وغيرهم نحو سبعمائة أسقف. أما أكاكيوس Acacius بطريرك القسطنطينية فقد تردد فى التوقيع.

الملك زينون والأرثوذكسيين:

لم يسترح أكاكيوس بطريرك القسطنطينية للنصر الذى أحرزه الأرثوذكسيين بقيادة البابا تيموثاوس. حرض الاكليروس والرهبان فى القسطنطينية، وأغلق الكنائس، ونظم مظاهرة صاخبة ضد باسيليسكوس مدعياً أنه هرطوقى. فاضطر باسيليسكوس إلى إلغاء مرسومه السابق لاسيما وأن الظروف السياسية كانت فى غير صالحه، إذ أن زينون كان قد أعد جيشاً كبيراً لمقاتلته واسترداد عرشه.. وفعلا انتهى الأمر بعودة زينون وطرد باسيليسكوس فى سبتمبر سنة ٤٧٦ . وبعودته أصدر مرسوماً بالغاء منشور باسيليسكوس الدينى ونفى بولس الافسسى وبطرس الانطاكى، وأرسل يتهدد البابا تيموثاوس الاسكندرى، لكن هذا الأخير تنيح سنة ٤٧٧ .. وأقام الأرثوذكسيين بطريركاً خلفاً لتيموثاوس هو بطرس الثالث المعروف باسم بطرس منجوس Mongus (٤٧٧ ـ ٤٩٠) البطريرك ٢٧ ، وكان هو أحد تلاميذ البابا ديسقورس ورئيس

حيث صورتهما فابصرت المومنين يقدمون اولادهم ويدهنون بزيت القنديل الموقود قدام الصورتين، فتنهدت بقلب قريح واستشفعت بهما الى الرب وتناوات من السراير المقدسه واخذت السلام الالهى وانصرفت الى منزلها شاكره للرب سبحانه. فرأت فى تلك الليله فى منامها شخصين بلباس البطاركه يقولان لها: لا تحزنى فان الرب قد سمع

لانه اذا كنا نطلب مجد أنفسنا الذاتى فنكون كمن يطلب شيئا تافها لا فائدة منه. فاذا يجب على كل مسيحى أن يهتم بمجد الله الآب وبمجد الله الابن الذى سمر لاجلنا على خشبة الصليب وفدانا بدمه فداء أبديا لا يقوم بذهب أو بفضة. فلذلك أيها العزيز لوسيان أريد أن يعرف عنك التباهى والفخر لانك أهديت كثيرين من خدمة البلاد الملوكى الى معرفة الحق وأدخلتهم فى حظيرة المسيح بل الاحرى بك أن تشكر الله الذى

شمامسة كنيسة الاسكندرية.. عقد مجمعاً فور تنصيبه وقرر حرم مجمع خلقيدونية ولاون وطومسه.. فأرسل إليه الملك زينون يتوعده، فأخذ يتخفى فى بيوت المؤمنين بالاسكندرية.. وفى نفس الوقت أعاد الملك البطريرك الخلقيدونى تيموثاوس سالوفاكيولوس Salophaciolus لكنه توفى سنة ٤٨٢.. توسل الأقباط لدى الامبراطور زينون أن يجعل بطريركهم بطرس منجوس هو البطريرك الوحيد، لكن الامبراطور رفض طلبهم، وأقيم بطريركا خلقيدونيا هو يوحنا طلايا Talaia كان يحوز على مساندة روما، لكنه لم يكن على علاقة ود مع دوائر القصر والكنيسة بالقسطنطينية. وانتهى أمر هذا الدخيل بالهرب إلى روما.. وفى هذا الوقت بدأ التقارب بين أكاكيوس بطريرك القسطنطينية (٤٧١ ـ ٤٨٩) وبطرس الثالث (منجوس) البطريرك السكندرى، فى الوقت الذى أخذ زينون يفقد الأمل فى كسب الأرثوذكسيين (المونوفيزيين) فى الاسكندرية عن طرق العنف وبات واضحاً أنه لابد من التفكير فى إيجاد حل لاعادة السلام للكنيسة الذى يؤثر بدوره على سلام الامبراطورية ووحدتها.

الهنوتيكون Henoticon:

كانت الفكرة الجديدة لحل المشكلة الدينية هو ما عرف باسم الهنوتيكون أى وسيلة الاتحاد أو عمل الاتحاد أو كتاب الاتحاد أو مرسوم الاتحاد. كانت الميول الأولى لكل من الامبراطور زينون والبطريرك القسطنطينى أكاكيوس خلقيدونية. لكن ثورة باسيليسكوس ـ وإن كانت

اختارك آله نافعة للبنيان وجعلك واسطة خير لنفع الآخرين وأعطاك نعمة فى عينى مولاك لحد تمكنت فيه من نشر كلمة الخلاص واذاعة معرفة فادى المسيحيين وذلك لمجد اسمه وخلاص الكثيرين».

وأوصى كافة أمناء بيت الملك المسيحيين فقال «ان الله ينهاكم عن أن تبيعوا الآخرين شيئا من متعلقات القصر خلسة أو تأخذوا رشوة ولا تقولوا للامبراطور كلاما ضد الحق

دعاك ووهب لك ولدا يقر عينك به ويكون ابا لشعوب كثيره ويظهر اسمه وقدسه مثل صمويل النبى لانه ابن موعد فاذا اصبحت امضى باكرا الى الاب ساونا البطرك واعلميه بهذا ليبارك عليك فان الله برحمته يهب لك ولدا مباركا، فلما أصبحت أعلمت زوجها الكاهن بذلك فقال لها امضى واعلمى ساونا البطرك كما قيل. فمضت اليه واعلمته بذلك فبارك عليها وقال لها يتم الله

وقتية ـ لكنها أثبتت لكليهما بدون شك مدى قوة الأرثوذكسيين (أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة) وأهمية مسالمتهم. لذا كان من الضرورى أن توضع صيغة إيمان يقبلونها بدلا من صيغة الايمان الخلقيدونى ـ والحقيقة أن واضع الهنوتيكون كان هو أكاكيوس ـ كانا يهدفان إلى العودة بالكنيسة إلى المفهوم اللاهوتى السابق لخلقيدونية أى قبل الانقسام.. وفى سنة ٤٨٢ تمكن من إقناع الامبراطور زينون ـ دون كبير عناء ـ بالموافقة على المحاولة الجديدة. لقد اعترف الهنوتيكون بقرارات المجامع المسكونية الثلاثة الأولى، حرم كل من نسطور وأوطاخى واتباعهما. ولم يتعرض للنقطة الحساسة وسبب الانقسام وهى الخاصة بطبيعة المسيح. وحرم كل من يؤمن بايمان آخر.

كان المرسوم صورة رسالة موجهة من الامبراطور زينون إلى «الأساقفة والاكليروس والرهبان والمؤمنين فى الاسكندرية ومصر وليبيا والخمس مدن الغربية».

أما خلاصة الهنوتيكون فكانت كالآتى:

«بما أن الإيمان الذى لا عيب فيه وحده ينجينا وأمور الجيش، لذلك قدم إلينا محبو الله رؤساء الأديرة والرهبان عرائض ملتمسين فيها بدموع أن يتم اتحاد الكنائس المقدسة فتضم إلى بعضها البعض. تلك الأعضاء التى فرقها عدو الخير منذ زمن، حتى مات بعض المؤمنين بدون

طلبتك ويجيب مسئلتك فالرب صادق واعماله عجيبه فى قديسيه. وانصرفت الى منزلها فحملت بعد ذلك بمده يسيره، وكانت تحرس نفسها بكل الطهاره ومداومة الصوم والصلاه ليلا ونهارا الى يوم عيد القديسين بطرس وبولس فى الخامس من ابيب، فولدت ابنا فمضى المبشر الى انبا ساونا البطرك واعمله بانها قد ولدت ابنا ففرح بذلك جدا وفرح زوجها

ابتعدوا عن الطمع والجشع اللذين يتمسك بهما الوثنيون لا المسيحيون واعلموا أن الربح القبيح والغش هما صفتان لا تلائمان من قبل المسيح. فعولوا على الاقتداء به ذاك الذى كان فقيرا ومعدما. لا تتكلموا بشر فيما بينكم ولا تخرج كلمة قبيحة من أفواهكم بل لتكن كل أعمالكم مقرونة باللطف والتأدب مع العدل والحق بذلك يتمجد اسم ربنا والهنا يسوع المسيح فيكم وفى أعمالكم. تمموا واجباتكم التى اسندت اليكم

اقتبال سر العماد، وآخرون بدون تناول القربان المقدس. فضلا عن سقوط ربوات من القتلى، الذين بدمائهم الغزيرة تخضبت الأرض والهواء. ولذلك فقد قررنا نحن والكنائس الأرثوذكسية فى كل مكان، ورؤساء الكهنة الذين يدبرونها، ألا نعرف إيمانا آخر سوى الذى وضعه الآباء القديسون الذى اجتمعوا فى افسس وحرموا نسطور ومن نسجوا على منواله. فنحرم نحن أيضاً نسطور وأوطاخى اللذين علما خلافا للإيمان المذكور. ونقبل الفصول الاثنى عشر التى كتبها الطيب الذكر ومحب الله كيرلس الذى كان رئيس أساقفة كنيسة الاسكندرية الجامعة. ونعتقد بأن الوحيد ابن الله والاله يسوع المسيح، الذى نزل وتجسد حقا من الروح القدس ومن مريم العذراء والدة الاله، والذى هو من طبع الآب باللاهوت ومن طبعنا بالناسوت[1]، وهو واحد لا إثنان[2]، وأن العجائب والآلام التى احتملها بالجسد هى لهذا الوحيد ابن الله الواحد[3]. أما الذين يميزون[4]، أو يبلبلون أو يقولون بالخيال[1]، فلا نقبلهم البتة. ذلك أن التجسد الحقيقى المنزه عن الخطيئة الذى من والدة الاله لم يزد على الابن شيئاً. فقد ظل الثالوث ثالوثا، وما بعد تجسد الاله الكلمة الواحد من الثالوث أيضاً. إننا نكتب بهذا إليكم لا لنعلن إيماناً

(١) ملاحظة: نلاحظ أن العبارة الموضوع فوقها (١) هى ضد أوطاخى، والموضوع فوقها.
(٢) هى ضد نسطور، والموضوع فوقها.
(٣) هى ضد طومس لاون، والموضوع فوقها.
(٤) تعنى النساطرة والخلقيدونيين..

بخوف من الله وبمحبة للامبراطور وبغاية الدقة والاجتهاد واعتبروا أن الاوامر التى تصدر لكم من مولاكم الذى لم يسىء الى أحد من رجال الله كأنها صادرة من الله نفسه لانه مقام منه ولم يتقلد السيف باطلا. وأخيرا يا أبنائى الاعزاء البسوا الصبر كرداء وتمطقوا بالفضيلة وامتلئوا بالرجاء والايمان والمحبة».

ثم أرسل لأمين الخزانة الخاصة يأمره بأن يتحلى بالامانة ويصرف بدقة حساب وكتب لأمين الملابس

الكاهن الابروتس، وقال لهما انبا ساونا البطرك:

اسمواه بطرس. ففعلا ذلك، وكان الصبى يشب وينشو وينمو مثل يوحنا المعمدانى حتى بلغ تلت سنين فحمله ابواه الى البطرك وقالا له: هذا ابن صلواتك. فبارك عليهما وعليه وعمده. ولما صار فى خمس سنين دفعه ابواه للتعليم فتعلم الحكمه فى اسرع وقت وصار احفظ ممن فى البيعه من ابناء جنسه. وفى سابع سنه جعله اغسطس وامتلا من

جديداً، لكن لنبين أننا نحرم كل من ارتأى أو يرتأى شيئاً آخر سواء أكان ذلك فى مجمع خلقيدونية أم فى أى مجمع آخر، ولا سيما نسطور وأوطاخى، والذين ينسجون على منوالهما».

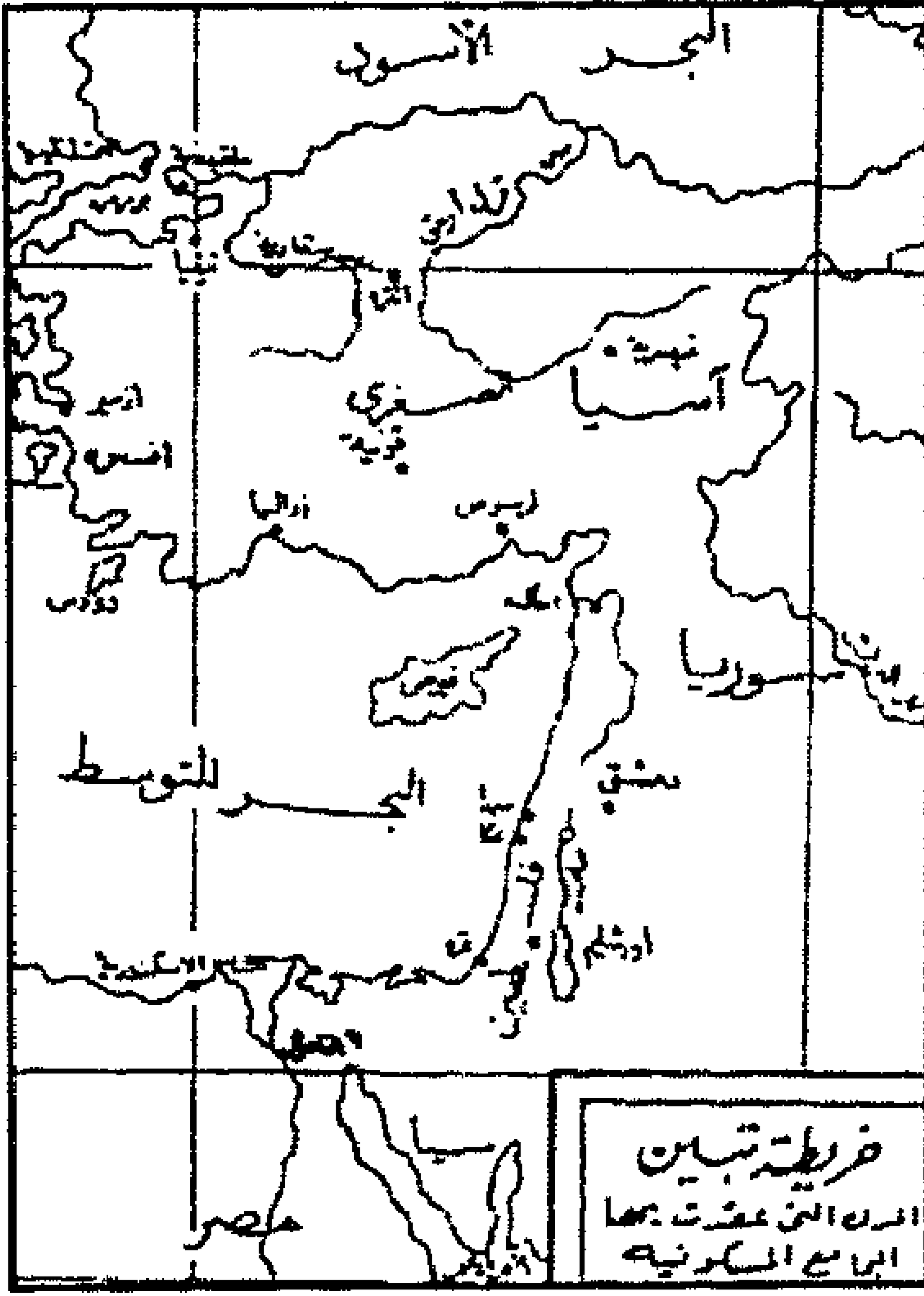
واضح مما تقدم أن الهنوتيكون كان خطوة كبيرة نحو تفكير الأرثوذكسيين القائلين بالطبيعة الواحدة فى المسيح... فكانت النتيجة المباشرة هو التقارب بين كنيستى الاسكندرية والقسطنطينية، على الرغم من أن كنيسة روما لم ترحب بالأمر برمته، بل ذهبت إلى ما هو أبعد من هذا فى الاتجاه المضاد.

فى ذلك الوقت سنة ٤٨٢ توجه بعض علماء الاسكندرية ليشفعوا لدى زينون فى بطريركهم البابا بطرس الثالث (منجوس). وحالما التقوا بالملك بسطوا أمامه ما حل بالمؤمنين والكنائس من شدائد من جراء مجمع خلقيدونية. اقتنع الملك بعودة البطريرك بطرس إلى كرسيه بشرط أن يقبل الهنوتيكون ويوقع عليه، ويدخل فى شركة مع الأساقفة الآخرين الذين يقبلونه.

رد الفعل فى الاسكندرية:

بدراسة الهنوتيكون وجد البابا بطرس أنه لا يضاد الايمان الأرثوذكسى. فهو يقبل إيمان وقرارات المجامع الثلاثة الأولى المسكونية نيقية والقسطنطينية وافسس، وحرومات كيرلس الكبير

النعمه الروحانيه. فلما صار فى اثنتى عشره سنه كمله شماسا. وكان يصول على الشمامسه بالمعرفه والنسك وما وهبه الله له من النعمه الروحانيه السماويه. فلما كمل له ست عشره سنه قدموه قسيسا لما راه البطرك من عفافه وصيانته وعلمه ونسكه وصحة امانته وجودة معرفته وطهارته وملازمته خدمة البيع ليلا ونهارا. وكان قد ظهر فى تلك الايام رجل مجدف يقال له



خريطة تبين المدن التى عقدت بها المجامع المسكونيه

يوصيه بملاحظة الترتيب والنظام وختم كلامه بقوله «وعلى الامين أن يفعل كل هذا بتواضع وطول أناة لكى يتمجد اسم المسيح حتى فى مثل هذه الاعمال القليله الأهمية» أ.هـ.

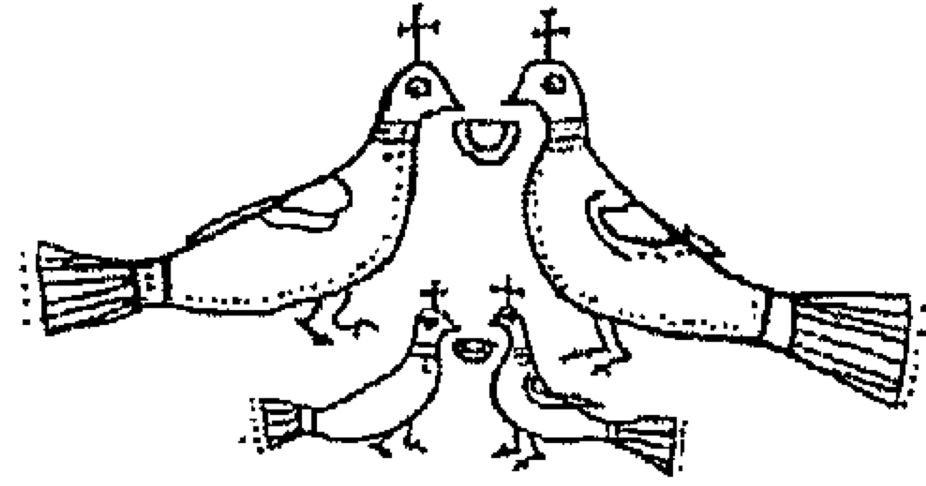
وأوصى أمين المكتبة بأن يحسن تنظيمها ويجد فى نسخ ما بها من الكتب الهامة وأن لا يفتأ يذكر أمام القيصر عظيم قدر الترجمة السبعينية للكتاب المقدس وأن يمزج كلامه مع القيصر بشواهد من سيرة المسيح.

وكان فى عهد هذا البطريرك كاهن قديس لم يرزق بنسل يدعى ثيودوسيوس وحدث أن امرأته صوفية شاهدت بالكنيسة يوم عيد الرسولين بطرس وبولس أولاد المسيحيين يقدمون الى المعمودية فانكسر قلبها ورجعت الى البيت حزينة النفس وطلبت من الله بلجاجة أن يمن عليها بنسل. وفى ليلة ذلك اليوم شاهدت رؤيا فى نومها واذا بشخصين وقفا بها وأخبراها أن طلبتها أجيبت وسترزق ولدا وأمراها أن تذهب باكرا الى البطريرك وتخبره بذلك. فلما أصبح الصباح أخبرت زوجها بالأمر وانطلقت الى البابا ثاؤنا وأعلمته بما جرى فباركها وصرفها بسلام. وما أتت السنة حتى رزقت ولدا أتت به الى البطريرك ليعمده فدعاه بطرس ولما كبر تتلمذ له وأدخله المدرسة اللاهوتية فبرع براعة غريبة جذبت اليه أنظار جميع الشعب.

ولما حضرت البطريرك الوفاة جاء اليه جميع الكهنة والشعب باكين قائلين «أتتركنا يا أبانا مثل الايتام» فقال لهم «لستم أيتاما بل هذا بطرس أبوكم وهو البطريرك بعدى» وقدمه البطريرك قبل أن يتنيح ثم رقد فى الرب فى ٢ طوبه سنة ١٧ للشهداء و ٣٠٠م.

وفى أواخر حبرية هذا البابا ثار اضطهاد ديوكلتيانوس قيصر فجعلت الكنيسة القبطية السنة الاولى لملك هذا الطاغية مبدأ لتاريخ سنيها وهو المعروف بتاريخ الشهداء.

(*) سـابليـوس: انظر هامش ص٢٦٥.


حمامات ذات صلبان. نقش فى صومعة ناسك بمدينة اسنا

سابليوس(*) فقال مقاله خارجه عن الامانه. وذلك انه اعـتـقـد اقنومـا واحـدا للاب والابن والروح القدس الثالوث المقدس وليس هو تلت اقانيم بل تلت اسمـاء. وهو كفر بالانجيل، ولم يسمع الى المكتوب فيه، ان سيدنا يسوع المسيح عندما اعتمد من يوحنا ابصر روح القدس قد حل عليه شبه حمامه، وسمع صوت الاب من السما يقول هذا ابنى الحبيب الذى به سررت. فلما سمعه جماعه

الاثنى عشر، ويشجب نسطور وأوطاخى.. ومن ثم فقد قبله ووقع عليه، ووعد بأن يقبل فى شركته الذين يرجعون تائبين ومعترفين بما فى الهنوتيكون.. وفى الكنيسة الكبرى بالاسكندرية أخذ يفسر للاكليروس والرهبان والمؤمنين مضمون الهنوتيكون، موضحاً أنه يتضمن الايمان الصحيح، شارحاً لهم لماذا قبله.

لكن بعض الاكليروس المغالين تحفظوا ضد الهنوتيكون، محتجين بخلوه من حرم صريح للزيادة التى أدخلها المجمع الخلقيدونى على الايمان. وأخذوا يناهضون البطريرك بطرس لقبوله، وعلى وجه الخصوص كيف يصبح فى شركة مع الخلقيدونيين. وكادت تحدث فتنة كبيرة لوّلا أنه حرم علناً طومس لاون ومجمع خلقيدونية. وشرح لهم لماذا قبل فى شركته من قبلوا الهنوتيكون الذى نقض ما أضيف إلى المجامع الثلاثة الأولى، حتى لو كانوا قبلا خلقيدونيين.

رد الفعل فى روما:

عقد فيلكس أسقف روما مجمعاً سنة ٤٨٤ حرم فيه أكاكيوس، على الرغم من القبض على مندوبيه وحبسهم فى القسطنطينية بأمر زينون.. أما رد الفعل فى القسطنطينية فكان حذف اسم أسقف روما من القداسات. لقد حدثت ثغرة بين القسطنطينية وروما عرفت فى الكنيسة الكاثوليكية باسم انقسام أكاكيوس. وقد دامت هذه الفرقة نحو ٣٥ عاماً.

تبعوه واضلهم بطغيانه، ثم انه جمع شعبه واتى الى البيعه عند حضور الاب البطرك انبا ساونا فى يوم عيد كبير، فوقف على الباب وانفذ اليه رسولا قال له: اخــرج ناظرنى فى هذا اليــوم فــان كنت على صواب تبعتك والا اعلم الشعب انك على الغلط. فقال الاب البطرك لبطرس القس: اخرج الى هذا الكافر اسكتـه عنا. فلمـا خـرج ونظره سـابليـوس قال: انظرو الى صلف ساونا وبذخه لم يرسل الى

خلفاء زينون:

على الرغم من وفاة أكاكيوس سنة ٤٨٩ وبطرس منجوس سنة ٤٩٠ والملك زينون سنة ٤٩١، فقد ظل الهنوتيكون مرعياً من الامبراطور الجديد انستاسيوس الأول (٤٩١ ـ ٥١٨). وكان على أساقفة القسطنطينية أن يوقعوا على الهنوتيكون عند تنصيبهم.. وظل الأمر على هذا النحو حتى توفى انستاسيوس.. وكانت تلك الفترة هى التى برز فيها القديس ساويرس الأنطاكى (٥١٢ ـ ٥١٨) المحامى الكبير عن عقيدة الطبيعة الواحدة فى عظاته اللاهوتية الشهيرة.

حدث رد الفعل عندما تبوأ الامبراطور جوستن الأول (٥١٨ ـ ٥٢٧) للعرش الامبراطورى يساعده ابن عمه جستنيان وكانا خلقيدونيين.. عزل ساويرس الأنطاكى، وأنقذ حياته بالهرب إلى مصر. أعيدت الوحدة بين كنيستى القسطنطينيه وروما بواسطة هورميسداس Hormisdas أسقف روما، الذى أرسل مندوبين إلى القصر الامبراطورى فى القسطنطينية بصيغة أخرى للايمان، فيها يلعن ويحرم أوطاخى ونسطور وديسقوروس وأكاكيوس، وكل أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة.

تبوأ جستنيان العرش (٥٢٧ ـ ٥٦٥)، وأحس كخليفة للقياصرة الرومان، أن عليه واجباً، هو أن يعيد الامبراطورية الرومانية. وفى نفس الوقت أراد أن يكون لها إيمان واحد وقانون واحد

الا اقل من عنده من الصبيان الصغار. فقال له بطرس: ان كنت انا عندك صغيرا فانا عند ابى ساونا كبير، والرب يظهر كفرك اليوم بان ينصرنى عليك كما نصر داود النبى على جالوت الجبار ويظهر الرب لعنته فيك وينتقم منك ويهلكك مع اصحابك ويبطل قولك ويفسد رأيك حتى لا يبقى لك ذكر ولا مقال. فما استتم قوله حتى تعوج وجه سابليوس وصار خلف قفاه وسقط على الارض ميتا وتهاربوا اصحابه وكلمن كان معه،

وكنيسة واحدة.. هذه باختصار كانت سياسة جستنيان.. وهكذا بدأ جستنيان العمل فى القضية الايمانية اللاهوتية. صمم على تحقيق الوحدة فى الكنيسة كخطوة أساسية لتحقيق طموحه فى السيطرة على الكنيسة.. كان خلقيدونياً وبدأ يظهر ميولا نحو الخلقيدونيين لكنه تراجع عن الدخول فى نزاع مع الأرثوذكسيين أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة.. كانت زوجته الامبراطورة ثيودورا Theodora أرثوذكسية فى الخفاء، ودافعت عن الأرثوذكسيين ومقتنعيها بكل ما أوتيت من قوة، وما استطاعت إلى ذلك سبيلا، لكن بحكمة حتى لا تثير ثائرة الامبراطور. كانت ثيودورا امرأة متدينة، ذات شخصية قوية، ظهر نفوذها فى تشكيل سياسة الدولة الدينية. وبفضل جهودها سمح جستنيان للأساقفة الأرثوذكسيين المنفيين بالعودة إلى ديارهم وكراسيهم. كما دعا كثيرين من الأرثوذكسيين إلى القسطنطينية إلى مؤتمر دينى للتصالح، وطلب إليهم أن يناقشوا كل الأسئلة التى يكتنفها الشك مع خصومهم.. وهكذا تمكن ساويرس الأنطاكى أن يأتى فى أمان إلى القسطنطينية سنة ٥٣٢ على رأس مجموعة قوية من مصر لهذا الغرض، ومكث هناك سنة كاملة. لكن إجراء أو قراراً حاسماً لم يتخذ، فقد كانت المشكلة بما يكتنفها من تيارات خفية وأهواء شخصية أعقد من أن تحل.

وكخطوة نحو الأرثوذكسيين أصدر جستنيان فى سنة ٥٤٤ مرسوماً أدان فيه ثلاثة من عمد النسطورية عرفوا باسم الثلاثة فصول Tria Kephaiaia وهم تيودور من مبسيستيا Theodore

وهلك وباد ذكره وانقطعت مقالته ولم يبق له ذكر. هذا منتهى ما كان من امر سابليوس. واظهر الرب ايه اخرى على يدى بطرس القديس، وذلك انه كان عيد الكهنه والشعب يمجدون الله ويعيدون فوقف انسان منهم به شيطان مارد على الباب، فجعل يرجم المومنين بالحجاره ويزبد ويزئر مثل الجمل فيهرب الشعب منه الى داخل البيعه. واعلمو البطرك بحال المجنون فقال للقديس

---

of Mopsuestia وثيودوريت من سيروس Thedoret of Cyrus واياس من اديسا Ibas of Edessa وقد رحبت كنائس الشرق بادانتهم، بينما تذبذبت كنائس الغربيين قبول هذا المرسوم أو رفضه.. ولم تهدأ المسألة التى أثارها مرسوم جستنيان المعروف باسم الثلاثة فصول إلا بموت جستنيان، وارتقاء الامبراطور جوستن الثانى (٥٦٥ ـ ٥٧٨)، الذى أصدر هنوتيكون آخر سنة ٥٧١.

أحوال مصر:

تميزت أحوال مصر السياسية خلال تلك الفترة بسوء التنظيم الادارى. ولعل الخلافات الدينية كانت سبباً جوهرياً ساعد على ذلك.. كان فى مصر الملكانيون تسندهم قوات الدولة. بينما الأرثوذكسيين كان عليهم أن يعتمدوا على قدراتهم فى كل المجالات.. كما تميزت تلك الفترة بنمو الاحساس بالقومية المصرية، الأمر الذى كان يقوده ويغذيه الأرثوذكسيين.. كانت هذه هى حالة البلاد بينما كان البرابرة من البدو وغيرهم يحومون كالجوارح على حدود مصر.. وإزاء هذه الحالة قسم جستنيان مصر إلى قسمين إداريين: الاسكندرية والوجه البحرى وجعل له حاكما، وصعيد مصر وجعل له حاكما آخر، كانت خطة جستنيان التخفيف عن كاهل الحاكم الواحد لكل البلاد، لكن عملية التقسيم بذرت بذور التنافس وسوء التنظيم بين الحاكمين لاقليم واحد.

بطرس: اخرج له فاطرد عنه هذا الشيطان. فاخذ صحنا وجعل فيه ما [ء] وقدمه الى الاب البطرك وسأل ان يصلب عليه ففعل ذلك، وخرج بطرس ومعه وعاء الما الى حيث الرجل المجنون وقال: باسم سيدى يسوع المسيح الذى اخرج لا جاون(*) وابرا من ساير الامراض والاسقام اخرج منه ايها الشيطان بصلوات ابى ساونا البطرك ولا تعد اليه. فللوقت خرج منه الشيطان وبر [ء] الرجل وصار سالما عاقلا وديعا.

(*) لاجون: الشيطان.

كما استحدث جستنيان أمراً خطيراً كان له أسوأ الأثر على نفسية الأقباط ومستقبل مصر السياسى. فحينما نصب أبو ليناريس Appollinaria لكرسى الاسكندرية سنة ٥٤١م قلده بالاضافة إلى وظيفته الدينية سلطات عسكرية لتنفيذ سياسته الدينية. وما لبث أن أعطى هذا البطريرك الملكانى حق جمع ضرائب مباشرة لصيانة الكنائس وللرعاية. كانت هذه سابقة خطيرة لمن أتى بعده من الأباطرة.. لقد أعطوا لأنصارهم الوسائل التى يمكنهم بها أن ينكلوا بخصومهم الدينيين ويجددوا الاضطهاد الدينى مرة أخرى وفى صورة أخرى بين المسيحيين والمسيحيين... كانت بداية المأساة على يد الأسقف الدخيل ابوليناريس الذى حاول كبح جماح العناصر الأرثوذكسية الهائجة. فكانت النتيجة مذبحة مروعة.

ومما يذكر لجستنيان اهتمامه بالقضاء على الديانات المصرية التى كانت ما تزال حية فى أطراف الامبراطورية. فشجع الارساليات إلى بلاد النوبة. لكن زوجته ثيودورة سارعت وأحبطت خططه بارسال بعثات أرثوذكسية إلى تلك البلاد مقابل الارساليات الملكانية.. كما أغلق جستنيان معابد ايزيس فى جزيرة فيلة ومعابد آمون فى واحة سيوة، وحل محلها كنائس مسيحية. كما بنى الدير الذى يحمل الآن اسم سانت كاترين فى جبل سيناء، وكان يعرف سابقاً باسم دير الاستحالة (استحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه).

ولو وصفنا العجايب التى ظهرت من هذا القديس بطرس لطال شرحها وضاقت الكتب عنها.

فلما حضر ساونا الوفاه لينتقل الى ابايه حضر جميع الكهنه والشعب باكين قايلين: يا ابانا تخلينا مثل اليتامى. فقال لهم: ليس انتم ايتام بل هذا بطرس ابوكم وهو البطرك بعدى. وقدمه انبا ساونا قبل يتنيح لذلك.

المونوثيليتية Monotheletism

(القول بمشيئة واحدة فى المسيح):

السنوات المتبقية للحكم البيزنطى فى مصر تؤلف واحدة من أكثر فترات التاريخ المصرى امتلاء بالأسى.. فمن مشاكل اغتصاب السلطة الامبراطورية فى القسطنطينية، وما ترتب على ذلك من مطامع فى إدارة إقليم مصر، إلى ما أحدثته المنافسة بين حاكمى شطرى مصر من اضطراب وتشويش فى شؤون الحكومة.. وهكذا تعرضت مصر إلى عناصر الشر من الداخل، وأطماع الغزاة من الخارج.. وهكذا ظهرت عصابات منظمة لنهب بعض المدن كما حدث فى بوصير وكانت على مقربة من مركز السلطة فى الاسكندرية، بينما كان أحد الحكام منشغلا بانزال أخر والاستيلاء على السلطة فى المدينة العظمى! كان عرش الامبراطور فوكاس Phocas (٦٠٢ ـ ٦١٠) يترنح فى ذلك الوقت، ووقع فى قبضة مغتصب آخر للعرش الامبراطورى هو هرقل، وكان قائداً بيزنطياً لجيوش الدول فى أفريقيا. عبر البحر المتوسط وتمكن من إسقاط خصمه، واستولى على العرش ٦١٠م.

وبينما كان ذلك يحدث، إذا بالجيش الفارسى بقيادة Chasroes parirz يجتاح أقاليم الدولة الآسيوية فى سوريا وفلسطين. وفى لحظة تبوأ هرقل للعرش (٦١٠ ـ ٦٤١)، كان

بطرس ا لبطرك الشهيد

[٣٠٠ / ٣١١م]

وهو السابع عشر من العدد

ولما تنيح أنبا ثاونا البطرك اجتمعو كهنة اسكندريه والشعب ووضعو ايديهم على بطرس القس ولده وتلميذه فاجلسوه على كرسى اسكندريه كما امرهم ثاونا الاب القديس وذلك فى السنه السادسه عشره لديقلاديانوس الملك.

الجيش الفارسى على مقربة من مدينة أنطاكية. فى سنة ٦١٣ دخل دمشق، وفى سنة ٦١٤ سقطت أورشليم فى يده، وحمل الصليب المقدس وآلات تعذيب المسيح. وفى سنة ٦١٩ بينما كانت إحدى فرق الجيش تتجه إلى البسفور كانت فرقة أخرى تغزو مصر التى ظلت فى قبضة الفرس قرابة عشر سنوات.

كانت حالة الامبراطورية الرومانية تدعو للرثاء، وبدا كل شيء وكأنه قد ضاع. وبينما كان هرقل يفكر فى الهرب إلى قرطاجنة بشمالى أفريقيا، وضع البطريرك البيزنطى سرجيوس أموال الكنيسة وكنوزها تحت تصرف الامبراطور للقيام بأول حملة لاسترجاع الصليب المقدس. كانت الخطة التى وضعها هرقل أن يضغط على الفرس فى أماكن قريبة نسبياً من القسطنطينية حتى يضطرهم للانسحاب من مصر. وبالفعل تم ذلك سنة ٦٢٧، وتمكن هرقل من استعادة الصليب المقدس ووضع فى القبر المقدس بأورشليم.

عادت مصر ثانية إلى الحكم البيزنطى، لكن هرقل لم يستفد شيئاً من الدرس القاسى ولم يكتف بأنه أحيا سياسة جستنيان فى مصر، بل بالغ فيها بزيادة. فقد عين بطريركاً ملكانياً، صار هو حاكم مصر كلها فى نفس الوقت، مع منحه سلطات دينية وحربية ومالية وتنظيمية وقضائية واسعة.. وفى محاولة جديدة لكسب فريق الأرثوذكسيين من أصحاب مذاهب الطبيعة

فلمـــا راى [رأى] ان اريوس الردى قـــد بلبل كل الاماكن بكفره قطعه ونفاه من البيعه.

ولما كـان فى السنه التـاسـعـه عـشـره من ملك ديقلاديانوس وصلت كـتبـه الى اسكندريه ومـصـر [بعـبـادة الاصنام] وانزل البـلايا على النصـارى واخـرب كنايس الله وقـتل خلقـا كـثيـرا بالسـيف وهرب المومنون بالمسيح للبرارى والكهوف والمغاير، فحينذ اقام ديقلاديانوس حراسا وحفظه فى كل

الواحـدة، دون أن يخسـر الخلقيـدونيين الغـربيين، لجـأ إلى صيـاغـة إيمانيـة جـديدة تحل مـحل الهنوتيكون الذى لم يحقق النجاح الكامل.. اتحد هرقل مع سرجيـوس بطريرك القـسطنينية (٦١٠ ــ ٦٣٨)، وأعلن فى سنة ٦٢٢ العـقيـدة الجديدة التى عـرفت باسم «المونوثيليتيـة» Monotheletism وهى القـول بمشيـئة واحـدة فى المسيح، على أمل أن تحل مـحل الاعـتقـاد بطبيعة واحدة فى المسيح فى الأقاليم الهائجة فى سوريا ومصر.

ودون التعرض للموضوع الحساس الملتهـب بطبيعـة المسيـح، وهـل هـو طبيعـة واحـدة أم طبيعتين، ركزت المونوثيليتية على وحدة مشيئتى المسيح الناسوتيـة واللاهوتيـة وأنهـمـا كـانتـا متطابقتين، متـوافقـتين، غيـر متغيـرتين.. كان هرقل يأمل أن يقبـل الأرثوذكـسيين الصيغـة الجديدة، وهى فى نفس الوقت لا تتعارض مع أنصار خلقيـدونية الغربيين، وقـولهم بالطبيعتين.

فى البـدء بدت هذه الفكرة وكـأنها مقبـولة لدى بعض رؤساء الكنائس من الجـانبين.. وممن قبلوها أثناسيوس بطريرك أنطاكية (٦٢١ ــ ٦٢٩)، وهو نوريوس الأول أسقف روما (٦٢٥ ــ ٦٣٨).. على أن قبول هذه الصيغة لم يدم إلا بين موازنة لبنان بينما قوبل هونوريوس بمقاومة عنيفة من أساقفة الغرب.

مكان من كورة مصر والصعيد الاعلى الى بلنطن [بلطين بلطم] وامرهم بقتل كلمن يجدون من النصارى، ثم ان اوليك الحراس اخدو المغبوط بطرس بطرك اسكندريه ورموه فى السجن، واعلمو الملك بانهم قد قبضوه وقيدوه، فامر الملك الكافر بان ياخدو رأسه، فلما اتاهم الكتاب بذلك اسرعو ليتمو امر الملك، وفيما هم يريدون اخرجه من الاعتقال ليأخذوه ويقتلوه اجتمع الشعب الى باب

فى سنة ٦٣٨ طبع هرقل مرسومه الذى عرف باسم «اكتيسيس» Ecthesis وعزم على إرغام الجميع على قبول المونوثيليتية... لكن المقاومة الكبرى لتلك العقيدة الجديدة كانت فى الاسكندرية، حيث رفض الأقباط أى حل بيزنطى ابتداء من خلقيدونية إلى الهنوتيكون والمونوثيليتية.. كان الخوف من الابتعاد عن عقيدة اثنا سيوس وكيرلس عمود الدين، فضلا عن شعور الأقباط بقوميتهم، جعلهم أكثر الرافضين للحيدة عن التقاليد القديمة، ليقابلوا السلطة الامبراطورية فى منتصف الطريق فى المسائل الخاصة بالايمان.

لكن مصر كانت ذات أهمية خاصة للامبراطورية، إذ كانت تعتبر مخزن غلالها. لذا فقد رفض هرقل الاستسلام للنزعة الانفعالية الدينية والمدنية. كان مصمما على فرض معتقدة بأى وسيلة. كانت الخطوة الأولى فى تنفيذ هذا المخطط، هى تعيين سيروس Cyrus أسقف فاسيس Phasis فى القوقاز قرب البحر الأسود ـ والذى كان ذا ميول نسطورية ويتمتع بذكاء وولاء ريائى للامبراطور ـ تعيينه بطريركا ملكانياً على الاسكندرية والحاكم الامبراطورى لاقليم مصر، تحت شريطة أن يقهر الأقباط لكى يقبلوا الايمان الخلقيدونى والمونوثيليتية بأى وسيلة.. وسيروس هذا هو المعروف فى المراجع العربية باسم المقوقس وكان وصوله إلى الاسكندرية فى سنة ٦٣١. وبدأ فى تنفيذ خططه بلا أدنى شفقة. وفى خلال عشر سنوات غدا من أكثر

السجن وجلسو عليه يحرسون راعيهم وقالو: اذا قتلنا كلنا حينذ توخد رأسه. وكانو اوليك الجند مفكرين كيف يخرجونه حتى لا يموت خلق كثير بسببه. لاجتماع كل الشعوب بسببه الشيوخ والشباب والرهبان والنسا والعدارى وهم باكون بدموع عزيزه وتشاورو الجند فى ان يدخلو ويخرجوه ومن قاومهم من الشعب يقتلوه كما ورد به كتاب الملك.

الطغاة المكروهين فى تاريخ مصر... لقد استخدم الصليب وصولجان الحكم لسحق المقاومة الوطنية.

كان ذلك سبباً فى انخفاض شعبية هرقل إلى الحضيض، بعد شهرته التى نالها نتيجة استرداد الصليب المقدس من الفرس... لقد أزال سيروس بتصرفاته كل ولاء للقسطنطينية فقد أخذ يتعقب ويطارد أساقفة الأقباط والقوميين من الأقباط. كان عليهم إما أن يقبلوا معتقده أو يفقدوا حياتهم. ويذكر كتابنا تاريخ البطاركة للأنبا ساويرس «ولعظم البلاء والضيق والعذاب الذى أنزله (المقوقس) بالأرثوذكسيين لكى يدخلوا فى الامانة الخلقيدونية، ضل جماعة منهم لا يحصى عددها. قوم منهم بالعذاب، وقوم بالهدايا والتشريف، وقوم بالسؤال والخداع. حتى أن كيروس أسقف نيقيوس وبقطر أسقف الفيوم، وكثيرين منهم خالفوا الامانة الأرثوذكسية، لأنهم لم يسمعوا وصية الأب المغبوط بنيامين، ولم يختفوا كغيرهم، فصادهم بصنارة ضلالته فضلوا بالمجمع الخلقيدونى الطمث»(*).

ومن فرط الضيق هرب البطريرك القبطى الأرثوذكسى البابا بنيامين الأول ٣٨ (٦٣٣ ـ ٦٦٢) إلى دير صغير بالصعيد، واختفى خلال السنوات الأخيرة للحكم البيزنطى فى مصر

(*) أنظر : ساويرس ص ٥٧٢.

وكان السبب فيما امر به الملك من طلب هذا الاب البطريرك وقتله انه كان بانطاكيه انسان اسمه سقراطيس وكان من جملة امرا الجند المستخدمين فى القصر [الملكى]، وهو رفيق لبدير[ابادير] الذى استشهد واخته ايرانى، وكان هذا سقرطيس اوله نصرانيا متعمدا فجحد دينه وصار مبغضا للنصارى، وكان له امراه [امرأة] صالحه خيره نصرانيه فرزق منها ولدين فلما كبرا وصلحا ان يعمدا قالت الامراة لزوجها: انا اسيلك يا اخى ان

وحتى الغزو العربى... ومن الذين نالهم الشدائد واستشهدوا فى تلك الفترة مينا شقيق البابا بنيامين. يقول تاريخ البطاركة «قبض على الطوباوى مينيا شقيق الأب بنيامين البطريرك، وعذبه عذابا شديداً، وأمر بوضع مشاعل تحت جنبيه حتى خرج شحم كليته من جنبه وسال على الأرض. وقلع أضراسه وأسنانه باللكم لاعترافه بالامانة. وأمر أن يملأ جوالق رملا ويجعل القديس مينا فيه ويغرق فى البحر».

وقد خلفت زيارات المقوقس لمدن وقرى الدلتا والصعيد فزعاً عظيماً.. فالضرب بالسياط والسجن والقتل كانت مقرونة بمصادرة الممتلكات وأوانى الكنائس. وحتى الأديرة لم تنج منه قصدها ليصطاد مخالفيه فى الرأى والمعتقد. ورهبان الأديرة إما أنهم قاوموه مقاومة خاسرة، وإما أنهم هربوا من أمامه. حتى المتوحدون والنساك قبض عليهم وعذبوا حتى الموت. ولدينا قصة الأنبا صموئيل المعترف فى دير القلمون بصحراء الفيوم كمثال لمقاومة الأقباط البطولية أمام إرهاب البيزنطيين.. لقد جروا الأنبا صموئيل من منسكه بالسلاسل، وحول عنقه طوق من حديد كأشر المجرمين. أقتيد إلى مدينة الفيوم حيث أهين وجلد وضرب على أسنانه، وأخضع لكل أنواع العذابات الشيطانية وأمر الجنود بقتله. ولم ينقذه من أيديهم سوى سدول الليل، الأمر الذى مكن تلاميذه من سرقته وهو بين الحياة والموت..

تسير معى لاسكندريه نعمد ولدينا ليلا [لئلا] يموتا بلا تعميد فيغضب علينا السيد المسيح لغفلتنا عن ولدينا. فقال لها الكافر: اسكتى فانك لا تعرفين الصعوبه التى علينا اليوم ليلا يسمع الملك فيغضب علينا جدا. وكان غرضه تخويفها بهذا حتى تدع ولديها بلا معموديه، فلما علمت انه لا يطيعها ولا يسير معها اخدت ولديها وغلامين مامونين كانا لها وخرجت الى البحر وصلت قالت: ياربى يا ضابط الكل ابا سيدنا ومخلصنا يسوع

فى تلك الفترة حل بالاقباط من الاذلال ما لا عهد لهم به من قبل فى كل العصور. وتحملت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية عذابات المجدفين على يد المستعمر الملكانى... والعجيب أنها استطاعت تحمل كل هذه الضيقات دون أن تلين لها قناة، واستمرت حية شاهدة للايمان الحق والشجاعة البطولية. حقيقة أن بعض أبنائها ضعفوا واستسلموا للمستعمر لسبب أو لآخر، لكن تلك كانت حالات فردية وليست جماعية. أما نتيجة كل ذلك فهى أن الأقباط يحملوا لمضطهديهم من البيزنطيين، ولكل ما هو بيزنطى كراهية عميقة. وقد عبر الأقباط عن كل ذلك، ليس فقط فى العقيدة الأرثوذكسية، بل فى اللغة القبطية والأدب القبطى أيضاً، وفوق كل ذلك فى الفن القبطى... لقد اتسعت الهوة بين الكنيستين القبطية والبيزنطية، ولم يعد ممكناً تخطيها. لقد ذهبت الخلافات إلى ما وراء حدود المعقول. وكأن الموقف كان يعد لتمييز كبير.

مهما يكن هذا التغيير لقد وقع الغزو العربى لمصر... وكان ذلك إيذانا ببدء صفحة جديدة من تاريخ كنيسة الاسكندرية العريقة، ذلك السجل الحافل بالام الأقباط وثباتهم وبطولتهم وشجاعتهم وحبهم لالههم.

المسيح ان كنت تسهل طريقى فوفق لى مركبا اسير فيه. فبينما هى تصلى ابصرت مركبا يريد يقلع فنادت بواحد من البحاره وقالت له: الى اين تسيرون. قال لها: الى اسكندريه. قالت له: احملونى معكم وانا ادفع لكم اوفى اجره. فاجابها الى ذلك وطلعت ومعها ولداها وغلاماها. فمن بعد يومين هاجت عليهم ريح عظيمه حتى قلق كلمن فى المركب فقالت تلك الامراه [المرأة] المومنه: ان الله لا يسمع لمثلى من الخطاه لكن الذى

المسألة الدوناتية

لم يكن قسطنطين يدرى حالة سمح لنفسه أن يرى فى الأفق ضياء وصليبا، أن وراء الأفق هذا يكمن الخطر، وما دار بخلده لحظة اتفق مع حليفه ليكين فى ميلانو، أن يضعا عن المسيحية اصرها والأغلال التى كانت عليها، أن رجالات كنيستها سيحملون الى جفنيه الأرق ويسلبون عينه الكرى، ولا أمل حين فك عقال عبادها أن أولئك الأشياع ستعصف بوحدتهم حرية الفكر والجدال، وذلك شيء يخفق له قلب الامبراطور رعبا وهلعا، فوحدة الرعية أساس وحدة الدولة.

كانت دنيا الامبراطور التى يحياها آنئذ غرب الامبراطورية، والامبراطورية كلها عالمه الذى يأمل. أما وهو الآن سيد الغرب فحسب بعد أن دحر منافسه ماكسنتيوس، فلا أقل من أن تكون الوحدة شاملة هذا الغرب.

فى سبيل ذلك حرر المسيحيين، فضمن أن يقف إلى جواره فى مشروعات له آتية لاريب فيها، قاطنى جزء الامبراطورية الغربى، أنه يتطلع إلى الشرق، وفؤاده يهفو اليه، ولابد أن يتراص الغرب كله وراءه يدفعه ويسانده، لا محل لخلاف أو نزاع، ولا مجال لفرقة أو انقسام.

١٧: بطرس ٣٠٠/٣١١م

خطر بقلبى انا افعله. ثم قامت فبسطت يديها وحولت وجهها الى الشرق وصلت قايله: يا الله الذى يعلم كل شى قبل ان يكون ، انت تعلم ما فى قلبى وأننى لا احب روحا ولا مالا مثلك حتى اولادى ولا نفسى ايضا، وهو ذا نموت فى اللجج من اجل اسمك المقدس يا مخلص يارب يا الاهى ومخلص نفسى وجسدى انظر لولدى اللذين صارا يتيمين من اجل اسمك المقدس ولا تدعهما يموتان بغيررشم المعموديه. ولما تمت هذا القول اخذت

ولكن قسطنطين انتقل الى الشرق وترك وراءه غربا قد كلم، يئن لجراح انقسام ألت به، ولم يستطع الامبراطور ازاءها أن يفعل شيئا. حقيقة حاول الكثير، ولكن جهوده لم يقدر لها نجاح، ولم يكتب لها فى عهده اخفاق، بل كانت أشبه شيء بسياسة تهدئة. وصلت فى نهاية أمرها الى حد العنف ثم هوت الى لا شيء!

كان ذلك نتيجة طبيعية للسياسة الجديدة التى اتبعتها الدولة فى مسألة العقيدة، فلم يكن الأباطرة قبلا يهتمون بما يجرى بين جماعة المسيحيين وأنفسهم، بل كانت نظرتهم لهم كلية، تختلف من امبراطور لآخر عداوة أو مسامحة، أما نزاعات المسيحيين العقائدية ومحاوراتهم الجدلية فلم يكن لها عند الدولة قليل اهتمام، أما وقد اعترفت الدولة بحق المسيحيين فى حياة عقائدية حرة، فانه أصبح لزاما عليها أن تنظر بعين الاعتبار الى كل ما يجرى بين هذه الجماعة من جدل أو تخاصم قد يضر بالدولة مباشرة أو مواربة.

علمنا أن قسطنطين بعد ظفره عند القنطرة الملفية قد ضم اليه أقاليم خصمه ماكسنتيوس وبها ولاية أفريقيا، ثم شخص الى ميلانو ليزف الى ليكين أخته، وليحالفه الى حين، وعلمنا أيضا ما انتهى اليه تحالفهما من اطلاق حرية العقيدة لرعايا العاهلين الكبيرين، وبدا لقسطنطين أنه قد وضع فى جيبه ورقة ربح جديدة، ولكن سرعان ما جاءته الأنباء فى بادىء الأمر تمشى على استحياء تقول ان فى كنيسة أفريقيا انقساما، وتدعوه الى تدارك الخطر، وما تلك الا

سكينا وقالت يارب يا ضابط الكل انت تعرف قلبي. وشرطت بالسكين ثديها اليمين فاخدت منه ثلث نقط دم فصلبت به على جبين ولديها الاثنين وفوادهما [فؤادهما] باسم الاب والابن والروح القدس وغطستهما في البحر وقالت: قد عمدتكما ياولدى باسم الاب والابن والروح القدس. ثم جعلتهما في حضنها وقالت: ان كان لنا موت فاموت الآن انا وولداى. فلما نظر الرب أمانتها الثابته هكذا هدا ذلك الريح الشديد وصار

رسالة[1] بعث بها أنوللينوس حاكم الشمال الأفريقى متضمنة شكايات فريق الدوناتين الذى كان على خلاف مع الكنيسة الكاثوليكية فى قرطاجة والتى يرأسها كايكيليانوس أنئذ.

وربما كان قسطنطين على علم يسير مسبق بحدوث هذا الانقسام، كما يتضح من رسائله الى نائبه فى أفريقا والى أسقف قرطاجة، ولكنه لم يكن يتصورها بهذه الخطورة التى ستعلن بها بعد ذلك بقليل عن نفسها.

وتعود بنا الأحداث الى ذلك الوقت الذى اشتدت فيه وطأة الاضطهاد الدقلديانى عندما صدرت الأوامر الامبراطورية باحراق الكتب المقدسة، فاختلف موقف رجال الكنيسة من هذه التعليمات وتباين سلوكهم بين ستر وعلن، وهوادة وعنف. فبعضهم أثر حياة الحرمان والضياع فأسرى بما تحت يديه من أسرار الديانة المسيحية، وأخر استمع فى دهاء للنغمة الامبراطورية فألقى فى النار كتبا أخرى تنعتها الكنيسة بالهرطقة، وثالث راقه آثر الحفاظ على العز والجاه فأسلم ما لديه للحريق من كتب مقدسة، وأودع ما تبقى فى قلبه من ايمان معها قسرا أو طواعية، عندما سعى الى الأوثان يضحى على مذبحها، وآخير رفض الاذعان وناوأ جبروت السلطان فلقى الشهادة، وامتدت بالانقاذ للقلة منهم يد السماء!

(1) Jones, Constantine, pp. 103-104.

هدوكـشيـر. ووصلو بعـد ثلثـة ايام إلى مـدينة اسكندريه. فلمـا دخلو الى المدينه بمعـونة الله الرحـوم، وكـان ذلك اليـوم يوم من جـمـعـة المعمودية، وهى سادس جمعه من الصوم الذى تعمد فيها الاطفال، فتقدمت تلك الامراه إلى احد الشمامسه وقالت له: يا ابى اريد اجتمع بالبطرك. فقال لها وما حاجتك الى البطرك؟. فقالت له: يا أبى انا غريبه واريد اعمد ولدى هاذين. فقال لها الشماس مالك حاجه غير هذا؟ قالت لا. قال لها:

وكان منسوريوس Mensurius أسقف قرطاجة معتدلا، فلقد فضل أن يتوارى ومعه الكتب المقدسة، تاركا فى كنيسته بعض كتب تخالفها الكنيسة الرأى لتستولى عليها السلطات الحاكمة ارضاء لرغبات الامبراطور، وعلى ناحية يقف سكوندوس Secundus أسـقف تيجيسيس Tigisis مطرانية نوميديا، يعارضه الرأى ويستهجن هذا السلوك، وبينما لام الأول من دفعوا أنفسهم الى ساحة الشهادة باعلانهم أن فى حوزتهم كتبا مقدسة رافضين تسليمها، مدح سكوندوس هذه الفئة ممجدا استشهادها(١). وكان موقفه حازما تجاه موظفى البلاط الذين أتوه يطلبون اليه تسليم ما لديه مما يبتغون، فصاح فيهم بأنه مسيحى وليس مارقا على الدين(٢).

وانقضت سنو الاضطهاد بقسوتها وعنفوانها، وساد الكنيسة سلام، ولكن خلافات العقيدة والكنيسة أبت الا أن تعكر صفو هذا الهدوء الذى تمنته الكنيسة طيلة قرون ثلاثة، فازدادت حدة الخلاف بين حزبى منسوريوس وسكوندوس، وأخذ كل منهما يحدد موقفه ازاء من زلت فى الخطيئة أقدامهم ابان فترة الاضطهاد، فقربوا للاوثان، أو دفعوا بالكتب المقدسة حتى يدرءوا

....

(1) S.M. Jackson, The new Schaff-Herzog eneyclopedia of religious knowledge, III' F. Jackson, op. eit. pp. 290-201; Lietzmann' from Constantine to Julian, p. 84.

(2) Jones, Censtanine, p. 105.

اجلسى فى البيعه هو ذا البطرك يحضر ويعمد الاطفال ويعمد اولادك معهم. ففعلت فلما جا الوقت وكمل الاب البطرك القداس قدموا له الاطفال المعدين للمعمودية فعمدهم، ثم قدموا له الولدين الذين للامراه الانطاكيه، فلما اخذ البطرك الطفلين ليعمدهما جمد الما [ء] وصار كالحجر، فلما راى بطرس البطرك القديس هذا تعجب وامر بأفرادهما. ولم يعلم احدا بجمود الما ثم امر ان يقدم له غيرهما، فلما قدم له غيرهما

عن أنفسهم الموت أو العذاب. وقد احتدم الخلاف حول جواز تعميد الخطاة وقبولهم فى رعية الكنيسة.

ويقر القديس أو غسطين مع ذلك الدوناتيين على ضرورة العماد لديهم كما هو حادث فى الكنيسة الكاثوليكية، ولكن ينكر عليهم مراسيمه. وأن طالب المعمودية عليه أن يعى حقيقة الخلاف بين وجهتى النظر حتى يتم تعميده على نحو سليم يتوافق وطقوس الكنيسة الجامعة ويستقيم جوازه[1]. ونرى أوغسطين يستطرد مؤكدا «.. فالعماد قائم فى الكنيسة الكاثوليكية.. هذا ما نجهر به وهم له منكرون، وطقوس العماد فى الكنيسة الكاثوليكية على نهج قويم.. ذلك شيء آمنا به وهم به كافرون، أما عندهم فلا تحظى مراسيمه بالصواب فى شيء، تلك حقيقة نعيها وهم عنها معرضون»[2].

واذا ما أخفق انسان فى التوفيق بين أصرارنا على أن العماد لا يتم على حق اليقين عند جماعة دوناتوس، وبين اعترفنا بأنه قائم بينهم فعلية أن ينتبه الى أننا ننكر تماما وجوده بينهم على نهج قويم، وذلك فى مقابل عدم اعترافهم بكيانه بين الذين لا يشتركون فيه وأياهم»[3].

(1) AVG, bapt. I, 4.

(2) Ibid. 1,3,4.

(3) Tbid. 4.

من بعض الاطفال انحل الماء وصار كما كان اولا، وعمد الذين قدموا له ثم امر ان يقدم ولدا الامراه تانى دفعه، فلما قدموا له جمد الما ايضا وصار كالحجر فابعدهما، وقدموا اليه من اطفال المدينه ايضا فانحل الما وعمدهم، ثم استدعى ولدى الامراه تالت دفعه فجمد الما ايضا وصار مثل الحجر، فامرالبطرك ارشي دياقن البيعه ان يحضر امهما فاحضرها بين يديه فقال لها: عرفينى ايتها الامراة حالك وما دينك؟ فقالت له: انا من انطاكيه

وكانت المسألة فى جوهرها تمس شخص من يقوم بالشعيرة، وتصل الى أغوار خلقه، وتوغل فى صلاحه، ونادى الدوناتيون بأن من يفتقد الطهارة والقداسة لا يمنحها، ونظروا الى الاضطهاد كما لو كان قد طبعهم بميسم الكنيسة الحقة الواحدة، يقفون والضد من الكنيسة الكاثوليكية، أما هذه فتفرق بين فريقين من الخارجين عليها، الهراطقة، والمنشقين، وتعتبر الدوناتين فصلا فى الأخيرين، وان كانت تنعى عليهم تعليمهم لبعض التعاليم الهرطقية[١]. واحتج الدوناتيون على وضعهم فى عداد الهراطقة، ذلك أنه يمكن القول ان كل الهراطقة منشقون على الكنيسة. فى الوقت الذى لا يجوز فيه اعتبار كل الانشقاقات الكنسية هرطقة[٢]. اذ أن الانشقاق يقع لخلاف فى النظام الكنسى أو التعاليم.. على عكس الهرطقة التى تمس جوهر العقيدة.

ومما هو جدير بالذكر، انه بينما غرق الشرق الرومانى فى لجة عميقة من الصراع الدينى حول طبيعة المسيح، واكتسى بحلة الجدال قرونا طويلة، أفلت الغرب من دائرة هذا النزاع الفكرى العميق العقيم، وحصر نفسه وخلافاته فى دائرة البحث عن وضع أسس التنظيمات الكنسية. ولا شك أن هذا يعود فى الدرجة الأولى الى التكوين الحضارى والفكرى لكل من

(1) S.M. Jackson, op. cit. Art. Donatism.

(2) A dictionary of Christian biography, art. Donatism.

اباى [آبائى] نصارى. قال لها البطرك: فما الذى
صنعتيه لأن هو ذا الرب لم يقبل اولادك للعموديه.
قالت له: اسمعنى يا سيدى الاب وطول روحك
على فان ابوتك تعرف العذاب الذى هو على
نصارى المسكونه فى هذه الايام واكثره بانطاكيه،
ولما كبرا ولداى هدان ولم اجد سبيلا لتعميدهما
هناك قلت لابيهما ان يسير معى الى هاهنا
ليعمدهما فلم يفعل، فاخدت ولدى هادين
وخرجت بهما الى البحر وركبنا فى مركب، فلما

المنطقتين، فقد ازدهرت مدن الشرق وخاصة الاسكندرية وأنطاكية وبرجامه الى جانب أثينا، بالمدارس الفلسفية العديدة، والثقافات الاغريقية. بالاضافة الى الأصول الحضارية القديمة للشرق.

على هذه النظرة كانت المشكلة بين الدوناتيين وخصومهم تنحصر فى صلاحية أو شرعية الأعمال الكهنوتية التى يقوم بها غير المقدسين أو الثقاة من رجال الاكليروس ذاتهم، وبينما أصر الدوناتيون على أن صلاحية الطقوس الكنسية تعتمد على أخلاق وشخصية رجل الاكليروس القائم(١)، لم تطلب الكنيسة الكاثوليكية القداسة فيمن يباشرون المعمودية، فكل رجل دين سواء(٢).

ويوقفنا المؤرخ نورمان كانتور على أسباب هذا النزاع ويعلق عليه فيقول انه لما كان زمن الاضطهاد الدقلديانى سلك حاكم ولاية أفريقيا جادة اللين، فطلب اليهم أن يقدموا، رمزا لنكران العقيدة، الكتب المقدسة، فارتضى ذوو اليسار المسيحيون هذا الرأى، فلما انقشعت غمة هذا الاضطهاد، الفى ذلك الفريق نفسه وقد وصم بالعار مارقا على الدين من جانب زمرة من المتحمسين غالبهم يندرج فى عداد الطبقات المعدمة، راحت تحاج بأنهم القديسين الأطهار،

....

(1) Latourette, expansion of Christianity, I,p. 348.

(2) McGiffert, op. cit. p. 380 n. 16.

توسطنا اللجج قام علينا نو حتى كاد المركب ان يغرق، فاخدت سكينا وجرحت ثديي اليمين واخدت منه ثلث نقط دم وصلبت على وجهها وفوادهما [فؤادهما] وغطستهما فى البحر باسم الاب والابن والروح القدس تلت دفعات، هدا هوالسبب فى منع الرب لهما من المعموديه، فهدا وحق ابوتك المقدسه الذى فعلته. فقال لها البطرك: يشتدقلبك يا ابنتى، لا تخافى فان الرب معك، وفى الوقت الذى جرحت فيه ثديك واخرجت

ولم يصب ايمانهم دنس، هم وحدهم عمد الكنيسة، وأشاع الدوناتيون المطهرون أن المارقين قد فقدوا أهايتهم ومسيحيتهم لذلك، وراحوا ينادون بحتمية اقامة المعمودية على يد قسيسين شفافى النفوس، هذا وأكدت الكنيسة الكاثوليكية حجية التبعية الاكليركية سندا لحسن المعمودية، لا السجايا والخلال. ذلك الخلاف. كنيسة للطهار، والكنيسة الجامعة(١).

وهكذا فالدوناتية فكرة تجادل تقليد الكنيسة الكاثوليكية هذا، وكانت مدعاة للشقاق داخل الكنيسة هذه، وهى تمثل تحديا لاتجاه بدأت المعمودية بمقتضاه تنتقل على مر الوقت الى محفل من البشر ينتظم مختلفا أخلاقيا، مقدمة للخلاص الحق وسيطا هو الفضيلة، غير أن هذه الفكر الدوناتية ووجهت بمدافعة كاثوليكية تصر على طقس العماد فى حد ذاته بعيدا عن ممارسيه. وتفصل فصلا تاما بين طهارة الكنيسة وقداسة رجالها.

على هذا النحو راحت هوة الخلاف تتسع بين الكنيسة الكاثوليكية والخارجين عليها، الا أن ذلك كله لم يعد خلافا فى الرأى، وكان لابد من حادثة بعينها تفجر الصراع وتنقله الى حيز الواقع العملى، وما لبثت الأحداث أن قذفت بشراكها عندما التقط الموت منسوريوس أسقف قرطاجة عام ٣١١ وثار الخلاف من بعده عمن يلى منصبه الشاغر(٢).

(1) Cantor, op. cit. p. 49.

(2) Palanque-Bardy-Labriolle, Histoire de l'église depuis les origines jusque á nos jours III, p. 42' F. Jackson' op. cit. p. 291, McGiffert, op. cit. p. 391 n. 20.

منه الدم وصلبت على وجه ولديك بامانه الله الكلمة المتجسد الذى طعن جنبه على الصليب بالحربه وخرج منه الما [ء] والدم هدا الذى صلب على ولديك بيده الالهيه [هو ذا عماد ولديك صار برشم يد الله الالهيه]. ثم ان البطرك صلى عليهما فقط مع المعمدين ولم يقدر يعمدهما دفعه تانيه لأن الرب قبلهما فى البحر. وقال البطرك: لا يقدر احد ان يعمد دفعتين لانها معموديه واحده، وهدان قد تعمدا دفعة واحدة بنية امهما وامانتها وما

اتجهت أنظار الكنيسة الكاثوليكية الى رئيس شمامسته كايكيليانوس Caecilianus وكان ساعد منسوريوس الأيمن وعضده فى معارضته لمسلك أشياع كنيسة القديسين، كما كان شديد التحمس لمبادىء الاعتدال فى النظام الكنسى[١]. وكانت العادة قد جرت على أن يحضر مندوبون عن كنائس نوميديا للمشاركة فى اختيار أسقف قرطاجة[٢]، ولكن أساقفة الفريق الكاثوليكى تغاضوا عن هذا العرف، وأقدموا فى شىء من العجلة على اختيار كايكيليانوس للأسقفية[٣]، ويمكننا أن نعلل سلوكهم هذا بعلمهم أن أسقف تيجيسيس لن يوافق على مثل هذا الاختيار، فقد كان سكوندوس ومنسوريوس على طرفى نقيض، ولما كان كايكيليانوس تلميذا لمنسوريوس فقد كان من البدهى أن يكون سكوندوس ورجال كنيسته أول المعترضين على اختياره لهذا المنصب. ومن ثم أرادت كنيسة قرطاجة أن تضع خصومها أمام الأمر الواقع.

من هنا عمد رجال الاكليروس فى قرطاجة الى سرعة اتمام اجراءات اختيار كايكيليانوس، وقد قام بهذا العمل ثلاثة من أساقفة المدن المجاورة هم فيلكس Felix أسقف أبتونجا APtunga ونوفللوس Novellus أسقف تيزيك Tyxicum وفاوستينوس Faustinus أسقف

....

(1) McGiffert, op. cit. p. 391 n. 20.

(2) S.M. Jackson (op. eit. III, art. Donatism; Hefele, op. cit. I, 1, p. 266.

(3) Jones, Constantine, p. 106; Duchesne; Histoire ancienne de l'église, II, p. 106. 107.

فعلته. ثم انه وضع في ذلك ميمرا يقول فيه: رحمة الله التى تتنزل على الناس. وناول الطفلين من السراير المقدسه ومسكهما وامهما عنده حتى عيدوا عيد الفصح المقدس ثم ساروا الى مدينتهم بسلام.

فلما علم زوجها ما فعلته مضى الى ديقلاديانوس الملك الكافر وقال له: اعلم يا سيدى الملك ان زوجتى قد زنت فى هذه المدينه ولما منعتها مضت الى الاسكندريه وزنت مع النصارى

توبوربو Tuburbo. وتولى سيامته فيلكس Felix الأبترنجى[١]. وكانت كنيسة نوميديا قد أرسلت من لدنها مندوبين لحضور مراسم الاختيار، وكان بين هؤلاء الرسل دوناتوس Donatus أسقف مدينة Casae Nigrae[٢]. وهو غير دوناتوس الكبير الذى تولى الأسقفية بعد ماجورينوس أول أساقفة هذه الطائفة، والذى يرجح أن تكون الطائفة قد اشتقت منه اسمها[٣]، وان كان من العسير حقيقة أن نجزم لأى من الرجلين تنسب[٤].

ألفى أساقفة نوميديا أنفسهم وقد خرج الأمر من أيديهم، فتملكهم الغضب وراحوا يبحثون عن سبيل ينفذون منه لتحقيق أغراضهم، ولما لم يجدوا فى شخص كايكيليانوس ثلمة تمكنهم من مهاجمته وتجريحه، أشاعوا أن الطريقة التى تم بها اختياره جرت على نهج سقيم، فقلة من الأساقفة فقط هم الذين اختاروه لهذا المنصب، ولكن هذا لم يكن شيئا الى جوار الاعتراض الاخر القائل بأن فيلكس مارق، لما أتاه ابان فترة الاضطهاد[٥]. وعليه يغدو رسم كايكيليانوس غير ذى صلاحية. وقد حاول أسقف قرطاجة الجديد تهدئة خواطر الفريق المضاد،

(1) Palanque-Bardy-Labriolle, op. cit. III, p. 42; Lietzmann, op. cit. p. 84.

(2) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.

(3) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III 43; Hefele, op. cit. I, 1, p. 270.

(4) A dictionary of Christian biography, art. Donatism.

(5) Ibid. MsGiffert, op. cit. p. 280 n. 16.

من ايام كثيره، واخدت ولدى وعملت عليهم شيا يقال له المعموديه وهو ذا هى قد عادت الى هاهنا، ما ترى ان اصنع بها. فتقدم ديقلاديانوس الى سقراطيس زوجها باحضارها وولديها ففعل ذلك، فلما وقفت بين يديه قال لها: ايتها الامراه المستحقه الموت لماذا تركت زوجك ومضيت الى الاسكندريه زنيت مع النصارى. فقالت له تلك القديسه: النصارى لا يزنون ولا يعبدون اوثانا فمهما اردته افعله فانك لا تسمع منى كلمه

فعرض عليهم أن يمر من جديد بعملية رسم ثانية. ولكن أساقفة نوميديا رفضوا بالطبع هذا الملتمس وذهبوا فى عنادهم[1]. والتأموا فى مجمع عقدوه فى قرطاجة ضم سبعين أسقفا، قرروا فيه عدم الاعتراف بشرعية اختيار كايكيليانوس أسقفا وعزله، وقاموا برسم أسقف جديد يدعى ماجورينوس[2]، ثم قام المجمع بارسال رسالة الى جميع أساقفة أفريقيا يطلعهم فيها على ما تم أجراؤه[3]، وهكذا انقسمت كنيسة قرطاجة الى حزبين متضادين، أحدهما معتدل يمثل الكنيسة الكاثوليكية ويتزعمه كايكليانوس والاخر يمثل كنيسة القديسين ويرأسه ماجورينيوس Magorinus.

وعلى مدى عامين من وقوع هذه الأحداث استفحلت شقة النزاع بين الجانبين، وراح كل فريق يجذب الى صفه الأنصار، وينادى بأنه على الحق المبين، وتلك كانت الصورة التى أضحى عليها الشمال الافريقى غداة انتصار قسطنطين على «طاغية روما» سنة ٣١٢. وانه لجدير بالملاحظة أن سيد الغرب كان على علم بهذا الانقسام الذى أمست فيه الكنيسة الأفريقية، ويتضح ذلك من أنه قصر أعطياته ومنحه على الجانب الذى أخبر أنه على الحق، وهو الكنيسة

(1) Lietzmann, op. cit. p. 84.

(2) Id.

(3) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 42.

اخـرى. قـال لهـا الملك: عـرفـينى مـا كـان منك بالاسكندريه. فلم تجاوبه فامر الملك ان تشد يديها الى خلفها وان يجعل ولداها على بطنها ويحرقو التالته بالنار، فحولت القديسه وجهها الى الشرق وولداها معها، وهكذا اسلمو نفوسهم واخدو اكليل الشهاده. ثم قال الملك لزوجها سقراطيس: من يفعل هذا باسكندريه؟ قال له: بطرس البطرك الذى للنصارى. فلما سمع هذا امتلا غضبا وغيظا لانه كان مملوا حنقا على القديس بطرس

الكاثوليكية[1]. وكان المصدر الذى استقى منه الامبراطور هذه الايضاحات هوسيوس أسقف قرطبة[2]. ولكن قسطنطين لم يكن يدرى حقيقة النزاع فى الشمال الأفريقى، فلا هو أحيط علما بفحوى الجدل، ولا كان على بينة من طبيعة الخلاف، وظل الامبراطور هكذا الى أن جاءته المكاتيب من الفريق الدوناتى تخبره حقيقة الأمر[3]، وفى الحقيقة يبدو أن الدوناتيين كانوا يحتجون على القرار الذى اتخذه قسطنطين بلفظهم خارج دائرة الهبات الامبراطورية التى أنعم بها قسطنطين على الكنيسة[4].

غير أن شيئا آخر لابد وأن يكون دافع الدوناتيين فى احتجاجهم لدى قسطنطين، ولنبحث عن هذا الشيء عند الامبراطور ذاته. ففى رسالته الى كايكيليانوس، والتى يحدد فيها مبلغا من المال للكنائس، اختتم قسطنطين هذه بقوله:

لما كانت مسامعي قد صكتها أنباء تردد أن بعض ذوى العقول السقيمة يتحايلون لصرف الجموع عن الكنيسة المقدسة الجامعه، بخزى المزاعم ودنسها، حق أن تعلم أنى قد زودت

(1) EVSEB, hist. eccl. X, 6-7.

(2) Jones, Constantine, p. 81.

(3) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 42.

(4) C.A.H. XII, p. 692.

البطرك لاجل ما وضعه من الكتب ردا على عبادة الاوثان، فكتب الى النواب عنه باسكندريه بان ياخدو راسه. وفيما الجند مزمعون على ما امر به الملك وبطرس فى السجن كما قلنا، علم اريوس الكافر انهم يريدون قتله فخاف ان يتنيح البطرك فيبقى هو مربوطا(*)، فمضى الى قساوسه وشمامسه وجماعه من الشعب وسالهم الدخول الى السجن وان يترامو على رجلى البطرك ويسالوه ان يحله من رباطه. وظنو انه فعل ذلك

(*) مربوطا: أى محروما من الكنيسة.

أنوللينوس البروقنصل، وباتريكيوس Patricius نائبه، عندما كانا فى حضرتنا، بأوامر فحواها أنه الى جانب كل مسئولياتهم الأخرى، عليهم أن يبذلوا لهذا الأمر فائق عنايتهم، وأن لا تغفل لحظة أعينهما عن تدارك أى حدث، وعليه. فأن عاينت أناساً ماضون فى عدتهم، فاشخص على التوالى موظفينا هذين، وأجل لهما القضية، فيسلكان معهم حسب رأيى، وليحفظك لاهوت الرب العظيم سنين عددا[1].

واضح من مقتطف رسالة قسطنطين انحيازه الى جانب واحد دون أن يتحقق فحوى القضية، وهو فى اتخاذه جانب الكنيسة الكاثوليكية يفصح عن مدى وحى ذلك الأسقف الأسبانى اليه. وسلوكه سبيل العنف ازاء فريق لم يسمع بعد شكايته، تعطينا معنى واحدا لسياسته، ذلك أنه لم يكن يسمح بحدوث أى صدع فى رعية تملك زمام أمرها البارحة. وهذا هو ما يجعلنا نميل الى القول انه بالاضافة الى حرمان الفريق الدوناتى من الهبة الامبراطورية، فان احساس هذا الفريق بميل دفة الدولة الى خصومهم دون تقص للحقيقة أو تمحيص، جعله يبعث الى الامبراطور ملتمسا.

كان رجاء الدوناتيين الى الامبراطور يتضمن الطلب بتعيين أسقف من غالة لنظر القضية، فالد وناتيون لم يلجأوا للبابا مباشرة لعلمهم أنه رأس الكنيسة الكاثوليكية، وان لم تكن البابوية

(1) EVSEB, hist. eccl. X, 6.

ديانة فاجابو سواله ودخلو الى السجن وسجدو بين يديه وصلو ثم وضعو له مطانوات(*) وسالوه ان يحل اريوس من رباطه، فصرخ البطرك بصوت عظيم [وزاده حروم] وقال: تسالونى فى اريوس. ثم رفع يديه وقال: يكون اريوس فى هذا الزمان وفى الاتى ممنوعا من مجد ابن الله سيدنا يسوع المسيح. فلما قال هذا نزل عليهم خوف عظيم ولم يجسر احد يرجع بكلمه، فلما راهم قد خافو منه طيب نفوسهم ونهض من وسطهم واخذ معه

(*) مطاونات: التماسات ودعاوى.

بعد قد حققت سموا فى المرتبة، وعلى ذلك فهو يخالفهم الرأى[1]، ولكنهم لجأوا الى الامبراطور رأس الدولة، ولكن لا ليفصل هو بنفسه بينهم، بل ليكل القضية برمتها الى أحد الأساقفة الغاليين ضمانا للحيدة. ذلك أن غالة لم تكن قد قاست كغيرها من ولايات الامبراطورية أثناء الاضطهاد[2]. ويعلق المؤرخ جونز على ذلك بقوله: «انه لما يجدر ذكره أن الأساقفة المنشقين لم يلجأوا الى قسطنطين بكونه هو نفسه مسيحيا. فربما لم تكن هذه الحقيقة المفزعة قد حازت بعد الثقة فى أفريقيا[3].

على أن ما يعنينا من هذه الحقيقة أن تلك كانت المحك الأول فى علاقة الدولة بالكنيسة بعد التسامح، وكانت سابقة خطيرة فى تاريخ الكنيسة اذ عدت دعوة صريحة للتدخل فى شئونها الداخلية[4]، لقد كانت الكنيسة طوال القرون الثلاثة الماضية قد أغلقت على نفسها باب خلافاتها الداخلية، وعقدت المجامع المكانية العديدة لمعالجة الانشقاقات أو لعن الهرطقات. ولم تكن الدولة تدرى من أمر ذلك الاصطراع الداخلى بين المسيحيين وأنفسهم شيئا، بل لم

....

(1) Davis, op. cit. p. 16; Duchesne, op. cit. II, p. 109.

(2) Lietzmann, op. cit. p. 85.

(3) Jones, Constantine, p. 104.

(4) Backhouse, Early Church history te the death of Constantine, p. 372.

الشيخين ارشلا واكسندروس تلميذيه وانفرد بهما وقال لهما: الاه السموات يعينني على كمال شهادتي، وانت يا ارشلا القس تكون تجلس على هذا الكرسي بعدى واخوك الاكسندرس بعدك ولا تقول ان ليس في رحمه فانا رجل خاط، لكن في اريوس مكرا [كفراً] مخفيا، وليس ا نا احرمته بل المسيح احرمه. انا اعلمكم اني في هذه الليله لما اكملت صلاتي ونمت رايت شابا قد دخل على ووجهه يضى كضو الشمس عليه ثوب متشح به

يكن يعنيها في شيء البتة. أما الان، وقد أصبح على رأس الامبراطورية حاكم يظهر ميله تجاه المسيحية، فلا عجب اذا رأينا الكنيسة تسعى اليه، تعرض عليه خلافاتها، وتضع أمامه ما يعتمل في داخلها، وتطلب اليه الرأى. وكان قسطنطين ذكيا غاية الذكاء، أراد أن يرسى من البداية ثابت القواعد في هذه العلاقة حتى يستطيع أن يسير أمور دولته، بما فيها الكنيسة، حسب ارادته ووفق صالحه. وكانت تلك فرصة جاءته على غير توقع، فاستغلها بغير انتظار. ومنذ هذه اللحظة وحتى منتصف القرن الخامس عشر، عندما دالت الدولة البيزنطية، لم يتخلف امبراطور واحد من السير في الطريق الذى حدد معالمه منذ البدء قسطنطين، وارتبطت أمور الدولة بشئون الكنيسة، وهذه بتلك، حتى أصبح من الصعب أن نفصل بينهما، وقد لمس هذه الحقيقة حتى في فترة مبكرة، سقراط مؤرخ الكنيسة في القرن الخامس الميلادى، حيث يقول: «اذا ما ساد الاضطراب أمور الدولة، عمت الفوضى شئون الكنيسة، وكأن انجذابا روحيا يربط بينهما».

الدوناتيون اذن يرغبون في الاحتكام الى أسقف غالى، وقسطنطين يبتغى اثبات ذاته في القضية وسطوته للوهلة الأولى، فعهد بفض النزاع الى البابا في روما واشترك معه ثلاثة من أساقفة غاليا. وبعث برسالة الى أسقف روما ضمنها عدة معان:

الى رجليه وهو مشقوق وهو يمسك موضع الخرق بيديه ويغطى به صدره وعريه، فلما رايته نهضت مسرعا وصرخت بصوت عال وقلت: يا سيدى من الذى شق لباسك. فقال لى: اريوس خرقه فلا تقبله ولا تكن له معك شركه، واليوم ياتيك قوم يسالونك فيه فلا يرض قلبك عليه وقد نهيتك عن ذلك، وكذلك تلميذيك ارشلا والاكسندرس اللذين يجلسان بعدك على الكرسى اوصهما ان لا يقبلاه. وهاهنا انقطع الكلام معه، وانا الان اكمل

«قسطنطين أوغسطس الى ملتيادس Miltiades أسقف روما، والى مرقس[١] Marcus، حيث أن رسائل عدة قد اتتنى من أنوللينوس العظيم، بروقنصل أفريقيا، يتبدى فيها أن كايكيليانوس أسقف قرطاجة قد وجه اليه من الاتهامات الكثير من جانب زملائه فى أفريقيا، ولما كان الأمر يبدو لى جد خطير، حيث أنه فى هذه الأقاليم التى وضعت العناية الالهية ثقتها فى اخلاصى لادارتها، وحيث أنها منطقة بالأهلين أهلة. سوف يجد الناس أنفسهم فى حالة من الشقاق، وفى حال من الكآبة دائم، والأساقفة فيما بينهم منقسمون، ولذا قررت أن يبحر على الفور الى روما كايكيليانوس وبصحبته من الأساقفة عشرة يرى من المناسب تواجدهم لقضيته، وعشرة آخرون ممن يبدون له الاتهام، فهناك يمكن سماع أقواله بما تجده يتناغم وجلال القانون المهيب. وذلك فى حضرتكم وزملائكم رتيكيوس Reticius [٢] وماترنوس[٣] Materius وماريوس[٤]، Marinus الذين أمرتهم بالاسراع الى روما لذات الغرض. وحتى تكون على علم تام بهذه الأمور فقد ضمنت رسالتى نسخا من الوثائق التى بعث بها الى

(١) شخصية غير معروفة وربما كان مساعدا لملتيادس المسن.
راجع: Jones, Constantine, p. 107
(٢) أسقف Auton فى غالة. ويخبرنا جيروم أنه كتب تعليقا على نشيد الانشاد وأخرج عملا ضد النوفاتيين.
(٣) أسقف كولون.
(٤) أسقف أرل. راجع McGriffert, op. cit. n. 23, 24 p. 381.

شهادتي وقد اوصيتكما ما امرت به، وانتما يا اخوان تعلمان كيف كنت معكما زماني كله وما لقيته من التجارب ومؤامرة الكفره عباد الاوثان، وكيف كنت هاربا من مكان الى مكان من سادميا إلى الشام إلى فلسطين والرمله وللجزاير، ولم افتر من مكاتبتكما سرا وجهرا وتقوية الشعب بقوة السيد المسيح نهارا وليلا، ولم اغفل عن القطيع الذى اوتمنت عليه، وكان قلبى متالما جدا، ومع هذا كله لم ادع الاهتمام بفيلا وسيخوس وبخوم

أنوللينوس، وأرسلت منها صورا كذلك الى زملائك المشار اليهم، وحالة تسلمك اياها يمكنكم نظر هذه القضية بعناية والفصل فيها بالعدل، حيث لا يخفى على فطنتك أنى أكن كل اجلال للكنيسة الكاثوليكية الشرعية، ولى كبير الأمل أن لا تخلفوا وراءكم أى صدع أو انقسام، ولتحفظك ياسيدى العزيز عناية الاله العظيم أعواما طوالا»[1].

من هذه الرسالة يتضح لنا مدى الدور الذى لعبه قسطنطين فى أول اتصال مباشر بين الكنيسة والدولة، فهو الذى اختار القضاة، وعين مكان التقاضى وزمانه، وحدد عدد المتقاضين من كلا الحزبين، ورسم الخطوط العامة لسير القضية، وأوحى الى القضاة بمنطوق حكمهم عندما أعلن فى رسائله اليهم أن قلبه يحمل كل الاحترام «للكنيسة الكاثوليكية الشرعية». حقيقة لقد كان قسطنطين يتفق أساسا والرأى القائل به هوسيوس عن الحالة فى أفريقيا من اعتبار خصوم كايكيليانوس مردة منشقين، وكان شديد الاقتناع بما ينطوى عليه الانشقاق من أخطار وبلاء، وظل هذا الاقتناع قرين فكره حتى يوم رحيله الى عالم الموتى. ولكنه من ناحية أخرى أقدم الان على خطوة مستقلة، واتجاه قضائى فى مسألة الفريق الذى أحدث الشقاق، وقرر من عندياته وجوب فحص القضية. فاختار القضاة، ودعا الفريقين، وكانت رسالته الى ملتيادس تحمل فى طياتها نغمة تفيض «مكتبية»، لقد كانت حسب تعبير جونز أشبه شىء

(1) EVSEB. hist. eccl. X, 5.

وتاودوروس الذين سـجنو لجل [لأجل] الامـانة بالسيد يسوع المسيح واستحقوا النعمة من الله، وكنت اكاتبهم واذكرهم في رسايلي من سادميا، وكان على تعب عظيم ومجاهده لأجلهم ليلا [لئلا] يجرى عليهم شى مع الكهنه الذين فى السجن، واكثر من ستمايه وستين نفسا صارو شهدا، وانا الان كما تعلمان انتما مهتم بجميعكم، فلما سمعت انهم استشهدو سجدت وشكرت الذى قواهم يسوع المسيح واعدهم مع شهداه،

بمذكرة بعثت الى موظف مدنى»[1] !! وليس أدل على صحة هذا القول من أن قسطنطين قد وجه رسالته الى ملتيادس وآخر يدعى مرقس على قدم سواء، ولا ندرى من هو مرقس هذا، وربما كان أحد مساعدى البابا، ولكن ذكره مع البابا قرينا يدل على مدى النظرة التى ينظر بها الامبراطور الى رأس الكنيسة الكاثوليكية الشرعية «التى يكن لها كل اجلال» !!

شيء آخر يجذب الاهتمام، ذلك أن قسطنطين يبنى انزعاجه لهذه الأحداث على شيئين جاءت بهما رسالته، فتلك مناطق عهدت اليه بحكمها عناية الرب القدير، وهذه نغمة ألفناها من قبل، وهى أيضا أقاليم قد غصت بالسكان، واختلاف أساقفتها فيما بينهم سيجر بالتالى الى تحزب الأهالى الى أى الفريقين. وتلك نقطة على جانب كبير من الأهمية. فقسطنطين كان قد فرغ لتوه من حملته على الراين لتأديب قبائل الفرنجة هناك، وأصبح السلام فى غالة مستقرا بعد ذلك لفترة طويلة[2]. والامبراطور يعد لجولة جديدة فى الشرق. فلا أقل أذن من أن يضمن هدوء هذه المنطقة التى خضعت له حديثا حتى ينصرف لانجاز المرحلة التالية من مشروعه الكبير، خاصة وأن هذا الاقليم «الآهل بالسكان»، على حد قوله، يمكن الاعتماد على رجاله الاشداء فى قابل الايام. فاذا ما أدخلنا فى اعتبارنا أن قمح روما كان يأتيها من

(1) Jones, Con stantine, p. 108.

(2) C.A.H XII, p. 69.

كذلك اسيله [أسئلة] ان يعدنى معهم. وقد علمتما الشرور التى لحقتنى من مليتيوس الاسيوطى(*) الذى قسم بيعة الله التى اشتراها السيد المسيح كلمة الله بدمه المقدس، ووضع نفسه عنها.

وجعل الاب البطرك انبا بطرس يعلمهما و يوصيهما بالتحفظ من مكر مليتيوس [اريوس] المذكور [و] ان لا يختلطا معه، وقال لهما: هو دا

(*) مليتيوس الاسيوطى: هو أسقف مدينة ليكوبوليس (أسيوط) وقد روى عنه البابا أثناسيوس انه فى أثناء اضطهاد ديوكلتيانوس نجى نفسه بأن ذبح للاوثان رغما عن النصيحة التى أرسلها اليه أربعة من الاساقفة كانوا فى السجن ثم ذاقوا كأس الحمام. ولم يكتف بذلك بل انتهز فرصة غياب البطريرك وجلس على

شمال أفريقيا(١)، وأن حدوث أى اضطراب فيها يمكنه أن يحرم روما أقواتها، أدركنا لماذا كان قسطنطين حريصا أشد الحرص على استتباب الأمن والنظام، وفوق هذا وذاك وحدة الدولة.

اجتمع الأساقفة فى روما فى ٢ أكتوبر ٣١٣(٢)، لا بالطريقة التى أرادها قسطنطين، ولكن بالصورة التى ارتآها البابا ملتيادس، والتى جرت عليها الكنيسة قبلا فى بحث مثل هذه المسائل التى تهم الكنيسة عقيدة أو تنظيما. ولم يشأ قسطنطين أن يعترض على اجراء البابا لعلمه التام أن ذلك لن يغير من الأمر شيئا، وانما هو اجراء شكلى ارتضته الكنيسة، فلا ضير من اتباعه. فقد قام ملتيادس بتحويل ذلك المجلس الامبراطورى الى «مجمع كنسى» بعد أن ضم الى أعضائه خمسة عشر أسقفا من كنائس ايطاليا المختلفة(٣) فى ريمنى وفلورنسة وبيزا وكابوا وبنفنتو وتراكينا(٤). وبحث المجمع القضية المطروحة أمامه، وفى النهاية تمخضت مناقشاتهم عن تبرئة ساحة كايكيليانوس من التهم التى وجهت اليه ورفض دعوى الفريق الدوناتى(٥).

(1) Jones, Later Roman Empire II, p. 823.

(2) Backhouse, op. cit. p. 373.

(3) Palanque, Bardy, Labriolle, op.cit. p. 45.

(4) Lietzmann, op. cit. p. 86.

(5) Hefele, op. cit. I, 1, p. 273; Duchesne, op. cit. II, p. 12.

تشاهداني مرتبطا بمحبه الله، وانا منتظر ارادته لان اعوان ديقلاديانوس توامروا كل يوم بالقتل كما تعلمان وهم مزمعون على ما امروا به فانا غيرخايف على نفسى بل مشته ان اكمل سعيى الذى قدمنى الله له وخدمتى التى قبلتها من الرب يسوع المسيح الاهى، وهو يعيننى على كمالها، ومن الان ما تريان وجهى فى الجسد بعد هذا اليوم، وانا اشهد لكما انى قد اظهرت لكما لكل شي وخلصت وبريت من الآثم، فاحفظا القطيع

كرسى البطريركية وأخذ يتداخل فى شؤونها وصار يرسم قسوسا بل سلم أساقفة لابروشيات أخرى غير ابروشيته حتى بلغ عددهم ثلاثين أسقفا جاهروا فيما بعد بخروجهم على الكرسى الاسكندرى واستقلالهم عنه وادخلوا أنظمة مخالفة فى عبادتهم.

فعقد البابا بطرس آخر الشهداء مجمعا حكم فيه بحط ميليتس من درجته وأبلغه الحكم فلم يذعن بل صرح بانشقاقه وظاهره أريوس الهرطوقى. وبعد هذا كله اعتزل ميليتس فى بلدته عن كل عمل. وفيما بعد نظر مجمع نيقية فى أمر

ومن رسالة قسطنطين الى أسقف سيراكوز نتبين أن الدوناتيين لم يقبلوا قرار مجمع روما. محتجين بأن أعضاءه لم يفحصوا القضية على الوجه الصحيح، وأنهم تعجلوا فى اصدار حكمهم، فى هذه الرسالة شرح الامبراطور للأسقف الأمور من بدايتها وأطلعة على سير الأحداث منذ اللحظة التى وصلته أنباء هذا النزاع، قال:

«لما كان البعض فى خبث وزيغ قد فسح للشقاق بينهم مكانا، فيما يتعلق والعبادة الطاهرة، وقوة السماء، والعقيدة الجامعة، حدثنى الرغبة فى أن أحسم هذا الجدل، فأصدرت أمرى بأن يجيء من غالة بعض أساقفة، وأن يستدعى من أفريقيا الحزبان المتنازعان دوما وعنادا. ففى مثولهم وحضرة أسقف روما يمكن فحص داعية ذلك الاضطراب بعناية فائقة. ولكن الذى حدث أن بعضا قد تناسى خلاصه، والتوقير الخليق بالعقيدة المقدسه، فلم يضع للعداوة حدا، ولم يمتثل لحكم سبق صدوره، وزعم أن أول الذين أدلوا بفكرهم وقرارتهم كانوا قلة، أو أنهم كانوا على عجلة من أمرهم فأصدروا حكمهم قبل أن تفحص بدقة أمور غاية فى الأهمية، من أجل هذا فان هؤلاء الذين كان من الحتم تشبثهم بالأخوة والوئام، أمسوأ، ويا للعار والشناعة، على أنفسهم منقسمين، وغدوا أضحوكة رجال أرواحهم عن العقيدة المقدسة بعيدة. لذلك يبدو لى ضروريا أن هذا الانقسام، الذى كان من الواجب توقفه

الذى ايتمنكما عليه روح القدس واحرسا بيعة الله التى اشتراها بدمه، وانا اعلم بعد مفارقتكم يقوم قوم من الشعب ويتكلمون بكلام تجديف غرضا فى ان يقسمو البيعه كما فعل مليتيوس [اريوس] الذى تبعه جمع من الشعب،وانا اطلب اليكما ان تتيقظا لانكما تلقيان قلقا، وقد علمتما ما لحق الاب ثاونا الذى رباني وجلست بعده على كرسيه وما لقيه من الشرور من عباد الاوثان، وارجو ان يصير لى متل نعمته ونعمة الاب ديونوسيوس الذى

انشقاق ميليتس فقرر بشأنه ما ذكر بالرسالة التى أرسلها للكنيسة المصرية وذكرت فى الكلام على أعمال مجمع نيقية.

وقد رضخ ميليتس لحكم هذا المجمع وخضع للبابا الاسكندروس خليفة البابا بطرس الى أن مات سنة ٣٣٠م بعد أن انضم للاريوسيين فى حبرية البابا اثناسيوس الرسولى. وقد خلفه فى رئاسة حزبه يوحنا أركاف الذى اشتهر بعدائه للبابا أثناسيوس. أما حزب ميليتس فقد بقى بعد موت اركاف قائما فى مصر حتى القرن

نتيجة القرار الذى سبق لجماعة اتخاذه بمحض اختيارهم، يتعين على الفور، اذا كان ذلك ممكنا، شجبه بحضور الكثيرين»[١].

وأول شيء نلمسه فى نبرات قسطنطين رنة الأسى والحزن تتملكه وتسيطر عليه فى كثير من فقراتها، وما ذلك الا لخشيته من انقسام قد يودى بجهوده ويحطم أماله. وعبارة قسطنطين الأخيرة دالة على ذلك، فرغبته الجامحة فى وضع حد لهذا النزاع «على الفور» تفصح عن مدى قلقة وهلعه. فنحن الان فى عام ٣١٤، واذا علمنا أن الامبراطور قد وجه الدعوة الى أساقفة الغرب لعقد اجتماع جديد فى مدينية أرل Arles قبل نهاية أغسطس، وأن الحرب الأولى بينه وبين حليفه ليكين قد نشبت فى أكتوبر[٢]، وأنه كان يعلق على هذه الحرب أهمية بالغة لما يبتغيه من ضم أقاليم جديدة غنية باقتصادها والرجال، أدركنا لماذا كان قسطنطين يذوب رعبا لأنباء هذا الانقسام الأفريقى، ويتحرك شوقا لرأب ذلك الصدع فى صفوفه الخلفية. فما كان له أن يواجه عدوه، وظهره بسهام الفرقة تطعن!

لهذا كتب الامبراطور فى رسالته السالفة يقول:

(1) EVSEB. hist. eccl. X,5.

(2) Gibbon, op. cit. I, p. 464.

كـان مـخـتـفـيـا من مكان الى مكان من اجل سابليوس المخالف. وماذا اقول من اجل يار وكلا ودمتريوس الاتنين المبغوطين وما لقيا من الشغب والمشاحنة من ارجانين [ارجانوس] المعتوة وجميع ما كان منه وابابنا الذين كانوا قبلنا، وما احتملوه عن بيعه الله. لكن نعمة الله التى كانت معهم هى التى كانت تظللهم وتحفظهم وقد سلمتكما الان الى الله بكلمة النعمه التى لها القدره ان تحفظكما وتحفظ قطيعه. ولما قال هذا جثا على ركبتيه وصلى

الخامس وكان يقوده بعض الرهبان الذين أدخلوا على مبادئه شيئا منا القوانين المخالفة. أنظر هامش ص٣٥٧ السفلى.

«لما كنا قد أمرنا بأن يجتمع فى مدينة أرل الأساقفة من مختلف المناطق، وذلك قبل نهاية أغسطس، فقد رأيناه مناسبا أن نكتب اليك أيضا لكى تحصل من العظيم لاتورنيان Latornianus والى صقلية على عربة عامة مصطحبا معك اثنين من ذوى الرتبة الكهنوتية الثانية. يقع عليهما اختيارك. مضيفا اليهم ثلاثة من الخدم ليقوموا على راحتك طوال رحلتك، وأسع جاهدا لتكون فى المكان المحدد قبل الميعاد المضروب، ونحن على يقين انه بحزمك وحكمة الباقين وائتلافهم سوف يحسم هذا الشقاق، ذلك الذى لا زال بشكل معيب قائما، وما جلبه الا جدل مخجل. فليصغ كل لما يدلى به الحزبان المتنازعان، وليع ذلك أيضا من أمرناهم بالحضور، ولينته الأمر وفق الايمان الأمثل، وليعد من جديد أخوى الوئام. متعك بالصحة سنين عددا اله مقتدر»(١).

والى آرل، ومن كل بقعة يمتد اليها فى الغرب سلطان قسطنطين، توافد الأساقفة(٢). لحسم هذا الجدل، واعادة النظر فيما سبق أن قرر مجمع روما، ويعلق نورمان بينز Norman H. Baynes على ذلك بقوله «لم ترفع الكنيسة صوتها معترضة على مراجعة القرار الرومانى والذى صادقوا عليه بكامل حريتهم(٣).

(1) EVSEB. HIST. ECCL. X,5.

(2) C.A.H. XII, 693.

(3) C.A.H. XII, 693.

وسجد معهما وشكر وضمهما اليه معتنقا لهما وقبلهما وكانا يقبلان يديه ويودعانه بالبكا (اعنى ارشلا والاكسندرس) لجل [لأجل] قوله لهما انكما لا تريانى بعد هذا اليوم فى الجسد. ثم عاد إلى الجمع الذى كان قايما فيه فوقف معهم وخاطبهم وقواهم وصلى عليهم وباركهم وعزاهم واصرفهم بسلام.

فلما مضو عنه حدثو الشعب بما قال وبما جرى منه في السجن بسبب اريوس. فلما سمع

كان مجمع آرل الخطوة الثانية التى أقدم عليها الامبراطور للخلاص من هذه المشكلة بعد أن أخفقت خطوته الأولى فى ذلك. واذا كان قسطنطين قد فوض المسألة فى أول الأمر الى ثلاثة من أساقفة غاليا، يترأسهم أسقف روما الذى أضاف الى المؤتمرين خمسة عشر أسقفا ايطاليا، فانه فى هذه المرة قد وسع دائرة قضائه حتى يكون الحكم الذى يصدر عنهم عاما وشاملا ونهائيا. فمجمع آرل اذن يمثل من هذه الزاوية «العالمية». ولكن فى النطاق الذى يسيطر عليه قسطنطين وهو نصف الامبراطورية الغربى[1]. وقد حرص الامبراطور على ابراز هذه الناحية فى رسالته مرتين فى قوله «يتعين على الفور اذا كان ذلك ممكنا، شجبه (الانقسام) بحضور الكثيرين» والأخرى عندما ذكر أنه أمر «أن يجتمع فى مدينة آرل الأساقفة من مختلف المناطق».

وفى أول أغسطس ٣١٤ اجتمع فى آرل ثلاثة وثلاثون أسقفا[2]. ومع أن الحاضرين لم يقصروا نشاطهم على المسألة الدوناتية فحسب[3]، الا أن هذه هى التى تعنينا هنا، وقد قرر المجمع تبرئة ساحة فيلكس وكايكيليانوس من التهم التى وجهها الدوناتيون[4]، وأيد الحكم

(1) Hefele, op. cit. I. 1,p. 277.

(2) McGiffert, op. cit. p. 382 n. 32; Palanque-Bardy- Labriolle, op. cit. II, pp. 46-47.

(3) Lietzmann, op. cit. p. 88; Hefele, op. cit. I, 1, pp. 280-295.

(4) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.

الشعب ذلك تعجبو وعلمو ان الله معه. وقد افرق اريوس منهم. وعلم اريوس بهذا الامر فسكت واخفى روحه وامره ومكره لانقطاع رجاه من بطرس البطرك.

فلما علم الاب بطرس ما صار بين الجند وبين اهل المدينه بسببه ومنعهم الجند ان يدنو من الحبس الذى هو فيه خاف ان يقتلو احدا بسببه واراد حفظ شعبه المومنين [و] ان يفديهم بنفسه،

الذى أصدره قبلا مجمع روما. وكان ذلك بالطبع يعنى ادانة الدوناتيين ثانية[1]. وأرسل المجمع تقريرا عما دار فى جلساته وصورة من قراراته الى البابا سلفستر حتى يمكن نشرها فى مختلف الكنائس[2].

قرت عين قسطنطين بما قر عليه رأى المجمع، وهيء له أن حكما اشترك فيه أساقفة الغرب اللاتينى على هذه الصورة من الاجماع لقمين بأن يردع الدوناتيين ويعيد الوحدة والسكينة الى هذه المنطقة، وما لبث قسطنطين أن هاجم أراضى حليفه ليكين سنة ٣١٤ ولم ينته العام حتى كان قد حقق انتصارات رائعة ضم بها كل ما فى حوزة ليكين فى أوروبا عدا تراقيا. فحقق بذلك بعض حلمه، وراح يستعد لجولة جديدة وأخيرة يقفز بها عبر البسفور الى جناح الامبراطورية الشرقى، ولم يكن قسطنطين يتصور أن مسيحيى أفريقيا سيقتحمون عليه هدوءه ثانية بعد مجمع آرل. غير أن الأحداث سرعان ما خيبت فأله وجاءته بما لم يكن يتوقع أو يهوى، ذلك أن الدوناتيين رفضوا الانصياع لقرارات المجمع الأخير، وسلكوا هذه المرة مسلكا مخالفا، اذ لجأوا الى الامبراطور ذاته يطلبون قراره الشخصى فى هذا النزاع[3].

(1) Jones, Constantine, p. 112.

(2) Lietzmann, op. cit. p. 89.

(3) C.A.H. XEI, p. 693, Hefele, op. cit. I, 1, p. 296.

فانفد الى الجند سرا وقال لهم: تعالو الليله الى حايط السجن الذى ادقه لكم من الداخل فانقبوه وافعلو ما امركم به الملك. فلما سمعو ذلك قبلو قوله ومضو فى تلك الليله سرا الى الموضع الذى قال لهم وهو مكان كان فيه مفردا عن المعتقلين لا يعرفه احد منهم، فدق الحايط من داخل فلما سمعوه نقبو موضع الدق وفتحوه فصلب على وجهه واخرج راسه لهم من الطاقه التى فتحوها وقال: الاصلح ان اسلم روحى ولا يهلك من اجلى

وجد قسطنطين نفسه ازاء موقف جديد تماما. فالدوناتيون قد رفضوا لمرتين على التوالى حكم رجالات الكنيسة، وها هم الان يحتكمون الى الامبراطور طالبين اليه نظر قضيتهم بنفسه، ولم يقبل قسطنطين ذلك بداءة، ولم يرفضه فى الوقت نفسه جملة، بل ظل مترددا لفترة طويلة بين الاقدام والاحجام[١]، غير أنه فى نهاية الأمر قرر اجابة ملتمسهم ونظر قضيتهم. فدعا الحزبين للمثول بين يديه فى روما سنة ٣١٥ حيث كان الامبراطور يحتفل بمرور عشر سنوات على حكمه[٢]، فلبى الدوناتيون الدعوة ولكن كايكيليانوس لم يظهر[٣]. فوجدها الدوناتيون فرصة سانحة لاصدار حكم غيابى ضد أسقف قرطاجة، واستعدوا لمغادرة المدينة، ولكن قسطنطين اعتقلهم[٤]، وفى نوفمبر ٣١٦ انتقل الامبراطور الى ميلانو[٥]، وإليها أحضر الأساقفة الدوناتيين، واستدعى اليه كايكيليانوس الذى سارع بالذهاب الى حضرة الامبراطور[٦] وفصل قسطنطين بين المتنازعين، وما كان ليخريج فى قراره عما أقره قبلا مجمعا

....

(1) Id.

(2) Lietzmann, op. cit. p. 90; Hefele, op. cit. I, 1, p. 297.

(3) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.

(4) Jones, Constantine, p. 118; Hefele, op. cit. I. 1,p.297.

(5) C.A.H. XII, p. 693.

(6) S.M. Jackson,op. cit. III, art. Donatism.

الشعب. فقطعو الجند راسه ومضو، فيا لهذا الفعل العجيب جدا.

فحدث في تلك الساعة ريح شديدحتى لم يسمع احد من الشعب الذين كانو يحرسون باب السجن حس النقايين، ولا سمع احد من المعتقلين فيه. وكمل هذا الاب المغبوط قول الانجيل المقدس وما حكاه من قول اليهود يوم الصلبوت: ان الاصلح ان يموت واحد عن الشعب ولا يهلك

روما وآرل. ويتساءل البعض في عجب بعد أن يوضحوا موقف قسطنطين تجاه الحزبين المتصارعين واهماله اياهما، والتلاعب بهما من روما الى بريشا الى ميلانو، هل كانت المسألة تستحق هذه السنوات الثلاث. وأن تطرح للبحث من جديد الأحكام الكنسية التي صدرت في روما وآرل للوصول الى هذه النتيجة التي انتهى اليها الامبراطور[1]!

على هذه الشاكلة تسنم قسطنطين مرتبة مرموقة بعد أن احتل مركز الفيصل في شئون الكنيسة. ومنذ اللحظة هذه وقسطنطين لم يتراجع عن غنمه هذا قيد أنملة، فقد غدا مهيمنا على أمر دين هذا الفريق الجديد من رعاياه، ولم تحتج الكنيسة على ذلك ولم تطلب اليه أن يعيدها حقا سلبه اياها. فقد أعطاها الكثير. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه الى ما هو أخطر من ذلك، الا وهو تعيين الأساقفة!.

ذلك أن قسطنطين بعد أن أعطى تأييده لكايكليانوس، وأنكر على الدوناتيين حججهم، رأى أن يخلص هذا الاقليم من أسباب هذا النزاع، فأبقى لديه زعيمي الفريقين كايكيليانوس ودوناتوس الكبير خليفة ماجورينوس، وأرسل من لدنه أسقفين هما يونوميوس Eunomius وأوليمبيوس Olympius الى قرطاجة ليقوما برسم أسقف جديد يرتضيه طرفا النزاع لحسم هذا

(1) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, pp. 48-50.

الشعب كله. تشبه بسيده الراعى الصالح الذى بذل نفسه عن خرافه.

وكان الشعب جلوسا عند باب السجن ولم يعلموا بما كان من امره. وقيل فى نسخه اخرى انه خرج من النقب واخذوه الجند ومضو به إلى مكان يعرف ببكوليا وتفسيره «دار البقر»(*) وهو الموضع الذى تمت فيه شهادة الاب الجليل مارى مرقس البشير، وان الجند لما راو القديس بطرس انه

(*) دار البقر: حيث كانت حظائر للثيران التى كانت تقدم لسيرابيس. وهنا أقيمت أول كنيسة بالاسكندرية حوالى عام ٦٥م.

الخلاف[١]، غير أن سياسة الحل الوسط هذه لم تؤت شيئا مما علقة قسطنطين عليها، اذ سرعان ما فر دوناتوس عائدا الى أفريقيا حيث تبعه كايكيليانوس[٢]، وعند ذلك فقد قسطنطين صوابه وخاصة بعد أن جاءته الأنباء من نائبه فى أفريقيا توضح له سوء الأحوال واضطراب الأمور هناك بين أتباع الفريقين[٣]، وبدأ الرجل الذى أقر فى ميلانو سياسة المسامحة مع مختلف العقائد، أول اضطهاد فى المسيحية، فقد أمر قسطنطين بمصادرة كنائس الدوناتيين وبيعهم[٤]، وجرت كثير من الاضطهادات والمذابح بين أفراد هذا الفريق[٥]، مما جعل الدوناتيين يعتبرون ضحاياهم الذين قتلوا نتيجة هذا القمع العسكرى فى عداد الشهداء[٦]. ويبدو أن الفوضى فى الولاية الأفريقية قد بلغت حدا عجزت معه السلطات المحلية عن قمعها مما اضطر الامبراطور الى ارسال قوة عسكرية بقيادة أورساكيوس ursacius[٧]، لم يتوان دوناتوس الكبير عن مقاومتها والتصدى لها.

(1) Ibid. 48.

(2) Jones, Constantine, p. 119.

(3) Palanque, Bardy, Labhiolle, op. cit. III, p. 49.

(4) C.A.H XII, 693; Hughes. A history of the Church. p. 5.

(5) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.

(6) C.A.H. XII, p. 693.

(7) Lietzmann, op. cit. p. 91; Backhouse, op. cit. p. 375.

اسلم نفسه للموت خافو ولحقهم الفزع فسألهم وقال لهم: احب منكم ان امضى اتبارك من جسد الاب مارى مرقس الانجيلى فاجابوه وهو محتشمون منه مطرقون الى الارض وقالو: مهما اردت ايها الاب افعله بسرعة. فمضى إلى حيث جسد الاب مارى مرقس الانجيلى البشير وصلى وتبارك منه وجلس عنده كانه [كانّه] يخاطبه قايلا: يا أبى الانجيلى البشير بالسيد المسيح الابن الوحيد الشاهد باوجاعه، انت اول شهيد واول بطرك كان فى هذا

بعد قسطنطين باجراءاته هذه عن الصواب، وجر على نفسه واقليمه هذا كثيرا من الويلات، فقد راح الدوناتيون يسلكون هم الاخرون مسلكا يتسم بالعنف دفاعا عن مبادئهم وكيانهم، وأخذت مبادىء الدوناتيين تلقى رواجا كبيرا بين الجموع الفقيرة المعدمة التى آلمها ما أضحت عليه الكنيسة الكاثوليكية من ثروة ورخاء نتيجة العطايا التى حصلت عليها من الامبراطور، والتى لم تتذوق منها هذه الطبقات شيئا. فتألفت جماعات من الفلاحين وعامة الناس، وتحزبوا للدوناتيين ودافعوا عنهم بقوة السلاح، وأشاعوا القتل والفوضى فى ولاية أفريقيا[١] يعلق أحد المؤرخين على ذلك بقوله «لابد لنا أن نعترف أن كل هذه الأحداث كانت أولى ثمار التحالف بين الكنيسة والدولة»[٢]، وبلغت ذروة التحدى من جانب الدوناتيين للامبراطور ذاته عندما أرسل اليه أساقفتهم يقولون أنهم لن يتعاملوا قط مع أسقفه الوغد، وأنهم على استعداد لتحمل أى عذاب يفرضه عليهم[٣].

عندما أدرك قسطنطين أن عليه أن يختط لنفسه سياسة جديدة، بعد أن ضاعت جهود عنفه هباء، فأرسل فى عام ٣١٧ الى نائبه فى أفريقيا والى كايكيليانوس والأساقفة باتباع سياسة

(1) F. Jackson, op. cit. p. 294.

(2) Backhouse, op. cit. p. 376.

(3) Jones, Constantine, p. 123.

الكرسي وانت [الذى اصطفيت ابهاتى واحدا بعد
واحد انظر الى حقارتى لانى] يا طاهر يا قديس
الذى اصطفاك المسيح القدوس الحقيقى، و انت
كرزت باسمه فى كورة مصر وبهذه المدينه
والاعمال المحيطه بها ونظرت فى الخدمه التى
فعلتها واخدت اكليل الشهاده، ومن اجل ذلك
ايها الاب الانجيلى البطرك التلميذ الشهيد
استحقيت ان تظهر الايمان بالله الكلمه المخلص
السيد يسوع المسيح. وانت اصطفيت انيانوس(*)

(*) ثانى البطاركة انظر

جديدة تقوم على الاعتدال والتسامح[1]، وأرسل هو بدوره أوامر بالسماح للأساقفة الدوناتيين المنفيين بالعودة الى ديارهم[2].

وفى ٥ مايو ٣٢١ أرسل الامبراطور مرسوما الى نائبه فى أفريقيا بالعفو عن الدوناتيين وأن ترد اليهم كنائسهم المصادرة[3]، ثم دعا الفريقين الى حل مشاكلهما عن طريق السلام، وليس أدل على ذلك مما أقدم عليه الامبراطور ذاته، فقد بنى كنيسة للكاثوليك فى Cirta، فقام الدوناتيون بالاستيلاء عليها، فلما احتج الكاثوليك على ذلك لدى الامبراطور طالبين منه المساعدة، جاءتهم هذه على نحو لم يكونوا يتوقعونه، فقد أمر الامبراطور بارساء قاعدة كنيسة جديدة لهم ممتدحا مسلكهم حيث لم يقابلوا العنف بمثله تاركين الانتقام لعدل الرب[4]. ولعل قسطنطين قد أقدم على هذه السياسية لأنه كان على وشك الدخول فى صراع مع ليكين ومن ثم لم يكن يرغب فى أن يترك وراءه الغرب يئن تحت هذه المتاعب التى تشيع الانقسام، كما أنه لم يكن راغبا أيضا فى أن يتحدث عنه الشرق المسيحى ـ الذى كان الامبراطور يتطلع اليه فى لهفة ـ على أنه امبراطور مضطهد، فراح يعظ الأساقفة الكاثوليك

(1) F. Jackson, op. cit. p. 295; A dictionary of Christian biography, art. Donatism.
(2) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.
(3) Palanques, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 51.
(4) Lietzmann, op. cit. p. 92.

الطوباني لنه [لأنه] كـان مسـتـحـقـا وبعـده ص١٦٦.
مليـانوس(*) ومن كـان بعدهمـا، ثم ديمتـريوس
وياوركلا وديونوسيوس ومكسيموس والمغبوط ثاونا (*) البطرك الثـالث. انظر
ابى الذى ربانى حـتى وصلت إلى خـدمـة هذا ص١٦٧.
الكرسي بعـده، وانا خـاطى لا اسـتـحق هذه
الكرامة، لكنى بكثر رافته [رأفته] نلت ذلك فاشفع
فى [فيّ] ان اكـون شـهيـداً بالحـقيـقـه ان كنت
مستحقا تمام صليبه وقيامته، ويجعل فى [فيّ]
روايح االامـانه المحييـه لكى اكـون له بخـورا طيبـا

ويطلب منهم الاعتدال تجاه عنف الخصوم(١) ولم تحاول الحكومة التدخل فى هذه المشكلة حتى نهاية عهد قسطنطين(٢).

كانت المسألة الدوناتية تجربة جديدة فى العلاقة بين الدولة والكنيسة، خاضها قسطنطين. وتأرجحت سياسته فيها بين اللين والعنف واللامبالاة! ولئن كانت جهوده قد أتت اليه بغير ما اشتهى، الا أنه كسب خلالها مكانة جعلته فيصلا أعلى فى شئون الكنيسة. ذلك غنم لم يتنازل عنه قسطنطين طيلة محياه، ولم يتخل عنه خلفاؤه ما بقى للامبراطورية حياة.

ورغم أن الدوناتية ظهرت على مسرح الأحداث فى الغرب الامبراطورى نتيجة خلاف فى النظم الكنسية مع الكنيسة الكاثوليكية، الا أنه لا يمكننا أن نغفل أثر العامل الاقتصادى فى اتخاذها سبيل العنف من بعد. فأثرياء المسيحية هم الذين اذعنوا للاوامر الامبراطورية زمن الاضطهاد الدقلياني الجاليرى وقربوا للأرباب، فى الوقت الذى لقى فيه العنت نفر كبير من ذوى المسغبة، فلما انقشعت غمة الاضطهاد وأصبح قسطنطين سيد الغرب الفرد، وراح يغدق أنعمه على الكنيسة الكاثوليكية ورعاياها دون غيرهم، وأعيدت للكنيسة والاثرياء أملاكهم، تملك الحقد أفئدة هذه الطبقة المعدمة، فأعلنتها ثورة عنيفة على هؤلاء الاثرياء، والكنيسة

(1) palanque, Bardy, Labriolle, op cit. III, 52; Duchense, op. cit. II, p. 124.
(2) F. Jackson, op. cit. p. 295.

بسفك دمى على اسمه القدوس، وقد حضر وقت
زوالى، فصل [فصلّ] يا ابى على [عليّ] ان لا
اكون بقلبين ونيتين ويقوينى الرب حتى افارق هذا
العالم. وهو دا اترك لك الرعية التى ايتمتنى عليها
وسلمتها لى ولمن كان قبلى ايضا، فأنت معلمنا يا
سيدنا فكن معنا ومع اولادك كما اعطاك السيد
المسيح. ثم قام من عند القبر ورفع يديه الى السما
وقال : يا ابن الله يا يسوع المسيح كلمةالاب
ادعوك واسيلك ان تزيل عنا هذا الاضطهاد الذى

الكاثوليكية، متخذة من المبادىء الدوناتية عن التطهر والشهادة وسيلة لها. ويتضح هذا بصورة جلية فى الهجمات التى شنها فقراء الدوناتيين على حقول وقصور سراة المسيحية فى ولايتى أفريقيا ونوميديا.

ولا يبعد أن تكون الدوناتية وسيلة وجد فيها أهالى هذه المنطقة، الفرصة التى يبحثون عنها من زمن بعيد، ليخلعوا عن أنفسهم تلك القشرة الرقيقة التى يتحلون بها من الحضارة الرومانية، نتيجة لهذا الكره الدفين الذى جاء نتيجة لعملية الاستنزاف الاقتصادى المستمر من جانب روما لموارد هذه المنطقة، اذ كانت أفريقيا تمثل الى جوار مصر قبو الحنطة للامبراطورية. وقد يكون ذلك هو الذى دفع مؤرخا مثل Hughes الى أن يطلق على أعمال العنف التى قام بها فقراء الدوناتية «حرب الفلاحين»(١).

(1) Hughes, A history of the church, p. 6.

على شعبك ويكون سفك دمى انا عبدك ازالة لهذا الاضطهاد عن رعيتك الناطقه.

وكان بالقرب من القبر مسكن فيه صبيه عذرا وأبوها رجل شيخ، وكانت قايمه تصلى ولما تمت صلاتها سمعت صوتا من السما يقول: بطرس راس الحواريين بطرس هذا تمام الشهدا.

فما اكمل الاب القديس دعاه قبل القبر وقبور الاب التى هناك ثم صعد الى الجند فنظروا وجهه

الآريوسية والمليتية

توارت بالحجب أنجم ليكين، وهتكت ستر المشرق شمس قسطنطين، وتطلعت الدنيا تتسمع أجراس نصر فى خريستوبوليس تعلن فى الملأ أن هذا قد أصبح للامبراطورية العاهل الأوحد، واذا بقسطنطين يخر ساجدا يسبح بحمد قدر قد واتاه من حيث لا يحتسب، وأغدق عليه نعمة ظاهرة لا باطنة، فاذا الامبراطورية كلها طوع أمره، واذا هو لبشرها سيد!!

نفض قسطنطين عن نفسه غبار معركة فرغ منها لتوه، وراح يعود الى ذلك الوراء البعيد وهو بعد على الناحية الأخرى لبحر الشمال يخترق بصره اليباب والوديان، وتجاه تلك البقعة القصية التى يهواها فؤاده، الشرق، ومرت بمخيلته تلك الأحداث المتلاحقة منذ نادى به جند أبيه ورفعوه مكانا عليا، وكيف حالفه ذلك الطاعن ماكسيميان، ثم كيف تألب عليه، وما كان من أمر ما كسنتيوس واندحاره عند القنطرة الملفية ثم دخوله مدينة الظافرين وعهده مع ليكين وحربه ضده. وأفاق من نشوة النصر قسطنطين على رنين تلك الأجراس ليرى نفسه وقد غدا سيد الامبراطورية الواحدة الأوحد.

ولم يغب عن بال الامبراطور طيلة هذه الرحلة الشاقة انه قد أنقذ من الضياع المسيحيين، وشد من أزرهم، وأنعم بالكثير عليهم، وكم آلمه أن يرى وحدتهم فى الشمال الأفريقى تنفصم،

كوجه ملاك الله فخافو منه ولم يخاطبوه لن [لأن]
الله لا يتخلى عمن يتوكل عليه، ثم رفع يديه الى
السما وشكر الرب وصلب على وجهه وقال أمين
وقلع بلينه وكشف رقبته الطاهره للرب وقال لهم:
افعلو ما امرتم به. فخافو من ان تلحقهم عقوبه
بسببه فنظر بعضهم إلى بعض ولم يجسر احد
منهم يقطع راسه لما وقع عليهم من الخوف، ثم
تشاورو وقالو: من قطع راسه يدفع له كل واحد منا
خمسة دنانير. وكانو ستة وكان مع احدهم دنانير

وأن يرى جهوده فى لم شعث هذه الجموع تذهب أدراج العناد، وكم أمل أن يجد فى الشرق تلك الوحدة الدينية التى افتقدها فى الغرب(1).وهئ «لمحبوب الرب» أن وجوده فى هذه الأقاليم الجديدة التى تزخر بأشياع المسيحية والتى فيها نبتت هذه، سيهئ له ضمينا قويا يمده العون، ويكفل له النجاح، ويرتل له على أنغام الوحدة أنشودة السلام(2).

ولكن قسطنطين لم يكن مع المسيحيين فى الشرق بأسعد حظا منه فى الغرب، فاذا كان دوناتيو الغرب أفسدوا عليه بهجة نصره على «طاغية روما» فان أريوسيي المشرق والمليتيين قد عكروا عليه صفو انتصاره على حليف الامس ليكين، ولم يكن قسطنطين ليسمح لجمهور النظارة فى هذه البقعة أن يشهد مسرحية «الانشقاق» التى كانت فصولها لا تزال تمثل على مسرح كنيسة أفريقيا. ولم يكتمل بعد مشهدها. فقد كان قسطنطين يعى تماما أن أى حادث كذلك الذى جرى فى ولاية أفريقيا يتعرض له الشرق لابد وأن يعصف بجهوده وآماله تماما. فجمهور الشرق كثير وأبطال مسرحية من هذا القبيل هنا يحظون بالطبع بشهرة فائقة وعظيم الصيت، ولابد أن يهلل المشاهدون لهذا أو ذاك ممن يجذبون روعهم ويلقون الرضى !!

(1) C. A. H. XII, p. 697.
(2) EVSEB. Vita Const . II, 67.

فاخرج منها خمسه وعشرين دينارا وقال: الذى يتقدم اليه ويقطع راسه ياخد هذه الدنانير عنى وعن الاربعه الباقين. فتقدم احدهم واستجرا وقطع راس الشهيد القديس بطرس البطرك فى التاسع والعشرين من هتور [فى السنة التاسعة عشر من حكم دقلاديانوس].

كان مدة مقامة على الكرسى الانجيلى احدى عشره سنه. فاما ذلك الجندى الذى جعل نصيبه

لم يكد قسطنطين يغدو سيد الامبراطورية الفرد حتى حملت اليه رياح الشرق أنباء حدوث انشقاق فى كنيسة الاسكندرية، وأن هذا قد تخطئ هذه ليشمل كنائس سوريا وآسيا الصغرى، لم يكن قد ذهب من مخيلة الامبراطور بعد صورة تلك الفوضى الحادثة فى الولاية الافريقية نتيجة انشقاق كنسى أيضا، ومن ثم صمم على أن يحسم الأمر بنفسه هذه المرة وبلا توان.

وقد كان طبيعيا أن تنشأ الاتجاهات العقيدية الجديدة فى الاسكندرية فقد كانت لقرون خلت مركز الثقافة فى الشرق حيث تدفق النشاط الفكرى فى تيار جار[1]، فلما جاءتها المسيحية، لم يكن لها أن تتخلى فى ظل هذه العقيدة الجديدة عن مركزها المرموق، ولما كانت واسطة العقد بين الشرق والغرب، فقد أضحت تمثل بؤرة الثقافات المختلفة والعديدة، وقدر لها بذلك أن تؤدى دورا بارزا فى المسيحية انتشارا وفكرا، إلى الحد الذى دفع واحدا من المؤرخين[2] الى القول بأنه ليس هناك بلد من البلاد، أثر فى تطور العقيدة المسيحية مثلما فعلت مصر بل ليس ثمة مدينة تركت بصماتها على المعتقد المسيحى بصورة أشد عمقا من الاسكندرية.

(1) F. Jaclson, op. Cit. PP. 269 - 270.

(2) Creed, Egypt and the Christian Church, P, 300.

مع يودس الاسخريوطي فانه [فإنه]اخذ الدنانير وهرب هو واصحابه خوفا من الشعب. وبقي جسد القديس ملقي الى وقت كثير من النهار حتى عرف الشعب الجلوس عند الحبس الخبر ونظرو النقب في الحايط فمضو اليه مسرعين ووجدو جسده وثوبه عليه، والشيخ والصبيه العدرا جالسين يحفظانه [يحنطانه] فالصقو الراس بالجسد ونشرو عليه سبيبه(*) وجمعو دمه ووقفو باكين، وتبلبلت المدينه واضطربت عند مشاهدتهم الشهيد الذى

(*) سبيبه: قماش رقيق من الكتان.

وقد قدمت الاسكندرية للعالم المسيحى أشهر أبائه فى الفكر اللاهوتى فى القرون الثلاثة الأولى للميلاد، كان أبرزهم على الاطلاق كليمنت Clemens (حوالى ١٥٠ ـ ٢١٥)، وأوريجن Origenes (١٨٥ ـ ٢٥٤) وديونيسيوس Dionysius (٢٤٦ ـ ٢٦٥)، وأضحى الثغر المصرى مركز نمو الفكر اللاهوتى فى الشرق، وأحرزت كنيسته شهرتها فى العالم المسيحى بوصفها كنيسة فكرية لم يعيها البحث فى أدق المشاكل فى الدين والعلم[١].

وكان الخلاف فى الرأى بين أريوسArius رجل الكنيسة السكندرية، واسكندر Alexander أسقفها، حول مسألة شغلت أذهان رجال الفكر واللاهوت وآباء الكنيسة فترة من الزمن غير يسيرة وهى العلاقة بين الآب والابن، الكلمة المتجسدة [٢]، داعية هذا الجدال الذى اشتد أواره بين كنائس الامبراطورية على حد قول الامبراطور نفسه فى رسالته اليهما[٣].

أما معلوماتنا عن أريوس فنستقيها من مخاصميه. وان لم ينكر عليه هؤلاء واسع علمه واطلاعه واضطلاعه من المنطق حتى أنه كما قيل لم يغادر من المعرفة صغيرة ولا كبيرة الا

---

(1)Vasiliev, op. Cit. I, P. 54.

(2) Thompson, op cit. P. 39; Latourette, expansion of Christianity, I. P. 348; Painter, op. cit. p. 15.

(3)EVSEB. vita Const. II, 69.

للسيد والمسيح، ثم حضر مقدمو المدينه ولفو جسده في النطع(*) الذى كان ينام عليه ومضو به الى البيعه وجعلوه على الترنس(*) [السترنس] الى ان قدسو واتمو القداس ودفنوه مع الابا. صلواته تكن معناومع جميع بنى المعموديه امين.

(*) النطع: في اللغة قطعة كبيرة من الجلد توضع اسفل رقبة المحكوم عليه عند قطعها حتى لا يتناثر دمه على الأرض.

(*) الترنس: كرسى البطرك أو الاسقف، موضعه شرق الهيكل.

أحصاها [١]، الا أنهم عارضوه الرأى حول المسألة الكريستولوجية ورموه بالهرطقة، وذلك شأن مؤرخى الكنيسة جميعاً. ويخبرنا سوزومين [٢] ـ دون غيره ـ أن أريوس كان أول من وافق مليتيوس Melitus أسقف أسيوط الذى انشق على كنيسة الاسكندرية في اسقفية بطرس وشايع رأيه.ولكنه تاب وأناب ورسم سنة ٣١٠ شماسا على يد بطرس أسقف الاسكندرية، وفى عام ٣١١ حرمه بطرس نتيجة اعتراضه على سياسة الكنيسة ازاء الأساقفة [٣]. ولما مات بطرس خلفه أشيلاس Achillas على الأسقفية [٤]، وتمكن أريوس من الحصول على الغفران وأعيد في عام ٣١٣ الى وظيفته الكنسية التى كان عليها قبلا، ثم رقى الى مرتبة القسيسين لما لمسه فيه الأسقف السكندرى من فطنة ومقدرة [٥].

أما تعاليم أريوس فنقف عليها من رسالة لاسكندر أسقف الاسكندرية الى سمية اسقف بيزنطة، وأخرى بعث بها الى عموم الأساقفة ينبئهم فيها بفحوى النزاع بينه وبين أريوس والدوافع التى حفزته الى حرمه من الكنيسة، ومن مقالات أثناسيوسAthanasius خليفته

(1) SOZOM. hist. eccl. I, 15.
(2) Id.
(3) Id.
(4) SOCRAT. hist. eccl. I, 5.
(5)SOZOM. hist eccl. I, 15.

ارشلا البطرك

[٣١١/٣١٢م]

وهو من العدد التامن عشر

فلما تنيح الاب بطرس وعدموه اهل الاسكندريه انفدو وجمعو الاساقفه وصيرو ارشلا القس بطركا عوضه كما كان اوصى قبل وفاته، فلما جلس ارشلا على الكرسى الرسولى الانجيلى تقدم اليه جماعه من الشعب وسألوه فى قبول اريوس فقبل سوالهم وجعله شماسا، ولما قبله وخالف وصية ابيه

ورسائله ضد الآريوسيين وعرضه لتاريخ الآريوسية وردودة على ما أثاره الفريق الآريوسى حول ما دار فى مجمع نيقية. ثم من رسالة آريوس الى زميله أسقف صور ووثيقة ايمان آريموس الى زميله أسقف نيقوميديا يوساب، ورسالة هذا الى بارلينوس Paulinus أسقف صور ووثيقة ايمان اريوس التى قدمها الى قسطنطين بعد عودته من المنفى.

تضمنت رسالة الأسقف السكندرى الى صديقه الأسقف البيزنطى فى بدايتها أسفا بالغا لروح الشر التى نفثت سمومها فى نفوس أناس ضعيفى الايمان، دفعتهم جسارة وقحة الى التهجم على الايمان القويم، وتحذيرا مخافة أن يستطيع هذا البعض الدخول فى الكنيسة بزيف القول وغروره، ثم يفصح بعد ذلك عن زعيمى هذه الحركة وهما اريوس وأشيلاس الكاهن Achillas ويروح بعد ذلك فى اطناب بالغ يشرح لزميله مبادئ اريوس ويورد الادلة التى اعتمد عليها هذا الأخير من الكتاب المقدس، ويتولى الرد على هذه الفكر الآريوسية محاولا دحضها، ولا تختلف أقواله بطبيعة الحال هناعنها فى رسالته الى عموم الأساقفة فى مختلف الكنائس[1]، ومن الرسالتين معا يمكننا أن نقف على آراء اريوس كما يراها اسكندر.

فالله عند آريوس لم يكن دوما آبا. فهناك فترة من الزمن لم يكن فيها الله آبا. وكلمة الله لم

(1)THEOD. hist. eccl. I, 3.

بطرس لم يقم على الكرسى سوى ستة شهور وتنيح فى تاسع عشر بوونه سنة.

السيره السابعه من سير البيعه

الاكسندرس[اسكندر]البطرك

[٣١٢ / ٣٢٦م]

وهو التاسع عشر من العدد

فلما تنيح ارشلا البطرك اجتمع الشعب ووضعوا ايديهم على الاب الاكسندرس [اسكندر] القس

تكن دواما، ولكنها من العدم نشأت، فالله قد جعل هذا الذى لم يكن من ذلك الذى لا وجود له. وعليه فقد كان هناك زمان لم يكن هذا. ذلك أن الابن مخلوق. ولا يساوى الآب فى الجوهر، ليس الكلمة الحق الطبيعية للأب. ليس حكمته الحقة. انما هو أحد الخلائق. دعى الكلمة خطأ والحكمة، فهو قد نشأ بذات كلمة الله. وبالحكمة الكامنة فيه ـ التى بها سواه الله وسواه. ومن ثم فهو بطبيعته عرضة للتغيير والتغاير شأن كل الخلائق. والكلمة غريبة عن جوهر الآب ـ بعيدة عنه ومنفصلة. والآب.. كيف يصفه الابن ؟! ان الكلمة لا تعرف الآب كنهه. والابن لا يعاين الآب يقينا. والابن لا يعرف ذات الجوهر. هو من أجلنا جبل. يخلقنا الله به. به اذن يؤدى. لم يكن يوجد لولا أن شاء الله خلقنا. واذا ما سألهم سائل عن تحول كلمة الله كما هو حادث فى الشيطان ماخجلوا عن الايجاب، حاجين أنه جبل وخلق. فطبيعته للتحول قابلة[١].

أما أثنا سيوس ففى رسائله ضد الاريوسيين، وردوده عليهم حول ما دار فى مجمع نيقية، يفسر عقيدتهم بما لا يخرج على الاطلاق عن شروح أسقفه اسكندر. ويضيف صراحة أن الفريق الآريوسى ينكر لاهوت المسيح، فالابن عندهم ليس الها حقا[٢].

(1)THEOD. hist. ecct I, 3; ATHANAS. depos. Ar.

(2)ATHANAS. de decr. III, 6; Epist. C. Arian.

وصار بطركا كما اوصى الاب بطرس أخر الشهدا وجلس على الكرسى فتقدم اليه بعض الشعب وسالوه ان يقبل(*) أريوس، فلما راه الاكسندرس الفاضل رفضه ولم يقبله. وقال لمن ساله فيه: قال لى الاب بطرس وهو فى الحبس ولا خى ارشلا ان السيد المسيح احرم اريوس فلا تقبلاه ولما خالفه ارشلا اخى لم يقم على الكرسى غير ستة اشهر، وانا فما اقبله بالجمله وهو مفروز. فمكث اريوس منفيا تحت الحروم فمضى بعد ذلك الى

(*) قام البطرك الاكسندرس بحط آريوس من درجة الكهنوت سنة ٣٢١م ولكن اثنان من الاساقفة و١١ شماساً رفضوا ذلك فقطعهم البطرك، وهكذا أستمر آريوس فى دعوته واستمر البطرك فى محاربته ثم قطعه نهائياً عن العمل بالكنيسة.

وتتلخص تعاليم الآريوسية فى أن الاب هو الاله الحق فى مقابل الابن الذى ليس الها حقا. فهما متعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق. ومن ثم فليس هناك اثنان غير مخلوقين، الهان لامتناهيان (١) والابن ليس غير مولود وليس جزءا من غير المولود، ولا يستمد كيانه من مادة، وانما بالارادة والقصد وجد قبل كل العالمين. وانه قبل أن ولد أو خلق أو قصد. لم يكن. لأنه كان غير مولود (٢). وعلى ذلك فالله لم يكن دائما أبا. لأنه كان وحيدا، ولم يكن اللوجوس والحكمة قد وجدت بعد، ثم اراد الله أن يخلق موجودا معينا أسماه اللوجوس، الحكمة. الابن، حتى يمكن أن يخلقنا بواسطته. ولهذا توجد حكمتان: حكمة خاصة بالله وأخرى يشارك فيها الابن . كما أن فى الله لوجوس آخر غير الابن وقد سمى الابن تكريما له باللوجوس (٣) ولله قوة طبيعية ليس كمثلها شئ سرمدية. أما المسيح فهو ليس ا لقوة الحقيقة لله، وانما هو احدى هذه القوى، وفى علاقته بالمخلوقات يعتبر الخالق، أما علاقته بالأب فهو مخلوق، وألة للخلق وآداة (٤). والآريوسيون فى ذلك يتصورون مسافة

---

(1) Dict. theol. Cath. 1,.2, Col. 1784.

(2) THEOD. hist. eccl . 1, 4.

(3) Dict. theol. Cath. I,2, Col. 1786.

(4) Id.

القسطنطينيه وشكا حاله لقسطنطينوس ابن الملك
قسطنطين المغبوط وانه قد تاب ورجع عن مقالته
وحلف على ذلك وهو يخفى المكر [الكفر] فى
قلبه إلى أن اظهرالله له قدرته فيه ونزلت امعاه
[امعاءه] من دبره فهلك كما سيذكر ذلك فيما
بعد. وبسببه كان المجمع المقدس بنقيه [بنيقيه]
واحرم فيه واستقرت الامانه المستقيمه، وايام
الصوم، ويوم عيد الفصح، وكان ابونا
الاكسندروس البطرك مقدم المجمع وبعد ذلك تنيح

شاسعة بين الله والمخلوقات، الأمر الذى يلزم منه أن الخلق المباشر محال. الابن فى رأى آريوس قمة الخلائق، غير متغير وثابت ، وليس كباقى المخلوقات، ولكن الثبات وعدم التغير هنا لا يعنى ثباتا فى ماهية الابن ذاتها، ولكنه ثبات بحكم الواقع حسب ارادة الله [١]. ومعرفة الابن بالله معرفة غير كاملة، وذلك لأن الاب غير منظور للابن، فالابن لا يتأمل ولا يعرف تماما الآب. وما يراه الابن وما يعرفه فانما يعرفه بالنسبة لقواه،ان الابن لا يعرف حتى طبيعته هو [٢].

خلاصة القول عند الاريوسين ان المسيح لم يعد الها حقا، لأن اللوجوس المتجسد ليس هو الاله الحق. وبالتالى فهم يرتبون على ذلك أن الخلاص يتم على المستوى الأخلاقى أو بالحرى المستوى الانسانى[٣].

ويشبه اسكندر أسقف الاسكندرية فى رسالته الى عموم الأساقفة آراء أريوس ورفاقه بأخرين سبقوهم قبل ذلك وادانتهم الكنيسة [٤] ويقول: «ان هؤلاء الأفراد فى سعيهم الدائب بكل

(1) Id.

(2) Id.

(3) Dict. theol. Cath. I,2, Col. 1786; F. Jaclson, op. cit. P. 109; Davis, PP. cit P. 17; Ault, op. cit. p. 51; Painter, op cit P.d16; Adictionary of Christian biography. art. Arianism.

(٤) كان من نتيجة خروج المسيحية عن نطاق التبشير بين اليهود، ومضيها الى طريق أمم، أن تخلت عن=

وهو متمسك بالامانه الارتدكسيه. وكانت نياحته في التاني والعشرين من برموده وكانت مدة مقامه على الكرسى ست عشره سنه.


اثناسيوس الرسولي
من المدافعين عن أورجانوس

السيرة التامنه من سير البيعه
اتناسيوس الرسولى البطرك
[٣٢٦ / ٣٧٣م]
وهو من عدد الابا العشرون

فلما تنيح الاب المغبوط الاكسندروس [اسكندر]

مغالطاتهم لانكار الوهية الكلمة قد زكوا موقف من سبقوهم» [١] ومن رسالته الى اسكندر البيزنطى يشير الى هؤلاء الأفراد وهم «ابيون Epion وأتمارس Artemas وبولس Paul السميساطى أسقف أنطاكية الذى نادى بأن المسيح مجرد أنسان وصل الى درجة الألوهية بكماله الخلقى. وأنكر بولس أقنومى الابن والروح القدس، معتبرا اياها مجرد قوتين فى الله كقوتى العقل والتفكير فى الإنسان وقد حرم على يد مجمع عقد فى سنة ٢٦٢. ويذكر يوساب أن كلا من ابيون وبولس ينكران لاهوت المسيح، كما أن أرتماس نادى بنفس العقيدة، وحرم على يد أسقف روما زفيرينوس Zephyrnus (٢٠٢ ـ ٢٢١)[٢].

= أسلوبها التبشيرى البسيط بمعجزات المسيح، واختلطت بأفكار هؤلاء الأمميين وفلسفاتهم، واخذت عنهم وأعطتهم، ومن ثم كان على المسيحية أن تتفلسف حتى تستطيع أن تواجه تحديات المفكرين والفلاسفة، ونتيجة لذلك ظهرت فى المسيحية منذ نهاية القرن الأول للميلاد فرق عديدة تجادل من حول المسيح، فى محاولة لارساء العقيدة المسيحية على أسس عقلانية. وكان من بينها المرقيونية Marcionism نسبة الى مرقيون الذى فرق بين الله المسيح والاله يهوه ـ وأصدر عهدا جديدا غير العهد الجديد المعروف يضم أنجيل لوقا ورسائل بولس فقط. والمونتانية Montanisn التى نددت بتعلق المسيحيين بهذا العالم وازدياد سلطان الأساقفة. وأتباع كيرنتوس Cryinthus القائلين بان الله لم يكن هو الخالق للعالم بل قوة متميزة عنه. وفى القرن الثالث ظهرت دعوة بولس السميساطى. وفى القرن الرابع كانت دعوة أريوس.

(1) THEOD hist. eccl. I, 3.

(2) ECSEB. hist. eccl. III, 27; V, 28.

ترملت البيعه اياما يسيره واجتمع الشعب وتشاورو وقدمو الاب اتناسيوس واجلسوه على الكرسى الانجيلى وكتب مقالات حسنه وميامر كثيره، وسمى فى بطركيته «الرسولى» لشرف افعاله المتشبهه بالرسل.

وفى ايامه كان المجمع فى جلاتيه [غلاتيا] وكان فيه باسيليوس الكبير صاحب القداس، وقطعو الاريانوس [اريوس] فى ايام يوليانوس الملك الكافر، وكان يوبيانوس البطريق على هذا المجمع.

وهذه الآراء احتوتها وثيقة هامة وهى رسالة بعث بها يوساب النيقوميدى الى باولينوس أسقف صور جاء فيها:

«البتة لم نسمع بكائنين ليسا بمولودين، وما علمنا بانقسام الواحد الى اثنين، ولم نع على الاطلاق ولم نعتقد أن الواحد فى صورة بشرية قد تجسد. ولكنا نؤكد أن الغير مولود واحد. وواحد كذلك الذى يحيا فيه بالحق. ولكنه من جوهره لم يجبل، ولم يشترك أبدا والغير مولود طبيعية أو جوهرا. متميز تماما فى الطبيعة والاقتدار. جبل على شبه بالخالق سجية ومقدرة. انا تؤمن بأن كيف بدايته لا يمكن التعبير عنه بالقول ولاحتى بالفكر، كما أنها على البشر خافية. ومن من الكائنات منهم أعلى. تلك آراء ندعو بها لا لأنها من نسيج خيالنا استقينا بل من الكتاب المقدس من حيث نعلم أن الابن خلق. ثبت... وقد قال السيد «الرب قنانى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم، منذ الازل مسحت منذ البدء منذ أوائل الأرض. اذ لم يكن غمر ابدئت اذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه، من قبل أن تقررت الجبال، قبل التلال ابدئت» • أمثال ٨/٢٢ ـ ٢٦).

ذلك أنه لو كان من خلاله أو منه. جزء منه أو منبثق من جوهره. لاستحال القول بخلقه. لأن ماهو من الغير مولود لا يمكن القول بخلقه، سواء به أو سواه. لأنه غير مولود منذ البدء ولكن اذا كانت حقيقة تسمية الابن المولود، تدعو البعض الى الجهر بأنه قد أتى من نفس

٢٠ : اتناسيوس ٣٧٣/٣٢٦

وقتل يوليانوس الملك بيد الشهيد الجليل مرقوريوس، وجلس يوبيانوس البطريق ملكا فاراح [فأراح] البيعه في ايامه.

وصبر اتناسيوس البطرك على بلايا كثيره بعد وفاة يوبيانوس وتولى ولا ندیانوس ونفى ونصب له فخاخ السو حتى ابعد عن كرسيه لكثرة ما ناله، ومضى الى صعيد مصر وأقام هناك [في ايام الملوك الكفرة] سنين كثيره، واظهر انه عامل بنا وصير

جوهر الآب، ويحمل من الآب في الطبيعة شبها، لأجبناهم أنه ليس وحده الذى تحدث عنه الكتاب المقدس بأنه المولود، بل عن آخرين مخالفين له في الطبيعه، فقد ورد على لسان بشر «ربيت بنين ونشاتهم. أما هم فعصوا على» (أشعياء ٢/١) وأيضا «من ولد ما جل الطل» (أيوب ٢٨/٣٨). والتعبير هنا لا يعنى أن قطرات الندى شريكه لله في طبيعته ولكن المعنى بالحرى أن كافة الأشياء قد تمت وفق ارادته. ليس هناك والحق أقول شئ من جوهره، وانما كل ما في الوجود من صنع ارادته. هو الله، كل شئ قد جبل مثيله وعلى وفق كلمته، خلقت بمحض ارادته هو. كل شئ من الله[1].

ويصف آريوس آراء خصومه في هذا الجدال بقوله «انهم يقولون بأن الله على الدوم كان. وكذا الابن كان. مثلما يكون الاب.. الابن يكون أزلى. الاب لا يستبق الابن في الفكر أو لبرهة. أزلى الاله. أزلى الابن. الذى من الغير مولود مولود. الابن من الله»[2].

ويعطينا أسقف الاسكندرية عقيدته ومؤيديه بقوله:

«نؤمن كما تكرز الكنيسة الرسولية، بالآب الوحيد الغير مولود، الواجب الوجود، لا يتغير

---

(1) THEOD. hist. eccl. I, 5.

(2) Ibid. 4.

نفسـه اجيـرا ولم يظهـر انه بطرك. واقـام الملوك الكفـره، اعنى ولاس ولا ندیانوس احـدى عـشـره سنه.

فلمـا اراد الرب اعادته الى كـرسيه دفعه اخرى بصلواته المقدسات المقبولات اهلك هولا [هؤلاء] الملوك بموت ســو لجل [لأجل] مــا فــعلوه بالارتدكـسيــه، واقـام الرب ملكا مـومنا اسـمـه تاودوسيوس، فابتهجت البيعه في ايامه وكـان هدو

ولا يزول، هو هو غـاية الكمـال. لا يتكثر عليـه نقـصـان أو زيادة. معطى الشـريعـة والأنبـيـاء والأناجيل. رب الأنبيـاء والرسل وكل القديسين، وبرب واحـد يسـوع المسيح ابن امه الوحيـد المولود. ليس مولودا من العدم بل من الآب. على نـحو لا يدركه العقل، فوق التعبير. ووجوده غير مدرك عند الكائنات المائتة. والأب غير مدرك لأن طبيعة الخلائق العاقلة لا تقوى على فهم هــذه الولادة الالهيــة مــن الاب. ولاتــزال فــى آذاننا تتـردد اصـداء قـول المخلص «ليس احـد يعرف الابن الا الآب. ولا أحـد يعـرف الآب الا ابـن» (متى ١١/٢٧).الابـن يتـغيـر، والاب. الابــن لا ينقص عن الآب شيـئـا سـوى أنه ليس غـيـر مـولود وهو الابن الكامل وصـورة الآب التامة[١].

هذان خصـمـان اختـصـموا فى دينهم، راح كل يـبشـر بدعـواه فى دوائر الكنيـسـة، ويخبرنا سوزومين أن أسـقف الاسكندرية لم يرد فى أول الأمـر أن يشـجب هذا الجدل دفـعـة واحـدة، ولكنه فضل السماح للفريق المضاد أن يعرض وجهة نظره فى حرية تامة حتى يستطيع الجمع المفاضلة على أساس قويم[٢]. وسواء صح هذا القول أم أظلته سحابة من الشك، فالذى يعنينا أن عديدا من المجامع قد عقدت هنا وهناك أثيـرت فيـها تلك النقاط مـوضوع الخلاف، ولكن

(1) THEOD. hist. eccl. I, 3.

(2) SIZOM. hist. eccl. I, 15.

وامن وسلامه. وعاد اتناسيوس الى كرسيه. وكان في ظهوره فرح ومسره في بلاد مصر اذ جعلهم الرب مستحقين لرجوع راعيهم اليهم. واقام هذا الراعى الصالح الروحانى على كرسى مارى مرقس الانجيلى سبع واربعين سنه وتنيح في السابع من بشنس وهو ضابط البيعه وغالب المعاندين للحق المناصبين للدين الارتدكس و لابس كرامة السيد المسيح، فحزن الشعب لجل [لأجل] هذا الراعى الرسولى الذى عدموه.

اتفاقا في الرأى لم يصل اليه الحزبان. وتخلى اسكندر فى النهاية عن اعتداله وأمر أريوس بقبول القول باتحاد الابن مع الاب فى الجوهر ومساواته فى الأزلية. ولكن أريوس لم يذعن لهذا الأمر، فعقد اسكندر مجمعا فى الاسكندرية سنة ٣١٩ قضى بأدانه تعاليم آريوس(١).

وعلى الرغم من الموقف المتشدد الذى اتخذه اسكندر الآن تجاه آريوس، الا أنه يبدو أن أفكار الأخير وقد لاقت رواجا بين عدد ليس باليسير من رجال الدين فى كنيسة الاسكندرية. ونقف على ذلك من رسالة اسكندر إلى الأساقفة حيث يذكر أن من ارتدوا عن الدين القويم من القساوسة وتابعوا آريوس هم .. أشيلاس Achillas الكاهن، ايثالس. Aeithales كاربونس Carpones، وأخر يدعى آريوس Arius وسارماتس Sarmates ومن الشمامسة يوزيوس Euzoius، ولوقا Lucius يوليوس Julius ميناس Menas، هيلاديوس Helladius جايوس Gaius(٢). هذا بالاضافة الى أن كثيرا من المثقفين قد اتخذ جانب آريوس ورفاقه ايمانا منهم أن عقيدتهم هى الحق، بينما تعاطف معهم بعض آخر مدخلين فى اعتبارهم أن الآريوسيين قد اسيئت معاملهم وان حرمانهم ليس من العدالة فى شئ (٣).

(1) Id.

(2) ATHANAS. depos. Ar. THEOD. hist. eccl. I, 3.

(3) SOZOM. hist. eccl. I15.

فاما سيرته فانه كان قد غاب عن كرسيه تلت دفعات للشدايد التى نالته وتغلب المخالفين على كرسيه، وكانت غيبته فى الدفعة الأخيره احدى عشره سنه. وكان كتب من النفى الى عذراى بمدينة الاسكندريه يقول لهن: ان عروسكن هو المسيح الذى لا يرى ولا يموت فما دمتم تحت محبته [ثابتين فى محبته] فماتكن ارامل، واعلمن اننى كنت اعمل كاتبا لابى الاكسندروس [اسكندر]، وكان ما يقرا قط الانجيل فى قلايته ولا

كان ذلك هو الوضع فى الاسكندرية فى مطلع عشرينات القرن الرابع، غير أن الفريق الآريوسى رأى من الحكمة والحصافة، على حد تعبير سوزومين(١)، أن يبحث عن نصير خارج المدينة، فارسلوا من لدنهم مندوبين الى بقية المدن الآخرى فى الامبراطورية وزودوهم بمكاتيب فحواها عقيدتهم سائلين اياهم . اذا ما ارتأوا أنهم على الحق، أن يرسلوا الى اسكندر يرجونه أن يحسن معاملتهم، واذا ما استهجنوا تلك العقيدة فعليهم أن يبعثوا اليهم يعلمونهم الايمان القويم(٢). ويعلق سوزمين على هذا السلوك من جانب الآريوسيين بقوله: لم يكن الاجراء الذى لجأ اليه فريق الآريوسيين عديم الاهمية، فقد نقل المشكلة من النطاق المحلى الى الدائرة العامة وأضحى حديث كل الأساقفة، وكتب بعضهم الى اسكندر يتوسل اليه الا يقبل أشياع آريوس فى شركة الكنيسة مالم يطلقوا آراءهم بلا رجعة، بينما أرسل آخرون يستحثونه أن يكون بهم رحيما(٣).

ومن رسالة آريوس الى صديقه الأسقف النيقوميدى نعلم مدى انتشار الآراء الآريوسية فى الولايات الشرقية للامبراطورية، فقد جاء فيها ذكر الأساقفة الذين شايعوا الآريوسية وهم

(1) Id.

(2) Id.

(3) Id.

في غيرها جالسا بل قايما والضو قدامه، وكان الله تعالى قد حبب له قراة الكتب، فبينما هو ليله قايم يصلي ويقرا في الانجيل اذ اتين رهبانات واستاذن عليه ثم طلع اليه فسجدن بين يديه وقلن له: عندنا عذارى يصمن ستة ايام ولا يعملن شيا بايديهن ليفضل منهم ما يطعمنه للمستورين، ونريد منك يا ابانا ان تتقدم لهن ان يعملن ويكون صومهم بقدر. فقال لهن: صدقني يا اخواتي ما صمت قط يومين ولا افطرت قط بالنهار ولا اكلت الا بقدر، ولا

يوساب أسقف قيسارية، ثيودوتوس Theodotus أسقف اللاذقية Laodicea وبارلينوس أسقف صور، وأثناسيوس Athanasius أسقف بيروت Berytus وآيتيوس Aetius أسقف اللد Diosopolis. ثم يضيف آريوس قائلا: وكل أساقفة الشرق عدا ثلاثة هم فيلوجون Philogonius أسقف أنطاكية . هيللانكرسHellanicus أسقف طرابلس، ومكاريوس Macarius أسقف أورشليم(١).

حتى ذلك الحين، ورغم هذا الانتشار السريع للعقيدة الأريوسية فى الولايات الشرقية للامبراطور، الا أن الدولة لم تتخذ ازاءها أى مسلك، ذلك أن هذا الصراع الدائر فى الكنيسة بين رجالاتها لم يكن ليعنى الدولة عندئذ فى شئ. فقد كان ليكين لا يزال سيد الشرق، وكان قد بدأ فى سنة ٣١٩ ـ كما قدمنا ـ يمارس من جديد سياسة العداء نحو المسيحية وأهلها، ومن ثم لم تختلف نظرته لاشياع هذا الفريق عن نظرة من سبقه من الأباطرة وهى النظرة الكلية. ولم يكن امبراطور الشرق يخشى من هذا الذى يدور فى الكنيسة رحاه، فانقسام الرأى فى الكنيسة المسيحية لا يضيره فى شئ ما دام لايفرق بين مسيحى وآخر وحيث أن حكومته تقف من المسيحية جملة موقفا عدائيا.

---

(1) THEOD. hist. eccl. I, 4.

اتعبت نفسي ولا ادبت جسمي، لانه جيد ان يكون الصوم بقدر والشراب بقدر والنوم بقدر، فاذا اكل الانسان كما يجب قوى على الصلاه، وكذلك اذا نام بقدر، وللطعام حد وللشراب حد وللنوم حد، فقلن لهن يفطرن بقدر، ويعملن كل شي جيد بقدر ليلا [لئلا] يكثر الكلام فينسى اوله. هذا ما كتب به اتناسيوس الرسولي وحكى به عن ابيه القديس الاكسندروس [اسكندر] وانه كان كلامه كالعسل لمن يسمعه، وكان يكثر النعمة [الشكر] للسيد المسيح.

أما الكنيسة ذاتها فقد كان يهمها ما يعتمل فى داخلها من صراعات عنيفة، كان أسقف الاسكندرية على رأس المتحمسين بطبيعة الحال لرأب هذا الصدع الذى أخذ يستفحل ويشتد خطره ويهدد بانقسام خطير، وحتى يتجنب اسكندر وقوع مثل هذا الحدث، دعا الى عقد مجمع فى الاسكندرية عام ٣٢١ ضم أساقفة مصر وليبيا، وبلغ عدد من حضره أكثر من مائة أسقف قرر لعن آريوس وأتباعه الذين سبق لنا ذكرهم بالاضافة الى سكوندوس Secundus أسقف بطوليمايا Ptolemais احدى المدن الخمس الغربية وثيوناس Theonas أسقف مارماريكا Marmarica (١).

وكان على آريوس أن يتصرف بسرعة حتى يدعم مركزه وآراءه، ومن ثم رحل عن الاسكندرية شاخصا الى فلسطين ومنها الى نيقوميديا حيث صديقه يوساب الذى كان يحتل مكانة مرموقة فى القصر الامبراطورى (٢) وراح يشكو إليه حزنه وما أنزل به ورفاقه اسكندر من اضطهاد. وكانت رسالته السابقة اليه قد أفصحت عن ذلك. حيث يقول آريوس: «لقد أمسينا نعانى تلف الحياة لاضطهاد أنزله الأسقف بساحتنا، وما من حجر الا وقذفت به وجوهنا، لفظونا ملاحدة خارج المدينة» (٣).

(1) ATHANAS. depos. Ar.; THEOD. hist. eccl. I, 3.

(2) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

(3) THEOD. hist. ecll. I, 4.

وقـد قـيل ان اريوس كـان اتى الى هذا الاب الاكسندورس [اسكندر] وسال ان يدخل اليه فقال الاكسندروس: قـولو له اوصاني ابى ان لا اقبلك ولا تدخل الى ولا اجـتـمع بك لان ابى شـهـد ان السيد المسيح اراه فى منامه ثوبه مـشـقـوقا منك وامره ان لا يقبلك، او ما تعلم ان لسانك هو الذى ابعـدك منه بما قلتـه فـاطلب من السـيـد المسيح المخلص واعترف له بخطيتك فاذا قبلك فهو يامرنى بقبولك كما امر بطرس ابى ان لا يقبلك. قد امر

دعا يوساب الى عقد مجمع سنة ٣٢٢ ضم أساقفة بيثينيا، قرر اتخاذ جانب آريوس وكتب الى جمهور الاساقفة يدعوهم الى نصرة الآريوسيين وقبولهم فى الشركة، وطلب الى الأساقفة أن يسعوا جاهدين لدى اسكندر لاعادة آريوس ثانية الى الكنيسة [١]. غـيـر أن اسكندر وقف من هذا الرجاء موقف المعارضة، وكتب بدوره الى أولئك الاساقفة يشرح لهم نواحى الخطيئة فى عقيدة آريوس وعمد الاستقامة فى ايمانه «فانا وقد عاينا دنسهم صببنا عليهم اللعنة وأعلنا كفرانهم بايمان الكنيسة القويم، وقد أحببنا أن نحيطكم أحبابى علما. فاذا ما تجاسر بعض بالقدوم عليكم، فلا تقبلوهم، ولا تنصاعوا لرغائب يوساب ومشايعيه. وانه لخليق بنا نحن المسيحيين أن نولى دبرنا كل من يضاد المسيح بالقول وفكرا. ا نهم أعداء الرب للأرواح مفسدون[٢].

هكذا تحزب الفريقان، ازدادت فى واقع الأمر هوة الخلاف ، وعد الفريق الآريوسى رفض اسكندر قبول زعيمه فى الكنيسة ثانية اهانة بالغة فساده شعور بالسخط والاستياء واشتد عزم مريديه وحماسهم لتأييد العقيدة الآريوسية [٣]. وأرسل آريوس بدوره رسـائل الى كل من

(1) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

(2) ATHANAS. depos. Ar: ; THEOD. hist. eccl. I. 3.

(3) SOZOM. hist eccl. I, 15.

المسـيح ان لا نمنع احـدا من المومنين به دخـول البيعه فـاذا اجرم واخطا منعناه حتى يندم ويتوب، فـاذا قـبله المسـيح قـبلناه. فلمـا سـمع اريوس هذا غـضب ومـضى فـجـمع اليـه جـمعاً كـثيرا ووضع مقالات تجديف وكفر بلسانه المستحق القطع وقال ان ابن الله مـخلوق. وكان المجمع فى نيقيـه لاجله، وكـان فيـه ريسـاً [رؤسـاء] الاربع كـراسى مـجتـمعين فـيـه اعنى بطاركـه روميـه واسكندريه وافـسس وانطاكـيـه، فـاكـملو وقـررو الامـانه الارتدكـسـيـه

يوساب القيسارى وباولينوس الصورى، وباتروفيلوس Patrophilus البيسانى Scythopolis يلتمس السماح لنفسه وشيعته، حيث كانوا قبلا قد وصلوا الى منصب القموسية ، بالتبشير والعظة (١). وتلاقت آراء، الأساقفة الثلاثة وغيرهم من أساقفة فلسطين عام **٣٢٣** حول تأييد وجهة نظر آريوس بالسماح له وأتباعه بلقاء رعيتهم فى الكنائس كحالهم من قبل، شريطة الخضوع لاسكندر، آمرين فى نفس الوقت آريوس أن لا يدخر وسعا فى اعادة السلام مع الأسقف السكندرى حتى يرفرف على الكنيسة وئام (٢).

على هذا النحو بدا للجميع أن كنيسة الاسكندرية تقف فى جانب وفى الآخر جل كنائس الشرق الرومانى، ولا قت عقيدة آريوس على النحو الذى رأينا رواجا كبيرا فى الدوائر الكنيسة، فى فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى، وزاد فى قوة آريوس انضمام أساقفة من ذوى الشهرة والمكانة الى صفه شأن يوساب النيوقوميدى وباولينوس أسقف صور، ويوساب أسقف قيساوية وغيرهم كثير (٣). وغدت المسألة فى غاية الحساسية والأهمية بين الآريوسيين وخصومهم، مجموعة تحاول جاهدة اقناع الرجال المثقفين، وأخرى تعتمد أساسا على الجموع، الأولى

(1) Id.

(2) Id.

(3) EVSEB. vita Const II, 61. SOCRAT. hist. ecct. I, 6.

والصوم الفصح، وجلس معهم قسطنطين الملك الحقيقى السماوى. فلما راو تواضعه فعلو ذلك وقطعو اريوس الكافر، وكتب قسطنطين الملك المومن حرم اريوس الكافر بخط يده وقال فيه انه اهلك الذين اشتراهم المسيح بدمه المقدس. فهرب اريوس الى افريقيه(*) ولم يجد راحه فى ايام قسطنطين الملك وايام الاكسندروس [اسكندر] البطرك.

وكان الاكسندروس قد ربى اتناسيوس تربيه حسنه لانه كان ابن امراه ريسه عابده للاوثان

كانت قلقة تتطلع الى ارساء العقيدة المسيحية على أساس منطقى عقلى والاخرى تعتمد العاطفة فى جوهرها، وكان لابد أن تصطدم الطائفتان [١]. وقد شجع آريوس ـ خاصة مع القرار الذى أصدره أساقفة فلسطين، فعاد الى الاسكندرية ثانية، وعقد أنصار كل من الفريقين العديد من المجامع لاصلاح ذات البين، أسفرت فى النهاية عن تعميق هوة النزاع بين الجانبين[٢]. وبذلك تعرضت الكنيسة لما لم تشهده من قبل، حقيقة خرج عليها كثير من رجالها يدعون بآراء جديدة،ويناوئونها السلطان، ولكنها لم تكن على هذه الدرجة من الخطورة، وتأكل الحسرة قلب مؤرخ الكنيسة يوساب لهذا الانقسام الذى يراه ماثلا فى الكنيسة بعد أن من عليها الرب بقبس من ضياء الحرية وسلام ، فيلقى تبعة هذه الأحداث على حساد المسيحية وباغضيها[٣].

تلك كانت حال الكنيسة، ولم تكن الدولة أسعد حظا. ففى مطلع عام ٣٢٤ كانت لا تزال هناك صفحة من صحائف الحرب الأهلية فى الامبراطورية لم تطوها المقادير بعد، وكانت أقلام من الدم مدادها قد أعدت نفسها لتخط عليها قصة حرب طال توقعها بين قسطنطين

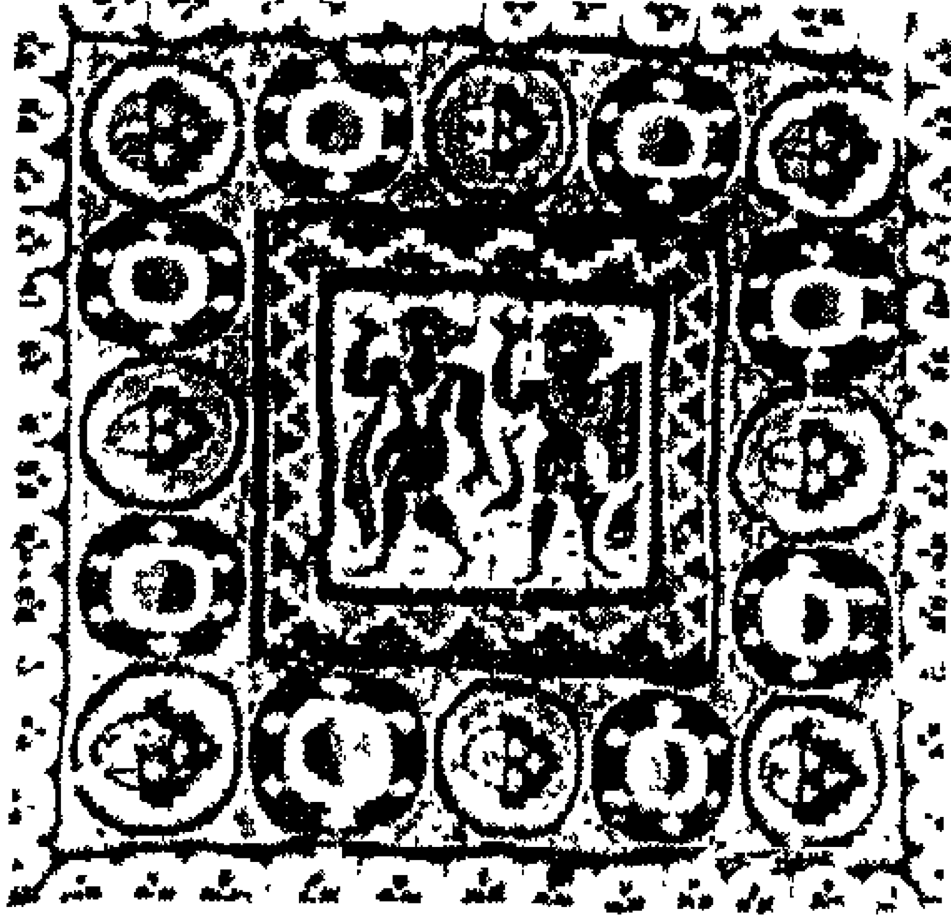
....

(1) Painter, op. cit. p. 16.

(2) SOZOM. hist. eccl. I, 16.

(3)EVSEB. vita Const. II, 61.

وكانت غنيه جدا وكان يتيما، فلما كبر ارادت ان تزوجه فلم يشته ذلك فاحتالت عليه مع امراه زانيه لتوحله فى الزيجه فلم يفعل، وكان الرب يحفظه لامر عظيم، وكانت تاخد البنات الحسان تزينهن وتطيبهن وتجعلهن يدخلن عليه فى مرقده وينمن عنده ويتعرضن له فاذا استيقظ ضربهن وطردهن وكانت تشتهى ان تزوجه وتقيمه على اواسى ابيه وامواله فلا يفعل. واحضرت رجلا ساحرا اسكندرانيا حكيما من حكما



وليكين. ولم يكد العام يولى حتى هوى فى الظل سيد الشرق، وخط يراع قسطنطين صحيفة نصره ونهاية حلم. وكم كانت فرحة الامبراطور الجديد عندما أيقن أنه قد أصبح بين ظهرانى المستضعفين ممن وهبهم الحياة [١].

وكم كان حزن قسطنطين عميقا عندما واتته الكتب تحمل له نبأ انقسام استفحل خطوه فى كنائس الاسكندرية والمشرق، ولم يكن الامبراطور قد أفاق بعد من هول صدمة الشقاق الدوناتي، وها هو ذا يواجه انقساما أشد منه انقساما، ولم يكن قسطنطين يعلم أبعاد هذه التفرقة، ولكن ما أثار شجونه أن يرى فى موطن المسيحية، الشرق، أمله ومبتغاه، صدعا. ويقول سوزومين «... لقد شاعت فى نفس قسطنطين الحيرة واستبد به الغضب وساده اضطراب لهذا الذى يرى»[٢]. حسب العقيدة تجرى لمستقر لها فى درب الهدوء، فوجد فتنة تسبح فى بحر الشغب.

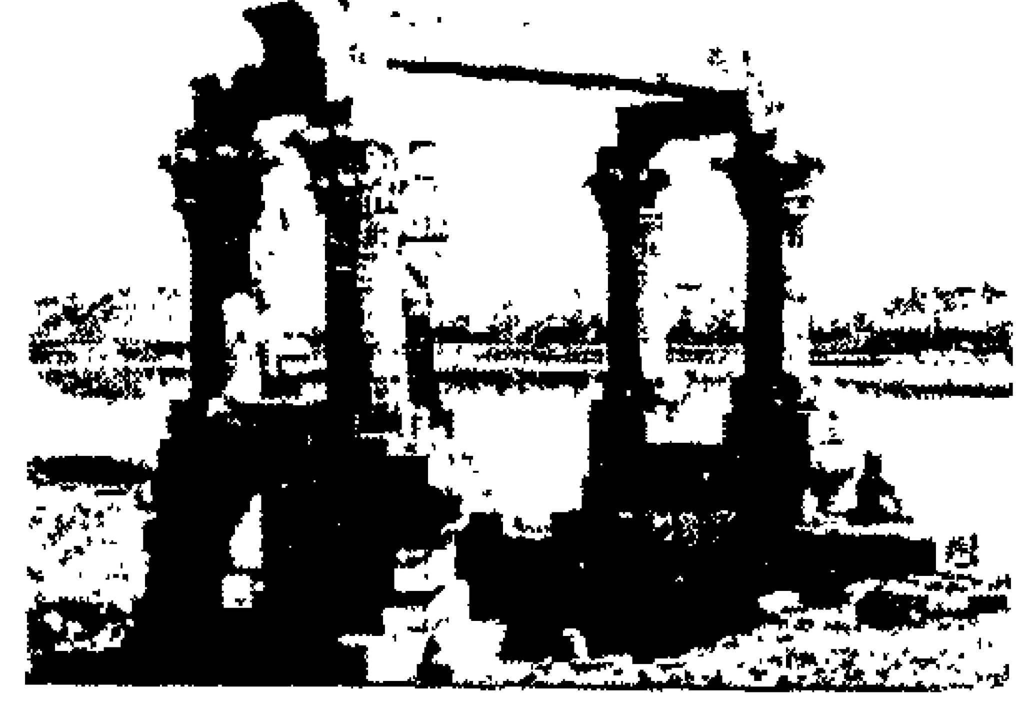
عزم قسطنطين على أن يتدارك الامر منذ البداية، وهيأت له نشوة نصره وزهو كبريائه أن بعض كلمات منه كافية لحسم هذا الأمر، فاختار مستشاره فى الدين هو سيوس ليكون مبعوثه

---

(1) Ibid. 67.

(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 16.

الصابه[الصابئه] وعرفته ما عندها من حال ابنها، فقال لها «دعينى اليوم اكل معه خبزا ففرحت واولمت وليمه عظيمه واجتمع بابنها واكلو وشربو، فلما كان بالغداه مضى الفيلسوف اليها وقال لها: لا تتعبى فانك لا تقدرين على ابنك لانه قد صار جليليا [مسيحيا] على راى الجليليين وسيكون رجلا عظيما قالت: ومن هم الجليليون ؟. قال لها: اصحاب الكنيسة الذين قد اهلكو البرابى (المعابد الفرعونية) وابادو الاوثان فلما سمعت هذا قالت



إلى اسكندر وآريوس فى الاسكندرية[1]. وحمله رسالة الى كل منهما تضمنت بالغ الحرص وعظيم القلق من أجل احلال السلام فى ربوع الامبراطورية[2] ونوه بأنه عمل على تسوية النزاع الذى نشب فى أفريقيا[3] مشيرا الى ا لدوناتيين بذلك، وأشار الى الشرق باعتباره مهد هذا الدين، وكيف كان يأمل أن يجد فيه الوحدة والأمان[4]. وأوضح الى أى حد اغتم وحزن نتيجة هذا الانقسام الذى حل بالكنيسة[5] ثم عرض بعد ذلك وجهة نظره فى هذا الصراع، قال:

«وبعد .. فأنا على يقين أن منبع الجدل الماثل هو ذلك. فأنت يا اسكندر عندما طلبت الى القسيسين ابداء رأيهم حول أمر بعينه يخص الناموس. أو بالحرى.. يحسن قولى، عندما سألتهم عن قضية ما من ورائها طائل!! فانك يا أريوس، أصررت بطيش وتهور على أمر ما كان حسنا أن تعمل الفكر فيه، ولئن خامرك ليدفنن فى غيابة الكتمان، وها هو بينكما الخلف قد

---

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 7.

(2)EVSEB. vita Const, II, 65.

(3) EVSEB. vita Const. II, 66.

(4) Ibid. 67.

(5) Ibid. 68.

في نفسها ان توانيت عنه مضى عنى وبقيت وحيده. فحينذ[حينئذ] نهضت واخدته معها ومضت به الى الاكسندروس [اسكندر] وقالت له قضية حال اتناسيوس ابنها وجميع سيرته، ثم تعمدت هى وولدها. وبعد زمان توفيت وبقى هو عند الاب الاكسندروس مثل الولد، ورباه بدعه بكل فن وحفظ الاناجيل وقرا كتب الله، فلما كبر اوسمه شماسا وجعله كاتبه وصار كانه ترجمان الاب المذكور وخادما للكلام الذى يريد يقوله.

نشب، بعد أن أغفلتما حق الأخوة، ووقعت الرعية المقدسة فى تمزق حزبى. ولم يعد للجسد الواحد وجود!

والآن .. أكلاكما على أستعداد لتبديا من الرفق والتحمل قدرا واحدا فتقبلان نصح رفيق لكما يقدمه بارا قويما ؟!»[1].

هكذا القى قسطنطين على اسكندر وآريوس تبعة الاحداث وحمل اياهما دوافع صراع كان من الممكن تجنبه لو أن آريوس أغلق على الرأى الحر فكره. ويتساءل الامبراطور.

«كيف ياترى يكون نصحى؟!

خطأ فى البدء أن تطرح القضايا على هذا النهج، والخطأ بعد فى نقاشها، فمسائل الجدال هذه وليس لها من الشرعية نصيب، وتمليها روح صراع وليدة فراغ أسئ شغله ، حتى ولو قصد بها رياضة الذهن، ينبغى أن تظل حبيسة فكرنا، بعيدة عن آذان الجموع. اليست قلة تلك التى تعى مثلها؟ فهى أمور علوية ذات طبيعة خفية، ولنقل أن واحدا قادر على ادراكها، فكم يا ترى من الجمع يلم بها؟ وحتى هذا الذى يعيها تراه لا يحيد عن سوى الصراط. يتحتم علينا من ثم أن نقصد فى القول لاننا لا نقوى وطبيعة الحال على أن نفسر تلك المسائل، ولئن

(1) EVSEB. vita Const. II, 69.

فلمـا تنيح قـسطنطين الملك المومن بشـيـخوخـه حـسنه وجلس بعـده قـسطنطيـوس ابنه فلم يثبت على الامانه المستقيمه وانما كان يخاف ويحتشم من الناس، وفوجد اريوس حينذ الفرصه ومال الى اخذ الملك وجذبه الى قلبه وافسد قلبه، وحـمله على استمال الملك الى مقالته واغواه الى ان انفذ احضر الاكسندروس [اسكندر] من الاسكندريه الى القـسطنطينيـه، ولـم يعلـم الملك قـدر الاكـسندروس [اسكندر] ولا سبب حرمه لاريوس وابعاده له عن

استطعنا الى ذلك سبيلا فمن من السامعين عساه أن يفهم. فالرعية لسبب أو لآخر قد تجدف أو تنشق»[1].

فالخلاف كما يبين من حديث قسطنطين لا يهمه في شئ قدر ما يعنيه جدل الرعية، فلو أن آريوس واسكندر أغلقا على نفسيهما أبواب الكنيسة وراحا يقلبان ظهر الأرض وباطنها وصولا الى لقاء، ما حرك ذلك شعرة من رأس الامبراطور، أما أن ينفتح باب البيعة وتغشى الجموع حكاية الخلاف فذلك شئ يثير غضب الامبراطور ويؤرقه! فالناس على جهلهم سائرون الى فرقة أو زيغ، ومن ثم أفصح الامبراطور عن دفين غيظه، وراح بلهجة خالية من كل وقار يكيل للرجلين أقذع العبارات، يحملهما تبعة الفوضى، ويحذرهما مغبة ما ورطا فيه نفسيهما والجموع. قال:

«ولنر هل أصبنا حيث أختلفنا في كلمات العبث والغباوة أن نعادى بعضنا بعضا، وتمزقت جماعتنا لخلف أصابنا بكما. أنتما يا من يتعالى صياحكما حول نقاط كم هي تافهة وضيعة، سوقية هي. وخلة حمق صبياني، تقف والضد من حصافة الاكليروس والعقلاء، ذلك حديث أقوله لكما دون رغبة في قهركما على التوافق حول هذه المسألة العقيمة مهما كان كنه

(1) EVSEB. vita Const. II, 69.

البيعه، وكان الاكسندروس [اسكندر] قد شاخ
وكبر غير انه ثابت الجنان سالم الحواس، كان
اتناسيوس ترجمانه وكاتبه والمتكلم عنه بقوة الروح
القدس لمعرفته بالامانه الارتدكسيه، فجلس الاب
الاكسندروس بحضرة الملك واحضر اريوس وتكلم
كلامه الطمث واكثر الكلام السمج فخصمه
اتناسيوس بالاقوال التى اوردها وابطل كلامه، فقلق
اريوس وافسخ المجلس وقال: يكون لنا مجلس اخر.
ولما علم اريوس انه لا قوة له باتناسيوس دفع مالا

طبيعتها. وفيما يختص بشجاركما على أمور لا جدوى منها، فعليكما ان صعب الوئام، أن تقصرا تلك على دواخل فكركما والعقل»[١].

واختتم قسطنطين رسالته بقوله «أعيدوا الى أياما خوالى. وليالى غفت فيها جفونى حتى ينالنى بهجة الضوء الوهاج ومسرة سكينة الحياة»[٢].

على هذا النحو أبدى قسطنطين رأيه فى أمر الخلاف العقائدى المحتدم بين كنائس الامبراطورية فى قسمها الشرقى، وواضح من حديثه مدى بعده عن هذه المسائل الكريستولوجية وقلقه البالغ لما نجم عن هذا الصراع من فرقة وانقسام بين رعايا المسيحية.

جاء هوسيوس برسالة الامبراطور الى الاسكندرية، وحاول رأب الصدع الذى هز كنيستها وامتد الى الكنائس الأخرى. فدعا الى عقد مجمع دينى فى الاسكندرية عام **٣٢٤** قرر حرم آريوس ورفاقه[٣]. وعاد الى الامبراطور يحمل اليه أنباء اخفاق مسعاه فى التوفيق بين آريوس واسكندر. وفى طريق العودة توقف فى أنطاكية منتهزا فرصة وفاة أسقفها فيلوجون

(1) Ibid. 71.

(2) EVSEB. vita Const. II, 72.

(3) Ibid. 73.

لاصحاب ابواب الملك وقرر معهم ان يمنعو اتناسيوس من الدخول معهم فى المجلس الاخر، فلما كان بالغداه امر الملك باحضارهم فلما دخل الاكسندروس [اسكندر] منعو البوابون اتناسيوس الرسولى من الدخول، فلما جلس الملك والبطرك بحضرته تكلم اريوس واكثر الكلام، فالتفت الاب الاكسندروس يمينا وشمالا فلم ير اتناسيوس كاتبه فسكت فقال له الملك: لم لا تتكلم؟ قال له الاكسندروس [اسكندر] : كيف اتكلم بلا لسان

Philogoniusحيث دعا فى ديسمبر سنة ٣٢٤ الى عقد مجمع كبير ضم الأساقفة من كل الاقاليم التى تنظر الى أنطاكية باعتبارها عاصمتها الروحية، من كيليكيا وميزوبوتاميا فى الشمال حتى فلسطين جنوبا، وكان المجمع فى جملته معاديا للآريوسية فقرر اختيار يوستاتيوس Eutstathius خصم الآريوسية العنيد أسقفا للمدينة خلفا لفيلوجون[١] . وقرر المجمع ايضا أدانة العقيدة الآريوسية[٢] وثلاثة من مؤيدى آريوس هم ناركسيوس Narcissus أسقف Neronias (بانياس)، وثيودوتوس أسقف اللاذقية Laodicea ويوساب أسقف قيسارية Caesarea فلسطين، وبعث المجمع بقراراته هذه لا الى أساقفة الشرق فحسب بل الى اسقف روما أيضا لاذاعتها فى الغرب[٣] .

بهذا السلوك نقل أساقفة مجمع أنطاكية صراعا خاصا بالقسم الشرقى من الامبراطورية عدة سنوات الى الغرب، وأضحى الجدال حول العقيدة الآربوسية يغطى كنائس الامبراطورية بضوضائه. وقد انعكس هذا على سلوك الامبراطور ذاته ومحاولته حل هذه المشكلة التى اتسعت حلقة روادها، فقد كانت النية متجهة فى أول الأمر، بعد أن تبين اخفاق هوسيوس فى

(1) Jones, Later Roman Emire, I, P. 86.

(2)Downey, op. Cit. p. 351.

(3) Jones, Constantine, P. 150.

مترجم. فعلم الملك انه يعنى اتناسيوس فامر باحضاره، فلما راى اريوس ان اتناسيوس قد دخل خرج مسرعا ولم يقف، فقال الاكسندروس [اسكندر] للملك: اعلم ايها الملك ان قطع هذا اريوس كان فى الجمع وليس انا قطعته وحدى بل ابوك المغبوط الملك واهل الجمع كلهم قطعوه وكتب الملك حرمه بخط يده، واذا نظرت كتب ابيك وجدته بخط يده، وانا اقول من يقطع الملك قسطنطين واهل الجمع. فاحله انا فيكون ذلك منى

الاسكندرية، الى عقد مجمع يضم أساقفة الشرق فى مدينة أنقره. وقد ظهرت هذه الفكرة أولا لدى المجمع الذى عقد مؤخرا فى أنطاكية(١). على اعتبار أن هذا الجدل قائم فى الولايات الشرقية. فلما أنبأ مجمع أنطاكية البابا بحقيقة النزاع، وأصبحت المسألة معلومة لدى الغرب. قرر قسطنطين أن يكون مجمعه المقبل مسكونيا يضم أساقفة الامبراطورية كلها، ليكون قرارهم عاما حازما، ورأى قسطنطين عقد المجمع فى مدينة نيقية Nicaea فى بيثينيا (مكانها الآن قرية ازنيقIsnik التركية)(٢) حتى يتمكن أساقفة أيطاليا وباقى كنائس أوربا من حضور المجمع ولملاءمة مناخها، وفوق هذا وذاك حتى يكون نفسه على مقربة من متابعتهم والاشتراك فى مناقشتهم(٣).

كان مجمع نيقية أول مجمع مسكونى Ecumenical شهدته الكنيسة، وقد عقد بناء على دعوة وجهها الامبراطور قسطنطين الى مختلف كنائس الامبراطورية ويعد يوساب ذلك العمل من جانب الامبراطور اعترافا منه بأيادى المخلص البيضاء عليه(٤)، وكان فى حد ذاته محاولة

(1) Downey, op cit. P. 351; Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit, III, P. 80.

(2) Backbouse, op. cit. p. 399.

(3) EVSEHB. vita Const, III, 6, 7.

(4) Ibid. 8.

بدعه، لان اباك بالحقيقه كتب حرمه وقطعه بخط يده في المجمع الذى كان بنيقيه. فلما سمع الملك هذا القول خاف، من اخيه، ان يحل امر الملك ابيه فيجد اخوه بذلك الحجة للنفاق عليه، فاطلق الاب الاكسندروس واعاده الى كرسيه وبقى اريوس محروما ومربوطا بعدل [لأنه] ظن انه يبلغ بقوته من ا لملك وبذل المال لحاشيته، بغيته.

وتنيح الاب الاكسندروس مع آبايه بعد ان اوصى الكهنه والشعب عند نياحته ان يجلسوا

جديدة وجريئة لحل الخلاف الحادث فى الكنيسة. حقيقة جرت عادة الكنيسة قبلا على عقد المجامع الدينية لادانة «بدعة» جديدة أو القضاء على «انشقاق» ولكنها كانت فى معظمها مجامع محلية Synods يلتقى فيها الأسقف والقسوس والشمامسة فى مركز كل أبروشية، وربما اتسعت قليلا لتشمل كنائس الولاية أو الاقليم[1].

لعل قسطنطين قد أفاد من التجربة التى قاساها فى ولاية أفريقيا، خاصة وان الدوناتيين رفضوا الامتثال لقرارات مجمعى روما وآرل، وعلى الرغم من أن الأخير كان يضم معظم أساقفة الغرب عندئذ، ويمثل عالمية عالم قسطنطين انذاك. الا أن الدوناتيين لم ينصاعوا لما أسفر عنه لقاء الاساقفة، فلا يبعد اذن أن يكون الامبراطور قد أراد بمجمع نيقية المسكونى أن يكون قاضيا جملة وتفصيلا على هذا النزاع المستفحل فى الكنيسة. ولابد أن يكون قسطنطين قد وعى تماما مدى الخطورة التى تهدد وحدة الامبراطورية من جراء هذا الصراع. فاذا كانت المسألة الدوناتية اقتصرت على ولاية أفريقيا وحدها، فأخذت بذلك الطابع الملكانى، فان الاريوسية لم تكن كذلك حيث امتدت من الاسكندرية لتشمل طيبة وليبيا وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى، وهى مناطق طالما هفا اليها فؤاد الامبراطور وكم راودته

(1) Thompson & Johnson, op. cit. PP. 46 - 47.

اتناسيوس بعده على الكرسى ففرحوا بذلك لمحبتهم له، فلما جلس على الكرسى الرسولى اخرج شيعة اريوس من البيعه(*)، واخرج الحرم الذى فى خط قسطنطين الملك واهل المجمع المقدس وقراه فى البيعه على الجماعه، فلما سمع اريوس بذلك غضب جدا والتهب شيطانه كالنار ومضى الى الملك وقال له: ان قبلنى الاكسندروس بطرك القسطنطينيه بامرك بلغت غرضى. فدعاه الملك وقال: هو دا بطرك اسكندريه قد امتنع من قبول

(*) أى حرمهم من الكنيسة واعتبرهم من الخارجين عن الدين.

آمال هدوء وسلام آمل أن يجدها هناك، ومن ثم فقد أراد الامبراطور أن يحسم الامر دفعة واحدة بهذا المجمع الذى يضم هذا العدد من رجال الكنيسة فى الشرق والغرب، ولعل هذا بين فى خطاب قسطنطين الذى وجهه الى أعضاء المجمع، يقول:

«أحسست وخزا فى روحى، وبدا لى أن الأمر ليس بقليل فى الأهمية، ومن ثم فقد حدتنى الرغبة فى تقديم حل لهذا الشر، وعليه فقد دعوتكم للحضور، وانى أشعر بارتياح عظيم وأنا أشهد مجمعكم، لعلى يقين بان آمالى ستغدو حقيقة اذا قدر لى أن أرى وحدة قراركم»(١).

ثم ها هو قسطنطين يبتهل الى الاساقفة آمرا أن يجدوا طريقهم على الفور الى الوحدة والوئام قائلا:

«يا رفاقى الاعزاء.. يا رجال الله، يا أتباع من هو سيدنا والمخلص.. بالله لا تتباطأوا.. لا تتوانوا، لتبدؤن على التو فى نبذ دواعى فرقه شاعت بينكم، ولتمحون ركائز جدالكم، وما ذلك الا بأن تحتضنوا أغصان السلام، فان فعلتم كنتم فى ذات الوقت تسلكون طريقا رضى عنه الرب العلى، وتقدمون لشخصى فضلا كبيرا.. أنا وليكم والصفى(٢).

(1) EVSEB. vita Const. III, 12.

(2) Id.

اريوس وخالفنا وانت تعلم اننا اقمناك واجلسناك بطركا على كرسى القسطنطينيه ويجب ان لا تخالفنا كغيرك وانت طيب وتاخذ اريوس اليك وتقبله. قال له البطرك: ان البيعه لا تقبله ولا يجب ان نقبل الا من هو موافق لامانتها، وهذا [اريوس] قد جعل الثالوث مخلوقا وقد ابعد من البيعه بحق. قال له الملك: لا يفعل بل هو معترف بالثالوث قال له البطرك: فيكتب لى خطه بامانته حتى اعرفها. فاحضره الملك، وكان ذلك شيا من الله تعالى،

أراد قسطنطين بجمع هذا الحشد من الاساقفة، بناء على دعوته، أن يثبت سلطانه فوق الكنيسة وأن يظهر للرعية المسيحية مدى حرصه على العقيدة وحدبه على تخليصها من أية شائبة، وذلك شئ نلمسه فى رسالته التى دعا فيها الأساقفة لهذا المجمع حيث أبدى رغبته الأكيدة فى الاشتراك فى المناقشات الجدلية العميقة وأصر على متابعة أعمال المجلس[1] رغم عدم المامه بالمسائل الكريستولوجية التى يدور الجدل حولها كما وقفنا على ذلك من رسالته الى اسكندر وآريوس.

على أية حال فقد كان مجمع نيقية فى حد ذاته مظاهرة دينية قصد بها الامبراطور اعلاء شأوه وبسط نفوذه على الكنيسة المسيحية ورجالها، فكما كان الامبراطور فى الدولة الرومانية هو الكاهن لاعظم Pontifix Maximus وهو لقب لم يتخل عنه قسطنطين، فقد أراد بالتالى هنا أن يغدو رجل المسيحية الأول الذى اختارته العناية الالهية ليقر على الأرض السلام، وليمجد الرب فى الأعالى!!

ولم يقف دور قسطنطين عند حد ارسال دعوته الى الاساقفة وحسب، بل تخطاه الى التكفل بنقل المدعوين الى نيقية، فسمح للبعض باستخدام وسائل النقل العامة، وأمد البعض

(1) EVSEB. vita Const. III, 6.7.

وكتب خطه بالامانه وهو يضمرخلافها فى نفسه. ثم استحلفه البطرك، ان ما بقى فى نفسه شك منها. فحلف له. فقال الملك للبطرك: اى شى تبقى لك عليه بعد هذا؟. فقال الاب الاكسندروس بطرك القسطنطينية للملك: ان الاب اتناسيوس بطرك اسكندريه قد جدد قراة [قراءة] حرم اريوس المكتوب بخط الملك قسطنطين ابيك المغبوط وخطوط جماعة نيقيه باسكندريه ونفى شيعته من بيعته، فان لم يجر على اريوس هذا شى من الافات

الآخر بالخيول اللازمة لسفرتهم حتى لا يشعر رجال الله بضائقة أو مشقة[1]. ولبى الجميع الدعوة وارتحلوا الى هناك يحدوهم جميعاً الامل فى نتائج طيبة يمكن أن يسفر عنها هذا الاجتماع[2]. ومثل فى المجمع أساقفة من سوريا وكيليكيا وفينيقيا وبلاد العرب وفلسطين ومصر وطيبة وليبيا وميزوبوتاميا وآسيا وفريجيا وجالتيا وباميفايا وكبادوكيا ومقدونيا وأخايا وابيروس وتراقيا واسبانيا، وكما حضره مندوبون من فارس وسكيثيا وبونطس. أما سلفستر أسقف روما فلم يحضر وأرسل فيتو Vito وفيكينتيوس Vicentius مندوبين عنه [3]، ويذكر سقراط أن قسطنطين دعا الى الاجتماع أكسيوسAcesius أسقف النوفاتيين [4]، ويضيف أن أحدا قبله لم يذكر هذه الواقعة ولا حتى يوساب نفسه، ويقول انه تلقاها عن رجل طاعن فى السن كان على مقربة من هذه الأحداث[5].

---

(1) Ibid. 6.

(2) Id.

(3) SOCRAT. hist, eccl. I, 13; SOZOM, hist. eccl. I, 17.

(٤) نسبة الى نوفاتيانوس Novatianus أحد رجال الكنيسة المتطرفين فى روما، الذى ناصب كورنيليوس Cornelius أسقف روما فى خمسينيات القرن الثالث، العداء، للخلاف حول قبول المارقين زمن الاضطهاد ثانية فى الكنيسة، ويطلقون على أنفسهم المتطهرين، شأن الدوناتيين فى أفريقيا والمليتيين فى مصر، وكان سقراط المؤرخ يميل الى هذه الطائفة.

(5) SOCRAT. hist. eccl. I, 10.

من اليـوم الى يوم الاحـد فـأنا اقـبله واسـتـدعيـه للشـركـه مع الكهنه. فـخـرج اريوس وكـان منتظرا ليوم الاحـد. فلما كان يوم الاحد دخل الى البيعه وقـد لبس ثيـابا فـخـره تعطر وتطيب وجلس عند باب الاراديون فى طقس الكهنه، وكـان البطريرك ومن معه قـد اقامو الجمعه لكها صياما قيـاما بين يدى السيـد المسيح يسـألونه ان لا يـحسب عليـهم خطيـه اريوس، لان الملك كان قـد اقسم لـه ان لـم تقبل اريوس يوم الاحـد بعد يمينه لاخسرن البيعه

ويختلف المؤرخون فى عدد أساقفة المجمع، فيذكر يوساب[1] أنهم حوالى ٢٥٠ أسقفا، على حين يحـددهم سـقـراط بـ ٣٠٠ أسـقف [2]، أما سـوزومين فـيقـول أن عـددهم كـان ٣٢٠[3]، ويخبر أثناسيوس أنهم كانوا ٣١٨ أسقفا [4] وان كـان عـددهم عند ثيـودوريت يـصـل الـى ٢٧٠[5] ربما كان هـذا التفاوت راجعا الى تعمد هؤلاء، وكلهم للآربوسية عدو، اغفال ذكر أسماء الأساقفة الاريوسيين وان كان الشائع أن عددهم ٣١٨ أسقفا [6]. وكـان أغلب الحضور يمثل أسـاقفة الكنائس الشرقيـة أما كنائس الغرب فلم يتجاوز عدد مندوبيها الثمانية. وقد شهد مجمع نيقية عدد من الشخصيات البارزة من رجال الدين فى الشرق على غرار اسكندر أسقف الاسكندرية وشماسه أثناسيوس الذى نال شهرة فائقة نتيجة حواره مع الاريوسيين، ويوسـاب أسقف قيسـارية، ويوسـاب الأسقف النيقوميدى، ويوستـاتيوس أسـقف أنطاكية، وماركللوس أسقف أنقرة، ومكاريوس أسقف أورشليم[7].

---

(1) EVSEB. vita Const. III, 8.
(2) SOCRAT. hist. ecct. I, 8.
(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 17.
(4) ATHANAS. hist. Arian. 66.
(5) THEOD. hist. eccl. I, 7.
(6) Duchesne, ip. cit. II, 144.
(7) SOCRAT. hist. eccl. I. 13; SOZOM. hist. eccl. I, 17.

مالا كثيرا. فلما اجتمعو الكهنه والشعب في ذلك اليوم في البيعه واريوس حاضر اهتم الاب البطريرك بالقداس وهو حزين، فلما قرا القارى تحركت احشا اريوس عليه فمضى الى زاويه بالبعد يتغوط فنزلت جميع امعاه [أمعاءه] وكلما في جوفه بره. ولما غاب عنهم سالو عنه فلم يجدوه ففتشو عليه فاصابوه وهو قاعد جامدا فارغا خاويا يابسا وكل ما كان في بطنه قاعد قدامه، فاعلمو الاب البطريرك بذلك فتعجب منه وسكت وشكر الرب

ويرسم سوزومين صورة حية لما كانت عليه الحال في نيقية عندئذ، ويحدثنا حديثا شيقا عن أولئك الأساقفة شهود المجمع، فبعضهم تحنى له الهام تقديرا لعلمه وفصاحته ووعيه للكتاب المقدس، وبعض ثان تعرف في وجوههم مسحة الزهد وجلال الخشوع، وثالث مع هذا كله، ومن الرجال من مهر في الجدل وبرع في النقاش. ولكن هذا لم يحل دون ارتحال بعض الاساقفة الى هناك لقضاء حاجياته وشئونه الخاصة بعد أن وجدها فرصة سانحة ليتخلص من حيف نزل به أو ظلم آلمه، وغيرهم راح يتلمس أخطاء الآخرين ليقدمها في شكاية الى الامبراطور طالبا منه العدل والقصاص(١).

وفي ٢٠ مايو ٣٢٥ التأم عقد المجمع(٢)، ويصور يوساب اللحظات التى سبقت دخول الامبراطور القاعة ثم تلك اللحظة الحاسمة التى «شرف فيها قسطنطين جموع الحاضرين بمقدمه بكونه رسول السماء». ويمضى المؤرخ الكنسى بعد ذلك يخلع صفات التمجيد على امبراطوره (٣). ويرسم صورة لأولئك الجلوس الذين أحاطوا به، والذى كان هو أحدهم، ثم يقول ان الاسقف الذى كان يحتل المكان الرئيسى عن يمين الامبراطور نهض وخاطبه شاكرا

(1) SOZOM. hist. eccl. I, 17.

(2) Hefele. op. Cit. I, 1, PP. 416 - 419; Palanque - Bardy .

(3) Labriolle, op, Cit. III, 10.

يسوع المسيح ومجده الذى حكم على اريوس واهلكه عاجلا لجل [لأجل] يمينه الكاذبه وامانته الفاسده. فاظهر للملك والجمع جميع صحة ما قاله الاب بطرس الشهيد بطريرك اسكندريه، فتمم الاكسندروس بطريرك القسطنطينيه القداس فى ذلك اليوم بفرح ومجد وتهليل وارسل [الاب]. اتناسيوس بطريرك الاسكندريه يقول نحن نمجد الله ونعلمك ايها الاخ ان اريوس مات موتا عجيبا وانقطعت مقالته وتبددت شيعته. ولم يكتف الملك

حسن صنيعه الذى اسداه للدين القويم، مثنيا على فضائله وعظيم خلاله وسجاياه (1). وعلى الرغم من أن يوساب لم يفصح لنا عن شخص ذلك الأسقف، الا أنا نعلم من سوزومين أنه لم يكن سوى يوساب نفسه(2).

انتهى يوساب من القاء كلمة الافتتاح والترحيب بالامبراطور، فظلت القاعة برهة من الصمت تعلقت فيها كل العيون بالامبراطور الذى ما لبث أن قطع هذا السكون وراح يردد فى نغمة هادئة:

«أعزائى.. لكم داعبنى الأمل منذ أمد أن أحظى برؤياكم والكل متحد. والان وقد تحقق الأمل، أشعر لزاما على أن اتقدم بالشكران لاله الكون، فقد أنعم على بخير جديد، ، ومنحنى من البركات ما فاق ما سبق، فها أنذا أشهدكم وقد جمعكم على الوحدة وئام عاطفة واحدة. الى الله ابتهل أن يكف أيدى السوء والفحشاء عنا وان لا يسمح لخصم أن يعكر صفو سلام بلدنا السعيد واليه أضرع بعد أن زالت بيد الرب مخلصنا، بغضاء الطواغيت الآثمين، الا تقدم نفس أمارة بالسوء تحيك المؤامرات الدنيئة من أجل تعريض شريعة الله للتجديف والزيغ. فالصراع الداخلى فى الكنيسة ـ يعد فى رأيى ـ أشد خطرا من أى حرب أو نزاع . ان

(1) Ibid. 11.

(2) SOZOM. hist. eccl. I, 19.

بذلك لاجل اصدقا [ء] اريوس وهم سوريانوس
وجرجيوس ومن معهما هولا الذين وثبو على بيعة
اسكندرية، وذلك أن الملك دفع لجرجيوس خمس
مايه فارس من جنده وانفدهم معه ليصيروه
بطركا على اسكندريه. وكتب كتبا الى كل
مدينه وكرر فيها كلام اريوس ان ابن الله مخلوق،
فلم يقبله احد في ارض مصر. وكانوا يتقربون
من قسوس [قساوسه] كان اتناسيوس اوسمهم
فدخل هذا جرجيوس الى بيعه اسكندريه بحيلة

- -

خلافاتنا هذه تبدو لى أكثر فاجعة آذا ما قورنت بأى شكل خارجى ، وعليه لما كنت بمشيئة الرب وعونه قد قهرت الاعداء، قدرت أنه لم يعد باقيا الا ان أقدم فرائض الشكر لله والثناء، وأشارك بهجة هؤلاء الذين رد اليهم الله الحرية بى»[1].

ثم راح يحدثهم بعد ذلك عن الأسباب التى حفزته الى توجيه الدعوة اليهم للاجتماع، وأمله الكبير فى أن تلتقى آراؤهم على قول واضح لا خلاف عليه، حتى تتحقق الوحدة ويسود السلام. ورغم أن الحضور كان جلهم من الشرق الذى يتحدث اليونانية، الا أن الامبراطور القى كلمته باللاتينية.

ويبدو هذا أمرا طبيعيا وقلة المامه باليونانية وذلك شئ نعلمه من يوساب وسوزومين[2]. وان كان المؤرخ جونز يعلق على ذلك بقوله ان قسطنطين فعل ذلك لا لجهله باليونانية ولكن لأنه وجدها الفرصة السانحة ليؤكد رسمية اللاتينية كلغة للامبراطورية[3]. خاصة وأن اليونانية كانت عندئذ لغة الكنيسة[4].

....

(1) EVSEB. vita Const. III, 12.

(2) EVSEB, vita Const. III, 13; SOZOM. hist. eccl. I. 20.

(3) Jones. Constantine. p. 156.

(4) Davis, op. Cit. p. 18.

وقتل بيد الجند الذين جاو [جاءوا] معه خلق كثير من الشعب المسيحى الذى على رأى اتناسيوس حتى انتهى الدم فى البيعه الى الركب، ونهبو انية البيعه وافسدو العدارى اللاى [اللائى] كن فيها. وكان اتناسيوس مخفيا.

واقام الناس زمانا طويلا يتقربون فى المغاير والبرارى والحقول فى جميع اعمال مصر كلها الى الصعيد. وكانو الاريوسيون اصحاب الملك قد انتشرو فى كل مكان، وكان سرابيون اسقف

أعطى قسطنطين بنهاية حديثه اشارة البدء لرجال الكنيسة فى عرض قضاياهم، ولكنهم بدلا من أن يبحثوا بداءة ما لأجله دعوا، راح بعضهم يكيل للآخر الكثير من الاتهامات، واستحالت القاعة الى ميدان يتبارى فيه المتخاصمون[1]، فوقف الامبراطور بذلك على حقيقة ما كان يتمنى رؤياها، ووضح له أن أمل وحدة الامبراطورية عقيديا ليس بالسهولة التى طواها به سياسيا وعسكريا.

ومرت الأيام والامبراطور يشهد كل يوم مزيدا من هذه الشكايات، فلما هاله ما رأى حدد يوما و أمر بالاتهامات وردودها فجئ بها، ثم راح يتفرس وجوه الحاضرين مخاطبا ضمائرهم وعقولهم قائلا:

«ترى.. ما كل هذا؟! ذاك شئ يؤتى به يوم الدينونة للعرض والحساب يفصل فيه القاضى الأعظم.. أما أنا فلست الابشرا مثلكم. وانه لشر لى أن تشملنى فى كل الأمور صلاحية، فما بالكم وكل الخصوم رجال الله !! ما كان لهم أن يقفوا واياهم طرفى نقيض، فلتقتدوا بالمحبة السماوية ورحمة الرب، وليحل بينكم الوئام، اذن.. لنطرح على التو شكاياتنا، ولنعط كل اهتمامنا لشئ من أجله جئنا. ذلكم هو الايمان»[2].

---

(1) SOZOM. hist, eccl. I, 17.

(2) Id.

تمى(*) يكاتب البطرك اتناسيوس وجميع الشعب ان يتحفظوا من الايروسيين.

(*) تمى: غالباً تمى الامديد مركز السنبلاوين/ دقهلية. وربما تمى المندثرة من مقاطعة الجيزية.

وبعد ست سنين ظهر اتناسيوس ومضى الى الملك ظنا منه انه يقتله فياخذ اكليل الشهاده، فامر الملك ان يحمل فى مركب صغيره ولا يعطى خبزا ولا ما ولا يكون معه ملاح ولا احد يدبرها، بل ينزل فيها وحده ويطلق فى البحر، ففعل به ذلك وسارت به الامواج والله حافظه ومدبره حتى وصل الى اسكندريه فى اليوم التالت بغته، فخرج اليه

وعليه فقد أصدر الامبراطور أمرا فجمعت حصيلة الأيام من الاتهامات وأطعمت بها النيران(١).

تفرغ المجمع بعدئذ لمناقشة موضوع العقيدة، ومحاولة التوصل الى صيغة للايمان ترضاها الكنيسة كلها، وعقدت اجتماعات جانبية عديدة دعى اليها اريوس ليوضح عقيدته، وراح كل فريق يعرض حججه وأسانيده، ولكنها لم تسفر عن شئ سوى شهرة اكتسبها بعض الشخصيات منها أثناسيوس السكندرى(٢). وعادت حمى الجدال والنقاش من جديد تسرى بين أعضاء المجمع. ويمتدح يوساب صبر الامبراطور وسعة صدره لتحمل هذا الفريق أو ذاك. مثنيا على أولئك الذى أحسنوا الحديث، مستهجنا من أبدى ميلا للعناد والمهاترة، وقد أخذ نفسه بالشفقة والرحمة على كل فرد، بل انه قاد أحيانا أشد المتخاصمين وأعتاهم الى التسامح والوئام، وتمكن ببشاشته التى كان يوجه بها حديثهن الى الجميع، أن يظهر بصورة جذبت اليه أفئدة الحضور وازداد حبهم له وتعلقهم(٣).

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.

(2) Id.

(3) EVSEB. vita Const. III, 13.

الكهنه وتلقـوه بالفـرح والقـراه [القـراءه] الى ان دخل البيعـه واخرج منهـا جرجيوس ومن يعتقد امـانته الفـاسـده، وصنع اتناسـيوس فى ذلك اليوم عيد للرب وفرح الشعب فى أعمال مصر كلها.

ومن بعـد سـبع سنين وصل انسـان اسـمـه اغريغروريوس ومعه الفا رجل من الجند ونهب البيعه واقام اربع سنين اخذ اتناسيوس وسلمه الملك لرجل اسـمـه فليـغـريوس كـافـر وثنى فـأراد قـتله وقـتل ليباريوس [انباريوس] بطريرك رومية وديونوسيوس

أما ما دار فى المجمع وما تمخض عنه، فلنترك الحديث لشيخ مؤرخى الكنيسة يوساب يروى ذلك. كما رواه من قبل لأهل بيعته فى قيساوية فى رسالته التى بعث به اليهم ابان انعقاد المجمع يقول: «لعله قد نمى الى علمكم من مصادر آخرى ما تقرر بشأن ايمان الكنيسة فى مجمع الأساقفة العام فى نيقية. فصيت جليل الأعمال يسبق الرواية عنه. ولكن خشيتى من تسرب شائعات لا تتفق والصدق، قدرت لزاما على أن أوافيكم أولا بصيغة الايمان التى عرضناها، وأثنى بتلك التى نشرت مع الاضافات التى أدخلت على دستورنا، وفيما يلى سأتلو عليكم ما قرأته فى حضرة امبراطورنا الورع، والذى قيل عنه انه على الحق المبين. ذلكم قانون ايماننا.

«وفق ما تعلمنا بادئ ذى بدء، وما لقنا وقت العماد وما تلقينا عن أساقفة سبقونا، وما علمنا من الكتاب المقدس وفق ما يؤمن به القسيسون والأساقفة وبه يبشرون، نؤمن نحن، ونفصح على الأساس عن ايماننا.. نؤمن باله واحد. أب قدير. خالق كل شئ. ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح، كلمة الله.. اله من اله. نور من نور. حياة من حياة. الابن الوحيد المولود. أول من ولد دون سائر الخلائق، مولود من الأب قبل كل الدهور. كل شئ به كان، الذى من أجل خلاصنا تجسد، وعاش بين البشر، تالم وقام فى اليوم الثالث، وصعد الى الاب وسيأتى ثانية فى مجده ليدين الأحياء والأموات، نومن بالروح القدس الواحد. نؤمن

بطريك انطاكـيـه هولا الذين هم ابا الامـانة الارتدكسيه فانقذهم الرب من يده وخلصهم، فمضى اتناسيوس مع ليباريوس الى روميه فلم يزل عنده الى ان مات قسطنطيوس وملك ابنه قسطس بعده. وكان ارتدكسيا، فساعة جلوسه امر باعادة اثناسيوس الى كرسيه.

وكان فى ذلك الزمان كيرلس بطريرك اورشليم وظهر على يده اعجوبه عظيمه، وذلك ان عمود نور ظهر على قبر السيد المسيح مخلصنا، وشاهده

بوجود ودوام كل ذلك.الآب فى الحق هو الآب، والابن هو الابن، والروح القدس هو الروح القدس. كما فعل سيدنا حين بعث تلاميذه ليبشرا بالانجيل قائلا: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ٢٨ / ١٩).

نحن مستمسكون بالايمان هذا، وعليه نحيا ونموت، لاعنين كل هرطقة دئسة، ونشهد الله القدير وربنا يسوع المسيح، ا ننا كنا نعتقد هكذا بملء قلوبنا وبروحنا منذ وعت نفوسنا ذواتنا، ونملك من الأدلة ما يريكم بل ويقنعكم أنا بهذا أمنا وكرزنا.

«عندما أفصحنا عن هذه العقيدة، لم يكن هناك من يفندها، بل ان امبراطورنا الحبيب نفسه كان أول الشهود على صدق ايماننا، وتوافقت معها آراؤه، وراح يحث الآخرين على التوقيع عليها وقبول كل ما احتوته من عقيدة على أن تضاف اليها عبارة واحدة هى «من نفس الجوهر» «الهوموسية "Homoousius" (Consubstantial) وأوضح الامبراطور أن هذه الاضافة لاتعنى أية صفات جدية أو تحول، لأن الابن لم يشتق وجوده من الآب بانقسام أو انبثاق، ذلك أن الطبيعة اللامادية المجردة اللاجسدية لا يمكن بحال أن تخضع لصفة جسدية أو تحول، تلك أمور ينبغى ادراكها باعتبارها تعاليم علوية خفية، على هذه الشاكلة حاج امبراطورنا التقى الحكيم. وقد أسفرت اضافة عبارة «من نفس الجوهر» عن ايجاد الصيغة التالية:

جماعه من الروم وكل من فى المدينه وما يجاورها حضروا وشاهدوه، ومكث من الساعه التالتة الى التاسعه والناس يسعون الى نظره من كل مكان، وكتب كيرلس الى قسطنطيوس الملك فعلمه بهذه العجوبه.

وكان الملك يحب اتناسيوس. لما عاد [اتناسيوس] الى كرسيه اقام خمسا وعشرين سنه فى هدو وسلامه وكان له قبل ذلك فى الكرسى اتنان وعشرون سنه فى النفى والجهاد والاضطهاد.

تؤمن باله واحد. الله الاب. ضابط الكل. خالق السماء والأرض مايرى وما لا يرى، نومن برب واحد يسوع المسيح، المولود من الاب قبل كل الدهور. نور من نور. اله حق من اله حق. مولود غير مخلوق. مساو للاب فى الجوهر. الذى كل شئ به كان. هذا الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، تأنس وصلب على عهد بيلاطس النبطى. تالم وقبر وقام من بين الاموات فى اليوم التالت كما فى الكتب. وصعد إلى السماوات وجلس عن يمين أبيه، وأيضا يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات، الذى ليس لملكه انقضاء».

وعندما سجلوا هذه الصيغة لم نتركها دون فحص فى جزئها القائل بأن الابن من نفس جوهر الآب وبرزت مساءلات ونقاش، وبحث بدقة تامة مضمون هذا القول وعليه فقد اقتيدوا للاعتراف بأن عبارة «من نفس الجوهر» تعنى أن الابن من الاب، وليس جزءا منه، ومن ثم فقد رأينا من الصواب تقبل هذا الرأى حبا فى السلام، وخشية الانحراف عن قويم الايمان. ولنفس العلة قبلنا عبارة «مولود غير مخلوق» فقد قالوا ان كلمة مخلوق تنسحب على سائر الخلائق، ولا يصح أن يكون الابن شبيها بها ، وعلى هذا فهو ليس بشئ مخلوق، ولكنه من جوهر أعلى عن كافة الخلائق. والكتاب المقدس يعلم بأنه مولود من الآب بطريقة يصعب ادراكها ولا يمكن التعبير عنها لبنى البشر. ونفس الشئ يخص عبارة «من نفس الجوهر مع الاب» وعندما

ومات قسطس وملك بعده يوليانوس [چوليان] الكافر الرومى الوثنى، وكان ابن اخت قسطنطين الملك الكبير فبدا من ساعته بفتح البرابى. وكان بانطاكيه مقيما لنه [لأنه] لم يستحق ان يكن فى مسكن العظيم قسطنطين. ومضى الى موضع الاوثان واخذ صقرا دفعه لكاهن الاوثان فقربه للشيطان واخذ هو قلبه فاكله. وكان له ابن اخت اسمه ايضا يوليانوس كافر مثل خاله فاخذ القس تاوضوريتس المومن فقتله، وجا الى خاله


يوليانوس [چوليان المرتد]

فحصنا ذلك قبلناه لا على معنى اتصاله بالجسد أو مشابهته بالكائنات الفانية، وقد اتضح أيضا أن هذا لا يعنى انقساما فى الجوهر أو انبثاقا أو تحولا أو تغييرا أو تضاؤلا لقدرة الاب، فذلك كله غريب عن طبيعة الغير مولود. ولقد استقر الرأى على أن القول بعبارة «من نفس الجوهر مع الاب» تعنى أن ابن الله لايشبه، بأى حال من الأحوال المخلوقات التى جبلها، ولكنه بالنسبة للآب، الذى ولده، مثيل له تماما فى كل شئ لأنه من جوهر وفحوى الاب. وبعد أن أعطى هذا التفسير للعقيدة، بدا لنا صواب موافقتنا عليه، خاصة وأننا ندرك أن القدامى من مشاهير الأساقفة والكتبة، قد استعملوا عبارة «من نفس الجوهر» للتدليل على الوهية الاب والابن.

«وتلكم هى الظروف التى رأيت لزاما على ابلاغكم اياها حول الصيغة التى نشرت عن الايمان، ولقد وافق عليها جمعنا بعد تمحيص وفحص للآراء دقيق فى حضرة امبراطورنا الحبيب. ومن أجل الدواعى التى سبق لنا ذكرها قبلنا جميعا هذه الصيغة، لانها تحرم استخدام الالفاظ التى لم ترد فى ا لكتاب المقدس، والتى بسببها قام النزاع والشقاق داخل الكنيسة، وحيث أن الكتاب المقدس أو ماهو من شكلها، بدا لنا عدم معقولية تداول هذه العبارات، واقتناعا بهذا الرأى، رأينا صواب الموافقة لاننا لم نسمع من قبل ولا اعتدنا مثل هذه التعبيرات.

٢٠: اتناسيوس ٣٧٣/٣٢٦

واعلمه بقتله فغضب عليه وقال له: ما كنت اريد ان تقتله لان النصارى يفتخرون اذا قتلو ويقولون انهم قد صارو شهدا، لكن انا اقرر ان عدت من قتال الفرس ان يوخد من كل واحد من النصارى تلت اواق بقطا(*). يريد بهذا ان يضيق على النصارى حتى يعبدو اوثانه لانهم لا يقدرون على البقط.

(*) البقط: هو الغرامة والضريبة.

وكانت البيعه يوم اذ [يومئذ] غنيه ولها اربعة اعمده يحملونها وهم اتناسيوس البطرك

وزيادة على ذلك فان ادانة القول بأن «الابن لم يكن قبل أن يولد» لم يرد عبارات من قبيل «من العدم» و«وكان هناك وقت الابن فيه لم يكن» لاتبدو متضمنة عدم تناسب أو ملاءمة، فالجمع متفق على حقيقة أنه ابن الله قبل ولادته بالجسد. ولقد راح امبراطورنا محبوب الرب يفسر أصل الابن الألهي ووجوده قبل كل الدهور، لأنه بحق كان فى الآب دون توالد حتى قبل ولادته، فالآب دوما هو الآب. تماما كما أنه على الدوام الملك المخلص، وبحق هو كل شئ لم يعتوره تغير أو تبديل»(١).

هذه صورة لما دار فى المجمع النيقى المنعقد فى مطلع القرن الرابع للبحث عن قانون للايمان القويم ترتضيه الكنيسة الجامعة، ونعلم من أثناسيوس (٢) أيضا أن مسألة الاتفاق على صيغة لهذا القانون لم تكن سهلة ميسرة. فقد طلب بداءة الى الفريق الاريوسى أن يعرض آراءه، ولما تم ذلك تولى الأساقفة المعارضون الرد عليها وشجبها، واستغرق ذلك فترة من وقت المجمع ليست بالوجيزة، وبعدها راح المؤتمرون يناقشون حول الصيغة التى يبتغونها حتى توصلوا اليها على النحو الذى اعلمنا اياه يوساب.

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 8; THEOD. hist, eccl. I, 11.
(2) ATHANAS. de decr. II, 3.

وانطونيوس وبخوم الراهبان بمصر، وباسيليوس اسقف قيساريه كبادوكيه. وكان ليواريوس بطرك روميه، وباسيليوس المذكور كان صديقا ليوليانوس الملك وتربى معه فى المكتب [المدرسة]، فلما سمع مقالته الرديه اخذ اسقفين معه ومضوا اليه فتامل لباسهم ولحاهم ثم قال لهم: ماذا تطلبون؟ قالوا: نطلب راعيا جيدا يرعانا. فقال لباسيليوس: اين خليت ابن النجار وجيت [جئت] الى هاهنا؟. قال له باسيليوس: تركته يعمل تابوتك ليجعلك

يتضح من رسالة يوساب أن أهم نقطتين للخلاف بين الفريقين انحصرت فى مساواة الابن بالآب فى الجوهر والأزلية، فهذه تمسك بها مناهضو الاريوسية التى أصر أتباعها على القول بأن الابن مشابه للأب فى الجوهر «الهومويوسية» Homoiousius وليس مساويا له فى الأزلية لأن الرب سابق عليه فى الوجود وهناك فترة لم يكن فيها الابن[1]. والثانية القول بالخلق أو الولادة. فالآريوسيون لم يفرقوا بين كلمتى مولود ومخلوق، فهم يستخدمون اللفظتين للتعبير عن نفس المعنى، وتلك حقيقة تلمسها من رسالة يوساب القيسارى الى أهل بيعته، ففى قانون ايمانه الذى قدمه الى المجمع النيقى لم يذكر شيئا من هذا القبيل، ولكنا وجدنا عبارة «مولود غير مخلوق» قد احتواها قانون الايمان النيقى، ويذكر يوساب بعد ذلك أن المجمع ارتأى وضع هذه العبارة معللا بأن كلمة مخلوق تنسحب على سائر الأشياء التى خلقت بالابن، ولا يصح أن يكون الابن شبيها بها، وعلى هذا فهو ليس شئ مخلوق شأن ما خلقه بيده، ولكنه من

---

(١) من الطريف أن هذا الخلاف العقيدى بين الفريقين، ينحصر لغويا فى حرف اليوتا "i" اليونانى فالمساواة فى الجوهر «الهوموسية Homoousius» التى أقرها مجمع نيقيةن، اذا ما ادخلنا عليها حرف "i" تحولت الكملة الى ا لفريق المضاد لتعنى «لتشابه فى الجوهر» الهومويوسية Homoiousius». وان كانت هذه الأخيرة لم تأخذ حظها من الذيوع والانتشار الا فى عهد الامبراطور قسطنطيوسConstantius (٣٣٧ ـ ٣٦١) ابن قسطنطين، عندما أصبحت العقيدة الرسمية لاحدى الفرق التى تشعبت اليها الآريوسية فيما بعد، والتى أصبحت تعرف باسم أنصاف الآريوسيين Semi - Arians.

فيه. قال له الملك: لو لا انك صديقى ولك عندى محبة لضربت الساعه رقبت. قال له باسيليوس: اليس قد كنت محبا للعلم مشتهيا له فكيف تركت الحكمه. قال له الملك: قرائتها وحفظتها ورذلتها. قال له باسيليوس: ما قرائتها جيدا ولا حفظته ولو عرفتها وحفظتها ما رذلتها. قال له الملك: الواجب ان اعتقلكم الى ان اعود من قتال الفرس فتنظرو ما يكون. قال له باسيليوس. ان مضيت وعدت ما تكلم الله فى. قال يوليانوس

جوهر أعلى عن كافة الخلائق[١]. أما الفريق الآريوسى فلا يفرق فى المعنى بين هذه وتلك، وذلك واضح من قول آريوس حيث يذكر «انه قبل أن ولد أو خلق.. لم يكن»[٢].

على أن الذى يعنينا من رسالة يوساب وكتابات المعاصرين ذلك الدور الذى لعبه الامبراطور فى المجمع، فقد أسلفنا أنه أمسك بدفة المناقشة يديرها يستحسن ويستهجن، ويؤيد هذا ويعارض ذاك، وكان من قبل قد دعا الحضور الى سحب شكاياتهم ثم أمر بحرقها جميعها، الى هذا الحد يمكن مجاراة قسطنطين فيما قام به، أما أن يتدخل الامبراطور فى شأن العقيدة ذاتها بالاضافة أو الحذف، فذلك شئ يدعو للتساؤل حقا، اذا كان الامبراطور قد سمح لفسه أن يفعل هذا، فكيف تسمح له الكنيسة اذن أن يقدم على ذلك؟!

لقد وقفنا على عدم المام الامبراطور بأمور العقيدة من رسالته التى بعثها الى اسكندر وآريوس منذ عدة أشهر، وبينما هو ينعت نقاط الجدال بالتفاهة، اذا به يترأس مجمع الأساقفة ويوجه المناقشة، ثم يقترح أيضا نصا فى جوهر العقيدة، يصبح أحد عمد قانون الايمان القويم بعد ذلك، والكنيسة به معتزة له حافظة! لقد علمنا أن حقيقة الخلاف بين الآريوسيين وخصومهم كامنة فى مساواة الابن بالآب فى الجوهر أو عدمه، ولما عرض يوساب قانون ايمان بيعته، جاء

(1) SOCRAT. hist. eccl. I. 8.

(2) THEOD. hist. eccl. I, 4; Lietzmenn, op. cit. p. 109.

الملك: ماذا اصنع بهذا الجليلي الكذاب القايل ساهدم الهيكل الذى هو بنا [بناء] اليهود، وابنيه بنا الملك ويظهر لكل احد ان قوله لا ينبى كذب.

ثم انه طرح باسيليوس والاثنين اللذين معه فى الاعتقال، وسار الى بلاد الفرس وعبر على يروشليم وراى الهيكل قد خرب ولم يبق فيه حايط قايم، لانه كان اسباسيانوس الملك قد اخربه لما اهلك اليهود وسباهم وامر [يوليانوس] ان يكنس ويبنى جديدا. وسار يوليانوس المذكور بعد

خلوا من هذه العبارة، ورغم لك فقد ارتضاها الجمع وشهدوا بأرثوذكسيتها، وراح الامبراطور يحثهم على تعضيدها مقترحا فى نفس الوقت اضافة عبارة «من نفس الجوهر» وتلك نقطة على جانب من الأهمية كبير، ذلك أن وثيقة هامة يرتكن اليها أعداء الآريوسية أعنى رسالة اسكندر السكندرى الى زملائه الأساقفة، لم تتضمن شيئا من هذا القبيل، كما أن رسالته الى سميه البيزنطى لم تحوها. يضاف الى هذا أيضا أن مجمع أنطاكية المنعقد سنة ٣٢٤ تحت رئاسة هوسيوس الأسقف الأسبانى، ولم يشر الى هذا النص فى قليل أو كثير. وان كان الحزب المعادى للآريوسية يمتلك سببا وجيها لتجنب مثل هذا القول، فديونيسيوس Dionysius الكبير أسقف الاسكندرية خلال اضطهاد دكيوس Decius وڤاليريان Valerianus كان قد رفضها صراحة أثناء محاوراته مع بعض أساقفة ليبيا، ولو أنه احتراما لسميه أسقف روما اضطر أخيرا لقبولها، وان كان قد فعل ذلك على كره منه وبتحفظ شديد[١]. ويقول جونز انه اذا كانت الهوموسية مكروهة تماما فى الشرق لدى عدد كبير من المثقفين، فأنها كانت مقبولة فى الغرب الغير فلسفى لمدة تزيد على قرن. وقد رأينا البابا ديونيسيوس يضطر الأسقف السكندرى للموافقة، ولو مع التحفظ، على هذا المصطلح[٢].

(1) Hefele, op, cit. I, 1. 342 - 346. Jones. Constantine, p. 161; Lietzmenn, op. cit. PP. 95 - 99; Duchesne, *op. cit.* II, p. 154.

(2) Jones, Constantine, p. 162.

ان استخلف من يتولى العماره، فبدا متولى عمارة الموضع بان هدم بقية الهيكل حتى لم يبق فيه حجر على حجر كما قال الانجيل المقدس، وشرع في البنا الجديد ليبنيه بربا، فكانو الفعله يبنون النهار كله الى الليل وينصرفون فاذا جا[ء]و بالغداه يجدون كلما بنوه مهدوما بغير يد إنسان، بل يجدون الحيطان مقلوعه من اصولها مطروحه على الارض. فمكثو هكذا شهرين لم يقدرو على عمارة شى، فقالو لهم اليهود احرقو هذه القبور

ولكن الذى يدعو للتساؤل حقا، هو انه اذا كان الأساقفة قد أجازوا ايمان كنيسة قيسارية الذى قدمه أسقفها. فما الذى حدا بالامبراطور اذن الى اقتراح مثل هذه الاضافة؟ ولم يكن اقتراح الأمبراطور الا أمرا واجب التنفيذ.

لعله من معقول القول أن نذكر أن الامبراطور كان واثقا تمام الثقة أن أساقفة الشرق وعلى رأسهم اسكندر لن يعارضوا هذه الارادة التى فرضت قولا ما كانوا يقبلونه قبلا، ولما كان الامبراطور غير عالم بمسائل العقيدة الغامضة، وكان هذا المصطلح سائدا فى الغرب، فلا يبعد أن يكون مستشاره لشئون العقيدة هوسيوس الأسقف الغربى هو الذى أوحى اليه بهذا المصطلح [1]، وربما يكون هويسوس قد ضمن سكوت الأسقف السكندرى وعدم احتجاجه على هذا الاقتراح باتفاق أجراه معه خاصة وأن أسكندر كانت أمامه سابقة فى تجاوز سلفه ديونيسيوس الكبير عنها وان كان مرغما[2].

وكان نفور قسطنطين من غموض المسائل العقيدية دافعا له على تقبل أى اقتراح يوحى به اليه ذلك الأسقف الأسبانى، فقد كان هوسيوس يمثل على الاقل فى هذه الآونة وجهة نظر الغرب. وقد رأى الأمبراطور أن اجابة هوسيوس الى مطلبه كفيلة بأن تجعل كنائس غرب

(1) Hefele. op. Cit. I, 1. pp. 342 - 346; Duchesne, op. cit. p. 155.

(2) Jones, Constantine, p. 162.

التى فيـهـا النـصـارى وحـينذ يثبت لكم البنا الذى تبنونه ففعلو ذلك وطرحـو النار فى القـبـور، وبدو بقبرين فيهـمـا جسـد اليشع النبى وجسـد يوحنا المعمدانى فلم تتسلط عليهما النار باجمله، فكثر تعـجـبـهـم، واقـامت النار عـدة ايام تشـعل ولـم تدن منهـمـا، فـمـضى بعض المومنين الى الوالى وبذلو له مالا على ان يمكنهم من اخد الجسدين اللذين فى القبرين فاخد المال وفسح [سـمـح] لهم فى ذلك، فـاخـدو الجـسـدين القـدسين وانفـدوهمـا الى الاب

الامبراطورية تقف مؤيدة لأى قانون يصدره المجمع بخصوص العقيدة، ومن نفس الزاوية ننظر أيضا الى موافقة الامبراطور والأساقفة على قانون الايمان اليوسابى القيسارى. فقد كان يوساب بعقيدته يمثل الفريق المعتدل بين الأحزاب المتصارعة [1]، وقد اتضح هذا فى موقفه وزملائه أساقفة فلسطين تجاه آريوس واسكندر سنة ٣٢٤.

وهكذا أيقن الامبـراطور أن المواقفة على قانون للايمان تقبله كنائس الغرب، ولا ترفـضـه كنائس الشرق، واضافة نص ترتضيـه هذه ولا سبيل لتلك للاعتراض عليه، طريق الى توحيد صفوف الكنيسة فى الشرق والغرب وجمعها على كلمة سواء. وذلك واضح من قول يوساب فى رسـالتـه أن الامبـراطور كد لشرح معنى هذه الاضـافة وراح يحث جمـوع الأسـاقـفـة على الايمان بها، ولم يجد الامبراطور عناء فى حمل هؤلاء على التصديق على ما يريد خاصة وأن معظم المعادين للآريوسية حاضرى المجمع كانوا على درجة من السذاجة تؤهلهم لعدم معرفة هذه الأمـور اللاهوتيـة العـمـيـقـة، وذلك شئ نقف عليـه من سـوزومين نفسـه عند حـديثـه عن صـفـوف الوافـدين [2]. وان كـان هذا لا ينفى وجود بعض المتضلعين من المسائل اللاهوتيـة. وتفصح رسالة يوساب أن الأسـاقفة أجبروا على الموافـقة، ونلمح فى قـوله طوال رسالتـه نبـرة

(1) Latourette, Christianity, 154 - 155.

(2) SOZOM. hist. eccl. I, 17.

اتناسيوس بطرك اسكندريه، فلما وصلا اليه فرح بهما كانه قد شاهدهما حيين واخدهما واخفاهما في موضع الى ان يجد السبيل فيبنى عليهما بيعه.

وبينما اتناسيوس جالس ذات يوم وعنده جماعه من المومنين ليسمعوا كلامه الذى به حياة نفوسهم اذا رفع عينيه فنظر اكواما اطلالا مقابل المكان الذى كان فيه فقال: أن وجدت زمانا بنيت هذه الاكوام بيعه ليوحنا المعمدان واليشع النبي. وكان تاوفيلس كاتبه جالسا معه على المايده [المائدة]

امتعاض لما أدخل على عقيدته من أضافات لم تعرفها قبلا. وذلك شئ واضح في مقدمة رسالته ونهايتها. وكأنه يعتذر لرعيته عن الاسباب الى دفعته الى قبول ذلك «ايثارا للسلام وخشية الانحراف عن قويم الايمان»، ويؤكد هذا القول ما يذكره سوزومين[1] من أن يوساب قد تباطأ قليلاً في التوقيع على قانون الايمان النيقي.

ولقد كان طبيعيا أن يعترض الفريق الاريوسي على قانون الايمان هذا، ويخبرنا سوزومين أن عدد من وقفوا الى جوار آريوس في أول الأمر قد بلغ سبعة عشر أسقفا [2]، استسلمت غالبيتهم حتى وصلوا بعد ذلك الى خمسة أساقفة هم يوساب أسقف نيقوميديا وثيوجنيس Theignis أسقف نيقيه، وماريس Maris أسقف خلقيدونية، وثيوناس Theonasأسقف مارماريكا Marmarica وسكوندوس Secundus أسقف بطوليمايا Ptolemais[3] وان كان مجمع نيقية في رسالته الى الاسكندرية بخصوص هذا الأمر قد ذكر أسماء الأساقفة الثلاثة الاخيرين فقط [4]. إلا أن هؤلاء الاساقفة قد وافقوا فيما بعد على قانون الايمان النيقي وان لم

(1) SOZOM. hist. eccl. I, 24.

(2) Ibid. 20.

(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.

(4) THEOD. hist. eccl. I, 8.

وجماعة من المومنين، فسمعه اذا قال هذا القول وبقى فى نفسه.

فأما يوليانوس الملك الكافر فمضى الى الفرس فاسلمه الله فى يد اعداه لاجل القديسين الذين اعتقلهم قبل مسيره وتواعدهم وكان موته انه نظر فى الليل جندا وقد نزلو عليه من الجو وضربه احدهم برمح فى راسه حتى انتهى إلى بطنه، فعلم انه احد الشهدا فملا يده من الدم ورمى به الى فوق وقال. خد هذا يسوع فقد اخدت المكان

يوافقوا على قرار حرمان آريوس [١]. ولم يعترض على قانون الايمان جملة وتفصيلا سوى آريوس وزميل آخر له يدعى يوزيوس Euzious[٢]. ويخبرنا سوزومين أن الامبراطور قد تهدد بالعقاب والنفى كل من يخالف رأى الجمع [٣]. على هذا النحو ندرك أن مجمع نيقية كانت تمثل فيه اتجاهات ثلاث، حزبان متطرفان يقف كل منهما ضد الآخر، الأول يتزعمه اريوس وثيوناس وسكوندوس ويوساب النيقوميدى، والآخر على رأسه ما ركللوس أسقف أنقره وأثناسيوس الشماس المصرى، وبين هذين الحزبين ثالث معتدل يكره الابتداع[٤].

هكذا أقر الجمع أن الابن مساو للاب فى الجوهر والأزلية، وحرم كل من يقول بغير هذا، أو أنه قبل ولادته لم يكن، أو أنه من العدم وجد[٥] وكذلك تقرر حرمان آريوس ومريديه ومنعه واياهم من دخول الاسكندرية[٦]، كما قرر الجمع اعدام عمله الذى وضعه فى هذا المعنى والمسمى ثاليا Thalia[٧].

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.
(2) SOZOM. hist. eccl. I, 20.
(3) Ibid. 25.
(4) F. Jaclson op. cit. pp. 306 - 3/7.
(5) SOZOM. hist. eccl. I, 21.
(6) Id.
(7) ATHANAS. orat. C. Arian. I, 4.

كامل. فلما جدف وقع ميتا ونجى الله شعبه وعاد الروم الى مساكنهم.

وكان ياسيليوس القديس قبل موت يوليانوس بتلته ايام وهو في السجن قد استيقظ من النوم فقال للاتنين اللذين معه: رايت الليله الشهيد ابا مرقوره وقد دخل الى بيعته واخذ رمحه وقال حقا ما اترك هذا الكافر يجدف على الهى ولما قال هذا غاب عنى ولم ارجع ابصره. فقال له كل

وحملت الأنباء هذه الى كنيسة الاسكندرية رسالة بعث بها أساقفة المجمع جاء فيها:

«الى كنيسة الاسكندرية، التى حازت بفضل من الله ونعمة كل عظمة وقداسة، الى الاخوة الأحباء فى مصر وليبيا والمدائن الخمس.. ترسل نحن أساقفه المجمع العظيم المنعقد فى نيقية تحية من عند الرب.

أما وقد انعقد مجمع نيقية بنعمة من الله، ورشد امبراطورنا التقى، الذى دعانا من مختلف الولايات والمدن، وجدناه حريا بنا أن نوافيكم برسالة المجمع المقدس، نعلمكم أى الأمور أثيرت ونوقشت وما تم عليه الاتفاق وتقرر:

بداءة، وفى حضر ة امبراطورنا الدين قسطنطين فحصت عقيدة اريوس الدنسة، وأجمع المجمع على ادانتها ولعنها، سواء مع لغة التجديف التى روج لها زاعما أن ابن الله جاء من عدم، وأنه ما كان قبل أن ولد. وأن هناك وقت لم يكن. وأن بمقدوره، وفق ارادته الحرة أن يتحكم فى الفضيلة والرذيلة.

لقد لعن المجمع المقدس كل هذه المهاترات ورفض السماع لهذه الآراء الدنسة الحمقى التى تفيض تجديفا. ولعلكم تعلمون القرار النهائى المتعلق به، أولعلكم ستسمعونه قريبا، ولكنا

٢٠: اتناسيوس ٣٢٦/ ٣٧٣

واحد منهما: حقا لقد رأيت انا ايضا هكذا سوا. فقال بعضهم لبعض : نحن نومن بذلك بالحقيقه انه يكون ، وانفدو الى بيعة الشهيد ابى مرقوره لينظرو رمحه الذى كان فيها هل هو باق ام لا، فلم يجدو الرمح فتحققو المنام. ومن بعد تلته ايام وصلت الكتب والاخبار الى انطاكيه بموته، فاجتمع وجوه المملكه واجلسو رجلا اسمه يوبيانوس على المملكه، وكان مومنا قديسا خايفا من الله منذ صباه. فساعة جلوسه اطلق الابا [ء]

نمسك الآن عن اذاعته حتى لا نبدو فى أعين الناس وكأنا نطأ رجلا نال لأجل خطاياه عادل القصاص»[1].

وقد بدأ الامبراطور فعلا ينفذ تهديداته التى قصد بها الأساقفة المخالفين لعقيدة المجمع الخارجين عن قانون ايمانه. فأمر بنفى آريوس خارج الاسكندرية هو وزميله يوزيوس[2] والحق بهما سكوندوس وثيوناس الى الليريا [3] وامتد قراره ليشمل أيضا يوساب النيقوميدى وثيوجنيس النيقى الى غالة [4] وخلفهما على كرسيى الأسقفيتين أمفيون Amphion وكرستوسChrestus على التوالى [5]، وذلك راجع لما يذكره سوزومين من أنه بعد مجمع نيقية مباشرة، اشتعلت مرة أخرى المناقشات الجدلية بين الفريقين فى كثير من المناطق وخاصة فى بيثينيا وهلسبونت والقسطنطينية، وراح يوساب وثيوجنس يعلمان، خلافا لما وقعا عليه فى نيقية، بأن الابن ليس من جوهر من الأب واحد، لما اتهم يوساب بذلك صراحة أمام الامبراطور، أصر فى جرأة على رأيه وقال موجها حديثه لقسطنطين «هب أن هذا الرداء قد

(1) THEOD, hist. eccl. I, 8.

(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

(3) Hefele, op. cit. I, 1, p. 450; Duchesne, op. cit II, p. 156.

(4) SOCRAT. hist, eccl. I, 8; Duchesne, op, cit, II, p. 156.

(5) SOZOM. hist, eccl, I, 21.

من السجن. وصح قول عمود الحق باسيليوس ليوليانوس الكافر انه لا يعود، كما كان ميخا النبى. قال لا خاب الملك الكافر ملك بنى إسرائيل لان الله صانع العجايب [العجائب] هو اله الاثنين، اعنى ذلك النبى وهذا الاب القديس الذى قبل قولهما. وقدم يوبيانوس الملك التلته الابا واكرمهم ودفع لهم كرامات كتيره وسيرهم الى كراسيهم. وكان يواصل الصلاه فى البيع فكتب الى اتناسيوس بطريرك اسكندريه كتابا يقول فيه: ايها

انفصم أمام ناظرى شطرين، لعجزت أن أحاج بأن أيا منهما ينتهى الى نفس المادة». فازداد الامبراطور حنقا وتولى حزنا ألا يجد أن المسألة العقائدية الشائكة لم تنته كلية بقرار مجمع نيقية، وهاهو يراهم ثانية ينشقون على أنفسهم (١). ويضيف أن الامبراطور أسف أشد الأسف لما أقدم عليه كل من يوساب وثيوجنس من قبول بعض السكندريين المعاقبين فى الكنيسة على الرغم من أن المجمع نصحهم بالتوبة على ما ورطوا فيه أنفسهم من «هرطقة»، وعلى الرغم من أن الامبراطور نفسه قد أوصى بنفيهم خارج اراضيهم باعتبارهم داعية الانقسام(٢). ولقد ضمن قسطنطين ذلك كله فى رسالة بعث بها الى أهالى نيقوميديا تقول:

«من تراه لقن الرعية البريئة هذه العقائد؟! من الواضح أنه يوساب شريك الطغاة جبروتهم سبب كل ما أقدم عليه ذلك الطاغوت(٣)، ولقد انجلت الحقيقة فأثبتت أن من ذبح من الأساقفة كانوا آخياراً.

ولست هنا بصدد سرد ما لحقنى من اهانات أتاها متأمر الفريق المضاد، بل لقد جاء امر ادا،

---

(1) Id.

(2) Ibid. II, 22.

(٣) يشير قسطنطين هنا الى ليكين وما كان من أواصر الصداقة التى تربط بين الأسقف وامبراطور النصف الشرقى من الامبراطورية قبل ذلك.

الاب الحقيقى الراعى المامون شهيد المسيح الاله، مملكتى ترتجيك جسدا فوق قلبك، وامسك قضيب الكهنوت واطرد به الدياب [الذئاب] الخاطفه عن الرعية الناطقه، اوليك الذين افواههم مملوه لعنه ومراره سم الأفاعى، وهم قتلة الانفس.

وقرى هذا الكتاب فى بيعه اسكندريه وانفده اتناسيوس البطرك الى اعمال مصر وقرى فى كنايسها تثبيتا للمومنين وتقوية لهم. فانطرد اصحاب اريوس وشتتو وحزنو، ثم مضى بعد هذا

اذا بعث بالعيون ترقبنى، ولم يأل جهدا فى جمع كتائب للجبابرة معضد، ولا يعتقدن أحد انى مدع شيئا أنا على اثباته قادر، عندى الدليل، فقد جئ بالأساقفة والقسيسين من أتباعه وقد قبض عليهم. ولكن لنتخط هذه الحقائق كلها، وماذكرتها الا لأجعل القوم من سلوكهم فى خجل، لا من أجل آثارة شعور بالندم.

غير أن هناك أمرا أخشاه، بات يقض مضجعى، رأيتكم قد جمعكم الاتهام واياه. لقد تأثرتم بعقيدة يوساب فضللتم بذلك طريق الصواب. ولكن ابلالكم يرجى اذا ما غنمتم أسقفا قلبه بقويم الايمان معلق، واذا ما جعلتم على الاله اتكالكم، ذلك شئ أنتم عليه قادرون، وقد كنتم ولا ريب تمنون انتهاجه لولا أن صرفكم عنه ذلك اليوساب، وطغمة تؤيده عاتية، استغلت السلطان فضاع النظام.

وانى لأرى لزاما على أن أحدتكم شيئا ماعن يوساب؛ فلعلكم تذكرون أن مجمعا عقد فى نيقية حضرته استجابة لنداء ضميرى، يدفعنى الرجاء فى الوحدة، وتسوقنى الحمية لاستئصال أذى أوقعته فتنة آريوس السكندرى، التى تأجج لهيبها بفعال يوساب الحمقى، ولكن، اخوتى وأحبابى، لا تدرون كيف أن يوساب ظل سادرا فى غيه الذى من الجمع أدين. ولقد راح يبعث لى خفية أناسا يرجوننى لأجله، وبذاته توسل الى يطلب عونى لوقف قرار عزله من أسقفيته، رغم أن جرائمة للعيان بادية. انى لعلى يقين بأن الله الذى يشملكم واياى بوافر أنعمه شاهد

(*) دفعوا هنا بمعنى دسوا له أكاذيب عند يوبيانوس.

بعضهم الى يوبيانوس الملك ودفعو(*) على الاب اتناسيوس فلم يلتفت اليهم لمعرفته بشرهم.

ثم ان اتناسيوس شاخ وكبر بعد انت كتب عده ميامر ومقالات وكتب لجل [لأجل] ملكيسداق ولاجل الاب انطونيس وذكر سيرته. وكتب سبعه واربعين ارتستكا. وكتب لاجل الصليب المقدس، وان السيد المسيح عمى به على ابليس حتى ظن انه انسان ساذج فلما تقدم اليه خرمه السيد فى انفه باصبعه التى تلى الخنصر وابهامه لما صيرها

على صدق قولى، ولقد غرر بى يوساب وخدعنى بعدئذ كما ستعلمون جليا، لقد كان يعمل وفق رغائبه، لقد امتلأ عقله بخفى الشرور. وانى وان كنت أحجم عن ذكر بقية أثامه. آراه حسنا انباءكم بخطية مؤخرا جناها، ومتواطئا مع ثيوجنس شريك تأمره، ولقد بعثت الى الاسكندرية بأوامرى فيما يخص أولئك الذين هجروا الايمان القويم وزادوا بوسائلهم نار الفرقة اشتعالا، ولكن هذا النفر من الاساقفة الذين شملتهم رحمة المجمع وعطفى أووا اليهم أولئك، وشاركوهم دنس أعمالهم. ومن ثم فقد قررت عقاب هؤلاء الجاحدين بالقبض عليهم ونفيهم الى مكان قصى(1).

أنه الآن واجبكم أن تتجهوا الى الله بنفس الايمان الذى تمسكتم به دوما. دعونا نسعد بتعيين أساقفه قويمين للخير محبين، واذا ما جرؤ أحد على أن يؤتى من لدنه ذكرا لهؤلاء المخربين فليعلم تماما أن قحته ستقمع بيد سلطة منحت لى لكونى للرب خادم. ليحفظكم الرب اخوتى الأحبة»(2).

وأرسل الامبراطور الى الأساقفة والأهلين فى كل مكان من الامبراطورية يخبرهم أن آريوس

---

(1) تم هذا الاجراء بعد ثلاثة أشهر من انتهاء مجمع نيقية حيث نفيا الى غالة. راجع:
Lietzmann. op. cit. p. 121; Jones. Constantine. p. 174.
(2) THEOD. hist. eccl. I, 19.

خلفه، أى انه اخرق قوته وشقها واضعفها، وارانا انه قد غلب قوة ابليس بالضعف، لان الاصبع الثانية للخنصر لا يعمل الانسان بها شيا وهى اضعف الاصابع ولم يقتله سريعا بل اضعف قوته كما قال الكتاب مزمور ٦٧ : يقوم الله ويهلك اعداه. وكتب تعاليم كثيره واشيا لا تحصى. وكان يكتب الى باسيليوس ويجاوبه باسيليوس عليها، وكان يخاطبه بابى. وكتب ايضا رساله الى ارسانيوس يعزيه بتاودورس اخيه لما تنيح، وقال فيه:

ورفاقه مبتدعون مضللون، وأن عليهم لعنة الله والامبراطور والأساقفة أجمعين(١). أما كتاباتهم «فاذا عثر على أية مقالة لأريوس، فلتقدم طعما للنار، وذلك بغية سحق مبادئه الدنيئة ومحو ذكراه الى الأبد، ومن ثم فانى قد قررت لئن ضبط أحد يخفى كتابا من وضع آريوس، ولم يتقدم به على التو ملقيا آياه فى النار، موتا يموت جزاء هذه الخطيئة، وفور انتهاء المحاكم سوف يلقى المذنب رادع الجزاء»(٢).

هكذا قرت عين الامبراطور بهذا الذى وصل اليه المجمع المسكونى الأول، وخيل اليه أنه بذلك قد كسب الجولة الثانية على أعداء الكنيسة حسب دعايته، فاذا كانت الأولى قد اقتنصها فى ميدان القتال، وضمن بلا ريب سياده منفردة فى طول الامبراطورية وعرضها، فقد نال الثانية لبعض حين وسط صراع جدلى عنيف، وعد الامبراطور هذا الأخير نصره الثانى على أعداء الله (٣). ويقول نورمان بينز تعليقا على ذلك «لقد كان مجمع نيقية فى حد ذاته تتمة ضرورية لنصر خريستوبوليس»(٤). وتدشينا لهذا النصر دعا قسطنطين جموع الأساقفة

---

(1) SOZOM. hist, eccl. I, 21.

(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 9.

(3) EVSEB. vita Const; III, 14.

(4) C. A. H. XII, p. 697.

ليت كلا منا ينال موضع تاودورس اخيك، وليت مركبنا ترسى فى مرساه. وكتب مقاله بين فيها ان الشر من ابليس خزاه الله وان ليس عند الله شر بالجمله.

ويقال ان هذا الاب اتناسيوس البطرك حمله ملاك الرب فى بعض اسفاره عندما كان هاربا من الملوك الكفره حتى اوصله إلى حيث اراد ، كما حمل الملاك حبقوق النبى من اورشليم الى بابل، وكما حمل حزقيال النبى من بابل الى يروشليم. وليس ذلك مستصعبا من فعل الله تعالى.

الحضور لحضور احتفاله بالعيد العشرينى Vicennalia لجلوسه على العرش [1]. ويعطينا يوساب صورة رائعة لهذا الاحتفال الذى شارك فيه الأساقفة الامبراطور طعامه وشرابه[٢]، ولما أذن مؤذن الرحيل دعا الامبراطور اليه جموع الأساقفة وطلب اليهم المثابرة للحفاظ على السلام وتجنب المناقشات والجدال الذى يقود الى النزاع والتخاصم، وأوصاهم بالتسامح مع بعضهم البعض، والتغاضى عن أخطائهم والتمسك بالمحبة والوئام[٣]، ثم تفضل الامبراطور فزود كلا منهم بهدية تتفق ومرتبته الكهنوتية، وامتدت نعماؤه لتشمل أيضا أولئك الذين لم يسعدهم قدرهم بحضور المجمع[٤] واتسعت دائرة عطاياه لتشمل كافة الناس فى المدن والقرى ابتهاجا بهذه المناسبة السعيدة، وهى الاحتفال بعيد جلوسه العشرين الذى وافق انتصار الكنيسة فى مجمع نيقية[٥]. وسلم الامبراطور كل أسقف رسالة الى كنيسته تضمنت تمجيدا لشخصه وفضله فى عقد مثل هذا المجمع الكبير واشادة بجميل صنعه[٦]، وحثا للجميع على

....

(1) ECSEB. vita Const, III, 14.
(2) Ibid. 15.
(3) Ibid. 21.
(4) Ibid. 16.
(5) EVSEB. vita Const. III, 22.
(6) Ibid. 17.

وكـــان باسكندريه صنم يســـمى «زرابل» [زرابيس] فلما توعك اتناسيوس وقربت نياحته قال: ان وجدت عند سيدى المسيح رحمة فانا اسجد بين يديه ولا ارفع وجهى حتى يغلق باب هذا الصنم، فشهدو كهنة اسكندريه ان بعد سبعة ايام من يوم وفاته انفذ الملك وسد باب البربا الذى فـيــه الصنم. [وهذا الاب اول من لبس شكل (تياب) الرهبنه من يد القديس العظيم انطونيوس وجعله رسما لكل البطاركه والاساقفه، وهو الذى

اتخاذ هذه الوحدة التى تمت باجتماع هؤلاء الأساقفة مثلا يحتذى، والانصياع لقرارات المجمع. ثم راح يحدثهم قائلا:

«يقينا بالبرهان. حفاظا على رخاء ورفاهية الامبراطورية، فكم كان فضل الله علينا عظيما. قررت أنه ينبغى أن يكون أول هدف فى مسعاى تحقيق وحدة الايمان وصادق المحبة، وجماعية المشاعر فيما يخص عبادة القدير، وذلك لأنا نبغى أن تحفظ هذه الوحدة بين الرعية الكبيرة التى تكون جماعة الكنيسة الكاثوليكية، ولما كان الحفاظ على هذا لا يتأتى لا اذا تلاقى فى الاساقفة جمع كبير أو على الأقل غالبيتهم فى مجمع واحد، والا اذا تدارسوا كل التفاصيل المتصلة بعقيدتنا المقدسة ـ لم يكن هناك بد من جمع أكبر عدد ممكن فى مجمع عام. وقد حضرت بنفسى هذا المجمع فردا عاديا وكأنى أحدكم، وأنى لفرح فخور بأن أجد نفسى زميلكم، وقد فحص كل موضوع بعناية فائقة حتى تبين لنا قضاء الله وحكمه الذى أحاط بكل شئ علما، والذى شاء لنا باقرار ما اتفقنا عليه ذلك الأمر الذى يهدى خطانا الى الوحدة والوئام، وعلى مرأى من الجميع انبلج هذا القرار، فلم يعد هناك مكان لجدل ولا محل لنزاع يخص الايمان (١).. فلتقبلوا اذن بكل رغبة وحازم الارادة هذا الايضاح الالهى الحق. ولتنظروه

(1) Id.

اوسم القديس انطونيوس قسا وقمصا. تنيح هذا الاب فى السابع من بشنس وقيل فى العشرين من توت. بركة صلاته تكون معنا امين].

السيرة التاسعه من سير البيعه المقدسه

بطرس البطرك

[٣٧٣ / ٣٨٠]

وهو من العدد الحادى والعشرون

ولم تنيح اتناسيوس الرسولى البطرك اجتمع

بأنه الحق المبين، ومن عند الله هبة. فما يقره مجمع الآساقفة المقدس خليق أن يعد تعبيرا لارادة السماء»[1].

واضح من هذه الرسالة مدى الجهد الذى بذله قسطنطين فى سبيل تجميع أكبر عدد ممكن من رجال الكنيسة ومدى الرغبة التى كانت تحدوه من وراء السعى الدائم الى اتخاذ هذا العمل ونجاحه، وهى «وحدة الرغبة» على حد تعبيره، وبالتالى وحدة الدولة، فقد كان هذا هو كل ما يحرص عليه قسطنطين.

واذا كان قد جاء فى رسالة الامبراطور هذه أنه «واحد من الأساقفة» أو أنه «زميل لهم» فهذه النغمة ليست جديدة على قسطنطين ولا تصرفنا عن الحقيقة الواضحة وهى يقينه الكامل بأنه رأس الدولة والكنيسة، والحاكم السياسى والقائد العسكرى والكاهن الأعلى ورئيس الاساقفة، وهذا شئ أنبأتنا عنه الاحداث، وافصحت عنه رسالته الى ملتيادس أسقف روما، وسياسته تجاه الدوناتيين، ورئاسته لمجمع نيقية، «وقهره» الاساقفة فيه على قبول صيغة الايمان التى ارتضاها بوحى من مستشاره الدينى وسوف تكشف عنه أيضا سنوات عمره الاتية.

لم يقف نشاط المجمع عند بحث المشكلة الآريوسية وحدها، بل تعرض لعدد آخر من

---

(1) Ibid. 20.

الاساقفه والكهنه والشعب الارتدكسي ووضعو ايديهم على رجل قس اسمه بطرس واوسموه بطركا، فجرى عليه بلايا كثيرة من رجل كافر اسمه لوكيوس من قبل بلاديوس الكاتب بغير امر الملك، ومن بعد ايام بلغ الخبر الملك فانفد اميرا قبض على لوكيوس الكافر وبلاديوس الكاتب وانفدهما الى النفي ومكثا فيه الى حين وفاتهما.

واقام الاب بطرس بطركا تمانى سنين وتنيح فى العشرين من امشير.

المسائل الى تهم الكنيسة، مثل مسألتي تحديد عيد الفصح وعماد الهراطقة[١] الا ان هذه الأمور لا يعنينا منها الان ما قر عليه فيها رأى المجمع ولكن الذى يهمنا حقا هو المشكلة الآخرى التى تعرض مجمع الأساقفة لبحثها وهى المسألة المليتية الكامنة فى مصر [٢].

تعود جذور هذه المشكلة الى الأيام العصيبة التى عاشتها المسيحية ابان فترة الاضطهاد الأعظم على عهد دقلديانوس وجاليريوس وماكسيمين، فيخبر يوساب أن بطرس أسقف الاسكندرية الذى خلف ثيوناس فى هذا المنصب [٣]، قد قبض عليه وسيق مع عدد من القسوس هم فوستوس Phostus وديوس Dius مون Ammonius الى ساحة السجن واقتيد معهم أيضا فيلياسPhileasأسقف كنيسة تمويسThmuis (تمى الأمديد)، وهو رجل اشتهر بعلومه الفلسفية وكريم أصله[٤] وهسيكيوس Hesychius وباخوم Pachomius وثيودور Theodore وهم الأساقفة فى الكنائس المصرية المختلفة [٥] وفى السنة التاسعة للاضطهاد «كلل بطرس ورفاقه بأكاليل الشهادة» [٦].

(1) EVSSB. vita Const, III, 18; Hefele. op. Cit. I, 1.
(2) Hefele. op. cir. I, 1, p. 488.
(3) EVSEB, hist eccl. VII, 32.
(4) EVSEB, hist. eccl. VIII, 9.
(5) Ibid. 13.
(6) Ibid. VII .32.

السيره العاشره من سير البيعه المقدسه

تيماتاوس [الاول] البطرك

[٣٨٠ / ٣٨٥]

وهو من عدد الابا التانى والعشرون

واجتمع الشعب والاساقفه بعد وفاة الاب بطرس ووضعو ايديهم على قس اسمه تيماتاوس وجلعوه بطركا [على الكرسى الانجيلى المرقسى] وفى ايامه كان المجمع بالقسطنطينيه [سنة ٣٨١م] وعدته مايه وخمسون اسقفا، وقطعو

بايداع أولئك الأساقفة سجن الاضطهاد، آلت العناية الروحية لهذه المحافل الكنيسة الشاغرة الى أيدى جماعة من الأساقفة أو المبشرين الطوافين الذين كانوا لا يتمون عملهم مطلقا، وحتى الاسكندرية ذاتها غدت بلا رئيس روحى مذ أكره بطرس على ترك أسقفيته. فى هذه الظروف العسرة كان هناك رجل واحد أظهر أنه رجل الساعة هو مليتيوس Melitius أسقف أسيوط Lycopolis، فلم يكن ينتقل بين هذه البيع اليتيمة فحسب، بل راح يعين لها أساقفة جددا [١]، غير ان هذا السلوك لم يكن يتفق وتقاليد كنيسة الاسكندرية. فنحن نعلم من سوزومين ان لكل كنيسة فى الاسكندرية قسيسها وكنائس أخرى فى بعض مدن مصر عليها أساقفتها، ولم يكن يحق لأحد الانتقال من أسقفيته أو كنيسة الى غيرها، ثم يقول وتلك حال الاسكندرية دائما [٢] باعتبار أن أسقفها قد احتفظ لنفسه منذ فترة طويلة بهذا الحق فى رياسة كنائس الاقليم كله، وذلك شئ أكده مجمع نيقية فى قوانينه التى أصدرها، ففى القانون الخامس عشر حرم انتقال الأساقفة والقسيسين والشماسة من كنيسة لأخرى، ونص القانون السادس على اعطاء بطريرك الاسكندرية كل الحقوق التى كانت له من قديم على أساقفة مصر وليبيا والمدائن الخمس [٣].

(1) SOCRAT. hist. eccl. I. 24; Lietzmann, op. cit. p. 103; Hefele. op. cit. I, 1. p. 491.

(2) SORAT. hist. eccl. I, 15.

(3) Percival, the seven ecumenical councils, (Nicene and P.N.F.) PP. 15, 32.

مكدونيوس(*) الكافر بطرك القسطنطينيه مكان المجمع، واخر يسمى اونوميوس لانهما جدفا على روح القدس وقالا بكفرهما انه مخلوق، وذلك في ايام تاودوسيوس الملك المومن. واقام تيماتاوس جميع ايامه في هدو وسلام. وكان مدة مقامه على كرسى الاسكندريه تسع سنين ونصفا، وتوفى في السادس والعشرين من ابيب وهو متمسك بالامانه الارتدكسيه [حافظ رعيته بدعة وصار إلى المسيح الذى احبه صلاته معنا امين.

(*) مكدونيوس: كان أولا من حزب الاريوسيين وتمكن هؤلاء بواسطة نفوذهم عند قسطنس قيصر من أن يرسموه بطريركا لكرسى القسطنطينية سنة ٣٤٣م فدخل المدينة محفوظا بالجنود وثار شغب بين المؤمنين والاريوسيين قتل فيه كثيرون. وكان مكدونيوس يضطهد أتباع بولس البطريرك الشرعى المعزول حتى قيل أنه أرسل فخنقه.

وفيما بعد تغير قسطنس عليه لأنه نقل جثة أبيه قسطنطين من مدفن إلى

وربما يكن مليتيوس قد أراد بهذا العمل أن يجعل من نفسه أسقفا أعلى لمصر وأن ينقل الى أسيوط ما كان للاسكندرية حقا معلوما، أو لعله أراد الانتقال من أسقفيته الى الاسكندرية(١) وينبئنا تيودوريت أن هذه الفعال قد نمت الى علم بطرس وهو بعد في سجنه، فاستهجن هذا سلوك أسقف أسيوط ومن ثم قرر عزله من منصبه وحرمه(٢). غير أن الأسقف الأسيوطى لم يذعن لقرار العزل هذا وملأ طيبة والمناطق المجاورة لها فى مصر بالاضطراب والقلاقل على حد قول ثيودوريت(٣) الذى لابد أنه يعنى بذلك استمراره فى تعيين الأساقفة والقسس فى الكنائس الشاغرة، لأنه يضيف قائلا أنه تجاسر على التدخل فى شئون أسقفية الاسكندرية ذاتها، فعزل اثنين من قساوستها ورسم أخرين مكانهما(٤).

تلك رواية نقلناها عن شتات ماتبعثر حول مليتيوس عند مؤرخى الكنيسة، على أن هناك رواية أخرى يذكرها أيبفانيوس Epiphanius، وهى تقترب من سابقتها تقول ان بطرس بعد أن قبض عليه، دخل معه السجن مليتيوس وعدد من رجال الاكليروس، واستمر الاضطهاد فترة من الزمن نال فيها فريق من المسيحيين الشهادة بينما اشترى البعض الاخر أنفسهم

(1) Hefele, op. Cit. I, 1, p. 501.
(2) THEOD. hist. eccl. 1, 8.
(3) Id.
(4) Id. ; Duchesne, op. cit. II, PP. 98 - 99.

هذا الاب اطلق اكل اللحم للبطاركه والاساقفه والرهبان بسبب المنانيه لان المذكورين ما ياكلون اللحم، وبركه صلاته معنا امين].

السيره الحاديه عشره من سير البيعه المقدسه

تاوفيلس البطرك

[٣٨٥ / ٤١٢م]

وهو من عدد الابا التالت والعشرون

ولما تنيح الاب تيماتاوس اجتمع الاساقفه والشعب وقسمو تاوفيلس بطركا، وكان كاتب

آخر فأمر بطرده من كرسيه فطرد منه سنة ٣٦٠م على أنه لما كان بطريركا لم يكن يعلم الا تعليم اريوس الا أنه لما عزل أراد أن يكون مبتدعا بدعة جديدة. وكان المبتدعون الذين سبقوه قد انكروا لاهوت الآب ولاهوت الابن فـــأراد هو أن ينكر لاهوت الروح القدس فادعى أن الروح القدس عمل الهى منتشر فى الكون وليس باقنوم متميز عن الآب والابن واعتبره أنه مخلوق يشبه الملائكة لكنه ذو رتبة اسمى منهم.

وأموالهم بأن قدموا الأضحيات على مذبح أرباب الوثنية.وهكذا حرم هؤلاء بسلوكهم أنفسهم من الكنيسة، غير أنهم سرعان ما ندموا بعد بذلك واجتهدوا ليقبلوا فى الكنيسة ثانية عن طريق طلب الشهادة،وكان على رأس هؤلاء مليتيوس الذى أظهر اتجاها متذبذبا ـ على الأقل ـ طوال فترة الاضطهاد، ثم اختط لنفسه طريقا متشددا بعيد الأضطهاد، بينما ترأس بطرس قبل موته وخلفاؤه فريقا آخر تبنى الاتجاه المعتدل، وكانت مسألة الخلاف بين الفريقين هى قبول الخطاة ثانية فى الكنيسة، وهكذا وجدت كنيسة للشهداء يتزعمها مليتيوس تقف والضد من الكنيسة، الكاثوليكية(١) ولما أن راح أسقف أسيوط يرسم الأساقفة من لدنه غافلا بذلك عما جرى عليه العرف فى الكنيسة السكندرية، لم يكن أمام بطرس الا ان يصدر ضده قرارى العزل والحرمان، وتلك كلها مسائل أوقفتنا عليها رسالة مجمع نيقية الى كنيسة الاسكندرية بخصوص هذا الامر(٢).

ويمكننا التوفيق بين هاتين الروايتين اذا ذكرنا ما أورده لنا ابيفانيوس عن أصل هذا الخلاف، مما أوجد هذه الهوة العميقة بين بطرس ومليتيوس، فاختط الأخير لنفسه طريقا مخالفا، وأخذ يعين الأساقفة والقسيسين فى بعض الكنائس مما اضطر بطرس الى عزله وحرمانه.

(1) S. M. Jaclson. op. cit. VII, art. Meletianism.

(2) THEOD. hist. eccl. I, 8.

اتناسيوس البطرك، كان مستقيم الحال عند الله والناس. فلما جلس على الكرسى بلغه أن الوثنيين قد مضو الى يروشليم يفتحون بيت اصنامهم، فانفذ رهبانا إلى هناك ليطردوهم فلم يقدرو الرهبان على الوثنيين، فانفذ تاوفيلس البطرك الى دير بخوم بصعيد مصر واحضر السواح الرهبان المتجولين وانفذهم إلى يروشليم، فلما دخلوها صلو فهربت الشياطين من البربا، وصيرو ذلك الهيكل(*) مسكنا لرهبان يورشليم.

(*) الهيكل
كان الهيكل، بعد أن رمّمه هيرودس، ينتصب في وسط ساحة تقارب مساحتها ٣٠٠× ٥٠٠ متر. إنه المكان المقدس الذى يحضر الله فيه والذى نُظّمت مداخله تنظيماً دقيقاً. كان فيه قدس الأقداس، وهو عبارة عن غرفة مفصولة بستار الهيكل وكانت تحتوى فيما مضى على تابوت العهد، ولا يدخلها إلاّ عظيم الكهنة مرّة في السنة يوم الكيبور. وكان حول المذبح فناء أوّل مخَصص للكهنة، ثمّ

ذلك مشهد ثالث يكاد يطابق تماما ما حدث فى روما وأفريقيا، أعنى المسألتين، النوفاتية والدوناتية، فنقطة ثار حولها الجدل عند هذه الفرق واحدة، وموقف كنيستى روما والاسكندرية تجاه آراء الفريق المضاد متفقة، وما نجم عن هذا الصراع من قيام كنيسة الطهار عند الدوناتيين وكنيسة الشهداء لدى المليتيين وثيق الصلة، لذلك ليس من غريب الحديث أن يقال ان المليتيين كانوا بمثابة دوناتيى مصر[١].

ولاشك أن فترة الاضطهاد التى قاست منها المسيحية لزمن طويل بعامة، ولفترة عنيفة أخيرة بخاصة، قد أحدثت فى الكنيسة كثيرا من أمور الجدل حول العقيدة والتخاصم حول مسائل التنظيم الكنسى، وأورثت الكنيسة الجامعة شقاقا ما بعده شقاق، ورزقتها بعدد لا حصر له من الفرق المخالفة فى الرأى، ساعدت الأحداث على الاتيان بها، فطفرت الى السطح أمور كانت كامنة وتولدت عنها مشاكل ما كانت قائمة.

كان على مجمع نيقية أن يعالج هذا المسألة بحزم حتى لا يستفحل خطرها، أما الامبراطور فلابد أنه قد أفاد مما وقع له فى أفريقيا مع الدوناتيين، فمجمع مكانى الذى عقد فى روما سنة ٣١٣ لم يكن كافيا لشجب النزاع الدوناتى الكاثوليكى، ومجمع يقترب من العالمية فى أول سنة ٣١٤ لم يكن أسعد حظا من سابقه، وقضاء امبراطورى فى القضية فى ميلانو سنة ٣١٦

(1) C.A.H. XII, p. 697; Duchesne, op. cit. II, p. 113.

ولما عادو ضبطهم [احضرهم] تاوفيلس البطرك ليكونو ياكلون معه وحدهم من يوم الاحد الى يوم الاحد ودفع لهم بستانا كان للاب اتناسيوس البطرك.

ثم ان الاب تاوفيلس البطرك ذكر قول اتناسيوس لما كان ياكل معه وهو كاتبه انه يشتهى ان ينظف الاكوام التى راها ويبنى فى موضعها بيعه على اسم [يوحنا] المعمدانى واليشع النبى، وعند ذلك جات امراه كان لها ولدان فكنست الاكوام

يأتى فناء اسرائيل (للرجال) وفناء النساء المفصول عن فناء الأمم بدَرابزين لا يجوز لأىّ وثنى ان يجتازه تحت طائلة الموت.

على المذبح الواسع الذى يبلغ ضلعه ٢٥ متراً وعلوه ٧,٥٠ متراً، كانوا يذبحون صباحاً ومساءً حَملاً «ذبيحةً دائمة» إلى جانب الذبائح الخاصة التى لا يُحصى عددها. وكان عدد الذبائح يرتفع فى ايام الاعياد، فينهمك اللاويّون وتزدحم الجموع...

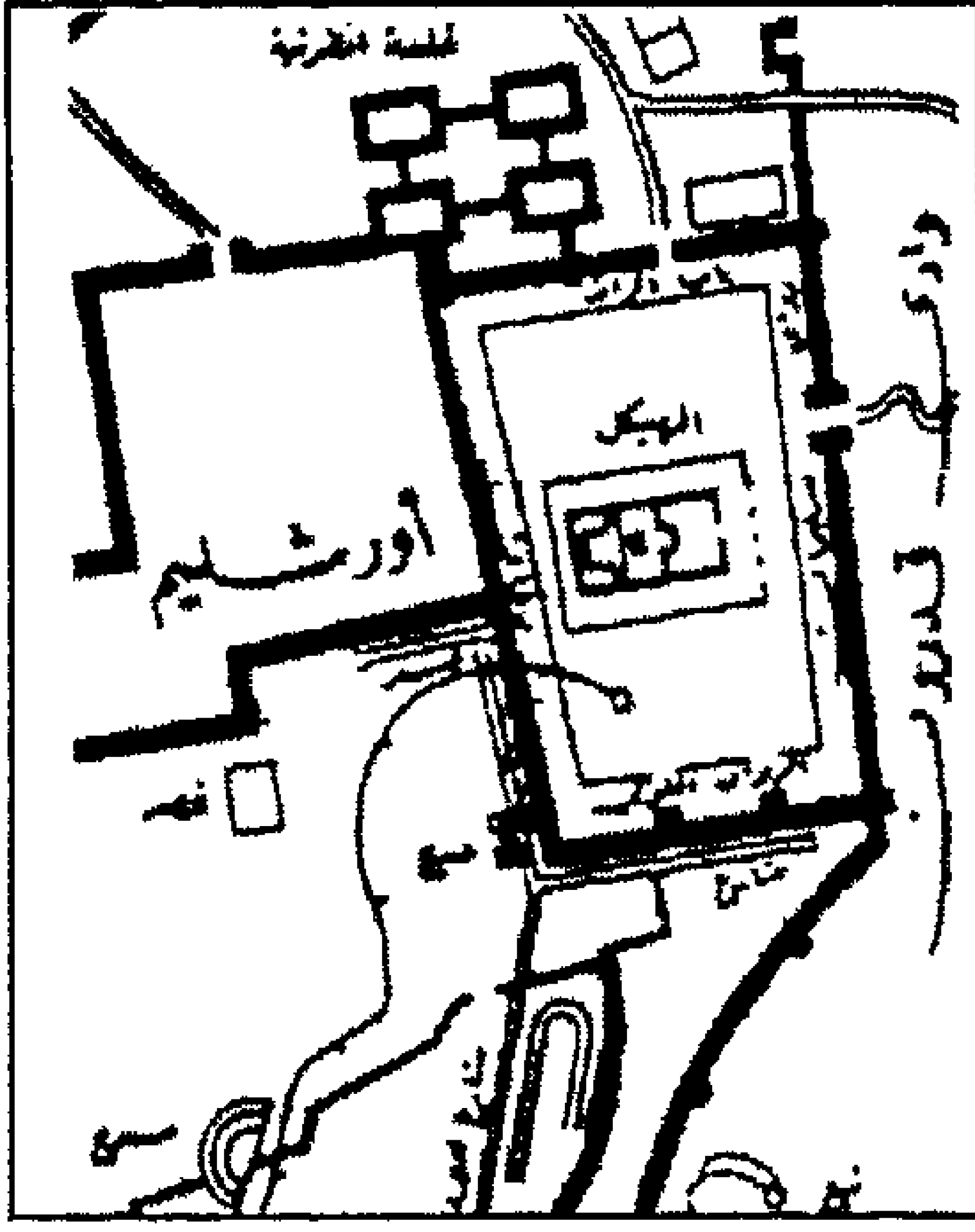
ما ردع الفريق الدوناتى ولا أتى بجديد فى عالم الصفاء مع الكنيسة الكاثوليكية، بل كل ما جاء به عنفا بلا هوادة وتحديا صريحا لسلطة الامبراطور ذاته، واضطهادا مسيحيا ضد أشياع كنيسة الطهار لم يثمر ثمرته المرجوة، هكذا أدرك قسطنطين أن لا طريق أمامه سوى الصفح والمهادنة، فأفرج عن الدوناتيين وأعاد اليهم بيعهم علهم بذلك يقدرون له حسن الصنيع.

كانت تلك تجربة أفاد منها قسطنطين، فلم يقدم على شئ من هذا على الاطلاق فى معاملته للمليتيين فى مصر، وساعده قدره وفكره بعقد هذا المجمع المسكونى الكبير الذى ضم أساقفة الشرق والغرب، فراح قسطنطين يحث الجمع على اتخاذ سبيل وسط يرضى هذا ولا يغضب ذاك، وعمل الحضور بنصح الامبراطور، وقد حفظ ثيودوريت ما تم بشأن المليتيين فى مجمع نيقية فى وثيقة هامة هى رسالة المجمع الى كنيسة الاسكندرية جاء فيها:

«أحباءنا.. هانحن الان نخبركم بما قر عليه رأى المجمع فى هذا الصدد. لقد تقرر بواسطة مجمعنا أن يعامل بالرأفة مليتيوس، مع أنه، وحتى نكون مع أنفسنا صادقين، ما كان يستحق من الشفقة أقلها، لقد سمح له بالبقاء فى مدينته مجردا من كل سلطة تجيز له تعيين الغير أو سيامتهم، محروما حتى الظهور فى اية ولاية أو مدينة لهذه الدواعى. ولكن ليحمل لقبه عاريا من كل نفوذ»(١).

(1) THEOD. hist. eccl. I, 8.

على ما يشهد به كاتبه، وظهرت البلاطة المكتوبه عليها تلت تيطات، وشرح حديثها وقصة تاوفيلس مع رفايل الملاك لم تكتب فى هذه السيره، فلما قلع تاوفيلس البلاطه وجد المال تحتها فبنى منه الكنايس، وبنى فى موضعه كنيسه فى جانب البستان وحمل اليها جسد القديس يوحنا المعمدان وجسد اليشع النبى، وظهرت منهما عجايب كتيره فى ذلك اليوم وبرى جماعه من الناس كانو مرضين ومسقومين من امراضهم.



* الهيكل فى أورشليم.

هكذا التقت آراء المجمع على أمر قد قدر، فذلك هو الجزاء الذى تلقاه مليتيوس جزاء خروجه على كنيسة الاسكندرية وأسقفها، تخالف ما شهدناه قبلا فى موقف مجمعى روما وآرل وموقف قسطنطين ازاء الدوناتيين، ولا شك أن هذه السياسة الجديدة التى لجأ اليها مجمع نيقية تجاه المليتيين كانت رد فعل صريحا لفشل السياسة التى سار عليها الامبراطور فى علاجه للمشكلة الدوناتية، ومن ثم فقد منح المجمع مليتيوس من اللقب اسمه وسحب مضمونه، وأعطاه من الوظيفة الكهنوتية رتبتها وحرمه جوهرها!!

وأضافت رسالة المجمع:

«أما أولئك الذين رسموا على يديه فعليهم أن يمروا من جديد برسم تقى، على أن يقبلوا ثانية فى الكنيسة، وتبقى لهم رتبتهم الكهنوتية فى سائر الأبروشيات على أن تكون فى مرتبة أدنى من تلك التى منحت لغيرهم من قبل على يد اسكندر [الكسندروس]، زميلنا الكاهن المبجل، وعليه فليس لأولئك حق اختيار أو تعيين أخرين للكهنوت أو الاقدام على أى شئ دون موافقة أساقفة الكنيسة الكاثوليكية (١) الرسولية المنضوين تحت نفوذ أسكندر.

(١) حتى منتصف القرن الخامس كان لفظا كاثوليكى Catholicus (عالمى) وأرثوذكسى Orthodoxus مستقيم) يطلقان على الكنيسة عامة، على اعتبار أنها كنيسة واحدة جامعة ذات ايمان قويم. وفى سنة ٤٥١ عقد مجمع خلقيدونية وصدر عنه قانون الايمان القائل بكمال الطبيعتين الالهية والبشرية فى المسيح، ورفضت كنيسة الاسكندرية هذا المعتقد، وبقيت على عقيدتها القائلة بطبيعة واحدة من =

وكتب تاوفيلس فى مدة حياته عدة ميامر(*) ومقالات. واقام ولندیانوس الملك اثنتى عشره سنه ومات وملك بعده ولديانوس وكرديانوس ولداه، وكانا مومنين محبين لله جل اسمه. وكان تاوفيلس اذا عمد ينظر قضيب نور يصلب على المعموديه بين يديه، فلما كان فى بعض السنين وقف فى جمعة التنصير يصلى على المعموديه فلم يظهر له عليها صليب النور فحزن فاوحى اليه انه ان لم يحضر ارسانيوس الشماس يصلى معه والا فما

(*) ميامر: جمع ميمر من هذه الميامر ما عُرف باسم «ميمر تاوفيلس» يروى فيه أنه توسل إلى العدرا فى صلوات حارة إليها لتكشف له عن سر رحلتها وتنقلاتها فى مصر، فظهرت له فى رؤيا وكشفت له عن ذلك السر. وقد دون تاوفيلس هذه الرحلة فى مخطوط بمكتبة الدير المحرق تحت رقم ١٤/٩. ويقال أن هناك نسخة من هذا المخطوط بمكتبة الفاتيكان بروما وثالثة بالمكتبة الوطنية فى باريس.

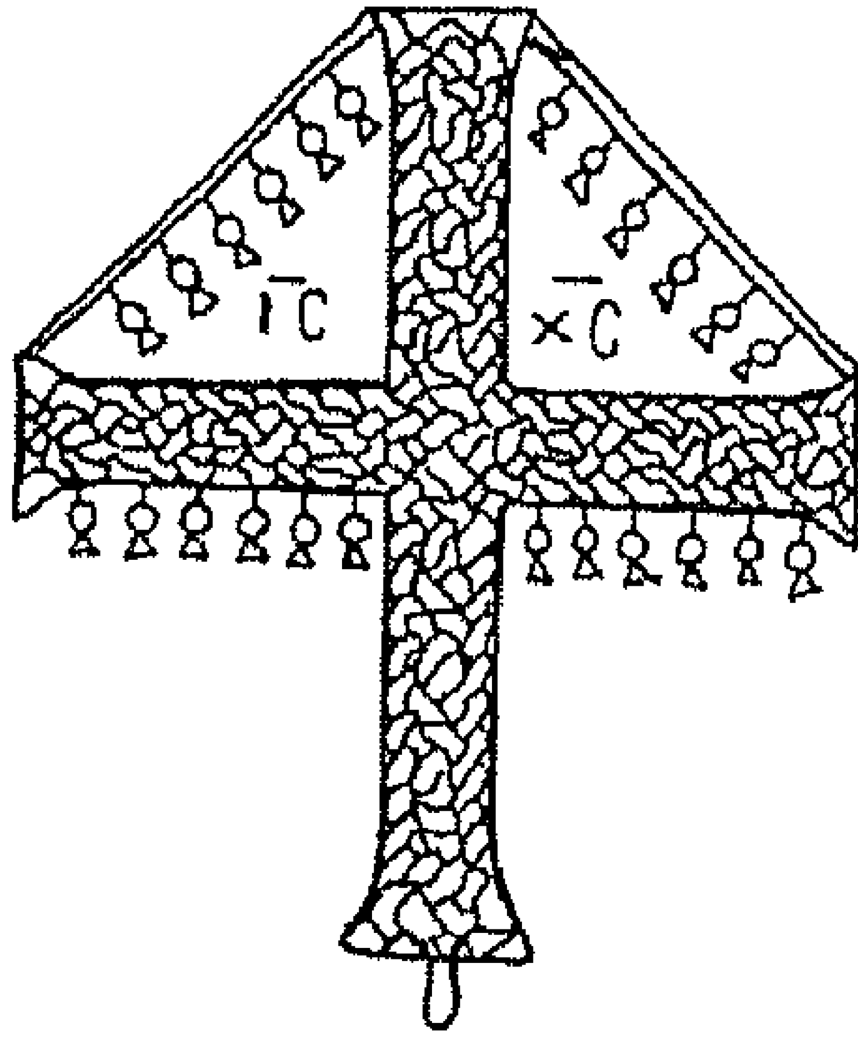
ولكن هؤلاء من بنعمة الله، وفضل صلواتكم، لم يدنسهم تيار الانشقاق، فظلوا طاهرى الذيل فى الكنيسة الرسولية الجامعة، فلهم سلطة اختيار وتعيين من يرون الصلاح فيهم للوظائف الكنيسة، بل ويسمح لهم بما هو أبعد من ذلك فى التصرف فى أى أمر يتفق وقانون الكنيسة وسلطانها، فاذا ما شاء القدر واختطف الموت واحدا ممن يتسنمون الان احدى الوظائف الكنيسة، فليرتق الجدد الى شرف الراحلين إذا كانوا للمنصب مستحقين، وعلى يد الرعية مختارين، ما دام هذا يثبت بموافقة أسقف الاسكندرية الكاثوليكى»(١).

لم يقف قرار المجمع اذن فى هذه المسألة عند حد التعرض للمشكلة المليتية فى حد ذاتها، ولكنه تخطاها، آخذا من أحداثها مدارا لمزيد من قرارات التنظيم الكنسى حول تعيين القسس والأساقفة فى مختلفة الكنائس، ولا شك أن دافعه الى ذلك حرص الحضور على أن لا تتكرر

=طبيعتين، كما آمن بها أسقفها كيرلس Cyrllus وخليفته ديوسقورس، وأختصت منذ ذلك الحين بلقب الأرثوذكسية. وان كانت قد شاركتها فيه كنيسة القسطنطينية أيضا بالأرثوذكسية الخلقيدونية. أما كنيسة روما فقد احتفظت لنفسها بالصفة الكاثوليكية، وتدعم ذلك فى عام ١٠٥٤ عندما وقع الانشقاق الأعظم بين روما والقسطنطينية نتيجة للخلافات العقيدية المتراكمة ومن بينها مسألة الروح القدس التى تعود الى القرن التاسع، عندما أضافت روما على قانون الايمان عبارة «والابن» Filioque.

(1) THEOD. hist. eccl. I,8.

يظهر له شي، فصرف الناس في ذلك اليوم وانفذ طلبه فوجده في اعمال اشمون، فاتاه مسرعا ففرح به وطيب نفسه فظهر الصليب النور. ولما رأى تاوفيلس البطرك تواضع الشماس المذكور وفعله اراد ان يصيره قسا فلم يفعل وساله ان يعفيه من ذلك وان يصلى عليه ويدعه يمضى الى وطنه، ففعل له ما التمسه.



صليب على جدار صومعة راهب بدير اسنا

وكان لتاوفيلس البطرك ابن اخت اسمه

في الاسكندرية أو غيرها من مدن الامبراطورية تلك الحوادث التي جرت من قبل على يد مليتيوس من قيامه بسيامة أساقفة وقسيسين.

ثم تعود الرسالة فتعرج بعد ذلك ثانية على الرجل فتقول «أما عن مليتيوس على أية حال، فهناك استثناء قد وقع، بسبب عصيانه السالف، ونتيجة مزاجة المتهور وطبعه الطائش، ذلك لأنه ان منح أقل سلطان فانه سوف يسئ استغلاله باثارة الاضطراب من جديد»(١).

وبعد أن يخبر المجمع السكندريين في رسالته بأن أسقفهم سوف يروى عليهم تفاصيل ما دار في المجمع وما قر عليه رأى رجال الاكليروس حضور نيقية، ويزف اليهم بشرى الاتفاق على تحديد يوم للاحتفال بعيد الفصح تشترك فيه كنائس شرق الامبراطورية والغرب(٢) يختتم المجمع رسالته بقول الأساقفة:

«فلتفرحوا اذن لنجاح ما تعهدنا القيام به، ولتبتهجوا بسلام عام ووفاق، واستئصال دنس الهرطقة، لتستقبلوا بشرف عظيم وبحب متقد اسكندر [الكسندروس] محبوبنا، أسقفكم الذى جلب على مجمعنا البهجة بحضوره، والذى رغم تقدم العمر به قد تحدى المشاق والمتاعب بغية اعادة السلام اليكم.

(1) THEOD. hist. eccl. I, 8.

(2) Id.

كيرلس قد علمه ورباه احسن تربيه ثم انفده الى جبل النطرون الى بريه ابى مقار القديس، فاقام هناك خمس سنين فى الديارات يقرأ الكتب العتيقه والحديثه، وكان يوصيه بالمواظبه على التعليم ويقول له: انك بذلك تصل الى اورشليم العلويه التى هى مسكن القديسين. وكان ملازمة فى قلاية البطركية وكان اغنسطسا. ولما انفده للبريه سلمه لسرابيون الحكيم ووصاه ان يعلمه علوم البيعه التى هى علوم الله الحقيقه،

صلوا من أجلنا حتى يبقى ما اتفقنا عليه ثابتا وطيد البنيان بنعمة ربنا يسوع المسيح، ان كل ما أتممناه بنعمة الله الرب وبوحى القدس صار.. له المجد أبد الآبدين» [١].

على هذا النحو أتم مجمع نيقية أعماله وارتحل الأساقفة عائدين الى كنائسهم يسبحون بحمد الامبراطور مبعوث الرب الذى أغدق عليهم نعمه، فجعلهم يرفلون فى رغد من العيش وسعة، ولا شك أن قسطنطين كان يرمى من وراء هذه السياسة الى جعل هؤلاء الأساقفة حملة مشاعل الدعاية لحكمة وتقوية سلطانه فى آرجاء الامبراطورية بما يملكونه من تأثير على نفوس رعاياهم. وقد أتت هذه السياسة أكلها، وآمنت الكنيسة بأن قسطنطين «مبعوث الرب» حاميها، وباعث حياتها، ورفعته مكانا عليا، الى الحد الذى تطوع فيه واحد من أشهر أساقفتها فى زمانه، أعنى يوساب القيسارى، ليضع عنه كتابا يرفعه به الى مصاف الرسل، جاعلا منه الحوارى الثالث عشر كما سبق وذكرنا.

خيل للامبراطور ساعتئذ أنه قد حقق بذلك أعظم انتصاراته، فقد تبدى له أنه حفظ على الامبراطورية وحدتها سياسيا وعقائديا، وأنه أعاد بذلك السلام الى الكنيسة وأنجاها من شر مستطير كاد يؤدى بوحدتها، وبالتالى يهدد أمن الدولة وسلامتها. ولقد تحمل قسطنطين العبء الاكبر. بل العبء كله فى الاعداد لهذا المجمع الكبير، وأثناء انعقاده وبعده، ولعب دورا هاما

(1) Id.

فحفظ جميع الكتب وكان يقف قدام معلمه يقرا وفى يده سيف حديد فاذا نعس ينخسه به فيستيقظ. وكان فى اكثر لياليه يقرا فى ليلة واحده الاربعة اناجيل القتاليقون الابركسس، ورسالة بولس المغبوط الاولى الى اهل روميه. فاذا كان بالغداه ينظر معلمه وجهه فيعلم ا نه قد وقف ليلته كلها. وكانت معه نعمة الله حتى انه كان اذا قرا كتابا دفعه واحده يحفظه فحفظ فى تلك السنين جميع

وشارك مشاركة ايجابية فى كل حركة وسكنة من أداء المجمع، فحقق بذلك رغبته التى أبداها فى رسالته التى بعث بها الى الأساقفة يدعوهم للحضور الى نيقية.

ولقد وضع قسطنطين بسياسته هذه فى الدعوة لعقد المجامع سنة سار عليها خلفاؤه من بعد، فما من مشكلة عقائدية عنت للكنيسة الاووجهت الدعوة لعقد مجمع مسكونى لبحث هذا الأمر، ولم تكن الدعوة بطبيعة الحال صادرة من رأس الكنيسة أو من غيره، بل موجهة من الامبراطور ذاته، حتى بلغ عدد المجامع المسكونية التى عقدت فى الكنيسة الشرقية سبعة على مدى أربعة قرون بين عامى ٣٢٥، ٧٨٧ على عهد الامبراطورة ايرين.

وعلى هذا النحو أيضا وضع قسطنطين قواعد القيصرية البابوية Caesaropapism التى بلغت فى عهد من جاء بعده من الأباطرة شأوا عظيما، وأضحت الكنيسة الشرقية فى هذا السبيل دائرة من دوائر الحكومة أسقفها موظفا كبيرا لدى الامبراطور، وتمتع هذا بسطوة واسعة وسلطان كبير على الكنيسة ورجالاتها الذين أضحوا فى غالب فترات تاريخ الكنيسة لشرقية جند الامبراطور.

واذا كان هذا حال أسقفية القسطنطينية والكنائس التابعة لها بصفة خاصة، فان الكنائس الأخرى فى النصف الشرقى من الامبراطورية، والاسكندرية على رأسها لم تكن كذلك أبدا. فأساقفة الاسكندرية كانوا يعرفون يقينا ويقدرون مركز كنيستهم فى عالم المسيحية، ومدينتهم

الكتب الشرعيه، وبعد هذا انفذ تاوفيلس البطرك اليه واعاده الى اسكندرية، وكان معه فى قلايته ويقـرأ بين يديه فـتـعـجب منه الكهنه العلمـا والفلاسفه ويفرحون به لحسن صورته وطيب جرمه الذى لا يتغير كما هو مكتوب «أنى فتحت فمى واستنشقت روحاً» . وكان كل الشعب اذا سمعوه يقرا يشتهون ان لا يسكت لحلاوة قراته وحسن صورته. وكان خاله الاب تاوفيلس يفرح به جدا ويشكر الله اذ رزقه ولد روحانيا قد نشا بالنعمه

فى دنيا الفكر والحضارة. فاذا كانت القسطنطينية تحاج بأنها مقام الأباطرة، وأنها نشأت على المسيحية، ولم تدنس جبهتها لوثن، وأنطاكية تتعالى بأن القديس بطرس هو الذى وضع عمد الكنيسة فيها قبل روما، فان القديس مرقس الانجيلى، ابن بطرس بالتبنى، وتلميذه، ورفيقه، هو الذى رفع القواعد من كنيستها، ولكنها الى جانب كل ذلك كانت تتسامى بمدرستها اللاهوتية الشهيرة، وفكر آبائها، ولم تكن القسطنطينية أو غيرها من مدن الامبراطورية تستطيع أن تتطاول الى هذه المكانة، بل ان عالم المسيحية كله فى هذه القرون الباكرة من عمر المسيحية، كان يسعى الى الاسكندرية ينتظر من أمر العقيدة، القول الفصل من كنيستها.

من أجل هذا، وللخلاف العقيدى الدائم بين القسطنطينية والاسكندرية بخاصة، وقفت كنيسة الاسكندرية تعارض الاباطرة الرأى وترفض تهديداتهم، وشهد تاريخها حتى القرن السابع صراعا عنيفا بين أباطرة بيزنطة وأساقفة الاسكندرية، ولم تستسلم فيه الاسكندرية طيلة هذه الفترة.

احياء الأريوسية وصحوة المليتية

كان قلب قسطنطين يهوى الشرق، ولكن بصره كان معلقا بالغرب. وبين قلب الامبراطور وبصره تأرجحت سياسته، وراح فؤاده والحواس ينتقل بين هذا الجانب أو ذاك، وما كان فى مقدور قسطنطين أن ينظر الى قلبه والنار تأكله لفتنة فى الشرق حادثة، وان كان باستطاعته أن

---

٢٣ : تاوفيلس ٣٨٥/٤١٢م

والحكمه، وكان له سيره حسنه وتواضع ولا يخرج عن العلوم الروحانيه والنظر فى اقوال الابا معلمى البيعه الارتدكسيه اتناسيوس، وديونوسيوس، واكليليوس بطريرك روميه، واوسابيوس وباسيليوس اسقف ارمنيه، وباسيليوس اسقف كبادوكيه. هولا الابا الارتدكسيون الذى قرا تعاليمهم. وكان يرفض مقالة اورجانوس ولم يمسك كتابه بيده يوما قط فاذا بلغه ان احدا من المومنين قراه رفضه وابعده.

يغمض عينيه على الغرب لهدوء متقطع فيه باد. وكم حزن الامبراطور ودمى قلبه وهو يرى شرقه ومبتغاه تفتك به حمى جدال اتشح مرضاه بمسوح الدين، وكم طاب خاطرا لغرب آثر أن يقى نفسه عدوى وباء فى الشرق ساد!!

فقسطنطين وان كان لم يخرج الغرب البتة من تفكيره، الا أنه جعل الشرق كل فكره، وكان قد قضى من عمره فى الشرق سنين عددا رهين قصر نيقوميديا، ولمس بنفسه أساليب الحكم فى المنطقة وطرائق الادارة، وكانت نظم الحكم هنا تنحو الى طابع الاستبداد سواء فى الملكيات الهلنستية القديمة أو الامبراطورية الفارسية ، وشاهد قسطنطين بعينى رأسه دقلديانوس وهو يمارس نفس الأنظمة، فلما جاء الى الشرق كان مصمما على أن يكمل خطا سلفه. فترك روما بتقاليدها الجمهورية والغرب بكيانه الاقتصادى المتصدع، وراح يضع على أطلال بيزنطة المدينة الاغريقية القديمة أسس عاصمة جديدة، فأظهر للجميع بذلك عزمه أن يكون الشرق مستقره ومثواه، وأمل أن يجد فى هذه البقاع سكينة كان ينشدها والهدوء، وتعلقت آماله برعاياه المسيحين عله يجد فيهم خير عون لنظم حكومته، ويقول ول ديورنت، لقد كان قسطنطين يأمل أن يكون حاكما مطلق السلطان، وهذا النوع من الحكم يفيد لامحالة من تأييد الدين، وقد بدا له أن النظام الكهنوتى وسلطان الكنيسة الدنيوى يقيمان نظاما روحيا يناسب نظام حكومته، ولعل هذا النظام العجيب بما فيه من أساقفة وقساوسة يصبح آداة

---

٢٣ : تاوفيلس ٣٨٥/٤١٢م

وكان كيرلس لما قرا فى الانجيل المقدس: «اسيلو [اسألوا] تعطو اطلبو تجدو» فهم ذلك وطلب من الله العلم فاعطاه اياه. وكان كالنحل الذى يخرج يرعى من على كل النبات والاشجار ويجمع ربح نفسه الى ان يملا وعاه عسلا خالصا بغير دنس.

وسيرة الاب تاوفيلس كثيره جداً، منها ما جرى له فى اسكندريه مع تاودوسيوس الملك الكبير، وعجايب رفايل الملاك معه، وخبر الامراه الارمله



الامبراطور تاودوسيوس الكبير

لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها[1]. ولعل فى مسلك قسطنطين تجاه أساقفة مجمع نيقية وما أغرقهم فيه من المنح والعطايا خير شاهد على ذلك.

لكن قسطنطين فجع وهو بعد فى الغرب بالصدع الدوناتى، ثم فجع أخرى أشد وأقسى عندما وطئت قدمه الشرق، فسارع الى دعوة أولى الأمر فى العقيدة المسيحية، ولما جمعت نيقية شملهم وقر على قانون الايمان رأيهم، قرت كذلك عين الامبراطور، ونفى مخالفيه وعلى رأسهم زعيمهم آريوس، ثم رجلى الفريق الشهيرين يوساب النيقوميدى وثيوجنس النيقى. وهئ لقسطنطين أنه بذلك قد نجا والامبراطورية من خطر كبير كان يهدد وحدة الدولة وأمنها، ولكن الأحداث سرعان ما أطاحت بكل حلم داعب خيال قسطنطين.

ما كاد المجمع المسكونى الأول ينهى أعماله ويعود أساقفته كل الى بيعته حتى عادت الفتنة ترفع رأسها من جديد، ولقد علمنا مما سبق أن يوساب أسقف نيقوميديا وثيوجنس أسقف نيقية، قد عادا سيرتها الأولى وراحا يبشران بأن الابن ليس من نفس جوهر الأب، مما اضطر الامبراطور الى أن يصدر قرارا بعزلهما ونفيهما، وتعيين بديلين عنهما، وبذلك ضمن قسطنطين ـ الى حين ـ هدوء هذه المنطقة.

(١) ديورنت: المصدر السابق، مجلد ٣ جـ٣ ص ٣٨٨.

ووليديها اللذين صيرهما اسقفين، والتلت تيطات المكتوبات على بلاطة الكنوز الموجوده باسكندريه. وما اظهره رفايل الملاك من العجايب فى البيعه التى بناها تاوفيلس فى الجزيره(*)، ثم تسليط الملك له على مال البرابى من اسوان الى حدود ارض الشام وما مع ذلك. [وفى زمانه كان يوحنا فم الذهب، بركة صلاة الجميع تكون معنا امين].

(*) لعلها البيعة التى بنيت فى جزيرة الروضه ثم هدمت بعد ذلك.

أما فى مصر فيخبرنا يوساب القيساوى أن الحال فيها كانت غاية السوء عقب المجمع نتيجة انقسام داخلى[1]، آلا أنه لم يوضح سبب ذلك ولا طبيعته مما دفع سقراط الى اتهامه بالمكر والمراوغة، وأنه كان يتجنب ذكر أسباب الانقسامات هذه وذلك لميله الى الفريق الآريوسى[2]. ولكن سوزومين يفسر هذه الأحداث بقوله ان اسكندر [الكسندروس] بعد عودته الى الاسكندرية عقب ارفضاض مجمع نيقية، قام مليتيوس بتسليمه الكنائس التى كان قد أخذها قبلا[3]، وعاد ثانية الى مقره فى أسيوط تنفيذ لقرارات المجمع المسكونى الا أنه لم يمض على ذلك زمن طويل حتى أحس مليتيوس دنو أجله فعين شخصا يدعى يوحنا Iohannes خلفا له كان يعد أقرب أصدقائه، وذلك خلافا لما أقره المجمع النيقى[4]. وهكذا برزت الى الوجود قضية المليتية ثانية وأضحت مثارا للخلاف والشقاق.ويمضى سوزومين قائلا. وعندما علم الآريوسيون بما أبتدعه المليتيون بدأوا هم الآخرون يناوئون الكنيسة السلطان، فتبعهم من جديد أناس كثيرون، بينما مال الى المليتيين جمع رأوا من حقهم ترؤس كنائسهم. وعلى الرغم من أن الفريقين لم يكونا على وئام الا أنه جمعهما شئ واحد هو معارضة الكنيسة الجامعة

(1) EVSEB. vita Const. III, 28.
(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 23.
(3) SOZOM. hist. eccl. II, 21; ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.
(4) SOZOM. hist. eccl .II, 21.

السيرة الثانية عشره من سير البيعه المقدسه

كيرلس الأول البطرك

[٤١٢/ ٤٤٤م]

وهو من العدد الرابع والعشرون

فلمــا تنيح الاب تاوفيـلس البطرك جلس الاب كيـرلس على الكرسى الرسولى ورفع الاسـاقـفـه الاناجيل الاربعه على راسه وصلو عليه وقالو اللهم قو هذا الرجل الذى اصطفيته لنا. وبدا فاقام قومه

وعداوتها للاكليروس السكندرى، وبلغ من تقاربهما أن راح البعض يطلق على المليتيين صفة الآريوسيـة [١]. وان كان انشقاقهم، كما يعلق مؤرخنا، يعود الى مسألة تنظيمية بحتة بصدد رئاسة الكنائس فى الوقت الذى كانت فيه الآريوسيـة مسألة عقائدية، وعلى الرغم من أن كليهما ينكر تعاليم الاخر الا أنهما اصطنعا المداهنة سبيلا يعامل به أحدهما الاخر فى سبيل تحقيق مصلحتهما فى مواجهة خصمهما المشترك[٢]. ومنذ ذلك الزمن تقبل المليتيون، بعد مناقشات حادة، العقيدة الآريوسية وحملوا نفس افكار آريوس عن الاله. وقد أحيا هذا من جديد الجدل حول آريوس وعقيدته، وأدى بالتالى الى انشقاق طائفه من العلمانيين ورجال الاكليروس عن غيرهم من الكنيسة، وحمى وطيس الجدل ثانية حول اريوس وعقيدته كثير من مناطق الامبراطورية[٣].

تلك كانت حال المسيحيين عقب انتهاء مجمع نيقية حيث يبدو من أقوال سوزومين أن قرار المجمع فى هذا السبيل لم يؤد الى امانة العقيدة الاريوسية أو رأب الصدع المليتى. أدرك قسطنطين بثاقب نظره أن محاولة حسم الخلاف واعادة الوحدة للامبراطورية لن تؤتى ثمارها اذا بقى زعماء الفريق الاريوسى خارج حظيرة الايمان النيقى، واذا ظل اريوس بالذات يتحدى

(1) Id.

(2) Id.

(3) SOZOM. hist. eccl. II., 21.

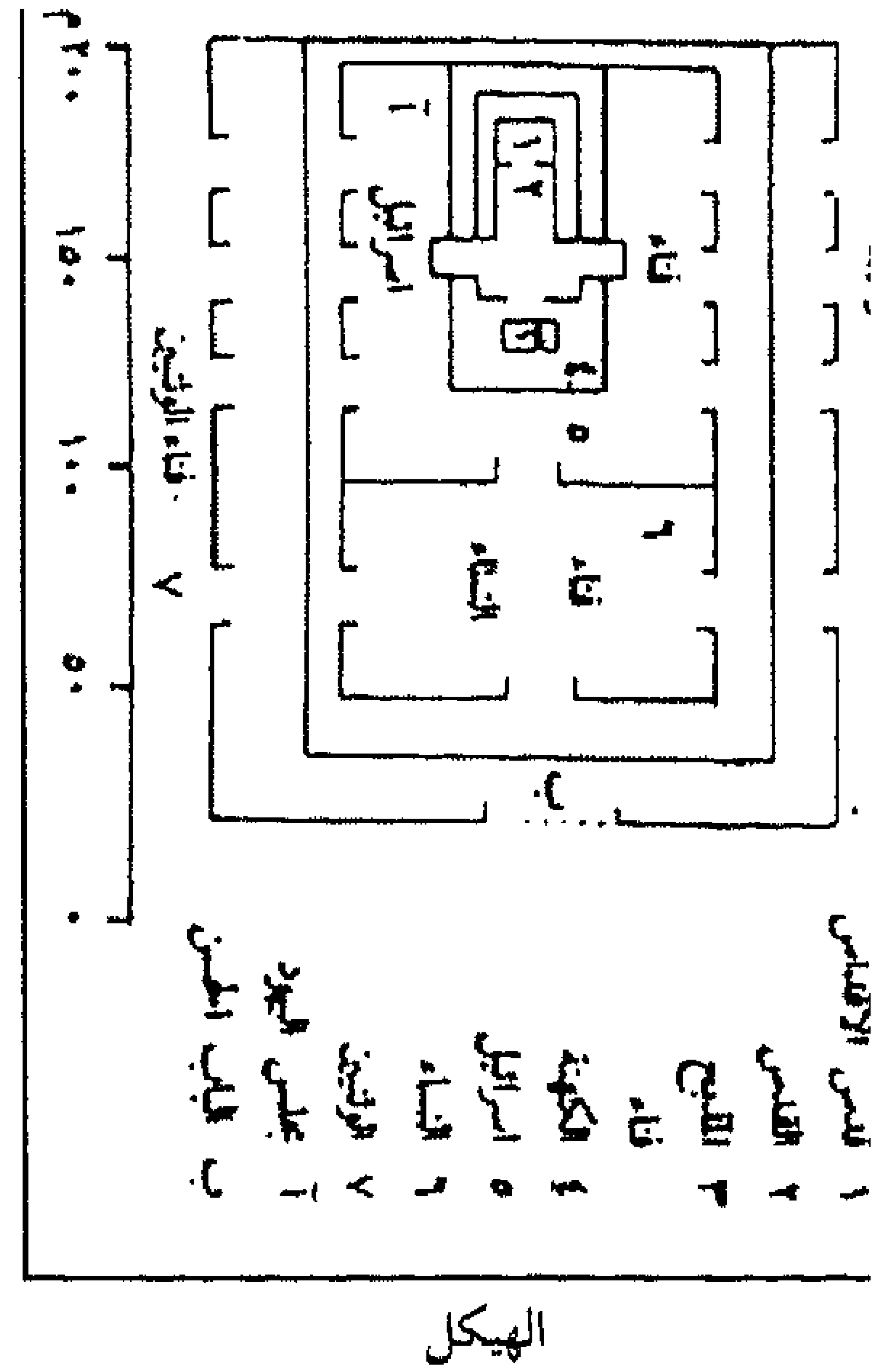
للبيع التى فى جميع الكرسى ليلا [لئلا] تشتغل عن الطعام الروحانى الذى به تتقوى على الامور المرضيه لله وبدا فى الحكمه المحييه.

واما الملك تاودوسيوس الصغير المحب لله فانه اتبع وصية اباية فكان يجمع اليه الرهبان ويتعبد معهم، ولم يكن له ولد وكانت أخته تدبر الملك.

وكان كيرلس البطرك لا يفتر من وضع الميامر والمقالات بقوة الروح القدس الناطقه فيه حتى ان

قرار أساقفة المجمع المسكونى، ومن ثم عزم على استمالته الى آرائه حتى ينجو بذلك من شبح الانقسام المخيف. وتلك كانت سياسة قسطنطين دائما، يمسك بقبضته الذكية عصا التسيار من وسطها، يقرب اليه فريقا من المتصارعين، حتى اذا أدرك أن زعماء هذا الفريق قد بدأوا يحسون بثقل مركزهم ورجحان كفتهم، قلب لهم ظهر المجن، وعاد الى استمالة الفريق الاخر الذى كال لزعمائه ورجاله الويلات والاضطهاد، بعد أن تكون نفوسهم قد سئمت هذا العنت. لقد كان كل همه أن يظل حاكما قويا فردا فى امبراطورية موحدة، ومن ثم لم يكن ليسمح لفريق بأن تقوى شوكته أو يستشعر السلطان.

وأمامنا الان روايتان لسقراط وسوزومين حول عودة آريوس، تشير أولاهما الى أن الامبراطور قد عفا عن أسقفى نيقوميديا ونيقية المنفيين وأعادهما ال منصبيهما ثانية، وتكفل يوساب بعد ذلك بمحاولة اعادة آريوس الى الكنيسة ثانية، وتبرئة ساحته. ويقول سقراط ان الأسقف النيقوميدى استطاع أن يتحالف مع أحد رجال الدين الضالعين فى الاريوسية كان فى معية قسطنديا أخت قسطنطين وأرملة ليكين، وأوحى اليه يوساب أن ينتهز فرصة أحدى عظاته الودية مع قسطنديا ليخبرها أن قرار المجمع النيقى بادانة آريوس كان بعيدا عن روح العدالة، وأن التقدير الشائع الذى ينسب الى آريوس غير حقيقى. وقد أعطت الأميرة ثقتها الكاملة لهذاالرجل، غير أنها لم تطلع الامبراطور على شئ من ذلك. فلما أحست دنو أجلها وجاء اليها


الهيكل

اكتر رويسا اسكندريه قسمو النساخ ينسخون لهم ما يضعه الاب. فقال له قوم من الفلاسفه: ان هناك ميامر وضعها يوليانوس الملك يرذل فيها موسى وجميع الانبيا ويجعل المسيح انسانا ساذجا، وكنا نقراها لان الملك وضعها وقال ان كلام الجليلي ساجعله كذبا لانه قال: لا يبقى حجر على حجر في هيكل يروشليم الا ينقض، وانا اريد ابنيه وابطل قوله. وهدم يوليانوس المذكور ما كان بقي من الهيكل ليبنيه فمات ولم يبن فيه شيا، فقد

أخوها يعودها راحت تمتدح للامبراطور محاسن ذلك الرجل مثنية على ورعه وتقواه، ولكنها لم تفض اليه بشئ عن آريوس وظلامته. فلما توفاها الموت غدا واعظها أقرب ثقاة الامبراطور، وازداد على الأيام قربا منه، وودا له، فلما أمكن منه قص على مسامعه ما سبق أن ردده على آذان أخته، مؤكدا له أن اريوس ليس لديه أية آراء أخرى غير تلك التى أقرها المجمع، واذا ماسمح له بالمثول أمام الحضرة الامبراطورية فلسوف يقدم موافقته الكاملة على ما أقره الأساقفة فى نيقية. ولما تبدى ذلك عجبا لد الامبراطور انبسطت أساريره وصرح بأنه اذا وقع آريوس مع المؤتمر وتمسك بآرائه، فليسمحن له بالوقوف أمامه وليعيدنه الى الاسكندرية مبجلا. وقام الامبراطور من فوره ليرسل الى آريوس بهذا المعنى(١).

ولكن هذه الرواية لا يمكن قبولها على علاتها، فمجمع نيقية أدان الاريوسية وأشياعها، وتتبع الامبراطور أولئك الأشياع بالنفى والاضطهاد حتى يضمن استقرار الأمور وهدوءها تمشيا مع قرارات رجال الكنيسة وكان من الطبيعى أن يبدأ قسطنطين بتطهير بلاطه وقصره من هذا الفريق، فكيف نفسر اذن بقاء رجل من الضالعين فى العقيدة الاريوسية فى القصر الامبراطورى هاديا لأخت الامبراطور ؟ وما كان هذا براغب فى اثارة الشكوك حول نفسه، ولا أن يجلب

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

صح لنا كلام المخلص وعرفنا ربوبيته لانه لم يبطل شى من كلامه.

فلما سمع كيرلس هذا قلق جدا الى ان وجد ما وضعه يوليانوس وقراه فوجده اشد مما وضعه اورجانوس وبرفاريوس [فرفوريوس] فلما لم يقدر الاب كيرلس ان يجمع النسخ التى تفرقت من تلك الكتب فى ايدى الناس كتب الى تاودوسيوس الملك يعلمه بذلك ويقول له: ان شيت [شئت] هلاك ما وضعه يوليانوس وابادة كفره

عليها نفور رجال الكنيسة وهو طالما سعى الى جمع شتاتهم لبلوغ مطمحه، وكان عليه اذا ما نفذ قرارات المجمع، الذى عده فى رسائله يصدر بوحي من الروح القدس(١) أن يبدأ بنفسه أولا وعشيرته الأقربين، هذه ناحية. والأخرى أنه لو كان صادقا ما يرويه سقراط لكانت قسطنديا، بفعل ذلك الرجل، أشد حبا لآريوس وأكثر حماسا لقضيته، ومن ثم يضحى تأثيرها على الامبراطور أوقع. الا أنها لم تخبر أخاها بشئ عن آريوس ولم تطلب منه عنه عفوا ولم تسأله صفحا. وفوق هذا وذاك ما يكنه الامبراطور ليوساب جزاء تحديه للاساقفة وتبجحه فى حضرة الامبراطور. وفى رسالة قسطنطين الى أهالى نيقوميديا نقف على مدى الاتهامات التى يقذف بها الامبراطور أسقف المدينة .ويقول زنوس Zenos أن سقراط ذكر تلك الحادثة فى غير موضعها، والذى نعلمه أن قرار العفو عن يوساب وثيوجنس قد صدر فى سنة ٣٢٨ أى بعد أن أمضيا فى النفى ثلاث سنين سويا (٢).

أما رواية سوزومين فنقف منها على أن الامبراطور قد أعاد آريوس من منفاه أولا، ولكن قرار منعه من دخول الاسكندرية ظل ساريا، وسرعان ما عاد كل من يوساب النيقوميدى وثيوجنس

---

(1) EVSEB. vita. Const. III, 17.

(2) Zenos, introduction to (SOCRAT. hist eccl. Nicene) II, p. 19, n. 1.

فاجمع هذه الكتب التى وضعها واضل الناس بها واحرقها(*). ففرح الملك بكتابه ومجد الله وفعل كل ما قاله له. وكتب الجواب يساله ان يصلى على مملكته، ففرح الاب كيرلس بذلك ووضع ميامر ومقالات يدحض فيها اقوال يوليانوس الملك، ويبكت افعاله وان الملاك اهلكه فى الحرب مثل شاول، وقال فيه اقوالا كثيره.

(*) كان حرق الكتب فى هذه الفترة وحتى المانيا النازيه من وسائل محاربة الأفكار المخالفة.

وبعد هذا وصل إليه خبر نسطور(*) ومقالته الفاسده، فحزن لذلك وقال: ما مضى بعدكفر

(*) نسطور والانشقاقات المذهبية:

النيقى الى كنيستهما بعد أن قدما الى الأساقفة وثيقة توضح عقيدتهما وأنهما انما يتبعان الايمان القويم حسبما قرره مجمع نيقية[1].

ويبدو أن الأمر اختلط على سقراط فعد جهاد يوساب بعد عودته من المنفى لقبول آريوس فى كنيسة الاسكندرية ثانية، وكان الامبراطور قد عفا عنه ولم يعد إلى الاسكندرية بعد، سعيا للعفو عن آريوس الذى كان الامبراطور قد أصدر فعلا قرار عفوه عنه.

والذى نراه أن الامبراطور وقد رأى المجمع لم ينجح فى القضاء على الآريوسية وأن خطرها لازال كامنا فى أفئدة الكثيرين، وهاهم الان يعودون من جديد لجمع صفوفهم فى مصر متضامنين مع الفريق المليتى، فى الوقت الذى أحست فيه الكنيسة الجامعة بقوتها، بعد هذا الاجماع الكبير على صيغة قانون الايمان النيقى، وبعد أن رأت نفى زعماء خصومها على يد الامبراطور، ولهذا أيقن قسطنطين تمشيا مع سياسته أن السبيل الوحيد لايجاد التوازن أن يعيد زعيم الآريوسية الى دائرة الكنيسة، وحتى يضمن أيضا بذلك صمت مشايعيه والتخلص من خطر هذا الانقسام فى الرأى، على هذا النحو بدأ قسطنطين يكاتب آريوس يدعوه للعودة الى حظيرة الايمان القويم. وقد حفظ سقراط رسالة بعث بها الامبراطور الى آريوس جاء فيها:

(1) SOZOM . hist. eccl. II, 16.

يوليانوس حتى جا تجديف نسطور بطريرك القسطنطينيه. فلما تحقق كيرلس فساد مقالة نسطور كتب إليه يقول هكذا: كيرلس بطريرك اسكندريه يكاتب نسطور بطريرك القسطنطينيه بسلام الاخوه في الله الحقيقي الذى وهب لنا النعمه واحده، وجعل جميع المسكونه في اتفاق وفكر واحد بسفك دمه التى هى الامانه بابن [بأبن] يسوع المسيح. وباقى الرسالة معروف لم يكتب فى هذه السيره. وأعاد [نسطور] اليه

نسطور: ولد بجرمانيقية المعروفة الآن بمرعش فى سورية وأظهر فى مبدأ أمره غيرة ضد الاريوسيين والابوليناريوسيين حتى ارتقى الكرسى القسطنطيني وقال في خطاب يوم رسامته «سلمنى أيها الملك الأرض خالية من الهراطقة فاسلمك السماء» وقال بعضهم «أن نسطور حارب جميع الهرطقات ليمهد السبيل الى هرطقته» فانه ما عتم أن جلس على الكرسى حتى أخذ يعلم أنه لما كان الجزء اللاهوتى من طبيعة المسيح لم

«لزمن مضئ بلغ نيافتكم أن فى مقدوركم الوفود الى مقامنا بغية الحصول منا على لقاء، وكم كانت دهشتنا بالغة لتوانيكم فى الاقدام. وعليه اذن.. بادروا بالارتحال مسرعين الى بلاطنا، وعندما تحسون رحمتنا بكم وتقديرنا اياكم تضمنون العودة الى دياركم. دعائى الى الله أن يحفظكم عزيزى»[١].

ويعلق سقراط على هذه الرسالة بقوله: تلكم هى رسالة الامبراطور الى آريوس وما أنا بمستطيع القول شيئا سوى أن أبدى اعجابى لتلك الغيرة والحماسة التى أظهرها الامبراطور من أجل الديانة[٢] !!

ويتضح من رسالة الامبراطور عدة أمور على جانب كبير من الأهمية، فهذه الرسالة لم تكن الوحيدة بين الرجلين، ولكنها كانت الأخيرة كما نعلم من سقراط[٣]. فحديث الامبراطور يوحى أنه بعث الى آريوس قبلا يدعوه للحضور اليه، وآريوس يتجاهل. ويبدى الامبراطور دهشته الكبيرة لذلك الاحجام من جانب آريوس، والرسالة تحمل فى طياتها نغمة عتاب للرجل على توانيه فى المثول أمام الامبراطور رغم أن ذلك عرض عليه أكثر من مرة، كما

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

(2) Id.

(3) Id.

يولد من العذراء فلا يحق أن تسمى أم الله بل والدة المسيح الإنسان وقصد بذلك أن يمهد السبيل الى أنكار الوهية المسيح الذى قسمه الى شخصين معلما أن اللاهوت لم يتحد بالناسوت بل ساعده فقط. وصرح مرة فى خطبة قائلا «كيف أسجد لطفل ابن ثلاثة شهور قد سجد له المجوس» وقال أيضا «كيف يكون لله أم فاذا يستحق المعذرة الحنفاء الذين كانوا يأتون بأمهات ألهتهم فى ملاعبهم. وقد كتب الرسول عن

الجواب بتجديف. فكتب انبا كيرلس الى الاساقفه يعلمهم حال نسطور، فاجتمعو اليه وقالو له قد سمعنا خبره وهذه حادثه صعبه لن [لأن] اريوس واشياعه وبولا وماني وغيرهم من المخالفين ما كانو بطاركه، وقد اضلو جماعه من الناس فكيف هذا بطرك القسطنطينيه. فكتب اليه الاب كيرلس كتابا تانيا [مملو نعمه وحكمه ويحذره ويخوفه] يقول فيه كلاما كتيرا من جملته: انني ما اصدق ما حكى لي عنك. ويعظه ويخوفه ويعرفه الايمان

يتضح أيضا مدى لهفة قسطنطين على استقبال الرجل وكأنه يغريه بفيض رحمته وسماحته بالاذن له بالعودة الى الاسكندرية، ولعلنا ندرك من قول الامبراطور هذا مدى حرصه على الحفاظ على وحدة الامبراطورية واقرارا السلام بها، وذلك شئ يفسره سقراط بغيرة الامبراطور وحماسته الدينية!!

أمام الحاح الامبراطور جاء آريوس الى القسطنطينية بصحبه يوزيوس الشماس الذى كان اسكندر [الكسندروس] قد حرمه باعتباره نصير اريوس عند بداية الجدال بين الرجلين[1]، وقد استقبلهما الامبراطور وسألهما عما اذا كانا قد وافقا على قانون الايمان النيقى، فأعطياه موافقتهما، فطلب اليهما أن يقدما اليه مكتوبا يؤكد قولهما[2]، فاستجاب آريوس وصحبه لأوامر الامبراطور وقدما اليه الصيغة التالية:

«آريوس ويوزيوس.. الى سيدنا التقى الورع قسطنطين الامبراطور.. أيها السيد الحاكم، وفقا لأمر جنابكم البار ها نحن نعلن ايماننا، ونعترف أمام الله كتابة أنا وأشياعنا نؤمن هكذا.. نؤمن باله واحد.. الآب القدير.. وبالرب يسوع المسيح ابنه المولود منه قبل الدهور. الله الكلمة الذى نزل وتجسد، وتألم، وقام ثانية وصعد الى السماء،وسوف يأتي ثانية ليدين الأحياء

(1) THEOD. hist. eccl. I, 3.

(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

المستقيم ويسيله [يسئله] ان يرجع عن قوله الكفر، ويعلمه انه لا يقدر ان يضاد الله الذى صعد على الصليب من اجلنا. وهذه نسخته: الى الاخ الشريك فى الخدمه، ما صدقت فيك ما قيل عنك اولا، والكتب التى وصلت إلى وقيل انك كتبتها لم اصدق ايضا ما فيها انه منك، لان الاقوال الكذب قد تنسبت الى القديسين، لانها كتب مملوه تجديفا وانا الان اوصيك ان تبعد عن هذا التجديف وهذه الخصايم فليس لك قدره على محاربة الله الذى

لاهوت المسيح انه بلا أب ولا أم ولا ميلاد. ان مريم لم تلد الهاً بل ما يولد من الجسد ليس الا جسد وما يولد من الروح فهو روح. ان الخليقة لم تلد الخالق بل ولدت انسانا آله للاهوت».

ولما انتشرت بدعته قاومها البابا كيرلس كما ذكر وقرر حرمه ونفى الى ديرة الأول علّه يرعوى عن غيه فلم يقلع عنه بل صار ينفث سمومه برهبان ذلك الدير ولذلك نفى إلى أخميم بصعيد مصر وظل منفياً حتى مات.

والأموات. (نؤمن) أيضا بالروح القدس، بقيامة الجسد، بالحياة الاخرة، بملكوت السماوات. بكنيسة لله واحدة تمتد فوق كل أرضين.

هذا الايمان عن الأناجيل المقدسة تلقيناه، حيث يقول السيد لتلاميذه: اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الاب والابن والروح والقدس (متى ١٩/٢٨).

وانا ان لم نؤمن ونتقبل بحق الآب والابن والروح القدس كما تبشر الكنيسة الكاثوليكية والكتب المقدسة (التى نؤمن بكل ما جاء فيها) فالله قاضينا كلينا الان ويوم الدينونة، أيها الامبراطور القانت. نضرع الى تقواكم، نحن يا من كرسنا للاكليروس، يا من نتمسك بعقيدة وفكر الكنيسة والكتب المقدسة.. هلا سمح ورعكم وتقواكم بعودتنا ثانية الى أمنا الكنيسه. ولنلق جانبا سطحى المسائل والجدال. عندما نغدو كلانا والكنيسة وقد احتوانا سلام.. لعهدكم الأمين، ولأجل الاسرة كلها نقدم صلواتنا والابتهال»(١).

وأول ما يلفت النظر أن صيغة الايمان هذه جاءت خلوا من عبارة «من نفس الجوهر» (الهوموسية) وهى التى دار حولها الجدل طيلة طرح هذه القضية فى المجمع، وهى العبارة التى أخبر يوساب القيسارى ان الامبراطور نفسه هو الذى اقترح اضافتها الى العقيدة. يضاف الى

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 26.

أما أتباع نسطور فاهتموا بنشر بدعته بعد موته وأسسوا لهم مدرسة بالرها ثم طردوا منها فلجأوا الى نصيبين وشرطنوا لهم رئيسا أطلقوا عليه لقب «جاثليق» واستمروا يذيعون بدعتهم ويوجد منهم لليوم فريق فى جبل سنجار على حدود ايران وفى ملبار بالهند.

مجمع أفسس المسكونى الثالث:

انعقد سنة ٤٣١ بأمر ثيودوسيوس قيصر تحت رئاسة البابا كيرلس الاسكندرى حضره مائتا أسقف

صلب عنا بالحقيقة ومات بالجسد وهو حى بقوة لاهوته وهو الجالس عن يمين الاب، والملايكه له تسجد والسلاطين والقوات، وهو الملك الازلى الذى اسلم الاب كل شى فى يديه، وهو خالق الكل ولا قدرة لك على مقاومته، فانى انا قلت لك ما حل باليهود مقاوميه فليس انت غير عالم به وبما حل بالهراطقة اعنى سيمن [سيمون] الساحر ويوليانوس الملك واريوس.وهو ذا ايوب الصديق يقول: انظرو جراحاتى وخافو ومجدو الله. وانا

هذا خلوها أيضا من عبارة «مولود غير مخلوق» وهى التى ادخلت أيضا برأى المجمع على مرسوم الايمان القيسارى. ويقول جونز ان صيغة الايمان التى قدمها آريوس ويوزيوس كانت فى جملتها مختصرة ماكرة(١). وعلى الرغم من كل هذا فان الامبراطور لم يلق بالا الى هذه الموضوعات التى كانت سببا فى الانقسام، لعدم ادراكه لعمق هذه الخلافات اللاهوتية، متلهفا على اعادة الوحدة الى الكنيسة والدولة، فعد هذه الصيغة اعترافا من الزعيم الآريوسى بمرسوم الايمانن النيقى، وقبل منه وزميله ذلك، وقد رآه حسنا، واستجاب لنداء الرجلين الذى جاء فى نهاية ملتمسها، وأصدر أو امره بالعفو عن آريوس وصاحبه. ولم يلبث الامبراطور أيضا أن قرر استدعاء كل من يوساب وثيوجنس من المنفى، وأمر بعودتهما ثانية كل الى كنيسته بعد أن قدما وثيقة توضح عقيدتها وأنهما يتبعان الايمان القويم(٢). وكان هذا يعنى بداهة عزل الأسقفين البديلين أمفيون وكرستيوس اللذين اختيرا من قبل.

ولعلنا ندرك خلال كل هذه الحوادث دور الامبراطور فى تحريكها، فلقد تكفل بمراسلة آريوس ودعوته الى بلاطه وطلبه اليه تقديم صيغة للايمان موافقة الكنيسة، وقبوله بنفسه لهذه

---

(1) Jones, Constantine, p. 175.

(2) SOZOM. hist. eccl. II, 16.

اقول، ان البيعه لا تصبر عليك ان تشتم الاهنا وهى التى ابواب الجحيم لا تقهرها، وانت تعلم ما نالها من التجارب [المحن] ولم يقدر احد عليها لانها هى كالصخرة فى الامانه، فانظر انت ما تفعل الان والسلام.

فلما وصلت هذه الرساله الثانية الى نسطور كتب ايضا رساله مثل الاولى ملانه تجديفا، فلم ان وصلت الى الاب كيرلس كتب اليه رساله تالته من نبوات الانبيا ومن الانجيل والرسايل وارسلها له.

لمحاكمة نسطور الذى أنكر أن السيدة العذراء والدة الاله وعلم باقنومين فى السيد المسيح فحكم المجمع بحرم هذه البدعة وأثبت ان فى السيد المسيح اقنوما واحدا وطبيعة واحدة من بعد الاتحاد بدون اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة ثم وضعوا مقدمة دستور الإيمان التى هى «نعظمك يا أم النور الحقيقى ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الاله لانك ولدت مخلص العالم أتى وخلص نفوسنا. المجد لك يا سيدنا وملكنا المسيح فخر الرسل اكليل الشهداء تهليل

الصيغة دون أن يرجع فى شئ من هذا كله الى أى من رجال الكنيسة، ولم يطلب اليها رأيا أو يستمد نصحا. وذلك شئ لم يكن من غير الطبيعى فى شئ ما دامت الكنيسة قد هللت للامبراطور وهو يترأس مجمع أساقفتها ويتدخل بنفسه فى أمور العقيدة بالحذف والاضافة، فلا غرو اذن أن يحرم الامبراطور، ويمنع، وأن يعفو ويصفح دون أن يرهق فكر الكنيسة بشئ من هذا. واستسلمت الكنيسة طوعا وكرها، فوضع قسطنطين بذلك لخلفائه سنة احتساب الكنيسة دائرة من دوائر الحكومة، للأباطرة حق تعيين كبار موظفيها وعزلهم.

غير أن شيئا لم يكن فى الحسبان جاء قسطنطين على غير توقع، وبدد حلم سلامه وأمل الوحدة لديه، ذلك أن كنيسة الاسكندرية رفضت الانصياع لأوامر الامبراطور، ووقفت وحدها، على الأقل، من بين كنائس الامبراطورية تدافع عن الايمان النيقى الأرثوذكسى متحدية الامبراطور، ضاربة بعرض الحائط قراراته ورغبات بطانته الكنسية الجديدة. وذلك فى عهد شخصية تعد من أقوى الشخصيات المصرية هو أثناسيوس، أسقف الاسكندرية، شماس المجمع النيقى الشهير، الذى تولى الأسقفية خلفا لسلفه اسكندر عام ٣٢٨ [٣٢٦ عند ساويرس]، فبدأ بهذا الرجل فصل جديد من فصول الصراع بين الكنيسة والدولة لم يسدل عليه الستار الا فى القرن السابع والمسلمون على أبواب مصر.

الصديقين ثبات الكنائس غافر الخطايا نكرز ونبشّر بالثالوث المقدس لاهوت واحد نسجد له ونمجده يارب ارحم يارب ارحم يارب بارك آمين» ثم أمروا بأن يقرأها كل المسيحيين من الكهنة والشعب شيوخاً وصبيانا ورجالا ونساء في الصلوات والقداسات وبعد أن ثبتوا الكنيسة بالقوانين انصرفوا إلى بلادهم.

أوطاخي: كان راهبا مترأسا على دير بالقرب من القسطنطينية به ٣٠٠ راهب وكان قد قاوم نسطور وأساقفته بسالة وشكاه لمجمع أفسس حيث

يقول: انك لم تكن اسقفا ولم يكن احد يعرفك إلا جيرانك واقرباك، فلما جلست على كرسى ابن الله عرفك كل واحد لجل [لأجل] مجد البيعه فوثبت على الرب بكلام تجديف لاتقدر تثبته ولا تحققه، واذا فتشت [الكتب] العتيقة لم تجد فيها ان المسيح يسمى انسانا محضا كما تزعم، وانما انت تظهر انك تقاوم الله خالقك الذى اشتراك بدمه وهو الله الابن ابن الله الاب كما سمى فى الكتب العتيقه والحديثه، وكما سمى فى انجيل يوحنا انه

خيل للامبراطور أن سنوات عمره الباقية ستنقضى فى هدوء كان دائما ينشده، فها هو آريوس نفسه قد عاد الى الاعتراف. على الآقل من وجهة نظر الامبراطور، بالايمان النيقى، وها هم صحبه قد سلكوا أيضا نفس السبيل، ولم يبق اذن الا أن يقبل الأسقف السكندرى أثناسيوس آريوس فى الكنيسة ثانية. ولكن الامبراطور كان واهما فى تصوره، فالأساقفة الآريوسيون وان كانوا قد أبدوا موافقتهم وبصورة غامضة على ما قرره أساقفة نيقية الا أن ذلك لم يكن صادرا عن رغبة أكيدة فى اعتناق هذا الايمان فعلا. وذلك شئ برهنت عليه أحداث ما يقرب من قرن من الزمان. ولكنهم كانوا فى حقيقة الأمر يؤمنون تمام الايمان أن آريوس على اليقين وأن خصومه عن الحق بعيدون. ومن ثم راحوا يسعون جاهدين لكسب الامبراطور الى جانبهم لتأييد قضيتهم . وساعدتهم على ذلك الأحداث.

يخبرنا سقراط [1] وسوزومين [2] أن يوساب النيقوميدى وثيوجنس النيقى قد حظيا لدى الامبراطور وعقب عودتهما من المنفى بمكانة كبيرة وحرية فى القول وتأثير كبير على الامبراطور، وقد يبدو ذلك عجيبا اذا ما عدنا الى الرسالة التى بعث بها الامبراطور الى أهالى

---

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(2) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

الابن الوحيد الذى فى حضن ابيه، ومتى الانجيلى يقول انه «عمنويل» الذى تفسيره «الله معنا» كما قال اشعيا فى نبوته، ومرقس يشهد فى انجيله انه لما ساله ريس الكهنه وقال له:انت ابن الله قال له: نعم انا هو ومن الآن ترون ابن الله جالسا عن يمين القوه ومقبلا على السحب ليدين الاحيا والاموات. اليس هذه الشهاده هى التى يشهد بها بولس. انها الاعتراف الحسن الذى به قدام بلاطس البنطى، هذا الاعتراف هو الذى البيعه ثابته عليه، ولاجله

ذهب بشخصه ليشهد على ضلاله ولهذا كان أصدقاء البابا كيرلس يعتبرونه من المحامين عن الإيمان. وفى سبيل المدافعة عن مقام المسيح ضد نسطور تطرف فى التعبير عن طبيعته فقال أن طبيعته الناسوتية اندمجت فى اللاهوتية وحرم هذا التعليم فى المجمع الافسسى الثانى سنة ٤٩٤م الذى ترأسه البابا ديوسقوروس الا أن أوطاخى اعترف بايمان مجمع نيقية فحل من حرمه وقام بنشر مذهبه الآب بارسوما وتلميذه صموئيل بين الارمن سنة ٤٦٠م.

نيقوميديا يوضح لهم فيها خبائث يوساب ورفيقه، ولكن سرعان ما يزول العجب اذا أدركنا أن الامبراطور كان يبغى كسب ولاء انصارهما، ومن ثم قربهما الامبراطور اليه متغاضيا عن كل ما جرى على قلمه عنهما أنفا. هذا من ناحية، ومن الأخرى فقد قدم الرجلان لقسطنطين وثيقة ايمان عدها قويمة وارتضى بها أرثوذكسيتهما. أما الثالثة فقد كان للاتجاه الذى اتخذه أثناسيوس السكندرى أكبر الأثر فى ايغار صدر الامبراطور عليه وتقريبه بالتالى لخصومه الذين وجدوا فى ذلك أعظم الفرص لبلوغ غاياتهم.

سعى الشيخان لدى الامبراطور لاعادة آريوس ثانية الى كنيسة الاسكندرية، وكان قسطنطين على وعده الذى وعد به آريوس فى رسالته الأخيرة اليه، فكتب الى الأسقف السكندرى يطلب اليه قبول آريوس (١). كما كتب يوساب النيقوميدى أيضا الى أثناسيوس بهذا المعنى، وان كانت لهجة يوساب تحمل ضمنا معانى التهديد (٢). غير أن أثناسيوس أرسل الى الامبراطور ما يفيد عدم قبوله الزعيم الاريوسى فى بيعته (٣).

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(2) SOZOM. hist, eccl. II, 18.

(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

صـارت ربوات شـهـدا لا يحـصى عـددهم. الم تسمع جبرايل الملاك يقول للست السيده(*) مرتمريم ان الذى تلدينه هو من روح القدس وابن الله يدعى، الذى على الكل الممجد الى ابد الابدين. من هذا الذى حمل خطايا العالم. اليس هو يسوع المسيح ابن مريم الذى ولدت لنا الله الكلمة متجسدا. ان كنت تعتقد انه نبى كموسى فما قدر موسى ولا احد من الانبيا يحمل خطايا العالم، لكن ريس الصلاح المسيح حمل خطايا

(*) الست السيدة مرتمريم: تعنى الست هنا «إيزت» أى إيزى: ايزيس، وليس معناها كما يتوهم البعض السيدة لأنه، كما هو واضح هنا أن إيزت لحقت بها كلمة السيدة. ومن الملاحظ أن المصريين يطلقون على كل القديسات ونساء آل البيت لقب «الست».

ذلك أمر لم يكن يتوقع الامبراطور حدوثه. فقد حسب أن أحدا من رجالات الكنيسة قل شأنه أو كبر لا يملك المقدرة للاعتراض على أى قرار للامبراطور، ومن ثم استشاط غضبا لهذا الذى يسمع ويرى!! وزاد الطين بله أنه قد بلغه أيضا أن أثناسيوس رفض قبول المليتيين فى الكنيسة، واحتج على اختيار يوحنا المليتى خلفا لمليتيوس[1]. وكان المليتيون قد جأروا بالشكوى للامبراطور من المعاملة التى يلقونها على يد أسقف الاسكندرية، ويصور سوزومين حالة قسطنطين عندئذ أحسن تصوير حيث يقول «أصبح الامبراطور من أمره فى حيرة.. أى الفريقين يصدق؟! لقد كان أمامه كثير من الاتهامات التى الصقوها ببعضهم، وهناك أيضا العديد من البيانات والأدلة التى قدمها الطرفان، فلما عاين الامبراطور ذلك كله استبد به القلق وبلغ به الغضب حدا كبيرا»[2]. فكتب فى محاولة لاعادة الوئام، الى أثناسيوس متوعدا، وحمل الرسالة اثنان من موظفى القصر هما سينكلتيوس Syncletius وجاودنتس Gaudentius[3] وجاء فيها:

«أنك ولا شك تعى تماما ارادتنا، لا تحل البتة بين أى فرد ورغبته فى دخول الكنيسة،

(1) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(2) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

العالم بصعوده على الصليب من اجلنا. الم نسمع بولس الرسول يقول: ليس هو انسان بل هو الله صار انسانا. ويقول ايضا بولس: ان ليس ملاك ولا شفيع خلصنا بل يسوع المسيح والله الاب اقامه من الاموات. أرايت الان كيف اعترف انه الاه، وكيف اعترف بالالام التى قبلها بجسده المقدس، فان كان ليس هو الاها فكيف اعترف بولس ان خلاصنا ليس هو من انسان ولا من عند انسان ولا ملاك ولا شفيع لكن من عند الله يسوع المسيح،

ولتدرك جيدا أنه اذا ما نما الى علمنا أن أحدا ممن يرغبون فى العودة الى الكنيسة قد حيل بينه وبين ما يشتهى لأبعثن على التو من يقوم بعزلك انفاذا لمشيئتى ويرسل بكم الى المنفى»[1].

ويبدو أن الامبراطور لم يكن جادا فى تهديده هذه المرة، فقد قصد بذلك مجرد قهر أثناسيوس على الامتثال لأوامره، وذلك شئ دلت عليه الأحداث بعد ذلك وأوضحه تعليق سقراط على هذه الرسالة بقوله ان الامبراطور ما أقدم على ذلك الا مدفوعا بالرغبة فى نشر الخير العام وعدم رؤية الكنيسة ممزقة، فطالما جاهد الامبراطور ليجمع على الوئام صفوفهم»[2].

ومهما يكن من أمر فقد اتضح الآن أن الفريق الاريوسى قد بدأ يفيق الى حد بعد الكلمة التى كالها له مجمع نيقية، وأخذ الامبراطور بالتالى يدخل هذ الظاهرة فى اعتباره ويحسب بدقة حسابها، الا أن أحداثا أخرى وقعت خارج الاسكندرية جذبت اهتمام الامبراطور الى حين، وكان منشؤها كما يقول سقواط ما تبين خلال الرسائل التى تبودلت بين الأساقفة عقب مجمع نيقية، أن عبارة «من نفس الجوهر» قد سببت المتاعب للكثيرين منهم، ولذلك فانهم شغلوا أنفسهم بفحص دقيق حول فحواها مما أدى بالتالى الى اشعال نيران الجدال بينهم ثانية، ويضيف سقراط، يبدو أن المسألة كانت نزاعا فى ظلام لأن أحدا من الحزبين لم يحاول فهم

(1) SOZOM. hist . eccl. II, 22.

(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.


السمكة والحمامة رمزا المسيح

واعتـرف ايضـا بموته، اذ قـال ان الاب اقامـه من بين الاموات فـرايت الان هذه الحكمـه المملوه امانه بسيدنا المسيح، والان فقد انفدنا اليك هذه المكاتبه ايهـا الاخ لتـدخـرها فى وسط البيـعه، وليس انت غيرعارف فاقرا الكتب لتعلم منها هداواكثر منه، وقد انفدت اليك الاخوه وسالتهم ان يقيمو عندك لتبحث وتجتهد شهرا وتفحص الكتب وتكتب لنا بما عندك والسلام.

فلمـا وقف نسطور على هذه الرسـاله لم يقـبل

موقف الآخر والأسس التى يعتمـد عليها، فهـؤلاء الذين يعارضـون هذه العبـارة يعتقـدون أن أنصارها يتحمسون لاراء سابليوس ومونتانوس، ومن ثم أطلقوا عليهم مجدفين أو ملاحدة. هذا على حين يتهم أصحاب هذه العبارة خصومهم بالشرك والقول بتعدد الآلهة معتبرين أياهم وثنيين يؤمنون بالخزعبلات، وعلى هذه الشاكلة أتهم يوستاتيوس Eustathius أسقف انطاكية يوساب أسقف قيساوية بالمروق عن قانون الايمان النيقى، فأنكر يوساب ذلك ورد التهمة اليه بأنه مدافع عن أفكار سابليوس،ونتيجة لذلك أو لسوء الفهم هذا، على حد تعبير سقراط، كتب كل منهما كما لو كان يناضل عدوا لدودا.

الحقيقة أن لدينا عديدا من الروايات عن الاتهامات التى سيقت ضد يوستاتيوس، فيوساب صاحب النزاع معه لا يعطينا أى تفصيلات عن أسباب هذا النزاع، ولعل ذلك قد يبدو متفقا مع نهجه فى كتابه «حياة قسطنطين»، ولا يذكر شيئا عن هذه الحوادث سوى أن «تدابير الشيطان وعيون الحاسدين» هى التى أحدثت هذه الاضطرابات فى أنطاكية بزعامة يوستاتيوس(١). أما أثناسيوس فانه يثنى على الأسقف الأنطاكى ويمتدح خصاله وقويم ايمانه مما لم يرضى خصومه الآريوسيين فكالوا له التهم عند الامبراطور مدعين بأنه أهان هيلينا(٢).

---

(1) EVSEB. vita const. III, 59.

(2) ATHANAS. hist. Arian. 4.

الاخوه الواصلين بها اليه ولا قبلها ولا كتب عنها جوابا. فاقاما شهرا كاملا هناك كما امرهم انبا كيرلس البطرك وهم يترددون الى نسطور فلم ياذن لهم فى الدخول بل قسى قلبه متل فرعون. وكان نسطور صديقا لتاودوسيوس الملك منذ كانا فى المكتب [الكتاب او المدرسة] وكان الملك يقول له: ما سمعت احدا من معلمى البيعه يقول مثل قولك قط. فلم يسمع منه. فعاد الرسل الى الاب كيرلس وأعلموه بما كان، فعند ذلك تقوى

على حين أن ثيودوريت يوسع دائرة الخلاف لتشمل يوساب النيقوميدى معتبرا اياه سبب كل هذا البلاء، ويقول انه أبدى رغبته للامبراطور فى السفر الى أورشليم لحضور الاحتفالات المقامة لتدشين الكنيسة التى أقامها الامبراطور هناك. ولما كان قسطنطين قد اطمأن لأقواله فقد سمح له بذلك وزوده بكل ما يحتاج اليه فى حله وترحاله، ولما كان ثيوجنس أسقف نيقية صديقه الحميم فقد اصطحبه معه فى سفره، فلما وصلا الى الأماكن المقدسة تلاقت وجهتا نظرهما مع من يشاركونهما الرأى فى فكرهما خاصة يوساب أسقف قيساوية، وباتروفيلوس أسقف بيسان، وآيتيوس أسقف اللد وثيودوتوس أسقف اللاذقية، وأخرين غيرهم يتعاطفون مع العقيدة الاريوسية، وقر رأيهم على تدبير «مؤامرة» معينة.ومن ثم رحلوا الى أنطاكية وكان ادعاؤهم الذى زعموه لهذه الرحلة هو رد اعتبار يوساب[1]. ولكن الغموض يكتنف هذه القصة، فالاحتفال بتدشين كنيسة أورشليم تم عام ٣٣٥، بينما وقعت هذه الاحداث سنة ٣٣٠[2]. وعلى الرغم من تعدد هذه الروايات الا أن الاجماع عندهم على أن مسألة العقيدة والخلاف بين الرجلين بشأنها كان السبب الرئيسى فى حدوث هذه الاضطرابات. ولحسم هذا الخلاف

(1) THEOD. hist. eccl. I, 20.

(2) McGiffert, op. cit. p. 21; Latourette, Christianity, p. 158; F. Jaclson, op. cit. p. 316; Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 102.

كيـرلس بسـلاح ابويه الاكـسندرس واتناسـيـوس
ولبس درع الايمان الذى خلفـوه ابهـاته فى بيـعـة
مارى مرقس الانجيلى وخـرج الى الحرب مثل داود
وقلبه ثابت بالمسيح الله، وكتب الى بقية الاساقفه
وكاتبو الملك يسالونه ان يكون لهم مجمع للنظر
فيـمـا قـاله نسطور، ويذكـرون له ان أبهـاتهـم الذين
ملكو قـبله كـانو فى كـل وقت وزمـان يرتبـون
البيعه، وكان لهم الصبر الجيد ومساعدة الاساقفه
على تشبيت الامانه المستقيمه لكى يصلوا على

دعا الى عقد مجمع فى أنطاكية[1] ترأسه يوساب القيسارى[2]. ويسوق ثيودوريت صورة من الاتهامات التى وجهت ضد يوستاتيوس[3]، ولكن هذه الاتهامات تبدو غير حقيقة لأنها لم ترد فى كتابات سقراط أو سوزومين أو أثناسيوس. ولكنا نعلم من سقراط أن كيروس Cyrus أسقف بيرويا Beroea (حلب) قد تولى مهمة الادعاء ضد يوستاتيوس، فاتهمه بأنه يردد نفس الآراء السابيلية[4]. ولما كانت غالبية الحاضرين فى المجمع من مؤيدى يوساب تم عزل يوستاتيوس من منصبه[5]، وأصدر الامبراطور أوامره بنفيه الى ترجانابوليس فى تراقيا[6]. وحول ما يقوله سقراط عن عزل أسقف أنطاكية تتضح الحالة التى كانت تسود الكنيسة عندئذ، والعداوات المتاصلة بين رجالها، فبعد أن يسوق حادث العزل يقول ان هذا الاجراء قد اتخذ لأسباب غير مقنعة، وقد كان هذا أمرا شائع الحدوث، فقد اعتاد الأساقفة أن

---

(1) EVSEB. vita Const. III, 60.

(2)Downey, op. cit. p. 352.

(3) THEOD. hist. eccl. I, 20.

(4) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.

(5) EVSEB. vita Const. III, 60; SOCRAT. hist. eccl. I, 24;

(6) HIER. vir. iII. 85.

ملكهم ، والان فهذا نسطور قد شتت البيعه وليس هو بعيدا من ضلالة عبادة الاوثان بقوله المجدف المملو تجديفا اذ قال ان المسيح انسان فقط، وانه نبى لا غير وقد جا الى العالم انبيا كثير ولم يعبد احد منهم، فاذا كان هذا يعبد انسانا فقد صار عابد وثن. ولما قال بطرس لسيدنا المسيح: حسنا يا معلم ان نكون هاهنا ونتخذ تلت مظال واحده لك وواحده لموسى وواحدة لايليا لانه خالقهما والاههما، واظهر مجده لتلاميذه باحضارهما

يفعلوا ذلك فى كثير من الأحوال، يتهمون ويعلنون فساد أولئك الذين يعزلونهم دون أن يقدموا تبريرا لهذا العمل[١].

ما كاد المجمع يصدر قراره بعزل يوستاتيوس حتى شبت الثورة فى انطاكية وانقسم الناس الى فريقين، بين مؤيد للقرار ومعارض، وحمل كلاهما السلاح وأضحت المدينة على شفا الحرب الأهلية، وارتاع الامبراطور لهذه الأحداث، وأصبح الامر فى نظره غاية فى السوء، وامتلأ على حد تعبير سوزومين غيظا وحنقا، وأرسل على الفور من لدنه قائدا كبيرا خوله سلطات ضخمة لاخماد هذه الفتنة[٢] هو موزونيانوس Musonianus[٣] ووضع حد لهذا الاضطراب دون اللجوء الى العنف كلما أمكن ذلك[٤].

وتضطرب الروايات فيمن خلف يوستاتيوس على أسقفية أنطاكية، فسقراط[٥] وسوزومين[٦] يعطيانا اسم يوساب القيسارى مباشرة مرشحا لهذا المنصب، على حين نعلم من

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.
(2) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(3) Downey, op. cit. p. 352.
(4) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(5) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.
(6) SOZOM . hist. eccl. II, 19.

الواحد من السما والاخر من الارض. ونحن نسيل ملكك الضابط ان يكون لنا مجمع للنظر فى هذ، ونصلي عليك وعلى ملكك لتخلص ايها المحب لله. فلما قرا الملك الكتاب تحرك بقوة الرب وجمع الاساقفه الى مدينه افسس هو والبطرك، فاجتمع هناك ما يتا اسقف من ساير المدن كل واحد منهم معه قسيسان وشماس من كرسيه، وانفذو الى نسطور ليحضر وانتظروه عدة ايام فلم يحضر، فكتبو الى الملك واعلموه ان نسطور لم يحضر

رواية أخرى أن باولينوس أسقف صور قد خلف الأسقف الأنطاكي المعزول مدة ستة أشهر فقط(١)، ثم تبعه بعد ذلك يولاليوس Eulalius والذى لم يمض عليه الا زمن يسير وذلك حسب رواية ثيودويت(٢). ثم رأى الأساقفة بعد ذلك ترشيح يوساب القيسارى لشغل كرسى الأسقفية الشاغر(٣) ويقول سوزومين: لقد دخل فى روع أولئك الأساقفة الذين اجتمعوا فى أنطاكية وأصدروا قرارهم بعزل يوستاتيوس، أن هذا القرار سوف يلقى استحسان الجميع عامة والامبراطور خاصة اذا ما رفعوا الى الكرسى الأسقفى بدلا منه رجلا يميل الى ارائهم معروفا لدى الامبراطور قريبا منه، مرموقا فى علمه وفصاحته. ومن ثم قر رأيهم على يوساب القيسارى، وكتبوا الى الامبراطور بخصوص هذا الموضوع وأكدوا له أن هذا الاقتراح يلقى استحسان الأساقفة ورضاء الرعية (٤). غير أن يوساب رفض قبول هذا المنصب وكتب الى الامبراطور رسالة بهذا المعنى(٥).

---

(١) مات بالولينوس قبل مجمع نيقية. أنظر:

(2) McGiffert, op. cit. p. 45.

(3) THEOD. hist. eccl. I, 21.

(4) SOZOM. hist. eccl. II, 19.

(5) Id.; SOCRAT. hist eccl. I, 24.

فانهم ينتظرونه. فسال نسطور الملك ان ينفذ معه مقدما يحفظه وقال له انهم كثير وانا خايف ان يقتلونى، فانفذ معه بطريقا يقال له قنطيطيانوس وكان رايه راى نسطور. فلما وصل الى المجمع اخذ كيرلس في الليل حبسه في موضع فيه قمح هو واصحابه فقال كيرلس لاصحابه: اى شى تحت ارجلنا؟. قالوا له:قمح. قال الشكر لله المبارك الذى اعطانا الغلبه لانهم جعلونا في بيت الحياه. وكان فعل قنطيطيانوس هذا مساعدة لنسطور ليخيف

وكان قرار يوساب بعدم قبول هذا الكرسى الشاغر دليل حصافة وحسن رأى من جانبه. فقد رأى أن انقسام الأنطاكيين سوف يزداد حدة اذا ما رأوا أن يوساب خصم يوستاتيوس اللدود قد أصبح أسقف المدينة، وكان يوساب غير راغب فى احداث صدع فى الكنيسة[1]. هذا بالاضافة الى أن هذا المكان الجديد ما كان ليجذب رجلا فى مثل عمر يوساب كان مزاجه آنئذ محبا للسلام وذوقه مدرسيا، ففى قيسارية قضى يوساب الجزء الأكبر من حياته، وبها مكتبة أستاذه بامفليوس تحت تصرفه،و كما أن الفرصة له هنا سانحة لمتابعة أعماله الأدبية والعقائدية. أما فى أنطاكية فلسوف يجد نفسه مرغما على الغوص فى فتن من كافة النواحى.وسوف يجد نفسه ملزما لتكريس انتباهه فى انجاز مهامه الرسمية وحدها.

هذا من ناحية، ومن الأخرى لا يخفى علينا علاقة يوساب بالامبراطور، وكان الأول يعلم مدى حرص قسطنطين على وحدة الكنيسة وبالتالى وحدة والدولة، ويدرك تماما ما انتاب الامبراطور من ضجر وغيظ لدى سماعه بانقسام رجال الكنيسة فى مصر وما جره هذا الانقسام على كنائس الشرق من فرقة وتخاصم. ولذلك ما كان يوساب يرغب مطلقا فى أن يزيد الى آلام الامبراطور جرحا آخر بالعمل على استفحال الفوضى والاضطراب والشقاق فى أنطاكية. وما كان ليجر على نفسه غضب الامبراطور ونقمته، بل لا شك أن يوساب كان يعلم

(1) McGiflert op. cit. p. 22.

كيرلس ومن معه من الاساقفه المجتمعين به حتى يتفرقو فلم يتم له ذلك، فانهم ماكانو اجتمعو الا وقد ابذلو نفوسهم للموت على الأمانه. فلما تحقق منهم ذلك اطلق كيرلس واصحابه، وخاف ان يتصل الامر بالملك فيهلكه فجعل يحفظ الطرقات ومنع اصحاب الاخبار ان يكتبو بشى من ذلك الى الملك، ثم اقامو الابا عدة ايام ومعهم اسقف افسس مجتمعين مصلين ونسطور منفرد عنهم ولم ياتيهم، فانفذو اليه تلته اساقفه يسالونه ان يحضر

أن الامبراطور سوف يرفض مثل هذا الاقتراح، لهذا آثر الانسحاب بنفسه قبل أن يرغمه الامبراطور.

تبدى اهتمام قسطنطين البالغ بهذه المشكلة فى الموقف الذى اتخذه حيالها، فقد بعث بثلاث رسائل الى شعب أنطاكية ويوساب ومجمع الأساقفة بها، وتعد الأولى أهم هذه الرسائل على الأطلاق لانها تفصح بجلاء عن قلق الامبراطور واضطرابه ورغبته فى حسم هذا الأمر بصورة فعالة. وقد بدأ قسطنطين رسالته بمقدمة طويلة عن السلام والتمسك بالقانون الألهى وضرورة احلال الوئام بين الجميع. ثم يقول:

«لعلكم الآن تقفون مشدوهين، ولعلكم أيضا فى حيرة من أمركم تتساءلون ماذا يعنى بهذا التمهيد ؟! بلا حذر سأجيبكم وبلا تردد. أصدقكم القول.. ما أن طالعت كتاباتكم الى والتى تعلى فى الخافقين ذكر يوساب أسقف قيساوية، ذلك الرجل الذى أعرفه حق المعرفة وأكن لعلمه واعتداله كل تقدير، حتى أدركت أنكم به متعلقون، وفى الاستئثار به راغبون.. اية أفكار اذن تظنون أنى أحملها حول هذا لأمر، وأنتم تعلمون رغبتى فى البحث من أجل الحق وانقاذ مبادئه؟! ألا تدرون أى قلق انتابنى لرغبتكم هذه ؟... ان الذى جعل من الحفاظ على السلام مبتغاه يغدو سيدا على النصر ذاته. وحيث يبدو الطريق عند أى اختيار قويما بيناً، فلن يتردد امرؤ أن يسلك جادته. والآن.. اخوتى، إنى لأتساءل.. لماذا نقدم على اختيار قد يلحق بالاخرين

معهم الصلاة فلم يمكنوهم الجند اصحاب قنطيطيانوس من الدخول اليه فلما احتجب عنهم وطال عليهم الامر لبعدهم عن كراسيهم احتاجو ان يبعدو عدو الله من بيعته فاحضرو الاربعة اناجيل واحضرو كتبه المملوه كفرا من كلامه المجدف، وكان لكيرلس كاتب شماس يسمى بطرس عالم فاهم وكان يعرف مواضع تجديف نسطور الذى فى كتبه فجعل يخرجها للمجمع المقدس من مواضعها بسرعه، فلما وقفو عليه اتضح لهم كفره

بالغ الضرار، لماذا تشتهى أمورا لابد ملحقة بسمعتنا الدنس! انى لأكن لهذا الذى أوليتموه كل احترامكم والحب، التقدير. الا أنه بالرغم من ذلك لا يصح بنا أن نغض الطرف عن تلك المبادئ التي يجب على جميعنا مراعاتها، فينال كلنا حقه المشروع، وليس من الصواب عند النظر فى ادعاءات مرشيحين آخرين، افتراض أن واحدا بعينه استحوذ الصلاح كله. فقد يكون هناك كثيرون بالمنصب جديرين. وحيث أن الكنيسة لا تتعرض كرامتها للعنف والغلظة، فان هؤلاء جميعا يصبحون على قدم المساواة ويستحقون اذن منا نفس التقدير»[1].

على هذا النحو راح قسطنطين يرغب أهالى أنطاكية بجميل القول عن اختيار يوساب القيسارى أسقفا خلفا ليوستاتيوس وأوضح لهم بمعسول الحديث أن هناك غير يوساب كثير الكفاءات والقدرات التى يمكن أن تقوم بنفس علمه هذا. على أن الشئ الواضح فى هذا الجزء من الرسالة هو ما عبر عنه قسطنطين صراحة من قلقه الشديد لهذه الرغبة التى تراود أهل البيعة الأنطاكية. وهذا شئ يفيض به الجزء الباقي من الرسالة، وفيه نهج الامبراطور نهج الحزم والصرامة مبديا سخطه وامتعاضه لما ينتوى الأنطاكيون القيام به. يقول:

«اذا كان الأمر كذلك فدعونى أقول لكم أنكم بهذا تضعون أنفسكم موضع الاتهام، لا

(1) EVSEB. vita. Const. III, 60.

فاحرموه وقطعوه وكتبو خطوطهم فى كتاب حرمه وانفذ اليه فلم يقبله ولم يرجع عن كفره فارادو انفاذ ما كتبوه الى الملك فلم يقدرو لاجل من جعله قنطيطيانوس البطريق لحفظ الطريق فتشاورو الى ان اخد احدهم الكتاب وجعله فى قصبه غليظه وغير لباسه وسار حتى وصل الى القسطنطينية وسلم الكتاب لتلميتوس واوتيخيس السايحين [وانا بقطر (*) السايح رفيقه، سلمته] للكاتب ليقراه على الملك فلما قراه كان فيه: قال

(*) الراوى هنا بقطر الراهب.

بالاستئثار بهذا الكاهن فحسب، بل بنقله بغير طريق الصواب، وعندها يتسم مسلككم بالعنف لا بالعدل، وعلى أى نحو فكر الآخرون فانى أؤكد لكم صراحة وبلا مواربة أن هذا الاجراء سوف يفجر أسوأ اضطراب حزبى، ذلك أن الرعية حتى ولوكانت مسالمة الا أنه فى مقدورها ابداء سلطان الحق فى قوة عندما تبدأ عناية راعيهم فى التقلص، ويجدوا أنفسهم وقد افتقدوا حسن رعايته.. واذا كانت المسألة اذن بهذا الشكل، واذا لم يخدعنى التقدير، فليكن هذا ايها الأخوة أول الاعتبارات أمامكم، فهناك العديد من هام القضايا لا يلبث أن يفرض نفسه عليكم، اذا أنتم ما ضون على عزمكم.. ولكن أليس معنى هذا أن يتعرض الحب والتناغم القائم فيكم للانحسار، ولتتذكروا ثانية أن هذا الذى حل بينكم يخلص النصح، ينعم الآن بما يستحق من ثواب علوى لأنه تلقى جزاء غير عادى من واقع شهادتكم الصادقة عن مسلكه القويم.

وأخيرا.. وتمشيا مع تقديركم الصائب، هل باختياركم هذا الرجل الذى تشعرون بالحاجة اليه، قد أبديتم الحصافة اللازمة فى هذا الاختيار وانتم تعلمون ما يتبع ذلك من قيام الشغب والفرقة، وهل تعلمون أن هذا هو الخطأ بعينه وان الصدام بين الفرق المختلفة قد يولد شرارا ولهيبا»(١).

(1) EVSEB, vita Const. III, 60.

المجمع المجتمع با فسس نحن نعلم ان عمنويل هو الله المتانس [المتأنس]، قبل ان لا يشاركنا نسطور في هذه الامانه فلذلك هو غريب من الاب والابن والروح القدس، وغريب من ميراث الحواريين وغريب من البيعه الواحدة [المقدسه] وكل من لا يقول أن يسوع عمنويل، أى هو الله المتانس، فهو محروم وكلمن لا يقول ان العذرا مريم ولدت الله الكلمه متجسدا بالحقيقة فهو محروم [من] يسوع الخالق يسوع الغالب، يسوع المخلص للكل له المجد

واختتم قسطنطين رسالته بقراره النهائى الذى لا يقبل الجدل أو المناقشة والذى أضحى تنفيذه على الجميع واجبا:

«انى لأحتج بشدة على مسلككم، فذلك شئ لا يرضى الله. وليس من صالحكم فى شئ، كما أنى أرى فى موقفكم هذا تهديدا لمشاعرى التى تبغى الاستمتاع بالسعادة والغبطة التى تجمعنى واياكم وأمنياتكم.. ا نى لأحببكم، خاصة وقد لفظتم من بينكم تلك الضلالة وأقمتم مكانها سامى الخلق والوفاق، فثبتم بذلك عالم السلام المقدس، حتى ليحق للمرء أن يقول انكم محصنون بخوذة حديدية وأنتم تصعدون درج السماوات العلا. ولتحملوا فى سفينكم تجارة لا تفسد، لأنكم قد أفلحتم فى نتح ماء كان يتهددها بالغرق. ولتعنوا من الآن فصاعدا، لضمان الحفاظ على النعم التى تتقلبون فيها، حتى لا يقول عنكم الناس فيما بعد أنكم تمسكتم بنزوة خاطئة أو حماس معيب. أو أنكم أندفعتم فى حمق تتخبطون فى دروب المجهول. لعل الله يحفظكم أيها الاخوة الأحباب».

هكذا أفصح قسطنطين صراحة عن رأيه فى ترشيح يوساب، فقد كان الرجل صديقه الحميم، وكان الامبراطور يحمل له كل تقدير واعجاب، ولكن صالح الدولة العام أهم بكثير من كل هذه الاعتبارات، ومن ثم راح يحذر الرعية الأنطاكية من الاقدام على مثل هذا الاجراء لما سينتهى اليه ذلك من ازدياد حدة الانقسام وعموم الفوضى والاضطراب.

الى الابد امين. فلما قرى هذا الاعتراف على الملك صرخ كلمن [كل من] فى قصره وقالوا: يسوع هو عمنويل الله المتانس [المتأنس] فقال اوطيخيس: تكتب جلالتك حرمه وتكتب للاساقفه ان يحضرو عندك ويسلمو على رياستك ويباركو على ملكك. ففعل ذلك فسار الجمع الى القسطنطينيه، فقبلهم الملك احسن قبول وجلس دونهم وسجد لهم واخذ بركتهم وامر بان ينفى نسطور فسير الى النفى وصحبته حاجب يوصله

وكم كانت سعادة الامبراطور عندما أتاه خطاب يوساب يعلن له فيه رفضه قبول هذا الشرف الذى اقترح أهالى أنطاكية والأساقفة خلعه عليه، معلنا تمسكه بالتقاليد الكنيسة التى تحرم انتقال الأساقفة من بيعهم الى أخر. فرد عليه الامبراطور برسالة امتدح فيها خلقه القويم وحسن سلوكه.. جاء فيها:

«لقد طالعت باهتمام كبير رسالتك، وأدركت منها مدى تشبثك بالقاعدة التى ارتضتها الكنيسة. وان التزامك بما يبهج الاله ويتفق والعرف الرسولى لبرهان على تقواك.

وبهذا يحق لك أن تشعر بغبطة أنت بها جدير، لأنك قمين بأن تكون أسقف عالم بأسره. فأنت تملك البصيرة التى تتمناها أية كنيسة. وما من شك فى أن الرغبة التى أبداها الجميع للاحتفاظ بك (راعيا) قد برهنت على مستقبل لك باهر يحسدك الكل عليه.. وعلى الرغم من ذلك، فان نيافتكم، فى اصراركم على مراعاة الشرائع الالهية والقوانين الرسولية، قد فعلت حسنا برفضك أسقفية أنطاكية. ورغبتك البقاء فى بيعتك التى رسمت عليها من قبل بارادة الله.

ولقد كتبت فى هذا الصدد الى شعب أنطاكية، والى زملائك الأساقفة الذين تقدموا الى فى هذا الأمر يطلبون نصحى، واذا ما أطلعتم على هذه الرسائل فلسوف يتبين قد استكم أن العدالة لا تتفق مطلقا وما يرتجيه هؤلاء. لقد كتبت اليهم بوحى من الله. على أنه يحسن

الى ديار مصر وانفذو له الاساقفه قبل مسيره يقولون له: اعترف بان المصلوب اله متجسد ونحن نقبلك ونعفيك من النفى فقسى قلبه مثل فرعون ولم يجبهم بشى. فلما قال للحاجب: نستريح هاهنا قد تعبت. فقال له الحاجب: قد تعب ربك اذ مشى الى السادسه وهو الاله فما تقول انت. قال له نسطور: اجتمع مايتا اسقف يطلبون منى ان يسوع هو الله المتانس فما قلت فاقول لك انت ان الله تعب.

التواجد فى مؤتمرهم حتى يعتمد هذا القرار فى كنيسة أنطاكية.. حفظك الله أخى الحبيب»[1].

اطمأن قسطنطين بذلك الى أن شعب أنطاكية لن يقدم على ما انتواه بعد أن أنذره بالويل والثبور بغوامض الكلم أو صريحه، وازداد اطمئنانه وهو يرى المرشح نفسه يقرر رفض الكرسى الأنطاكى، وبقى على قسطنطين أن يضع بنفسه خاتمة هذا المشهد الأخير على مسرح أنطاكية.ولم تكن تلك هى الأولى من نوعها، بل لقد سبقتها مشاهد أخرى قام فيها قسطنطين بنفس الحق مذ ادعى أن السماء دون البشر هدته، وتقدمت به اليه الكنيسة مذ سمحت له أن يقرر فى العقيدة ما يشاء، فاذا كان هذا شأنه والعقيدة. فما باله والرجال!!

كان الأساقفة المجتمعون فى أنطاكية لا يزالون يقلبون الأمر بحثا عن أسقف جديد يخلف يولاليوس الذى لم يستمر فى منصبه سوى ستة أشهر فقط، وأنقذتهم من حيرتهم رسالة الامبراطور اليهم، أشار فيها قسطنطين الى رسالته التى بعث بها الى أهالى أنطاكية، وأرفق بها صورة هذه الرسالة حتى «يقفوا على رأية فى هذا الخصوص» ثم أو ما الى رسالة يوساب اليه والتى تضمنت اعتذاره عن قبول الأسقفية الأنطاكية، واختتم رسالته بهذا الأمر الصريح.

....

(1) EVSEB. vita. Const. III, 61.

وسار به الحاجب حتى اوصله إلى اخميم(*) من اعمال الصعيد فاقام هناك منفيا محروما مقطوعا الى ان مات. وقد كتب الأب القديس كيرلس عدة رسايل منها رساله الى انبا يوحنا بطرك انطاكيه اولها: تفرح السموات وتتهلل الارض». ورساله الى اكاكيوس اسقف ملطية أولها: «ما احلى اجتماع اخوه كاملين يتذاكرون التعاليم الروحانيه.ورساله الى ولاريانوس اسقف قونيه أولها: «الاخ الحبيب الشريك في الخدمة». ورساله الى الكهنه والشمامسه

(*) أخميم: شرق سوهاج بصعيد مصر. من مراكز صناعة السجايد في مصر منذ القدم.

كانت أخميم مركزاً لطائفة من النساك السابقين للمسيحية (انظر الهامش السفلى ص٥٠٨). ومنها الصوفي المصري ذو النون النوبي الأصل، الذى قامت فلسفته الصوفية على دعامتين اساسيتين هما المعرفة والمحبة مما جلب عليه سخط الفقهاء وقالوا عنه انه احدث علماً لم تتكلم فيه الصحابة، وسعوا به إلى الخليفة

«يحسن بنا أن نطلع نيافتكم في هذا الأمر رأينا. ذلك أنه قد نمى الى علمنا أن يوفرونيوس Euphronius الكاهن، أحد مواطني قيسارية كبادوكيا، وجورج كاهن آرثوذا (الرستن).. Geouge of Arethusa الذى رسم قبلا على يد اسكندر [الكسندروس] في الأسكندرية، انما هما رجلان ذوا ايمان عميق، وعلى هذا فانه يجدر بفخامتكم عند اختيار من يستأهل شرف الأسقفية من بين هذين الرجلين وسواهما، أن تصدروا في قراركم بوحي من تقاليد الرسل وبهذا يغدو في مقدوركم توجيه سير الانتخاب بما يتواءم ونظم الكنيسة والعرف الرسولي حتى يتحقق النظام الكنسي.. رعاكم الله اخوتي الأحبة»(١).

لم يكن أمام الأساقفة أن يسلكوا سبيلا غير الذى رسمه لهم قسطنطين. فقد اقترح عليهم أو بتعبير أدق أمرهم بالمفاضلة بين رجلين، وعلى أثر تسلم هذه الرسالة قام الأساقفة برسم بوفرونيوس الكبادوكى أسقفا على أنطاكية (٢). ولكن هذا لم يمكث فيها الا عاما واحدا وبضعة أشهر، فخلفه فلاكيللوس Flaccillus(٣)، ويعلق ثيودوريت على ذلك بأن كل هؤلاء الأساقفة كانوا يدينون بالعقيدة الاريوسية (٤).

(1) EVSEB. vita. Const. III, 62.
(2) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(3) THEOD. hist. eccl. I, 21.
(4) Id.

والرهبان والنساك الثابتين على الامانه المستقيمه بعد قطع نسطور ونفيه. ورساله الى اولوقيوس القس الاسكندراني الذى كان مقيما بالقسطنطينيه اولها: «ان اناسا واجدون علينا بسبب المقاله التى قالها اساقفة المشرق. ورساله الى انستاسيوس والاكسندروس، ومرتنيانوس، ويوحنا، وبرجوريس القس، ومكسيموس الشماس اولها: انا امدح جدا محبتكم للعلم. وفى كل رساله يذكر الامانه المستقيمه ويبين كفر نسطور وفساد مقالته وانها

العباسى المتوكل، ورموه عنده بالزندقة ولكنه أعجب به وصار من مريديه كان ذى النون ملم باللغة السريانية، والهيروغليفية وقرأها على جدران المعابد المصرية ولازم احد معابد اخميم وأقام بها.

وكان هذا الاجراء الذى أقدم عليه قسطنطين، بتعيين الأساقفة، كما حدث بوضوح عقب عزل يوساب النيقوميدى وثيوجنس النيقى سنة ٣٢٥، أو بترشيح أثنين للمفاضلة بين أحدهما، كما هو حادث فى المشكلة الأنطاكية، وهو ترشيح يحمل صيغة الأمر، كان هذا كله سابقة خطيرة فى تاريخ الكنيسة، لم يتخل عنها خلفاء قسطنطين، وأضحت فى الوقت ذاته مثار جدل عنيف لقرون طويلة من تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، فيما عرف بمشكلة التقليد العلمانى، وما صحبها من نزاع بين الامبراطورية والبابوية.

ولقد كانت أنطاكية تمثل مركزا اغاية فى الأهمية باالنسبة لأباطرة الرومان، فقد كانت دائما مبتغى ملوك فارس فى صراعهم المستمر مع الامبراطورية الرومانية. ولم يكن يغيب عن بال قسطنطين خطط سابور الثانى لاستعادة الأقاليم التى ضاعت أثناء الحرب الأخيرة بين الدولتين على عهد دقلديانوس، كما لم يكن يخفى عليه أيضا مركز أنطاكية الاستراتيجى فى أى حرب مقبلة مع فارس. وقد قدمنا أن الملك الفارسى كان ينتهج سياسة عدائية ازاء الرعايا المسيحيين هناك. وعلى ذلك فمن المحتمل أيضا أن يكون قسطنطين قد سارع جاهدا لحل المشكلة الأنطاكية حتى يجنب المدينة اندلاع حرب أهلية قد تغرى الملك الفارسى بمحاولة استغلالها. هذا بالطبع الى جوار السبب الرئيسى لدى قسطنطين وهو محاولة القضاء على أى انقسام قد تتعرض له الامبراطورية.

مخالفه لامانة الابا القديسين وما تتضمنه كتب الله العتيقه والحديثه. بين ذلك بشهادات واضحات صحايح من الكتب المقدسه التى نطق بها الروح القدس على السن الانبيا الصادقين والرسل المنتخبين والابا القديسين معلمى البيعه المقدسه الجامعه الرسوليه. سوى رسايله الى نسطور قبل نفيه التى كتبها بلطافه ويعظه ويوفقه ويرشده فلم يسمع منه ولا رجع عن سو رأيه وقساوة قلبه وفساد اعتقاده.

هدأت بهدوء الأحوال فى أنطاكية سريرة الامبراطور، ولكنه الهدوء الذى يسبق العاصفة، ذلك أن الفريق الآريوسى، ما كان ليرضخ بصورة نهائية وهو يعتقد أنه يدافع عن عقيدة هى الصواب وحق اليقين، وها هو الآن يتقدم وئيد الخطو محاولا تثبيت أقدامه، فالامبراطور قد عفا عن زعمائه، واستطاع هؤلاء ازاحه خصم لهم لدود من كرسى أسقفية أنطاكية، ولم يبق أمامهم اذن الا الد هؤلاء الخصوم على الأطلاق، أثناسيوس الأسقف السكندرى!

وكان قسطنطين قد بعث برسالة الى الاسكندرية يتوعد أسقفها بالعزل والنفى اذا رفض الامتثال لأوامره فى قبول أولئك الذين يرغبون فى العودة الى الكنيسة، يعنى بذلك الآريوسيين والمليتيين، غير أن أثناسيوس أصر على موقفه متحديا رغبة الامبراطور، وكتب اليه محاولا اقناعه بأن أولئك «المهرطقين» لا يمكن قبولهم فى الكنيسة الكاثوليكية (١). وكانت تلك اذن فرصة سانحة اهتبلها الفريق الآريوسى ليوغر صدر قسطنطين على أسقف الاسكندرية (٢). وكان يوساب أسقف نيقوميديا هو الذى يتراس الان جماعة الاريوسيين، كما كان من أبرز رجالهم ثيوجنس أسقف نيقية، ماريسMaris أسقف خلقيدونية، أورساكيوس Ursacius أسقف سينجيدونوم Singidunum (بلجراد)، فالنزValens أسقف Mursa (أوسيك فى

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

(2) Id.

السير الثالثه عشره من سير البيعه المقدسه

ديسقرس البطرك

[٤٤٤/ ٤٥٨م]

وهو من العدد الخامس والعشرون

وجعل بعد نياحة انبا كيرلس البطرك القديس ديسقرس بطركا على كرسى مدينة اسكندريه ولقى من الجهاد على الامانه الارتدكسيه شدايد صعبه من مرقيان الملك ومن زوجته، ونفوه عن كرسيه

يوغسلافيا)(١) وراح هذا الفريق يوثق صلاته بجماعة المليتيين فى مصر فى محاولة لتوحيد جهودهما ضد الأسقف السكندرى(٢). وخمس سنوات تالية نشب صراع عنيف بين الفريقين، أستخدم كلاهما كل ما لديه من أسلحة الدعاية والاتهام،و الامبراطور ينفذ سياسته بدقة، فتارة ينتصر لهذا الفريق، وأخرى يعدل عن رأيه، وهو فى هذا وذاك تلهث أنفاسه فى محاولة للخلاص من هذا الشقاق فى الكنيسة الذى يهدد الدولة كلها.

رسم الحزب اليوسابى خطته على مرحلتين، الأولى اثارة غضب الامبراطور على أسقف الاسكندرية، والثانية اشاعة روح السخط والتذمر عند الاساقفة جميعا على زعيم الايمان النيقى.

كان يوساب ورفاقه يعلمون تماما مزاج الامبراطور وطبعه الأوتوقراطى ورغبته الجامحة فى الاستبداد بالسلطة، ولم يكن من العسير على أحد عايش قسطنطين فترة من الزمن وعاين الأحداث التى مر بها، أن يدرك على الفور نفسية قسطنطين. لقد كانت سياسته تتبلور حول شئ واحد دلت عليه أحداث عصره مذ كان بعد فى بريطانيا، ذلك هو دولة واحدة وحاكم

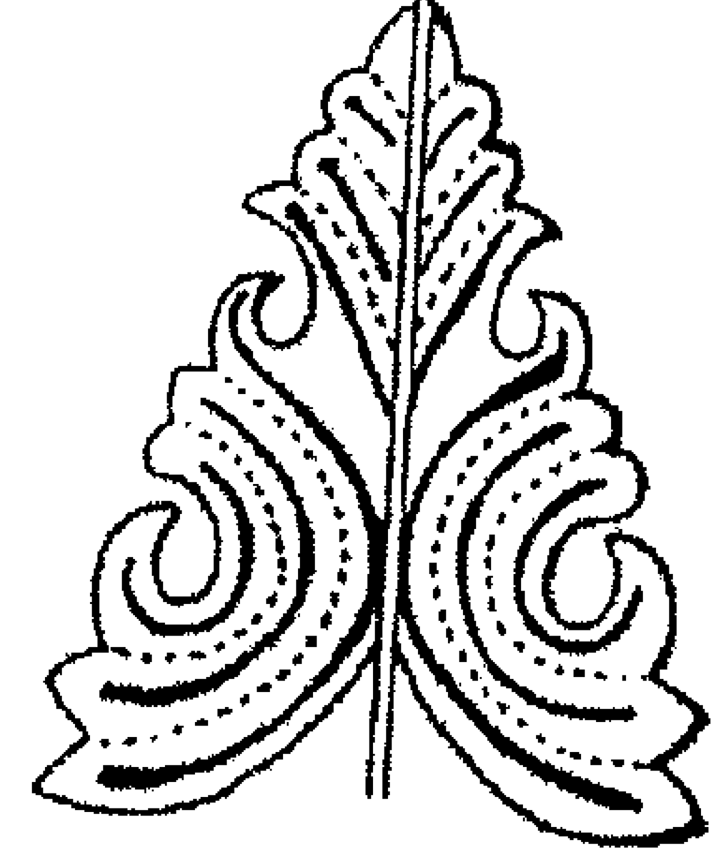
(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(2) Id.; ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

(3) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

بتحامل مجمع خلقدونيه وميلهم الى هوى الملك وزوجته حتى انهم سموا «الملكيه» هم وكلمن يتبع امانتهم الفاسده لاجل اتباعهم راى [رأى] الملك وزوجته فى إظهار مقالة نسطور وتجديدها.

وكانت عادة الاوايل ان يكتبو سير المتقدمين فى كل جيل، واما فى زمان بنى اسرايل فكتب فيلون الفارى، ويوستوس ويوسابوس، واكيسبوس بعض سيرة سيدنا يسوع المسيح وخراب اروشليم بيد اسباسيانوس وطيطس ابنه وماكان من بعدهما.



واحد. ولم يكن قسطنطين ليقبل مطلقا بانقسام فى امبراطوريته، كما لم يكن يسمح لانسان مهما بلغت منزلته أن ينازعه السلطان، أو على الأقل ينتقص منه شيئا. من أجل هذا أشاع فى الناس، وروج له مادحه» يوساب القيسارى أنه «مبعوث السماء الى الأرض»، «حوارى المسيح» !!

وعلى أوتار الوحدة الامبراطورية وأنغام السلطان راح الفريق اليوسابى يعزف للامبراطور لحنا واحدا طوال خمس سنوات، حتى استطاع أن يجبره فى النهاية على أن يصفق له ويخرج من حفل الترانيم تلك النغمة الشاذة الصادرة من كنيسة الاسكندرية!!

لما كان من غير المعقول اتهام أثناسيوس بالهرطقة أو الزيغ، فقد كان لابد من البحث عن طريق أخر غير طريق العقيدة، ومن ثم اتهم الأسقف السكندرى بأنه قد فرض ضريبة على المصريين يؤدونها من الكتان لا ستخدامه فى الرداء الكهنوتى(١). كما وأن هذه الضريبة قد جبيت عنوة ممن تقدموا بهذا الاتهام(٢). وكان ازيون Ision ويودايمون Eudaemon وكاللينيكوس Callinicus وهم من الفريق المليتى أصحاب ذلك الاتهام (٣). ويجمع

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

(2) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

ومن بعد ذلك كتب افريقنوس، واوسابيوس ومينا
التجارب والجهاد الذى نال الرعاه والشعوب فى
ايام انبا كيرلس الحكيم البطرك، وما جرى بينه
وبين نسطور وما لقيه الاب ديسقرس بعده من
مجمع خلقدونيه، ثم أفترقت الامانه والكراسى
حتى انه لم يبق من يكتب سيره وانقطع ذلك،
والرب باق الى الابد، ولذلك لم توجد سيرة
القديس ديسقرس البطرك بعد نفيه وحفظ الامانه
الارتدكسيه الباقية فى كرسى البشير مارى مرقس

المؤرخون الكنسيون على أن ذلك كان نتيجة اغراء يوساب ورفاقه. ولعلنا نلمس مدى الأهمية التى علقها الامبراطور على هذا الاتهام، فقد كان فى حد ذاته اعتداء على سلطانه. اذا أرسل يستدعى اليه فورا أثناسيوس ليدفع عن نفسه ذلك القول، ما كان أيسر على قسطنطين أن يرسل أحد موظفى البلاط مندوبا عنه لبحث القضية فى المنطقة ذاتها، ولكن استدعاء أثناسيوس اليه يحمل فى طياته مدى نفوذ قسطنطين على رجال الكنيسة ورغبته الجامحة فى اخضاعهم لسلطانه. ويعد فى الوقت ذاته تحذيرا للأسقف السكندرى على مسلكه السابق تجاه الامبراطور، وبرفضه تحقيق قسطنطين فى اعادة آريوس الى شركة كنيسة الاسكندرية.

ولقد تصادف وجود قسيسين مصريين فى العاصمة الامبراطورية عندئذ هما أبيس Apis ومقار Macarius فتقدما الى الامبراطور ينفيان هذا الاتهام عن أسقفهم، ويؤكدان له أن ذلك القول محض افتراء[1]. ولكن ذلك لم يكن ليثنى الامبراطور عن عزمه فى استدعاء أسقف الاسكندرية. وما أن جاء هذا الى البلاط الامبراطورى حتى كان الفريق اليوسابى قد أعد ضده اتهاما جديدا يمس حياة الامبراطور ذاته، فقد أذاع أن أثناسيوس يتآمر ضد الامبراطور، وأنه أرسل صندوقا مملوءا بالذهب الى شخص يدعى فيلومنوس Philumenus كان رئيسا للحرس

---

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

الى الان والى الابد حتى أخذ اكليل الشهاده
بجزيرة جاجرا من مرقيان الملك وتنيح هناك.
[بعد ان رد اهل تلك البلاد الى الامانه] وصار
الى الرب الذى احبه، صلواته وبركاته معنا امين.

تيماثاوس (الثانى) البطرك

[٤٥٨ / ٤٨٠]

وهو من العدد السادس والعشرون

ومن بعد ان تنيح الاب المجاهد ديسقرس البطرك

لتنفيذ مخططه[١]. وقد قام الامبراطور بفحص هذه القضية، فلما اتضح له فى النهاية كذب الدعوى لام المدعين، وأطلق سراح المدعى عليه وسمح له بالعودة الى بيعته[٢]، وشعيه برسالة الى رعيته يمتدح أسقفهم ويثنى على خلقه ونقاوة روحه معترفا به رجلا من رجال الله، ومبينا أنه لما كان الحسد وحده هو سبب أتهامه الان، فانه بذلك ارتفع فوق مستوى متهميه والشبهات[٣]. ولم ينس قسطنطين فى رسالته أن يحث كلا من الفرق المتنازعة على الانصراف الى تبجيل الاله ورعاية حق أثناسيوس، وأوصاهم بحسن السلوك تجاه بعضهم البعض. ويعلق سوزومين على ذلك قائلا: هكذا كتب الامبراطور الى الرعية يستحثها على الوئام والوحدة ساعيا الى منع حدوث أى انقسام فى الكنيسة[٤].

وعلى الرغم مما يبدو من سياق هذه الأحداث أن الامبراطور قد أعاد أثناسيوس الى كنيسته معززا مكرما، الا أنه قد تأكد لديه أيضا أن وجود الأسقف فى حد ذاته بعدائه الذى يتبادله والفريق الآريوسى يعد مصدر خطر كامن وحقيقى، وكان هذا هو ما يسعى اليه الحزب

(1) Id.
(2) Id.
(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(4) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

اقام السيد المسيح بطركا يسمى تيماتاوس على كرسي مدينة الاسكندريه وصبر على الشدايد وجهاد المخالفين ونفي هو واخوه اناتوليوس الى جزيرة جاجرا ايضا الى كمال سبع سنين وعاد بنعمة الله بامر الملك الى اسكندريه، وكان تكريزه في ايام لاون الملك. واقام بطركا أتنين وعشرين سنه وتنيح في اليوم السابع من مسرى.

اليوسابى، وكانت تلك هى الخطوة الأولى التى خطاها. وان كان الامبراطور قد أدرك أن الوقت لم يحن بعد للتخلص من أثناسيوس.

بقى اذن أن يثير يوساب ورفاقه الأساقفة ضد أثناسيوس، ولا يتأتى ذلك الا باظهاره فى صورة رجل الدين الذى لا يحترم زملاءه رجال الاكليروس ويحتقر ذوى المرتبة الثانية منهم.

كانت مريوط Mareotes اقليما تابعا للاسكندرية، وكانت تضم قرى عديدة تمتلئ بالسكان وبعدد من الكنائس الزاهرة، وكانت كل هذه الكنائس تحت سلطان أسقف الاسكندرية[1]. الا أن شخصا يدعى اسخيراس Ischyras لم يكن من رجال الاكليروس ادعى لنفسه حق حمل لقب قسيس[2]. وكان هذا فى حد ذاته اعتداء على نفوذ الأسقف السكندرى، وقد علم أثناسيوس بأنباء هذه الأحداث من قسيس هذه المنطقة عندما كان الأسقف يقوم بزياراته المعتادة للاقليم، فأوفد الأسقف السكندرى قسيسا يدعى مقار بصحبة قسيس المنطقة لاحضار اسخيراس، غير أنهم الفياه يعانى الام المرض، فطلبا الى أبيه تحذير ابنه من التمادى فى غيه، ولكنه ما أن أبل من مرضه ومنع بواسطة والده وأصدقائه من الاستمرار

(1) SOCRAT. hist . eccl. I, 25.

(2) Id.

بطرس [منجوس] البطرك

[٤٨٠ / ٤٨٨م]

وهو من العدد السابع والعشرون

فلما مضى تيماتاوس للرب كرز بامر الله بطرس القس ببيعة اسكندريه وجعل بطركا. وكانت مملكة الروم باقيه ثابته جدا على تجديد ذكر مجمع خلقدونيه الطمث فى كل وقت لانه غير مبنى على اساس الصخره الثابته التى لله الكلمه يسوع

فيما كان يدعيه حتى فر هاربا الى المليتيين(١). ونعلم من سقراط أنه ارتحل بعد ذلك الى نيقوميديا ليكون على مقربة من زعيم الفريق اليوسابى، ويخبرنا أيضا أن يوساب استقبله لا كأحد رجال الكنيسة فحسب بل وعده أن ينعم عليه شرف الأسقفية كذلك اذا ما استطاع أن يجد اتهاما ضد أثناسيوس(٢). فاذاع اسخيراس تقريرا يعلن فيه أن مقار وصحبه أثناء حضورهم اليه اندفعوا تجاه المذبح وقلبوا المائدة، وكسروا الأوانى المقدسة وأحرقوا الكتب، وأن أسقفا يدعى أرسنيوس Arsenius قد قتل على يد أثناسيوس أيضا وجاء بيد مقطوعة ادعى أنها لهذا القتيل (٣) ويخبرنا سقراط أن الاتهام الأول الخاص بمقار قد أعد بعد ذلك فى وقت تال، بينما كان الاتهام الأخير هو الذى شغل الاذهان بادئ الامر(٤).

ويذكر سوزومين(٥) أن أرسنيوس هذا أسقف لمدينة Hypselitae (شطب جنوب أسيوط)، لابد أن يكون قد أتى أمورا تخالف العقيدة أو النظام الكنسى، وان كان سوزومين لم يدل الينا بأية تفصيلات فى هذا الخصوص. ثم يضيف أنه خوفا من عقاب أسقفه هرب الى

---

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 64.

(2) SOCRAT. hist. eccl. l, 27.

(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 63, 64, 65.

(4) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(5) SOZOM. hist . eccl. II, 23.

المسيح. وبعد ذلك بمده كتب اكاكيوس بطرك القسطنطينيه الى بطرس بطرك اسكندريه يساله ان يقبله اليه برسايل كثيره انفذها اليه ومكاتبات لانه رفض مجمع خلقدونيه وسماهم مخالفين، وتومس لاون المملو تجديفا، وكذلك مقالة نسطور رفضها. وكتب له بطرس كتبا ليتحقق من عجوبتها صحة قوله. فلماوصلت اليه قبلها بفرح ومسره واظهرها لمن يريد ممن يعتقد الامانه الارتدكسيه.

مكان ما فاستغل الآريوسيون والمليتيون هذه الفرصة وبحثوا عنه حتى وجدوه وأظهروا له كثيرا من العطف والشفقة ووعدوه بالأمان اذا أطاع أمرهم. هكذا يقول سوزومين[1]. ويبدو أن أرسنيوس كان واحدا من المليتيين، يدل على ذلك موقع المدينة التى كان راعيا لكنيستها، ومن ثم كان على خلاف مع أسقف الاسكندرية، فاعتكف فى أحد الأديرة حيث وجد العطف من الفريق المضاد لاثناسيوس، وراح ينتقل من مكان لاخر هربا من أسقف الاسكندرية الذى جد فى طلبه.

هذه روايات يبدو فيها التوليف، لا تثبت للنقد، جرت بها أقلام مؤرخى الكنيسة، وكلهم يحمل العداء الدفين للآريوسية والمليتية، ولكنا سقناها استكمالا لجو الصراع العقائدى الدائر آنذاك.

عندما شاعت هذه الاتهامات، وملأت آذان الناس أدرك أثناسيوس أنه من العسير عليه تماما أن يدافع عن نفسه أمام أناس حكموا عليه بارتكاب هذا الجرم مسبقا دون انتظار لفحص أو تمحيص، ولكنه أصر على أن لا يضيع الحق وسط زحام الأباطيل[2]. وفى نفس الوقت علم

(1) Id.

(2) Id.

ثم كــتب سنوديكا(*) وانفــذها الى بطرس المغبوط، وكان بعض الاساقفه لم يحضرو فى وقت ان كــتب الكتب من البطركين بطرس واكاكيوس، وأثار الشيطان خزاه الله السجس فى قلوب اوليك الاساقفه وصار لهم ريسا يعقوب اسقف (صا)(*) ومينا اسقف (منية طامه)(*) وسارو الى مدينة اسكندريه وقالو للبطرك : كيف قبلت اكاكيوس وهو من جملة من حضر المجمع الخلقدونى. فاجابهم بدعة ومسكنه: انما

(*) سنوديكا: رسالة ايمانية.

(*) صا: ربما صا الحجر مركز كفر الزيات.

(*) منية طامه: منية كانه، كانت قرب البرلس واندثرت.

الامبراطور بكل ذلك، فسارع بالكتابة الى دلماتيوس Dalmatius رقيب أنطاكية يأمره ببحث هذه المسألة واستدعاء الأحزاب المختلفة لتمثل أمامه للتحقيق، وطلب اليه معاقبة من تسببوا فى اشاعة هذه الفوضى بالقول وأرسل الى هناك أيضا كلا من يوساب وثيوجنس بعد أن رأى ضرورة مناقشة القضية أمامهما[١]، وقد أرسل دلماتيوس رسالة الى أثناسيوس يستدعيه فيها للذهاب الى أنطاكية للدفاع عن نفسه[٢]. ويقول أثناسيوس أنه على الرغم من علمه أن كل ما جاء فى اتهامات الفريق المضاد باطل وافتراء، الا أن تحرك الامبراطور لبحث المسألة والاهتمام بأمرها جعله يعطى للامر اهتمامه البالغ[٣]. فقد كان الأسقف يعلم جيدا مدى حرص الامبراطور على القضاء على مثل هذه الفوضى، وكان لديه سابقة فيما يختص بموقف الامبراطور لدى سماعه بضربية الكتان والتآمر على حياته.

وعلى هذا الأساس ما أن تسلم الأسقف السكندرى رسالة دلماتيوس حتى سارع بالكتابة الى كل زملائه من رجال الاكليروس فى مصر يستحثهم على الادلاء اليه بأية معلومات عن شخصية أرسنيوس هذا ومكان اختفائه، لأنه على حد تعبيره لم يكن قد رآه لخمس سنوات

(1) SOCRAT. hist. eccl. I. 27.
(2) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.
(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.

قبلته لرجوعه عن ذلك الراى. وعرفهم ما وصل اليه من رسايله التى تشهد برجوعه واعترافه بالامانة المستقيمه وذكر لهم انفاذه الاساقفه اليه يسمعوا لفظه بحكم قانون البيعه. فلم يقبلو قوله لاستحكام الكبر فى قلوبهم وافرزو نفوسهم من كرسى الانجيلى مارى مرقس الرسول، وقالو بجهلهم كما قال بنو اسرايل (اسرائيل): ان ليس لهم نصيب فى داود ولا ميراث مع ابن يسا. وافترقو من البطرك القديس بطرس ولم يدخلو

تقريبا[١]، كما قام من ناحيته أيضا بارسال أحد شمامسته للبحث عن أرسنيوس فى كل مكان، وقد جاء هذا الشماس الى طيبة واستطاع أن يعلم من بعض الرهبان أين يختبئ أرسنيوس[٢] فلما وصل لأحد الأديرة هناك، أنكر باترينس Patrines الراهب ويسميه أثناسيوس بينس Pinnes[٣] وجوده لديه، وكان المعتقد أنه مختف هناك[٤]، ذلك أنه كما يقول سوزومين ما أن علم بقرب وصول الشماس حتى ارتحل خفية إلى مصر السفلى، فقام الشماسي بالقبض على بينس وساقه الى الاسكندرية مع زميل له يدعى الياس Elias قيل انه سهل لأرسنيوس مهمة الفرار الى مكان آخر، وسلم الأثنين الى السلطات الامبراطورية فى مصر، فاعترفا أن أرسنيوس لا يزال على قيد الحياة، وأنه يعيش فى مصر[٥].

وهذه الأقوال عينها نعلمها أيضا من رسالة حفظها أثناسيوس بعث بها بينس هذا الى يوحنا الأسقف المليتى ينبئة فيها تفصيلا بكل هذه الاحداث ويعتذر اليه عن اعترافه ببقاء أرسنيوس حيا، لان بعض كهنة الدير مثل بكيسيوس Pecysius وسلفانوس Silvanus أخ الياس،

(1) Id.

(2) SOZOM. hist. eccl. II, 23.

(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 67.

(4) SOZOM. hist. eccl II, 23.

(5) Id.

تحت طاعتـه حتى ان الارتدكسيين سمـوهـم الذين لا راس لهم. وكانت الرسايل المكتبه بين البطركين المذكورين خمس عشرة كراسه، وكان هذا بطرس لما صـار بطركـا على اسكندريه لقى شـدايد من المخالفين ونفـوه وسلمـو كـرسـيـه لرجل يسـمى تيـمـاتاوس ويدعى انتـونيـوس، وتاوغنستس الذى لقانوبوس، ثم يوحنا الدوانيسيـادس الذى جعلوه بعد موت انتونيوس.

ثم عاد بطرس البطرك الى كرسيه بمجد عظيم

وبـولـس Paul راهـب Hypselae قد اعترفوا صراحة بأن أرسنيوس كان يقيم بينهم، ثم يحذر يوحنا من التمادى فى اتهام أثناسيوس بهذا الادعاء خاصة بعد تكشف كل هذه الحقائق فى مصر[1]. فلما تم ذلك كتب أثناسيوس الى الامبراطور يطلعه على كل هذه الأمور[2]. فأصدر قسطنطين أو امره الى دلماتيوس بوقف اجراءات التحقيق فى هذا الحادث[3]. وأمـر يوسـاب وأعـوانه الذين كـانوا فى طريقـهم الى الشرق للاشتـراك فى نظر القـضـيـة بالعودة ثانيـة الى كنائسـهم[4]. وكتب رسالة الى أثناسيوس دعاه فيها الى الالتفات الى شئونه الكنسية والسهر على مصلحة رعيته دون أن يلقى بالا الى ترهات وأباطيل أولئك الحسود[5].

ويتضـح من رسالة الامبـراطور مدى الدور الذى لعبه المليتيـون فى هذا السبيل، فهـو يعزو اليهم كل هذه الأحداث ويتهـمهم بالزيغ والضـلال خاصة «بعد أن ظهر للجميع أن من ادعوا ذبحه لا يزال حيا باستطاعته أن يحدثهم». ثم أنحى باللائمة على كل من يتبع خطاهم معلنا أن العناية الالهيـة لا يمكن أن تمد لهم بعد هذه الافتراءات يد العون أوالرشاد، واختتم رسالته

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 67.

(2) Ibid. 65.

(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(4) ATHAMAS. Apol. C. Arian. 65.

(5) Ibid. 65.

وكان مدة جلوسه على الكرسى تمانى سنين وتنيح بسلام وكرامه كثيره فى التانى من هتور. وجميع رسايله ثابته فى دير ابى مقار وفيها رسالة لزينون الملك المغبوط جوابها وفيها جواهر الكلام. وقدس واعترف الامانه المستقيمه.

اتناسيوس [الصغير] البطرك

[٤٨٨/ ٤٩٤م]

وهو من العددالتامن والعشرون

ولما تنيح الاب بطرس القديس قدم اتناسيوس

برغبته الأكيده أن تقرأ على القوم جميعا حتى تصل الى آذان أولئك الذين تسببوا فى اثارة مثل هذه الاضطرابات، ثم صرح بأنه قد قرر محاكمة هؤلاء الناس اذا ما أقدموا ثانية على ارتكاب مثل هذه الفعال لا تبعا للشرائع الكنسية بل حسب القوانين المدنية، لأنهم بذلك لا يتآمرون ضد الانسانية بل ضد العقيدة الالهية ذاتها[١].

ويذكر أثناسيوس أن اسخيراس قد بعث اليه برسالة بعد أن اتضحت كل هذه الأمور[٢] يعلن له فيها أن كل الادعاءات التى ساقها ضده انما صدرت منه قسرا بعد أن أجبره على ذلك الفريق الآريوسى المليتى، ويعين له أسماء رجال منهم مثل اسحق Isac وهيراكليدس Heraclides واسحق أسقف لتوبوليس (أسنا) Letopolis، وأن شيئا من هذه الاتهامات لم يكن صحيحا بالمرة، ثم يرجوه أن يعفو عنه وأنه يقبله ثانية فى جماعته[٣]. ثم عاود اسخيراس الكرة ثانية، فكتب الى الأسقف السكندرى يستعطفه ويعلن له توبته ورغبته فى العودة الى حصن الكنيسة الكاثوليكية، ووعده أن لا يصغى ثانية الى أقوال أولئك الذين

(1) Id.

(٢) لابد أن يكون هذا قد حدث بعد مجمع صور سنة ٣٣٥ لأنا نعلم أن أسخيراس كان احد متهمى أثناسيوس فى المجمع.

راجع: SOZOM. hist. eccl. II, 25.

(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 64.

وكان قيما فى بيعة اسكندريه وصير عليها بطركا، وكان رجلا صالحا مملو امانه وروح القدس وتمم ما اوتمن عليه. ولم يكن فى ايامه شعت ولا اضطهاد فى البيعة المقدسه واقام سبع سنين وتنيح فى العشرين من توت.

يوحنا البطرك الراهب

[٤٩٤ / ٥٠٣م]

وهو من العدد التاسع والعشرون

ولما تنيح اتناسيوس الصغير قدم يوحنا الراهب

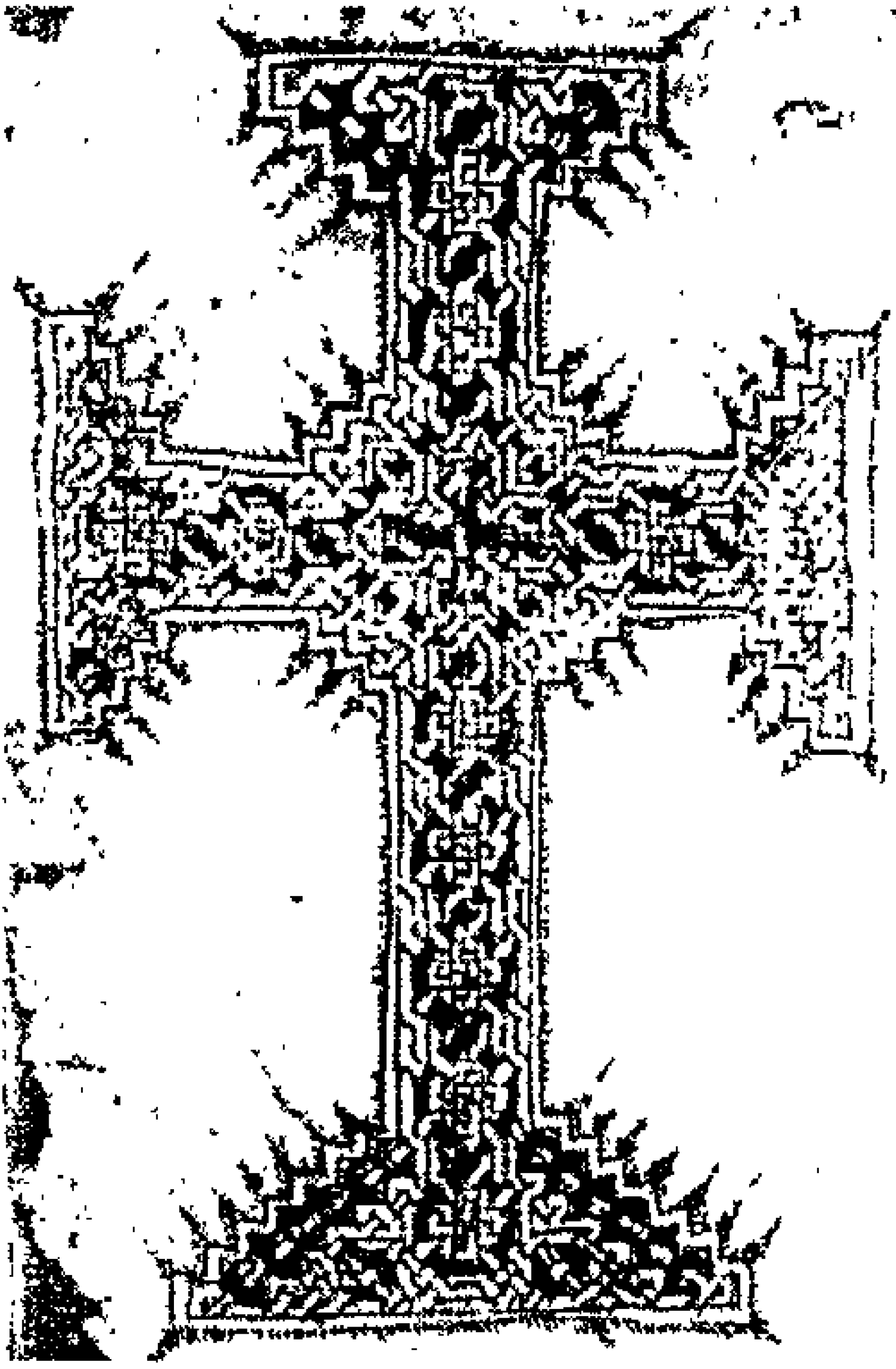
جرفوه بادئ الأمر فى تيارهم، وألايشترك معهم فى محفل أو يوافقهم الرأى ورجا أثناسيوس أن يرسل اليه ردا يطمئنه بتحقيق أمانيه، وأن يكتب بالتالى الى الكنائس المختلفة يعلمها أنه قد عفا عنه وأنه عنه راض(١).

وقد أدرك يوحنا رئيس كنيسة الشهداء أن قرار الامبراطور بمحاكمة المليتيين أمام المحاكم المدنية اذا ما استمروا فى عنادهم للاسقف السكندرى، يعد تهديدا خطيرا لكيانهم وأدرك أن الامبراطور لن يتورع فعلا عن تنفيذ ما اعتزمه، ومن ثم بادر بالكتابة الى قسطنطين يخبره أنه قد عاد الى الوئام مع أثناسيوس وأن السلام قد حل بينهما ثانية(٢).

وما أن تلقى الامبراطور هذه الرسالة حتى طرب لها وعد ذلك نهاية المطاف فى هذه الفوضى المستشرية فى مصر، وقد كان قسطنطين ينظر بعين الخوف والريبة الى ما يمكن أن يحدثه النزاع بين المليتيين وكنيسة الاسكندرية. فربما أدى به الأمر فى النهاية الى أن يمسى على شاكلة ذلك الصراع الكبير القائم فى ولاية أفريقيا بين الدوناتيين والكنيسة الكاثوليكية. بل أن هذا الخطر القائم فى مصر يفوق قرينه الغربى، فاذا كان الأخير قد اقتصر على أفريقيا وحدها، الا أن المسألة المصرية شاركت فيها كل كنائس الشرق، وعلى ذلك فقد سارع

(1) Ibid. 69.

(2) Ibid. 70.


نقش لصليب من دير ابومقار

وصير بطركا على الكرسى الانجيلى فسلك سيرة من تقدمه من الابا [ء] الفضلا. وكان البيعه والشعب واهل البريه فى ايامه فى امن وسلامه بنعمة السيد المسيح. وكان على عهد القديس زينون الملك المغبوط، ولا مانته وصلاحه امر الملك فى ايامه ان يحمل الى دير ابى مقار بوادى هبيب كلما يحتاجون اليه من قمح وخمر وزيت وجميع ما كان يحتاجونه لعمارة قلاليهم.

وكمل انبا يوحنا البطرك خدمته امنا مطمينا

الامبراطور بالرد على رئيس الأساقفة المليتيين يعبر له عن سعادته الغامرة حالة معرفته أنباء عودة السلام بينه وأثناسيوس مرة أخرى، تلك الأنباء التى كان يتوق الى سماعها لفترة طويلة مضت، ويثنى على سلوكه، هذا الرأى أدخل السرور على قلب الاله، وأعاد الى الكنيسة وحدتها وأمنها، ولم يتمالك قسطنطين نفسه فدعا يوحنا للشخوص على الفور الى البلاط الامبراطورى حتى تشمله عن كثب بركات الامبراطور ورعايته(١).

هكذا تبدى للجميع وقسطنطين خاصة أن الحال آخذة فى الهدوء فالاتهامات التى سيقت ضد أثناسيوس من جانب خصومه قد ثبت بصورة أو أخرى عدم صحتها، ورئيس الأساقفة المليتيين أعلن للامبراطور عودة الوئام مع الأسقف السكندرى، وها هو الآن يتأهب للرحيل الى العاصمة الامبراطورية لينال حظوة الامبراطور، ولكن على الرغم هذا الهدوء الظاهرى الا أن الفريق الآريوسى كان يؤمن بعدالة قضيته، فأريوس حقا قد شمله عفو الامبراطور وعاد من منفاه، ولكن كنيسة الاسكندرية لا زالت تلفظه خارجها، ولن يتحقق نصر الآريوسية وبالتالى لن يعود السلام الى الكنيسة مابقى آريوس خارجها. ولن يعود هذا الى الكنيسة اذا ظل فى الأسقفية أثناسيوس. والامبراطور بين هؤلاء وأولئك أشبه شئ بقبطان تحطمت على الأمواج دفة سفينته، فراح يضرب بيده يمنه تارة ويسرة أخرى، ليصل بالسفينة الى بر النجاة.

---

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 69.

[مطمـئنا] فى ايام زينون الملك المغـبـوط المومن وتنيح فى الرابع من بشنس بعـد ان اقـام تمانى سنين بطرك ولحق بابايه [بآبائه].

يوحنا البطرك

[٥٠٣ / ٥١٥م]

الحبيس، وهو من العدد التلتين

فلما تنيح انبا يوحنا البطرك جعل عوضه رجل حبيس يسمى يوحنا كان ذلك بامر الله وكان قرابة

عاود الفريق اليوسابى نشاطه ثانية فى دوائر البلاط، وراح يوحى الى الامبراطور أن أثناسيوس لابد وأن يبرئ ساحته أمام مجمع من الأساقفة يدعى لهذا الغرض، ووافقت الفكرة هوى الامبراطور، وحسب أن فى عهد المجمع قضاء أخيرا على هذا الاضطراب، وربما عد ذلك استكمالا لجهود المجمع النيقى، وعلى هذا الأساس وجه قسطنطين الدعوة سنة ٣٣٣ الى الأساقفة للاجتماع فى قيسارية فلسطين لبحث الاتهامات المثارة ضد أسقف الاسكندرية،وطلب الى هذا القدوم الى المجمع «ليدافع عن نفسه فى حضرة رجال الله»[(١)].

قلنا آنفا أن سياسة الفريق اليوسابى قد قامت على مرحلتين، اثارة غضب الامبراطور على أثناسيوس، واثارة سخط الأساقف ضده، وحتى الآن لا يمكننا القول أنهم أفلحوا فى المرحلة الأولى تماما، وان كانوا قد أدخلوا على الأقل فى روح قسطنطين أن ثمة عقبة تهدد سلام دولته والكنيسة ماثلة فى الأسقف السكندرى، وكانت الدعوة لعقد مجمع الاساقفة فى قيسارية نجاحا تاما للمرحلة الثانية من نضالهم ضد أنصار نيقية، بل ان نجاح هذه الخطوة امتد آثرها ليشمل الامبراطور أيضا. وهكذا وفى جولة واحدة كسب اليوسابيون الى صفهم الأساقفة والامبراطور، وقد ساعدهم على ذلك سلوك أثناسيوس نفسه وموقفه تجاه هذه الدعوة.

كان اختيار مكان المجمع دليلا على سياسة قسطنطين فى ارتضائه الحلول الوسطى فى هذه

(1) THEOD. hist. eccl. I, 28.

للبطرك المتنيح وكتب فى ايامه كتبا وميامر كتيرة، واظهر الله فى ايامه امرا عجيبا واقام مملكه وكهنوتا معا للبيعه وهو الملك انسطاسيوس المومن التقى والبطرك ساويرس الفاضل لابس النور صاحب كرسى انطاكيه الذى صار قرن خلاص للبيعه الارتدكسيه الذى جلس على كرسى الكبير اغناطيوس، وكتب سنوديقا الى الاب يوحنا البطرك بالاتحاد فى الامانه ويبشر فيها بالاتفاق بينهما بالامانه الواحده الارتدكسيه التى للابا القديسين،

المشاكل المعقدة، فقيسارية فلسطين كانت تحت رعاية أسقفها يوساب صديق الامبراطور والمعروف بميوله المعتدلة، فلا هو بقلبه يؤيد النيقيين، ولا هو صراحة مالأ الأريوسيين. ولما كان من البدهى أن يصبح يوساب القيسارى رئيسا لهذا المجمع المقترح، فقد أمل قسطنطين أن يجد فى جهده رمزا ما للسلام. ولكن أثناسيوس كان يرى فى يوساب هذا خطرا مباشرا عليه، خاصة وهو يعلم أن يوساب لن يكون صاحب الكلمة العليا الأولى فى المجمع ما دام الى جواره أساقفة آخرون يمثلون العداء الصارخ له على رأسهم النيقوميدى وكثيرون غيره من رجال الآريوسية، فتوجس فى نفسه خيفة أثناسيوس، ورفض دعوة الامبراطور لحضور هذا المجمع وظل على عناده هذا طيلة ثلاثين شهرا رغم الالحاح المستمر فى طلبه[(١)].

هكذا أضاع الأسقف السكندرى من يده فرصة كسب الامبراطور الى صفة ثانية، فقسطنطين لم يعتد من قبل أن يعترض أحد قراراته، أو يحول دون رغائبه، فعد هذا الرفض من جانب أسقف الاسكندرية تحديا لسلطانه، أما الأساقفة فأيقنوا أن أثناسيوس يسخر بهم ولا يعيرهم اهتماما، وبذلك وفى وقت واحد، ثارت حفيظة الامبراطور والأساقفة ضد أسقف الاسكندرية العنيد.

صمم الامبراطور اذن على أن يسير فى الشوط حتى منتهاه، فوجه الدعوة من جديد لعقد

(1) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

فقبلها يوحنا البطرك واساقفته وقروها في كنايسهم وكورة مصر، واصعدو صلوات وشكر للسيد المسيح الذى اعاد الاعضا المقطوعه الى مواضعها. وبفرح عظيم وابتهاج روحاني.

وكتب يوحنا البطرك القديس الى الكبير ساويرس جوابها بكلام قانونى مملو من الامانة المستقيمة التى لمعلمى البيعه، كما كتب اليه المغبوط ساويرس. ولماعاد اليه الرسل بهذه الهديه التى تشبه خلالته، فرح وتهلل جدا. واقام يوحنا

مجمع للأساقفة في صور نعلم من سقراط أن عددهم بلغ ستين أسقفا[١]. وأرسل قسطنطين الكونت ديونيسيوس Dionysius الى هناك، وكانت مهمته كما يتضح من رسالة الامبراطور الى الأساقفة، «رئاسة وضبط أعمال المجمع والحفاظ على النظام»[٢]. كما كتب الى أثناسيوس يأمره بالذهاب الى صور، ولكن الأسقف على حد تعبيره لم يكن راغبا في ذلك، الا أنه امتثل للامر على كره منه[٣]. ويتطوع سقراط للدفاع عنه قائلا ان امتعاض أثناسيوس من الذهاب الى هناك كان صادرا عن ايمانه ببراءته من كل التهم المنسوبة اليه، هذا بالاضافة الى خوفه من حدوث أى اتجاه مضاد لقانون الايمان النيقى [٤]، ثم يفصح سقراط عما حدث صراحة حين يقول« ان أسقف الاسكندرية أكره على الحضور تحت وابل من خطابات التهديد التى كتبها اليه الامبراطور متوعدا اياه بحمله على الحضور عنوة اذا لم يحضر طواعية [٥].

وقد كتب قسطنطين الى الأساقفة المجتمعين في صور رسالة أبدى لهم في بدايتها أمله الكبير في أن تعود الى الكنيسة ثانية وحدتها، ولام أولئك الذين أحدثوا هذا الشقاق والفوضى، وحث

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.

(2) EVSEB. vista. Const. IV. 42.

(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.

(4) ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.

(5) Id.

بطركـا احـدى عـشـره سنه وتنيح فى السـابع والعشرين من بشنس.

ديسقرس الجديد البطرك

[٥١٥ / ٥١٧م]

وهو الحادى والتلتين من العدد

ولما تنيح الاب يوحنا البطرك كـان له كـاتب اسـمه ديسـقرس وكـان رجلا كـاملا فى جميع اسبابه، وديعا صالحا ليس فى زمانه من يشبهه،

الأساقفة جميعاً على التزام جادة الحق والصواب فى تقصى الحقائق واظهار الحقيقة، ثم اختتم رسالته بتهديد صريح جاء فيه:

«ولئن تجاسر أحد، مع اعتقادى بأن ذلك لن يكون، على عصيان أمرى، ورفض الحضور الى المجمع، فلأرسلن اليه من يطرده بواقع مرسوم امبراطورى ويلقنه أنه لا يليق بمثله أن يعترض قرارات الامبراطور حين يكون عن الحق دفاعه»(١).

ولاشك أن هذا التهديد موجه صراحة الى أثناسيوس. وهكذا أقفل باب سلام ير تجى بين الامبراطور والزعيم السكندرى ، ولم يكن الامبراطور فى حاجة من بعد لمن يملأ قلبه حقدا على أثناسيوس أو كرها له، فمالت كفة القدر مسرعة تجاه الفريق اليوسابى المليتى.

وفى منتصف عام ٣٣٥ التأم عقد مجمع صور، واصطحب أسقف الاسكندرية معه عددا كبيرا من مؤيديه بلغ ثمانية وأربعين(٢)، وسيق مقار من الاسكندرية الى صور مكبلاً فى أغلاله (٣). ويصف أثناسيوس الحالة فى المجمع عندئذ بقوله: تقاسم المليتيون الذين طردهم بطرس من الكنيسة، والآريوسيون المؤامرة فيما بينهم، وعلى حين وقف فريق منهم ازائى

....

(1) EVSEB. vita. Const. IV. 42.

(2) ATHANAS. Apol. C. Arian. 78.

(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.

فكرزوه بطركـا على الكرسي الانجـيلي، فكتب سنوديقا الى الاب ساويرس يذكـر له فيـها نيـاح الاب المغبوط يوحنا وجلوسه بعده على الكرسي الرسولى، فكتب اليه يعزيه ويتبته على الامانة المستقيمه ويوصيه بتعليم الشعب وان لا يفتر من التعليم، ويوكد عليه في ذلك، واقام ديسقرس بطركا تلت سنين، وفي سيره اخرى انه اقام سنة واحده ونصف وتنيح في السابع عشر من بابه ولحق باباه.

موقف المدعى، وجلس الحزب الآخر في منصة القضاء، وقد اعترضت لدى يوساب موضحا أنه ليس من العدل أن يكون خصومي قضاتي، وأوضحت للجميع أن اسخيراس الذى اتهمنى قبلا لم يكن في يوم من الأيام قسيسا، واستشهدت على ذلك بتلك القائمة التى كان مليتيوس قد أعدها حسب رغبة اسكندر [الكسندروس] عن أتباعه في أنحاء مصر كلها[١]، ومن خلالها لا يظهر اسم اسخيراس على الاطلاق، ولم يبد البتة أنه كان أحد رجال الاكليروس في مريوط. وعلى الرغم من كل ذلك الا أن خصومنا لم يتخلوا عن اتهاماتهم، وكان الكونت على استعداد لاستخدام العنف ضدنا وتسيير جنوده في ذلك[٢].

تولى المليتيون اقامة الدعوى ضد أثناسيوس، فاتهمه كاللينيكوس Callinicus أسقف بلوزيوم Pelusium أنه عزل من منصبه، وعين بدلا منه شخصا آخر، ووضعه تحت حراسة عسكرية،، وراح يذيقه العذاب ألوانا حتى يحصل منه على اعترافات تدحض اتهام أثناسيوس بتحطيم الأواني المقدسة، واتهمه اسخيراس بأنه وضعه في الاغلال رغم مرتبته الكهنوتية، وأذاعوا أيضا أنهم أنبأوا قبلا هيجينوس Hyginus احد موظفي الامبراطور[٣]، في مصر أنه قذف بالأحجار تماثيل الامبراطور وأشيلاس Achillas وباخوم Pachomius واسحق Isaac

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.

(2) Ibid. 72.

(3) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

تيماثاوس الثالث البطرك

[٥١٧ / ٥٣٥م]

وهو من العدد الثانى والثلثين

وجلس تيماتاوس بطركا عل كرسى اسكندريه وتوفى انستاسيوس الملك المومن واقامو بعده رجلا رديا مخالفا اسمه يوستنيانوس ليدبر المملكه، فلما جلس بذل جهده فى ان يعيد كل المومنين الارتدكسيين الى امانة المجمع الخلقدونى. واول ما

أما يوبلوس Euplus وهرمايون Harmaeon وكلهم أساقفة مليتيون، فقد راحوا يشككون فى الطريقة التى تم بها اختيار أثناسيوس للأسقفية، وأن ذلك تم بطريق غير شرعى بناء على تأمر بعض الأفراد، مما دفع بهؤلاء الأساقفة الى قطع أنفسهم من الكنيسة احتجاجا على ذلك، فكان جزاؤهم أن ألقى بهم فى غيابة السجون[١]. كما أثيرت من جديد مسألة مقتل أرسنيوس[٢].

وفيما يخص هذا الاتهام الأخير، يذكر سقراط أن أرسنيوس، متجاهلا التحذيرات التى وجهت اليه من الفريق اليوسابى المليتى، جاء الى صور متنكرا ليشهد أحداث المجمع، وقد نمى الى علم خدم أرشيلاوس Archelaus حاكم الأقليم، أن أرسنيوس، الذى من المفروض كونه فى عداد الأموات الآن، موجود متخفيا عند أحد المواطنين، فما لبثوا أن نقلوا ذلك الى سيدهم الذى أصدر أوامر بالبحث عن الرجل، فلما عثر عليه وجئ به أنكر شخصه، ولكن بولس أسقف صور تعرف عليه، وعندما أحضر الى المجمع ورأى الجميع أن يديه سليمتان خاطبه أثناسيوس قائلا: «أرسنيوس.. ها أنت كما ترى تمتلك كفين، فدع متهمى يشيرون الى مكان اليد الثالثة التى قطعت»[٣].

(1) Id.

(2) Id.

(3) SOCRAT. hist eccl, I, 29; SOZOM. hist. eccl. II, 25; THEOD. hist. eccl. I, 28.

ابتدا بان اخذ القديس ساويرس البطرك وجمع
مجمعا فى مدينة القسطنطينيه من نفسه وكان فيه
وكليوس بطرك روميه، وابوليناريوس الذى صيره
الملك بطركا على مدينة اسكندريه واوتيخيوس
بطرك مدينة القسطنطينيه، والاساقفه الذين تحت
ايديهم، وانفذ ليحضر الاب ساويرس البطرك
واساقفة المشرق، وكان يظن انه يطيب قلب
القديس ساويرس ويستميله الى رايه لكى ينقاد له
الكل ليقينهم به وبامانته فيقولو بمقالته الرديه، فلم

وقد استطاع اثناسيوس أن ينفى عن نفسه كثيرا من هذه الاتهامات التى وجهت اليه. غير أن الحيرة انتابته أمام هذا الجم الغفير من الشهود الذين احضرهم خصومه، ومن ثم أدرك الأسقف السكندرى أن أعداءه عازمون على تحطيمه تماما. وقد عقد المجمع جلساته التى غرق فيها فى بحر من الفوضى والاضطراب، وتعالت صيحات الكثيرين تطالب بعزل اثناسيوس، ولم يحسم الامر الا تدخل ديونسيوس المندوب الامبراطورى[١].

وكانت مسألة اتهامه بتحطيم الأوانى المقدسة الموضوع الذى شغل الأساقفة لفترة طويلة، واحتاج الامر الى تأليف لجنة لتقصى الحقائق تقرر ارسالها الى مريوط لبحث القضية فى موضعها[٢]. وتألفت اللجنة من ثيوجنس، وماريس، وثيودور، وماكيدون، وأورساكيوس وفالنز[٣]. احتج أثناسيوس على تشكيل اللجنة بهذه الصورة لأنها تضم أبرز خصومه، كما احتج أيضا على اصطحاب اسخيراس معهم فى الوقت الذى بقى فيه مقار رهين قيوده[٤]. وكان أثناسيوس قد اعترض بداءة على ايفاد لجنة الى مريوط على الاطلاق مبينا لديونيسيوس

---

(1) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 31.

(3) Id.

(4) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.

يلتفت الكبير ساويرس اليه ومضى هو واساقفته الى القسطنطينيه ليتبت الامانه، كان يظن ان ذلك الملك الكافر يرجع عن رأيه الفاسد. فلما وصل الاب ساويرس الى القسطنطينيه فاكرمه الملك فى البدايه اكراما عظيما ورفع منزلته وكلمه كلاما طيبا طالبا منه انه يساعده على طومس لاون ويبلغ امانته، فاما هو المجاهد فى الله فكان قد جعل فى قلبه قول بطرس الرسول لسيمون الساحر: ان كراماتك وأنت يكن فى الهلاك لانى ارى انك مملو

- -

عدم جدواها[١]. ويعلق جونز على ذلك بأن اعتراض الأسقف السكندرى على ارسال اللجنة يشير الى احتمال صحة هذه الأحداث فعلا، يعنى تحطيم الأوانى المقدسة[٢].

وكتبت رسالة الى حاكم مصر، وزودت اللجنة بالعون العسكرى اللازم لحمايتها[٣] أما أعمال اللجنة فى مصر فنقف عليها من رسالة قساوسة مريوط الى الأساقفة المجتمعين فى صور، وقد ذكروا فيها ما سبق أن أوضحه أثناسيوس من أن اسخيراس هذا لم يكن فى يوم من الأيام رجلا من رجال الاكليروس، وأنه انما تم رسمه على يد كوللوثوس Colluthus الكاهن الذى ادعى الأسقفية على عهد اسكندر [الكسندروس] ورسم عددا من القساوسة، وتمت ادانته واعادته الى رتبته الكهنوتية (قسيس) بواسطة المجمع الذى عقد فى الاسكندرية سنة ٣٢٤ تحت رئاسة هوسيوس القرطبى.

أما فيما يختص بعمل اللجنة فذكروا أنها أصطحبت معها فيلاجريوس Philagrius والى مصر وعددا من جنده، ولما تقدم اليهم رجال الاكليروس يطلبون اشراكهم فى اجراءات التحقيق، رفضت اللجنة سماع مقترحهم، وتمكنوا عن طريق القوة والتهديد من جانب

(1) Id.

(2) Jones, Constantione, P. 195.

(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.

مراره امر من التنين. وكان يوستنيانوس الملك مثل نسطور. فلما كان فى بعض الايام امر الملك ان يجتمع الغير اساقفه الى ذلك المجمع فلم يحضر معهم الاب ساويرس الشجاع ولا احد من اساقفته لانه قال ان لم يحرمو اولا طومس لاون والمجمع معهم الخلقدونى الطمث المرذول والا فما اجتمع معهم فى قول الكفر.

ثم جرى من الملك امور يضيق الكتاب عن شرحها ليلا [لئلا] تطول السيره بذكرها. فلما بلغ

الوالى، كما تقول الرسالة، من الحصول على البيانات التى يريدونها، وعادوا أدراجهم ثانية[١]. وعلى غرارها كتب هؤلاء القسيسون رسالة الى فيلاجريوس يوضحون له حقيقة الأمر[٢]. أما الأساقفة المصريون الذين صحبوا أثناسيوس إلى المجمع فقد كتبوا رسالة الى ديونيسيوس المندوب الامبراطورى أوضحوا له فيها أن المسألة محض مؤامرة حاكها ذلك الفريق اليوسابى بغية تقويض الايمان القويم والتخلص من زعيمه المدافع عنه أثناسيوس، وأضافوا أن مريوط لم يكن بها أحد من المليتيين قبلا، أما الان فهى تفيض بهم بعد أن أرسل المليتييون الموجودون فى المجمع رسولين من لدنهما بعد أن سمعوا بقرب سفر اللجنة لتجمع المليتيين وحشدهم فى مريوط، هذا بالاضافة الى الآريوسيين والكالوثيين، وحذره من التمادى فى اطاعة هذا الفريق حتى لا يجلب على نفسه غضب الرب ورجاله[٣].

ويبدو أن ديونيسيوس لم يلق بالا الى هذا الاحتجاج فما كان من الأساقفة المصريين هؤلاء الا أن بعثوا اليه خطابا شديد اللهجة جاء فيه:

«أنا نرى أنفسنا مرغمين على الشكوى ثانية، لقد لاحظنا أن تأييدا كبيرا قد أصبح الان فى

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.

(2) Id.

(3) Ibid. 78.

ساويرس البطرك امر الملك فلم يجتمع معهم ولا مضى اليهم انزلو عليه البلايا وحلت به الشدايد. ومن بعد سنتين بسوال الملكه تيودوره(*) المومنه افرج عنه وهبه لها فسيرته الى كرسيه.

وكان فى تلك الايام تيماتاوس باسكندريه، فلما اخرج ساويرس البطريرك من انطاكيه واساقفته الذين من الشرق ووصلو الى مصر جا [ء] الاساقفه الى مدينة اسكندريه فطردو رهبانات كتيرا عذارى من الديارات، وكان الاب ساويرس

(*) الملكة تيودوره: يقال أنها من الاسكندرية خرجت مع والدها وأمها فى سيرك متنقل استقر فى القسطنطينية، كان من روادها حاكم برقه وحنا الكابودكى محافظ المدينة و«جستنيان» ابن أخى الامبراطور «جستان» ووارث عرشه. مات ابوها مدرب الدببة على يد أحد الدببة، وماتت أمها بالسل فعملت راقصة فى القسطنطينية مما عرّضها لرغبات

جانب المليتيين، وأن مؤامرة ضد الكنيسة الكاثوليكية فى مصر، فى أشخاصنا، قد دبرت. وعلى ذلك، نقدم هذه الرسالة أليك راجين أن تضع فى عقلك قوتة الاله القدير الذى يحمى مملكه امبراطور نا التقى الورع قسطنطين، وأن تنقل الى مسامع الامبراطور ذاته كل هذه الأمور التى تهمنا. لقد بعثت من قبل عظمته لتعى تماما هذه الأحداث، ولتعلم انا لم نعد نحتمل أن نغدو على الدوام هدفا لخيانات ودسائس أولئك السابق ذكرهم. يوساب وبطانته ،عليه نرجوك أن تعرض قضيتنا على الامبراطور الورع محبوب الرب، أمام ذلك الذى يمكننا أن نعرض عليه شكياتنا والكنيسة ونحن واثقون أنه عند سماعه قضيتنا، لن يديننا. ولذلك ننا شدك ثانية بالاله القدير، وبامبراطورنا المحبوب الذى فاق الصغار فى تقواهم، فكسب النصر وحقق كل هذه النعم طوال هذه السنين، لا ترهقوا أنفسكم فى محاولة عرض أمرنا على المجمع ثانية، بل أبلغ الامبراطور أمرنا»(١).

ولعل هذا القول الأخير يذكرنا بالتيار الذى سارت فيه المشكلة الدوناتية قبلا، عندما رفض زعماؤها الامتثال لأوامر مجمعى روما وآرل واحتكموا للامبراطور شخصيا. وها هم الأساقفة المصريون يسلكون نفس السبيل، بعد أن أصبح واضحا لهم أن الاتجاه السائد فى مجمع صور قد نحا نحوا مضادا لهم. ومن ثم أدركوا أن شيئا من الأنصاف لن يتيسر لهم الحصول عليه،

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 79.

حاكمها فهربت مع حاكم برقه عند عـودته إلى مـقـر حكمـه فى برقـة. ولكنها فى الطريق نزلت من سفينته فى سـوريا وذهبت إلى انطاكـيـه ثم عـادت للقـسـطنطينيـة والتـقت بجوستنيان وتزوجها بعد فترة عقب وفاة الامبـراطورة التى كانت تعارض هذا الزواج. وبعـد وفـاة الامـبـراطور تولى جوستنيان العرش وجعل تيودوره شريكة فى السلطة سنة ٥٢٧م.

وفى الوقت الذى انصـرف فـيـه جوستنيان إلى اعداد مدونته الشهيرة

فى زمـان هذا التـعب يهرب من مـدينه الى مدينه سرا وعـلانيه، ومن دير الى دير، وكـاتب الاساقفه اصـحـابه الذين باسكندريه ويعـزيهم ويوصـيـهم ان يتثبتو على الشدايد بشجاعه. وكـان معـهم غيـر اسـقف اسـمـه يوليانوس واظهر انه يشارك مـجـمع خلقـدونيـه لانه يقسم السيـد المسيح الواحـد اتنين ويجـعله طبيـعـتين بعـد الاتحـاد الغيـر مـدروك، فلمـا وجد هـذا [اليـوليـانوس] زمـانا بغيبـة الاب سـويرس كـتب طـومار بموامره سـو لقوم سكارى مـرضى فى

فلمـا لم يصغ ديونيـسـيوس لرجـائهم، لم يجـد زعـيـمـهم بدا من عـرض الأمـر بنفـسـه على الامبـراطور، وعلى هذا النحو شـخص أثناسيوس الى القـسطنطينية لمقابلة قـسطنطين والاحتكام اليه(١).

أدرك ديونيـسـيوس أن الأمر قد أفلت من يديه، وخـاصة بعـد أن أرسل اليـه اسكندر أسـقف سـالونيكا رسـالة يستنكر فيها سماحة لهؤلاء الأفراد بالذات الذهاب الى مـصر، ويحيطه علما أن تلك مؤامـرة مدبرة ضـد أثنـاسـيوس، ويلو مـه على هذا التـخـاذل ازاء الفـريق اليـوسـابى المليثى(٢).

وعلى ذلك فقد كتب ديونيـسيوس الى يوساب واتباعه رسالة ينبئهم فيهـا بقول اسكندر مؤيدا ما جاء فيها، ويبدو من عبارات رسالته أنه يستعطف هذا الفريق لالتزام جادة الصواب حتى لا يكون عملهم محل لوم أو نقد(٣).

أخذ يوساب ورفاقه الان بيدهم زمام المبادرة، وانتهزوا فرصة غياب أثناسيوس عن المجمع قبل أن ينهى هذا أعمـاله، وكانت التقارير التى أعدتها لجنة تقصى الحقائق العائدة من مريوط

(1) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

(2) ATHANAS. Apol. C. Arian. 80.

(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 81.

«مدونة جوستنيان» انفردت تيودورا بالحكم. توفيت سنة ٥٤٨م.

امانة اوتيخيوس الكافر، وابوليناريوس، وماني، واودكسيس الكفره، وملاه ايضا تجديفا من اعتقاد الذين يعتقدون التخيل وينكرون الام المسيح السيد المحيية. وانفذه الى اعمال مصر والى رهبان البريه فقبلوه ووقعو فى الفخ الا سبعة نفر اضا [أضاء] الله قلوبهم فلم يقبلوه وسمعو صوتا يقول هذا الطومار نجس. فقام عليهم الذين وقعو فى ضلالة يوليانوس فقتلو منهم اتنين، فتفرقو البقية وصارو يقدسون فى قلاليهم بدير ابى مقار وغيره.

قد أعدت واطلع عليها الجميع [١]، فأصدر المجمع قراراته بادانةن أثناسيوس وعزله من منصبه، وحرم عليه الاقامة فى الاسكندرية خشية أن يؤدى وجوده فيها الى اشعال نيران الفوضى والانقسام من جديد، كما أعيد يوحنا رئيس الأساقفة وتابعيه ثانية الى الكنيسة ورد الى كل منهم مركزه الاكليروسى [٢].وكان من بين المقبولين ثانية أرسنيوس، وقد وقع على قرار عزل أثناسيوس بوصفه أسقفا لمدينة Hypsaloplis [٣]). وبعث المجمع بتقرير عن عمله الى الامبراطور، وبمثله الى أساقفة مختلف البلدان ناصحين اياهم بعدم قبول أثناسيوس فى زمالتهم وأن لا يكتبوا اليه أو يتلقوا منه أية رسائل. وذكر وا فى رسالتهم هذه أنهم أضطروا للموافقة على ادانة أسقف الاسكندرية لأنه رفض الامتثال للامر الامبراطورى الصادر اليه قبلا بالحضور أمام الأساقفة فى قيسارية، مستخفا بالاساقفة، متحديا أوامر الحاكم، هذا بالاضافة الى أنه حضر الى صور وبصحبته عدد كبير من الاتباع بغية اثارة الاضطراب والفوضى فى المجمع، كما أن أثناسيوس رفض فى كثير من الأحيان الاجابة عن الاتهامات الموجهة إليه، وأهان بعض الأساقفة، وأوضحوا فى نفس الرسالة أنه أذنب ولا شك حين سمح لمقار بتحطيم الأوانى المقدسة كما شهد بذلك أعضاء اللجنة[٤].

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 32.
(2) SOZOM. hist. eccl. II, 25.
(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 32.
(4) SOZOM. hist. eccl .II. 25.

وهذا السبب فى تفريقهم وكثرة الضلاله فى الاربعة ديارات وفى الجواسق. فبقوة الروح القدس ونعمته كانت المعونه للخمسة نفر الرهبان الباقين من السبعه، فمنعو الرهبان ان لا يقبلو الطومار. وكان ينبوع هذه الضلالة يوليانوس لا يفتر من انفاد كتبه الى البلاد ليضل الناس ويجذبهم اليه. فلما علم الاب ساويرس ذلك بقوة روح القدس الساكنة فيه كتب الى كل موضع ليتبدد امره ويبدد فكره، واعلم الناس فى كتبه ان يوليانوس



تميمة قبطية تمثل صلب المسيح من القرن ٦ ـ ٧. متحف اللوفر

هكذا اختتم مجمع صور جلساته بعد أن أدان وعزل وطالب بنفى أثناسيوس وقدم فى ذلك تبريراته الى الامبراطور والأساقفة، على أنه ينبغى لنا أن ندرك أن هذه الاتهامات العديدة التى سيقت ضد الأسقف السكندرى وان كان فيها الكثير من الغموض وربما الزيف. الا أنها لا شك أيضا تحمل جانبا ولو يسيرا من الحقيقة، ولعل دليلنا على ذلك أن هذه المعلومات كلها استقيناها، من أقلام أثناسيوس نفسه ومؤرخى الكنيسة الاخرين، وهذا ولا شك شئ يدعو للحذر، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان تتبع هذه الأحداث يرينا أن أسقف الاسكندرية كان بلا ريب يتمتع بشخصة قوية ونفوذ كبير، ويبدو من سلوكه طوال هذه الفترة مدى صلابة رأيه وتمسكه الشديد بكل ما تقر عليه ارادته. هذا واضح من تحديه المستمر للفريق الآريوسى، بل ورفضه الفريق المليثى الذى كان اسكندر قد قبلهم ثانية بناء على قرارات المجمع المسكونى الأول فى نيقية، فلا شك اذن أن يؤدى ذلك الى اثارة حفيظة وغيرة كثير من زملائه رجال الاكليروس لافى مصر وحدها بل فى كنائس الشرق الأخرى. وكانت نيقوميديا على رأس هذه الكنائس، واذا أدخلنا فى اعتبارنا أن نيقوميديا قد ظلت لفترة تقترب من نصف قرن عاصمة الامبراطورية، فلا عجب أن يتطلع أسقفها الى شئ من الزعامة على سائر الكنائس الأخرى، بل وأن يتطلع هو نفسه لأسقفية أكبر من نيقوميديا، وسينجح يوساب فعلا فى ذلك عندما يصبح أسقفا للقسطنطينية ، وان كان ذلك قد تم بعد وفاة قسطنطين. ومن ثم

تنين ردى ممتلى تجديفا. وكان القديس ساويرس مهتمابمن ضرب بهذه الضربة ليداويه وتثبيتا لمن لم يتبع الطومار، وكان من ذلك قلق ومقاومه. وعند ذلك تنيح الاب طيماتاوس البطرك المغبوط وهو تابت فى الامانه المستقيمه، وكان مجاهدا عنها متل الاب ساويرس ودحض يوليانوس وجميع مقالاته. وكانت مدة مقامه بطركا على كرسى اسكندريه سبع عشرة سنه وتوفى فى التالت عشر من امشير.

رأينا يوساب يتزعم حركة المعارضة ضد كنيسة الاسكندرية، واذا كانت هذه تعتز بتراثها التليد وفلسفتها ومدرستها اللاهوتية وأثرها الواضح على المسيحية، وما كان لها بكل هذه العظمة أن تقبل الخضوع لمدينة لا تدانيها فى شئ من هذا، فان نيقوميديا وليس لها من هذا شئ، لابد وأن تعتز بأنها مقر الأباطرة عاصة ملكهم، وأنه ليس من حق أسقفية ولاية أن تنازع أسقفية العاصمة وحتى عندما انتقلت العاصمة الى القسطنطينية فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ لم يكن لكنيستها خلال الفترة الباقية من حكم قسطنطين شأن يذكر فى تسيير دفة الأحداث.

لقد تحولت المسألة بعد مجمع نيقية الى صراع على الزعامة تحت ستار العقيدة، ويقول جلانفيل دونى Glanville Downey «ليس غريبا أن يظهر نوع من الأساقفة الدنيويين السياسيين الذين لم يكرسوا أنفسهم لرعاية رعيتهم فى البلدان النائية بقدر ما وجهوا عنايتهم الى المناورات الدبلوماسية فى البلاط الامبراطورى، وذلك عندما قامت الخلافات العقائدية وتدخل الامبراطور لحلها، فأصبح واجبا على الجهات المتخاصمة فى الكنيسة أن تسعى الى كسب الامبراطور ومستشاريه الى صفها[1]. فآريوس صاحب هذه الأحداث منذ البداية أخلد بعد نفيه الى الهدوء، ولم يأت به الى مسرح الأحداث ثانية الا الامبراطور ذاته وربما على كره

---

(١) دونى أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس، ترجمة دكتور البرت بطرس، ص ٨٣. بيروت ١٩٦٨.

تاودوسيوس البطرك

[٥٦٧ / ٥٣٥]

وهو من العدد التالت والتلتون

وبامر الله اجتمع الاساقفه والشعب الارتدكسى بعد نياحة تيماتاوس وبتدبير السيد المسيح قسمو الاب القديس تاودوسيوس بطركا وكان بتولا عارفا بالكتابة البيعيه. وبعد ايام قلايل اقام المبغض للخير تجربه عليه وطرح سجسا بين اقوام اشرار من اهل المدينه اصحاب صنايع مرذوله.

من آريوس نفسه كما اتضح من رسالة الامبراطور اليه، وحتى بعد عودته ظل بعيدا لايشارك فى شئ من هذه الحوادث كلها. لقد كان الرجل شيخا طاعنا، ولم يكن له مطمع فى جاه أو مطمح الى سلطان، بل كل ما كان يرجوه أن يقر الناس عقيدة آمن بها وأيقن أنها الحق المبين، وما عداها افك وضلال. على حين كان يوساب هو المحرك الأول لكل هذه الأحداث بعد مجمع نيقية وطوال عشر سنوات كاملة (٣٢٨ ـ ٣٣٧)، ولم يأت على لسان الأطراف المتنازعة، ولم تسجل أقلامهم خلال هذه المرحلة التى شهدناها بعد نيقية شيئا من أمور العقيدة، ولم تمس الاتهامات التى وجهت الى أثناسيوس طرفا من رداء الدين، ولم يتعرض مجمع الأساقفة فى صور الى العقيدة فى قليل أو كثير، بل حتى لم يطلب اليه بحث مسألة اعادة آريوس الى الكنيسة وهى المشكلة التى كان يجب أن تحتل المكان الأول فى قائمة موضوعات الساعة، وحتى مبارت الحكم ضد أثناسيوس كانت كلها تدور حول مسائل بعيدة تماما عن الديانة وأسرارها. ولكنها كانت كلها تسير هذين المسارين الواضحين اللذين اختطهما رجال الفريق اليوسابى منذ البداية، أعنى اثارة غضب الامبراطور وجلب حنق الأساقفة. وكان الفريق اليوسابى يعلم مزاج الامبراطور، فعرف كيف يصور له أثناسيوس فى صورة المعترض على قراراته المتحدى لسلطانه، وساعد أثناسيوس بسلوكه وعناده على تثبيت هذه الفكرة لدى الامبراطور.

وكان انسان قد كبر وطعن فى السن اسمه كيانوس(*)[غايانوس] وكان ارشى دياقن البيعه باسكندريه وكان قايما فى وقت قسمة الاب تاودوسيوس بطركا مع الاساقفه والكهنه ومقدمى المدينه حتى قسموه وكتبو تقليده وقدموه لرتبة الرياسه على الكرسى الرسولى وكملوه باتفاق من جميع الشعب المسيحى المحب لله، ومن بعد هذا اضله قوم وغيرو فكره، اعنى الارشى دياقن بسداجته، واشارو عليه قايلين هذه الرتبه والتقدمه

(*) كيانوس: غيانوس: ينسب اليه شيعة مذهبية تسمى الغايانيون ظهرت عام ٥٣٥م. نازع البطرك تاودوسيوس الأول كرسى اسكندرية، وبعد أن أقام فيه مئة وثلاثة أيام نفاه القيصر يستنيانس الاول إلى جزيرة سردينية وفيها مات بعد مدة وجيزة.

وبما أنه كان ميالا إلى الأسقف يوليان الخيالى تمسك حزبه بها وانتشروا فى بعض البلاد المصرية، وفى سنة ٥٤٩م انضمت شيعته إلى

وان كان اليوسابيون قد حرصوا على أن يغلفوا ذلك بستار العقيدة أيضا، ولهذا فانهم رغم سعيهم الدائب لاثارة الامبراطور ضد أثناسيوس، لم يضعوا ذلك فى اطار النزاع الشخصى بين قسطنطين وأثناسيوس، حتى لا يجعلوا من الأسقف السكندرى بطلا فى نظر رعيته يناضل ضد الامبراطور.

ما كاد المجمع ينهى جلساته ويصدر قراره حتى تسلم رجاله رسائل من الامبراطور يدعوهم فيها للتوجه الى أورشليم لحضور حفل تدشين الكنيسة الفخمة التى أقامها الامبراطور هناك، والذى يوافق الاحتفال أيضا بالعيد الثلاثين لحكم الامبراطور(١). ويصور يوساب ذلك بقوله ان المدينة قد غدت مسرحا ضم عديدا من مختلف الشخصيات الكنسية، فقد جاء الى هناك اسكندر أسقف سالونيكا، ومن بانونيا حضر أورساكيوس وفالنز، وأحد أساقفة فارس، ومن بيثينيا وتراقيا ثيوجنس هذا بالاضافة الى أساقفة كليكيا وكباودكيا وسوريا وميزوبوتاميا وفينيقيا وبلاد العرب وفلسطين ومصر وليبيا وطيبة، الى جانبى عدد هائل من موظفى القصر الذين أرسلوا للاشراف على هذا الحفل والارتفاع به الى ما يناسب مقام الامبراطور السامى(٢)، ثم يخبرنا يوساب بعد ذلك أن أولئك الموظفين قد قاموا بناء على الأوامر الامبراطورية بتوزيع

(1) EVSEB. vita Const. IV, 43.

(2) Id.

شيعة يوليان وأقامو لهم رئيسا واحدا باسم بطرك.

تجب لك ولا يجوز لاحد ان يتقدم عليك. ودخلو في عقله قليلا قليلا بالكلام الردى حتى قبل مشورتهم، فاخذوه ومضو الى بيت قس اسمه تاودورس، وكان ردى الفعل وله مال كتير، فقسمو كيانوس الارشى دياقن بطركا، وكان معهم معاونا لهم يوليانوس الفاسد الامانه باتفاق مع تاودورس القس لان تاودوسيوس المغبوط كان لما صار بطركا قد احرم يوليانوس لانه كا ملجا [ء] للمخالفين. ثم انه مضى الى الوالى وإلى متولى المعونه

الهدايا والمنح والعطايا التى أنعم بها الامبراطور على رجال الله[١]. وقد قابل الأساقفة ذلك بالقاء عديد من الخطب التى تدور كلها حول تمجيد الامبراطور والاشادة بورعه وتقواه وهذا العمل النبيل الذى أقدم عليه، والدعاء الى الرب بأن يحفظه ويرعاه، ويذكر يوساب أنه شارك هو الآخر فى هذه المباراة وأوضح فى خطبته أن تلك الكنيسة وتمامها فى ذلك الوقت بالذات كانت مما جاء فى نبوءات الأنبياء قبل ذلك[٢] !!

ولا شك أن الامبراطور عندما واتته أنباء هذا الاجتماع بهذه الصورة التى كان عليها داعبه من جديد أمل السلام والوحدة، فها هو يشهد أساقفة الشرق جميعا، وقد اتحدت كلمتهم مهما كان نوع هذا الاتحاد، ثم نظر فاذا بآريوس لا يزال خارج الكنيسة، فأيقن أن هذه هى الفرصة المناسبة ليعيد آريوس الى كنيسته فينتهى بذلك من مشكلة آلمته من حكمه سنين عددا، وعلى هذا بعث بآريوس وصحبه يوزيبوس الى مجمع الأساقفة فى أورشليم سنة **٣٣٥**، وأخبرهم أنه قد اطلع على وثيقة ايمانهما التى قدماها اليه، وأنه مقتنع بكل ما جاء فيها، وحثهم على قبول هذه الوثيقة واعادة آريوس وصحبه الى الكنيسة[٣]. ولم يكن الأساقفة فى حاجة الى توصية الامبراطور، فقد كانوا جميعا من مؤيدى آريوس، فأصدروا على الفور قرارهم

(1) Ibid. 44.

(2) Ibid. 45.

(3) SOZOM. hist. eccl. II, 27.

وصانعهم وطيب قلوبهم بكثرة الهدايا حتى اقامو على الاب تاودوسيوس البطرك وعلى البيعه شرا عظيما، وطردو تاودوسيوس القديس عن كرسى الاسكندريه الى حرسانوس، فمكث هناك ستة شهور، وكتم الوالى عن الملك امره وقسمتهم غيره، وكلما [كل ما] جرى من يوليانوس وتاودورس المجتمعين عليه.

وكان الحكيم ساويرس البطرك يسمى تاودوسيوس اخا ومعينا وشريكا فى الفعل الواحد

بقبول صيغة الايمان التى قدمها الرجلان وهى التى أشرنا اليها آنفا. واعادة قبولهما فى الكنيسة. وعودتهما الى كنيسة الاسكندرية، وكتبوا الى الامبراطور يخبرونه بكل ما حدث(١) . كما أرسلوا أيضا رسائل بهذا المعنى الى عموم الكنائس فى الاسكندرية وطيبة وليبيا ومختلف رجال الاكليروس فى مصر حاثين اياهم على قبول آريوس وشيعته، وشفعوا ذلك بأقوال تضع حديثهم فى صيغة أمر واجب التنفيذ، فذكروا أنهم أقدموا على هذا بعد أن تأكد لديهم صدق ايمان آريوس وصحبه، وأن الامبراطور محبوب الرب التقى الورع، قد شهد فى خطابه لهم بصحة ايمان الرجلين بقبولهما فى الكنيسة(٢) .

ويبدو أن رسالة الامبراطور الى المجمع بخصوص قبول آريوس وصحبه فى الكنيسة، قد بعثت قبل أن يلتقى الامبراطور بأثناسيوس الذى انسحب وبعض خاصته أثناء انعقادمجمع صور، وشخص الى القسطنطينية ليعرض على الامبراطور صورة لهذا الحيف الذى وقع به، ذلك أن الأمبراطور ما أن التقى بالأسقف السكندرى وسمع له حتى أرسل رسالة عنيفة الى الأساقفة الذين كانوا قد اجتمعوا فى صور وهاهم الآن فى أورشليم، ويبدو أن الامبراطور قد تأثر الى حد كبير بما سمعه من أثناسيوس، وذلك واضح مما جاء فى مقدمة رسالته حيث يقول:

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.
(2) ATHANAS. Apol. C. Arian. 84.

الانجيلي الحقيقي. وكان يعزيه ويقويه على ما ناله لاجل الامانه الارتدكسيه، ويشبهه بالعظيم بولس الرسول في اول اصطفايه وامانته بالمسيح، وكيف طردوه اهل بيته وخاصته وكيف انزلوه المومنون من الحصن في قفه حتى هرب من دمشق.

وكان الاب تاودوسيوس تحت القلق من المخالفين واضطهادهم له، كان ذلك في سنة مايتين واتنين واربعين لديقلاديانوس، وكان ساويرس البطرك مختفيا من يوستنيانوس الملك المخالف في قريه

«أني في واقع الأمر لا أعلم شيئا عما اتخذه مجمعكم من قرارات في جو عاصف صاخب، غير أنه يبدو لي أن الحق قد تعرض لتحريف نتيجة اجراءات فوضوية مضطربة. ذلك لأنكم، كما يقال، حبافي الجدال، أغفلتم أمورا يرتضيها الاله، واني الأرجو الله، وكلي ثقة، أن تعمل العناية السماوية على إذابة مآس خلفها التنافس الحاد، وذلك عندما يتم فحص تلك الأمور بدقه، واني لامل أن توضحوا اذا ما كنتم قد راعيتم في مجلسكم مضمون الحق، واذا ما كنتم أيضا قد أصدرتم قراراتكم دون ما تحيز أو تعصب»(١).

وبعد أن يخبرهم قسطنطين أن سلوكه قد ادخل البرابرة في حظيرة المسيحية، ويوجه اليهم اللوم قائلا:

«أما نحن معاشر الذين يتشدقون باحترام العقيدة، وأسرارها المقدسة،(ولا أقول حراسها)، لا نفعل الا ما يبذر بذور الشقاق والعداوة، ولأكون معكم صريح، نعمل على دمار البشرية»(٢).

ولندع قسطنطين الان يحدثنا بنفسه عن المقابلة التى حدثت بينه وبين أثناسيوس، حيث يتضح من حديثه أنه لم يكن لديه الرغبة للقاء الأسقف السكندرى، يقول الامبراطور:

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 43.

(2) Id.

محبه للمسيح تعرف بسخا من اعمال مصر عند رجل اسمه دروتاوس المهتم بامور الشيوخ الرهبان الذين رفضو ضلالة يوليانوس الكافر، وكان الرجل المذكور قد امكنه ان يمضى الى والى اعمال مصر وهو ارستاماخوس وساله ان يتراف [يترأف] على شيوخ الرهبان الذين فى البريه بان ينعم عليهم ويمكنهم ان ينو بيعا وجواسق عوضا مماخذ منهم يوليانوس واصحابه، ويسمح للرهبان [بذلك]. فرسم له بذلك وشكر الله تعالى.

«بينما أنا داخل المدينة التى تحمل اسمنا، فى هذه الديار الزاهرة، القسطنطينية. وكنت ساعتها متطيا صهوة جوادى. اعترضنا فجاة الأسقف أثناسيوس، يحيط به بعض من رجال الدين، يبتغون السماح لهم بمقابلتنا، ويعلم الله، الذى أحاط بكل شئ علما، أنى لم اتبين للوهلة الأولى شخصه حتى انبائى عنه بعض خاصتى، بعد أن سألتهم ذلك. وانباونى أيضا كم من الآلام قاسى، وحتى ذلك الحين لم أحادثه، أو أجرى اتصالا معه، ولكنه راح يلح طالبا الأذن له يلقائنا، ورغم أنى رفضت ذلك مرارا، وأمرت بابعاده عن حضرتنا الا أنه أعلن فى جراءة فائقة أنه لا يطلب سوى شئ واحد، هو أن تمثلوا جميعا الى هنا، حتى يجد فى حضرتنا فرصة عادلة لبحث مظلمته» .

وقد وجه قسطنطين أوامره الى هؤلاء الأساقفة بالحضور على وجه السرعة الى بلاطه، ويتضح مدى اهتمامه بهذا الأمر ولهفته على وصول الأساقفة، من أن دعوته اياهم للحضور قد جاءت فى رسالته هذه فى ثلاثة مواضع متقاربة، كلها تتعجل رحيلهم الى القسطنطينية لحسم هذه الأمر فى حضرة الامبراطور.

ويبدو أن هذه الرسالة قد وصلت بعد أن غادر كثير من الأساقفة أورشليم عائدين الى بيعهم بعد أن حصلوا على الهدايا الامبراطورية، وان كان أثناسيوس وسقراط وسوزمين يخلعون

وكان ساويرس البطرك قد وضع كتبا قهر بها الهارسيس اصحاب الطبيعتين واباد اكثر معتقديها بمجد الله وتعاليمه بلسانه السيف الروحانى. وكان يدرس في كتب الحكمه الالهيه دايما الى ان كبر ودنت ايام انتقاله من التعب الى النياح لانه اقام في الجهاد والصبر على اضطهاد المخالفين تلتين سنه على كرسي انطاكيه في عناد وقلق ست سنين، ولم يفتر في هذه المده من الجهاد على الامانه الارتدكسيه حتى الى الموت، فلما اكمل سعيه وهو

على الأساقفة حالة من الرعب والهلع دفعت بالبعض الى الأسراع بالرحيل عن أورشليم والعودة الى ديارهم. غير أن يوساب النيقوميدى جمع مشاهير رجالاته وسافر لملاقاة الامبراطور فى القسطنطينية. وكان من بين هؤلاء الأساقفة ثيوجنس، وماريس، وباتروفيلوس، وأورساكيوس، وفالنز. ويقول سوزمين ان هذا الجمع قد بين للامبراطور أن مجمع صور لم يقدم على شئ ضد أثناسيوس، وانما توخى العدالة تماما، وأعادوا على مسامعه سابق الاتهام بتحطيم الأوانى المقدسة. وان كان أثناسيوس ينفى ذلك ويقول ان هذا الأمر شئ ثبت بطلانه فلم يجرؤ الأساقفة على ذكره، ولكنهم جاءوا الى الامبراطور باتهام جديد فحواه أن أسقف الاسكندرية هدد بمنع ارسال القمح من الاسكندرية الى القسطنطينية. وأكدوا أن هذا التهديد جاء على شفتى أثناسيوس وسمعته أذان عدد من الأساقفة من بينهم آداما نيوس Adamantius وأنوبيون Anubion، وأرباثيون Arbathion، وبطرس Peter. ويصف أثناسيوس حالة الامبراطور لدى سماعه هذا الاتهام بقوله: «اشتعل على الفور غيظ الامبراطور واشتد حنقه، وبدلا من أن يرسل الى لسماع قولى، أمر بنفيى الى غالة»(١). ويقول سقراط معلقا على ذلك بأن الامبراطور أصدر هذا القرار بدافع الرغبة فى توحيد الكنيسة حيث أن أثناسيوس رفض المصالحة مع آريوس(٢).

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.
(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 35.

حافظ الامانه الصحيحه مضى الى السيد المسيح الذى احبه واخذ اكليل الغلبه مع الابا القديسين في بيعه الابكار السماويه.



واما الاب المغبوط تاودوسيوس فاقلقوه كثيرا شديدا جدا، اعنى كيانوس المخالف ومن معه. وكان يوحنا مقدم اسكندريه وغيره مجتهدين في خلاصه منهم فتشاورو مع الابا واخذوه وانزلوه في مركب في البحر [النيل] ومضو به الى قريه تسمى مليج من اعمال مصر اقام بها سنتين، فقلق شعب

ولقد أصاب سقراط بقوله هذا كبد الحقيقة، فبالاضافة الى أن الامبراطور كان يتميز غيظا لدى سماعه بهذا الاتهام الجديد، سواء كان هذا الادعاء باطلا أم حدث فعلا، فقسطنطين كان يدرك يقينا الأهمية الاقتصادية لمصر وما تمثله غلالها من أهمية للعاصمة الجديدة، ولم يكن قسطنطين يتصور مطلقا أن يتسبب شخص مهما بلغت مكانته في احداث مجاعة في روما الجديدة! هذا من ناحية. والأخرى أنه ضاق ذرعا بعناد أثناسيوس، فقد حاول كثيرا أن يلتقي واياه على طريق وسط، ولكن الأسقف السكندرى لم يكن ممن يقبلون هذه السياسة. فقد كان متشددا في موقفه لا يقبل المساومة، ووصل به الأمر ذات مرة الى حد رفض الاذعان لأوامر الامبراطور عندما قرر الامتناع عن الظهور أمام مجمع الأساقفة في قيسارية سنة ٣٣٣، ولم يتراجع عن موقفه تجاه الآريوسيين أو المليتيين، ولم يحاول بذلك اعادة السلام الى الكنيسة والوحدة، وذلك شئ كانت تتوق اليه نفس الامبراطور، وأدرك قسطنطين خلال هذه الرحلة الطويلة الشاقة أن أثناسيوس هو العقبة الوحيدة الباقية في سبيل اعادة الوحدة الى الكنيسة، ومن ثم قرر التخلص منه بنفيه، وفكسبت الدولة بذلك جولتها الأولى ضد الكنيسة.

على هذا النحو حقق الفريق اليوسابى نصره على زعيم الايمان النيقى، وفي نفس الوقت حقق نصرا أخر، ذلك أن ماركللوسMarcellus أسقف أنقرة كان قد كتب عدة كتابات ضد

اسكندريه وكهنتها ومقدميها لبعده عنهم وقال للوالى: لماذا ابعدت عنا الراعى الصالح تاودوسيوس. فخاف الوالى منهم وكره ان ينتهى الخبر الى الملك فاخرج كيانوس المخالف من المدينه.

ثم مضى بعض المقدمين لقضا[ء]حوايج له من الملك فاعلم الملكه تاودوره المومنه نفى المغبوط تاودوسيوس من مدينة اسكندريه، لان اصلها منها، فدخلت الى الملك بسكون وحكمه ووداعه

الآريوسية[1] ردا على رسالة كان آستريوس Asterius أحد مواطنى كبادوكيا قد كتبها يدافع عن العقيدة الأريو سية، وراح يذيعها فى عدة مدن وينشرها بين كثير من الأساقفة، ومن ثم أخذ ماركللوس عن عاتقه مهمة دحض هذه الأقوال، فأدى ذلك به سواء بوعى أو بلا وعى الى ترديد آراء بولس السميساطى[2].

وقد عده اليوسابيون خصما لهم، فاتهموه بأنه لم يوافق على القرارات التى أقرها مجمع أورشليم عام **٣٣٥** بخصوص قبول آريوس وصحبه ثانية فى الكنيسة، وأنه رفض حضور تدشين كنيسة أورشليم حتى لا يشترك والأساقفة فى اتخاذ قرارات هو عنها غير راض، ويذكر سوزومين أن الفريق اليوسابى ركز على هذه النقطةبالذات وأثارها لدى الامبراطور مبينا له أن ذلك يعد اهانة كبيرة لشخصه بعد أن رفض هذا الأسقف حضور حفل تدشين كنيسة أورشليم[3]. ولعل هذا يؤكد ما نذهب اليه من أن المسألة كانت فى حقيقة أمرها تستتر برداء العقيدة، ولم تكن سوى نزاع شخصى ولذلك كان الفريق اليوسابى يصور المسألة للأمبراطور باعتبارها تمس شخصه مباشرة، وتمثل انتقاصا لسيادته، مما يثير بالتالى غضبه. وعلى هذا

(1) HIER. vir. ill. 86.

(2) SOZOM. hist. eccl. II, 33.
وراجع أيضا SOCRAT. hist. eccl. I, 36.

(3) SOZOM. hist. eccl II, 33.

واعلمتـه بكلمـا جـرى على الاب تاودوسـيـوس البطرك بمدينة اسكندريه بغـيـر امـره. فلمـا سـمع ذلك فرح فى قلبـه بما نال الارتدكسيين من القلق والجهاد اذ لم يرضو ان يشاركوه فى امانته الفاسده الخلقـدونيـه الطمـثـه، ثم اراد [الملك] ان يرضى الملكه ويطيب نفسها فاعطاها السلطان ان تفعل بامـره فى ذلك مـا تريده فـارسلت الى مـدينة اسكندريه لتكشف عن الخـبـر وتعـيـد الاب تاودوسيـوس البطرك الى كرسيه وامرت الرسل ان

النحو اجتـمع الأسـاقـفـة هؤلاء فى القـسطنطينيـة وأصـدروا قـرارهم بعـزل مـاركللوس من أسقفيته[1].

أما ما كان من أمر آريوس فانه عاد ثانية الى الاسكندرية بعد أن أصدر مجمع أورشليم قراره بقبوله ورفاقه فى الكنيسة، الا أن الأساقفة المصريين أنصار أثناسيوس رفضوا الامتثال لقرارات المجمع، فأدى هذا بالتالى الى حدوث الاضطرابات من جديد فى الاسكندرية[2]، ولما كـان الامبراطور غير راغب فى السماح بوقوع فوضى جديدة تعكر صفو سلامه، فقد أرسل الى آريوس يسـتـدعـيـه فـورا الى القـسطينيـة. وكـان أسـقف المدينة فى هذا الوقت اسكندر [الكسندروس] الذى دخل فى صراع مع اريوس منذ وصوله الى العاصمة كما ينبئنا بذلك سـقـراط[3]. ولعل ذلك يرجع الى ما يكون قد نمى الى علم آسكندر من رغبة الفريق اليوسابى فى أن يقوم أسقف القسطنطينية بقبول اريوس فى الكنيسة حتى يكو ذلك أنموذجا تحتذى به بقية كنائس الامبراطورية. وقد تأكد هذا فعلا عندما طلب الامبراطور اليه الاقدام على هذه الخطوة، وهدده يوساب بالسعى لدى الامبراطور لعزله اذا ما رفض قبول آريوس[4].

(1) SOCRAT. hist, eccl. I, 36.

(2) Ibid. 37.

(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 37.

(4) Id.

يعلموها كيف كانت بطركيته عند قسمته وهل هى مكمله بقانون البيعه.

فلما وصلو رسلها الى المدينه على ما امرتهم به كشفو عما امرتهم بكشفه واستوضحو كيف كانت قسمة قيانوس الارشي دياقن، ومن كان منهم الاول. فدس الوالى وصاحب المعونه قوما لاجل ما اخذاه من الهدايا والبراطيل ويصرخون ويقولون: كيانوس اول فى القسمه، فلم يثبت قولهم، وكتب مايه وعشرون رجلا من الكهنه

على هذه الشاكلة انتقلت الفوضى من الاسكندرية الى القسطنطينية، فانقسمت المدنية الى فريقين، أحدهما يتمسك بقانون الايمان النيقى، والآخر يناضل من أجل آريوس . وأدرك الامبراطور خطورة الحال، فدعا اليه اسكندر [الكسندروس] وآريوس وطلب الى الأخير الاعتراف بقرارات مجمع نيقية والقسم على صحة ايمانه(1) ففعل، وقبل الامبراطور من صيغة ايمانه ودعا اسكندر [الكسندروس] الى قبوله فى الكنيسة . ولكن هذا كان غير راغب فى ذلك تماما، وتحرج موقفه أمام الامبراطور الذى حدد يوما يتم فيه ذلك على مرأى من الجميع، وتعقدت المشكلة ولكنها لم تلبث أن حلت فجأة بوفاة آريوس فى نفس اليوم من عام ٣٣٦. وعد خصومه وفاته دليلا على الغضب الالهى، كما جرت بذلك أقلام مؤرخى الكنيسة جميعهم!! وان كانت مسألة موته فجأة تنتظر رأى محكمة التاريخ.

ولعلنا نتساءل الآن عن موقف الغرب الامبراطورى طيلة هذه السنين، الحقيقة أنه أخلد الى الهدوء بعد مجمع نيقية اذا استثنينا احداث ولاية أفريقيا. وقنع بقانون الايمان الذى قر عليه رأى الأساقفة هناك خاصة بعد أن تضمن هذا القانون نصوصا كانت فيه سائدة أو على الأقل معروفة. وبدا أن المشكلة برمتها لم تكن تعنى الغرب فى قليل أو كثير . فوقف من الأحداث

---

(1) Id.

ومقدمى المدينه خطوطهم بان تاودوسيوس هو اول
فى القسمه،ثم اجتمعو ومعونة السيد المسيح معهم
وحضر امرا [أمراء] الملك وقواده الذين هم رسله
وامناه واجتمع جميع السكندريين معهم فى البيعة
المقدسه وقدموا الانجيل المقدس وسجل [مرسوم]
الملك الذى فيه خاتمه وصورته، وقدمو الاب
تاودوسيوس البطرك المغبوط وجماعة الاساقفه
الذين كانو حاضرين بقسمته، وفرقو بينهم، وسايلو
واحدا واحدا وكتبوا ما قالوه. فصح اعترافهم كل

موقف المتفرج. وكان الامبراطور قرير العين بهذا السلوك. فكفى من الغرب جزء تعصف به رياح الانقسام. ولكن الغرب والامبراطور لم يقدرا أنه لن تمضى على وفاة قسطنطين سنوات قلائل حتى يشمله ذلك الصراع، كان لوجود أثناسيوس هناك منفيا أو من بعد هاربا أكبر الأثر فى ذلك. ولم يكن كلاهما يدرى ما خطته يد القدر من ويلات تنتظر ذلك الغرب الذى أقحمت عليه فى عهد خلفاء قسطنطين المشكلة الآريوسية، حتى يأتى زمان تنعكس فيه الآية، فترحل الاريوسية من الشرق مكرهة لتمكث فى الغرب قرونا للجرمان دينا!!

وكان قد بقى لقسطنطين من عمره عام واحد، قدر له فيه أن يشهد هدوءا مشوبا بالقلق فى أمر العقيدة، وراح يجتر أحلاما داعبته طيلة هذه السنوات عن الوحدة والسلام. لقد حقق الامبراطور بقوته العسكرية وحدة الدولة، ولكن «مبعوث الرب» عجز عن أن يضمن للكنيسة وحدتها، فتركها أكثر انقساما من البدء وأشد فرقة، وراح ليموت والألم يعتصر فؤاده على عمر أفناه فى رجاء تلاشى وأمل تبدد!!

كان قسطنطين على قدر كبير من الذكاء، أدرك من خلاله الى أين يتجه تيار المسيحية وقدرها، فركب أمواج الحماسة لهذه العقيدة، وعرف كيف يفيد منها الى أقصى درجة.

لقد شهد بعينى رأسه وهوبعد فى بلاط نيقوميديا رهينة، اصرار المسيحيين وعنادهم رغم

واحـد بغـيـر خـوف ولا اخـتـلاف فى القـول ان تاودوسيـوس المغبوط هو المقسـوم اولا باتفـاق من الاساقفه والشعب بحكم قانون البيعه.

وبعـد ذلك بشهرين سمعو ان كيانوس صير بطركا، فتقدم كيانوس قدام الجماعه واعترف لهم بصحـة ذلك وسال الصفح عنه وطلبت الجماع للاب المغبوط تاودوسيوس ان يقبله ويسالوه قبول توبته على ان يكتب بخط يده انه فعل هذا خارجا عن القانون البيعى، وانه يبقى فى شماسيته ارشى

الاضطهاد العنيف الذى تعرضوا له على عهد دقلديانوس وجاليريوس قيصره، وتأكد لديه ذلك بصورة أكثر وضوحا خلال الحملة العسكرية التى قادها دقلديانوس الى مصر، وعلى طول الطريق عبر آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين، ولهذا أيقن بفطتنه أن يدا رحيمة تمسح عن هذه القلة المستضعفة جراحاتها، وتخفف عنها ويلات الامها، يمكن أن تجعل منها أنصارا مخلصين وجندا أوفياء.

ولم يتردد فى الاقدام على هذه الخطوة بل سارع اليها على مهل، واهتبل فرصتها فى روية، واستغل أخطاء، بل ربما حماقات خصومه ومنافسيه على العرش الامبراطورى ماكسنتيوس وماكسيمين دازا وليكين، وليسحب الأرض من تحت أقدامهم، لقد عادى هؤلاء جميعا المسيحيين ونكلوا بهم أن عنفا أو فى هوادة، وفى الوقت ذاته لم يقدموا للديانات السابقة جديدا يمكن أن تنهض به، أو يبعثها من الرقاد.

كان قسطنطين حصيف الرأى، يفوق معاصريه من العلمانيين ورجال الدين فطنة وذكاء، فاختار مستشاره للشئون الدينية من الغرب الامبراطورى، هو سيوس أسقف قرطبة، وهو رجل ترضى عنه الأوساط الكنسية على قلتها فى الغرب آنذاك، وانتقى أيضا مادحه ورئيس جهاز دعايته من النصف الشرقى، يوساب أسقف قيسارية فلسطين، صاحب الآراء اللاهوتية المعتدلة، والذى حاز ثقة كل الأطراف والفرق الدينية المتصارعة. ولم تكن الصلة بين الامبراطور

دياقن كما كان، وانه يتضع ويخضع للاب تاودوسيوس ويطيعه الى حين وفاته. ففعل ذلك كله وختم جميعهم ان هدا كله حق وصدق، وفرح الجمع كله ومجدو الله وشكروه اذ عاد اليهم راعيهم الصالح تاودوسيوس البطرك وجلس على كرسيه ليدبر البيعه والشعب بسلام.

واما يوليانوس وتاودورس وماني وجميع من خلف وتبعهم فثبت الاثم عليهم انهم مخالفون ولم يتوبو، فاما كيانوس فصار تحت طاعة

والأسقف القيسارى حديثة عهد عندما انفرد قسطنطين بحكم الامبراطورية ، ولكن يوساب القيسارى ـ كما تشير المصادر المعاصرة ـ تعرف الى قسطنطين وهو فى طريقه الى مصر فى حملة دقلديانوس. ولا شك أن اللقاء الذى تم بين الرجلين فى هذا الوقت المبكر، قد ترك أثره الكبير فى نفس كل منهما ازاء الآخر، وان كان قد أفاد امبراطور الغد كثيرا، فرسم للرجل فى مخيلته صورة تتفق وما يعتمل فى داخله من واسع الطموح.

لقد حرص قسطنطين طوال فترة حكمه التى امتدت ما يزيد على ربع قرن، أن لا يثير شكوك رعيته، والتى تمثل جل امبراطوريته، بل ظل فى نظر هؤلاء الرجل الذى وحد الامبراطورية وأنقذها من ويلات الحروب الأهلية الطاحنه. حقيقة سمح للمسيحيين بممارسة طقوس عبادتهم، وأعاد اليهم أموالهم وأملاكهم المصادرة، وأباح لهم حرية اقامة كنائس جديدة واصلاح ما تهدم من دور العبادة تحت وطأة الاضطهاد، وأعاد المنفيين وأطلق سراح المسجونين، وحقيقة أيضا أصدر أوامر بهدم عدد من المعابد فى كيليكيا وفينيقيا، ولكن قسطنطين مع ذلك كله لم يذهب كما فعل سلفه دقلديانوس فى سياسته تجاه المسيحية، فلم يصدر ضد الديانات القديمة مرسوما عاما بالاضطهاد أو بهدم معابدهم فى كل أنحاء الامبراطورية، وأو باحراق كتبهم المقدسة، أو بسوق كهنتهم الى العذاب زمرا، أو بتعقب جموعهم وحرمانها من ممارسة الطقوس نحو أربابها، بل أن هذه المعابد التى تم هدمها، لم يكن

تاودوسيوس البطرك. فلما استقام امر البيعة والشعب المومن المسيحى فرح الاب تاودوسيوس وكتب كتبا يشكر فيها الملك والملكه وارسلها مع رسلهم وهو ارستيتنس، ونيقيتس، وفيلودورس وشكرهم على ما فعلوه.

فلما وصلو وسلمو الكتب للملك وعرفوه جميع ما جرى كانت افكاره مايله موجعه [أى الملك] وقال: هو دا انا قد سلمت كرسى اسكندريه لتاودوسيوس ولو اضفت له جميع

ذلك بصفتها المخالفة للمسيحية ولكن لأنها كانت قد أمست غير مناسبة للمنحى الدكتاتورى القيصرى بسبب ايمانها بالتعددية وكفرها بالواحدية.

وفى الوقت الذى اختار فيه قسطنطين الأحد المقدس عند المسيحيين وجعل منه عيدا أسبوعيا، دعاه يوم الشمس ولم يدعه أبدا بيوم السيد، وبينما جعل من لابرومة المسيح شعارا له، استمرت العملة تصدر حتى سنة ٣٢٣ تحمل شعار الشمس التى لا تقهر.

لقد سعى قسطنطين إلى دعم إله المسيحيين الذى لا يقبل معه إله آخر، وسعى هو إلى أن يجعل من نفسه ممثلاً لهذا الإله الذى وحّد كل الامبراطورية تحت ظله، وسعى باسمه إلى القضاء على كل الديانات الأخرى، وتستر به فى حربه ضد الفرس وغيرهم من أصحاب الديانات المخالفة.

وكان قسطنطين بارع الدعائية، أغرق الكنيسة فى هباته وخيراته، وأغدق عليها من فيض أنعمه، ويبدى اهتمامه البالغ، بل وقلقه، من أجل الانشقاقات التى تحدث فى الكنيسة، ويدعو لعقد المجامع كى تفصل فى النزاع اللاهوتى، ويحمل الأساقفة على المركبات العامة، ويحمل الخزانة نفقات حلهم وترحالهم، ويشترك فى مناقشاتهم، ويرسل الى ملك فارس يحثه على حسن معاملة رعاياه من المسيحيين، فغدا بذلك فى نظر الكنيسة راعيها وحاميها، والملجأ لها

ولايات ارض مصر [واساقفة] كورتها وافريقيه وكل البلاد ما ساعدنى على الامانه التى اورثها لتكون البيعه كلها امانه واحده. ثم انه، اعنى الملك يوستينيانوس [يستنيانس الاول]، بعد ذلك فكر وكتب الى والى اسكندريه ومقدميها وللاب تاودوسيوس يجتذبه اليه وان يقبل طومس لاون ويساعده على ذلك وتكون له الرياستان البطركيه والولايه ويكون جميع اساقفه افريقيه تحت طاعته ويكون له الامر فى جميع ذلك، وان هو لم يطع

والملاذ. ولكن قسطنطين طوال رحلة الحكم التى سارها وفى علاقته بالكنيسة، لم ينس مطلقا أنه امبراطورية، وأن نظرية السياسية الرومانية لا يمكن أن تقبل مطلقا بقيام هيئة مستقلة داخل الدولة، أو بمعنى أكثر دقة، دولة داخل الدولة، ومن ثم ترأس قسطنطين المجامع الكنسية، وصدق على قراراتها، وتدخل فى تعيين الأساقفة وعزلهم. لقد أصبح الامبراطور الآن الاسقف الأعلى، بعد أن كان فى السابق الكاهن الاعظم. وان ظل يحمل هذا اللقب الوثنى طيلة حياته، بل ولم يتخل عنه خلفاؤه المسيحيون حتى عهد الامبراطور جراتيان Gratianus (٣٧٥ ـ ٣٨٣).

وكان كل ما يشغل بال قسطنطين أن يظل سيدا مطلقا لامبراطورية موحدة، قضى ثمانية عشر عاما (٣٠٦ ـ ٣٢٤) فى سبيل جمع شتاتها. ولهذا فان حدوث أى أنقسام، فى هذه الجماعة الجديدة التى ولى أمرها رغم قلة عددها يمكن أن يؤ دى بصورة ما الى التأثير فى وحدة الامبراطورية. ولا تكاد رسالة أو خطبة صدرت عن قسطنطين تخلو من ترديد هذه النغمة، وانطلاقا من ذلك فقد أراد أن يعالج بالحزم منذ البداية أول مشكلة للكنيسة الكاثوليكية ولم يلق بالا لجماعة الدوناتية ولا حتى لسماع دعواهم. فلما فشلت هذه السياسة رأى أن يطبق النظرية السياسية بشكل آخرعن طريق إيجاد التوازن بين مختلف الأطراف،

ولم يرض فيلخرج من البيعه ويمضى الى حيث يشا[ء] لان من لا يوافقنى على امانتى لا تكون له رياسه لا على شعب ولا على بيعه.

فلما سمع الاب المجاهد المغبوط البطرك تاودوسيوس المعترف بالمسيح كتاب الملك وما قاله، قال امام الجمع والوالى والرسل: قال الانجيل المقدس «ان ابليس اخذ السيد المخلص واصعده الى جبل عال وأوراه جميع ممالك العالم ومجده وقال له هذا كله لى وانت ان سجدت لى دفعته لك».

بحيث يصبح الامبراطور الرومانى فى النهاية هو الحكم الفيصل بينها. ومن ثم نراه يؤيد العقيدة النيقية سنة ٣٢٥ فى المجمع المسكونى الأول، وبعد ثلاث سنوات فقط يعفو عن آريوس وصاحبيه، ويقبل منهم وثيقة ايمانهم دون الرجوع الى الكنيسة، ولعل القرار الذى اتخذه المجمع النيقى ازاء المشكلة المليتية فى مصر، والذى جاء بوحى من الامبراطور، يعد خير دليل على سياسة الحلول الوسطى التى لجأ اليها قسطنطين.

ولقد كان بلاط قسطنطين أنموذجا حيا لهذه السياسة، يجمع أضداد الخلائق وشتى الفكر. فهناك المستشارون العسكريون والمدنيون كلهم من اصحاب الديانات المغايرة للمسيحية. والى جوارهم مستشاره الخاص لشئون الكنيسة، هوسيوس أسقف قرطبة، النيقى المتحمس. وفى الناحية الأخرى يقف يوساب النيقوميدى الآريوسى العنيد، صاحب الحظوة لدى الامبراطور بعد عودته من المنفى. وبين هؤلاء وأولئك صديقه الحميم يوساب القيسارى، رجل الفكر المعتدل. وقد استطاع قسطنطين أن يوحى الى هؤلاء جميعا أنه «مبعوث الرب» الذى عهد اليه بادارة الامبراطورية، وأن عليه أن يقود سفينها وسط الأنواء الى شطان النجاة. ولقد حاول قسطنطين الكثير، ونجح فى أن يضع لخلفه أسس العلاقة بين الدولة والكنيسة. ولكن مشاكل الكنيسة وخلافاتها اللاهوتية كانت أشد تعقيدا مما توقع قسطنطين.

هكذا ما وعدتمونى به وهو هلاك نفسى ان فعلته واصير به غريبا من المسيح الملك الحقيقى. ورفع يديه قدام الرسول المنفذ من الملك والوالى وذلك الجمع العظيم وقال: بالحقيقه احرم طومس لاون ومجمع خلقدونيه وكلمن يعترف به فهو محروم من الان والى الابد امين. ثم قال للوالى ولجميع جيش الملك: ليس للملك سلطان الا على جسدى والسيد يسوع المسيح الملك الحقيقى العظيم له السلطان على نفسى وجسدى جميعا. والان هو ذا

الاحتلال البيزنطى لمصر

أدت الإصلاحات التى قام بها دقلديانوس إلى تغيير جوهرى فى نظام مصر الادارى؛ فقد أصبحت البلاد وقتئذ تنتظم ثلاث ولايات بعد أن كانت ولاية واحدة، وحدث فصل تام بين السلطتين المدنية والعسكرية، ونظمت جباية الضرائب وطريقة تقديرها على أسس جديدة.

وكانت النتيجة النهائية التى تمخضت عنها هذه التغييرات هى أن أصبحت مصر أكثر شبهاً بولايات الامبراطورية الأخرى عما كانت من قبل، برغم أن العوامل الجغرافية وغيرها أبقت على قسط معين من الاختلاف. والواقع أن أهم هدف سعى إليه دقلديانوس من وراء إصلاحاته كان توحيد النظام الادارى وتبسيطه، الأمر الذى يؤدى بطبيعته إلى تدعيم قوى الامبراطورية. وتحقيقاً لهذا الهدف اتخذت خطوة أخرى نرى آثارها واضحة فى وثائقنا البردية، تلك هى اعتبار اللاتينية لغة رسمية حتى فى الولايات التى كانت الاغريقية لا تزال تحتل فيها هذه المكانة مثل مصر. لكن التغيير الفعلى كان تافهاً.

الجدل حول طبيعة المسيح

ولم ينقطع الاضطهاد تماما بعد ذلك، لكنه كان منقطعا ومحليا إزاء سياسة التسامح التى انتهجها كل من قسطنطين (Constantius) وماكسنتيوس (Maxentius) فى الغرب. وفى عام ٣١٢ قص قسطنطين بنفسه، وكان عندئذ قد اختلف مع ماكسنتيوس وتأهب لمحاربته،

البيع قدامكم وكلما فيها، فمهما اردتم فافعلوه، واما انا فتابع لاباى الذين تقدمونى معلمى البيعه الرسوليه اتناسيوس، وكيرلس، وديسكرس وتيماتاوس، وما كان قبلهم الذين صرت انا لهم نايبا بغير استحقاق. فقام خرج وقال: من كان يحب الله فليتبعنى لانى خرجت من بطن امى عريانا وامضى اليه عريانا والذى يهلك نفسه فى هذا الزمان لاجل الامانه فهو يخلصها. فمضو به الى الايوان محتاطا عليه يوما وليله. فلما كان

رؤياه الشهيرة على مؤرخ الكنيسة يوسيبيوس (Eusebius): فقد رأى صليباً على قرص الشمس وعليه عبارة (Toutw Vika) أى «بهذا انتصر». وطبيعى أن يرفض عالم متشكك مثل سيك (O. Seeck) قبول قصة كهذه باعتبارها «فرية واضحة»، وأن يعزو التغيير الذى طرأ على موقف قسطنطين إلى دوافع سياسية خالصة. لكن هذا المؤرخ، بصرف النظر عن مكانته وشهرته، رجل متحرر يحاول تفسير تاريخ القرن الرابع على الأسس العقلية المنطقية الحديثة. وليس هناك سبب كاف يحدونا الى الشك فى أن قسطنطين قد اعتقد أن وحياً هبط عليه. وبرغم أن الاعتبارات السياسية كانت، فيما يبدو، توحى باتباع سياسة التسامح الدينى، فإننا بلا ريب نجانب الصواب إذا افترضنا أن قسطنطين ـ وقد عبد إله الشمس الذى لا يقهر ـ لم يتأثر بالأفكار الدينية أيضا. وليس من شك فى أنه كان على ثقة تامة من إحراز النصر حتى لقد غزا إيطاليا وأقدم على اقتحام حصن روما المنيع بقوات غير كافية دون أن يعبأ بنصيحة قادته أو نبوءات عرافيه. وكان الصليب مرسوماً على دروع رجاله عندما خاضوا غمار معركة جسر ملفيا (pons Mulvia) التى اتاحت له السيادة على الغرب. وفى عام ٣١٣ أعلن هو وحليفه ليكينيوس (Licinius) وفقا لشروط اتفاقية «ميلان»، مبدأ التسامح الدينى. وعندما انتصر على ليكينيوس فى سبتمبر عام ٣٢٤، ووجد نفسه الامبراطور الوحيد، أصبح الطريق معبداً أمام المسيحية كى تصبح أولا ديانة الامبراطورية الرئيسية، ثم الديانة الرسمية الوحيدة فى جميع ارجائها وتحريم وتدمير كل الديانات المخالفة.

بالغداه اطلقوه كما امر الملك فى كتابه ليمضى الى حيث يشا. فخرج من المدينه وقوة السيد المسيح ترشده، فاهتم ارستاماخس [والى اعمال مصر] بامره واعد له ما يحتاج اليه وحمله فى مركب الى صعيد مصر ، فاقام هناك يعلم الناس والرهبان فى ا لديارات ويثبتهم على الامانه الارتدكسيه و يصبرهم على الجهاد حتى الموت، واما رسول الملك فانه عاد اليه وعرفه جميع ما جرى وكيف خرج تاودوسيوس البطرك من المدينه

ولكن فى وسعنا مع ذلك أن نشعر أن اعتناق الامبراطور للمسيحية لم يكن خيراً كله. فلم يعد اعتناق هذا الدين يعنى مجرد الأمان وإنما أصبح بدعة العصر، واسرع كثير من منتهزى الفرص إلى اعتناق الدين الجديد.

وفضلا عن ذلك، فقد أصبحت الكنيسة حرة فى تشجيع هذا الميل إلى الجدل الدينى الذى سبب لها المتاعب حتى فى أيام الاضطهاد. وليست قصة المهاترات الدينية التى شهدها القرن الرابع والقرون التالية بما تخللها من أحقاد مريرة، وأطماع وخصومات فردية، وأساليب تنطوى على الخداع والتضليل والتى سبق ذكرها، ليست هذه القصة التى لا نجد فيها أثراً لتعاليم المحبة المسيحية بالقصة المحببة إلى النفوس. وقد نتسامح فنعتبر هذه المهاترات بمثابة آلام المخاض المتزايدة التى عانت منها الكنيسة وهى تبذل جهدها المضنى لتصوغ هذه الديانة الجديدة، التى قامت على تعاليم وسيرة فرد بعينه، فى قالب فلسفى تجريدى. ولم تكن البدع التى انكرها المتزنون من رجال الكنيسة سوى محاولات لهذه الصياغة. وحتى هؤلاء الذين ينكرون مذهب الطبيعة الواحدة لابد أن يعترفوا لرجال الكنيسة الأوائل بقدر كبير من الذكاء الفطرى، فقد كانت معظم البدع التى أنكروها أشبه شىء بالطريق المسدود، الذى لا يؤدى إلى شىء، أو كانت صوراً من الانحراف الفكرى.

ولم يقبل من جميع مواعيد [وعود] الملك شيا.
فلما سمع ذلك الملك هو وجميع جيشه تعجبو
من رفضه هذه المملكه ومخالفته لامره وثبوته على
الامانه، ثم فكر في نفسه وقال ان تركته بحيث هو
فجميع الناس يتبعون امانته فلا يدعهم يقبلو
طومس لاون. فكتب كتابا مملو ايمانا وعهودا
للبطرك تاودوسيوس انه لا يلحقه منه الم ولا اذيه،
بل كل صلاح وخير، وارسله مع كاتب وقال له
الطف به الى ان تاتيني به، قل له غرض الملك

وينبغى أن نلحق بالفئة الأولى بدعة أو «هرطقة» آريوس (Arius) التى أحتلت مكانا بارزا فى تاريخ مصر والامبراطورية كلها فى خلال القرن الرابع. وكان آريوس الذى ابتدع هذا المذهب قسا فى كنيسة الاسكندرية. أما أكبر معارضيه فكان القديس أثناسيوس (Athanasius) أحد أبناء الاسكندرية وأسقفها خلال أعوام كثيرة. ولابد من الاعتراف بأن أثناسيوس لم يكن الطف شخصية بين آباء الكنيسة الأوائل. لقد كان رجلا حر التفكير، محباً للسلطة، طموحاً، لا يطيق المعارضة.

وبرغم ذلك فانه كان يقل صلابة ويزداد تسامحاً كلما تقدمت به الأعوام، ولقد استطاع آريوس بإنكاره مذهب الطبيعة الواحدة أن يقطع هذا الاتصال الذى أوجدته المسيحية بين تعالى الإله وتفاهة الانسان. ومن ثم فانه عندما كانت الأوامر الامبراطورية تصدر متوعدة الاساقفة المتمردين، وكانت المجامع الكنسية تجتمع من أطراف الإمبراطورية، وعندما كان بعض رجال الكنيسة يصدرون قرارات الحرمان ضد البعض الآخر، وكان الدهماء يسطون على الكنائس فيخربونها ويحطمون رؤوس معارضيهم، لم يكن الجدل حول طبيعة المسيح وهل هى نفس طبيعة الأب (homoousios) أو مشابهة لها (homoiousios)، لم يكن كما قيل عنه مجرد مهاترة حول حرف واحد من حروف الأبجدية اليونانية، هو أصغرها جميعاً؛ وذلك برغم أن الكثيرين ممن اشتركوا فى هذا الجدل لم يفهموا من خفاياه اللاهوتية إلا النزر اليسير. وأياً

مشافهتك. فلما وقف البطرك المغبوط على كتاب الملك استعان بقوة السيد المسيح واخذ معه من الكهنه رجالا حكما [ء] عارفين فضلا[ء]، وركبو وسارو حتى وصلو قسطنطينيه ودخل الى الملك والملكه، فلما عاينو سكينته وتواضعه وفضله استقبله [استقبالا] حسنا فانزلوه فى موضعا اعدوها له ومن معه، ثم استدعاه الملك دفعه تانيه وتالته الى سادس دفعه وهو فى كل دفعه يخاطبه بلطف يريد منه ان يساعده على تتبيت مجمع

كانت الأطماع التى جالت بخاطر اثنا سيوس، وسواء أكانت شخصية أم سعياً وراء كرسى أسقفية، فقد كان اثنا سيوس فى خضم المعركة، وكان يعرف أنه يقاتل لتقرير مبدأ خطير فى الديانة المسيحية، وكان حتماً عليه أن يحتمل الكثير من الآلام بسبب صلابته وشدة عناده[١]. ولقد نفى ثلاث مرات، ولكن الأقدار أبقت على حياته ليشهد انتصار مبدئه. وبرغم وجود معارضين له فى مصر نفسها. وهم أتباع مذهب آريوس والمنشقون من أتباع ميليتيوس (Meletius)، إلا أنه كان يستطيع أن يطمئن إلى معونة صادقة من جمهور الكنيسة المصرية.

---

(١) لدينا بردية محفوظة بالمتحف البريطانى (P. Lond. 1914) وهى خطاب أرسله أحد المنشقين أتباع ميليتيوس فى الاسكندرية الى زميل من زملائه. ويمدنا هذا الخطاب بصورة واضحة لاعمال أثناسيوس ضد هؤلاء المارقين اذ جاء فيه: «لقد قبض على أحد أساقفة مصر السفلى واحتجزه فى سوق اللحوم، كما سجن أسقفا من نفس الجهة وشماسا فى السجن الرئيسي. وحتى الثامن والعشرين من شهر بشنس (Pachôn). ظل هيرايسكوس أيضا (الذى يحتمل أنه أسقف من الاسكندرية نادى به اتباع مبليتيوس بدلا من أثناسيوس) حبيسا فى المعسكر ـ والحمد لله ربنا أن انتهت الآلام التى قاساها ـ وكان (اثناسيوس) فى السابع والعشرين قد طرد سبعة أساقفة من البلاد». كما يصور لنا الخطاب أيضا تردده عندما استدعاه قسطنطين لمجمع صور فى عام ٣٣٥ «أن أثاسيوس لشديد اليأس، فكثيرا ما استدعوه، لكنه لم يغادر البلاد حتى الآن، فقد كان يضع أمتعته فى السفينة كما لو كان ينوى الرحيل، ثم لا يلبث أن يسترد أمتعته غير راغب فى ترك البلاد».

خلقدونيه، واعطاه كرامات كتيره وتقدمة ورياسه، وهو يقول: لا حياة ولا موت ولا غلا ولا تعرى ولا سيف يصد قلبى عن امانة أباى ولا ارفض يوطه ولا خط مما كتبه ابا المعلمون المويدون قبلى رعاة القطيع الناطق الذى للمسيح من مرقس الانجيلى الى اليوم الذى جعلنى فيه الاب تيماتاوس شماسا وصرت انا بعده بطركا بتدبير الله. فلما لم يقدر الملك على اجتذابه الى مقالته توجه وارسله الى النفى مزعجا. وارضى كهنة اسكندريه ووسم لهم

قيام الرهبة وانبعاث القومية وظهور القبطية:

وفى تلك الآونة طرأ على الموقف عامل جديد أدى إلى حدوث تغيير كبير فى طابع هذه الكنيسة. ونعنى به ظهور الرهبنة التى تعتبر أهم نظام استحدثته مصر فى الديانة المسيحية. ومن الممكن أن نربط هذا النظام بنظام الزهد أو التنسك الذى عرف فى عبادة سرابيس، ومقتضاه أن بعض الناسكين كانوا ينقطعون لخدمة هذا الإله، فيقيمون داخل معبده الكبير فى منف أو غيرها. وكان ذلك يحدث بطريقة غامضة، فلعلهم كانوا يستجيبون لوحى مقدس هبط عليهم فى صورة حلم.

ومنذ وقت قريب لفت الدكتور ويلز (C.B. Welles) الأنظار إلى احتمال وجود شبه بين حياة جماعة دينية ورد ذكرها فى نقش من بانوبوليس Panoplis [إخميم]، وبين الرهبنة التى عرفتها المسيحية فيما بعد، ولا مراء فى أن المسيحية قد داخلها على الدوام لون من ألوان الزهد، وأن الميول الرهبانية قد وضحت فى الكنيسة المصرية منذ فجر تاريخها؛ ومن الأمور ذات الدلالة أن أول راهب مصرى نسمع عنه ـ وهو القديس بولس الطيبى ـ كان أحد أبناء الصعيد. وفى وسعنا أن نلمس بين أسباب حركة الرهبنة، ظهور لون من التفكير ذى طابع مصرى خاص. لقد كانت منطقة طيبة، كما أسلفت، أكبر معقل للقومية المصرية وللعبادات الكهنوتية التى تعبر عن هذه القومية تعبيراً صادقا؛ وعاش أهل هذه المنطقة ـ بعيدين عن

انسانا يسمى بولس التنيسى(*) بطركا على كرسى اسكندريه بيد مينا بطرك القسطنطينيه، وارسله وصحبته عسكرا الى مدينة اسكندريه، فلما وصل اليها لم يقبله احد من اهلها وكانو يقولون هذا يودس الجديد. فاقام سنه وهو لا يسمع احد منه ولا يتقرب من يده احد الا الرسول الذى جا صحبته والواصلون معه والوالى ومن معه فقط. وكانو اهل المدينه يشتمونه ويقولون هذا يودس الدافع.

فكتب الى الملك يعلمه بما جرى عليه وهروبهم

(*) تنيس: نسبة إلى الفرع التنيسى وهو أحد فروع النيل الذى كان يصب قديما فى بحيرة تنيس (المنزلة) وحيث توجد مدينة داخل البحيرة بنفس الاسم.

البحر الذى اصطبغ بالحضارة الهيلينة ـ فى واديهم الضيق تحف بهم الصخور التى دفعت عنهم غائلة الصحارى المترامية، فأدى ذلك إلى إحتفاظهم أكثر من غيرهم بالذكريات القديمة. ويميل البعض، ميلا شديداً إلى أعتبار الرهبنة جبناً وهروباً من مواجهة الحياة القاسية والضرائب الباهظة ومسئولياتها، ولعل بولس الطيبى كان كغيره من الذين لجأوا إلى الصحراء فرارا من اضطهاد الامبراطور ديكيوس (Decius).

وذلك عكس الرهبنة الاوزيرية القديمة التى كانت تهاجر إلى الصحراء لمحاربة اله الشر ست = شت = شيطان وتتخذ من المعابد مواقع متقدمة فى هذه الصحراء لمحاربته ومحاربة اعوانه من البدو. ذلك بأن الصحراء كانت تعتبر من قديم الزمن مأوى الأرواح الشريرة، ومملكة الاله ست عدو أوزيريس؛ فإذا ما اتخذ منها أحد الرهبان سكناً، فقد كان يجازف باقتحام معقل العدو ليحارب كتائب الشيطان ست من البدو الطامعين فى أرض اوزير الخضراء (مصر) غير معتمد إلا على عون الاله. وهناك فى كنف هذه الوحدة الرهيبة حيث تلفح شمس النهار صخور الصحراء بشواظها المحرقة، وتتراقص فوق الرمال أشعتها التى تخطف الأبصار، وحيث ترسل نجوم الليل أشعتها الناصعة من قلب السماء الصافية إلى ظلام الصحراء البهيم، كان الرهبان الاوزيريين والمسيحيين من بعدهم يصارعون قوى الشر مجتمعة. ولقد يرى عالم النفس الحديث فى معركتهم هذه صراعاً باطنيا ضد شهوات الجسد ووساوس النفس الأمارة بالسوء. لكنهم والمعجبين بهم كانوا يتمثلون عدوهم واضحاً ملموساً فى شياطين الجحيم. وينبغى أن

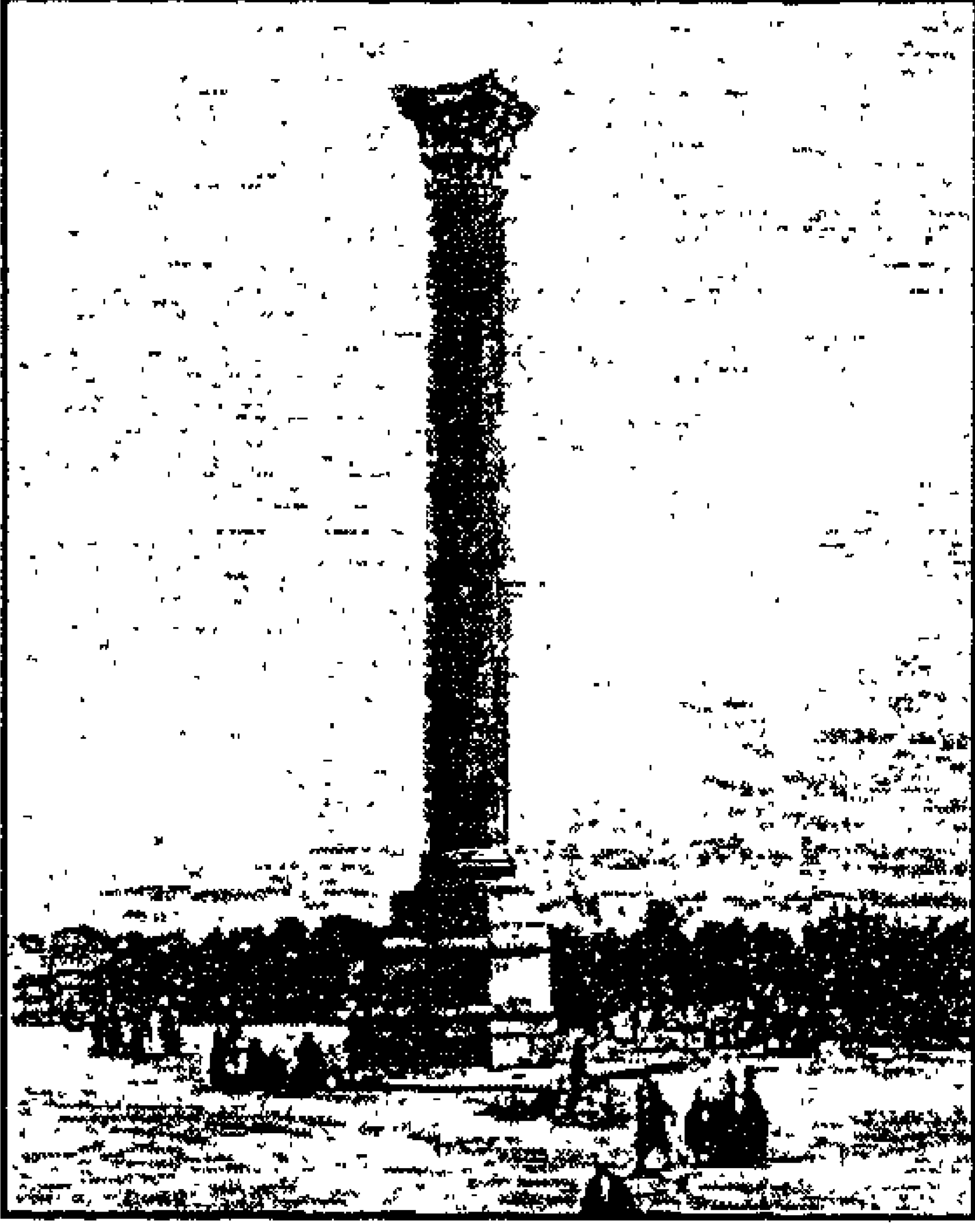
منه كهروب الضان من الديب، وارسله مع بطريق
فحنق الملك وارسل كتابا مع بطريق اخر يامر فيه
ان تغلق ابواب البيع التى بمدينه اسكندريه ويختم
عليها بخاتمه ويجعل عليها حراس حتى لا يدخل
احد بالجمله. فلما وصل ذلك الكتاب المملو اثاما
الى المدينه كان منه حزن عظيم وضيق ونوح لاحد
له ولا صفه على الشعب الارتدكسى، ومكثو على
هذا سنه كامله بلا قربان ولا بيعه يصلون فيها ولا
موضع يعمدون فيه، لكن كانت كتب ابيهم

نذكر أنهم لم يحاولوا مجرد حماية أنفسهم فحسب عن طريق عزلة تنطوى على الأنانية والأثرة، فقد صلوا دون ملل من أجل الآخرين، وفى وسعنا أن نقول إنهم كانوا جند الفداء المجاهدين فى سبيل وطنهم ثم الكنيسة، الذين كانت صلواتهم سلاحاً فعالا فى المعركة المريرة التى خاضتها ضد قوى الشر والظلام.

وقبل منتصف القرن الرابع، وضع باخوم (Pachomius) نظامه الجديد، فأصبح فى الواقع منشيء الرهبنة الجماعية فى ظل المسيحية، وهى النظام الشائع فى الغرب، وإن كان هناك أيضاً عدد كبير من الرهبان المعتزلين. وبرغم ذلك بقيت الرهبنة الانفرادية محتفظة بمكانتها الهامة إلى جانب الرهبنة الجماعية فترة طويلة.

لكن الباحثين فى الطبيعة البشرية قد يرون أن أزدهار حركة الرهبة المسيحية فى القرن الرابع لم يكن على أحسن الفروض خيراً خالصاً: ذلك أنها كانت تعنى اعتزال آلاف الناس ميدان الحياة العملية، وغالباً ما كان هؤلاء ذوى همة عالية وإرادة قوية، بينما كانت البلاد تعانى نقصاً خطيراً فى الأيدى العاملة، كما كانت تعنى أيضاً تبديداً شديداً لميدان النشاط البشرى وإقفاراً بالغاً فى الحياة الثقافية. وفى وسعنا ونحن ندرس تاريخ مصر البيزنطية أن نستبين بجلاء هذا الاطراد فى ضيق الأفق، وهذا الجمود العقلى والفكرى. ونجد حتى فى سيرة أثناسيوس نفسه نذر الخطر الكامن فى اعتماده على عون جماعات من الكهنة المتعصبين، وهو خطر ازداد وضوحاً فيما بعد: فأمثال هؤلاء الكهنة هم الذين حرضهم البطريرك كيرلس

تاودوسيوس السعيد تتواصل اليهم من النفى تذكرهم بالامانه وتعزيهم وتصبرهم.


عمود السوارى

فلما زاد قلقهم اجتمع جماعة الارتدكسيين كهنه وعلمانيون فتشاور فى ان ينو بيعه يلتجو اليها لكيلا يصيرو مثل اليهود، ففعلو ذلك وبنوها بقوة المسيح فى غرب اسكندريه فى الموضع المعروف بالسوارى والصربيون [السرابيون] وهى الانجيليون، سرا فى المايه وخمس درج. وقوم اخر من الشعب بنوا ايضا بيعه اخرى على اسم قزمان

(Cyrillus) على مهاجمة يهود الاسكندرية وطردهم من المدينة، وهم الذين قتلوا الفيلسوفة الفاضلة هوياتيا (Hypatia) بعد ذلك بأعوام قليلة (٤١٥م)، وهم أيضاً الذين يبرز نشاطهم فى كثير من الأحداث المماثلة التالية.

ولقد وفق كليمينس (Clemens) وأوريجينيس (Origenes) فى المزج بين الفكر الإغريقى والعقيدة المسيحية، وبرهن الأول على أن المسيحى المخلص لابد أن يقدر الأدب اليونانى تقديراً عظيماً. لكن حركة الرهبنة المصرية كانت تناهض، بصفة عامة، الحضارة الهلينية وكل ما تتمثل فيه هذه الحضارة.

ولا يصح الإعتقاد بأن مصر كانت بلداً يتكلم الإغريقية، فنغفل الثقافة الوطنية التى تكشفها لنا الوثائق الديموطيقية القانونية، وإيصالات الضرائب القليلة المحررة بالديموطيقية، أو التأشيرات الديموطيقية على الإيصالات الإغريقية، وكذلك بعض شذرات من الأدب الديموطيقى. لكن الحياة المصرية الوطنية ظلت قائمة طوال الوقت، برغم أنها كانت مكبوتة لا تلقى من الرعاية إلا قليلا، تناصب الحضارة الهلينية عداء خافياً وتعتز بكبريائها القومى.

فمن المرجح أن الكتابة الديموطيقية الصعبة لم تكن معروفة لغير عدد قليل من الأفراد، ثم بدأ الناس فى القرن الثالث يستعملون الأبجدية الإغريقية لكتابة اللغة المصرية، بعد إضافة ستة أحرف إليها فى كتابة النصوص المصرية. ومن الجائز جداً أن الأبجدية الإغريقية، بحروفها

ودميان شرقى الملعب [الرومانى] وغربى العمد قليلا، وكملوها وذلك فى سنة مايتين وتمان وسبعين لديقلاديانوس.

فعلم الملك بذلك فانفذ وضع جميع البيع وجعلها تحت سلطان الخلقدونيين. فلما علم الاب المغبوط تاودوسيوس انه لم يبق له غير هاتين البيعتين المستجدتين، بيعه الانجيليون وبيعة قزمان ودميان الشهدا تنهد وبكى لانه كان عارفا بشعب

اللينة، قد حلت أول الأمر محل الديموطيقية التى لا تعرف هذه الحروف، فى كتابة النصوص السحرية التى تستلزم صياغتها دقة بالغة[1]. لكن سرعان ما أدرك المسيحيون إمكان الأخذ بهذا التجديد للكتابة. وقد بدأت ترجمة الأناجيل إلى القبطية أولا على شكل شروح بهذه اللغة على الهوامش بين السطور، وبعدئذ ترجمت نصوصها كاملة إلى القبطية، وهو الإسم الذى أطلق على الكتابة الجديدة التى تعتبر صورة من صور كتابة اللغة المصرية[2]. وقبل نهاية

(١) المقصود بالحروف اللينة حروف الحركة (vowels) وعدد الحروف المضافة الى الحروف اليونانية فى اللغة القبطية هو سبعة فى بعض اللهجات.

(٢) كان للغة المصرية القديمة ثلاث صور أو خطوط هى الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية؛ و القبطية.
وكان دكيوس (Decius) الذى حدث فى أيامه أضطهاد للمسيحيين (حوالى ٢٥٠م) هو آخر امبراطور رومانى يدون اسمه بالهيروغليفية على المعابد المصرية. ويرجع آخر نقش هيروغليفى معروف الى عام ٣٩٤م، وآخر نص ديموطيقى معروف الى عام ٤٥٢م.
ويمكن ارجاع اللغة القبطية الى تاريخ يتراوح بين ٢٥٠، ٣٥٠م. وأهم لهجاتها هى البحيرية، والصعيدية (من منف الى أسيوط) والاخميمية، والفيومية. وحروفها هى حروف اللغة اليونانية مضافا اليها ستة (وأحيانا سبعة) حروف أخرى مأخوذة من الديموطيقية للتعبير عن أصوات خاصة باللغة المصرية لم توجد فى اللغة اليونانية.
ويبدأ التقويم القبطى بيوم ٢٩ أغسطس عام ٢٨٤ م (فهو ذكرى استشهاد كثير من المسيحيين فى أيام اضطهاد دقلديانوس). ويلاحظ أن يوم ٢٩ أغسطس يوافق أول شهر تحوت (توت) وهو بداية السنة المصرية القديمة.

اسكندريه وانهم محبون الفخر والكرامه وخاف ان يرجعو عن الامانه المستقيمه طلبا لكرامة الملك، فكان يصلى ويقول: يا ربى يسوع المسيح انت اشتريت هذا الشعب بدمك الشريف وانت المهتم بهم فلا تدع يدك عنهم بل تكون ارادتك.

واقام تمانيه وعشرين سنه فى النفى وغيره، وفى صعيد مصر اربع سنين وهو حافظ الامانه الارتدكسيه. ووضع من الميامر والتعاليم فى مدة

القرن الرابع كان الكتاب المقدس كله فى متناول أيدى القراء المصريين، وأصبح عدد الذين يستطيعون قراءة الخط أضخم بكثير من قراء الديموطيقية. فضلا عن ذلك فإن الكتاب الأقباط كانوا يستخدمون من صور اللغة المصرية صورة تعتبر أحدث وأوسع انتشاراً من تلك التى كان يستعملها كتاب الديموطيقية. وظهرت تبعاً لذلك مجموعة وافرة من الأدب القبطى تناولت مواضيع إنجيلية ولا هوتية وشعائرية، وقلما كانت تتناول الموضوعات غير الدينية. وهكذا وجد المصريون للمرة الأولى منذ القرن الثالث قبل الميلاد، متنفساً للتعبير عن مشاعرهم. ولقد كان كثير من الرهبان والنساك ينحدرون من أصل مصرى. والواقع، كما أسلفت، أن الرهبنة كانت ابتكاراً مصريا يعود للأوزيرية. وكانت نتيجة ذلك أن اكتسبت الكنيسة المصرية طابعا قوميا قويا ولا شك أن الرهبان الذين تبعوا بطارقتهم إلى المجاميع الكنيسة كانوا لا يفهمون المشاكل اللاهوتية المعروضة على بساط البحث إلا فهماً ضئيلا، أما الأمر الذى استطاعوا فهمه حقاً فكان معارضة مصر السياسية للحكومة الإمبراطورية؛ لقد كان طبيعياً أذن أن تعتنق مصر المذهب الكاثوليكى عندما كانت القسطنطينية ـ العاصمة الجديدة ـ تدين بالهرطقة كما حدث على أيام الامبراطور قسطنطيوس الآريوسى.

النزاع الكنسى:

وشهد القرن الخامس حدوث النزاع الكنسى الذى قطع الأسباب بين الكنيسة المصرية

بطركيته وهى اتنين وتلتين سنة ما لا يحصى. وانتقل بسلام السيد المسيح الذى يحبه فى اليوم التامن والعشرين من بوونه واخذ اكليل الغلبه مع جماعه القديسين فى كورة الحيا الى الابد. ونحن المومنين الباقين على الامانه الارتدكسيه الذين استحقينا ان ندعى تاودوسيين كاسمه، نتضرع ونتوسل الى الله الاب والابن والروح القدس ان تكون لنا ضماير روحانيه وتثبيت حافظين الامانه المستقيمه بلا تعب كما حفظها هذا الاب القديس

والكنيسة الكاثوليكية، وبدا أن الخلاف يدور حول مسائل تتصل بجوهر العقيدة. والواقع أن الفكر اللاهوتى كان لا يزال منصباً على محاولة توضيح الغموض الذى اكتنف مشكلة «التجسد». لقد كان المسيح إلها وبشراً فى آن واحد، فهل هو ذو طبيعتيين؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هى حقيقة العلاقة بين هاتين الطبيعتين؟ وقد أنكر آريوس أن «الابن» و«الأب» من طبيعة واحدة، وإن لم ينكر الوهية المسيح إنكاراً مطلقاً ولقد كان وجه الخطأ عند معارضيه يكمن فى إنكار الطبيعة البشرية أو التهوين من شأنها. وبرغم أن مذهب الطبيعة الواحدة، فى أقصى درجات تطرفه كان لا ينكر وجود طبيعتين قبل إندماجهما فى «التجسد» فقد ذهب إلى وجود طبيعة واحدة فقط بعد حدوثه، وبناء على ذلك تلاشت الطبيعة البشرية تماما أمام الطبيعة الإلهية، أى أن هذه الأخيرة لم تتضمن الأولى، وهكذا انمحت للمرة الثانية تلك الوسيلة التى تصل ما بين الله والناس.

وتربع على كرسى كنيسة الاسكندرية بين عامى ٤١٢، ٤٤٤ القديس كيرلس الذى ظل يزعم تأكيده ألوهية المسيح بصفة خاصة، ملتزما بالمذهب الأرثوذكسى. وبينما كان يفتقر إلى فضائل سلفه العظيم أثناسيوس، فقد ارتكب نفس أخطائه بصورة أفحش فهو الذى حرض الرهبان والسوقة على طرد اليهود من الاسكندرى، وهو الذى بذل غاية جهده للقضاء على المدرسة الفلسفية فى جامعة الاسكندرية وعلى رجالها. وإذا لم يكن قد أوحى بالاضطرابات

الريس المعترف امام الهراطقه المخالفين والملوك والرويسا السلاطين الذين كانو فى ذلك الزمان الردى، وتكون سيرتا امامه بلا عيب ولا نحيد عن ارادته،ويكون لنا اتفاق معه فى النصيب الاوفر فى ملكوت السما بنعمه ورحمه ورافه [رأفة]، الهنا محب البشر يسوع المسيح، ربنا ومخلصنا له المجد مع الاب والروح القدس المحيى الان وكل اوان والى دهر الداهرين امين.

التى أدت إلى مقتل هيباتيا، فقد أبدى على الأقل موافقته عليها بموقفه السلبى منها. وفى مجمع أفسوس (Ephesus) الذى عقد عام ٤٣١، كان المسئول الأول عن إدانة ونفى نسطوريوس (Nestôrius) بطريرك القسطنطينية. أما خليفته ديوسقورس (Dioscorus) فقد ارتكب نفس الأخطاء، لكنه كان دون سلفه كياسة ولباقة، فقيد نفسه بمذهب الطبيعة الواحدة. وقد حالفه النصر فى مجمع أفسوس الذى عقد عام ٤٤٩، غير أنه اتبع لكسب هذا النصر وسائل العنف والاستفزاز، فتألف ضده تحالف قوى. وعندما عقد مجمع خلقيدونية فى عام ٤٥١، وصدر القرار الشهير الذى جاء فيه أن المسيح «يتفق فى الطبيعة مع أبيه بوصفه إلها، كما يتفق معنا بوصفه بشراً» و «أننا عرفناه صاحب طبيعتين»، أدين ديوسقورس وخلع من منصبه، وخلفه پروتيريوس (Prôterius). لكن تيموثيوس الملقب آيلورس (Timotheos Ailouros) أى «تيموثيوس القط»، وهو واحد من خصومه، أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، أثار عليه جماعة من السوقة مزقته إرباً. ومنذ ذلك الحين ظلت الغالبية العظمى من المسيحيين المصريين فى نزاع طائفى مع الكنيسة الكاثوليكية.

وبرغم أن النزاع الدينى قد يكون ضروريا فى بعض الأحيان، إلا انه شر فى كل الأحيان: ذلك لأنه يبرز نقط الخلاف ويؤكدها، ومن ثم يؤدى إلى ضيق الأفق حتى بين أقطاب النزاع وأتباعهم، وإلى حصر التفكير فى المجال الطائفى وحده. وإلى مثل ذلك أدى النزاع الدينى فى

السيره الرابعة عشر من سير البيعه المقدسه
بطرس البطرك
[٥٦٧ / ٥٦٩]
وهو من العدد الرابع والتلتون

وكان لما نفى الاب تاودوسيوس البطرك بيد يوستيانوس [يستنيانس الاول] الملك وجعل عوضه قبل وفاته بولس التنيسى الذى اصلح بالقسطنطينيه فصار هذا الرسم لبطاركه الملكيه ان يقسمو بالقسطنطينيه ويسيرو لاسكندريه.

مصر: فالكاثوليك أو الملكانيون (Melkites)(١)، كما كانوا يدعون، كانوا يعتمدون على تأيد الحكومة الامبراطورية، ولهذا كرهتهم الغالبية العظمى من الناس، فتضاءلت مكانتهم ولم يظفروا بغير قليل من الاتباع. أما الاقباط، أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، فكان يؤيدهم الرهبان الذين ناصبوا جميع صور الحضارة الهلينية عداء شديدا، ولهذا لم يكن فى وسعهم أن يسهموا بأى نصيب يذكر فى النشاط الفكرى حينئذ. وهكذا غدت مصر، كولاية فى الإمبراطورية، أشبه شيء بتيار مضاد فى مجرى الحركة الثقافية، مركزا لمدرسة مسيحية ذائعة الصيت، وأنجبت فى القرن الرابع شخصية لها مكانتها العظيم فى التاريخ الكنسى، هى شخصية أثنا سيوس.

لقد عجز كيرلس عن القضاء على مدرسة الاسكندرية الفلسفية. وظلت جامعة الاسكندرية حتى النصف الثانى من القرن الخامس تضم طائفة من الفلاسفة. ولدينا وثيقة بردية(٢)

(١) أى ملكيون نسبة الى تبعيتهم للحكومة الامبراطورية واعتمادهم عليها، وكان يرأسهم بطارقة يرسمون فى الخارج ثم يرسلون الى مصر.

(٢) انظر: P.Cairo Masp. III, 67295
I. 12- 16, 18-20
حيث جاء ما ترجمته: «فى وسعى أن أقول ـ اذا لم يكن ثمة خطأ فى أن يمتدح المرء نفسه ـ اننى=

وبعــد زمــان قليل اهلك الرب بولس التنيــسى بموت سـو، وجـعلو عـوضـه ابوليناريوس. فـتسلط ايضـا على البيع بامـر الملك وامـر ان لا يظهـر احـد من الاساقفة المومنين فى مدينة اسكندريه.

وكان اتحاد بين بيعة انطاكيه وبيعة اسكندريه فى الامـانة والارتدكـسيـه والمحبـه المسيـحيـه لن [لأن] تاودوسيوس اعترف هو ومن معه قدام الملك باتحاده مع الاب سـويرس بطرك انطـاكيـه، وقـال: انا اقـبل

تتضـمن شكوى تمدنا بطرف شائق عن حياة هؤلاء الفلاسفة الذين تأصلت الروح القومية فى نفوسهم برغم أن ثقافتهم كانت بلا ريب مصطبغة بالحضارة الهلينية، وقد كان أحدهم هو المؤلف الشهير لبحث لا يزال موجوداً عن الكتابة الهيروغليفية. والواقع أن الحضارة الهلينية كانت تتهددها الأخطار حتى فى الاسكندرية نفسها، أما فى باقى أنحاء مصر، فإن التيارات المضادة لهذه الحضارة، وهى التيارات التى أحدثتها حركة الرهبنة وحركات المقاومة الوطنية، قد ازدادت حدة نتيجة للتدهور الاقتصادى الذى عجزت إصلاحات دقلديانوس عن وقفه.

نظام الضرائب ونظام الحماية:

وكان تبسيط النظام الضريبى من أبرز مظاهر تلك الاصلاحات، غير أن المزايا التى انطوى

= حظيت خلال فترة طويلة بسمعة طيبة بين سكان مدينة الاسكندر العظيمة حيث أشرفت على ادارة احدى مدارس جامعتها. وكنت أعيش دائما عيشة فاضلة، وقد كرست مواهبى الفطرية للنشاط الثقافى، وعلمت الفلسفة للراغبين فيها. والواقع أننى ورثت اهتمامى بالفلسفة عن آبائي وأجدادى، فقد علمنيها أبى مثلث الرحمات أسكليبياديس الذى قضى حياته كلها فى الجامعة يدرس للشبان وفقا للمنهج القديم.. ولقد جهدت فى أن أجعل حياتى فى نفس المدينة صورة من حياة أبى... وكنت وزوجتى، وهى ابنة عمى، أبناء لشقيقتين، وعشت واياها سويا مع أبوينا متفقين فى المشرب والمسكن وتقوى الآلهة، وفى شغفنا جميعا بالفلسفة، حتى لقد شك الكثيرون فيمن يكون والدينا: فهل كنت أنا ابنا لوالدها أم كانت هى ابنة والدى» وكاتب هذه العبارات هورابولون (Hôrapollôn) الذى ألف كتابا عن آثار مدينة الاسكندرية، ولعله أيضا صاحب البحث الموجود بين أيدينا عن اللغة الهيروغليفية.

جـمـيع مـا قـاله مـار يوحنا فم الذهب والحكيم كيرلس.

ولما تنيح تاودسيـوس فـرح ابو ليناريوس المنافق بذلك جدا، وعـمل وليـمـه عظيـمـه للكهنه واهل المدينه وظن انهم يوافـقـونه على مـا هو عليـه لن [لأن] الابا [ء] الاسـاقـفـه مـا كـان احـد منهـم يستطيع الظهور باسكندريه وانطاكيه لجل ما امر به الملك المخالف.

عليها كانت وهمية. صحيح ان الاصلاح قد راعى عند تحديده وحدات الانتاج، اختلاف نوع الأراضى، ولم يغفل الجزئيات، غير أن طريقة تقدير الضريبة لم تكن مع هذا محكمة بحيث يمكن الإطمئنان عند حدوث ضائقة إقتصادية.

وقد ترتب على ذلك أن الأراضى بدأت تجدب فى أنحاء كثيرة من إفريقية وسوريا وكذلك مصر. وفي وسعنا أن نتبين أثر ذلك التطور بوضوح وخاصة فى الفيوم، حيث أقفرت قرى فى أوائل القرن الرابع من معظم سكانها، بعد أن كانت مزدهرة وآهلة بالسكان فى القرن الثانى، وكانت لا تزال حتى القرن الثالث مراكز عمرانية هامة، ولم ينته القرن الرابع حتى كانت هذه القرى قد أضمحلت وتحولت، كما تبدو اليوم، إلى تلال رملية كبيرة تغطى أطلال المساكن المهجورة. وقد أخذ دخل الولايات التى أجدبت أراضيها فى الانكماش بينما لم تقل نفقات الحكومة، إذا اقتضت الحالة على الحدود الشمالية مرابطة قوات عسكرية ضخمة لتعرضها باستمرار لغزو البرابرة التيوتون، كما أن الفرس لم ينقطعوا عن تهديد الحدود الشرقية للامبراطورية. وفضلا عن ذلك فقد استلزمت إصلاحات دقلديانوس إنشاء جهاز بيروقراطى محكم، وابتكرت الحكومة منعاً للاختلاس والابتزاز نظاماً دقيقاً حافلا بالمراقبات والمراجعات، يراقب فيه الموظفون بعضهم بعضا. وكان على الحكومة أن تدفع مرتبات هؤلاء الموظفين

وبرحـمـة ربنا يسـوع المسـيح ولى اسكندريه
انسـان فـاضل مـحب للناس كـان له نصـيب فى
الارتدكسيين فامر ان يقسمو لهم بطركا فى السر
عوضـا من الاب تاودوسيوس، فقـال لهم: اخـرجو
الى دير الزجـاج [بالاسكندرية] كـانكم تريدون
الصـلاة فيـه فقـدمو عليكم من تختـارونه بطركـا.
فشكرو الله ومـجدو السيد المسيح وارسلو الى بلاد
ارض مصر البحريه، واحضرو تلتة اساقفه وخرجو
معـهم الى دير الزجـاج وقـسمـو رجـلا قـسا اسـمـه

جميعاً والمكافآت الإضافية (sportula) التى كان جميعهم يطالبون بها. وقد أصبحت هذه المكافآت حقاً مسلماً به حتى صارت تجبى آخر الأمر مع الضرائب، ولم يعد فى وسع الحكومة، حتى إذا شاءت، أن تحد من نفقاتها، واضطرت مجالس [الشورى] البلدية ولجانها التنفيذية، وهى المسئولة عن تحصيل ضرائب المناطق التابعة لها كاملة، إلى اغتصاب أموال الفلاحين فاذا عجزت عن تحصيل المقدار المطلوب أخذ من ثروة أعضائها الخاصة ما يغطى العجز. وهكذا لم يقع العبء الاقتـصادى على فـريق دون الآخر، بل وجدت كل من طبقـة الفـلاحين وطبـقـة أعضاء المجالس البلدية نفسها مهددة بالخراب الشامل.

وقد رأت السلطات، إزاء إرتباط الدخل بإنتاج الأرض إرتباطاً شديداً، أنه لابد من أن تمنع المزارعين من مبارحتها، وأن تربطهم إليها، ولابد من أن تبقى الطبقة التى يختار منها أعضاء مجالس الشورى، قـوية حافظة لكيانها، فـهى المسئولة آخر الأمر عن نصاب الضـريبـة، وأن يخلف الابن أباه فى عـضـوية المجلس ليـحمل أعبـاءه، وبالمثل يتـحتم على ابن الملاح، المنوط بنقل القـمح والضرائب النقـدية إلى القسطنطينيـة، أن يخلف أباه فى حرفتـه، وأن يرث ابن المكارى مهنة أبيه. وهكذا أفضى ذلك الجمود فى التفكير إلى قيام دولة الأذلاء البيزنطية، حيث كان المجتمع يتألف من طوائف إحداها فوق الأخرى، ولكل منها مهنتها الوراثية التى لا سبيل

بطرس بطركا وتعزى به الشعب وقويت امانتهم، لكن ما كانو يقدرون يدخلون به المدينه ظاهرا خوفا من الملك ومن ابوليناريوس بطرك المخالفين. وكان مقامه خارجا عن اسكندريه مقدار تسعة اميال فى البيعه التى هى على اسم يوسف، وكانو يحملون اليه جميع ما يحتاج، ولم يعلم الملك به. وبعد هذا ظهر الامر ان بطرس صار بطركا عوضا عن المتنيح تاودوسيوس، فلما علم ابوليناريوس غضب جدا وكتب الى الملك يعلمه

إلى التملص منها[1]. وقد يقال إن ذلك الجمود لم يكن مطلقاً، لأننا نسمع عن أشخاص من

---

(١) انظر:

A.E.R. Boak, "An Egyptian Farmer of the Age of Diocletian and Constantine", Byzantina Metabyzantina I, 1946, PP. 39-53.

حيث يقول ملخصا دراسته لبعض برديات من ثيادلفيا [هريت] بالفيوم: «ويمكننا أن نستخلص من دراستنا السالفة لحياة اسيدوروس ومقارنتها بحياة سكاوون، نتيجتين هامتين، الأولى أن الزراعة فى الفيوم، كما سبق أن ألمعنا، كانت لا تزال فى أوائل القرن الرابع مهنة رابحة، طالما كانت أعمال الرى منتظمة. ولما كان الرى قد أهمل فى ثيادلفيا، فقد أجدبت الأرض وأقفر المكان من سكانه. وأما فى كرانس [كوم أوشيم حاليا] حيث لم تنقطع العناية بالقنوات، فقد ظلت القرية عامرة بالسكان مدة قرن آخر. والنتيجة الثانية هى أن ملاك الأراضى فى القرية كان عليهم وهم فى سن متقدمة أن يوطنوا أنفسهم على تولى ست وظائف الزامية مختلفة أو ازيد، وبعضها لاكثر من فترة واحدة. ولا شك فى أن ذلك كان عبئا ثقيلا فى زمن الرخاء، فاذا ما أضفنا الى ذلك عبء الضرائب فى وقت استنزفت خلاله نفقات الحكومة موارد البلاد الأخرى حتى آخر قطرة، فلا عجب أن جاوز العبء بمرور الزمن حد الاحتمال. وتنهض سيرة اسيدوروس دليلا جديدا على صحة الرأى السئد بأن نظام الالزام كان هو المسئول الى حد كبير عن القضاء على طبقة الملاك فى عواصم الاقاليم والقرى المصرية فى فجر العصر البيزنطى». لا ريب أن العبء المالى وما ترتب عليه من فرار الذين ناء كاهلهم به، وتناقص الأيدى العاملة تبعا لذلك، زاد مشكلة العناية بالرى تعقيدا، كما أدى اهمال الرى بدوره الى اشتداد الضائقة المالية.

أنظر أيضا:

A. E.R. Boak, "A Fourth Century Petition for Relief from.

بما كـــان. ومن قـــبل ان يصل كـــتـــابه الى يوستينيـانوس الملك فى القسطنطينيه ضربه ملاك الرب فمات موتة سو مثل موت هيرودس.

فـاما بطرس فكان رجـلا حـسن الصـورة بهى المنظر مزينا بكل فعل جـميل محبا لمن فيـه علم الله، ومن اجل ذلك طلب انسـانا فـاضــلا عـالما بالقـوانين المقـدسـه ليكون له كـاتبـا فـارشـدوه الى راهب شـماس اسـمـه دميـانوس فى دير تابور وكـان عـارفـا بالكتـابة، فـمـضى الاب بطرس البطرك الى

أصل وضيع يبلغون أرفع المناصب، وخاصة عن طريق الانخراط فى سلك الجندية، أو الالتحاق بسلك الوظائف المدنيـة، أو الكنسـيـة. غيـر أن هؤلاء الأشـخـاص كـانوا ذوى مـواهب نادرة لا تعوزهم ملكة الابتكار. وأما عامة الناس فكانوا مقيـدين طيلة حياتهم برباط المهن التى فرضت عليهم منذ نشأتهم.

وكان فى استطاعة الفلاح على عهد البطالمة، إذا ضاق ذرعاً بحالته، أن يلوذ بحمى مذبح الملك أو ساحته (bômos-temenos= skepê) أو بأحد المعابد العديدة (hieron) التى كانت تتمتع بحق حماية المستجيرين، ولا يبرح مكانه إلا بعد أن تزول أسباب شكايته. فلما جاء الرومـان حـصـروا هذا الحق فى أضيق نطاق، فلم يعد أمـام الفـلاح إلا الفـرار إلى الأدغـال أو الصحراء أو الانضمام إلى أحدى عصابات اللصوص. على أنه كان هناك مخرج آخر؛ فقد ظهر حتى فى القرن الثالث، رجال استغلوا حالة التدهور لصالحهم، واستطاعوا بفضل إقدامهم ونشاطهم وما لديهم من رؤوس أموال، أن يجعلوا من مصائب غيرهم فوائد لهم. وقد أخذت الضيـا ع الكبيـرة تتكون فى ذلك الوقت. وكـان فى مـقـدور أصـحـاب هذه الضيـا ع، بموازنة خسائر بعض ضياعهم بأرباح الأخرى، أن يستجيبوا دون تعريض أنفسهم لارتباكات مالية خطيرة، إلى مطالب جباة الضرائب، وليس ثمة شك فى أن الأثرياء كانوا لا يعدمون وسيلة فى عصر فسدت فيه الذمم لحمل السلطات على معاملتهم معاملة خاصة. فقبل نهاية القرن الرابع

الدير فتحدث معه وساله ان يسامحه ويتعب معه في اعمال البيعه، وطلب اليه وطيب قلبه ان يقيم معه في الدير كانه اسقف، اذ كان لا يقدر يظهر انه بطرك ولا يتمكن من الدخول الى مدينة اسكندريه جهرا. فاجابه الشماس الراهب دميانوس الى ذلك واطاع البطرك فيما امره به.

وكان في ذلك الموضع ستمايه دير عامرة كلها بالارتدكسيين وجميعهم رهبان ورهبانات مثل خلايا النحل [فلم يبق] من عمارتهم سوى اتنين

حصل أثرياء الملاك (potentiores) من الحكومة على حق عرف باسم «أوتوبراجيا» (autopragia)، الذى يخول لهم جباية الضرائب المستحقة على ضياعهم الخاصة، ودفعها لخزانة الولاية مباشرة، دون وساطة الجباة المحليين؛ ومن المحتمل أن ذلك يرجع إلى أن الحكومة قد تعذر عليها تحصيل النصاب المطلوب بغير هذا السبيل. ولذلك كان المالك الصغير عندما يتهدده الخراب يلتجيء إلى أحد جيرانه الأقوياء لحمايته. على أن يتنازل له عن أرضه، ويزرعها له كمستأجر، ويقوم خدمة سيده وحاميه (patronus)، الذى يأخذ على عاتقه فى مقابل ذلك مسئولية دفع كافة الضرائب. وهكذا تحول المالك الصغير إلى مستأجر مربوط إلى الأرض، التى آلت حينئذ إلى غيره، أى أصبح "colonus adscripticius" لا يختلف وضعه فى الواقع عن أقنان الأرض.

ولم تكن الحكومة راضية عن انتشار نظام الحماية (patrocinium) فأصدرت المرسوم تلو المرسوم لحظره، ولكن من غير طائل. فقد كانت النواهى غير مجدية إزاء حالة الضيق الاقتصادى التى لم يكن هناك سبيل إلى علاجها. وأخيراً سلمت الحكومة فى عام ٤١٥م. بالأمر الواقع، فأصدرت مرسوما فى نفس العام ينص على أن يبقى جميع من اقتنوا أراضى قبل سنة ٣٩٧ بمقتضى نظام الحماية، محتفظين بها، على أن يتعهدوا بأداء كافة الالتزامات المفروضة على مؤاجريهم (coloni) وأن يلغى لقب «حامى» (patronus). وقد أكسب هذا

وتلتين ضيعه تسمى سكاتينا جمعيهم ارتدكسيون وكان الاب البطرك بطرس مدبر جميع احوالهم. فلما سمع شعب انطاكيه الارتدكسيون بما فعله اهل اسكندريه عمدو هم ايضا الى انسان اسمه تاوفانيوس فجعلوه بطركا عوض الاب المغبوط ساويرس واجلسوه في دير يعرف بدير امونيوس لان الهراطقه منعو الاساقفه الارتدكسيين ان يدخل احد منهم الى مدينة انطاكيه كما فعل باسكندريه. فكانا البطركان على هذه القضيه مقيمين فى

المرسوم المؤاجرين المربوطين إلى الأرض صفة قانونية، ولكنه لم يحل، كما قصد منه، دون تفشى نظام الحماية.

النظام الادارى الجديد:

فإذا ما بلغنا القرن السادس الحافل بالوثائق، يسترعى انتباهنا التغيير الإدارى الجديد، وأول ما نلحظه هو اختفاء المراكز (Pagi) التى كانت تنقسم إليها المنطقة الريفية (territorium) أو الاقليم (nomos)، والتى كان على رأس كل منها مدير يسمى (Praepositus) وأصبحت المنطقة الريفية كلها تؤلف وقتئذ مقاطعة واحدة (pagarchia) يدير شئونها المالية موظف يسمى پاجارك (pagarchês)، ومن المقطوع به أن هذا التغيير حدث فى القرن الخامس، وفيما يرجح على عهد الإمبراطور ليو الأول Leo I (٤٥٧ ـ ٤٧٤). ولم يكن إشراف الپاجارك يشمل، فى الأحوال العادية، كافة أنحاء المقاطعة، لأن ضياع كبار الملاك المتمتعة بحق جباية ضرائبها لم تكن تدفعها عن طريقه، وإنما لأمين خزانة الولاية (chrysônês) مباشرة. وقد منح نفس الحق لأديرة وكنائس عديدة وذلك بعد أن حرمت معابد الديانات المخالفة من أوقافها واملاكها. وكذلك لبعض القرى الكبيرة (وذلك دون شك لإيجاد نوع من التوازن بينهما وبين النبلاء الأقوياء. وكان الپاجارك موظفاً تابعاً للامبراطور، معينا من قبله، ومسئولا أمامه. ولم ت

ديرين خارجا عن مدينتهما. ثم ان بطرس بطرك مدينة اسكندريه اعتل وتنيح بعد ان اكمل سعيه وخدمته المرضيه لله. وكان مدة مقامه بطركا سنتين وكانت نياحته فى الخامس والعشرين من بوونه صلواته معنا امين.

داميانوس البطرك

[٥٦٩ / ٦٠٥م]

وهو فى العدد الخامس والتلتون

ولما تنيح الاب القديس بطرس اجلسو عوضا



الامبراطوره تيودورا والامبراطور جوستنيان. تفصيل من لوحة بالفسيفساء سنة ٥٤٧. كنيسة القديس فينالى. راڤنا

منه كاتبه داميانوس الشماس الراهب وكان قويا بالفعل والكلام، ونعمة الرب حاله عليه لانه كان راهبا من صباه داخلا فى برية وادى هبيب(*)، ورباه قديسوه فى دير ابى يحنس، واقام هناك ست عشره سنه يتعبد كعبادة السواح القديسين قبل ان يجى بهاناطون [دير طور تابور] اى دير الابا[ء] فى زمان عمارة الاربع ديارات بوادى هبيب، وكان بنيانها ينمو مثل نبات الحقل فى الامن والهدو واهلها ياتيهم جميع ما يحتاجون اليه، وكانو يبنون

(*) وادى هبيب: يسمى كذلك برية شيهات وهو اسم قبطى معناه ميزان القلوب. وتسمى كذلك اسقيط وهى قبطية تعنى دار النساك. واطلق عليها فى العصور المتاخرة وادى حبيب، وهو شيخ قبيلة بدوية من قطاع الطرق نزلت وسكنت فى ذلك الوادى.

تكن له سلطة على المدينة أو البلدية (civitas) التى لم تعد منذ انشاء منصبه، مسئولة عن الشئون المالية للمنطقة الريفية.

وقد حدث تغيير آخر فى الإدارة على جانب كبير من الأهمية فى عام ٥٥٤، عندما أصدر چستنيان (يوستنيانوس) (Iustinianus) مرسومه الثالث عشر، الذى وصلنا فى صورة مبتورة، وإن كان من الميسور استكمال مواده الرئيسية فى ضوء الجزء المتبقى. وكانت ولايات مصر، حسب تقسيم دقلديانوس، قد أدخلت عليها تعديلات كثيرة، وانفصلت فى عام ٣٨٢ عن الإدارة الشرقية (dioecêsis Orientis)، وأصبحت إدارة مستقلة بذاتها، وصار لوالى مصر، الذى منح لقب الأغسطس "Augustalis" السيطرة التامة على جميع البلاد. وقد ظلت نظرية دقلديانوس الخاصة بفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية مرعية حتى ذلك الوقت، ولكن حكومة چستنيان تخلت عن هذه النظرية عندئذ، فتمزقت بمقتضى التنظيم الجديد وحدة مصر لأول مرة: فلم يعد لوالى مصر الأغسطى "Augustalis"، أى سيطرة على الولايات الأخرى التى وضعت كلها تحت الاشراف المباشر لحاكم عام الشرق (praefectus praetorio per Orientem) وزود كل حاكم فى ولايته بسلطات عسكرية ومدنية: فقد انقسمت مصر (فيما عدا ليبيا) منذ ذلك الحين إلى أربع ولايات، متساوية فى المركز، وهى آيجوبتوس "Aegyptus" أى مصر [غربى الدلتا بما فى ذلك الاسكندرية] وعلى رأسها دوق (Dux) يحمل لقب الأغسطى (Augustalis)؛ وأغسطامنيكا "Augustamnica" [شرقى

مداومين. وكان معهم المليتيانيون اعنى اصحاب مليتيوس الذين كانو ياخذون الكاس دفعات كثيرا في الليل قبل ان يحضرو الى البيعه [يحتجو بذلك ان سيدنا له المجد قد فعله عدة مرات في العشا السرى ليلة الصلب ولم يقول هذا هو دمى الا فى اخر مره].

لجل [لأجل] هذا لما استحق الاب داميانوس البطرك الجلوس على الكرسى الانجيلى كتب الى الجبل المقدس وامر ان ينفى منه المليتيانيون.

الدلتا حتى الفرما والعريش) وعلى رأسها دوق؛ وأركاديا "Arcadia" [مصر الوسطى حتى البهنسا] ويرأسها كونت (Comes) ثم منطقة طيبة "Thebais" [من الأشمونين حتى أقصى الجنوب] ويديرها دوق يحمل هو الآخر لقب الأغسطى (Augustalis). وقسمت كل ولاية من الولايات المذكورة، فيما عدا أركاديا "Arcadia" إلى ولايتين فرعيتين على رأس كل منهما مدير ذو سلطات مدنية بحتة يسمى پرايسيس (praeses)، بمعنى رئيس أو حاكم.

أخطار تحدق بالامبراطورية: الغزو العربي:

في عام ٦٠٨، أعلن هرقل (Hêraclius)، حاكم إفريقية، الثورة على فوكاس (phôcas)، ذلك المغتصب المتحجر القلب الذى اغتال الإمبراطور موريس (Mauricius) بعد أن أطاح بعرشه. وكان هرقل نفسه رجلا طاعناً في السن، لا تسمح له شيخوخته بتحمل أعباء الإمبراطورية. وكان القدر قد كتب لابنه هرقل الأصغر أن يعتلى العرش. وقد وضعت خطة تقضى بأن يقوم نيكيتاس (Nicêtas)، ابن القائد الثانى لهرقل، بمحاولة غزو مصر، بينما يزحف هرقل الأصغر على سالونيك (Thessalonica). وتقدم نيكيتاس [من برقة] على الساحل الشمالى [لإفريقية]، واستطاع بعد قتال عنيف أن يستولى على مصر فى أواخر عام ٦٠٩. وكان هرقل فى تلك الأثناء قد عاد ادراجه، فأبحر فى سنة ٦١٠ متجها صوب القسطنطينية، وظهر اسطوله أمام المدينة فى ٣ أكتوبر من السنة عينها. واذ كان طغيان فوكاس قد ألب عليه السواد الأعظم من الشعب، فانه لم يمض يومان حتى وقع أسيراً في يد هرقل

ومن بعد زمان يسير جا صوت من السما على تلك البرية يقول الهرب الهرب، فلما خرجو اهل الاربعة ديارات منها خربت. ولما اتصل ذلك بدميانوس البطرك حزن جدا، وكان هذا الاب القديس البطرك منفردا فى دير طور تابور كما قلنا بديا [بداية]. وبطقس اسقف وحكمة الله الموهوبه له كان كتب اللوغس وهو كلام حكمه، وكتب ايضا مستاغوجيات خارجا عن الارتستيكات وعن القاتكسيسيات وكان اصحاب الهارسيس

الذى أمر بقتله. وهكذا آل اليه عرش الإمبراطورية. ولكن كان هناك فى الواقع من الأسباب ما يكفى لإثباط همته: فقد منيت جيوش الامبراطورية خلال السنوات الأخيرة بعدة هزائم وغزا خسرو (Chosroês) ملك الفرس، الإمبراطوية من الشرق، ولم تنقطع قبائل الآقار والسلاف والصقالبة عن تهديدها من الشمال، وحامت الشبهات حول إخلاص پريسكوس (Priscus)، القائد الاعلى للجيش، ونضبت الخزانة من نصف ما فيها، وتناقص عدد الرجال اللائقين للخدمة العسكرية تناقصا شديدا. وفضلا عن ذلك فقد خيم على كافة أرجاء الامبراطورية شعور باقتراب النهاية، وسرت فى أوصالها روح التخاذل والاستسلام.

وقد أخذت الأحوال فى بادىء الأمر تسير من سيء الى أسوأ برغم ما بذله هرقل من جهود مضنية، ولكن خسرو كان لا يفتأ يتوغل فى قلب الامبراطورية. ثم وقعت الطامة الكبرى وسقطت أورشليم فى ٦١٤. وغزا الفرس مصر واستولوا عليها ٦١٦، وكان معظم آسيا الصغرى قد سقط هو الآخر فى أيديهم وقتئذ، وأصبح فى وسع جنودهم أن يروا عاصمة الامبراطورية من الضفة الأخرى لمضيق البسفور متألقة على سفوح تلالها. وبدا كما لو كانت الامبراطورية مشرفة على الهلاك. ولو كان للفرس فى البحر أسطول فى قوة جيشهم، لسقطت القسطنطينية ولتجردت أوروبا من حصنها الشرقى المنيع. وفى ٦٢٢ عبر هرقل البحر الى آسيا الصغرى بعد أن وكل القسطنطينية فى حفل دينى لعناية المسيح ومريم؛ وقد انتهت حملته الموفقة بتحرير جميع أراضيها. ثم خرج فى ٦٢٣ غازياً فارس نفسها وأحرز انتصارات باهرة.

النجسه ياتون اليه يجادلونه على الامانه، وبنعمة الرب التى معه كان يحل موامرتهم مثل العنكبوت ويلطف بهم ويفهمهم بالاقوال العجيبه ويجعلهم مثل اخاب قدام ابينا ايليا النبى.

ولما كان في السنة التامنه من بطركيته وقع فى قلوب الذين لا راس لهم(*)، وكانوا يسكنون شرقى مصر، فكر شيطانى وكانو اربعة اقسا [قساوسه] قد فضلو من ذلك المجمع الطمث

(*) هم اتباع الاسقف يعقوب المصرى اصله من مدينة منفيس (بالجيزة) ذهب الى اسبانيا وتلمذ له أولا امرأة اسمها أجايا ثم جذبت تلك المرأة أحد معلمى الفصاحة اسمه

لكن فى ٦٢٣ ظهر خطر جديد عندما تدفقت جحافل الأفار من الشمال وحاصرت القسطنطينية براً وبحراً. وأشرفت الامبراطورية مرة أخرى على الهلاك وساد الذعر فى كل مكان، وبدا كما لو كانت العناية الربانية وحدها هى القادرة على إنقاذ المدينة؛ فانطلقت الدعوات من جميع الكنائس تبتهل الى أم المسيح أن تأتى لنصرة عبادها؛ وكان من بين كراماتها أنه بينما التهمت النيران كنائس القديسين كوسماس ودميان ونيقولا، فقد نجا معبدها فى بلاكرناى (Blachernae) من الدمار. واستجابت السماء للدعوات؛ فردت سفن السلاف على أعقابها وأغرقت، وتقهقر جيشهم شمالا. وفى ٣ أبريل عام ٦٢٨ وفدت على هرقل سفارة فارسية لتبلغه نبأ موت خسرو، واعتلاء ابنه العرش، ورغبة الفرس فى عقد الصلح. وقد نصت شروط الصلح على انسحاب القوات الفارسية من جميع أراضى الامبراطورية، وبذلك تم الجلاء عن مصر أيضا فعادت ادراجها الى حظيرة الامبراطورية البيزنطية.

وفى تلك الأثناء كان هرقل، رغبة فى تدعيم أركان الامبراطورية، قد بذل قصارى جهده لرد أقباط مصر إلى الكنيسة الكاثوليكية. وقد قبل مرضاة لهم بدعة أو الإرادة الواحدة (monothelêma) التى تقول ـ خلافا لمذهب الطبيعة الواحدة ـ إن للمسيح فى الواقع طبيعتين، ولكن له إرادة واحدة فقط. وقد اعتقد أن ذلك قد يؤدى الى التقريب بين أصحاب مذهب الطبيعتين وأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة (monophusitai). غير أن المصريين كانوا غير مستعدين للتفاهم؛ فقد انحصرت رغبتهم فى معارضة القسطنطينية. وفى ٦٣١ عين

فقالو: ماذا نصنع قد فنينا ولم يبق لنا اسقف فانهضو بنا نجعل واحد منا اسقفا ليلا [لئلا] يبيد ذكرنا من على الارض . ثم انهم اختارو اكبرهم وكان اسمه بارسنوفه فاخذوه التلتة اقسا وجعلوه اسقفا وسميت مقالته المخالفه كاسمه، فلما سمع اهل غربى مصر بذلك غضبو جدا لجل انهم فعلو ذلك ولم يشاوروهم. فافترقو منهم ولم يساعدوهم.وبهذا الحكم لم يكن لهم من يعمدهم ولا يقربهم ولا يصلى بهم، فوسمو الاخر

البيديوس وهذان الاثنان علما بريشيليانوس الذى سميت البدعة باسمه فيما بعد. أما تعليمهم فكانوا يقولون أن النفوس من جوهر الله وانها تنحدر باختيارها الى الارض جايزة في السموات السبع بواسطة درجات قوات للمحاربة ضد الملك الشرير الذى كان يضعها فى اجساد لحمية مختلفة.

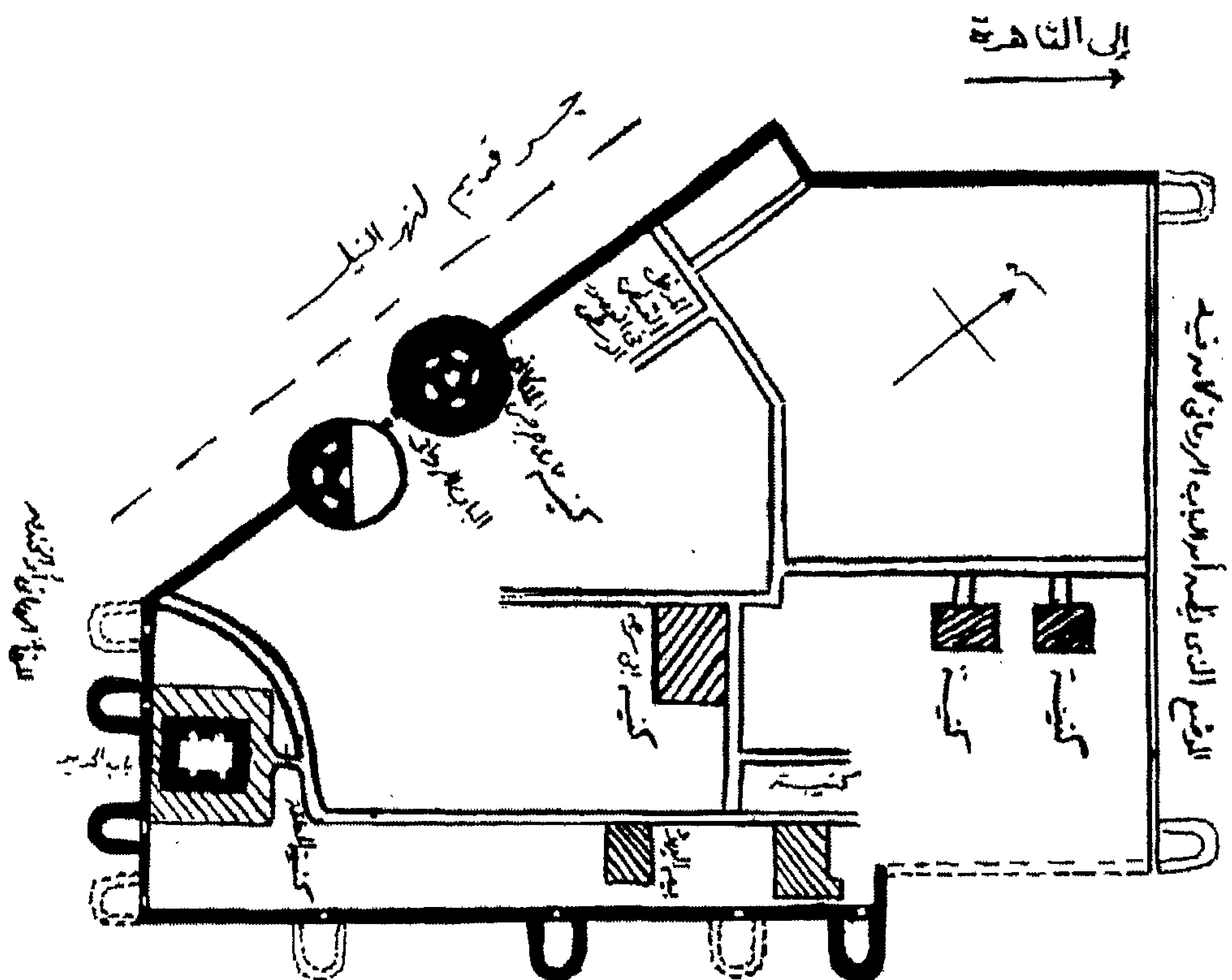
هرقل بطريركا على الاسكندرية وحاكما أغسطياً (Praefectus Augustalis) على مصر فى نفس الوقت، أسقفا يدعى قيرس Cyrus [المقوقس] وهو من الذين اعتنقوا مذهب الارادة الواحدة. ولم يكن هرقل موفقاً فى اختياره لان قيرس هذا، الذى تجعلنا قلة المصادر فى حيرة من شخصيته الغامضة، كان فيما يبدو رجلا ضيق الصدر. فلما وجد أن من العسير عليه استمالة الأقباط الى المذهب الجديد، أخذ يضطهدهم اضطهاداً رهيباً، مما نفر منه هؤلاء الذين أوفد ليعمل على استرضائهم، هذا فى وقت اشتدت فيه الحاجة إلى الولاء حيثما كان مستطاعاً.

وفى ٦٣٩ استطاع عمرو بن العاص، أحد كبار قواد العرب الذين قاموا بدور هام فى غزو سوريا، أن يحصل بعد الحاح من عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين، على إذن بغزو مصر.

ولم يكن فتح مصر على يد العرب معجزة كما يعتقد بعض الناس. صحيح أن عمرو لم يكن تحت إمرته سوى أربعة آلاف جندى عندما اجتاز الحدود، غير أنه تلقى من الخليفة قبل معركة هليوبوليس الحاسمة مدداً يبلغ حوالى اثنى عشر ألف رجل هذا غير آلاف البدو الذين كانوا فى جنوب الشام وسيناء والذين قدموا معه من أجل الغنائم. وقد بالغ المؤرخون كثيراً فى عدد القوات الرومانية التى يرجح انها لم تزد فى مجموعها عن حوالى ثلاثين ألف رجل، موزعين فى أنحاء البلاد بين الحاميات المختلفة، ولم يكن كثير منهم، فيما يرجح، جنودا من

لهم اسقفا. وكان الملك ذلك الزمان موريق وكان محبا للمال جدا وكان يطرد الارتدكسيين.

ولما تنيح الاب البطرك تاوفانيوس ومضى الى الرب عمد اهل انطاكيه الى رجل من كهنة البيعه اسمه بطرس فجعلوه بطركا وكان غليظ القلب مظلما فى افكاره مضطرب العقل مقاوما للامانه المستقيمه، كما قال الحكيم فى الله كيرلس البطرك القديس لجل اصحاب اناتوليوس «انهم مظلمو الافكار» ومن اجل الاتحاد الذى بين الكرسيين



حصن بابليون (قصر الشمع) نقلاً عن البقايا التى كانت موجودة عام ١٨٨٢م

كتب بطرس رساله سنوديقا(*) الى الاب داميانوس البطرك كما جرت العاده، فلما وصلت السنوديقا اليه فرح بها وجمع الاساقفه، وفيما هو يميز كلامه المنصوص فيها وجد فيه عثره فى الاعتراف بالثالوث المقدس، وطلب بحكمته ودعته ان يجذب اليه بطرس المذكور برفق حتى لا تنقسم البيعه و لا يفترق الاتحاد الذى بين الكرسيين، فكتب اليه ميمرا يذكر فيه جميع المخالفين والتعليم الذى وضعه ساويرس البطرك غرضا فى ان يفهمه

الطراز الأول، وفضلا عن ذلك كان من المستحيل تركيزهم بسرعة فى مكان المعركة، وقد ظهرت حينئذ العواقب الوخيمة لسياسة چستنيان فى تمزيق وحدة مصر وتخويل جميع حكام ولاياتها سلطات متساوية، إذ حصر كل منهم همه فى ولايته، حتى لقد قيل إن دوق طيبة، عندما سمع باقتراب العرب، جمع الضرائب على وجه السرعة وفر بها إلى الاسكندرية.

وبعد أن هزم عمرو الرومان عند هليوپوليس (Hêliopolis) ضرب الحصار على بابليون (Babylôn)، الحصن المنيع الواقع عند رأس الدلتا.

ولكن بابليون صمدت لهجومهم. وشرع عمرو فى مفاوضة المقوقس، الذى وافق على مشروع معاهدة تنص على استسلام الرومان. وسافر المقوقس إلى القسطنطينية ليعرضها على الامبراطور الذى رفضها على الفور وأمر بنفيه. ولكن هرقل كان فى ذلك الوقت يخطو الى قبره، فلما قضى نحبه فى ١١ فبراير ٦٤١، حالت الخلافات التى نشبت بين المجالس الامبراطورية دون إرسال الامدادات الى مصر، فسقط حصن بابليون فى ابريل ٦٤١، وزحف العرب على الاسكندرية ولاقوا فى طريقهم مقاومة شديدة من جانب جنود الامبراطورية الذين أبدوا على نقيض قوادهم روحا معنوية عالية. وكان المقوقس قد أعيد آنئذ الى منصبه، فوجد الاسكندرية نهباً للمنازعات، وقد تطرق اليأس بسرعة إلى نفوس أهليها، فعقد مع العرب معاهدة تنص على أن يدفع سكان المدينة الجزية، وأن تجلو القوات الرومانية عنها خلال أحد عشر شهراً، وأن تؤمن حياة المسيحيين واليهود. ولم يصل من القسطنطينية أى مدد فغادر

الامـانه ليـدبر عـقله، لان بطـرس قـال بحكمـتـه الربانيه ان لا حاجه الى ذكر الثالوث، وكانو معلمو البـيعه اجـمعـون وكـيـرلس الحكيـم ومن جا بعده الى ايام دميـانوس فى كتبـهـم يعتـرفـون بالثالوث المقدس انه تلت اقانيم، طبيعه واحده لاهوت وحد. خالق ليس فيه مخلوق، وانه مفترق بالاقانيم متحد بالجـوهر والاسم بوحـدانيـه، وان الله خـالـق النيـرين العظـيمين، فـالشـمس لسلطان النهـار والقـمـر النيـر

الجيش الامبراطورى ميناء الاسكندرية فى ١٧ سبتمبر ٦٤٢، ودخل العرب المدينة العظيمة فى ٢٩ من نفس الشهر، وقد بهرت أنظارهم بواكيها المرمرية وقصورها الفاخرة[*].

اليهود فى بنتابوليس (برقه)
قبل المسيحية

مقدمة

من الراجح ان اليهود قد بدءوا يتوافدون على ليبيا مع الاسكندر الاكبر، حينما زحف بجيشه على بمصر، من فلسطين (٣٣٢ ق. م.). وقد ازدادت أعدادهم باضطراد ـ فى مصر وبنتابوليس ـ فى عهد خلفائه البطالمة.

يروى المؤرخ اليهودى يوسيفرس ان بطليموس الاول (المدعو سوتير): «قد أرسل فريقا من اليهود، ليستقروا فى سيرين [سرينيكا]، لانه كان مهتما بتشديد قبضته عليها، وعلى مدن ليبيا «الخمس الأخرى»[1].

كما نقل يوسيفوس عن استرابون اشارته الى: «وجود جماعات منتظمة (Syntagmata) من اليهود فى سيرن». ونفهم من هذا النص بأن العناصر التى توافدت على بنتابوليس (فى

(*) انظر: هـ. آيدرس بل، مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى. ترجمة: د. عبداللطيف احمد على. دار النهضة العربية. القاهرة ١٩٦٨.

(1) Josephus, Antiquities of the Jews, II. 44.

الاصـــغــر لسلطان الليل، وكـــان الفــعل يســبق التسميـــه.

وقال الله: لتجتمع المياه ويظهر اليبس [اليابس] فسمى الله موضع اجتماع المياه بحور وسمى اليبس ارضـا، ان الفـعل يسبق التـسـمـيـه. وهكذا يجب عليك ان تفـهـم هذا ان طبـيـعـة الخـالق الواحـده الفاعله لكل شي. فمن الذى عرف ضـمـير الرب، و من كان له مشيرا، من يدفع له حتى يطلب منه العـوض، لان كل شي من عنده، والمجـد للشـالوث

النصف الأول من القرن الرابع ق. م) كانت على ما يبدو ذات صبغة عسكرية[١]، والـراجـح انهم كانوا من أسرى بطليموس الاول، نتيجة لغزواته المتكررة لفلسطين، ونجاحه فى السيطرة على سيرين، بعـد ذلك[٢]. ولم يحل وضعهم ـ كأسرى حرب دون استخدامهم كجند للحاميات[٣]وقيل ان أعداد هؤلاء قد وصلت الى نحو ٣٠,٠٠٠ يهودى، فى بنتابوليس[٤]. والغالب أن اليهود قد وجدوا فى سيرينيكا بيئة صالحة للحفاظ على الشريعة اليهودية، وهربوا اليها من محاولات الملك أنطيوخوس على حملهم على التأغرق[٥] والوثنية.

ويشـهـد الكاتب اليـهـودى سلوش (Slousch) بأن منطقة البنتابوليس كـانت لهـا أهمية كبرى، فى تاريخ بنى اسرائيل، عن بقية مناطق الشتات (Diaspora) الاخرى[٦] ، وربما يعنى

---

(١) كمال عبدالعليم دراسات فى تاريخ ليبيا القديم، ص١٧١.

(٢) ابراهيم نصحى، تاريخ مصر فى عهد البطالمة (١٩٦٠) جـ١ ص٦٦ ـ ٧٣ وراجع ايضا:

- Diodor Sicul., Xvlll, 18.

- Tichericover & Funks, Corpus Papyrorum Judaicarum (1957), vol, l, 2 seg.

(3) Josephus, Antiquities, xiv, 99.

(4) Morio Dall'Arche, Scomparsa del Cristianesimo, (Roma 1964) p. 29.

(5) Spadafora, Corpus lscriptionum Judaicurum del Vaticano (Roma 1915), tom. ll. p. 352.

(6)Slousch, Jewish Monuments & Judaism in Ancient Cyrenaica; an Appendix to the Report on the work of the commission sent by the Jewish Organisation, London 1909.

ـ (عن كمال عبدالعليم. المصدر السابق ص٢٠٨ حاشية رقم ٦).

المقـدس المسـاوى الكامل فى كل شى، الذى لا يقبل شيـا جديدا ولا اسمـا جديدا بالجمله، بل اساميه ثابته وافعاله معا.

هذا الكلام كتب به الاب دميانوس البطرك الى بطرس بطرك انطاكيه، وكان بطرس بطرك انطاكيه مثل الافعى الصمـا التى تسد اذنيـها فلا تسمع كـلام الحـاوى، ولا دوا يصنعـه حكيم. بل بقى مدمنا على فكره الضـال يعترف ويقـول بلسانه الذى يستحق القطع: مـا الحاجـه الى تسميـة

بذلك أهميتها كموطن لعدد كبير من المهاجرين، أو لانها كانت مكانا صالحا لممارسة شعائرهم الدينية بحرية، أو للقيام بأعمالهم المدنية (التجايرة)، لازدهارها حينذاك.

هذا وقد أكثر البطالمة الآخرون من ايفاد اليهود الى سائر مدن بنتابوليس، وخاصة طوكرة وبرنيس، على نحو ما تؤكده الشواهد الاثرية هناك. ومن مشاهير اليهود فى تلك الفترة «جاسون» (Jason) القوريني (القرن ٢ ق. م)، كاتب سفر المكابين الثانى(١).

وقد عثرت بعثة معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو على عملة من البرونز (من فئة الربع شاقل) بطلميتة (٢)، من النوع الذى اصدره سمعان المكابى بفلسطين (١٣٩ ـ ١٣٥ ق. م)، مما يؤكد وجود بعض اليهود بهذا الميناء التجارى الهام فى تلك المرحلة من التاريخ.

ومن قراءة الشواهد الخاصة بالقبور (Eqitaphs) اليهودية والاضرحة التى عثر عليها فى سيرينيكا، وخاصة فى مدينة طوكرة. يتضح لنا أن بعضهم قد ولدوا فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد، وقد استخدمت الشهور المصرية (القبطية) فى كتابة هذه الشواهد(٣)، كما نرى، من النماذج التالية، (وهي مترجمة عن اليونانية).

(1) Duchesne, Early Church History (London 1950), vol. 1. p. 350.

(2) Kraeling, op. cit. p. 268.
Gray, The Jewish Inscriptions in Greek & Hebrew at Tocra, Cyrene and Barca (1955) p. 43.

(٣) ظللت الشهور «القبطية» (المصرية) مستعملة فى سيرينيكا، حتى دخول العرب، وقد استمرت أيضا فترة طويلة الى أن حلت محلها الشهور العربية.

الثالوث. وكان يقسم الثالوث الغير منقسم، فصار بين المصريين والمشرقين خصومه بهذا السبب، واقامو هكذا عشرين سنه مختلفين بغير اتفاق حتى رحم الله شعبه الذى هو يهتم به فى كل حين وقصف عمر المخالف واباده من العالم.

وكان دميانوس البطرك المغبوط مهتما فى كل ايامه بما يقهر به المخالفين بكتبه وميامره واقاويله. وكان فى زمانه اساقفه يتعجب منهم ومن طهارتهم

أ ـ «فى السنة ١١ ، ٨٠ من (شهر) برمودة، جوليات ابنة نيكايوس، عمرها ٢٠ سنة». ويرجح الآن روى[١] (Rowe) ان السنة الحادية عشر هذه تحسب بعد معركة أكتيوم البحرية الشهيرة (٢١ ق. م.)، وعلى ذلك يكون تاريخ النقش سنة ٢١ ق. م.

ب ـ «السنة الرابعة، ٢٠ طوبة، ثيئودورا ابنة جيمالوس (غمالائيل) عمرها ٥٠ سنة» (ويرجع النص الى عام ٢٧ ق. م)[٢].

جـ ـ «السنة ٢٠ ، ٢٠ بؤونة، مارين ابنة كاسيوس ٧٠ عاما» (نحو ١١ ق. م)[٣].

د ـ «سنة ١١١ ، ٣٠ توت، اكسينيتا ابنة أريماس (احيرام أو ارميا) عمرها ٣٥ سنة[٤]، ويرجع هذا الشاهد لعام ٧٩م.

هـ ـ «السنة الثامنة (٨ أو ٣ من شهر) مسرى، غايوس بن ارتيوس عمره (...) ـ ويرجح الاثرى تود Tod ان هذا الاثر يرجع لعام ١٠٠م [٥] .

(1) Alan. Rowe, Cyrenaican Expedition of. Univ. of Univ. of Manchester (1952) p. 43.

(2) Idem., p. 44.

(3) Idem., p. 44.

(4) Idem., p. 44.

Cfr. Oliverio, Iscrizioni di Tocra, Documenti Antiche dell'A-Frica Ital. tom. II.

(5)Cyrenaican Expedition, Ibid. p. 44.

وفضلهم، فمنهم يوحنا البرلسى، ويوحنا تلميذه، وقسطنطين الاسقف، واكليستس، واخرون كثير مهتمون بكرم رب الصباو[ء]ت ولم يكن دميانوس البطرك يفتر من التعليم كل ايام حياته، ومن كترة صومه وصلاته ومجاهدته وتكميل سعيه اعتل وتنيح بسلام الرب بعد ان اقام بطركا ستاوتلتين سنه حافظا للامانه الصحيحه فى شيخوخه حسنه، ومضى الى السيد المسيح الذى احبه فى اليوم التامن عشر من بوونه.

هذا ونظفر بأدلة اثرية أخرى على وجود اليهود فى مدن سيرين [سرينيكا] وطليمتة وبرنيس. وقد وجدت فى الاخيرة جالية يهودية كبيرة وقوية، فى أوائل العصر الرومانى. فقد تم الكشف عن نقشين فى «برنيس»، يتضمن كلاهما قرارات أصدرتها الجالية اليهودية هناك، ويرجع القرار الاول الى عام ١٠٠م، ويتضح منه أنه كان لتلك الجالية سبعة «أراخنه» Archon ، والقرار الثانى اقدم عهداً (نحو ٢٥ ق. م)، ويفيد بأنه كان،يحكم الطائفة تسعة[1] أراخنة (كبار رجال الطائفة).

كما وجدت لوحة رخامية سنة ١٩٤٠ بشارع عمر المختار ببنغازى، أثناء حفر أساس أحد المبانى، وتسجل قائمة بأسماء مجموعة من اليهود المتبرعين لترميم «مجمع يهودى» Sinagogue عام ٥٦ م (فى عهد نيرون)، وهم ١٦ رجلا وسيدتين. ويحمل الاوائل لقب أرخون، أما الحادى عشر فقد حمل لقب «حبر»[2]. ومنها يتبين أنه كان هناك رجل دين كبير، لاقامة الشعائر الدينية الموسوية، كما تدل المبالغ الواردة فى القائمة على ثراء اليهود هناك فى تلك الفترة.

---

(1) Roux, Un Décret en Cyrenaique au Musée de la Pidaire de Carpentra, p. 286.

(عن كمال عبدالعليم، المصدر السابق ص٢٩ حاشية ١٤).

(2) Caputo, La Sinagoga di Berenice, in Una Iscrizione Greca inedita, La Parola del Passato, F. LIII (Roma 1957) p. 132-34.

انستاسيوس البطرك

[٦٠٥ / ٦١٦م](*)

وهو من عدد الابا السادس والتلتون

(*) يرى الفريد بتلر أن مدته كانت من يونيو ٦٠٤ إلى ١٨ ديمسبر ٦١٦.

والسيد المسيح نظر الى شعبه،اذ هو ريس الرعاه وهاديهم، واقام انسانا حكيما مزينا بالفضايل اسمه انستاسيوس من اهل اسكندريه من اقسا بيعتها عارفا بالكتب وحقيقه الامانه، فاجلس باحكام الله الغير مدركه على الكرسى الرسولى، وكان يصلح

وقد عثرت بعثة جامعة منشستر الاثرية عن آثار يهودية أخرى، منها مصباح عبرى، نقش عليه شكل «المنارة ذات السبع شعب» المقدسة(١)، الوارد وصفها فى سفر الخروج (٢٥: ٣١ـ ٤١)، بالاضافة الى عملة من فئة الربع شاقل(٢)، نقش على احدى وجهيها بالعبرية كلمتى «العام الثانى» (من الثورة اليهودية ٧٠م)، وعلى الوجه الآخر عبارة «خلاص صهيون».

كما اكتشف أثر اخر (بطوكرة)، يشير الى تمجيد جماعة من اليهود للحاكم الرومانى المدعو مرقس سيكستوس، لحسن ادارته (ويرجع لنحو عام ٢٤ أو ٢٥م)، وربما كان الهدف منه شكره على وقوفه بجانبهم، فى صدام ضد الاغريق هناك(٣).

كما أثبتت الدراسات الاثرية وجود عدد آخر من السكان اليهود بمدينة أبولونيا، فى العصر الرومانى الاول، وكان لهم فيها مجمع، يرجع أن مرقس الرسول تحدث فيه عندما نزل الى الساحل الليبى(٤) حيث كان من أهل هذه المنطقة.

(1) Rowe, Cyrenaican Exped. (Manchester 1959) p. 31.

(2) Oliverio, Iscrizioni Cirenaiche, in Quad. di. Arch. della Libia (Roma 1961) pp. 33-4, N. 7.

(3) Goodchild, Benghazi, op. cit. p. 3.
Romanelli, La Cirenaica Romana, p. 182.

(4) Oliverio, Carratelli & Morelli, Supplemento Epigraphico Cirenaico, in Ann. della scola Arch. di Atona (1961) tom. 39. p. 219.

الاسـاقـفـه والكهنه كـقـانون البـيـعـه. وكـان قـوى القلب يمضى الى المدينه فى كل وقت ويدخلهـا ويقسم فيهـا الكهنه. وقد ذكرنا فيـمـا تقدم ان الاسـاقـفـه الارتدكسيين كانو ممنوعين من الدخـول الى اسكندريه وكان يجذب اليه كتيرا من الشعب بحكمته لانه كان انسانا عالما معروفا بالتقدمه فى الديوان، وكـان قـسـا مـقـدمـا فى البـيـعـتين اللتين ذكرناهما اعنى الإنجيليون، وقزمان ودميان وديارات العذارى، واكثر الديارات، وبدا يبنى بيعه بعد بيعه،

وعلى ذلك ترى بعثة جامعة مانشستر أن المدن الساحلية (أبولونيا، بتوليمايس، وطوكرة، وبرنيس) كانت كمـراكـز تجارية أنسب من غيـرها لسكنى اليـهـود، لانهم اشـتـغلوا بالتـجـارة والاعمال الحرة، وكذلك أعمال الشحن والتفريغ فى الموانىء[١].

ويذكر جلوفر Glover انه نظرا لان اليهود كانوا يستقرون فى العواصم التجارية الكبرى، فقد استوطنوا ـ بأعداد كبيرة ـ فى سيرين، وعملوا على تطوير تجارتها[٢]، وكـان لهم بهـا مجمعا كبيرا.

ومن وثائق العصر البطلمى، يتضح ان البطالمة كانوا يمنحون جندهم المرتزقة اقطاعيات زراعيـة، فى مـصـر[٣]، ولا نستبعد أنهم فعلوا نفس الشيء بالنسبة للجنود اليـهـود فى ريف بنتابوليس. ومن الثابت أن هذه المنطقة كانت تضم عددا قليلا من المدن، وعددا كبيرا من القرى الكبرى، فوق هضبة الجبل الاخضر، التى ضمت عدة مساحات زراعية واسعة تابعة مباشرة لملوك البطالمة فى مصر[٤].

(1) Rowe, Ibid, p. 31.

(2) Glover, Life& Letters in the Fourth Century (1910) p. 321.

(٣) ابراهيم نصحى، تاريخ مصر فى عهد البطالمة (القاهرية ١٩٦٦) جـ٢ ص٤٩٢.

(4)Rostovtzeff; Social & EconomicHistory of the. Hellenistic Worid (Oxford 1960), p. 139.

واخذ البيعه التى هى بربوة اثارات، وبيعه على اسم ميكايل.

وكان له تعب عظيم من جماعة تيباريوس وابلساريوس اللذين صار عليهم اسم كيانوس واصحاب المجمع الخلقدونى الطمث، واخر كان يدعى اولوكيوس هذا كان حنق على الاب انستاسيوس جدا وكان يشتهى ان يوقع به كل الاسوا والعذاب فلم يسلمه الله في يديه.

وتشير البرديات البطلمية أيضا الى تشغيل اليهود فى الادارة المالية. وخاصة فى وظائف الحكومة، المتعلقة بجباية الضرائب، وادارة الاقطاعيات المملوكة للبطالمة، وقد أكد ذلك العثور سنة ١٩٠٩ على اثار لمستوطنات يهودية كثيرة فى قرى بنتابوليس[١].

ويقول الاستاذ د. كمال عبدالعليم: «... واذا سلمنا بذلك، فهذا يعنى أن اليهود كانوا يشكلون عنصرا هاما من عناصر سكان القرى المنتشرة فى ريف بنتابوليس»[٢]. وهذا يفسر ـ فى رأيه ـ انتشار المسيحية على نطاق واسع فى القرى (كما سنرى فيما بعد)، كما يفسر أيضا ظاهرة وجود «أساقفة قرى» بكثرة فى ريف سيرينيكا.

ومن المؤكد أنه كانت ليهود بنتابوليس صلة قوية بفلسطين، وبهيكل أورشليم، وكانت الزيارة سهلة، سواء عن طريق دلتا النيل، أو عن طريق البحر. وقد هاجرت أعداد من يهود ليبيا الى الارض المقدسة، فى القرن الاول الميلادى[٣]، واستقروا بها، ثم شيدوا لهم مجمعا فى أورشليم (أ ع ٦: ٩). ومن هؤلاء المهاجرين أسرة القديس «مرقس» الرسول.

---

(١) كمال عبدالعليم، المصدر السابق ص١٨١.

(٢) المصدر نفسه ص١٨١.

(3) Schurer, Gechichte des Judischen Volkes in Zeitalter Jesud Christi. (Leipzig 1909) vol. III, p. 79.

وفى تلك الايام قـام انسـان من الايوان ريس بطاركه اسمه فوكا وقتل الملك وجلس موضعه وفعل افعالا قبيحه، وكان محبا للشهوه افسد جميع بنات البطاركه ، وكان ميالا للشقاق بغير خوف، فلما علم هذا اولوكيوس وسمع خبره كتب في الاب انستاسيوس سعايه [دعوى] الى الملك [فوكا] مملوه كذبا وباطلا وقال: انه لما كرز انستاسيوس فى بيعة يوحنا المعمداني احرمه هو والملوك الغالبين والمجمع الخلقدوني، ولقد عجبت

ويذكر المطران سينسيوس الليبى أنه أحصى المسافرين معه، فى السفينة المتجهة من مدينة الاسكندرية الى بتوليمايس، فوجد أن نصفهم من اليهود، وكان منهم القبطان نفسه(١).

والخلاصة أن يهود بنتابوليس قد تغلغلوا فى كافة أوجه النشاط الاقتصادى، واتصلوا بغيرهم من الدول الاخرى، فى حوض البحر المتوسط، وقد ساعدهم فى ذلك اتقانهم للغة اليونانيية، واستعمالهم الزى، والاسماء الاغريقية(٢).

أما بالنسبة للوضع الاجتماعى ليهود سيرينكا فى تلك الفترة: فقد روى المؤرخ يوسيفوس عن استرابون قوله: «ان سكان سيرين (اليهود)، فى عهد أغسطس قيصر (٣٠ق. م - ١٤م)، كانوا يشكلون جالية مستقلة واضحة عن غيرها(٣). ويذكر الاستاذ البرغوتى أنهم لم يكونوا قد اكتسبوا بعد حقوق المواطنة الكاملة (الجنسية الرومانية)، ويؤيد هذا الرأى، ان الامبراطور كراكلا قد منح هذا الحق لليهود رسميا سنة ٢١٢م(٤).

هذا وقد تمتع اليهود - دون سواهم من الاجانب - ببعض الامتيازات الطائفية(٥) منذ عهد

(1) Synesius, Epist. 4.

(٢) ابراهيم نصحى، المصدر السابق، جـ٢ ص١٥١.

(3) Josephus, Antiquities, xiv, vll, vll, ll, p. 295.

(٤) البرغوتى، المصدر السابق ص٤٠٤ - ٤٠٥.

(5) Cambridge Ancient History, Vol. xl, p. 671.

إذ لم تجف العيون والمياه. هذا كتب به الى الملك ليثير على الارتدكسيين البلا. فلما سمع فوكا المتغلب على الملك هذا قلق، وكتب الى الوالى الذى باسكندريه ان ياخـــذ من الاب البطرك انستاسيوس بيعة قزمان دميان وجميع رباعها وكلما لها ويدفعها لاولوكيوس الضال، فاخذو البيعه، وحزن الاب انستاسيوس المغبوط وعاد الى الدير بحزن شديد وتنهد عظيم، وكان يشتهى ان يجمع الله اعضا البيعه التى فرقها الشيطان، اعنى

يوليوس قيصر، بسبب مساعدتهم له، فى حروبه ضد مصر. ومن هذه الامتيازات اشتراكهم ـ كأعضاء ـ فى مجلس الشيوخ الرومانى (Senato) كما أصبح لهم نفس حقوق الاغريق، فى التمثيل فى المجالس المحلية، واصبحت لهم مؤسساتهم الثقافية المستقلة. وقد عثر على نقش بسيرين، يرجع الى عهد المسيح، ويتضمن قائمة بأسماء أعضاء (منظمة رياضية للشباب اليهودى)[١]. .وبذلك اكتسبت الجالية اليهودية ـ فى كل مدن سيرينيكا ـ صفة الثبات والاستقرار[٢] الى أن قرر هؤلاء الثورة على الرومان، أسوة بزملائهم فى فلسطين، فحل بهم الهلاك، وفقدوا امتيازاتهم.

وقد سمح الرومان للقائمين بالاشراف على الجالية اليهودية فى بنتابوليس بتحصيل العشور التى حددتها التوراة[٣]، وكانوا يداومون على ارسالها الى هيكلهم بأورشليم، كما قال يوسيفوس، الذى يشير أيضا الى السماح لهم بتطبيق الشريعة الموسوية على أحوالهم الشخصية، منذ عهد البطالمة[٤].

---

(1) Mario dall'Arche, Scomparsa del Cristianesiom, p. 30.

(2) Romanelli, La Cirenaica Romana, p. 39.

(٣) راجع سفر الخروج ٢٣ : ١٩. ونحميا ١٠ : ٣٣ ـ ٣٤.

(4)Josephus, ibid, xlv, p. 214.

Juster, Les Juifs dans L'Empire Roman (1914) p. 378.

فرقة انطاكيه واسكندريه التى كان سببها بطرس بطرك انطاكيــه فسمع الله صلواته ومات بطرس المذكــور وجلس عــوضــه على كــرسى ســاويرس بانطاكيـه انسان راهب قس عالم اسمه اتناسيوس حكيم جـدا طاهر القلب، وهو الذى قال مـيـمـرا يذكر فيـه القديس ساويرس، وكلمن قراه علم ان السيد المسيح معه وحكمته فيه.

فلما سمع الاب انستاسيوس بجلوس اتناسيوس بطركـا على كـرسى انطـاكيــه سبق وكـتب اليـه

الثورات اليهودية في بنتابوليس ونتائجها:

أ ـ نقل يوسيفوس عن استرابون روايته بأن الدكتاتور الرومانى سيلا (تولى الحكم عام ٨١ ق. م) قد بعث بقوة حربية بقيادة لوكللوس Locullus، لاخماد فتنة قام بها يهود سيرين. ولكن المؤرخ بلوتارك Plutarch، وهو أقدم عهدا من استرابون، يشير الى هذه الحادثة دون ذكر لليهود[١]، ويروى أيضا ان هذا القائد جاء يطلب سفنا حربية، يستعين بها على حماية السفن التجارية، من القرصنة التى سادت الساحل الجنوبى للبحر المتوسط، فى تلك الفترة. وهو أقرب الى الحقيقة فى نظر الكثير من الباحثين[٢] وبالتالى لا نعتبرها الثورة اليهودية الاولى، طبقا لرواية استرابون، المجافية لحقيقة.

ب. الثورة اليهودية الأولى (٧٠م)

اضطربت العلاقة بين اليهود والرمان فى فلسطين بسبب امعان الرومان فى اذلالهم، على أساس انهم شعب مغلوب[٣]..وقد أجبرهم الرومان على دفع «ضريبة» للاله الوثنى «جوبتر»، ابتداء من سن الثالثة (Denarii Judecorum) كانت فى الاصل هى «العشور» (نصف

(١) البرغوتى، ص٤٧، وكمال عبدالعليم، المصدر السابق ص١٨١، ١٨٢.
(٢) البرغوتى، الصمدر السابق ص٤٧، وكمال عبدالعليم، ص١٨٢.
(٣) البرغوتى، ص٤٠٩.


مارى مرقص

سنوديقا مملوه حكمه وجعله فيها شريكا له واخا وصاحبا ومدبرا، غرضا فى الامانه واصلاح ما افسده بطرس الضال المتوفى وجميع اسرايل الروحانى قطيع واحد وتوحده لكى تاخد اكليل الشهاده والاتحاد.

وكان اتناسيوس ارضا جيده مثمره، فقبل البذر الروحانى بفرح واخذ السنوديقا الواصله اليه وجمع الاساقفه الذين فى كرسيه وقال لهم: اعلموا ان المسكونه اليوم تفرح بالسلامه والمحبه

الشاقل) التى كانت تدفع لهيكل أورشليم. مما عده اليهود نوعا من الامتهان لكرامتهم، والاحتقار لدينهم(١).

فثاروا فى الارضى المقدسة، ضد روما، ثم اندلعت ثورة مكثفة فى مدينة أورشليم سنة ٧٠ م (وقدساهم فيها يهود من سيرين). وقد نجم عنها خراب الهيكل، وموت عدة آلاف، وتشتت اليهود فى العالم، كما فر بعض غلاة اليهود الى سيرين، وعلى رأسهم ثلاثة من أبناء رئيس الكهنة، المدعو اسماعيل، وهناك لقوا مصرعهم شنقا، طبقا لرواية يوسيفوس(٢).

وكان من هؤلاء الفارين ـ الى بنتابوليس ـ يهودى متعصب يدعى «يوناثان (Jonathan) النساج. وقد أثار ثائرة اليهود فى سيرين، مناديا بضرورة الثورة ضد الرومان، لانقاذ فلسطين من يدهم (ولم يغفر اليهود للرومان ما فعلوه بمدينتهم المقدسة، وكانوا بذلك معبئين للشرارة، التى أشعلها يوناثان، ويقول يوسيفوس انه حرض الطبقة الوسطى بالذات، (دون الأغنياء)، ونجح فى استمالة عدد ليس بقليل، وقادهم الى جوف الصحراء الليبية، بزعم أنهم سيريهم بعض الظهورات الالهية (apparitions).

(1) Tchericover & Funks, Corpus, Corpus Papyrorum Judalcarum (Tlervard Univ. 57) vodl. l, p. 81.

(2) Josephus, Wars of the Jews, vll, xl, pp. 604-5.

لان الظلمه الخلقدونيه قد جازت وقد بقى هذا الغصن الواحد المنير المثمر من الكرمه الحقيقيه الذى هو كرسى مرقس الانجيلي وكورة مصر، وقد كنا نحن مختلفين مبددين من بعد البطرك ساويرس الذى كان لنا مرشدا وطريقا للخلاص، وقد عرفتم ان بطرس الرسول ومرقس الانجيلى كانت بشارتهما واحده وبها كانا يبشران، وكذلك ساويرس وتاودوسيوس ان لهما امانه واحده واتحاد واحد وصبروا على النفى والجهاد الى التمام.

الا أن بعض الشخصيات اليهودية، التى خافت على ثروتها، ابلغت لحاكم كاتوللوس (Catollus). فأرسل لهم الفرسان والمشاة، وقهرهم حيث هم، ثم استدار الى أثرياء سيرين، من اليهود، وقتل منهم نحو ثلاثة آلاف، وصادر أملاكهم، واستطاع أن يقبض على يوناثان، وساقه مقيدا الى روما. الا أنه اراد أن يفر من قدرة المحتوم، فزعم ان بعض كبار اليهود، فى روما والاسكندرية وأورشليم (ومنهم المؤرخ يوسيفوس نفسه)، هم الذين حرضوه على الثورة ضد الرومان. وبعدما ثبت كذب دعواه، أحرقه الامبراطور الرومانى فيسبيان حيا[1]. وبذلك وضعت هذه الثورة حدا لما تمتع به اليهود ـ سيرينيكا ـ من امتيازات، خلال الفترة السابقة، من العهد الرومانى الاول.

جـ. الثورة اليهودية الثانية (١١٥-١١٧م):

لا شك أن اليهود قد حولوا الانتقام من الرومان، بأية وسيلة، بعد تخريبهم لهيكلهم بالقدس سنة ٧٠ م، ودفنوا غيظهم فى قلبهم، منذ أن انتقم الرومان من يهود سيرينيكا، فى ثورتهم ضدهم. بالاضافة الى حقدهم الشديد على منافسيهم، من اغريق بنتابوليس. ونلمس ذلك مثلا فى كتابات سينسيوس، الذى نقرأ قوله (عن اليهود): «انهم مقتنعون تماما بأنه

(1) Josephus, Wars, op. cit. Vll, xl, p 505.
Hyslop & Applebaum, Cyrene, pp. 9 - 10.

فلمـا سمع الابا الاسـاقفه كلامه فـرحـو جـدا واتفقـو على قبـول السنوديقا وان تكون البيـعتـان واحده ويكون البطركان روحا واحده وسراجا منيرا للارتدكسيين. فقام المغبوط اتناسيوس واخـذ معه خمسة اساقفه فضـلا[ء] معلمين وسار في مركب الى اسكندريه، فلمـا وصلو اعلمـوهم ان الاب انستاسيوس البطرك في الديارات فخرجو اليه، فلما سـمع ان بطرك انطاكيـه قـد جـا [ء] اليـه جـمع الاسـاقفـه والكهنه والرهبـان وقـام بتـواضع كـثيـر

ينبغي ارسال جميع الاغريق الى الجحيم»، ويضيف رأيه الشخصي، بقوله: «انهم جنس خال من النعمـة[1]. ويوضح هذا النص وجود عداوة بين اليونايين واليهود، الذين كانوا ينافسونهم في التجارة، وفي الحرف الاخرى، في بنتابوليس، حتى هذا الوقت المتأخر.

وقد انتهز يهود سيرين فرصة انشغال الامبراطور تراجان، في حربه ضد مملكة بارثيا (قرب بحر قزوين)، وقيامه بسحب بعض الحاميات من ليبيا (سنة ١١٥ م)، لتعزيز قواته في آسيا، وانفجروا في غضبهم ضد الرومان في سيرينيكا.

وقد بدأت هذه الثورة على شكل «فتنة» (Statis)، لا تخرج عن كونها صداما عاديا بين اليهود وجماعة من الاغريق، كما كان يحدث مرارا. ولكنه سرعان ما تطور الموقف الى «حرب حـقـيـقـيـة» (Polémos)ضد الحكومة الرومانية نفسها. وكان زعيمـهـم «اندرية Andreas» (حسب رواية دوكاسيوس)[2]، أو «لوقا» Lucas (حسب ما ذكره يوسابيوس القيصري)[3]، قد استطاع الاستيلاء على سيرين واستباحها أتباعه، الذين ظنوه المسيح المنتظر، فأطاعوه طاعة عمياء.

هذا وقد أخبرنا المؤرخ «ديوكاسيوس» ان تراجان قد ارسل قائده «تيربو» Turbo على رأس

---

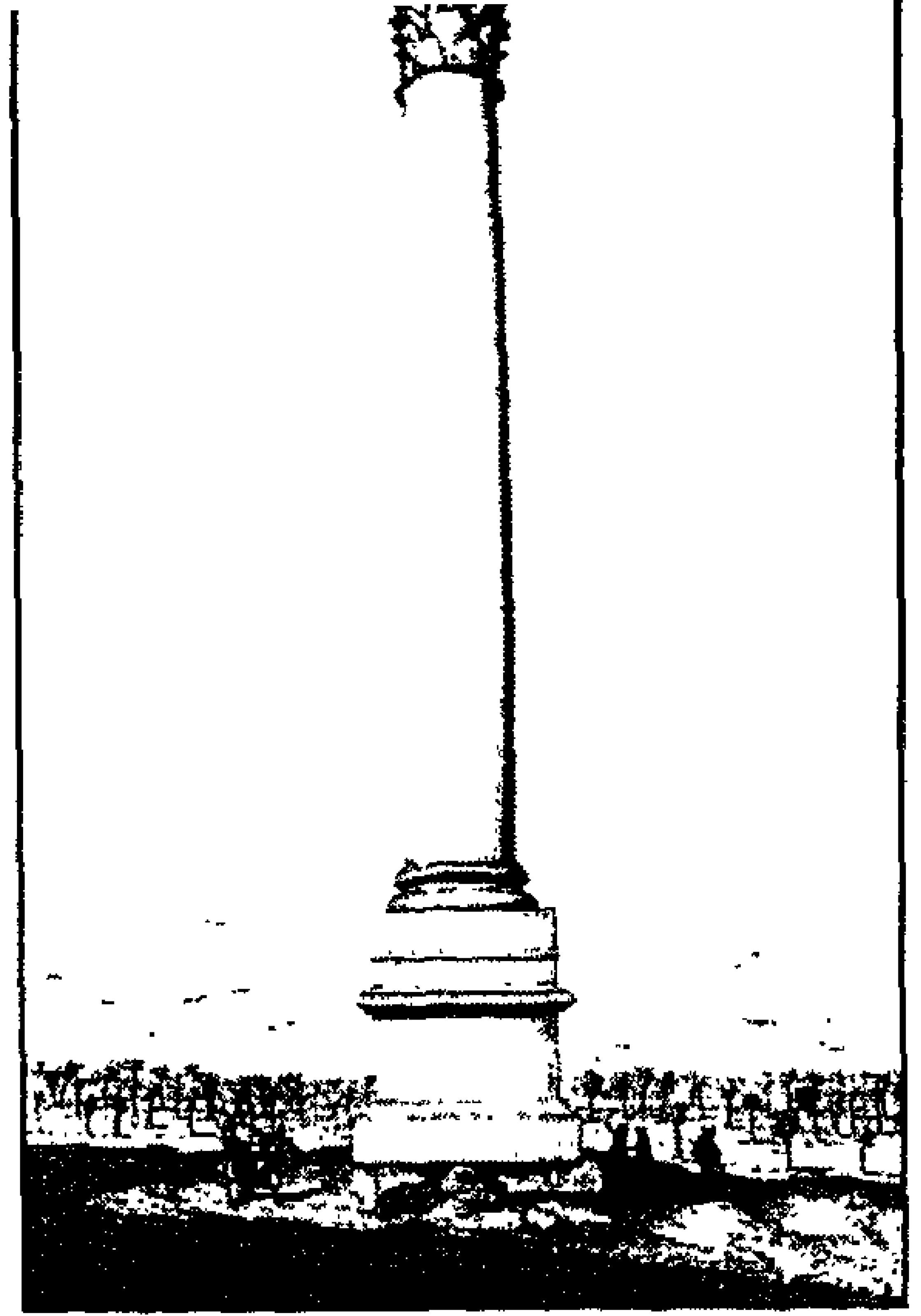
(1) Synesius, Epist. 16.

(2) Dio Cassius, Mistory, Lxlll, 32,20

(3) Eusebius, Eccles. History, lv. 2, 116.

عظيم وخرج ماشيا حتى تلقاه بالقراه [بالقرأة] والتسبيح والفرح والبهجه، ودخلو جميعا الى الدير الذى هو [على] ساحل البحر شرقى بحرى الديارات وجلسو فيه هناك بسلامه وفرح، وانفذ الاب انستاسيوس للوقت واحضر كهنة اسكندريه كلهم ليحضرو اجتماع الابا وليكملو القداس معهم ويتناولو من السراير المقدسه.

وتكلم اتناسيوس فى ذلك الجمع بكلام عجيب مملو حكمه حتى تعجب كلمن كان حاضرا. ثم



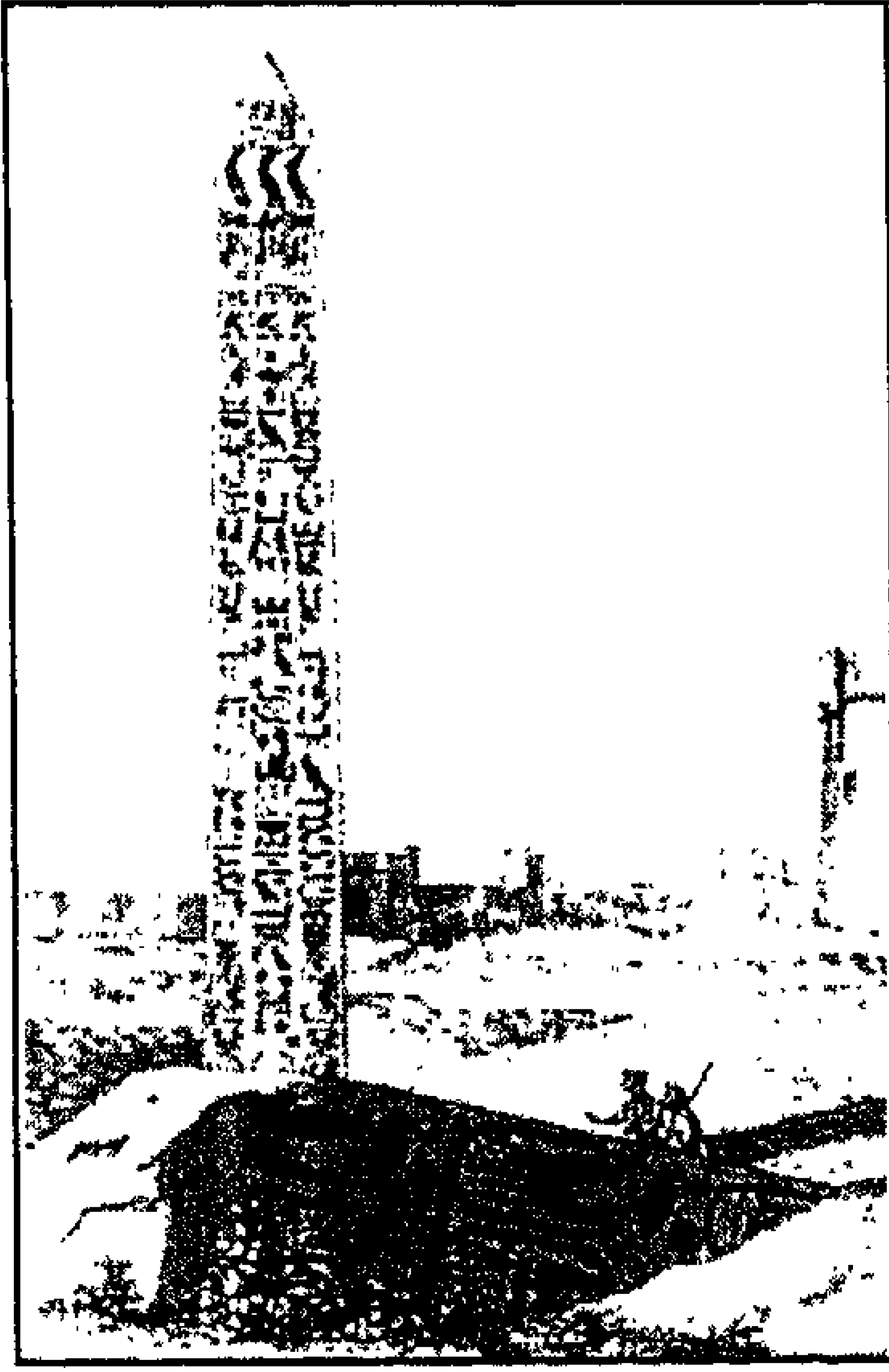
عمود بمبى بالاسكندرية
(رسم من القرن ١٨)

حملة ضخمة، نزلت فى ميناء أبولونيا، ولكن الثوار اليهود استطاعوا أن يقطعوا عليها الطريق، وتحصنوا على مشارف سيرين، حيث دارت معركةرهيبة ولكنه أمكن ـ فى النهاية ـ التغلب على الثائرين، والتنكيل بهم، واعادة المنطقة مرة أخرى الى سيادة روما (سنة ١١٧م).

ويذكر ديوكاسيوس أن الرومان قتلوا ٢٢٠,٠٠٠ يهودى فى سيرين[١] !!، وهو رقم كبير جدا بلا شك، والراجح ان هذا العدد قد قتل فى كل أنحا بنتابوليس، استنادا الى قول المؤرخ الرومانى أورسيوس بأن «الثورة قد عمت كل ليبيا»[٢]، ومن الجدير بالذكر أن هذه الثورة قد امتدت ايضا الى مصر وقبرص، وأماكن اخرى لتجمعات اليهود فى مناطق الشتات).

وهكذا نشر اليهود الذعر فى الجبل الاخضر كله، وخربوا معظم المنشآت الاغريقية والرومانية فى سيرينيكا. ويرى الباحثون[٣] أن المنطقة كان يمكن أن تظل مجرد صحراء

(1) Dio Cassius, op. cit., l. Lxlll, p. 1148.
Goodchild, Cyrene, op. cit. p. 21.
Salomn, History of the Roman World (1936) p. 289.
Gibbon, op. cit. ll, p. 73, note l.
(2) Orosus, History, Vll, 126, quoted by Applebaum, The Jewish Revolution, pp. 180-2.
(3) Alexander Funks, Aspects of the Jewish Revolt, A. D. 115-17, in the Journal of the Roman Studies, LXVIII (London 1961) pp. 28-104.


احد مسلات كليوباتره بالاسكندرية
(رسم من القرن ١٨)

قال: فى هذه الساعه يا احباى [احبائى] يجب ان ناخذ قيثارة داود ونرتل بصوت المزمور ونقول بالرحمه والحق تلاقيا اتناسيوس وانستاسيوس [و] قبلا بعضهما بعضا. الحق من ارض مصر ظهر، والبر من الشرق اشرق وصارت مصر والشام مقاله واحده، وصارت اسكندريه وانطاكيه بيعه واحده وعدرا واحدة لعريس واحد طاهر نقى هو الرب يسوع المسيح الابن الوحيد كلمة الاب.

قاحلة، بعدما قتل معظم مزارعيها، لولا قيام الامبراطور هدريان (١٣٤ م) ببذل جهود كبيرة فى محاولة لتعميرها واصلاحها.

وقام ببناء مدينة جدية سميت باسم «Hadrianopolis» على بعد ٢٩ كيلو مترا شمال بنغازى) وأسكن فيها جنوده المسرحين من الحرب. وقد عثر على نقش فى أبولونيا (حاليا بمتحفها)، يخاطب فيه أهلها الامبراطور الرومانى بـ«معمرى ليبيا»، ومعنى ذلك أنه أمر ـ كما يقول البعض ـ باحلال عناصر جديدة من السكان فى أبولونيا، بدلا من الذين ماتوا من اليهود، والسكان المحليين، ويؤيد ذلك العثور على نقش أثرى آخر، يفهم منه أن ثلاثة آلاف من الجند والرومان من الفرقة السيرينية الثالثة قد سكنوا سيرين[1]. ولذا كان من المنطقى أن نجد على نقود هدريايت عبارة «مصلح ليبيا» (Restituter-Libyae).

(1) Applebaum, Hadrian & Cyrene, p. 87.

(عن كمال عبدالعليم، المصدر السابق ص٢١٦ حاشية رقم ١٦٨).

Kraeling, op. cit. p. 17.

Goodchil, Roman Milestones in Cyrenaica, in the Papers of the Brit. School at Rome, XVII (1950) p. 89.

Stucchi, L'Agora di Cirene (Roma 55), pp. 221-2.

Gra, Cyrenaican Exped. of Univ. of Manchester, (1953) p. 143.

واقام الاب اتناسيوس عند الاب انستاسيوس شهرا واحدا ينظران كلاهما فى الكتب المقدسه والكلام المربح ويتكلمان على ذلك ويتحدثان فيه. ثم عاد الى كورته بسلام وكرامه عظيمه.

ومن ذلك اليوم صار الاتفاق بين كرسى انطاكيه وكرسى اسكندريه الى يومنا هذا. وكان الاب انستاسيوس مهتما بامور البيعة يحرص عليها،و بالعلوم الروحانيه لان [لأن] الرب انعم عليه بهدو.



تميمة مصرية لصلب المسيح بين اللصين (من القرن ٦ ـ ٧)

وقد لاذت بقية اليهود الناجين ـ بعد فشل ثورتهم ـ الى خارج حدود سيرينيكا، بينما التجأت أعداد محدودة منهم، من المدن الخمس، الى ريف برقة، بناء على عدة شواهد أثرية. فقد عثرت بعثة جامعة مانشسترسنة ١٩٥٢، على حجر، ارتفاعه ١٠٣سم، تدل كتابته على أنه شاهد مقبرة يهودية (ويوجد حاليا بمتحف سيرين)، ونصه العبرى يترجم هكذا: متان بن الرابى سليمان، ليت (روحه) تستريح فى أرض الاحياء، ليته يقوم سريعا، من بين الاموات»[1] ويعتقد الاثرى روى (Rowe) انه يرجع للعصر الرومانى المتأخر (أوائل القرن الرابع). كما عثر أيضا على نص مشابه لشخص يهودى، يدعى (حسان بن الرابى اسحق»[2]، ويرجع ايضا لفترة متأخرة (سنة ٣٠٠ م).

وقد قطن بعض اليهود، فى مدينة منعزلة، تدعى «بوريوم» جنوب بنغازى، (على خليج سيرت)، وقد أفادنا المؤرخ البيزنطى «بوركوبيوس»» ان الامبراطور جستنيان حول مجمعهم، الذى كان بها، الى كنيسة، بعدما آمن يهودها بالمسيحية، وكان ذلك فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى.

وقدهرب يهود سيرينيكا الى الواحات الليبية الجنوبية، والى بقية الشمال الافريقى. وقد أشار

---

(1) Rowe, Cyrenaican Expedd. p. 57.

(2) Idem. p. 57.

ومن اول سنة جلس على الكرسى بدا من اول الحروف AB وجعله اول حرف يكتب به فى كل سنة فى كتاب مستاغوجى وسنوديكا وستاتيكا وارتستكا وميمر.

واقام على الكرسى اثنتى عشره سنه ضابطا الامانه المستقيمه الارتدكسيه وكتب فيها اثنتى عشر كتابا. فلما كان فى اربعين يوم ا لصوم لذى للميلاد نظر السيد المسيح اليه المتفقد للمومنين به صانع

ابن خلدون إلى وجود قبائلى يهودية بين البربر[1] (مثل قبائل الكاهنة، وزناتة، ونفوسة، وبهلول)، وقد أسهمت فى مقاومة الفتح العربى، فى شمال افريقيا[2]، وقد ذكر المؤرخون العرب الكثير مما عاناه الفاتحون المسلمون من الزعيمة اليهودية، التى تدعى «كاهنة» (فى منطقة تونس).

ومن ناحية أخرى، فان الباحثين يرون ان هولاء اليهود الفارين، قد التجأوا الى القبائل البربرية المناهضة للرومان، فى جوف الصحراء الليبية، وأسهموا فى تنظيمها وتدريبها على مقاومة الرومان، لفترة طويلة من التاريخ[3].

وكان تقارب العادات بين اليهود والبربر سببا فى وجود علاقات تزاوج بينهما. وقد نجحت الجاليات اليهودية، فى نشر الشريعة الموسوية بين البربر، فى وقت مبكر، وهذا يفسر لنا ظاهرة أشتراك أعداد كبيرة من الثوار، فى الثورة اليهودية الثانية،فى بنتابوليس[4]، وبالتالى يقرب الى الاذهان الارقام الكبيرة، التى قضى عليها الرومان، فى اخمادها.

(1) Romanelli, p. 222 & Mario dall'Arche, p. 34.

(2) Wrught, The Nations of the Moodern World (1969) p. 70.

(٣) البرغوتى، المصدر السابق ص٤١٥، ومحمد سليمان أيوب، المصدر السابق ص١٨٨.

(4) Oric Bates, The Eastern Libyans, p. 208, 237.=

العـجـايب في قـديسـيـه واراد ان ينقله الى كـورة الاحيا الى الابد فتنيح في التانى والعشرين يوما من كـهـيك سنة تلتـمـيـه وتلتين لديقـلاديانوس قـاتل الشهدا الابرار شفاعتهم معنا امين.

ويبدو من كتابات المؤرخين والجغرافيين العرب انه قد وجدت اعداد قليلة من اليهود، في المدن الليبية (برقة)، بعد الفتح العربى. فقد قال الادريسى (١١٥٥م): «ان أغلب سكان أجدابية (جنوب بنغازى) من اليهود، والمسلمين التجار»(١). وذكر الرحالة ابن سعيد (١٢٨٦م) «ان بدرنة جالية يهودية، وكلهم على جزيتهم»(٢).

ويقول أبو الفدا: «ان طلميتا مرسى برقة على البحر، وعلى طرف الغابة (الجبل الاخضر)، وهى فرضة مشهورة، وبها قصر فيه يهود، تحت خفارة العرب، ومنها تحمل المراكب الشعير والعسل الى غيرها. وقصر اليهود المذكور على هيئة برج كبير، وعدة اليهود الذين به الى يومنا هذا (أى عام ١٣٣١ م)ما يزيد عن مايتى يهودى. وطلميتة عن الاسكندرية على نحو مسافة شهر، والمراكب ترسى قبالة قصر اليهود، وبالقرب منه، وتحضر العرب، وتبايعهم بالبضائع مقايضة.

= وفى «تلمود أورشليم» نجد مناقشة بخصوص الليبيين (البربر) المتهودين حديثا، وكان السؤال المطروح للمناقشة يتعلق بالمدة التى يجب أن تقضيها العائلة البربرية فى تفهم وتعلم العقيدة اليهودية قبل أن يوافق على قبولها.

Jerusalem Talmud, Killim, vVlll, and Sabbath, V. quoted by Bates, Ibid. p. 208.

(١) الأدريسى، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، جـ٣ الاقليم الثالث، فصل ٩٩.

(٢) ابن سعيد، بسط الأرض بالطول والعرض، فصل ٨٠.

اندرونيكوس البطرك
[٦١٦ / ٦٢٢م (*)]
وهو السابع والتلتون من العدد

(*) يرى الفريد تبلر أن مدته كانت من ديسمبر ٦١٦ إلى ٣ يناير ٦٢٣.

فلما تنيح انستاسيوس اجلسو على الكرسى إنسان عالما شماسا من كتبه الانجيليون بتولا كاتب اسمه اندرونيكوس، وكان غنيا جدا يحب الصدقه، مقدما فى الشعب محبا للرحمه لا يفتر من الاعطا وكان اهله مقدمى المدينه حتى انهم ولو ابن عمه ديوان اسكندريه. ومن اجل قوة سلطانه

فى تواريخ الغزو الفارسى لمصر

مما يشك فيه أن نستطيع اليوم أن نعرف على سبيل البت تاريخ الحوادث المتصلة بالفتح الفارسى لمصر فقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن ذلك الحادث كان بعد سنة ٦١٦ للميلاد. ويقول (جلزر)، وقد كتب رسالة غزيرة العلم عن هذا الأمر "Leontius Von Neopolis" صفحة ١٥١) إن الاسكندرية لا يمكن أن يكون فتح الفرس لها قبل سنة ٦١٩ وهو يخالف فى ذلك رأى (فون جوتشمت) الذى يذهب إلى أن ذلك الحادث كان قبل ذلك بسنة أو سنتين.

والحجج التى يوردها(جلزر) هى كما يلى: أن تيوفانز يجعل الفتح الفارسى فى سنة ٦١٦، ويقول ابن العبرى إنه كان فى السنة السابعة من حكم هرقل آخذا ذلك عن البطريق ميخائيل إذ يقول(طبعة بيت المقدس صفحة٢٩٣) إن شاه ـ ورز غزا مصر فى السنة السابعة من حكم هرقل ويذهب ايزيدور.Roncalli,chron.Min الجزء الثانى٤٦١) إلى أن الفتح كان فى سنة ٦١٦، ويقول الطبرى إن مفاتيح الاسكندرية أرسلت إلى كسرى فى السنة الثامنة والعشرين من حكمه أى سنة ٦١٧ ـ سنة ٦١٨،، وهو فى ذلك يثبت التاريخ الذى سبق أن روى عن ميخائيل،،.

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن السنة السابعة من حكم هرقل هى من أكتوبر سنة ٦١٦ إلى

وتقدمته لم يقدرو الهراطقه يخرجونه من اسكندريه الي الديارات كما كان تقدم [لمن] قبله بل جلس في قلايته في بيعه الانجيليون ايامه كلها.

وكان قد قام في الفرس ملك اسمه كسرى فجمع امة كبيره وجا[ء] بقوه عظيمه على جيش الروم فاهلكهم واباده‍م وافناهم وتسلط على ارض الروم وارض الشام وسبى ارض فلسطين ودميا [دمياط] وارض مصر وداسهم كما تدوس البقر الاندر، وجمع اموالهم وكلما

أكتوبر سنة ٦١٧ في حين أن السنة الثامنة والعشرين من حكم كسرى تقع في منتصف سنة ٦١٧ إلى منتصف سنة ٦١٨، ولا يقع أى جزء منها في سنة ٦١٦؛ وعلى ذلك فليس الاتفاق واضحا بين خبر الطبرى وخبر ميخائيل وفوق ذلك أن ابن العبرى (أو أبا الفرج) يذكر بوضوح في موضع آخر«His.Dyn.»(طبعة بوكوك) صفحة ٩٩ أن فتح الفرس لبيت المقدس كان في السنة الخامسة من حكم هرقل وهو في ذلك يناقض نفسه كما فعل في مواضع كثيرة.

ويقول(جلزر) فوق ذلك إن (فون جوتشمت) قد بين بيانا دقيقا (Kleine Schriften» الجزء الثالث صفحة ٤٧٣ وما بعدها) أن غزوة الفرس لا يمكن أن تكون وقعت قبل سنة ٦١٧ لأن،، المراجع السورية تدل على أن زيارة أثناسيوس الأنطاكى للبطريق انستاسيوس المونوفيسى بالاسكندرية كانت في سنة٦١٦،، في حين أن المعروف أن البطريق الذى كان على ولاية الدين عند ما فتح الفرس الاسكندرية كان أندرونيكوس. وفوق ذلك لقد كان (نيقتاس) هو المساعد على توحيد الكنستين وصاحب الفكرة في هذا كما يقول ابن العبرى وقد هرب نيقتاس مع حنا الرحوم عند مقدم الفرس. ويذهب (فون جوتشمت) إلى أن وفاة أنستاسيوس كانت في ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦، وقد أقام خلفه أندرونيكوس في المدينة ويقول (جلزر) إن هذا يدل دلالة واضحة على أن الاسكندرية كانت على الأقل في أول ولاية أندرونيكوس

كان لهم الى خزاينه، وكان لكترة محبته فى المال يقتل انسانا على دينار واحد وعلى ما مقداره تلته دنانير لانه كان كتير الشعب لا يعرف الله بل كان يعبد الشمس. فلما اخذ مصر وتسلط جعل اهتمامه ان يفتح المدينه العظمى اسكندريه وكان هناك ستماية دير عامرة بهاناتون مثل ابراج الحمام، وكانو مستغنين بطرين بلاخوف من كترة نعمتهم ويفعلون افعال الهزو[ء]، وكان جيش الفرس قد احاط بهم من غربى الديارات ولم يبق لهم ملجا

للبطرقة (آخر سنة ٦١٦) لا تزال تحت حكم الروم. وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون فتح الفرس قبل صيف سنة ٦١٧، كما يذهب اليه (فون جوتشنت).

وإنا نرى على وجه الإجمال أن تواريخ (فون جوتشمت) صحيحة على أنها لا تخلو من الصعوبة. وأقل اعتراض هو أنه ليس من الثابت أن السنة التى يوردها المؤرخون السوريون تتفق مع سنة ٦١٦ وذلك لأن هؤلاء المؤرخين ولو أنهم يتبعون التقويم اليونانى أو (السلوقى) فى تاريخهم يختلفون عنه عادة فى حسابهم بسنة إذ يجعلون بدأه من سنة ٣١١ قبل الميلاد بدلا من سنة ٣١٢ (راجع Tresor de Chronolgie المجموعة ٣٦). وعل ذلك فمن المحتمل أن يكون الدليل المستند إلى الكتاب السوريين أميل إلى سنة ٦١٥ لا إلى سنة ٦١٦، وفى هذه الحالة يتفق ذلك التاريخ مع ما جاء فى (الديوان الشرقى) إذ يذهب إلى أن زيارة أثناسيوس لمصر كانت فى السنة التى فتح الفرس فيها بيت المقدس عنوة. وفوق ذلك يقول كاتبنا المصرى ساويرس إن وفاة البطريق المصرى أنستاسيوس فى كيهك (١٨ ديسمبر) من سنة ٣٣٠ للشهداء أنظر ص٥٥٠ المتن العلوى، وقد أخطأ (رينودو) إذ ذهب إلى أن ذلك يوافق سنة ٦١٤ لأن كيهك يقع فى سنة ٦١٣ وهذه الأخبار لا يمكن التوفيق بينها ولكن لا يمكن على الأقل أن نجعل فتح بيت المقدس فى سنة ٦١٣.

على أنه يجدر بنا أن نذكر أدلة سوى هؤلاء من المؤرخين السوريين إذ من المعلوم أنه توجد

فقتلو جميعهم بالسيف الا قليلا منهم اختفو فخلصو. وجميع ما كان هناك من المال والاوانى نهبوه الفرس واخربو الديارات الى الان، ولما وصل الخبر الى اسكندريه فتحو ابواب المدينه. وراى الوالى الفارسى مقدم الحرب النايب عن الملك كسرى فى منامه شخصا فى الليل يقول له فى منامه: سلمت هذه المدينه لك وبنا[ء]ها وكلما فيها فاياك ان توذيها بل لا تبق اهلها فيها لانهم منافقوا الدين. ويدعون [الفرس] مقدمهم بلغتهم

- -

نسخ مخطوطة سورية من الإنجيل تاريخها فى القرن السابع وقد كتبت فى دير الهانطون بقرب الإسكندرية كتبها توما الهركلى وبولص التلوى، وأمر بكتابتها البطريق اثناسيوس نفسه وهو فى زيارته لمصر. وكانت هذه المخطوطات جزءا من مراجعة شاملة للنص السوريانى على النص اليونانى نص (philoxenus) فتاريخ هذه المخطوطات ذو أهمية عظمى.

«ومن المعلوم أن توما الهركلى أتم ترجمته لنص العهد الجديد إلى السوريانية فى سنة ٩٢٧ من التاريخ اليونانى» وسنة ٩٢٧ هذه إن لم تكن موافقة لسنة٩٢٦ المعتادة كانت من ابتداء أكتوبر سنة ٦١٥ إلى أكتوبر ٦١٦؛ وتوجد أيضا نسخة مخطوطة أخرى (سوريانية ذات ست روايات) فى المتحف البريطانى (Add.Mss.144,376) وقد كتب فيها أنها تمت فى السنة عينها سنة ٦١٥ ـ ٦١٦ والنسخة الخطية للكتاب الثالث للملوك مؤرخ فى شباط سنة ٩٢٧ وذلك يوافق فبراير سنة ٦١٦، ونسخة الكتاب الرابع للملوك كتب بها ما يدل على أن بولص وأثناسيوس كانا يقيمان فى السكندرية فى سنة ٩٢٨ وهى تقع بين أكتوبر سنة ٦١٦ وأكتوبر سنة ٦١٧ وهذا يحدد وقت زيارة البطريق السورى فى خريف سنة ٦١٦؛ وقد ذكر فى نسخة أخرى خطية من النسخ السريانية ذات الروايات الست وجدت فى ميلان تاريخ تمامها كان فى سنة ٩٢٨ وذلك فى سنة ٦١٦ ـ ٦١٧، ففى كل هذه النسخ الخطية ذكر دراسة علمية تجرى فى سلام فى دير الهانطون مدّة سنتين بين سنة ٦١٥و٦١٧، وهذا يحدّد عرضا وقت زيارة

السلار اى الامير، فلما اخذ السلار ملكهم، وهو الذى بنى فى اسكندريه الايوان الذى يدعى تراوس، وهو الان يسمى قصرا فارسيا، وتفسيره بيت الملك، جعل بمكره امرا فامر كل شاب فى المدينه من ابن تمان عشره سنه الى خمسين سنه ان يخرجو ياخذون عشرين دينارا كل واحد، فاجتمع جميع شباب المدينة وكتب اسما هم يظنون انهم ياخذون العطيه التى وعدهم بها، فلما علم ان جميعهم قد خرج ولم يبق احد منهم امر

البطريق السورى ويجعلها فى أكتوبر سنة ٦١٦ لأن مضيفة البطريق القبطى توفى فى ديسمبر من ذلك العام. وقد كان حساب تلك التوار يخ على حسب ما اعتاده الناس من التاريخ بالحساب اليونانى على أننا إذا ذهبنا إلى أن حساب تلك التواريخ كان على حسب التاريخ السورى الخاص كان لزاما علينا أن نجعل وقت تلك الزيارة فى سنة ٦١٥ ـ ٦١٦ وأن نجعل العمل من سنة ٦١٤ الى سنة ٦١٦، فاذا ذهبنا هذا المذهب وقع الاتفاق بين قولنا وبين قول ابن العبرى إذ يقول فى كتابه (تاريخ الكنائس ـ صفحة ٢٦٧ ـ ٩) «إن أثناسيوس ذهب إلى الاسكندرية وكان بطريقها أنستاسيوس وعقد معه وفاقا واتحادا ووقع هذا الاتحاد بين كنيستنا السورية وكنيسة مصر فى سنة ٩٢٧ من التاريخ اليونانى» (وهى من أكتوبر سنة ٦١٥ إلى أكتوبر سنة ٦١٦) إذ أن ابن العبرى لا يتبع الطريقة السورية التى تخالف التاريخ المعتاد. ولا يمكن التوفيق بين وجوه هذا الخلاف إلا إذا سرنا على طريقة أخرى فى حساب التاريخ ولما كان سريان بابل خاصة هم الذين قدّموا حسابهم على التاريخ اليونانى بسنة لم يكن بعيدا أن يكون توما الهركلى وبولص التلوى قد سارا على تلك الطريقة وإذن يقع الاتفاق بين الديوان الشرقى وبين النسخ الخطية من الانجيل وأبى الفرج وكل هؤلاء يجعلون تاريخ توحيد الكنيستين فى أكتوبر سنة ٦١٥ ويلوح لنا أن هذا حل عادل قريب إلى الأذهان.

ونرى أنه لا يزال من الضرورى أن نجعل وفاة البطريق القبطى فى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦ وليس فى سنة ٦١٥ وذلك لأننا لا نجد طريقة أخرى نجعل بها ولاية خليفته أندرونيكوس توافق

جيشه ان يحيط بهم ويقتلهم الجميع بالسيف، فكان عدد من قتل ثمانين الف رجل. ولما فعل هذا عاد الى الصعيد ، وكان فى مدينة نقيوس التى هى ابشدى قوم فاعلموه حال الرهبان الذين فى الجبال والمغاير وتقديرهم سبع ماية راهب وان الحصن يجمعهم وان افعالهم ذميمه من كثرة ما عندهم من النعم، فلما سمع السلار خبرهم ارسل جيشه فاحاط بهم فلما اشرقت الشمس دخلوا فقتلو

التواريخ المعروفة فى مدّتها وفى تاريخ انتهائها فإن مدتها معروفة بأنها كانت بضعة أيام وست سنوات آخرها ٨ طوبه (٣ يناير). فإذا قلنا إن يوم ٣ يناير من سنة ما هو تاريخ وفاة أندرونيكوس وبدء ولاية بنيامين لم نجد سنة فيها كل الشروط المطلوبة إلا سنة ٦٢٣، فمن جهة لا شك فى أن أندرونيكوس شهد بدء غزوة الفرس، ونرى أنها كانت فى أواخر سنة ٦١٦؛ ومن جهة أخرى لا شك فى أن هذا البطريق كان حيا فى أول أمر الاسلام، فإن الديوان الشرقى يجعل مدة ولاية أندرونيكوس بين سنة ٦١١ ـ ٦١٧، ولكنه يذكر بعد ذلك« أن فى مدته علا أمر المسلمين» وذلك فى يولية سنة ٦٢٢، ويوافق على هذا مكين إذ يجعل اختيار بنيامين فى السنة الأولى للهجرة سنة ٦٢٢ ـ ٦٢٣ وشهادة أبى صالح كذلك واضحة صريحة فإنه يذكر أن أندرونيكوس كان بطريقا «فى أول ظهور المسلمين فى السنة الثانية عشرة من حكم هرقل» (طبعة Butler, Evetts صفحة ٢٣١) وهذا التواتر فى الأدلة على أن تاريخ ولاية بنيامين كان فى شهر يناير سنة ٦٢٣ برهان قوى لا يكاد شئ يقف له. وأما (Le Quien) فإنه يتبع تاريخ ساويرس إذ يقول إن ولاية أندرونيكوس كانت من سنة ٦١٩ ـ ٦٢٢.

فإن تم لنا إثبات أن وفاة أندرونيكوس كانت حوالى ٣ يناير سنة ٦٢٣ وأن مدة ولايته كانت ست سنوات تزيد قليلا أولها ١٨ ديسمبر، ويخيل إلينا أننا قد أثبتنا ذلك، كان أول ولايته فى سنة ٦١٦، وكانت وفاة أنستاسيوس فى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦، وهذا التاريخ يوافق

جميعهم بالسيف ولم يبق واحد منهم. وفعل هذا السلار من البلايا كتيرا لانه ما كان يعرف الله، والزمان يضيق عن ذكر افعاله.

فلما كمل البطرك اندرونكوس ست سنين فى بطركيته وقاسى هذه الامه وراى هذه الامور الصعبه التى لقيها وصبر عليها تنيح ومضى الى الرب بسلام كامل وهو ضابط الامانه المستقيمه امانة ابايه [آبائه] فى التامن من طوبة.

ما أثبته (فون جوتشمت) (راجع Kleine Schriften.ii صفحة ٤٧١ ـ ٤).

ولقد ساقنا هذا الكلام إلى الاستطراد والبعد عما كنا فيه من ذكر النسخ المخطوطة من الانجيل التى كتبت فى دير الهانطون ولكن من الضرورى أن نعود إلى ذكرها.

فهذه النسخ المخطوطة تدل على:(١) أن توما الهركلى كان يعمل فى الترجمة مدة سنتين على الأقل قبل زيارة البطريق السورى.(٢) أن الزيارة نفسها يغلب أن تكون وقعت فى أكتوبر سنة٦١٥(٣) أن بولص التلوى بقى يعمل مدة ثلاثة أشهر على الأقل بعد الزيارة أى إلى يناير سنة٦١٦ وهنا تقوم صعوبة إذ ذكر عرضا أن أثناسيوس ذهب مع خمسة من الأساقفة السوريين، فى حين أن سياق قول ابن العبرى يدل دلالة قاطعة على أن توما الهركلى طرد من أسقفيته فى(مابوج) وهرب الى مصر لاجئا. ولا موضع للشك فى أن توما وبولص كانا فى مصر وقت تلك الزيارة ولا فى أن ثلاثة أساقفة آخرين إما جاءوا مع أثناسيوس، وإما طردوا ولجأوا إلى مصر هاربين من فتح الفرس لفلسطين.

ولدينا عبارة صريحة ذكرها حنا مسكوس وهى أن أساقفة كثيرين هربوا إلى مصر لا جئين، ولكن الأقرب إلى الاحتمال أن هؤلاء العلماء السوريين بمقامهم فى الاسكندرية واتصالهم الناشئ من ذلك بالبطريق القبطى قبل زيارة بطريق أنطاكية، قد مهدوا السبيل إلى الاتحاد الرسمى الذى تم سريعا بعد اجتماع البطريقين.

وبعد فقد بقى جزء واحد من الدليل الذى يمكن أن نستخلصه من هذه النسخ المخطوطة وذلك أنه من أكبر الأمور دلالة أن كل الكتب الأخرى من الانجيل التى تنسب إلى بولص التلوى ليس بينها كتاب واحد يذكر فيه تاريخ. وآخر تاريخ هو كما بينا أول سنة ٦١٦ ، ويلوح لنا أنه ليس من المقبول عقلا أن يقال إن العمل مع ذلك قد تم فى الدير نفسه دير الهانطون في الظروف نفسها، وأن نجعل غزوة الفرس على ذلك فيما بعد سنة٦١٦ ، بل إن الأمر على عكس هذا فان هؤلاء العلماء السوريين الذين رأوا أو سمعوا بما أحدثه الفرس من التخريب العظيم ببلادهم كان لابد لهم أن ينزعجوا عند أول نبأ يصلهم عن مقدم الفرس إلى مصر، وإنه لمن أقرب الأمور أن يكونوا قد هربوا في البحر فى صيف سنة٦١٦ ومعهم رهبان دير الهانطون بما معهم من ثمين المتاع ، ومن ذلك النسخ المخطوطة اليونانية للكتاب المقدس. ولكنا بغير أن نأخذ بهذا الرأى نرى دوننا رأيا آخر محتملا فى تفسير ما كان، وهو يتفق مع استمرار العمل في مصر. ويدفعنا ذكر ذلك إلى القول فى أمر أهمل إهمالا عجيبا، ويجمل بنا على ذلك أن نؤكده بعض التأكيد، فان من عادة الكتاب الذين كتبوا عن هذا العصر أنهم دائما يذكرون فتح الفرس كأنه حادث واحد يجعلون له تاريخ سنة واحدة.ومعنى هذا أنهم «يعجزون عن أن يميزوا بين غزوا مصر وبين فتح الاسكندرية» . وهذان الحادثان لابد كان بينهما سنة على الأقل. ومما لاشك فيه أن الكتاب القدماء كانوا أحيانا يذكرون لفتح الفرس تاريخ أحد الحادثين وأحيانا يذكرون له تاريخ الحادث الآخر. وهذه الحقيقة تفسر كثيرا مما يسود ذلك الأمر من الخلط والاختلاف.

ويمكننا أن تقول إنه قد صار من المدلل عليه أن الفرس يكونوا قد ساروا إلى مصر فى أول سنة ٦١٦ ، ولئن قلنا إنهم كانوا يستطيعون أن يدخلوا فى حرب جديدة عقب فتح بيت المقدس فانه ليس من المحتمل أن يقدموا على عبور الصحراء فى فصل الصيف. فيمكن على ذلك أن نذهب الى أن سيرهم الى مصر بدأ فى خريف سنة ٦١٦ ، وأن جيشهم فتح الفرما ونهب الأديرة فيها قبل آخر تلك السنة. ثم كان عليهم بعد ذلك أن يسيروا الى منفيس والى فتح الحصن المنيع حصن بابليون، وأن يحاربوا الروم فى طريقهم على فرع النيل الغربى مارين بمدينة نقيوس، (ونعلم أنهم فعلوا ذلك)، حتى يبلغوا الإسكندرية. ونعرف كذلك أنهم قضوا وقتا طويلا فى حصار المدينة قبل أن تسلمها اليهم الخيانة. ولا يمكن أن يكون ذلك قد استغرق أقل من سنة. وعلى ذلك فمن المحال أن نجعل فتح الاسكندرية قبل آخر سنة ٦١٧، أو أول ٦١٨ ، على أى مذهب من مذاهب التاريخ.

وعلى ذلك فمن السهل أن نقول إن العلماء السوريين بقوا فى عملهم فى دير الهانطون حتى قربت جيوش الفرس ثم هربوا الى المدينة، وكان الهرب منها فى البحر ممكنا فى كل وقت، وبهذا كان يمكنهم أن يبقوا سنتين آخرين قد تكونا كافيتين لاتمام عملهم.

حسبنا ما ذكرناه عن المراجع السورية ولكن يجدر بنا أن نتنبه إلى أن تلك الحجة التى ساقتنا الى القول إن شتاء سنة ٦١٧ ـ ٦١٨ وهو الوقت الذى لا يمكن أن تكون الإسكندرية قد فتحت قبله تسوقنا كذلك إلى اتفاق دقيق مع التاريخ الذى ذكره الطبرى، وهى كذلك تسوقنا إلى قريب من الاتفاق مع ماذهب اليه فون جوتشمت ولو أننا سلكا مسلكا مخالفا لما سلكه وكانت الحقائق التى بنينا برهاننا عليها فيها شئ من التضارب مع حقائقه. فقد ذهب إلى« أن الإسكندرية كانت فى ديسمبر سنة ٦١٦ لاتزال مع الروم وأنه لا يمكن أن يكون الفتح الفارسى قد وقع قبل صيف سنة٦١٧»(إذا كان يقصد بقوله«الفتح الفارسى» فتح الإسكندرية)، والطبرى يتجاوز هذا التحديد قليلا إذ يقول إن مفاتيح الاسكندرية لم ترسل إلى كسرى قبل الشتاء، وإنا نتفق معه فى هذا الرأى. فنقول على ذلك إجمالا إن التواريخ كانت كما يلى:

(١) فتح بيت المقدس كان فى آخر مايو سنة ٦١٥.

(٢) زيارة أثناسيوس للاسكندرية كانت فى أكتوبر سنة ٦١٥.

(٣) سير الفرس إلى مصر كان فى خريف سنة ٦١٦.

(٤) موت البطريق القبطى« فى ١٨ ديسمبر سنة٦١٦.

(٥) فتح بابليون « فى ربيع سنة ٦١٧.

(٦) فتح الاسكندرية « فى آخر سنة ٦١٧.

(٧) إخضاع مصر جميعها « فى سنة ٦١٨.

ولعلنا نقول فوق ذلك إن فتح الصعيد لا يمكن أن يكون قد تم قبل شتاء سنة ٦١٨ بزمن طويل، لأننا نعرف من ورقه بردى قبطية مؤرخة أن (أرسنويه) أو الفيوم كانت لا تزال فى ملك الروم فى التاسع من يونيه سنة ٦١٨ (Corpus Papyrorum Raineri) الجزء الثانى صفحة ٢٢Koptische Texte (ed.j.krall.) ولكنا نقول على وجه الاجمال إن هذا البيان يدل على أنه قد وقعت بين فتح بيت المقدس وتمام فتح مصر مدّة ثلاث سنوات وهو يوافق كل الموافقة ما ذكره أبو الفرج (طبعة Pococke).

وهذا النظام يمكننا من أن نقول إن بعث حنا الرحوم لمساعدة بيت المقدس كان فى شتاء ٦١٥ ـ ٦١٦ فان من بعثهم ذهبوا عن طريق البر وما كانوا ليستطيعوا ذلك لو كانت جيوش الفرس فى طريقها إلى مصر . وعلى ذلك يكون هروب حنا الرحوم مع نيقتاس فى خريف سنة ٦١٦، إذا كانا قد هربا عندما جاءهما نبأ غزوة الفرس. على أن قول Leontius يفيد أنهما هربا قبيل فتح الاسكندرية أى بعد ذلك التاريخ بعام ولكنا فوق كل هذا نرى أن هذا النظام فى التاريخ يتفق مع تأريخ مؤرخى العرب فى ذكرهم تاريخ حياة البطارقة، وفى ذكرهم مدة احتلال الفرس لمصر، وهذه المدة كما يقول جلزر كانت عشر سنوات وهو حق.

وأما البطارقة القبط فنرى أن تواريخهم كما يلى:

(١) انستاسيوس من يونيه ٦٠٤ الى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦.

(٢) اندرونيكوس« ديسمبر سنة ٦١٦ إلى ٣ يناير سنة ٦٢٣.

(٣) بنيامين« يناير سنة ٦٢٣ إلى يناير سنة ٦٦٢.

وأما البطارقة الملكانيون فتاريخهم كما يلى:

(١) تيودور قتل فى سنة ٦٠٩.

(٢) حنا الرحوم من سنة ٦٠٩ إلى سنة ٦١٦ أو سنة ٦١٧ .

(٣) جورج من سنة ٦٢١ إلى سنة ٦٣٠ أو سنة ٦٣١

(٤) قيرس من سنة ٦٣١ إلى سنة ٦٤٢

فاذا نحن اتبعنا (جلزر) فيما ذهب إليه معتمدا على حجة واحدة وهو Thomas) Presbyter) من أن اتحاد الكنيستين المصرية والسورية قد وقع فى سنة ٦١٨ وجب علينا أن نغير كل نظامنا فى تتابع تواريخ بطارقة القبط ووجب علينا فوق ذلك أن نجعل ولاية بنيامين على الأقل فى سنة ٦٢٥ فى حين أن المؤرخين المصريين يكررون أن ولايته بدأت فى سنة ٦٢٢ـ ٣ وهى سنة هجرة النبى وظهوره.

وأما نحن فنرى أن هذا الاتفاق برهان قاطع ولو لم يكن لدينا برهان غيره على تاريخ ولاية بنيامين. ولكنه من أسهل الأمور أن نورد براهين كثيرة من المؤرخين المصريين على تنفيذ قول من قال إن ولايته كانت فى سنة ٦٢٥.

وأما احتلال الفرس لمصر مدة عشر سنوات فقد ذهب(جلزر) إلى أن تلك المدة انتهت

[٣٧: اندرونيكس ٦١٦ / ٦٢٢م]

سنة ٦٢٩ أى بعد سنة على الأقل من صلح هرقل وشيرويه. ولكنا نرى ثلاث حجج قوية تنقض ذلك الرأى:

(١) أن القصد من كل خطة هرقل فى سنة ٦٢٢ والسنوات التى بعدها كان تخفيف ضغط الفرس عن عاصمته وعن مصر، وإنه لمن أقرب الأمور أن تكون مصر قد أخليت بسبب هذا الضغط منذ ربيع سنة ٦٢٧ حتى ولو لم يقم على ذلك برهان ومدة هذا تكون عشر سنوات تزيد قليلا منذ أول الغزو كما قلنا.

(٢) ولو لم يكن الأمر كما ذكرنا فقد ذكر سبيوس أن شيرويه فى صلح فبراير سنة ٦٢٨ رضى أن يخلى فى الحال كل ما كان يملكه من بلاد الروم وأخرج جيوشه منها.

(٣) أن النبى محمدا بعث رسله إلى الأمراء فى صيف سنة ٦٢٧ أو خريفها على الأكثر كما روى الطبرى لأنه يذكر أن الرسل الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن حجزوا هناك بضعة أشهر حتى أتت أنباء موت الملك وكان موته فى فبراير سنة ٦٢٨ ولا شك فى أن النبى عند ما بعث رسوله إلى مصر كانت مصر قد عادت إلى دولة الروم وكان يحكمها والى هرقل« المقوقس» كما يسمونه خطأ.

وليس اعتماد (جلزر) على (نيقفوروس) مما يدعم اتخاذه تاريخ سنة ٦٢٩ فإن نيقفوروس يقول« إن سار باروس بعد أن سمع بموت كسرى وشيرويه وقباذ وهر مزداس رجع من بلاد الروم» ثم قال« ولما تم الصلح أعاد سار باروس مصر وسائر بلاد الشرق إلى الروم وأخرج منها مسالح الفرس وبعث بالصليب ـ واهب الحياة إلى الامبراطور» ولكن الشاه ـ ورز لم يصر ملكا باتفاقه مع هرقل إلا فى آخر سنة ٦٢٩ على الأقل (Journal Asiatique 1866 صفحة ٢٢٠) فى حين أنه من المؤكد أن هرقل استعاد الصليب فى سنة ٦٢٨ وفوق ذلك إن نيقفوروس نفسه قال بعد أن ذكر عدة حوادث أخرى إن الصليب أخذه هرقل بعد ذلك إلى بيت المقدس ثم أعاده إلى القسطنطينية وتلقاه فيها البطريق سرجيوس« وقد كان حدوث ذلك فى الخمسة عشرة سنة الثانية (أى فى سنة ٦٢٩). وإذا كان لنا أن نستخلص شيئا من هذا الخبر المفكك استخلصنا أن الفرس خرجوا من مصر قبل استعادة الصليب أى قبل سبتمبر سنة ٦٢٨، ولكن ذلك الخبر لا يدل على شئ سوى أن نيقفوروس هذا شاهد غير عدل لا يعول على قوله».

والحقيقة هى أن مدة احتلال الفرس وهى السنين العشر يمكن أن يعد أولها: إما عند دخول

الفرس إلى مصر، وإما من أول فتح الاسكندرية، وإما من إتمام فتح مصر إلى أسوان ويختلف مدى تلك المدة باختلاف الوقت الذى يعتبر الابتداء منه.

ولقد سعينا فى هذا التعليق أن نظهر أن كثيرا من الخلط ناشئ عن إغفال التمييز بين غزو مصر وفتح مصر فهما معنيان غير مترادفين وحادثان لم يقعا فى وقت واحد.

ولذلك الخلط سبب آخر وهو إغفال التفريق بين السنة الميلادية (التى أولها أول شهر يناير) وبين السنة اليونانية من تاريخ الاسكندر (التى أولها سبتمبر)، وهى تقع فى جزأين من سنتين من سنى الميلاد. وفوق ذلك سبب ثالث وهو إغفال الانتباه إلى طريق حساب السنة اليونانية عند السوريان فانها أحيانا تختلف عن التاريخ اليونانى المعتاد بسنة وفيها تبدأ السنة فى أول أكتوبر بدل ابتدائها فى أول سبتمبر. والسبب الأخير فى الخطأ يصح لنا أن نذكره وهو الاعتماد فى حساب التواريخ على أساس غاية فى الضيق. ويحدث هذا من طريقين: إما بالمبالغة في تضييق الفترة التي يستمد الدليل منها، وإما بتضييق المجال الذى يستمد من الدليل فإنه لا يكفى أن نبحث فى تواريخ فترة نحو عشر سنوات أو اثنتى عشر ة سنة ثم ننتهى من ذلك المبحث إلى نهاية بغير أن ننظر ما ينشأ عن ذلك من النتائج أعنى بغير أن ننظر إلى علاقة هذه التواريخ بما قبلها وبما بعدها من التواريخ ونتحقق من أن ما ينشأ عن ذلك من النتائج يخرج ثابتا بعد التمحيص والنقد. ويجمل كذلك أن نذكر أننا إذ نعالج هذه الحوادث التى وقعت فى القرن السابع نعتمد على مراجع تاريخية مختلفة الأنوا ع كثيرة العدد ففيها اليونانى والأرمنى والسريانى والعربى والمصرى وفى كل منها شئ يجب الرجوع إليه، وليس من العدل أن نضع نظاما للتاريخ نستمده من طائفة أو اثنين من هؤلاء الكتاب بغير أن نأبه كما ينبغى بالآخرين. وإنا ونحن نكتب هذا نشعر أعمق الشعور بالصعاب التى تحيط بمثل هذا السعى الى التوفيق بين المراجع التى قد تكون فى الحقيقة كما هى فى الظاهر غير قابلة للتوفيق.

ويجمل بنا أن نقول إننا وإن اختلفنا مع (جلزر) نفعل ذلك وفى نفوسنا كل الاعجاب بمؤلفه النفيس الغزير العلم الدقيق البحث. ولسنا ندعى أن نظام التاريخ الذى وضعناه خال من الصعاب، ولكنا قد ندعى أننا قد وضعناه على أسس واسعة وأنا قد وفقنا به بين عدد عظيم من مراجع كل منها منفصل عن الآخر كل الانفصال ومباين له أكبر المباينة(*).

(*) انظر: الفريد.ج. بتلر: فتح العرب لمصر . ترجمة: : محمد فريد أبو حديد. مكتبةالاسرة. القاهرة ١٩٩٩.

بنيامين [الأول] البطرك
٦٢٢/ ٦٦١م(*)
وهو الثامن والثلثون من العدد

(*) يرى الفريد بتلر ان مدته من يناير ٦٢٣ إلى يناير ٦٦٢.

وكان قبل نياحة الأب أندرونيكوس [اندرونيكو] بسنة واحدة أخ خايف مومن اسمه بنيامين فى دير يعرف بدير كنوبوس [كانوب(*)] أتى اليه فى ذلك الوقت(*) واوى فيه الى شيخ قديس اسمه ساونا، لان هذا الدير لم تخربه الفرس معما [مع ما] أخربوه لأنه كان فى شرقى بحرى المدينة

(*) كانوب: قرب ابوقير الحالية.

(*) كان ذلك فى آخر سنة ٦٢١م كيهك سنة ٣٣٧ ش قبيل عيد الميلاد.

استيلاء العرب على مصر

كانت البلاد كلها عند ذلك تحت يد قيرس (المقوقس) يصرفها كيف شاء، ولم يتحرك القبط بطبيعة الحال عندما عاد جند الروم الى البلاد بعد انسحاب القوات الفارسية منها ولكنهم وجدوا بعد قليل أن حكم الفرس إن لم يكن مما يحب ويرغب فيه فإن حكم الروم الجديد لم يكن حدثا يحمدونه ويفرحون من أجله. فقد وجدوا فيه أنواع العقاب وصنوف العذاب، فكأنهم وقد خرجوا من حكم الفرس الى حكم الروم قد رفع عنهم التعذيب بالسياط ليحل بهم تعذيب آخر من لسع العقارب. إذ بينما كان غزاة الفرس بعد أن استقر بهم الأمر فى البلاد لا يحولون على الأقل بين القبط وبين التدين بما يشاءون من الدين، جاء قيرس (المقوقس) فعول على أن يحرمهم تلك الميزة الكبرى وينزعها من أيديهم. وابتدأ الاضطهاد الأعظم عند ذلك. ويتفق المؤرخون جميعا على أنه بقى مدة عشر سنوات أى أنه بقى كل مدة ولاية قيرس رياسة الدين. فان اكبر الظن أن مجمع الاسكندرية كان فى شهر أكتوبر من سنة ٦٣١، وقد بدأ عهد الاضطهاد بعد ذلك بشهر واحد أو بشهرين. ولا يشك أحد فى فظاعة ذلك الاضطهاد وشناعته، فقد جاء فى كتاب مؤرخنا (ساويرس) «لقد كانت هذه السنين هى المدة التى حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر، وقد فتن فى أثنائها كثير من الناس لما نالهم من عسف الاضطهاد والظلم، ومن شدة العذاب الذى كان يوقعه هرقل بهم، لكى يحولهم

[اسكندريه]، وكان ثاونا حافظا لها، وهذا الأخ بنيامين هو من أهل البحيرة ومن ضيعة تعرف ببرشوط(*)، وكان قد رغب في الرهبنة والزهد ورفض والديه وكلما كان لهم، وكانو أغنيا جدا، ومضى الى الدير فالبسه الشيخ القديس ثاونا اسكيم الرهبنة ورباه بخوف الله، حتى أن الذى حل بالكبير بولس حل به مثله لان بولس تربى باورشليم عند رجل اسمه عمالائيل، فرفعته همته ونعمة السيد المسيح حتى صار اوفى وافضل من

(*) صحح هذا الاسم صالح كامل نخله فى كتابه «البابا بنيامين الاول» ص ٣١ وذكر أن اسمها بيرشوط نقلاً عن كتاب «تاريخ البطاركة لأسقف فوه، حيث يذكر ان البابا بنيامين من بلدة بيرشوط من اعمال البحيرة.

على رغمهم عن مذهبهم إلى مذهب خلقيدونية. فكان يعذب بعضهم ويعد البعض أحسن الجزاء ويمكر بالبعض ويخدعهم» وقد جاء في ترجمة (بنيامين) أن أخوه كان ضمن ممن عذبوا ثم قتل غرقا. وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه، فأخذ يحترق «حتى خرج شحم كلاه من جنبه وسال على الارض»، ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه، فخلعت أسنانه ثم وضع في كيس مملوء من الرمل وحمل في البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطئ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما أقره مجلس (خلقيدونية)، فعلوا ذلك ثلاثا وهو يرفض في كل مرة، فرموا به في البحر فمات غرقا. وقال الكاتب الذى كتب ترجمة حياة بنيامين «ولم يغلبوا هذا المجاهد (مينا) بل غلبهم بصبره المسيحى» (انظر المتن العلوى ص٥٧٤).

واليك دليلا آخر جاء في ترجمة حياة صمويل (القلمونى)[1] وقد كتبت تلك الترجمه فى أيام (قيرس). وجاء فيها وصف جلى لما فعله (قيرس) نفسه من الأفاعيل فى هذا الاضطهاد، ولهذا كان لنا العذر اذا نحن نقلنا هنا بعض ما جاء فيها فى شئ من الإفاضة. تصف القصة أن البطريق (قيرس) جاء الى الدير فوجده خلاء ممن فيه إلا من خازنه، فقبض عليه وجلده

(١) نشر هذه الترجمة (اميلنو) فى "Mon pour servir This. de TEg. Chert. aux IVe -VIIe Sieeles" (Mem Miss Arch. Frane, an (aire) الجزء الرابع وصفحة ٧٧٤ وما بعدها.

معلمه دفعات كثيره، وكذلك هذا بنيامين كان يعذب نفسه بالنسك ولا ينام ليله يكون فيها اجتماع فى البيعه. وكان أكثر قراته فى انجيل(*) يوحنا المغبوط لانه حفظه. فنظر فى بعض الليالى فى منامه رجلا منيرا وقف به وقال له: افرح يا بنيامين الخروف المتواضع والراعى معا الذى يرعى القطيع الناطق الذى للسيد المسيح. فلما سمع هذا الكلام اضطرب وقلق ثم، انه فرح بما انعم به عليه من السما وقام مسرع فاعلم اباه ثاونا فصدق

(*) كان انجيل يوحنا أشهر الاناجيل فى مصر.

وأخذ يسأله، فقال له الخازن: «لقد جمع صمويل الزاهد رهبان الدير وخطب فيهم فأطال ووصفك بالكفر وبأنك يهودى من أتباع (خلقيدونيه)، ولا تؤمن بالله، وبأنك لست أهلا لأن تقيم الصلاة ولا أن يعاملك المؤمنون. فلما سمع الرهبان قوله هذا هربوا قبل مقدمك» فلما سمع الكافر الفاسق ما قاله الخازن ثارت ثائرته وعض شفتيه من الغيظ وسب الخازن والدير ورهبانه ومضى عنه. قال كاتب الترجمة «ولم يعد للدير بعد ذلك الى يومنا هذا»(١).

(١) هذا القول يدل على أن النسخة الأصلية المخطوطه قد كتبت قبل موت قيرس فى سنة ٦٤٢ فقد مات صمويل فى قلمون بعد أن تنبأ بقدوم العرب وانتهاء غزوتهم بنصر المسيحيين (الجريدة الأسيوية ١٨٨٨ صفحة ٣٨٤) ومن هذا نستنتج أن تاريخ حياته كتب فى أول الغزو وقبل أن يظهر العرب أى أنه كتب فى أوائل سنة ٦٤٠ وكانت تواريخ الحياة تكتب عادة وتلقى بصفتها مديحا بعد موت قديس عظيم أو رجل كبير من أهل الدين فلنا أن نقول إن صمويل مات سنة ٦٣٩ ويقول (Pereira) إنه قيل إن صمويل لقى فى قلمون رجلا آسمه جريجور اسقف قيس وإن ساويرس يذكر مقابلة بين رجل اسمه جريجور اسقف قيس وبين البطريق حنا السمنودى (سنة ٦٨٠ ـ ٩٠).
وإن البطريق اسحق بعد اختياره واقرار عبدالعزيزله دخل الاسكندرية فى سنة ٦٨٥ وكان معه عند ذلك رجل اسمه (جريجور) أسقف قيس وهذا التاريخ الأخير يجب أن يكون سنة ٦٩٠ بدل سنة ٦٨٥ ولكن هذا التصحيح يقوى حجة (بريرا) وهى أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين اسمهم (جريجور) إذا كانوا شخصا واحد كما تدل عليه الأدلة وإذا كان صمويل قد مات سنة ٦٣٩ وجب علينا أن نقول إن جريجور بقى على الأسقفية أكثر من خمسين سنة وليس هذا بمستحيل بالطبع ولكنا بدل أن نقول إن موت صمويل كان بعد هذا التاريخ نقول إنه من الجائز أن يكون بمصر فى ذلك الوقت =

الشيخ قوله فى هذه الرويا لكنه قال له: لا تطيح يا ولدى فان الشيطان اراد بهذا ان يهلكك بالكبريا فامض الان واستيقظ لنفسك ولا تعثر بالمجد الفارغ لان هو ذا لى فى هذا الدير خمسون سنه ما رايت شيا من هذا ولا قال لى احد انه راى مثل هذا. فسكت بنيامين وقبل قول معلمه وكانت النعمة تتزايد عنده يوما بعد يوم من عند الله سبحنه وكان جميع كلامه وتقلباته بتاييد سماوى. وكان الشيخ ساونا وكلمن يعرفه يبهتون عن نعمة الله التى عليه

فلما ذهب رجع الإخوان إلى ديرهم آمنين، وأما الكاوخيوس (المقوقس) ذلك البطريق الدعى فقد ذهب إلى الفيوم والغيظ يأكل قلبه، ودعا هناك اصحابه وأتباعه وأمرهم أن يأتوا له بالعابد (الأبا صمويل) مكتوف اليدين من خلاف، وأن يضعوا فى عنقه طوقا من الحديد، وأن يدفعوا به كما يدفع باللصوص. فذهبوا إلى الدير الذى كان فيه وقبضوا عليه.

وذهب صمويل مستبشرا فى صحبة الله وهو يقول «سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يسفك دمى فى سبيل المسيح»،ثم جعل يسب المقوقس لا يخشى شيئا. وأدخله الجنود عليه، فلما رأى المقوقس ذلك الولى أمر جنده أن يضربوه حتى سال دمه كما يسيل الماء ثم قال له: «صمويل أيها الزاهد الشقى. من ذا أقامك رئيسا للدير وأمرك أن تعلم الرهبان أن يسبونى ومذهبى؟» فقال له العابد (الأبا صمويل) «إن البرفى طاعة الله وطاعة وليه البطريق (بنيامين) وليس فى طاعتك والدخول فى مذهبك الشيطانى ـ يا سلالة الطاغوت وأيها المسيح الدجال» فأمر (قيرس) جنده أن يضربوه على فمه وقال: «لقد غرك يا صمويل أن رهبانك يجلونك ويعلون من شأن زهدك ولهذا تجرأت وقويت نفسك. ولكنى سأشعرك أثر سبابك

= رجلان اسمهما جريجور كما قد كانت عند ذلك مدينتان كل منهما اسمها قيس واحدة منها على ساحل البحر المتوسط والأخرى عند البهنسا فى الجنوب.

(أنظر كتاب كاترمير "Mem Geog et His" (صفحة ١٤١ و٣٣٧ من الجزء الأول) وقال أبو صالح إن جريجور أسقف قيس أنشأ كنيسة فى حلوان (صفحة ١٥٦).

وظنوا انه قد اختل حتى ان الشيخ ساونا اخذه ومضى الى الاب اندرونيكوس [اندرونيكوا] البطرك وشرح له حاله. فقال: قدمه لى لاسمع كلامه. فلما دخل إليه سجد بين يديه فراى الاب اندرونيكوس البطرك نعمة المسيح عليه فسأله بسكون ان يعلمه ما شهده، فاعترف وقال صفة الحال. فامسكهما البطرك تلك الليلة فلما كان بالغداة طلب ساونا ان ياذن لهما فى المضى الى ديرهما بسلام. قال له البطرك اندرونيكوس: اما

للعظماء إذ سولت لك نفسك ألا تؤدى لى ما ينبغى عليك أن تؤديه لعظيم رجال الدين وكبير جباة المال فى أرض مصر» فأجابه صمويل «لقد كان إبليس من قبل كبيرا على الملائكة ولكن كبره وكفره فسقا به عن أمر ربه. وهكذا أنت أيها الخادع (الخلقيدونى) فان مذهبك مذموم وإنك أشد لعنة من الشيطان وجنوده» فلما سمع المقوقس ذلك امتلأ قلبه بالغيظ على ذلك الولى وأومأ إلى الجند أن يقتلوه.

وقصارى القول أن ذلك الكافر أراد أن يقتل الولى ولكن حاكم الفيوم خلصه من يديه، فلما رأى قيرس أن صمويل نجا منه أمر به أن يطرد من جبل نكلون[١].

وقد جاء مثل هذا الخبر فى الترجمة الأتيوبية لحياة (الأبا صمويل) وقد جاء فيها ذكر رجل اسمه (مكسميانوس) وأنه أتى الى دير صمويل فى الصحراء ومعه مائتا جندى وأنه أعطاه كتابا يؤمر فيه بالإيمان بمذهب خلقيدونيه فمزقه صمويل ورمى به من باب الكنيسة وهو يقول «ليس لنا من رئيس إلا بنيامين ولعنه الله على ذلك الكتاب الكفار الذى جاء من الامبراطور

(١) كانت نكلون وهى بالعربية (النقلون) فى جوار قلمون على ساعتين الى الجنوب الغربى من مدينة الفيوم وأما الدير المسمى دير الخشب فقد وصفه أبو صالح وذكره متصلا بدير القلمون وقد وصفه كذلك المقريزى ولكن الظاهر أنه اندثر من زمن وقد جاء فى .d' Arch. Or الجزء الاول صفحة ٧٢ Bulletin) (I'Arch. Or.) de L'Institnt Franc أن دير النقلون فى الجبل شرق كوم بشا وأن دير القلمون عند سفح الجبل فى مدخل الفيوم وأنه كان فيه اثنتا عشرة كنيسة.

انت فامض بسلام، وأما هذا الأخ بنيامين فليس هو لك من الان بل الرب قد اصطفاه ليكون له خادما. وللوقت اخذه وقسمه قسا وصار عنده مساعدا له في البيعه وملكه على الكل، وفرح به اندرونيكوس فرحا عظيما، ولما دنت وفاته أوصى بأن يكون بعده، فلما تنيح جعلو بنيامين المذكور بطركا على الكرسى الإنجيلي.

ومكثو الفرس بعد ذلك ست سنين اخر ملوك [لـ] مصر وأعمالها. ثم أن هرقل مقدم البطاركة

الرومانى ولعنة الله على مجمع خلقيدونيه وكل من آمن بما أقره» فضرب صمويل حتى ظن أنه مات ثم غودر ولكنه عاد الى نفسه وسار الى القلمون حيث عاد لمحادثه لقيرس وما أعقبها كما أسلفنا وصفه.

وإذا كان مثل هذا العسف يجرى فى الصحارى فما بالنا بما كان يحدث للقبط فى بلاد مصر السفلى والصعيد ـ فلقد كان حظ من يأبى منهم أن يتخلى عن عقيدته أو ينازع قيرس فى أمره أن يجلد ويعذب أو يلقى به فى السجن أو يلقى الموت.

فكانت تقام أساقفة للملكانية فى كل بلد من مصر حتى انصنا[١] من بلاد الصعيد فى حين كان قسوس القبط يقتلون أو يشردون فى أنحاء الأرض يلتمسون فيها ملاذا.وكان السعى حثيثا غير منقطع وراء بنيامين، ولكن لم يعثر عليه فى مكان.وقد جاء فى كتاب مؤرخنا (ساويرس) أنه كان يتنقل من دير محصن الى آخر. وجاء فى ترجمة حياة شنوده[٢] ما يفهم

---

(١) كانت (انصنا) وهى (أنتنويه) عند ذلك عاصمة (التيبائيد) وكانت تجاه هرموبولس مجنا الى الشمال من لاكوبولس (وهى سيوط) فالظاهر أن سلطان قيرس لم يكن عظيما فى جنوب سيوط.

(٢) جاء ذكر ما وقع بين بنيامين وقيرس على صورة نبوءة ويجدر بنا أن نذكر ذلك هنا «سيخرج الفرس من مصر ثم سيقوم «الدجال» (وهو الاسم المعتاد للمسيخ المفسد) وسيذهب أمام إمبراطور الروم بعد أن يحصل منه على الرياستين رياسة الدنيا ورياسة الدين سيدخل مصر ويملك أرضها وملحقاتها وسيحفر الخنادق ويبنى الأسوار حول المدن فى الصحراء وسيخرب الشرق والغرب وسيحارب الراعى أكبر =

من قبل فوكا الملك الكافر اخذ المملكه وصرف
اهتمامه لقتال الفرس وبنعمة السيد المسيح سار
اليهم فقتل كسرى ملكهم الكافر وأخرب مدينته
وجعلها بريه وحمل نعمتها وسبيها بفرح الى
قسطنطينيه. فلما ملك الأرض اقام الولاه فى كل
موضع وانفذ واليا الى ارض مصر يدعى قيرس
ليكون بطركا ووالى معا، فلما وصل الى
اسكندرية اعلم الاب بنيامين ملاك الرب به وامره
ان يهرب، فقال له الملاك: اهرب انت ومن معك

منه أن بنيامين لجأ الى دير الأنبا شنوده وهو الدير العظيم المعروف بالدير الأبيض، على أن هذه الرواية تختلف عما تواتر من الأخبار عن أنه إنما لاذ بدير فى الصحراء قريب من (قوص). ولعل الدير الأبيض كان مع قوة حصونه ومنعة أسواره العظيمة غير كفيل بحماية بنيامين مدة طويلة لقربه من النيل، فى حين أنه كان يستطيع أن يجد ملاذا آمنا لا تصل إليه أيدى أعدائه فى جبال صحراء قوص، وما بها من المغاور الكثيرة والكنائس المنقورة فى الصخور.

وليس من العجيب أن يفتتن كثيرون ممن لم يستطيعوا الهجرة و الهرب وأن يخضعوا لما شاء قيرس منهم، فقد كان حكمه حكم إرهاب. واذا كان القبط لم تخمد نفوسهم فما كان لشعب بأجمعه أن يستشهد فى سبيل الدين. فدخل جماعة من الأساقفة فى المذهب الجديد مذهب عدوهم ومن هؤلاء أسقف (نقيوس)[١] واسمه (قيرس) وأسقف الفيوم (فكتور)، ولا شك أن عدواهم انتقلت الى سواهم. أما من لم يستطع الهرب من الناس والخروج الى الصحراء وكان مع ذلك غير راضى عن ترك مذهبه فقد لجأ الى التقية، وأظهر غير ما يبطن.

= أساقفة الاسكندرية والوالى على دين المسيحيين فى أرض مصر وسيهرب منه ذلك الراعى الى أرض (تيمان) حتى يعود الى ديرك وهو حزين متألم وعند ما يعود الى هناك سأعيده الى حاله وأرجعه الى عرشه».

(١) تذكر النسخة المخطوطة فى المتحف البريطانى لكتاب (ساويرس) «قيرس أسقف (سفنوش)» ولكن نسخة القاهرة المخطوطة تذكر (نقيوس) وهذا حق. وأما المقريزى فاته يذكر بطوس بدل (قيرس).

هاهنا لان شدايد عظيمة تنزل عليكم لكن تعز، فما يقيم هذا الجهاد الا عشر سنين، واكتب الى جميع الاساقفه اللذين فى كرسيك ليخفو [ليختفوا] حتى يجوز غضب الرب. فدبر الاب بنيامين المعترف المقاتل بقوه ربنا يسوع المسيح حال البيعه ورتبها، وتقدم الى الكهنه والشعب وأوصاهم بالتمسك بالامانه المستقيمة حتى الى الموت. ثم كتب الى ساير اساقفة كورة مصر بان يخفو من قدام التجربة الاتيه. وبعد هذا خرج من طريق

حتى لقد بقيت فى الاسكندرية ذاتها بقية من القبط فى سنى الاضطهاد العشر، مع أنهم لم يكن لهم بها إمام من مذهبهم اللهم إلا قس واحد من أهل مريوط اسمه (أجاتو)، وكان كل يوم يخاطر بحياته فى سبيل دينه. فكان يخفى نفسه فى لباس نجار ويسير فى أنحاء المدينة فى النهار يحمل على ظهره كيسا قد وضع فيه آلاته وعدته، فاذا ما جاء الليل ذهب الى الكنيسة كى يقيم شعائر العبادة لإخوانه القبط. وقد صار هذا القس فيما بعد أكبر أصدقاء بنيامين وخلفه بعدموته على ولاية الدين.

وروى أن دير (مطرا) ويسمى بدير (البسقوبيون) نجح فى مقاومة (قيرس)، وكان ذلك الدير فى الاسكندرية أو قريبا منها، وكان السبب فى أنه بقى على عهده لم يتغير أن كل رهبانه كانوا مصريين خلصا ليس فيهم غريب واحد(١).

والظاهر أن المصريين سعوا مرة الى التخلص من (قيرس) مع ما كانوا عليه من الصبر والاحتمال الطويل، فقد أثار حفيظتهم ما رأوه من فعله، وإذ تارة ينهب أوانى كنائسهم الثمينة لا يرقب فيها إلا ولا ذمة، وتارة يضربهم أو يسجنهم. فاجتمع أتباع الطريقة (الجايانية) فى كنيسة (دفاشير) بقرب مريوط، وتامروا على قتل ذلك الظالم. ولكن سمع بهذا الاجتماع (ضابط) رومانى اسمه (أودوقيانوس) وهو أخو (دومنتيانوس)، وكان عدوا شديد العداوة

(١) ساويرس نسخة المتحف البريطانى المخطوطة صفحة ١٠٧ (الكتاب ١١). (انظر كذلك المتن العلوى ص٥٨٨، ٥٨٩ من كتابنا هذا.

مربوط وهو ماش على رجليه ليلا ومعه اثنان من تلاميذه حتى وصل الى (المنى) ومن هناك مضى الى وادى هبيب. وكان الرهبان هناك قليلا، لانه عقيب الخراب الذى كان فى ايام دميانوس البطرك وكانت البربر لا تدعهم يكترون هناك. ثم انه خرج من الديارات بوادى هبيب ومضى الى الصعيد واقام مخفيا هناك فى دير صغير فى البريه الى كمال العشر سنين كما قال له ملاك الرب وهى السنين التى كان فيها هرقل والمقوقس(*) مسلطين على ديار مصر.

(*) المقوقس: لاحظ انه ذكره باسم قيرس فى ص٥٦٩.

للقبط، فأرسل جندا وأمرهم أن يذهبوا الى المتآمرين فيقتلوهم. فكان ذلك وقتل الجنود بعضهم وجرحوا منهم البعض بسهامهم، وقطعوا أيدى طائفة منهم بغير أن يسمعوا منهم شهادة أو يقوموا معهم بشئ يشبه القضاء، وبذلك قضى على المكيدة ونجا قيرس من الخطر(١).

وقد أوردنا هذه القصص جمعيها لكى ندل بها دلالة واضحة على شدة الاضطهاد وعنفه. وإنه ليخيل للانسان أنه من المستبعد أن يبقى مثل هذا الاضطهاد عشر سنوات، ولكن هذا هو الحق الذى لا مراء فيه فقد جاء فى ديوان (حنا النقيوسى) ما يأتى: «وظل قيرس الى ما بعد موت هرقل عندما عاد الى مصر» (وذلك فى سنة ٦٤١ بعد نفيه من البلاد أو غيابه عنها فترة)، «لم يذهب عنه حقده على عباد الله ولم يمتنع عن اضطهادهم بل زاد قسوة على قسوة»، وقد جاء مثل هذا القول فى كتاب (ساويرس) عن هرقل إذ قال: «وكمثل الديب الخاطف كان يأكل القطيع الناطق ولا يشبع، وهذا الشعب المبارك هم التاودوسيون(٢). ولكن

(١) حنا النقيوسى صفحة ٥٦٦ ويقول زو تنبرج بحق أن الفقرة التى بها هذا الخبر خارجة عن موضعها فان هذه الحادثة كانت قبل غزوة المسلمين. انظر ما قاله أميلنوفى (دفاشير) (Geog Copte) صفحة ١٢٢.

(٢) أنظر المتن العلوى ص٥٧٤. هذا القول عجيب وهو يدل على أنه فى أيام (ساويرس) كان القبط لا يزالون يسمون أنفسهم (التاودوسيون) وأن لفظ «القبط» فى الحقيقة كان مرادفا للفظ «تاودوسيين» وكان «الجيانيون» =

ولعظم البــلا والضــيق والعــذاب الذى انزله بالارتدكسيين لكى يدخلو فى الامـانة الخلقدونيـه ضل جـمـاعـة منهم لا يحـصـى عـددها، قـوم منهم بالعذاب وقـوم بالـهدايا والتـشريف، وقـوم بالسؤال والخداع. حتى ان قيـرس اسقف نيقيـوس وبقطر اسقف الفـيـوم وكـتـيـرا مـتلهم خـالفـو الامـانة الارتدكسيه لانهم لـم يسمعو وصية الاب المغبوط بنيـامين ولــم يخـفـو كـغـيـرهم فـصـادهم بسنارة ضـلالته فـضلو بالمجمع الخلقدونى الطمث. وظفـر

مـا كـان الاضطهـاد إلا ليـزيد من استطاعوا مقاومته إيمانا على إيمانهم، بدل أن يفتنهم عنه ويقضى عليه. فكانت الشدائد تتوالى بمذهب القبط والمصائب تفتك بأصحابه، ولكنه ظل قويا لم تلن قناته، وبقى أكثر الناس على إيمانهم ثابتين أقوياء. ولكن حد ذلك البطش كان قد بلغ نفوسهم فثلمها وجعل الداء ينخرفى جراحهم مدة ظلم تلك السنوات العشر وظلامها فكان ذلك سببا فى ضيـاع كل أمل فى عودة السلام والوفاق بين الطائفتين المتنازعتين، إذا استفحل الأمر واستمر مرير العداوة والكراهة لسلطان الدولة البيزنطية ودينها جميعا.

مسير العرب الى مصر

الظاهر أنه بعد أن سلم البطريق (صفر ونيوس) الشيخ مدينة بيت المقدس سار عمر بن الخطاب الخليفة وعمرو بن العاص القائد وذهبا كلاهما نحو الشمال. وقد ارسل عمرو مددا للعرب المحاصرين لقيصريه[1]، أما عمر فقد أقام فى دمشق. ولعل عمرًا قد أفضى اليه برأيه

= طائفة صغيرة فى وقت قيرس ومع ذلك فالأستاذ (Bary) عندما ذكر تولية قيرس يقول إن «أول عمل قام به هو أن يستميل اليه الطائفه الكبرى طائفه التاودوسيين أو (الفطار تولاتربين) أنظر كتابه (Later Rom Emp) (الجزء الثانى صفحة ٢٥١).

(١) أنظر كتاب "Conquête de la Syrie" De Goeje صفحة ١٣٠، وقد جاء فى ابن خلدون وابن الأثير أنه «لما أخذ عمر بيت المقدس سار عمرو الى مصر» ولكن البلاذرى وهو أسبق منهما وأثبت يقول إن مسير عمرو كان عند حصار قيصرية وهو يروى رواية يفهم منها أن عمرا سار بغير =

هرقل بالمغبوط مينا اخى الاب بنيامين البطرك فنزل عليه بلايا عظيمه واشعل فى جنبيه المشاعل حتى خرج شحم كلاه من جنبه وسال على الارض، وقلع اضراسه واسنانه باللكم لاعترافه بالامانه، وامر ان يملا جوالق [جوال] رملا ويجعل القديس مينا فيه ويغرق فى البحر. وكان هرقل الكافر قد اوصاهم وقال: ان قال احد ان مجمع خلقدونيه حق خلوه، ومن قال انه ضلال وكذب غرقوه فى البحر. ففعلو ذلك ورموه فى البحر وهم يمسكون

فى فتح مصر منذ كانا فى بيت المقدس، ولكن الخليفة رأى أن وقت ذلك الفتح لم يحن بعد. فلما ظهر العرب وانتهت الحرب أو كادت عاد عمرو الى عرض رأيه، وجعل يبين للخليفة ما كانت عليه مصر من الغنى وما كان عليه فتحها من السهولة، وقال له إنه ليس فى البلاد ما هو أقل منها قوة[1] ولا أعظم منها غنى وثروة.

فبعث له عمر بن الخطاب بكتاب مع (شريك بن عبده)[2] يقول له فيه إنه قد رضى بغزو مصر، وتقدم اليه أن يجعل الأمر سرا وأن يسير بجنده إلى الجنوب سيرا هينا. فسار عمرو بن العاص فى الليل فى جيش صغير من الخيل يرافقه المداد كبيرة من بدو الشام وسيناء ولم يحدث له حدث حتى صار عند الحدود بين مصر وفلسطين، وسار بعد ذلك حتى صار عند رفح[3] وهى على مرحلة واحدة من العريش أرض مصر.

= علم عمر، وروى رواية أخرى أن عمرا كان فى مسيره مؤتمرا بأمر الخليفة، ويروى المقريزى الروايتين معا.

(١) أخذنا هذا عن معجم البلدان لياقوت (الجزء الثالث صفحة ٨٩٣).

(٢) جاء اسمه ذاك فى المقريزى إذا قال. «ويقال إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى عمرو بن العاص بعد ما فتح الشام أن اندب الناس الى المسير معك الى مصر فمن خف معك فسر به وبعث به مع شريك بن عبده».

(٣) وقد جاء فى النص العربى للواقدى أن عمراً «ترك الصحراء وجعل الحصون التى فى طريقه الى مصر عن يمينه وهى رفح والعريش والعداد والبقارة والفرما.

الجوالق واخرجوه من البر مقدار سبع غلوات وقالو له قل أن مجمع خلقدونية جيد لا غير ونحن نخليك فلم يفعل، وفعلو هذا به تلت دفعات فلما لم يفعل غرقوه. ولم يغلبو هذا المجاهد مينا بل غلبهم بصبره المسيحى.

ثم ان هرقل اقام اساقفه في بلاد مصر كلها الى انصنا، وكان يبلى اهل مصر بلايا صعبة وكمثل الديب الخاطف كان ياكل القطيع الناطق ولا يشبع. وهذا الشعب المبارك هم التاودوسيون.

غادر العرب العريش وما حولها من بساتين النخيل وساروا في الطريق إلى الغرب بعيدين عن البحر، فإن الطريق بعد العريش تسلك قطعة من الصحراء تتخللها بعض عيون وقرى، وهى الطريق القديمة المؤدية الى مصر وكانت فوق ذلك فى كل الأوقات طريق التجار وأهل الأسفار والحاج تتردد عليها القوافل بين آسيا وأفريقيا. وقبل أن تبلغ الطريق مدينة الفرما ببضعة أميال تنحدر إلى الشمال الغربى فتقتحم الكثبان وهى التلال المتحركة من الرمال ولم يلق العرب احدا من جنود الروم حتى اقتربوا من المدينة.

ومدينة (بلوز) اسمهابالقبطية (برمون) ويسميها العرب (الفرما) وكانت على نهد من الأرض على نحو ميل ونصف من البحر، وكان لها مرفأ لعله كان متصلا بالمدينة بخليج يجرى من البحر. وكان فرع من النيل اسمه الفرع (البلوزى) يصب فى البحر بقربها. وكانت مدينة قديمة قوية الحصون بها كثير من آثار المصريين القدماء كما كان بها كنائس وأديرة، وكان لها شأن كبير إذ كانت مفتاح مصر من الشرق تشرف على طريق القادم من الصحراء، وتملك ناصية البحر ويجرى اليها فرع من النيل يؤدى الى مصر السفلى. ومع كل ذلك فالظاهر أنها لم تكن منيعة فإن الفرس وقد كانوا مبرزين فى فنون الحصار لم يعانوا مشقة كبرى فى فتحها، ولعلهم دكوا أسوارها وخربوا حصونها كما خربوا كنائسها.

وليس لنا علم بعدد جندها ولكن من الواضح أن حاميتها كانت تهبط اليهم من حصنها

وفى تلك الايام راى هرقل مناما وقيل له انه ستاتى عليك امة مختونة وتغلبك وتملك الارض، فظن هرقل انهم اليهود فامر ان تعمّد جميع اليهود والسامره فى جميع الكور التى تحت سلطانه.

ومن بعد ايام يسيرة ثار رجل من العرب من نواحى القبله من مكه ونواحيها اسمه محمد فرد عباد الاوثان الى معرفة الله وحده، وان يقولو ان محمد رسوله. وكانت امته مختونة بالجسد لا بالناموس، ويصلون الى الجهة القبليه مشرقين الى

بين حين وحين لقتالهم. واستمرت الحرب متقطعة مدة شهر، ويقول أحد المؤرخين[1] بل شهرين، ثم خرج اليهم جنودها مرة ليقاتلوهم ولما عادوا لائذين الى مدينتهم تبعهم العرب فملكوا الباب قبل أن يقتحموه، وقد روى المقريزى وأبو المحاسن أن قبط الفرما ساعدوا العرب أثناء الحصاره .

فلما ملك العرب الفرما صار فى أيديهم معقلا يؤمن لهم الطريق المؤدية الى بلادهم، ويضمن لهم سبيل الرجوع اذا نزلت بهم هزيمة. وقد فطنوا بعد فتح الفرما الى ماهم مقبلون عليه من الأمر الخطير اذا أتيح لهم فتح حصن بابليون والاسكندرية العظيمة، ولابد أن يكون عمرو قد أدرك أنه لن يستطيع شيئا اذا لم يوافه عمر بن الخطاب بما وعده من الامداد. ولكنه فى نفس الوقت قام بتجنيد كل من صادفه من البدو فى سيناء والصحراء الشرقية والغساسنة والانباط الذين كانوا يقيمون فى هذه المناطق تحت وعود الاسلاب والغنائم فأصبحت له عدة كبيرة إلى جانب الامدادات التى وصلته من الحجاز. سار عمرو من الصالحية أو (القصاصين) الى الجنوب فاجتاز تلال وادى الطميلات فى موضع قريب من مكان اشتهر اليوم بوقعة كانت فيه وهى وقعة التل الكبير ١٨٨٢ . فلما خرج من الوادى لم يبق دونه إلا سير هين حتى يبلغ بلبيس.

(١) جاء فى ياقوت أن المدة كانت شهرين وأما ابن بطريق والمقريزى وسواهما فيقولون انها كانت شهراً.

موضع يسمونه الكعبه. وملك دمشق والشام وعبر الاردن وسادها. وكان الرب يخذل جيش الروم قدامه لجل امانتهم الفاسدة والحروم التى حلت بهم لجل مجمع خلقدونية من الابا الأولين. فلما راى هرقل ذلك جمع جميع جيشه من مصر الى حدود اسوان. ومكث يدفع القطيعه [الجزيه] التى سال حتى يقررها على نفسه وعلى جميع جيوشه تلات سنين للمسلمين. وكانو يسمون المقرر البقط، أى أنه بقط روسهم، الى ان دفع لهم معظم ماله،

ويقال أنه فى ذلك الوقت جاءت جماعة عليها أحد الأساقفة، وإنهم فاوضوا عمرا فى ذلك الوقت. ويقول الطبرى فوق هذا إن عمرا طلب الى القبط أن يساعدوا المسلمين لما كان بينهم وبين العرب من قرابة فى النسب إذ تجمعهم (هاجر). ولكن قائد الحامية الرومانية للمدينة الذى يسميه العرب أرطبون وصحة اسمه (أريطيون) هو نفسه حاكم بيت المقدس[1]، وكان قد هرب الى مصر قبيل تسليم المدينة لعمر بن الخطاب. هاجم جيش العرب ولكن الدائرة دارت عليه فهزم وتمزق جيشه. غير أن العرب لبثوا عند بلبيس مدة شهر حدث فى أثنائه قتال كثير وقتل من العرب فيه عدد ليس بالقليل، ويقال إن الروم خسروا ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير.

وصار عمرو بعد ذلك على مسيرة يوم من مفترق فرعى النيل، فمر بمدينة (هليوبولس) سائرا على جانب الصحراء ثم هبط الى قرية على النيل إسمها (أم دنين) وكانت إلى الشمال من حصن (بابليون)، وموقعها اليوم فى قلب (القاهرة)[2]. وكانت فى أم دنين حامية قوية،

(١) ظاهر فى الاسم تحوير (أريطيون) إلى (ارطبون). وقد ذكر أبو المحاسن الاسم الصحيح.

(٢) نظن أنه ليس من شك من أن هذا الموضع الذى يسميه العرب (أم دنين) هو الذى يسميه (حنا النقيوسى) (تنونديس) فانه إذا أزيل الحرف الأول منها وهو دليل على المؤنث فى اللغة القبطية صار التشابه بين الاسمين عظيما. قد جاء فى ياقوت والمقريزى أن (أم دنين) هى المقس على الضفة الغربية=

ومات كثير من الناس من التعب الذى كانوا يقاسونه.

فلما تمت عشر سنين من مملكة هرقل والمقوقس وهو يطلب بنيامين البطرك وهو هارب منه من مكان الى مكان مختفيا فى البيع الحصينه، انفذ ملك المسلمين [عمر بن الخطاب] سريه مع امير من أصحابه يسمى عمرو بن العاص فى سنة تلتمايه وسبع وخمسين لديقليديانوس قاتل الشهدا، فنزل عسكر الاسلام الى مصر بقوة عظيمة فى

ولهذا كان فى استطاعة الجيش الرومى الأكبر الذى فى الحصن أن يهبط فى أى وقت شاء إلى العرب ثم يعود إذا شاء إلى حصنه آمنا وراء أسواره العظيمة. ومضت على ذلك أسابيع عدة فى مناوشة وقتال خفيف.

ولكن مهما كان من أمر القتال وشدته فقد أتم العرب ما قصدوا اليه وأخذوا (أم دنين)، فملكوا بذلك منزلا على النيل جعلوا فيه حامية منهم، واستطاع عمرو أن يأخذ من السفن ما يكفى بقية جنده لاجتياز النهر.

وقعة هليوبولس

سار عمرو بمن معه الى الجنوب بعد أن عبروا النهر سالمين، وكان سيرهم بجوار المزارع حتى بلغوا (ممفيس). وكانت تلك المدينة القديمة قد اضمحل أمرها منذ بناء الاسكندرية ـ

= للخليج (خليج تراجان) وعلى نهر النيل ويقول المقريزى إنها كانت ميناء مصر فى وقت الفتح. ومن المعلوم أن المقس كان فى الموضع الذى فيه اليوم حديقة الأزبكية وقد كان النيل عند ذلك يجرى بجوار حصن بابليون ودير (أبى سيفين) فكان مجراه إلى شرق المجرى الحالى بكثير وكان بعد مروره بالكبش يتجه شمالا الى ذلك الموضع (المقس) وعلى ذلك فقد كان الحصن الرومانى (تنونديس) هناك قرب الأزبكية ومعه ميناء مصر ومراسيها وكان هناك ميدان القتال الذى حدث. وليس من العجيب أن يكون النيل قد غير مجراه هكذا فى مدة اثنى عشر قرنا وإن ابن دقماق لا يترك فى ذلك الأمر شكا.

اليوم الثانى عشر من بوونه وهو السادس من يونيو من شهور الروم. وكان الامير عمرو قد هدم الحصن واحراق المراكب بالنار واذل الروم وملك بعض البلاد وكان مجيه للبريه، فاخدو الخيل للجبل حتى وصلو الى قصر مبنى بالحجاره بين الصعيد والريف يسمى بابلون فضربو خيمهم هناك حتى ترتبو لمقاتلة الروم ومحاربتهم، ثم انهم سمو ذلك الموضع اعنى القصر بلغتهم بابلون الفسطاط وهو اسمه الى الان. وبعد قتالهم تلت

ولم يبق منها اليوم باق ـ على أنها كانت في وقت غزوة العرب لا تزال اطلالها ماثلة في الموضع الذى كانت فيه عاصمة لدولة الفراعنة، وكانت فيها مساكن عدة لاتزال آهلة. وكانت في الجانب الآخر من النيل مدينة نما أمرها وزاد سكانها حتى لقد كان يطلق عليها اسم ممفيس[1] أحيانا ، وتلك هى مدينة مصر، وكان أكثرها الى جنوب حصن بابليون. ولعل العرب رأوا عند ذلك لأول مرة وهم فى الجانب الغربى للنيل مصر واضحة تشرف عليها صروح حصن بابليون سامقة فوق ماء النهر من وراء جزيرة الروضة.

وأما سيرهم إلى الفيوم فليس لدينا علم بين بوصفه. وكان حاكم مدينة بيوم (الفيوم) اسمه (دومنتيانوس) وأما حاكم الإقليم فاسمه (تيودوسيوس)، وكان عند ذلك مع حاكم الاسكندرية (أنستاسيوس) فى بعض بلاد مصر السفلى بقرب (نقيوس)، ووكل أمر الدفاع عن الإقليم الى (حنا)[2] قائد كتيبة (الخفر)، وهى كتيبة من أهل البلاد. وكان تحت إمرته رجل آخر اسمه

---

(١) قال اليعقوبى إن «مدينة ممفيس متهدمة» وقد كانت المدينة التي حول قصر الشمع محلة مصرية قديمة فقد وجدت بها آثار فرعونية وكان عند الباب الجنوبى للحصن تمثال مصرى معروف ووجدت حجارة فى أسوار الحصن علهيا نقوش هيروغليفية وكان اسم المدينة «مصر» ولكن كالظاهر أن «مصر» و«منف» كانا يستعملان مترادفين فى بعض الأحوال فقد قال عبداللطيف «وتوجد الآثار التى بمصر القديمة وهذه المدينة بجوار الجيزة التى وراء الفسطاط وكانت مسكن الفراعنة ومقر ملوكهم».

(٢) جاء فى بعض المصادر القديمة أن حنا هذا هو حنا حاكم برقة أو برقينه ولدينا ما يحملنا على الظن أنه كان مرسلا من قبل هرقل ولقدكان هو بعينه «قائد الرديف» الذى أتى بنص المذهب الجديد موفدا =

دفعات غلبو المسلمون الروم، فلما راى ريسا المدينة هذه الامور مضو الى عمرو واخذو امانا على المدينة ليلا [لئلا] تنهب. وهذا العهد الذى اعطاهم اياه محمد ريسهم سموه الناموس [العهد](*) يقول فيه: كورة مصر و مدينتها تستقر مع اهلها [متى] دفع الخراج لكم وان تعهد لسلطانكم عاهدوهم ولا تظلموهم. ومن لا يرضى ذلك ويخالفكم انهبوهم وايسروهم. فلذلك مسكو ايديهم عن الكوره واهلها واهلكو جنس الروم وبطرقهم

(*) العهد هو النص القرآنى القائل: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

(حنا الماروسى).وقد وضع الجنود عند ثغور الفيوم التى يدخل الى الاقليم منها، وحرست حراسة حسنة، وأقام الروم ربيئة لهم فى حجر اللاهون[1] ليرصد العدو ويعرف أخباره ومسيره، ويحمل أنباء ذلك الى (حنا)وكان مقيما قرب شاطئ النهر. ثم أرسلت سرية من الفرسان والرماة الى العرب لتحول بينهم وبين السير، ويلوح لنا أن جنود العرب لم يقووا على أن يخلصوا ممن لاقاهم من الروم، فعدلوا الى جانب الصحراء وجعلوا يستاقون الغنائم، فأخذوا منها عددا عظيما، وضّم إليه العديد من بدو هذه المناطق. وما زالوا كذلك حتى بلغوا مدينة البهنسا[2] ففتحوها عنوة وقتلوا من وجدوا بها من رجال ونسوة وأطفال. ثم سمع عمرو بأن (حنا) كان يسير وراءه فى قلة مع خمسين من فرسانه يرقبون سيره، فبعد به عمن كان وراءه من جنده ثم كر عليه مباغتا. فلما رأى(حنا) ذلك وأن الخطر محدق به أراد أن يعود

= من (سرجيوس) الى (قيرس) وهو الذى حمل مع هذا النص الصليب الذى جاء ذكره فى (حنا النقيوس).

(١) إذا أردت معرفة أخبار هذا الموضع فارجع الى كتاب الدكاترة "Hunt & Grenfell" وهو "Fayoum Towns and their Papyri" (صحفة ١٣ شكل١٨) واللاهون على بحر يوسف على نحو عشرة أميال من مدينة الفيوم وكانت عند مدخل الوادى الذى بين الجبال المحيطة بكوره (أرسنويه) وكانت موضعا ذا شأن فى الأمور الحربية للدفاع عن الاقليم.

(٢) البهنسا المقصودة هنا هى فى كورة الفيوم بالطبع وليست البهنسا المعروفة التى فى موضع المدينة القديمة "Oxyrhynchus" فقد كانت تلك على بعد خمسين ميلا الى الجنوب من بعد بهنسا الفيوم.

المســـمى مـــاريانوس. ومن سلم منهم هربو الى اسكندريه واغلقو ابوابها عليهم وتحصنو فيها.

وفى سنة تلتمايه وستين لديقلاديانوس فى شهر دكنبريوس [ديسمبر] من بعد ان ملك عمرو مصر بتلت سنين ملكو المسلمـــون مـــدينة اسكندريه وهدمو سورها واحرقو بيعا كتيرا بالنار وبيعة مارى مرقس التى هى مبنية على البحر حيث كان جسده موضوعا هناك وهو الموضوع الذى مضى اليه الاب البطرك بطرس الشهيد قبل استشهاده وبارك فيه وسلم اليه القطيع الناطق كما تسلمه.

سريعا إلى عسكره فى (أبويط)[1] وهى واقعة على النيل على مسافة قليلة من موضعه، فكان يسير بجنوده فى الليل ويكمنون بالنهار فى النخيل والآجام، ولكن عمرا علم بمكمنه إذ دله عليه أحد شيوخ البدو، فحاصره ومن معه وقتلهم فلم يدع منهم أحدا. فقتل فى ذلك (حنا) قائد الكتيبة ووكيله لأن العرب لم يتخذوا منهم أسرى وكان هذا دأبهم طوال طريقهم منذ دخولهم مصر.

فلما بلغ القائد (تيودور) نبأ هذه النكية بكى وأعول، ثم هب بعد ضياع الوقت فحشد من دونه من الجنود وبعث بهم صعدا فى النهر إلى جزيرة (لكيون)، ثم أسرع (انستاسيوس) و (تيودوسيوس) بالعودة من (نقيوس) إلى حصن (بابليون) ليساعدوا من به، وأرسلوا من الحصن سرية جعلوا عليها قائدا اسمه (ليونتيوس) إمدادا للعسكر فى (أبويط). فلما بلغ (ليونتيوس) مضرب العسكر فى (أبويط) وجد المصريين حيال العرب، ووجد أن (تيودور) قد لاذ بجنوده فى مدينة الفيوم، يخرج منها بين حين وحين فيهوى إلى العرب فى البهنسة يقاتلهم.

---

(١) بين أميلنو فى كتاب (Geog Copte) (صفحة٣) أن هناك موضعين باسم (أبويط) والمدينة المقصودة هنا لابد أن تكون فى مديرية بنى سويف فى الوقت الحالى وهى قرية من (بوصير كوريدوس) فى الشرق من حجر اللاهون.

فاحرقو هذا الموضع وما حوله من الديارات. وكانت اعجوبه عند حرق البيعه المذكوره فعلها الرب، وذلك أنه احد ريسا المراكب وهو ريس مركب الدوكس سانوتيوس(*) تسلق ونزل الى البيعة واتى الى التابوت فوجد الثياب قد اخذت لانهم ظنو ان فى التابوت مالا، فلما لم يجدو شيا اخذوا الثياب من على جسد مارى مرقس وبقيت عظامه فيه، فلما جعل ريس المركب يده فى التابوت وجد راس القديس مرقس واخدها وعاد

(*) كان سانوتيوس من كبار الموظفين البيزنطيين الذين تعاونوا مع عمرو بن العاص وذلك بقيادته للأسطول البحرى الذى واكب سير الحملة العسكرية التى كانت بقيادة عمرو بن العاص فى تقدمه نحو بنتابولس (برقه).

ولاشك أن العرب لم يستطيعوا فتح مدينة الفيوم، وأنهم عادوا أدر اجهم إلى الشمال منحدرين مع النهر، وكان (تيودور) قد أمر بالبحث عن جثة (حنا) وكانت قد ألقيت فى النهر، فانتشلها الناس فى شبكة، ثم حنطت ووضعت على سرير وحملت فى النيل الى حصن (بابليون) تحيط بها آيات الحزن، ومن ثم بعثوا بها إلى هرقل[1].

وكان أول سير عمرو إلى الفيوم نحو أول شهر مايو، و قضى فى غزوته بضعة أسابيع أضاعها. ولعل قدوم أمداد المسلمين التى بعث بها عمر بن الخطاب كان فى السادس من شهر يونيه، وكان عدتها ٤ آالاف جندى، والتقى الجميع قريبا من هليوبولس، كان الأمير على المدد الزبير بن العوام. ثم جاء فى عقبه كتيبتان كل منهما من أربعة آلاف رجل، فكان جميع من جاء من الأمداد اثنى عشر ألفا[2]. وقد علم الروم أن النيل يعلو فى مجراه العميق فى وسط الصيف، ولهذا أرادوا أن يناجزو المسلمين بمن اجتمع منهم قبل أن يفيض النهر، ولكنهم

---

(١) وهذا الحادث يدل على أن حنا كان موفدا من قبل الامبراطور نفسه لغرض معين وكان (تيودور) بغير شك يعتمد على مقدرة حنا فى الحرب ولذلك اهتم اهتماما عظيما لموته.

(٢) اختلف الرواة فى عدد الأمداد فقال ابن عبدالحكم إنها كانت ٤٠٠٠، وقال البلاذرى ١٠,٠٠٠ أو ١٢,٠٠٠، وقال ياقوت ١٢,٠٠٠، وأورد المقريزى نقلا عن الكندى خيرا رواه يزيد أن جيش عمرو كان ١٥,٥٠٠ وتفصيل ذلك أن جيشه الأول كان ٣,٥٠٠ ثم زاد ١٢,٠٠٠، وقال السيوطى على اليقين إن الإمداد جاء أرسالا الى أن بلغ ١٢,٠٠٠ وهذا مارآه المقريزى. وقال أن كتيبة منها كانت مع الزبير =

الى مركبه ولم يعلم به احدا وخباها فى الخن فى قماشه. فلما ملك عمرو المدينة ورتب امورها خاف الكافر والى اسكندريه(*) وهو كان واليها وبطركها من قبل الروم ان يقتله عمرو فمص خاتما مسموما فمات لوقته.

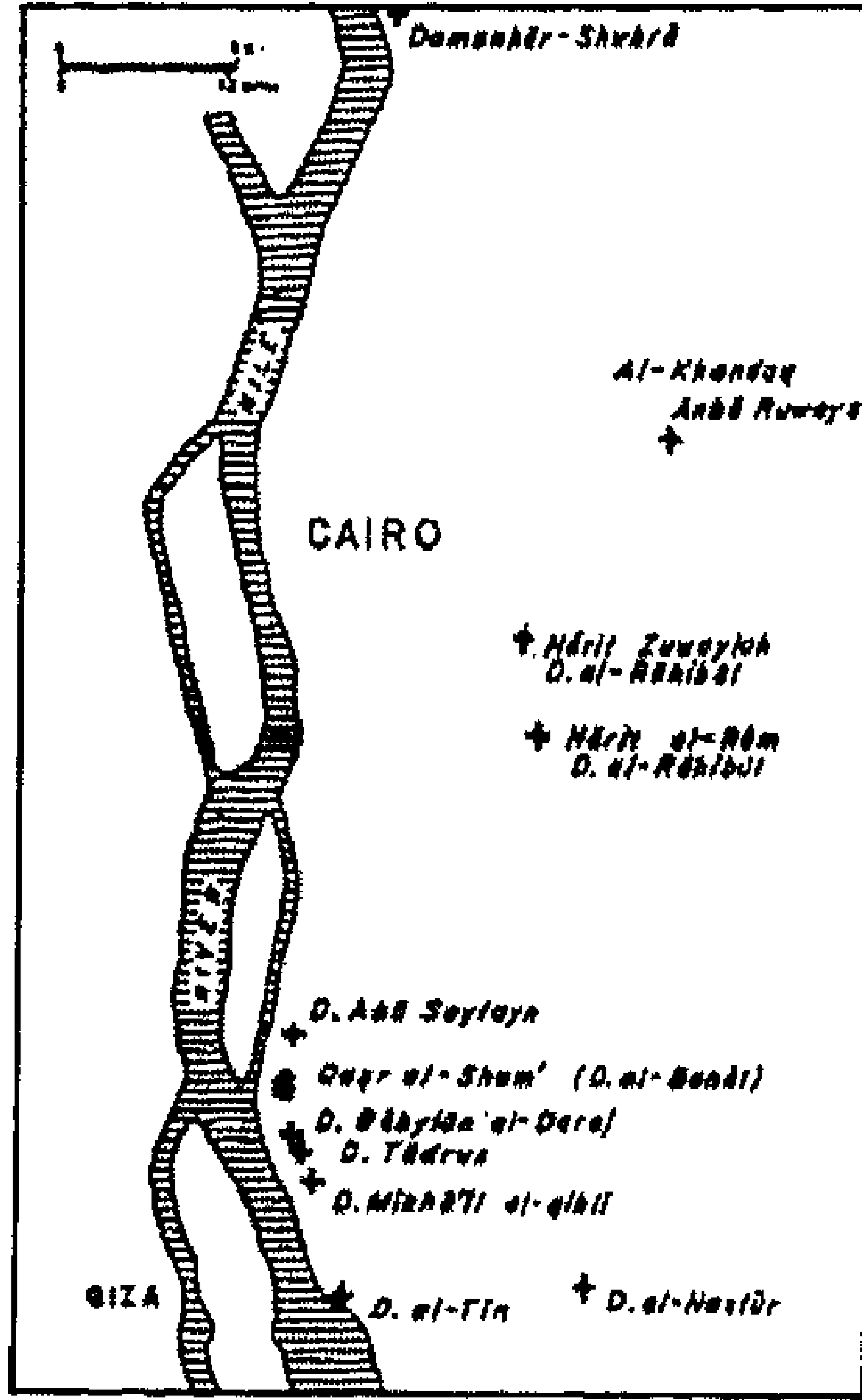
(*) يذكـر بتلر أن هذا الوالى هو (قيرس). انظر ص٦٤٣.

فأما سانوتيوس الدوكس المومن فإنه عرف عمرا سبب [اختفاء] الاب المجاهد بنيامين البطرك وانه هارب من الروم خوفا منهم، فكتب عمرو بن

عجزوا كل العجز عن أن يحولوا دون اجتماع جيوش المسلمين المتفرقة، مع أنهم كانوا يملكون حصن بابليون وكان نهر النيل فى يدهم، وعادوا إلى حامية (أم دنين) فملكوها. فلو كان عندهم علم بالحرب وحزم فى الرأى لا ستطاعوا أن يمنعوا عمرا من العبور إلى الجانب الشرقى، فكانوا يجعلونه بذلك فى معزل عمن جاء يمده، ولعلهم كانوا يستطيعون بذلك القضاء عليه.

ولكنهم لم يفعلوا ذلك مع كل ما لديهم من ميزة عليه، واستطاع عمرو أن يعبر النهر إما عنوة وإما على غرة منهم. وأغلب الظن أنه عبر النهر فى موضع أسفل من موضع(أم دنين) الى الشمال منها، لأن ترعة (تراجان) كانت عند ذلك مطمومة منذ أهمل أمر حفرها، ولم تكن لتعوق سير العرب حتى فى وقت فيض النيل. وكان عمرو وقد علم بأن أمداد المسلمين

= وعددها ٤,٠٠٠، وهذا يفسر السبب الذى جعل مؤرخى العرب يقولون إن الامداد كلها كانت ٤,٠٠٠ ومن العجيب أن (حنا النقيوسى) يقول إنها كانت ٤,٠٠٠ ويزيد على ذلك أن قائدها كان اسمه (والواريا) وكان أسود وهو من الهمج ولا نستطيع أن نعرف الاسم المقصود، على أنه قد كان منهم قائد أسود وهو عبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود، ومسلمة بن مخلد كان على ألف رجل وإن الزبير مثلهم . وإنه لا يوجد نوع من الخلط إلا وقع فيما كتبه العرب وعلى ذلك فليس عجيبا أن نرى المقريزى يؤجل وصول الامداد وهى ١٢,٠٠٠ مع الزبير ـ الى الوقت الذى كان العرب يحاصرون فيه حصن بابليون.



العاص الى اعمال مصر كتابا يقول فيه: الموضع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والامان والسلامة من الله فليحضر امنا [آمناً] مطمينا [مطمئنا] ويدبر حال بيعته وسياسة طايفته. فلما سمع القديس بنيامين هذا عاد الى اسكندريه بفرح عظيم بعد غيبة تلت عشره سنه، منها عشر سنين لهرقل الرومى الكافر، وتلت سنين قبل ان يفتحو المسلمون اسكندريه، لابسا اكليل الصبر

سائرة فى طائفتين ميممة شطر (عين شمس) وهى (هليوبولس)، وعلم أن مقامه فى الجانب الغربى خطر والحق أنه فزع خوفا من أن يفطن الروم إلى الأمر فيحولوا بينه وبين الاتصال بالمدد الذى جاء به الزبير، ولكن (تيودور) ضيع الفرصة على عادته، فلم يضرب الضربة القاضية، واستطاع عمرو أن يسير للقاء المدد ويبلغ عسكر المسلمين فى هليوبولس.

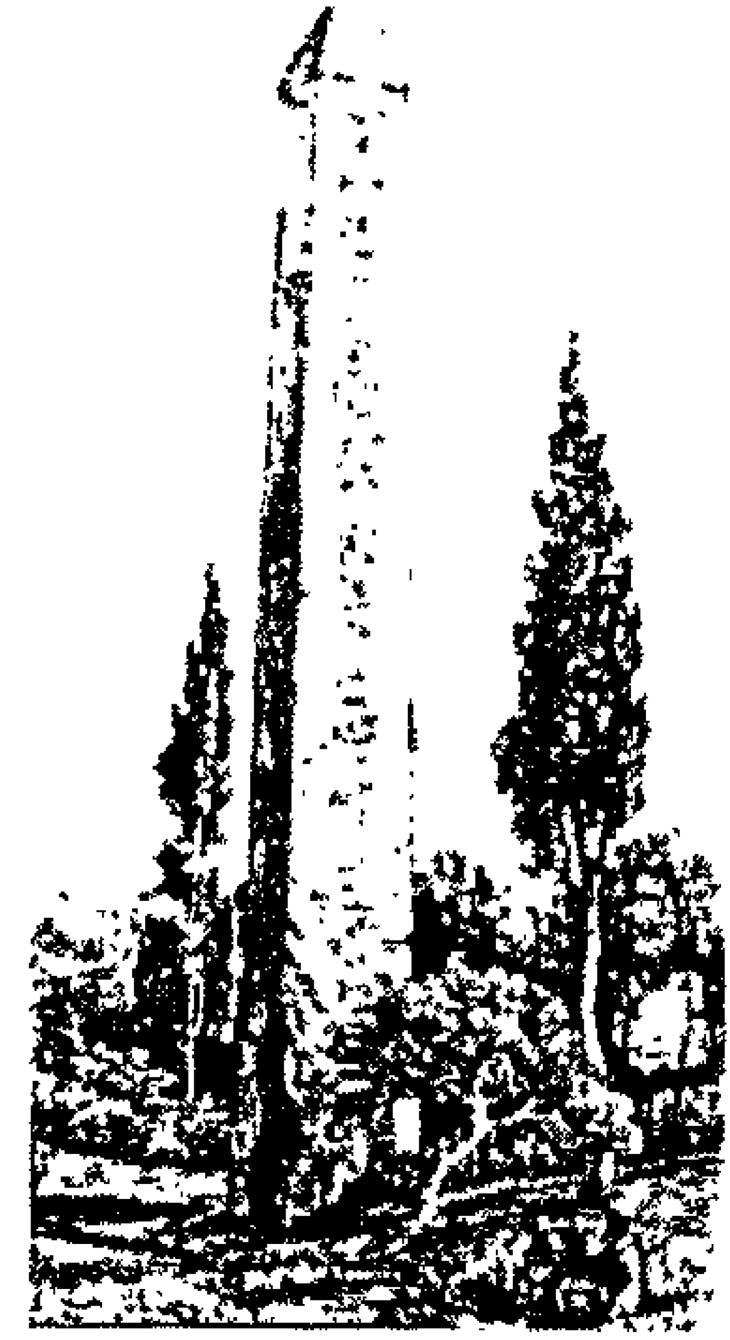
كانت هليوبولس فى الأزمنة القديمة إحدى مدن مصر الكبرى واسمها (أون). وكان أسمها لا يزال باقيا يطلقه القبط عليها فى القرن السابع، ويفيد ذلك الاسم معنى (مدينة الشمس). ولا شك أن اليونان أخدوا ذلك المعنى فجعلوا اسمها عندهم (هليوبولس). وقد احتفظ العرب كذلك بذلك المعنى فجعلوا اسم الموضع (عين شمس)[1]. وكانت هذه المدينة معروفة بعظمة آثارها كما كانت معروفة بأنها قبلة لأهل العلم وكعبة للدين. ولما زارها (سترابو) قبل ذلك الوقت بستة قرون كان الناس هناك يدلونه على المواضع التى كان أفلاطون يتلقى فيها العلم من قبل. على أن الزمن عند ذلك كان قد غير المدينة وجرت صروفه وحروبه وحصاراته ذيل العفاء على أكثر معابدها وتماثيلها، فلما أتى العرب لم يكن باقيا من مجدها

---

(١) الظاهر أنه قد غلب الاسم الجديد (المطرية) على الاسم القديم(عين شمس) والموضع معروف للسياح من أجل شجرة العذراء والعين التى استراحت الأسرة المقدسة بجوارها.

وشدة الجهاد الذى كان على الشعب الارتدكسى من الاضطهاد من المخالفين.

فلما ظهر فرح الشعب وكل المدينه واعلمو بمجيه سانوتيوس الدوكس المومن بالمسيح، الذى كان قرر مع الامير عمرو حضوره واخذ له منه الامان، فمضى لذلك الامير وعرفه بوصوله فامر باحضاره بكرامة واعزاز ومحبه، فلما راه اكرمه وقال لاصحابه وخواصه: ان فى جميع الكور التى



مسلة سنوسرت الأول بمدينة آون (هليوبوليس: عين شمس = المطريه). وهى المسلة الوحيدة الباقية من المسلات المائة التى كانت ترتفع فى سماء أون.

القديم إلا قليل من أسوار مهدمة، وتماثيل (لأبى الهول) قد دفن نصفها تحت الثرى، وعمود واحد مما يعرف (بالمسلة) ولا يزال باقيا إلى اليوم ذكرى من ذلك العالم الغابر.

وكانت المدينة على نهد من الأرض، يحيط بها قديما سور غليظ ولم يكن لها خطر فى الحرب فى ذلك الوقت، ولكنها كانت تستطيع المدافعة، وكان فيها ماء كثير، وتصلح لإمداد الجيش بالمؤونة، ولهذا اتخذها عمرو مقرا وجعل يتجهز منها لما هو مقبل عليه من القتال. وقد وصفنا فيما سلف من قولنا مقدم (تيودور) الى حصن بابليون وأنه جعل يحشد فيه الجنود من بلدان مصر السفلى، ولكن لعله ما أتم حشد الجيش الذى كان يستطيع به قتال العرب والخروج به الى عين شمس حتى كانت الأمداد التى بعث بها عمر بن الخطاب قد بلغت عمرو بن العاص، فأصبح بها أميرا على جيش عدته خمسة عشر ألفا، من بينهم طائفة من أكبر فرسان العرب[١] هذا غير الاعداد الوفيرة من البدو الذين انضموا للجيش العربى منذ دخوله مصر ولسنا نعرف عدد الجيش الذى حشده الروم إلا بالظن والحدس.

(١) ذكر ابن الحكم كما جاء فى كتاب أبى المحاسن الأسماء الاتية للزعماء العرب الذين شهدوا فتح مصر: عمرو وابنه عبدالله والزبير وعبدالله بن عمرو سعد بن أبى وقاص (وهذا مختلف فيه) وخارجة بن حذافة وقيس بن أبى العاصى السهمى والمقداد بن الأسود وعبدالله بن سعد بن أبى سرح ونافع بن عبد قيس الفهرى وأبو رافع وابن عبدة وعبدالرحمن وربيعة ابنا شر حبيل بن حسنة ووردان مولى عمرو. ومن=

ملكناها الى الان ما رايت رجل الله يشبه هذا. وكان الاب بنيامين حسن المنظر جدا جيد الكلام بسكون ووقار. ثم التفت عمرو اليه وقال له: جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر احوالهم واذا انت صليت عليّ حتى امضى الى المغرب والخمس مدن واملكها مثل مصر.

واعود اليك سالما بسرعه فعلت لك كلما تطلبه مني. فدعا له القديس بنيامين واورد له كلاما

كانت خطة عمرو أن يجعل الروم يخرجون اليه فيقاتلونه في السهل وهم بعيدون عن حصن بابليون، فلما أحس (تيودور) من نفسه القوة جعل يناجز العرب، وسار اليهم بجيوشه نحو (هليوبولس)، وكانت على مسافة ستة أميال أو سبعة عن عسكر العرب. وكان على الخيل (تيودوسيوس) و(انستاسيوس)، ولكن أكثر الجمع كانوا رجالة بعضهم رماة وبعضهم يحملون الرماح. وكانت عيون البدو القاطنين بصحراء المنطقة قد أسرعت فحملت الى عمرو ما عزم عليه الروم، فاستطاع أن يوجه جنوده إلى مواضعهم ويعبئهم للقتال. فسار هو من هليوبولس مع أكثر الجمع من العرب للقاء الروم، ولكنه أرسل تحت الليل كتيبتين: إحداهما الى (أم دنين)، والأخرى وعليها خارجة بن حذافة الى مكان واقع الى الشرق، ولعله كان في ثنية الجبل[1] بقرب الموضع الذى فيه اليوم قلعة القاهرة حيث كانت توجد آثار

=الأنصار: عبادة بن الصامت ومحمد بن مسلمة وأبو أيوب خالد بن يزيد وأبو الدرداء عويمر بن عامر ويسمى عويمر بن يزيد. وقد آتى نفس الكاتب بأسماء أخرى ممن شهد الفتح.

(١) ولعل هذه هي الحادثة التي ذكرها المقريزى في غير موضعها حيث يقول إن عمرا أرسل ٥٠٠ فارس بقيادة (خارجة بن حذافة) وأمرهم أن يكمنوا فيهبطوا على العدو اذا خرج من بين الأديرة قال: «فساروا بالليل ودخلوا مغاير بنى وائل قبل الصباح» فلما بدأت الوقعة بعد الفجر نزلوا على مؤخرة الروم بغتة وأكملوا ما بدأ من اضطرابهم واختلال أمرهم.

حسنا اعجبه هو والحاضرين عنده فيه وعظ وربح كتير لمن يسمعه، واوحى اليه باشيا وانصرف من عنده مكرما مبجلا.

وكلما قاله الاب الطوبانى للامير عمرو بن العاص وجده صحيحا لم يسقط منه حرف واحد. فلما جلس هذا الاب الروحانى بنيامين البطرك فى شعبه دفعة اخرى بنعمة المسيح ورحمته فرحت به كورة مصر كلها وجذب اليه اكثر الناس الذين اضلهم هرقل الملك المخالف، وكان يجذبهم

لبعض المعابد المصرية. فكان سير الروم على ذلك بين هذين الكمينين من العرب وكان عمرو قد أمرهما أن يهبطا على جانب جيش الروم ومؤخرته اذا ما سنحت لهم الفرصة[1] وخرج الروم من بين البساتين والأديرة التى كانت الى الشمال الشرقى من الحصن وانتشرو فى

(١) يقول (زوتنبرج) إنه لا يستطيع فهم الموقعة نظرا للمسافات التى بين هذه المواضع وقد أخطأ بجعل تونديس (أم دنين) إلى جنوب بابليون بدل أن يجعلها فى شماله. ولا شك أن (حنا النقيوسى) جعلها أبعد الى الشمال الغربى ولهذا يقول إن المكان الآخر فى شمال بابليون ولكنا فيما عدا الاعتراضات الأخرى لو وضعنا كمين عمرو فى جنوب بابليون لجعلنا خطته فى منتهى الجهالة فى حين تكون كتيبة أخرى من جيشه فى الشمال ومعظم جيشه فى هليوبولس وفوق ذلك كان حصن بابليون ومعسكر الروم يسدان الطريق الذاهب الى الجنوب. ولو قلنا إن عمرا ذهب الى لقاء العدو ولم يبق فى عسكره لانتظاره هناك لذهب الاعتراض ببعد المسافة. ولقد نسى (زوتنبرج) فوق هذا أن النيل كان يجرى فى موضع شرق مجراه الحالى بكثير. فاذا نحن وضعنا كمينا عند (أم دنين) (الأزبكية) وآخر عند القلعة أو الجبل الأحمر صارت خطة الموقعة واضحة ولنا كلمة أخرى فقد كا نت هليوبولس قديما تغطى مساحة أكبر مما يمكن تصوره اليوم هذا واضح ليس فقط من الأطلال الباقية بل من شهادة ابن دقماق إذا يقول صراحة « وكانت عين شمس فى الزمن الماضى مدينة عظيمة متسعة متصلة بمصر القديمة التى فى موضع الفسطاط فى الوقت الحاضر» (الجزء الخامس صفحة ٤٣) ومعنى هذا أنه لابد قد كانت المسافة بين أرباض المدينتين قصيرة على أن أرباضهما كانت عبارة عن منازل وكنائس متفرقة.

للرجوع الى الامانه المستقيمه بسكينة ووعظ وملاطفه وتعزيه، وكتير من هرب الى الغرب والخمس مدن خوفا من هرقل الملك المخالف فلما سمعو بظهور راعيهم عادو اليه بفرح ونالو اكليل الاعتراف، وكذلك الاساقفه الذين خالفو امانته دعاهم ان يعودو الى الامانة الارتدكسيه فمنهم من عاد بدموع غزيره ومنهم من حيا [يستحى] من الناس ان يشهر عندهم بانه كان مخالفا للامانه فبقى على كفره الى ان مات.

السهل(١) وكان ذلك في الصباح الباكر ولم يكن عندهم علم بمكيدة عمرو بل رأوا

(١) يظهر لمن يطلع على هذا الوصف الذى وصفنا به موقعة عين شمس أنها على اختلاف كبير مع ماجاء في الطبرى فقد جاء في الطبرى: (١) أن الوقعة كانت بعد فتح حصن بابليون. (٢) أن المقوقس كان مع جيش القبط في عين شمس وقد أز مع السير الى مصر.(٣) أن جيش عمرو سار الى أبواب عين شمس. (٤) أن جيش القبط تشتت عند أول صدمة وخسر عددا عظيما بين قتيل وأسير. (٥) أن العرب غنموا غنيمة عظيمة وأرسلوا الأسرى الى المدينة . وإنه ليكون من الإسراف أن نكذب خبرا مثل هذا الخبر المفصل ولكنا فوق ما نشعر به من ضرورة الأخذ بما جاء في كتاب حنا الذى كان قريبا من ذلك العهد يظهر لنا أن الطبرى قد أخطأ خطأ وصف البلاد فان وصفه للوقعة صحيح ولكنها لم تكن وقعة عين شمس والدليل على هذا: (١) ترتيب الحوادث فان هذه الوقعة لايمكن أن تكون بعد فتح مصر في حين أن مواقع أخرى يمكن أن تقع بعد ذلك وقد وقعت فعلا بعد فتح مصر . (٢) الطبرى نفسه يكشف عن خطئه بوصفه عين شمس بأنها كانت «مدينة عظيمة في بلاد القبط وأنها واقعة في الغرب» ومعنى هذا إما أن يكون أنها في غرب النيل أو في غرب مصر السفلى، ولكن عين شمس لايمكن أن توصف بأحد هذين الوصفين وعلى ذلك فالظاهر أن ا لوصف السابق انما هو وصف بعض المواقع التى كانت فيما بين بابليون واسكندرية وقد وقعت في الغرب وسيأتى ذكر هذا فيما يلى.
وقد كانت غلطة الطبرى سببا في خلط كثير من مؤرخى العرب مثل ابن الأثير وابن خلدون (وقد كان الطبرى غريبا عن مصر لا يعرف كثيرا من وصف بلداتها) وهذا مثل جديد من الأمثلة الدالة على ما يجده الانسان من الخلط في وصف حوادث هذا ا لعصر من التمحيص والمقارنة ولكنا نرى أن هناك سببا بسيطا في مثل هذا الخطأ الذى يقع فيه المؤرخين العرب فانا اذا وجدنا أن ابن الأثير يذكر أن قوّاد العرب حاصروا عين شمس ويقول إن (الزبير) تسورها (وسنرى أنه انما تسور قصر الشمع) نجد أنفسنا حيال خلط شبيه بما سبق ذكره وسبب كل ذلك اسم (بابليون) فان العرب أو بعضهم فهموا ذلك الاسم على أنه باب ال (أون) أو (باب أون) هى عين شمس (الاسم العربى لهليوبولس) ومن =

ومن بعــد ذلك ســار عــمــرو من اسكندرية وعـسكره وسـار معـه الدوقس سـانوتيـوس المحب للمسيح.

وفى تلك الليلة راى الاب [بنيامين] فى منامه انسانا منيرا لابسا ثياب التلاميذ وهو يقول له: يا حبيب اعمل لى عندك موضعا اقيم فيه فى هذا اليوم لاننى احب موضعك، وكان الموضع الذى فيه البطرك موضعا طاهرا بلا دنس فى دير يعرف بدير مطرا الذى هو البـسـقـويـون، لان سـاير البـيع

أنه كان يسير اليهم فى جمعه آتيا من هلبوبولس. ثم حدث اللقاء بعد ذلك ولعله كان فى مكان وسط بين معسكرى الروم والعرب عند الموضع الذى اسمه اليوم (العباسية). وكانت كل من الطائفتين موقنة بأن ذلك اليوم سيكون يوم الفصل فى أمر مصر، فكانت كل تقاتل قتال المستميت. فلما حمى وطيس القتال وعض الناس على النواجذ أقبلت كتيبة خارجة تهوى من مكمنها فى الجبل، كأنما هى عاصفة تجتاح مؤخرة الروم. فلما رأى الروم أنهم قد أخذوا بين جيشين من عدوهم، وقع الفشل فى صفوفهم، واتجهوا بعض الاتجاه الى يسارهم نحو (أم دنين)، فلقيهم الكمين الآخر فظنوا أنه جيش عربى ثالث. فانتثر نظامهم وحلت بهم الهزيمة، ففروا لا يلوون على شئ يطلبون النجاة من سيوف العرب فاستطاع الأقل منهم أن يبلغ الحصن برا فيلوذ به، وكثير منهم ساقهم الفزع الى النهر فنزلوا فى السفن وعادوا الى الحصن، ولكن طائفة كبيرة هلكت. واستولى العرب بعد انتصارهم على (أم دنين) مرة أخرى،

= هنا نشأ الخطأ بين المكانين فان البلاذرى يذكر أن الفسطاط كانت عند الفتح أسمها (أيون). وقال المؤرخون بعد ذلك أن اسمها كان (اليون) وأخذوا ذلك اللفظ على أن معناه (أون) وهى (عين شمس) فبنى على هذا الخطأ أنه قد حوصرت عين شمس ونقلت الحوادث من بابليون اليها. وفى رأينا أن لم يسبق أحد هذا التفسير يفسر كثيرا من الصعاب التى نلقاها فى تواريخ العرب وقد أسئ فهم اللفظ الرومانى (بابليون) فصار فى صور متعددة مثل (باب اليون) ومدينة (ليون) و(قصر اليون) و(لونها) و(أيون).

والديارات التى للعدارا والرهبان تنجست من هرقل المخالف عند الزامهم بامانة خلقدونيه، الا هذا الدير وحده فان الذين فيه اقوام اقويا كتيرا مصريون وجميعهم أهل ليس بينهم غريب فلم يقدر يميل قلوبهم اليه، ولجل ذلك لما عاد بنيامين من الصعيد نزل عندهم لحفظهم الامانة الارتدكسية وانهم لم يحيدو عنها.

فلما أراد [ت] المراكب التى فيها زاد العسكر(*) وتقاله وحوايج الدوكس سانوتيوس

(*) كانت هذه المراكب تحت قيادة سانتوس تحمل زاد ومؤن خاص بجنود عمرو بن العاصى المتقدمين نحو مدن بنتابولس فى شمال أفريقيا.

وقد قتل فى الوقعة كل من كان بها من الجنود إلا ثلاثمائة. ولاذ كل من نجا من الروم بحصن (بابليون) وأغلقوا عليهم الأبواب، ولكنهم منذ علموا بما أصاب اخواتهم الروم من القتل حملهم الخوف على أن يتركوا الحصن فساروا فى النهر الى (نقيوس) على فرع رشيد حيث توجد حامية بيزنطية قوية.

ولكن النصر أفاد العرب فوائد جمة، فقد أصبحت مدينة مصر فى قبضة يدهم بغير قتال، وكانت من قبل يحميها الجيش الذى فى الحصن، وأصبحوا يملكون ناصية شاطئ النهر من ناحيتى الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس، وذلك هو الموضع الذى صار يعرف بالفسطاط فيما بعد. وقد صارجيش العرب بعد ذلك النصر كافيا لحصار (بابليون) لا يعوقه عائق من التضييق عليه، بعد أن قضى على جيش الروم فلم تبق منه إلا الفلول التى لاذت بالحصن أو هامت على وجهها فى بلاد مصر السفلى. ولما بلغت أنباء نصر العرب الى الفيوم غادرها من بها من الحاميات البيزنطية ، فخرج (دومنتيانوس) عند ما علم بذلك من المدينة فى الليل وسار الى (أبو يط)، ثم نزل فى النهر بجنوده وجد هاربا الى (نقيوس) حيث الحامية البيزنطية، ولم يخبر أهل (أبو يط) بما كان منه من ترك الفيوم لأعدائه لا يدافع عنها أحد. ولما بلغ نبأ (دومنتيانوس) وهربه الى عمرو بن العاص بعث كتيبة من جنده عبروا النهر، وفتحوا مدينتى (الفيوم) و(أبويط)، وأحدثوا فى أهلها مقتلة عظيمة وأصبح ذلك الإقليم تحت الحكم الاسلامى منذ ذلك الحين.

المومن واصحابه تقلع وقف المركب الذى لخاصته ولم يقدر يقلع فاجتمع إليه جمع كتير فظنو انه قد وحل، فربطو فيه لبانات [حبال] وجروه بجهدهم فلم يتحرك بالجملة فمضو الى الدوكس واعلموه ذلك لانه كان ركب مع الامير، فتعجب جدا وارسى المركب الذى الامير عمرو فيه وعاد منه الدوكس ومعه جمع كتير فلما وصل الى المركب راى عنده خلقا كتيرا لا يحصى عددهم وهم لا يقدرون يحركونه، فقال لهم: اديرو مقدم هذا

ولما قضى عمرو بذلك على كل مقاومة له من الفيوم وخلص له أمرها، أرسل جنوده الى موضع اسمه (دلاص)[1]، رآه أصلح المواضع للنزول من النهر الى ذلك الإقليم، وأصبح العرب بذلك الى حين سادة النهر.

غير أن الروم كانوا لا يزالون يملكون جزيرة الروضة وهى جزيرة ذات حصون تتصل بحصن بابليون، تسير بينهما السفن والقوارب، وبقيت الأسفار على ذلك فى النهر على عادتها يكاد لا يعوقها عائق، لأن العرب لم يكونوا من أهل البحار إذا لم يحذقوا بعد تسيير السفن، وكانوا فى شغل مما هم فيه من القتال والفتح فى الأرض. وعاد عمرو فأمر جرائد الخيل بالعودة اليه، وكان أنفذهم يجمعون الغنائم خلال البلاد بعد وقعة عين شمس، ثم أمر (أباقيرس)[2]

(١) كانت (دلاص) على الضفة الغربية للنيل فى جنوب (ممفيس) وهى الى شرق مدينة الفيوم وهى بالقبطية (تيلوج) وباليونانية (نيلوبولس).

(٢) وهذا هو (أبا كيرى) الذى جاء ذكره فى ديوان حنا صفحة ٥٥٩) وقد حار (زوتنبرج) فى ذلك الاسم فقال «وليس من المؤكد أن يكون هذا للفظ علما على شخص» ولكن كل شك قد زال عند كشف وثائق (قرة باسك) "Papyras Erzherzog Rainer: Fuhrer durch die Ausstellung" ورقم ٥٥١ منها هو خطاب من خارجة المشهور كتبه الى (أبا قيرس) حاكم (هرقليوبولس مجنا). ورقم ٥٥٨ منها مكتوب باليونانية والعربية بتاريخ ٢٥ أبريل ٦٤٣ وهو من عبدالله بن جابر الى (كريستوفوروس) و(تيودوراكيوس) ابنى (أبا قيرس) عينه. وهذا الخطاب الأخير أقدم وثيقة إسلامية فى مصر أن لم يكن أقدم ما فى العالم.

المركب الى المدينة. فلما اداروه للدخول الى المدينة جرى اليها مثل السهم. فقال لهم: جروه الى برا فجروه حتى انتهى الى مكانه الاول فوقف ولم يتحرك، ثم اعادوه الى داخل فجرى، وعادو جروه الى برا فوقف هكذا تلت دفعات، فعند ذلك قال الدوكس لريس المركب: اصعد اليّ بقماش النواتيه افتشه لكى انظر ما هو واعرف السبب الذى اوجب وقوف هذا المركب دون جميع هذه المراكب كلها: فخاف الريس الذى كان اخذ راس

حاكم دلاص أن يمد المسلمين الذين كانوا بالفيوم بالسفن لينتقلوا فيها من الجانب الغربى الى الجانب الشرقى، وكان يقصد بذلك أن يفتح كل إقليم مصر وهو الإقليم الذى كان يلى مفترق فرعى نهر النيل.

ولعل وقعة عين شمس كانت فى النصف الأول من شهر يوليه سنة ٦٤٠، وقضى العرب فى فتح الفيوم نحو أسبوعين. وعلى ذلك لم يبدأ فتح مصر السفلى (الدلتا) قبل شهر أغسطس. وكان عمرو يطمع أن يبسط يده الى هناك قبل أن يحول فيض النيل بينه وبين ذلك. وأما ماكان من أمر (جورج) حاكم إقليم مصر فأما أن يكون قد وقع فى الأسر عند فتح مدينة مصر أو أنه أذعن للعرب وخضع لأمرهم. فالحق أن الرهبة من العرب أخذت عند ذلك بقلوب الناس فى كل البلاد، ولا سيما ما كان منها على كثب من سيوفهم، اللهم إلا المواضع ذات الحصون.

غير أن مصر السفلى كانت تشقها الترع الكثيرة وكانت بعض هذه الترع لا يمكن اجتيازه خوضا، فجاء الأمر الى (جورج) أن يقيم قنطرة على الترعة عند قليوب، وقال حنا النقيوسى: «وأخذ الناس يساعدون المسلمين» وانه لمن سوء الحظ أن قول الأسقف هنا ليس بالواضح البين. غير أنا اذا قرنا ذلك القول مع سائر ما جاء فى ديوانه رأينا أن معناه لا يزيد على أن الناس قاموا بتلك المساعدة إذا أمروا بها، أى أنها لم تكن مساعدة الراغب المختار بل

القديس مرقس الانجيلى فطرح نفسه على رجلى الدوكس واعترف له بما فعله وان الراس مخبا فى قماشه فصعدو بقماشه من الخن فوجدو الراس فيه، فمضو بسرعة واعلمو الاب بنيامين بالخبر على جليته فركب لوقته واخذ معه جماعة من الكهنة واتى الى الدوكس وحدثه بالمنام الذى راه في ليلته. فقال جميعهم: حقا ان هذه راس القديس مرقس الانجيلى. وفى الوقت الذى جا فيه بينامين البطرك الى المركب واخذ الراس الطاهره

عمل المجبر المضطر. وفى الحق أنا لو أنعمنا النظر لرأينا فى قول الأسقف نفسه ما يدل على ذلك دلالة واضحة فانه بعد أن قال إن العرب فتحوا المدينتين الكبيرتين (أتريب) و (منوف) وملكوا ريفهما وبسطوا سلطانهم على إقليم مصر كله، قال«انهم لم يكفهم هذا بل أمر عمرو أن يؤتى بالحكام من الروم مجموعة أيديهم فى الأصفاد وأرجلهم فى القيود، ثم أخذ من الناس أموالا عظيمة وضاعف عليهم الجزية، وأمرهم أن يأتوا له بالأعلاف لخيله وظلمهم ظلما كثيراً» وليس من العجيب أنه بمثل هذه الشدة قضى على كل مقاومة وجعل الناس لا يعصون له أمرا.

على أن مدينة (نقيوس) ـ وكانت على الفرع الغربى للنيل ـ بقيت بنجوة من العرب بعد أن أخذوا (أتريب) و(منوف)، وذلك لأنها كانت ذات حصون قوية وأسوار منيعة، فما كانت لتؤخذ حتى يحاصرها العرب حصارا تاما، ولم يستطع العرب ذلك عندئذ إذ كانوا لا يملكون العدة للحصار ولا يتسع لهم الوقت له. وعلى ذلك بقيت (نقيوس) كأنها حلقة تصل من كانوا بحصن (بابليون) بمن كانوا فى الاسكندرية. غير أن كبار الروم الذين كانوا فيها لم يستطيعو ا البقاء بها عندما جاءتهم أنباء فتوح العرب وفوزهم، فهاجروا الى العاصمة ولم يتركوا فى المدينة إلا (دومنتيانوس) فى قلة من الناس للدفاع عنها، وبعثوا الى (داريس) فى سمنود يأمرونه أن يحفظ ما عنده من البلاد التى بين فرعى النيل. وعند ذلك زاد الخوف

واطلقه فاقلع المركب لوقته اقلاعا مستقيما، فعلم هو والدوكس وجميع الشعب صحة الخبر وشاهدو هذه الأعجوبة ومجدو الله ودفع الدوكس للبطرك مالا كتيرا وقاله له: ابن بيعه القديس مارى مرقس واساله السلامة لنا. وعاد الاب البطرك الى المدينة والراس فى حضنه يحملها والكهنه قدامه بالقرا [القراءة] والتسبيح كما يشاكل [يستاهل] استقبال تلك الراس الشريفة الجليله، وصنع تابوتا من خشب الساج وقفلا عليه وجعل الراس فيه،

وذعر الناس، وغلب الرعب كل بلاد مصر، فأخذ الخلق يفدون أفواجا من كل حدب الى الاسكندرية تاركين أرضهم وبيوتهم وما فيها من زرع وضرع ومتاع.وبذلك خرج أهل مصر من عهد المقوقس (قيرس) واضطهاده الذى عصف بهم عشر سنين الى عهد آخر من الخوف والفزع.

ولكن عمرا لم يكن عند ذلك ليستطيع أن يسير الى الشمال فى أثر تلك الأفواج الهاربة، فان النيل كان اخذا فى مده يعلو به الماء علوا سريعا فى أواخر شهر أغسطس، فأصبحت البلاد لايمكن السير فيها، وكان فوق ذلك لا يريد أن يخلف وراءه ذلك الحصن العظيم حصن (بابليون) بغير رده من جنوده يدرأ عنه، واذا هو شاء أن يجعل من جنوده ردءا كان لابد له أن يخلف جانبا عظيما من جيشه، فلا يبقى له بعد ذلك من الناس من يقدر بهم على فتح الاسكندرية. فلم يكن له مفر من أن يعمد بعد ذلك الى فتح حصن (بابليون).

حصن بابليون

بقى من حصن بابليون الى نحو أوائل القرن العشرين مايدل على ماكانت عليه هيئته وعظمة خطره. وكان الفضل للقبط فى حفظ تلك البقية إذا أجتمعت لهم كنائس عدة فيه منذ أول عهد المسيحية، لأنهم وجدوا وراء أسواره منعة لهم فى أيام المحنة والشدة، وكانت كل

وكان ينتظر زمانا جيد فيه السبيل الى بناء بيعه. وكان اهتمامه ليلا ونهارا فى اعادة اعضا البيعه التى تفرقت فى ايام هرقل، لا يشغله شى عن ذلك وهو ممتلى من الامانه ومن الروح القدس ونعمة الروح القدس التى كانت مع اتناسيوس الرسولى كانت معه فى كلامه وافعاله، وعلى يديه وبصلواته تراف الرب على شعبه، وبطلبته بدت عمارة ديارات وادى هبيب والمنى. وكانت اعمال الارتدكسيين الصالحة تنمو، وكانت الشعوب

أسوار الحصن للقبط إلا ما كان منها للملكانيين وهو موضع كنيسة (مارجرجس)، وإلا ما كان منها لليهود وهو موضع يعتهم.

وقد سبب اسم (بابليون) ارتباكا كبيرا لكتاب العرب، وبقى ذلك الاسم الى اليوم ولكنه لايطلق على الحصن نفسه، فاسمه الآن «قصر الشمع» بل يطلق على دير صغير على مسافة قليلة من الحصن نحو الجنوب وهو (دير بابليون). وكان اسم الحصن باللغة القبطية فى وقت الفتح (بابلون ـ آن ـ خيمى) ومعناه (بابليون مصر) فكان من السهل تحريفه فى اللغة العربية لأن أول جزء منه «باب» ويمكن أن يفهم أن الجزء الثانى منه مضاف الى الأول. ومهما يكن من أمر العرب وتحريفهم لاسم الحصن فقد ظل كتاب أوربا فى القرون الوسطى يطلقون على ذلك الموضع اسم (بابليون) وليس اسم مصر، وحفظوا تلك التسمية الى ما بعد بناء القاهرة، فصاروا يطلقون على مدينة مصر اسم (بابليون) ويسمون حاكمها (سلطان بابليون).

وبعد فلنا كلمة أخرى فانه لم يرد لنا إلا القليل من أخبار ما كان فى داخل الحصن من البناء فى وقت حصار عمرو له، ولكنا نعرف أنه قد كان به مقياس للنيل بقيت آثاره الى أيام المقريزى[١] وكذلك نعرف أن بعض مابقى به الى اليوم من الكنائس كان عند ذلك قائما

(١) وقال عن ديرالبنات فى قصر الشمع «وكان هناك مقياس النيل قبل الاسلام ولا تزال توجد آثار منه الى يومنا هذا» (نقله أبو صالح عن الخطط فى ذيل الكتاب صفحة ٣٢٥).

فرحين مثل العجول الصغار اذا حل رباطهم واطلقو على لبان أمهاتهم.

فلما عاد عمرو الى مصر خرج منها الى معونه كبيرهم وانفذ الى مصر عوضه رجل يسمى عبدالله بن سعد(*) فوصل ومعه خلق كثير وكان محبا للمال فجمع له بمصر أهرا. وهو أول من بنى الديوان بمصر وامر ان يستخرج [يجمع] فيه جميع خراج الكوره.

(*) هو عبدالله بن سعد ابنى أبى سرح [ت: ٦٥٧م] كان قد صحب عمرو بن العاصى عند غزو مصر ثم تولى مصر سنة ٢٥هـ= ٦٤٥م= ٣٦٢ قبطية: بعد عزل عمرو بن العاصى، فأستمر ١٢ سنه، مات بعسقلان فجأة بعد أن انضم إلى معاوية سنة ٦٥٧م = ٣٧هـ.

تصلى به جنود الروم، نضرب لذلك مثل الكنيسة الكبرى كنيسة (أبو سرجة)، ولعل منها كذلك كنيسة (المعلقة) نراها اليوم بعد أن مضى عليها من الدهر ثلاثة عشر قرنا[١].

حصار حصن بابليون وفتحه

عاد عمرو منذ أوّل شهر سبتمبر إلى حصن بابليون وجهز نفسه لكى يضيق عليه الحصار، وكان العرب قد غنموا بعض آلة الحرب فى غزاة الفيوم ومن حصن تراچان فى منوف.

(١) الظاهر أنه لا محل للشك فيما يخص أبا سرجة. على أنه عندما كتبنا كتاب «Coptic Churches» لم نجرأ على أن نذهب إلى أن شيئا من هذه الأبنية قديم مثل هذا القدم وقد ذكر (أبو سرجة) حوالى سنة ٦٩٠ فى كتاب أميلنو «Vie du Pat, Isaac» صفحة ٤٦ ونعلم كذلك من القطعة التى وجدت عن حياة بنيامين أنه كان عند الفتح أسقف لحصن بابليون وأسقف لحلوان وهذا دليل قوى على كثرة عدد الكنائس فى هذه الجهة، وقد كتبت لوحة ذكر فيها أن المعلقة قد افتداها القبط من عمرو. على أن الكنيسة وان وجدت يشك الانسان فى أنها كانت على ما هى عليه الآن فوق الباب الرومانى فان الأسوار الخارجية ليست رومانية فى شىء وجزء من الكنيسة قائم على أسوار بناؤها يجعل استعمال الباب غير ممكن وعلى ذلك فهى مبنية بعد الفتح العربى وقد أخطأ الواقدى إذ قال إن (دير بولص) وهو قصر الشمع وبه المعلقة ودير بولص الذى ذكره وهو لا بدّ الدير الصغير الواقع خارج الحصن واسمه (دير بولص) قائم على غور بين الأطلال التى فى جنوب الحصن.
وتوجد بالحصن بيعة لليهود كانت فى الأصل كنيسة مسيحية ترجع إلى ما قبل الفتح وهى ذات دلالة عظمى. ولقد هدمها اليهود حديثا ليقيموا محلها مكانا آخر لعباداتهم وقد هدم اليهود كذلك جانبا عظيما من السور.

وحدث فى ايامه غلا عظيم لم يحدث مثله من زمان اكلوديس الملك الكافر والى ايامه، وانحدر كلمن فى الصعيد الى الريف فى طلب الغله وكان الموتى مطروحين فى الشوارع والأسواق مثل السمك الذى يرميه الما [ء] على البر لا يجدون من يدفنهم، وأكلو بعضهم بعضا. ولو لم يتراف الرب بكثرة رحمته وصلاة ابينا بنيامين القديس ويزول ذلك الغلا بسرعة كان قد فنى كل يوم من الناس ربوات لا يحصين. لكن الرب قبل صلاة

ولا خلاف بين مؤرّخى العرب أجمعين فى أن المقوقس كان بالحصن عند ابتداء الحصار، وكان تيودور كذلك بالحصن قبل وقعة عين شمس. ولا ندرى اذا كان قد حضر الوقعة بنفسه أم لم يحضرها، ولعله كان هناك ثم لحق بالهاربين بعد الهزيمة ولاذ بالاسكندرية. وعلى ذلك كان (قيرس) القائد الأكبر فى الحصن وهو خليفة هرقل على مصر، ولكن القائد الذى كان يدبر أمر الجنود هو من يسميه العرب (الأعيرج) ولعل ذلك تحريف منهم لأسم (جورج). ولو كان الأمر كذلك لكان هذا الرجل خلاف الحاكم (جورج) الذى أمره عمرو أن يقيم له جسرا على ترعة قليوب. وكان فى الحصن كل الجنود التى كانت تحت إمره جورج تبلغ الخمسة آلاف أو الستة آلاف لا يمكن أن تزيد على ذلك كثيرا، وكان بالحصن كثير من الأزواد والذخائر من كل نوع، وكان قد اجتمع به عدد عظيم من غير الجند من أهل مدينة مصر والأديرة المجاورة، ولكن أغلب الظن أن هؤلاء أخرجوا عن طريق النهر ليوسعوا على الجنود. ويجدر بنا هنا أن نذكر أن كل الكنائس التى كانت فى داخل الحصن كانت تؤمها قسوس على المذهب (الخلقيدونى) أو الملكانى، ولم يبح لأحد هناك أن يتعبد على غير ذلك المذهب، فان قيرس كان لا يزال على عهده العدوّ الأكبر لمذهب القبط، وبقى على ذلك إلى آخر أمره. وإن فى وجوده بالحصن لأقوى دليل إذا احتاج الأمر إلى دليل على أنه لم يبق بالحصن من

البطرك ورحم شعبه واشبعهم من خيراته وافتقد ميراته بصلاحه، كما هو مكتوب: ان اعين الكل اليك ناظره ترجوك لتعطيهم طعامهم فى حينه واذا اعطيتهم يعيشون ومن الطيبات يشبعون.

وكان القديس بنيامين معه انسان مملو نعمة وحكمه وديع مثل الحمام اسمه اغاتون كان قسا فى الكنيسة وهو من اهل مريوط وكان فى زمان هرقل يتزيا بزى العلمانيين فى مدينة اسكندريه

القبط إلى من أزالهم الاضطهاد عن عقيدتهم. بل إن الروم أساءوا الظن ببعض هؤلاء فوضعوهم فى السجن وأنزلوا بهم فيه نكالا فظيعا.

ومن ذلك نعرف أن مؤرّخى العرب ومن قال قولهم إنما يمسخون الحقيقة ويقلبونها قلبا إذ يقولون إن جند الحصن أو كل من كان به كانوا من القبط. فان القبط لم يكونوا فى شىء من القتال ولا الجيوش، وكان الاضطهاد فى مدّة السنوات العشر قد شطر مذهبهم وفرقهم، فكان منهم من ذهبوا أفرادا وجماعات فهربوا الى الجبال والكهوف أو أووا الى الصحراء أو لاذوا بالأديرة الحصينة فى الصعيد. وأما أقباط مصر السفلى وبابليون والاسكندرية فقد اضطروا الى الدخول فى مذهب الدولة ولم يغن عنهم شيئا ما كان فى قلوبهم من كره لما دخلوا فيه. وقد كتب مؤرّخو العرب بعد الفتح بقرون فكانوا يذكرون جيوش المصريين وقوّاد المصريين لا يميزون بين القبط والروم، فكثرت من ذلك زلاتهم وعظم خلطهم.

كان المقوقس آمنا الى حين فى قصره المنيع تحيط به مياه النيل. ولكن ما كانت تلك الحال لتبقى فان الماء فى الخندق كان لابد له أن يهبط بعد حين.

فما مضى شهر من الحصار حتى جمع (قيرس) من وثق بهم من رؤوس الحرس ودعا معهم أسقف بابليون الملكانى، واستشارهم سرا فى الأمر وبسط لهم رأيه. وكان ذلك فى أوائل شهر

ويطوف في الليل يثبت الارتدكسيين المختفين
ويقضي حوايجهم ويعطيهم من السراير المقدسة.
واذا كان بالنهار حمل على كتفه قفة فيها [الآت]
النجارين ويظهر أنه نجار يعطيهم من السرار
ويصبرهم ويعزيهم. فمكث هكذا عشر سنين إلى
حين ظهور المسلمين فلما عاد المغبوط بنيامين الى
كرسيه بسلام جعله معه مثل ابنه في تدبير البيعه
المقدسه. ولحق الاب المغبوط بنيامين مرض في
رجليه معما [مع ما] انتهى اليه من الشيخوخه،

أكتوبر سنة ٦٤٠ ؛ وقال لهم إن الدورة في الحرب كانت عليهم فقضى أعداؤهم على أكبر جيوشهم، ثم أتوا لحصارهم بما لا قبل لهم به، من قوم أكثر منهم عددا وأشدّ في الحرب بأسا. وقال إنه لا يتوقع أن يأتي اليهم مدد يرفع عنهم الحصر قبل مضي أشهر، وإذا كان الحصن يستطيع المقاومة والصبر وهو أمر لاشك فيه، فان عقبى الحرب كانت كذلك لا شك فيها، وما كانت تلك العقبى إلا وبالا عليهم. ومنذ كان الأمر كذلك كان خيرا لهم أن يفدوا أنفسهم بالمال فيعطوا اعداءهم منه ليرحلوا عنهم، فاذا هم استطاعوا ذلك وأمكنهم أن يبعدو العرب عن البلاد بمال يبذلونه لهم كان في ذلك كل الخير، إذ يخلصون مصر فتعود الى دولة الروم.

رأى المجتمعين على أن يذهب قيرس وأصحابه تحت ستار الليل إلى جزيرة الروضة بغير أن يحس بهم أحد، ويبعثوا الى قائد العرب بما أرادوا فيفاوضوه ولم يطلع على الأمر مطلع(١).

ولما بلغ جزيرة الروضة أرسل إلى عمرو جماعة كان منهم أسقف (بابليون) فلقيهم عمرو وبعد أن قراء رسالتهم قال لهم: «ليس بيني وبينكم إلا احدى ثلاث خصال إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيبتنا وهو أحكم الحاكمين».

(١) جاء في المقريزى أن الآراء مختلفة في وجود (جورج) مع المقوقس ويقول السيوطى إنه بقى في الحصن أوّلا ثم لحق بالمقوقس.

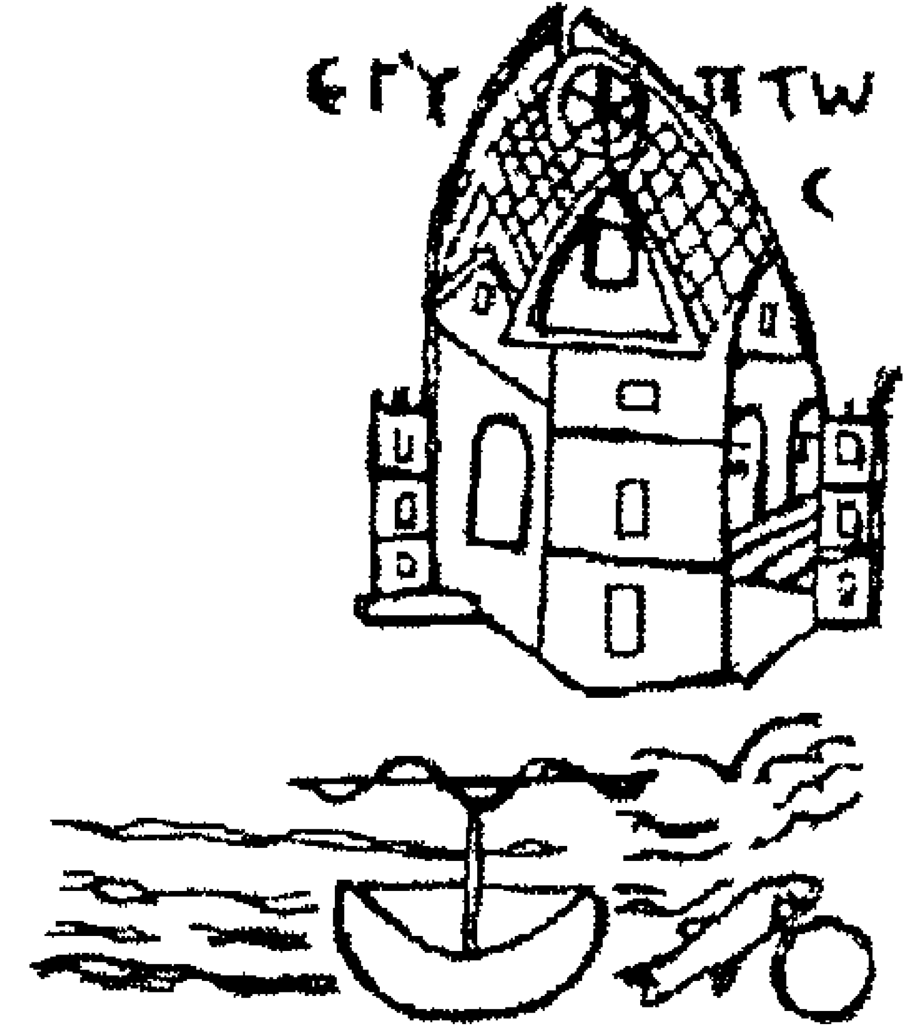
فاقام بهذا المرض سنتين حتى سالوا [سألوا] فيه القديسون ان يخرجه الله من سجن هذا العالم المملو احزانا وان ينقله اليهم فى الموضع الذى لا حزن فيه ولا كابه، والمملو فرحا فى كورة الاحيا، فقبل دعاهم واخذ اليه تلتة أشخاص وهم اتناسيوس الرسولى، وساويرس، وتاودسيوس البطاركه. فحضرو نياحته وكانو قدام نفسه الشريف والملايكه المقدسون يحملونها على اجنحتهم الطاهره صاعدين بها الى السما بالمجد

فاجتمع عند ذلك المقوقس بصحابه فقالوا: «أما الأمر الأوّل فلا نجيب إليه أبدا فلن نترك دين المسيح إلى دين لا نعرفه» وبذلك أبوا شرط الإسلام فلم يبق إلا الجزية عن يد وصغار أو الحرب. قالوا: «فانا إذا أذعنا للمسلمين ودفعنا الجزية لم نعد أن نكون عبيدا والموت خير من هذا».

مالت نفس المقوقس (قيرس) إلى الاذعان؛ فقد كان وقع فى قلبه أن المسلمين لابد منتصرون فذهب ذلك بجرأته وقوّة نفسه. ولكن المسيحيين لم يكونوا جميعا على ما كان عليه بطريق الاسكندرية الرومى، ويلوح لنا أن (جورج) قائد جنود الحصن أتى عند ذلك فلحق بالمجتمعين، ولقى المقوقس من أصحابه عزما شديدا على القتال ورفض ما كان يراه من الإذعان. وهنا ينسدل ستار على الحوادث كما يحدث فى كثير من الأحيان فى تاريخ هذا العصر. فلم يبق لنا إلا أن نتلمس ما كان ونتحسس أخباره من وراء ذلك الستار.

ويظهر لنا أن كبار الروم عندما اختلف رأيهم على قبول شروط العرب أو رفضها طلبوا أن يهادنهم العرب شهرا ليروا فيه رأيهم، فأجابهم عمرو جوابا قاطعا إذ قال إنه لن يمهلهم أكثر من أيام ثلاثة. غير أن عمل المقوقس لم يلبث أن ذاع بين الناس، فلما رجع أصحابه إلى الحصن عائدين من الروضة إذا بالناس قد ثار ثائرهم على المقوقس، وأبى جند الإمبراطور إلا القتال، وظهر أمر الذين كانوا يأبون الإذعان، واستقر الأمر على هذا سريعا، فما انتهت أيام

والكرامه واصوات التسبيح والتمجيد بين ايديها حتى وصلت الى كورة القديسين كما يدخل العريس الى خدره والملك الى قصره، فمضى الى تسبيح مالكه، بعد ان اتم جهاده واكمل سعيه وحفظ امانته ولم يهلك واحدا من قطيع رعيته، في التامن من طوبه بعد ان كان بطركا تسعا وتلين سنه وهو حافظ الامانه لابس اكليل النفى من عند السيد المسيح الذى له المجد مع الاب الرحوم وروح القدس المحيى امين وذلك كما راى فى تكريز بيعة القديس الجليل أبو مقار الذى بنيت فى وطا



حصن بابليون.
نسيفساء من فترة الاحتلال البيزنطي.

الهدنة الثلاثة حتى أخذ أهل الحصن يتجهزون للخروج إلى المحاصرين يناجزونهم، ولم يبعثوا ردا إلى عمرو. وفيما كان عمرو فى اليوم الرابع بعد انتهاء الهدنة يفكر فيما يصنع إذا بالروم قد خرجوا اليه فوق قناطرهم، غير أن العرب تواردوا اليهم منذ نذروا بهم فتكاثروا عليهم، فما استطاعوا إلا أن يتراجعوا حتى دخلوا إلى الحصن بعد أن قتلت منهم مقتلة عظيمة.

أما المقوقس فانه مازال رأيه من الاذعان والتسليم للعرب مستقرا فى قلبه. ورأى فى انهزام الروم فرصة له إذ أن من عصوه ونبذوا رأيه احتكموا إلى السيف. ورأى المقوقس وهو خليفة الامبراطور على مصر أن النصر على هؤلاء العرب لن يتأتى له، وزادته تلك الهزيمة الجديدة يقينا أنه لن يستطيع طرد العدوّ من البلاد. ثم رأى من كانوا يعصون رأيه وينادون بالقتال قد ضعفت نفوسهم، فلم يلق منهم بعد عصيانا، وأذعنوا له مرغمين جاهمين، على أن يعيد الكرة على عمرو فيبعث إليه فى أمر الصلح.

فعقد الصلح على أن يبعث به إلى الامبراطور فاذا أقره نفذ، وأخذ قيرس على نفسه أن يبعث به إلى هرقل. واتفق الروم والعرب على أن تبقى الجيوش حيث هى إلى أن يجئ رد هرقل، ولا سيما الحصن فقد اتفقا على أن يبقى مع الروم إلى أن يقرّ هرقل الصلح.

ولقد احتار المؤرخون فى موقف المقوقس من الغزو العربى ولم يتمكنوا من كشف حقيقة

الصخرة فيما بين القلالى، ورأى القديس ابو مقار فى وقت التكريز وهو قايما بين اولاده بفرح عظيم وخاطبه السارافيم [الملاك] من اجله وقال له: هذا ابو مقار اب البطاركه والاساقفه. وراى ايضا يد السيد المسيح المخلص فى وقت التكريز يمسح الهيكل بالميرون المقدس. وكانت اعجوبه فى ذلك النهار، وهو أن واحد ارخن وله ولد عليل فحضر به الى البيعة المقدسة لياخذ بركة الاب القديس ابو مقار، فظهر القديس للصبى وشفاه من مرضه. وحدث الاب البطرك بجميع ما راه وان السارافيم

موقفه، حتى ان بتلر فى كتابه «فتح العرب لمصر» اتهمه بالخيانة وبانه كان قد وطد نفسه على تسليم مصر للعرب.

ونحن هنا لا يمكننا، بعد استقراء الاحداث، إلا أن نطرح وجهة نظرنا فى هذا الأمر، فنقول: ان المقوقس، وهو من الجند القوقازى المرتزق والذى تمكن من الوصول إلى أرفع المناصب الدينية فى بلاده، وقع عليه اختيار الامبراطور هرقل ليحكم مصر جامعاً فى يده السلطتين الدينية والإدارية للتوفيق بين مذهب الكنيسة القبطية ومذهب الكنيسة البيزنطية، معتقدا أن تركيز السلطنين فى يد المقوقس سوف يسمح له بإحكام يده على مصر خاصة وانها كانت خارجة فى التو من تحت يد الاحتلال الفارسى.

ولكن المقوقس رغم كل هذه المجد الذى منحه له الامبراطور فى مصر كان يطمع فيما هو أكثر من ذلك، خاصة وان الظروف المحيطة بمصر والفوضى التى كانت تعم الامبراطورية وهجوم العرب على الشام واستيلائهم عليها كشفت له عن مدى ضعف الامبراطورية من هنا اتت المقوقس فكرة ان يمالئ العرب ويستقل بمصر عن الامبراطورية البيزنطية ويقبل بحماية العرب فى مقابل أن يُسهل لهم احتلال مصر. والشواهد على ذلك كثيرة منها:

١ــ انه صاحب فكرة تسليم العرب لمصر ودفع الجزية.

اخبر أبينا الاب بنيامين بانتقاله في مثل ذلك النهار الذى هو التامن من طوبه وكان كذلك صلاته تكون معنا امين]. قال انبا اغاتون: ان الذين عقولهم في السما يضوون بمجد الله الذى هو ابو النور ومحبة الله الروحانية تكون فيهم كما هو مكتوب. دوقو وانظرو ان الرب طيب. كذلك الاب بنيامين البطرك معلم الارتدكسيه الذى عرف تفسير الكتب وسكن البريه وظفر بسراير كتيره لانه اقما [قمع] جسده وقطع شهواته لاجل محبة السيد المسيح الاهنا الذى هو فوق الكل، فاما انا الخاطى

٢ـ انه ظل قائماً بمصر رغم عزله من الامبراطور حتى توفى بالاسكندرية ممنيا نفسه بجنى ثمار تحالفه مع العرب.

٣ـ انه حاول فى أخر ايامه اصلاح علاقته مع القبط لهدفين، الأول قبولهم له كحاكم، والثانى قبولهم له كبطرك، بعد القضاء على بنيامين الذى كان مختفيا من الساحة منذ حوالى عشر سنوات، خاصة وانه كان من دعاة التوفيق بين الكنيسة القبطية والكنيسة البيزنطية. وهذا سر قول سعيد بن بطريق (وهو البطريرك افتيخوس الملكى) فى تاريخه ، بان المقوقس كان يعقوبيا فى الباطن ولكنه كان فى الظاهر ملكيا.

٤ـ كما لا نستبعد أن العرب قبلوا بذلك فى وقتها كما حدث وقبلوا من الحاكم الفارسى على اليمن الذى قبل بحكم اليمن تحت سلطة العرب مقابل ان يجمع لهم الجزية من اليمنيين.

سافر المقوقس عند ذلك مسرعا فى النهر حتى بلغ الاسكندرية، وبادر بأن بعث إلى الامبراطور كتبا يبين فيها ما كان منه، ويعتذر عنه بأن الحاجة ألجاته إلى ما لجأ اليه من صلح العرب، ويسأله أن يقرّ الصلح حتى يكفى مصر شر الحرب ووبالها. وليس بعجيب أن يكون هرقل قد حار فى أمر تلك الكتب التى جاءته من المقوقس، فانها لا تبين إذا كان الصلح خاصا بحصن بابليون، أو أنه كان صلحا على ترك بلاد مصر جميعها حتى الاسكندرية للعرب، ولا

اغاتون فكنت ولد الاب بنيامين وعرفت كثيرا من فضايله لملازمتى معه، وقال لى ما راه من السر العظيم ظاهرا فى تكريز الهيكل المقدس الذى للأب الجليل ابى مقار بوادى هيب وما رتبه من القوانين والطقوس. فمن ذلك قوله لى: لما كنت فى مدينتى اسكندريه ونجيت زمانا بسلامه وخلاص من الاضطهاد ومن محاربة المخالفين، وحضر يوم عيد ميلاد السيد المسيح فى التامن والعشرين من كيهك ونحن مجتمعون فى بيعة السيد الطاهره مرتمريم ام النور التى تدعى «اسطوا

تبين هل يبقى العرب فى البلاد بعد أخذ الجزية، أو يرحلون عنها. فهل كان معنى ذلك الصلح نزع مصر من دولة الروم وإسلامها لأعداء المسيحية؟ لقد كان الامبراطور منذ شهور يلوم قوّاده ولا سيما (قيرس) خليفته على مصر لأنهم فرطوا فى الأمر، حتى استطاعت فئة قليلة من العرب أن ترفع ألويتها فى مصر وتغلب جيوش الدولة. فاذا به وقد بعث اليه بصلح ليس يدرى هل معناه رشوة العدوّ بمال يأخذه على أن يخرج عن تلك البلاد، أم معناه إسلامها له فيبقى ذلك العدوّ سيد الأرض يجبى له خراجها ويتنعم بقمحها وبخيراتها. عجب الامبراطور ولم يدر ما الذى أدّى إلى ذلك الاذعان وعزم على أن يدعو (قيرس) المقوقس ليحاسبه على ما كان منه فى مصر.

فبعث اليه رسالة يأمره فيها بأن يأتى اليه على عجل. ولعل ذلك كان فى وسط نوفمبر. ولم تكن الرسالة مما يطمئن اليه القلب. ولعل المقوقس قد أحس بما أجرم وخشى العاقبة منذ جهز فى نفسه ما يقوله لمولاه إذا هو حاسبه. فلم يكن لأحد سواه علم بما أدّى من أمانته وما أختان منها، ولا بما اتبع من أوامر مولاه بنصها أو بالمقصود منها. ولكن هرقل ثارت ثائرته وعظم غيظه واتهم المقوقس بأنه خان الدولة وتخلى للعرب عنها. ثم حكم عليه بأنه مرتكب جرم، ما كان دونه إلا الموت جزاء ذنبه. ثم شرع يقرعه ويؤنبه على ما كان منه قائلا إنه لم

انجالون» قد عملنا صلوات كتيره بمحضر من جماعة الكهنه ومقدمى المدينه وجميع الشعب الكبار والصغار لنعيد للسيده العدرا التى ولدت الله الكلمه المتجسد بالحقيقة فى العالم رب الارباب وملك الملوك الذى يحق له المجد مع الاب والروح القدس الاله الواحد، ونعيد ايضا فيه للسيد المسيح الابن الوحيد الذى تجسد وصار انسانا وولدته الطاهره العدرا فى بيت لحم يهودا مسيحا واحدا غير مفترق، فرايت رهبان قد دخلو الى وسط الشعب ومنهم كهنه من برية القديس ابى مقار

- -

يكن أكثر غناء من بعض فلاحى مصر، ونعته بالجبن والكفر وأسلمه الى حاكم المدينة فشهره وأوقع به المهانة ثم نفاه من بلاده طريدا.

ولابد أن رفض الامبراطور للصلح كان فى هذه الأثناء قد بلغ العرب وهم فى حصار الحصن، قرب نهاية عام ٦٤٠؛ وانتهى بذلك أمر الهدنة وعاد القتال، وكان النيل عند ذلك يهبط سريعا وهبطت بهبوطه المياه التى فى الخندق، وكلما هبطت خبت معها آمال من فى الحصن إن لم تخب شجاعتهم. فلما فرغ الخندق من مائة استعاض الروم عنه بأن رموا فى قاعة حسك الحديد، وجعلوا ذلك الحسك كثيفا عند مدخل أبواب الحصن ولابد قد كان المسلمون لقاء ذلك يسعون إلى طم الخندق وهدم جوانبه فيه حتى ينفذوا منه.

غير أننا لا نعلم إلا قليلا مما كان فى أثناء ذلك الحصار، فلا نجد غير ذكر الترامى بالالات والضرب بالدبابات وخروج جنود الحصن إلى العرب وهجوم العرب على من بالحصن، ولكن يلوح لنا أن العرب لقوا شيئا من المساعدة فى ذلك الحصار من جماعة لعلهم من أهل الفيوم بعد فتحها، وكانوا أحابيش من الحزبين الأخضر والأزرق فكانت عصبة من الحزب الأخضر يقودها(ميناس)، وأخرى من الأزرق يقودها (كزماس بن صمويل) تعبران النهر ليلا إلى الروضة فتنهبان فيها، أو تهبطان على ما قد يكون بالنهر من سفن الروم أثناء عبورها إلى الحصن أو

وعليهم سكينه ووقار كأنهم من الملايكه فلم يقدرو
يصلون لى من كـتـرة الشـعب، فـتـقـدم الى احـد
الكهنه وعـرفنى بدخـولهم فـقلت له: قـد رايتـهم.
وامرته فاستدعاهم فلما دنوا منى استعلمت منهم
سـبب مـجـيـهم ووصـولهم. فـقـالو: جـينا اليك
قـاصـدين نسـال ابوتك بمطانوه من اجل الله ان
تتكلف مشقه الطريق الى الدير فى الجبل المقدس
وادى هبيب مسكن ابينا ابى مقار الكبير لتكرز
البيعه الجديده التى بنيت له فى وطا اسفل الصخره
فـيما بين القـلالى لن [لأن] كـتـيرا من الشـيـوخ

رسوّها إلى جانب الباب الحديدى، فكانت هذه الغزوات تؤذى حامية الحصن أذى كبيرا وتنقص من هيبة الروم وسلطانهم فى النهر.

ولما مضى الشتاء قل خروج الروم من الحصن وقتالهم للمسلمين، فى حين كثر هجوم المسلمين على الحصن وزاد شدّة، واشتدّت وطأة القتال على الروم وخارت قواهم عن الدفاع. على أن حصونهم مازالت على عهدها لم يصدع الحصار منها إلا قليلا. ثم فتك المرض بأهل الحصن(١) فقل عددهم ولم يأتهم المدد، يتطلع حراسهم وهم فوق صروحهم إلى ما حولهم من الآفاق فلا يجدون أثرا يلوح من رماح الروم ودوروعهم طالعا من بين قباب الأديرة البيضاء التى تملأ السهل فى شمال الحصن.

وكان النهر عند ذلك قد هبط وجفت الأرض، وإذا كان ثم أمل فى قدوم جيش من الروم لإمداد الحصن فقد كان ذلك وقته وتلك فرصته.

ومر اليوم بعد اليوم ولا شئ يبشر أهل الحصن ولا كتاب يدخل إلى قلوبهم الرجاء. فلم تبلغهم إلا أنباء سوء وشوم. فقد بلغهم نبأ غضب هرقل على المقوقس، ونقضه لأمر الصلح

---

(١) جاء ذكر هذا المرض فى كتاب ياقوت ولنا أن نصدّق هذا الخبر مع أنه مقرون بخبر آخر لا يمكن تصديقه وهو أن عدد الذين قتلوا داخل الحصن بسهام المسلمين كان ١٢,٣٠٠.

والضعفا سكان قلالى بعيده من الما [ء] ويتعبون
اذا صعدو الى فوق، وانعم علينا يا ابانا وتحمل
التعب لتاخذ الابا الرهبان بركتك لانهم كلهم
مشتهون لنظر قدسك. فلما سمعت هذا منهم
قلت لهم بمسكنتى بفرح: اترى حقا يجعلنى الله
مستحقا لهذا الامر. فاقامو حتى كملنا العيد ذلك
اليوم وغده الذى هو تسعة وعشرون يوما من
كيهك، ثم قلت لك يا اغاتون ولقزما الكاتب
رفيقك: اهتمو لنا بحاجات المسير الى وادى هبيب
لنتبارك من الاب ابى مقار ومن الاخوه الرهبان.

وحكمه عليه بالنفى، ولكن لم يبعث الامبراطور أحدا من جنوده الذين كان بهم معجبا، ولم تغن عن الحصن شيئا أوامره التى بعث بها إلى فؤاده.

غير أن الروم المحاصرين مازالوا يعللون النفس بالآمال إلى أن سمعوا يوما تكبيرا عاليا فى عسكر المسلمين، وذلك فى أوائل شهر مارس سنة ٦٤١. فلما استطلعوا الأمر عرفوا أن هرقل قد مات. فخارت عند ذلك نفوسهم [(١)]» وحسبنا بقوله هذا دليلا على ما أحدثه موته من الأثر فى جند مصر. وأما العرب فقد زادهم نبأ موته شدّة وجرأة وضاعف من همتهم فى فتح الحصن.

ولكن قد بقى الحصن بعد ذلك شهرا لا يسلم، فلما أبطأ الفتح قيل إن الزبير أقبل مع جماعة يقودهم لفتح الحصن بعد أن أعدّ لذلك الأمر عدّته. وكان الخندق قد طم جزء منه استعدادا للهجوم، ولم يعق العرب عن ذلك دفاع أهل الحصن، وكانوا يفتك بهم اليأس والمرض. ولكن ساعة الهجوم بقيت سرا: فلما جاء وقتها أقبل الناس سراعا تحت جنح

---

(١) عن السيوطى وهو يأتى بالتاريخ المخطئ أى سنة ١٩ للهجرة ثم يذكر التاريخ الصحيح رواية عن الليث وهو عام ٢٠ للهجرة(٦٤١ للميلاد) وقد مات هرقل فى ١١ فبراير سنة ٦٤١ أى قبل بدء حصار الاسكندرية بشهور ويخطئ المقريزى نفس الخطأ ولكنه يقول«واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية».

ففعلنا ذلك وقدمنا مسيرنا في اليوم التاني من طوبه فلما وصلنا الى تروجه تلقانا أهلها بفرح عظيم، ثم وصلنا برية المنى التى لابا اسحق عند جبل برنوج ففرحو بنا ايضا الاخوه الذين هناك واقمنا يومين وودعونا وسار بعضهم معنا ليدلونا على الطريق الموديه الى البريه والى الجبل، وكانو قديسين فضلا، فوصلونا الى غايه بريه جبل النطرون، ثم توجهنا الى دير برموس، ومكسيموس، ودوماديوس. ونزلنا بيعة القديس ايسيدورس واقمنا هناك يوما واحدا، ومضوا الاخوه

الليل[1]، ووضع الزبير سلما على السور ولم يفطن اليه أحد[2]، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر وسيفه في يده.

وهكذا اجتمع كبار جند الروم على عجل فى أوّل الصباح الباكر فسألوا عمرا الصلح،

(١) اليعقوبى هو المؤرّخ الرحيد الذى يذكر أن الهجوم كان بالليل.

(٢) ليس من السهل أن نعرف فى أى موضع وضع سلم العرب فان المقريزى وأبا المحاسن يذكران أنه كان بقرب الموضع الذى كان معروفا فى أيامهما باسم«سوق الحمام» ويقول ياقوت إنه كان بقرب الموضع الذى بنى فيما بعد«بيت أبى صالح الحرانى» بقرب حمامات «أبى نصر السراج» بجوار السو ق المتقدم الذكر. ويقول ابن بطريق إنه كان بجوار سوق الحمام ثم يقول إنه كان فى الجانب الجنوبى من الحصن وهو تفصيل يتفق مع ما قاله البلاذرى فان هذا المؤرّخ بعد أن وصف مجئ الزبير وهو بالطبع آت من الشمال يقول إنه وضع السلم على«الجانب الآخر» أى الجنوبى ولكن الموضع المسمى«سوق الحمام» كان فى الغالب جزءا من مدينة الفسطاط وقد زالت الآن زوالا تاما والظاهر لنا أن الهجوم كان على مقربة من الركن الجنوبى الغربى من الحصن ولا تزال الأسوار هناك قائمة.
ولا شك فى هذه الحادثة فى نظرنا فالبلاذرى يذكر أنه عند اخطاط الفسطاط بنى الزبير لفسه بيتابها فورثه ابنه وقال انه لا يزال فيه السلم الذى صعد عليه الحصن(وذلك فى القرن التاسع). ويقول ياقوت إنه يقال إن سلم الزبير كان محفوظا فى منزل بسوق وردان حتى احترق المنزل فى سنة ٣٩٠(حوالى سنة ١٠٠٠ للميلاد).
ويذكر ياقوت سلما آخر ويقول إن شرحبيل بن جحيرة المرادى صعد عليه فى موضع بقرب«شارع الزمارين» ولكن هذه الدلالة قد ضاعت مع مدينة الفسطاط.

الرهبان الذين كانوا اتونا الى مدينة اسكندرية فاعلموا رهبان دير أبى مقار بوصولنا وبقى عندنا اتنان من كهنتهم مع الاخوه الذين صحبونا من المنيا، فخرج إلينا بعض الرهبان وتوجهنا فى اليوم السابع من طوبه الى بقية الديارات وتباركنا منها، وتوجهنا الى دير القديس أبى مقار فلما قربنا منه تلقانا رهبان شباب بزعف [سعف] النخل فى ايديهم وبعدهم شيوخ فى ايديهم مجامر البخور وجماعة الكهنة يقررون مثل الملايكة متشبهين بمن تلقى السيد المسيح من أورشليم يوم الشعانين.

بابليون

وعرض (جورج) قائد الجند فى الحصن أن يسلم على أن يأمن كل من هناك من الجند على أنفسهم. فقبل عمرو منهم الصلح وخالفه الزبير خلافا شديدا فى ذلك، وقال له إنه كان على وشك أن يفتح الحصن عنوة، وقال «لو صبرت قليلا لنزلت من السور إلى داخل الحصن ولكان الأمر على ما نشتهى». ولكن عمرا لم يلتفت إلى ما قاله وكتب عهد الصلح على أن يخرج الجند من الحصن فى ثلاثة أيام، فينزلوا بالنهر ويحملوا ما يلزم لهم من القوت لبضعة أيام، وأما الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب فيأخذ العرب كل ذلك(١) ويدفع أهل المدينة للمسلمين الجزية.

(١) كان من أصعب الأمور أن تؤلف قصة لفتح بابليون فان خبر صعود الزبير أسوار الحصن جاءت أوّلا من ابن عبدالحكم ولكن مؤرّخى العرب غيروها وبدلوا فيها حتى خرجوا بها إلى حدّ السخف فيقول المقريزى إن الروم قد هربوا عندما سمعوا صياح المسلمين وفتح الزبير الباب فدخله العرب فخاف المقوقس وعرض الصلح ودفع الجزية. على أن المقوس لم يكن هناك عند ذلك وليس من المعقول أن يفاوض فى الصلح لو فتح الحصن عنوة. وقد روى أبوالمحاسن القصة على هذه الصورة عينها والسيوطى مثلهما فى الخلط فانه يذكر أن المسلمين لما دخلوا الحصن أرسل المقوقس إلى عمرو يعرض عليه الصلح ولكن الرواية التى ذكرناها هنا مأخوذة عن الطبرى وإنها لواضحة وقريبة إلى الذهن فلسنا نتردّد فى قبولها ولو أن ذلك المؤرّخ قد خلط فى كثير من أخبار الغزو. ويجدر بنا أن نذكر أن المؤرّخين متفقون على أن مدّة الحصار كانت سبعة أشهر فى حين أنهم يختلفون فى ذكر التسليم ويخلطون بينه وبين تاريخ الصلح الذى عقده (قيرس) ولم يقره الامبراطور. وعلى ذلك يجعل ذلك التاريخ فى وقت فيضان النيل.

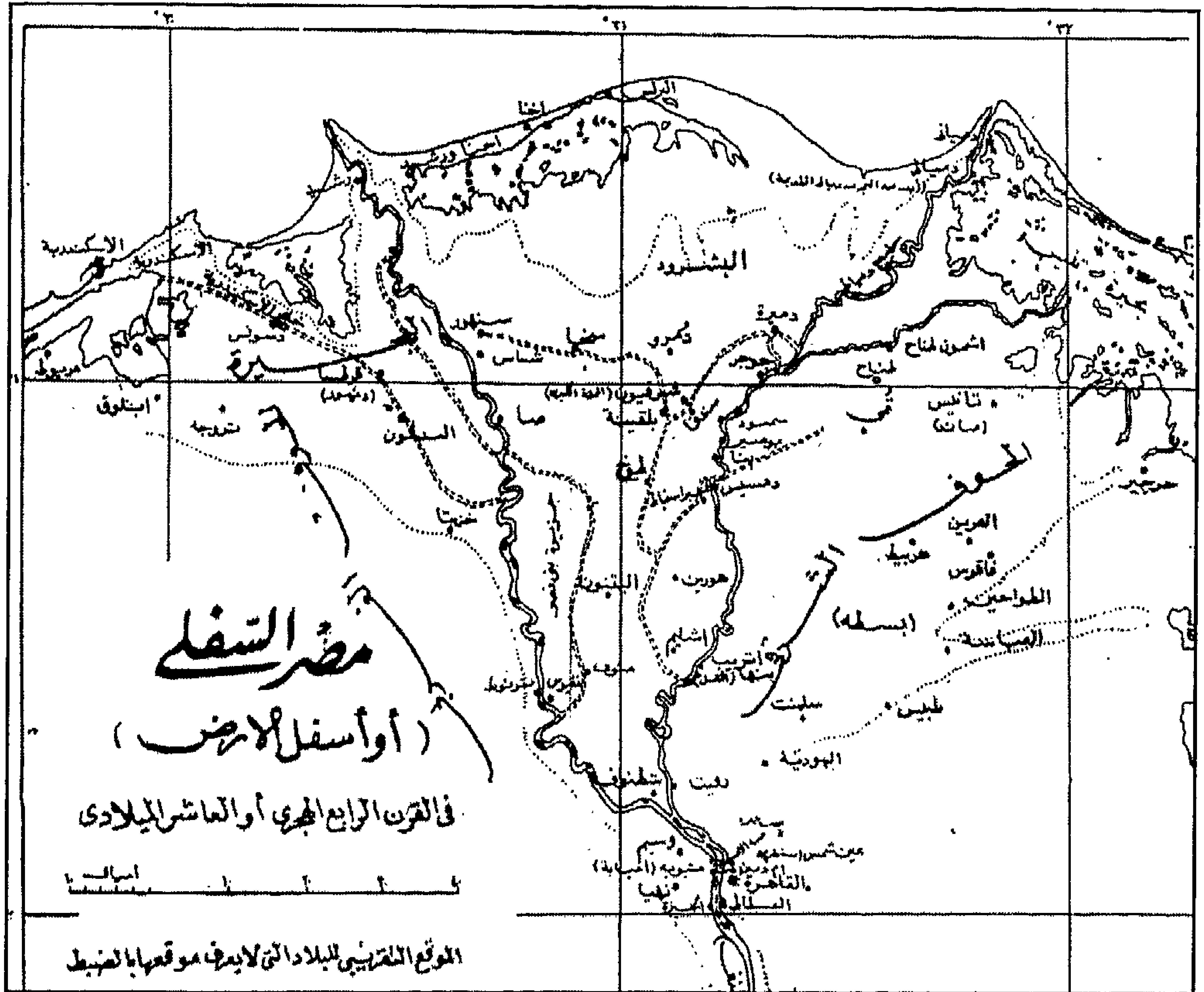
وجعلو يعطون ضعفى ما لا استحقه. وكان معهم المعلم الكبير بسيليوس أسقف نيقيوس فمجدنى السيد المسيح إذ جعلنى مستحقا دفعة اخرى ان انظر هذه البـــرية الجليلة وهولا الأبا والاخـــوه القديسين واظهار الامانة الأرتدكسيه وخلصنى من اضطهـاد المخـالفين ونجى نفسى من التنين العظيم المطغى الطارد لى لجل الأمانة المستقيمة، ووهبنى ان أشاهد اولادى دفعة اخرى وهم محيطون بى. ثم ســاير جميع الكهنه والاخـوه الرهبان امـامى الى ان دخـلت الـبيعـه المسيحيه المستجده

- -

وكانت حملة العرب الأخيرة على الحصن فى يوم الجمعة السابق لعيد الفصح وذلك فى السادس من أبريل سنة ٦٤١ وكان خروج الروم منه فى يوم الاثنين وهو عيد الفصح. وفى مدّة تلك الأيام الثلاثة جمع الروم السفن من جزيرة الروضة ووضعوا فيها المؤونة وأخذوا فى التجهز للهبوط فى النيل إلى مصر السفلى (الدلتا) والاسكندرية.

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن كبار الروم لم يتعظوا بما كان ولم ترق قلوبهم لما نزل بهم من ذهاب أمر المسيحيين فى مصر، ولم تقع فى نفوسهم حرمة ليوم الفصح الذى خرجوا فيه، فبقيت فى صدورهم العداوة والشحناء المذهبية لم يذهب منها شيء. وقد ذكرنا من قبل أنهم سجنوا فى أوّل الحصار كثيرا من القبط الذين كانوا فى الحصن، وذلك لأنهم أبوا أن يتركوا دينهم أو لأنهم رابهم منهم أمر. فلما جاء يوم الفصح الذى كان فيه الخروج من الحصن جعله الروم يوم وقعة ونقمة من هؤلاء المسجونين التعساء، فسحبوهم من سجونهم وضربوهم بالسياط وقطع الجند أيديهم، أمرهم بذلك كبيرهم (اودوقيانوس). ولا عجب مع هذا أن نجد حنا النيقوسى يسبهم فى ديوانه حانقا ويسميهم «أعداء المسيح الذين دنسوا الدين برجس بدعهم وفتنوا الناس عن إيمانهم فتنة شديدة لم يأت بمثلها عبدة الأوثان ولا الهمج، وعصوا المسيح وأذلوا أتباعه. فلم يكن فى الناس من أتى بمثل سيئاتهم ولو كانوا من عبدة الأوثان».

فصرت كانى قد دخلت الفردوس مجمع الملايكه ومسرة القديسين وموضع راحة الصديقين. واذكنا بغداة اليوم التامن من طوبة فقلت: ايتونى بالقس أغاتون الذى تعب معى على الأمانة فى زمان الشدايد التى لحقتنى عند مطاردة المقوقس عدو الحق لضعفى، فلما اتيتنى قلت لك: يا ولدى اخرج الكتب التى تصلح للتكريز. فاخرجتها لى ثم بدأنا الصلاة ومعى أبا باسيليوس اسقف نقيوس وكل الكهنة محيطون بى وجميع الرهبان كما قد رأيت، فبينما انا كذلك إذ



رايت شيخا على وجهه نور عظيم وضو ساطع فشخصت اليه وتاملته وقلت فى نفسى هذا يصلح ان يجعل اسقفا ليرعى شعبا كتيرا، فان اراد الرب إذا خلا كرسى جعلته عليه لن [لأن] هذا الشخص رجل قديس يصلح لهذا الأمر. فبينما انا مفكر فى هذا إذ رأيت سارافيم قد ظهر لى وله ستة اجنحة وهو قايم الى جانبى فقال لى: يا اسقف لماذا انت مفكر فى هذا الشيخ هذا أبو مقار أبو البطاركة والأساقفة والرهبان الذين فى هذه البرية قد حضر لتكريز هذه البيعة. فبهت اليه

ويصف الأسقف المصرى أنين أولئك الأسرى الذين مثل بهم وبكاءهم إذ يساقون مطرودين من الحصن يشيعهم السباب. وأنه ليس بغريب مع ذلك من مثل الأسقف المصرى أن يقول إن فتح الحصن للمسلمين لم يكن إلا عقابا من الله على ما فعله الروم من الأفاعيل فى القبط، ولو أن مثل هذا القول ليس مما يصح فى الأذهان. على أن ذلك الأمر له معنى إذ يدل على ما كان بين شيعتى المذهبين المسيحيين من عداوة لا تحل عقدتها، بقيت فى قلوبهم لم تخب ولم تخمد نارها مع ما ظهر من ثمار اختلافهم وعواقب تخاذلهم من فوز الاسلام وعلوّ أمره.

السير الى الاسكندرية

انتهى حصار بابليون فى اليوم التاسع من أبريل سنة ٦٤١ بعد أن لبث سبعة أشهر، وهذا أمر قد ورد جليا فى أخبار العرب. على أن جل مؤرّخيهم إن لم يكونوا كلهم يخلطون الصلح الأخير الذى سلمت به الروم الحصن بعد أن نفى المقوقس من مصر، بالصلح الذى حدث قبل ذلك فى أوان الفيضان بعد بدء الحصار ببضعة أسابيع، وهو الذى عقده المقوقس ولم يقرّه الامبراطور.

ولكن الصلح الذى أبرم عند بابليون لم يكن إلا عهدا حربيا، ولم يكن عقدا سياسيا. فقد رضى فيه عمرو بأن يشترى الحصن ويدفع ثمنا له تأمين من كانوا فيه، وخروجهم منه بغير أن يسلموا أو يدفعوا الجزية، وإنما دفع الجزية من بقى. وإذ كان ذلك العهد لا يمس إلا مدينة

وتاملتـه وهو قـايم بين اولاده بفـرح عظيم وكـان صوت ذلك السارافيم يطن فى مسامعي وقد خفت منه. ثم قال لى : ان سلكوا اولاده الطريق المستقيم الذى سلكه فسيـدخلون معـه الى مـوضع الملك ويفـرحـون معـه، ومن خـالف وصـاياه لم يكن له معـهم نصـيب بل يطرد من القطيع و لا يكون له معه ميـراث. فقـال له القـديس أبو مقـار: تختم يا سيـدى عل اولادى بهـذا القـول لانه إذا وجـد فى العنقـود حبـه واحده لا يتلف لان بركـة الله فـيه فانا ايضـا اومن بالمسيـح حبيب نفسى انه إذا وجـد فى

مصر والحصن فقد كانت الجزية قليلة ومؤقتة، فقال مؤرّخ إنها كانت دينارا لكل من جنود العرب ولباسا[1]، وكانوا فى أشدّ الحاجة إليه.

ولكن هذا الصلح أحدث فى دولة الروم أثرا كبيرا، مع أنه لم يكن إلا صلحا مقصورا على جماعة صغيرة. وسبب ذلك مكانة ممفيس أو بابليون ، فإنها وإن لم يبق لهـا المحل الأوّل فى البلاد إذ مضى عليها زمن طويل وليست هى عاصمة البلاد، كانت لا تزال ذات شأن عظيم إذ كانت باب إقليم الصعيد وإقليم مصر السفلى. وكان حصنها منيعا لا يكاد ينال، فإذا هو وقع فى يد عدوّ دانت له بلاد الصعيد جميعا وهابته بلاد مصر السفلى فى الشمال. ولسنا ندرى مـاذا كـان قـوّاد الروم يصنعـون طول مـدّة الشـتـاء ومـا الذى حـملهم على أن يخلوا مـا بين المسلمين وبين الحصن حتى استطاعوا على مر الزمن أن ينزلوا من فيه. ولكنا نعلم حق العلم أن الروم ضعفت قوّتهم وخارت عزيمتهم عندما فتح العرب ذلك الحصن، فى حين أن العرب زادوا قوّة وجرأة، وأصبح فى يد عمرو ملك الفرما وبلبييس وأتريب وعين شمس. فكان باسطا سلطانه على الجانب الشرقى كله من مصر السفلى، فلما دان له الحصن صار سلطانه ثابتا

(١) يذكر المقريزى حديثا لابن وهب نقلا عن عبدالرحمن بن شريح جاءت فيه هذه العبارة وهى قريبة الى الأذهان. وكانت الملابس عبارة عن جبة وبرنس وعمامة وخفين فاذا قلنا إن عدد العرب كان عند ذلك قد نقص الى ١٢,٠٠٠ أمكن أن نفسر ما ذكره بعض الكتاب من أن الجزية قد بلغ قدرها ١٢,٠٠٠ دينار ويخطىء من يقول إن هذا هو مجموع الجزية التى فرضت على مصر جميعها وسبب ذلك أن اسم مصر يطلق كما هو حادث فى كثير من الأحوال على القطر كله فيسمى باسم المدينة.

اولادى وصية واحدة وهى المحبه بعضهم لبعض او
يرفعون اعينهم الى السما الى السيد المسيح ولو
دفعة واحده فى كل يوم فالرب لا ينساهم من
رحمته بل ينجيهم من عذاب الجحيم الابدى لان
الرب محب البشر قد جعل للخاطى التوبه وليس
يريدى موت الخاطى الى ان يرجع ويتوب فيقبله.
فلما سمعت كلام القديس أبى مقار مع السارافيم
عرفت محبته لولاده. وتفسير اسم الاب ابى مقار
«المكرم من الله ومن الناس الطوبانى» هذا هو
«الشبكه» التى تجمع من كل جنس الى ملكوت

على مجمع النهرين، وجمع فى يده أزمة وادى النيل الأوسط، وتم له بذلك الشطر من فتح مصر.

وكان عمرو شديد الرغبة فى أن يسير جنوده نحو الاسكندرية، بعد أن طالت مدّة إقامتهم بالعسكر فى مصر. وكان يعرف أنه لن تمرّ ثلاثة أشهر حتى يكون النيل قد أخذ يعود إليه مدّة وفيضه، فكان الوقت دونه غير متسع وفى ضياعه مضيعة وخسارة، فأرسل الى عمر بن الخطاب يصف له ما كان ويستمدّه. على حين شرع يدبر أمر المدينة التى فتحها وما حولها من إقليمها. وأخذ يرمم بناء الحصن وجعل فيه قوة مسلحة من المسلمين عليهم خارجة بن حذافة السهمى. وما كان أعظم سرور عمرو إذ رأى نفسه على ظهر جواده مرة أخرى يسير مع جيشه إلى الاسكندرية وقد جعلوا الحصن وراء ظهورهم وساروا نحو الشمال يتبعون شاطىء الفرع الغربى للنيل.

ولا شك أن أول ما قصد اليه عمرو فى سيره نحو الإسكندرية كان مدينة نقيوس (شمشير الحالية)، وكانت مدينة (1) ذات شأن عظيم وحصنا ذا منعة وقوّة، وهى على الشاطىء

(1) إن اسم وردان الذى لا يزال محفوظا فى قرية على الجانب الغربى للنيل إذا أضفنا إليه ما جاء فى المقريزى من الأخبار بدا لنا أن عمرا سار أوّلا على الجانب الغربى للنيل فى مسيرة إلى نقيوس . حقا إن هذا الطريق كان قليل العقبات وأسهل سيرا من الأرض التى بين فرعى النيل وهى تعترضها الخلجان والترع ما دام عمرو واثقا من أنه يستطيع عبور النيل عند العتريس أو بنى سلامة. وقد قال المقريزى «وكان عمرو حين=

الله اعنى الاب ابا مقار تلميذ الله، الرب، فقلت بحيث يسمعنى من هو قريب منى: طوباك يا ابا مقار وطوبى لطقسك وطوبى لولادك اذ استحقو ان تكون لهم شفيعاقويا امام موضع حكم الله محينا اذ اتى ملكنا والاهنا يسوع المسيح فى ظهوره التانى ليجازى كل احد كاعماله، بالحقيقة يا ابا مقار السفينه العظيمه الحامله الانفس الكتيره المودية بها الى مينا السلامه والخلاص والشفيع لجميعنا كما قال داود في مزمره: طوبى للرجل الذى لم يسلك فى موامرة المنافقين وفى طريق

الشرقى لفرعى النيل الغربى الذى هو فرع رشيد، على مسيرة يوم من حصن بابليون، وعلى ساعتين من مدينة منوف، وكانت منوف إذ ذاك فى ملك العرب. وكانت نقيوس فوق عظمتها مدينة قديمة بها الآثار الجليلة من أيام الفراعنة، وكانت مقر أحد كبار رؤوس الدين المسيحى، ولها مكانة حربية كبرى فى حفظ الطريق بين حصن بابليون والاسكندرية. فكان لابد للروم أن يجتمعوا هناك مرة أخرى للقاء العرب.

والظاهر أن عمرا ابتدأ سيره أولا على الضفة الغربية للنهر من ناحية الصحراء، ففيها مجال أوسع لخيله لا يعوقها هناك ما يعترض مصر السفلى من الترع الكثيرة. وكان الروم على توقع أن يفعل ذلك فلا قوّة هناك، وكان أوّل ما التحموا بجيشه عند مدينة قديمة معروفة وهي (طر نوتى) أو (طرنوط)، أو كما يسميها العرب (الطرانة). وكان فى تلك المدينة فرضة يعبر النيل عندها فى الذهاب الى الاسكندرية، وفيها كذلك بدء الطريق المؤدّية الى أديرة القبط فى صحراء وادى النطرون. فكان لابد للروم على ذلك من أن يقفوا وقفة فى الدفاع عنها.

=توجه إلى الإسكندرية خرب القرية التى تعرف اليوم بخربة وردان واختلف علينا السبب الذى خربت لأجله. فحدّثنا سعيد بن عفير أن عمرا لما توجه إلى نقيوس عد إلى وردان لقضاء حاجته عند الصبح فاختطفه أهل الخربة فغيبوه ففقده عمرو وسأل عنه وقفا أثره فوجدوه فى بعض دورهم فأمر باخرابها وإخراجهم منها (وقيل كان أهل الخربة رهبانا كلهم فغدروا بقوم من صحابة عمرو ووجه اليهم وردان فقتلهم وخربها فهى خراب إلى اليوم) .

الخاطين لم يقف، وعلى مجالس المستهزين لم يجلس(*). انت المجاهد بالحقيقة الملك، طوباها البطن التي حملتك وولدتك في العالم، اذكرني يا قديس الله الحقيقي. فقلت لي أنت يا أغاتون وقال لي اسقف نيقوس: لمن تخاطب يا أبانا فقلت لكما انا اخاطب ابا مقار ابا هذا الجبل لانه زمان كلام وزمان سكوت. وانا صعدت الى الهيكل وقلت صلاة الميرون وتناولته لا نقط على الهيكل المقدس، وسمعت صوتا يقول: تأمل يا اسقف، فلما نقطت الميرون على الهيكل رأيت يد السيد

(*) انظر المزمور الأول.

فقاتلوا العرب هناك(١) وأبلوا بلاء حسنا غير أنهم انهزموا واستطاع عمرو أن يستأنف السير الى مدينة نقيوس.

وقد مر بنا أن مدينة نقيوس على الشاطىء الشرقى للنهر على مقربة من الموضع الذى تتصل فيه بالنيل الترعة التى بين أتريب ومنوف. وكان عمرو لا يستطيع أن يتركها على جانبه ويسير عنها، إذ هى حصن منيع. فعبر النهر اليها حتى إذا ما فتحها عاد الى الغرب وواصل السير، وكانت تلك فرصة دون القائد الرومانى (تيودور) إذا أراد المناجزة، ولكنه لم يغتنمها فلم يخرج للعرب بنفسه فى عامة جيشه، بل أرسل القائد الجبان الضعيف (دومنتيانوس) ليذود عن نقيوس، وبعث معه كتيبة ضعيفة. وكان عند (دومنتيانوس) كثير من السفن قد أعدّها لكى يدافع بها عن المدينة، أو لكى يهبط بها على جيش عمرو فى أثناء عبوره للنهر، وكان عمرو لابدّ له من عبور النيل اذا فتح المدينة، واذا هو فشل ولم يفتحها كان أغلب الظن أنه يحاول العبور. غير أن قائد الروم عندما رأى المسلمين على كثب منه خانه جنانه، وترك

(١) قد ذكر ياقوت هذه الوقعة وقال إن عمرا حارب الروم فى وقعة عند (طرنوط). وقد أخطأ المقريزى خطأ غريبا فى ذلك الأمر فانه عندما ذكر سير عمرو من بابليون الى الاسكندرية قال (الجزء الأول صفحة ١٦٣ طبعة بولاق) «فلم ير أحدا حتى بلغ مريوط فلقى فيها طائفة من الروم» ثم قال بعد بضعة اسطر من ذلك إن عمرا بقى فى مريوط فى حين كانت طلائعه عند كوم شريك! ويمكن أن يصحح ذلك الخطأ بأن نجعل (طرنوط) محل (مريوط) وهو الصحيح. وهذا الخطأ يوضح لنا نوع الخطأ الذى يضلل التاريخ من جراء تحريف الكتاب أو النساخ الذين يجهلون وصف البلاد.

المسيح المخلص على الهيكل تمسح الهيكل فنالنى لذلك خوف عظيم ورعده كما رايتنى ولم تعلم انت ولا الحاضرون سبب ذلك ولا ما رايته وسمعته. ثم قلت مع الاب يعقوب: ان هذا الموضع مخوف وهذا بيت الله بالحقيقة وهذا هو باب السما وموضع راحة العلى. قال اغاتون القس: فى هذا الوقت نظرنا اليه وهو كالنار ووجهه يشرق بالنور فلم يستطع احد منا يكلمة بلفظة بل كنا باهتين له. فقال الأب: بنيامين: هذه مظلة الاب

جيشه وسفنه ولاذ فى سفينة هاربا نحو الإسكندرية. فلما رأى الجنود أن قائدهم يفرّ عنهم ذلك الفرار وضعوا سلاحهم وهبطوا إلى الترعة سراعا[1]، وقد أذهلهم الخوف، يريدون أن يقتحموها أو يبلغوا السفن فيها. ولكن عدوى خوفهم أعدت نوتية السفن فلم يأبهوا لشيء إلا سلامتهم، فحلوا سفنهم مسرعين وهبطوا بها إلى الشمال يطلبون النجاة، فعمد كل منهم الى قريته. وعند ذلك طلع العرب على جنود الروم وهم فى الماء بغير سلاح فقتلوهم عن آخر، فلم ينج منهم إلا رجل اسمه (زكريا) بدت منه شجاعة عظيمة عند ذلك، ولعل نجاته كانت لما بدا منه من الشجاعة. ثم دخل العرب المدينة من غير مقاومة إذ لم يكن فيها جندى واحد يقف فى سبيلهم، ومع ذلك فقد أوقعوا بأهلها وقعة عظيمة.

ثم انتشروا فيما حول نقيوس من البلاد فنهبوا فيها وقتلوا كل من وجدوه بها، فلما دخلوا مدينة (صوونا) وجدوا بها (اسكوتاوس) وعيلته وكان يمت بالقرابة الى القائد (تيودور)، وكان مختئبا فى حائط كرم مع أهله، فوضعوا فيهم السيف فلم يبقوا على أحد منهم. ولكن يجدر بنا أن نسدل الستار على ما كان فإنه لا يتيسر لنا أن نسرد كل ما كان من المسلمين من المظالم بعد أن أخذوا جزيرة نقيوس فى يوم الأحد وهو الثامن عشر من شهر (جنبوت) فى السنة الخامسة عشرة من سنى الدورة» ويقع ذلك التاريخ فى اليوم الثالث عشر من شهر مايو سنة ٦٤١.

(١) هذا الوصف يدل على أن الترعة كانت فى شمال نقيوس ويثبت أن موضع نقيوس هو شبشير.

والابن والروح القدس ودار الهيكل تلت دفعات وهو يقول الليلويا. ثم زمر مزمور [٨٤] قايلا: ما احب مساكنك يارب القوات تاقت نفسى واشتاقت الى ديار الرب... مذابحك يا رب القوات ملكى والهى. وكمل قول المزمور إلى اخره، فلما كمل تكريز القبه خرج الى البيعة يكرز حيطانها وعمدها ثم عاد وجلس فى القبه فقال لنا: لقد مضى بى اليوم الى فردوس رب الصباوت وسمعت اصواتا لاينطق بها ولا تخطر على قلب

وقد كانت نقيوس معقلا من معاقل الدين القبطى، ولا شك أن الناس كانوا مع ما نزل بهم من الاضطهاد لا يزالون على عقيدتهم يضمرونها فى قلوبهم، ولو أظهروا الخروج منها تقية لما نالهم من عسف قيرس. وكان العرب فى وقعتهم لم يفرقوا بين قبطى ورومى، وليس فيما وصلنا من أخبار ذلك لفظ واحد يدل على أن القبط كان لهم شأن آخر فى معاملة العرب. وكذلك ليس من شك فى أن الشقاق والاضطراب قد دهما البلاد واجتاحاها كما يجتاح الطاعون الأرض، فلم يمض طويل زمن حتى عمت الفوضى واندلع لهيب الحرب الأهلية بين أهل مصر. فكان ذلك ضغثا على أبالة فانقسمت مصر السفلى الى حزبين: حزب مع الروم، وحزب يريد أن يتفق مع العرب. ولسنا ندرى اذا كان الفارق بين ذينك الحزبين فارقا من جنس أو من مذهب أو من تشيع سياسى. على أننا نرجح الرأى الأخير.

ولما فتحت مدينة نقيوس[1] وتفرّقت السفن الرومانية التى كانت بالنيل هناك، أصبح الطريق خاليا من العقبات دونهم اذا شاءوا السير الى الاسكندرية. وكان جيش الروم عند ذلك يقوده (تيودور) ويتراجع به شيئا فشيئا نحو تلك العاصمة.

وسار عمرو يدفع العدوّ أمامه، ولعله سار إلى الشمال الغربى على جانب الترعة التى تلى الصحراء حتى بلغ الدلنجات، ومنها سار إلى الشمال فى أتجاه دمنهور. فوجد الروم يعترضون

(١) لا يعرف المؤرّخون العرب شيئا عن هذا الحادث وهم يمرّون عيه بغير ذكر شيء عنه. وأما موقعة نقيوس التى جاء ذكرها فى كتاب ياقوت فهى الموقعة التى حدثت فى أثناء ثورة منويل.

بشر كما قال الرسول بولس الحكيم فصدقونى ياأخوه فانى رأيت اليوم مجد المسيح قد ملا هذه القبه ونظرت بعينى الخطيتين الكف المقدس،يد السيد يسوع المسيح المخلص العالية، تمسح ما يده [مائدة] هذا الهيكل المقدس، وشاهدت اليوم السارافيم والملايكه وريسا الملايكه وجميع قوات العلى القديسات يسبحون الاب والابن والروح القدس فى هذه القبه، ورايت ابا البطاركة والاساقفه ومعلمى البيعة الارتدكسيه قايما فيما

سبيله عند سنطيس[1]، وهى على ستة أميال فى جنوب دمنهور. ووقعت هناك وقعة شديدة انهزم فيها الروم وتقهقروا أمام العرب. ولم يحاولوا أن يقفوا لعدوّهم فى دمنهور أو يملكوها، بل تدافعوا نحو الشمال فانتهى بهم الانهزام الى الطريق الأعظم المؤدّ إلى الاسكندرية، فعبروا الترعة وكانت عند ذلك لا يكاد يوجد بها شيء من الماء، ثم ساروا حتى أظلهم حصن (كريون) بعد مسيرة نحو عشرين ميلا. وكانت مدينة (كريون) آخر سلسلة من الحصون بين حصن (بابليون) والإسكندرية وكان لها شأن عظيم فى تجارة القمح سوى ما كان لها من خطر عظيم فى الحرب، إذ كانت تشرف على الترعة التى عليها جل اعتماد الإسكندرية فى طعامها وشرابها. ولكن حصونها لم تكن فى المنعة على مثل ما كان عليه حصن بابليون ولا ما كان عليه حصن نقيوس، مع أن الروم رمّموا حصونها وزادوها قوّة. ومهما يكن من الأمر فقد عوّل (تيودور) على أن يقف هناك وقفته الأخيرة، ولم يكن فى وسعه أن يختار مكان أليق من ذلك. فكانت حصون المدينة تساعد الجنود وتشدّ أزرهم، وكان جنوده أكثر عددا من العدوّ،

---

(١) جاء اسم هذا الموضع فى المقريزى هكذا (سلطيس) وجاء ذلك الاسم فى ترجمة ابن بطريق هكذا (Salstan) وهو تحريف ظاهر وقد قال (Weil) عند ذكره ذلك الاسم سلطيس انه لابد أن يكون (سمياتيس) أو كما زعم (Ewald) أنه (سنطيس) ولا شك أن الاسم الأخير هو الصحيح وسنطيس قرية كبيرة فى نحو منتصف المسافة بين كريون وكوم شريك.



بيننا هاهنا فى وسط الاخـوة اولاده بفـرح، اعنى الاب ابا مقـار الكبير. حقا ان هذا الهيكل تحت كرسى ضباط الكل هذا الهيكل هو الذى ذكره اشعيا النبى اذ قال: يكون لله بارض مصر مذبح ودكه وخمس قرى يتكلمن بالكنعانيه، قوموا الان يا اولادى نكمل القداس ونغتنم بركة الابا ونمجد الله تعـالى. قـال اغـاتون القس، قـال لى الاب البطرك: فلما كملت الخدمه الالهية وقربت الكهنه رأيت ايضا نعمه عظيمه لا يجب ان اخفيها عنك،

وكانت الترعة تحميهم من بين أيديهم، وكان الطريق من ورائهم يفضى الى الاسكندرية ومن السهل عليهم حفظه.

وقد قاتل جنود الروم فى هذا الوقت قتالا شديدا حتى شهد بذلك مؤرّخو المسلمين أنفسهم، ولم يخذلهم ما أصابهم من قبل من النكبات من سقوط بابليون ونقيوس فى يد عدوّهم، ولا ما حل بهم من خيانة بعض قوّادهم أو جباتهم. ولم يكن الروم فى قلة إذ أتتهم الأمداد من وراء البحر من (قسطنطينية)، وكان قائدهم (تيودور) غير متهم فى شجاعته ولا إقدامه فى القتال، غير أنه لم يكن قائدا ذا رأى فى الحرب. وقد عرف الناس جميعا فيما يحيط بذلك الموضع كما عرف الجنود الذين كانوا بالاسكندرية أن ذلك اليوم، يوم كريون، له ما بعده، فأتت الكتائب تترى من كل مكان الى لواء الروم من سنطيس ومن مدائن أبعد منها، مثل (خيس) و(سخا) و(بلهيب)[1]. ولم تكن تلك الوقعة قتال يوم انجلى عن مصير (كريون)، بل كان قتالا شديدا استمر بضعة عشر يوما.

(١) نقلنا هذا عن البلاذرى (صفحة ٢١٠) وهو يجمع القبط والروم في معركة كريون. أما سخا فهى بين فرعى النيل على نحو عشرين ميلا فى الشمال الغربى من سمنود ولا نستطيع أن نجد موضعا فى خرائط مصر الحديثة يشبه اسم بلهيت (أو بلهيب كما جاء في ياقوت وهو أصح) الموضع كان معروفا وحدثت فيه ثورة للقبط سنة ١٥٦ هجرية وقد بحث كاترمير فى موضعها وهو يبين أن ابن حوقل يجعلها على ست (ساكات) الى الشمال من سنديون على نهر النيل عند ملتقى فرع صغير يفرع رشيدفاذا جعلنا (الـ (ساك) نحو ميل وربع كانت بلهيب (كما جاء فى كاترمير) على مقربة من (منطوبس كما يسميها هو)=

فلما تقدم. الشيوخ الى القربان رأيت دخان بخور يصعد كالعطر من افواههم حتى ظننت ان كل واحد من اوليك الابا الرهبان يحمل بخورا عند تقدمه الى القربان، ثم انفتح سقف البيعه فصعد منه ذلك العطر وتاملت افواههم ودعاهم عند دنوهم من القربان فرأيت الكلام يخرج من أفواههم والبخور يخرج من أفواههم صاعدا الى السما فتحققت حينيذ [حينئذ] انه دعاهم وصلاتهم التى يقولونها عند اخذهم السراير

- -

ولكن الفتح أبطأ عليهم . ويلوح لنا أن تلك الوقعة لم تكن نصرا لاحدى الطائفتين بل تساوت فيها الكفتان، ولكن مؤرّخي العرب يقولون إنها كانت نصرا عظيما للمسلمين. ومهما يكن من الأمر فلا شك في أن المسلمين لاقوا نصرا بعد قتالهم في تلك الأيام العشرة، وذلك أنهم استطاعوا أن يفتحوا مدينة كريون وحصنها وهزموا الروم عنها. ولا نستطيع أن نقول شيئا عما حدث بعد ذلك في ارتداد تيودور. فلا ندرى أكان ارتداد جنوده انهزاما لا يلوون فيه على شيء حتى بلغوا أبواب الاسكندرية، أم كان تقهقرا وئيدا في نظام. على أن ديوان (حنا النقيوسي) يشتم منه بأن التقهقر كان وئيدا وهو قول لا يتهم صاحبه.

ولابدّ قد خسرت الطائفتان كلتاهما في ذلك القتال بين الطرانة وكريون خسارة كبرى.

ولما فتح العرب كريون خلا أمامهم الطريق الى الاسكندرية.

=ولكن الاسم الموجود على خريطة الدومين هو (مطوبس) ومن الظاهر أن بلهيب كانت على الجانب الغربي للنهر وليست على الشرقي وقد زال الفرع الصغير من زمن طويل وصار موضعه مستنقعا ولكن هناك قرية صغيرة اسمها (ديبي) في الموضع المطلوب ولعل هذا الاسم صدى للاسم القديم (بلهيب) وهي عند ثنية النهر على نحو عشر أميال أو اثنى عشر ميلا الى جنوب رشيد وقد أخطأ ميلنو اذ قال إن الملتقى الذى ذكره ابن حوقل كان قديما عند مدينة (ديروط) فان ديروط قريبة من (سنديون) ولو أنها على الناحية الأخرى من النهر ولعل أميلنو لم يحسن قراءة كاترمير. وكانت خيس في جوار دمياط، ويذكر ياقوت (فرطا) أو (قرطا) بين البلاد التي قاومت عمرا ثم يقول ان عمرا صالح (بلهيب).

المقدسة التى هى جسد ودم الرب يسوع المسيح الطاهر. ورأيت الملايكه يتسلمون صلواتهم تلك ويصعدونها امام كرسى الرب، فمن عظم داعهم وصلواتهم قلت حقا ان هذه المنارة الذهب التى عليها المصباح والجوهره الثمينه وكوكب الصبح المشرق المضى على كل المسكونه، سبحت بتسبحة التلتة فتيه حنانيا، عزاريا، وميسايل، التى قالوها فى اتون النار الموقد: مبارك انت يارب الاه اباينا ومسبح وممجد الى الابد ومبارك بالحقيقة

مضى عند ذلك أكثر شهر يونيه ولم يكن قائد العرب بالرجل الذى يخادع نفسه عن المدينة ويعلل نفسه باستطاعة فتحها عنوة. فقد علم حق العلم أنه لن يستطيع أخذها بالهجوم، وإنما كان واثقا من شىء واحد، وهو أن أصحابه إذا خرج لهم العدوّ وناجزهم القتال صبروا وثبتوا وغلبوه، وإن كان أكثر منهم عددا. وعلى ذلك عوّل على أن يخلف فى عسكره جيشا كافيا للرباط، وأن يسير هو مع من بقى من الناس فيضرب بهم فى بلاد مصر السفلى، قبل أن يتعذر[1] على المسلمين السير بها إذ كان فيض النيل يقترب أوانه. وكان الروم قد هاجروا من حول الإسكندرية فصارت قصورهم البديعة ومنازلهم الجليلة فيما وراء أسوار المدينة فيئا للعرب، فغنموا منها غنيمة عظيمة وهدموا كثيرا منها ليأخذوا خشبها وما فيها من حديد، وأرسلوا ذلك فى سفن بالنيل إلى حصن (بابليون).

ولم تكن السرية التى سار بها عمرو بن العاص فى مصر السفلى سرية كبيرة، فما كان يتوقع كيدا كبيرا ولا قتالا شديدا اللهم إذا عند البلاد المحصنة، ولم يكن فى الوقت متسع لحصارها لو شاء. وكان عمرو إنما يريد جمع الاسلاب والغنائم لنفسه وجنوده ومن سار معهم من البدو وغيرهم ثم القفول الى (بابليون)، ولكنه أحب أن يعلم أهل مصر السفلى بقربه

(١) لعلنا لا ينبغى أن نمرّ على عبارات مؤرّخى العرب فى قبط هذا العصر بغير أن نقول كلمة فيه. فقد قال ابن عبدالحكم إن القبط ساعدوا العرب فى كل ما احتاجوا اليه وإن رؤساء القبط حفظوا الطر ق وأقاموا لهم الجسور وفتحوا الأسواق فى سيرهم الى الاسكندرية.

الرب الاه هولا القديسين الذين استقامة العالم بهم وبامثالهم هذا مجمع الملايكة ومينا كل الانفس الذين هربو الى الله منجى كل الانفس. ثم مجدت وشكرت الرب يسوع المسيح الذى جعلنى مستحقا ان اشاهد ما رأيت. ولما نمت فى تلك الليله رايت وقد وقف امامى رجل منير وقال لى: استيقظ يا أسقف وقم لترتب قوانين هذه البيعة وهذه القبة معا ليحترز كل احد فى سلوكه فيها من قس وشماس بصبر تام وسكون صالح لأن

ويشعرهم شوكته. فسار إلى كربون ومن ثم الى دمنهور ثم سار إلى الشرق يجوس خلال الإقليم الذى يعرف اليوم باسم الغربية، حتى بلغ (سخا). وكان ذلك الموضع الى شمال المدينة الحديثة (طنطا) على نحو اثنين وعشرين ميلا منها، وقد ظل الى ما بعد ذلك الوقت بزمن طويل وهو قصبة الإقليم، وكان موضعا حصينا. ولم يفلح عمرو فى تحقيق ما كان يريده من النزول على تلك المدينة بغته وأخذها على غرة، ورأى العرب أنفسهم مرة أخرى وقد عجزوا عن أخذ مدينة تحيط بها الأسوار وتكتنفها المياه. فساروا نحو الجنوب ولعلهم اتبعوا (بحر النظام) حتى بلغوا (طوخ) وهى على نحو ستة أميال فى الشمال الغربى من موضع (طنطا). ومن (طوخ) ساروا الى (دمسيس)[1]، وقد ارتدوا كذلك عن هاتين القريتين ولم يستطيعوا فتحهما ولم يجد أهلهما مشقة فى صد العرب. ويرد مع هذه الأخبار ذكر غزوة للقرى التى على فرع النيل الشرقى، قيل إن العرب قد بلغوا فيها مدينة دمياط، ولعل تلك الغزوة كانت على يدى سرية عمرو فى هذا الوقت نفسه. ولم يكن من أمرها غير إحراق المزارع، وقد أوشكت أن ينضج ثمرها، فلم تفتح شيئا من المدائن فى مصر السفلى. ولنذكر أن العرب

(١) طوخ: يوجد فى مصر السفلى على الأقل ست قرى بهذا الاسم: طوخ الا كلام فى الدقهلية، وطوخ دلكه، وطوخ بلفطه، وطوخ طنبشا فى المنوفية، وطوخ الملك فى القليوبية، وطوخ مزيد فى الغربية؛ ولعل الأخيرة هى المقصودة هنا نظرا لموضعها. وأما (دمسيس) واسمها الآن (ميت دمسيس) فعلى نحو تسعة أميال الى شرق طوخ مزيد وهى على الجانب الشرقى لفرع دمياط.

المسيح ربنا وجميع ملايكته هاهنا، واكتب هذه القوانين تذكارا لهذه البيعه المقدسه الى الابد لأنه سياتى جيل معوج يحبون مجد الناس اكثر من مجد الله، ويدوسون هذا الموضع المقدس التى اعطاها لشعبه بالذهب ويقاومون القوانين الرسوليه، فمن اراد ان يكون له ميراث فى هذا الموضع المقدس وهو بلا مخافة من الرب ولا تجرب نفسه بديا . و يبدل مجد هذا الموضع المقدس الجليل المكروم ويكون عنده مثل مواضع البهايم فى

قضوا فى عملهم فى هذا الإقليم اثنى عشر شهرا إلى ذلك الوقت. وبعد تلك الغزاة التى أوقع وأحرق فيها عمرو البلاد وغنم منها عاد إلى حصن (بابليون) ومن معه.

تسليم الاسكندرية

حدث فى أثناء غياب قيرس فى منفاه أن ثارت بمصر فتنة بين الناس، يتقد لهيبها بين حين وحين، فثار القتال مرة بين أهل كورة مصر وأهل الكور التى فى الشمال، ثم عاد السلام بينهم بعد أحداث كثيرة، وما كاد الأمر يستقر حتى استعر القتال فى العاصمة ذاتها. وكان كبار الروم أحزابا وشيعا، تباعد بينهم الإحن ويغرى بينهم التحاسد. وكان حرص كل من الحزبين الأخضر والأزر ق على القتال فيما بينهم أعظم من حرصهم على حرب العدوّ الرابض عند أبواب مدينتهم. فكان (دومنتيانوس) الذى أسلم الفيوم و(نقيوس) يناصب (ميناس) العداء وينافسه فى التطلع الى القيادة العامة فى الجيش، وكان (ميناس) يحقد على (أودوقيانوس) أخى (دومنتيانوس) لما كان منه من شنيع الأفاعيل بالقبط الذين كانوا فى حصن بابليون فى يوم عيد الفصح المشهور، وكان (تيودور) لا يزال غاضبا على (دومنتيانوس) لما كان من جبانته فى الهروب من (نقيوس) تاركا جيشه ومتخليا عن واجبه. وأنه لمن العجيب أن يبقى (دومنتيانوس) فى منصبه لم يؤاخذ أو يقتص منه بالقتل، فليس غضب رئيسه عليه بالجزاء الوفاق على ما جناه. ولعله لم ينج مما كان يحق عليه من القصاص إلا لمحاباة الامبراطورة له ولقرابته من قيرس إذ كان صهرا له بزواجه من اخته. على أن (دومنتيانوس) لم يرع فى

دخـوله اليـه ، فـهـولا الذين هم هكذا قلوبهم كقلوب البهايم لا يقرون ولا يفهمون وجميعهم قد زاغ ورذل، وهمتهم في بطونهم ومجدهم بخزى وهم يجرون على بطونهم مثل الحيات وينفخون ويلدغون المرئين [البشر] شتامين مبغضين لأخونهم متطلعين للمأكل والمشارب كالبهايم التى لا فهم لها ومشابهتها، والبيعة الرسولية تفرزهم فلا(*) يصعد قس الى هذا الهيكل الا بعد ان يلبس بلينه اولا قبل ان يحمل البخور عليه، ولا يتقرب فيه

(*) قانون بيعة أبو مقار وهو من سبعة مواد.

(قيرس) إلا ولا صداقه، ولم يحفظ له جميلا، إذ كان لا يظهر له إلا ازدراء وحقدا غلب عليه عقله. وكان معه الحزب الأزرق، فاتخذ من رجاله عصبة استعان بها في نضاله، فلما رأى (ميناس) ذلك استعد له بمثل عدّته فاتخذ من الحزب الأخضر له عصبة.

وفيما كان الأمر على هذا التحرّج الخطر، نزل الى الاسكندرية رجل اسمه (فيليادس) وكان حاكم الفيوم وأخا (لجورج) وهو سلف (قيرس) على بطرقة المذهب الملكانى. وكان (ميناس) قد أحسن الى (فيليادس) ولكنه أساء جزاءه، وكان (فيليادس) فوق هذا مقارفا للخيانة إذ كان يضع يده فى الأموال العامة، وكان الجند يكرهونه كراهة تعدل حبهم (لميناس). ولم يمض زمن طويل حتى اشتدّ الأمر وتأزمت الأزمة، ففيما كان (ميناس) يوما يصلى باخوانه الأقباط في الكنيسة الكبرى كنيسة (قيصرون)، إذ ثار أهل المدينة بفليليادس يرديون قتله. ولكنه فرّ منهم ولجأ الى منزل صديق له فاختبأ فيه، فذهب الثائرون الى بيته فنهبوه وأحرقوه، وكانوا من الحزب الأخضر، وعند ذلك أخرج (دومنتيانوس) اليهم عصبته من الحزب الأزرق، والتقت العصبتان فى قتال شديد فى طرق المدينة فقتل منهم ستة وجرح كثييرون، ولم يستطع (تيودور) أن يقضى على الفتنة إلا بعد مشقة وعناء. وبعد أن انتهى الأمر أعيد الى (فيليادس) ما سلب منه، وعزل (دومنتيانوس) من مرتبته فى الجيش. ولكن يلوح لنا أنه أعيد فيما بعد الى ما كان عليه، وذلك بعد أن أمر (تيودور) بالعودة الى القسطنطينية. فالحقيقة أن (دومنتيانوس) كان مع عداوته لقيرس يرى رأيه فى السياسة، وكانا كلاهما سواء

كاهن ولا شماس إلا بعد لباسه البرنس او بلينا. ولا يتكلم قس ولا شماس فى هذه القبة المقدسة بكلام فارغ ولا يجلس فيها ليقرا كتابا من الكتب، من قاوم هذا القانون يكون محروما. [و] أى كاهن أو راهب دخل إلى هذه القبه من غير أن يكون مرسوما لخدمه هذا الهيكل فليكن محروما. [و] أى كاهن من كهنة هذا الموضع يدخل بكاهن غريب من كهنة مصر او ريس الى هذه القبه الاسكنا المقدسه لاجل مجد الناس فليكن محروما

فى تقريب الامبراطورة والحظوة عندها، وكان كلاهما يشير عليها ويزين لها رأى الإذعان للعرب.

ولنذكر هنا أن (حنا النقيوسى) يصف نضال الأحزاب فى الاسكندرية وكأنما يقرّ بانه عاجز عن إدراك أسبابه. فان سياق قوله يدل على أن منشأ ذلك النضال كان بعضه من عدوات خاصة، وبعضه كان من أثر الشيع السياسية. على أنه يذكر بعد ذلك أن بعض الناس يذهبون الى أن اشتداد ذلك النضال واستعار لهبه إنما يرجع الى اختلاف المذاهب الدينية. ولكنه لا يوضح الأمر ولا يجلو الظلمة عن حقيقة النضال، فلا ندرى أكان بين (المونوفيسيين) و(الملكانيين)، أم كان بين (الملكانيين) و(المونوثيليين)، أم بين اليهود والمسيحيين، فالحق أن الأمر مشكل لا يستبين المرء فيه وجها للرأى، ولكنا إذا ذكرنا أن كثيرين من أهل مصر السفل والصعيد أتوا الى الاسكندرية لائذين، وإذا ذكرنا أن (حنا النقيوسى) يروى لنا خبر اجتماع القبط بكنيسة (القيصرون) للصلاة[1]، إذا ذكرنا ذلك أمكن أن نقول إن عدد القبط فى الاسكندرية زاد فى ذلك الوقت زيادة كبرى، وأنهم استطاعوا أن يتنسموا شيئا من نسيم الحرية وأن يعود الى نفوسهم شيء من القوّة منذ غاب المقوقس عنهم فى منفاه، وارتفع عنهم عسفه واضطهاده. فلعلهم عند ذلك شعروا من أنفسهم بالقوّة فرموا سهمهم مع الرامين، يناصرون من أحبوا ويحاربون من كرهوا ويلقون بدلوهم فى مياه الإسكندرية، التى كانت

(١) ما كان ليصف أية صلاة أخرى غير الصلاة القبطية بقوله «اجتماع المؤمنين».

[و] أى انســان اسـتطال ودخل الى هذه القبـه المقدسه يخرجه الرب يسوع المسيح خارجا. واى انسـان يتـعـدى ليكون له نصيب فى هذا الموضع المقــدس بمال او هدية فليكن هو وكلمن [كل من] يساعده على دخوله اليه لاجل مجد الناس لا سيمـا ان كـان معـروفـا بالشـر والتـجـبـر مـرذولين. اعلمو يا اخوتى ان نصيب يعقوب لا يكون لواحد من هولا والقـوه السـاكنه فى هذا الموضع والهيكل المقــدس لا ترضى بشى من هذه الامـور بل يكون

تضطرم من عداوة الأحزاب ونضالها. وإن تعجب فعجب أن يقرأ الإنسان نبأ نزول المقوقس بالاسكندرية فى ذلك الصباح من شهر سبتمبر، وأن أهل المدينة ملكهم الفرح فخرجوا «يظهرون سرورهم ويشكرون الله على عودة بطريق الإسكندرية[1]»، وتوافـد الناس من كل جانب يحيونه ويكرمونه من رجال ونساء كبارا وصغارا، فما كنت تسمع كلمة مخالف ولا همسة خوف. ولكن ما كان للقبط أن يدخل الى قلبهم فرح بمقدم (المقوقس)، بل ما كان لهم أن يبقى أمل فى قلوبهم من وراء عودته. ولا يسعنا على هذا إلا أن نذهب الى نتيجة من هذا القول، وذلك أن القبط ما كانوا فى الاسكندرية مهما بلغ عددهم إلا فئة قليلة ضائعة بين أهله الكثيرين لا يحس أحد بها.

---

(١) هذه كلمات الدكتور شارل فى ترجمته للنص الأتيوبى. وليس أدل من هذا الوصف لعودة قيرس على نقاء ضمير حنا النقيوسى وقلة تحيزه ولقد كان من السهل عليه أن يصف مقابلة الناس له بالفتور أو أن يغفل ذكرها ولكن حنا يصفها بأنها كانت بحفاوة عظيمة وأن السرور لم يكن سرورا بمقدم قيرس شخصه بل بمقدم «بطريق الاسكندرية» صفحة ٥٧٤ ومن العجيب أن أميلنو يعلق على ذلك القول تعليقا يلوم فيه الكاتب على وصفه فيقول «وفيما عدا ذلك فانى فى عجب عظيم من حنا النقيوسى وهو الأسقف اليعقوبى اذ يصف قيرس بأنه بطريق الاسكندرية وهو الذى كان يجب عليه أن يذمه ويلعنه فى حين أن (بنيامين) وهو البطريق الحقيقى فى نظره كان فى ذلك الوقت طريدا فى الصعيد (حياة البطريق القبطى إسحاق صفحة ٧١ XX) ولكنا نرى أن صراحة حنا تزيد من ثقتنا فيه واعتمادنا على أخباره كمؤرخ.



متواضعا طاهرا وديعا تاما فى جميع الخصال المرضيه، كما شهد المعلم بولس فى قوله على هذه الرتبه اذ يقول ماهو ثابت فى مكاتبته الجليلة ، ثم قال لى الشخص المضى: لا استحق ان يخاطبنى خروجك يابنيامين من هذا العالم الذى هو مفارقة نفسك لجسدك يوافق يوم تكريز هذه البيعة، وتمضى الى السيد المسيح الذى تحبه لتستريح فى يروشليم السماويه مدينة المنتخبين مع جميع المختارين فقلت له: يا سيدى ارجو أن يجعلنى الله

أما قيرس فانه عمد قبل أن تصحو المدينة ويذيع بين أهلها نبأ مقدمة، فذهب سرا مع (تيودور) الى دير رهبان (التبنيسى) ولعله كان قريبا من الموضع الذى نزل فيه من البحر(١). وأمر باقفال باب الدير، وأنفذ الى (ميناس) يدعوه للحضور الى الدير، فلما جاء جعله (تيودور) قائد حامية المدينة وعزل (دومنتيانوس) عن تلك القيادة، فأسرع أهل المدينة الى إخراجه منها. وكانت عودة قيرس فى مثل اليوم الذى أقيم فيه الاحتفال بإعلاء الصليب، وقصد بذلك أن يعيد الى نفوس جند الروم ما ضاع من قوتها، وقد بذل الجهد فى الانتفاع بتلك الذكرى ما وجد الى ذلك سبيلا. ولنذكر أنه عندما بعث حنا قائد الشرطة الى مصر وقد وجهه إليها هرقل يحمل المذهب الدينى الشهير الى (قيرس) حمل معه الى البطريق صليبا من أجل الصلبان شأنا، لعله كانت فيه قطعة من الصليب الأعظم نفسه، وقد أودع هذا الأثر الثمين فى دير رهبان (تبنيسى). فلا عجب اذا حمله (قيرس) فى موكبة الى الكنيسة العظمى كنيسة (القيصرون)، التى أقيمت فيها صلاة التحية. وقد فرشت النمارق فى طريق ذلك الموكب من الدير الى الكنيسة، وكانت الرايات والألوية من الحرير تخفق فوق رأس (قيرس) إذ

---

(١) كان (تبنيسى) موضعا على عشرة أميال من (تنتيروس) وهى (دندرة فى الصعيد) وكان مقرّ أخوة طائفة (الباخوميين). ولقد كانت هذه الطائفة قبطية محضة ولكن الدير الذى كان فى الاسكندرية استولى عليه قيرس وجعله للمكانيين وإلا فان من فيه من الرهبان لابد كانوا بين الألوف الكثيرة التى نزعها الاضطهاد من مذهب القبط.

مستحقا لما قد ذكرته ويقبلني انا العبد الخاطى واصير اليه في اليوم المذكور ومبارك سيدى يسوع المسيح حبيب نفسي وروحي لان رحمته سابغه علي. وعند هذا غاب عنى السارافيم. وقال انا بنيامين البطرك: لا تظنوا يا اخوتي انى كتبت هذه الحروم على الجيل بل كتبتها لاجل انه سياتى جيل اخر في اخر الزمان يستحق ما كتبته على ما اخبرني به السارافيم الذى خاطبني، فيجب لكل مومن ان يحذر اتباع مجد الناس ويعمل ما

يسير بين عبق البخور وترتيل الأناشيد، وازدحمت طرق المدينة العظمى بالناس على سعتها حتى ركب بعضهم بعضا، ولقى الحبر الأعظم مشقة كبرى فى السير فى ذلك الزحام الى الكنيسة. ولكن الموكب سار على أى حال سيرا وئيدا حتى بلغ (المسلتين) المصريتين القديمتين فمرّ بينهما ثم سار فى فناء ذى أروقة الى أن بلغ باب كنيسة قيصرون فولجه داخلا.

ولما أن صار فى الكنيسة أقام الصلاة وجعل عيد الصليب وإعلاءه موضوع خطبته كما ينبغي له، وكانت الكنيسة الشرقية فى ذلك الوقت ولا تزال إلى وقتنا هذا تحتفل بهما معا. وإنه لمعنى جليل ذلك المعنى الذى جعله (قيرس) قطبا لخطبته، معنى يخلع على قائله رونقا إذا أعوزته الفصاحة، فما بالك بقيرس وهو رب البيان والبلاغة.

ولكن لم تنته تلك الصلاة إلا على كدر ونحس. فإن المصلين أقبلوا بعد الخطبة على الصلاة فقرأ الشماس بدل ما كان يجب عليه قراءته من الأناشيد فى ذلك اليوم مزمورة أخرى فيها اشارة لرجعة البطريق، يريد بذلك أن يتملقه ويهنئه. فلما سمع الناس ذلك ضجوا قائلين إنه قد خالف السنن وتطيروا به على البطريق. وجاء فى تلك القصة أنهم قالوا إن البطريق لن يشهد عيدا للفصح بعد ذلك. ولا شك أنهم قد رأوا عليه تغيرا واعتلالا إذ كان النفى قد أسقم جسمه، وكان السير فى الزحام ذلك اليوم قد أتعبه، ثم أجهدته بعد ذلك

يضاهى مجد الله ويحبه من كل قلبه وانت يا ولدى اغاتون القس اكتب عندك تاريخ هذا التكريز واذكرنى به فى كل وقت وكل يوم لأذكر قول السارافيم فيه لى ان فيه يكون خروجى من هذا العالم الذى هو التامن من طوبه اللى كان فيه تكريز البيعة المقدسة على اسم القديس ابى مقار ابينا.

ونذكر ايضا اعجوبة كانت فى اليوم المذكور،

- -

الخطبة وما بذل فيها. ولابد فوق كل ذلك أن وجهه كان ينم عما كان فى قلبه من أشجان تجيش به فتمزقه، فقد كان يرى الناس من حوله يثقون به ويرفعون ذكره ويرونه نصيرا لهم ومعينا فى محنتهم، وكانوا جميعا عند ذلك قد طهرت قلوبهم وامتلأوا إيمانا بالصليب حتى ليجاهدون فى سبيله ويلقون النصر على وعده، ولكن فيما كانوا والآمال تطلع عليهم وتملأ نفوسهم، كان الحبر الأعظم يحس فى نفسه وكسا و وهنا ويشعر فى قلبه الوخز الأليم، إذ كان مقبلا على خيانتهم بعد قليل، لقد كان فى مقامه ذاك بين شجون شديدة تنتابه، ولا غرابة أن ينم مظهره الكليل على ما كان يثقله ويهزهز نفسه العاتية، وأن يرى الناس فى أمارات وجهه أمارات الموت.

قضى قيرس مدة قصيرة بعد مقدمة يعالج طائفة من أمور الدين والدولة كان لابد له من الاسراع بمعالجتها فى الاسكندرية، وفى الحق أن القبط تنفسوا الصعداء منذ رحل عنهم قيرس ومنذ انقطعت الصلة بين سلطات الروم وبين أجزاء كبيرة من بلاد مصر. ولكن (قيرس) لم ينس بعد عودته ما كان فى قلبه من الحفيظة على ديانة القبط، فكان يرضى بالإذعان للعدوّ وإسلام البلاد له ومصالحة من لا يؤمنون بدين المسيح، ولكنه ما كان ليمضى بأن يسالم القبط.

وإنه لمن العجيب أن يرى المقوقس جدوى فى العودة إلى اضطهاده وعسفه. فلعله كان

وذلك انه كان بمدينة نقيوس ارخن عظيم مقدم كانت عادته ان يدخل كل وقت الى الديارات المقدسه بوادى هبيب فحضر يوم تكريز بيعة ابى مقار ومعه ولد له كان مبتليا وظهرت منه ايضا ايه عظيمه ظاهره من الاب المغبوط ابى مقار الذى هو ابو الجبل المقدس بوادى هبيب وعز جميع البطاركه والاساقفه والرهبان والمعلمين فى جميع المسكونة، الذى روايح بخور اعماله وحسن افعاله قد ملا الاقليم، واضا [ء] مصباحه على كلمن

يتستر وراء ذلك ليدارى عن أهل الاسكندرية حقيقة أغراضه وهى إسلام بلاد مصر جميعها للعرب. ولا شك فى أنه كان فى ذلك ينفذ أمرا من مليكه، ولكن أى أمر! لقد كان أمرا غصبه من مليك لا حول له ولا طول، وتوصل إليه بالخداع والدناءة، حتى أنه لم يستطع أن يظهره لكبار قادة الدولة فى الاسكندرية، ولا أن يعلنه للناس. فخرج وحده ذاهبا إلى حصن (بابليون)، أو لعله قد استصحب جماعة من قسوسه كانوا على علم بسره، وكان النيل عند ذلك مرة أخرى فى أوان فيضه[1]، وذلك فى أواخر شهر أكتوبر بعد عام من صلح بابليون الذى لم يتم، إذ مزقه الامبراطور الشيخ (هرقل) فى غضب وحنق. وكان عمرو بن العاص عند ذلك قد عاد منذ قليل إلى (بابليون). بعد أن فتح بلاد الصعيد أو على الأقل بلاد مصر الوسطى كما يستريح بأصحابه فى أوان فيض النيل. وفيما كان هناك فى ذلك الحصن وافاه (قيرس)، وقد جاءه يحمل عقد الإذعان والتسليم. فرحب به عمرو وأكرم وفادته، ولما علم منه ما جاء من أجله من أمر الصلح قال له «لقد أحسنت فى الشخوص الينا». فقال البطريق له إن الناس قد عوّلوا على دفع الجزية لكى تقف رحى الحرب.

---

(١) اذا علمنا أن المقوقس فاوض العرب مرتين فى أوان فيضان النيل اتضح لدينا سبب الخلط الذى وقع فيه العرب بين حصار بابليون وحصار الاسكندرية ورأينا فى ذلك عذرا لهم.

ياتى اليه، وكانت عادة هذا الارخن ان يحضر الى الدير فى كل وقت فى اعيـاد الميلاد والغطاس والفصح، فحضر فى يوم التكريز وولده معه وسلمه لراهب قديس ومعه غلام يخدمه، فلما كمل التكريز والقداس وتقرب الشعب كان ولد الارخن نايما فى البيعه المقدسه فصرخ فى النوم حتى ارعب الناس الحاضرين من صراخة، فقوى ذلك الراهب قلبه وتقدم الى الصبى وانبهه فلما استيقظ تامله الجمع فاذا هو عوفى وكانه كما

فتح بلاد الساحل الشمالى

أمضى عهد الصلح فى (بابليون) فى يوم الخميس الثامن من شهر نوفمبر من سنة ٦٤١، وكان لابد له من إقرار إمبراطور الروم كما كان لابد له من إقرار خليفة المسلمين عمر، وكان فى مدّة الهدنة وهى أحد عشر شهرا متسع يكفى لذلك وما يلزم له من الرسوم، ثم عاد قيرس مسرعا الى الاسكندرية يحمل معه كتاب الصلح.

وكان أوّل ماعنى به أن يرسل شروط الصلح الى (تيودور) وهو القائد الأعلى، ثم الى قسطنطين وهو قائد الحرس، ومن أعجب الأمور أن (تيودور) لم تكن له يد فى مفاوضة الصلح ولم يحضر كتابته فى (بابليون)، مع أنه كان حاكم المدينة من قبل الإمبراطور. والحقيقة أن كل ما يمس (تيودور) محير مدهش، فلسنا ندرى من أمره شيئا حتى لنجهل هل كان قد علم بعزم (قيرس) فى تسليم المدينة للعرب قبل أن ينفذه. فاذا كان قد علم بذلك فلابد إنه قد غير رأيه وأصبح من أشياع الصلح مع العرب. وأما إذا كان غير عالم بذلك فمن أعجب الأمور أن يسارع الى الموافقة على أمر لا يمكن أن نصفه إلا بأنه كان تسليما شائنا.

على أنه من المعلوم ما كان عليه (تيودور) من العجز فى قيادة الحروب وضعف الرأى فيها، فموافقته على الصلح على ذلك لا قيمة لها، وحكمه فى أمر الحرب مدافع لا يعتمد عليه.

ولد جديد فى يومه هذا فمجدو الله لهذه الاعجوبه العظيمة التى كانت. قال الاب بنيامين البطرك القديس: فلما فرغت من القربان استدعيت الارخن والد الصبى واستعلمت منه حال ولده فاخبرنى بمرضه وجميع ما حل به، ثم استدعيت الصبى وقلت له يا ولدى اشرح لى ما ر ايته فى منامك ولا تخف عنى شيا منه . فقال الصبى: بينما انا نايم رايت رجلا طويلا شيخا بلحية خفيفه نازله على صدره وهو يعصر جسمى بيديه فصرخت من الوجع، ثم انه امسك بيده طرف

ومهما يكن من الأمر فان (قيرس) عندما أحس بأنه مهد السبيل الى اعلان الأمر فى الاسكندرية، دعا كبار قواد الجيش وعظماء رجال الدولة، ولما انعقد عقدهم جاءوا وعليهم (تيودور) و(قسطنطين)، حتى إذا مثلوا بين يدى البطريق (قيرس) جعل يبين لهم ما تضمنه الصلح من شروط بما أوتى من فصاحة وبراعة، ويسهب فى ذكر الضرورة التى استوجبت عقده وما فيه من مزايا، فما زال حتى فاز بما أراد من حمل سامعيه على الإيمان بقوله، ولكنه كان فوزا ما أشأمه.

وبهذا خطا (قيرس) خطوة جديدة فى سبيل إنفاذ خطته فى الإيقاع بمصر، على أنه ما كان ليستطيع أن يبقى خطته فى ستر الخفاء بعد ذلك طويلا، فعلم الناس بما كان ولكن علمهم لم يأت عن قالة قالها (قيرس)، ولا إشاعة تردّدت وذاعت بينهم، بل علموا بالأمر بغتة وقد فجأهم طلوع فئة من العرب على المدينة فدقت الأبواق إيذانا بمقدمهم، وأسرع الناس من كل جهة ليقفوا فى أماكن الدفاع من الاسوار والحصونا، ولكن العرب ساروا على خيلهم لا يلوون على شىء ولا يعبأون بالضجة. وجاء قواد الروم عند ذلك بعد أن كانوا قد قضوا على حماسة الجنود وإقدامهم، فجعلوا يهدئون من روع الناس وينادون فيهم أن لا جدوى فى القتال ولا أمل من ورائه. وقبل أن يقترب العرب حتى يصيروا على مدى رمى المجانيق أبصرهم الناس وهم يحملون أعلام الهدنة والسلام، فأشير إليهم بعلامة الرد فاقتربوا، حتى إذا ما صاروا

ثوبى واصعد من راسى فرايت جميع وجعى وجراحى ملتصقه بتوبى وقد انقلعت معه عن جسمى، وقال لى تقو يا ولدى هو ذا قد عوفيت، فلما انتهى هذا الاب الراهب قمت وانا معافى، هذه قضية حالى يا سيدى الأب. فشاهدته انا بنيامين بعينى فى ذلك اليوم وقد برى [الصبى]. فمجدت السيد يسوع المسيح الذى اظهر لى قواته وعجايبه على يد القديس ابى مقار الذى يعافى



بحيث يسمعون ويسمع منهم أفضوا الى جنود الروم بما كان. وما كان أشدّ عجبهم ودهشتهم مما علموا، إذ عرفوا عند ذلك أن العدوّ لم يأت ليقاتلهم بل أتى ليحمل الجزية التى اتفق عليها مع (قيرس) المقوقس فى عقد الصلح الذى طلبه من العرب وكتبه معهم على تسليم المدنية. فهاج الناس وثار ثائرهم لما سمعوا وذهبوا غير مصدّقين حتى أتوا قصر البطريق، فاطلع عليهم منه بعد لأى، وكان الخطر فى تلك اللحظة محدقا بحياته إذ تهافت الناس إليه يريدون أن يحصبوه.

غير أن كبر سنه وعلو مكانته خذلا الناس عنه، وحمياه من الخطر. فأشار الى الناس إشارة فهدأوا، ثم استطاع الكلام واستعان بما أوتى من بلاغة وفصاحة على تخفيف جنايته وتهوين خيانته فى مقالته التى قالها بين الناس. وجعل يبرر ما كان منه قائلا إنه إنما اضطر إلى ركوب الصعب اضطرارا إذ لم يكن بد منه، وما قصد إلا مصلحة قومه وفائدة أبنائهم فان العرب قوم لا يقوم لهم شىء إلا غلبوه، وقد أراد الله أن يملكوا أرض مصر، فما كان للروم إلا أن يصالحوهم، فانهم إن لم يفعلوا جرت الدماء فى طرق مدينتهم ونهبت أموالهم وقتلوا، ومن بقى منهم حيا خسر ما كان يملك وضاع أمره. ولكن الصلح حقن دماءهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وديانتهم.

النفوس والاجساد بشفاعته عند الله الذى صار مينا خلاص العالم. فطوبى لجبل النطرون الذى استحق أن يكون فيه ابو مقار شفيعا، ولجميع من ياوى اليه، ايها الجبل الذى سر الله به ايها الجبل الذى جمع اليه هولا المصطفون الذين يضوون فيه اكثر من نور الشمس نهارا وتصعد صلواتهم كالنار المشتعله. ايها الجبل الذى اثمرت فيه الثمار الروحانية تلتين وستين ومايه، ايها الجبل الذى

- -

بهذا استطاع (قيرس) مرة أخرى أن يفوز برأيه المشئوم، فإذا بالناس وقد عادوا إلى رأى الجيش ورضوا بالتسليم والنزول بمدينتهم العظيمة للعرب، على شرط العقد الذى تم. وجعل الثائرون يتلاومون على ما اقترفوا من الوثوب والحنق على ذلك الحبر الطاهر، فى حين كان يسعى جهد طاقته ليحول بينهم وبين الهلاك على يد الغزاة. وأخذوا يجمعون قسط الجزية التى فرضت عليهم وزادوا عليها مقدارا كبيرا من الذهب، ووضع ذلك المال فى سفينة خرجت من الباب الجنوبى الذى دخل منه الترعة وذهب قيرس بنفسه ليحمله الى قائد المسلمين.

وبذلك تم فتح الإسكندرية، وإذا حسبنا تاريخ ذلك وجدنا أن أداء ذلك القسط الأول من الجزية قد يكون فى أوّل المحرّم من سنة احدى وعشرين من الهجرة، وذلك هو اليوم العاشر من ديسمبر من عام ٦٤١. وليس فى مصادر التاريخ ما يثبت ذلك التاريخ وينص عليه صراحة، ولكن الرواية التى تناقلها العرب تجعل فتح المدينة فى ذلك اليوم. ولعل منشأ تلك الرواية كان عمن حضر ذلك اليوم وشهد إذعان أهل الإسكندرية بحملهم أوّل قسط من جزيتهم، ومع ذلك فإن مؤرّخى العرب يجعلون أوّل المحرّم فى يوم الجمعة مع أن أوّل المحرّم لم يقع فى يوم جمعة فى ذلك العام ولا فى عام قريب منه إلا فى عام ٦٤٥. وعلى ذلك يكون لنا أن نقول إن الرواية لا يمكن أن تكون صحيحة فى كل أجزائها، بل لقد تكون كلها غير صحيحه. ولكنا نتردّد فى الأمر ونحمل أنفسنا على القول إنها لابد أن يكون لها أساس من الحقيقة، لأنها

يملح الانفس ويردها من الخطيه وينقيها بالتوبة فتبيض كالثلج، انت الجبل الحقيقى الذى تجتمع فيه الملوك والاغنيا والفقرا ليخدموا الله فيك، أنت جبل الملح بالحقيقة المملح الأنفس الذى تثبت بالخطيه والأثم انت الذى جعلت اللصوص معلمين وشهدا وصالحين ، فليدعو الان بغير ملل بين يدى سيدنا يسوع المسيح ان يتبتنا على الأمانه الارتدكسيه فى بيعته المنيره لنفتخر نحن جميع بنى

رواية من أثبت الروايات فى أخبار الفتح العربى. وعلى أى حال فانه من المفيد أن نوجه الأنظار إلى اتفاق عجيب آخر يلوح من خلال ما اختلط من تواريخ ذلك العصر، ولعله يفيدنا فى بيان أسباب ذلك الخلط بعض التبيين، وذلك أن بعض مؤرخى العرب يقرر أن فتح الإسكندرية لم يقع إلا بعد ثلاث سنين من دخول جيش عمرو فى مصر، فى حين أن طائفة سواهم تقول إن فتح حصن بابليون وفتح الإسكندرية وقعا كلاهما فى عام واحد وهو العام العشرون من الهجرة. ومع ما يظهر من الخلاف بين الطائفتين نقول إن كلاهما على الحق، فقد سلم حصن بابليون فى شهر أبريل من عام ٦٤١، وسلمت الاسكندرية فى شهر نوفمبر من ذلك العام، وكلا التاريخين واقع فى سنة عشرين. ومن جهة أخرى قد دخل عمرو فى أرض مصر فى عام ٦٣٩ من الهجرة، ولكن جيشه لم يدخل الاسكندرية إلا بعد ثلاث سنوات من ذلك، أى فى شهر أكتوبر من عام ٦٤٢ عندما انقضت مدّة الهدنة وهى أحد عشر شهرا. وأنه لما يسر النفس أن تفوز بكشف الحقيقة من وراء هذا الغطاء من خلاف يخمرها.

وماذا عسانا نقول فى هذا الصلح العجيب فليس فى طاقتنا أن نملك أنفسنا ونلزم القصد فى القول اذا ما أردنا أن نصف فعلة المقوقس، وما أتاه ذلك البطريق من حرصه المدهش فى كل وقت من أوقات القتال مع المسلمين على أن يسرع بالاذعان والتسليم لهم. فليس مرّ

المعموديه فى كل زمان بها ونساله ان ينجينا من شدايد المتولين علينا ومكر الصياد عدو الحق الشيطان الاركون الشرير. والمجد لله الاب والابن والروح القدس والقدره والعظمه الان وكل أوان والى دهر الداهرين أمين.

كمل بعون الله الجزء الاول من كتاب سير البطاركة بالمدينة العظمى اسكندريه خلفا مارى مرقس الانجيلى رزقنا الله بركة صلواته وصلواتهم

الأيام بمستطيع أن يمحو عن ذكره وصمة جنايته، والقصد الى تضييع أمرها بعد أن لطخته من قبل جريرة حمقه وقسوته فى اضطهاد القبط مدّة أعوام عشرة.

وإنا نعيد هنا ما سبق لنا قوله أن الاسكندرية كانت من المنعة بحيث لا تكاد تنالها قوّة عمرو ومن جاء معه من الجنود، فكان طول أسوارها نحو تسعة أميال أو عشرة، ثلاثة منها مما يلى البحر وأكثر ما بقى منها تحميه الغياض والبحيرات والترعة. وإذ كان العدوّ لا يستطيع أن يقترب إلا من جزء يسير من تلك الأسوار فقد كان من السهل على جند المدينة أن تجعل همها دفع حملاته على هذا الجزء. وإن العرب لو استطاعوا إسكات ما على الأسوار من المجانيق القوية المربعة، وقدروا على الاقتراب منها، لما أمكنهم أن يصدعوا الأسوار بما لديهم من الوسائل وما كان أقلها وأضعفها. وإنا لا نكاد نعرف فى تاريخ الاسكندرية أنها أخذت مرة عنوة بغير أن يكون أخذها بخيانة من داخلها.

فمن ذلك نرى أن ذلك الصلح الذى عقده قيرس لم تكن ثمت من ضرورة فى الحرب تدعو اليه، ما دامت أساطيل الروم تسيطر على البحر، والعرب بعد أبعد الناس عنه لا يمرّ بخاطرهم أن يتخذوا فيه قوة. قد يقول قائل إن فتح بابليون قد أوهن الروم وإن جنودهم امتلأ رهبة من العرب منذ رأوا أنهم لم يصبروا على لقائهم فى موطن من المواطن منذ ابتدأت

الحرب، وإن الجيش الرومانى كان لا يثق فى قواده ولا يرى منهم إلا الجبانة والعجز. وهذا كله صحيح لا شك فيه. ولكن كان فى الاستطاعة تغيير الحال بأن ترسل جنود غير تلك الجنود وقوّاد غير أولئك القوّاد لا تزال فى جنانها شدّة وفى قلوبها قوّة، غير أن ذلك لم يسع اليه أحد. فإن الدولة منذ مات عنها هرقل لم تجد حاكما يلم شعثها ويصرف أمورها ويحملها على سبيلها. وكان أهل الاسكندرية شيعاً وطوائف، تقطع ما بينهم الأحقاد والأطماع، فما كانت تخلو من هيعة أو وثبة. وجاء بعد ذلك موت هرقل فزاد الحال سوءا إذ شطر حكومة قلب الدولة شطرين ليس بينهما إلا الشحناء والعداوة. فالحق أن موته «كسر شوكة الروم» كما قال المؤرخ العربى، ولكنه كسرها كسرا أبلغ مما قصده ذاك المؤرخ، فان الدولة أغفلت بعده همها الأكبر وهو الدفاع عن حياتها. فشغلها دسائس (مرتينه) ومكائد (ڤلنتين) فتركت مصر تجرى فى قضائها، وكانت الاسكندرية إذ ذاك قطب الحوادث يدور عليها أمر مصر ومصيرها، فلم تجد فى الدولة من يأخذ بيدها، ولو وجدت نصيرا يمدّها لنجت من عدوّها ولناجزته بعد ذلك على سواء حتى تخرجه من أرض مصر.

ولا نزال نسائل النفس عن السبب الذى حمل أهل الاسكندرية على قبول ذلك الصلح، والمبادرة الى الرضى عن قيرس بعد أن كانوا قد وثبوا به وأرادوا أن يحصبوه لما رأوا من خيانته. فقد كانوا معروفين بالنزق والتقلب فى الأحوال، ولكنهم لم يكونوا صادرين عن نزق فى انصرافهم عن دولتهم وصدوفهم عنها ورضائهم بالاذعان لحكم العرب. وليس ثمت إلا رأى واحد فوق ما سبق لنا ذكره نفسر به ما كان منهم، وذلك أنهم كانوا قد سئموا من كثرة ما أصابهم من الحدثان وكرهوا فسادا الحكم الذى أثقل كواهلهم مدّة أربعين عاما، وقالوا فى أنفسهم لعلنا نجد فى حكم العرب قرارا واطمئنانا نأمن فيه على ديننا فلا نكره على شىء فيه وعلى أموالنا فلا تتحمل من الخراج والجزية إلا قدرا نطيقه.

ومنذ كان شعور المصريين الوطنى ضئيلا كان تأثرهم بما يمس أموالهم شديدا. ولعل ما كان الناس يتوقعونه من العرب من تخفيف حمل الضرائب كان من أكبر العوامل على فوز المسلمين فى فتوحهم جميعها. وأما فى الإسكندرية فلعل هذا الأمر كان أعظم الأمور أثرا. على أن ما طمع فيه أهل الإسكندرية من تخفيف هذه الأحمال لم يتحقق لهم بل خاب أملهم خيبة ما كان أمرها.

أقرّ الامبراطور عهد الصلح ولعل ذلك كان آخر ما أتاه فى حكمه، إذ انتهى فى ذلك الشهر عينه وهو نوفمبر، ويلوح لنا أن عمرو بن العاص كتب شروط ذلك الصلح وأفضى بها إلى أهل مصر، وكانت تلك الشروط تعدهم بالأمن على أنفسهم وأموالهم وذمتهم وكنائسهم وصلبانهم. ولكن المقاومة لم يخب لهبها ولم يخذلها ما كان من تسليم الإسكندرية العظمى، ولا ما وعد به عمرو من الشروط الحسنة. فقد بقيت بعض البلاد فى شمال مصر السفلى (الدلتا) ترفع لواء مقاومة الغزاة العرب ولا ترضى بالتخلى عنه، مع أن فتح الإسكندرية كان قد قضى على الأمل كله فى دولة الروم، وأصبح بعدها من أشدّ الحماقة أن تصر طائفة على القتال وتأبى الدخول فيما دخل فيه سائر الناس من العهد. فكان لابد للعرب من فتح تلك البلاد حتى يتم لهم الأمر، وكان عمرو قد فرغ مما يشغله ويستطيع السير إليها فى أى وقت شاء.

ولاسيما ما كان منها على شاطىء البحر المتوسط إذ أبت أن تدخل فيما دخل فيه الناس من العهد. وكان لعمرو أن يسير اليها إذا شاء فيقاتلها ولو كان ذلك فى مدّة الهدنة، ويلوح لنا أنه قد وجه لقتالها جيشا فى ربيع سنة ٦٤٢؛ ومن العسير أن نصف ما كان من سير جيش العرب لا سيما وأن حنا النقيوسى لا يذكر شيئا من أمر القتال فى هذه المدة، فلابد لنا من الاعتماد على مؤرّخى العرب وما جاء فى أخبارهم، ومن أشق الأمور فهمها أو الربط بين أجزائها.

فلا نجد مع هذا ندحا من أن نلجأ الى التصوّر والحدث، فنقول إن جيش العرب لابد قد سار من كريون نحو الشرق على ساحل النهر. وكان فى الاقليم الذى كان يعرف بالحوف الغربى مدينة اسمها (إخنا) ليست بعيدة عن الاسكندرية. وكان حاكمها اسمه (طلما) فأتى اليه كتاب من عمرو يعرض عليه فيه شروط الصلح الذى صالح عليه (قيرس)، ولكنه لم يقنع بما جاءه فى ذلك الكتاب، فأرسل الى عمرو يطلب الاجتماع به، فسأله عن مقدار الجزية. فلم يطق قائد العرب احتمال هذه المراجعة وأشار إلى كنيسة قريبة وقال «لو أعطيتنى من الركن الى السقف ما أخبرتك إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم». ولابدّ أن (طلما) كره هذا الرد وعزم على ألا يذعن، وعلى ذلك سار المسلمون إلى (إخنا) وما لبثوا أن أرغموها على التسليم لهم. وقد أخذوا منها أسارى كثيرة وبعثوا بهم الى الخليفة عمر فى المدينة، مع أن تلك القرية سلمت إليهم صلحا بعقد وعهد. وقد حدث

مثل ذلك لمدينة (بلهيب)[١]، وكانت مدينة منيعة فى جنوب رشيد تبعد عنها بضعة أميال. والظاهر أن عمرا أتاه هناك رد الخليفة عمر باقرار صلح الإسكندرية.

ويذكر مع صلح (إخنا) صلح آخر عقد مع (قزمان) ـ ولعله قزماس ـ حاكم رشيد وصلح مع (حنا) حاكم البرلس[٢]. ويلوح لنا أن العرب ساروا من بعد البرلس على شاطىء البحر حتى بلغوا دمياط[٣] ولم يقف لهم حاكم المدينة (حنا)، وأصبح العرب بفتح دمياط مسيطرين على منافذ النيل إلى البحر جميعا. ثم فتحت (خيس) فى الإقليم المعروف بالحوف بقرب دمياط[٤] وأكبر الظن أن سلطان العرب صار يمتد عند ذلك على كل بلاد مصر السفلى، اللهم إلا بلادا قليلة كانت فى الجزائر التى فى رقارق بحيرة المنزلة الفسيحة.

وكانت الأرض التى تغطيها مياه تلك البحيرة الى ما قبل الفتح العربى بقرن واحد

(١) يسمى البلاذرى هذا الموضع بلهيت وهذا خطأ نقله أبو المحاسن والسيوطى ولكن ياقوت يذكر الاسم الصحيح.

(٢) كانت رشيد بالطبع مشرفة على مدخل فرع النيل الغربى وبلهيب مشرفة على المجرى الذى بين فرع رشيد والاسكندرية وكانت البرلس مدينة على مصب الفرع السبنيتى للنيل ولا تزال المدينة وإقليمها محتفظين بهذا الاسم الى اليوم مع أن فرع النيل السبنيتى قد طم منذ زمن طويل وتكون من ذلك بحيرة لا يحجزها عن البحر إلا قطعة ضئيلة من الرمل وقد ذكر المقريزى أسماء البلاد اخنا والبرلس ورشيد مجتمعة.

(٣) جاء فى البلاذرى ذكر فتح دمياط فقال إن البعث الذى أرسل الى تنيس ودمياط وتونة ودميره وشطا ودقهلة وبنا وبوصير كان أميره عمير بن وهب الجمحى وإنه أقرب من الاحتمال أن يكون عمرو قد وكل قيادة هذا البعث الى أمير نائب عنه ولا يذكر البلاذرى أى قتال بل يقول إن عمير صالح أهل تلك البلاد على شروط الصلح العام الذى صالح عليه عمرو.

(٤) يختلف مؤرّخو العرب كثيرا فى أسماء البلاد التى قاومت العرب فيذكر البلاذرى بلهيت (وهى بلهيب) والخيس وسلطيس فى موضع ويذكر فى موضع آخر كما رأينا أسماء البلاد سخا وبلهيت والخيس وسلطيس ويقول إنها ساعدت الروم فى وقعة سنطيس ويضم ياقوت الى هذه البلاد مدينة (قرطا) ويقول إن عمرا بعد أخذ الاسكندرية أسر أهل تلك البلاد وبعث بهم الى المدينة ويعين ياقوت موضع الخيس ويذكر المقريزى عقود صلح مكتوبة مع إخنا ورشيد والبرلس وسلطيس ومسيل وبلهيب وكذلك يقول السيوطى، وأما الخيس فيجب أن تكون المدينة التى يصفها ياقوت بأنها فى الحوف الغربى وأن الذى فتحها خارجة بن حذافة وقد وصف الحوف الغربى بأنه بقرب دمياط وهذا غير صحيح، فى حين أن الحوف الشرقى كان مما يلى الشام.

لاتضارعها في بلاد مصر كلها أرض أخرى في جودة هوائها وخصبها وغناها، إلا إذا قلت بلاد الفيوم فقد تكون عدلا لها. وكانت أرضها ترويها ترع لا تنضب مياهها تأتى من النيل، فكانت تنبت نباتا يانعا من القمح والنخيل والأعناب وسائر الشجر. غير أن البحر طغى عليها فاقتحم ما كان يحجزه من كثبان الرمل، وكانت المياه تزيد طغيانا عاما بعد عام حتى عمت السهل الوطىء كله، ولم يبق فوق وجهها إلا عدد من الجزائر بعد أن أكلت المياه ما كان هناك من حقول وقرى، فلم ينج منها إلا ما كان عاليا لا تناله المياه. وأعظم مانجا من قرى تلك الأرض مدينة (تنيس) الشهيرة، وكانت مدينة لها شيء من الاتساع والكبر، وكانت ذات بناء جميل تجود بها صناعة المنسوجات الدقيقة. وكانت في البحيرة التى تخلفت مدائن أخرى اشتهرت ببراعة صناعها فى النسيج مثل (تونه) و(دميرة) و(دبيق)، ولكن لم تبلغ إحداها مبلغ (تنيس) إذ كانت تضارع دمياط وشطا فى دقة منسوجاتها وجودة أنواعها فما كان فى البلاد كلها غير (تنيس) و(دمياط) ما يستطيع أن يخرج ثوبا من الكتان النقى يبلغ ثمنه مائة دينار. وقد ذكر المسعودى فى تاريخه أن ثوبا صنع هناك للخليفة من عرض واحد بلغ ثمنه ألف دينار، وكان مصنوعا من خيوط الذهب مخلوطة باليسير من رقيق الكتان. وقد ورد فى الأخبار كذلك أن تجارة (تنيس) مع العراق وحده بلغت من عشرين ألف دينار الى ثلاثين ألفا فى السنة الواحدة، ولكن ذلك كان قبل أن تقضى عليها الضرائب الفادحة.

كانت تنيس على جزيرة[1] فسيحة وكانت تصل اليها من الجنوب ترعة اسمها بحر الروم، ولعلها كانت بقية فرع النيل التنيسى الذى كان يبلغ (الصالحية). وكان الاتصال كذلك سهلا فى الماء بينها وبين الفرما، أو على الأقل بينها وبين (الطينة) وهى ثغر الفرما على ساحل البحر. وقيل إن (تنيس) كان لا يزال بها الى القرن العاشر آثار قديمة سوى ما كان بها من المساجد

(١) يزعم كاترمير أن اسم هذه المدينة مشتق من اللفظ اليونانى (تيسوس) وقد أضيفت فى أوّله علامة التأنيث القبطية فاذا صح ذلك كان لابد أن تلك البلاد غمرت من زمن بعيد قبل القرن السادس وفى الحق أن (كاسيان) وكان فى مصر فى سنة ٣٩٠ ـ سنة ٣٩٧ للميلاد يقول على وجه البت أن تنيس يحيط بها من جميع جهاتها بحر أو مناقع ملحة حتى أن أهلها كانوا يعتمدون كل الاعتماد على البحر فى الانتقال من مكان إلى مكان وكانوا يأتون بالطين فى السفن إذا أرادوا أن يوسعوا أرضا ليبنوا عليها بناء. وقد دمرت (تنيس) فى سنة ١٢٢٧م على عهد الملك الكامل الأيوبى فلم يبق منها إلا الاطلال ولاتزال الجزيرة تعرف بهذا الاسم عينه ولا تزال عليها آثار قديمة.

وعدّتها مائة وستون، تزين كلا منها مئذنة عالية، وما كان بها من الكنائس وعدّتها اثنتان وسبعون كنيسة. وكان بها من الحمامات ستة وثلاثون، وكانت لها أسوار حصينة فيها تسعة عشر بابا مصفحة بالحديد الثقيل. وقيل إن الموتى فى الجزائر الأخرى كانت تحمل فى الماء الى جزيرة (تنيس) لتدفن بها والظاهر أن هذه الموتى كانت تحنط هناك. وقد زارها بعد ذلك بقرن الرحالة الفارسى (ناصرى خسرو) فى عام ١٠٤٧ للميلاد فعجب مما رآه من ثرائها ورواج أسواقها فهو يذكر أنه كانت بها عشرة آلاف متجر وخمسون ألفا من الناس. وكانت فى مراسى جزيرتها ألف سفينة ولم يكن بها شيء من الزرع بل كانت تعتمد فى كل أقواتها على تجارتها. وكان النيل اذا علا وفاض طرد ما حول الجزيزة من مياه البحر الملح، وملأ بالماء العذب ما كان فيها من الصهاريج ومخازن الماء الدفينة فى الأرض، وكانت تلك كافية لشرب الناس طول الحول. وقد بلغت منسوجات القبط البديعة ذات الألوان شأنا عظيما لم تبلغه فى وقت من الأوقات. فكان للسلطان مناسج خاصة به تنسج فيها الأثواب له وحده. وكان الثوب لعمامته تبلغ نفقته أربعة آلاف دينار، ولكن الأثواب التى كانت تصنع للسلطان لم تكن مما يعرض فى الأسواق. وقد طلب إمبراطور الروم أن يأخذ (تنيس) ويعوض عنها بمائة مدينة من مدائن دولته ولكنه لم يجب الى ذلك. وكان مما يصنع فى تلك المدينة سوى هذه الأثواب الملكية نوع من الأثواب اسمه (بوقلمون)، وكان من الحرير المتغير اللون، وكانت لمعته زاهية حتى قيل انه كان يبدو فى ألوان متغيرة فى كل ساعة من ساعات النهار. وكانت صناعة السلاح المتخذ من الصلب من الصناعات التى كادت تبلغ فى تنيس مبلغ منسوجاتها، فكانت على ذلك مدينة من أعجب المدائن وأعظمها شأنا.

ويروى فى القصص أن حاكم (تنيس) كان فى وقت الفتح العربى رجلا من العرب النصارى [الغساسنة] اسمه (أبو طور)، وأنه خرج لقتال المسلمين على رأس عشرين ألفا من القبط والروم والعرب، فلقيهم فى سيرهم إلى (تنيس) بعد أن فتحوا دمياط، فناجزهم فى مواطن كثيرة قبل أن يظفر العرب ويهزموا جيشه ويأخذوه أسيرا. ومنذ تم لهم ذلك فتحوا المدينة وغنموا أموالها وقسموها ثم ساروا إلى (الفرما). ولم يجد المسلمون ما يحبب إليهم المقام فى هذه المدينة ولا فى أشباهها من الجزائر التى كانت فى وسط هذه البحيرة تساورها أمواجها الزرقاء مثل (تونه) و(بورا)و(دبيق). وعلى ذلك نستطيع إن نقول إن هذه الجهات

ظلت على دينها النصرانى زمنا طويلا بعد ذلك لا يكاد يمسها دين الاسلام[1]، ثم قضى عليها وزالت أخبارها من التاريخ وكان ذلك فى وقت نستطيع أن نعينه.

كانت جزيرة (تنيس) مكشوفة للغزو من البحر على أنها كانت محصنة فيها رباط قوى، وأمر صلاح الدين باخلائها فى سنة ١١٩٢، لإنه كان يشك فى ولاء أهلها من القبط ثم جاء الملك الكامل فى سنة ١٢٢٧ فهدم حصونها وأسوارها التى كانت تحميما من البحر حتى تركها أطلالا.

وتتصل بفتح هذه الجهات قصة أخرى يجدر بنا أن نشير إليها فإن المقريزى عند ذكره مدينة شطا يصفها بأنها مدينة بين (تنيس) و(دمياط).

وتذكر القصة أن العرب عندما حاصروا دمياط وفتحوها خرج إليهم حاكمها (شطا) ومعه ألفان من الناس، فأظهر إسلامه، وقد كان من قبل عاكفا على درسه والنظر فيه زمنا طويلا. ثم إن ذلك الرجل لما رأى أن العرب أبطأ عليهم فتح (تنيس) جمع جيشا من البرلس ودميره وأشمون طناح وجهزه ولحق بامداد المسلمين الذين بعث بهم عمرو، ثم سار حتى التقى بالعدوّ وأظهر من الشجاعة وحسن البلاء ما يظهره الأبطال، وقتل بيده اثنى عشر رجلا من فرسان أهل (تنيس) وشجعانهم، ومازال يقاتل حتى قتل فى ذلك اليوم، ودفن فى ظاهر المدينة، ويقول المقريزى إن قبره لا يزال معروفا يزوره الناس من كل أنحاء البلاد المجاورة ليتبركوا به فى يوم مقتله، وهو يوم النصف من شهر شعبان.

---

(١) ذكر فى سنة ٨٢٤ للميلاد أن (ديونيسيوس) بطريق أنطاكية ساقته الرياح وهو فى السفينة الى ميناء (تانيس) وقيل إنه قد خرج اليه منها ٣٠,٠٠٠ من المسيحيين للترحيب به فرحين وقد رحب به بطريق الإسكندرية وجماعة من الأساقفة وقالوا إنه لم يأت إلى مصر بطريق من بطارقة أنطاكية منذ أيام ساويرس ولكن ديونيسيوس كان أحفظ منهم للتاريخ فذكرهم بزيارة أثنا سيوس وكانت فى أوائل القرن السابع وقال لهم إنه قد تم عند ذلك الاتحاد الرسمى بين الكنيستين (أنظر ابن العبرى الجزء الأول فصل ٣٦٠) والمقصود بميناء تانيس لابد أن يكون الميناء الذى عند مصب الفرع التانيسى للنيل وهو بالطبع أقرب الى تنيس منه الى مدينة تانيس وهى أبعد منها فى داخل الجزيرة والاسم العربى الآن صان أو صان الحجر وأثر موضع الميناء لا يزال موجودا على الشاطىء بين الفرما وبورسعيد.

انقضاء حكم البيزنطيين بمصر

كانت بلاد الصعيد قد تم فتحها ولا سيما إلى حدود إقليم (طيبة) قبل أن تخبو نيران الحرب في بلاد مصر السفلى بزمن طويل، وأخرج الروم من بلاد وادى النيل فى عام ٦٤١ حتى لم يبق منهم فيه إلا قليل، فلا تذكر الأخبار شيئا من القتال فى هذا الاقليم بعد ذلك. ولنا أن نقول إن بلاد الصعيد أذعنت للعرب بغير قتال بعد فتح الإسكندرية.

وفى هذه الايام مات قيرس بالاسكندرية وقد ذكر حنا النقيوسى وفاته فى موضعين: فقال فى الأوّل إنه «أثقلته الهموم فمرض بالدوسنطار يا ومات منها». وقال فى الثانى إنه «بكى بدمع لا ينقطع خوفا من أن يصيبه ما أصابه من قبل وذلك هو النفى وفيما كان غريقا فى حزنه مات كما جرت به سنة العالم» ولكنه فى موضع منهما يوصف بأن أكثر ما أصابه من الحزن كان لرفض العرب شفاعته في أمر المصريين. وليس من سبب يحملنا على أن نشك فى شيء مما جاء فى هذا الوصف لآخرته، على أنه في رواية قبطية يرجع عهدها إلى أيام مؤرخنا ساويرس[1] وهى تصف موته وصفا آخر. فتقول «إن عمرا لما أخذ الإسكندرية واستقر الأمر على يديه فى المدينة خاف الحاكم أن يقتله عمرو، وكان ذلك الحاكم رجلا سيء الظن يلى أمر الدنيا والدين معا فى المدينة، فلما بلغ منه الخوف جعل فى فمه خاتما مسموما فمات من ساعته». على أننا نعرف أن المقوقس لم يخش عمرا خشيته من الإمبراطور، ولكن القصة أظهرت فى سياق عجيب وتأليف بديع أنه كان يخاف خوفا شديدا، وأن ذلك عجل بموته. بقى شيء آخر مما له اتصال بقصة موت قيرس ويجدر بنا ذكره، فقد رأينا أن عمرو بن العاص كان يشتد فى وقت الفتح شدّة عظيمة فى معاملة المصريين، ولهذا نجد المؤرخ القبطى يذكره كلما ذكره بالتقبيح والاستهجان على ما أثقل به قومه من الأحمال. ولهذا فإنه عند وصف الأيام الأخيرة من حياة البطريق نراه يقول إن «عمرا لم تكن فى قلبه رحمة بالمصريين ولم يرع العهد الذى عقده معهم إذ كان رجلا من الهمج». ونراه فى موضع آخر يصف ما وقع وصفا مفصلا فيحكى قصة رجل اسمه (ميناسى) كان هرقل اختاره حاكما لمصر السفلى فأقرّه العرب فى مكانه، وكان رجلا غرا جاهلا يكره المصريين كرها شديدا. ويذكر رجلا آخر اسمه (شنوده) أو (سنيوتيوس) أقرّه العرب على حكم الريف و(فيلوخينوس) أقروه على حكم

---

(١) نسخة المتحف البريطانى صفحة ١٠٦ وفى نسختنا هذه ص٥٨٢، أنظر كذلك كتاب حياة «الأنبا صمويل» صفحة ٥٨ وقد أقتبس فيه من تقويم حياة القدّيسين.

(أركاديا) وهي الفيوم. ويصف المؤرخ القبطي هؤلاء الثلاثة بأنهم كانوا يكرهون المسيحيين ويوالون أعداءهم ويثقلون كاهلهم بالأحمال الباهظة. وكان القبط يكرهون على أن يحملوا للعرب مؤونة لدوابهم وطعاما لأنفسهم كثيرا من اللبن والعسل والفاكهة والخص وسوى ذلك من الأشياء فوق ما كانوا يؤدّونه من الطعام المعتاد وهو الضريبة التي كانوا يأخذونها من ثمار الأرض. وكان القبط يؤدّون كل ذلك تحت ظل خوف لا اطمئنان معه.

وهذا الوصف له شأن كبير من وجهين: الأول أن هؤلاء الحكام الثلاثة الذين سماهم المؤرخ كانوا أكبر حكام مصر بعد حاكم الإسكندرية، وكانوا من الروم الملكانيين أتبا ع قيرس، ولم يكن بهم عطف على القبط لا في دينهم ولا في دنياهم، وهذا يدل على أن الذين دخلوا في الإسلام لم يكونوا كلهم من القبط فإن بعض من أسلم من كبراء القوم كانوا من الروم، وأما الوجه الثاني فهو أنه قد ثبت أن عمرو بن العاص كان يعامل المصريين قبل فتح الإسكندرية وبعدها أشدّ المعاملة.

لم يبق بعد ما ذكرنا إلا قليل من القول في وصف الشهور الستة التي مرت على الإسكندرية بين موت قيرس وبين دخول جنود العرب فيها. فإننا لا نعرف شيئا أكيدا من حوادث هذه المدّة إلا اختيار خلف للمقوقس بطريقا للمذهب الملكاني، ولم يحدث ذلك إلا بعد أن مضى نيف وثلاثة أشهر على موت المقوقس. ففي الرابع عشر من شهر يوليه في عيد القديس (تيودور) ألبس الشماس بطرس لباس البطرقة، وجلس على العرش الذى خلا من آخر بطارقة الإسكندرية تحت حكم الروم. ولعل ذلك الابطاء كان لاستشارة القسطنطينية، أو لعله كان لتردّد أهل الدين في قبول تلك الولاية بعد أن انشقت الولاية الدينية في مصر عن السلطة الدينية في الامبراطورية، وأصبح أمرها مخوفا مضطربا، مع أن أهل مصر كانوا قد أخذوا يعرفون بطلان أحلامهم التي كانوا يمنون بها أنفسهم من الاطمئنان إلى حكومة العرب واستقرار الأمور معها، وثبوت ما يطلب منهم فيها من ضرائب لا تزداد عليهم. إذ جاء أن أهل البلاد جميعا كانوا يئنون من شقائهم في حكم العرب، وكان أجل المصاب ما أصاب مدينة الإسكندرية من ذلك، فقد فسد حال التجارة التي كانت تدر الخير على أهلها، وخرج منها جماعة من أغنياء أعيانها وتجارها عوّلوا على الهجرة والنزوح عنها؛ فصار عبء الضرائب والجزية التي فرضها العرب الى كواهل من بقي في المدينة من الناس فأبهظها، وأخذ الناس

يحسون ما فى دخول العدوّ فى بلادهم من ذل لهم وتضييع لملتهم، ولم تجدهم فى ذلك ألفاظ معسولة وأقوال ناعمة كان قيرس يزجيها إليهم.

فكان الهم والغم يظلان المدينة فى الأسابيع الأخيرة من مدّة الهدنة، وكان كثير من المنازل قد خلا من أهله، وهدأت ضجة الارتحال من مراسى المدينة بعد أن تحملت سفن يتلو بعضها بعضا بالنازحين من الروم ومتاعهم وأثاثهم، وسارت بهم إلى الشمال إلى حيث لا عودة، ولم يبق إلا أسطول كبير يتجمع فى مرفأ الإسكندرية ليحمل من بقى من جنود الروم. والظاهر أن الذى كان يقوم على ترحيل جنود الروم من بلاد مصر السفلى اثنان من القادة وهما (تيودور) الذى أصبح حاكم مصر بعد موت قيرس، و(قسطنطين) الذى أصبح القائد الأعلى لجيش بيزنطه بعد (تيودور)، وكانا يقومان بما يقومان به بالاتفاق مع العرب. وكان النيل عند ذلك قد أخذ يزداد، وصارت الترع صالحة لسير السفن ونقل الأشياء، ولهذا السبب وقع الاختيار على ذلك الوقت لخروج الروم. فما أن حل حتى ركبت بقية جيش بيزنطه فى السفائن مع (تيودور) و(قسطنطين)، وهبطوا نحو الإسكندرية. وعند ذلك أطلق سراح من كان فى يد العرب من الرهائن الذين أودعوهم حصن بابليون، أو لقد ذهب العرب بهم حتى لحقوا بأصحابهم فى العاصمة.

دار الفلك دورته وعاد عيد الصليب، وكان من عجائب المقدور أن اتفق فى ذلك اليوم الرابع عشر من سبتمبر من العام المنصرم مجىء المقوقس رئيس الأساقفة الخائن فى رجعته الى مصر، ثم عاد اليوم بعد عام ليشهد آخر مشهد من زوال ظل السلطان البيزنطى عن مصر. فكانت صلاة إعلاء الصليب تتردّد أصداؤها فى الكنيسة، فى حين كانت السفن تتجهز آخر جهازها فى الميناء ويؤذن لها بالسير. فما طلع اليومى الثالث بعد هذا وهو اليوم السابع عشر من سبتمبر حتى كان أسطول (تيودور) يحل قلاعه ويرفع مراسيه ويسير إلى قبرص بمن كان عليه من فلول جيش الروم يرفرف عليهم الأسى.

فتح پنتاپولس

ما أن أمن العرب على مصر ولما ينقض فيها القتال كله، حتى عوّل قائدهم على إنفاذ حملة الى پنتاپولس، حتى اذا ما انقضت تلك الهدنة ودخل العرب الاسكندرية لم يبق عليه إلا

أن يقيم للمدينة وحدها نظامها. ولو كان الأمر غير ذلك لما استطاع عمرو أن ينفذ حملته الى بلاد المغرب بعد مثل ذلك الزمن القصير من فتح العاصمة، فانه أنفذه فى تاريخ لا يمكن أن يقع بعد أوّل عام ٦٤٣(١) بزمن طويل.

لقد كان فى القرن السابع سلسلة من المدائن والمنازل على الطريق بين الاسكندرية و(قيرين)، وأن أكثر الطريق كان فى أرض خصبة ذات زرع. وإذا قلنا إن السير فى ذلك الطريق كان سهلا على جند الروم فانه كان نزهة لفرسان العرب خاصة وانه صحبهم فى البحر اسطول بحرى محمل بالمؤن والعتاد تحت قيادة الدوكس سانوتيوس.، ولم يلقوا فى سيرهم هذا كبير كيد، فلا يذكر أنه قد وقع قتال حتى بلغ العرب (برقة). والظاهر أنها سلمت لهم صلحا، على أن تدفع للعرب ثلاثة عشر ألف دينار جزية معلومة كل عام(٢).

وقد جاء فى شروط ذلك الصلح شرطان عجيبان: الأوّل أنه أبيح لأهل برقة أن يبيعوا أبناءهم ليأتوا بالجزية المفروضة، والثانى أنه كان عليهم أن يحملوا الجزية الى مصرحتى لا يسمح بدخول جباة الجزية الى بلادهم، ولعل المشترى هنا كان العرب انفسهم.

وسار عمرو بعد فتح برقة الى طرابلس وكانت أمنع حصونا وأعز جيشا، فقد كانت بها

(١) جاء فى ابن الأثير (الجزء الثالث صفحة ١٩) أن غزو برقة كان فى سنة ٢٢ للهجرة (أى من ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢ الى ٢٠ نوفمبر سنة ٦٤٣) وجاء فى الكتاب نفسه (صفحة ٣٨) ذكر التاريخ الصحيح لوفاة عمر وهو أجدر بالتصديق من ياقوت وابن خلدون إذ يذكر أن الغزوة كانت فى سنة ٢١ للهجرة. وقد ذكرنا فى موضع آخر أن ذلك الخلاف قد يكون ناشئا عن أن عمرا بدأ سيره بعد أوّل السنة الهجرية بزمن يسير. ولقد أرسلت بلا شك سرية أخرى الى بنتابولس فى سنة ٢٥ للهجرة ولكن كلتا الغزوتين مميزة عن الأخرى على الأقل فى ابن الأثير. والأمر ليس فيه شبهة من الشك لأن الغزوة الثانية تتفق كل الاتفاق مع ترتيب تاريخ الحوادث المعروفة فى حين أننا لو ذهبنا الى أن المقصود هو الغزوة الأولى لحدث اضطراب فى نظام حوادث أخرى معروفة التاريخ وفوق ذلك فان ابن بطريق يفيدنا هنا فائدة كبرى فانه يقول «إن عمرا فتح طرابلس للغرب فى سنة ٢٢ للهجرة فى السنة الثانية والعشرين من حكم هرقل والسنة العاشرة من خلافة عمر» فأما تاريخ هرقل فيجب علينا إغفاله لأن (ابن بطريق) لا يفتأ يخطىء فى ذكره ولكن سنة ٢٢ للهجرة تتفق مدّة نصف عام مع السنة العاشرة من خلافة عمر فقد بدأت خلافته فى ٢٤ يوليه سنة ٦٣٤ فالسنة العاشرة من خلافته تبدأ فى أوائل الصيف من عام سنة ٦٤٣ فى حين أن سنة ٢٢ للهجرة تنتهى فى نوفمبر سنة ٦٤٣ ولعل فتح مدينة طرابلس كان فى مايو أو يونيه من ذلك العام.

(٢) يتفق ابن الأثير وياقوت وابن خلدون فى أن عمرا صالح على هذه الشروط ولكنهم لا يذكرون قتالا.

حامية كبيرة من الروم، فأقفلت أبوابها وصبرت على الحصار الذى وضعه العرب عليها بضعة أسابيع لم يأتها إمداد من البحر حتى اذا ما كاد جيشها يهلك من جهد القتال وشدّة الجوع، عرف العرب أن المدينة كانت غير محصنة من قبل البحر، وأنهم يستطيعون النفوذ اليها من هناك. فدخل جماعة منهم بين أسوار المدينة والبحر وقاتلوا عدوّهم من هناك، فذعر المدافعون عن المدينة وحملوا ما استطاعوا حمله من متاعهم وأسرعوا الى السفن وحلوا قلوعها، وفى أثناء ذلك ترك الحرّاس الأبواب ودخل عمرو بجيشه الى المدينة.

سار عمرو مسرعا كما اعتاد السير فطلع بغتة على مدينة سبرة [زراره حاليا]، وهاجمها فى أوّل الصباح، وأخذ الناس على غرة إذ كانوا يظنون أن العرب لا يزالون فى شغل فى حصار طرابلس. ولهذا فتحت المدينة عند أوّل حملة حملوها عليها، وكان أخذها عنوة. فاعمل فيها العرب النهب وكان هذا ختام تلك الحرب السريعة، فعاد عمرو الى برقة وجاءت اليه من بدو البربر قبيلة لواته فدانت له، وهى جل من كان يسكن تلك البلاد. فلما تم له ذلك عاد بجيشه الى مصر ومعه عدد عظيم من الأسرى ومقدارى كبير من الغنائم.

ولعل عودة عمرو إلى حصن بابليون كان فى صيف سنة ٦٤٣، وكان جسر النيل قد أعيد هناك فيما بين الروضة وبابليون على الشاطئ وبينها وبين الجيزة على الشاطئ الغربى .ولكن الشاطئ الغربى ومدينة منف التى كانت عليه كانا عرضة للغارات المباغتة من القبائل الصحراوية الضاربة فيما وراء الأهرامات، فأمر عمرو ببناء قلعة فى الجيزة تدفع المغيرين من قبلها، وتمكن للعرب فى جانب النيل الآخر، فيكون سلطانهم مبسوطا على الضفتين معا. فتم ذلك قبل حلول شهر نوفمبر من ذلك العام.

أصبح السلام سائدا عند ذلك فى كل بلاد مصر السفلى وبلاد وادى النيل الى حدوده الجنوبية عند أسوان، ولكن النوبه كان عند ذلك قذى فى عين حكام مصر، وهو لا يزال كذلك فى كل العصور، وذلك لأن قبائله لا يسهل قيادها. وكانت فى جبالها أو صحرائها لا ترضى بدين المسيح بدلا ولا تحب الدخول فى الإسلام، ولا تزال تنظر الى بلاد مصر ذات الخيرات أنها غنيمة لها كما كانت لآبائها وأجدادها لا تدع الاغارة عليها. وقد أرسل عمرو الى بلاد النوبة جيشا يغزوها ولكنه لم يستطع أن يهزم أهلها بل اضطرّ للعودة، بعد أن لحقت به خسارة عظيمة مما أصاب الناس من سهام رماة النوبة الذين سماهم العرب بعد ذلك رماة

الحدق. وبقى القتال بعد ذلك ينشب بين حين وحين مدّة بضع سنين الى أيام خلافة عثمان، فعقد صلح مع أهل النوبة على أن يدفعوا كل عام جزية من العبيد الى والى مصرى، وشرط لهم العرب أن يرسلوا اليهم خلعة ومؤونة. ومن ذلك يظهر أن الصلح كان صلح ندين إذ لم يكن الوقت قد حان لفتح بلاد النوبه.

إعادة بنيامين

لما مات البطريق الرومانى (قيرس)، ورحلت عن مصر جيوش الروم التى كان سلطانه يعتمد عليها، حدث تغير كبير فى حال الأحزاب الدينية، فقد أقيم خلف لبطريق الرومان فى الإسكندرية ليقوم على ولاية أمر المذهب الملكانى، ولكن ولايته كانت لا تتعدّى أسوار المدينة، وذهب عنه سلطانه وانفض من حوله كثير من أتباعه. ولكن بطريق القبط كان لا يزال على اختفائه طريدا يضرب فى أنحاء الصعيد، ويهيم على وجهه فيه. فكان يخيل إلى الناس أن مذهبه قد بات صريعا لا تكاد الحياة تدب فيه، مما أصابه من الوطء والعسف فى محنته التى تطاولت به مدّتها نحو عشر سنوات على يد قيرس الذى كان لا يعرف الرحمة، ولا تخطر على قلبه هوادة. وقد أصبحت مصر بعد وليس دينها دين المسيح، إذ وضعت عليها حماية الاسلام تعلو أحزابها جميعا، وأصبح سيفه بينها فيصلا حائلا. فأدّى ذلك الى تنفس الناس فى عباداتهم واختيار ما يشاءونه فى تدينهم، فلم يكن بالمسلمين اهتمام لمنازعات الأحزاب فى شأن مجمع خلقيدونية، واختلافها فى صدق ما أقرّه ذلك المجمع أو كذبه، وأصبح القبط فى مأمن من الخوف الذى كان يلجئهم إلى إنكار عقيدتهم أو إخفائها تقية ومداراة. فعادت الحياة إلى مذهب القبط فى هذا الجوّ الجديد، وما لبث أن صار مذهب الكثرة الذى يحق له أن يكون مذهب الأمة السائد. وقد قضى عمرو بن العاص بأنه كذلك، وأنفذ قضاءه بأن كتب أمانا لبنيامين وأقرّ عودته.

وقيل إن الذى حدا بعمرو إلى المبادرة بهذا الأمر ما أبلغه إياه رجل اسمه سنوتيوس (أو هو شنودة)، وكان من قبط مصر، إلا أنه كان مع ذلك من بين قواد جيش الرومان(١). ولكن الموضع الذى كان به (بنيامين) كان مجهولا لا يعلم به أحد، ولا يعرفه (شنودة) نفسه. وعلى

(١) ساويرس النسخة الخطية بالمتحف البريطانى صفحة ١٠٦ سطر ١٠ وص٥٨٢ من كتابنا هذا، وأكثر الحقائق التى أوردناها هنا مأخوذة عن ذلك المصدر.

ذلك كان لابد من كتابة أمر الأمان على هيئة كتاب لا تخصيص فيه، وكانت صورته كما يلى:

«أيما كان بطريق القبط بنيامين نعده الحماية والأمان وعهد الله فليأت البطريق إلى هاهنا فى أمان واطمئنان ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته». وليس بالمستبعد أن يكون سعى (شنودة) هذا كان فى الوقت الذى جاء فيه رهبان وادى النطرون إلى عمرو يظهرون له الطاعة لحكيم المسلمين. فقد روى المقريزى نقلا عن بعض مؤرخى المسيحيين أن سبعين ألفا من الرهبان خرجوا من تلك الأديرة للقاء عمرو بن العاص، وكان كل منهم يحمل فى يده عصا. فلما دانوا له بالطاعة أعطاهم كتابا لا شك أنه كان (عهد أمان)، ولعله كان العهد الذى نذكره الآن وهو عهد بنيامين(١).

ولم يلبث عهد الأمان أن بلغ بنيامين فعاد من مخبئه ودخل إلى الاسكندرية دخول الظافر، وفرح الناس برجوعه فرحا عظيما بعد أن بلغت مدة غيابه ثلاثة عشر عاما منذ هجر مقرّه وهرب إلى الصحراء الغربية عند مقدم (قيرس). ومن هذه المدة عشر سنين وقع فيها الاضطهاد الأكبر والثلاث الباقية كانت فى مدّة حكم المسلمين(٢). وكان بنيامين فى كل هذه المدة يتنقل خفية بين أصحاب مذهبه، أو يقيم مختبئا فى أديرة الصحراء.

ولما أبلغ شنودة عمرو بن العاص مقدم بنيامين أمر عمرو باحضاره إليه، وأمر بأن يقابل بما يليق به من الترحاب والتكريم.

وجعله أميرا على قومه لا يدافع فيهم أمره، وجعل له ولاية أمر دينهم.

ولقد كان لعودة بنيامين أثر عظيم فى حل عقدة مذهب القبط وتفريج كربته، إن لم تكن عودته قد تداركت تلك الملة قبل الضياع والهلاك، إذ لم يكن قبط مصر فى وقت من

---

(١) ذكر المقريزى ذلك الخطاب ويقول إنه لا يزال موجودا فى وادى النطرون. ويذكر كتابا آخر من عمرو عن خازن الأقاليم الشمالية ويقول إنه محفوظ فى دير مقاريوس ولا يذكر ساويرس شيئا عن الوفد بل يكتب أنه كان «سينوتيوس القائد المؤمن الذى سعى فى عودة اليطريق وحصل له على الأمان من قائد المسلمين». وقد جاء ذكر وجود هذا الخطاب فى دير مقاريوس فى كتاب اميلنو (Hist. des Monastéres de la Basse Egypte)

(٢) اتفق المؤرّخون فى مدّة نفى بنيامين وتقسيمها فيقول ساويرس إنه رجع بعد «غياب ثلاثة عشر عاما: عشرة منها فى حكم هرقل، وثلاثة فى حكم المسلمين» أن عودة بنيامين كانت قرب الخريف من سنة ٦٤٤ أى فى آخر سنة ٢٤هـ.

الأوقات أشدّ حاجة منهم فى ذلك الوقت إلى ذى رأى حصيف وخلق متين يقودهم ويلى أمرهم، فقد كان منهم من خرجوا من عقيدتهم وهم ألوف، ورضوا باتباع مذهب (خلقيدونيه) خوفا من اضطهاد قيرس. ولاشك أن الخروج من الدين كرها أو خوفا لا يكون فى مبدأ أمره حقيقيا، ولكن لقد مضى على ذلك الأمر عشر سنين واعتاد الناس السير على ما دخلوا فيه، وما كان بناء عشر سنين ليتهدّم فى لحظة ويزول. ولقد كان أشدّ خطرا على القبط من كان يخرج منهم إلى الاسلام.

ولم يكن من اليسير أن يعاد من خرج من المسيحية إلى حظيرتها بعد أن قطع أسبابها، فان ذلك كان لا رجاء فيه. ولكن الأمر كان على غير ذلك فى أكثر من اضطر إلى اتباع مذهب الملكانيين خوفا أو كرها. وقد كان لعودة بنيامين إلى عرش الإسكندرية وأبنائها رنة طرب فى قلوب أهل مصر جميعا، فعاد جل العامة إلى راعيهم القديم والفرح يملؤهم، «ونالوا أكليل الاعتراف»[1]. ونادى البطريق المطارنة الذين اتبعوا مذهب الدولة أن ارجعوا إلى سابق عهدكم وملتكم، فعاد بعضهم يذرفون الدمع السخين ندما، ولكن قيل إن واحدا منهم أبى أن يعود حتى لا يلحقه العار خوف أن تعرف عنه الردّة الأولى. ولعل الكثيرين كانوا مثله فى هذا. ومهما يكن من الأمر فقد نما أمر القبط وزاد اتباع ملتهم. وكان هم بنيامين فى أوّل الأمر أن «يقدح فكره ليلا ونهارا فى أمر رعيته وإرجاع من ضل منهم فى أيام هرقل». فلما أن تم له جمع قومه ولم شعثهم اتجهت همته إلى إصلاح ما تهدّم من الأديرة، ولا سيما ما كان منها فى وادى النطرون، وقد لحقها من التخريب فى أوائل القرن السابع ما لم تعد معه إلى سابق عهدها.

وقد استطاع أن يجد ما يلزم لذلك الإصلاح من المال، ثم أتمه على ما أراد. وقد وصف (ساويرس) ما يتصل بهذا الأمر من الحوادث وصفا شائقا فقال إن جماعة من الرهبان وفدوا إلى الاسكندرية حتى دخلوا بيعة السيدة الطاهرة مرتمريم ام النور التى تدعى «اسطوا انجالون»[2]، وكان بنيامين عند ذلك يصلى بالناس صلاة عيد الميلاد. فطلبوا إليه أن يذهب

---

(١) ساويرس ص٥٨٧ من كتابنا هذا.

(٢) اللفظ المستعمل هو (Stoa Angelion) وهو نقل عن اللفظ اليونانى ويشير إلى الكنيسة التى اسمها الانجيليون ولعل هذا دليل على أن اسم (Angelion) أصح من (Euangelion). انظر ص ٦٠٣ من كتابنا هذا.

معهم ليبارك الكنيسة الجديدة التى بنيت فى الصحراء بوادى النطرون وهى كنيسة القدّيس (أبى مقار)، فأجابهم بنيامين إلى ما طلبوا وسافر معهم الى (المنى) و(جبل البرنوج) حتى بلغ (دير البراموس)، وذهب بعد ذلك من هناك لزيارة الأديرة الأخرى. وجاء فى اليوم الثانى من شهر يناير إلى (دير مقاريوس)، فلقيه هناك المعلم الأكبر (بازل) مطران نقيوس، ورحب به فى موكب حملت فيه بين يديه المباخر وسعف النخيل. وفى اليوم التالى وهو الثامن من شهر طوبة احتفل بمباركة الكنيسة واتفقت له عند ذلك ـ كما قال ساويرس ـ آيات وكرامات لا محل لذكرها هنا. ولعله من المستحسن أن نذكر هنا كلمات (بازل) الذى شكر الله على ما أولى البطريق من زيارة الصحراء المباركة مرة ثانية، وأن يرى من فيها من الآباء المقدّسين والأخوة الطيبين الأبرار، ويشهد بها شعائر الدين القويم. ثم شكر الله على أن أنجاه من الكفرة وحفظ قلبه من ذلك الطاغية الأكبر الذى شرده، فعاد إلى أبنائه يراهم ملتفين حوله مرة أخرى[١].

وإن هذا القول لا ينم عن قوم يشعرون بأنهم فى قيد الذل، بل ينم عمن يبتهج بالنجاة والخلاص. وقد جاء فى غير هذا الموضع من كتاب الكاتب عينه ما يؤيد هذا المعنى ويوافقه. قال على لسان بنيامين «كنت فى بلدى وهو الاسكندرية فوجدت بها أمنا من الخوف واطمئنانا بعد البلاء، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم»[٢]. وقد وصف قومه بأنهم «فرحين مثل العجول الصغار إذا حل رباطهم واطلقوا على لبان أمها تهم[٣]».

ثورة الاسكندرية بقيادة منويل

ظهر بعد أن فتح مصر لم يتم، فان الحرب بعد أن ظن الناس أنها قد وضعت أوزارها، عادت جذعة، إذ جاء الروم يسعون سعى المستميت أن يسترجعوا ما فقدوه من ملكهم، ولا يسعنا إلا أن نصف هذا السعى ولو على وجه الايجاز.

وقد أخطأ عمر بن الخطاب فى أنه كان مع عماله جميعا على سوء الظن يتوقعون منه العزل والمحاسبة، فقتل لبضعة أيام بقيت من ذى الحجة من عام ٢٣ للهجرة، ودفن فى غرة المحرم من عام ٢٤ للهجرة ٧ نوفمبر سنة ٦٤٤، وفى ذلك اليوم أختير عثمان خليفة له. على

(١) ساويرس ص٥٨٤ متن ساويرس العلوى.
(٢) نفس الكتاب نفس الصفحة.
(٣) انظر ص ٥٩٥ متن ساويرس العلوى.

أن عمر وإن أخطأ فى بعض أمره فقد كان عثمان الذى جاء بعده يعزلهم. وكان من آخر ما أتاه عمر فى حياته أن قلل من سلطان عمرو بن العاص، وذلك بأنه ولى عبدالله بن سعد بن أبى سرح حكم الصعيد والفيوم، وجعل اليه جباية الخراج. فأتم عثمان ما شرع فيه عمر بان عزل ابن العاص عن ولاية مصر، وجمع ولايتها جميعا لعبدالله بن سعد.

الذى يصفه الطبرى بأشنع الصفات فيقول عنه: «لم يكن فى وكلاء عثمان أسوأ من عبدالله والى مصر». وكانت ولايته هذه فى وقت ساء فيه حكم الولاة وثارت ثورة الناس عليهم وعلى الخليفة لجورهم فى الحكم. والظاهر أن من وصف عبدالله وصفا حسنا إنما يدل على سخافته وحماقته، وليس لوصفه قيمة فى التاريخ فانه لا مراء فيما ارتكبه فى مصر من الظلم. وقد ولاه الخليفة قصدا لكى يزيد فى جباية الجزية، وإن لدينا من الأسباب ما يحملنا على أن نقول إن عبدالله قد جعل أوّل همه زيادة الضرائب على أهل الاسكندرية، إذ لا شك أنهم كانوا عند ذلك يرزحون تحت عبء ثقيل من الضرائب. ولقد كان من أثر هذا العبء الثقيل أن جماعة من زعمائهم أنفذوا كتبا إلى الامبراطور (قسطانز) فى قسطنطينية، يسألونه أن يخلصهم من ظلم المسلمين. وقالوا له إن الاسكندرية ليس فيها إلا حامية ضعيفة لا تقوى على دفع جيش رومانى.

فأثرت هذه الكتب فى الامبراطور، إذ أنه لم ينس ما أصابه فى عزته وما لحق دولته من الضرر من ضياع مصر، فأمر بإعداد قوّة عظيمة وتكتم أمرها كتمانا شديدا. وكان الروم الى ذلك الحين لا يزالون على سلطانهم فى البحر غير مدافعين ولا معاندين.

لم يكن للعرب فى الوقت الذى نصفه الآن سفن تأتيهم بأنباء أسطول الروم الذى بعث به الامبراطور بقيادة منويل للاستيلاء على الاسكندرية. فما فجأ العرب إلا أسطول عظيم يدخل ميناء الاسكندرية فى عدّة ثلثمائة سفينة، وألقى فيها مراسيه غير مدافع(1). ولم يكن

(1) اختلفت المصادرة على عادتها فى هذا الأمر فقال ابن خلدون إن الأسطول بقى بعيدا عن الشاطى لأن المقوقس منع الروم أن ينزلوا بالأرض ولكن المقوقس كان قد مات طبعا. وقال ابن عبدالحكم ان الأسطول رسا فى الاسكندرية وإن الروم الذين كانوا فى المدينة انضموا الى جنود الامبراطورية. وأما غيرهما من مؤرخى العرب فيقولون بوضوح إن الروم أخذوا المدينة وقتلوا حاميتها.

بالمدينة إلا ألف رجل من العرب للدّفاع عنها، فغلبهم الروم وقتلوهم جميعا إلا نفرا قليلا منهم استطاعوا النجاة، وعادت بذلك الاسكندرية الى ملك الروم. بعد أن كانوا قد سافروا فى البحر ورحلوا عن مصر، فأخذوا العرب على غرة وهم متفرّقون، فملكوا المدينة مرة ثانية، ولبثوا يحكمونها بعد ذلك حينا قصيرا. وليس ثمت من حقيقة لهذه الرواية فانما منشؤها خطأ فى التأويل، وذلك أنهم خلطوا بين فتح الاسكندرية فى المرّة الأولى وفتحها فى المرّة الأخيرة، ومزجوا بين وصفى الحادثين. فهم يقولون مثلا إن فتح الاسكندرية كان فى المرّة الأولى عنوة وجعلوا بناء روايتهم كله على أنها فتحت عنوة، فى حين أنا قد بينا بيانا واضحا لا نزاع فيه أن فتح الاسكندرية فى المرّة الأولى كان صلحا، وأن العرب جعلوا لأهلها هدنة مدّتها أحد عشر شهرا، ثم دخلوا بعد ذلك الى المدينة مسالمين، وظلوا بعد ذلك على ملك المدينة لا يحدث لهم حدث حتى جاء منويل فى بعثه[1].

وقد اتفق مؤرّخو العرب اتفاقا يقل مثله على أن استرجاع الروم لمدينة الاسكندرية قد وقع فى أوائل السنة الخامسة والعشرين للهجرة وذلك نحو آخر سنة ٦٤٥ للميلاد[2]. ولكنهم لم يتفقوا مثل هذا الاتفاق فى ذكر المكان الذى كان فيه عمرو بن العاص عند ذلك فإذا صحت

(١) نثبت هذه القصة من قول السيوطى إذ قال «لما هزم الله الروم وفتح الاسكندرية وهرب الروم فى البر والبحر خلف عمرو بن العاص بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى عمرو ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر فرجع من كان هرب من الروم فى البحر الى الاسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم» (حسن المحاضرة صفحة ٧٣) ولكنى هذا خلط ناشىء من مؤلف يجمع الأخبار وهو يجهل ترتيبها التاريخى الصحيح وهذا الحادث ليس إلا ترجيع ما حدث فيما بعد فى أيام غزوة منويل ونقول كذلك إن هذا الخبر الذى يذكر فيه نزول الروم على الاسكندرية مرتين يرد فى كتاب ابن بطريق وهذا دليل بغير شك على أن كلا المؤلفين نقل عن مصدر واحد وهو مصدر فاسد فاذا ما قام الدليل كما فعلنا من قبل على أن فتح الاسكندرية الأوّل كان صلحا نقضت هذه القصة من أساسها فجمل القول أن القصة لا يقوم عليها دليل صحيح وهى تعارض حقائق قام البرهان عليها وثبتت بغير شك ولا يذكر حنا النقيوسى شيئا عنها وعلى ذلك يجب علينا أن نبعدها عن حقائق التاريخ.

(٢) ذكر البلاذرى هذا التاريخ ثم ذكر احتمال أن يكون ذلك سنة ٢٣ هجرية. وأما ابن الأثير فانه يذكر أن ذلك كان سنة ٢٥ للهجرة ويتفق معه فى ذلك ياقوت وأبو المحاسن. وأما المقريزى فانه يذكر أن فتح الروم للاسكندرية كان سنة ٢٤ هجرية وأن فتح العرب لها وقع سنة ٢٥ للهجرة. وذكر ذلك أبو المحاسن وقال إن هزيمة الروم كانت فى ربيع الأول وهو يوافق يناير سنة ٦٤٦ ولكن هذا لا يكاد يترك وقتا كافيا لحوادث ذلك القتال.

رواية الطبرى، وروايته جديرة بالتصديق، كان عمرو عند ذلك فى مكة[1] معزولا، فلما جاءت أنباء هذه الثورة أمر بأن يعود إلى قيادة الجيش بمصر. وعلى أى حال فالظاهر أنه عزل قبل مجىء الروم، ولم يلتفت خلفه العاجز إلى حماية البلاد فأهمل تحصينها، حتى بدا عجزها واشتدّ خللها. ولم يقف جيش (منويل) عند الاسكندرية بعد أن ملكها وخلصت له، بل سار إلى ما يليها من بلاد مصر السفلى ينهب فيها ويغصب القمح والخمر والأموال من أهل قراها، لا يدافعه مدافع. والظاهر أن الروم لم يعبأوا بمن تودّد إليهم، فكان جندهم أينما حل أو سار فى البلاد يعامل الناس معاملة أعداء قد فتحت بلادهم.

غير أن القبط كانوا على وجه الاجمال لا يرجون خيرا من وراء رجوع سلطان الروم، إذ كانت ذكريات قيرس وعسفه لا تزال منقوشة على قلوبهم، وكانوا غير ساخطين على ما هم فيه مع ما أخذ يظلهم عند ذلك من خوف العرب وظلمهم، إذ كانت لهم طمأنينة على دينهم ودنياهم ما كانوا ليحتفظوا بها إذا عاد حكم الروم. ولسنا نعلم علم اليقين أبقى البطريق بنيامين عند ذلك فى الاسكندرية أم هرب قبل مجىء جيش الروم، على أننا نرجح هروبه وغيابه عن العاصمة فى ذلك الوقت. والأدلة على ذلك قوية، ولكن لا شك فى أنه وقف مع قومه من القبط يشدون أزر العرب ويساعدونهم ويظهرون لهم الود حافظين بذلك عهدهم الذى تعاهدوا عليه فى صلح الاسكندرية.

---

(١) انظر الطبرى طبعة (Zotenberg) الجزء الثالث صفحة ٥٥٩ قال إنه فى أول السنة الخامسة والعشرين للهجرة أخذ عثمان فى عزل عمال عمر ولكنه لما سمع بثورة الاسكندرية جعل عمرا (يسافر الى مصر) وهذا يفيد أن الفتح الثانى كان بعد أول سنة ٦٤٦ بمدّة طويلة. ويذكر البلاذرى أن عمرا عزل من الولاية فى سنة ٢٥ للهجرة وحل محله عبدالله بن سعد. وقال النواوى إن استعماله كان فى تلك السنة ولكن ابن الأثير يذكر أن ذلك كان فى سنة ٢٦ للهجرة. وأما ابن عبدالحكم فانه عند ذكر الثورة يقول إن عثمان كان قد عزل عمرا فى ذلك الوقت وقد نقل عنه المقريزى هذاا (الخطط الجزء الأول). وقال المقريزى فى موضع آخر عند ذكر ولاة الفسطاط يذكر عبدالله ابن سعد إن منويل الخصى هاجم الاسكندرية فطلب الناس من الخليفة أن يستعمل عمرا لقتال الروم وبالاجمال يظهر أنه من الثابت أن عمرا قد عزل قبل الثورة ولكنه ليس من الجلى إذا كان قد ترك مصر. فأما ابن بطريق فانه يذكر صراحة أنه كان لا يزال فى مصر. وأما أبو المحاسن فانه يقول إن عثمان أزال عنه أعباء الولاية حتى يفرغ لقتال منويل.

وفيما كان الروم يتمتعون بما فى مصر من ملاذ ويضيعون الفرصة على عادتهم فى تضيع ثمين الفرص إذا ما سنحت لهم، عاد عمرو إلى قيادة جيش العرب فى بابليون. وقد دعاه العرب لذلك وألحوا فيه منذ رأوا أنه رجل داهية لا يدانيه مدان فى مكيدة الحرب، ولا يثق الناس فى أحد ثقتهم فيه لما اعتادوا من النصر على يديه، وشعروا بأنهم فى أشدّ الحاجة إليه فى ذلك الوقت العصيب الذى لم يأت عليهم وقت أشدّ منه منذ غزوا بلاد مصر. ولو لم يضع الروم وقتهم فى بلاد مصر السفلى بل ساروا لا يلوون على شىء قاصدين إلى الفسطاط لما بعد عليهم أن يهزموا عبدالله ويأخذوا حصن بابليون، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل تهاونوا حتى استطاع عمرو أن يحضر إلى مصر ويجهز جيشه بها، ولم يكن من رأى عمرو أن يسرع فى أمره وهذا غير ما كان يراه خارجة بن حذافة الذى كان عند ذلك قائد حامية حصن بابليون، إذ كان يرى أن التأخر ضارّ بالمسلمين مصلح لأمر الروم، وأشار على عمرو أن يبادر إلى العدوّ قبل أن يأتيه المدد أو يثب أهل مصر جميعها وينتقضوا على العرب. ولكن عمرا كان يرى خلاف ذلك فقال: «لا ولكن ادعهم حتى يسيروا إلىّ فإنهم يصيبون من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض».

وعلى هذا سار الروم على مهل حتى استدرجوا إلى نقيوس، وهناك لقيتهم طلائع العرب. ولعل جيشهم كان إذ ذاك خمسة عشر ألفا. ولم يذكر التاريخ هل استولى الروم على مدينة نقيوس، غير أنه يذكر أنه قد وقع قتال شديد بين الجيشين تحت أسوار حصنها فيما يلى الخليج أو النهر الذى يجرى قرب المدينة.

ولما قتل قائد الفرقة البيزنطى فى المعركة رجع القتال بين الناس واشتد، وانتهى أمره بهزيمة جيش منويل، وفرّ الروم لا يلوون على شىء نحو الاسكندرية. فبلغت فلول جيشهم العاصمة والعرب فى آثارهم، فأقفل الروم الأبواب واستعدّوا للحصار. وكان عمرو فى أثناء سيره فى بلاد مصر السفلى يلقى مساعدة من قرى القبط حيث سار، فكانوا يأتون إليه بمن يقيم له الجسور ويقدّمون له ما كان فى استطاعتهم تقديمه بعد ما حل بهم من نهب الروم وغصبهم. فلما بلغ جيش العرب أسوار الاسكندرية ورأى عمرو ما عليه المدينة من المنعة اشتد به الألم لأنه رأى أنه أخطأ فى ترك أسوارها قائمة، ولم يجعل بها من الجند حامية قوية، وحلف لئن أظفره الله بها ليهدمن أسوارها حتى تكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان. وجعل عسكر العرب فى الجانب الشرقى من المدينة وهو الجانب الذى كان الحصار منه ممكنا، وقيل إنه فتح

المدينة بخيانة من داخلها، كما وقع لها في حصار دقلديانوس. فقد قيل أنه كان في الاسكندرية بواب اسمه (ابن بسامة)، سأل عمرا أن يؤمنه على نفسه وأهله وأرضه ويفتح له الباب، فأجابه عمرو إلى ذلك[1].

ومهما يكن من الأمر فقد أخذ العرب المدينة عنوة ودخلوها يقتلون ويغنمون ويحرقون حتى ذهب في الحريق كل ما كان باقيا على مقربة من الباب في الحي الشرقي، ومن ذلك كنيسة القدّيس مرقص. واستمر القتل حتى بلغ العرب وسط المدينة، فأمرهم عمرو أن يرفعوا أيديهم، وبنى مسجد في الموضع الذى أمر عمرو فيه برفع السيف وهو «مسجد الرحمة». وقد لاذت طائفة من جند الروم بسفنهم فهربوا في البحر، ولكن كثيرا منهم قتل في المدينة. وكان منويل بين من قتل، وأخذ العرب النساء والذرارى فجعلوهم فيئا.

وكان هذا الفتح الثانى في صيف سنة ٦٤٦، وكان عنوة بالسيف، وبهذا يكون بين الفتح الأول والفتح الثانى فروق تميز بين وقت وقوع كل منهما وحوادثه. ولكن من سوء الحظ أن كتاب العرب لم يفرّقوا بين الفتحين، وإنه لمن أصعب الأمور وأشدّها استعصاء أن يعيد باحث الى الحوادث نظامها في كل من الحالين، إذ يجد بعضها داخلا في بعض مختلطا به اختلاطا من كل وجه. وإنا نرى أن هذا الوصف موضع لذكر حادثة قد وضعت في غير موضعها في وصف الفتح الأوّل فنشأ عن ذلك خلط عظيم، وتلك الحادثة هى الزيارة التى قيل إن المقوقس زارها لعمرو ليعرض عليه فيها أمورا عجيبة. ولا شك أن المقوقس قد مات منذ زمن طويل غير أن العرب كانوا يطلقون ذلك اللقب خطأ على أشخاص عدّة، فقد سموا به الحاكم الذى كتب اليه النبى كتابه قبل فتح العرب لمصر، ثم أخطأوا فسموا به بعد الفتح بطريق القبط بنيامين. وعلى ذلك فإنا اذا قرأنا أن المقوقس جاء إلى عمرو في وقت الحصار ووعده أن يساعده على شروط ثلاثة، كان لابدّ لنا أن نعزو تلك القصة الى (بنيامين)، وما كان منه عند ثورة الاسكندرية واستيلاء منويل عليها.

وفي هذا الوقت إذن نرى أن القبط يمالئون العرب راغبين وهم على عهد معهم، وما زالوا على ذلك حتى هزم الروم وتشتت شمل جيشهم، وفتحت الاسكندرية مرة أخرى.

(١) جاء هذا الخبر في كتاب السيوطى ويظهر أنه يذكر ذلك مع الفتح الأوّل ولكنه مخطيء في ذلك على أن القصة قد تكون وقعت في الفتح الثانى وهذا الخلط بين حوادث الفتحين الأول والثانى لا دواء له.

فى تواريخ غزو العرب لمصر

ما أكثر الصعاب التى تعترض الانسان اذا عالج مسألة التواريخ فى ذلك العصر حتى ليخيل الينا أن الوصول إلى الحقيقة فيها يكاد يكون مستحيلا فليس على الكاتب فيها أن يقابل مسألة واحدة بل عليه أن يقابل عدّة مسائل متشابكة متداخلة يلوح للأنسان أنه اذا حل عقدة منها فى ناحية دعا ذلك إلى تعقد جديد فى ناحية أخرى ولكن المستر (E.W.Brooks) قد عمل كثيرا على تسهيل الأمور فان مقاله الغزير العلم فى ذلك الموضوع بمجلة (Byzantinische Leitschrift ١٨٩٥ صفحة ٤٣٦ ـ ٤٥) يمكن أن يقال أنه أخرج تواريخ ذلك العصر من حيز الظن وجعله قائما على أساس علمى فبحثه يجب أن يكون أساس أى دراسة سواء أكانت دراسة للتواريخ أم كانت لترتيب الحوادث فى ذلك العصر .

والمراجع اليونانية لا قيمة لها كما دل على ذلك المستر بروكس فلا يذكر تيوفانز ولا نيقفوروس فتح الاسكندرية ولو أن الأخير يذكر أن هرقلوناس أعاد قيرس إلى بطرقة الأسكندرية بعد موت أخيه من أبيه قسطنطين فى مايو سنة ٦٤١ وهذا يفيد أن المدينة لم تكن عند ذلك قد فتحت ولا قربت من الفتح وتاريخ نيقفوروس ينتهى إلى سنة ٦٤١ ولا يبدأ بعد إلا من سنة ٦٦٨ ولكن نيقفوروس وتيوفانز لا يوثق بهما فيما يتعلق بأوّل جزء من تاريخ الفتح فتاريخهما ملئ بالمتناقضات وكلاهما يخلط فى ترتيب الحوادث خلطا لابد أن يؤدى فعلا إلى تضليل المؤرّخين الذين يعتمدون عليهما تضليلا كبيرا.

وأما مؤرّخو السوريين والأرمن فيلوح أنهما لا يفضلون اليونانيين فمثلا اليشع النصيبى(نسخة المتحف البريطانى الخطية ٧ ـ ١٩٧ صفحة ٢٩، وقد نقل عنها المستر بروكس) يجعل فتح الاسكندرية فى سنة ٢٠ للهجرة(ديسمبر ٦٤٠ ـ ديسمبر ٦٤١). وأما أبو الفرج فانه لا يذكر شيئا إلا ما ذكره عن القصة المعروفة قصة إحراق مكتبة الاسكندرية. وكذلك سبيوس فانه لا يذكر شيئا.

وأما المؤرّخون العرب فانهم مثل اليونانيين فى إغفال ذكر الحوادث والخلط والتناقص، ولكن لا يخلو درس كتبهم من فائدة.

ابن عبد الحكم ــ نقل عنه(Weil) فى كتاب(Geschichte der Chalifeu) وهو يقول إن عمرا كان عند العريش فى يوم الأضحى أى عاشر ذى الحجة سنة ١٨ للهجرة.(١٢ ديسمبر ٦٣٩). ويذكر أن حصار الاسكندرية بقى تسعة أشهر بعد موت هرقل. ونقل السيوطى عن ذلك المؤرّخ أنه قال إنه بعد فتح مصر أرسل عمرو جرائد الخيل إلى القرى والمدائن التى فى جوار مصر وبقيت الفيوم لا يعرف العرب عنها شيئا مدّة سنة.

البلاذرى ــ يذكر أن غزوة مصر كانت فى سنة ١٩ للهجرة(وهى تبدأ فى ٢ يناير سنة ٦٤٠) ويذكر أن وقعة عين شمس وغزوة الفيوم كانتا بعد فتح حصن بابليون. ويقول إن عمرا سار إلى الشمال أى إلى الاسكندرية فى سنة ٢١ للهجرة(١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ ــ ٢٩ نوفمبر سنة ٦٤٢) بعد أن مكث مدّة فى حصن بابليون وإنه فى الساعة عينها عام الرمادة كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو يأمره بارسال الجزية بالبحر، ويذكر كذلك عبارة أن مصر قد فتحت فى سنة ٢٠ للهجرة. وقد جرت العادة أت تفهم معنى«مصر» على أنها القطر المصرى كله فى حين أن المقصود بها هنا بغير شك مدينة مصر(أو منفيس) التى سبقت الفسطاط.

ابن قتيبة ــ يذكر أن وقعة(باب اليون) قد انتصر فيها عمرو فى سنة ٢٠.

الطبرى ــ يذكر أن الأمر بفتح مصر بلغ عمرا فى أوائل سنة ٢٠ للهجرة(أواخر شهر ديسمبر سنة ٦٤٠). ويذكر أن فتح بابليون كان على وجه التعيين فى ربيع الثانى من السنة عينها(من ٢٠ مارس ــ ١٧ أبريل سنة ٦٤١) وإن بين هاتين العبارتين لتناقضا فانه من المحال أن يكون حصن بابليون قد فتح بعد ثلاثة أشهر من ورود الأمر إلى عمرو وهو فى فلسطين بأن يغزو مصر، ولكن لقد عززت المراجع الأخرى صحة التاريخ الثانى، وعلى ذلك فالتاريخ الاوّل لا بد من أوائل سنة ٢٠. وقع الاتفاق تقريبا على تاريخ أوّل الفتح بين ابن عبد الحكم والبلاذرى والطبرى. وفى الحقيقة نرى أنه من المؤكد أن الطبرى لا بد قد كتب سنة ١٩ لأنه عند ما ذكر خبر وفاة عمرو قال إنه قضى أربع سنوات على ولاية مصر فى مدة عمر بن الخطاب. وكانت وفاة عمر فى سنة ١٩ للهجرة وإنه لا يعقل أن يقال إن مدّة ولايته تبدأ قبل ابتداء الغزوة.

وقد ذكر الطبرى أيضا أن الاسكندرية سلمت بعد حصار خمسة أشهر وأن الثورة(التى نسميها ثورة منويل) كانت فى أوائل سنة ٢٥ للهجرة.

أوتيكيوس ـ أوتيخا (وهو ابن بطريق) وأما عبارة أوتيكيوس فهى كما يلى:

فتحت الفرما (وهى بلوز) بعد حصار شهر وفتح حصن بابليون بعد حصار سبعة أشهر وخرج المقوقس من الحصن فى وقت الفيضان وحدثت ثلاث وقعات بين بابليون والاسكندرية وفتحت(المدينة العظمى) فى يوم الجمعة مستهل شهر المحرم من سنة ٢٠ للهجرة وهى السنة العشرون لحكم هرقل والثامنة من خلافة عمر.

ثم تلا ذلك فتح برقة وفتحت طرابلس سنة ٢٢ للهجرة فاذا كان يقصد بيوم الجمعة من محرم أوّل يوم فى ذلك الشهر من سنة ٢٠ وافق ذلك يوم ٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠ ولكن أوّل يوم فى المحرّم من السنة الثامنة لخلافة عمر كان يوافق العاشر من ديسمبر سنة ٦٤١ ولم يقع أى هذين اليومين فى يوم الجمعة والتاريخ الأوّل لا يقع إلا فى السنة الحادية والثلاثين من حكم هرقل وكان هرقل قد توفى قبل ذلك التاريخ. وحسبنا هذا من ابن بطريق.

ساويرس ابن المقفع ـ يذكر أن «أنفذ ملك المسلمين سرية مع امير من اصحابه يسمى عمرو بن العاص فى سنة ٣٥٧ لديقليديانوس قاتل الشهداء فنزل عسكر الاسلام إلى مصر فى قوّة عظيمة فى ١٢ بؤونه يوافق ٦ يونيه. ويذكر المقريزى على وجه التعيين أن القبط يذكرون أن تاريخ فتح (الحصن) هو ١٢ بؤونه. ويذكر ساويرس أيضا أن المسلمين فتحوا الاسكندرية فى سنة ٣٦٠ للشهداء (وهدموا أسوارها) وهذه الاضافة تدل على أنه يقصد الفتح الثانى بعد ثورة منويل أنظر: ص ٥٧٨.

أبو صالح ـ لا يزيد على ما نعرف إلا قليلا فانه يذكر نقلا عن كتاب الجناح أن عمرا فتح مصر فى ١٩ للهجرة(٢ يناير ـ ٢٠ ديسمبر سنة ٦٤٠) وأنه عسكر خارج موضع اسمه «جنان الريحان» (صفحة ٧٣). ويقول أيضا إن عمرا فتح مصر فى غرة المحرّم من عام ٢٠ للهجرة وينقل(أو يسىء نقل) التاريخ الذى ذكره ساويرس.

ياقوت ـ هذا كاتب عظيم الشأن وهو يذكر أن عمرا طلب إلى الخليفة عمر أن يأذن له فى فتح مصر سنة ١٨ للهجرة(من ١٢ يناير سنة ٦٣٩ ـ ٢ يناير سنة ٦٤٠) وأن الروم لقوا عمرا

أوّل مرة في مصر عند الفرما واستمر القتال شهرين وبعد ذلك لم يلق العرب أى مقاومة حتى بلغوا بلبيس ثم قاتلوا الروم هناك مدّة شهر قتالا متصلا. ثم ساروا سيرا سهلا الى أم دنين أو المقس وبقوا هناك يقاتلون نحو شهرين.

ومعنى هذا أن القتال استمر ستة أشهر من أوّل الغزوة مع حساب المدّة اللازمة للسير وهذا يوصلنا بدقة عظيمة من ١٢ ديسمبر الى ٦ يونيه.

وقال ياقوت: إن عمرا عند ذلك أرسل يطلب الامداد وإن فتح الحصن كان مدّة فيضان النيل أى في سبتمبر أو بعد ذلك بقليل على أن ذلك الكاتب يقول بعد صفحة أو قريبا من ذلك إن فتح بابليون كان فى يوم الجمعة أوّل المحرّم من سنة ٢٠ للهجرة(٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠) وهو التاريخ الذى يذكر عادة أن الاسكندرية قد فتحت فيه وفى هذا ما فيه من التضليل. وقد قال ياقوت بعد ذلك إن عمرا سار إلى الاسكندرية فى ربيع الأوّل من سنة ٢٠ للهجرة(٢٠ فبراير ـ ٢٠ مارس سنة ٦٤١) ـ ولعل هذا تحريف وأنه يقصد ربيع الثانى ـ ثم قال إن عمرا لما بلغ الاسكندرية حاصرها مدّة ستة أشهر وقال فى موضع آخر إن فتح الاسكندرية كان فى سنة ٢٠ (وآخرها ٩ ديسمبر سنة ٦٤١) وإن عمرا صالح أهل برقة سنة ٢١ للهجرة(١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ ـ ٢٩ نوفمبر سنة ٦٤٢).

أما(ابن خلدون): فانه ذكر أن عمرا استأذن فى فتح مصر عقب فتح بيت المقدس وأن ذلك كان فى سنة ٢١ للهجرة وأن عمرا سار الى أفريقية(برقة) فى سنة ٢١ نفسها!

وأما (المقريزى): فقد أفاض فى القول فقد كرر أن عمرا كان عند العريش فى يوم الأضحى. وأنه قضى شهرا فى الفرما وأن المقوقس خرج من الحصن فى مدة فيضان النيل وأن مدّة الفيضان كانت لم تنقض عند ما فتح العرب الحصن. ولكنه روى عن الكندى أنه قال إن عمرا سار إلى الاسكندرية بعد فتح حصن بابليون وأن ذلك كان فى ربيع الأول سنة ٢٠ للهجرة. وروى عن آخر أن ذلك كان فى جمادى الثانية(أوّل ربيع الأوّل فى ٢٠ فبراير، أوّل ربيع الثانى فى ٢٠ مارس وأوّل جمادى الأولى فى ١٧ أبريل سنة ٦٤١، وأوّل جمادى الثانية فى ١٨ مايو والتاريخ الصحيح هو جمادى الأولى كما سنرى). وقال إن موت هرقل كان فى سنة ١٩ للهجرة وهو غير صحيح. ويقول المقريزى إن ذلك شجع المسلمين فضيقوا الحصار

على الحصن، ولكنه روى عن الليث تاريخا أخر وهو سنة ٢٠ للهجرة وهو الصحيح وقال إن فتح الاسكندرية كان بعد موت هرقل تسعة أشهر وخمسة أيام وإنه كان فى يوم الجمعة أوّل المحرّم سنة ٢١ للهجرة(١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ ولكن ذلك اليوم كان يوم اثنين) . ويذكر الليث أن الفتح الأوّل كان فى سنة ٢٢ للهجرة (وأوّلها ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢) ويورد المقريزى أسماء جماعة من المؤرخين روى عنهم تواريخ لها علاقة بالفتح وهم يختلفون بين سنة ١٦ وسنة ٢٦ للهجرة. ويقول بعد ذلك إن الأرجح أن سنة ٢٠ هى الصحيحة وهى التى يقبلها أكثر المؤرخين.

أبو المحاسن ـ ينقل عن الذهبى أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو يأمره بغزو مصر فى سنة ٢٠ للهجرة(أوّلها ٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠) . وينقل عن ابن الحكم أن حصار بابليون بقى سبعة أشهر. أما هو فيذكر أن فتح مصر(ولعله يقصد بها مدينة مصر) كان فى أوّل المحرم سنة ٢٠ للهجرة. وينقل عن ابن كثير والواقدى وأبى معشر أن فتح مصر كان فى ذلك العام نفسه ويذكر الواقدى أن فتح الاسكندرية كان فى السنة نفسها. أما أبو معشر فيذكر أنه كان فى سنة ٢٥ للهجرة. وأما سيف فانه يذكر أن مصر والاسكندرية فتحتا فى سنة ١٦ للهجرة وأن ولاية عمرو على مصر تبدأ فى سنة ٢٠ للهجرة.

السيوطى ـ بعد أن ذكر نقلا عن الليث أن موت هرقل كان فى سنة ٢٠ للهجرة قال إن حصار الاسكندرية استمر تسعة أشهر بعد ذلك إلا أنه ابتدأ قبل وفاة هرقل بخمسة أشهر ولكنه قال مع ذلك إن فتح الاسكندرية كان فى أوّل المحرّم سنة ٢٠ للهجرة وهذا سهو لأن السيوطى يذكر بعد صفحات من هذا أن فتح الاسكندرية الأوّل كان فى سنة ٢١ للهجرة وأن الفتح الثانى كان فى سنة ٢٥ للهجرة وينقل عن القضاعى نقلا عن ابن قتيبة أن عمرا عاد من الاسكندرية(إلى بابليون) فى ذى القعدة سنة ٢٠ للهجرة(أكتوبر ـ نوفمبر سنة ٦٤١) .

وحسبنا هذا من المراجع العربية الكبرى. وإن ما بينهم من الخلاف عظيم ومن الواضح أنه لايمكن التوفيق بينهم فيه ولكن من السهل أن نعين بعض أسباب هذا الخلط الذى يقع فيه هؤلاء الكتاب جميعا وهو الذى ضلل المؤرّخين المحدّثين وحيرهم، فلعله ليس فى التاريخ عصر فى مثل قصر تلك المدّة وفيه مثل هذا العدد الكبير من المساقط التى يقع فيها من أراد البحث

فى ترتيب التواريخ، فان دوننا هنا عصرا مدّته ثلاث سنوات وهى مثل مدّة الفتح الفارسى. ويذكر لنا من غير تدقيق تاريخ واحد على أنه تاريخ الفتح، ولكن يقصد به أحيانا مدينة مصر(وهى منفيس بقرب بابليون من الجنوب) وأحيانا يقصد به القطر المصرى وهذا مما يؤسف له.

وعلى ذلك فذكر«فتح منفيس» فى كثير من الأحيان لا يمكن التفريق بينه وبين«فتح بلاد مصر» ثم إن فتح حصن بابليون كان حادثا مخالفا لفتح مدينة مصر فى حين أن هذين الموضعين قريبان كل القرب وكان لا مناص من الخلط بين حوادثهما ثم إن الاسكندرية لم تفتح مرة واحدة بل مرتين. وقد وجد المؤرّخون حتى أقدمهم من الذين كتبوا بعد الفتح بمائتى عام أن أخبار الفتح غير جلية وقد نسى ترتيب الحوا دث فيها، وعلى ذلك فنحن أميل إلى أن نعدّ أخطاءهم وتناقضهم أمرا يؤسف له وأنه ليس عجيبا ولا غير متوقع.

ولكن قد أشرق على تاريخ فتح العرب وترتيب حوادثه نور جديد لم يسبق للناس عهد به وذلك من كتاب حنا الأسقف القبطى لمدينة نقيوس وقد كان حاضرا تولية البطريق اسحق فى سنة ٦٩٠ للميلاد ولعله قد ولد قريبا من وقت الفتح، ولكن لا بد له أن يكون قد سمع أخبار ذلك الفتح ممن شهده فشهادته على ذلك ذات قيمة كبرى فيما يشهد فيه. حقا إن بعض أجزاء ذلك التاريخ ناقصة لا ذكر لها فى ذلك الكتاب وهو أمر يؤسف له، كما أن أجزاء أخرى منه قد دخلها كثير من المسخ وتغيير الترتيب فلا نكاد نستبين لها معنى، ولكن مع كل ما فى النسخة الخطية الأثيوبية قد جاء فيها بعض تواريخ جديدة تسترعى النظر بدقتها العظيمة وهذه التواريخ بمثابة معالم ثابتة نستطيع أن نستدل بها على نظام علمى فى ترتيب التواريخ.

لقد رأينا فيما سلف أن كتاب حنا قد أغفل فيه ذكر كل ما يتعلق بمدّة الفتح الفارسى وهذا النقص يبدأ من استيلاء هرقل إلى ما بعد ذلك بثلاثين عاما أى من حوالى سنة ٦١٠ إلى حوالى سنة ٦٤٠، ولا يرد فيه ذكر لدخول العرب إلى مصر وأوّل استئناف لذلك التاريخ بعد ذلك هو عند ما علم(تيودور) قائد جيوش الروم فى مصر بهزيمة(حنا) قائد فرقة الخفر فى الفيوم وموته. وذكر بعد ذلك أن جيوش الروم اجتمعت عند حصن بابليون وقد عوّلت على أن تلقى العرب قبل أوان فيضان النيل والنيل يبدأ مدّه فى أواسط الصيف ويبلغ ذروته فى

الاعتدال الخريفى، وعلى ذلك يمكن أن نقول إن وقعة هليوبولس كانت فى (يوليه) أو فى (أغسطس) فإذا نحن اتبعنا قول ابن عبد الحكم أو البلاذرى أو الطبرى فى أن دخول العرب كان فى سنة ٦٤٠، وكان أوّل إمداد جيش العرب أبصرها الروم من بروج حصن بابليون فى ٦ يونيه وهو اليوم الذى قام الدليل من قول ساويرس وغيره على أنه كان من أثبت الأيام ذكرا عند القبط، على أنه لم يكن يوم حادث خطير من حوادث الفتح. والمستر بروكس محق بغير شك فى أنه اعتبر البابين الرابع عشر بعد المائة والخامس عشر بعد المائة من تاريخ حنا فى غير موضعهما فعنوان الباب الخامس عشر بعد المائة هكذا«كيف استولى المسلمون على مصر فى السنة الرابعة عشرة من الدورة القمرية واستولوا على حصن بابليون فى السنة الخامسة عشرة» فى حين أنه مما يؤسف له أن الوصف الذى يصدق عليه هذا العنوان ساقط من الكتاب. وقد ورد فى الفصل السادس عشر بعد المائة أن موت هرقل كان فى«السنة الحادية والثلاثين من حكمه فى الشهر المصرى(يكاتيت) وهو يوافق الشهر الرومانى(فبراير) فى السنة الرابعة عشرة من الدورة وهى سنة ٣٥٧ للشهداء». وقد جاء فى الباب السابع عشر بعد المائة«أن فتح(نقيوس) كان فى يوم الأحد الذى بعده (١٨ جنبوت) فى السنة الخامسة عشرة من الدورة». وقد قال المستر(بروكس) متبعا فى ذلك رأى(زوتنبرج) إن تاريخ هرقل هو التاريخ الوحيد بين هذه التواريخ الذى يمكن أن نفحصه وهو مذكور فى ذلك الكتاب فى منتهى الدقة فانا نعلم أن هرقل قد مات فى ١١ فبراير سنة ٦٤١ وقال إن هذه الحقيقة دليل قوى على أننا يمكن أن نعتبر التواريخ الأخرى صحيحة دقيقة. ولكن كلا هذين المؤرخين وجد نفسه مضطرا بعد هذا القول إلى أن يظهر أن التواريخ الأخرى صحيحة بعض الصحة لا كل الصحة، فقال المستر بروكس فى عرض ذكره سنى الدورة التى ورد ذكرها فى عنوان الباب الخامس عشر بعد المائة«ولا تظن أننا نستطيع أن نثق ثقة كبرى بهذه التواريخ»(صفحة ٤٣٩) ثم أظهر بعد ذلك أن يوم(١٨جنبوت) الواقع فى يوم الأحد لم يكن فى السنة الخامسة عشرة من سنى الدورة كما قال حنا. وقصارى قوله هو أن الواجب أن نغير التاريخ الذى ذكره حنا وهو (١٣ مايو سنة ٦٤٢) فنجعله(١٣ مايو سنة ٦٤١). ومعنى هذا أن نبرهن على خطأ جزء من قول(حنا النقيوسى).

وبعد فإنا نجرأ أن نقول إن هذا الرأى لا حاجة بنا اليه ولا ضرورة تدعو اليه. فإن الخطأ إنما نشأ من خطأ فى فهم ما قصده حنا بقوله«سنى الدورة» فان ناقديه أخذوا ذلك على أن المقصود منه سنى الدورة التى ابتدعها قسطنطين(وكل منها خمسة عشر عام)، ولكن حنا نفسه يسميها بوضوح (الدورة القمرية) وليس يقصد دورة قسطنطين. حقا إن التأريخ بتلك الدورة القسطنطينية كان فى عصر حنا غير مهمل بل كان لا يزال مستعملا فى مصر ولكن المقصود هو أن الدورة لم تكن مستعملة فى التاريخ المدنى ولكن ما دام التاريخ بدورة قسطنطين كان غير شائع فى مصر فقد كان حنا معذورا كل العذر فى أنه يعمد إلى التاريخ بالتقويم الدينى الخاص بالكنيسة وقد كان على تمام الإلمام به إذ كان رجلا من علماء الأساقفة، وعلى ذلك فانا موردون ما جاء فى كتابه فيما يلى:

(١) فتح مدينة مصر فى السنة الرابعة عشرة من سنى الدورة.

(٢) موت هرقل فى السنة الرابعة عشرة من الدورة فى ١١ فبراير سنة ٦٤١.

(٣) فتح حصن بابليون فى السنة الخامسة عشرة من الدورة فى الاثنين(الفصح) أى فى ٩ أبريل سنة ٦٤١.

(٤) فتح نقيوس فى السنة الخامسة عشرة من الدورة فى ١٣ مايو سنة ٦٤١ ويظهر من هذا البيان أنه إذا كان قد نقل ما كتبه حنا على حقيقته كانت سنة الدورة التى يؤرّخ بها تتغير فيما بين ١١ فبراير ٩ أبريل، وهذا هو الأمر الواقع بالدقة فان الدورة القمرية الديونيسية كان أوّلها ٢٣ مارس(راجع كتاب(S.Butcher) فى(Ecclesiastical Calendar) صفحة ٧٣وكتاب(Handy - book of Dates)تأليف Bond صفحة ٢١٨) والسنة الرابعة عشر من الدورة تقع ما بين ٢٣ مارس سنة ٦٤٠، و٢٢ مارس سنة ٦٤١ وكذلك السنة الخامسة عشرة فانها تبدأ من ٢٣ مارس سنة ٦٤١ وتنتهى فى ٢٢ مارس ٦٤٢، فاذا صح رأينا هذا ثبت أن تواريخ هذا المؤرّخ تزداد زيادة عظمى.

ويجدر بنا أن نزيد على هذا أن الدورة القسطنطينية التى كانت تستعمل فى مصر قبل الفتح كانت قد صارت لا قيمة لها فى التاريخ إذ أنها كما دل عليه «Wilcken» فى كتابه(Hermes) ١٩ صفحة ٢٩٣ وما بعدها) بدل أن تبدأ من شهر توت وهو أوّل السنة

المصرية فتكون بذلك متفقة مع أوّل سنة من سنى التقويم كانت تبدأ أحيانا من أوّل حكم الامبراطور الحاكم وأحيانا أخرى من أيام أخرى مختلفة من أيام الصيف متبعة فى ذلك نظاما لا يستطيع أحد أن يفهمه وهو نظام أشبه شئ بالفوضى المطلقة ولهذا كان الأجدر بنا أن نحمد كاتبا قديرا مثل حنا على أنه استعمل تاريخا ثابتا لا يطعن أحد قيمته.

على أنه قد وردت عبارة أخرى فى تاريخ حنا وذكر فيها تاريخ سنة من سنى الدورة يخيل إلى من يراها أن رأينا الذى ذكرناه غير صحيح فقد جاء فى الباب الحادى والعشرين بعد المائة قوله«وفي السنة الثانية من الدورة القمرية جاء حنا من دمياط. وساعد المسلمين كيما يمنعهم من تخريب المدينة» وهذه السنة يكون أوّلها **٢٣** مارس سنة ٦٤٦، وآخرها **٢٢** مارس سنة ٦٤٧، وعلى هذا فلا بد أن يكون هذا الحادث قد وقع بعد ثورة منويل ولم يذكر عن تلك الثورة لفظ واحد فى كل تاريخ حنا ومع ذلك فانا نرى أن ذلك التاريخ صحيح لأن وجود فجوة أخرى فى آخر ذلك الكتاب أمر غير مستغرب فاذا نحن لم نذهب إلى هذا الرأى واعتبرنا أن المقصود هو السنة الثانية من الدورة القسطنطينية كان التاريخ المقصود هو عام(٦٤٣ ـ ٤) ولكن هذا فى حكم المستحيل إذ لم يرد أى خبر عن حادث وقع فى ذلك العام يمكن أن يحدو بالعرب إلى تخريب الاسكندرية فى حين أنه قد جاء فى كل الأخبار أن ثورة منويل وعودة الروم الى الاسكندرية كانتا حوالى نوفمبر سنة **٦٤٥** ولم تهزم جيوشه إلا بعد عدّة أشهر ولا يكاد يشك فى أن فتح العرب للاسكندرية ثانية وقع بعد **٢٣** مارس سنة ٦٤٦، ونعلم كذلك أنه عند الفتح الثانى للمدينة أحرق جانب كبير فيها وهدم عمرو جانبا من الأسوار فلا يبعد أن يكون قد فكر فى تخريب المدينة كلها. وفوق ذلك يظهر أن(زوتنبرج) أغفل فى ترجمته كلمة ذات شأن فانه قال فى ترجمته «وبعد أن استولى(عمرو) على الاسكندرية جفف الترعة التى توصل الماء الى المدينة» فى حين أن الدكتور شارل يقول فى ترجمة هذه العبارة عينها «ولما استولى عمرو على مدينة الاسكندرية كان كثيرا ما يجفف الترعة» وهذه الكلمات تدل على أن الكاتب كان وهو يكتب هذه العبارة التى ورد فيها ذلك التاريخ يسبح بفكره فيما بعد الفتح الأوّل للمدينة بمدّة طويلة وسنرى أن ذلك الفتح الأوّل كان فى سنة **٦٤٢**، وعلى ذلك يكون التاريخ الذى نحن بصدده يوافق رأينا فى أن المقصود

هو التاريخ بالدورة الديونيسية القمرية، ولهذا نجرأ على أن نعدّ هذا الرأى لا وهن فيه ولا وجه للطعن.

نقبل الآن على ذكر تاريخ من أهم التواريخ على أنه تحيط به عقد يحار المرء فيها وذلك هو تاريخ عودة البطريق قيرس الى الاسكندرية من قسطنطينية فقد دعاه هرقل حوالى نصف نوفمبر سنة ٦٤٠ بعد أن صالح العرب على تسليم بابليون ذلك الصلح الذى لم يتم ويلوح أنه نفى عند ذلك ثم أعاده قسطنطين الثالث خلف هرقل الى الحظوة وكان عازما على أن يعيده الى مصر فعاجلته المنية بعد أن حكم مائة يوم فمات ذلك الامبراطور فى مايو سنة ٦٤١، وخلفه على الملك هرقلوناس ولكن ثورة فلتين فى ذلك الصيف نفسه عملت على أن يشرك أخوه من أبيه معه فى الحكم وهو قنسطانز. وقريبا من ذلك الوقت أرسل قيرس الى مصر ومعه الامداد وقد كان فى (رودس) فى أوائل سبتمبر ـ ولعله كان يأخذ ما كان فى دار الصناعة البحرية(الترسانة) من الذخائر وكان(تيودور) قائد جيوش مصر فى رودس كذلك وخلع بيعة الامبراطورة(مرتينة) إذ حرضه على ذلك فلنتين وأراد أن يسافر الى بنطابولس ولكنه نزل الى الاسكندرية مع قيرس فى فجر يوم ١٧ (مسكرم) أو(توت) وهو عيد الصليب أى فى ١٤ سبتمبر.

هذا ما يمكن أن نستخلصه من تاريخ حنا الذى تغيرت معالمه تغيرا يؤسف له وهذه الأخبار يعززها ما جاء فى تاريخ نيقفوروس إذ يقول إن(قيرس) أعاده هرقلوناس الى مصر، ولكنا الآن آتون الى خبر من تلك الأخبار التى كتبت بعد حدوث حوادثها على صورة النبوءة وهى كثيرة فى تواريخ القبط وهى تستلزم أن تكون عودة قيرس فى عيد الفصح فقد روى حنا أنه بعيد عودته أقيم احتفال فى الكنيسة العظمى كنيسة القيصرون فى عيد الفصح واختار القمص للصلاة ترتيلا غير ما كان يجب أن يختاره لذلك اليوم أى المزمورة التى مطلعها «وهذا هو اليوم الذى جعله الله» الخ(راجع المزمورة الثامنة عشرة بعد المائة ٢٤ـ ٢٦) وقد عدّ هذا التغيير فألا سيئا وذاعت كلمة قالها القسوس وهى أن قيرس لن يشهد بعد ذلك اليوم عيدا آخر للفصح. فلما مات قيرس بعد ذلك فى يوم الخميس المقدس(٢٥ مجابت) أى قبل عيد الفصح التالى بثلاثة أيام تذكر الناس النبوءة وقالوا إنها قد تحققت. وقد قال المستر بروكس

بوضوح مقنع إن يوم (٢٥ مجابت) أو (فامنوت) يوافق ٢١مارس، وليس ٢ أبريل، كما زعم زوتنبرج فى حسابه، ثم قال إن عيد الفصح فى سنة ٦٤٢ كان فى يوم ٢٤ مارس من ذلك العام وإنه فى ذلك العام وحده قد وقع يوم الخميس المقدّس فى (٢٥ مجابت) وعلى ذلك «فقد ثبت تاريخ وفاة قيرس ثبوتا لا شك فيه وأنه كان يوم الخميس ٢١ مارس من سنة ٦٤٢» وينتج من ذلك أن يوم الفصح الذى ذكر فى ذلك الخبر أن قيرس قد عاد فيه كان يوم الفصح من عام ٦٤١ وهو يوم ٨ أبريل.

فاذا أجملنا ما قاله حنا كان كما يلى:

(١) نزل قيرس فى مصر فى ١٤ سبتمبر بعد موت هرقل أى سنة ٦٤١.

(٢) أنه أقام عيد الفصح سنة ٦٤١ وهو يوم عودته.

(٣) أنه مات فى ٢١ مارس سنة ٦٤٢.

وهذه الأخبار ظاهرة التناقض ولا يشك زوتنبرج فى أن قيرس نزل فى أرض مصر فى يوم ١٤ سبتمبر. ويرى أنه من الغريب أن تقام صلاة بمناسبة عودته بعد سبعة أشهر منها ولكنه مع ذلك قبل هذا الأمر الغريب هذه الغرابة وجعل موت قيرس فى سنة ٦٤٣، وأما المستر بروكس فانه يرى رأيا آخر فانه برهن برهانا قاطعا على أن قيرس مات فى يوم الخميس الذى قبل عيد الفصح من سنة ٦٤٢ ثم برهن على أن زوتنبرج مخطئ فيما ذهب اليه من أن عوده(تيودور) وعودة(قيرس) كانتا فى وقت واحد وجعل عودة قيرس كانت بعد وفاة قسطنطين الثالث وما يعززها من قول نيقفوروس، ولكنه يميل إلى أن يقول إن كتاب حنا قد داخله شى من الخطأ فى ذلك الموضع ثم يقول فى ختام حجته«وأما البت فى مسألة عودة قيرس وأنها كانت قبل عيد الفصح من عام ٦٤١ فأمر يجب أن يبقى موضعا للنظر والبحث، وأما ما قصده حنا فلا شك عندنا فى أنه كان يقصد أن يقول إن قيرس قد عاد فى ذلك الوقت المذكور وإنه لمن المحتمل أن التاريخ قد غير قصدا لادخال ذكر النبوءة».

ولسنا نوافق على هذه الآراء كل الموافقة فان التاريخ الذى ذكر زوتنبرج أن قيرس قد مات فيه لا يؤيده شئ. هذا من جهة أخرى فانا نرى أن المستر بروكس مخطئ فى قوله إن عودة

قيرس لم تقع مع عودة تيودور فى وقت واحد وإن عودة تيودور كانت وحدها فى ١٤ سبتمبر من سنة ٦٤١، ويقول المستر بروكس إن هذين الحادثين «منفصلان كل الانفصال» ولكن نص الكتاب فيه ما يلى:

«فدخل الاسكندرية (تيودور) فى ليلة السابع عشر من شهر(مسكرم) فى عيد الصليب وخرج أهل الاسكندرية أجمعين من نساء ورجال وهم بين شبان وشيب ليلقوا البطريق قيرس وهم فرحون يشكرون الله على عودة بطريق الاسكندرية، وصحب تيودور البطريق خفية إلى كنيسة (التبيونيسيين) وأقفلا الباب وراءهما» وإنا إزاء هذا القول لا يسعنا إلا أن نرى أنه من المحال أن يكون هذان الرجلان قد أتيا فى وقتين متفرقين أو أنه عندما أتى (تيودور) كان قيرس قد مضى عليه فى الاسكندرية خمسة أشهر أو يزيد وفوق كل ذلك فانا لو قلنا إن قيرس قد عاد فى يوم الفصح من سنة ٦٤١ لنشأت من ذلك صعاب أخرى، فأوّل شئ يجب علينا أن نكذب كل ما ذكره حنا عن حوادث القسطنطينية بعد موت هرقل أو على الأقل أن نكذب كل نصيب قيرس من تلك الحوادث، كما أنه يجب أن نكذب ما جاء فى كتاب(نيقفوروس) وفوق كل ذلك يجب علينا أن نكذب عبارة أخرى فى كتاب حنا وهى فى منتهى الوضوح فانه ذكر بعد وصفه للصلاة فى القيصريون أن قيرس عاد (حينذاك) إلى بابليون والمستر بروكس يقبل هذا القول ويضيف إليه أن حصن بابليون. «كان قد صار قبل ذلك بقليل الى يد العرب» إذ أنه قد فتح كما برهن هو على ذلك. فى ٩ أبريل سنة ٦٤١ غير أنه عاد فى الصفحة التالية لذلك فقال إن تسليم الاسكندرية.الذى اتفق قيرس عليه مع عمرو فى بابليون وهو بغير جدال القصد الذى قصد اليه من زيارته لحصن بابليون قد حدث فى الشهر الذى بين ١٢ أكتوبر و١٠ نوفمبر من سنة ٦٤١، فكيف لنا أن نوفق بين هاتين العبارتين وفوق ذلك فانا نعرف من كتاب حنا ومن سواه من المراجع أن عمرا غادر حصن بابليون عقب فتحه فكان فى مدينة نقيوس فى ١٣ مايو فلم يكن فى فترة مقامه بالحصن متسع لزيارة قيرس ومفاوضته ثم أننا اذا قلنا إن تاريخ تسليم الاسكندرية كان فى تلك الفترة كنا بذلك عاملين ـ كما لا بد أن يقرّ المستر بروكس ـ على نقل التواريخ من مواضعها واضطرابها.

وعلى ذلك فانا إذا واقفنا زوتنبرج على أن قيرس نزل بأرض مصر مع تيودور فى يوم الصليب أى فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١ وأذا واقفنا المستر بروكس على أن قيرس مات فى

يوم خميس العهد التالى أى فى يوم ٢١ مارس سنة ٦٤٢ كان لا بد لنا من التوفيق بين قولنا هذا وبين ما جاء فى كتاب حنا وإنا نستطيع أن نجد المفتاح الذى يفتح لنا ما استغلق من هذا الأمر بدرس ما جاء بذلك الكتاب فإنا إذا فحصنا ما جاء به اتضح لنا من خلاله أن العيد الذى أقيمت فيه الصلاة بمناسبة عودة قيرس ورتلت فيه المزمورة التى فى غير موضعها لم يكن عيد الفصح بل كان عيد إعلاء الصليب أى العيد الذى نرى أن قيرس نزل الى أرض مصر فى يومه وذلك لأسباب أوّلها أن الخبر يذكر لنا صراحة أن الخطبة التى خطبها قيرس كانت كلها عن الصليب الذى أحضره اليه القائد حنا قبل منفاه وسار بذلك الموكب من دير التبيونيسيين وكل هذه التفاصيل تكون لا موضع لها اذا كان المقصود هو عيد الفصح وهى كلها فى موضعها الصحيح إذا كان المقصود هو يوم الصليب المقدّس وفوق ذلك فقد ذكر أن قيرس جاء من دير التبيونيسيين الى كنيسة القيصرون لحضور الاحتفال بعيد الفصح المزعوم، كما قد ذكر قبل ذلك بأسطر أن تيودور قد عاد عقب نزوله الى البر الى دير التبيونبسيين فى صحبة قيرس وإذا كان ذلك الحادث قد وقع فى يوم عيد الفصح حقيقة لما كان لوجوده فى دير التبيونيسيين فى ذلك الوقت معنى فى حين أنه اذا كان المقصود هو عيد الصليب كما نرى نحن كان الوجود بالدير حينئذ ضرورة من ألزم الضرورات إذ يكون قيرس عندما نزل الى البر ذهب الى الدير ثم ذهب من هناك فى موكب الى كنيسة القيصرون. ثم إن المزمورة «هذا هو اليوم الخ» هى التى كانت تستعمل«فى الأعياد السيدية وكامل أيام الفطر» ولسنا نستطيع أن نعرف اذا كان استعماله فى الترتيل فى الصلاة يدل دلالة واضحة على أن اليوم المقصود هو يوم الفصح أو هو يوم آخر. وإنا نرى على وجه الاجمال أنه لا شك فى أن تلك الصلاة التى حضرها قيرس عند عودته كانت صلاة عيد الصليب أى أن عودته كانت فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١.

ولكن اذا كان الأمر كذلك فما القول فى النبوءة؟ وجوابنا على ذلك يتناول أمرين:(١) أن تلك النبوءة تبقى على مالها من القيمة فاذا كانت قد قيلت فى وقت صلاة عيد الصليب كان المقصود منها عيد الصليب الذى بعده أو كان المقصود منها يوم الفصح المقبل وقد صحت على كلا الحالين.(٢) أن التفسير المقبول عقلا هو أن قيرس عندما عاد رأى الناس عليه أمارات المرض أو التغير وأولوا حادث الترتيل بما أحسوه من التطير فى نفوسهم فقد كانت عبارة

النبوءة كما يلى«إنه لن يشهد عيدا آخر للفصح» فلما مضت بضع سنين على ذلك أصبحت وفاته قبيل عيد الفصح قطب تلك القصة فحوّرت عبارتها بعد أن نسيت تفاصيل الحادث الذى حدث وعزى أصل النبوءة الى يوم عيد الفصح ما دامت وفاة قيرس قد وقعت قبل يوم عيد الفصح الذى بعده. وذلك تجوز لم يراع معه ترتيب التواريخ والحوادث وعلى ذلك قد كان من الطبيعى أن تزاد على عبارة حنا العبارة الآتية«فى يوم عيد القيامة» وذلك فى موضع يظهر فيه هذا القول غريبا فى غير موضعه. وهذه العبارة بغير شك زيادة من بعض النساخ أدخلها على النص الأصلى واذا نحن حذفناها زالت كل أسباب الحيرة واتضح سياق الحوادث واستبان بعد أن كان مختلطا خفيا.

وتسير عبارة حنا بعد ذلك سيرا طبيعيا فانه بعد يوم الصليب بقليل ذهب قيرس الى بابليون يطلب لقاء عمرو وقد أثبت ابن قتيبة أن عودته من غزوته فى الدلتا كانت فى ذى القعدة من سنة (١٢ أكتوبر ـ ١٠ نوفمبر سنة ٦٤١) وهى الغزوة التى لم يتم فيها شيئا من الفتح. وهذا معناه أن ذهاب قيرس الى بابليون كان نحو آخر أكتوبر وعلى ذلك لا يمكن أن نجعل تاريخ الصلح فى ١٧ أكتوبر كما يزعم المستر بروكس فان عمرا اذا كان قد عاد الى بابليون فى أوائل ذى القعدة (وهو أمر لم يذكر) كان لابد من مضى أيام عدّة قبل أن يستقر الأمر على شروط الصلح ولهذا لا نرى أن الصلح قد تم قبل آخر ذى القعدة. ونرى فى الحقيقة أن الصلح الذى اتفق قيرس مع عمرو عليه قد وقع فى ٨ نوفمبر على وجه التعيين وقد كان من شرط هذا الصلح أن تباح مدّة هدنة قدرها أحد عشر شهرا وكان على جنود الروم أن تجلو عن الاسكندرية فى أثنائها. وقد اختار المستر بروكس لذلك تاريخ ١٧ أكتوبر لأن هذا التاريخ يقع قبل يوم ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ بأحد عشر شهرا إذ أنه يزعم أن ذلك التاريخ الأخير هو يوم إخلاء الاسكندرية للعرب. ولكن ليس ثمت من سبب يحدو بنا الى أن نقول إن جيش الروم قد بقى فى الاسكندرية الى آخر يوم من أيام الهدنة، إذ كانوا قد تجهزوا قبل ذلك للسفر. وإنا اذا حسبنا مدّة الهدنة بالشهور العربية من يوم ٨ نوفمبر كانت نهايتها يوم ٢٩ سبتمبر. وأما المستر بروكس فانه يؤكد أن تاريخه (أى ١٧ أكتوبر) «يتفق كل الاتفاق مع ما ذكره ابن عبد الحكم من أن الحصار استمر تسعة أشهر بعد موت هرقل» وكانت وفاة هرقل فى يوم الأحد ١١ فبراير سنة ٦٤١ فاذا نحن عددنا المدّة بالحساب العربى وقع آخر أجل الهدنة فى شهر

نوفمبر ـ ولكن المقريزى قد ذكر أن فتح الاسكندرية كان بعد موت هرقل بتسعة أشهر وخمسة أيام، واليوم الحادى عشر من شهر فبراير سنة ٦٤١ يوافق يوم ٢٣ صفر فاذا حسبنا تسعة أشهر وخمسة أيام من هذا التاريخ بلغ بنا الحساب يوم ٢٨ ذى القعدة وهو يوم الخميس ٨ نوفمبر.

هذا ما نراه التاريخ الصحيح. وقد لاحظ المستر بروكس أن الصلح لا يمكن أن يكون قد وقع بعد نوفمبر لأن قيرس عند عودته من بابليون الى الاسكندرية طلب من تيودور أن يحمل ذلك الصلح الى الامبراطور هرقل (أى هرقلوناس) وقد كانت وفاته فى انتهاء هذا الشهر (نوفمبر) ولكن من الأمور التى تستحق البحث أن نرى هل مؤرّخو العرب إذ يوردون المدة الصحيحة بين وفاة هرقل الأوّل وتسليم الاسكندرية يجعلون وفاته فى يوم ١١ فبراير أو فى ١١ مارس، فقد ذكر تيوفانز وقيدرينوس خطأ أن وفاته كانت فى ١١ مارس ولعل هذا قد ضلل مؤرخى العرب فانه من العجيب أننا إذا حسبنا مدّة الأشهر التسعة والأيام الخمسة بادئين من ١١ مارس (أو ٢٢ ربيع الثانى) بلغ الحساب بنا يوم ٢٧ من ذى الحجة (أى ٧ ديسمبر) وهذا اليوم السابع من ديسمبر كان يوم جمعة وهو قريب من أوّل المحرم (١٠ ديسمبر) الذى ثبت فى أخبار العرب أنه كان يوم فتح الاسكندرية.

وبعد فقد برهن المستر بروكس برهانا قويا على أن التواريخ الباقية الى الآن من التواريخ التى ذكرها حنا إذا فسرت على حقيقتها تنص على أن ولاية البطريق بطرس خلف قيرس على بطرقة الملكانيين كانت فى ١٤ يوليه سنة ٦٤٢ وعلى أن الروم أخلوا الاسكندرية فى السابع عشر من سبتمبر من ذلك العام نفسه (صفحة ٤٤٣) ويجدر بنا أن نزيد على هذا أن عودة بنيامين من منفاه فى الصعيد كانت فى سنة ٦٤٤ ولعلها كانت أقرب الى نهاية العام منها الى أوّله.

ولكنا مضطرون إلى أن نخالف المستر بروكس فى أمر أو أمرين فى رأيه ذاك فانه ينقل عن (ابن بطريق) وابن عبد الحكم ومكين أنهم اتفقوا على أن مدة حصار الاسكندرية كانت أربعة عشر شهرا وعلى ذلك جعل بدأ ذلك الحصار فى أواخر أغسطس من سنة ٦٤٠، وكذلك ينقل عن (ابن بطريق) أن حصار بابليون بقى سبعة أشهر، ولما كان فتح بابليون قد وقع فى ٩

أبريل سنة ٦٤١ كان أوّل الحصار فى أوائل شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ وعلى ذلك يكون العرب قد حاصروا المعقلين فى وقت واحد تقريبا وذلك أمر غير ممكن من الوجهة الحربية المحضة فان عمرا لم يكن معه فى وقت من الأوقات جند كاف لحصار الحصنين معا وفوق ذلك ليس ثمت مؤرخ يدعم حجة المستر بروكس فيما ذهب اليه بل إن المراجع كلها تنقض رأية فان حنا نفسه يقول إن عمرا غادر حصن بابليون بعد فتحه فى ٩ أبريل سنة ٦٤١ وإنه فتح نقيوس بعد ذلك بشهر وأذا نحن أرخنا سقوطها بشهر جمادى الأولى وهو وسط بين ربيع الأوّل الذى ذكره الكندى وياقوت وبين جمادى الثانية وهو الذى ذكره المؤرخ الذى نقل عنه المقريزى كان ذلك موافقا كل الموافقة لما جاء فى كتاب حنا. وسار جيش عمرو بعد فتح نقيوس إلى الشمال وإنه لمن الغريب أن يكون قد حاصر الاسكندرية فى آخر شهر يونيه أو فى أوائل شهر يوليه من عام ٦٤١ ومن هذا الوقت تبدأ مدّة الحصار الأربعة عشر شهرا وليس من شهر أغسطس ولا من شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ ذلك إذا أردنا الأخذ بما جاء فى تواريخ ابن بطريق (اوتيكيوس) وابن عبد الحكم ومكين. أى أن مدة الأربعة عشر شهرا يجب أن تحسب من تاريخ الصلح الذى كان فى سنة ٦٤١.

هذه النتيجة تفضى بنا إلى اتفاق يكاد يكون تاما مع ما جاء فى الطبرى إذ يقول إن مدّة الحصار كانت خمسة أشهر (قبل التسليم): وإذا حسبنا ما بين أوّل يولية و٨ نوفمبر كان ذلك تمام أربعة أشهر ونصف من الشهور العربية ويلوح أن هذا الاتفاق يعزز التاريخين اللذين أخذناهما وهو فى نفس الوقت يبين لنا سبب ذلك الاختلاف الكبير بين المؤرخين فى تقدير مدة الحصار. فمن الواضح أن بعضهم بدا حسابه من أوّل وقوف العرب دون الاسكندرية إلى معاهدة التسليم وبعضهم حسب المدّة إلى وقت إخلاء الروم للمدينة فعلا، والظاهر أن عبارة السيوطى التى نقلناها آنفا فيها خلط بين ما جاء فى الطبرى وما جاء فى أوتيكيوس وهى خطأ واضح وأما اليعقوبى والبلاذرى وابن خلدون وسواهم من المؤرخين فانهم يذكرون أن مدة الحصار كانت ثلاثة أشهر وظاهر أنهم يقصدون أنه قد مضت ثلاثة أشهر من الحصار قبل معاهدة الصلح فاذا أضفنا إلى تلك المدة مدة الهدنة وهى أحد عشر شهرا رجعنا إلى أن المدة بين أول مجىء العرب أمام المدينة ودخولهم فيها كانت أربعة عشر شهرا. ومن ذلك يتضح أن

هذه الأخبار وإن ظهر عليها شيء من الاختلاف يمكن التوفيق بين مواضع الخلاف فيها أو التقريب بينها تقريبا يسترعى الأنظار.

وكذلك نخالف ما ذهب إليه المستر بروكس من أن «فترة الأشهر الأحد عشر قضاها عمرو في غزو بنطابولس» (يقصد مدة الهدنة) فانا نسلم بأن نص عبارة كتاب حنا كما هى تساعد على الأخذ بهذا الرأى وذلك لأن الفقرة القصيرة التى ذكرت فيها هذه الغزوة جاءت قبل ذكر موت قيرس مباشرة، ولكن قد جاء ذكر موت قيرس فى موضع آخر بعد ذلك وظاهر أن ذلك الباب ممسوخ الترتيب فلا يمكن أن تقوم حجة على ترتيب أخباره. وإن الأسباب الحربية بغير شك كانت تمنع عمرا من أن يغامر بالقيام بغزوة بعيدة قبل أن يملك الاسكندرية وهى القاعدة الوحيدة التى كان يمكن أن تبدأ منها مثل هذه الغزوة. وأما ابن الأثير فانه يورد قولا قاطعا فى ذلك التاريخ فيجعل تلك الغزوة فى سنة ٢٢ للهجرة. وأما سواه من مؤرخى العرب فإنهم مهما اختلفوا فى ذلك التاريخ متفقون على أن فتح برقة إنما كان بعد سنة من تملك الاسكندرية(راجع ابن بطريق وياقوت) وعلى هذا فانا جعلنا تاريخ غزوة بنطابولس فى الشتاء الذى أعقب إخلاء الاسكندرية. وقد بدأت السنة الثانية والعشرون للهجرة فى ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢ فاذا كانت الغزوة قد وقعت بعد أوّل السنة بقليل كان ذلك إيضاحا سهلا لما وقع فيه مؤرّخو العرب من الاختلاف بين سنة ٢١ وسنة ٢٢ للهجرة.

ولسنا نشك فى أن عمرا كان كثير الأعمال فى بابليون ولعله كان يتجهز لاتمام فتح الصعيد أو إخضاعه وقد كان بغير شك يستعد لإعادة حفر قناة تراجان فقد جاء فى البلاذرى أن عام القحط فى بلاد العرب كان سنة ٢١ للهجرة (وأوّلها ١٠ ديسمبر سنة ٦٤١). وجاء فى تاريخ ابن الأثير أن عمرا أرسل فى ذلك العام القمح إلى المدينة فى الخليج الذى حفره ولعل ذلك كان فى أغسطس أو سبتمبر من عام ٦٤٢.

وما كان حفر ذلك الخليج بممكن إلا فى الشتاء فى وقت انخفاض النيل كما أنه ما كان سير السفن فيه ممكنا فى غير فصل الصيف عند فيضان النيل وكان عمرو فى شتاء (سنة ٦٤٠ ـ ١) مقبلا على حصار حصن بابليون مشتغلا به فلم يكن من الممكن حفر ذلك الخليج إلا فى شتاء (سنة ٦٤١ ـ ٢) كما يفهم من تاريخ ابن الأثير وقد جاء فى ذلك التاريخ

عينه أن تاريخ غزو عمرو لبرقه كان على وجه التعيين فى سنة ٢٢ للهجرة وهى تبدأ من يوم ٣٠ نوفمبر ٦٤٢ وتنتهى فى يوم ٢٠ نوفمبر سنة ٦٤٣ وعل ذلك فإنا موردون التواريخ الآتية:

(١) كان جيش عمرو فى العريش فى ١٢ ديسمبر سنه ٦٣٩ وقد ذكر هذا اليوم فى كتاب ابن عبد الحكم، ولكن البلاذرى والطبرى وياقوت ومكين يكادون يتفقون فى إيراد تاريخ الغزوة.

(٢) فتح الفرما حوالى ٢٠ يناير سنة ٦٤٠ وقد اتفق ابن بطريق وياقوت وغيرهم على أن المدينة فتحت بعد حصار شهر واحد.

(٣) غزوة عمرو لاقليم الفيوم فى مايو سنة ٦٤٠ ولا يذكر هذا التاريخ غير حنا النقيوسى وحده.

(٤) وصول إمداد العرب فى ٦ يونيه سنة ٦٤٠ وهذا مأخوذ من ساويرس ولكنه مشكوك فيه.

(٥) وقعة هليوبولس فى يوليه سنة ٦٤٠ وقد تبع ذلك فتح مدينة مصر.

(٦) بدء حصار حصن بابليون بدأ فى سبتمبر سنة ٦٤٠ وهذا يتفق عليه ابن عبدالحكم وابن بطريق (اوتيكيوس).

(٧) معاهدة قيرس المقوقس التى رفضها هرقل فى أكتوبر سنة ٦٤٠.

(٨) تسليم حصن بابليون فى ٩ أبريل سنة ٦٤١، وقد جاء ذكر هذا اليوم فى كتاب حنا النقيوسى وهذا اليوم هو تاريخ«فتح مصر» أو بعبارة أصح تاريخ فتح مدينة مصر وأوثق المؤرّخين يجعلون ذلك فى سنة ٢٠ للهجرة، كما ذكر المقريزى ومن بين هؤلاء الثقاة ابن قتيبة وابن بطريق وياقوت وأبو المحاسن وأبن كثير والواقدى وأبو معشر الخ على أنهم لا يتفقون جميعا فى قصدهم من عبارة«فتح مصر» فبعضهم يعنى بها فتح حصن بابليون وبعضهم يقصد بها فتح الاسكندرية، ولكن الطبرى يجعل فتح بابليون فى ربيع الثانى من سنة ٢٠ للهجرة (٢٠ مارس ـ ١٧ أبريل سنة ٦٤١)، وعلى ذلك فهو متفق كل الاتفاق مع ما جاء فى كتاب حنا النقيوسى.

(٩) فتح نقيوس فى ١٣ مايو سنة ٦٤١.

(١٠) الهجوم على الإسكندرية فى آخر يونية سنة ٦٤١.

(١١) عودة قيرس فى ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١.

(١٢) تسليم الاسكندرية فى ٨ نوفمبر سنة ٦٤١.

(١٣) حفر خليج تراجان فى شتاء (سنة ٦٤١ ـ ٢).

(١٤) موت قيرس فى ٢١ مارس سنة ٦٤٢.

(١٥) ولاية خلف قيرس فى ١٤ يوليه سنة ٦٤٢.

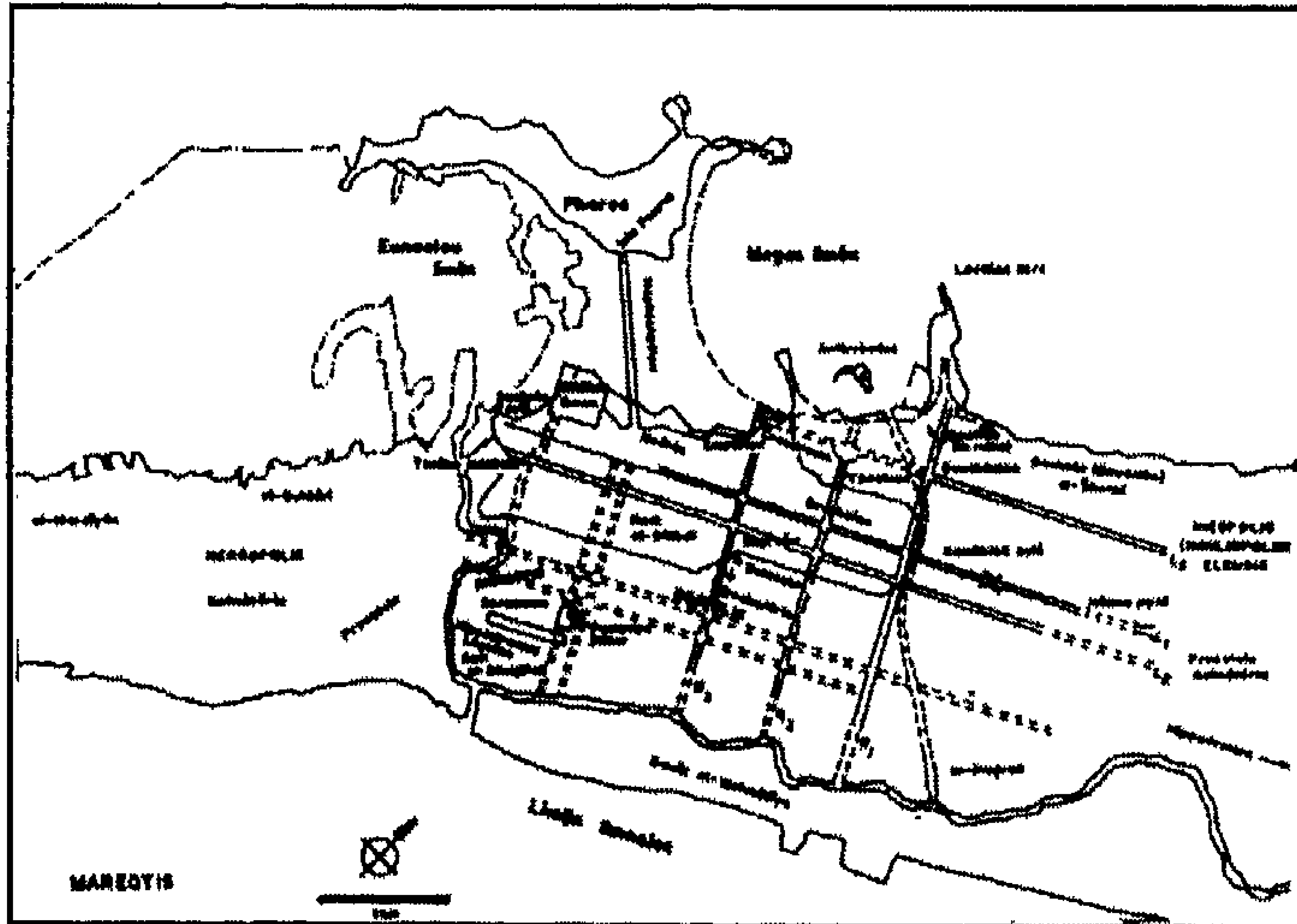
(١٦) إخلاء الروم للاسكندرية فى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢.

(١٧) غزوة بنطاپولس (برقه) فى شتاء (سنة ٦٤٢ ـ٣).

(١٨) عودة بنيامين فى خريف سنة ٦٤٤.

(١٩) ثورة منويل فى أواخر سنة ٦٤٥.

(٢٠) فتح العرب الثانى للاسكندرية فى صيف سنة ٦٤٦.



قد اضطرتنا معالجة المسائل التى لها علاقة بتاريخ الفتح العربى الى أن نشير أحيانا إلى خلفاء بنيامين وإن فى إثبات تواريخهم لشأنا يذكر فيما نحن فيه وليس أقل هذه المسائل شأنا إثبات التاريخ الذى كتب فيه حنا النقيوسى كتابه واثبات ذلك لا يكون إلا من طريق غير مباشر كما هى العادة، ولكن ذلك الاثبات قائم على الأكثر على اثبات التاريخ الذى تولى فيه البطريق اسحق إذ كان حنا أحد من شهدوا الاحتفال بتوليته. وكان اسحق البطريق الثالث بعد بنيامين وكان البطريقان المتوسطان بينه وبين بنيامين هما أغاثيون (أجاثو) وحنا السمنودى. ويلوح لنا أنه من الممكن أن نثبت تاريخ تولية اسحق على وجه الدقة، ولهذا نرى أن خير طريق نسكله هو إثبات هذا التاريخ ثم الرجوع منه الى التواريخ السابقة.

والمرجع الأكبر لنا فى استمداد الأخبار هو الكتاب القبطى«حياة اسحق» وقد نشره مع ترجمة له العلامة أميلنو فى كتاب(His.du patr. Copte lsaac)وقد أظهر ذلك الكاتب فى مقدّمته القيمة أن تلك الوثيقة القبطية لا تذكر سوى أن اسحق توفى فى التاسع من هاتور(وهو يوافق ٥ نوفمبر وليس ٦ نوفمبر كما ذكر هناك).

قال الكاتب «وقد اقتصرت كل الأخبار التاريخية على ذكر ذلك التاريخ ومعنى ذلك أنها لا تفيدنا بشئ مطلقا» ولكن مكين يذكر فى تاريخه أن تاريخ وفاة اسحق سنة ٦٩ للهجرة ومن ذلك يستخلص أميلنو أن اسحق مات فى ٦ نوفمبر سنة ٦٨٨، وأما فون جوتشمت فانه يذكر أن وفاته كانت فى الخامس من نوفمبر سنة ٦٩٢.

على أن أميلنو قد أخطأ الصواب إذ قال إن الوثيقة القبطية لا تذكر شيئا آخر من الأخبار التى تحدّد التواريخ إذ أنه قد أغفل عبارة لها شأن كبير فقد جاء فى تلك الوثيقة أن اسحق قد احتفل بولايته فى ٨ كيهك «وكان ذلك يوم أحد» وهو اليوم اللائق بهذا الاحتفال ـ ولم يقع يوم ٨ كيهك حوالى هذا العصر فى يوم أحد إلا فى سنة ٦٨٤ وسنة ٦٩٠، فأما سنة ٦٨٤ فانه من المحال أن تكون هى المقصودة وعلى ذلك فان اسحق قد احتفل بتوليته فى (٨ كيهك ـ الموافق ٤ ديسمبر سنة ٦٩٠) وعلى ذلك فهذا هو التاريخ الذى شهده حنا النقيوسى. وقد

قال ساويرس فى مدّة ولاية اسحق أقوالا مختلفة فى النسخ المخطوطة المختلفة فهو يجعلها بين سنتين وتسعة أشهر وبين ثلاث سنوات، ولكنا إذا علمنا أن اسحق قد مات فى ٥ نوفمبر وإذا قلنا إنه توفى فى الخامس من نوفمبر سنة ٦٩٣ كانت مدة ولايته سنتين وأحد عشر شهرا وهى المدّة التى ذكرها المقريزى.

وقد يكون من السهل أن تقرأ مقدّمة أميلنو كلها ثم نظهر السبب فى أنه أخطأ الخطأ كله فى اثبات تاريخ ميلاد اسحق إذ يجعل ذلك التاريخ قبل الفتح العربى. ويجعل اسحق فى نحو الثمانية عشرة من عمره فى وقت ذلك الفتح (ويذكر أن الفتح كان سنة ٦٤٠) فهو يجعل تاريخ ميلاده سنة ٦٢٢ وقد ساقه الى هذه النتيجة على الأخص ما ذكر من أن اسحق كان فى صباه ملحقا بقريب له اسمه (Meneson)وكان هذا القريب ناموسا لجورج حاكم أرض مصر وهذا اللقب عجيب إذ يظهر كيف بقيت الألقاب اليونانية مستعملة فى مصر بعد الفتح العربى ولسنا نشك لحظة فى أن تلك الألقاب قد بقيت فى مصر بعد ذلك الفتح فقد جاء فى الوثيقة عينها ذكر عامل لقب بلقب (Augustal)وأنه كان متصلا اتصالا مباشرا مع«ملك العرب» «عبدالعزيز». وقد ذكر اسمه قبل ذلك ببعض صفحات فوجود هذا اللقب على ذلك لا يدل على أن اسحق قضى صباه تحت حكم الروم. والحق أنه قد ثبت أنه هرب فى الصحراء وكان بعد لا يزال فى سن الصبا وكان ذلك بعد الفتح إذ أنا نجد أهله بعد ذلك بقليل يستشيرون بطريقا قبطيا فى الاسكندرية فى أمره.

وليس من الممكن أن يكون هذا قد وقع بين سنة ٦٣١ ـ سنة ٦٤٤ إذ لم يكن ثمت فى الاسكندرية بطريق قبطى وقتئذ كما أنه ليس من الممكن أن يقع هذا قبل سنة ٦٣١ إذ قد ذكر عنه عقب هروبه أنه حادث قسيسا من قسوس الريف.

وقد جاء فى ذلك الخبر«أنه قد شهد الكثيرون أن ذلك القس كان من القدّيسين أهل الايمان وأنه كان ممن أحضر بين يدى قيرس فحكم عليه بأن يجلد عدّة جلدات لأنه أظهر إيمانه» وهذا القول يدل على أن مدة الاضطهاد التى أنزله قيرس كانت قد انقضت وهى بين سنة ٦٣١ ـ ٦٤١، وعلى ذلك فان لجوء أهل اسحق الى البطريق كان ولابدّ بعد سنة ٦٤٤، وعلى ذلك نقول إن البطريق كان بنيامين.

وليس ثمت من دليل يدل على تاريخ لجوء أهل اسحق الى البطريق وفى أى عشرة من عشرات السنين كان ولا ندرى أكان حوالى سنة ٦٥٠ أو حوالى سنة ٦٦٠ أو حوالى سنة ٦٧٠ على أننا نميل الى ترجيح التاريخ الأوّل وذلك لأننا نهتم أكبر الاهتمام بالعبارات المتكررة التى تنص على صبا اسحق إذ ذاك ونحن فى ذلك نخالف ما ذهب اليه أميلنو فانه مثلا لا يجد صعوبة فى تأويل معنى (Jeune Garcon) (صبى صغير) على أنه كان رجلا متوسط السن مع أن هذا اللفظ قد ورد نقيضا للفظ«الهرم» فإذا ذهبنا الى أن ذلك التاريخ المقصود كان حوالى سنة ٦٥٧ كان ميلاد إسحق حوالى سنة ٦٤٠ وكانت سنة عند وفاته ثلاثا وخمسين سنة وقد كان البطريق الوحيد الذى ذكر حنا النقيوسى اسمه هو(حنا السمنودى) وهو الذى رشح إسحق لولاية الدين بعده.

ويجدر بنا أن نزيد على هذا أن أميلنو إذا كان مصيبا فيما ذهب اليه من ترتيب التواريخ أى أن ميلاد إسحق كان فى سنة ٦٢٢ فان مدّة الاضطهاد الأكبر وهى بين سنة ٦٣١ وسنة ٦٤١ تقع إذ كانت سنّ إسحق بين التاسعة والتاسعة عشرة ولكنا قدّمنا أنه لم يكن للقبط إذ ذاك بطريق فى الاسكندرية كما يستلزمه ذلك الخبر فى حين أننا إذا ذهبنا كما فعلنا إلى أن مولد إسحق كان حوالى سنة ٦٤٠ وأنه هرب الى الصحراء حوالى سنة ٦٥٧ استوْى لنا القول وأصبح طبيعيا فان بنيامين قد عاد إلى الاسكندرية قبل بثلاث عشرة سنة، وكانت هذه المدّة فى الحقيقة أكثر مدّة صبا إسحق.

وبعد أن أثبتنا تاريخ الاحتفال بولاية إسحق وموته نقول إن سابقه حنا السمنودى توفى فى أوّل كيهك (٢٧ نوفمبر) من احدى السنين بعد أن ولى أمر الدين تسع سنين، وعلى هذا تكون وفاته فى ٢٧ نوفمبر سنة ٦٩٠ ولكن ذلك لو صح يوجب علينا أن نسلم أن الاحتفال بتولية إسحق حدث بالضبط بعد أسبوع من موت سلفه فى حين أن تاريخ حياته القبطى يحتوى على ذكر مفصل لما وقع من الخلاف فى المدّة التى كانت ولاية الدين فيها شاغرة بعد موت سلفه وما وقع من المسعى لتولية رجل آخر اسمه (جورج) إذ ادعى أنه الذى وقع عليه الاختيار الصحيح على أن كبير الشمامسة أمر أن لا يولى (جورج) حتى جاء أمر من قبل الحاكم العربى فاجتمع الأساقفة عنده فى بابليون ليعرضوا عليه الأمر، فلما فحص تاريخ

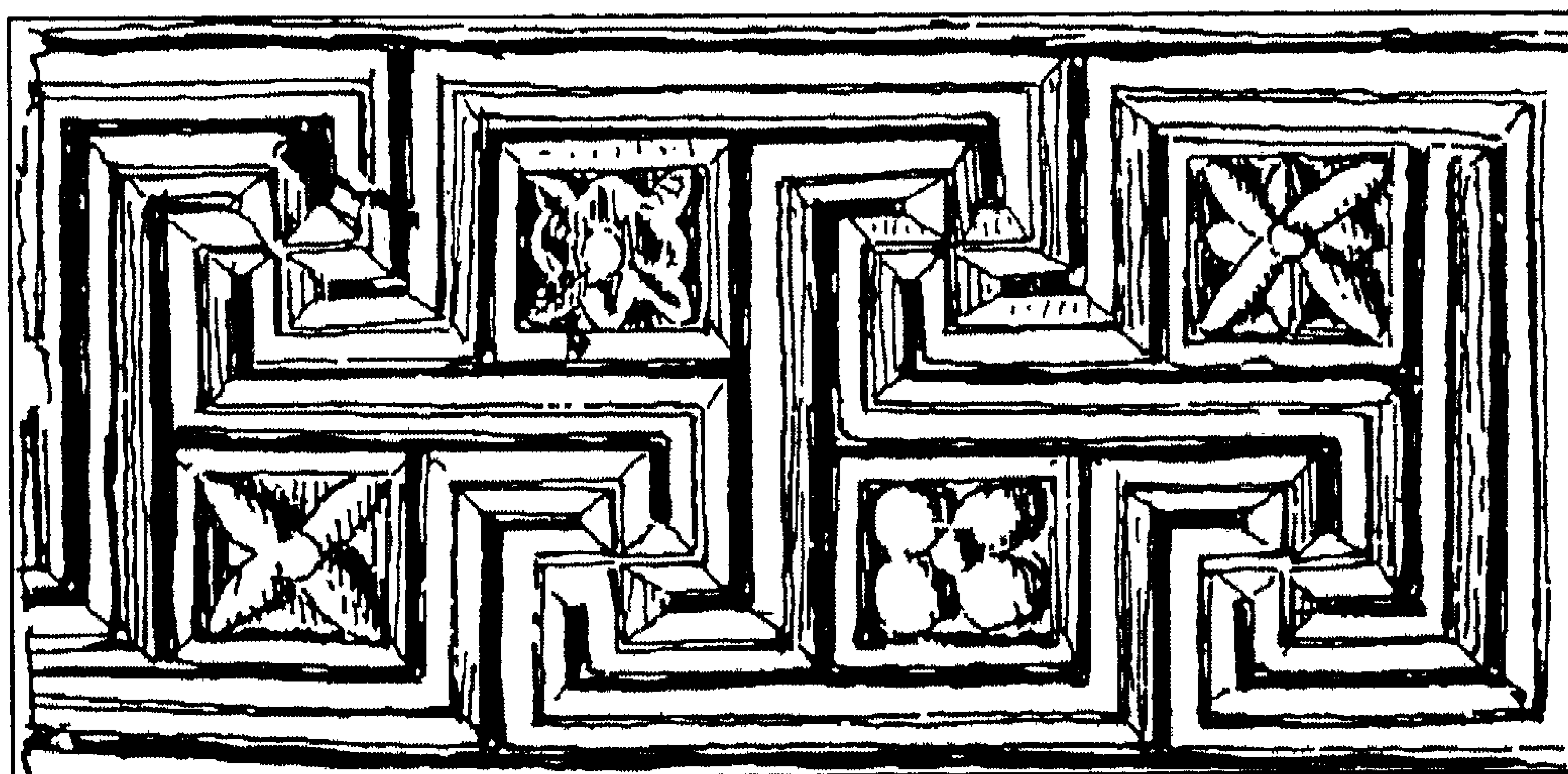
(جورج) فى حياته الماضية وجد أنه لم يكن على ما يجب أن يكون عليه وقد جاء الناس من جميع البلاد ليسمعوا حكم «عبدالعزيز» فى ذلك الأمر فلما حكم بما أرادوا من إحقاق أمر إسحق طربوا ورقصوا جميعا وعم السرور البلاد من بابليون الى الاسكندرية ومن الجلى أن ذلك لابد يحتاج إلى وقت طويل فنحن مضطرون إلى القول إن وفاة حنا السمنودى كانت فى أوّل كيهك (٢٧ نوفمبر) سنة ٦٨٩ مع أننا نقول إن الاحتفال بتولية إسحق كان فى ٨ كيهك سنة ٦٩٠ أو بقول آخر إن ولاية الدين بقيت شاغرة مدّة عام وهذا الاستنتاج يؤيده ما جاء فى الديوان الشرقى إذ جاء فيه أن حنا مات فى أوّل كيهك وكان ذلك يوم السبت، وقد رأينا أن يوم ٨ كيهك كان فى سنة ٦٩٠ يوم أحد فيكون أوّل كيهك من ذلك العام يوم أحد أيضا ولكن أوّل كيهك كان يوم السبت كما هو المطلوب فى عام سنة ٦٨٩.

فاذا نحن حسبنا مدّة ولاية حنا تسع سنين رجع بنا الحساب إلى أن أوّل تلك الولاية كان فى سنة ٦٨٠ وقد مات سلفه (أجاثو) فى ١٣ أكتوبر وعلى ذلك يكون الاتفاق قريبا كل القرب بين حسابنا والتاريخ المذكور وكانت وفاة اجاثو فى ١٣ أكتوبر سنة ٦٨٠ بعد أن ولى أمر الدين مدّة تسع عشرة سنة كما جاء فى الأخبار ولكنا رأينا أن وفاة بنيامين كانت فى ٨ طوبة (وذلك يوافق ٣ يناير سنة ٦٦٢) والمدّة بين التاريخين ثمان عشرة سنة وعشرة أشهر تنقص قليلا وذلك تقريب شديد القرب وعلى ذلك نرى أن حساب التواريخ يتفق بعضه مع بعض اتفاقا وثيقا.

وإنا نستطيع الآن أن نورد التواريخ مرتبة وقد كان جل اعتمادنا فيها على ما جاء فى كتاب ساويرس وقرناها بما جاء فى تاريخ حياة اسحق وسوى ذلك من المراجع فاتفقت اتفاقا عظيما يجعلنا نستبعد احتمال الخطأ، وقد اتفق فون جوتشمت معنا فيما أثبتناه من تواريخ وفاة بنيامين وأجاثو، ولكنه يخالفنا فى تاريخ وفاة حنا السمنودى فيجعلها فى ٢ مايو سنة ٦٨٩.

ولكن ذلك لا يعتمد على مرجع كاف وهو فوق ذلك يجعل الاحتفال بتولية إسحق فى فبراير سنة ٦٩٠ ووفاته فى ٥ نوفمبر سنة ٦٩٢ ولكن هذين التاريخين قد ظهر فسادهما مما جاء فى تاريخ حياته القبطى فالتواريخ الحقيقية على ما يلوح لنا هى الآتية:

البطريق	تاريخ التولية	مدّة الولاية	تاريخ الوفاة
(١) بنيامين	يناير سنة ٦٢٣	٣٩ سنة	٣ يناير سنة ٦٦٢
(٢) أجاثو	يناير سنة ٦٦٢	١٩ سنة	١٣ أكتوبر سنة ٦٨٠
(٣) حنا السمنودى	أكتوبر سنة ٦٨٠	٩ سنوات	٢٧ نوفمبر سنة ٦٨٩



زخرفة بالخشب من أحد أبواب الكنيسة المعلقه

بحث فى شخصية المقوقس

فلنبدأ بذكر المؤرخين العرب ما قالوه حول شخصية المقوقس، وفى هذا لا نقول عن هذا الأمر شئ سوى شك وخلط وأنهم فى ذكرهم لأخباره يبدون أكبر الاضطراب والتناقض. وليس خلطهم فى ذكر الأخبار الا نتيجة لاختلاط الأمر عندهم واستغلاقه عليهم ولئن كان ثمت شئ مؤكد فهو أن مؤرخى العرب تلقفوا لقب المقوقس سماعا أو رواية نقله بعضهم عن بعض بغير أن يفهموا له معنى وأن الاسم بقى بينهم دون سواه واختلط عليهم الاسم الحقيقى للشخص الذى كان يلقب به وأن ذلك اللقب كان لقبا مبهما أصله غير عربى يطلق على حاكم مصر. فيسمون حاكم مصر فى زمن النبى المقوقس ويسمون حاكمها فى زمن الفتح المقوقس. ولا يهمنا كثيرا فيما نحن بصدده من الحجة أن نبحث فى أول ما أستعمل العرب ذلك اللقب له. أأطلقوه على حاكم مصر فى وقت رسالة النبى ثم أطلقوه بعد ذلك من باب التوسع والتمثيل على حاكم مصر فى زمن الفتح أم قد سمعوه (كما نظن نحن) أولا فى زمن الفتح ثم أطلقوه خطأ على الحاكم الذى جاءته رسالة النبى؟ وعلى أى حال فقد كان ذلك يطلق على العامل على مصر من قبل أمبراطور الروم أى على الحاكم العام لمصر.

الطبــــرى ولنبدأ بالطبرى فلا ينكر أحد أنه يفرق فى رواية من رواياته بين المقوقس وبين جاثليق مصر. فلننظر فيما هو المقصود من لفظ جاثليق مصر فهو لفظ لا يطلقه أحد اطلاقا صحيحا على عظيم من عظماء رجال الكنيسة ولم يستعمله أحد لذلك المعنى فهو اصطلاح أرمنى أو سورى أو نسطورى وقد عرفه الطبرى فى طبرستان أو فى بغداد ثم أطلقه خطأ فى مصر ولا شك فى أن معناه (المترانوس) ولكن ليس من اللازم أن يقصد به البطريق. وفوق ذلك قد رأينا أن لفظ مصر له مدلولان إما قطر مصر وإما مدينة مصر وعلى ذلك فجاثليق مصر قد لا يكون معناه سوى (مترانوس مدينة مصر) وقد ورد ذلك اللقب كثيرا فى التاريخ القبطى وقد كان فى بابليون أسقف وهو حصن بابليون وكان فى منفيس أسقف وفى حلوان أسقف وقد كان أسقف مصر مقدّما على سائر أساقفة ذلك الاقليم وكان لقب (مترانوس) يطلق فوق ذلك على أسقف دمياط وإنه من العسير أن نتصوّر مصر ـ وقد كانت العاصمة الثانية بعد الاسكندرية ـ يكون أقل شأنا وأحط مقاما من سواه وذلك إذا لم يكن (مترانوس) ويجمل بنا أن نذكر هنا أننا نرى أنه من المحال أن يقال بطريق مصر لأن هذا يكون لقبا غير

ممكن الوجود فقد كان البطريق يقال له(بطريق الاسكندرية) ولم يطلق عليه غير ذلك اللقب أبدا ولم يذكر مرة لقب(بطريق مدينة مصر) أو(بطريق للقطر المصرى). ولقب(مترانوس مصر) ليس مستمدا من الظن والحدس إذ قد وجدناه مستعملا حوالى سنة ٧٥٠ للميلاد إذ وصف رجل إسمه تيودور بأنه كان (المترانوس أسقف مصر).

فاذا نحن ذهبنا مع هذا الرأى زالت من أمامنا كل الصعاب التى نشأت من التمييز بين الجاثليق والمقوقس فقد كانا شخصين متفرّقين ولم يقل أحد مرة أن أسقف مصر كان هو المقوقس.

وقبل أن ننتقل من القول فى عبارة الطبرى يجب علينا أن ننبه إلى تناقض فى قوله فبينما هو يقول فى رواية إن عمرا عند ما جاءه الزبير قابله أبو مريم وأبو مريام وقاتلاه، إذا به يقول فى رواية أخرى إن عمرا والمقوقس التقيا فى عين شمس والتحم جيشاهما فى القتال. ولسنا نرى موضعا للشك فى أن هاتين العبارتين تشيران إلى حادثة واحدة، وهذا مثل من الأمثلة التى تدل على ضرورة درس روايات الطبرى مفردة ثم قرن بعضها إلى بعض ودرسها معا فاذا سلمنا بأن الحادثة المقصودة واحدة وأن رواية من الروايتين تشير إلى أن جاثليق مصر هو الذى قابل عمرا ثم أعقب ذلك وقعة عين شمس، وأن الثانية تشير إلى أن المقوقس هو الذى فعل ذلك أمكن أن نقول إن المقوقس هو جاثليق مصر وأن ذلك الجاثيلق قد يكون جاثليق القطر المصرى أى أنه قد يكون هو البطريق قيرس. وإذا صح ذلك كانت الرواية التى تميز قيرس وتجعله شخصا آخر غير المقوقس رواية مخطئة. ويجب أن نذكر أنه لا يصح أن نثق بمختلف الروايات ثقة متساوية إذا كانت روايات متناقضة فيجب علينا أن نميز بينها ونوازن بين ذلاتها لنرى أيها أوثق وأصدق.

ابن عبد الحكم والآن فلننظر إلى المؤرّخين الآخرين فقد جاءت فى تاريخ ابن عبد الحكم(حوالى سنة ٨٥٠ للميلاد) عبارة ذات شأن، فقد جاء فيه قوله«فوجه هرقل ملك الروم المقوقس أميرا على مصر وجعل إليه حربها وجباية خراجها ونزل الاسكندرية»فما معنى هذا القول سوى أنه كان الحاكم الأعلى بمصر؟

وإذا كان ابن عبد الحكم يذكر أن المقوقس كان على جباية الخراج فى مصر فقد ذكر ذلك أيضا سعيد بن البطريق(٨٧٦ ـ ٩٣٩) كما أن قوله هذا يوافق ما جاء فى وثيقة قبطية

متخلفة من القرن السابع وفيها ذكر زيارة (المقوقس البطريق الكاذب) لدير القلمون وفيها يوصف ذلك البطريق بأنه«مراقب الخراج فى أرض مصر» ولا شك فى أن هذا الدليل ذو خطر عظيم. وقد ذكرت هذه الحادثة عينها فى النسخة العربية من التقويم القبطى لحياة القدّيسين فقد جاء فيه صراحة أن الشخص الذى حاول أن يجعل صمويل يعترف بالعقيدة الخلقيدونية أو الملكانية كان اسمه المقوقس.

وفوق ذلك جاء فى وثيقة مخطوطة أخرى وصف (البطريق) بعد اسم المقوقس. وعلى ذلك فقد قام الدليل من هاتين الوثيقتين القبطيتين على أن الشخص الذى كان مراقبا للخراج فى مصر هو المقوقس كما قال ابن عبد الحكم وكذلك كان هو البطريق الملكانى وكبير الأساقفة. أى قيرس.

ولكنا نجد فوق ذلك اتفاقا آخر يسترعى النظر بين ابن عبد الحكم ومؤرّخ آخر مستقل عنه: فقد ذكر المؤرّخ العربى عبارتين عن المقوقس: إحداهما تنص على عمله الحربى؛ والأخرى تنص على عمله فى جباية الأموال. فأما فيما يخص عمله الحربى فانا موردون هنا تعزيزا عجيبا نأخذه من وثيقة سريانية تخلفت من القرن السابع وقد ترجمها وعنى بنشرها الأستاذ جويدى وكانت كتابتها فى القرن السابع بعيد فتح العرب لمصر. وقد جاء فيها أن العرب قد عاقهم عن الفتح فى أوّل الأمر أن حدود مصر كانت يدافع عنها جيش قوى كبير حشده بها بطريق الاسكندرية.

فأنى لبطريق أن يدبر هذه الأمور الحربية المحضة؟ ولكن إذا عرفنا أن البطريق كان عند ذلك قيرس، ولا ينكر أحد أنه قد كان، وإذا كان قيرس هو المقوقس، كانت عبارة هذه الوثيقة السريانية القديمة متفقة كل الاتفاق مع وصف ابن عبد الحكم لحاكم مصر وأنه كان صاحب الحرب المطلق فيها.

البلاذرىـ(٨٠٩ ـ ٩٣ للميلاد) ـ ليس قوله فى المقوقس شديد الدقة فهو يذكر أنه صالح عمرا على عهد ردّه هرقل. ونحسب المقصود بذلك معاهدة مصر ثم يذكره بعد ذلك قائدا فى الاسكندرية فى مدّه حصار العرب لها، ثم يذكر أنه فاوض عمرا فى تسليم المدينة ـ وفى الحقيقة يتفق ما جاء فى تاريخ البلاذرى فى هذا الشأن مع ما جاء فى كتاب حنا النقيوسى من أخبار قيرس.

اليعقوبي ـ (المتوفى سنة ٨٧٣ للميلاد) ولم يكن من أهل مصر وهو يذكر أن المقوقس صالح عمرا وأن هرقل ردّ ذلك الصلح.

ابن الأثير ـ (١١٦٠ ـ ١٢٣٢ للميلاد) والظاهر أنه ينقل عن الطبرى ولكنه يصف (أبو مريم) بأن المقوقس أرسله ليقابل عمرا ويصفه بأنه جاثليق منفيس وهذا يدل على أنه فهم من لفظ (جاثليق مصر) أنه يقصد به أسقف مدينة مصر وليس بطريق الاسكندرية. وعلى ذلك فليس فى قول ابن الأثير ما يناقض الأدلة على أن المقوقس كان هو قيرس بعينه. ويصح لنا هنا أن نزيد على ذلك أن مؤرخى العرب لم يميزوا واضحا بين الأسقف وبين كبير الأساقفة. فان أبا المحاسن يذكر (أبو مريم) بأنه كان جاثليق مصر ثم يذكر (بنيامين) بأنه كان أسقف الاسكندرية. وكذلك ليس لفظ (أسقف رومة) باللفظ الغريب عن عرف التاريخ بل إنه يرد فى الأخبار هكذا (ويقصد به بابا رومه) ولكن ابن الأثير يذكر أن المقوقس أمر بالقتال فى عين شمس متبعا فى ذلك رأى الأطربون الحربى ويذكر كذلك أنه فاوض فى الصلح فى الاسكندرية.

ياقوت ـ (١١٧٨ ـ ١٢٢٨ للميلاد) يذكر أن المقوقس هو صاحب الصلح الذى عقد باسم القبط والروم وأنه صالح على شرط أن ينفذ بالعهد إلى الامبراطور ليقره.

المكين ـ جرجس بن العميد السريانى المصرى ـ (١٢٠٥ ـ ١٢٧٣ للميلاد) يذكر أن المقوقس كان حاكم مصر من قبل هرقل ـ أى أنه كان نائب الملك فيها.

ابن دقماق ـ (حوالى ١٣٥٠ ـ ١٤٠٦ للميلاد) يروى عن ابن وهب أنه روى عن الليث بن سعد أن المقوقس الرومى الذى كان ملك مصر صالح عمرا.

المقريزى ـ (١٣٦٥ ـ ١٤٤٢ للميلاد) يروى عن يزيد بن أبى حبيب أنه قال إن المقوقس الرومى كان واليا على مصر وأنه صالح عمرا ويقول إن قائد الحصن (أى بابليون) كان (الأعيرج) من قبل المقوقس ويذكر بعد ذلك أن المقوقس كان حاكم البلاد من قبل هرقل. ويذكر أنه عقد صلح مصر وأن الأمبراطور ردّه ولم يقرّه. وأنه لام ذلك الحاكم النائب عنه على أنه رضى «أن يكون ومن معه من الروم فى حال القبط أذلاء» الخ. وليس ثمت ظل من الشبهة فى أن المقريزى يعدّ المقوقس نائب الملك فى مصر.

أبو المحاسنـ(١٤١١ ـ ١٤٦٩ للميلاد) وهو يذكر أن قائد قصر الشمع(أى حصن بابليون) كان(الأعيرج) من قبل المقوقس.

ويقول هذا المؤرّخ مرة أخرى«ثم بدأ حصار الحصن وكان قائده المندفور من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى» ثم يذكر بعد ذلك عظماء المصريين وحاكمهم المقوقس.

السيوطي ـ(١٤٤٥ ـ ١٥٠٥ للميلاد) وكان مثل أبى المحاسن متفقا معه فى الرأى فقال إن الإمبراطور هرقل رد صلح المقوقس مع العرب وأمثال ذلك القول.

وها نحن قد عرضنا أدلة مؤرّخى للعرب واخترنا ما بها من تعريف بسلطة المقوقس وعمله فى مصر مبتدئين بابن عبد الحكم إلى أن انتهينا بالسيوطى فلنمض الآن إلى الشعبة الثانية وهى المؤرخين القبط.

ولنا أن نزيد هنا بداية أن جمع السلطة العليا فى أمور الدين والدنيا معا فى شخص واحد لم يكن بدعة جديدة، بل كانت له سابقة واضحة فى القرن السادس. فقد عرض جستنيان على تيودوسيوس أن يكون بطريق الاسكندرية وحاكم مصر معا إذا هو قبل كتاب ليو ومذهبه الدينى. وإذا كان الأمر كذلك لم يكن عجبا من هرقل أن يجمع الرياستين فى شخص قيرس. وقد أورد ساويرس فى كتابه الذى بين ايدينا هذين الخبرين أو لعلهما وردا فى تاريخه ـ فإن ديوان تاريخه وما أضيف اليه بعده مجموعة قيمة من الأخبار يقرّ أهل البحث والدرس لها اليوم بالفضل.

وقد قال (Evetts)عن كتاب ساويرس «إن تاريخ بطارقة الاسكندرية هو الكتاب العمدة فى تواريخ البطاركه للكنيسة القبطية والجزء الأوّل منه مجموعة جمعها ساويرس أسقف الأشمونين بالصعيد نقلها عن وثائق يونانية، وأخرى قبطية، وجدها فى الأديرة التى فى بلاده فترجمها بمساعدة بعض القسوس.

وقد صار كتاب تاريخ البطاركة أتم وأكثر فائدة وأكبر قيمة منذ القرن السابع ولا سيما فى وقت فتح العرب فنجد فيه سلسلة من تواريخ حياة حقيقية كتبها كتاب من أهل عصرها» وليس يخالف أحد هذا الرأى إذا كان ممن درس كتاب ساويرس حق دراسته.

ويظهر أنه قد جرت العادة منذ أقدم الأزمان على أن تكتب أخبار الكنيسة القبطية فى صورة تراجم للحياة على الأكثر وعلى أن تحفظ فى مكتبة الدير المعروف دير مقار فى وادى النطرون.

ولم يكن مأمن أصلح لذلك الغرض من ذلك المكان وراء أسوار ذلك الدير المحصن البعيد فى الصحراء. وقد حفظت فى ذلك الدير الوثائق المخطوطة التى استمد منها ساويرس تاريخه. وقد وجدت فقرة مؤرّخة فى أوّل يونيه من سنة ١٠٨١ للميلاد قد أضيفت إلى ذلك الديوان وفيما ما يلى:«إلى هنا انتهى الفصل السادس عشر الذى تم به تاريخ الآباء إلى سيمون الثانى والأربعين من البطارقة وسيلى ذلك ما ترجمناه عن الوثائق فى دير القدّيس مقار وهو تاريخ البطارقة من ميخائيل الأخير إلى سنوتيرس الأوّل. وقد ترجمنا فى هذا الدير تاريخ حياة تسعة آخرين من البطاركة فى سنة ٧٩٦ للشهداء(سنة ١٠٨٠ للميلاد). وقد كتب هذا(أبا قيروس) الدمنهورى بمشيئة الله التى أعانتنا على أن نجد هذه الأخبار فى دير القديس مقار بمساعدة الأخ تيودور الخازن بن بولس فى يوم الأحد السادس من شهر بؤونة من عام ٧٩٧ للشهداء الأكرمين. وقد قارنا الوثائق بعضها إلى بعض ووجدنا أنها تتفق مع ما لدينا من الصور فاقتنعنا بصحتها».

وهذا خبر يدل على دراسة المصادر الأصلية بعناية ودقة ومحاسبة للنفس ـ وفى استطاعتنا أن نرى مثل هذا السعى الدقيق متصلا إلى ما قبل هذا التاريخ بنحو أربعة قرون. فاننا نجد نبذة أخرى نعلم منها أن الحوادث التى وقعت إلى أيام خلقيدونية و«ديوسكوروس» (حوالى سنة ٤٥٠ للميلاد) كانت«تدوّن فى الجزء الثانى عشر من دواوين تاريخ الكنيسة» ثم إذا أردنا أن نطلع على تاريخ الحوادث من أيام (قيريل) إلى أيام الاسكندر«أمكن أن نجد ذلك فى كتاب المعلم الكاتب جورج كبير شماسى البطريك سيمون وكاتبه» (٦٨٩ ـ ٧٠١ للميلاد) وقد كتب ذلك الرجل كذلك تاريخه فى دير القديس مقار ـ ويقول الكاتب بعد ذلك «وعلى ذلك فأنا العبد المخطئ الذليل أرجوكم أن تدعو لى السيد المسيح أن يفك عقدة لسانى الضعيف وأن يشرح قلبى المظلم وأن يهبنى من البيان ما أستطيع به أن أبين لكم أيها الاخوان وأيها الأب ما سألتمونى بيانه. ولست أرجو أن أبين لكم شيئا أكون فيه معلما لكم أومر شدا أتعالى عليكم بل أكون فيه باحثا دارسا إذ قد رأيت بعينى ما كتبت وإن عظم الحوادث التى رأيتها تجعل من

واجبى أن أدونها ـ ذلك عدا ما سمعته ممن هم أكبر منى سنا من أصحابى الذين أثق فى قولهم واعتمد على صدقهم. والسيد المسيح يعلم أننا لم نزد شيئا على الحقائق بل قد ذكرنا ما وقع إلى أيام وفاة الأب المرحوم تيودور بطريق الاسكندرية وما جرى من أمور الدول فى أيامه إلى آخر الفصل السابع عشر من التاريخ الذى أتممناه آنفا» (أى إلى سنة ٧٤٣ للميلاد) ثم قال المؤرّخ«والآن فانا كاتبون الفصل الثامن عشر من تاريخ الكنيسة» ثم بعد بضعة أسطر من هذا تراه يعلق على عبارة من عباراته فيقول «إذ قد شهدنا بأعيننا مرار عدّة» ثم قال أيضا«وأقاموا ملكا اسمه كرياكوس (فى بلاد النوبة) وبقى ملكا إلى الذى نكتب فيه هذا التاريخ» وفى هذا دليل على أن. الكاتب يكتب عن عصره فى القرن الثامن من الميلاد وقد كان ذلك المؤرّخ كاتبا لموسى أسقف أوسيم بالقرب من الجيزة وهو يتكلم دائما عن نفسه فى ذكر الحوادث فيقول مثلا «فذهبنا إلى القصر وكان معنا الأباتيودور أسقف مصر» إلى غير ذلك ويقتبس قطعة من مذكرات البطريق ميخائيل (فى موضوع دير مينا بقرب مريوط) وقد أرسلت تلك المذكرات إلى كاتب عبد الملك. ونرى ذلك المؤرّخ من جهة أخرى يدافع عن نفسه لحذف بعض الحوادث بقوله «وقد ذكرنا هذه الأمور فى كتاب تاريخ حياة(ميخائيل) وهو منفصل عن هذا التاريخ» ولكنه يذكر بعد ذلك حوادث تاريخية مثل موت مروان فيقول«وقد قتلوه ومثلوا به ونكسوا رأسه بعد أن أسروه وقد كنا من شهود هذا الحادث».

وفى القرن السابع كتب كاتب فى ذلك التاريخ ترجمة حياة حنا الثالث(٦٧٧ ـ ٨٦ للميلاد) ووصف قصة رحلة حنا الأخيرة إلى الأسكندرية فقال«وكان كاتب هذا الخبر معه فانه كان ابنه فى الله» ويمضى الكاتب بعد ذلك فى ذكر تفاصيل دقيقة لا يستطيع أن يورد مثلها إلا كاتب من أهل العصر نفسه.

وبعد فانّ كثيرا من الأمور التى يشير إليها الكاتب فى تاريخ ساويرس يمكن تحقيقها وقد ظهرت صحتها ظهورا جليا فمثلا جاء فى أخبار سيمون الأوّل قوله «وفى يوم من أيام الأحد جاءت الأخبار إلى الأمير إن جيش الروم ثار بالملك جستنيان وعزله وولى مكان(ليونتيوس)» وقد كانت ولاية سيمون للبطركة من ٦٨٩ إلى ٧٠١ للميلاد أو هى إلى سنة ٧٠٠ للميلاد وكان عزل جستنيان الثانى فى سنة ٦٩٥، ومثل آخر قوله: وكانت مملكة الروم فى ذلك الحين تتخبط تخبط الصبية فى لهوهم فان الروم بعد أن عزلوا ملكهم جستنيان جعلوا مكانه ليو

(ليونتيوس) ملكا عليهم ولكنه قتل قبل أن يتم السنة الثالثة من حكمه وولى بعده (أيماروس) ويسمى (تيبريوس) بعده ولى (فليبيكوس) وبعد سنتين ولى (أنستاسيوس) ملكا على الروم ولا يزال يلى الملك.[وقول الكاتب«ولا يزال يلى الملك» يقصد به الوقت الذى كان يكتب فيه تاريخه] .

ونرى أنه يكفينا مثل آخر بعد هذه الأمثلة ـ وذلك عندما كان قرّة الظالم والى مصر ـ فقد جاء عنه أنه عسف عسفا شديدا وابتز أموالهم واستصفى أملاكهم الخاصة وأراضيهم وأرزاقهم وأوقافهم حتى صار الناس إلى الفقر المدقع قال الكاتب «فجعل الناس يهربون من مكان إلى آخر ولكن لم يعصمهم مكان منه» فان قرّة كان يرسل رسله وراء الهاربين. قال الكاتب عن هؤلاء الرسل إنهم كانوا يجمعون الهاربين من كل مكان ويرجعونهم إلى بلادهم مقيدين ويعاقبونهم. وهذه الأخبار كلها تذكر على أنها وقعت فى أيام بطرقة الاسكندر الثانى (٧٠٥ ـ ٣٠ للميلاد) وهذه الحقائق قد ثبتت بغير شك عندما كشفت ورقة اليونانية وتاريخها(٧٠٨ ـ ٧١٠ للميلاد). وهذا الاتفاق بين الخبرين دليل قوى على دقة كتاب «تاريخ البطاركة».

حقا إنه لا يمكن فى بعض الأحوال أن نعرف الكاتب الحقيقى لخبر من أخبار ذلك الديوان وسبب ذلك أن التراجم والوثائق الأخرى التى أدخلت فيه قد كتبها كتاب مختلفون فى مدّة حياة البطارقة المتعاقبين أو بعد موتهم بقليل. وعلى ذلك فان حكاية الكاتب عن نفسه يقصد بها أشخاص مختلفون فمثلا قال المصنف فى آخر ترجمة حياة ميخائيل الأوّل«وقد بقى البطريق على كرسى الكرازة ثلاثا وعشرين سنة ونصف سنة كما وجدنا ذلك فى مكتبة دير القدّيس مقاريوس إلى سنة ٧٦٨» ولا يمكن أن يكون هذا المصنف هو عين الكاتب الذى يذكر(أنستاسيوس) أنه صار أمبراطور الروم وأنه كان لا يزال على عرش الدولة إلى وقته مع أن هذا الكاتب لابد أن يكون هو الكاتب الذى علق على قوله«لا يزال» فالحقيقة أن النسخ المخطوطة التى كانت فى المكتبة كانت تنقل حرفا حرفا ولفظا لفظا عن أصحابها وهى ترجع إلى أقدم الأزمان وأكثرها كتب فى وقت حدوث الحوادث التى تصفها وهذه الحقيقة تجعل لتلك الوثائق أكبر قيمة. حقا إن تلك الدواوين لا تخلو من ذكر خوارق المألوف والمعجزات كما أنها لا تخلو من الأخطاء كما لا يخلو ديوان مؤرّخ عربى منها، ولكنا إذا استبعدنا من وثائق التاريخ القديم كل ما تشوبه الخرافات أو تتخلله الأخطاء وإذا نحن أغفلنا تلك الوثائق فلم

فلم نعتد بدلالتها لم يبق لنا إلا القليل فى أى باب من أبواب التاريخ ـ وإنا نقول إجمالا غير وجلين ولا موارين إن أخبار دواوين تراجم البطارقة صادقة فى جملتها فيما تنص عليه من أخبار التاريخ وقد ثبت ذلك وخلص من كل شك.

وقد تمسك المؤرخ(لين بول) بكلمة خيل إليه أن ساويرس قالها وهى اعتراف بعدم معرفة اللغة اليونانية أو القبطية. حقا لقد حدث هذا الاعتراف وصاحبه هو كاتب المقدّمة الثالثة للكتاب ولكن قام الدليل القوى على أن اسم ساويرس قد ألصقه الناسخ خطأ بتلك المقدّمة ولم يكن فى الإمكان أن يكون ساويرس كاتبها. فاذا نحن فحصنا الأمر لم نجد إلا تبريرا ضعيفا ـ أو لعلنا لا نجد تبريرا لقول من يقول إن ساويرس لم يعرف اللغة اليونانية ولا اللغة القبطية وإذا أمعنا النظر وجدنا كل ما يدل على أن تاريخه كان تصنيفا بالغا مبلغا عظيما من الدقة قائما على أساس من الوثائق الصحيحة. فمن الخطأ على ذلك أن نجرح دلالته. وفى الحق انا لا نعلم أن مؤرّخا واحدا من المؤرّخين العرب يمكن أن نظهر أن تاريخه يعدل كتاب ساويرس فى أنه قائم على سلسلة غير منقطعة من الأخبار المدونة التى كتب أكثرها كتاب عاشوا فى عصرها فان المؤرّخين العرب يروون أخبارا عدّة عن العصور القديمة ولكنهم قلما ينقلون عن الوثائق الأصلية نصوصها أو يسندون أخبارهم إليها. ومعنى هذا القول أن التاريخ القبطى قائم على أساس أقرب إلى العلم وأمتن فى الدلالة، ألا وهو أساس الوثائق المخطوطة.

وبعد فان ماذكرناه آنفا يدل على أن لكتاب ساويرس قيمة عظيمة بين مصادر التاريخ وعلى أن قوله فى المقوقس وشخصيته لا يجوز أن يغفل بغير روية ولا فحص.

فلنمض الآن إلى قول ساويرس أو بقول أدق لنمض إلى قول المؤرّخ الذى ترجم حياة بنيامين لنرى ما فيه. قال:

«فلما ملك الأرض (هرقل) اقام الولاه فى كل موضع وانفذ واليا إلى أرض مصر يدعى المقوقس ليكون بطركا ووالى معا، فلما وصل الى اسكندريه اعلم الاب بنيامين ملاك الرب به وامره ان يهرب... واقام مختفيا هناك فى دير صغير فى البريه إلى كمال العشر سنين» انظر ص ٥٦٩ وبعدها قال المؤرّخ «وهى السنين التى كان فيها هرقل والمقوقس مسلطين على ديار مصر» ثم قال بعد ذلك عن قيرس إنه «حاكم الاسكندرية الكافر الذى كان بطريقا وحاكما

من قبل الروم» وهذا القول يؤكد أن قيرس كان هو المقوقس تأكيد لا إبهام فيه وقد بينا أن هذا يتفق كل الاتفاق مع ما جاء فى النسخة العربية من تقويم القديسين إذ جاء فيها «كان المقوقس كبير المذهب الخلقيدونى وقد جعل حاكما على مصر وبطريقا لها» كما أنه يتفق مع النسخة الأتيوبية من ذلك التقويم إذ جاء فيها«المقوقس أى الحاكم والبطريق فى الإسكندرية وفى جميع بلاد مصر» وقد أظهرنا كذلك الاتفاق التام مع ما جاء فى الوثائق المخطوطة (البودلية) وهى مما تخلف عن ذلك العصر وفيها نص على أن المقوقس كان يجمع الرئاستين رئاسة الدين ورئاسة جباية الأموال فى مصر كما أننا أظهرنا أن وثيقة مخطوطة سريانية تختلف عن زمن قريب من ذلك العصر وهى الديوان المجهول الكاتب (chrouicon Anouymum) قد جاء فيها أن بطريق الإسكندرية هو الذى دافع العرب عن مصر فى حين أن ابن عبد الحكم يصف عامل هرقل على مصر بأنه كان يجمع سلطة الحرب الكاملة وسلطة جباية الأموال ويسميه بالمقوقس.

وقول مؤرّخى اليونان يوصلنا إلى النتيجة نفسها فان نيقفوروس يذكر أن هرقل أرسل (ماريانوس) إلى الاسكندرية ليشترك مع قيرس بطريق الاسكندرية فى الاستقرار على خطة يسيران عليها مع العرب ثم يقول فى موضع آخر إن قيرس كان أسقف الاسكندرية.

وتيوفانز أصرح قولا إذ يقول «ولما مات جورج (البطريق الملكانى أو الخلقيدونى) أرسل قيرس ليكون أسقف الإسكندرية بعده» ولما ذكر العرب قال«فغزوا مصر واتهم قيرس بأنه سلم ذهب مصر إلى العرب فأرسل إليه الأمبراطور رسالة شديدة يأمره فيها أن يعود من مصر».

فالحقائق التى يدل عليها قول هذين المؤرّخين هى أوّلا أنهما متفقان على أن قيرس كان بطريق الاسكندرية ويقول نيقفوروس إن(مريانوس) كان قائدا حربيا أرسله هرقل وأمره أن يشترك مع قيرس فى الاحتيال فى أمر العرب خاصة، وهذه عبارة تدل على أن قيرس كان له أمر الدنيا، كما كان له أمر الدين فى مصر، فى حين أن تيوفانز يقول إن قيرس عند ما رضى بدفع الجزية للعرب غضب عليه هرقل وأمره بالعودة من مصر، وهذه العبارة كذلك تدل على أن قيرس كان له أمر الدنيا إذ كان نائبا عن هرقل ولا شك أن تيوفانز يعنى بقوله هذا معاهدة مصر التى رضى بها قيرس ثم ردّها هرقل غاضبا.

وما أقرب الصلة بين قول هذين المؤرّخين اليونانيين وبين قول مؤرخى العرب اللهم إلا فى أمر واحد وهو أن العرب يذكرون اسم المقوقس فى المواضع التى يذكر فيها اليونان اسم قيرس فان مؤرخى العرب متفقون على أن الذى صالح عمرا هو المقوقس وأن ذلك الصلح كان مشروطا فيه الرجوع إلى هرقل لموافقته وأن هرقل غضب وردّه حانقا ـ حقا إن العرب لا يذكرون أن هرقل أمر المقوقس بالعودة من مصر، ولكن المؤرخ الذى كان قريبا من ذلك العصر وهو حنا النقيوسى ذكر أن قيرس أمره هرقل بالعودة والخروج من مصر.

بقى علينا أن نذكر باختصار ما قاله مؤرخان مسيحيان وهما أبو صالح وسعيد بن البطريق (أوتيكيوس) فقد قال أبو صالح إن المقوقس ولاه هرقل على مصر وقال كذلك إن السنوات العشر التى كان فيها البطريق بنيامين طريدا فى منفاه كانت السنوات التى حكم فيها المقوقس مصر. ولسنا ننكر أن أبا صالح يقول إن اسم المقوقس هو جورج بن مينا ولا ننكر أن سواه من المؤرّخين يذكرون له أسماء أخرى، ولكن حسبنا أن نقول إنه لم يورد أحد من المؤرّخين الأوّلين إسما ما لحامل ذلك اللقب المقوقس فاذا جاء ذكر اسم له بعد موت المقوقس بخمسة قرون أو ستة لم يكن ذلك دليلا يقاوم الأدلة المتراصة المتراكمة التى تدل على أن المقوقس هو قيرس، وعلى ذلك يمكن أن نقول إن أبا صالح الأرمنى يتفق مع مؤرّخى القبط واليونان والمصريين فى ذكر العمل الذى كان يعمله المقوقس ويتفق مع ساويرس فى أن المقوقس كان المضطهد الخلقيدونى الذى اضطهد القبط وطرد بنيامين إلى منفاه.

وأما سعيد بن البطريق (سنة ٨٧٦ ـ ٩٣٩) فقد كتب قبل أبى صالح بنحو ثلاثة قرون ويجب أن نذكر أنه لم يكن خلقيدونياً فحسب، بل قد كان بطريقا ملكانيا لمصر وهو يقول «وبعد هرب جورج صار قيرس بطريق الاسكندرية وكان مارونيا على مذهب هرقل» وقال فى موضع آخر «وكان العامل على الخراج بمصر المقوقس من قبل هركل الملك» ثم قال «وكان يعقوبيا (أى قبطيا) يكره الروم ولكنه كان يخشى أن يظهر عقيدته اليعقوبية خوفا من أن يقتله الروم».

ولا شك فى أن ذلك المؤرّخ الذى كان بطريقا ملكانيا كان شديد الحرص على أن يزيل عن قيرس معرّة تسليم مصر إلى العرب فاضطره ذلك إلى أن يتورّط فى أقوال عجيبة، فلما قال إن قيرس جاء إلى مصر عند تولية هرقل ليكون بطريقا للاسكندرية، قال فى نفس

الصفحة إنه لم يول بطريق ملكانى للاسكندرية لمدّة سبع وتسعين سنة بعد هرب جورج وهذا قلب جرئ ومسخ لحقائق التاريخ فالظاهر من هذا أن ابن البطريق لا يرضى بأن يسلم بأن قيرس كان بطريقا ملكانيا وهو فى الوقت عينه يتهم المقوقس بأنه كان قبطيا يخفى عقيدته فى قلبه وهذه التهمة اعتراف منه بأن المقوقس كان ملكانيا فى ظاهره ـ حقا إن ابن البطريق لا يقول صراحة إن قيرس كان المقوقس ولكن هذا الاتفاق فى قوله ذو دلالة عظمى ـ ولقد قال إن المقوقس كان العامل على الخراج من قبل هرقل فهو بذلك يتفق مع ابن عبد الحكم ومع الوثائق القبطية(البودلية) وابن البطريق مثل سائر مؤرّخى العرب يذكر أن المقوقس كان حاضرا فى حصن بابليون عند الحصار ثم خرج منه إلى الروضة لمفاوضه عمرو وأنه صالح عمرا بعد ذلك على معاهدة مصر ولكنا نرى أن ابن البطريق لم يذكر أن قيرس هو المقوقس لأنه كان يجهل ذلك الأمر لا لأنه كان يقصد التضليل والتدليس ولقد ظهر جهله بذلك الأمر فى موضع آخر إذ قال إن المقوقس كان حيا فى وقت ثورة منويل.

إلى هنا بينا ما هنالك من أدلة بينها اتفاق عجيب فى بعض الأحايين واختلاف واسع فى أحايين أخرى وقد استمددنا تلك الأدلة من وثائقها الأصلية ومنها ما تخلف عن العصر الذى نصفه وهى من أصول متباينة: منها اليونانى والقبطى والسريانى والعربى، وكلها تدل على أن المقوقس إنما هو قيرس بطريق الاسكندرية والعامل على الخراج والحاكم العام على مصر فى وقت الفتح.وليس ينقض هذا الرأى أن يقول قائل إن مؤرّخى العرب قد يطلقون لقب المقوقس أحيانا على شخص يسمونه ليس هو قيرس، ولسنا ننكر أن الأمر كذلك ولكنا نكرر كل الانكار تلك النتيجة التى يذهب إليها أصحاب ذلك القول وهى أن لقب المقوقس لم يكن علما على شخص معين واحد وحجتهم فى ذلك أنه قد أطلق خطأ فى بعض الأحوال على أشخاص متعدّدين.



بحث تاريخى عن المقوقس

بقلم الأستاذ كامل بك صالح نخله

أطلق مؤرخو العرب والقبط اسم المقوقس على الوالى الذى كان له اعظم نصيب فى حوادث الفتح العربى وكان العامل القوى على تسليم مصر اليهم.

واختلف العرب على حقيقة شخص المقوقس واسمه وجنسه وخلطوا فى ذلك بأن لقبوه بعظيم القبط ودعوه باسم المقوقس جريج بن مينا.

ولم يكن المقوقس قبطيا كما توهم مؤرخو العرب ومن جاراهم من الغربيين بل انه رومى الجنس وهو قيرش Cyrus اسقف فاسيس بارمينيا من بلاد القوقاس بآسيا. وقع اختيار الامبراطور هيرقل عليه لمهمة توحيد المذاهب الدينية المسيحية فى مملكته وعلى الاخص فى مصر وسائر المشرق فعينه بطريركا ملكيا للكرسى الاسكندرى بدل البطريرك جورج الملكى وولاه جباية الخراج فى الوقت ذاته واصبح يجمع بين يديه السلطتين الدينية والمدينة فى مصر.

ولم يكن فى ذلك بدعة جديدة بل كانت له سابقة معروفة حدثت فى القرن السادس عندما عرض الامبراطور على البابا الارثوذكسى تيودسيوس الاول البطريرك ٣٣ ان يكون بطريركا على الكرسى الاسكندرى وحاكما على مصر معا إذا هو قبل طمس لاون واعتنق مذهبه الدينى الخلقدونى وقد رفض هذا العرض (تاريخ البطاركة) فليس مستغربا ان يمنح هيرقل الرياستين الدينية والمدينة الى شخص قيرش البطريرك الخلقدونى

هذا ولم يحصل قط فى عهد حكم الرومان والروم البيزانطيين ان تقلد ولاية الحكم فى مصر منذ اغسطس قيصر الى وقت هيرقل وال قبطى اى مصرى الاصل.

ولبثت حقيقة مسألة واسم المقوقس ومنصبه وجنسيته زمنا طويلا غامضة ومعضلة عسرة الحل الا انه امكن الوصول الى حلها بالرجوع الى كتاب التاريخ المحققين المعاصرين لهذا المقوقس والذين دونوا حوادث الفتح العربى واظهروا شخصية المقوقس وجنسيته بكل وضوح فى كتبهم سواء كانت بالقبطية الصعيدية أو البحيرية أو العربية وأيدهم علماء التاريخ الاوربيين وغيرهم.

(١) المصادر القبطية

ولنبدأ بذكر المصادر القبطية التى هى أقدم عهداً من سائر المصادر الاخرى وأصحها.

أولا ـ تاريخ حياة القديس انبا شنوده رئيس المتوحدين الذى نشره العلامة اميلنو عن اصل قبطى كتب فى القرن السابع (طبعة باريس سنة ١٨٨٨ صفحة ٣٤٠) جاء فيه الخبر الآتى فى شكل نبوة وهو : ـ

«ثم سيظهر المسيح الدجال يمثل بين يدى ملك الروم فيجمع له ولاية الدين والدنيا وسيجئ الى مصر ويناصب فيها كبير الاساقفة بالاسكندرية العداء وسيهرب منه هذا الى أرض تيمان» وهذا بلا شك وصف دقيق لقيرش وما كان منه من معاملة البابا بنيامين.

ثانيا ـ تاريخ الانبا صموئيل القلمونى رئيس دير القلمون المكتوب فى الجيل السابع الميلادى المعروفة بالوثيقة البودلية

(١) جاء باللغة القبطية باللهجة الصعيدية شذرة من تاريخ انبا صموئيل القلمونى وما جرى له مع المقوقس نقتطف منها الشواهد الآتية (نقلا عن المجلة الاسيوية عدد نوفمبر ـ ديسمبر سنة ١٨٨٨)

(ص٣٦٥) وترجمته: «واما من جهة المقوقس البطريرك الكاذب فانه صار حاقدا لحين وصوله لمدنية الفيوم».

ص ٣٦٧ وترجمتها «لانك لم تكرمنى بصفة كونى بطركا ولم تراعنى أيضا أنا وسلطانى بصفة كونى عاملا على خراج كورة مصر».

(٢) جاء أيضا فى النسخة العربية لتاريخ صموئيل القلمونى الشذرات الآتية ـ

(أ) «فى ذلك» الزمان ظهر رجل يعرف بالمقوقس يقول بأمانة لاون مجمع خلقيدونية وتولى على الديار المصرية من قبل هرقل الروم وكان على الخراجات والثغور بالديار المصرية فابتدأ يضطهد الارثوذ كسيين فى كل مكان ويكلفهم الاعتراف بأمانته. وطلب ابانا البطريرك انبا بنيامين ليقتله ويجلس موضعه على كرسى البطريركية فهرب إلى صعيد مصر وستره الله

وخلص من يديه. ثم بعد ذلك جلس المقوقس على الكرسى الرسولى وأخرج الطومار الذى للاون المخالف فقرأه على الشعب وأمرهم باجابته وقبوله. ووجه جنديا قاضيا وبصحبته سياف إلى جبل شهات وعلى يده ذلك الطومار النجس الذى لخلقدونيه وأمره أن يكلف الشيوخ الذين بشيهات أن يعترفوا به من كبيرهم إلى صغيرهم لأن جميع الكورة المصرية تابعة لأولئك الشيوخ وأوصاه قائلا: «أطلب باجتهاد وفى قلالى الرهبان والأماكن المقفرة الشيوخ لعلك تجد رئيس هذا الشعب المدعو بنيامين وارسله لأنتقم منه فما دام هو حيا لاتثبت لى رياسة البطريركية بالكورة المصرية. هكذا وصل ذلك الجندى إلى الجبل المقدس بفنطسة عظيمة ومعه مئتا جندى وجلس فى الكنيسة العظيمة التى للقديس مكاريوس وأمر أن يجتمع الرهبان من كبيرهم الى صغيرهم ثم سأل عن الايغومانس بجبل شيهات المدعو الانبا يوحنا فلم يجده...».

(ب) «وإذا بقيرش المقوقس قد اقبل مصعدا من كورة مصر فى طلب البطريرك بنيامين».
وجاء ذكر ذلك عندما سكن صموئيل دير القلمون فى الفيوم كما جاء فيه أيضا ـ

(جـ) «وأما المقوقس المدعى البطركية فقد اضمر الغش فى قلبه الى مدينة الفيوم وسير للوقت غلمانا ومجندين ليأتوه بالقديس انبا صمويل وهو مربوط اليدين الى خلف وفى عنقه سلسلة ينقاد كمثل اللص فمضوا الى الدير وأتوا به فكان يتمشى متهللا بفرح قائلا: لعل أن يكون فى هذا اليوم سفك دمى على اسم المسيح ومن أجل ذلك يكتب المقوقس علانية لعله أن يظفر بما قد أضمر فى نفسه» وهكذا أقامه الجند قدام المقوقس فلما رأى ذلك الكافر رجل الله امتلأ غضبا وأمر الجند بضربه الى أن يسيل دمه على الأرض وكان يقول له: «أنت صمويل المدعى النسك. من الذى أقامك مدبرا على الأديرة ومن أمرك أن تعلم الرهبان أن يبتعدوا عنى وعن أمانتى؟» فقال له القديس: جيدا أن نطيع الله وقديسيه البطاركة وما نطيعك وتعليمك الشيطانى. يا ابن الشيطان والمسيخ الدجال المضل. فلما سمع القديس يقول هذا أمر أن يضرب على فيه قائلا: «يا صمويل ان المجد الباطل الذى يمجدك به الناس أفسد عقلك ولكن ساؤدبك وأعلمك أن تتكلم حسنا لأنك لم تمجدنى كبطرك ولم تكرمنى لسلطانى وكونى رئيسا على الخراجات والثغور بكورة مصر».

ثانيا: ديوان لا يعرف كاتبه وهو عبارة عن وثيقة سريانية متخلفة من القرن السابع جاء فيها أن قيرش كان صاحب السلطة الحربية فى مصر وأنه هو الذى دافع العرب عن مصر.

ثالثا: كتب البابا أغاتون البطريرك (٣٩) (من سنة ٦٦٢ ـ ٦٨٠م) يصف ما جرى للبابا بنيامين البطريرك (٣٨) سلفه عندما دعى لتكريس هيكل بنيامين ببيعة القديس مكاريوس المستجدة ببرية شيهات باللغة القبطية جاء فيها العبارة الآتية: وهذه ترجمتها العربية: ودعوت القس أغاتو الذى لى الذى تألم معى على الايمان فى زمن البحرية لما كان قيرش المقوقس يطاردنى عدو جميع الخيرات. (القبط تأليف جرجس فيلوتاوس ص ٢٣).

رابعا: كتب ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين من علماء القرن العاشر والذى كان معاصرا للبابا ابرآم بن زرعه البطريرك (٦٨) (من سنة ٩٧٥ ـ ٩٧٨م) فى كتاب تاريخ البطاركة باللغة العربية فى سيرة البابا بنيامين.

(١) «ثم أن هرقل مقدم البطاركة من قبل فوقا الملك الكافر أخذ المملكة وصرف اهتمامه لقتال الفرس وبنعمة السيد المسيح سار اليهم فقتل كسرى ملكهم الكافر وأخرب مدينته وجعلها بربة وحمل نعمتها وسبيها بفرح الى القسطنطينية فلما ملك الارض أقام الولاة فى كل موضع وانفذ واليا الى أرض مصر يدعى قيرس ليكون بطركا وواليا معا فلما وصل الى الاسكندرية أعلم الاب بنيامين ملاك الرب به وأمره أن يهرب» (كتاب مخطوط ١٣ تاريخ بالدار البطريركية ص ٨٨ VR) انظر كذلك ص٥٦٩من متن ساويرس.

(٢) «كمال العشر سنين كما قال له ملاك الرب وهى السنين التى كان فيها هيرقل والمقوقس مسلطين على ديار مصر» (V٨٩) انظر ص٥٧١ من متن ساويرس.

(٣) «انه حاكم الاسكندرية الكافر الذى كان بطريركا وحاكما من قبل الروم» (V٩٠).

(٤) «وأذكنا بالغداة اليوم الثامن من طوبه فقلت ايتونى بالقس أغاتون الذى تعب معى على الامانة فى زمان الشدايد التى لحقتنى عند مطاردة المقوقس عدو الحق لضعفى» (R٩٦). انظر ص٦٠٩من متن ساويرس.

خامسا: جاء فى السنكسار القبطى باللغة العربية المطبوع فى باريس عن عدة نسخ خطية من الجيلين الرابع عشر والخامس عشر فى تذكار اليوم الثامن من شهر طوبه ما يأتى: ـ

(١) «فى هذا اليوم كان تكريز الاسكنا المقدس بدير أبى مقار على يد الاب الطاهر بنيامين

الطاهر بطريرك الاسكندرية وهذا بعدما حل به شدايد من المقوقس وكيف كان هاربا منه فى الصعيد الى كمال عشر سنين وملكوا المسلمين فأما المقرقز فمص خاتماً مسموماً ومات وكان على أمانة خلقدونية وكانوا قد جعلوه وزيراً وبطريركا على بلاد مصر».

(٢) «وفيه ايضا كانت نياحة الأب القديس بنيامين البطريرك... ولما انتخب للبطريركية جرت عليه هو وبقية الأساقفة فقدس الأب وقرب الشعب ووصاهم واعلمهم بما سيكون ثم ارسل كتباً إلى ساير الاساقفة ورؤساء الديارة بأن يهربوا ثم مضى إلى ديارة ابو مقار ثم منها الى الصعيد وبعد خروجه من المدينة وصل والى وبطرك من قبل هرقل فتسلط على البيع وعلى المؤمنين وعاقب كثيراً منهم ومسك اخا القديس بنيامين وعاقبه وكان اسمه مينا واحرق جنبيه ثم غرقه اخيراً.

سادسا: جاء فى السنكسار الاثيوبى: «المقوقس اى الحاكم والبطريك فى الاسكندرية وفى جميع بلاد مصر» ص ١٧٣ اصل وص ١٨٠ ترجمة.

سابعاً: ان تاريخ يوحنا النقيوس وهو من علماء واساقفة القبط فى أواخر الجيل السابع للميلاد يؤيد بكل يقين ان قيرش البطريرك الملكى كان واليا على مصر لأنه كان متوليا كل شؤون الدولة مدنيا ودينيا فهو الذى كان يدير حركة مقاومة الغزو العربى وهو الذى تولى جميع مفاوضات الهدنة والصلح والتسليم وهو الذى كان آلة الامبراطور هيرقل فى اضطهاد اتباع مذهب المستقيمى الرأى وهو الذى كان اكبر محرض عليه (صفحة ٥٦٢ فصل ١١٧ وصفحة ٥٨٤ فصل ١٢١).

ثامنا: جاء فى جداول مقتطفة من تواريخ البطاركة وغيرها من كتب خطية قديمة العهد ما يأيتى: (وكان المقوقز جريج بن مينا الهيراطيقى نايب هرقل بالديار المصرية).

تاسعا: جاء فى كتاب تاريخ ابن الراهب من علماء القرن الثالث عشر الميلادى ما يأتى:ـ

(وقتل هرقل فوقا (الملك) وأخذ الملكة وصرف اهتمامه لقتال الفرس واخرب بلادهم وملك مصر وولى عليها قيرش وجعله بطركا وواليا) (ص ٢٢٢V من كتاب التواريخ المخطوط).

عاشراً: جاء فى الكتاب المنسوب الى ابى صالح الارمنى المكتوب حوالى سنة ١٢٠٠م

الذى طبعه العلامه افتس باكسفورد سنة ١٨٩٤ ما يأتى فى صفحة ٣٨ (ان محمدا بعث حاطب بن ابى بلتعه من لخم الى المقوقس صاحب الاسكندرية) وجاء ايضا فى صفحة ١٠١ (ان هرقل استعمل على مصر جريج بن مينا المقوقس) ثم ذكر احد أديرة الصعيد دون تعيين اسمه وقال: (ان بنيامين اختفى هناك فى حكم الامبراطور الروماانى هرقل الخلقيدونى وحين كان جريج بن مينا حاكما على مصر حتى تمت مدة السنوات العشر وكان ذلك هربا منهما كما انذره الملاك).

نقل ابو صالح من كتاب الجناح ان اسقف الروم فى مصر والاسكندرية كان قيرش (صفحة ٣٨).

حادى عشر: جاء فى تاريخ البطاركة لانبا يوساب اسقف فوة فى سيرة البابا بنيامين: «ثم قام هرقل أول البطارقة قتل فوقا ملك الروم وتقدم الى الفرس وسبى أصحابه وارسل الى أرض مصر واحداً يقال له المقوقز وزير وبطرك فهرب منه بنيامين الى الصعيد والى وادى هبب، ص ٧٤٠.

(النتيجة) يتضح جلياً من الادلة المتقدم ذكرها ان المقوقس كان يقول عن نفسه فى قصة القديس صموئيل انه كان بطريركا وواليا فى آن واحد جامعا بين يديه السلطتين الدينية والمدينة، ومن اقوال ساويرس بن المقفع والاستشهادات الاخرى الصريحة ان قيرش هو المقوقس وانه لم يكن قبطيا بل روميا وانه كان له السلطان فى امر الدين وامر الدنيا من قبل الامبراطور هرقل كما دلت عليه الحقائق التاريخية لهذا العصر والتى لم يختلف فيها مؤرخو القبط وان الفتح العربى تم على يديه وانه كان العامل على تسليم البلاد اليهم.

وقد أثبت يوحنا النقيوسى فى تاريخه بالدليل القاطع ان الذى سلم مصر هو قيرش أما ما رواه ابن المسكين فليس حقيقيا اذ لم يحدث صلح بين العرب وعظماء القبط بل كان الصلح بين العرب والروم مباشرة وعلاوة على ذلك فانه مؤرخ متأخر وليس لتاريخه قيمة ما لأنه استقى الاخبار والحوادث من تأليف العرب وخصوصا من الطبرى الذى اختصر تاريخه.

وقد افرد العلامه جرجس فيلوثاوس عوض فى كتابه (القبط) باباً للمقوقس اثبت فيه انه لم يكن قبطيا بل اجنبيا وانه هو نفس قيرش البطريرك الملكى الذى سلم البلاد للعرب وهو رومى الجنس جمع بين يديه الرئاسة الدينية وولاية الحكم.

هذه هى ادلة المؤرخين القبط الدامغة وحججهم الصريحة التى لا تحتاج الى تأويل أو تفسير.

(٢) المصادر الاسلامية

ولنذكر الآن ما جاء فى كتب اشهر مؤرخي المسلمين نقلا عن كتاب الفتح العربى تأليف العلامه بتلر ص ٥١٧.

اولا ـ البلاذرى من رجال النصف الاول من الجيل التاسع للبلاد يذكر المقوقس ويقول انه صالح عمرا وانه كان قائدا فى الاسكندرية مدة حصار العرب لها ثم يذكر انه فاوض عمرا فى تسليم المدينة وانه كان فى جانب القبط بعد ان ابى هرقل اقرار صلحه ويذكر عند ثورة منويل ان بعض الرواة يذهبون انه ساعد العرب والبعض الآخر انه مات قبل ذلك ويتضح ان قوله فى المقوقس لم يكن دقيقا الدقة اللازمة فى تدوين الحوادث التاريخية الخاصة بالفتح العربى ـ ص ٥٠٧.

ثانيا – اليعقوبى من رجال النصف الاخير من الجيل التاسع للميلاد وهو لم يكن مصريا وذكر ان المقوقس صالح عمرا وان هرقل رفض الصلح ـ ص ٥٠٧.

ثالثا ـ الطبرى من رجال القرنين التاسع والعاشر ميز بين حاكم الاسكندرية وحاكم منفيس ويذكر ان الاخير كان المقوقس وانه كان عظيم القبط وانه ارسل الى منفيس جيشاً تحت قيادة الجاثليق الذى كان كبير أساقفة النصارى واسمه ابن مريم ص ٥٠٧.

رابعا ـ ياقوت من رجال القرن الثانى عشر يذكر ان حصن بابيلون كان حاكمه المندفور الذى اسمه الاعيرج نايبا عن المقوقس ابن قرقب اليونانى الذى كان يقيم فى الاسكندرية ويذكر ان المقوقس هو صاحب الصلح الذى عقد باسم القبط والروم وانه صالح على شرط ان ينفذ بالعهد الى الامبراطور ليقره. وهذا المؤرخ يعتبر المقوقس حاكما على مصر (٥٠٨).

خامساً ـ ابن الأثير من رجال القرن الثانى عشر: يذكر أبا مريم وأبا مريام وأن الأول كان جاثليق منفيس وأن الثانى كان أسقفا وأن المقوقس أرسلهما ليقاتلا عمرا ولكنهما فاوضاه وصالحاه على شروط رفضها المقوقس وأن المقوقس كان يقود الجيش بنفسه فى موقعة عين

شمس ثم ذكره بعد ذلك أنه حاكم الاسكندرية فى وقت الحصار وأنه صالح عمرا وكان حيا عند ثورة منويل.

ويظهر أن هذا المؤرخ كان يخلط بين الأسقف ورئيس الأساقفة والجاثليق (ص٥٠٧).

سادسا: ابن خلدون من رجال القرن الرابع عشر: يتبع ابن الاثير فى روايته غير أنه جعل المقوقس قبطيا.

سابعا ـ المقريزى من رجال القرن الرابع عشر: يروى عن يزيد بن ابى حبيب عبارة أن المقوقس الرومى كان واليا على مصر وصالح عمرا ويروى عن ابن عبدالحكم خبر حياة المقوقس فى ثورة منويل وابن الحكم هذا هو مؤرخ قديم مات سنة ٨٧٠ ميلادية.

ويتفق المقريزى مع ياقوت فى ذكر الاعيرج وفى أن المقوقس بن قرقب أو فرقت كان يونانيا ويذكر أن القبط كان لهم فى الاسكندرية أسقف اسمه أبو ميامن وأن المقوقس صالح العرب على أن هرقل لم يقر صلحه وعنفه. وذكر قيرش فقال ان هرقل أقام قيرش بطرك الاسكندرية (ص٥٠٨).

ثامنا ـ ابن دقماق من رجال القرن الرابع عشر يذكر المقوقس الرومى الذى كان ملك مصر وصالح عمرا (ص ٥٠٨).

تاسعا ـ أبو المحاسن من رجال القرن الخامس عشر يذكر بنيامين أسقف الاسكندرية ويقول أن قائد قصر الشمع كان الاغيرج (بالغين) وكان تحت أمر المقوقس وذكر أن اسم المقوقس جريج ابن مينا وذكر كذلك أن قائد الحصن كان المندوفور المسمى الاغيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى. وروى عن ابن كثير أن المسلمين عندما دخلوا مصر قابلهم أبو مريم جاثليق مصر وأبو مرتام الاسقف ثم ذكرهما عند بناء الفسطاط (ص ٥٠٨ و ٥٠٩).

عاشراً – السيوطى من رجال القرن الخامس يتفق مع أبى المحاسن فى رواياته ص ٥٠٩.

النتيجة

يظهر جليا من أقوال كبار مؤرخى العرب المسلمين هذه أنهم كانوا فى حيرة عظيمة وأن اختلافاتهم كثيرة إذ ليس لديهم عن هذا الحادث سوى معلومات غير وثيقة ولكنهم ذكروا

المقوقس ولقبوه بعظيم القبط أو أمير القبط ولم يذكروا أنه كان قبطيا وأنه لم يكن من القبط إلا أن البعض منهم ذكر أنه كان يونانيا وكان واليا من قبل هرقل وأنه عقد الصلح مع العرب وأن هرقل لم يقر صلحه ودعاه العرب فى الجيل الثانى عشر بجريج بن قرقب وذهب بعضهم إلى أن قرقب تحريف لابن قرقر كما رواه أبو صالح الارمنى ولم يعرف المقوقس باسم جريج بن مينا إلا فى أوائل الجيل الثالث عشر للميلاد.

وأن جريج ربما كان محرفا عن قيرش بقلب القاف جيما وقلب الشين جيما معطشة وكذا لقب المقوقس أو المقوقز قد يكون نسبة إلى القوقاز أو القوقاس التى كان أسقفا عليها قبل توليه بطركية الاسكندرية.

وقد يكون اسم جريج خلطا بين اسمه واسم جورج قائد حامية حصن بابيلون الذى حرف العرب اسمه باسم أعيرج.

وقد ذهب بعض المحققين أن جريج مشتق من جريجوريوس أو غريغوريوس أو كركور وهو اسم أرمنى ومنها أتى لقب ابن قرقر وأن اسم والده جريجوريوس فيكون قيرش بن جريجور وجريجور بن مينا.

وقد أجمع مؤرخو العرب على تعيين العمل الذى كان يعمله المقوقس ولكنهم لم يتفقوا على الاسم الذى كان يسمى به ولا على تعيين جنسيته.

أما معنى كلمة المقوقس فأصعب وأعسر من ذلك وقد قال بتلر أن هذه الكلمة كتبت فى النصوص القبطية «ابقفقيوس» وفى اليونانية (قفقاسيوس) أى القوقازى لأن موطن قيرش وأصله كان من أهم مواضيع التساؤل بين آل الاسكندرية الذين اعتادوا الفضول والاهتمام بمثل هذه الامور وكان الجواب على تساؤلهم (قفقاسيوس) وذلك لأن هرقل نقل قيرش من مركز الرئاسة الدينية فى فاسيس ببلاد القوقاز ونشأ من هذه الكلمة الاسم العربى المقوقس.

أما ابن مريم وابن مرتام فهما اسمان لا سقفى منف وبابيلون الملكيين. أما أبو الميامن فهو اسم للبطريرك الارثوذكسى بنيامين.

(٣) مصادر العرب المسيحيين

ولنذكر الآن ما دونه مؤرخو العرب المسيحيون (غير القبط).

أولا ـ سعيد بن بطريق وهو سورى الاصل ويعرف باسم البطريرك افتيخوس الملكى الاسكندرى المولود ٨٧٦م يذكر فى تاريخه المطبوع أن المقوقس كان عاملا على الاموال فى مصر لهرقل وأنه كان يعقوبيا فى الباطن ولكنه كان فى الظاهر ملكيا وأنه منع الجزية التى كان عليه أن يرسلها للامبراطور هرقل منذ حصار الفرس للقسطنطينية ولم يذكر للمقوقس اسما وذكر أنه كان حيا إلى مابعد ثورة منويل وأن هرقل صير قيرش بطريركا على الاسكندرية وكان مارونيا وذكر أن البطريرك فاوض عمرو أثناء الاقتتال فى الاسكندرية ولم يذكر بعد ذلك شيئا عنه كما لم يذكره بالاسم (جزء ثانى ص ١٢ و ٢٢ و٢٣ و٢٤).

ثانيا ـ أبو الفرج بن ا لعبرى وهو سريانى الاصل من رجال الجيل الثالث عشر ولم يذكر شيئا عن المقوقس فى تاريخه.

النتيجة

قرر سعيد بن بطريق صراحة أن المقوقس كان عاملا على الخراج فى مصر من قبل هرقل وأنه اغتال أموال الدولة التى أؤ تمن عليها وانه كان من ذوى الاعتقاد بالطبيعتين فى الظاهر ولكن تحاشى الاعتراف بأن قيرش البطريرك الملكى هو نفس المقوقس حتى لا يلصق لمركز البطريركية الملكية الخيانة والغدر وهو من خلفائه على الكرسى من الملكيين ورغم شدة حرصه فى كتابته فقد اعترف أن عمرو بن العاص مثل امام البطريرك وقت الاقتتال فى الاسكندرية فكيف يقابل القائد الأعلى البطريرك ولا يقابل الوالى فى المفاوضة إن لم يكن الاثنان واحداً وله عذر فى مراوغته لأنه يسعى فى كتابته كى يزيل عن قيرش تهمة تسليم مصر إلى العرب فاضطر كما قال العلامة بتلر إلى المراوغة والتورط فى أقوال عجيبة ويقلب كل حقائق التاريخ ويمسخ الوقائع الصحيحة التى تقرأ من بين سطور كتابته أن البطريرك والوالى شخص واحد.

(٤) مصادر اليونانيين

ولنذكر بعد ذلك ما قاله مؤرخو اليونان:

أولا ـ ذكر نيقوفوروس أن هرقل أرسل ما يانوس إلى الاسكندرية ليشترك مع قيرش بطريرك الاسكندرية الملكى فى الاستقرار على الخطة التى يتخذانها مع العرب ثم قال فى موضع آخر أن قيرش كان أسقف الاسكندرية.

ثانيا ـ ذكر تيوفانس أنه لما مات جورج أرسل قيرش ليكون أسقف الاسكندرية بعده وقال عن العرب أنهم غزوا مصر واتهم قيرش بأنه سلم ذهب مصر إلى العرب فأرسل اليه الامبراطور رسالة شديدة يأمره فيها أن يعود من مصر.

النتيجة

ويتضح من أقوال هذين المؤرخين أن قيرش بطريرك الاسكندرية الملكى وكانت له الكلمة فى الأمور المدنية والمالية والحربية بدليل اشتراكه مع مندوب القيصر فى تدبير أمور الدفاع وعقده للمعاهدة مع العرب وهى المعاهدة التى رفضها هرقل وتفريطه فى أمواله الدولة التى كان موكلا عليها وهذا يتفق كل الاتفاق مع الحقائق التى ذكرها مؤرخو القبط ويوضح ماغمض فى كلام ابن بطريق الذى سلم معهم أن البطريق كان يفاوض عمرو.

(٥) المصادر الافرنجية

(١) يزعم فون رنك Von Rank أن المقوقس كان حاكم مصر وأنه كان قبطيا وقد كان هذا العلامة يشك فى حقيقته التاريخية.

(٢) يذكر العلامة دو جوج De geoje أن مؤرخى العرب خلطوا فى بعض المواقع بين المقوقس وقيرش البطريرك الملكى وأنه كان شخصا آخر عمله غير عمل المقوقس.

(٣) ذهب الأستاذ كرابيسك Karabacek إلى أن اسم المقوقس هو جورج بن مينا برقبيوس وبهذا يفسر اسم فرقب أو قرقب الذى يسمى به بعض المؤرخين أبا المقوقس ورأى هذا الأستاذ أن المقوقس كان حاكما لأقليم وأن لقبه تحريف عربى للفظ اليونانى الذى كان لقبا تشريفيا.

(٤) وقال المستر ملن Milne أن المقوقس كان جورج حاكم الأقليم الشرقى الذى ذكره يوحنا النقيوسى.

(٥) ذهب الاستاذ استانلى بول Stanley Pool إلى أن الاسم تحريف للقب اليونانى التشريفى ويتبع رأى الاستاذ ملن فى زعمه أنه كان حاكم الاقليم الشرقى وعدل أخيرا عن هذا الرأى بعدما اطلع على الابحاث الاخيرة التى بحثها العلامة بتلر واقتنع معه بأن المقوقس لم يكن حاكم الاقليم الشرقى بل انه هو نفس قيرش البطريرك الملكى.

(٦) سماه الاستاذ بورى الحاكم القبطى.

(٧) استنتج أميلينو Amelineau ما يأتى:

(أ) إن خبر ارسال النبى محمد كتابا إلى المقوقس فى عام ٦٢٧م غير حقيقى.

(ب) إن اسم المقوقس هو جورج بن مينا وأما اسم ابن قرقب فهو تسمية أخرى.

(جـ) أن أحد أبوى المقوقس كان قبطيا ان لم يكونا كليهما قبطيين وأنه كان فى خدمة الامبراطور وأنه كان فى أول الامر على المذهب الملكى.

(د) انه كان بطريركا ملكيا ولكن تاريخ ولايته غير معروف إلا بالظن والحدس.

(هـ) ان اللفظ المقوقس كان لقبا مشتقا من لفظة أطلقت على اسم قطعة صغيرة من النقود البرنزية، وقد علق العلامة بتلر على هذا الاستنتاج بأن اميلينو اخطأ فيما ذهب اليه وأنه أخذ برأى بعض من سبقه من المؤرخين دون أن يفحصه فحص ناقد وأنه اضطر أن يعترف بأن المقوقس كان بطريركا ملكيا ولكنه لم يذكر أنه هو نفس قيرش ولم يرجع فى أبحاثه إلى ما كتبه ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونين فى سير البطاركة ولا الى كتاب السنكسار.

(٨) استنتج العلامة بريره Periera ما يأتى:

(أ) ان صاحب الاضطهاد هو شخص عرف باسم المقوقس .

(ب) انه كان من أصل يونانى.

(جـ) انه كان بطريرك الاسكندرية وحاكم مصر ومراقب الاموال.

(د) ان اسمه قيرش.

(هـ) ان اسم المقوقس مشتق من لفظ يونانى.

(٩) وصل العلامة بتلر فى ابحاثه الجديدة التى بحثها لتحقيق شخصية المقوقس ونشرها بعد نشر كتابه «الفتح العربى لمصر» بعشر سنوات الى ان اثبت علميا ان المقوقس لم يكن سوى قيرش البطريرك الملكى بالاسكندرية الذى جمع له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج بارض مصر وانه كان يونانيا ولم يكن قبطيا وانه هو المقصود بالمقوقس فى وقت غزو العرب لمصر.

---

(١٠)وعمل العلامة جان ماسبرو بحثا عن المقوقس وصل به الى ان المقوقس لم يكن شخصا آخر غير قيرش بطريرك الاسكندرية الملكى ووالى مصر فى عهد هيرقل (٦٣١ ـ ٦٤١م) وهو بذلك يتفق فى الرأى مع العلامة الفريد بتلر (كتاب تاريخ بطاركة الكرسى الاسكندرى تأليف جان ماسبرو طبعة باريس سنة ١٩٢٣ ص ٣٥٣)

النتيجة

قد طابقت ابحاث العلامة بتلر ما وصل اليه العلامة بريرا والعلامة جان ماسبرو فى استنتاجاتهما اما باقى المستشرقين فقد استقوا اخبارهم من المصادر العربية الاسلامية دون المراجع القبطية واليونانية ونقلوها بلا فحص وتمحيص ونقد ولذلك لا يمكن التعويل عليها والاعتداد بها.

(٦) الاستنتاج العام

يستنتج مما تقدم ما يأتى: ـ

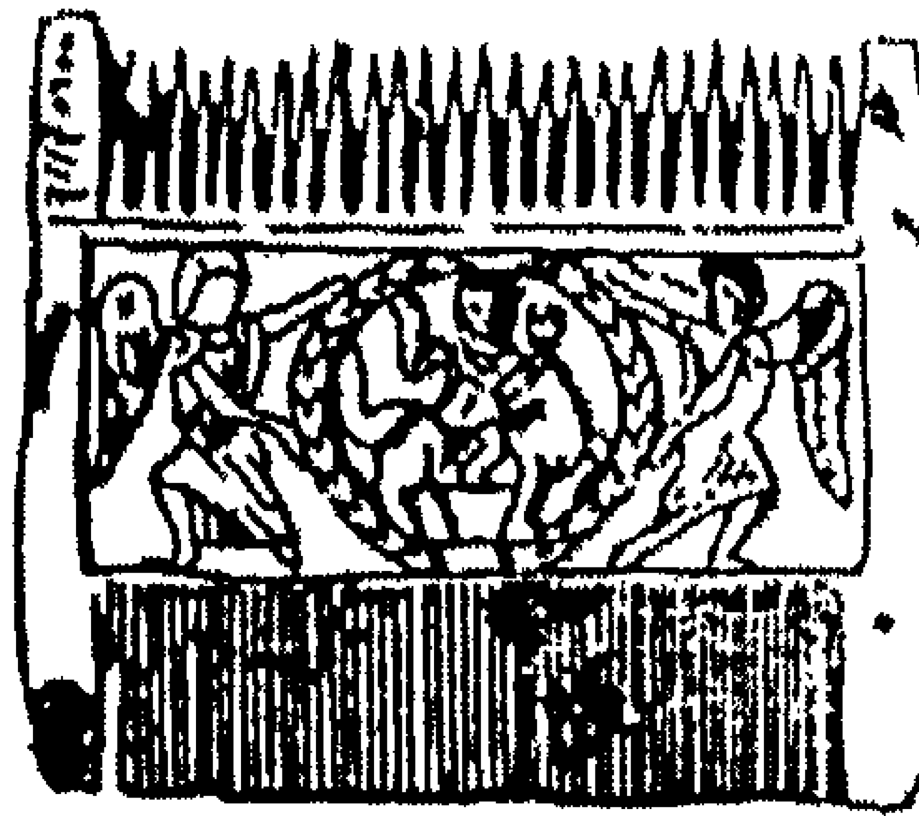
(١) ان المقوقس لم يكن قبطيا بل انه رومى الجنس.

(٢) ان المقوقس هو نفس قيرش البطريرك الملكى الاسكندرى.

(٣) ان قيرش جمع بين يديه السلطتين الدينية والمدينة فى عهد الامبراطور هرقل.

(٤) ان المقوقس قيرش اغتال خراج مصر ولم يقدمه لمولاه الامبراطور هرقل.

(٥) انه هو الذى قام جيوش الروم وفاوض العرب فى الصلح وسلم البلاد اليهم.



وصف الاسكندرية عند الغزو العربى

أرسل عمرو إلى الخليفة كتابا مشهورا يصف فتح الاسكندرية، والرواية المتداولة عنه هى «لقد فتح الله علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر، وأربعة آلاف حمام، وأربعمائة ملهى، واثنى عشر ألف بائع للخضر، وأربعين ألفا من اليهود أهل الذمة». ونرى أن هذه الأعداد فيها مبالغة، ولعلها لم تكن كذلك فى الكتاب الذى بعث به عمرو بل نقلها النساخ خطأ. ومع ذلك فانها تدل دلالة واضحة على ما كان للمدينة من الأثر العظيم فى نفوس الفاتحين، وقد أدهشهم عظمها وفخامتها،

وما كانت دهشة العرب من رسم المدينة باعظم من دهشتهم مما كان تحت أرضها من المبانى فقد رأوا بها عددا عظيما من الصهاريج العجيبة تحت الأرض كان لبعضها طبقات تلى بعضها بعضا أربعة أو خمسة. وكان فى كل طبقة منها عدد عظيم من الحجرات والأعمدة، حتى لقد قال السيوطى إن الاسكندرية مدينة قائمة على مدينة، وإنه ليس فى البلاد مثلها على وجه الأرض. وكان بها عدد عظيم من الأعمدة لم يرمثلها فى موضع آخر فى علوها وعظم حجمها. وكانت هذه الحجرات الدفينة تستخدم لخزن المياه توصل إليها فى قنوات تجرى من الترعة الحلوة [قناة كانوب] التى كانت تشق المدينة فى حى المصريين [كوم الشقافه]، وكانت تملأ فى أوان الفيضان فيشرب الناس منها مدة الحول. ولعل أجمل احياء الاسكندرية فى ذلك الوقت كان حى البروكيون [الحى الرابع، الملكى] والذى كان يحتوى على قصور البطالسة والمقبرة الكبرى التى كانت فيها جثة الاسكندر فى غشاء من الذهب، وكان فيه المتحف وتتصل به مكتبته العجيبة التى كانت مقرّ العلوم فى العالم أجمع. وكان فى ذلك الحى الى الشرق معبد مكشوف اسمه (التترابيلوس)، وهو إيوان به أربعة صفوف من الأعمدة تحيط به، الى جانب كنيسة القديسة (مارية ـ روثيا) بناها (أولوجيوس)، والى شرقها فيما يلى الأسوار على مقربة من البحر الكنيسة الكبرى كنيسة القديس (مرقس) وكانت عند ذلك لا تزال مائلة وفيها مدفن من المومر به جثمان ذلك الرسول. وقد قال (أركولفوس)[1] «اذا أتيت من بلاد مصر ودخلت المدينة ألفيت عند جانبها الشمالى كنيسة كبرى فيها جثمان مرقس الانجيلى

(١) كان (Arculfus) فى مصر حوالى سنة ٦٧٠ للميلاد (Pa'l. Pil. Text. Soc) الجزء الثالث صفحة ٥٢ وقد اضمحلت المدينة بعد مائتى عام حتى أن (برنار الحكيم) حوالى سنة ٨٧٠ يقول «ووراء الباب الشرقى دير القديس مرقص ويعيش الرهبان فى تلك الكنيسة التى كان فيها مدفنه ولكن البنادقة أتوا =

وترى قبره أمام المحراب فى الجانب الشرقى وقد أقيم فوقه شاهد من المرمر» وكان فى الحى نفسه كنيسة القديسين (تيردور) و(اثناسيوس).

وقد عجب العرب أشد العجب من المسلتين من الصخر المحبب الأحمر (الجرانيت) اللتين كانتا فى صدر الكنيسة.

ومن المعلوم أن (الفاروس) أو المنارة كانت أثرا غير المسلتين وهى بناء متين من الحجر شاهق العلو، وأنه لمن المضحك أن يتصور أحد أن بناءها العظيم يقوم على كرسى من الزجاج على هيئة السرطان، ومع ذلك فإنه مما يسر النفس أن يصل الإنسان إلى أصل هذه الخرافة التى تظهر فى مبدأ الأمر سخيفة لا معنى لها. فإنها إنما نشأت من سوء فهم لما ذكره مؤرخو العرب الأوائل من الحقائق التاريخية وتحرّوا فى ذكره الدقة العظيمة، فلا شك فى أن المسلتين اللتين كانتا أمام كنيسة (القيصرون) عند دخول عمرو فى الاسكندرية كانتا على قاعدتين على هيئة السرطان كما وصفهما العرب الأوائل. فقد قام الدليل على هذا عند نقل إحدى المسلتين إلى نيويورك، إذ وجد أن هذا الحجر الهائل كان قائماً على أربع صور من المعدن على هيئة السرطان، وكانت هذه تفصل بين المسلة وبين القاعدة. وكانت القاعدة من قطعة واحدة من صخر (الجرانيت) وكان من تحتها ثلاث طبقات مدرجة من الحجر. ولم يكشف عند نقل المسلة إلا تمثال واحد من التماثيل الأربعة التى عل هيئة السرطان، لأن القاعدة كانت قد مضى عليها زمن طويل وهى مدفونة تحت الأرض. وكان ذلك التمثال نفسه مشوّها، وهذا مثل من الأمثلة الظاهرة التى كانت فيها أعمال الحفر والتنقيب مساعدة للتاريخ مصدقة له.

وقد يقول قائل وماذا كان من أمر الجعلان أو العقارب الزجاجية التى تحت المسلة الأخرى، وما نحسب ذلك القول إلا إحدى الأقاصيص. وليس شئ أشد خطأ من مثل هذا القول لأننا اذا سمعنا وصف أمرين متصلين اتصالا وثيقا وصدق أحدهما صدقا لا شبهة فيه وكان من آيات الدقة، فإن أعجب العجب أن نقول إن الأمر الآخر مكذوب لا صدق فيه، فما يكون قولنا هذا إلا تكذيبا لامبرر له للتاريخ كله. وليس فى وصف هذه المسلات ما يجعلنا فى حيرة

= فى البحر وحملوا جثته إلى جزيرتهم وفى سنة ١٣٥٠ كانت الكنيسة التى استشهد فيها القديس مرقس« على نحو ميلين شرق الاسكندرية» ومن هذا يتضح مقدار اضمحلال المدينة.

بين ما يقتضيه العلم وما يقتضيه التاريخ. لا جرم أننا لا نصدق أن تقول قطعة عظيمة من الصخر فى حجم تلك المسلة التى نسميها مسلة كليوبتره على جعالين من الزجاج مما يصنع فى أيامنا هذه، وما كان فى الزجاج قطع تبلغ من الحجم ما يكفى لمثل هذا القصد. ولكنا نعلم فى المعادن معدنا عظيم الصلابة والرونق وهو الحجر الأسود (الأيسيدى) الذى يشبه الزجاج، ويعرف بالزجاج الطبيعى. ولعل الجعالين التى كانت تحت المسلة الثانية ـ وهى القائمة اليوم فى لندن ـ وكانت من ذلك الحجر الأسود. وإذا كان هذا غير ممكن فلعلها كانت من حجر آخر متين شديد الصقل. وإنا نؤثر أن نصدق ما قاله كتاب العرب بنصه كما جاء فى قولهم، على أن نكذبهم فيه بعد ما ظهر من صدقهم فيه صدقا جليا. فإنا لا نشك فى أن المصريين كانوا فوق براعتهم فى صناعة الزجاج يعرفون من عظيم أسرار صناعته ما نجهل، وليس بالمستبعد أن يكونوا قد استطاعوا صناعة صنف من الزجاج يبلغ من المتانة أن يحمل مثل ذلك الكتلة الصخرية العظيمة. ومن المفيد هنا أن نقول إن المسلة التى حملت إلى لندن كانت قد وقعت على الأرض قبل الأخرى بزمن طويل.

إذن نقول إن أثرين عظيمين كانا قائمين أمام القيصرون على قاعدتين ذات طبقات. وكان أحدهما قائما على أربع سرطانات من النحاس أو الشبه، وكان الثانى قائما على أربع تماثيل من الزجاج المتين أو الحجر الابسيدى على صورة العقارب. وإذا نحن أزلنا ما طرأ من الخلط على هذا الوصف بين المنارة والمسلتين عرفنا أن التماثيل النحاسية التى يذكرها المقريزى لم تكن فى أعلى المنارة حيث لا تكون ظاهرة لرأى العين، ولكنها كانت فى أعلى المسلات. وكان التمثال «الذى يشير إلى الشمس» بغير شك تمثالا ذا جناحين يمثل «هرميس» أو «نيكى» (Nike) (آلهة النصر عند اليونان) وأغلب الظن أنه كان قائما على قدم واحدة فوق قمة المسلة[1] يمد يده اليمن على عادة اليونان، فى تصوير تماثيلهم، وكان التمثال الآخر الذى «يشير إلى البحر» صورة أخرى لا يقصد بها التجميل والزينة، وإيجاد التماثل فى المنظر. ولا بد أن هذه الأعمدة العظيمة القديمة كانت باهرة الرونق الجمال فى صنعها ورسمها الذى أبدعته يد الصناع فى عصر أغسطس، تقع فى النفس موقع الجلال إذا ما وقعت العين على قمتها الشاهقة إذ تمر بها السفن فى دخولها إلى المرفأ أو خروجها منه.

(١) قام الدليل على أن المسلات كان لها غطاء على قمتها من المعدن.

وأما المتحف فلا نجد له ذكرا باقيا إلى يومنا هذا ولا بد لنا أن نقول إنه تخرب وزال قبل ذلك بزمن طويل. ولعل زواله كان فى الحريق الكبير الذى أحدثه يوليوس قيصر عندما حاصره المصريون فى ذلك الحى تحت قيادة (اخيلاس)، أو لعل ذلك حدث أثنا الصراعات التى قامت بين المسيحيين وأصحاب الديانات الأخرى.

حسبنا ما تقدم في ذكر الكنيسة، ولنصف بعد ذلك (السرابيوم) وهو طائفة من الأبنية ذات جمال رائع كان لها أثر عظيم في نفوس العرب. وكان في حي آخر من أحياء المدينة في الموضع الذى به اليوم عمود (دقلديانوس). وكان هذا الحى معروفا بالحى المصرى الذى لم يختفى اسمه في وقت من الأوقات، وذلك الاسم هو (رقوتى). فإن القبط لم يسموا فيما بينهم مدينة الإسكندرية باسم بانيها العظيم، بل كان أكثر حديثهم عنها باسم القرية التى كانت لبعض الصيادين قبل الاسكندر بزمن طويل. وهذا دليل على شدة احتفاظهم بقديمهم. وقد عرف موضع السرابيوم معرفة لا موضع للشك فيها مما جاء في وصفه في الكتب القديمة، ومما أسفر عنه البحث الأثرى في العصور الحديثة.ويقرن ذكر السرابيوم عادة بذكر عمود دقلديانوس وهو الذى سماه العرب (عمود السوارى)، وكان على مقربة من الباب الجنوبى للمدينة وهو الذى يسميه العرب باب الشجرة. ومهما يكن من الأمر فقد كان حصنا معظمه من صنعة الإنسان مع علوه وإشرافه فوق المدينة. فقد كان قائما على نهد له نواة من الصخر الطبيعي، ولكن سائره كان من صنع الإنسان. وكانت أسواره المنيفة تحيط بآزاج معقودة تحت الأرض طبقات بعضها فوق بعض، فكان حصنا عظيما مربع الشكل أعلاه مسطح تزينه أبنية بديعة. والظاهر أنه كان يدخل إليه من طريقين: أحدهما تسير عليه العجلات، والآخر سلم له مائة درجة. على أننا لسنا نعرف القصد الذى من أجله بنى ذلك السلم وكان موضعه فى الجهة الشرقية من البناء،

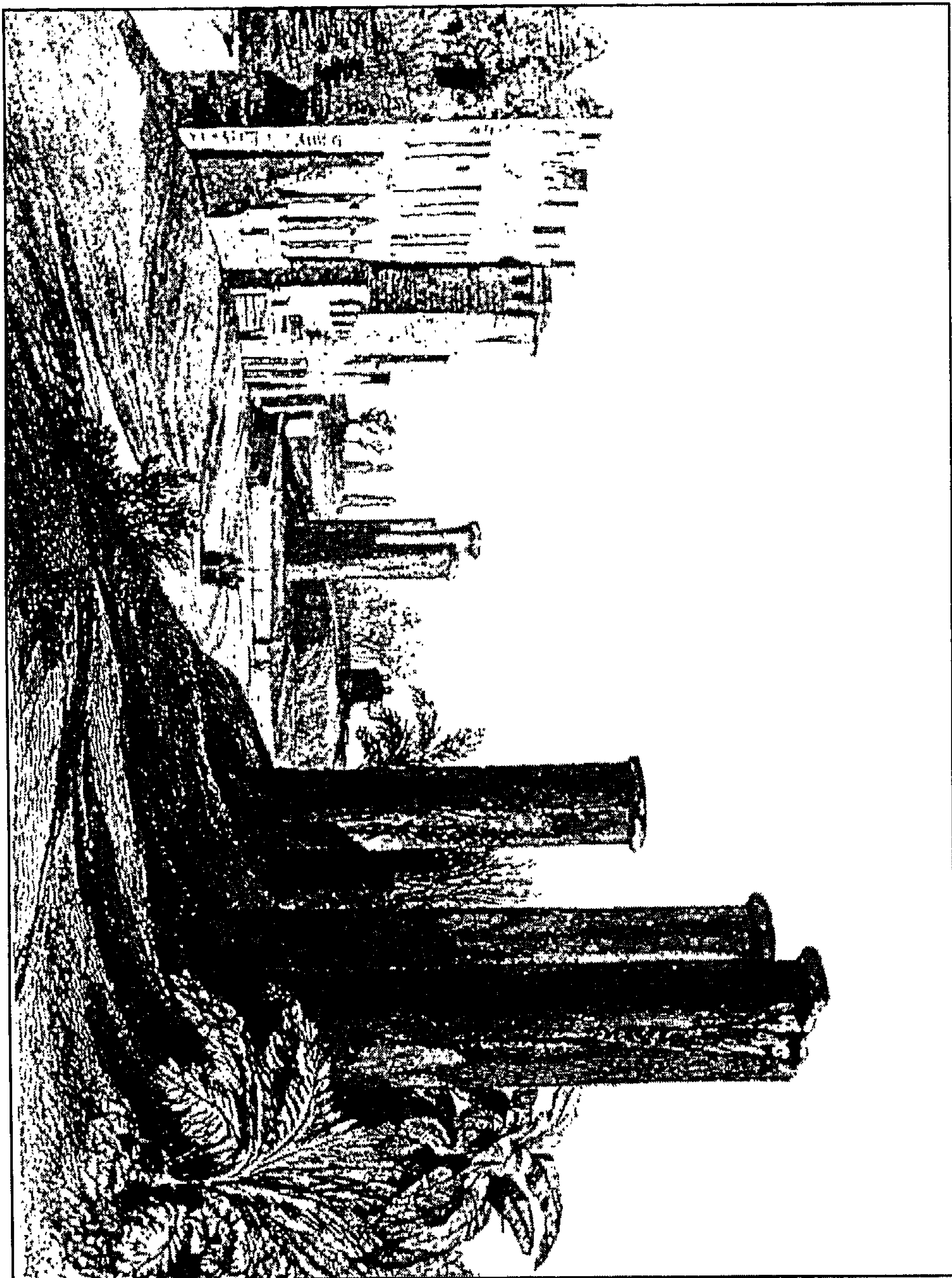
ولكن المنارة كانت موضعا لأعظم أعجاب العرب وأكبر دهشتهم. وقد كان ذلك البناء الضخم كما هو معروف قائما فى الشمال الشرقى من جزيرة (فاروس). وكانت تلك الجزيرة متصلة ببر المدينة بطريق طويل قائم على عقود اسمه (الهبتاستاديوم). وكانت الجزيرة فى وقت الفتح العربى يحيط بها مرسى السفن وفيها أبنية مختلفة كان أكبرها كنيستان: إحداهما (للقديسة صوفيا)، والأخرى (للقديس فوستوس) وبينهما نزل للأغراب. وقد قال قيصر عن

المنارة إنها قطعة عجيبة من البناء ووصفها سترابو بأنها برج ذو بناء عجيب من الحجر الأبيض وله طبقات عدة، وقد كان بناؤها على يد (سوستراتوس الكنيدى) فى أيام (بطليموس فلادلفوس) وكان القصد منها هداية السفن، وقد أصابها هدم من فعل البحر ومن أسباب أخرى، ولكنها كانت ترمم كلما دعت الحال إلى ترميمها، فكانت فى أيام فتح العرب صالحة لم يفسد منها شئ، تلمع فى النهار فى ضوء الشمس وتضئ بنورها فى الليل على البحر إلى بعد عدة فراسخ من الاسكندرية. وكان شاطئ تلك الجهات ضحلا لا مرفأ له، وكانت السفن الآتية إلى الإسكندرية تعبر إليها بحرا فسيحا لا معالم فيه من البر، فكان من أكبر النعم أن يقام علم ظاهر فى النهار والليل على مسافة ستين ميلا أو سبعين.

وقد عجب العرب من عدد غرف المنارة ومن تداخلها فقال المقريزى: ويقال إن كل من دخل هذه المنارة اختبل وضل الطريق مما بها من الغرف العدة والطبقات والمماشى. وقيل إن المغاربة عند ما جاءوا إلى الإسكندرية فى جيش فى خلافة المقتدر دخل جماعة منهم إلى المنارة على ظهور الخيل فضلوا طريقهم حتى جاءوا إلى شق فى كرسى الزجاج الذى على هيئة السرطان وهو الذى يقوم عليه البناء، فوقع كثير منهم فيه وهلكوا. ولكن قيلت فى المرآة قصص أعجب من هذا(*).



(*) انظر: فتح العرب لمصر. الفريد بتلر. ترجمة: محمد فريد أبو حديد. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة.



بقايا أثرية من آثار الاسكندرية ظلت باقية حتى القرن ١٩ ثم نهبت ودمرت.

ترتيب قيام (انتخاب) الأسقف
وقسمته أو رسامته

المرجع:

من أهم المراجع المعتبرة أساساً للتشريع الكنسى القبطى ولترتيب الكهنوت فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، كتاب التقليد الرسولى للأسقف الرومانى هيبوليتس (عاش حوالى سنة ٢١٥م.) والمسمى فى كتب ومخطوطات الكنيسة باسم «ترتيب نظام الكهنوت» لمؤلفه «أبوليدس» (النطق العربى لكلمة هيبوليتس). ويعتبر كتابه هذا أحد أقسام مخطوطة القوانين الكنيسة المحفوظة بمكتبة البطريركية، ومعظم مكتبات الأديرة.

بعض التعريفات والمصطلحات الهامة

١ . كلمة «إبيسكوبى Episcopos»

تعنى حرفياً «النظر من أعلى» أو بلغة المخطوطات الكنيسة «الإشراف أو المراقبة من أعلى»، وهى الوظيفة التى اشتقت منها كلمة إبيسكوبوس «Episcopos» أى «أسقف» (وهى النطق العربى للكلمة اليونانية) والتى تعنى الخدمة الأسقفية وما يقوم به الأسقف من رعاية النفوس التى يؤتمن عليها حين رسامته.

٢ . مفهوم أساسى فى فهم ترتيب نظام الكهنوت:

الرب يسوع المسيح هو أصل ورئيس الأسقفية:

«الأسقفية» هى أصلاً خدمة ومهمة وعمل الرب يسوع المسيح التى تنبأ عنها الأنبياء فى العهد القديم. إذ تنبأوا عن مجئ الراعى الذى «سيشرف أو يطلع» أو «ينظر من أعلى» على نفوس رعية الله. وهذه الأفعال الثلاثة هى ترجمة كلمة إبيسكوبى Episcopei وإن كانت تترجم أحيانا فى الكتاب المقدس بكلمة «يفتقد» أو «يلاحظ»، كما سنرى فى النصوص الكتابية والإنجيلية الاتية:

نبوة حزقيال ٣٤: ١١، ٢٢ ـ ٢٥

«هاأنذا أسأل عن غنمى وأفتقدها (الكلمة اليونانية هى فعل الأسقفية «Episcopsomai»

أى الافتقاد). كما يفتقد الراعى قطيعه»... «وآقيم عليها راعياً واحداً فيرعاها عبدى داود، هو يرعاها وهو يكون عليها راعياً. وأنا الرب أكون لهم إلهاً وعبدى داود رئيساً فى وسطهم»

إذن، يكون الله هو الإله، والمسيح هو الراعى والأسقف الممسوح بالروح القدس (أى المسيأ الذى كان ينتظره شعب الله)، الذى يفتقد شعبه.

وفى العهد الجديد يستعير القديس بطرس الرسول من هذه النبوة لقب المسيح «الأسقف» وهو يذكر المؤمنين بها حين يقول: «أنكم كنتم كخراف ضالة، لكنكم رجعتم الآن إلى راعى نفوسكم وأسقفها» (١ بط ٢ : ٢٥). وللقسوس يحثهم أن يرعوا رعية الله التى فى أمانتهم «نظارا» (أى «إبيسكوس» بمعنى نوع العمل وهو الافتقاد والإشراف على النفوس) لا على مثال الرعاة الأردياء،بل بالاختيار وبنشاط، وكأمثلة للرعية، مذكرا إياهم بمن هو رئيسهم الرب يسوع المسيح: «ومتى ظهر رئيس الرعاة تنالون إكليل المجد الذى لا يبلى» (١ بط ٥ : ١ ـ ٤).

ويأتى القديس بولس الرسول فى الرسالة إلى العبرانيين ليستعير من نبوة أخرى فى العهد القديم، ولكنها نبوة تحمل الوجه السلبى للرعاية:

نبوة زكريا النبى ١١ : ١٦

«فقال لى الرب خذ لنفسك، بعد، أدوات راع أحمق لأنى ها أنذا مقيم راعياً فى الأرض لايفتقد (إبيسكوبى) المنقطعين ولا يطلب المنساق ولا يجبر المنكسر، ولا يربى القائم. ولكن يأكل لحم السمان (يسلب أموال الرعية)، وينزع أظلافها (أى يجردها من حريتها فى المسيح)». ويوجه القديس بولس الرسول رسالته إلى العبرانيين الذين يعرفون هذه النبوة ذات الوجه السلبى عن الراعى «الأحمق» فيقول:

«لذلك قوموا الأيادى المسترخية والركب المخلعة واصنعوا لأرجلكم مسالك مستقيمة لكى لا يعتسف الأعرج (يعرج أو ينحرف عن الطريق) بل بالحرى يشفى.. ملاحظين (Episcopountes إبيسكوبونتس، مفتقدين) لئلا يخيب أحد من نعمة الله» (عب ١٢ :١٢ ـ ١٥).

فبدلاً من الراعى الأحمق فى العهد القديم الذى لا يجبر المنكسر، يأتى راعى العهد الجديد

«راعى الرعاة الأعظم» ليقومّ الركب المخلعة، ويمارس الأسقفية (أى مهمة الافتقاد والملاحظة Episcopountes) لئلا يخيب أحد من نعمة الله.

وهكذا يُدعى الراعى المسيحى أسقفاً، ليس كمجرد لقب، بل كقائم بعمل ومهمة «راعى الرعاة الأعظم» ربنا يسوع المسيح، نالها منه بالوكالة له، ليعطى عنها حساباً فى اليوم الأخير (مت ٢٥ : ١٩).

وبناء على هذا المفهوم الإنجيلى، يأتى التقليد القانونى الكنسى فى مقدمة كتاب «ترتيب قيام الكنيسة» ليذكر الجميع أن رأس الطغمة (Tagma تعنى «رتبة») الكهنوتية هو الرب يسوع المسيح نفسه:

[الأول فى الطغمة هو رأس الكهنة، وهو الوحيد، يسوع المسيح من حيث بشريته، الذى لم يغتصب لنفسه كرامة ولكن صير كاهنا مؤبداً].

هذا هو أساس ورأس ومرجع خدمة الأسقفية وأصل الكهنوت المسيحى، ربنا يسوع المسيح. لذلك فالراعى والأسقف فى الكنيسة إنما هو بمثابة الخادم والوكيل والمؤتمن على تكميل أسقفية المسيح ـ له المجد ـ على كنيسته، لذلك فهو يتمثل فى شخصه شخص المسيح راعى الرعاة العظيم وأسقف النفوس ورأس الكهنة، مخفيا ذاته، باذلا إياها، ليظهر المسيح أمام الشعب . فالاسقف هو الأداة البشرية لحضور وظهور ربنا يسوع المسيح رئيس الكهنة وراعى الرعاة الذى أتى إلى خرافه ليفتقدها ويخلصها ويشفيها، بحسب النبوات.

٣. تاريخ ومعنى وضع اليد على رأس المنتخب للكهنوت:

وضع اليد طقس قديم قدم كنيسة العهد القديم، وكان يكنى عنه أحيانا بكلمة «مسح» مثلما مسح صموئيل شاول ملكا ثم داود (صموئيل الأول (١ : ١ ؛ ١٦ : ١٣). ولكن «وضع اليد» ذكر صريحا حينما اختار موسى يشوع وأمره الرب: «ضع يدك عليه» (العدد ٢٧ :١٨). وكان يمارس على خدام الهيكل الذين يقومون بالخدمة الكهنوتية، ثم صار يمارس على «شيوخ ـ بريزفيتيروس» المجامع اليهودية حيث كانت توضع عليهم أيادى الشيوخ المرسومين السابقين بقصد أن ينقلوا إليهم «الروح» الذى حل على موسى ومنه على كل شيوخ إسرائيل (كما فى سفر العدد ١١ :١٧).

وهكذا أصبح وضع اليد طقسا حتمياً لكل خادم سيقوم بخدمة (أو ليتورجية) في مجال العبادة الإلهية.

ومن هنا أصبح وضع اليد لرسامة الإكليروس المسيحيين المدعوين من الله والمفرزين ليخدموا ليتورجية الإفخارستيا، بالأساس، هو استمرار لتقليد إلهي قديم قدم بدء تدبير خلاص الله للبشرية منذ العهد القديم ليتأهلوا للقيام بهذه الخدمة أو «الليتورجية» المقدسة(*).

وبحسب شرح لقديس يوحنا ذهبي الفم، فإن وضع اليد، في الواقع وفي حقيقته السرية يمثل:

[وضع يد الله غير المنظورة التي يرمز لها الفعل الخارجي]

العظة الرابعة عشرة على سفر أعمال الرسل: ٣

هذا الشرح ينطبق على وضع اليد سواء أيدي الأساقفة على رأس الأسقف الجديد أو وضع يد الأسقف على رأس القس الجديد.

٤ . معنى كلمة «ليتورجية»

كلمة «ليتورجية» لها معنى خاص منذ ما قبل المسيحية. ولكن ما يهمنا هنا أولاً هو معناها في الكتاب المقدس (الترجمة السبعينية) أو في كنيسة العهد القديم. فهي استخدمت كترجمة لكلمة «خدمة» نيابة عن أو باسم الشعب ولكن في إطار العبادة المنتظمة والطقسية في هيكل أورشليم. وقد استعيد استعمال هذه الكلمة في كنيسة العهد الجديد سواء في الإشارة إلى خدمة الكهنوت الأعظم لربنا يسوع المسيح (عبرانيين ٨ :٦)، أو إلى خدمة خدام كنيسة العهد الجديد (أعمال ١٣ : ٢؛ رومية ١٥ : ١٦)، أو لأي «خدمة» لله سواء تقدم لله مباشرة أو للناس من أجله وبدعوة منه (فيلبي ٢ : ٢٥؛ رومية ١٣ :٦).

(*) وهنا لابد من التفريق بين وضع يد الأسقفية أو القسوسية لرسامة Cheirotonia (الشرطونية ـ شيروطونية) وبين وضع اليد للبركة (Cherothesia الشيروتيسيا) على رأس المعمد بعد جحده للشيطان واعترافه بالإيمان (حيث يصير بعد مسحه بالزيت المقدس عضوا في جسد المسيح الناضح على كهنوت المسيح)، ومثل بركة المسيح للأطفال (كليمندس في كتابه المربي ١ :٥)، ووضع اليد على الموعوظين (كما في قداس سيرابيون ٤)، و وضع اليد على رأس التائب المعترف وهو يتلقى صلاة الحل من الكاهن (مجمع نيوقيصرية ٩، الدسقولية ٢ : ١٨ : ٧، ٢ :: ٤١ : ٢)، ووضع يد الكاهن على المريض في سر مسحة المرضى.

وفى ترتيب خدمة قداس الإفخار ستيا تقول الدسقولية إن لكل قسم من شعب الله ليتورجيته المنوط به القيام بها: الكهنة لهم ليتورجيتهم أى دورهم فى إقامة الليتورجية، والشمامسة لهم ليتورجيتهم أى المردات والأعمال المنوط بهم أداؤها، والشعب له ليتورجيته أى الصلوات والمردات الخاصة به. ولايمكن إقامة ليتورجية الإفخار ستيا بدون أى قسم من الشعب بليتورجيته.

٥. الفرق بين «الإقامة» و«الشرطونية»

ولابد فى هذا المجال من التفريق بين «الإقامة» وبين «الشرطونية»

١ ـ فالإقامة هى الانتخاب والاختيار الحر للأسقف الجديد، والتى تسميها اللغة اليونانية (Katastasis كاتاستاسيس)، وتتضمن عمليات الترشيح للمستحقين للرتبة، وإجراء الانتخاب الشعبى بطريقة قانونية حرة صحيحة تتحقق فيها إرادة الشعب فعلاً، وهذه يسميها كتاب الرسامات: «اصطفاء حسنا» أى اختياراً صحيحاً، ثم تصديق السلطات الكنسية أى المجمع المقدس وأسقف الكرسى الرسولى المتقدم. ومن بين شروط الاصطفاء الحسن امتلاء المرشح من الروح القدس ومواهبه. فالشعب يقيم بالاختيار الذين لهم مواهب فى الخدمة، والشرطونية تأتى لكى تختم على ما رآه الشعب.

٢ ـ وأما الشرطونية فهى القسمة أو التكريس أو الرسامة، والمسماة باليونانية Cheirotonia شيروطونية» والتى أخذت منها الكلمة المعربة «شرطونية» وترجمتها: «وضع اليد».

والشرطونية هى أهم مرحلة فى رسامة الأسقف أو القس أو الشماس، بينما فى بعض درجات الشموسية مثل الإيبيذياكون والأغنسطس والأبصلتس لا يشرطنون أى لا توضع عليهم الأيادى عند الرسامة، بل فقط يقامون أو «يختارون» بالاسم، وكذلك رتبة الأرملة والعذراء حيث يصف القديس بولس وضع هذه الرتبة بأنه «اكتتاب» (١ تى ٥:٩).

وبهذا، فإن انتخاب الأسقف أى إقامته لا يكفى ليصبح الشخص المختار أسقفاً، بل لابد من الشرطونية والتى تتمثل فى «وضع الأيادى» عليه، أى أيادى الأساقفة السابقين عليه، لأنه بوضع الأيادى، وبصلاة الكنيسة أى الأساقفة والشعب الذى انتخبه وأقيم هو عليه، يحل عليه

نفس الروح القدس الذى حل من قبل على الرسل قديماً ليعطيهم السلطان والقوة على الخدمة، وهذا هو أساس وأصل التعاقب الرسولى الذى يحمله الأساقفة فى الكنيسة: حلول نفس الروح القدس الذى حل على الرسل يوم الخمسين، بصلاة الكنيسة أى الأساقفة والشعب الذى انتخبه، وبوضع أيدى الأساقفة الذى نالوا قبله نفس الروح القدس بتسلسل رسولى يرجع إلى الرسل أنفسهم. ومعروف أن الرسول الذى أطلق شرارة الروح الرسولية فى كنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية هو القديس مرقس الرسول والإنجيلى والشهيد (استشهد سنة ٦٨م).

٦. معنى «القسمة»:

فى الكتب الكنسية مثل كتاب الرسامات الكهنوتية وكتب قوانين الكنيسة، يطلق على عملية «الرسامة» للدرجات الكهنوتية لفظ «قسمة» (مثل «قسمة» الأسقف أو القس أو الشماس). وهذه الكلمة العربية ليست غريبة عن المفهوم اللاهوتى الكنسى للرسامة. ولهذا رأينا أن نشرح هذه الكلمة «القسمة» وما تتضمنه من مفاهيم كنسية هامة:

١ ـ فمن المعروف أن رسامة شخص للأسقفية تعنى «فرزه»، أى انتخابه من بين أعضاء الكنيسة للتكريس لخدمة معينة، وقد وضح ذلك فى سفر الأعمال ١٣ : ٢، حينما أمر الروح القدس أن «افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما إليه»، وهذا الفرز تم من بين أسماء أخرى كثيرة ذكرها هذا النص فى الآية السابقة على هذه الآية «وكان فى أنطاكية فى الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون برنابا وسمعان. ولوكيوس ومناين... الخ» وبعد هذا الفرز يقول النص «فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا عليهما الأيادى». وبهذه الصورة نستطيع أن نرى أن هذا الفرز من أجل الرسامة هو فى طبيعته «قسمة»، أى تخصيص وفرز واختيار أدى إلى «قسمة» بين الأشخاص.

٢ ـ كما يمكن فهم معناها أيضاً من وصف عمل الروح القدس فى توزيع المواهب الروحية على أعضاء الكنيسة بأن الروح القدس «قسم لكل واحد بمفرده موهبة ما» (١كو ١٢ : ١١).وكلمة «قسم» هنا هى الترجمة للكلمة اليونانية diairoun ومعناها «يقسم».

فقسمة الأسقف تعنى على ضوء هذين المفهومين السابقين أنها فرز لخدمة معينة، مما أدى

إلى قسمة (أو نصيب) حدده الروح القدس لهذا الخادم المفرز لأداء هذه الخدمة الخاصة، وهو قسّمه بهذا عن أشخاص آخرين كان هو من بينهم.

٣ ـ فإذا ما تقدمنا قليلاً فى فحص مضمون قسمة مواهب الروح القدس لوجدنا أن مواهب الروح القدس كما تكلم عنها القديس بولس الرسول (وبالتالى كل الخدمات الكهنوتية فى الكنيسة) تتحدد، ليس كل موهبة فى ذاتها، بل باعتبار المواهب كلها مرتبطة بعضها بالبعض.

٤ ـ ويجهد القديس بولس قلمه للتأكيد على أنه لا توجد موهبة قائمة وحدها بمعزل عن المواهب الأخرى. وموهبة الروح القدس الحقيقية (أى التى هى حقاً من الروح القدس)، هى التى ترتبط وتربط نفسها بالمواهب الأخرى وبجسد المسيح كله. فأعضاء جسد المسيح كلهم يرتبطون معا ويعملون معاً، وما يربطهم فى هذا العمل المشترك هو «المحبة» التى خصص لها القديس بولس الأصحاح ١٣ (بعد الأصحاح ١٢ الخاص بالمواهب). فإصحاح المحبة (١ كورنثوس: ١٣) هو الخاتم والختم الذى يختم به القديس بولس على أصحاح المواهب (الإصحاح ١٢). حيث كان لا يمكن أن يشرح القديس بولس مواهب الروح القدس دون أن يؤكد على حتمية المحبة التى هى «رباط الكمال» الذى يجعل من جسد المسيح كياناً كاملاً متكاملاً بتآلف وارتباط المواهب بعضها بالبعض، وبأدائها معاً بالمحبة.

٥ـ إذن، فالقسمة (قسمة مواهب الروح القدس) مرتبطة أشد الارتباط بالمحبة. فالمقسوم الذى قسمت له موهبة ما، لابد أن يعرف أنه سيمارسها بالمحبة. ولكن تجاه من ؟

فلا يمكن أن نقول «محبة» دون أن نحدد موضوع وهدف هذه المحبة. فموضوع وهدف المحبة هنا هو الجماعة من البشر الذين قسم لهم هذا الشخص وهم قسموا له. والمحبة لا يمكن أن توجه إلا نحو أشخاص بشريين محددين بهويتهم سيتلقون هذه المحبة ويقبلونها. فالقسمة، مثلها مثل الزواج، وكما يشرحها علم اللاهوت الكنسى (الاكليريولوجى)، هى عهد ارتباط سرى بكيان محدد من البشر، (فى سر الزواج يكون هو الزوج بالزوجة، وفى سر الكهنوت الكاهن بالجماعة المسيحية فى إيبارشية ما الذين يكونون الشركة المسيحية أو الكينونيا، وحقا ما يقال أن الزواج قسمة ونصيب، كذلك الأسقفية قسمة ونصيب الأسقف لشعبه والشعب لأسقفه).

٦ ـ إذن فالمضمون الهام للقسمة هو، عهد الارتباط بشركة الجماعة المسيحية فى موقع جغرافى معين، أى الشعب «اللاؤس» فى موضع جغرافى محدد، وهذه الشركة تسمى فى العرف الكنسى «الإيبارشية». إنه عهد ارتباط مثل عهد ارتباط الزواج تماما، شرحه علم اللاهوت الكنسى بأنه عهد زيجة الأسقف بجسد المسيح فى إيبارشية، وما يترتب على ذلك من ترتيبات كنسية وتحريمات قانونية، (مثل تحريم الزيجة الثانية للمؤمن يقابلها تحريم اقتران الأسقف بإيبارشية أخرى، وثانيها تحريم الطلاق والزواج بأخرى ويقابلها تحريم الانفصال عن الإيبارشية التى قسم عليها والتنصيب على إيبارشية أخرى). وهى تماماً مثل المحبة فى سر الزيجة فهى محدد موضوعها الذى هو الشخص البشرى المحددة هويته الذى سيرتبط بالشخص الآخر المقسوم على هذه الزيجة، ولهذا الارتباط ترتيبات كنسية وتحريمات قانونية.

٧ ـ وأيضا أهم نتيجة لهذا الارتباط بشركة الجماعة، هى أن عهد الارتباط الذى تحمله «القسمة» لا يكون تجاه أشياء غامضة: أفكاراً كانت أو مثلاً أو خدمات أو مكاتب أو مؤسسات، أو حتى تجاه البشرية ككل بلا تحديد، بل تجاه أشخاص بشريين محددة هويتهم بالموضع والموقع الجغرافى المكانى، تماما كما تتطلب المحبة الزيجية شخصاً محددة هويته، توجه المحبة نحوه ويتم الإقتران به.

فالقسمة، إذن، تعبير كنسى تعنى إقامة ورسامة أسقف لرعاية أشخاص بشريين فى موضع جغرافى محدد مكانه. وبهذا يكون من المستحيل تصور قسمة أسقف أو قس على لا شعب مسيحى غير محددة مدينة إيبارشيته، أو كما يقولون بالتعبير اللاتينى: in absoluto.

وهى بالتالى طقس شركة، أى طقس تشترك فيه الكنيسة كلها: الشعب أى شعب الإيبارشية، والمرشح الذى انتخبه شعب الإيبارشية، وموافقة الأساقفة السابقين عليه.

بهذه المفاهيم الأساسية، يمكننا أن نتقدم إلى فحص ودراسة:

المعانى المنطوية فى صلوات قسمة (تكريس) الأساقفة:

إن صلوات القسمة كما أوردها لنا القديس هيبوليتس (أو أبو ليدس حسب التسمية فى المخطوطات) تفرق بين عملية الإقامة (Katastasis كاتاستاسيس)، وبين عملية القسمة أو

التكريس والمسماة باليونانية «Cheirotonia شيروطونية». والشرطونية ـ كما قلنا ـ هي أهم مرحلة في رسامة الأسقف، وذات طقس مقدس مهيب، ولها أثر خالد إلى الأبد في شخص الأسقف، لا يمحى. لذلك حرمت قوانين الكنيسة تكرار «وضع اليد» على الأسقف، تماماً مثلما حرمت تكرار «المعمودية» بالنسبة للمؤمن. كما يقول القانون ٤٨ من مجموعة قوانين الكنيسة على يد إكليمندس وعددها ٥٦ قانوناً محرماً ومعاقباً تكرار وضع اليد على الأسقف أو القس أو الشماس:

[لأجل من يقسم دفعتين ـ إذا نال أسقف أو قسيس أو شماس قسمتين (أي وضع اليد بالنسبة للرتبة الواحدة) فليقطع هو والذي قسمه].

١ . مقدمة القانون: انتخاب الأسقف بإجماع الشعب:

[الأسقف يختار من كل الشعب]

القانون الثاني من كتاب أبو ليدس عن قوانين الكنيسة

[يجب للأسقف أن يقسم وبأمر كل الشعب اصطفا (اختيارا) حسناً مقدساً في كل شئ هذا إذا ذكر ورضيهم (أي إذا ارتضوا به). فليجتمع كل الشعب والقسوس والأساقفة الذين يجتمعون في يوم الأحد.

وليسأل الكبير الذي فيهم القسوس والشمامسة ويقول: هل هذا الذي ارتضيتموه أن يكون لكم رئيساً؟ فإذا قالوا نعم فليسألهم ويقول: هل هذا يستحق هذه التقدمة الجليلة؟... فإذا أجابوا كلهم معا وقالوا إنه هكذا بحق وليس بمراءاة، والله الآب والمسيح والروح القدس الحاكم لهؤلاء، فليسألوا أيضا ثالث دفعة: هل هو مستحق هذه الرياسة؟.. فإذا قالوا ثالث دفعة أنه مستحق فليصافحوه بأيديهم كلهم..]

عن قوانين الرسل ـ القانون ٥٢

٢ . اجتماع الشعب والإكليروس يوم الأحد لقسمة الأسقف:

[وفي الأسبوع الذي يقسم فيه يقول كل الشعب إنا نؤثره، وحينما يقدم اسمه ويرى أنه

لاقى القبول العام، يصدق على هذا الاختيار باجتماع الشعب والقسوس معاً فى يوم الأحد مع الأساقفة].

القانون الثانى من قوانين أبوليدس

٣. طقوس التكريس:

[ويضع الأساقفة عليه الأيادى.

بينما يقف القسوس وكل الشعب، ويكون سكوت فى كل الرعية.

ويقول الكل عليه: «يا الله قو هذا الذى أعددته لنا»] ـ نفس المرجع السابق

[وليأخذ كبير الأساقفة أسقفين آخرين معه. وبقية الأساقفة كلهم قيام والقسوس على المذبح يصلون بسكوت والشمامسة يمسكون الأناجيل المقدسة وهى مرفوعة على رأس من يقسمونه.]

القانون ٥٢ من قوانين الرسل

طقس وضع اليد (اخطر وأقدس لحظة في رسامة الأسقف):

[ويجعل (كبير الأساقفة) يده على رأسه ويصلى ويقول]

القانون الثانى من قوانين الرسل

٤. صلاة القسمة ووضع الأيادى:

[يا الله أبا سيدنا يسوع المسيح

أبو الرحمات وإله كل عزاء

الساكن فى العلا والناظر إلى المتواضعين.

العالم بكل شئ قبل أن يكون.

أنت الذى أعطى القوانين البيعية (قوانين الكنيسة) بابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا والروح القدس،

الذى سبقت ورسمت منذ البدء طقس الأبرار، منذ إبراهيم الأسقف الكبير.

والذى تقيم الرئاسات والسلاطين.

والذى لم يترك موضعه المقدس بغير خدمة (ليتورجية)،

الذى سُرّ أن يتمجد فى أصفيائه.

انظر على فلان عبدك.

أفض عليه قوتك وروحك القادرة (الروح الرئاسى ـ المزمور ٥٠)

هذا الذى دفعته (أعطيته) للرسل المقدسين، بواسطة سيدنا يسوع المسيح ابنك الوحيد، هؤلاء الذين أسسوا الكنيسة فى كل موضع، كرامة ومجداً لاسمك القدوس.

لأنك أنت العارف بقلب كل أحد.

اجعل له أن يرعى شعبك بلا خطية.

وأن يستحق أن يرعى رعيتك العظيمة المقدسة.

وأن تجعل سيرته أعلى من كل شعبه بلا اعتراض.

وأن تجعله محسوداً (منظوراً إليه نظرة القدوة) بالصلاح من كل أحد.

وأن تقبل صلواته وقرابينه التى يرفعها لك نهاراً وليلاً، وتكون رائحة ذكية.

وتعطيه، يارب، الاسقفية وروحاً رحيمة وسلطاناً لغفران الذنوب.

وتعطيه قوة أن يحل كل رباط ظلم الشياطين ويشفى المرضى.

وأن ترضض (تسحق) إبليس تحت قدميه سريعاً.

بسيدنا يسوع المسيح هذا الذى من جهته المجد لك معه والروح القدس إلى الأبد آمين.

ويقول كل الشعب آمين.

وبعد هذا يلتفتوا إليه كلهم ويقبلوه بسلام لأنه يستحقه]

القانون الثالث من قوانين أبو ليدس

وفى مخطوطة القرن الثالث عشر ومخطوطة ابن كبر تحدد الصلوات اسم المدينة التى يرسم عليها الأسقف الجديد وذلك تنفيذا لمقررات المجامع والمكانية والمسكونية بتحديد حدود خدمة الأسقف:

[ندعو صفى الله فلان أسقفاً فى الواحدة المقدسة الغير المنحلة كنيسة الله الغير المنظور والحى التى لمدينة الأرثوكسيين المحبة للمسيح فلانة وتخومها...]

مخطوطة القرن الثالث عشر ومخطوطة ابن كبر

وبعد ذلك:

[والشماس يأتى بالقرابين مع القسوس ويكمل القداس الإلهى]

المبادى التى نستنبطها من صلوات القسمة:

الجزء الأول من الصلاة يعبر عن المبدأ الأساسى والحاكم لكل التقليد الليتورجى:

إنه الله نفسه الذى أسس ونظم وأمر بالعبادة الحقيقية التى تقدم له. كما قال رب المجد للمرأة السامرية «الله يطلب (أو يبحث عن) هؤلاء الساجدين بالروح والحق» (يو ٤ : ٢٣).

فمنذ تأسيس العالم، والله هو الذى يرتب للناس كيفية عبادته.

وما التجسد إلا التعبير النهائى لهذا التدبير، والفداء هو الذى يكمل ويقدس العبادة لله. والعبادة لله هى النهاية والغاية لكل الوجود البشرى. والعبادة التى تؤديها الكنيسةعلى الأرض «فى كل موضع» إنما تؤديها «كرامة ومجدا لاسم الله القدوس»، وهى تعبر به فى إطار الزمن عن العبادة الكاملة الحقيقية فى السماء.

فى هذا الوضع والإطار من العبادة الكاملة الحقيقية التى رتبها الله نفسه للكنيسة، يمكننا أن نرى مكان رتبة الأسقف. فلن يمكننا أن نفهم الجزء الأول من الصلاة، إلا إذا رأينا الأسقف ومهامه وعمله فى إطار هذه العبادة الإلهية التى رسم الله نفسه قوانينها وحدودها.

المحاور الثلاثة لكيان الكنيسة المنظور:

الكنيسة كجماعة مؤمنين متحدة بالروح القدس فى المسيح وحوله، وترتكز فى كيانها

المنظور على ثلاثة محاور متحدة ومترابطة معاً، لا غنى لأحدها عن الآخر ولا غنى عن أى منها لقيام كيان الكنيسة:

المحور الأول: المذبح المقدس:

وهو الشئ الوحيد من دون الخلائق المادية (غير العاقلة) الذى يمسح بالزيت المقدس ويكرس لله. والزيت المقدس، كما يصفه ديوناسيوس الأريوباغى، «يمثل المسيح» . وهذا الموضع المقدس هو علامة سرائرية محسوسة دائمة ومستمرة على حضور الله وسط الخليقة: «هو ذا كائن معنا على المذبح عما نوئيل إلهنا» (القسمة ـ القداس الإلهى)

لذلك فمن على المذبح تبدأ كل خدمة ليتورجية وكل عبادة مسيحية، وتفيض ـ كما من ينبوع - كل بركة وكل عطية تأتى من الله للبشر. فهذا المذبح الحجرى بعد مسحه بالزيت المقدس، يمثل يد المسيح نفسه التى تبارك وتقدس القرابين الموضوعة عليه والتى تعطى عطية الحياة الأبدية للمؤمنين.

لذلك فالمذبح فى الكنيسة الأرثوذكسية هو مركز وقوة حياة الكنيسة كلها.

المحور الثانى: الأسقف:

فهو الذى يقوم بتكريس المذبح. والأسقف هو مثال المذبح. فالطبيعة البشرية هى المدعوة أصلا أن تكون هيكلاً لله، ومذبحاً للآب السماوى، والكاهن هو ذبيحة حية لله. والأسقف الذى يكرس المذبح، هو نفسه لابد أن يكون بالدرجة الأولى مذبحاً وهيكلاً وذبيحة لله ليكون صورة حقيقية للمذبح والهيكل الماديين.

المحور الثالث: شعب الله

والشعب هو الذى أقيم المذبح من أجل أن ترفع عليه قرابينه. وكما الأسقف، كذلك الشعب مدعو أن يكون قربانا مستعداً لأن يحل عليه روح الله القدوس تماماً كما يحل على القرابين الموضوعة على المذبح، لأن القرابين الموضوعة على المذبح هى باكورة قربان الإنسان نفسه الذى يقدمه لله كل يوم.

هناك إذن، علاقة باطنية أساسية بين المذبح، والأسقف ، والشعب، وهذه الثلاثة تشترك فى

مركز واحد لها هو المسيح. فكما المذبح «يمثل المسيح»، كذلك الأسقف يمثل المسيح، كذلك الشعب المجتمع والمتناول من الأسرار المقدسة يتحول بتناوله من الجسد المقدس إلى جسد المسيح. فالثلاثة المحاور مرتبطة بعضها بالبعض في المسيح : فالأسقف لا يتصور أن يكون أسقفا بدون مذبح «يلازمه» (عب٧:١٣)، أو دون شعب يقسم له وعليه ليرفع قرابينه على المذبح ويوصل له عطايا الله («... الرعية التى أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التى اقتناها بدمه» (أعمال الرسل ٢٠ : ٢٨)، والشعب لا يتصور أن يتقدس ويقدس ذبيحة أجساده بدون أن يقدسها على المذبح فى ذبيحة المسيح الواحدة بيد الأسقف «حتى أكون خادماً ليسوع المسيح لأجل الأمم مباشراً لإنجيل الله ككاهن ليكون قربان الأمم مقبولاً مقدساً بالروح القدس» (رو ١٥ : ١٦)، والمذبح لابد من كاهن ليرفع القرابين عليه باسم الشعب.و كل هذه الثلاثة تصل إلى كمالها وتوفى حقها فى سر الإفخار ستيا سر الأسرار. وبدون أحد هذه الثلاثة لا يمكن إكمال سر الإفخار ستيا، وبالتالى لا يمكن قيام الكنيسة، وبالتالى أيضا لا يصير الشعب جسد المسيح.



أما الجزء الثانى من الصلاة فتحدد:

معالم ومهام الأسقف وأداؤه:

وهذه المهام ذات علاقة مزدوجة:

* الأسقف يقف ممثلاً لله امام الكنيسة،

* وممثلاً للكنيسة أمام الله.

أو كما يصفه هيبوليتس بتحديد أكثر أنه يمارس مهام ربنا يسوع المسيح نفسها التى هى:

* كراع صالح لرعية الله فى مدينة أو موضع ما محدد.

* ككاهن يستعطف الله بقرابين الكنيسة.

هيبوليتس ليس وحده الذى ينظر إلى الأسقفية بهذه النظرة إلى مهام الأسقفية. (كأمثلة: ترتليانس فى كتابه عن المعمودية فصل ١٧ ـ والقديس كبريانوس فى رسالة ٦٦ ـ وغيرهما

من القديسين وعلى الأخص الذين كتبوا عن الكهنوت مثل القديس يوحنا ذهبي الفم والبابا الروماني غريغوريوس الكبير. ولكن ما فعله هيبوليتس هو أنه صاغ هذه المهام في صلاة قسمة الأسقف.

من أجل هذه المهام يحتاج الأسقف إلى مطلب هام أن يكون هو المختار حقا وبصدق من شعبه وكنيسته وبتعبير صلاة الرسامة «اصطفا حسناً»، وبهذا وحده يمكنه أن يقف باسمهم أمام الله ليسترضي وجهه، وأمام العالم ليعلن تدبير الله لخلاص العالم من خلال الكنيسة التي يمثلها. بهذا أيضا تصبح الكنيسة هي أيقونة جسد المسيح وسط العالم، ويصبح الأسقف (إما بشخصه أو بالقسوس الذين ينوبون عنه في كنائس الإيبارشية):

* خادم الأسرار الإلهية لشعبه.

* المعلم الذي ينطق بالتعليم الصحيح خلال الاحتفال الإفخارستي بذبيحة المسيح، مما يجعله الحارس للتقليد الصحيح والمتكلم باسم شعبه المؤمن وكنيسته بالتقليد الإنجيلي والكرازة الرسولية والعقيدة الآبائية التي تسلموها من الآباء والتي يؤمنون بها.

* ثم هو الذي يقيم ويكرس الدرجات الكهنوتية اللاحقة في الرتبة من أجل خير وصالح رعيته.

* ثم هو ممثل كنيسته وشعبه أمام سائر الكنائس والإيبارشيات في العالم كله ليساهم في إعلان جامعية الكنيسة.

* والقائم على حفظ السلام والوحدة في كنيسته.

* وموزع صدقات وعطايا شعبه على المحتاجين.

* وحامل القلب المحب المترفق بشعب الله، وطالب الحل من الله لشعبه، من الخطايا ومن كل رباطات الشيطان، والمصلي على المرضى لشفائهم.

* وأخيراً، هو مركز وقطب الوحدة من خلال تعددية المواهب الروحية بين أبناء شعبه، أي الذي يحتضن ويجمع سائر المواهب والطاقات والوزنات ويؤالف بين مختلف الاراء

والأفكار بين أبناء شعبه، ليجعل الكل ـ ليس صوراً متكررة لشخصية واحدة ـ بل صورة للثالوث الأقدس المتميز الأقانيم ولكن المتساوين فى الجوهر والواحد فى الذات الإلهية بحسب تعليم القديس إغناطيوس الأنطاكى (القرن الثانى).

من التأكيد على حتمية الاختيار والانتخاب الشعبى للأسقف (كما فى مقدمة الصلاة)، يمكن أن نستنبط أن ترتيب نظام الكهنوت المسيحى يقوم على المبدأ القانونى الكنسى:

* وحدة الأسقفية فى موضع معين (أى إيبارشية واحدة لأسقف واحد، وأسقف واحد لإيبارشية واحدة).

* وبالتالى فلا يوجد فى النظام الكنسى الرسولى الأوضاع التالية:

١ ـ ممارسة أساقفة لسلطان الأسقفية دون أن يكونوا مرسومين على شعب فى مدينة أو موضع ما، ضداً للمبدأ القائل: [إن الم يكون علمانيون، فعلى من يكون الأسقف والقسيس] ـ القانون ٤٩ من قوانين الرسل على يد إقليمندس.

٢ ـ أساقفة معاونون أو مساعدون، أو أى مسمى اخر له اسم الأسقف بجانب أسقف الإيبارشية. تحقيقاً لمبدأ رأس واحد فى الإيبارشية الواحدة (القانون ٨ مجمع نيقيه).

٣ ـ انتقال أسقف من كرسى إلى كرسى آخر. (القانون ١٥ من قوانين مجمع نيقية المسكونى، والقانونان ١٤ و٣٦ من قوانين الرسل، ٢١ و ٢٢ من قوانين مجمع أنطاكيه المسكونى)، وعلى الأخص من كرسى مدينة ما إلى مدينة الكرسى الرسولى.

أهم وأول سند فى الخدمة الأسقفية:

وكما يتضح من الجزء الأول من صلوات القسمة، فإن أقوى وأول ما يتشح به الأسقف ليتمم وظيفته هو «القوة والروح القادرة ـ أو الروح الرئاسى» وهو الروح القدس نفسه الذى أكمل به الرب مهامه ومسحته بالروح القدس تجاه كنيسته، والذى سكبه على رسله القديسين الذين أسسوا الكنائس فى كل موضع. والروح القدس يعمل من خلال الرسامة بسبب وعد الرب أنه يكون مع كنيسته وفى كنيسته يقودها ويرشدها («ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» ـ مت ٢٠ : ٢٨؛ «ارسل الروح القدس إليكم.. ومتى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم

إلى جميع الحق» – يو ١٦ : ٧، ١٣). وهنا تظهر العلاقة الوثيقة فى الرسامة بين الأسقف والرسل الأطهار والمسيح له المجد. وهى العلاقة المسماة بـ «التعاقب الرسولى».

هذه العلاقة تتمثل أول ما تتمثل فى نوال نفس الروح القدس الذى حل على الرسل يوم الخمسين، بما يحمله من ثماره التسعة (غلاطية ٥ : ٢٢)، والثلاثة (أفسس ٥ :٩).

المعنى الروحى الكنسى للتعاقب الرسولى:

هناك عمق روحى فى مفهوم التعاقب الرسولى. فلا يمكن تحقيق التعاقب الرسولى بمعزل عن الوحدة فى التعليم، والجامعية أى سلامة البنيان الكنسى غير المنقطعة فى الكنيسة. كما لا يمكن أن نفصل التعاقب الرسولى عن الحياة الروحية الرسولية التى تعيشها الكنيسة على مدى الأجيال. فالتعاقب الرسولى الذى يحمله الأسقف هو فى إطار وحدة شعب الله فى الإيبارشية مع أسقفه، وفى إطار أرثوذكسية التعليم، ووجود حياة روحية رسولية للشعب. فمثلاً فى حالة اعتلاء أسقف كرسى الأسقفية بدون رضاء الشعب مثلاً، لا يكون جوهر المشكلة أن هذا التصرف يمثل كسرا للقوانين الكنسية فقط، بل إن الحالة الروحية للكنيسة نفسها هى التى تهتز وتتأثر لأى تعد وكسر لقوانين الكنيسة، إذ تتعرض الكنيسة فى هذا الوضع إلى الإنقسام والتحزب داخل الكنيسة مما يضعف وحدة الكنيسة ويفقد التآلف بين الأسقف وشعبه، وهذا يعنى عزلة الكنيسة وتغربها عن الحياة الرسولية. لأن التعاقب الرسولى تأسس أصلاً على الوحدة والألفة بين الراعى والشعب، اللتين هما ضمان جامعية الكنيسة أى سلامة البنيان الكنسى، ما لا يمكن أن يتحقق فى أجواء الانقسام والتشتت والتشيع والشجار والخصومات.

والمعنى الثانى هو أن التعاقب الرسولى ليس فقط تسلسل الماضى، والأمانة للتقليد لا تعنى التصميم والعناد من أجل كل ما هو قديم . بل التقليد الرسولى فى عمقه وحقيقته هو الحياة الروحية الصحيحة. إنه التدفق المستمر للحياة الروحية من مرتفعات عليه صهيون يوم الخمسين. والأمانة للتقليد بهذا المعنى تربطنا بالقديسين الذين تعاقبوا على مر العصور، وتجعلنا شركاءهم فى القداسة والعلم والنسك والتسبيح والصلاة والمحبة ومنهج التدبير وسياسة الكنيسة، وتحفزنا على أن نمتد ونكمل ما مارسوه هم من حكمة وتعليم وإبداع وصلاة وسيرة. فسلطان التعليم المعطى للأسقف هو هذا كله وواضح أنه يجب أن يمارس فى إطار شعب الله

الذى يحيا الحياة الروحية الرسولية داخل الكنيسة التى انحدرت إليه من الرسل من خلال الأساقفة السابقين.

* فالتعاقب الرسولى قائم على استمرار مزدوج:

* استمرار غير منقطع للحياة الروحية التى هى دوام اقتناء والامتلاء من الروح القدس من خلال الأسرار والصلاة والنسك،

* واستمرار تعاقب خدام كهنوت المسيح فى الكنيسة الذين يقامون ليحيوا أولا هذه الحياة الروحية، ثم ليرعوها ويشجعوها ويقدموها للشعب بالتعليم الصحيح وتقديم الأسرار الإلهية.

* لذلك فالتسلسل الرسولى هو تسلسل للحياة الروحية. والحياة الروحية تنتعش بسيادة المحبة على القلوب، ولكن تنمكش وتتعثر فى صخب المجادلات الغبية والعراك والتنافر بين الأشخاص، وفى هذه الحالة يتحول التعاقب الرسولى إلى مجرد عقد يتحلى به الأسقف من الخارج دون فاعلية داخل الكنيسة.

* أما سلطان التعليم فهو لا يعنى أن التعليم قاصر على الأسقف بمعزل عن شعب يحيا الحياة الرسولية ويؤمن بتعليم الرسل ويعتنق عقيدة الآباء. وبالعكس فليس فى الكنيسة انحصارية. ولكن كنيستنا الأرثوكسية تؤمن بأن الأسقف هو الذى يملك وحده سلطان التعليم والتحدث باسم الكنيسة فى الأمور الإيمانية والعقائدية فقط، ولكن فى إطار كنيسة وشعب يحيا الحياة الرسولية. والشعب الحى بالروح مدعو، لأ أن ينصت فحسب، بل وأن يفهم ويتعلم ويزداد علماً ودراسة لإيمانه المسيحى من مصادر وينابيع الدراسة والعلوم الكنسية، لكى يمكنه أن «يثبت فى الحق» وبالتالى هو مدعو أن :«عظوا أنفسكم كل يوم بهذا الكلام» (عب ٣ : ١٣)، «تتذكرون كل حين بهذه الأمور» (٢بط ١ :١)، «واعظين بعضنا بعضا». (عب ١٠ : ٢٥)، «معلمون ومنذرون بعضكم بعضا» (كو ٣:١٦).

* فخدمة الوعظ والتعليم والإنذار والتذكير التى يقوم بها أعضاء موهوبون من شعب الله بعضهم للبعض (مثل خدمة الوعظ وتعليم وتربية النشء و الشباب والافتقاد وخدمة

الأرامل والأيتام والتعليم بالكتابة والتأليف والنشر الخ.) إنما هى أقوى عضد وسند للأسقف فى مهمته وسلطانه فى التعليم والافتقاد ، لأنها - أى خدمة أعضاء الشعب لبعضهم البعض - هى كمن يحرث الأرض ويقلبها ويجعلها أرضاً صالحة لانتشار بذار التعليم الذى يؤديه الأسقف بمقتضى «موهبة الحق الذى لا يخطى» التى عنده، ولرعاية شعب الله فى الإيبارشية المؤتمن عليها.

يخاطب القديس يوحنا ذهبى الفم شعبه فى أنطاكية قائلا:

[أريدكم بل وأحثكم أن تكونوا معلمين . لا تكونوا مجرد منصتين فقط لعظاتنا. بل أذيعوا تعليمنا للآخرين! هيا اصطادوا الذين هم فى الخطا حتى يسلكوا هم أيضا فى سبل الحق].

العظة الثامنة على سفر التكوين

وباختصار ، فالتعاقب الرسولى يتحقق من خلال الكنيسة الجامعة فى موضع ما، أى شعب الله المؤمن الإيمان الرسولى وعلى رأسه الأسقف، والمجتمع حول ذبيحة الإفخارستيا. وأمامنا مثل واضح هو رسائل الرسل التى كانت توجه إلى: شعب الله فى الكنائس (وفى رسالة فيليبى فقط أضاف «وأساقفة وشمامسة») - راجع افتتاحيات رسائل القديس بولس الرسول (ما عدا الرسائل الرعوية التى كانت ترسل إلى رعاة الكنائس بأسمائهم) وكذلك رسائل باقى الرسل.

وظيفة الايكونوموس (المدبر أو لاوكيل):

كانت موجودة في الكنيسة القبطية منذ القديم:

تحتم القوانين الكنسية على كل أسقف (بما فيه أسقف مدينة الكرسى الرسولى العظمى) تعيين من تسميه «إيكونوموس» أى «مدبر» لإدارة أموال مقر الإيبارشي وممتلكاتها، وفى حالة إيبارشية الأسقف المتقدم يسمى هذا الإيكونوموس بـ«الإيكونوموس الكبير» ويقول بإدارة إيرادات ومصروفات المقر البطريركى ومصاريف معيشة البطريرك. وهذا الوضع كان معروفاً فى الكنيسة القبطية منذ القديم.

وأول ما نقرأ عنه فى وثائق الكنيسة القبطية فى عهد البابا ثاوفيلس الإسكندرى (ارتقى الأسقفية سنة ٣٨٠م) حيث اصد أمراً بتعيين «إيكونوموس» جديد بدلا من الـ «إيكونوموس»

القديم فى إيبارشية الأسقف أبو لو، وقد صار هذا الأمر البابوى الصادر فى غضون القرن الرابع أحد قوانين الكنيسة الجامعة. كما عين اثنين من الرهبان (المسمين بالاخوة الطوال القامة) فى وظيفة الإيكونوموس مشرفين على مالية المقر البابوى بالإسكندرية. كما ورد ذكر هذه الوظيفة عرضا فى رسالة للقديس إيسيذوروس البيليوزومى (أحد آباء الرهبنة القبطية فى القرن الخامس وأب اعتراف بابا الإسكندرية القديس كيرلس الكبير) رسالة رقم ٢٦٩ : ١ وفى رسالة أخر له أيضا يحث الباب كيرلس الكبير على أن يغير الإيكونوموس ما رتينيانوس بأخر كفء وكذلك ورد ذكرها فى رسالة القديس كيرلس الكبير (البابا الإسكندرى فى القرن الخامس) الرسالة رقم ٢ :١٢٧ . كما يذكر التاريخ اسم «بروتيريوس» ايكونوموس المقر البابوى لبابا الإسكندرية القديس المعترف ديوسقوروس (البابا ال ٢٥ اعتلى الأسقفية عام ٤٤٤)(١).

ويقول الباحثون إن وظيفة الـ «إيكونوموس» كانت توكل عادة لأعضاء من الشعب المخصصين فى الحسابات وإدارة الأموال وغير المتقلدين رتبة كهنوتية. كما يحظر القانون أن تؤكل إدارة أموال الكنيسة ومقر الأسقفية أو البطريركية إلى أى من أقارب الأسقف أو البطريرك.

٧. يشرف على الاهتمام بإخوة المسيح الصغار:

الأرامل والإيتام والمعوزين والفقراء وزيارة المحبوسين ويدير خدمة الكنيسة (وتحوى الدسقولية تعاليم الرسل الفصول من ١٦ ـ ٢٠ تعليمات عن هذه المسئولية بالتفصيل)، وهو يؤدى هذه الخدمة من خلال رتبة الشماسية، من خلال رئيس الشمامسة فى إيبارشيته. ومن بين النصوص الملفتة للنظر فى قوانين الكنيسة هذا القانون التاسع والثلاثون من مجموعة قوانين القديس باسيليوس المذكورة فى مخطوطة قوانين الكنيسة والتى تظهر مدى اهتمام الكنيسة بممارسة الأسقف الإشراف على هذه الخدمة بل والاهتمام بهذه الفئة من أبناء كنيسته:

يقول القانون التاسع والثلاثون من قوانين الرسل:

[لأجل أسقف لابس برفير وحرير وفقرا مدينته جياع وعراة. أسقف يلبس برفيراً وحريراً

---

(١) راجع المرجع المشهور لأعمال المجامع: Mansi, iv., 1017

وفقراء مدينته جياع أو عراة ليس هو أسقفاً، و(يجمع) على مائدته أطعمة مختلفة، وينسى ضيقة الفقراء فهو يهودى جديد].

وينطبق هذا القانون على كل نوع من البذخ والمصاريف الزائدة التى تصرف تحت أية مسميات وتتنافى مع روح التجرد والفقر الذى نذرهما الأسقف يوم رهبنته.

٨. يمارس القضاء والتحكيم والمصالحة بين أفراد الشعب

وفى هذا السياق يحتم كتاب الدسقولية أن يمارس الأسقف قضاءاً عادلاً (الدسقولية ٣ : ٥٩ ـ ٧٩)، ويتبع الإجراءات القانونية المحددة بدقة (الدسقولية ٤ : ٤٦ ؛ الفصل الثامن كله، حيث يحذر من التسرع فى الحرم من الكنيسة، كما ينصح بالأخذ بالإجراءات المدنية فى القضاء الكنسى وفى طريقة إصدار الأحكام).

٩. ممارسة أعمال الرعاية بالشركة مع القسوس:

إن سلطان الأسقف ليس مطلقاً، بل هو يمارسه بالشركة مع مجمع القسوس ومجمع الشمامسة ومقدمى شعب الكنيسة (أى مجلس الأراخنة). والقائد المسئول بحق يعرف جيداً أنه يجب أن يكون على أتصال دائم بكل من شركائه فى الخدمة السابقين عليه والمستجدين وتابعيه ورعيته، لأنه هو وهم شركاء فى نفس الجسد. يخاطب القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة بشمال أفريقيا فى القرن الثالث قسوس كنيسة قرطاجنة:

[منذ اللحظة التى تقلدت فيها الأسقفية، آليت على نفس ألا أتخذ موقفاً بناء على قرارى الخاص بدون مشورتكم وموافقة الكنيسة].

الرسالة ١٦ : ٣

لذلك فمن أهم المؤسسات التى تعاون الأسقف فى مهمة الرعاية مجلس القسوس. فالأسقف حينما يباشر خدمة الرعاية لنفوس شعب الإيبارشية وإدارة أموال ومقتنيات الإيبارشية، فإن ذلك يتم من خلال «مجلس القسوس» الذى يجمع قسوس إيبارشيته.

آداب المكاتبات، والقرارات، ومخاطبة الرتب الكنسية والشعب:

تقول مخطوطة ابن كبر «مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة» أنه حينما كان آباء الكنيسة

من البطاركة والأساقفة يخاطبون أحد البطاركة الآرثوذكسيين فكانوا يدعونه بالأب، وما يجرى هذا المجرى من آدب الخطاب والتواضع فى الكتاب والجواب؛

وكذلك مع المطارنة والجثالقة (أى البطاركة التابعين لبطريرك آخر، مثل بطريرك جاثليق الكنيسة الإثيوبية التابع لبابا الكنيسة الإسكندرية) والخارجين عن إيبارشيته.

أما الأساقفة فيكاتبهم بالأخ مع التبجيل اللائق بهم.

والإيغومانسيون وقسوس إيبارشياتهم، فكان يلقبهم بـ: «شركانى القسوس».

والأراخنة وأكابر الجماعة فيكاتبهم بالأخ رعاية لحرمتهم وحفظاً لمرتبتهم وأما بقية الشمامسة وجمهور الشعب فيكاتبهم بالأولاد المباركين.

والعادة أن يكون ابتداء مكاتباته بالسلام الإلهى وختامها بالدعاء الصالح.

ولأن الأسقف لا يتصرف فى شئون إيبارشيته بلا سند إنجيلى وآبائى، بل هو على أساس ناموس الله والتقليد الكنسى يؤسس كل تصرفاته، مستلهما المبادئ والسوابق التى اتبعها سلفاؤه الأساقفة فى القديم ، لذلك تعود الأساقفة الآرثوذكسيون أن يستهلوا قراراتهم وبياناتهم وتصريحاتهم بالرجوع إلى سلفائهم من آباءالكنيسة مع ذكر المراجع التى استندوا عليها فى هذه القرارات والبيانات والتصريحات والتصرفات.

الأسقف وأصول رعاية النفوس بتنوع أحوالها:

ولأن الرعاية هى أهم وأول عمل للأسقف، إذ أن الأسقف معتبر أولاً أنه راع (الدسقولية - المقدمة)، لذلك تشرح الدسقولية ما يمكن أن نسميه مبادئ «فن» أو «علم» الرعاية. فهى تعرض لمعظم أنواع النفوس التى قد يقابلها الراعى وتصف كيف يجب أن يعاملها الأسقف كلا بحسب نوعيتها. وفى الكلمات التالية يمكننا أن نحس بمعنى الرعاية ونرى صورتها كما كان يحس بها الرسل الذين سطروا ذلك فى تعاليمهم:

[أما تنظرون يأ أولادنا الأحباء، وبأى مقدار أن الرب إلهنا كثير التحنن والصلاح والمحبة للبشر. والذى هو مستوجب عقاب الخطية لا يبرئه، والذى يعود يقبله إليه ويحييه ولا يعطى موضعاً لقساوة الذين يريدون أن يدينوا بقساوة وعدم رحمة ويرذلوا الذين أخطأوا لكى لا يشتركوا معهم فى كلام العزاء الذى يستطيع أن يردهم إلى التوبة.

هكذا أيضا الأسقف ، فليحب أعضاء الشعب لأنهم أولاده. وليشفق عليهم بحرص المحبة مثل دجاجة تشفق على بيضها حتى يصير فراخاً. وليقبلهم إليه مثل فراخ حتى يصيروا دجاجاً. وليُعلم الكل، وينتهر المحتاج إلى الانتهار، لكى لا يوجعهم كثيراً. ويوبخهم ليستحوا، لكن لئلا يرجعوا إلى خلفهم يؤدبهم ليتجددوا، وينتهرهم ليدركوا ويسلكوا باستقامة.

ويحرس القوى، أى الذى هو ثابت فى الإيمان، يحرسه بدراية. ويرعى الشعب بسلام، ويقوى المتعبين، أى يثبت فى التعليم من يجرب، ويشفى العليل الذى بقلبين فى الإيمان]

الدسقولية ـ ٤ :١و ٣٢و ٣٣

ختاماً ـ هذه كلمة للقديس أغسطينوس أسقف هبو بشمال أفريقا فى القرن الخامس:

[خدمة الأسقف تنطوى على عمل أكثر منه كرامة! وكلمة «أسقف» مشتقة من كلمة «إبيسكوبوس». فالأسقف مفروض أنه هو الذى «يشرف» «وينظر من أعلى» على الذين هم تحت رعايته. كلمة «سكوبيا» Scopeia تعنى «الإشراف والنظارة»، وهكذا تكون الأسقفية تعنى «النظارة من أعلى»، أى أن يعتنى الأسقف بمن هم تحت رعايته. إذن، لا يستطيع أحد أن يكون أسقفا صالحاً إن كان يحب لقبه وليس واجبه] ـ القديس أغسطينوس فى كتابه «مدينة الله»

شروط رسامة الأسقف
والكفاءات الواجب توفرها فيه

لا شك أن الوضع الرئاسى الشديد الحساسية للأسقف كما عرضناه فى المقالات السابقة، سواء من دراستنا لطقس رسامة الأسقف أو لعرضنا لمهام الأسقف وأعماله المنوط به القيام بها، إنما يتطلب شخصيات مملوئين من الروح القدس، ذوى حياة روحية باطنية عالية قائمة على عمق وطول زمان فى الاختبار الحى للشركة مع الله وفى الانتصار على شهوات النفس، حتى يمكن أن يكون حامل هذه الوظيفة هو الصورة الحسنة لله وللمسيح أمام جمهور المؤمنين والعالم أجمع، لذلك يذكر القديس بولس تلميذه تيموثاوس الأسقف الذى أقامه على أفسس، قائلاً: «لا يستهن أحد بحداثتك بل كن قدوة للمؤمنين فى الكلام فى التصرف فى المحبة فى الروح فى الإيمان فى الطهارة» (٢تى ٣ :١٢).

وتوصى الدسقولية فى شأن شروط الأسقف بهذه الشروط العامة هكذا:

[هكذا سمعنا من ربنا يسوع المسيح أنه يجب على الراعى الذى يجلس أسقفاً على الكنائس فى كل إيبارشية:

* أن يكون بغير لائمة ولا علة.

* طاهراً من كل غضب الناس،

* ليس بأقل من خمسين سنة،

* وقد هرب من حركات الطفولية وأباطيل الخارجين،

* وصار طاهراً من التجديفات التى يأتى بها قوم من الاخوة الكذبة على كثيرين.

* وليكن أيضا، وإن كان ذلك ممكنا ممتلنا من كل تعليم، وكاتباً، بل يجب أيضا أن يكون بصيراً بالكلام،

* متوسط القامة].

الدسقولية ٣:١, ٢.

كما يقول القديس كبريانوس فى شرط القدوة المبادئ الآتية:

* [الأسقف يجب أن يكون النموذج الحى لأعضاء كنيسته]

الأسقف المتقدم والأول بين الأساقفة

أسقف مدينة الكرسى الرسولى

البطريرك هو «أسقف مدينة كرسيه»

هذا هو الوصف المبسط والأولى الذى تصف به المدونات القديمة المختصة بترتيب نظام الكهنوت رتبة البطريرك الإسكندرى (المجموع الصفوى لابن العسال ـ ص ٩٢٩. وهو يعنى أول ما يعنى أنه أولا أسقف المدينة العظمى المحبة للمسيح «الإسكندرية»، مقر كرسى الرسول الإنجيلى الطاهر القديس مرقس كاروز الديار المصرية، والمدينة التى استشهد فيها. وهو ما

اعترف به مجمع نيقية المسكونى (عام ٣٢٥م) وسجله فى القانون رقم ٦ من مجموعات قوانينه العشرين:

القانون ٦ من مجمع نيقيه:

[فلتحفظ العادات القديمة فى مصر وليبيا والمدن الخمس فى أن لأسقف الإسكندرية الرئاسة عليها كلها].

لذلك فالإسم الكنسى الرسمى التقليدى للبابا البطريرك هو: «صاحب الغبطة والقداسة بابا وبطريرك ورئيس أساقفة المدينة العظمى الإسكندرية وكل أرض مصر وأورشليم المدينة المقدسة، والنوبة، والحبشة (إثيوبيا)، والخمس المدن الغربية، وسائر أقاليم الكرازة المرقسية». وأضيف عليه أخيراً «بلاد المهجر وأفريقيا». والجزء الأول من اللقب هو تعريف اقتران أسقف الإسكندرية بإيبارشيته التى قسم عليها: «بابا وبطريرك ورئيس أساقفة المدينة العظمى الإسكندرية». وهو الإسم الذى يستعمل فى كل الصلوات الطقسية والليتورجية، مثل الخولاجى المقدس وكتاب صلوات الرسامات وغيرهما.

ثم بحسب القانون الرسولى رقم ٢٥، وبحسب القانون السادس من مجمع نيقية المسكونى، فإن أسقف مدينة الإسكندرية العظمى هو الأول والمتقدم بين (متساوين) أساقفة مصر وليبيا والنوبة والخمس المدن الغربية.

وكلمة «بطريرك» هى النطق العربى للكلمة اليونانية باتريارشيس PATRIARCHIS ومعناها كما ورد فى كتاب الجوهرة النفيسة فى علوم الكنيسة ـ تأليف العالم القبطى فى القرن الحادى عشر يوحنا بن زكريا المعروف بابن السباع كما يلى:

[معناها الأب الرئيس أو الأب الأول أو رئيس الرؤساء أو أب الآباء أو أب لكل الأمة].

إذن فهى ليست رتبة مستقلة بل اسم ولقب رتبة أسقف المدينة العظمى أو مدينة الكرسى الرسولى.

وبحسب هذا الوضع، أى كون البطريرك هو أولاً أسقف على مدينة الإسكندرية، فيقال فى كتب قوانين الكنيسة إنه لا يجوز له أن «يقيم أسقفاً للإسكندرية» ـ بسبب وجوده فى القاهرة

بعيداً عن الإسكندرية. ولذلك جرت العادة منذ انتقال مقر الحاكم السياسى من الإسكندرية إلى القاهرة أن يعين البطريرك «وكيلا» له فى الإسكندرية بدرجة «إيغومانس» متحاشياً حتى إيفاد «أسقف» منعاً من اللبس ومن شبهة وجود أسقفين فى إيبارشية واحدة. بل كان آباؤنا البطاركة يرسمون أحياناً أسقفاً للقاهرة (ومن بين الأسماء المشهورة الأنبا بولس البوشى أسقف مصر فى القرن الثالث عشر) ليقوم بأعمال الرعاية للعاصمة، بينما يتفرغ البابا البطريرك لرعاية مدينة كرسيه «الإسكندرية» بجانب مهامه الأخرى كرئيس ومتقدم بين الأساقفة.

شروط وكفاءات البابا البطريرك:

إن تحديد واستيفاء شروط وكفاءات البابا البطريرك فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية أمر فى منتهى الخطورة، ذلك لأن شخصية بابا الإسكندرية، حسبما نقرأ فى تاريخ الكنيسة، كانت فى معظم الأحوال ذات تأثير روحى خاص عالى المقدار على مجريات الكنيسة فى عصره بل وعلى الأقباط عموماً، بل وأيضاً على الوطن كله. بحيث أن أحداث الكنيسة القبطية كانت دائماً تتمركز وتستمد دفعاتها، إن إيجاباً أو سلباً، من شخصية البابا، حسب درجة روحانية البابا ومدى علمه وقوة حكمته وسلامة أحكامه وحسن تدبيره ومدى تمسكه بالقوانين والتقاليد الكنيسة القبطية العريقة.

ولهذا السبب كان عملية اختيار بابوات الإسكندرية تشغل حيزاً كبيراً فى كتب التاريخ الكنسى، وكثيراً ما كانت تشغل أيضا فترات زمنية طويلة قد تمتد فى بعض الأحوال إلى عشرات السنين!

لكن هناك، بلاشك، مبادئ عامة وثوابت متفق عليها أجملتها الكتب القانونية الكنسية فى باب اختيار البابا البطريرك. نعرضها هنا باختصار.

فشروط وكفاءات البابا الإسكندرى هى نفسها شروط الأسقف، كما ورد ذلك فى كافة الكتب الكنسية المختصة. ولكن يضاف عليها بعض الصفات الواجب توفرها فى من سيكون فى موقع المركز والبؤرة للوحدة فى الكنيسة (وقد نقلناها عن المجموع الصفوى ـ ص ٢٨، ٢٩):

١ ـ أن يكون قادراً وأهلاً لحفظ الإيمان بأصوله المستقرة وأقوال الرسل وقرارات المجامع، ليكون (الإيمان) محروساً من الخلل، والأمة ممنوعة من الزلل.

٢ ـ تنفيذ الأحكام بالحق وقطع المنازعات (أى صحة إجراءات وعدالة المحاكمات الكنسية).

٣ ـ تقدير العطاء للمستحقين من غير إسراف ولا تقصير (أى الحكمة فى تدبير أموال الكنيسة والصرف على ما يستحق الصرف، ومنع ما لا يستحق الصرف).

٤ ـ تقليد الرئاسات لمستحقيها أى الحكمة والتدبير السليم فى رسامات الأساقفة والكهنة، وأموال الصدقات للكفاة الأمناء.

٥ ـ أن يباشر الأمور العامة، ويأخذ القرار فى الأحوال الخاصة بنفسه، ولا يكتفى بالتفويض فى كل الأمور. (أى لا يوكل شئون الكنيسة إلى يد أحد مساعديه أو خدمه أوحتى إلى مجموعة من المحيطين... الخ بل يفحص بنفسه الأمور العامة ويتخذ القرارات بمنتهى الإحساس بالمسئولية الشخصية).

٦ ـ وينبغى أن يتشاور مع أهل العلم فى الأحكام وأهل الرأى فى النقض والإبرام.

(أى الركون إلى أهل العلم والرأى من الشعب ذوى المناصب المدنية العليا أو الأخصائيين فى العلوم المدنية والاجتماعية والسياسية ليأخذ مشورتهم فى مناحى الصواب واللياقة فى التصرف والسلوك والقول وما أشبه تجاه القضايا الدينية وغير الدينية، أى معتمداً على أهل الخبرة والعلم والحكمة المشهود لهم). (انتهى الاقتباس من المجموع الصفوى).

إذن فللشعب (بحسب قوانين الكنيسة) دور فى الشركة والمشاركة فى ا تخاذ القرار الكنسى، وعلى الأخص فيما يختص بالمعاملات المالية للكنيسة وبالعلاقة مع السلطة والهيئات المدينة. وهذا هو الوضع السائد فى الكنيسة منذ ا لبدء والواجب استمراره على الأخص فى مجتمعاتنا الحديثة وفى نظام الدولة الحديث، الذى لم يعد فيه مركز البطريرك مثل مركزه فى نظم ا لحكم القديمة قبل الاستقلال (مثل حكم الدولة العثمانية قديماً)، التى جعلت من البطريرك فى وقت واحد رئيساً دينياً ومدنياً وقاضياً فى الأمور الدينية والمدنية للشعب القبطى، مما أفقد هذا المركز الجليل روعته وبهاءه الدينيين، وفى الوقت نفسه اذى الكنيسة وغير من مفهوم ونظام رئاسة الكنيسة، وكأنها «ملة» مغلقة على نفسها داخل الوطن.

فالبابا البطريرك، فى و ضعه الكنسى الصحيح، وفى نظام الدولة الحديثة القائم على دستور يساوى بين المواطنين جميعاً فى الحقوق والواجبات والحريات والتقاضى والأحكام والسفر.. الخ، والقائم على الديمقراطية الاجتماعية والسياسية بأحزابها المتعددة ، وحرية إبداء الآراء السياسية،وعدم التفرقة بين المواطنين بسبب الدين أوغيره، فى مثل هذا النظام يعود مركز البطريرك إلى موقعه الكنسى الصحيح والمؤثر داخل الكنيسة جسد المسيح، ومركزاً للوحدة الروحية بين المؤمنين، ومبشراً بالخيرات السماوية، وكارزاً ومعلماً بإنجيل المسيح وتعليم الرسل وعقيدة الاباء، داعياً المؤمنين للالتزام بوصايا الإنجيل والفضائل المسيحية، وبالإقناع والترغيب مستنداً على «برهان الروح وقوة الله» (١كو ٢ : ٤و ٥)، تاركاً لشعبه أن يحولوا التعليم الروحى الكنسى الذى تعلموه داخل الكنيسة إلى طاقة وطنية بناءة، كل فى موقعه داخل المجتمع،فيما رسوا حقوقهم وواجباتهم الوطنية والسياسية وإبداء آرائهم فى هذه المجالات بمنتهى الأمانة والصدق والحرية، نائياً بنفسه وبالكنيسة (أى كل مصاف الإكليروس) عن الانخراط فى تداول وتناول الشئون المدنية والسياسية من بعيد أو من قريب. أى، باختصار، تعود الكنيسة أيقونة رائعة لجسد المسيح: شعب الله وعلى رأسه أسقف يعلن سر وحدة الكنيسة مع رأسها الرب يسوع المسيح (التى هى الصورة والمثال لوحدة البشرية الجديدة المرتجاة)، وتكون صوتاً لمن لا صوت لهم وشفيعاً لمن ليس لهم أحد يذكرهم، منادية فى كل مصارف الإكليروس)، بالقدوة أولاً وبالخطاب الهادئ الوديع ثانياً، رمزاً ومثلاً أعلى روحياً بين كافة المواطنين، مثابراً على الدعوة إلى السلام والمحبة والعدل وكل القيم الإنسانية السامية التى تنادى بها المسيحية، مشاركاً الوطن فى كل اهتماماته وجهاده وآماله وتطلعاته بالصلاة والتشجيع والبذل والتضحية على قدر ما تستطيع الكنيسة أن تعطى وتبذل من أجل الوطن، دون أن تتخلى عن مبادئ الإنجيل وتعليم الآباء وتقليد الكنيسة الأرثوذكسية بخصوص علاقة الكنيسة بالدولة والسياسة.

شروط طاعة وتعظيم وإكرام البابا البطريرك:

ويتبع المجموع الصفوى قانونه السالف هذا بقوله:

[وإذا دام قائماً بما يلزمه، مستمرة شروطه، لزمهم طاعته وتعظيمه وإكرامه وحقوقه]

كيفية اختيار البابا البطريرك:

يقول كتاب الجوهرة النفسية فى علوم الكنيسة» :

[يجتمع المطارنة والأساقفة والكهنة والأراخنة والرؤساء، ويقدموا الصلاة لله بالصوم والتضرع والتقديس عشية كل يوم أحد وغيره، لكي يرشدهم إلى انتخاب من يصلح لهذه الوظيفة لينظر فى أحوالهم الوقتية، (يلاحظ أن هذا الواجب كان هو السائد أيام الحكم العثمانى حينما كان المسيحيون فى الشرق معتبرين ملة مستقلة عن الوطن)، وأحوالهم المستقبلة، ويرويهم من تعاليمه وإرشاداته الإلهية. فيحولوا نظرهم إلى كل أهل العلم والعمل والدين والتدبير والسياسة. وبانتخاب الإله واختياره الذى قبل تضرعاتهم كما قبل من لعازر الدمشقى عبد إبراهيم سؤاله فى انتخاب زوجة لإسحاق ابن سيده، يرشدهم إلى من هو قادر على صد هرطقة ومغيرى الأمانة وأرباب البدع بعلمه ورد سهام إبليس وجنوده أعداء الكنيسة بطهارته وقداسته.

وبعد الاتفاق عليه من الأراخنة والرؤساء وأعيان البلاد باتفاقهم مع المطارنة والأساقفة الذين لهم رأى فى ذلك ولهم تقدمته ووضع اليد عليه كما وضع هو اليد عليهم، بعد ذلك يأتون به مقيداً إلى هيكل الله. فإن كان راهباً فبالإسكيم، وإلا رهبنوه بالإسكيم أولا. وإن كان شماساً فليقدموه قسيساً، وإن كان قسيساً فليقدموه إلى رتبة إيغومانس. وإن كان إيغومانساً فيأخذوه إلى ثغر الإسكندرية لوجود كرسى البطريركية ووجود الملك الأرضى هناك أيضا (طبعاً كان ذلك قبل انتقال مقر الحكم إلى القاهرة).. ثم يلبسونه حلة الملك السماوى ويوصلوه إلى الكنيسة الجامعة بالإسكندرية بملاقاة أهل الثغر بالفرح والتهليل والابتهاج، فيقيدونه... الخ.]

هذه صورة للإجراءات التى اعتاد الأقباط اتخاذها فى ا نتخاب بطريركهم:

١ ـ اجتماع الإكليروس مع الشعب بالصلاة والصوم والتضرع.

٢ ـ يبدءون فى التفتيش عن أهل العلم والدين والتدبير والسياسة (يقصد الذين يعرفون كيف يسوسون الكنيسة، وليس «السياسة» بمعناها العصرى Politics).

٣ ـ حينما يتم الاتفاق على شخص المرشح من جانب الشعب ممثلاً فى الأراخنة والرؤساء

وأعيان البلاد، ويكون هذا بالاتفاق مع الآباء الأساقفة والمطارنة، يأتون به مقيداً إلى هيكل الله. حيث أن المرشح من المفترض أن يكون راهباً يسكن البرارى، وعادة يكون قد حاول الاستعفاء والهروب من هذا المنصب، وهذه كانت عادة كل القديسين أن يهربوا من مناصب الكرامة والرئاسة (أى لا يسعى إلى اعتلاء المنصب بسعاياته أو بسعايات الآخرين من أنصاره).

٤ ـ كما تذكر وثائق أخرى أن المسئولين عن الانتخاب كانوا «يسالون شيوخ البرية» أى الآباء الروحيين الكبار فى الأديرة لكى يرشدوهم عمن يصلح لهذه الدرجة الكهنوتية المقدسة. لأن أقدر من يستطيع أن يعرف أصحاب المواهب من الرهبان هم آ باؤهم الروحيون ومدبروهم، لذلك جرى التقليد على التوجه أولاً إلى هؤلاء الآباء الشيوخ. فالعملية هى، بحق، عملية «تفتيش» و«بحث» و«استرشاد بمشورة الآباء الشيوخ» مقترنة بالصلوات والصوم والتضرع إلى الله عمن هو مستحق وجدير بهذه الدرجة الجليلة.

كما نقدم صورة أخرى من صلوات الرسامة نقلاً عن مخطوطة القرن الثالث عشر المطبوعة فى رومية. حيث يلقى الأرشيديا كون يوم الرسامة خطاباً «جهيراً» أى بصوت عال قائلاً لشعب الإسكندرية المجتمع لإكمال رسامة أسقفهم الجديد:

[أيها الذين هم من مدينة الإسكندرية العظمى المحبة للمسيح وتخمها. لكونكم وادّين الآباء جدا ولم تستطيعوا الصبر على مناحة اليتم، بل صنعتهم بنشاط هذا الرأى والاتفاق، وهو أن تطلبوا لكم أبا، وحرصتم على ذلك، ولهذا إذ اجتمع الأساقفة الجزيل برهم والقسوس الزائدى العبادة لله والشمامسة المحبين لله جداً، ومعهم الرهبان الجزيلى الورع رؤساء الأديرة، وكل الشعب المحب للمسيح جداً الذى من مدينة الإسكندرية العظمى وكل كورة مصر، الذين باتفاق إذا بذلوا فى هذا الأمر غاية ما يمكن من الحرص، واعتمدوا التفتيش فى كل مكان ليجدوا المستحق الذى يجب أن يرعانا ويسكننا على مرعى صالح ومكان خصيب، ولهذا تضرعنا بتوسل إلى الإله الناظر الكل أن يرينا من يجب أن يكون مستحقاً لهذه الرتبة وملائماً لها، فألهمنا أن نبصر (فلان) الجزيل العبادة لله القس الراهب الزائد الورع من الدير البهى (الفلانى) لنجعله راعياً عظيماً ورئيس أساقفة

جالساً بالخلافة فى كرسى الإنجيلى الباهر القديس مرقس الناطق بالإلهيات والرسول لتثبيت وإصلاح كنائس الله المقدسة..)(*).

وهذه الإجراءات التى تعطى الروح القدس حقاً الفرصة لاختيار البابا الجديد، أحيانا كثيرة روعيت، ولكن للأسف كسرت أحياناً أخرى.

وثائق طقس الرسامة:

وفى القسم الأخير من ملاحق البحث نقدم ثلاثة وثائق هامة وأساسية فى صلوات الرسامة على بابا الإسكندرية بحسب الأصول الكنسية بوضع الأيادى عليه التى هى أخطر وأقدس لحظة فى رسامة بابا ورئيس أساقفة الإسكندرية، وهى التى تمت فى رسامة المثلث الرحمات البابا كيرلس السادس البطريرك ١١٦ (١٩٥٩ ـ ١٩٧٠) وذلك يوم الأحد ٢ بشنس سنة ١٦٧٥ للشهداء الموافق ١٠ مايو سنة ١٩٥٩ وهى:

١ ـ التزكية

٢ ـ صلوات وضع الأيادى على رأس أسقف الإسكندرية

٣ ـ تقليد رياسة الأسقفية لكنيسة الإسكندرية

وقد نقلنا نص هذه الصلوات عن مجلة رسالة المحبة الغراء فى عددها التاريخى رقم ٦ من السنة الخامسة والعشرين الصادر عن شهر بشنس ١٦٧٥ مايو يونيو ١٩٥٩ . وقد ضاهينا هذه الصلوات على أقدم ما فى أيدينا من مخطوطة تكريس ورسامة البطريك المطبوعة فى روميه عام ١٧٦١ للميلاد ١٤٧٨ للشهداء وترجع المخطوطة الأصلية إلى منتصف القرن الثالث عشر تقريباً، فوجدناها مطابقة تماماً فيما عدا بعض الاختصارات الطفيفة جداً التى لا تغير فى مسار الأصول التقليدية أو المعانى العامة.

ولنا بعض التعليقات الختامية على هذه الصلوات:

١ ـ التزكية وصلوات وضع الأيادى وتقليد التجليس كلها تشير إلى إيبارشية «مدينة الإسكندرية العظمى» القديمة جداً المدينة التى يرسم عليها الأسقف البابا البطريرك وتوضع

(*) الإفخولوجيون، المخطوطة المطبوعة بروميه.

عليه الأيادى لإعلان اقترانه بشعب هذه المدينة المحبة للمسيح. وكلها تخاطب أهل ثغر الإسكندرية بأنهم هم الشعب والرعية أصحاب الحق الأول (ولكن ليس الوحيد) لانتخاب البطريرك الجديد أسقفهم وراعيهم هم أولاً. والنعمة الخاصة الحالة على البطريرك الجديد لتأييده وتعضيده من فوق من لدن الإله الناظر على كنيسته تأتى من خلال طقس وضع الأيادى الأسقفية عليه.

ولكن كل هذا لا يكون ممكناً حدوثه، لو كان المرشح سبق له أن وضعت عليه الأيادى فى أيبارشية أخرى، أو كان بحسب الوضع المستجد: أى وضِعت عليه الأيادى دون اقترانه بإيبارشية. ذلك لأن القانون الكنسى يمنع تكرار وضع اليد للأسقفية على رأس المرشح:

[لأجل من يقسم من دفعتين ـ إذا نال أسقف أو قسيس أو شماس قسمتين (أى وضع اليد بالنسبة للرتبة الواحدة) فليقطع هو والذى قسمه].

القانون ٤٨ من قوانين الكنيسة

على يد إكلمندس وعددها ٥٦ قانوناً

وفى الوقت نفسه يمنع انتقال أسقف من إيبارشيته التى قسم عليها إلى إيبارشية أخرى وعلى الأخص لإيبارشية الكرسى الرسولى، أو اقتران أسقف بإيبارشيتين خرقاً لشريعة الزوجة الواحدة، باعتبار أن قسمة أسقف على شعب إيبارشية هو بمثابة اقتران عريس بعروسه، وذلك حسب العرف الكنسى، ومفهوم طبيعة الكنيسة جسد المسيح وقوانين ترتيب الكهنوت فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية.

٢ ـ لم نشهد فى انتخابات هذه الرسامة (مايو ١٩٥٩) التى نشرنا صلواتها (فى ملاحق البحث) أية محاولة من جانب من المرشحين للدعاية لأنفسهم أو لتزكية أنفسهم على المرشيحين الآخرين أمام الجماهير (على نسق الانتخابات السياسية والمدينة)، وهذه الملاحظة مقترنة بملاحظة أخرى أن كل المرشحين كانوا من الرهبان ذوى الدرجة الكهنوتية «القس» (وكانوا ملازمين قلاليهم أو مناسكهم بأديرتهم مسلمين الأمرلمشيئة الله).

٣ ـ يلاحظ أنه، فى وصف إجراءات اختيار المرشحين، يقوم المسؤلون بالتفتيش فى كل

مكان ليجدوا المستحق، وهم يقرنون هذه العملية بالصوم والتضرع والتقديس لكى يرشدهم الله إلى انتخاب من يصلح لهذه الوظيفة. فعملية الانتخاب عملية روحية بحتة أى أنها تتم بإرشاد وتوجيه الروح القدس الذى فى النهاية سيحل على من يختاره الله. والمرشح الصالح هو الذى يحس ـ بالصدق وبالحق ـ أنه غير مستحق لهذه المسئولية العظمى فإن طقوس الرسامة تقول: «يأتون به (من مكان خلوته) مقيداً إلى هيكل الله» لأنه فى الغالب يكون هارباً من أمام الذين يبحثون عنه. وهذا يضمن للكنيسة أن يكون البابا الجديد معضداً من الله مسنوداً بنعمة الروح القدس، وليس بأى قوة بشرية أو ذاتية إذا كان قد سعى إلى المنصب بنفسه أو بسعاية آخرين.

الجدل حول ترشيح الأساقفة والمطارنة للكرسى البطريركى:

لقد ثار الجدل حول هذا الموضوع منذ ممارسة أول مخالفة لقانون الكنيسة، وذلك عام ١٩٢٨. وهذه هى أول ممارسة مضادة صريحة لطبيعة وأساس قيام الكنيسة، وهوانتقال أسقف أو مطران من إيبارشيته التى سبق أن رسم عليها إلى إيبارشية مدينة الإسكندرية العظمى (وبالتالى احتفاظه بالإيبارشيتين معاً ـ خرفاً لشريعة الزوجة الواحدة). وقد قام علماء الكنيسة وآباؤها وأبناؤها المخلصون بكشف خطأ هذه المخالفة وخطورتها على قداسة الكنيسة وطهارة خدامها وخلاص أنفسهم، منذ ذلك الوقت، بلا كلل ولا ملل،مما يقطع بأن جسد الكنيسة القبطية الأرثوذكسية غير قادر ولا قابل لاحتواء أو الرضا بهذه المخالفة.

وهذه المخالفة بالرغم من أنها اقترفت فى القرن الرابع (فى كنائس أخرى ولكن ليس فى كنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية)، إلا أنها رفضت واستنكرت فى عدة مجامع مسكونية ومكانية، بأعتبارها «خطية»، وكثيراً ما وضعت فى مصاف خطية «الزنا»، كما فى قرار المجمع المقدس لكنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية المنعقد فى الإسكندرية عام ٣٣٩م. كما أن أصوات العلماء اللاهوتيين قدامى ومحدثين لا تفتأ تدين هذه المخالفه، ناعتين إياها بأنها مخالفة بالرغم من تكرارها. لكن قانون مجمع نيقية المسكونى هو أقوى مانع فى وجه ارتكاب هذه المخالفة، ولا يمكن أن يبطل هذا القانون تكرار حدوث المخالفة، وذلك حسب المبدأ الكنسى القائل: إن المخالفات لا يجب أن ترتكب بذريعة أنها سبق وارتكبت فى الماضى كما قرر ذلك القديس كبريانوس.

ولسنا نريد الخوض فى البراهين التى قدمها المدافعون عن طهارة الكنيسة ونقاوتها. ولكننا نضع نصب أعين الجميع نص هذا المبدأ الكنسى الذى يحكم على مخالفات القانون الكنسى أيا كانت، وسواء كثرت أو قلت

[ليس معنى أن خطأ حدث فى وقت ما، أن يسمح بأن يتكرر هذا الخطأ فيما بعد]

القديس كيريانوس فى الرسالة رقم ٧٢:٢٣.

فالمخالفات لا يجب أن ترتكب تحت ادعاء أنها سبق وارتكبت فى الماضى. لقد كان هذا المبدأ هو الذى يحكم ضمير الكنيسة الحى على مدى الأجيال. فإذا حدث أن المعنى الحقيقى للقرارات القديمة للكنيسة نسى أو تشوه، أو استبدلت التقاليد الصحيحة بتقاليد أخرى مخالفة، فهذا لم يكن يعنى البتة أن يتحول الخطأ المتكرر ليصير قانوناً، مهما كان المخالف كبيراً أو صغيراً، قديساً أو غير قديس، من كنيستنا القبطية الأرثوذكسية أو من رؤساء الكنائس الأخرى.

وهذا هو الموقف الملزم أمام كل مخالفة فى الكنيسة يحتج مؤيدوها بأنها سبق أن ارتكبت فى عصر سابق أو أنها ترتكب فى الكنائس الأخرى. علماً بأن «عامل الزمن» لا يستطيع أن يحول الخطأ فيكون صحيحاً ولا المخالفة فتصير هى الوصية والقانون، بسبب تكرار الخطأ والمخالفة، وإلا لكانت الخطايا قد تحولت بسبب تكرار ارتكابها من البشر ملايين المرات فى كل الأزمان إلى أعمال بر أو على الأقل لم تعد خطأً منهياً عنه ويقع تحت دينونة الله!

ولكننا نفضل أن نسجل هنا المواقف التاريخية الإيجابية لمجامع مقدسة وآباء قديسين من بطاركة وأساقفة كنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية، لنقتدى بشهود الحق فى مواجهة مواقف المخالفة.

شهود الحق فى مواجهة مواقف المخالفة:

١ ـ قرار المجمع المقدس لكنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية المنعقد فى مدينة الإسكندرية عام ٣٣٩م. باعتبار انتقال أسقف إلى إيبارشية أخرى بمثابة خطية «زنا»

٢ ـ قانون أصدره المجمع المقدس للكنيسة القبطية الأرثوذكسية فى أثناء حبرية البابا خائيل الأول البابا الـ ٤٦ (٧٤٣ ـ ٧٦٦م.) صرح فيه البابا قائلاً:

[السيف أو النار أو الرمى إلى الأسد أو النفى أو السبى فما يقلقنى. ولست أدخل تحت حرمى الذى كتبته بخطى وبدأت به بأن لايصير أسقف بطريركاً... فكيف أحلل اليوم ما حرمته بالأمس، وما أنكرته بالأمس أرضى به اليوم.

تأمل أمانة البابا لمبادئه السابقة التى كتبها بخطه وعدم تراجعه عنها بالرغم من تهديد الحاكم المدنى آنذاك، الخليفة جعفر بن المنصور العباسى، للبابا بالموت فى حالة الرفض.

٣ ـ المجمع المقدس للكنيسة القبطية الأرثوذكسية عام ١٨٦٥ أصدر القرار التالى:

[لا نسلم ولا نسمح قط للكهنة وشعب الكرازة المرقسية بحل وتعدى الحدود الأبوية. وكل من يطلب هذه الرتبة من الأساقفة أو المطارنة أصحاب الكراسى أو سعى فيها أو رضى بها، أو أحد سعى له فى شأن يطلبونه لها - كاهناً أو رئيس كهنة أو علمانياً يكون محروماً.

٣ - ثم نسجل بكل الفخر والإعزاز موقف الآباء مطارنة وأساقفة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية فى العصر الحديث الذين عاصروا رسامة البابا كيرلس السادس حيث وقف فى اجتماع المجمع المقدس نيافة الأنبا أثناسيوس مطران كرسى بنى سويف والبهنسا السابق وكبير الأساقفة نفسه ـ واتفق مع أعضاء المجمع المقدس بالإجماع أن يتجنبوا ترشيح أى منهم للكرسى البطريركى خضوعاً وطاعة لمشورة العلى والتى سجلتها قوانين الكنيسة الرسولية وقوانين المجمع المسكونى الأول المنعقد فى نيقية عام ٣٢٥م . وهكذا كان كل المرشحين ممن لم تزد درجتهم الإكليروسية عن القسوسية.

٤ ـ كما نسجل بكل الفخر والإعزاز موقف المتنيح الأنبا أنطونيوس مطران سوهاج وكبير الأساقفة وقائم قام البطريرك فى فترة خلو الكرسى البطريركى (١٩٧٠ - ١٩٧١) الذى رفض بإباء وشمم ما عرض عليه من ترشيح نفسه للكرسى البطريركى ليكسر إجماع الإكليروس والشعب آنذاك على حتمية احترام قوانين الكنيسة بعدم ترشيح الأساقفة والمطارنة للكرسى البطريركى. وقد سمعناه يصرح آنذاك إلى الذين عرضوا عليه ذلك قائلاً:

[إنى مرتبط بشعبى وإيبارشيتى، فلا أنا مستعد للطلاق منها، ولاهم مستعدون للتفريط فى اقترانى بهم لأن شعبى يحبنى وأنا أحب شعب إيبارشيتى].

وقد نشر بياناً بهذا المعنى فى الصحف العامة آنذاك.

إذن، فشهود الحق الكنسى فى مصفٍّ المجمع الأسقفى لكنيسة الإسكندرية يقفون فى كل جيل وزمان، يكملون ويحققون موهبة التعاقب الرسولى الذى تحمله كنيسة الله الأرثوذكسية.

* أما موقف الشعب وشهادته للحق الإلهى فى هذا المجال فهو معروف ويمكن الرجوع إلى هذه المواقف منذ عام ١٩٢٨ وحتى الآن.



الأصول الأولى لرتبة «الشيوخ» أو «القسوس»

القسوس فى بداية المسيحية

مركز الشيوخ فى العهد القديم:

كانت المجامع اليهودية فى فلسطين يدبرها من يسمون بـ «الشيوخ» واسمهم بالعبرية «ذقنيم» وباليونانية «بريزفيترو ى ـ والمفرد بريزفيتيروس» وكان هؤلاء الشيوخ يكونون مجلس السنهدريم الذى يرأسه رئيس الكهنة فى أورشليم. وكانوا ينتخبون لمدى الحياة. ومن بين أعضاء هذا المجلس كان هناك من يسمون بـ «الكتبة» أو «الرابيين» والذين كانوا يمارسون تأثيراً كبيراً على الشعب، إذ أنهم هم حفظة الناموس الذين يجلسون على كرسى موسى يعلمون الشعب شريعة الله بكل تفاصيلها ودقائقها. (ويقابل هذه الوظيفة فى العهد الجديد من يسميهم الرسول بولس «الشيوخ المعلمون» ١ تى ٥ : ١٧).

هؤلاء الشيوخ/ البريزفيتيروى كانوا يرسمون، أى توضع عليهم اليد لينالوا الروح الذى حل على موسى، والذى انتقل من موسى إلى يشوع ،ومن يشوع إلى شيوخ بنى إسرائيل. فالشيخ «البريزفيتيروس» اليهودى كان مفرزاً وموشحاً بالروح من أجل القيام بعمل روحى، ويماثل هذا العمل ما كان يقوم به «القضاة» بعد ذلك فى العهد القديم.

(ولكن كانت هناك فى نفس الوقت وظائف أخرى داخل مجامع اليهود بخلاف الوظيفة الروحية المشار إليها أعلى الخاصة بالكتبة الرابيين، هذه الوظائف كان يقوم بها أعضاء من الشعب يسمون باليونانية» «أرخونتس» وبالعربية «أرخنة» أى «رؤساء» أو المقدمين من الشعب، وهؤلاء لم يكونوا من الكهنة الهارونيين أى لم يكونوا يقومون بتقديم الذبائح فى الهيكل، بل كانوا يؤدون أعمالاً مدنية. هؤلاء هم الذين يسميهم الإنجيل «الرؤساء» أو «رؤساء المجمع» وكانوا مسئولين عن مبنى المجمع المنتمين إليه وباقى الخدمات التى تجرى فيه. كما كان هناك مسئولون آخرون عن أعمال الخير والصداقات. وهؤلاء الخدام من أعضاء الشعب كانوا يسمون أيضا الشيوخ ولكن لم يكونوا رابيين. (وهؤلاء يقابلهم فى العهد الجديد من يسمون بالأراخنة

ومقدمى الشعب الذين بالرغم من عدم نوالهم أية رتبة كهنوتية إلا أن لهم مسئوليات مدنية داخل الكنيس، مثل الأعمال الإدارية والمالية والخيرية وغيرها).

ولأن الشيوخ المعلمين كانوا معتبرين أنهم حفظة الناموس، لذلك أقيموا رؤساء لمجامع اليهود.

مركز الشيوخ/ القسوس

فى الكنيسة المسيحية:

أما فى الكنيسة المسيحية فالوضع منذ البداية كان مختلفاً. فالكنيسة لم تكن تحيا بالناموس وعلى الماضى، بل باختبارها الحى لسلطان الله، وبرجائها فى الاستعلان النهائى والحاسم لهذا السلطان فى المستقبل متمثلاً فى المجئ الثانى للرب. والعهد القديم لم ينته فى العهد الجديد، بل تحقق واكتمل فيه. وبهذا، فإن العهدين لابد أن يشرحا بطريقة جديدة: العهد القديم كممهد ومتنبئ للعهد الجديد، والعهد الجديد كاستعلان وشرح واستيضاح لكل غوامض العهد القديم.

مركز الكنيسة فى العهد الجديد:

والكنيسة فى العهد الجديد هى الأداة الأساسية لكل هذا. فهى التى اقتنت العهد الجديد والتعليم الجديد للرب، وعليها أن تحافظ عليه. والرب الذى تخدمه الآن بالطاعة ـ ليس بالطاعة الناموسية بل بالطاعة الحرة الإرادية ـ هو المسيح معطى الناموس، الذى هو الآن حقيقة شخصية حاضرة ومنظورة، بالعيان للرسل وبالإيمان للمؤمنين بالرب بواسطة كلام الرسل. لذلك فقد أصبح الإيمان بتعاليم المسيح وحياته وقيامته ثم المعمودية هو الختان الجديد (بدلاً من الختان بالجسد الذى كان فى العهد القديم) أى هو المدخل الذى يؤهل المؤمن للدخول فى عضوية شعب الله الجديد بسر المعمودية.

و فى هذا الإطار يصبح الشيوخ الجدد هم الذين يمثلون التقليد الجديد ويقدمونه للأجيال اللاحقة. وكل هذا يتم بالروح القدس، الذى أصبح مرافقاً وماكثاً فى الكنيسة يكمل عمل المسيح ويستعلنه ويظهره ويشرحه للمؤمنين بعد صعود المسيح.

لذلك فسلطان الشيوخ البريزفيتيروس / القسوس ليس سلطاناً مأخوذاً من البشر، بسبب انتخابهم بواسطة البشر وليس بواسطة الرب على مثال تلاميذ المسيح الأوائل، بل إن سلطان

الشيوخ هو سلطان روحى مأخوذ من الله، بموجب اختيار شعب الكنيسة لهم. لذلك لابد أن تكون ممارسة هذا السلطان قائمة على طاعة روح المسيح، وفى خدمة إنجيل المسيح، ومن أجل بنيان الكنيسة، ومن أجل كل ذلك منح الرب لهم هذا السلطان.

أما إذا انقلبت هذه العلاقة الأصيلة بين السلطان ومانح السلطان أى الله، لدى حامل السلطان الذى انتخبته الكنيسة، وصارت هذه السلطةن تمارس وكأنها مطلقة بلا حدود وليس بحسب مشيئة الله ولا من أجل بنيان الكنيسة، فنكون قد ابتعدنا عن مفهوم الإختيار الإلهى للشيخ / البريزفيتيروس.

طقس السبعين شيخاً مع موسى

وعلاقته بطقس القسوس:

هذا من الناحية التاريخية، أما من الناحية التقليدية الكنسية، فالشيوخ صاروا يقامون فى الكنسية المسيحية على نسق الشيوخ السبعين الذين اختارهم موسى النبى ليعاونوه فى تدبيره لأمور إسرائيل وهم فى البرية (ونجد قصتهم كاملة فى سفر العدد إصحاح ١١ :١٦ ـ ٢٥).

وقد ورد هذا الربط فى نص صلوات رسامة القسوس المبكرة والمتأخرة، منها خولاجى القديس سيرابيون: ٢٧، وكما ورد فى الدسقولية (٨: ١٦: ٤)، وكذلك فى مخطوطة الأفخولوجيون من القرن الثالث عشر المطبوعة فى رومية.

مركز مجمع الرسل، ودور الشيوخ معهم:

على هذا الخلفية يمكننا أن نتتبع أصل المؤسسات الإكليروسية المسيحية:

فجماعة المسيحيين الأوائل فى أورشليم كان يرأسهم «مجمع الرسل» وكان هؤلاء الرسل معتبرين «معلمين» أو «رابيين» ومعروف أن المعلم أو الرابى لابد أن يكون تلميذاً لمعلم أو رابى أسبق منه (مثل بولس الذى تتلمذ على يدى غمالائيل قبل إيمانه بالمسيح).

وقد كان الاثنا عشر فعلاً تلاميذ متتلمذين لـ«المعلم» و«الرابى» الكبير والوحيد فى الكنيسة، ألا وهو ابن الله المتجسد الرب يسوع المسيح. ولكن لأن أى واحد يدعى بلقبه الأعظم، لذلك لم يسمى الرسل باسم« الشيوخ» (بالرغم من أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم

هكذا، كما يدعو بطرس الرسول نفسه» أنا الشيخ (القس) رفيقكم «(بطرس الأولى ٥ :١)، وكما يسمى القديس يوحنا الرسول نفسه فى رسائله باسم «الشيخ» (يوحنا الثانية ١ :١، يوحنا الثالثة ١ :١)] ـ إلا أنهم كانوا يدعون باللقب الأكبر وهو «رسول» يسوع المسيح.

سلطان «الرسول» فى المسيحية:

وكلمة «رسول» كان لها دور كبير فى نظام الكنيسة اليهودية فى العهد القديم. فالرسول اليهودى واسمه بالعبرية «شليح» أو «سليح» كان هو الشيخ المبعوث من مجلس السنهدريم فى فلسطين إلى مجامع الشيوخ خارج فلسطين ليبلغهم رسائل الكهنة والشيوخ فى فلسطين، أو ليجمع منهم تقدماتهم للهيكل. وكان سلطان هذا الرسول المبعوث مستمداً ممن أرسله أى من رئيس الكهنة فى أورشليم.

وأما «الرسول» فى العهد الجديد فهو يستمد سلطته من رئيس كهنة العهد الجديد الرب يسوع المسيح.

وهكذا كان الرسل الاثنا عشر هم نواة إسرائيل الجديد، أرسلوا باسم شخص ربنا يسوع المسيح نفسه ليكملوا ويمتدوا بإرساليته، مزودين بسلطانه الشخصى وقوة حضوره الإلهى، ومن خلال عطية الروح القدس التى نالوها من الرب نفسه بعد قيامته من بين الأموات، ثم فى يوم الخمسين فى العلية، تحقيقاً لوعد الرب لهم قبل صعوده إلى السموات: «دفع إلى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر. أمين «(متى ٢٨ : ١٨ ـ ٢٠).

هذا هو سلطان الرسول المستمد من سلطان المسيح فى السماء وعلى الأرض.

مركز الشيوخ/ القسوس بالنسبة لمجمع الرسل:

إلا أن «مجمع الرسل» ظل خارجاً عن المؤسسات الكنسية المسيحية المكانية وأعلى منها كما سنرى فيها بعد.

وأول ما نقرأ عن «الشيوخ» فى العهد الجديد، نقرأه فى سفر أعمال الرسل (أع ١٥ :٤)

في سرده لا نعقاد أول مجمع كنسي. فنقرأ عن وجود «الشيوخ» جنباً إلى جنب مع الرسل، ولكن دون الإفصاح عن متى رسم هؤلاء الشيوخ ومن الذى رسمهم فى أورشليم. إلا أن سفر الأعمال يقدم لنا رواية فى مكان آخر أن بولس وبرنابا وهما يبشران فى أنطاكية «انتخبا لهم (للمؤمنين الجدد فى أنطاكية) قسوساً (شيوخا) فى كل كنيسة» (أع ١٤ : ٢٣)، أما «الشيوخ» الموجودون فى كنيسة أورشليم فلم يذكر عنهم شئ من قبل. على أى حال، فقد ظهر أن هناك هيئة جديدة إلى جانب مجمع الرسل هى «مجمع الشيوخ أو القسوس» الذين نالوا وظائف روحية غير وظائف شيوخ اليهود.

لكن مجمع الرسل كان له التأثير الأول والأساسى على مجمع القسوس فى أورشليم وعلى مثيله فى الكنائس التى تأسست خارج فلسطين. ونجد فى الرسائل الرعوية التى أرسلها الرسل إلى الكنائس، أن الرسل كانوا يملكون زمام السلطة على هذه المجامع القسوسية وإن كانوا يتعاملون معها كهيئات معترف بسلطانها.

وكانت علاقة «الرسول» بالكنائس ذات تأثير خاص، لأن الرسول كان يستمد سلطانه من الرب يسوع المسيح نفسه. فبهذا السلطان. كان الرسل يحثون ويقنعون المؤمنين، وأحياناً يمارسون السلطة الفائقة التى للرب نفسه، مثلما حدث فى موقف القديس بولس من أحد الخطاة الزناة فى كنيسة كورنثوس حينما أمر بأن «باسم ربنا يسوع المسيح، وإذ أنتم وروحى مجتمعون مع قوة ربنا يسوع المسيح أن يسلم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكى تخلص الروح فى يوم الرب يسوع» (١ كو٥: ٤، ٥).

معالم رتبة القسوس ورتبة الأسقف:

لكن مثل هذا التدخل لم يكن يحدث باستمرار، لأن الرسل أوكلوا سلطة إصدار مثل هذه الأوامر إلى مجامع القسوس فى كل كنيسة. ثم تحددت السلطة فى يد أحد هؤلاء القسوس الذى انتخب ليكون رئيساً لمجمع القسوس باسم «إبيسكوبوس».

وهذا الاسم مقتبس من الكلمة التى تصف أهم وظائف هؤلاء القسوس وهى: حراسة النفوس وافتقادها وملاحظتها والإشراف عليها من أعلى (كما تدل عليها معنى كلمة «إبيسكوبى Episcopei»). لأن خدمة رعاية النفوس التى يقوم بها هؤلاء الشيوخ/ القسوس

تتضمن هذه الوظائف المعبر عنها بكلمة «إبيسكوبى»، بالإضافة طبعاً إلى الوظائف الأخرى مثل تقديم ذبيحة العهد الجديد بخبز وخمر (الوظيفة الكهنوتية)، ووظيفة التعليم، ووظيفة التدبير وغيرها.

لذلك لا نعجب حين نقرأ فى سفر الأعمال أن بولس الرسول استدعى «قسوس الكنيسة» فى أفسس وقال لهم».. أقامكم الروح القدس فيها أساقفة»... فليس هنا فى هذا النص اختلاط بين القسوسية والأسقفية اللتين نعرفهما اليوم متميزتين، لأن «قسوس الكنيسة» هم خدام الكنيسة ورعاتها، أما كلمة «إبيسكوبوس» فهى هنا ليست «لقبا» لرتبة بل «مضمون الوظيفة» التى يقوم بها هؤلاء القسوس أى الافتقاد.

ويمكن أن تتضح هذه الآية إذا ترجمناها هكذا: «... التى أقامكم الروح القدس فيها نظاراً / حراساً / مفتقدين/ ملاحظين» (وكل هذه المترادفات هى مشتقة من وظائف راعى الخراف واستعيرت لتصف عمل القسوس). وهذه الترجمة العربية لكلمة «إبيسكوبوس»: «نظاراً»، هى التى ترجمت إليها نفس الكلمة اليونانية «إبيسكوبى» فى رسالة بطرس الرسول الأولى ٥:٢ «ارعوا رعية الله التى بينكم نظاراً».

كما ندرك نفس هذا المفهوم ونحن نقرأ توجيه رسالة فيلبى إلى «اساقفة وشمامسة» (فى ١:١).إذ ليس من المعقول كنسياً أن يكون فى مدينة واحدة أساقفة عديدون؟ فواضح أيضا أن اللغة التى يستعملها بولس الرسول وهو يقول «أساقفة» يقصد بها مضمون مهام الافتقاد والملاحظة الروحية للنفوس التى يشترك فيها القسوس وليس لقب الوظيفة الأسقفية.

أصل الوظيفة الكهنوتية للأسقف والقس

إن سر الإفخارستيا هو محور العبادة المسيحية منذ البدء. وحسب إيمان الكنيسة الأرثوذكسية، فقد تأسس هذا السر يوم خميس العهد فى العشاء الأخير للرب مع تلاميذه.

هذا العشاء كان طقساً من طقوس وليمة عشاء ذى صبغة دينية يمارسه فى بعض المناسبات أفراد البيت اليهودى أيام المسيح، وبالرغم من أنه لم يكن له أية صفة ذبائحية، أى لم يكن يذبح فيه خروف الفصح، بل كان طعاماً عادياً، إلا أن المسيح أعطاه معنى جديداً تماماً فى هذه الليلة.

فقد رأى الرب يوم خميس العهد وهو جالس على مائدة العشاء الأخير، رأى بعين النبوة أن موته الكفارى الذى سيتم غداً الجمعة، هو موت ذبائحى، أى أنه سيموت كذبيحة العهد الجديد المقدمة عن خلاص وحياة كل العالم، أى أنه سيصبح غداً هو حمل الفصح الحقيقى، وليس الخروف الذى تعود اليهود أن يذبحوه فى كل عيد للفصح والذى سيكون موعده غداً الجمعة.

ولأن المسيح تقدم إلى الصليب بإرادته وسلطانه وحده، لذلك اعتبرت ذبيحة الصليب ذبيحة إرادية. ومن أجل أن يبين المسيح هذه السمة الإرادية فى ذبيحته، سبق وقدمها بالسر يوم الخميس بقوله لتلاميذه وهو يشير إلى الخبز والخمر الموضوعين على مائدة العشاء: «هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم. اصنعوا هذا لذكرى... وهذه الكأس هى العهد الجديد بدمي الذى يسفك عنكم» (لوقا ٢٢: ١٩ ــ ٢٠).

فهذان المقطعان اللذان نطقهما المسيح ارتبطت فيهما وليمة العشاء اليهودى القديم بموت المسيح كذبيحة. لذلك فإن هذا العشاء دخل فى هذه اللحظات المقدسة إلى المجال الذى لابد فيه أن يكون مقدم هذه الذبيحة (وهو هنا المسيح له المجد) كاهناً. وهذه هى الصفة التى فى المسيح والتى أستعلنت لنا لأول مرة فى العهد الجديد، صفة كهنوت المسيح، وهو يقدم نفسه ذبيحة جسداً ودماً، يبذلان كفارة من أجل حياة العالم.

وكما كان مقدم ذبيحة الفصح فى العهد القديم هو فقط رئيس الكهنة وليس غيره، كذلك فالمسيح يطلق عليه لقب رئيس الكهنة (آرشى إيريفس) أو الكاهن الأعظم، بسبب تقديمه ذبيحه نفسه كفارة عن خطايا العالم أجمع.

ومنذ ذلك اليوم المبارك، وتنفيذاً لأمر الرب: «اصنعوا هذا لذكرى» (لوقا ى٢ى٢ :١٩)، أصبح كل من يرأس الاحتفال الإفخارستى ويقدم الخبز والخمر فى الكنائس المسيحية، إنما يتركز عمله فى أن يعيد ويحقق ويعلن حضور «رئيس الكهنة الأعظم» الرب يسوع المسيح ويفسح له أن يكهن لشعبه. فكهنوت المسيح فريد، كون المسيح هو وحده الكاهن الأعظم، مقابل الكهنة ورؤساء الكهنة الكثيرين فى العهد القديم، وذبيحته واحدة وحيدة لكنها حية، ولذلك لم و لن تتكرر، مقابل تعدد وتكرار ذبائح العهد القديم.

ومن ذلك الوقت أصبح هذا الكهنوت الجديد الذى للمسيح ينضح من المسيح على جسده أى الكنيسة، كما يصف ذلك المزمور ١٣٣ بروح النبوة: «هو ذا ما أحسن وما أجمل أن يسكن الأخوة معاً (إجتماع المؤمنين فى الكنيسة). مثل الدهن الطيب على الرأس(دهن مسحة كهنوت المسيح رأس الكنيسة) النازل على اللحية لحية هارون (رمز الإكليروس) النازل إلى طرف ثيابه (و على جسم الكنيسة كلها أى شعب الله اللاؤس)، دون أن يحسب كهنة العهد الجديد كثرة فى العدد، بل هم كلهم محتوون فى كهنوت الكاهن الأعظم الواحد الأوحد، الرب يسوع المسيح، ويمثلونه أى يعلنون حضورة مجدداً كاهنا أعظم يقدم جسده ودمه عن حياة العالم.

الحركات الطقسية للكاهن أثناء القداس تعلن حضور المسيح وسط شعبه:

وكل هذا يتضح بأروع صورة فى الحركات الطقسية التى يلتزم بها الكاهن فى القداس الإلهى: إذ بعد تقديس الذبيحة (بعد كلمات التأسيس والرشومات) تتغير الطريقة التى يعطى بها الكاهن البركة للشعب. إذ لا يعود الكاهن يلتفت إلى مواجهة الشعب ويرشمهم رافعاً يده معطياً البركة. لهم ، لكنه وهو واقف على المذبح يتنحى قليلاً بعيداً من أمام الذبيحة لتكون الذبيحة المقدسة التى على المذبح (الجسد والدم الأقدسين اللذين لربنا يسوع المسيح) فى مواجهة الشعب، ويقول «السلام لجميعكم» دون أن يرشم أى دون أن يرفع يده بوضع من يبارك، لأن المسيح نفسه الآن هو الذى يبارك.

كما فى ذلك الزمان، الآن أيضاً:

وهكذا أيضا صار المقطعان من قول المسيح ليلة خميس العهد ينطقان بفم مقدم الإفخارستيا فى كل احتفال بالافخارستيا بعد ذلك (فيما يعرف بكلمات التأسيس والتى تبدأ بقول الكاهن: «لأن فيما هو راسم أن يسلم نفسه للموت عن حياة العالم...») وذلك فى كل قداس يقام، على مدى الأجيال وفى كل كنائس المسكونة، وبالتالى أصبحت كلمات المسيح هذه التى قالها ليلة خميس العهد تحمل فى ذاتها كل قوة وفاعلية لإتمام السر، كونها سبق أن نطقت بفم المسيح الكاهن الأعظم الأوحد مرة واحدة ليلة خميس العهد، فصارت هى التى تعطى للتقدمة المقدسة من الخبز والخمر سمتها الذبائحية، باعتبار أن المسيح حاضر وهو الذى

يقدسها بكلماته ذات الفاعلية الأبدية، وإن كان ينطقها بفم مقدم الإفخارستيا خادم مذبح العهد الجديد، فهو الذى كما صنع فى ذلك الزمان، هكذا الآن أيضا يبارك بنفسه الآن. ويقدس، ويكسر، ويعطى كنيسته وكل شعبه، (كما يصلى الكاهن بذلك فى القداس الغريغورى).

هذه هى أهم التغييرات التى حدثت فى وظيفة الشيخ اليهودى، حينما انتقلت إلى المسيحية. فالمشيخة أو مجمع القسوسية بالإضافة إلى أنها ظلت فى المسيحية، كما فى اليهودية قديماً، جماعية، وتمارس مهامها فى التدبير والتعليم؛ إلا أنها، فى المسيحية، أضيفت إليها مهام ليتورجية مسيحية جديدة ذات صبغة وسمة «كهنوتية» بسبب خدمة رفع القرابين وتقديم ذبيحة المسيح فى شكل خبز وخمر، أى بسبب السمة الذبائحية لطقس عشاء الإفخارستيا، الذى أسسه الرب يسوع المسيح ليلة عشاء الخميس الكبير.

الإيغومانس (القمص) وهو كبير القسوس

كلمة «إيغومانس» (ونطقها العربى المتداول محرفاً «قمص») يونانية الأصل Hegoumenos ومعناها: مدبر، أو كما يسميه كتاب الرسامات «الهادى» و«المرشد»، وهاتان صفتان من صفات وأسماء قبطان الباخرة وقائدها، وهما تنطبقان على مهام الإيغومانس.

إقامة أو انتداب الايغومانس، وليس ترقية:

وعملية إقامة الإيغومانس لا يسميها كتاب الرسامات «رسامة» بل «انتداب» و«انتقال من طغمة (أى رتبة) القسوسية إلى الإيغومانسية»، حيث لا يعاد وضع اليد على رأس القس المنتدب للإيغومانسية. إذن، فليس لائقا أن توصف هذه العملية بأنها «ترقية» على نسق ما يحدث فى المؤسسات المدنية. فهى «دعوة إلهية» كما يسميها كتاب الرسامات، ولها مهام محددة تضاف على مهامه كقس قبل الانتداب.

مهام الايغومانس:

١ ـ من بين مهام الإيغومانس (كما وردت فى مخطوطة صلوات الرسامة) ـ بالإضافة إلى مهامه كقس ـ أن «يصير أباً ومدبراً» للرعية فى الموضع الذى أقيم عليه. كأن يكلف بقبول اعترافات الرعية والنطق بالحل لهم، وكذلك التدخل فى المسائل الشخصية العويصة، مثل

حالات النزاع الأسرى ومحاولات الطلاق. وهذه المهمة الأخيرة تحتاج إلى من يكون حاملاً لمواهب الأبوة والتدبير والروح الرئاسى، وبعد خبرة طويلة فى خدمة القسوسية.

لذلك كان إيغومانس الإيبارشية يسمى بوكيل شريعة الأقباط فى الإيبارشية، حيث كان مساعداً للأسقف أو المطران فى إنهاء وفض النزاعات الأسرية وإصدار التصاريح الشرعية المختصة بالزواج وغيره.

٢ ـ ومن بين المواهب التى تحل على الإيغومانس موهبة «الروح الرئاسى» وهو فى هذا يماثل الأسقف فى نوال هذه الموهبة. إذن فيمكن أن نقول أن من مهام الإيغومانس أن يكون مركز وحدة وأداة تدبير حسن وتنسيق بين قسوس الكنيسة التى أقيم عليها من بينهم.

كما أن من عمله ـ كما أوضح كتاب الجوهرة النفيسة ـ «قراءة التحليل على كل قسيس يقدس»، أى يتلو صلاة التحليل قبل بدء القداس الإلهى، وذلك فى حالة غياب الأسقف والمطران، فهو يعتبر بمثابة نائب أو وكيل الأسقف أو المطران فى بعض الأعمال الرئاسية فى إيبارشيته . ولهذا السبب، فإنه أجدر من يكلف بأداء الخدمات العامة والمؤسسات التى تتبع الأسقف والمطران، حيث أن صفته الرئاسية والتدبيرية والنيابية عن الأسقف تؤهله لذلك.

بعض ما يمكن أن يوكل للإيغومانس من مهام

إن الإيغومانس فى كل إيبارشية يمكن أن يكون خير معاون للأسقف أو المطران فى تكميل مهامه المتشعبة الصعبة فى الرعاية.

ففى المدن الكبيرة مثل مدينة العاصمة أو مدينة الكرسى الرسولى، فيمكن للإيغومانس أن يكون مسؤلا ومنسقاً لخدمات الرعاية فى حى أو ضاحية، معاوناً كفؤا للبابا البطريرك فى حل النزاعات والمشاكل الرعوية اليومية. فيمكن أن يعين «وكيل البطريركية لشئون الحى الفلانى أو الضاحية الفانية» من أحياء وضواحى العاصمة المترامية الأطراف، أو «النائب البابوى» لبعض الخدمات العامة مثل تنظيم والإشراف على مدارس التربية الكنيسة أو المعاهد اللاهوتية أو خدمة اخوة الرب أو فى المؤتمرات أوحمل الرسائل إلى الكنائس الشقيقة الأخرى أو لأعمال السكرتارية الخ. وذلك على مستوى الإيبارشية أو الكرازة.

ولاشك أنه في هذه الحالة سيكون مستوجباً كرامة خاصة من الموفد إليهم بسبب صفته النيابية عن الأسقف أو البابا وبموجب تكليفه البابوى أو الأسقفى، وحسب ما أمر به القديس بولس الرسول: «أما الشيوخ (البريزفيتيروس) المدبرون حسناً (أى الإيغومانسيون) فليحسبوا أهلاً لكرامة مضاعفة» (١تى ٥ :١٧).

وإن حسن اختياره من بين القسوس وتكليفه بالمهام التى تتناسب مع المواهب الروحية التى نالها بصلوات الانتداب للإيغومانسية يمكن أن تعطى للخدمات العامة المختصة بالرعاية والتدبير فى الإيبارشية أو الكرازة دفعات قوية وتساهم فى التنسيق بين قسوس الكنيسة الواحدة أو المنطقة أو الإيبارشية الواحدة أو كافة إيبارشيات الكرازة.

سر التوبة والاعتراف بالخطايا

الاعتراف بالخطية فعل أساسى وهام فى عملية التوبة والمصالحة منذ عصر الكنيسة المسيحية الأول. وقد اختلفت طريقة ممارسته على مدى التاريخ من اعتراف علنى إلى اعتراف سرى عن بعض الخطايا المحددة.

١ ـ والاعتراف بالخطية مذكور فى الأناجيل كممارسة تلقائية من إنسان يحس بضعفه فيعترف بأنه خاطئ، مثل «بطرس» الرسول: «.. خر عند ركبتى يسوع قائلاً: أخرج من سفينتى يارب لأنى رجل خاطئ» (لو ٨:٥). ونجد المسيح يؤكد على مبدأ الاعتراف بالخطية فى مثل الابن الضال «فقال له الابن: يا أبى أخطأت إلى السماء وقدامك...» (لو ١٥ : ١٨، ٢١)، وكذلك فى مثل العشار التائب (لو ١٨ : ١٣). وفى سفر الأعمال نجد الاعتراف مرتبطاً بالتجديد للتوبة والإيمان بالمسيح «وكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون مقرين ومخبرين بأفعالهم» (أع ١٨ : ١٩).

والاعتراف بالخطايا تفصيلاً نجده مذكوراً فى الرسالة الأولى ليوحنا كوضع قائم فى الكنيسة فى عصر الرسل، حيث يشير إلى الاعتراف بالخطايا كتمهيد لغفرانها: «أن اعترفنا بخطايانا، فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم» (١يو٩:١) وفى رسالة يعقوب يحث قارئى رسالته أن يعترفوا بخطاياهم: «اعترفوا بعضكم على بعض بالزلات (يع ١٦:٥). فالاعتراف هنا يتم على يدى القسوس.

فى الكنيسة الأولى:

وفى نهاية القرن الثانى الميلادى، يصف العلامة ترتليانس (من شمال أفريقيا) إجراءات مصالحة الخاطئ، حيث كان المسيحيون يعترفون بخطاياهم، ويلتمسون معونة الكنيسة، ويعلنون ثقتهم فى رحمة الله:

[هذا الاعتراف Exomologesis هو عمل نسكى ذو صفة تواضعية عظيمة.. فهو يعلم التائب أن يلقى بنفسه عند أقدام الشيوخ / البريزفيتروس، وأن يرتمى بركبتيه أمام محبة الله، ويلتمس من كل الإخوة أن يتشفعوا من أجله) ـ كتاب التوبة: ٩.

فعل الاعتراف بهذ الصورة، كان يتم أثناء الاضطهاد الرومانى تحت إمبراطورية «ديسيوس» فى منتصف القرن الثالث، حينما كان من الضرورى فى الكنيسة مواجهة الذين جحدوا المسيح تحت وطأة الاضطهاد ثم أرادوا التوبة والرجوع مرة أخرى.

وفى هذا الإطار يصف القديس كبريانوس عملية المصالحة مع الكنيسة أنها تتضمن «الاعتراف» Exomologesis، ثم وضع أيدى الأسقف على رأس التائب المعترف كإشارة إلى عودة القبول الكامل له فى شركة الإفخارستيا.

وحوالى القرن الخامس استبدل الاعتراف العلنى بالاعتراف السرى. وهذا التغيير فى طريقة الاعتراف يصفه المؤرخ «سوزومين» هكذا:

[ولأن طلب الغفران أصبح يستلزم الاعتراف بالخطية، بينما قرر الأساقفة منذ البدء، وهذا الحق، بأنه ثقل شديد جداً أن يعلن الواحد خطاياه فى محفل عام أمام الكنيسة المجتمعة كشهود، فقد اختاروا لهذا الغرض شيخاً/ بريزفيتيروس /قس، رجلاً على أعلى درجة من النقاء، رجلاً هادئاً، حكيماً، لكى يأتى الخطاة إليه ويعترفوا بأفعالهم..]

ومنذ ذلك الوقت والكنيسة تمارس سر الاعتراف بهذه الصورة الدقيقة على رجال تحتم أن يكونوا «على أعلى درجة من النقاء، هادئين، حكماء». كان الأسقف هو الذى يختارهم من بين مجمع القسوس، إذ لم يكن يسمح لأى قس / بريزفيتروس مرسوم حديثاً أن يسمع اعترافات التائبين، بل فقط الذين يختارهم الأسقف ويعطيهم حلاً لتلقى اعترافات الشعب بموجب خطاب رسمى بذلك، وكان يسمى «معلم الاعتراف». (والى وقت قريب جداً كان

هذا النظام مطبقاً في الكنيسة القبطية). لذلك تذكر مخطوطة الإفخولوجيون (القرن الثالث عشر) في نهاية صلوات رسامة القس / البريزفيتروس وصية للقس في قبول الاعتراف هكذا:

[ولا بأس أن تقبل الاعتراف إذاجاء إليك أحد معترفاً بخطيته، إن كنت مدرباً بهذه الصناعة. فإن القانون المقدس يقول: «إن الكاهن الذى لا يقبل المعترف، ينفى من الجماعة» .ويعقوب الرسول ينذر المعترف ومعلم الاعتراف معاً ويؤكد أن ذلك واجب وفرض، بقوله للمعترف: «وليعترف بعضكم لبعض بخطاياكم»، ويقول للمعترف له: «وليصل بعضكم على بعض»، أى الكاهن يصلى على الرعايا. «لأن من يرد الخاطئ عن ضلاله يخلص نفساً من الموت ويستر على خطايا كثيرة»].

ويشترط الطقس الخاص بتلقى الكاهن القس المسمى «معلم الاعتراف» لاعترافات الشعب، أن عليه أن يتعلم أولاً ما يسميه الآباء «الطب الروحى» أو «طب النفوس»، وذلك على يد أب روحى وشيخ خبير بالمعالجة مشهور بالنجاح:

[ويجب أن تتخذ لك قبل ذلك ـ أى قبل ممارسة تلقى اعترافات الشعب ـ أباً وشيخاً خبيراً بالمعالجة، مشهوراً بالنجاح، حتى يعلمك أن تضع الدواء والمرهم بما يلائم الوجع والجراح].

محاذير ممارسة تلقى الاعتراف دون خبرة روحية:

فليس كل قس مرسوم حديثاً مسموح له بأن يتلقى اعترافات الشعب إلا بعد أن يتعلم طب الأرواح والنفوس أولاً. وهذا العلم الروحانى تشرح الوصية محاذير الجهل به:

[لكى لا تضع دواء العين على الرِّجْل فلا ينتفع بذلك، وتتشدد على العضو الترابى الزمنى فيصير هالكاً. وكن سائلاً عن السن والعادة والوضع والزمان والطبع، والمكان والإمكانية والمزاج والتحصن «أى القدرة على احتمال التأديبات»، معتمداً فى ذلك الرافة على بنيك والتحنن. ولا طف كلا مما ذكرناه لما يلائمه من الدواء، حتى يعود العليل من مرضه إلى حالة الصحة والاستواء.].

وتوصى الوصية المقروءة على القس يوم رسامته أن تكون حياته وخبرته الروحيتين كما يريده عليهما المسيح راعى النفوس وأسقفها هكذا:

[لتكن مركباً روحياً، يحمل البركات إلى ميناء الخلاص.

ومعلماً روحانيا نورانياً، ترفع المتعلمين إلى درجات الاختصاص.

لتستحق بهذه الصفة الأجر المتضاعف، ويسبغ الرب عليك الخير المترادف].

إذن فمهمة الكاهن فى سر الاعتراف تشمل أيضاً، ليس فقط سماع الاعتراف وإعطاء الحل، بل وأيضاً إعطاء الدواء الروحى والتوجيه المناسب لكل فرد على حدة، حسب قامته الجسدية والنفسية والروحية. لذلك فهذه المهمة تستلزم جداً من الكاهن المعرِّف أن يكون متدرباً على يد شيخ روحانى مختبر ناجح فى تدبير النفوس سبق أن تتلمذ عليه الكاهن قبل البدء فى تلقيه اعترافات الشعب.

وقد صار هذا التقليد فى الكنيسة أن يتخذ كل كاهن له أب اعتراف (يسمى فى اللغة الكنيسة: أب ذمة)، شيخاً مختبراً هادئاً حكيماً قادراً أن يشفى النفوس المعتلة ويترقى بالمتعلمين والأصحاء إلى أعلى درجات الكمال. وقد وضع الآباء الكهنة والأساقفة والبطاركة أنفسهم فى وضع التلمذ «لأب ذمة» أى أب اعتراف قبل وبعد رسامتهم، ومازال الآباء الحريصون يسلكون هكذا.

الاعتراف السرى أثناء العبادة الليتورجية:

ومن بين ما شمله الاعتراف السرى، نوع آخر من الاعتراف أثناء الخدمات الليتورجية ويشمل الاعتراف «على المجمرة» ـ مجمرة البخور. وهو لا يغنى عن الإعتراف على يد الكاهن. ويشرحه ابن كبر فى مخطوطته «مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة» هكذا:

فى خدمة رفع بخور باكر وعشية

[وينزل الكاهن يبخر باب الهيكل ثلاثاً، ويمسح البيعة كلها، والشعب والنساء والشمامسة يقبلون يده، و هو يباركهم. ويسحب اعترف الإنسان بخطيته وطلبه المغفرة عند وقت تبخيره، سرا وبوجيز من الكلام. فقد قال بعضهم إن إخراج البخور للشعب هو بمنزلة الحيوان الذى كان يخرج ـ فى العهد القديم ـ إلى خارج المحلة ويعترف من يقدمه بخطيته فى أذنه، ثم يقرِّب عنه ـ (يقصد طقس تقديم تيس «ذكر الماعز» الذى يعترف على رأسه رئيس الكهنة

بخطايا الشعب ثم يقدمه ذبيحة رمزاً لغفران خطايا الشعب بالاعتراف وتقديم الذبيحة ـ راجع سفر اللاويين١٦).

وإذا فرغ الكاهن من تبخير الشعب كله، الرجال والنساء وأماكن الهياكل وأيقونات الشهداء والقديسين، يعود ويطلع فوق قدس الأقداس، كأنه يرفع اعتراف الشعب للإله ويقول: «يا الله الذى قبل إليه اعتراف اللص على الصليب المكرم، اقبل إليك اعتراف شعبك واغفر لهم جميع خطاياهم، من أجل اسمك القدوس الذى دعى علينا، كرحمتك يا رب ولا كخطايانا»)

ويقول الخولاجى المقدس إن هذه الصلاة واسمها «سر الرجعة» يقولها الكاهن فى رفع بخور عشية وباكر وفى القداس الإلهى أثناء قراءة رسائل بولس الرسول والإبركسيس.

وواضح أن الاعتراف على المجمرة أو الشورية ممارسة قديمة مكمِّلة لممارسة الاعتراف السرى على يد الكاهن (وليست بديلة عنه). ومنها يتضح أن تكرار الفرص التى يمنحها الطقس الكنسى للمؤمنين أثناء القداس الإلهى للاعتراف بخطاياهم ومنحهم الحل، إنما يهدف إلى تطهير ضمائر المتقدمين للتناول من الأسرار المقدسة ليكونوا فى حال استحقاق لقبول هذا السر الرهيب، حتى إلى آخر لحظة قبل التقدم للتناول.

العلاقة التاريخية بين القسوس والأسقف

١ . المجال الجغرافى لخدمة كل منهما:

مجال عمل الأسقف:

مجال عمل الأسقف هو الـ Diokesis(باليونانية) وبالإنجليزية Diocese، وبالعربية تسميها «إيبارشية» وهى النطق العربى للكلمة اليونانية Eparchia، والتى توصف بها الوحدة الإدارية فى التقسيم الإدارى للدولة فى النظام المركزى للحكومة الرومانية قديماً.

وتشمل الإيبارشية الكنسية مدينة أو عدة مدن فى المحافظة فى التقسيم الإدارى للدولة والقرى المحيطة بها. وفى القديم كان لكل مدينة فى المحافظة أسقف، بينما أسقف عاصمة المحافظة كان يدعى «المتروبوليتيس» باليونانية وتعنى أسقف المدينة الأم أو أسقف أم المدائن.

وتنطق «المطران» بالعربية، وهو الأسقف المتقدم بين أساقفة مدن المحافظة، وكان يشكل معهم مجمع أساقفة مدن المحافظة.

مجال عمل القس:

أما مجال القس فهو يسمى بالـ Paroichia (باليونانية) وتنطق باريخيا، وتسمى بالإنجليزية Parish. و«الباريخيا» مصطلح مأخوذ عن الترجمة السبعينية للكتاب المقدس (العهد القديم). ويعبر عن مجموعة من المرتحلين معاً الغرباء فى أرض غريبة عن وطنهم، أو تعنى مجموعة من السكان المتجانسين الذين يعيشون متجاورين فى مكان واحد. وليس لهذه الكلمة فى اللغة العربية فى كنيستنا القبطية ترجمة. ومن المهم تحديد اسم لهذا المجال الرعوى للقس لاستخدامه فى التعامل اليومى الكنسى بين الأسقف والقسوس، ويمكن تسمية مجال خدمة القس باسم «رعوية» أى المجال الرعوى للقس. والقس يسمى «كاهن الرعية». فيقال رسم فلان قساً على مذبح كنيسة العذراء ليخدم رعوية منطقة كذا أو مدينة كذا أو حى كذا.

٢.كيف اختارت الكنيسة لقب «الأسقف»

وميزته عن لقب «القس»:

١ ـ فى المجتمع اليونانى القديم، كانت الوحدة الاجتماعية هى «المدينة» POLIS ذات الحكم المحلى الذاتى كأنها جمهورية قائمة بذاتها؛ بينما لدى اليهود كانت الوحدة الاجتماعية هى الجماعة العابدة فى «المجمع اليهودى». لذلك كان يوجد أحياناً فى «المدينة» الواحدة عدة «مجامع»، وبالتالى عدة مجالس شيوخ متعددة.

٢ ـ أما فى الكنيسة المسيحية، فقد اتخذت لنظام رعايتها:

أ ـ «المدينة POLIS» كوحدة أساسية (حسب النظام الرومانى) ويرأسها الأسقف،

ب ـ ويتبعها الجماعات المسيحية العابدة فى الأنحاء المتفرقة من أحياء المدينة (حسب نظام المجامع اليهودية). وكل جماعة من هذه الجماعات تسمى «الباريخيا Paroichia». وهذه يرأسها القسوس كمندوبين عن الأسقف.

حتى القرن الثانى الميلادى كان لقب «الكنيسة» أو «كنيسة الله فى مدينة كذا» مرادف

لمعنى «الكنيسة الجامعة» ، ولم يكن هناك أى رباط للتنظيم بين الكنائس المحلية بعضها والبعض، بل كانت كل كنيسة تدبر نفسها بمجمع قسوسها ويرأس هذه المجامع الأسقف.

٣ ـ وفى القرن الثالث بدأت الكنائس تحس باحتياجها إلى الاتحاد فيما بينها، ولكن دون أن تشكل تنظيماً آتحادياً (على نمط الاتحاد الرومانى بين ولايات الإمبراطورية الرومانية فى العالم التى كانت كل ولاية فيها تدبر نفسها ولكن تحت إمرة الإمبراطور الرومانى). وهكذا بدأت تظهر هذه الوحدة الكنسية بطريقة تلقائية بين الكنائس الأربع الكبرى: روما، الإسكندرية، قرطاجنة، أنطاكية.

٤ ـ وكان الأسقف هو المعتبر أنه الكاهن والمعلم لكل رعيته الذين سبق أن ولدهم جديداً من جرن المعمودية. وكان هو الذى يقيم ليتورجية الإفخارستيا بمعاونة كل الشمامسة ومحاطاً بكل القسوس، وهو الذى يناول الأسرار للشعب.

* ولكن ظهرت الحتمية التى واجهت الكنيسة بسبب الاضطهاد الجديد الذى أثاره ديسيوس وفاليريان على المسيحية، ثم نتيجة لموت الأسقف استشهاداً أو لنفيه أو لجوئه إلى مكان آمن، إذ وجدت كثير من الكنائس نفسها فى منتصف القرن الثالث محرومة من رئيسها الليتورجى السرائرى. فالقديس كبريانوس أسقف قرطاجنة كان غائباً عن كنيسته لمدة ١٤ شهراً. ولنفس السبب وفى نفس الفترة الزمنية كان أسقف الإسكندرية ديونيسيوس غائباً عن الإسكندرية. وفى نفس الوقت تقريباً ترملت كنيسة روما مرتين، وذلك لمدة عامين، بعد استشهاد اسقفها سيكستوس الثانى مع مجمع شمامسة الكنيسة الرومانية.

* ولأن الحتفال الأسبوعى بالافخارستيا فى كل كنيسة كان أمراً حيوياً من أجل تجديد وتثبيت الحياة المشتركة للمؤمنين، أصبح واضحاً أنه يتحتم وجود مندوبين للأسقف فى الكنائس المختلفة للقيام بالخدمات الليتورجية والصلوات على الراقدين وتذكارات الشهداء والاهتمام بالمسجونين بسبب الإيمان (والذين يسمون «المعترفون»).

كل هذا جعل من القس أنسب من يمثل الأسقف فى الاحتفالات بإقامة الإفخارستيا فى أحياء المدينة، ولا عجب فالأسقف كان قبل رسامته قساً وعضواً فى مجمع القسوس.

* وفى مجمع نيقية المسكونى (سنة ٣٢٥م) والمعتبر المرجع لكل المجامع المسكونية

والمكانية اللاحقة، اعترف المجمع فى سياق نص القانون ١٨ أن القس معتبر ضمن الذين «يقدمون / يرفعون Prospherousi» القرابين.

* ولكن القس لم يعد فقط يتشابه مع الأسقف فى رفعت القرابين، بل وأيضا فى إجراء سر المعمودية، وكذلك فى سر المسحة المقدسة الذى كان يؤديه الأسقف وحده (بوضع اليد قبل شيوع المسح بالزيت المقدس).

* ويقول أحد الكتاب المسيحيين فى أواخر القرن الرابع هو أمبروزياستر (حوالى سنة ٣٨٠م): [إنه فى الإسكندرية وفى كل مصر حينما يكون الأسقف غير متواجد، يعطى القس سر المسحة المقدسة أو التثبيت].

* كما أنه بتداعى نظام الاعتراف العلنى والتوبة العلنية وتحولهما إلى اعتراف وتوبة سريين، أصبح للقسوس مسئولية إعطاء الحل عن الخطايا، بعد أن كانت قاصرة على الأسقف وحده.

* ويقول القانون ٤ من قوانين هيبوليتس: [الأسقف يساوى القس فى كل شئ، عدا الكرسى والرسامة، حيث أنه لم تمنح هذه السلطة للقس].

والكاتب المسيحى أمبروزياستر يوضح مزيداً من التفاصيل هكذا:

[كل من الآثنين (الأسقف والقس) هو الكاهن. ولكن الأسقف هو الرأس. فبالرغم من أن كل أسقف كان قساً قبل رسامته، ولكن ليس كل قس أسقفاً. لأن الأسقف هو الرئيس وسط مجمع القسوس. ويوضح الرسول أن تيموثاوس أنتخب ورسم «قسا» بوضع أيدى القسوسية، ولكن لأنه لم يوجد من هو أعلى منه رتبة، فقد كان معتبراً أنه هو الأسقف].

٤ ـ وفى القرن الرابع، وكما نقرأ فى كتاب التقليد الرسولى لهيبوليتس وفى رسائل القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة، كان مجمع القسوس هو الأداة الجماعية فى يد الروح القدس. ومن ذلك التاريخ بدأ مركز القسوس يتثبت بالنسبة للأسقف: كل قس فى الموضع الذى رسم عليه. وهكذا منع قانونى ١٥ و١٦ من قوانين مجمع نيقية المسكونى (سنة **٣٢٥**م) انتقال الأساقفة من الإيبارشيات التى رسموا عليها، وكذلك أمر أن القسوس يخدمون فى الكنيسة التى رسموا عليها حتى الموت. ودرجت المجامع الكنيسة الإقليمية على تقرير نفس المبدأ

أى تحريم انتقال القسوس من كنائسهم إلى كنائس أخرى، كما حرمت أن يستخدم أسقف قسوس أسقف آخر أو أن يقبل القسوس المتنقلين من مكان إلى مكان دون خطابات من أسقفهم (مجمع أنطاكية قانون ٣، مجمع سرديقا قانون ١٧، ١٨).

٥ ـ وابتداء من الربع الثانى من القرن الرابع، وبعد السلام الذى أرسى قواعده حول الكنيسة، ثم بسبب النمو السريع فى أعداد المنضمين للإيمان وازدياد بناء الكنائس، أصبح هذا الوضع (قيام الاسقف بممارسة كل الأسرار وحده) غير ممكن، وأصبح الحل الوحيد هو فى ازدياد مندوبى الأسقف فى أداء واجبات الأسقف الليتورجية.

وهكذا أوكل الأسقف بعض مهامه إلى القسوس.

٦ ـ وهكذا بدأنا نرى قسوس الكنائس يرسمون على مذابح الكنائس التى تقع فى دائرة إيبارشية الأسقف. فكان القس هو الذى يعلم ويخدم الأسرار للجماعة المسيحية البعيدة عن موضع كنيسة الأسقف المسماة« الكاتدرائية» . كان الأسقف يزور الكنائس التابعة لإيبارشيته بين الحين والآخر باعتباره رئيس الكهنة ورئيس مجمع القسوس. ومن هذا الحين بدى فى إطلاق لقب «كاهن» على القس، كان هذا اللقب قاصراً على الأسقف وحده. وكان ذلك منذ النصف الثانى للقرن الرابع.

٧ ـ ولكن ظل الأسقف هو الذى يجرى سر المسحة المقدسة ويقوم بالرسامات الكهنوتية. وللقديس جيروم وصف فى إحدى رسائله للأساقفة وهم ينتقلون إلى ضواحى المدينة ليعطوا سر المسحة المقدسة للمعمدين الذين عمدهم القسوس.

٨ ـ وفى القرن الخامس استقر الوضع، فلم يعد الأساقفة هم الوحيدين الذين يعطون سر المسحة ، ولكن ظلوا هم وحدهم الذين يقومون بتقديم زيت الميرون الذى يستخدم فى سر المسحة. واقتصر إجراء الرسامات الكهنوتية عليهم.

نشأة وظيفة «الخوري إبيسكوبوس» أو أسقف (أو رئيس) القرية:

وكان على أسقف المدينة أن يوفر لكنائس القرى خداماً مولودين فى هذه القرى لكى يقوموا أساساً بأداء سر الإفخارستيا. ولكن لم يكن مسموحاً لهؤلاء برسامة الدرجات الكهنوتية

اللاحقة. وسمى هؤلاء «خورى إبيسكوبوس» أى أسقف القرية، وكان ذلك قرب منتصف القرن الرابع ـ فى مجمع سرديقا (سنة ٣٤٣). ولكن لم يكونوا معتبرين أساقفة بكل صلاحيات الأسقف، بل قسوساً ولكن بكرامة خاصة أعلى. وكانوا يسمون أحياناً «رئيس القرية».

على أن نظام الخورى إبيسكوبوس لم يكتب له الاستمرار بسبب المشاكل التى نجمت عن تداخل الاختصاصات بين أسقف المدينة ومن يتبعونه من الخورى إبيسكوبيين، فبدأ هذا الطقس يتوارى إلى أن اختفى نهائياً من الكنيسة بسبب المشاكل التى حدثت من جراء أى نظام يتعدد فيه أكثر من أسقف واحد فى الإيبارشية الواحدة.

أساس العلاقات الصحيحة السوية
بين الأسقف والقسوس

ومن هذا المنطلق والأساس الرسوليين لوظيفة كل من الأسقف والقس، يكتب القديس جيروم معلقاً على بعض آيات وردت فى سفر أعمال الرسل ورسائل الرسل ما قد يوحى يتبادل اسم الإسقف مع اسم القس، معلقاً التعليق الروحى العملى الذى يحدد أساس العلاقة بين الأسقف والقسوس، قائلاً:

[لذلك، فبينما يجب أن يعرف القسوس كيف يخضعون لمن أقيم رئيساً عليهم بحسب عادة الكنيسة، فليتذكر الأساقفة أنهم يرأسون القسوس بحسب عادة الكنيسة أيضا.. ولذلك فيجب أن يدبروا الكنيسة بالاهتمام المشترك، متشبهين بموسى الذى بالرغم من أنه كان يحوز السلطان أن ينفرد بالرئاسة فوق شعب إسرائيل، إلا أنه اختار سبعين شيخاً (بريزفيتروس)، ليساعدوه فى تدبير الشعب. (كما ورد فى سفر العدد ١١ : ١٦ وما يليه)].

القديس جيروم ـ فى تفسير رسالة تيطس (١ :٦ ـ٧).

بهذا التعليق الروحى للقديس جيروم، وعلى خلفية هذا العرض التاريخى الكنسى للعلاقة بين الأساقفة والقسوس، وليبرز درجة الأسقف من بين مجمع القسوس، يمكننا أن نعرض للأوضاع الصحيحة أولاً، ثم للمشاكل المعاصرة، التى تحيط بعلاقة الأسقف بالقسوس، وكيفية التصدى لها ومعالجتها.

ارتباط الرتبتين الأسقفية والقسوسية وتعاونهما معاً من أجل بنيان الكنيسة:

من حيث أن كنيسة الرعية (فى حى أو منطقة أو مدينة) تكون هى والكنائس الأخرى فى الإيبارشية الواحدة الكنيسة الواحدة، هكذا خدمة الأسقف وخدمة القسم تكونان معاً الخدمة الافتقادية والكهنوتية الواحدة التى أسسها فى كنيسته المقدسة الرب يسوع المسيح رئيس الكهنة الأعظم.

رتبة الدياكون

أولاً : جذور هذه الرتبة فى العهد القديم

الدياكونوس Diakonos كلمة يونانية معناها «خادم» أو «مساعد» ويقابلها فى الاستخدام اليهودى، فى العهد القديم:

١ ـ «خادم» المجمع، واسمه بالعبرية «خازان». وكان يقوم بمهام كثيرة تنوعت على مدى العصور وفى أماكن مختلفة:

* فكان يساعد فى طقوس العبادة،

* يعتنى بمبانى المجمع،

* يعلم الأطفال (معلم الأطفال ـ رومية ٢ :٢٠).

٢ ـ شبه الدياكون فى العهد الجديد، برتبة «اللاوى» فى العهد القديم:

وكانت مهام اللاوى كالآتى:

* خادم خيمة الاجتماع وأمتعتها (عدد ١ :٥٠)،

* خدمة رئيس الكهنة هارون (عدد ٥ :٣).

* حمد الرب وتسبيحه كل صباح وكل مساء (١ أى ٢٧ : ٢٣).

والقديس كلمندس الرومانى، وهو يعدد الرتب فى كنيسة الله يذكر «الدياكون» الذى يسميه «اللاوى».

[للكاهن الأعظم ليتورجيته المختصة به ـ أى خدمته القانونية ودوره فى الخدمة الليتورجية،

وللقسوس موضعهم TOPOS الخاص الذى تخصص لهم، وللاويين خدمتهم ـ دياكونيتهم ـ التى وضعت عليهم، وعضو الشعب ـ اللائيكون ـ محدد له طقوسه الخاصة. ليؤدى كل واحد منهم افخارستيته لله ـ أى يؤدى دوره المرسوم له فى الاحتفال الإفخارستى ـ ، دون أن يتعدى القانون المرسوم له].

الرسالة الأولى إلى كورنثوس ١٤ :٤٠

٢ ـ الشيوخ السبعون الذين عاونوا موسى النبى: ففى سفر العدد ١١:٤ ـ ٣٢ (أحد الموضعين اللذين ذكرت فيهما قصة السبعين شيخاً مع موسى)، نقرأ كيف أن موسى تواجه مع الجمهور المختلطة أجناسهم الذين خرجوا مع بنى إسرائيل من مصر (وتسميهم ترجمة بيروت للعهد القديم «اللفيف»)، وهؤلاء كانوا من الأمم، أنهم اشتهوا أكل اللحم وطلبوه بإلحاح من موسى. فاشتكى موسى أمام الرب: «ألعلّى حبلتُ بجميع هذا الشعب، أو لعلى ولدته حتى تقول لى احمله فى حضنك كما يحمل المربى الرضيع إلى الأرض.. من أين لى لحم حتى أعطى جميع هذا الشعب...».

فكلفه الرب تكليفين، أن يجهز الشعب لوليمة لحم معجزية من السماء، وأن يجمع للرب سبعين رجلاً من شيوخ إسرائيل، كما ورد فى الموضع الثانى لقصة الشيوخ فى سفر الخروج ١٨، لمعاونته فى تدبير الشعب.

وفى هذه القصة نجد مشابهة مع قصة اختيار الدياكونيين السبعة (كما وردت فى أعمال الرسل ٦) كالأتى:

* الأمم فى العهد القديم، وكذلك الأمم فى العهد الجديد، هم الذين تذمروا من جهة الطعام.

* اختيار صف جديد من الخدام ليعاونوا: موسى فى العهد القديم، والرسل فى العهد الجديد.

٤ ـ الخادم اليهودى، فى الوليمة الدينية (والمسماة «الشابوراه») فى البيت اليهودى، والتى فيها أسس الرب يسوع المسيح سر الإفخارستيا يوم خميس العهد. وخادم الوليمة هذا كان يؤدى المهام الآتية:

* يصب الماء على أيدى الضيوف ليغسلوا أيديهم مستخدماً إبريقاً وطستاً ومنشفة.

* يقدم الخبز لرئيس المحفل ليكسره.

*يمزج الخمر ليباركه رئيس الوليمة.

* يوزع الطعام والشراب على ضيوف الوليمة.

* ورئيس الوليمة كان غالباً هو أب الأسرة، وكان له امتيازات شرفية تختص بهذا الوضع. أما خادم الوليمة فكثيراً ما كان أحد الشباب من أعضاء الجماعة المجتمعة، وأحياناً كان أحد تلاميذ «الرابى» أو «المعلم» اليهودى(*).

٥ ـ البارناسيم (جمع بارناس بالعبرية): وهؤلاء كانوا يقومون بخدمة إطعام الفقراء اليهود فى بعض الأماكن داخل أورشليم. وكان عددهم سبعة فى كل مجمع..

من هذه الخدمات الخمس فى العهد القديم، أخذ الدياكون فى العهد الجديد مهامه كما سنرى، وأصبح له مكانته ومكانه داخل المثلث الكهنوتى المسيحى.

الدياكون والدياكونية فى العهد الجديد (المعنى العام):

لقد أطلقت كلمة «دياكونوس» فى كتابات العهد الجديد على أشخاص عديدين: «الساقى» (يو ٥ :٢)، والموظفين الحكوميين (رو ٤ :١٣)، وعلى تلميذ المسيح (متى ١١ :٢٣)، وعلى حامل الرسالة (كو ٧ : ٤ ,١ تس ٢ :٣)، والمبشرين والمرسلين (١ تى ٦ :٤ ,٢كو ٢٣ : ١١)، بل وعلى الرسل أنفسهم (متى ٢٦ : ٢٠ ، ٢كو ٦ :٣)، ثم أطلقت على المسيح نفسه أنه «خادم الختان» Diaconon (رومية ٨ :١٥).

الدياكون والدياكونية (فى الاستعمال الكنسى):

صار لكلمة «دياكونوس» معنى كنسى فى العبادة وترتيب الكهنوت.

(*) «الرابى» أو «الربان» بالأرامية (تعنى المعلم). و«ماران» تعنى السيد. وهذه الألقاب هى أعلى ألقاب التكريم للمعلمين اليهود. وقد استخدمها المسيح فى وصف نفسه حينما قال: «إن كنت وأنا المعلم (المرابى) والسيد (ماران) قد غسلت أرجلكم.. «الخادم» (دياكونوس) ليس أعظم من سيدة، ولا الرسول (السليح) أعظم من «مرسله» (يو ٤ : ١٣).

١ ـ فقد ذكرت فى ديباجة الرسالة إلى فيليبى «إلى أساقفة وشمامسة» (فى ١:١)، وفى الرسالة الأولى إلى تيموثاوس عن شروط وكفاءات «الشمامسة» (١تى ٨:٣ ـ ١٣). وقد اقترن اسم الدياكونوس بالأساقفة فى كثير من مراجع ترتيب الكنيسة، مثل الديداخيه (القرن الثاني): «انتخبوا لأنفسكم أساقفة وشمامسة» (الديداخيه فصل ١٥)، رسالة كلمندس (النص السابق ذكره: ٤٢)، كما ورد اسم الشماس الدياكونوس مقترنا بالقسوس /البريزفيتروس كما فى رسالة بوليكاريوس (القرن الثانى) ٢ :٥) وكتاب «الستروماتا» للعلامة كلمندس الإسكندرى ١٠ : ١٢ : ١٣، ٣ : ١ : ٧٢.

٢ ـ و«الدياكونيا» هى «الخدمة». وقد أوضح المسيح أن معيار الحكم على أية موهبة من مواهب الروح القدس هى أن تؤدى بروح اتضاع الخدمة والخدام، كما عبر عن ذلك المسيح نفسه بقوله: «إذا أراد أحد أن يكون أولاً، فيكون... خادماً Diaconus للكل» (مر ٩ :٣٥).

٣ ـ ومن بعد المسيح وعلى هدى تعليمه، يصف القديس بولس عمل إستفاناس هكذا: «وأطلب إليكم أيها الأخوة، أنتم تعرفون بيت استفاناس أنهم باكورة أخائية. وقد رتبوا أنفسهم لخدمة (دياكونيا Diakonia) القديسين. كى تخضعوا أنتم أيضا لمثلم هؤلاء ولكل من يعمل معهم ويتعب» (١كو ١٦ : ١٥ ـ ١٨).

* والقديس بولس هنا أمين لروح الإنجيل ولكلمات المسيح. ولكى تتحقق هذه القاعدة المختصة بمن يخدم، يجب أن يقابلها من المخدومين الطاعة الإرادية الحرة له. فكما رتب إستفاناس نفسه هو وأهل بيته لدياكونيا «خدمة» القديسين، هكذا أيضا بالمقابل يجب على الباقين أن يخضعوا لهم ولتوجيهاتهم.

* من جهة أخرى، فإذا كان إستفاناس قد نال كرامة الرئاسة على كنيسة كورنثوس، فإن أهل بيته اعتبروا أنهم «دياكونيون» أى «خداما» ، لأنهم أعطوا أنفسهم لخدمة «الدياكونيا».

٤ ـ ثم نقرأ فى مقدمة رسالة فيليبى توجيه الرسلة: «إلى جميع القديسين فى المسيح يسوع.. مع أساقفة وشمامسة» (فى ١:١).

ومن هنا بدأ تلقيب القائمين بالخدمة الدياكونية بـ «دياكون». ومرجعنا هنا هو رسالة القديس كلمندس الرومانى أسقف رومية بعد ٤٠ سنة من كتابة رسالة فيليبى. إذ يذكر قارئية

برسالة القديس بولس إلى أهل كورنثوس، فيذكر أن الرسل عينوا «باكوراتهم» (جمع باكورة - أى أوائل الذين آمنوا فى كورنثوس) أساقفة وشمامسة. والشمامسة موصوفون فى الرسالة إلى كورنثوس أنهم أبناء الأسقف إستفاناس. وفى نفس الرسالة نجد نفس الوضع الوسولى فى مكان آخر فى كنائس آسيا:

- «أكيلا وبريسكلا مع الكنيسة التى فى بيتهما» (١كو ١٦: ١٩).

* فأهل بيت أكيلا وبريسكلا كانوا يؤدون خدمات متعددة Diaconioe للكنيسة المجتمعة هناك. ومن بين هذه الخدمات الواجبات الليتورجية للشمامسة، مثل إعداد الخبز والخمر للإفخارستيا. فإن كان أكيلا هو الذى يرأس الكنيسة، فأهل بيته هم الذين كانوا يؤدون خدمة الدياكونيا.

* ولكن فيما بعد، وبعد أن اتسع نطاق المؤمنين، وتم ترتيب الأمور لتأخذ الوضع التنظيمى الأكمل، لم يعد الشمامسة هم أهل البيت (الذى فيه الكنيسة)، بل اختيروا من أعضاء الكنيسة.

٥ - ونفس الوضع نجده فى كولوس : فليمون كان عنده كنيسة فى بيته (رسالة فليمون ١, ٢). ولقد تلقى ابنه «أرخبس» كلمة تشجيع من القديس بولس فى سياق رسالته إلى أهل كولوسى:

* «وقولوا لأرخبس انظر إلى الخدمة (الدياكونيا) التى قبلتها فى الرب لكى تتممها» (كو ٤ :١٧).

«فالخدمة» التى قبلها أرخبس فى الرب هى بلا شك خدمة «الدياكونيا».

٦ - فإذا رجعنا إلى ١كو ١٦، لنقرأ عن الكنيسة التى فى بيت أكيلا وزوجته الفاضلة بريسكلا، فإذا كان أكيلا هو رئيس الكنيسة هناك، فإن زوجته لا شك صارت هى «شماسة» «دياكونوس Diaconus» الكنيسة فى أفسس.

* وهذا هو نفس اللقب المعطى لشماسة أخرى اسمها «فيبى» ذكر اسمها فى ديباجة الرسالة إلى رومية (١٦: ١): «أختنا فيبى التى هى خادمة (دياكونوس) الكنيسة التى فى كنخريا».

* وقد وصف عملها بالتحديد أنها «مساعدة (أو معاونة Prostatis) لكثيرين ولى أنا أيضا» (رو ١٦ :٢). وكلمة Prostatis التى يصف بها بولس الرسول عمل فيبى (مساعدة) أصبحت تستخدم لوصف علم الشمامسة عموماً وأنهم «معاونون» للأسقف (الدسقولية ٧).

المسيح الدياكون الأول والنموذج والقدوة:

وقد سمى الرب يسوع المسيح نفسه بالخادم. وبالرغم من النبوة القديمة عن المسيح التى وصفته بأنه «الخادم Pais والعبد Doulos للرب» (إش ٤٢ : ١)، إلا أن الأناجيل استخدمت كلمة دياكونوس Diaconus ، لتعبر عن المسيح كخادم خلاص البشر.

٢ ـ وفى إنجيل لوقا ١٢ : ٣٧، فى مثل العبيد الساهرين، نقرأ أن السيد بعد أن يعود من العرس هذا المثل رمز لشخص المسيح نفسه، الذى تمنطق وخدم تلاميذه ليلة خميس العهد.

٣ ـ ثم فى العشاء الأخير، يوم خميس العهد، وصف الرب يسوع نفسه بأنه «كمن يخدم» Diaconon. لذلك فلا عجب إن كان القديس إغناطيوس الأنطاكى (القرن الثانى) يعلق على وصف المسيح لنفسه بأنه «دياكون ـ أى خادم» قائلاً:

[لقد وضع نفسه، وخدم «Diakonon» الأثنى عشر. لذلك فالدياكونيون يمثلون تواضع المسيح] ـ الرسالة إلى مغنيسيا ٦.

* نعم، «الدياكون» هو صورة تواضع المسيح وإخلائه لذاته. فأية رسالة خطيرة ومهمة سامية يحملها الدياكون وسط رتب الكهنوت فى الكنيسة!!

رتبة الدياكونية: بين دياكونية الموائد ودياكونية الكلمة:

كما يظهر من نشأةرتبة الدياكونية (كما وردت فى سفر الأعمال ٦ :١ ـ ٦)، أنها خدمة موائد أى جمع وتوزيع أموال على أرامل اليونانيين اللواتى كان يغفل عنهن أثناء التوزيع على المسيحيين الذين كانوا يهوداً. وقد نشأت فكرة هذه الدياكونية بعد تذمر المسيحيين اليونانيين، فطلب الرسل من التلاميذ (أى جمهور المؤمنين) أن ينتخبوا سبعة من ذوى الأصل اليونانى ليقوموا بهذه الخدمة، ليكونوا أقدر على تفهم والتفاهم مع هؤلاء المسيحيين.

وقد قال الرسل فى حيثيات تأسيسهم لطقس الدياكونية: «وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة (دياكونية Diakonia) الكلمة » (أع ٦ : ١ ـ ٦).

أ ـ خدمة (دياكونية) الموائد ويختص بها الدياكونيون الجدد.

ب ـ وخدمة (أو دياكونية الكلمة) ويختص بها الرسل.

ولكن إن كان الرسل الإثنا عشر قد امتنعوا عن الدياكونية الأولى دياكونية الموائد، إلا أن الدياكونيين الجدد لم يمتنعوا عن الدياكونية الثانية أى خدمة الكلمة.

فيذكر سفر أعمال الرسل أن استفانوس كان مملوءاً إيماناً وقوة، وكان يصنع عجائب وآيات عظيمة فى الشعب، وكان يتكلم حكمة بالروح القدس (أع ٦ : ٨، ١٠، وإصحاح ٧). ثم اختتم شهادته بالكلمة بشهادته بالدم بعد أن صلى وطلب المغفرة لراجميه، وبعد الرؤيا السماوية التى رأى فيها: «السماء مفتوحة وابن الإنسان جالساً عن يمين العظمة».

فخدمة (دياكونية) الموائد لا تعنى استبعاد خدمة الكلمة وغياب مواهب الروح القدس. قالذياكونيون هم خدام كلمة، وصانعوا آيات، وعجائب عظيمة، ومعلمون، وكارزون لا يقلون فى كرزاتهم عن الرسل. وأمامنا مثل فيلبس الذى بشر السامرة، ومهد لكرازة القديسين بطرس وبولس اللذين تبعاه إلى هذا المكان. ثم بشر وزير كنداكة ملكة الحبشة. وكانت هذه الكرازة فاتحة وتمهيداً لإنتشار المسيحية إلى كل مملكة أثيوبيا فى القرن الرابع.

رتبة «الدياكون» وتطور وضعها خلال الأجيال

الدياكونوس فى القرون الأولى (القرون الخمسة الأولى)

أدى الدياكونوس فى القرون المبكرة للمسيحية مهام متعددة:

١ ـ فقد كان يوزع الإفخارستيا فى احتفال يوم الأحد (بوستين، الاحتجاج الأول: ٦٧).

٢ ـ وكان يعاون فى بعض الأعمال الليتورجية الأخرى مثل المعمودية ووليمة الأغابى (التقليد الرسولى ٢١، ٢٦): [(فى أثناء خدمة المعمودية) الشماس يحمل زيت الاستحلاف ويقف على يسار القس، ويأخذ شماس آخر زيت الشكر ويقف على يمينه.. الشماس يلقن المعمد قانون الإيمان] ـ قانون ٣٣ من قوانين الرسل الـ٧١.

٣ ـ كما كان يقوم بدور ضابط النظام بين المصلين داخل الكنيسة أثناء القداس الإلهى (الدسقولية ١٠ : ٢٩)، ويحرس الأبواب (الدسقولية ١٠ :٢٣).

٤ـ كما كان يخدم الأعمال الخيرية للكنيسة تجاه الأرامل والأيتام (هرماس، الراعى، الأمثال ٩ : ٢٦ : ٢). وكان أحياناً يرعى ويعتنى بالمرضى [يعرفوا الأسقف من هو المريض لكى يفتقده] (هيبوليتس قانون ٣٤، المراسيم ٢ :٣٢:١).

٥ ـ كما كان يكلف كمرسل إلى الكنائس الأخرى (رسائل القديس أغناطيوس: فيلادلفيا ١٠، أزمير ١٢).

٦ ـ ويؤدى خدمات روحية للمعترفين أثناء سجنهم المنتظرين استشهادهم (كما فى قصة استشهاد بربتو ٢، ٦، ١٠).

٧ ـ وكان يدير ممتلكات الكنيسة (القديس كبريانوس ـ الرسالة ٥٢ :١).

٨ ـ وأحياناً كان الدياكونيون يأخذون مسؤلية دفن الموتى (التاريخ الكنسى ليوسابيوس ٧: ١١ :٤٢). وفى روما عين أحد الدياكونيين على كنيسة المدافن (كتاب الهرطقات لهيبوليتس ٩ك٧).

٩ ـ والدياكون مرتبط بالأسقف، يخدمه وينفذ تعليماته، ويقدم له التقارير عن الحال الروحية للشعب (التقليد الرسولى ٩ :٢، ٣٠ ـ قانون ٢٣ من القوانين ٧١). ولذلك فهو يسمى «أذن» و«عين» و«فم» الأسقف (الدسقولية ٨: ٥٠). وهو على اتصال دائم بالشعب ،يحذرهم ويعظهم، ويبحث عن المحتاجين منهم، ولا يأخذ بوجه الأغنياء (الترتيب الرسولى ٢٠ : ٢٢)، (قانون ١٥ من القوانين٧١).

١٠ ـ كان يحمل الرسائل الأسقفية (التاريخ الكنسى ليوسابيوس ٦ :١٩ :١٩) ، ويكلف بمهام قصيرة أو بنقل رسائل شفوية من الأسقف (القديس أثناسيوس، الاحتجاج ٦٧). وكان يحضر مع الأساقفة للمجامع، أو قد يمثل الأسقف فى حضور المجمع (التاريخ الكنسى ٦ : ٤٣ : ٢، ٧ : ٢٨ : ١) (سوز ومين ٤ : ١٦ : ١٦).

١١ ـ يبشر ويعظ ـ مجمع أنقرأ (سنة ٣١٤م) قانون ٢.

١٢ ـ يعاون فى المحاكم الكنسية «مجالس الحكم» (المراسيم الرسولية ٢ : ٤٧ : ١)، الدسقولية : ٨.

١٣ ـ له دور مهم فى رعاية الخطاة التائبين الذين يفرزون من الكنيسة أثناء فترة فرزهم:

[وليطلبوه (الخاطئ الذى أخرجه الأسقف من الكنسية كتدبير من أجل قبوله بعد ذلك)، ويمسكوه خارج الكنيسة، وليدخلوا فيسألوك من أجله (أى الشمامسة يتشفعون من أجله أمام الأسقف) لأن المخلص كان يسأل أباه من أجل الذين أخطأوا كما كتب فى الإنجيل : «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعرفون ما الذى صنعوه»] ـ المراسيم ٢ : ١٦ : ١ والدسقولية ٤ :٥.

١٤ ـ وفى القداس الإلهى يمارس أعمالاً هامة وكثيرة، ويسميه القديس ايسيدوروس البيليوزى [دياكون «خادم» المذبح المقدس] ـ رسالة ٤ : ١٨٨، كما يسميه القديس إغناطيوس الأنطاكى [خادم أسرار يسوع المسيح] ـ ترال ٢ : ٣.

ومن خدماته داخل الكنيسة أثناء الاحتفال بسر الافخارستيا:

١ ـ إعداد المذبح قبل بدء القداس الإلهى.

٢ ـ تلاوة الإنجيل (المراسيم ٢ : ٥٧ : ٧، الدسقولية ١٠ : ٢٠) ـ يقول سوزومين المؤرخ الكنسى أنه فى الاسكندرية كان الأرشى دياكون وحده هو الذى يقرأ الأنجيل، أما فى غير ذلك من المواضع فكان الدياكونيون هم الذين يقرأون (سوزومين ٧ : ١٩ : ٦).

٣ ـ يعلن تعليمات العبادة للمصلين:

* يحذر المتخاصمين ويأمرهم أن يتصالحوا قبل التناول:

[فليكن الشماس واقفاً بجانبكم (يوجه الكلام للأساقفة) وليقل بصوت عظيم: «لا يترك أحد بينه وبين أخيه لائمة ولا غشاً ولا رياء»] ـ (المراسيم ٢ : ٥٤ : ١١؛ الدسقولية ٩ : ٥).

* والموعوظون غير المتعمدين للخروج قبل بدء قداس الموعوظين. [وليصرخ شماس آخر: «لا يقف هاهنا موعوظ ولا يكن هنا أحد سامع الوعظ لا يشارك فى السرائر. ولا أحد غير مؤمن ولا أحد منشق. إمسكن أيتها النساء أولادك. لا يدع أحد فى قلبه وجداً لأحد. ولا يقف

أحد هنا برياء. كونوا مستقيمين بالرب. وليقف كل واحد بخوف ورعدة] ـ قوانين الرسل الكتاب الخامس بيد إقليمس (اكليمنضس).

* ويعلن موضوعات الصلاة (أى مردات الأواشى) ـ(الدسقولية ١٠ : ٣٦.

* ويدعو إلى السكوت والانتباه والإنصات قبل القراءات الكنسية ـ الدسقولية ١٠ : ٣.

* ويدعو إلى القبلة المقدسة.

* ويعطى التسريح من الكنيسة للانصراف فى نهاية القداس:

[ثم يناول الشماس الكأس ويقول : هذا هو دم المسيح هذا هو كأس الحياة. ويقول متناوله: أمين. ويرتلون إلى أن يتناول جميعهم. وإذا تناولوا جميعهم، فيتناول النساء.

وعند فراغ المرتل مما يسبح، يصيح الشماس ويقول: نلنا من الجسد الكريم الذى للمسيح، فلنشكر الذى أهلنا أن نشارك فى سرائره المقدسة الكريمة. وبعد ذلك يصلى الأسقف ويشكر على النيل من جسد المسيح والشرب من دمه.

فإذا فرغ مما يصلى، يقول الشماس: إحنوا رؤوسكم قدام الرب ليباركم. وإذا فرغوا مما يتباركون به، يقول الشماس: امضوا بسلام (يقولها الكاهن الخديم الآن)] ـ قوانين الرسل الكتاب الخامس بيد إقليمس (اكليمندس).

* يأتى بالقرابين (الخبز والخمر) إلى الكاهن المحتفل بسر الافخارستيا وقت التقدمة (التقليد الرسولى ٢٣ : ١، قانون ٣ : ٢٠). ويقف بجانب القرابين على المذبح وبيده المراوح ليطرد الهوام الطائرة عن الكأس المقدس (قوانين الرسل ٥٢).

* يحضر الماء للأسقف والقسوس فى المذبح ليغسلوا أيديهم.

* كان يناول الشعب (يوستين الشهيد ـ الدفاع الأول ٦٥ : ٥).

* ويناول الكأس: يضع هيبوليتس فى قوانينه هذه المهمة هكذا، أنه عند شركة الإفخارستيا أيام الآحاد.

[فإن القسوس إن كان عددهم لا يكفى فإن الشمامسة أيضاً يناولون الكأس]

التقليد الرسولى XXIII,5 وقانون ٥٢ من القوانين الرسولية (الـ٧١).

وعلى أساس هذا الطقس يصف القديس الشهيد إغناطيوس الأنطاكى (القرن الثانى الميلادى) الدياكونيين أنهم:

[خدام «Diaconus» أسرار يسوع المسيح، وأنهم ليسوا مجرد خدام طعام وشراب، بل هم خدام «الكنيسة ـ الإكليسيا»] ـ الرسالة إلى ترال ١٥.

١٥ ـ وفى إقامة الأساقفة ورساماتهم، الدياكون هو الذى يعلن ويؤكد إرادة الشعب فى اختيار راعية ويأتى بالمرشح إلى الأساقفة لكى يرسموه، ويضع الأناجيل فوق رأسه أثناء الرسامة (المرسيم ٨: ٤: ٦).

١٦ ـ كان الدياكون يكلف أحياناً بمهام أخرى فى الكنيسة، مثل رئاسة دير، ويسمى القديس كيرلس الكبير شماساً اسمه «مكسيموس» بهذا اللقب [الارشمندريت جزيل التقوى الدياكون مكسيموس] رسالة ٦٩.

١٧ ـ ويشبه الدياكون بعريف الملاحين فى السفينة الذى يراقب المجاديف على الجانبين (رسالة كلمنضس الرومانى ١٤)، (المراسيم ٢: ٥٧: ٢)، أو «النوتى» كما سمته الدسقولية بالنسبة للأسقف كمدبر السفينة.

هذه هى مهام الدياكون المتعددة، بعضها توقف إسناده إلى الدياكون لعدم رسامة دياكونيين مكرسين. وبعضها أو كل إلى الأساقفة والقسوس. وبعضها يقوم به الآن من يطلق عليهم خطأ اسم «شمامسة» مع أنهم مقامون أغنسطسيين أو أبصلتسيين غير متفرغين لخدمة الكنيسة.

وتجد فى الدسقولية الفصل السابع واجبات الشمامسة بالتفصيل.

التغيرات التى حدثت فى رتبة الدياكونية:

لقد عبرت رتبة الدياكون خلال مراحل متنوعة من التغيير:

١ ـ فدياكونيو ما قبل مجمع نيقية (عام ٣٢٥)، كانوا مجموعة من «المعاونين» وعددهم ٧ عادة، ملتحقون شخصياً بخدمة الأسقف بمقتضى مهامهم. بهذه الصورة كانوا يشكلون أهمية كبيرة فى الكنيسة، كمنفذين حقيقيين للقرارات التى يتخذها الأسقف والقسوس.

٢ - وفى القرن الثانى والقرن الثالث وحتى القرن الرابع، كثيراً ما كان الأرشى دياكون هو الذى ينتخب، وليس أحد القسوس، ليخلف الأسقف المتنيح فى كرسيه، لأن إحاطة الأرشى دياكون بأحوال الكنيسة باعتباره الساعد الأيمن للأسقف ميزه لأن يكون أكفأ من يخلف أسقفه.

٣ - وفى نهاية القرن الرابع، كثر عدد الدياكونيين وانتشروا فى كنائس الإيبارشية، والتحقوا بخدمة القسوس فى الكنائس المنتشرة كمعاونين للقس فى مهامه الليتورجية والرعوية.

* وعندنا نموذج رائع لمركز الدياكون فى الكنيسة القبطية فى القرن الرابع - وهو القديس أثناسيوس الرسولى الذى كان دياكونا أو أرشى دياكوناً، ورافق الباب الكسندروس البابا التاسع عشر فى عداد البابوات الأقباط، إلى مجمع نيقية المسكونى (سنة ٣٢٥م) حيث كان الساعد الأيمن لباباه فى المجمع. وكان له دور رائد فعال فى صياغة دستور الايمان الذى أصدره المجمع. وبعد نياحة البابا ألكسندروس، أجمع الشعب على اختيار الدياكون أثناسيوس بابا للاسكندرية.

٤ - وحتى القرن العاشر، كانت رتبة الدياكون بكامل مواصفاتها مازالت قائمة بكل مهامها فى الكنيسة القبطية. فالأنبا ساويرس ابن المقفع (حبرية البابا إفرآم السريانى من ٩٧٥ - ٩٧٩م)، حدد واجبات الشماس (الدياكون) هكذا:

[وله فى رتبته حمل كأس دم المسيح..

وله قراءة الانجيل على الأنبل (النطق العربى للكلمة القبطية Anbon وتعنى منبر) ، إذا لم يقرأه القس..

وعلى الشماس أثناء الصلاة والقداس تبليغ الشعب وإنذارهم] - كتاب ترتيب الكهنوت ١٣

بدء ضمور رتبة «الدياكون»:

يرصد العالم القبطى يسى عبد المسيح بدء ضمور رتبة الدياكون فى الكنيسة القبطية من القرن الرابع عشر أو قبل ذلك.

إذ نجد فى كتاب «مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة» لابن كبر (القرن ١٤) أول إشارة

إلى رسامة «شمامسة صغار السن» . إذ يقول ابن كبر: [وأجازوا (الآباء) قسمة الشمامسة صغاراً]. وغير معروف معنى رسامة «شمامسة» «صغار»، لأن السن التى اشترطتها القوانين الكنسية للرسامة أن لا يقل عمره عن ٢٥ سنة، وأن يكون زوج امرأة واحدة مدبراً أولاده وبيته حسناً (١ تى ٣: ١٢).

و يرجع العالم يسى عبد المسيح هذه العادة الجديدة إلى الاضطهاد والتهاون فى التمسك بالقوانين.

سبب آخر: التغيير فى النظرة إلى درجات الكهنوت:

إلا أن هناك عاملاً آخر، قد يكون هو الذى أدى بطريقة غير مباشرة إلى ضمور هذه الرتبة. وهو دخول فكرة «التدرج السلمى» بين رتب الكهنوت، ثم تبعها مفهوم «الترقية» بين هذه الرتب من رتبة إلى رتبة «أعلى»، وذلك منذ أواخر القرن الرابع. ولشرح ذلك يقول:

١ ـ ففى المرحلة ما قبل مجمع نيقية (عام ٣٢٥م) كان النظر إلى رتب الكهنوت المختلفة: الأسقفية، القسوسية، الدياكونية قائماً على مبدأ «العضوية فى جسد المسيح». فكل رتبة كانت تؤدى واجباً وتمارس سلطاناً لتكميل مهمة محددة، (تسمى فى الطقس الكنسى «ليتورجية» حسب التعبير الكنسى الوارد فى قوانين الكنيسة)، فى إطار جسد الكنيسة الواحد المتماسك القائم بعضه بالبعض. وكل رتبة كانت ضرورية من أجل اكتمال وسلامة عمل الجسد الواحد، وهى تأخذ وضعها كعضو فى الجسد كله، ودون مقارنته بالنسبة للرتب الأخرى (ولكن دون إغفال مبدأ إعطاء الكرامة الواجبة لكل رتبة حسب كرامتها). فإذا أختير واحد لرتبة الأسقفية، فكان يرسم أسقفا دون الحاجة إلى رسامته أولاً دياكوناً ثم قساً. وهكذا رسم الشماس أثناسيوس الرسولى أسقفاً للأسكندرية، وعضو الشعب («العلمانى» كما يقولون) كبريانوس أسقفا لقرطاجنة دون أن ينال أى منهما وضع اليد للرتب الأسبق.

٢ ـ و لكن بعد مجمع نيقية دخلت ممارسة هذا التدرج السلمى فى الرسامة إلى الرتب الكهنوتية، ربما بسبب التعدى فى حدود مسئوليات بعض أصحاب الرتب على مسؤليات الرتب الأخرى. وبمرور الزمن، أدى هذا الاجراء إلى فهم أن كل رتبة تحوى فى داخلها

سلطان الرتب الأخرى (هذا السوء فى الفهم أدى عند الكنيسة الرومانية إلى إمكانية إقامة قداس إلهى بواسطة الكاهن دون الحاجة إلى وجود شماس وشعب باعتبار أن الكاهن يحوز فى نفسه بمقتضى الرسامة رتبة الشماسية والشعب. لكن فى الكنيسة القبطية مازال الفهم الصحيح لتنوع ولزوم رتب الكهنة الثلاث على أنها عضوية فى جسد الكنيسة قائماً، إذ لا يمكن الاستغناء عن حضور رتبة من رتب الكنيسة الثلاث (الكاهن، الشماس، الشعب) لإقامة قداس إلهى قانونى. وهذه مأثرة من مأثر الكنيسة القبطية فى حفظ روح التقليد الكنسى القديم.

٣ ـ وبعد القرن الخامس وبسبب الانشقاقات والصراعات المذهبية بين رؤساء الكنائس إثر مجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١م)، أدى هذا الصراع ضمن ما أدى، إلى الفتور الروحى الذى صاحب هذه الإنشقاقات، مما أدى بالتالى إلى آثار كثيرة فى مفاهيم رتب الكهنوت ودرجاتها المختلفة، فتحولت النظرة إلى الدياكون على أنه أقل من القس أو أدانى منه فى الكرامة، وليس خادماً مكملاً فى خدمته لخدمة القس وخدمة الأسقف، وسادت نفس النظرة على علاقة القس بالأسقف، وعلاقة الأسقف الكرسى الرسولى المتقدم بين الأساقفة، ومحاولة جعل الرسامة إلى رتبة أسقفية الكرسى الرسولى المتقدم «ترقية» «يرقى» إليها أسقف سبق أن قسم على إيبارشية أخرى وكأن رتبة البطريرك أعلى من رتبة الأسقف. وفى الغرب تطور هذا التغير فى المفاهيم إلى حد تشويه العلاقة الأخوية بين بطاركة المسكونة الخمسة، فتغير مفهوم «الأولية فى المحبة» بين هؤلاء البطاركة إلى مطالبة بابا روما بجعلها «رئاسة بالقانون» على البطاركة الأربعة الآخرين.

٤ ـ وكما أدى تحول النظرة إلى التدرج السلمى لرتب الاكليروس، إلى النظر إلى الرسامات أيضا على أنها «ترقية» وليست «دعوة» و«انتداب» و«تكريس» كما يسميها كتاب «الرسامات» (الأفخولوجيون ـ طبعة رومية)، حيث لم تذكر كلمة «ترقية» إطلاقاً فى أى من نصوص صلوات الرسامات؛ هكذا انطبع مفهوم «الترقية» على تعامل «الشمامسة» مع رتبتهم. فأصبح من يسمون «الشمامسة» يطمحون إلى «الترقية» إلى رتبة البريزفيتروس / القس، كمكافأة لهم على جدارتهم فى حفظهم صلوات القداس وإتقانهم للألحان وجودة صوتهم وهذا الاتجاه أثر بدوره على رتبة القسوسية، إذ تركز الاهتمام فى اختيار وانتخاب

القس على جودة الصوت دون كفاءة ووقار الشخصية والذى يسميه القانون الكنسى «زى الشيوخ» أى حكمة وسمات الشيوخ، وغيرها من مؤهلات وكفاءات هذه المرتبة الجليلة.

٥ ـ وليس أدل على صحة هذا التحليل، من وضع رتبة «القسوسية» حالياً التى تثبتت على أنها الخدمة الكهنوتية الأكمل والأكثر نشاطاً، والتى لم تشهد ضموراً أو انحساراً مثل رتبة الشماسية / الدياكونية. وذلك يرجع فى المقام الأول إلى إغلاق باب «الترقية» أمام القسوس ليصيروا أساقفة، بسبب أن القس لابد أن يكون متزوجاً بينما الأسقف لابد أن يكون متبتلاً. وهكذا أصبحت استحالة «الترقية» سبباً فى الحفاظ على رتبة القسوسية وصونها من الضمور، بل جعلها هى الرتبة السائدة والحاملة لعبء الخدمة فى الكنيسة أكثر من أية رتبة أخرى.

٦ ـ أما رتبة «الأسقفية»، وفى خضم هذا التغيير فى المفاهيم وقيام رتبة القسوس بأكبر قسط فى الخدمة أخذت وضع الرئاسة والسلطة الإدارية العليا على القسوس (وخفت بالتالى دور مجمع القسوس حول الأسقفية فى المشاركة مع الأسقف فى إصدار القرارات وفى ممارسة الرعاية فى الإيبارشية). وقد أدى هذا الوضع الجديد للأسقفية بما تغلبت عليه الروح الرئاسية وممارسة السلطان الأسقفى، المجرد عن الاتحاد بالكنيسة جسد المسيح وصفة التمثيل لشعب الله فى موضع ما، إلى ظهور ما يسمى بالأسقف على غير إيبارشية وشعب، والذى يمارس سلطات الأسقفية دون أن يكون له الصفة السرائرية كرأس لجسد الكنيسة فى موضع ما.

٧ ـ و فى هذا الإرتباك فى آلية الرعاية فى الكنيسة، ضمرت رتبة «الدياكونية». فبعد أن كان يقوم بها رجال متخصصون مكرسون متفرغون، يحسون ويعتزون بكرامة رتبتهم وثبات وضعها ضمن رتب الكهنوت، وبعد أن كان «الدياكون» نادراً ما يدعى حتى ليكون قساً / بريزفيتروس؛ أصبح الآن الذين يقومون ببعض أعماله أعضاء من شعب الكنيسة غيرمكرسين للخدمة الدياكونية، واختزلت بعض المهام الأخرى إلى مجرد المعاونة فى الخدمة الليتورجية داخل القداس الإلهى عدة ساعات فى يوم أو أكثر من أيام الأسبوع، مثل ترتيل الألحان وإلقاء المردات والنداءات المنوط بالدياكون أداؤها. وبعد ذلك سمح

للصبية الصغار بأداء هذا العمل، وأطلق عليهم اسم «شمامسة» بالرغم من أن الدرجة التي أقيموا عليها، (بغير رسامة ووضع يد)، هي «الأغنسطس» أو «الأناغنوستيس» أي القارئ، أو «الأبصالتس» أي «المرتل». وبهذه الصورة تدنت صورة «الدياكون» (وحتى صورة الأناغنوستيس) ومركزهما في أذهان الشعب وفي نظر المسؤلين في الكنيسة، بالرغم من أهمية تنوع وتعدد المهام التي يجب أن يؤديها الدياكون لتكميل الخدمة الأسقفية والقسوسية.

وهكذا فقدت الكنيسة القبطية رتبة هامة، تمثل ـ حسب تعبير العالم القبطي يسى عبد المسيح ـ «أحد أضلاع المثلث الكهنوتي منذ العهد الرسولي».

الشماسة في الكنيسة:

ونفس الأمر الذي حدث لرتبة الشماس حدث لرتبة الشماسة. إذ اختفت هذه الرتبة تماماً. ورتبة الشماسة مذكورة في الكتابات الرسولية الأولى:

١ ـ فإذا رجعنا إلى ١ كو ١٦، لنقرأ عن الكنيسة التي في بيت أكيلا، فإن زوجته الفاضلة بريسكلا صارت هي «شماسة» دياكونوس «Diaconus» الكنيسة في أفسس.

* وهذا هو نفس اللقب المعطى لشماسة أخرى اسمها «فيبي» ذكر اسمها في ديباجة الرسالة إلى رومية (١٦ :١): «اختنا فيبي التي هي خادمة (دياكونوس) الكنيسة التي في كنخريا».

وقد وصف عملها بالتحديد أنها «مساعدة (أو معاونة Prostatis) لكثيرين ولي أنا أيضا» (رو ١٦ : ٢). وكلمة Prostatis التي يصف بها بولس الرسول عملي فيبي (مساعدة) أصبحت تستخدم لوصف عمل الشمامسة عموماً وأنهم «معاونون» للأسقف (الدسقولية ٧).

دور الشماسة في خدمة الكنيسة:

وفي التنظيمات الكنيسة المبكرة نجد للشماسة دوراً محدداً هو خدمة النساء ولكن ليس لهن خدمة شخصية لأي من رجال الإكليروس: [على الأسقف أن يقسم شماسات نسوة مختارات قديسات لأجل خدمة النساء] ـ الدسقولية ١٥ : ١٤.

١ ـ مساعدة النساء المتقدمات للمعمودية [وقبل كل شئ لأجل امرأة تتعمد.. لأنه عمل غير ضرورى ولا لائق أن يتأمل الرجال النساء إلا فى وضع اليد فقط] ـ الدسقولية ١٥ : ١٥.

* تعلمهن التعليم المسيحى. [ليقمن بتعليم النساء المتقدمات للمعمودية بدقة وحذق الأجوبة على الأسئلة التى تطرح عليهن فى وقت المعمودية] ـ قانون ١٤ مجمع قرطاجنة (سنة ٣٩٨).

* المساعدة فى إجراء التغطيس فى مياه المعمودية ودهنهن بالزيت المقدس، بينما يدهن الأسقف جبهة المعمدة فقط. [لكى يدهن الأسقف رأس المرأة.. والأنثى تصبغها المرأة الشماسة] الدسقولية ١٥ : ١٥, ١٧.

٢ ـ الخدمة الروحية للنساء وتمريضهن وخدمة المسنات. [والشماسة المرأة أيضا لتكن مجتهدة أن تربح النساء وتعينهن] ـ الدسقولية١٥ : ٢٥.

٣ ـ لا تأتى امرأة إلى الأسقف لتسأل أى شئ إلا مع الشماسة. [وخارجاً عنها لا تأتى واحدة من النساء إلى الشماس أو الأسقف لتسأل عن عمل متعلق بدرجته] ـ الدسقولية ٤ :٩.

٤ ـ إراحة النساء فى الكنيسة ومراعاة نظامهن. [وشماسات يحرسون النساء لئلا يكون فيهم قلق أو تومىء إحداهن أو تنام. وتقف الشماسات عند أبواب (الكنيسة الخاصة بدخول) النساء لئلا يخرج أحد] ـ قوانين الرسل بيد إقليمس ـ الكتاب الخامس، الدسقولية١٠ :٢٣.

٥ ـ افتقاد النسوة فى البيوت. [لأنك لا تقدر ترسل شماساً إلى المنازل إلى النساء بسبب غير المؤمنين. فترسل شماسة امرأتة بسبب فكر الناس الأشرار] ـ الدسقولية ١٥ :١٤.

شروط تسمية الشماسة:

قديماً، كانت الشماسات يخترن أحياناً من بين الأرامل اللواتى أخترن لرتبة الأرامل واللواتى ذكرهن القديس بولس الرسول فى الرسالة الأولى إلى تيموثاوس الإصحاح الخامس:

ـ «ولكن التى هى بالحقيقة أرملة ووحيدة فقد ألقت رجاءها على الله وهى تواظب الطلبات والصلوات ليلاً ونهاراً.. لتكتب أرملة إن لم يكن عمرها أقل من ستين سنة، إمرأة

رجل واحد (أى لم تتزوج بعد ترملها)، مشهوداً لها فى أعمال صالحة، إن يكن قد ربت الأولاد، أضافت الغرباء غسلت أرجل القديسين، ساعدت المتضايقين، اتبعت كل عمل صالح».

ولكن ليست كل أرملة شماسة، بل فقط التى سميت شماسة. وفى هذه الحالة يمتنع عليها أن تتزوج ثانية بعد اختيارها شماسة، [وهى لا ترشم بل تجعل بالإسم] - قانون **٢٥** من قوانين الرسل ال ٧٠. وهذا الفرق بين الأرامل والشماسات يظهر من النص التالى الخاص بوجوب خضوع الأرامل للشماسات: [فالواجب للأرامل أن تكون هادئات قنوعات خاضعات للأساقفة والقسوس والشمامسة وأيضا للشماسات] - الدسقولية ١٢ :٤٤.

وأحياناً كن يخترن من بين العذارى المتبتلات غير المتقدمات فى السن، على شرط عدم نكث نذر بتولتهن بالزواج بعد إقامتهن شماسات. وعندنا مثل الشماسة أوليمبياس (**٣٦٥** - ٤١٠)، التى كانت زوجة حاكم مدينة القسطنطينية. ثم ترملت وهى فى مقتبل العمر، ولكنها رفضت الزواج بالرغم من إلحاح الإمبراطور البيزنطى. وقد صارت تلميذة للقديس يوحنا ذهبى الفم فيما بعد.

ولكن يمكن أن يخترن أيضا من بين السيدات التقيات المتزوجات المتقدمات فى السن، إذا توفرت فيهن الشروط الروحية الأساسية مع روح الأمومة الروحية.

٣. وثائق طقس الرسامة

١. التزكية

باسم الآب والابن والروح القدس، الثالوث القدوس غير المفترق، الإله الواحد، إلهنا. نحن المسيحيين الأرثوذكس، نتكل عليه إلى النفس الأخير، ونرسل إليه فى الأعالى المجد والإكرام إلى الأبد.

نحن المطارنة والأساقفة والكهنة والشمامسة وكل الشعب المحب للمسيح بمدينتى الإسكندرية والقاهرة وأقاليم مصر جميعاً.

عندما حلت بنا جائحة اليتم بانتقال طيب الذكر مثلث الرحمات البابا الأنبا يوساب الثانى

إلى الأخدار السمائية، الذى نال جميع المواعيد المقدسة ومضى إلى الله الذى أحبه فسمع منه تعالى ذاك الصوت المملوء فرحاً القائل: نعماً أيها العبد الصالح الأمين أدخل إلى فرح سيدك: عندما ترملت كنيسة الله المقدسة التى كان يرعاها بتعاليمه، تضرعنا إلى العلى أن يرشدنا إلى من هو مستحق لهذه الرئاسة العظيمة، ليرعانا فى طريق الرب ويهدينا ميناء الخلاص، فبمنحة علوية واختيار الروح القدس اتفقنا جميعاً بطيب قلب على القمص مينا المتعبد لله الراهب الذى من دير البرموس، باب ورئيس أساقفة على الكرسى الرسولى الذى للقديس مرقس ناظر الإله الإنجيلى كاروز الديار المصرية وإثيوبيا والنوبة وخمس المدن الغربية وسائر أفريقيا، وقد وقع اختيارنا عليه لأنه رجل متعبد لله محب للغرباء، معلم، طاهر، مجمل بالفهم والمعرفة. مُجِد فى نشر تعاليم الإنجيل، ساهر على حفظ طقوس الكنيسة وتقاليدها، أقمناه رأس رعاة وبطريركاً لبيعة الله المقدسة لكى يرعانا بالرأفة والوداعة. لهذا سطرنا هذه التزكية ووقعنا عليها مقدمين الشكر للثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس. آمين.

٢. صلوات وضع اليد

ووضع كبير الأساقفة يده على رأس القمص مينا متوسلاً أن تحل عليه نعمة الروح القدس وأن يجعله الرب أهلا لدعوة رياسة الكهنوت.

ثم وضع الآباء المطارنة والأساقفة أيديهم على رأسه وتلا نيافة الأنبا ميخائيل مطران أسيوط هذه الصلاة:

أيها السيد الرب ضابط الكل الأزلى، مصدر كل الرأفات وإله كل عزاء. أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الذى خلق جميع الأشياء بقوته وحكمته ومشورته، وثبت أسس المسكونة. اللهم العارف كل الأشياء قبل تكوينها، الذى زين أكاليل المختارين من قِبَله، الذى جعل خوفه فى قلوب خليقته لكى تخضع لعزته، الذى أنعم علينا بفهم حقيقى لنعرف روح صلاحه، الذى أضاء كنيسته بنوره غير الموصوف واصطفى إبراهيم خليله لميراث الأمانة، ونقل قديسه أخنوخ إلى الكنوز النورانية لأنه أرضاه، الذى وهب موسى الوداعة وهرون كمال الملكوت. الذى مسح الملوك والرؤساء لكى يقضوا بين شعبه بالعدل، الذى لم يدع مذبحه المقدس السمائى بغير خدمة منذ إنشاء العالم حتى اليوم. اللهم الذى أقام كهنة فى بيعته

ليخدموا اسمه القدوس، نسأل ونضرع إلى صلاحك عن عبدك (الأنبا كيرلس السادس) الذى اصطفيته رئيس كهنة على بيعتك ليكون رئيساً لشعبك وراعياً له. أشرف عليه يا رب بنور وجهك لكى يضىء قلبه بينبوع مجدك فيعرف أسرارك الإلهية. أفض عليه روحك القدوس، روح الحق روح الكمال المعزى الذى أعطيته لرسلك القديسين وأنبيائك الأطهار، امنحه يارب روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة والتقوى، املأه من مخافتك يا الله ليقضى بين شعبك باستقامة، ويتمسك بالإيمان الأرثوذكسى القويم. ألْبسه حلة مجدك المقدسة، وضعْ على رأسه تاجاً، وامسحه بدهن الفرح، دهن صلاحك ليكون رئيساً لكهنتك، أميناً على بيعتك، ليخدمك بلا لوم كل أيام حياته بذبائح طاهرة، وصلوات نقية، ونفس مضيئة بأصوام وأعمال صالحة، ومحبة ووداعة وأمانة بلا رياء، ويرفع القرابين عن جهالات شعبك وينتشلهم من فخاخ الخطية، ويردهم إلى حظيرتك المقدسة. اللهم امنحه سلطان روح قدسك ليحل كل وثاق ربطه العدو بالخطية ويجمع أبناء الكنيسة لكى تصبح الرعية واحدة لراع واحد، واحفظ كهنوته بلا عيب إلى التمام ليخدمك بذبائح روحية كل حين كرتبة رئيس الكهنوت الأعظم الذى فى السموات يسوع المسيح ربنا، هذا الذى يليق بك معه والروح القدس العز والمجد والإكرام إلى الأبد آمين.

٣.تقليد رياسة الكهنوت

تقليد الأنبا كيرلس السادس رئيس أساقفة مدينة الإسكندرية العظمى

باسم الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد له المجد دائماً

نحن المطارنة والأساقفة خدام بيعة الله الطاهرة الأرثوذكسية، بجهات الكرازة الرسولية المرقسية، المجتمعين برحمة الله العظيمة العلوية، نكتب إلى الجزيلى الحب الإيغومانسيين المكرمين، والقسوس الورعين، وباقى مصاف البيعة المباركين، والآباء الرهبان العابدين، والأراخنة المحترمين، وقاطبة شعب المؤمنين الأرثوذكسيين، الكائنين بالمدينة العظمى الإسكندرية، وفسطاط مصر، والقاهرة، وكل الأقاليم المصرية، والنوبة، والحبشة، وكافة التابعين للكرازة المرقسية الرسولية، من إخوتنا وأحبّتنا الروحيين التابعين إليهم، سلاماً دائماً بهياً وتبريكاً روحياً أبوياً.

أيها الإخوة: بوّقوا بنغمات الفرح والحبور، وهللوا معيّدين عيد الابتهاج والسرور، سبحوا

ومجدوا عظائم إلهنا الذى لا يُحدُّ غناه، ولا تستقصى حكمته، ولا يدرك علمه، ولا تفحص أحكامه وقدرته، سيدنا كلنا يسوع المسيح الإله الحقانى، العارف الأشياء قبل كونها، والمُطلِّع على غوامض الأفكار الإنسانية وشئونها، كلمة الله الذاتية الذى لم يزل كائناً مع أبيه وروحه القدوس بوحدة جوهرية، وإذ هو الملك الحقيقى الذى كنوز الحكمة لديه مخفية، وأعماله عن إدراكات العقول محجوبة خفية، فبإرادته غير المفحوصة اقتبل اليه الأب الطوبانى، والراعى الأرثوذكسى الروحانى، أبينا البطريرك الأنبا يوساب الثانى ال ١١٥ فى عداد البطاركة الأرثوذكسيين، ونقله إلى دار البقاء والخلود حيث آمال الصالحين، وثقة العابدين، وغاية الفائزين، فالضرورة قادتنا أن نجتمع باتفاق واحد حسب الرسوم الرسولية، نحن مطارنة وأساقفة الكرازة المرقسية وكهنة الكنائس وأراخنة الملة الأرثوذكسية، وتشاورنا فى جلسات متنوعة، بأوقات متعددة، مبتهلين إلى الله تعالى، أن يُظهر لنا خيريته، فى من يريده لهذه الخلافة الممجدة، متداولين باجتهاد عمن يستحق للرياسة الكهنوتية الفخيمة، ليرعانا فى طريق الرب، ويرشدنا إلى ميناء الكنيسة الهادئة القويمة. إذ نحن عارفون بعواطف قلوب الشعب المرقسى («أهل مدينة الإسكندرية» فى مخطوطة القرن الثالث عشر)، التائقة دائماً للأبوة العظمى، وحبهم للسيد المسيح الذى منح كنيسته هذه الرياسة الأسمى وأنهم لا يؤثرون أن يمكثوا فى حالة اليتم إلى زمن مديد، ويبقوا بدون راع إلى زمن بعيد.

فلهذا شرعنا بجد واجتهاد فى أن نتمم الرسوم الإلهية، مقدمين مع الشعب عواطف الضراعات والابتهالات القلبية، إلى أن ارشدتنا الحكمة العجيبة وأسعفتنا المقدرة السامية الرهيبة، (بطريق القرعة الهيكلية)(*) إلى اختيار المتعبد لله الإيغومانس الجليل، الأب مينا الراهب البتول، من برية شيهيت من المجمع البهى المحروس، بدير السيد بالبرموس، المتربى فيه منذ شبوبيته تحت نظارة آباء ورعين، وشيوخ عابدين، وقد نال نعمتهم مثل أليشع مع إيلياس

(*) ما بين القوسين غير مذكور فى مخطوطة القرن الثالث عشر فهى مضافة على هذه الصلوات بالذات لأن إجراء عملية القرعة ليس داخلاً ضمن طقوس رسامة البابوات أصلاً. وقد دخل هذا الإجراء فى القرن الحادى عشر نقلاً عن عادة نسطورية وبإيعاز من الوزير غير المسيحى بسبب المشاكل التى حدثت أثناء انتخاب البطريرك فى عصره، راجع: ألفريد بتلر، الكنائس القبطية القديمة، مترجم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، صفحة ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

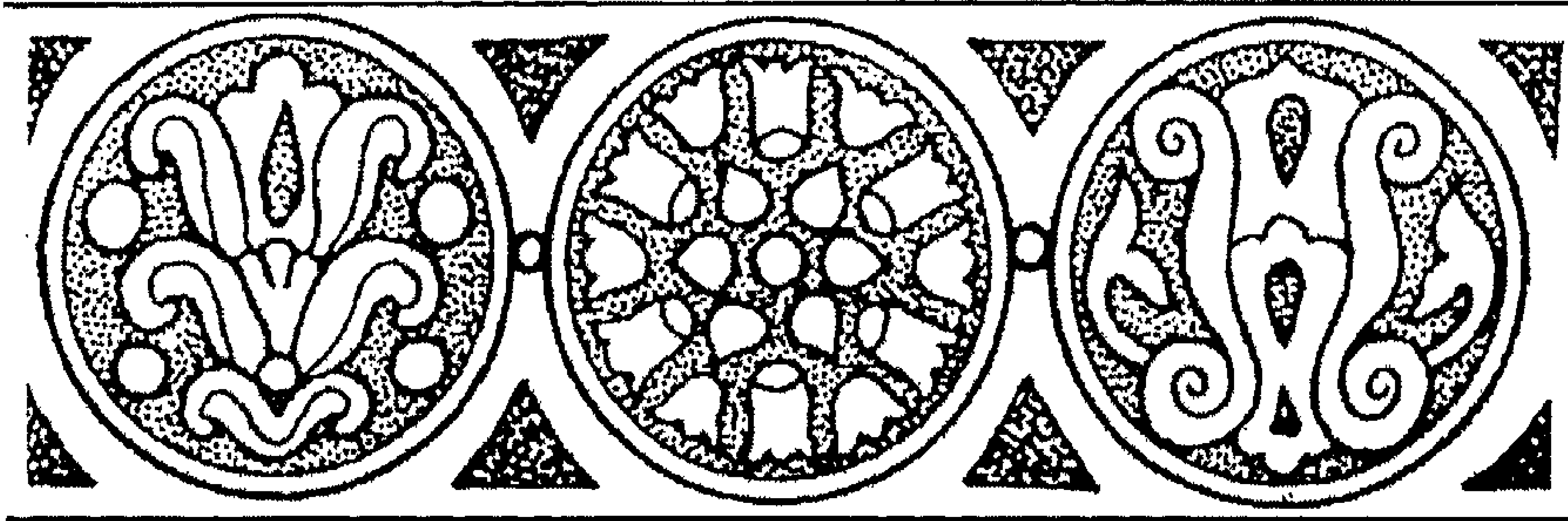
نعمة مضاعفة، من قبل أعمال التقوى والعبادة، والطاعة المشرفة، كما هو مكتوب في الأسفار الرسولية هكذا، «نحن نعلم أن أولئك الذين يحبون الله يعينهم في كافة الأعمال الصالحة المرضية، أولئك الذين دعاهم كسابق رسمه، إذ الذين سبق فعرفهم، هم الذين تقدم فرسمهم، والذين رسمهم هم الذين دعاهم، والذى دعاهم هم الذين بررهم، والذين بررهم هم الذين مجدهم». وقوله أيضاً «لن ينال أحد الكرامة لذاته وحده إلا المدعو من الله مثل هرون الحبر عبده». كذلك الذين أتوا بعده، في كل جيل إلى الأبد، وإلى انقضاء الزمان، وبما أننا واثقون بسموّه حسب التزكية، المقدمة منا ومن الجمهور، وشهادة الآباء العابدين باستحقاقه لهذا المقام الرياسى المبرور، فقد جعلنا الله الذى هو مصدر الخيرات العلوية، المنتخب هذا الأب حسب دعوته السمائية، معينا لنا ومقصداً، ومكملاً ومؤيداً، واجتمعنا احتفالياً، بالكنيسة الكاتدرائية، الرسولية المرقسية، بحضور جمهور أراخنة ونبلاء ونجباء وأبناء الكرازة المرقسية الأرثوذكسية، مقدمين سر الشكر الشريف المنير، بعبادة وورع لعزة الله العلى القدير، وبهذا الاحتفال الروحانى والمجمع الطوبانى، فى يوم الأحد العظيم الموافق ٢ من شهر بشنس قبطى سنة ١٦٧٥ للشهداء الأبرار الموافق ١٠ من مايو سنة ١٩٥٩ مسيحية، رقيناه إلى الدرجة السامية البهية التى للرياسة الكهنوتية السنية، واسميناه باسم كلمة الله الأقدس الأب البطريرك البابا أنبا كيرلس السادس المائة والسادس عشر فى عداد بابوات الاسكندرية وبطاركة الكرازة المرقسية، ليكون لنا أباً وراعياً، ومرشداً للخلاص، وراعياً يرعانا فى مروج الأمانة المخصبة الروحية، التى للمعرفة الحقيقية، رافعين إياه، إلى خلافة الإنجيلى الناطق بالالهيات، القديس مرقس الرسول المبشر بالخيرات الأبديات، ولقد أفعمت نفسه الزكية من النعم الروحية السماوية، عندما منح موهبة الروح المعزى بالأصوات الرسولية القدسية، واذ ألبسناه حلة الرياسة الحبرية، وتوجناه بتاج الأمانة الرعائية، من لدن العزة الالهية، الكلية الاقتدار، ببركات طغمة الرسل الأطهار الأبرار، والتلاميذ الأفاضل الأحبار، أضحى رئيساً للكهنة وراعياً ومعلماً وأباً عاماً للمؤمنين مقدماً نائلاً هذا السلطان، من الله ملك السمائيين والأرضيين، ليربط ويحل كالحدود القانونية، ويتصرف كالرسوم الشرعية فى سياسة وإرشاد المؤمنين، ويشرطن الاساقفة بالانتخاب والاستعداد والتزكية ويقيم الاكليروس لخدمة الأسرار القدسية، ويقدس المذابح، ويكرس البيع المتجددة وبيوت الشهداء المؤيدة ويمارس السلطان الذى منحه سيدنا يسوع المسيح لتلاميذه وصفوته،

جامعاً إلى داخل المرتسمين بأسرار بيعته، ويكرس الميرون الذى هو الدهن السرى الروحى الشريف، بالسر المكتوم الذى للخدر الأكرم العلوى، الذى للعروس المزينة السماوية المدعوة عروس الابن المنيف، ويتمم فعل حميم الميلاد الثانى الجديد، الذى للروح القدس كالأمر الصادر من المسيح إلهنا الذى صار له خليفة، وواسطة بيننا وبينه، وكرتبة موسى خادم الله وواضع الشريعة، وهارون اللاوى المؤتمن على خدمة قبة الشهادة، ورعاية الجماعة. هذا وقد توطدت نفسه باسم يسوع المسيح الفادى الوسيط، وامتلأ من نعمة الروح القدس الفارقليط، وأضحى انساناً جديداً، بالرتبة العظمى، المنعم عليه بها، من كنز نعم الله العلى، وفضله الأسمى ذلك الذى يرفع المتواضعين، ويرفع المسكين من الحضيض، ويجلسه مع رؤساء شعبه الفائقين. ولقد امتلأنا من الفرح الدائم والسرور السيدى، الذى دعينا إليه من قبل سيدنا المسيح كلمة الآب السرمدى المتجسد من العذراء وصار انسانا واقتبل الآلام والموت بجسده وقام فى اليوم الثالث، من بين الأموات بعزة جبروته ومجده، وصعد إلى السموات، جالساً عن يمين الآب فى الأعالى، وأرسل الروح المعزى مالئاً تلاميذه الأطهار من تقديسه ومواهبه ذات المعالى، مكملين بالرتبة السماوية والرسالة الالهية، إلى أن جمعوا شمل المتبددين، وأقاموا منار الدين واصطفوا بهدايته تعالى المستحقين، لرعاية المؤمنين، وإنا لمؤمنون ومتيقنون، بأن سيدنا وملكنا يسوع المسيح قد أنعم علينا وأقام لنا هذا الأب الصالح المأمون.

والله الذى اصطفاه راعياً لكرازتنا، ورئيساً لبيعتنا، ينعم عليه بحكمة الكلام عند افتتاح فمه، ربحاً لانفسنا وفائدة لهدايتنا، ويبررنا واياه من كل خطية ويجعل دعوته التى نالها مصدراً للسلامة فى الكنيسة الأرثوذكسية، وداعياً للخير لكافة أبناء الكرازة المرقسية، وينعم علينا جميعاً بمراحمه ويمتعنا بدوام مكارمه، بشفاعة **الست السيدة كلية القداسة العذراء** فى كل حين الطاهرة مريم وطلبات أبينا القديس مرقس الرسول الطاهر، الانجيلى الأكرم، وآبائنا المتوشحين بالنعم الالهية، الأب القديس أنبا أثناسيوس الرسولى والأب القديس أنبا كيرلس الكوكب المنير الإسكندرى وكافة الآباء البطاركة القديسيين، الذين جاهدوا باستقامة محامين عن الدين.

ثم إننا نعلن ايماننا بإله واحد فى الجوهر، الآب ضابط الكل، وابنه الوحيد ربنا يسوع

المسيح، الكائن باتحاد غير منقسم، ندعوه حقاً مثل الآب ونعرف أن الابن ليس هو ابنين لكن ابناً واحداً وحيداً، لا بالنعمة والإضافة، بل بالحق هو ابن حقيقى للآب والروح القدس المنبثق من الآب، المساوى للآب والابن فى الجوهر، وقيامة الأجساد وبالكنيسة المقدسة الجامعة الرسولية، وربنا يسوع المسيح فليمنحنا كلمة التعليم عند افتتاح أفواهنا لنعيش بسيرة هادئة ورعة، ونوجد لديه بكل تقوى وعفاف بنعمته وجوده هذا الذى له المجد والجلال، والعزة والكمال، مع أبيه الصالح والروح القدس فى وحدانية جوهرية، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين(*).



(*) انظر التدبير الألهى فى تأسيس الكنيسة. مجموعة من الكتاب والعلماء القاهرة ١٩٩٧.

مصادر ومراجع البحث

أولاً. مصادر البحث

١ـ الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد.

٢ـ كتاب الإفخولوجيون EUCHOLOGION مطبوع بمدينة رومية عن مخطوطة ترجع إلى القرن الثالث عشر، رومية عام ١٧٦١ للميلاد عام ١٤٧٨ للشهداء، وتحوى الكثير من الصلوات الطقسية مثل الرسامات وصلوات طبخ الميرون وغيرها على نهرين قبطى وعربى. ويرجح أنه عن هذه المخطوطة أخذ ابن كبر صلوات الرسامات التى أوردها فى كتابه «مصباح الظلمة لإيضاح الخدمة» فى القرن الرابع عشر وذلك بمضاهاة النصوص فى كلتا المخطوطتين.

٣ـ مخطوطة قوانين البيعة ـ محفوظة بمكتبة البطريركية والكنائس القديمة.

ثانيا. مراجع البحث

١ـ وليم سليمان قلادة، دكتور، كتاب تعاليم الرسل الدسقولية، الطبعة الثانية ١٩٨٩، دار الثقافة.

٢ـ مجموعة NICENE & POST-NICENE FATHERS ، المجموعة الثانية، المجلد ١٤ الخاص بقوانين المجامع.

٣ـ البيذاليون باللغة اليونانية وترجمته باللغة الإنجليزية باسم THE RUDDER ، وقد طبع فى شيكاغو عام ١٩٥٧ ، تجميع لمخطوطات، ومراجع عدة لقوانين البيعة الأرثوذكسية.

٤ـ حنانيا الياس كساب، مجموعة الشرع الكنسى، جمع وتعليق، ١٩٨٥ منشورات النور، بيروت ـ لبنان. وهو تجميع لمخطوطات ومراجع عدة لقوانين البيعة الأرثوذكسية.

٥ـ عونى برسوم، المستشار، التقنين الكنسى، ١٩٩٤ ، بيت الشمامسة القبطى بالجيزة.

٦ـ القمص مرقس داود، تاريخ الكنيسة تأليف يوسابيوس القيصرى، ترجمة، الطبعة الثانية ١٩٧٩ ، مكتبة المحبة.

٧ـ إيريس حبيبى المصرى، قصة الكنيسة القبطية، الأجزاء الثالث والسادس إلى الثامن.

٨ـ جرجس فيلوثاوس عوض، ناشر، المجموع الصفوى لابن العسال، (مخطوطة من القرن ١٣)، ١٦٢٤ ش. (١٩٠٨م).

المدن الخمس الغربية «بنتابوليس Pentapolis

مقدمة:

يختلف العلماء في تحديد الفترة التي تسمت فيها المنطقة باسم «بنتابوليس» Pantapolis. أو اتحاد المدن الخمس. فهناك من يرجعه الى العهد الجمهوري، (٤٥٠ - ٣٢٢ق.م (*). والبعض الآخر يرجعه لعهد البطالمة ٣٢٢٠ - ٩٦ ق. م).

ويوجد من يرجع به الى ما بعد هذا التاريخ، باعتبار أن هذه التسمية لم ترد الا في نص متأخر، في كتابات، المؤرخ الروماني بليني الكبير Pliny (القرن الاول الميلادي)، وهو يقول: «سيرينيكا هي نفسها «أقليم» بنتابوليس» . ولكن هذا النص ربما يوحي أيضا بقدم الاتحاد عن الفقرة التي عاش فيها المؤرخ، والتي تسميت فيها المنطقة باسم: «سيرينيكا» . حيث سيطرت عاصمتها سيرين ، وهي الاسم الذي لا تزال تعرف به منطقة المدن الخمس (بنتابوليس،في جميع المصادر الغربية الحديثة.

ويرى البعض أن اصطلاح «بنتابوليس» كان رمزا للتحالف القائم بين المدن الخمس الاغريقية في ليبيا الشرقية، كنتيجة للاصلاحات الدستورية التي اقترحها المشرعان اليونانيان «اكديموس، وديموفانس» Ecdemos & Demophanes نحو ٢٥٠ ق. م)، على أساس قيام «اتحاد فيدرالي» (Koinon) بين المدن الخمس، بعدما قررا - في مشروعهما - فصل مدينة سيرين، عن مينائها البحري«أبولونيا»، لتصبح كلا منهما مدينة مستقلة، بهدف التقليل من قوة سيرين، وجعلها في مصاف قوة المدن الاربع الاخرى، وبمعنى آخر تتعادل كفة المدن الخمس، ولا تطمع سيرين في السيادة على بقية المدن الاخرى.

وقد اعلن الدكتور كمال عبدالعليم أنه لم يقف على اسم «أبولونيا» في مصادر سابقة على القرن الاول، بوصفها مدينة منفصلة عن سيرين. ويستبعد الاستاذ جونز Jones ان يكون اسم أبولونيا قد أطلق على ميناء سيرين في عهد البطالمة، بزعم أنهم اعتادوا اطلاق أسماء ملكية على مدن برقة.

(*) الكلمة اليونانية مركبة من مقطعين: «Penta» (خمسة) «Polis» أي مدينة. وقد سميت في مصر بالمدن الخمس الغربية هذا وقد وجدت خمسة مدن شرقية (في فلسطين)، وهي التي اتحدت ضد الملك كدر لعومر. وهي «سدوم، عمورة، صوغر. أأدمة، صبوبيم» (تكوين ١٤: ٨).

ويبدو أن هذا الاسم كان مستعملا فعلا فى هذا العهد، خاصة وأنه ظل حتى العصر الرومانى المتأخر كميناء هام. ومما يدعم رأينا عثور الأثريين «هيسلوب وأبلبوم» على عملة نقدية في المنطقة من القرن الثالث ق . م ومدون عليها كلمة «الاتحاد» (Koinon). وقالا أن أبولونيا كانت ـ بالتأكيد ـ أحدى مدنه الخمس.

ولانسمع عن اصطلاح «البنتابوليس» حتى قيام الثورة اليهودية فى سيرينيكا عام ١١٥م، ثم شيد الامبراطور هدريان الرومانى مدينة باسمه (Hadrianopolis) فأصبح فى المنطقة ستة مدن كبرى. وقد عثر على نقش أثرى (يرجع للفترة بين ١٨٥ ـ ١٩٢م) يشير إلى أن المدينة الاخيرة، قد أصبحت عاصمة سيرينيكا . ولكنها انحدرت واختفت، وعاد الاصطلاح المشهور «بنتابوليس» الى الظهور من جديد، فى عهد الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م). كما ظل معروفا فى أيام المطران الليبى سينسيوس Synesiua(٤٠٥م)، حيث يأتى ضمن سطور رسالة منه الى ابن عمه ديوجينيس القيريني. وقد استمر نفس الاسم شائعا خلال الفتح العربى، وقد ورد محرفاً فى كتب المؤرخين العرب القدماء هكذا: «أنطابلس».

وقد ظل نفس الاصطلاح شائعا، فى مصر. خلال العصور الوسطى، وحتى العصر الحديث «ضمن القاب بابا الاسكندرية». فى المراجع التاريخية المسيحية (المدونة باللغة العربية) ، وأن اختلف الكتاب المصريون ـ القدماء والمحدثون ـ فى تحديد أسماء المدن الخمس. ومواقعها الفعلية، لاسباب عديدة، سنحاول مناقشتها فيما يلى:

اسماء المدن الخمس في المخطوطات القبطية:

فيما يلى بيان بأسماء مدن بنتابوليس، على حسب الترتيب التاريخى للمصادر القديمة منها، ثم الاكثر حداثة وهكذا:

١ ـ حسب رواية البطريرك الملكانى افتيخيوس (ابن بطريق) كما وردت فى تاريخه (٩٧٠م) هى : مدن برقة وزولا وزويلة وأوجلة وسنترية، وهى مدن شائعة فى ليبيا، فى أيام الكاتب . ربما استقاها من التجار المصريين، الذين التقى بهم فى مصر.

٢ ـ أما صاحبنا ساويرس (أسقف الأشمونين الشهير، فى القرن العاشر) ، فقد أجملها (فى تاريخه) بقوله «ان الخمس مدن بالمغرب هى أفريقية وما معها».

ثم عاد وفصلها، في موضع آخر من كتابه، موضحا أنها «برقة وفزان والقيروان وطرابلس الغرب وأفريقية»، وهي خمس مناطق أكثر منها خمسة مدن.

٣ ـ أما ابن كبر (كاهن كنيسة المعلقة بمصر القديمة في القرن ١٤م. فقد حسبها مدن برقة، طرابلس الغرب ، وتونس، وافريقية، وقيريني).

٤ ـ وقد وردت هذه الاسماء عينها في مخطوط قبطي (عربي، باسم تكريس الكنائس».

٥ ـ وفي مخطوط آخر، عن رسامة الاساقفة أشير إلى المدن الخمس بانها : «برقة (برقين)، طرابلس. افريقية. والقيروان، وتونس.

والواضح ـ من هذه النصوص ـ أنه حدث خلط كبير، بين موقع مدن البنتابوليس الحقيقية (في شمال شرق ليبيا)، وبين مواقع مدن أخرى. في شمال أفريقية، وذلك يرجع ـ في رأينا ـ إلى أسباب عديدة، ربما كان منها خراب المدن الخمس الاصلية، عمرانيا وسكانيا، بعد الفتح العربي، وطول الفترة التي تقع بين تدوين هذه الكتابات، وبين اندثار هذه المدن فعلا، ولعدم وصول هؤلاء الكتاب الى مواقعها الاصلية. وكما كان يفعل الجغرافيون القدماء. بالاضافة الى عدم توفر المادة المكتوبة عن بنتابوليس، في وقت مبكر في مصر. فاعتمدوا ـ على الارجح ـ على معلومات مستقاة من الجماعات القبطية، التي كانت ترد الى مصر من مناطق استقرارها بالشمال الافريقي، بعد الفتح العربي للمغرب.

هذا ونوافق قداسة البابا شنوده الثالث في قوله بأن أسم «تونس» . الذى أشار اليه ابن كبر. وتكرر في مخطوطات أخرى، قد أتى من الخلط بين مدينة «القيروان» التي شيدها عقبة بن نافع ٦٧٠م) في تونس. لتكون عاصمة للمغرب العربي. وبين مدينة قيرون (Cyrene) عاصمة بنتابوليس. التي أقامها الاغريق. على الجبل الأخضر، في ليبيا الشرقية)، كما سبقت الاشارة.

وأكبر الظن أن منطقة تونس الحالية (بين القيروان وقرطاج القديمة)، كانت تضم أسقفية قبطية في العصور الوسطى. ومن المعروف أن العرب قد أخذوا ـ بعد فتحهم للمغرب ـ كثير

من أمهر العمال الفنيين والاداريين الاقباط، ليحلوا محل البيزنطيين ، الذين غادروا الشمال الافريقى. بعد الفتح العربى، وعلى ذلك لا نستبعد أن يعتبر المؤرخون «الاقباط» القيروان» كاحدى المدن الخمس. بدلا من «قيرين» الاغريقية. التى تقترب معها فى نطقها.

وكذلك الحال بالنسبة لتفسير اسم «افريقية» الوارد فى المخطوطات السابقة، فهو يثير الدهشة، فى نظر قداسة البابا شنوده، ويطلب له تفسيراً!!

وبالاطلاع على آخر الابحاث الجغرافية والتاريخية عن شمال أفريقية، ا تضح ان كلمة (افريقية) اطلقها العرب ـ نقلا عن البيزنطيين ـ على المنطقة الواقعة بين تونس والجزائر الحالية (قرطاجنة القديمة)، وسماها البيزنطيون «ولاية أفريقية» Provincia ، وكانت اسقفية قبطية، ترعى الاقباط المصاحبين للفاتحين العرب فقد نشرت مجلة «المقطف» (عدد سبتمبر ٣٧، ١) بحثا مترجما (عن الفرنسية) «لجاستون فييت»، عن الاقباط فى تونس ضمن موضوع الموصلات فى مصر فى العصور الوسطى استند فيه كاتبه على كتابات المؤرخين «البلاذرى. والبكرى»، وقال ما نصه. ص ٣٣): «... ولكن غارات القراصنة البيزنطيين حملت الخليفة الاموى) على زيادة دور الصناعة، فأمر بأنشاء واحدة بعكا، مستعينا بالنجارين المصريين وأخرى بتونس، على يد ثلاثة آلاف قبطى» كان معظمهم من مدينة تنيس المصرية التى جاء منها اسم تونس.

ومن هذا كله، نخلص أن المؤرخين الاقباط، فى العصور الوسطى، قد استعاروا الاصطلاح اليونانى الشهير «بنتابوليس» (المدن الخمس الغربية).، الذى كان عالقا بأذهانهم، لأنه كان ـ ولا يزال ـ ضمن ألقاب البابا القبطى، فاحيوه من جديد جغرافيا، وأطلقوه ـ على ما يبدو ـ على خمس مناطق أو مستوطنات فى المصادر الغربية «Coptic - Settlements» كانت عامرة بالاقباط، شمال افريقية العربى لبنتابوليس. و(منطقة) طرابلس،ومنطقة تونس (الممتدة من قرطاجنة القديمة حتى الجزائر الحالية)، ثم أخيراً (منطقة) القيروان (عاصمة المغرب العربى، وتمتد بهذا المفهوم ربما الى مراكش أيضا (المغرب)، وقد ظل هذا التفسير سائدا حتى الآن فى مصر، يتناقله الخلف عن السلف، بلا معرفة للحقيقة.

وأما الكتاب المحدثون، فى مصر، فهم ينقسمون حسب آرائهم ـ الى مجموعتين: ـ

أ ـ المجموعة الاولى:

وقد نقلت اسماء المدن الخمس عن المصادر القبطية السابقة، كما هى بدون تعديل (*).

ب ـ المجموعة الثانية:

وقد اعتمدت على المصادر الاجنبية الحديثة (الغربية) فى معرفة اسماء مدن بنتابوليس الحقيقية، ولكن اكتفت بذكر أسمائها فقط، دون ان تقدم لنا مادة علمية كافية عنها (*)، بسبب عدم وجود المصادر الغربية، التى تتحدث عنها، فى مصر.

ومن ثم كانت الحاجة ماسة الى دراسة علمية سليمة ومفصلة، عن المدن الخمس، مع ضرورة اتباعها ببعض النواحى الجغرافية، والظروف التاريخية المتعلقة بنشاتها، وتطور اسمائها، عبر التاريخ، و ظروفها الطبيعية. حتى تكون فرشة أساسية، للحديث عن المسيحية فيها بعد ذلك.

(*) من هذه المجموعة: ابراهيم صبرى . مار مرقس الانجيلى (القاهرة ١٩٦٨، ص١٤٤)، ونصيف حبيب، الذى نشر مخطوطة تضم سيرة أنبا صموئيل القلمونى (القاهرة ١٩٥٢). وقد أشار (فى ص ١٧ حاشية١) الى و جود المدن الخمس الغربية بشمال افريقية. أما الاستاذ عزت سامى، فقد نشر مقالا عن الخمس مدن،بجريدة وطنى (عدد ٤٦٧ فى ١٠/١٠/١٩٧١)، أشار فيه الى أن طرابلس هى احدى هذه المدن الخمس . بينما ذكر الدكتور صابر جبرة (فى كتابة مجد الكتاب المقدس، نشر الانجلو، القاهرة، ص ١٦٠) أن : «مقاطعة المدن الخمس كانت تضم القيروان وبرقة وغرب أفريقية» !! وتكرر نفس الخطأ فى كتاب تاريخ الكنيسة جـ ١ نشر جماعة مدارس الاحد بالجيزة (القاهرة ١٩٦٢، ص ٣٢)، وفى كتاب عن القديس مرقس الانجيلى للمرحومين حبيب جرجس. وكامل جرجس القاهرة١٩٣٧، ص ١٧ حاشية رقم ١.

ومن أمثلة المجموعة الثانية: ـ

قداسة الباب شنوده الثالث. المصدر السابق ص ٣٩ ـ ٤٤. زاهر رياض، كنيسة الاسكندرية فى افريقية (ص ٢٥ ـ ٢٦)، ويسطس الدويرى المتنيح الانبا دستورس. أسقف المنوفية الراحل) فى كتابه «موجز تاريخ المسيحية» (القاهرة ١٩٤٩، جـ١، ص ٧٥) وقد ذكر اسماء مدن بنتابلويس بدقة ، نقلا معجم لاروس (الفرنسى. لكنه أوقع المدن الخمس خطأ، على الخريطة ص ٨٤، بأن جعلها فى منطقة تونس، وقد وردت أسماء مدن بنتابوليس الحقيقية. فى مقالة عن بنتابوليس للمرحوم كامل صالح نخلة، بمجلة جمعيةن التوفيق القبطية، عدد ٨ (القاهرة، ديسمبر ١٩٣٨)، وكذلك فى كتابه عن مار مرقس (القاهرة ١٩٤٩)،. وكذلك كتاب تاريخ الكنيسة للقمص منسى يوحنا (ص ٧)، كما أورد القمص تاوضروس السريانى بيانا مختصر بأسماء المدن الخمس ، حسب المصادر القبطية والأجنبية، ضمن مقالة مفصلة عن مار مرقس بمجلة المحبة (يونيو ١٩٦٨) ص ١٩٠.

ونبدأ أولا بالاشارة إلى أسماءالمدن الخمس الحقيقية (القديمة)، ثم نشير الى ظروفها الطبيعية التى نشأت فيها، على أن نتبعها بدراسة تفصيلية لكل مدينة منها، على حدة، استكمالاً للنقص الواضح فى المعلومات عنها، طبقاً لما أتضح لنا من الاطلاع على الدراسات المنشورة عنها فى مصر.

تحديد المدن الخمس الحقيقية:

من واقع المصادر القديمة المعتمدة، نجد أن المدن الخمس هى: «سيرين، وأبوللونيا، وتوكرة، وبرنيس، وبرقة طبقا لرواية أسترابون، ونقل عنه بعض الكتاب الغربيين، أمثال رينو، والسيدة بوتشر، ومن الشرق الاستاذ هانى المبارك الليبى. وغيرهم من سبقت الاشارة اليهم فى الحاشية السابقة.

الا أن المؤرخ الرومانى «بلينى» Pliny (٢٣ (٧٨م) استبدل «برقة» بمدينة «بتولمايس» أو «طولميته». واختلف فى ذلك الدارسون، فمنهم من وافقه على رأيه، ومنهم من عارضه.

ويبدو ان مدينة «برقة» (Berca) قد تأسست قبل ميناء بتولمايس، ومن الراجح أنه كان يوجد ميناء صغير على الساحل (وقيل مجرد قرية صغيرة) فى المنطقة المحيطة ببرقة شمالاً، والتى دعاها هيرودت «بركايا» (Barcaia)، وهو ميناء مجهول الاسم، ربما أقيم بعد أنشاء مستوطنة برقة كمنفذ لها على الساحل.

وقد قام البطالمة بتطوير هذا الميناء، وفى أيامهم أصبح مدينة حديثة. جيدة التخطيط، وقد حملت اسم الملك الافريقى الاسكندرى، فدعيت «بطليموسة» (Ptolemais) و قد حلت محل «برقة» الام ـ فى الاتحاد القيرينى ـ فى القرن الثالث ق. م، بعدما تضاءلت أهمية المدينة الثانية. ربما بسبب الهجرة الى الميناء الجديد. وعلى ذلك لانميل الى الاخذ برأى الاستاذ البرغوتى، الذى ينادى بنشأة بتولمايس قبل مدينة برقة، لأنه يتعارض ـ فى الواقع ـ مع تطور نشأة المدن الخمس، على حسب رواية هيرودت، الذى زار المنطقة وكتب عنها.

كما أن الاستاذ البرغوتى يعود الى القول بأنه «لم يبق من أثار برقة (مدينة المرج الحالية) ما يوضح شيئا من ماضيها، وأغلب الظن أنها لم تزدهر. بعدما خربها الفرس سنة ٥١٥ ق. م.

وعلى ذلك أضحت «برقة» مجرد قرية صغيرة، تابعة لميناء بطوليمايس، في العصر البطلمي، وربما أصبحت هكذا في القرن الميلادى الاول، طبقا لرأى المؤرخ الرومانى «ميلا» Mela، ولكنها استردت بعض أهميتها الاقتصادية، بعد نقص مصادر المياه في بتوليمايس، ويؤكد ذلك وجود اسقفية مسيحية ـ في مدينة برقة ـ في وقت متأخر، كما سنرى فيما بعد.

ونخلص من هذا كله، الى أن المدن الخمس الغربية تقع جميعها في منطقة الجبل الاخضر الحالية (شرق ليبيا)، وليس في بلاد المغرب، أو تونس، كما وردت في المصادر القبطية السابقة الاشارة اليها.

وبذلك يكون موقعها الجغرافي بين منطقة «مارماريكا»(*) Marmarica وخليج سيرت الكبير (Syrtis Major)، أى بين خطى عرض ٢٩ ـ ٣٣° شمالاً وبين خطى طول ٢٠ ـ ٢٥° شرقا.

وقد دعاها الاب شينو باسم «المدن الخمس الليبية»، كما تسمت في السنكسار القبطى باسم (ليبية مصر)، لاتحادها معها سياسيا ودينيا، فترات طويلة، كما سنر ى في حينه.

الظروف الطبيعية لبنتابوليس:

يقسم هيرودت المنطقة إلى ثلاث مناطق طبيعية، على هيئة أشرطة موازية لساحل البحر المتوسط، ويرتفع كل منها عما يليه كلما اتجهنا جنوبا. وهى على التوالى: الشريط الساحلى ثم الشريط الجنوبى له، وبينهما هضبة سيرين (الجبل الاخضر حاليا). وهذا التقسيم يتفق مع الواقع الجغرافى. لحد كبير.

أما السهل الساحلى فيمتد من بنغازى الى طوكرة. وبعرض كبير. وهو عبارة عن أرض شبه مستوية، كثيرة الحصى والحجر الجيرى، وبعض اجزائها مغطى بتربة صلصالية حمراء، وبه بعض البحيرات العذبة. والى الشرق من طوكرة يضيق الشريط الساحلى وتقترب التلال من البحر اقترابا شديداً، خاصة عند مدينة أبولونيا(مرسى سوسة الحالية) وكان الساحل الشمالى

(*) «مارماريكا» : هى المنطقة الواقعة بين درنة والسلوم الحالية. وقد امتدت حدودها الادارية ـ في العصر الرومانى المتأخر ـ حتى مرسى مطروح الحالية. والى واحتى الجغبوب وسيوة جنوباً. وقد تسمت بهذا الاسم نسبة الى سكانها القدماء من قبائل «المارمريدى» طبقا لما جاء في كتابات المؤرخين سكيلاكسScyiax (القرن ٤ ق. م)، وبلينى، ديودور الصقلى. ودعيت «مراقية» في المصادر العربية القديمة.

غير صالح لرسو السفن، لكثرة تعرضه للعواصف المحلية.ويروى المطران الليبى سينيسيوس أن العاصفة منعت سفينته من الوصول إلى الشاطىء لمدة اسبوع رغم قربها منه، هذا بالإضافة إلى ندرة الماء العذب بالمنطقة ، مما جعلها مناطق طرد السكان.

الاسقفيات التابعة لبابا الاسكندرية

ويلى هذا المرتفعات الساحلية التى تحيط بخليج سدرة من الشرق، وتبرز على شكل قوس ممتدة شمالا فى البحر المتوسط. وهى فى الواقع هضبة شبه مستوية (تسمى حاليا الجبل الاخضر)، وترتفع الى نحو ٨٧٠ متراً فوق سطح البحر، ولكنها تنحدر تدريجيا نحو الجنوب (نحو الصحراء) حيث توجد الواحات الليبية المعروفة.

وتكسو الهضبة غابات خضراء، تشمل أشجار الزيتون البرى. والصنوبر والسرو، وبعضها مزروع. ويغلب على سطحها الصخور الجيرية. وتنحدر منها بعض المجارى المائية نحو البحر المتوسط ، وتمتد الهضبة نحو ٢٥٠ كيلو مترا بموازاة الساحل حتى تصل الى جبل «عقبة» عند السلوم (٢٠٠ متر)، ويسير فوقها الطريق البرى الحالى، وتقع مدينة سيرين على تلك الهضبة، بينما تقع طولميته وطوكرة وأبولونيا على الشاطئ، وترتفع أرض طولميته بسرعة من

الشاطئ الى سفح الجبل، فى مسافة ميل وربع فقط. اما مدينة برقة (المرج الحالية فتقع فى وسط سهل يرتفع ألف قدم فوق سطح البحر، ويمتد ٢٠ ميلا طولا و٨ أميال عرضا . وقد وصفه الكاتب العربى ابن رسته (سنة ٩٠٣م). بأنه : «مرج واسع وتربته حمراء شديدة الحمرة».

أما من الناحية المناخية: فانه نظراً لوقوع منطقة بنتابوليس بين البحر شمالا، والصحراء الكبرى جنوبا، فالمناخ كثير التقلب. وينتمى الساحل الى مناخ البحر المتوسط، أى يتميز باعتدال الحرارة صيفا، والدفء شتاء. أما الجبل الاخضر فهو أكثر أعتدالا فى الصيف، لهذا تعتبر سيرين مصيفا هاما، أما الشتاء فيها شديد البرودة ، ويشبه جنوب أوربا، وربما كان ذلك من أسباب جذب الاغريق الى استيطان المنطقة، وتأسيس المدن الخمس بها.

ومن ناحية أخرى، يعتبر الجبل الاخضر أكثر مناطق ليبيا مطراً (٥٠٠ ـ ٦٠٠م) ، ويرجع سبب ذلك الى وجود ثنية على شكل قوس، تتعامد مع الرياح الغربية ا لعكسية المطيرة. وتتجمع المياه الجوفية، فى التربة الصلصالية، التى لا تنفذ منها مياه الامطار، مما ساعد على الاستفادة بها فى الزراعة المنتظمة على الهضبة، منذ العهد الاغريقى الاول ، والتى بلغت مساحتها نحو خمسين الف هكتار. ويندر المطر بشكل ظاهر،كلما أتجهنا جنوبا، حيث توجد منخفضات تضم واحات أوجله وغدامس وجالو. ويستفاد سياحياً من غابات الجبل الاخضر، بسبب مناظرها الطبيعية الجميلة، التى تذكرنا بجبال لبنان واليونان.

وكانت منطقة بنتابوليس قد تعرضت لعدة حملات متتالية من الجراد. ذكرها المطران سينسيوس فى رسائله عدة مرات. وقد سببت هذه الهجمات سلسلة من الدمار للاقتصاد الزراعى فى المدن الخمس، فى العصر الرومانى. هذا وقد اشار سينسيوس أيضا الى وجود حيوانات مفترسة كثيرة فى زمانه (٤١٠م)، مثل الضباع والذئاب والثعابين السامة وغيرها.

دراسة جغرافية للمدن الخمس الغربية

أولا: مدينة سيرين (قرينى):

أول المدن الخمس التى أنشاها الاغريق عام ٦٣١ق. م (*)، على حافة الجبل الاخضر

(*) يؤرخ الاب لوكوين تاريخ انشائها بعام ٣٥٦٣ للعالم، وعام ١٤٣ لتأسيس روما، واشار المؤرخ=

الشمالية (٦٢١ متراً)، وتمتد المدينة على هضبة مستوية، تمتد من الشرق الى الغرب. وتمتد نحو الشمال خمسة أميال. ثم تنحدر بشدة نحو البحر المتوسط.

وقد تسمت بعدة أسماء مترادفة منها قيريني وسيرين وقرنة، وقورين أو تورينا ، وسماها الرومان سيرينية. وقد وجدت بها عملات فضية أغريقية (٤٥٠ ـ ٤٠٠ق.م) مدون عليها اسم المدينة باليونانية «كيرانا»، وقد نقش حولها صورة «نبات السيلفيوم» الطبى، أحد مصادر رخاء المنطقة.

وقد دعيت المدينة بهذا الاسم نسبة الى العذراء الاسطورية «الحورية قورينا» (Nymph Corena)، فى الادب الاغريقى القديم،(*) التى روت الاساطير أنها كانت بطلة صيد الأسود، وأنه لما رآها الاله «أبوللو» أحبها، وأخفاها عن الربة «ليبيا».

وقد عثر الشريان« بروشر وسميث» (١٨٦١م) على نقش بارز، نقلاه الى المتحف البريطانى، ويمثل المعبودة (ليبيا) وهى تضع اكليلا على رأس الحورية قورينا، بينما هذه تحاول الفتك بأسد، ويرمز هذا النقش الى زعامة سيرين للمدن الخمس الغربية.

ويقول الكاتب الليبى مصطفى بعيو: «العرب لم يهتموا بسيرين، أو التحقق من اسمها، اذ كثيرا ما خلطوا بينها وبين مدينة القيروان، كما فعل ياقوت (الحموى) فى معجمه».

وقد انتقل هذا الخطأ عينة الى الكتب التاريخية القبطية، التى كتبت فى العصر العربى، كما يتردد أيضا فى المقالات الصحفية التى تنشر، وفى الترجمة البيروتية (البروتستانتية) للكتاب المقدس، كما نرى فى النصوص التالية:

* أنجيل مرقس (١٥ : ٢٠) «فسخورا رجلا. مجتازا، كان أتياً من الحقل ، وهو سمعان القيروانى، أبو الكسندروس وروفس، ليحمل صليبه».

* انجيل لوقا (٢٣ : ٢٦): «ولما مضوا به (يسوع) أمسكوا رجلا قيروانيا..».

=الرومانى سوتينوس الى قيامها عام ٥٩٧ ق. م، بينما يرى المؤرخ الكنسى يوسابيوس القيصرى أنها أنشئت سنة ٦٣١ ق. م، وهو ما أجمع عليه غالبية الدارسين . أنظر أيضا: محمد مصطفى بازامة، بحث منشور بعنوان «اسم ليبيا» (بنغازى ١٩٦٣).

(*) توجد مدن أخرى باسم هذه الحورية. منها «كيرينيا» بقبرص. وقرية القورين (غرب الاسماعيلية).

* أعمال الرسل (٣: ١٠) «ومصر، ونواحي ليبية، التي نحو القيروان».

* أعمال الرسل ٦: ٩ «فنهض قوم من المجمع، الذى يقال له مجمع الليبراتيين (الاحرار) والقيروانين».

* أعمال الرسل ١١: ٢ «.. ولكن كان منهم قوم، وهم رجال قبرصيون، وقيراونيون».

* أعمال الرسل ١٣: ١ «في أنطاكية في الكنيسة هناك.. لوكيوس القيرواني»!!

ومن الواجب التنبية الى أن مدينة «القيروان»، التي ينسب اليها هؤلاء، هي الحقيقة مدينة قوريني (سيرين)، احدى المدن الخمس الغربية الليبية. أما مدينة «القيروان» فتقع في تونس (الحالية)، وقد بناها القائد العربي عقبة بن نافع بعد ميلاد المسيح بستمائة وسبعين عاما، لتكون عاصمة للمغرب العربي.

لذا ينبغي على ناشرى الكتاب المقدس «بالعربية» أن يستبدلوا كلمة «القيرواني» بكلمة القرياني أو القوريني، كما فعل ابن كبر، الانبا ساويرس أسقف الاشمونين. وكما جاء في النسخة الكاثوليكية للكتاب القدس (طبعة رومية الحالية).

هذا ويطلق الليبيون الآن اسم «شحات» أو عين شاحات على سيرين، نسبة الى القرية الليبية الحديثة، التي تقع حالياً، في وسط المنطقة الاثرية.

وتقع قوريني على بعد ١٨ كيلومترا الى الجنوب من مينائها أبولونيا (مرسى سوسة)، كما تقع على مسافة ٢٢٤ كيلومترا، الى الشرق من بنغازى،على الطريق الرئيسية الممهدة، بين مصر والمغرب. وقد كانت مركزا هاماً للمواصلات، في منطقة سيرينيكا، وتمتد منها عدة طرق الى بقية المدن الخمس، وأهمها الطريق القديمة التي أقامها الاغريق، مع مينائها أبولونيا، أصلحها الامبراطور تراجان (نحو عام ١٠٠م)، وأن كانت قد تعرضت لبعض التخريب بعد ١٥ عاما، اثناء الثورة اليهودية هناك. وقد ازدهرت قوريني، في العصر اليوناني. ووصفها الشاعر الاغريقي «بندار» (Pindar) «بأنها مدينة أقيمت على عرش من ذهب»، ولعله يعني غناها في النواحي الزراعية والمناخية. وقد قيل أن رُبع سكانها، في عهد الاسكندر الاكبر (٣٣٢ ق. م) كانوا من اليهود، الذين دخلوا الرعوية اليونانية، وكان لهم « مجمع» مشهور هناك.

وقد وصل عدد سكانها فى تقديرات البعض ـ الى نحو ٣٠٠ر٠٠٠ نسمة، فى أوج عظمتها، ويبدو أنه رقم مبالغ فيه، والراجح أن سكانها لم يزيدوا عن نصف هذا العدد، على أكثر تقدير.

وتمتاز مدينة قورينا بآثارها الكثيرة، من العصرن الهلينى والرومانى. وهى توجد فى ثلاث مجموعات كبيرة، على قمة الجبلين الغربى والشرقى، وعند مخرج وادى بلغادير، وتضم مجموعة ضخمة من المعابد، والحمامات الرومانية، والمسارح الدائرية، والاسواق، والاماكن العامة، والكنائس القديمة، ويحيط ـ بكل هذه الآثار ـ حائط حصين طوله نحو ثلاثة كيلومترات، وتوجد خارجه جبانة كبيرة، تضم ألف مقبرة، منقورة فى الصخر، وقد نهبت محتوياتها، بعد الغزو العربى، واستعملها العرب والبدو الرحل منازلا للسكنى، أو مراحا لقطعاتهم فى الليل. وقد تخربت معظم آثار المدينة، نتيجة للثورة اليهودية (١١٥ ـ ١١٧م)، وبسبب زلازل مروعة سنة ٣٦٥م، ويذكر الجغرافى الاوربى بودران (Baudrend) «أن سيرين قد هجرت فى العصور الوسطى».

ثانيا: مدينة برقة (المرج الحالية):

وهى المدينة الثانية فى اتحاد المدن الخمس بنتابوليس). وتأسست نحو سنة ٥٥١ ق.م، على يد بعض المهاجرين الاغريق من اخوة الملك باطوس الرابع، وبمساعدة السكان الليبيين. وتقع مدينة المرج الحالية (برقة القديمة)، فى منتصف منطقة مستوية السطح، ترتفع نحو ٢٥٠ مترا عن سطح البحر. وتبعد نحو ١٠ كيلو مترات عن البحر المتوسط و١١٠ كيلو مترات عن سيرين (الشحات)، ٢٤ كيلو مترا عن طولميته.

ويعتقد راولنسون (فى تعليقه على تاريخ هيرودت) أن كلمة «برقة» أفريقة الاصل. ويرى أن المنطقة قد تسمت بهذا الاسم، قبل وصول الاغريق الى ليبيا. ويرى أن المدينة قديمة بدليل العثور على عملة نقدية(ترجع للفترة بين ٤٥٠ ـ ٣٢٠ق.م) وقد نقش عليها اسمها باليونانية.

وقد تعددت الآراء بشأن هذا الاسم، فقيل ـ مثلا ـ أن الكلمة تعنى صحراء، وهذا لا يتفق وموقعها غير الصحراوى. وقيل أنها أشتقت من الكلمة العبرية «بركة Berkah ، التى تقرب

من معناها فى اللغة العربية، وتعنى مكان تجمع مياه الامطار، أو خزان طبيعى reservoirحيث نمت المدينة حول منطقة تتجمع فيها الأمطار، على حسب رواية هيرودت.

ونقل الاخوان «بيتشى» ـ عن المؤرخ الرومانى سيليوس ـ أن برقة اسم «فينيقى أو ليبى الاصل»، بينما يرجح الاستاذ بازامة (الليبى أنه «اسم مصرى الاصل»، عرفته المنطقة من خلال صلات المصريين بالليبيين فى العصر الفرعونى(*)، ولعله اقرب الى الحقيقة فى نظرنا.

وقد احتلها الفرس سنة ٥١٥ ق. م، وخربوا عدة مبان بها، ولكنهم لم يدمروها تماما. الا أن انشاء مينائها «طلميته»، على يد البطالمة، قد غطى على أهمية المدينة الام. فحلت مدينة بتوليمايس محل برقة فى الأهمية، طبقا لما ورد فى كتابات مؤرخى العصر الرومانى الاوائل أمثال بلينى، وأسترابون، وبطليموس الجغرافى، ثم فى كتابات اسطفانوس البيرنطى وغيرهم.

أما فى العصر العربى، فقد استعادت المنطقة أهميتها مرة أخرى، بعدما شيد العرب مدينة فى مكانها، وسموها برقة أيضا، وأصبحت عاصمة ليبيا الشرقية، ثم أطلق اسمها على المنطقة كلها . ثم تغير اسم المدينة، منذ القرن ١٢م، فأصبحت تدعى «المرج». حسب رواية الرحالة العربى ابن سعيد . وهو اسمها الحالى، بينما ظل اسم «برقة» يطلق على المحافظة الليبية الشرقية، حتى العهد الملكى فى الخمسينات من هذا القرن، حينما انقسمت الى عدة محافظات بعد الثورة الاخيرة.

وقد تهدمت مدينة المرج، بعد ورود القبائل العربية الهلالية منتصف القرن ١١م)، وظلت كومة من الخرائب، ولم ترجع الى عظمتها الاولى، ولكن دبت فيها الحياة ـ من جديد ـ أثناء الحكم العثمانى (القرن ١٦م) ، بعد انشاء قلعة عثمانية هناك. لكن طغت عليها مدينة بنغازى. التى أصبحت عاصمة مديرية برقة العثمانية. وقد شيدت زاوية اسلامية فى ا لمرج سنة ١٨٤٢م، محل حصن رومانى، استخدمت فيها اعمدته. ولا يوجد الآن من آثارها الرومانية شئ يذكر.

(*) محمد مصطفى بأزامة ، محاضر عن «اسم ليبيا» بمؤتمر ليبيا عبر العصور (منشورات الجامعة ، بنغازى ١٩٦٨ ص ٨٩ ويرى ان أسم «برقة» يتكون من المقطعين BAR - KA(بر = بيت، معبد، أو مدينة أو منطقة، كا = القرين.

ثالثا: مدينة برنسيس (بنغازى): BE RENICE

هى المدينة الثالثة فى اتحاد البنتابوليس القديم. وتقع فى أقصى شرق خليج سيرت الكبير. وقد شيدها المهاجرون الاغريق، الذين وفدوا اليها من سيرين، أو من برقة (٤٦٠ ق.م)، ودعوها أولا سبيريدس، طبقا لما جاء فى كتابات هيرودت، والمؤرخان الاغريقيان توسيديدس، وثيوفراستوس Tucidides & Theophrastus ومع الزمن اختصر اسمها الى هسبيريدس، طبقا لرواية المؤرخ هيراقليدس، ثم أصبحت «هسيريس» حسب تسمية سيكلاكس القرن ٤ ق.م).

وقد تسمت المدينة فى العصر البطلمى باسم الاميرة القورينية برنيس Berenice أو برنيقة، بمناسبة زواجها من الملك بطليموس الثالث حاكم مصر، ٢٤٦ ق. م، كما ورد فى كتابات أسترابون. وقد وصفها بأنها تقع على شبه جزيرة، تمتد على بحيرة تريتونيس Tritonis وظلت المدينة تحمل نفس الاسم، فى العصر الرومانى، كما أخبرنا المؤرخان بلينى ولوكانو. (Lucano)، وفى الكتب العربية القديمة دعيت «برنيق»، كالاسم البطلمى.

وقد وصفها اليعقوبى (سنة ٨٩٧م) بقوله: «ان ميناء برنيق عجيب فى الاتقان والجودة». فى حين ينقل ابن خلدون (١٤٠٦م) عن المسعودى (٩٥٦م) عبارته «صحارى برنيق»، مما يدل على عدم وجود انتاج زراعى وفير حولها، فى تلك الفترة، أو بما يوحى بقلة عدد سكانها، وتحولها الى منطقة شبه مهجورة.

ويعتقد الاثرى جودتشايلد أن المدينة الاغريقية الاولى «هسبيريدس» قد أقيمت على أرض مرتفعة، فى أقصى شمال سبخة بركة السليمانى، فى موقع مقابر سيدى عبيد الاسلامية الحالية، على طريق بنغازى ـ طوكرة.

وقد اختفت آثار المدينة القديمة بسبب حفر الاهالى أساساتها. للحصول على حجارة للبناء. وقد شاهد الرحالة الاخوان «بيتشى» الاهالى (١٨٢٨م) وقد بنوا دورهم، فى تلك الفترة، باستخدام أحجار الآثار، كما يبدو من شكلها وعلى ذلك لا توجد أية آثار. من تلك التى جددها الامبراطور البيزنطى جستنيان فى المدينة، فى القرن السادس الميلادى.

وعلى بعد عشرة كيلو مترات من شرقي بنغازى الحالية، اكتشف الاخوان بيتشى «جنة الدنيا»، حسب وصف المؤرخ الاغريقي سكيلاكس، والروماني بليني . وقد حددت الاساطير اليونانية القديمة مغارة ليثى «أو موضع الجحيم والنعيم»، وتقع على مقربة من جنة هسبيريدس هذه. وسماها العرب «الشق الكبير». وهذا الشق الارضى عبارة عن مغارة طويلة وعميقة ، بين احراش كثيفة، كلما تعمق الهابط اليها، كلما ضاق الموضع و انخفض الصخر بشدة . والراجح أنه فالق في القشرة الارضية، من فعل زلزال قوى قديم، وربما كان يخرج منه ماء ساخن . لان استرابون ٦٦ق.م ـ ٢٤م اعتبره نهرا من الجحيم. وأشار إليه بطليموس الجغرافي (القرن ٢ م) وقال : «أن ارواح الموتى تشرب منه. فتنسى أفراحها السابقة على الارض» وتروى كتب المثولوجيا الاساطير الاغريقية أيضا أن الالهين زيوس وهرقل كانت لهما مغامرات مشهورة في تلك الجنة الاسطورية.

ومن دراسة العملات النقدية التى اكتشفها بوند وسويلز Bond & Swales نجد أن موقع المدينة الاغريقية «يوسبيريدس» لم يعد صالحا للاقامة (بعد عام ٢٥٨ق.م). وهذا يعنى أنه تم التفكير في تأسيس مدينة برنيق، منذ ذلك الوقت (٢٤٧ ق.م ـ ٦٤٣م)، قرب البحر،و في موقع بنغازى الحالية.

وقد تأثرت المدينة بثورة اليهود، في سيرينيكا (١١٥م)، حيث هددتها المدينة الجديدة، التي بناها الامبراطور هدريان، (Hadrianopolis) على بعد ٤٠ كيلو مترا، شمالي برنيق، ولكن تلك المدينة لم تنل نجاحا كبيراً، لعدم وجود ميناء لها، فعادت لبرنيق أهميتها مرة أخرى، وقد أعاد الامبراطور جستنيان تحصينها في القرن السادس، طبقا لرواية المؤرخ البيزنطى بروكوبيوس(Procopius) .

ويبدو أنها انحدرت بعد الفتح العربي، فقد أسهب المؤرخ أبو عبيد البكرى في وصف المرج (برقة) كما تحدث عن مدينة اجدابية (جنوب بنغازى)، مما يقوى من الاحتمال باختفاء برنيسى في زمانه (١٠٩٤م). وما يؤكد ذلك ما ورد في كتابات الادريسى (سنة ١١٥٦م) من أنعدم الحياة فيها، بقوله: «وتبعد سلوق عن قافيز مسيرة يوم، وقافيز قصر شيد على خوائب برنيق». كما يتحدث عن غابة، وعن بحيرة عذبة تفصلها عن البر كثبان رملية . والراجح ان هجرة

قبيلة بنى هلال العربية الى المنطقة (١٠٥١م) قد أتت على ما بها من عمران، بعدما هجرتها البقية الباقية من الروم، الذين ظلوا بها حتى تلك الفترة على ما يبدو.

وقد ظل موقع برنيس مهجروا منذ القرن ١١م، الى أن أعادها للحياة مهاجرون من طرابلس الغرب، جاؤها للتجارة (١٤٦م).

أما المدينة الحديثة، التى أقيمت فوق انقاض برنيس، فقد تسمت باسم أحد المرابطين، ويدعى «سيدى غازى» (نحو ١٤٧٩م)، فدعيت «مرسى ابن غازى» ثم اختصرت فيها بعد الى «بنغازى». وقد ورد هذا الاسم فى حوليات المؤرخ ابن الفرات.

رابعاً: مدينة توشيرا (طوكرة): TOCRA

كانت عضوا فى اتحاد البنتابوليس، فى القرن ٣ ق. م، ونستدل من أقوال الشاعر بندار (الاغريقى) أن مهاجرين من سيرين هم الذين قاموا بتأسيسها، وقيل أنهم جاءوا اليها من برقة.

وتقع على خليج سدرة (سيرت الكبير) بين مدينتى طولميته وبنغازى، فى أقصى غرب سيرينبكا، حيث تقترب حافة الجبل الاخضر من ساحل البحر المتوسط، وقد تكون سهلها الساحلى من منطقة نحتتها أمواج البحر، فظهرت الصخور الجرداء على سطح الارض، خالية من التربة. ويرتفع الساحل نحو مترين عن سطح البحر، ويمتد الى سفح الجبل نحو ستة كيلو مترات، وبه كثبان رملية، وبرك ملحية تسمى محليا (السبخات)، وتسقط عليها كمية كافية من الامطار سنويا.

وقد قرأنا اسم المدينة بعدة أشكال، منها توكرا Tocra (حاليا طوكرة)، أو «توخيرا» أو توشيرا، والاخير هو الذى يفضله القدماء (٥٠) ويذكر المؤرخ البيزنطى اسطفانوس أن هذا الاسم قد أشتق من اسم أو تاندروس.

هذا وقد تسمت المدينة أيضا باسم «أرسينوى» (Arsinoe) نسبة الى زوجة بطليموس الثانى فيلادلفوس، كما عرفت ـ لفترة قصيرة من العصر البطلمى ـ باسم «كليوباتريس» (Cleopatris)، نسبة لابنة كيلوبترا من مارك انطونيو.

وقد شوهد عدة قبور مسيحية، وأخرى عبرية. منقورة فى الصخر. وفى طوكرة. ويرى

الاثريون أنه نظرا لندرة آثار الرخام بها، ما يوحى بأن مجتمع طوكرة كان مجتمعا فقيراً، يعيش عيشة بسيطة، أذا ما قورن بمجتمع مدن البنتابوليس الاخرى.

ومن الواضح أن طوكرة كانت مدينة حربية، ذات أهمية استراتيجية بالغة، كمركز حماية، من البحر، للممر الذى يتجه منها الى الشرق . ولهذا اقيم حولها سور منيع، شبه مربع، يمتد ٦٠٠ متر، من كل جانب، وعرضه متران، وكان يقويه ثلاثون برجا ، وله ثلاثة أبواب رئيسية. وكان أول تشييد له فى العصرن الاغريقى، وأعيد اصلاحه عدة مرات، كان آخرها فى عصر جستنيان، فى القرن السادس،ولا تزال بقاياه للآن.

ومما يؤكد طابعها الحربى المحض أنه لم يعثرم بها على أى أثر يدل على أنه كان لها ميناء تجارى، وقد أقام بها البطالمة قلعة حصينة، كما بنى الاتراك هناك قلعة أخرى، للاستفادة من موقعها الحربى الممتاز، على خليج سيرت.

ولطوكرة تاريخ حربى قديم وطويل، فقد تصدت لهجمات القائد الفارسى آرياند، ٥١٠ ق.م،كما دافعت عن سيرينيكا (٣٢٢ ق.م) عندما هاجمها القائد تيبروس. وقد تعرضت المدينة إلى التخريب على يد اليهود، ومن سكانها سنة ١١٥م، ولما لم يمكن اعادتها الى حالتها الاولى، فقد قرر الامبراطور هدريان انشاء مدينة بديلة ـ بجوارها ـ تحمل اسمه. طبقا لرواية المؤرخ الرومانى أورسيوس.

ولكن الحياة دبت فيها من جديد، بعدما أجرى فيها جستنيان اصلاحاته.وقد أصبحت طوكرة مقرا للقائد العام للجيش البيزنطى، فى بنتابوليس. ولذلك كانت آخر المعاقل التى قاومت الجيش العربى (٦٤٣م) وفر منها القواد والجنود البيزانطيون الى أوربا، وعاشت على هامش المنطقة، بعدما اتجه الحكام العرب الى الداخل.

ويذكر الادريسى أن البربر سكنوا اطلالها فى أيامه (١١٥٦م)، وظلت المدينة مهجورة تماما حتى القرن الماضى، حينما زارها الاخوان بيتشى (١٨٢٨م) وشاهدا بعض العرب الرحل يسكنون مقابرها أثناء موسم رعى الاغنام، خلال فصل الصيف . وظلت المدينة على ركودها حتى الوقت الحاضر، حيث لا نشاهد بها أى سكان مستقرين، وان كانت هناك محاولات لتعمير المنطقة، خارج الاسوار، باستصلاح الارض، وتوطين البدو فى مساكن حديثة.

خامسا: مدينة أبولونيا (مرسى سوسة):

تقع على ساحل البحر المتوسط فى مساحة ضيقة. فى نهاية سهل خصيب، أسفل حافة السلسلة الجبلية. التى تبعد كيلو مترين ونصف فقط عن الساحل، الى الشمال من مدينة سيرين تماما. ويبلغ طول المدينة القديمة ٣٠٠٠ قدم، وأقصى عرض لها٥٠٠ قدم فقط، وكان ولا يزال يحيط بها سور متين.

ونميل الى رأى الاستاذ البرغوتي، الذى ينادى بأن المدينة قد نشأت بعد تأسيس سيرين بقليل، لتكون ميناء لها، ومنفذا بحريا لتجارتها. ولكن الاستاذ جونز يرجع تاريخ نشأتها الى عهد بطليموس الثالث ٢٥٠ ق.م)، على أساس أنها مرتبطة بانشاء اتحاد البنتابوليس(*).

اما الاستاذ مصطفى بعيو فقد قال: «ان ذكر أبولونيا قد ورد ـ لاول مرة ـ فى كتابات ديودور الصقلى، ولم تكن حتى ذلك الوقت قد أصبحت مستقلة بذاتها (عن سيرين)، وانها كانت جزءا لا يتجزأ منها سياسياً». ويضيف: «انه ذكرها ـ كمدينة قائمة بذاتها، أى مستقلة فى ادارة شئونها.

ومعنى ذلك أنه يرى أنها لم تكن ضمن اتحاد المدن الخمس (بنتابوليس)، الذى وضع أساسه المشرعان اكديموس وديموفانس (نحو ٢٥٠ ق. م)، وهو رأى لا يمكن قبوله، لانه يتناقض مع آراء القدماء والمحدثين.

وعلى أية حال، فقد ظلت أبولونيا مخرج سيرين الهام لنحو الف عام، كانت تتصل بها عن طريق جبلى، منحوت فى الصخر الصلد ٢٠ كيلومتر، وهو حاليا يأخذ نفس اتجاه الطريق القديم، وأعيد صلاحه عدة مرات.

وقد تسمت المدينة باسم «أبوللو» ، كبير الآلهة الحامي للاغريق. الذى تقول الاسطورة أنه جاء بالمهاجرين الاغريق الى ليبيا الشرقية. ثم أطلق على المدينة اسم «سوزوسا» Sozusa، فى

(*) وقد كان بالعالم الهلينى ٣٠ مدينة باسم أبولونيا، منها واحدة ذكرت فى أعمال الرسل (١٧:١)، والراجح أن المدينة الليبية قد نشأت بعد زيارة هيرودت، حيث لم يشر اليها. أما جونز فقد اعتبر تاريخ انشائها هو تاريخ ضمها للاتحاد، وربما كانت موجودة قبل ذلك بقرنين على الاقل، وقد عثر عن نقش فى أثينا يرجع لنهاية العصر البطلمى)، يفيد بأنها كانت تنسب الى سيرين.

العصر المسيحى، ربما فى عهد المطران الليبى سينيسيوس (٤١٠م) ، حيث انها قد اشتهرت به في عهده . ويعنى هذا الاسم «مدينة المنقذ» أو المخلص، حسب تفسير الاستاذ البرغوتى، ولعله ينسب الى السيد المسيح، وليس الى ربة وثنية، كما يزعم البعض ولا يزال هو اسمها الحالى «مرسى سوسة».

ومن الجدير بالذكر أنه مع بداية القرن الرابع الميلادى بدأت أهمية سيرين تتضاءل، بينما استمرت «سوسة» فى النمو، على حسابها، حتى بلغت ذورة مجدها خلال القرن السادس. ثم أصبحت عاصمة سيرنيكيا، فى القرنين السادس والسابع، بسبب تعرض سيرين لهجمات البربر كما سنرى فيما بعد.

ومن الجدير بالذكر أن هناك مدينة أخرى فى تونس تسمى «سوسة» أيضا، يجب عدم الخلط بينهما، كما يحدث لدى البعض.

وكان البحر قد ابتلع نحو ثلث مساحة المدينة القديمة ، بعد زلزال عنيف هز سواحل البحر المتوسط فى العصور الوسطى. ومن الصعب الآن تحديد الميناء الاغريقى وأرصفته . وان كان من المرجح أنه يقع فى منطقة الى الشرق من النتوء الصخرى، الذى يشاهد حالياً متعمقا فى البحر. وفى المنطقة التى لم تغمرها المياه، نشاهد آثار قلعة بيزنطية الى الجنوب، كانت مقرا للحاكم البيزنطى فى القرن السادس، وبالمدينة أيضا عدة كنائس.

وقد تخربت المدينة أثناء الفتح العربى، طبقا لحفريات الاثرى الاستاذ بيركنز - Ward Perkins ، وظلت خالية من السكان تقريبا، الى أن شيد الاتراك مدينة «سوسة» الحديثة (١٨٩٧م) كمستعمرة للمسلمين، المهاجرين الى ليبيا من جزيرة كريت. ولهذا نجد أن هناك مسحة غير افريقية بين سكانها الآن.

وقد أعيد بناء المدينة الحديثة على نطاق واسع ، أثناء الاحتلال الايطالى، ١٩١١م، فغدت ميناء للسفن الساحلية، ومركزا اداريا. الا أن أحوالها الآن تختلف عما قدر لها، فهى لا تؤدى أيا من هذين الغرضين وأصبحت تخلد الى السكون. وربما يرجع ذلك لبعدها عن العاصمة الاقليمية بنغازى (بنحو ٣٠٠ كيلو متر)، على طريق غير مسلوكة، ويقيم السكان الحاليون كلهم خارج أسوار المدينة القديمة.

سادساً: مدينة بتوليمايس (طولمية): Ptolemais

سبق أن أوضحنا أنها قد حلت محل مدينة برقة(*) فى اتحاد البنتابوليس نحو (١٦٣ ق. م) وقد أجمعت الدراسات الاثرية على قدم مينائها .ويقول الاثرى جودتشايلد: «لقد نمت بتوليمايس فى العصر اليونانى الى مركز تجارى مستقل ذاتيا»، وربما يرجع ذلك الى صلاحية مينائها لرسو االسفن قديما.

وقد اختير موقعها بعناية، فى منطقة تنحصر بين البحر المتوسط واحد الاودية الضيقة، وتشـــاهد على جانبيه آثار تحصينات لحمايتها، كما أحيطت المدينة بأسوار توازى الجبل من الخلف، وعلى امتداد الوادى حتى البحر.

ويرى الاثرى الامـريكى كـريلينج (Kraeling) ان طبيعتها الجغرافية هى التى جذبت الاغريق اليها(من منطقة برقة)، حيث ساعد موقعها على تحسين مناخها. فقد كفل الجبل حماية كافية لها من الحرارة والرياح التى تهب من جوف الصحراء، مع تسهيل سقوط امطار كافية، ساعدت على نمو الاعشاب للرعى، وخلقت تربة رسوبية صالحة للزراعة . وقد أشار الشاعر اليونانى «بندار» الى غناها الاقتصادى قديما . وعلى أساس هذه المعلومات، أوحى كهنة معبد «دلفى» الاغريقى (Delphic Oracle) الى أبناء وطنهم بضرورة الهجرة الى تلك المنطقة واستيطانها، ولا نستبعد انه قد وفدت اليها أعداد من مستوطنى برقة، للسكنى بها.

وتقع المدينة الحديثة على بعد ٢٩ كيلو مترا من طوكر، ونحو ٢,٥ كيلو متر من الشاطئ، ويبدو أنها قد شيدت فوق الميناء القديم لمدينة برقة، طبقاً لرواية بطليموس الجغرافى. والراجح ان اهتمام البطالمة بها وانشاء ميناء بطلمى كبير بها كان مرجعه امتداد الارض على شكل لسان طبيعى، داخل مياه البحر المتوسط، مما أعطاها حماية طبيعية من الامواج، وبالاضافة الى موقعها البحرى، شمال برقة مباشرة، وهى المنطقة التى أشرنا من قبل الى أنها قد اشتهرت بوفرة انتاجها الزراعى، فاعتبرت بموقعها هذا المخرج الوحيد لتجارتها. وقد نما اسطولها البحرى حتى نافس اسطول قرطاجنة فى البحر المتوسط.

(*) تسمى حاليا «طولميته». وقد كان فى فلسطين مدينة أخرى باسمها، فى موقع عكا (أع ٢١ : ٧.

Crt. Rawlinson, in Herodot. Hist. III, p. 138. not2.

و قد أشار الاخوان «بيتشى» أن موقعها الجغرافى الممتاز لا يفضله أى موقع آخر على طول الساحل الليبى الطويل، سوى مدينة «لبدة» (قرب طرابلس) . وقد أفادنا أن طلميتة تمتد من الشمال الى الجنوب. مسافة كيلو متر ونصف طولا . وعرضها ـ من الشرق الى الغرب ـ نحو كيلو متر واحد فقط وهى على شكل مثلث ترتكز قاعدته تحت سفح التل، وبين واديا «زوانا وكمبيش» . وقد عنى البطالمة بتخطيط شوارعها، على شكل شبكة متعامدة الطرق لا تزال تشاهد بقاياها الى الان.

هذا وقت نجت المدينة من ثورة اليهود المدمرة عام ١١٥م. ثم نمت بعد ذلك حتى أصبحت عاصمة سيرينيكاً الرومانية والبيزنطية أيضا. اعتبارا من القرن الرابع الميلادى وأصبحت كذلك مقر لمطران بنتابوليس، بعدما تفوقت على سيرين العجوز. التى تعرضت لزلزال مدمر سنة ٢٦٥م، دمر أجزاء كبيرة منها، وحطم معابدها. ثم أكمل البربر على ما تبقى منها من عمران، فى فترات متلاحقة.

ويصف المؤرخ البيزنطى «بروكوبيوس» مدينة بتوليمايس، «التى زارها فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ، فيقول: «أنها مدينة جميلة فعلا». ثم يضيف بقوله : «أنها كانت مزدحمة بالسكان» !! وهو وأن كان وصفا مبالغا فيه، الا أننا نرجح أنه كان يعنى أنها أكثر سكانا من بقية المدن الخمس الاخرى ، خاصة وأن معاصره الامبراطور جستينان قد اهتم بتعميرها، وأنشأ بها مستودعات كبيرة للمياه العذبة ، وبنى لها قنوات عليا لنقلها ، الا أنه يبدو أن هذه المستودعات قد تهدمت بفعل غارات البربر، التى أدت أيضا إلى تدمير أجزاء كبيرة من المدينة، وهو ما يصفه المطران سيئسيوس بمرارة، فيما تركه من رسائل، وكتابات أخرى فهجرها سكانها بسبب الخطر، ولعدم توفر مياه الشرب.

كما تأثرت المدينة بشدة، عند الفتح العربى لبنتابوليس، حيث سكن السادة الجدد العاصمة الجديدة برقة المرج وهى تقع الى الداخل، خوفا من هجمات الروم من البحر وكانت هذه السياسة أيضا سببا فى اقفرار المدن الساحلية الليبية بصفة عامة. وكانت الطامة الكبرى، بعد غزوة قبائل بنى هلال، فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى التى قضت على كل نواحى العمران فى المنطقة.

وبذلك أهملت طولميته، وتركت خرابا ، فى العصورن التالية، ولم تعد سوى محجر، للقرية الحديثة التى اقيمت الى جوارها فى أوائل القرن الحالى.

وبعد ..فانه باستعراض جغرافية مدن البنتابوليس، ونموها من الناحية الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية . نجد تفوق بعضها على البعض الآخر بمرور الزمن. كما نلاحظ أن العاصمة قد انتقلت من سيرين الهلينية. الى بتوليمايس الرومانية (سنة ٢٩٧م ، على يد الامبراطور دقلديانوس . وفى القرن السادس نقلت العاصمة الى أبولونيا البيزنطية (سوسة)وبعد الفتح العربى أصبحت مدينة «المرج» (برقة القديمة) هى قصبة انطابلس العربية (ولاية برقة). أما فى أثناء الحكم الفاطمى لشمال افريقية ومصر، فقد تزحزت العاصمة الى الجنوب ، حيث أصبحت مدينة «أجدابية» عاصمة لبرقة الفاطمية، لانها أصبحت تقع مباشرة على طريق القوافل الصحراوية الرئيسية، التى كانت تمتد بين مصر والمغرب العربى. ولا شك أنه كان لهذا كله أثره الواضح على أحداث بنتابوليس. وقد تركت بصماتها على ا لمسيحية، التى نشأت ونمت وضعفت ثم اختفت من هناك.

بنتابوليس فى العصر الرومانى

مقدمة :

ظلت المدن الخمس تحت حكم بطليموس الحادى عشر ـ فى مصر ـ الى أن تولى ادارتها بعدة ابنه بطليموس «أبيون» (Apion) ولكنه لم يترك ولدا يرثة بل ترك «وصية» يتنازل فيها عن بنتابوليس لروما بعد وفاته. وهو ماتم سنة ٩٦ ق. م، وأصبحت المنطقة ضمن املاك الامبراطورية الرومانية منذ ذلك الوقت.

الا أن مجلس الشيوخ الرومانى Senato لم يشا أن يحد من حرية هذه المدن، فاعتبرها حليفة لروما، وأطلق لها حرية تصريف شئونها بنفسها فعانت من الفوضى والاضطراب السياسى والاقتصادى، وأصبحت نهبا لاعمال الطغاة، ومجالا خصبا للانشقاقات بين الاحزاب الارستقراطية والشعبية. وأدت الهجمات البدوية المتكررة الى المزيد من الفوضى.

فتدخل الرومان، على يد قائدهم لوكللوس (Lucuilus) وبسطوا نفوذهم الكامل على

بنتابوليس، وأقيمت «ولاية سيرينيكا» الرومانية نحو عام ٧٥ق.م، نسبة الى عاصمتها سيرين. وظل هذا الاسم هوالوحيد الشائع في المصادر الاوروبية الى الآن (Cyrenaica)

ثم ضمت سيرينيكا الى جزيرة كريت، في وحدة ادارية واحدة Creta - Cyrenea (٦٧ق.م) ، وخضعتا معا لاشراف السناتو الروماني، واختير لهما حاكم عام (Proconsul) بسبب قربهما من بعضهما.

واستقلت سيرينيكا لمدة قصيرة ، حينما منحها انطونيو لابنته من كليو بترا ٣٦ ق. م) ، ثم اندمجت مع جزيرة كربت ـ ولاية واحدة ـ مرةن اخرى ، وظلت هكذا حتى موت أغسطس قيصر (١٤م). ثم انفصلت عنها وظلت ولاية رومانية مستقلة،حتى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م).

ومن الناحية الاقتصادية:

فقد قام الرومان بانشاء خزانات لحفظ مياه الشرب، وتوسيع الرقعة الزراعية. وكان تغاضى الرومان عن ادارة سيرينيكا مباشرة، بعد تسلمها من البطالمة، قد أغرى بعض أغنيائها بالاستيلاء على مساحات من الاراضى الزراعية التى كانت ملكا للبطالمة.

ولهذا أرسل كل من الامبراطور «كلوديوس، وفسبسيان» مندوبا حكوميا من قبلهما، لتخطيط ومسح الاراضى الزراعية والتأكد من وثائق ملكيتها.وبذلك أمكن استعادة المساحات المغتصبة من أراضى الحكومة البطلمية، فى منطقتى سيرين وطلميتة.

وقد قل نبات السيلفيوم ـ كغلة اقتصادية ـ فأصبح الخشب يصدر بدلا منه، كما راجت تجارة الحيوانات البرية، التى تحتاجها مسارح روما. كما زادت صادرات الحبوب الى ايطاليا ، مما يدل على زيادة الرقعة الزراعية فى تلك المرحلة . هذا فى الوقت الذى عمل فيه الرومان بنشاط، للقضاء على عمليات «القرصنة» فى جنوب البحر المتوسط، مما ادى الى حماية اسطول سيرينيكا التجارى، ورواج تجارتها مع العالم الخارجي.

وقصارى القول فان سيرينيكا قد تمتعت برخاء نسبى ، فى القرن الاول الميلادى، متبوعا بالامن والســلام (Pax - Romana) بعد تأديب القبائل البربرية . وقد نتج عن ذلك نهضة

عمرانية كبيرة، فشيدت المباني والمعابد والحمامات والاسواق العامة، كما نعمت المسيحية بفرصه نادرة، ازدهرت فيها هناك، في تلك الفترة، الا أن الثورة اليهودية، التي اجتاحت المنطقة (١١٥ ـ ١١٧م) قد قضت لحد كبير على تلك النهضة العمرانية، فلم تستطع معظم مدن بنتابوليس أن تنهض من كبوتها. رغم محاولات هدريان تعمير ما تهدم من منها.

أما بالنسبة للنواحي الاجتماعية والثقافية:

فقد افادنا المؤرخون أن سكان المدن الخمس في العصر الروماني الاول، كانوا في مجوعهم من أسر تنحدر من سلالة المستوطنين الاغريقي الاوائل ، كما وفدت الى المنطقة أعداد من الرومان، أرسلهم هدريان ـ من الجنود المسرحيين ـ لتعميرها ، بعد الثورة اليهودية.

وبذلك رجحت كفة الرمان، ولم يعد الاغريق يشعرون حينذاك بأنهم على قدم المساواة مع السادة الرومان. ولهذا كثرت المشاحنات بين الفريقين.

أما من الناحية الثقافية، فقد ظلت اللغة اليونانية لها السيادة، وظلت كذلك حتى دخول العرب الى برقة (٦٤٣م) ،بينما أقتصرت اللاتينية على الوثائق الرسمية.

ومن ناحية أخرى، فانه نظراً لاحتفاظ سكان المدن الخمس ـ الاغريق ـ بلغتهم وثقافتهم، فقد ظلت هوة الخلاف بينهم وبين المواطنين الليبيين كبيرة وأصبحت هناك طبقة مميزة من الاغريق والرومان. وقد غذاها النظام الطبقي الروماني، الا أنه قد حدث اختلاط محدود، بين المستوطنين والسكان الاصليين.

سيرينيكا في العهد البيزنطي (٣٢٣.٦٤٣م):

رغم قلة المعلومات المتوفرة عن سيرينيكا في العهد الروماني المتأخر. الا أنه عرف عن الامبراطور دقلديانوس أنه وضع لها تنظيمات ادارية جديدة، على أساس أن تنقسم منطقة ليبيا الشرقية الى دوقية، مكونة من أيبارشيتين (منطقتين اداريتين تشمل الاولى منطقة بنتابوليس، وعاصمتها بتوليمايس، وقد سماها «ليبيا العليا» (Pentapolis Libyae (Superiore والاخرى سماها «ليبيا السفلى» (Libyae Interiore) وتشمل المنطقة الصحراوية (مارماريكا القديمة) الممتدة بين مدينتي درنة والاسكندرية. وجعل عاصمتها «باريتونيوم» مرسى مطروح الحالية. ثم

اصبحت درنة عاصمة مارمايكا. وقد تبعت المنطقتان الحاكم البيزنطى العام فى مصر (التى تسمت باسم الولاية الشرقية). وكانت سيرينيكا هى آخر حدودها، فى تلك المرحلة. وأصبحت هناك مطرانيتان، احداهما فى بتوليمايس، والاخرى فى درنة.

ولا شك ان نقل العاصمة الى بتوليمايس، كان بهدف توفير مكان أكثر حماية من غارات البربر، وبسبب الخراب الشديد الذى تعرضت له على يد اليهود سنة ١١٥م، يضاف الى ذلك آثار الزلزال الكبير، الذى حدث سنة **٣٦٥**م. مما دفع المؤرخ البيزنطى «أميانوس» أن يصفها، نحو سنة **٣٧٥**م بقوله «أنها مدينة قديمة ومهجورة»، ويفهم من ذلك أن عدد سكان سيرين قد تضاءل بدرجة كبيرة، وان كنا نرجح أنها لم تفقد اهميتها تماما. حيث يضع هذا المؤرخ «بتوليمايس» بعدها فى الترتيب.

إلا أن الجغرافى «ريز» Riese يضع بتوليمايس فى مقدمة مدن سيرينيكا فى تلك الفترة، لنمو سكانها، بعد انتقال الادارة المدينة اليها بمؤسساتها الادارية، وقوات الامن والحكومة المركزية.

ومن ناحية أخرى فقد عمل الامبراطور قسطنطين الكبير (**٣٢٣ ـ ٣٣٧**م) على الحاق سيرينيكا بالعاصمة البيزنطية مباشرة (القسطنطينية). الا أنها عادت من جديد، تحت الاشراف المباشر للحاكم البيزنطى العام فى مصر، فى عهد الامبراطور جستنيان (**٥٢٧ ـ ٥٦٥**م). وكان هذا الامبراطور قد استرد كل الشمال الافريقى من الوندال، وعمل على اصلاح سيرينيكا، مع اهتمام خاص بالنواحى العمرانية والدينية والامن، تطبيقا لمبدأ احياء الامبراطورية، التى أصابها الضعف. نتيجة لهذه السياسة تمتعت سيرينيكا بهدوء نسبى فى أيامه، وأتسعت رقعة المسيحية فى زمانه.

وقد انتقلت ادارة سيرينيكا ـ مرة أخرى ـ من بتوليمايس الى «سوسة»، وقد أثبتت الآثار المتبقية بها وجود «قصر» للحاكم البيزنطى العام فى سيرينيكا، كما يستنتج ذلك أيضا من ترتيب المدن الخمس فى الموجز التاريخى للمؤرخ هرقل البيزنطى. ولعل ذلك مرجعه البحث عن مكان أكثر حماية من غارات البربر، يضاف الى ذلك عدم وجود الماء العذب الكافى فى طولميته، وقد تم اخلاؤها تقريبا من سكانها، نتيجة لانهيار خزانات المياه بها. ويحتمل أن

يكون سكانها قد توجهوا الى منطقة برقة الزراعية، حيث يذكر جود تشايلد أنهم ذهبوا الى الريف، وأنهم لم يكونوا ـ فى مجموعهم ـ أكثر مما كانوا فى عهد البطالمة.

أما بالنسبة لمدينة «برنيس»، فقد وجد جستنيان أنه من الضرورى اعادة بناء أسوارها، ولكننا لا نسمع عنها شيئا، لمدة ثمانية قرون متواصلة الا «كاسم مكان يدعى برنيق» فى كتب المؤرخين العرب.

ويشير جودتشايلد: «الى أنها بقيت نحو قرن آخر (بعد الفتح العربى) عن طريق مجموعة من الاقباط، الذين عاشوا تحت سلطان العرب» وربما كانوا من الحرفيين والتجار.

ولعل من المهم ان نذكر بالتفصيل «الامن فى المنطقة فى العصر البيزنطى المتأخر». فقد عانت سيرينيكا من هجمات القبائل البربرية باستمرار، وبدأت فى العصر الرومانى الاول تزداد حدة،حتى بلغت ذروتها فى العصر البيزنطى.

ويقول الدكتور محمد أيوب «أنه لولا ظهور الرومان على مسرح الاحداث لجرفت القبائل الليبية أمامها المدن الخمس الاغريقية». اذا داوم الرومان على ارسال الحملات الحربية لتأديبهم منذ عام ١٢ ق. م. طبقا لوثائق تلك الفترة. كما تم الاتفاق مع الحاكم الرومانى العام للشمال الافريقى، للمساعدة فى القضاء على أى تمرد من جانب البربر.

أما فى القرن الثالث الميلادى وما بعده، فليس هناك اشارات صريحة لحروب ضد البدو، ولكن أنشاء القلاع الحربية للحماية، فى المناطق الصحراوية فى جنوب سيرينيكا، يعد دليلا قويا على وجود المتاعب من البربر باستمرار، خصوصا فى أيام البيزنطيين، وحتى الفتح العربى (٢٦٤ ـ ٦٤٣م)، حيث زادت هجمات البربر بشدة، وكانت تصل الى أديرة وادى النطرون. وقد أكسبها العنف والقسوة استخدام الجمل، الذى زاد سرعة زحفهم، وسرعة انسحابهم الى قلب الصحراء

ومن كتابات المطران الليبى سينسيوس أوأخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس) نعرف مقدار ما عاناته بنتابوليس من خراب وقتل للأنفس فى زمانه، بسبب وقوعها تحت رحمة البربر، الذين لم يجدوا من يقاومهم من الجنود البيزنطيين، فاضطر أن يقود القتال بنفسه مع المتطوعين من مسيحى المدن الخمس، الذين حولوا منازلهم الى شبه قلاع صغيرة.

وقد قال المطران ـ ذات مرة ـ أن البربر حملوا الاسلاب والاسرى المسيحيين على ٥٠٠٠ جمل. وأن كان هذا الرقم مبالغا فيه على ما يبدو، ولكنه يدل ـ على أية حال ـ على مدى شدة الهجوم، الذى تعرضت له طولميته، ويوضح مدى صعوبة الحياة فى بنتابوليس فى تلك الفترة، خاصة اذا عرفنا أن القبائل الليبية المهاجمة قد تمركزت فوق هضبة سيرينيكا نفسها، وحول خليج سيرت، مما شكل تهديداً مستمراً للمنطقة. ويذكر جودتشابلد أن الغزاة قد استفادوا من طبيعة وادى «الكوف» Kuf فى الجبل الاخضر، ليشنوا منه هجماتهم المباشرة على سيرينيكا.

ومن الملاحظ أن الحكام البيزنطيين كانوا ـ فى بداية عهدهم ـ يشترون سكوت البربر بمنح الذهب الى رؤساء قبائلهم. الا أنهم انصرفوا عنهم فيما بعد، لعجزهم عن دفع تلك الاتاوات الكبيرة لهم، لقلة الموارد المالية، بسبب تدهور الاحوال الاقتصادية، فى سيرينيكا، لاسباب طبيعية وادارية ومالية مضطربة.

فقد حدث تغير ملحوظ فى حالة المناخ، فى شمال افريقية، كان من نتيجتة ازدياد الجفاف، وقلت بذلك الموارد المائية الجوفية، وتحركت الكثبان الرملية، التى غطت الدروب والطرق القديمة، فقل الانتاج الزراعى. وفى نفس الوقت أصبح من العسير على العربات التى تجرها الخيل أن تستمر فى سيرها فى قلب الصحراء لردع البربر هناك، كما كانت الحال فى العصر الرومانى الاول، مما أعطى للبربر حماية طبيعية من هجمات البيزنطيين.

نضيف الى ذلك الضرائب الباهظة التى فرضها الاباطرة البيزنطيون على الافراد والاراضى، والتى كانت تتناقص باستمرا، بسبب قلة السكان، وانخفاض الانتاج، وفساد الجباة، الذين كانوا يدفعون مبالغا كبيرة ـ مقدماً ـ لخزانة الدولة، ثم يقومون بطرقهم الخاصة بسلب الاهالى أثناء تحصيلها. ويقول المؤرخ البيزنطى بوركوبيوس: «ان جستنيان قد جمع المال من هؤلاء المساومين، واعطاهم سلطة على رعاياه..».

ورغم استحداث وظيفة «حامى المدينة» (أو المحامى المدنى) منذ ٣٦٤م ، بقصد حماية دافعى الضرائب، وأنصاف أصحاب الشكوى منهم، الا أنه عجز تماما عن حماية السكان من استبداد الجباة والموظفين.

ونسجل هنا ما كان يحدث من صراع بين كبار الموظفين البيزنطيين المدنيين والعسكريين، وبين رجال الدين المسيحى، الذى كانوا يدافعون بكل قوة عن المظلومين فى سيرينيكا. والمثال الصارخ لذلك الحاكم «أندرونيكوس» Andronicus الذى كان عدوا للمطران سينسيوس. وقد دخل معه فى صراع بسبب ظلمه الشديد لشعب طولميته . وكان هذا الوالى قد علق منشورات على أبواب الكنائس ينكر فيها أن تعتبر دور العبادة ملاذا للمظلومين (Asylum) ، كما كانت العادة السائدة فى اجزاء من الدولة البيزنطية. مما دعا المطران الى الوقوف فى وجهه، ثم وقع عليه الحرم الدينى، بعدما تمادى فى طغيانه، ولم يستجب لنصائحه.

أضف الى ذلك فوضى الجند وعدم نزاهتهم، على اختلاف درجاتهم، واستخدامهم العنف، وسلب المال من الشعب، وقد أشار سينسيوس الى فساد الادارة الحكومية، وقال ان العاملين تنقصهم الكفاءة الادارية وقد مالوا الى الرشوة.

وقد المح المطران فى رسائله أيضا الى كثرة الفقراء فى زمانه، فى الوقت الذى ظهرت فيه طبقة غنية من التجار، بسبب استغلال السوق السوداء، وهو أمر متوقع، فى مثل تلك الظروف التى قل فيها الانتاج عن حاجة الاستهلاك، بعدما قضى البدو على الزراعة بحملاتهم وأسلابهم الكثيرة.

وقد أكد المطران أيضا على فساد القضاء البيزنطى، فى سيرينيكا، حتى أصبح جزء كبير من الشعب يتعرضون لاذى عديمى النزاهة، دون أن ينصفهم القضاء، «كما عاش الاشرار يقتاتون على طعام النصف الباقى من السكان»، ولم يفعل هؤلاء لهم شيئاً، اذ كانت المحاكم تغلق أبوابها هى الاخرى، أثناء الغارات البربرية، كما نقرأ أيضا ـ فى كتابات سينسييوس ـ عن الاحكام الجائرة ، التى كان القضاء يصدرها، ومنها النفى، أو الاعدام أحيانا.

ومما زاد من اضطراب الامن فى المدن الخمس، هجوم الفرس على المنطقة، فى عام ٦١٦م، حيث قضوا ـ هم أيضا ـ على كل ما تبقى بها من عمران. ولما تمكن هرقل من الزحف من شمال أفريقية الى مصر، وطرد الفرس، وجلس على كرسى بيزنطة، كثرت الشكوى أيضا من حكمه، طبقاً لروايات المؤرخ البيزنطى ثيؤفانيس، والاسقف القبطى يوحنا النقيوسى، وذلك لان سكان بنتابوليس قد كرهوا، الحكم البيزنطى بعد خروج الفرس، وكان هؤلاء قد تركوا أمر

الحكم ـ عشرة اعوام ـ على نحو من اللامركزية، وأعفوهم من بعض الاعباء التي كانت ترهقهم.

كما أن هرقل لم ينفذ وعده لهم ـ قبل طرد الفرس ـ بتخفيض الضرائب، بل ازاداد الولاة البيزنطيون فى ظلمهم للاهالى. فقد لجاوا لجمع الغلات والمصنوعات، لارسالها الى القسطنطينية، فى مقابل الضرائب الباهظة المقررة . وعلى ذلك كانت بنتابوليس ومصر، ومن أشقى الولايات البيزنطية، كما عبر بتلر بصدق.

والخلاصة، فقد أستهل القرن السابع وبنتابوليس، فى حالة يرثى لها، بعدما وصلت الامبراطورية البيزنطية نفسها الى أحلك أيامها، وأشد أزماتها حدة . فقد أعلنت أفلاسها ماديا وحربيا، وجثم على صدرها شبح الفرس والعرب. أضف الى ذلك الخلافات الدينية بين الدوله والكنيسة القبطية الارثوذكسية، كما كان الانحلال الاجتماعى دليلاً على ما كانت تعانيه الدولة من متاعب ، وخاصة القصر الامبراطورى، الذى كان مليئا بالدسائس والمؤمرات. هذا فى الوقت الذى كانت فيه افريقية البيزنطية يتصاعد منها الدخان بين السنة النيران»، على حد تعبير بروكوبيوس. وبعد سنوات قلائل دخلت مصر ـ وتابعتها سيرينيكا ـ فى حوزة العرب بسهولة متوقعة.



مراسيم اضطهاد الاباطرة الرومان للمصريين

مراسم الامبراطور ثيود وسيوس بعد اتباعه للمسيحية بإظهار قسوة أكبر تجاه المخالفين لديانته وخاصة المصريين.

«رتاج مرسومنا»:

إلى سيونيوس البينوس والى مدينة روما؛ صورة عن مرسوم يوم الرابع والعشرين من فبراير لعام ٣٩١.

«نرغب إليكم في أن لا يتدنس أحد بتقديم الأضحيات! وأن لا يقتل أحد حيواناً بريئاً، وأن لا يدخل أحد إلى حُرُمِ الوثنيين للإطلاع على المعابد والنظر إلى الرسوم المشكلة بيد الإنسان! وليعلم من يقدم على ارتكاب هذه الجرائم، أنه يعرض نفسه للعقاب الإلهى والبشرى. وليكن هذا القانون ملزماً للمسؤولين أيضاً: فإذا كان أى منهم من أتباع العبادات الوثنية، ودخل المعبد ـ أثناء السفر أو فى المدينة ذاتها ـ ليعبر عن ولائه، يتوجب عليه فوراً دفع خمسة عشر رطلاً من الذهب. وكذلك الأمر بالنسبة للدائرة، التى يترأسها، فإن هى لم تعبر عن معارضتها، وتصرح بذلك دون تأخير، وذلك بشكل علنى، وجب عليها أن تسدد إلى خزينة الدولة مبلغاً بالقيمة نفسها»(١).

يفرض المرسوم غرامات أقل نسبياً، ولكنها لا تزال باهظة، على كافة حكام المقاطعات، الأدنى مرتبة أيضاً، إذا اقترفوا عملاً يستوجب مثل هذا العقاب. كما تترتب تبعات مالية مشابهة على الموظفين، الذى لا يعيقون الحكام فى تكريم «العفاريت»، أو يتوانون فى الإعلام الفورى عن ارتكاب مثل هذه الجرائم الشنيعة. يمكننا أن نتصور الأجواء الكئيبة، التى خيمت على أجواء أهم المكاتب فى روما ذاتها وفى أوساط المقاطعات، منذ لحظة صدور المرسوم! كيف راقب الناس بعضهم فى كل خطوة، وكم حيك من المؤامرات، والإفتراءات، والشكاوى الزائفة!

أضحت الأوضاع أشد إزعاجاً، نظراً لوجود أُناس مقتنعين بعقائدهم، وممارستهم لها بجسارة. وقد صُنّفَ فى عدادهم أيضاً الرجل، الذى وُجهت إليه الرسالة، الوالى ألبينوس، كما

(١) الوثنية والمسيحية. الكسندر كرافتشول. ترجمة: كبرو لحدو دار الحصاد. بيروت ١٩٩٦.

أن كـلا القنصلين فى عـام ٣٩١ كـانا من المخـالفين المتـقـدى الحـمـاس، وهمـا: تاتيـانوس وسيـماخـوس. الأول منهـما، والى الشرق وهو والد بروكولوس، والى القسطنطينية، وأضـحى على قـاب قـوسين أو أدنى من كـارثة حياتيـة شـاملة. أما سيـماخـوس، أحـد ألطف وألمع ممثلى عصره، فإن شخصيته تتطلب تعريفاً أقرب بها.

اسمه الكامل هو: كوينتوس أوريليوس سيماخوس يوسيبوس، أرستقراطى، صاحب ممتلكات فى إيطاليا الوسطى والجنوبية، وفى صقلية، وإفريقيا. أكثر ما أحبه هو الإقامة فى روما ذاتها، حيث امتلك ثلاثة قـصـور؛ وبالرغم من ذلك، لم يكن سـوى سيناتور مـتوسـط الثـراء. تولى مناصب مشرفة ورفيعة كقسطور Quaestor، قاض، ومن ثم مارس عمله كحاكم فى لوكانيا وبروسيوم فى إيطاليا، وبعدها فى مقاطعات إفريقيا الشمالية، مُنِحَ لقب وزير من الدرجة الثالثة. ومنذ صيف عام ٣٨٤ حتى مطلع عام ٣٨٥، أى لمدة ستة أشهر فقط والياً على روما. كما كان يحـمل لقب «كـاهن أعلى» Pontifex Maiore لأن لقب «الكاهن الأعلى» Pontifex Maximus، كان من حق الأباطرة وحدهم؛ وقد حمل هذا اللقب جميع الأباطرة حتى عهد جـراتسيـان، الذى تنازل عن اللقب والمهـام المرتبطة به عـام ٣٧٥. ومنذ ذلك الحين، أضـحى حـامل لقب «كـاهن أعلى» Pontifex Maiore، على الصعيـدين الشكلى والعملى رئيسـاً لمجالس الكهنة القديمة، وكان لسيـماخوس من القناعة والشجاعة، ما يسمح له بالتعبير عن قناعاته والمطالبة بحقوق الآلهة أمام الحكام. كان سيماخوس رجلاً ذا معرفة واسعة، وثقافة رفيعة، حاول بصورة واعية تنمية هذه الثقافة، وهو من وجهات نظر عدة، شبيه بصديقه وابن سنه سيونيوس ألبينوس.

الشيء الجدير بالتأمل الجاد، هو موضوع اختيار قنصلين غير مسيحيين غيورين ومعروفين على نطاق واسع من خلال معتقداتهما، فى عام ٣٩١. لاريب فى أن ثيودوسيوس عينهما فى هذين المنصبين، فى الفترة، التى كانت علاقاته مع الأسقف أمبروزى فى أقصى درجات توترها، أى على الأرجح فى صيف ٣٩٠. ومن خلال هذه الخطوة، حذّر الإمبراطور من المغالاة فى استغلال حلمه، لأنه فى نهاية المطاف قادر على العثور على حلفاء ذوى نفوذ واسع فى المعسكر المخالف للكنيسة. أدت المفاوضات فيما بعد إلى الوفاق بطبيعة الحال، ومارس الإمبراطور التوبة، ولكن التعيينات الموعود بها، تعذر سحبها والتراجع عنها. ولذلك تم الحرص

من ناحية ثانية على خلق صعوبات ومضايقات لقنصلى عام ٣٩١. وربما هذا هو أحد أهداف مرسوم يوم الرابع والعشرين من شباط. فالوثيقة، التى تَعَرَّضَ مضمونها بعنف لما أحبه وعبده علناً كل من تاتيانوس وسيماخوس، حملت اسميهما فى التأريخ. فكانا مرغمين إما على تقبل الأوامر الصارمة والارتداد عن عقيدتهما، أو تحمل مضايقات كريهة من جانب أى موظف صغير، أو سائق مركبة فى مكاتبهما. فإذا اعترفا بأن المرسوم كان نوعاً من الاستفزاز، لن نجد صعوبة فى معرفة احداث اضطهاد مخالفى ديانة الامبراطور.

يُعَدُّ مرسوم السادس عشر من يونيو فى جوهره تكراراً لمرسوم فبراير، وهو موجه خصيصاً لكبار المسؤولين فى مصر، وتحديداً للوالى يواغريوس والوزير رومانوس. ترأس الأول منهما الإدارة المدنية، والثانى الجيوش المعسكرة هناك. ينص المرسوم على:

«لا يسمح لأى كان بتقديم الأضاحى للآلهة، ودخول المعابد، ومشاهدة حرمها. ليعلم الجميع أن رتاج مرسومنا يغلق المدخل إلى أية قضية وثنية. وكل من سيحاول بالرغم من هذا الحظر، القيام بأى شيء يتعلق بالآلهة والعبادة، لن يجد أى تهاون. وإذا ما أقدم مسؤول واثق من امتيازات سلطته على الدخول كمجدف مستخف إلى تلك الأمكنة النجسة، سيتوجب عليه تسديد خمسة عشر رطلاً من الذهب إلى خزينتنا؛ ويدفع مرؤوسوه القيمة ذاتها، إذا لم يعيقوا ذلك بقواهم المتعاضدة».

أهو القمع الإدارى، الذى تم اللجوء إليه بناء على أحكام هذا المرسوم، مما أدى إلى قلاقل خطيرة فى الإسكندرية؟ أيمكن أن يكون الإمبراطور نتيجة حرب الشوارع، التى دارت رحاها فى ربيع عام ٣٩١ فى شوارع مصر، قد تذكر مرسوم ما قبل بضعة أشهر، ليصفى الحسابات بشكل نهائى مع المخالفين؟ فلننظر الآن إلى اضطرابات الاسكندرية.

الاضطرابات فى الاسكندرية

الرواية الأولى:

لنتناول أولاً شهادة مبكرة ومفصلة نسبياً، وإن جاءت من رجل ربما لم يشاهد الإسكندرية بعينيه أبداً. وبكل تأكيد، لم يكن شاهد عيان على ما حدث هناك عام ٣٩١؛ لكنه كان على معرفة شخصية باثنين على الأقل من المشاركين فى الأحداث، وهما من غير المسيحيين.

والحديث هنا عن مؤرخ الكنيسة سقراط الذى يمنح تقليدياً اللقب المشرّف «سكولاستى»، أى البارع أو الخبير فى القانون. الذى دَوَّنَ عمله العظيم الأهمية، والمنحاز منهجياً، فى النصف الأول من القرن الخامس. وها هو ـ مع بعض الاختصارات الطفيفة ـ ما يمكنه الإدلاء به حول القضية، التى نحن الآن بصددها:

ألحَّ أسقف المدينة تيوفيل بشدة فى طلبه لوضع حدٍ لعبادة الآلهة القديمة. فأسفر هذا فى نهاية المطاف عن صدور أمر إمبراطورى يقضى بهدم المعابد الوثنية ـ وأوعز لتيوفيل بالذات، بالإشراف على تنفيذ هذه المهمة. رغب الأسقف المزود بمثل هذا التفويض أن يخزى العبادات السابقة هناك ويكللها بالعار بكافة الوسائل. وهكذا قام بتطهير بعض المعابد وتحويلها إلى كنائس، وهدم أخرى كلياً. حوَّل الرموز التابعة لآلهة أخرى إلى مواضيع للسخرية والتهكم؛ وبتوصية منه، تمَّ جر رأس سيرابس والطواف به فى الساحة العامة. عجز سكان الإسكندرية عن كظم ألمهم وسخطهم وانقضوا بزخم على المسيحيين، وهم يقتلون كل من اعترض سبيلهم؛ استمرت المعركة طويلاً، حتى وضعت تخمتهم بالدم المراق حداً للمصائب اللاحقة. لم يُقْتَلْ فى المعركة الكثير من الوثنين، لكنَّ عدد المسيحيين كان هائلاً؛ أما عدد الجرحى من الجانبين، فيصعب إحصاؤه. ذُعِرَ المسببون؛ وأصابهم الهلع من غضب الإمبراطور، فهربوا، وبحث الكثيرون منهم عن ملجأ فى مختلف المدن. وكان بينهم أستاذا النحو هيلاريوس وأموينوس اللذين استمعت فى حينه لمحاضراتهما فى القسطنطينية، وأنا لا أزال فتى فى حداثة عهدى. وقيل أن الأول منهما، كان كاهن زيوس، والثانى ـ كاهن الاله توت.

بعد إخماد الفتنة نهائيا، أعان الحاكم وقائد الجيوش تيوفيل فى تدمير المعابد. حوّلوا المبانى إلى أنقاض، وحطموا التماثيل أو صهروها لاستخدامها كأدوات لكنيسة الإسكندرية، لأن الإمبراطور أهداها كمساعدة للفقراء. لكنَّ الأسقف أمر بالحفاظ على أحد التماثيل دون أن يُمَسَّ، قائلاً:

ـ بفضل هذا، لن يتمكن الوثنيون مستقبلاً من إنكار عبادتهم لمثل هذه الآلهة!.

وأعرف بكل تأكيد، أن أمونيوس، الذى أشرنا إليه لتوِّه، تذمر كثيراً وعبّر عن ألمه بسبب ذلك:

ـ تُدنِّسُ العبادات المصرية، لأن هذا هو التمثال الوحيد، الذى لم يُحَطَمْ، وقد حوفظ عليه عمداً للتهكم من معتقداتنا!.

وأثناء هدم معبد الإله سَرَابِيسْ هناك، لوحظ بشيء من الذهول، أنه على البلاطات الحجرية فى داخله، يبرز هيروغليف على هيئة صليب. لكنَّ تأويل هذا الرمز كان مختلفاً لدى كل من المسيحيين المصريين. فقد اعتقد الفريق الأول أن القصد هو العلامة المقدسة لآلام المسيح، بينما قال الفريق الثانى:

ـ أجل، إن الرمز من حيث المظهر مشترك لكلا المعتقدين، لكن مضمونهما مختلف تماماً!.

وفى نهاية المطاف وُجدَ مسيحيون حديثو الهداية، ممن كانوا لا يزالون على دراية بقواعد وأصول الخط المصرى القديم. فأوضحوا أن هذا الهيروغليف (عنخ) هو رمز الحياة المقبلة. أُعْجِبَ أتباع المسيح بهذا التفسير، كما أنهم استندوا إلى نبوة مزعومة؛ جاء فيها على ما يُعْتَقَدْ، بأن معبد سرابيس سيتعرض للدمار عندما سيظهر الصليب الظافر على جدرانه.

ويضيف المؤرخ: «هذا ما علمته، وأنا أصغى إلى الرواية عن العثور على النص» ـ ويبدأ على الفور بصياغة شكوكه.

بأى أسلوب، وبأية معجزة، كان لكهنة مصر القديمة أن يتكهنوا برمز آلام المسيح، وذلك قبل مجيئه بقرون عديدة؟ عجباً! تمكنوا من نقشه فى معبدهم! كان ظهور المخلص يوماً، من أعمق أسرار الحكمة الإلهية، السر، الذى كان يجهله الشيطان ذاته! ولذلك، لم يكن، وما كان يمكن أن يكون، لخدمه الصغار، كهنة الآلهة والعفاريت المصرية، أن يتصوروا، أو أن تكون لديهم أية فكرة عن ذلك. أهو الرب إذن مَنْ أمرهم بنقش هذا الهيروغليف الاستثنائى هناك، كبشرى لشيء، كان له أن يحدث فى المستقبل؟.

الهيروغليف عنخ ANKH:

لا ريب فى أن مجمل رواية سقراط وكذلك مختلف نقاطها، ستدفع القارىء المتمعن لطرح العديد من التساؤلات، كما ستراوده شكوك كثيرة. وسيرغب فى تكوين صور أدق وأوضح عن أسباب وتطور مجرى الأحداث. أجل، ستوجد شهادات أخرى، تسمح بشكل

أفضل بإعادة بناء المجرى العام لاضطرابات الإسكندرية. ولكن قبل أن نتناولها، يجدر بنا أن نوضح بعض الأمور المومأ إليها في رواية سقراط ذاتها؛ قد تكون أموراً جانبية، لكنها مثيرة وجديرة بالاهتمام من وجهات نظر عدة.



شاهد قبر قبطي من الحجر الجيري يحمل التأثير المصري القديم ممثلاً في علامة عنخ من القرن الرابع

لنبدأ من النقطة، التي ينهي بها الكاتب تقريره، الشيء الذي بدا لسقراط نفسه غريباً ومفعماً بالأسرار، وغير قابل للتصديق. نقصد رمز الصليب ذاك، الذي اكْتُشِفَ في قلب المعبد المصري، على نحو غير متوقع ومذهل للجميع. وفي هذه الحالة بالذات، يمكننا استعراض تفسير هذه الحقيقة لأنها حقيقة واقعة فعلاً! ـ وهو تفسير بسيط نسبياً، ومقنع على الأرجح، لا ضرورة أبداً لأن نتصور بأن المسيحيين دخلوا حرم سرابيس خلسة، ونقشوا هناك رمز ديانتهم، لكي يعرضوه فيما بعد، وكأنه كان موجوداً هناك من قبل! لقد كان هيروغليفاً حقيقياً، أي أنه من إنجاز المصريين أنفسهم، وهو رمز منقوش أو مُدَوَّن قبل قرون، فعلاً، وفي حقيقة الأمر، كاد أن يكون مماثلاً لصليب في شكله مع استثناء بسيط، إذ أنه عوضاً عن الذراع العلوي، كان له نمط من الأنشوطة البيضوية الشكل. ومن هنا اسْتُخْدِمَتْ التسمية، التي أطلقها اللاتين عليه فيما بعد في الغرب، وهي (Crux Ansata)، أي الصليب ذو المقبض. أما في لغة المصريين القدماء، فقد أُطْلِقَ على هذا الهيروغليف اسم «عنخ» (ANKH). يتكرر ظهوره في شتى النصوص المنقوشة أو المرسومة منذ حقبة الفراعنة، وما من غرابة في الأمر: فلفظة عنخ بحد ذاتها، وكذلك رمزها الهيروغليفي، كانت تعني الحياة والمفاهيم المرتبطة بها؛ وببساطة، كانت في جوهرها سعداً، مبشراً بالخير. فمن المؤكد، أنه لهذا السبب، وجب أن يبرز الهيروغليف منذ

البداية على جدران معبد الإله سرابيس أيضاً؛ وقد بوشر ببناء المعبد فى الإسكندرية قبل ظهور المسيحية بفترة طويلة، لأنه فى القرن الثالث قبل الميلاد، كان الكثيرون ممن اعتنقوا الديانة الجديدة على إطلاع إلى حد ما على عناصر الخط الهيروغليفى؛ وقد شرح هؤلاء لأبناء ديانتهم فحوى الرمز الموغل فى القدم، بشكل صحيح. وعلى الرغم من أن «عنخ» ارتبط بالحياة الدنيوية، فإن الفهم الأكثر شمولاً، أى الذى يشمل وجود ما بعد الموت أيضاً، مبرر تماماً فى بعض الحالات؛ وعلى أى حال، هكذا فهمه المصريون فى أواخر الحقبة القديمة.

قد يسأل سائل، وسيكون محقاً فى ذلك، لما لم يُفَسَّرْ أمر الصليب المزعوم بهذا الأسلوب مباشرة؟ لأن آلافاً من سكان الإسكندرية شاهدوا «عنخ» فى غير مرة، وفى مختلف المعابد وعلى العديد من الأوابد الأثرية للديانة القديمة! ولذلك، وجب على ما اكتشف فى معبد الإله سرابيس أن لا يدهش أحداً من المعاصرين. ولكن دعنا نتذكر أننا أمام رواية ثانوية، صاغها رجل عاش فى القسطنطينية بعد الحدث ببضع عشرات من الأعوام، وكتب معتمداً على روايات تلونت وتشوهت على نحو متعمد بلا ريب. فخارج حدود مصر، لم يكن شكل ورمزية «عنخ» معروفين على نطاق واسع. أما الدعاية المسيحية، فقد استغلت شتى الفرص، للبحث عن تكهنات سرية، ونبوات وإيحاءات، تؤكد صدق وصحة الديانة الجديدة ورسالتها التاريخية. وقد بحثت عن تلك النبوات المزعومة، فى بعض أشكال عبادات الآلهة القديمة تحديداً، لأن الأصوات المنطقة من معسكر الخصم، يكون لها عادة صدى خاصاً. والأهم من ذلك: لابدَّ وأنَّ الهيروغليف «عنخ» فى المعبد المصرى، قد فُسِّرَ كشعار مسيحى، لأن المسيحيين المصريين، احتضنوه واستخدموه من قَبْلْ فى رموز عبادتهم، ببساطة كأحد نماذج الصليب، والدلائل على ذلك قاطعة بين أيدينا، فقد صمدت فى وجه عوامل الزمن، فى بعض المواقع المصرية حُرُمٌ مسيحية قديمة، يظهر «عنخ» على جدرانها؛ وقد حافظت الكنيسة القبطية على هذا التقليد عبر قرون طويلة.

هيلاريوس والجامعة:

لننتقل الآن إلى الأمور الأخرى المرتبطة برواية سقراط. إنها أمور ضئيلة الشأن ظاهراً، لكنها كما سيبدو، ذات مغزى كبير حتى من المنظور التاريخى. لنُمعن النظر إلى أُسْتَاذَىْ النحو (الأدب، فيما لو استخدمنا مصطلحات اليوم)، اللذين، كما يعترف مؤرخنا بنفسه، تلقى تعليمه فيما بعد على يديهما. بجامعة الاسكندرية.

افْتُتِحَتْ هذه المؤسسة العلمية الجامعة رسمياً بموجب مرسوم خاص صدر فى فبراير عام ٤٢٥. لكنها فى الواقع، كانت موجودة ومارست نشاطها قبل ذلك الحين بزمن طويل. لم يقتصر الأمر على انضمام هيلاريوس إلى عداد المحاضرين فحسب، وإنما حصل بعد مرور شهر مع مجموعة من زملائه على لقب (بدون مرتب خاص) عرف بالاتينية باسم Comitiva) (Primi Ordinis، الذى يمكن تعريبه «موظف رفيع المستوى»؛ ونجد فى مرسوم التعيين تبريراً رائعاً، جديراً بأن يدرج هنا، ولو باختصار:

ليعلم الأساتذة الآخرون، بأنهم سيحظون بدورهم بمثل هذا التكريم، إذا استمروا عشرين عاماً دون انقطاع، بتأدية واجباتهم، وأنجزوا بجد عملهم التربوى، وهم يمارسون حياة أخلاقية جديرةً بالثناء؛ وإذا أثبتوا مهارة تعليمية وخطابية، وكذلك فطنة فى التأويل وبراعة فى المحاضرة؛ وأخيراً، إذا قَيَّمَتْ هيئة الجامعة الموقرة كل هذا على نحو إيجابى، وأقرّت بأنهم يستحقون هذا الشرف.

إنه لشيء مثير للاهتمام، وربما ليس عرضياً، أن تتكرر فى التشريع اللاحق ـ حتى المعاصر، حدود العشرين عاماً تلك، التى يستحق المعلم بعدها بعض المكافأت. ولكن هذه القضية ليست ذات شأن كبير، والأمر الجدير بالاهتمام فعلاً هو: أنَّ مرسوم ثيودوسيوس الثانى لا يشترط أية شهادات أو آراء من خارج المؤسسة التعليمية! أى أنه لا يشترط إطلاقاً انتماء الأساتذة إلى الكنيسة والالتزام بالإيمان القويم، على الرغم من أن المرحلة كانت أيام النصر الحاسم للمسيحية.

ما أروع مراعاة هذا الجانب، ويا لها من ليبرالية، عملية الفصل ما بين العلم والعقيدة، مقارنة بالطرق المستخدمة فى أكثر من دولة فى المراحل اللاحقة! ولم يكن هذا مجرد طرح نظرى. وظلّت القاعدة ملزمة فى الواقع العملى أيضاً، بالرغم من أنه مع تعاقب الأجيال والقرون تناقص عدد غير المسيحيين تدريجياً فى أوساط المدرسين، إذ أضحت مسيحية الأساتذة شيئاً مفروغاً منه فى نهاية المطاف. ومع ذلك، فإن الجامعة، وكذلك التعليم فى المستويات الأدنى، مارست نشاطها كمؤسسات تنظيمية وعلمانية فى مضمونها. فلنترك الحديث الآن للمؤرخ التربوى اللامع مارّو H.I. Marrou:

«قد يبدو هذا الشيء فى غاية الغرابة، لكنها حقيقة واقعة، وجود بلد لم يعرف أبداً نهاية

المدرسة القديمة: ففى الشرق الإغريقى، تُعَدُّ التربية البيزنطية امتداداً لا انقطاع فيه للتربية الكلاسيكية».

ويتابع قائلاً:

«ظلَّت الجامعة فى القسطنطينية (على امتداد الفترة من عام ٤٢٥ ـ إلى عام ١٤٥٣) مركزاً لبحوث مثمرة ودعامة للتقاليد الكلاسيكية. تعرضت هذه الجامعة ـ وهذا أمر مفروغ منه ـ عبر القرون للعديد من الجوائح والتغيرات، ومرَّت بأكثر من واحدة من مراحل الانحطاط، كما عرفت انقطاعات عابرة فى وجودها، لكنها افتقدت ذلك دوماً بنهوضها الرائع من جديد... الحقيقة أنها تحولت، لكنها ظلَّت وفية للفكرة، التى هدفت من تأسيسها أيام الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى. لم تخرج تعاليمها عن الأطر الكلاسيكية: فى الأساس ـ الفنون العقلية؛ وفى الذروة ـ البلاغة، والفلسفة والقانون. لم يتغير دورها الاجتماعى، فالهدف من الجامعة هو إعداد الفريق، الذى تختار منه الإمبراطورية كوادرها لملء الوظائف الشاغرة. ولم تدخل فى برامجها أبداً العلوم الكنسية».

ولهذا السبب، اضطرت الكنيسة إلى أن تبتكر فى الشرق نظامها التعليمى الخاص، المشبع كلياً بروح المسيحية؛ والمقصود هنا، هو ما يعرف بمدرسة الدير. ففى القسطنطينية ذاتها، وانطلاقاً من الرغبة فى مواجهة الجامعة العلمانية، ثم تأسيس نمط من الأكاديمية الاهوتية، وقام البطريرك بتعيين أساتذتها:

«تنوى المدرسة البطريركية خلق نموذجها من العلوم الإنسانية فى مواجهة الحركة الإنسانية الكلاسيكية. وكان هذا النموذج فى كثير من الأحيان مستقلاً وشديد الإيجاز؛ لكنه بالرغم من كل شيء، يحذو بوضوح حذو النموذج القديم».

كان السبب ـ إلى حد ما ـ فى افتتاح جامعة جديدة على هذا القدر من الإنفتاح والعلمانية، عائداً إلى استقرار مجموعة من علماء الإسكندرية من غير المسيحيين فى القسطنطينية أواخر القرن الرابع، وتدعيم الوسط الفكرى هناك. فلا ريب فى أن البحث عن ملجأ فى العاصمة على شواطىء البوسفور، لم يقتصر على هيلاريوس وأمونيوس وحدهما، المعروفين لنا اسمياً بمحض الصدفة، لأن الاضطرابات فى عام ٣٩١، والخوف من التصعيد العنيف لموجة الكراهية الدينية فى مصر، وما رافق ذلك من اضطهادات وتدمير، دفع بالكثيرين من الأساتذة، والفلاسفة، والمعلمين إلى مغادرة المدينة، التى اعْتُبِرَتْ بحق محراب العلوم عبر

قرون طويلة، ومنذ أيام البطالمة. يُلَمِّحُ سقراط إلى نزوح غير المسيحيين، بعبارات عامة فى روايته، التى استشهدنا بها من قبل؛ وسوف نتعرف بالاسم أيضاً على الفلاسفة، الذين ودعوا الإسكندرية فى ذلك الحين، لكنهم لم يتوجهوا إلى شواطىء البوسفور. غير أن الكثيرين من النازحين اعتقدوا ـ ولم يكونوا مخطئين فى ذلك! ـ أنهم فى القسطنطينية بالذات يستطيعون أن يجدوا تفهماً أفضل لمعتقداتهم، ومجالاً أوسع للعمل والنشاط؛ لأن وجود الحاكم بحد ذاته، وإن كان مسيحياً، بالإضافة إلى كبار الموظفين، كان بمثابة ضمانة للتقيد بشكل أفضل بقواعد سيادة القانون. أما فى الإسكندرية، فكان الأسقف حاكمها الفعلى منذ عشرات السنين، وهو محقون بالكراهية لكل ما هو غير مسيحى. إضافة إلى ذلك كان يستند إلى حشود من الرهبان المتزمتين والمتخلفين، الذين غالباً ما هرعوا لنصرة متنفذى الكنيسة، وقد هجروا صوامعهم الصحراوية وأدْيِرَتهم، مستنكفين لفترة من الزمن عن أكثر ممارسات التقشف والزهد غرابة. فالحظر الذى كان مَفروضاً على إقامة الرهبان فى المدن، والذى اطلعنا عليه من قبل، كان قد بدأ سريان مفعوله منذ سنة، وكان له أن يُلغى على عجل؛ ولكن هل تم تنفيذه والإلتزام به فعلاً؟.

يا لهذه السلسلة العجيبة من الأحداث! يكاد أن يكون ممكناً، الحديث عن نقمة الآلهة، أو مخطط العناية الإلهية، أو إذا فَضَّلَ البعض التعابير اللا شخصية، سخرية القدر. ففى أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة من الحقبة القديمة، تُدَّكُ مواقع الديانات السابقة للمسيحية فى المدينة الكبرى، تُهدم المعابد، يُطرد ألمع الأفراد المنتقدين للمسيحية ويُرغمون على الفرار. وجاء هذا كله مواتياً بصورة غير مباشرة لظهور مركز جديد للثقافة العلمانية فى مدينة أخرى؛ مدينة انتمت إلى ذلك النمط من المدن، الذى أمكن فيه للفكر القديم، العلمانى فى جوهره، أن يوجد ويستمر دون انقطاع إلى ما يزيد عن العشرة قرون. أى لمدة أطول بما لا يقارن مع ما أمكن أن يحدث فى مصر ذاتها، حيث كان ولابد للغزو العربى فى القرن السابع، أن يضع بهذا الشكل أو ذاك، حداً لكافة مؤسسات الفكر العلمانى المستقلة ـ فيما لو بقيت موجودة حتى ذلك الحين.

ثيون وهيباتيا:

كان أميان مرسلينوس قد كتب المجلد الثانى والعشرين من «تاريخه» عام **٣٩٠**، أى قبل بضعة عشر شهراً من هدم وتدمير معبد الإله سرابيس فى الإسكندرية. وفى هذا المجلد بالذات، المكرس للأحداث الأقدم من ذلك بكثير، لأحداث عام **٣٦٣** تحديداً، تطرق بالتفصيل لمصر

وأكبر مدينة فيها. وبطبيعة الحال، كان لا بدَّ للمؤرخ من تخليد ذكرى وشهرة العلماء، الذين عاشوا ونشطوا في الإسكندرية في العصور القديمة؛ ولذلك فهو يسرد أسماء بضعة عشر منهم. انضمّوا جميعاً، وهم من ممثلي شتى فروع المعرفة، تحت لواء «الموزيون»، أي الهيئة أو الاتحاد المكرس لتمجيد الموزيات (Muse)، أي الإلهات التسع، اللاتي يحمين الفنون. كان الموزيون منظمة علمية مستقلة، يعود الفضل في تأسيسها إلى البطالمة؛ ضمنت حياة الأفراد الموهوبين والنشيطين، ووفرت لهم السبل الكفيلة بمتابعة أبحاثهم؛ لم تشترط الهيئة حيازة شهادات أو ألقاب شكلية. يُعَدُّ الموزيون، الوحدة الحية، النموذج والأصل، لكافة المؤسسات والجمعيات العلمية في دائرتنا الحضارية. أما ورشة الدراسات الرئيسية فقد تمثلت في المكتبة، الواقعة، شأنها شأن مبنى وحديقة الموزيون، في حي القصور الملكية. ثم تأسست مكتبة ثانية، أصغر منها، ملحقة بمعبد الإله سرابيس، أي في الحي الغربي. يقدر عدد المجلدات في كلتا المكتبتين، في أوج الازدهار، أي أواخر عهد البطالمة، بما يزيد عن السبعمئة ألف مجلد. ثم تقلص هذا العدد نتيجة مختلف الجوائح التاريخية. الحقيقة أنه (وبعكس ما تناقلته الأساطير اللاحقة) خلال معارك قيصر في المدينة، عندما حوصر مع كليوباترة في القصر الملكي، لم تتعرض الكنوز الثقافية في المكتبتين لأضرار تذكر؛ لكنَّ المدينة بأسرها تلقت ضربات موجعة على أيدي الأباطرة، وخاصة الأحياء الأكثر ثراء فيها، وذلك في القرن الثالث. ففي عام ٢٧٢ أمر أوريليان بتدمير جزء من المباني في منطقة القصور الملكية؛ ويرجح أن يكون الموزيون قد تحول آنذاك إلى انقاض، وفُقدَ قسم من الكتب. أما المكتبة الصغيرة الملحقة بمعبد الإله سرابيس، فلم تُمَسَّ بأذى، وقد احتوت زهاء أربعين ألف مجلد. وبالرغم من ذلك، لا يستبعد أن يكون الموزيون، وإن فَقَدَ مقرَّه، قد استمر في وجوده الشكلي، ناقلاً من أحد أجيال العلماء إلى الجيل التالي، إرث الرابطة، والاسم، واللقب الفخري، وعلى أي حال، فإن أميان مرسيلينوس يُثَمِّن عالياً في المجلد الثاني والعشرين، الآنف الذكر، موقع الإسكندرية كمركز حيوي هام للمعرفة حتى عام ٣٩٠. وهو يكتب قائلاً:

«حتى الآن لم يصمت في هذه المدينة صوت مختلف العلوم. فلا يزال أساتذةٌ شتى في العلوم يجدون متنفساً بشكل ما، وفرجار الأخصائي بعلم الهندسة ما زال بعدُ يكشف عمّا هو خفي؛ كما لم تنضب بعد معرفة الموسيقا، ولم يصمت الإيقاع. إضافة إلى ذلك يستطيع البعض ـ الحقيقة أنهم قلّة ـ تأويل حركة العالم والنجوم وغيرهم ضليعون في أمور الأرقام. بالإضافة إلى ذلك، يوجد نفر من ذوي الخبرة في ذلك الفرع من المعرفة، الذي يكشف سبل

المصير. أما فيما يتعلق بالطب ـ ما أكثر حاجتنا إليه في حياتنا البعيدة عن التواضع والوعى! ـ فإن معهده يتطور يوماً بعد يوم إلى الأفضل وإذا ما أراد طبيب أن يثبت جدية معرفته (بالرغم من أن التجربة ذاتها توحى بها)، يكفى أن يصرح بأنه تعلم فى الإسكندرية».

يمكننا أن نشير بالاسم إلى الرجل، الذى ربما كان أميان يعنيه وهو يكتب عن تلك الفئة المحددة القادرة على تأويل حركة العالم والنجوم، والمتمرسة فى أمور الأرقام، والخبيرة أيضاً فى المعرفة، التى تكشف سبل المصير. إنه ثيون، وقد تداخلت فى بحوثه جميع العلوم والمعارف. الحقيقة أنه لم يتميز كمفكر مبدع وأصيل، لكنَّه بذل جهوداً مضنية فى تفسير أعمال بطليموس الفلكية، ونشر مقالات إقليدس من جديد؛ وبينها تلك المتعلقة بالهندسة، البالغة الأهمية فى تعليم الرياضيات ـ حتى يومنا الحاضر. كما عكف، شأنه شأن الكثيرين من معاصريه على العرافة والتنجيم؛ وقد كتب فى التكهن عن طيران الطيور، ونعيق الغربان. والشيء الجدير بالاهتمام هنا هو: أن أحد مؤلفى القواميس البيزنطيين يشير بوضوح إلى أنه كان عضواً فى الموزيون! أهو مجرد خطأ ومفارقة تاريخية (أى تصنيف كل عامل لامع فى الإسكندرية فى عداد أعضاء الموزيون، حتى عندما كان الموزيون قد اندثر)، أم أن تلك الهيئة العلمية، استمرت فى وجودها حتى أيام ثيون، أى حتى أواخر القرن الرابع، أى إلى أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة ـ أو ظلت قائمة جزئياً أو اسمياً على أقلّ تقدير؟ على أى حال كان ثيون هو الرجل الأخير، العالم الأخير فى العالم القديم، الذى يمكن أن يقال عنه، ولو بظلال ضئيلة من الاحتمال: كان عضو الموزيون الذائع الصيت. يبدو أنه لم يغادر الإسكندرية بعد أحداث عام ٣٩١. وعلى أى حال، سيكون القول بأن جميع العلماء ودعوا هذه المدينة العظيمة، مبالغةً وخطأ فادحاً. فالشيء ذاته، الذى قاله أميان مرسيلينوس عن الوسط العلمى هناك، وهو يصف مرحلة ما قبل عام ٣٩١، يمكن أن يقال عن الأعوام التالية، أو ربما عن القرن الخامس برمته. ولكن علينا أن ندرك، أن مستوى العلم والتعليم قد تراجع فى الواقع العملى وهبط. لكن صوت مختلف المعارف لم يكن قد صمت بعد كلياً، ولم ينطفيء بعد نور المعرفة النظرية! أما مصير هؤلاء العلماء ـ العقلانيين، فقد اتخذ منحنىً مروّعاً فى بعض الظروف. وخير مثال على ذلك مأساة ابنة ثيون.

كانت ابنة ثيون تدعى هيباتيا. لم يكن عمرها قد تجاوز عشرة وبضع من السنين أثناء اضطرابات عام ٣٩١. ورثت عن أبيها موهبة فى العلوم الرياضية واهتماماً بها، ذاع صيتها

بشكل خاص كامرأة واسعة الإطلاع على آراء مختلف المدارس الفلسفية؛ مالت إلى تعاليم الأفلاطونية المحدثة، وحظيت بالاحترام نتيجة معرفتها الواسعة، كما أثارت الإعجاب بالجرأة والحرية، التي دافعت بهما عن قناعاتها. يعترف بذلك حتى المؤلفون المسيحيون. من أشهر تلامذتها سينيزيوسى، المتحدر من سيرينايكا، أى من ليبيا الحالية. اعتنق المسيحية في مرحلة متأخرة، كرجل متزوج. لم يتنازل أبداً عن بعض آرائه ـ حتى عندما أُرغم على قبول تعيينه أسقفاً في مدينة بتوليمياس ptolemias في وطنه؛ كما أنه ظل ملتزماً بأسرته. اعترف علناً، وبكثير من العناد، بالقانون القائل، بأن العالم أزلى، وأن الروح موجودة قبل أن تلج الجسد. أما عن مدى أهمية هيباتيا بالنسبة له، فإن خير ما يطلعنا على ذلك، هى رسالة وجهها إليها بعد أن أقعده المرض:

«أُملِى إليك هذه الرسالة وأنا طريح الفراش ليتها تصلك وأنت فى ثوب العافية ـ يا والدتى، وشقيقتى، ومعلمتى وولية نعمتى!».

ومن حسن حظ هذا الأسقف ـ أنه توفى قبل عام ٤١٥ بفترية وجيزة، دون أن يرى، أى موت رهيب أعدَّه أبناء عقيدته فى الإسكندرية للمرأة، التى أبدى نحوها مشاعر على هذا القدر من السمو.

أثارت هيباتيا بقناعاتها مشاعر الكراهية لدى بعض الأوساط المتزمتة فى سلك الإكليروس، وعززت بمواقفها مقاومة بقايا المثقفين العقلانيين.

ولتصفية الحساب مع خصم مقلق إلى هذا الحد، تم استغلال العلاقات المتوترة بين الوالى أوريستيس (المسيحى أيضاً!) والأسقف كيرليس:

هُوجمت هيباتيا من الجمهور المثار بقيادة قس يدعى بطرس، وهى فى عربتها فى طريق العودة إلى المنزل. جُرَّتْ المرأة أمام إحدى الكنائس، وجُردَتْ من ثوبها، ثم طُعنت وأصيبت بجروح بالغة مميتة. أخيراً وفى ثورة جنون حقيقية، مُزِّقَتْ الجثة إلى أشلاء وأحرقت فى النار ـ لإزالة كل أثر لها.

حدث هذا بعد ما يقارب ربع قرن من الأزمنة، التى نحن بصددها. فإذا افترضنا صدق المؤرخ البيزنطى فى تصنيفه ثيون فى عداد أعضاء الموزيون، سنجد أنفسنا أمام الرجل الأخير

المعروف لنا بعضويته فى الموزيون، فى مدينته ومسقط رأسه، وذلك بالرغم من هزيمة المصريين المخالفين عام ٣٩١، وبالرغم من تدمير أكبر المعابد؛ لكنه، وبصورة غير مباشرة، يُصْدِرُ ببقائه ذاك، الحكم بالموت على ابنته، التى ستقتل على أيدى الغوغاء عندما يحين الوقت.

هيلاريوس وسرابيس:

واجه قتلة هيباتيا ـ وكذلك أسقف الإسكندرية وبطريركها آنذاك، ثيوفيل، كمسؤول غير مباشر عن الجريمة ـ تهماً مختلفة وانتقاداً حاداً، حتى من جانب إخوتهم فى الدين، ولكنَّهم لم يُمَسُّوا بسوء، لا بل تعزز موقع ثيوفيل ذاته فى المدينة. فعلى حدّ علمنا، لم يتعرض القتلة لأية عقوبات ـ حكومية أو كنسية ـ وفى حقيقة الأمر، تمَّ الاقتصار على التذمرات الكئيبة والتنهدات الورعة. وهكذا على سبيل المثال، نقرأ لدى سقراط (عاصر مؤرخ الكنيسة هذا، هذه الاحداث «ألقى هذا بكثير من اللوم على ثيوفيل وعلى كنيسة الإسكندرية، لأن القتل، والعراك، وما شابه ذلك من أعمال، غريبة تماماً عن الناس، الذين يعيشون وفق تعاليم المسيح!».

هذا كل شيء.

هكذا كانت إذن بذار الشر، والتعصب والكراهية. فقد تلطخت بالدم أيادى معتنقى دين المحبة.

نبوءة أنطونين:

كان لكانوبوس إذن شهرتها الخاصة فى الحقبة القديمة. عُرفت مباهج هذا الموقع على نطاق واسع، كما أضحت التسمية ذاتها مرادفة للإنحلال والإنغماس فى الملذات. وهذا ما نجد صداه فى إحدى مقولات سينيكا:

ـ لن يختار الحكيم، الباحث عن عزلة هادئة، كانوبوس أبداً؛ ومن ناحية ثانية، لن تمنع كانوبوس ذاتها أحداً من العيش بعقلانية!.

لقد أضحى خير دليل وبرهان على إصابة هذه الحكمة، التى تفوَّه بها كاتب فى عهد نيرون، ـ إذا صدق يونابيوس ـ هو أنطونين فى أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة. وإذا أُخذت رواية يونابيوس حرفياً، فقد قدمت إليها مواكب من نوع آخر مختلف عن تلك، التى وصف

سترابون طابعها وصفاً صريحاً. إذ يقول مؤلف «حياة السفسطائيين» بكثير من المبالغة فى صياغاته، التى يسهل كشفها:

جاء أنطونين إلى الإسكندرية من بلاد ما وراء البحر. ولما رأى مصب النيل فى كانوبوس، تملكه شعور غامر بالإعجاب، بحيث كرّس نفسه كلياً لآلهة ذلك المكان وطقوسها السرية. خطا خطوات سريعة فى تقدمه واقترابه من الألوهية. لم يُعرْ جسده أى اهتمام، وتحرَّر كلياً من كافة المتع المرتبطة به. اقتصر على ممارسة حكمة تجهلها الغوغاء. يجدر بنا أن نقول شيئاً أكثر عن هذا.

لم يُبدِ أنطونين ميولاً لصنع معجزات تنحرف عمّا هو مألوف فى مجال الحواس؛ ربما تصرف بهذا القدر من الحذر، لأنه أدرك جيداً ما تعنيه الأوامر الإمبراطورية؟ لكن صلابته، وصرامته، ورسوخ آرائه، كانت موضع إعجاب الجميع. لذلك زاره هؤلاء، الذين أقاموا آنذاك فى الإسكندرية بهدف الدراسة. وكانت هذه المدينة بفضل معبد الإله سرابيس، معبد العالم بأسره؛ فقد اجتذبت أعداداً لا تحصى من الحجاج من كل مكان، حيث كان تعدادهم يبلغ عدد سكان المدينة ذاتها. وحالما كان ينتهى هؤلاء من تمجيد الآلهة، كانوا يتوجهون إلى أنطونين؛ والذين كانوا على عجلة من أمرهم، كانوا يختارون الطريق البرية، بينما كان الآخرون يركبون القوارب النهرية ـ متجهين براحة تامة إلى موضع الدراسة الجادة. وحين يتشرفون باللقاء، كان البعض يطرح مشكلة منطقية ـ وفى الحال كانوا يشبعون بثراء الحكمة الأفلاطونية. وطرح آخرون تساؤولات تمس مباشرة المواضيع الإلهية ـ فوقف هؤلاء أيضاً، وكأنهم أمام تمثال، لأنه لم يكن يجيب بكلمة واحدة. واقتصر على التحديق وتثبيت نظراته على السماء. وهكذا ظلّ صامتاً؛ لم يشاهَد أبداً وهو يحاور أياً كان بمثل هذه الأمور.

لم يتوقف سيل الشبان ذوى الأرواح السليمة والمتعطشة للفلسفة، من التدفق على أنطونين، ولذلك اكتظ المعبد بالكهنة الشبان. أما هو، الذى كان لا يزال يبدو إنساناً مستمراً فى تعايشه مع الناس، فغالباً ما تنبأ لرفاقه:

ـ بعد موتى سيزول هذا المعبد. وكذلك حرم سرابيس المقدس فى الإسكندرية سيختفى فى هيولى الظلمة. سيتعرض للتحول. سيخيم ظلام لا محدود، وكأنه من تلك الأساطير القديمة على ما هو الأجمل فى أرضنا!.

وثبت بعد فترة قصيرة أنه تضمن فعلاً شيئاً من الألوهية. فلم يكد أن يرحل عن عالم البشر، حتى وُضِعَ حدٌ للخدمة الإلهية فى معابد الإسكندرية وفى سرابيوم. ولم يقتصر الأمر على الخدمة الإلهية، بل شمل المبانى أيضاً. وحدث كل شىء كما فى تلك الأساطير الشعرية عن انتصار العمالقة، أعداء الآلهة وواجه معبد كانوبوس المصير ذاته.

حزن وغضب يونابيوس:

يجب بالضرورة سرد تتمة رواية يونابيوس هنا. تستحق هذه الكلمات أن تُقرأ باهتمام، وإن لم يكن صداها محبباً أو مستساغاً، تستحق ذلك، لأنها تعالج أحداثاً بتنا نعرفها من خلال روايات ثلاثة من المؤلفين المسيحيين، سقراط، وسوزومينوس، وثيودوريت. الحقيقة أن أقوال يونابيوس لا تقدم أية معطيات جديدة ذات قيمة جوهرية، لأنها تتميز بالعمومية، لا بل هى خطابية. ولكن لنأخذ بعين الاعتبار أننا فى هذه الحالة نسمع صوت الجانب المناهض، الجهة المهزومة، صوت من، أهين فى أقدس مشاعره. فهى إذن فى نبرتها، وفى اختيار ألفاظها، وبأسلوب رؤيتها، وثيقة استثنائية، ربما حُفظت بمعجزة. وهنا يطرح سؤال نفسه: ما الدافع لأن يُنسخ فى العصر الوسيط، فى مكان ما فى بيزنطة، مخطوط مفعم بهذا القدر من الكراهية الصريحة لكل ما هو مسيحى؟ ربما نسخه العلمانيون السريون، الذين عاشوا حياة بائسة على مرتبات المعلمين الهزيلة، فى عزلة المكتبات والأرشيفات؟ لا يستبعد شىء هنا، إذ ليس فى وسع أحد أن يُحدد على نحو جدير بأن يُعْتَمَد ويُقْبَل، متى رحل آخر مُبجّلى الآلهة ومتى خمدت عباداتهم نهائياً؛ فالجمر ظلَّ مشتعلاً تحت الرماد لقرون أو ربما لآلاف السنين.

الجملة الأولى فى هذا الفصل من المُؤَلَّفِ مشبعة بالغيظ، وتشير بوضوح كافٍ إلى موقف المؤلف:

«حكم آنذاك الإمبراطور ثيودوسيوس، بينما ترأس ثيوفيل الملاعين؛ كان هذا الرجل يبدو وكأنه يوريميدونت ذاك، الذى وفق ما جاء فى الأوديسيا، حكم العمالقة المتغطرسين فى حينه. مارس السلطة المدنية يواغريوس، وكُلِّفَ رومانوس بقيادة الجيوش المعسكرة فى مصر. وقد قام كل منهما بتصعيد كراهية الآخر للمعبد، أو حتى للحجارة والصخور المنحوتة ذاتها؛ لا بل تنافسا فيما بينهما فى هذا المجال. ولذلك دمرا سرابيوم (معبد الإله سرابيس) وأعلنا الحرب على تقدمات المعابد؛ وكل هذا دون أن يسمعان ولو مجرد شائعة عن أية نوايا عدوانية فى

الجانب الآخر! هكذا حققوا النصر دون أن يواجهوا الخصم، وفازوا فى المعركة دون الاضطرار لخوض القتال. أما فيما يتعلق بالتماثيل وتقدمات المعبد، فقد حسموا الأمر معها بشجاعة لا توصف، ولم تقتصر القضية على أنهم هزموها، بل أنهم قاموا بسرقتها أيضاً؛ اعتمدت استراتيجية المعركة معها على تغطية كل مَنْ حاول الاستيلاء على شيء لنفسه. لم يتركوا فى سرابيوم سوى بلاطات الرّصف، وكان ذلك بسبب ثقل الحجارة، الذى لم يسمح بزعزعتها.

ولما انتهى هؤلاء السادة الشجعان والنبلاء إلى هذا الحد من أعمال التدمير وذَرِّ كل شيء فى مهب الريح، رفعوا أيديهم إلى الأعلى؛ أجل، لم تكن الأيادى ملطخة بالدم، لكنها لم تكن نظيفة أبداً، بل كانت مدنسة بالجشع. صاحوا قائلين بأنهم انتصروا على الآلهة، واعتبروا نهب المعابد والتجديف عنوان فخر واعتزاز.

ثم جاؤوا إلى تلك الأمكنة المقدسة بحشود ممن عُرفوا بالرهبان، إنهم بشر من حيث الشكل، لكنهم يعيشون كالخنازير، يسمحون علناً بالقيام ـ ويقومون بأنفسهم ـ بالكثير من الممارسات المنحطة، التى يندى الجبين خجلاً من مجرد نقلها. ولكن هذا بالذات اعْتُبِرَ بمثابة ورع وتقوى: احتقار كل ما هو إلهى. تمتع كل من ارتدى أثواباً سوداء آنذاك، وتصرف بأسلوب تافه وغير جدير بالاحترام، بسلطة استبدادية. فإلى مثل هذه الذرى من الفضيلة صعد النوع البشرى!.

استقر هؤلاء الرهبان فى كانوبوس أيضاً. فرضوا بدلاً من تكريم الآلهة الحقيقيين، عبادة العبيد، ويا ليتهم كانوا من العبيد الأمناء! جمعوا من كل حدب وصوب عظام وجماجم أولئك، الذى ألقى القبض عليهم كمجرمين وحُكِمَ عليهم بالموت بقرار من المحكمة، ونادوا بأن هؤلاء المحكومين هم آلهة. تلووا أمام تماثيلهم، وتمرّغوا فى الوحل أمام قبورهم. نعتوهم بالشهداء، والخدم، والرسل، الذين ينقلون طلبات الناس. وفى واقع الأمر، لم يكونوا سوى عبيد، خدموا بالعار، وانتهوا تحت ضربات السياط، ولا يزالون يحملون جراح خستهم على صورهم. هاكم إذن الآلهة، الذين تلدهم هذه الأرض».

هكذا إذن أعلن أنطونين حقيقة للجميع: أن المعابد ستتحول إلى قبور. وهذا ما منح معرفته وقدرته على التنبؤ شهرة واسعة. توفى بهدوء بعد أن عاش شيخوخته بدون مرض، أما ذوو القدرة على التفكير، فقد شعروا بألم أكبر بالنهاية، التى توقعها للمعابد.

موضوع الشياطين والعفاريت:

أنباء صحَّة ودقَّة تنبّؤ أنطونين بتدمير معابد الإله سرابيس، التى أضفى عليها جموح الخيال بهاءً وألقاً أكبر بكل تأكيد، انتشرت على نطاق واسع فى عالم ذلك العصر؛ ذاع صيتها واكتسبت أهمية بالغة ليس فى أوساط غير المسيحيين فحسب، وإنما بين المسيحيين أيضاً. شعر الفريق الأخير بحرج كبير بمجرد أن تكهُّن يونابيوس، الذى يكمن مصدره ـ أيمكن الشك بذلك؟ ـ فى إلهام شتى أنواع الأرواح النجسة، الكامنة فى آلهته، تحقق بذلك القدر من السرعة والدقة. وهكذا ظهرت فى اعتقاد أعداد غفيرة من المسيحيين مشكلة جوهرية ذات طابع فلسفي ولاهوتي. يمكن إعادة صياغة المجرى الأساسى لتحليلهم على وجه التقريب كما يلى:

مَنْ هم الآلهة القدماء؟ ليسوا فى واقع الأمر سوى عفاريت شريرين، وماكرين، وكاذبين، وخدماً للشيطان. يقودون، الذين اعتمدوا عليهم إلى هلاك مريع. يكرهون كل حقيقة أو حتى ظلَّ الحقيقة، مثلما يخشى الظلام كل شعاع نور قادم من الشمس. فبأى أسلوب، وبأية طريقة، وبواسطة اية خدعة تستطيع الأرواح الشريرة فى أى وقت كان، أن تتعرف، وتتوقع، وتكشف لأتباعها ولو عن جزء يسير مما سيحدث فى الواقع؟ لأنها بكشفها عن المستقبل، تعزز إيمانهم بقدراتها الخارقة! فَلِمَ يسمح الرب بحدوث شيء على هذا القدر من الخطورة على خلاص الأرواح البشرية، فى أزمنتنا وعلى مرأى من أعيننا؟

عولجت هذه المواضع على نحو جادّ وجذرى. جرت نقاشات عديدة، ولم تبدُ الآراء المطروحة أثناءها أرثوذكسية دوماً. وفى نهاية المطاف، اتخذت القضية أبعاداً هائلة، تطلبت معها الضرورة أن يتصدى لها أحد أقدر العقول اللاهوتية لتلك الحقبة، أو ربما ليس لتلك الحقبة وحدها؛ ألا وهو أسقف هيبونا ـ عنابة ـ شخصياً، أوغسطين. فقد كرّس لهذه القضية مقالة مستقلة. ليست المقالة مسهبة فى الحقيقة. ولكنها مثيرة للاهتمام ومتميزة بالنظر لموضعها، الذى تعالجه. وهى بعنوان «عن تنبؤ العفاريت بالمستقبل» De Divinatione Daemonum. وقد استخدم المؤلف موضوع تدمير سرابيوم منطلقاً لتأملاته. ويكتب فى كلمات المقدمة:

«فى صباح أحد الأيام اجتمع لدى عدد من إخوتنا المسيحيين. جلسنا فى المكان المعتاد، ثم

بدأ الحديث عن موقف الديانة المسيحية من غرور الوثنيين ومعرفتهم المفعمة بالشكوك، حيث يُزعم أنها مذهلة ولا محدودة. تذكرت هذا النقاش وأتممته فيما بعد؛ وارتأيت بأنه جدير بأن يُوثَّق كتابة. لن أذكر أسماء، الذين اتخذوا فيه موقفاً معارضاً من رايى؛ كانوا مسيحيين على أى حال، وعبّروا عن آراء كهذه، ربما بهدف التوصل إلى ما يجب الرد به على الوثنيين.

تعرضوا لموضوع التكهنات المنبثقة من العفاريت. ولمّا تّم التذكير بأن أحدهم تنبأ بهدم معبد سرابيس، الشيء الذى حدث فعلاً فى الإسكندرية، قلت:

ـ لِمَ العجب من أن العفاريت أمكنها أن تعرف سلفاً وتعلن حقيقة التدمير، الذى هدد المعبدَ وتماثيله هناك؟ لأنها قادرة بالأسلوب ذاته على توقع وإعلان العديد من الأحداث الأخرى. ولكن بطبيعة الحال، فقط بذلك القدر، وضمن تلك الحدود، التى سُمح لها فى البدء برؤية الحقائق المقبلة وإعلانها للناس! فَرُدَّ على:

ـ اذن ليست تكهنات العفاريت شراً، وليست كريهة فى نظر الرب! فلو كان الأمر على هذا النحو، لما سمح هو نفسه، العادل والكلى القدرة بحدوث أشياء شريرة وظالمة!».

هكذا كانت بداية الجدال. وكما يمكن التخمين بيسر، فإن أوغسطين لم يفتقر للحجج ويجدر بنا أن نلاحظ هنا بأنه، شأنه شأن جميع معاصريه، آمن بعمق بوجود العفاريت ككيانات حقيقية، ومحددة تماماً، متميزة بكيانٍ فيزيائى مستقل. اعتمد فى آرائه على مختلف العقائد الافلاطونية والافلاطونية المحدثة، وكذلك على المعتقدات الشعبية والمقولات الإنجيلية. تم النظر إلى العفاريت على أنها كائنات تحتل موقعاً وسطاً ما بين البشر والآلهة، وهذه الكائنات عادة (وإن لم يكن دوما) خيِّرة، وصديقة، ونافعة، يكفينا هنا أن نستشهد بذلك العفريت، الروح الشفيعة، التى تحدث عنها سقراط كثيراً. لكنَّ هذه الأمور فى نظر أوغسطين، اتخذت صيغة مختلفة تماماً.

أجل، اعترف بأن العفاريت كائنات متفوقة على البشر فى جوانب عدة. فهى خالدة لا تموت، وأجسامها ذات طابع شفاف وحركى كالهواء، ولذلك فهى تخترق كل شيء، بما فى ذلك ذواتنا. لكنها ليست سوى ملائكة ساقطة، وأرواح شريرة، عدوة لدودة ومستبدة وغادرة لسعادة الجنس البشرى بأجمعه ولأى إنسان على نحو مستقل! تحوم وكأنها طيور جارحة، سريعة على نحو عجيب، ودقيقة الملاحظة بشكل لا يقارن، فى الطبقات الدنيا من الهواء،

تحت مجال القمر. وتنقض كالنسور على كل شيء في عالمنا يبدو لها فريسة سهلة. إنها هي سبب الكثير من الأحلام، والرؤى، والكوابيس. وهي قادرة على خداع الحواس، والكشف جزئياً عن الحقائق المقبلة؛ ويعود السبب في ذلك إلى صعودها نحو الأعلى وامتلاكها لحواس أكثر كمالاً، الشيء، الذي يمكنها من الرؤية أكثر وأبعد وأدق مما نستطيعه نحن هنا على الأرض. وأخيراً، هي، التي تمكنت من أن تدس في عقول الفانين القناعة المهلكة بوجود الآلهة. ولكن مَنْ هم الآلهة؟ إنهم في جوهرهم كائنات لا أخلاقية، ماصّة دماء، ميّالة للنزاع، لا مسؤولة، ولا تختلف بشيء عن العفاريت! ولا غرابة في ذلك ما دامت جزءاً من عالمها، وإلى حدٍ ما من مخلوقاتها. أيمكن لها إذن، وهي الآلة الزائفة، أن تحجب عنا شمس القوة الحقيقية والعلية؟.

طرح أوغسطين مثل هذه الآراء وما يشابهها فيما يتعلق بموضوع العفاريت، وخاصة في عمله العظيم «عن مملكة الله». كما يعود للمواضيع ذاتها في العديد من رسائله. أما في المقالة، التي استعرضناها هنا، فهو يفترض أن العفاريت كائنات من هذا النوع، وأن هذا الشيء معروف لدى الجميع، ولا ضرورة للإسهاب في الحديث عنه.

بين النصوص الإنجيلية العديدة، التي تتحدث عن الأرواح الشريرة، أثار دوماً اهتمام القراء والمعلقين ذلك النص، الذي يتحدث عن الممسوس، الذي طرد منه يسوع حشداً من الشياطين، وكيف أنها دخلت في قطيع من الخنازير كانت ترعى في الجوار، فانطلقت تعدو على السفح المنحدر، وألقت بنفسها في مياه البحيرة لتغرق منتحرة.

يبدو الموضوع بعيداً وغريباً ظاهرياً، ولكن يمكن النظر إليه بنظرة جديدة؛ وسوف نُفاجأ ببعض الخواطر والتداعيات المذهلة! وهذا ما فعله ذلك الشاعر، الذي بدا له ذلك العالم قريباً وكأنه ليس بأبعد من يوم البارحة. وعلى نحو مشابه، يتابع القول: حشود الناس في حالة من التذبذب والتعطش للمعجزات، واختلاف السلوك، ظاهري ليس إلاّ. والشياطين لا تزال تنشط مثلما كانت تفعل في حينه. ولكن في الأزمنة القديمة، وبعكس ما نجده الآن، لم يكن لدى الممسوسين أي الذين دخلتهم الشياطين، لم يكن لديهم «مطبوعات وشاشات، أو احتكاك يُذكر بالفن والأدب»؛ كما أن «سريان الرعشات في الجسم وظهور الزبد على الشفاه واصطكاك الاسنان لم يُنْظَر إليها آنذاك كدلائل على المواهب». والمثل الإنجيلي، كما يؤكد

الشاعر، يبقى محافظاً على قيمته: لأن الروح المستحوذة على الممسوسين يمكن أن تدخل فى الخنازير. وهذه الأخيرة «تتهور بسبب اليأس الناجم عن الصدام المباغت بين الطبيعيتين، الذاتية والشيطانية، وهو ما يجعلها تقفز فى المياه وتغرق».

وهكذا فإن لكل عصر مسحوريه و«فتيته الغاضبين» ومعرفته الخاصة بالأرواح والعفاريت، أى آراءه عن أسباب وجوهر المسّ. كما أنه يقر الطرق الملائمة، الوحيدة الفعالة على حد زعمه، لمقاومة الاستحواذ والمسّ. يمكن أن نستعرض هذه الطرق عبر الحقب والقرون. كانت يوماً الرقى وطاردى الأرواح بالرقى؛ يتحدث عنهم الكتّاب والمخرجون، أى ممثلو تلك الفروع من الفن، التى غالباً ـ إذا صدقنا الشاعر ـ ما يجوس فيها الممسوسون.

الحال، لم تكن المستوطنة الصغيرة فى بلاد البليوبونيز الفقيرة مدينة عالمية عظيمة، مثلما كانت الإسكندرية آنذاك. من ناحية أخرى، لم تكن كل تحف فن العمارة والنحت فى معبد سرابيس لتعادل المعنى الرمزى للمهرجانات الأولمبية.

حين كان أوغسطين منهمكاً بإعداد مقالته «عن تنبؤ العفاريت بالمستقبل»، كان الغزو القوطى بقيادة ألا ريك يتهدّدُ روما؛ أو ربما كان الغزو قد تمّ. كنا قد تعرضنا للحديث عن هذا العام المتميز والحدث الهام، الذى تمّ فيه، فى مكان آخر؛ وتحديداً، فى معرض الحديث عن إقامة ميلانيا وفولوزيانوس فى المقاطعات الإفريقية. إننا نميل للاعتقاد، بأن العالم المعاصر اختنق آنذاك رعباً أمام ما حدث فى إيطاليا، واستحوذ موضوع واحد ووحيد على أفكار الجميع. لكن الحقيقة مغايرة لهذا التصوّر. ففى المقاطعات البعيدة والتى كانت ما تزال آمنة بَعْدُ، لم يكتف الناس بمجرد العيش الاعتيادى، بل وجدوا الوقت الكافى، والهدوء، والرغبة فى معالجة المواضيع المجردة؛ ومن بين هذه المواضيع، على سبيل المثال، هل تقول العفاريت الحقيقة. أو مواضيع أخرى مشابهة، منفصلة عن الواقع تماماً. وها هو مثال آخر، مأخوذ من المقاطعة ذاتها ومن الفترة الزمنية ذاتها، ولكن من الأوساط غير المسيحية:

حين كان فولوزيانوس، الآنف الذكر، يكتب عام ٤١٢ إلى أوغسطين، أخبره فى رسالته عن موضوع حديث جرى قبل فترة قصيرة بين أصدقائه. لقد ناقشوا أولاً مواضيع مختارة من فن البلاغة. ثم انتقلوا إلى خفايا الشعر، وخاصة نظم القصائد وجمال الاستعارة والمجاز، وسمّو المقارنة. ثم صعدوا فى مستوى النقاش أعلى فأعلى، وتناولوا عقائد مختلف المدارس الفلسفية،

بدءاً من الحقبة القديمة البعيدة، من الأكاديمية الأفلاطونية ومعهد أرسطو؛ وأخيراً، راح أحدهم، (المعنى هو فولوزيانوس نفسه بكل تأكيد) يتأمل بعض القضايا المزعجة، بأى وسيلة أمكن لرب العالم أن يبقى طيلة ذلك الوقت فى أحشاء العذراء الطاهرة، ويتحمل فيما بعد الآلام والبلوى المرتبطة بكل حياة دنيوية، بما فى ذلك الكائنات الخالدة؟

ألهذه الحقيقة، حقيقة خوض مثل هذه النقاشات فى تلك اللحظات التاريخية الحاسمة، وذلك فى أوساط المسيحيين وغيرهم على حد سواء، ما تُعَبِّر عنه؟ يمكن بطبيعة الحال الاكتفاء بتفسير سطحى، والقول بأنها مجرد صدفة. ولكن من ناحية ثانية، يمكن أن نرى فى ذلك مظهراً من مظاهر عمليات نفسية أعمق، تكاد أن تكون فى مستوى اللاوعى فى أحضان المجتمعات الكبرى. فمن يدرى إن لم يكن الأمر يعنى الهرب من الواقع الرهيب والوحشى، الهرب إلى مجالات التأملات السامية والمجردة كلياً؟ إذ غالباً ما تتكرر ظواهر مشابهة فى كافة الحقب، وخاصة عندما تتهدد الجوائح النظام القائم. وربما كان هذا نوعاً من العمى وعدم إدراك خطورة الموقف بشكل تام. أو ربما العكس، برهاناً قاطعاً على عظمة متميزة، للروح، وفوق كل شىء، على الرؤية الحدسية لحقيقة على قدر عالٍ من البساطة والوضوح، تصبح معه أحياناً غير ملحوظة أو مهملة بازدراء من قبل رجالٍ ذوى معارف وآفاق واسعة إلى أقصى حد؟ تنص هذه الحقيقة على أنه: فى حياة كل مجتمع، عندما يتعلق الأمر بقضية الوجود والاستمرار كمجموعة مستقلة، لا تعود الحقائق السياسية أو الاقتصادية هى ما يقرر الأمر، وإنما تلك، التى ترسخ وتوطد الشعور بالاستمرارية الثقافية؛ ومما يوطد هذه الاستمرارية، مناقشة مواضيع تبدو ظاهرياً غريبة كلياً عن الواقع الجارى ـ على هذا القدر من الغرابة، كموضوع المجازات الشعرية وقضية قدرة العفاريت على التنبو بالحقيقة. الواقع أنه فى الحالة الأخيرة، يمكن أن يُعَدَّ مُجرَّد اعتبار الآلهة القديمة بمثابة عفاريت، عفاريت شريرة ومفعمة بالكراهية، دليلاً واضحاً على انقطاع استمرارية ما فى مجال الحياة الدينية؛ لكن هذا الانقطاع تلخص إلى أقصى حد فى إزااحة واستبدال الأسماء وأسس التقييم.

نبؤة اسكليبوس:

«سيأتى ذلك اليوم، الذى يتضح فيه كم كان عديم الجدوى ورع إيمان المصريين وخدمة ذلك الشعب، المفعمة بالتضحية له، ستنحط هنا الذكرى المقدسة للآلهة وتتحول إلى عدم،

وسيرحل الآلهة أنفسهم من هنا نحو السموات، سيهجرون الأرض المصرية إلى الأبد. وهكذا فإن هذا البلد، الذى كان عبر قرون طويلة مهداً، ودعامة، وعماداً، ومحراباً للديانة الحقة سيُجرَّد من الحضور الإلهى، ويتيتَّم، ويصبح فارغاً. سيحتل الغرباء أرضه الزراعية، ولن يقتصروا على الاستخفاف بالإيمان المقدس، وإنما ـ كم هو مؤلم هذا الشيء ـ سيصدر ما يشبه المرسوم، الذى سيحظر تحت طائلة أقسى العقوبات، التقيد والالتزام بقواعد الدين، والتقوى، والعبادة.

«هذه الأرض الجليلة، مقر المذابح الإلهية، ستملأ منذ الآن بالقبور والجثث فقط. يا مصر، يا مصر الحبيبة! لن يبقى ما يشهد فى القرون المقبلة على عباداتك سوى الأساطير والحكايات، ولكنها بالرغم من ذلك، ستبدو للأجيال مجرد انحرافات عادية. ستصمد الآثار المنقوشة فى الحجارة وحدها كآثار وبراهين على أفعالك التقية. سيستوطن السكوذى، أو الهندوسى، أو واحد آخر شبيه بهما، همجى من البلاد المجاورة، هذه الأرض بأسرها. وعندئذ ستُحَبُّ الظلمة أكثر من النور، وسيفضل الموت على الحياة. صدقينى، ستبلغ الأمور فى نهاية المطاف حداً تُفْرَضُ معه عقوبة الموت على كل مَنْ يجرؤ على الاعتراف بالعقل الإلهى. وبهذا الأسلوب، سيتم الفصل المؤلم للآلهة عن البشر. ولن يبقى هنا سوى ملائكة الشر. ستبقى لتدفع التعساء إلى أسوأ جرائم الغرور: إلى الحروب، والاغتصابات، والنهب، والخداع. أى نحو كل شيء مناهض للطبيعة الحقة، لروحنا». لا، لم يتفوه بهذه النبوة أى فيلسوف ـ وثنى، ممن شهدوا أحداث الإسكندرية عام ٣٩١. كما أنه ليس أمونيوس كاهن هرمس توت، ولا أوليمبوس، الحارس الأمين لحرم سرابيس حتى النهاية، حتى تلك الليلة الأخيرة، حيث زُعِمَ سماع ترتيل «هاليلويا». كذلك ليس هو أنطونين حلية المعبد فى كانوبوس، العرَّاف، والحكيم، والمعلم. وليس أياً من أقاربهم أو المعاصرين لهم. العبارات المقتبسة هنا، صياغة جديدة للآراء، التى تضمنتها مقالة لاتينية بعنوان: أسكليبيوس بقيت محفوظة فى مكتبة الكاتب النثرى العظيم أبوليوس، الذى عاش فى القرن الثانى بعد الميلاد وكتب باللاتينية؛ لكنَّ هذه المقالة لم تخرج من تحت ريشته بالتأكيد. فهى تعود إلى مرحلة متأخرة عنه بعض الشيء، اى إلى أواخر القرن الثانى. ولكن لابدَّ وأنها ظهرت ـ يصعب فى الواقع تصديق ذلك! ـ بما لا يقل عن مئة عام قبل أيام ثيودوسيوس، أى بما لا يقل عن قرن قبل أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة، حيث دُمِّرَتْ أو أُغلقت فى مصر معابد الآلهة، وَحُظِّرَ تقديم الأضاحى.

نقرأ إذن كلمات نبوءة تحققت حرفياً. ولم يقتصر تحقيقها على مصر فحسب فإذا نطقنا بما جاء في النبوَّة وفكرنا وفق مقولات آخر العرافين يمكننا القول، بأن الظلام خيَّم على كامل العالم المأهول؛ وكذلك على هيلادا، حيث الأولمب، مسكن الآلهة، وحيث أثينا، معبدهم العظيم، وحيث أولمبيا موقع المهرجات المكرسة لتمجيدهم. فقط في روما، في روما بالذات، اختلف الأمر بعض الشيء، فهناك فقط برزت مقاومة أكثر تصميماً، مقاومة بعض الجماعات والدوائر ـ بأسلوب مختلف.

الثامن من نوفمبر:

«**الأباطرة ثيودوسيوس، وأركاديوس، وهونوريوس**

إلى روفين الوالي

لا يسمح لأى إنسان، بغض النظر عن المكانة والانتماء؛ كما لا يُسمح لأى موظف سواءً أكان ما يزال يقوم بأداء مهامه أو تركها، ولا لأى متنفذ بسبب ولادته، ولا لأى وضيع بسبب انتمائه، ومنزلته، أو ثروته ـ لأى كان في أى مكان وفي أية مدينة ـ لا يسمح لأحد من كل هؤلاء بقتل حيوان برىء كأضحية لأصنام ميتة؛ كما لا يسمح بتمجيد اللارات(*) بأضحية استعطاف سرية، بالنار، والأرواح الحارسة بالخمر، وآلهة المنزل بالعطور؛ لا يسمح بإشعال النار لهم أو وضع البخور أو تعليق الأكاليل.

وإذا ما تجاسر أحدهم على تقديم حيوان كأضحية، وتفحُّصِ أحشائه والبخار المتصاعد منها، تُوَجَّهُ إليه التهمة ذاتها الموجهة لمن أهان العرش. ويمكن لأى كان توجيه التهمة، وسينال المذنب العقاب الملائم؛ حتى وإن لم يبحث عن أى شيء ضار بصحة الأباطرة أو بما له علاقة بصحتهم. إذ يُعَدُّ جريمة كبرى مجرد الرغبة في معرفة قوانين الطبيعة؛ والبحث عمًّا هو محظور؛ والكشف عمًّا هو خفي، ومحاولة معرفة نهاية حياة ما، أو الوعد بأمل إنهاء حياة ما».

هذه هي العبارات الأولى من المرسوم الصادر في اليوم الثامن من نوفمبر. عندما تولى منصب القنصلين أركاديوس للمرة الثانية وروفين، أى في عام ٣٩٢. قد يكون هذا المرسوم هو الأهم والأكثر شمولاً بين كافة المراسيم المناهضة للآلهة في كامل التشريعات الرومانية

(*) اللارات: مفردها اللآر Lar وهو الاله أو الروح الحارسة لدى الرومان. (المترجم).

المحفوظة. فهو يجمع، ويوحد، ويوسع، ويزيد حدة على كافة المراسيم التى سبقته فى هذا المجال. وقد أصدر الأباطرة المتعاقبون خلال القرن الرابع على العرش عدداً كبيراً من هذه المراسيم! فهو يحظّر القيام بأى من الطقوس الوثنية فى أية من صيغها وأشكالها دون استثناء. يحظّر ممارستها على أى كان، وفى أى مكان، وبأى أسلوب؛ ليس فى المعابد فحسب، وإنما فى المنازل الخاصة أيضاً. يمنع تقديم الأضاحى، ولا يقتصر الأمر على الحيوانات وحدها، بل يشمل أكثر التقدمات الرمزية تواضعاً؛ أى الزهرة، والبخور، والمصباح الزيتى، والشمعة. أما مَنْ يُقْدِمُ بعد نحر الحيوان على مذبح الآلهة، على تفحص أحشائه لأغراض العرافة، كما كانت تفرض التقاليد القديمة، فيعرض نفسه للعقوبات المفروضة على مَنْ أهانوا هيبة إمبراطور الشعب الرومانى. وهذا يعنى، مصادرة الممتلكات، والنفى، والسجن، أو حتى عقوبة الموت.

كان مرسوم الثامن من نوفمبر موجهاً ضد أبسط العبادات، أى أكثرها انتشاراً ورسوخاً، وخاصة المرتبطة منها بحياة الريف. مَنْ يضفر شجرة بأشرطة، ومن ينصب مذبحاً حقلياً متواضعاً ويكسوه الخث(*)، يهين بذلك ـ هذا ما يؤكده المرسوم ـ الدين. ولذلك فإن مالك المنزل أو الحقل حيث أقيمت هذه المراسم، يعاقب بمصادرة تلك الممتلكات لصالح خزانة الدولة، إذا كان على علم بالجريمة وشارك بها؛ ولكن إذا أقيم الطقس بدون علم المالك، توجب عليه دفع غرامة بمقدار خمسة وعشرين رطلاً من الذهب، شأنه شأن كل واحد من المشاركين. وعلى رعاة المدن وأعضاء مجالسها إعلام المحاكم فوراً عن حالات التجاوز على المرسوم وعدم التقيد به، وعلى المحاكم اتخاذ الإجراءات الفورية. وإذا حاولت السلطات إخفاء الحقائق، تتحمل المسؤولية بنفسها؛ أما القضاة، إذا قاموا بتأجيل الإجراءات وإصدار الحكم، سيرغمون على دفع غرامة بمقدار ثلاثين رطلاً من الذهب، شأنهم شأن الموظفين التابعين لهم.

وهكذا أصبح يوم الثامن من نوفمبر من عام ٣٩٢م، مع إعلان المرسوم، بمثابة يوم الموت الرسمى للديانات السابقة داخل حدود الإمبراطورية. هذه كانت نوايا وإرادة الإمبراطور ومستشاريه. ولكن بالرغم من جهود وتوقعات المشرعين، فإن ضربة بهذا القدر من القوة أيضاً، كانت عاجزة عن إسقاط المعتقدات القديمة كلياً. وعلى الرغم من أنها أُزيحت ـ إن صحّ

(*) الخث: TURF بالانجليزية وهى الطبقة العليا من التربة المشتملة على العشب وجذوره. أو جذور النباتات الباقية تحت سطح الأرض لفترات طويلة دون أن تبلغ مرحلة التفحم.

القول ـ إلى الممارسة السرية، فقد بقيت حيَّة لقرون أخرى. ويمكن القول دون مبالغة، بأنها في الحقيقة لم تمت أبداً؛ أجل، لقد خضعت لتحولات بنيوية، واكتسبت وجهاً أو قناعاً مختلفاً، وتغيرت الأسماء ـ وكل هذا بهدف الدخول خلسة إلى معسكر الخصم. ولكنَّ هذه قضية مختلفة لسنا بصدد بحثها. وعلى أى حال، فمنذ يوم الثامن من نوفمبر، وجب البحث عن أساليب مبتكرة وملتوية للتمكن من ممارسة عبادة الآلهة القديمة. لو حاول أى كان، البحث عن نص قانوني يمكن اعتماده كأساس للقول بأن المهرجانات الأولمبية أُلغيت بمرسوم رسمي، فإن المرسوم، الذى نحن بصدده يمكن أن يكون بمثابة وثيقة كهذه؛ لأن المهرجانات ارتبطت دوماً ببعض المراسم وتقديم الأضحيات أمام مذابح الآلهة، وخاصة فى معبد سيِّد المكان وراعى المباريات، زيوس. كما يمكن الإصرار على أنه مع هذا المرسوم أو بعده صدر مرسوم آخر، لم يُحْفَظْ نصه حتى أيامنا، وضع بوضوح حداً ونهاية للاحتفالات فى أولمبيا. يمكن اعتبار الفرضية الثانية مرجحة أكثر من وجهات نظر معينة. فبأى أسلوب يمكن تفسير الحقيقة، التى أسلفنا الحديث عنها: استمرار الاحتفال فى أنطاكية بدون عوائق بالمهرجانات، التى أُطلق عليها أيضاً اسم الأولمبية، بالرغم من صدور مرسوم الثامن من نوفمبر؟ ولكن ـ أشرنا إلى ذلك أيضاً من قبل ـ يوجد تفسير آخر لهذا التناقض: كان من السهل إلغاء المهرجانات فى أولمبيا، لأن غياب السكان المحليين هناك كاد أن يكون تاماً، كما لعب الافتقار إلى التمويل دوره. أما فى أنطاكية، فقد اتخذت الأمور طابعاً مختلفاً كلياً: كان سكان المدينة العظيمة مولعين بالمهرجانات، وقام الأثرياء بتغطية النفقات فى إطار ما فرضته عليهم السلطات المحلية.

يحتمل إذن أن لا تكون المهرجانات الأولمبية عام ٣٩٣ قد تمت، بالرغم من أن الإعداد لها كان قائماً. وفى هذه الحالة، فإن الدورة الأولمبية الأخيرة فى الحقبة القديمة، والتى بدأت عام ٣٨٩، لم تعرف نهايتها الطبيعية أبداً، واستمرت طويلاً، حتى الدورة الأولى فى عصرنا، أى حتى عام ١٨٩٦ . وعلى أى حال، فإن عام ٣٩٣ هو التاريخ السنوى الأخير المحتمل؛ لأننا نتذكر شهادة المؤرخ الصريحة، القائلة بأن المهرجانات الأولمبية انقضت، وثيودوسيوس على قيد الحياة. على هذا النحو أو ذاك، تمَّ الحديث خلال الوثبة الأخيرة الديانات القديمة وتصفية

الحسابات الأخيرة معها؛ لأنه فى العام ٣٩٣ بالذات، وقف يوجينيوس وأربوغاست علناً وبإصرار إلى جانب الآلهة القديمة.

عام ٣٩٣:

لم تكن الدلائل فى بادىء الأمر تشير إلى أن يوجينيوس وأربوغاست سيقومان بدعم الديانات السابقة للمسيحية. لأنه عندما تقدم مجلس الشيوخ فى روما، المطَّلع جيداً على ميول أربوغاست الدينية وعلى تذبذب قناعات البروفسور السابق، طالباً إليهما تمويل عبادة الآلهة فى العاصمة من ميزانية الدولة أو إعادة ممتلكات المعابد المصادرة، رُفِضَ الطلب مرتين. لأن يوجينيوس ظلَّ يتوهَّم بأن ثيودوسيوس سَيُقْدِمُ فى نهاية المطاف على بعض التنازلات، ولهذا السبب، لم يرغب فى اتخاذ أية قرارات فى الأمور المزعجة والمتنازع عليها، كما أنه خشى من ناحية ثانية ردود أفعال المسيحيين. لم يحاول بشكل خاص التدخل فى القضايا المتعلقة بإيطاليا، الأرض التى لم تكن مُلكاً لأحد بعد، إذ لم يملك أى من الجانبين جيوشاً هناك. وعلى ما يبدو، فقد كان على استعداد، لا بل كان متلهفاً، للإستنكاف عن أية مطالب فى الجزء الأوسط من الإمبراطورية لقاء الاعتراف الرسمى بسيادته على الشطر الغربى منها. ولذلك، ومن خلال مساعيه لإضفاء طابع الشرعية على الوضع الراهن، اقترح أن يتولى منصبا قنصلى عام ٣٩٣ كل من ثيودوسيوس ويوجينيوس نفسه. رفض البلاط الشرقى هذا الاقتراح أو أهمله بصمت ينم عن الاحتقار. بينما أُعلن فى القسطنطينية أنه فى اليوم الأول من يناير عام ٣٩٣، سيتولى منصبا القنصلين ثيودوسيوس للمرة الثالثة وأبوندانسيوس قائد الجيوش. وبهذه الصيغة تمَّ التأريخ طيلة ذلك العام فى كافة المقاطعات الخاضعة للسلطة الشرعية. أما فى الغرب، فقد حملت الوثائق الرسمية التأريخ التالى: «لمَّا تولى يوجينيوس منصب القنصل» (أى أنه كان القنصل الوحيد!). أو «فى السنة التالية، بعد تولى أركاديوس وروفين منصبا القنصلين». يستنتج من ذلك، أن العام، الذى أقيمت فيه أو كان لها أن تقام فيه المهرجانات الأولمبية الأخيرة، أُطلقت عليه آنذاك تسميتان مختلفتان ــ بنتيجة النزاعات السياسية، والتمزق الداخلى للإمبراطورية. وكان لهذا مغزاه الرمزى بطبيعة الحال.

تَمَثَّلَ البرهان الثانى على أن ثيودوسيوس لن يعترف أبداً بسيِّد الغرب الحالى شريكاً له فى

الحكم فى احتفال رسمى أقيم فى القسطنطينية خلال يناير من عام ٣٩٣. أعلن فيه هونوريوس، الابن الأصغر لثيودوسيوس، والذى لم يكد أن يبلغ الثامنة من العمر، أغسطساً؛ فحصل بذلك على اللقب والمرتبة الأعلى فى سلّم المسؤوليات، الشيء، الذى حصل عليه والده قبل أربعة عشر عاماً، وشقيقه الأكبر أركاديوس قبل عشرة أعوام تماماً.

استطاع الغرب من جانبه مواجهة هذه التظاهرات الرسمية، التى أقبل عليها البلاط الشرقى، بنجاحات عسكرية حقيقية وهامة. فأولاً، وفى شتاء عام ٣٩٢/ ٣٩٣، اجتاز أربوغاست نهر الراين فى منطقة كولونيا وأخضع أرض بنى جلدته لأعمال التدمير. بينما بقى يوجينيوس نفسه فى مؤخرة الجيوش الرومانية. هذا ما فرضته هيبة اللقب الإمبراطورى، أو على الأرجح ما نصح به الحذر أو الاحتراس «البروفسورى». استقبل الرسل، الذين بعث بهم الفرنكونيون والألمان، وعقد معهم اتفاقية سلام بشروط تخدم مصالح الإمبراطورية.

وجبت الإشارة هنا إلى هذه الأنشطة الحربية، وليس الهدف من ذلك التحدث عن حملة عادية بين حملات لا تحصى ضد الهمج، لأن هذه الحملة تبرز بوضوح أنه تماماً فى عام الدورة الأولمبية الأخيرة، كانت الإمبراطورية الغربية لا تزال تشكل قوة عسكرية ضاربة؛ قادرة على القيام بمناوشات هجومية خارج حدودها، وذلك على أرض القبائل الجرمانية الأكثر شراسة فى القتال. والغريب فى الأمر، أنه هنا بالذات، فى الغرب، كانت الكارثة العسكرية والسياسية أمام العتبة! ولكن هل كانت حتمية فعلاً؟ مَنْ يعرف، فربما كان للأمور لولا تدخل المصادفات التعسة، أن تتخذ منحى آخر، أكثر نفعاً لوجود الإمبراطورية بحد ذاته، وكذلك لوحدة وثقافة أوروبا. يُصنَّفُ فى عداد هذه الأحداث الضارية اغتصاب يوجينيوس للسلطة وما رافقها من نتائج مباشرة. وكذلك المؤامرات الصغيرة، التى شلّت فى غير مرة سياسات بلاطىْ الإمبراطورية، المقسمة على نحو دائم بعد موت ثيودسيوس.

هكذا كان النجاح العسكرى الهام الأول ليوجينيوس وقائد جيوشه. والثانى ـ هو السيطرة على إيطاليا وروما فى ربيع عام ٣٩٣؛ الشيء الذى تمّ بدون معارك. فحتى الأسقف أمبروزى لم يكن الآن يبخل على المغتصب بلقب القيصر ـ الحقيقة أنه غادر ميلانو بمجرد أن علم باحتمال قدوم الحاكم، الذى لم يعترف به ثيودوسيوس، إلى المدينة. لكن السيّد الجديد استُقْبِلَ بحفاوة بالغة من قبل الأرستقراطيين فى روما، معارفه وداعميه السابقين. وبهدف مكافأة (أو

شراء) هذا الاستعداد للتعاون معه، وافق على المطالب، التى تقدموا بها من قبل: أعاد الممتلكات المصادرة إلى المعابد. لكنه أراد فى الآن ذاته تلافى صراع مفتوح مع الكنيسة، ولذلك لجأ إلى الوسائل غير المباشرة أو الملتوية بالأحرى، فى تنفيذ الالتزام. فقد حصل أعضاء مجلس الشيوخ على تلك الممتلكات ـ لا ريب فى أن هؤلاء هم الذين حملوا ألقاب كهنة الديانات القديمة ـ ولكن شريطة أن تخصص ايراداتها لتغطية نفقات العبادة، والتضحيات، وترميم المبانى.

أضحى فيريوس نيكوماخوس فلافيان السند الحقيقى لسياسة يوجينيوس فى إيطاليا، وحليفه الأكثر حماساً؛ وفى الآن ذاته، المدافع الملىء بالتضحية فى سبيل قضية الآلهة. ويعود الفضل فى توليه منصب والى شبه الجزيرة الايطالية من جديد، للمغتصب يوجينيوس.

فرصة قضية الآلهة:

«بدا الأمر وكأن أيام يوليان الجاحد تعود ثانية. احتفلت عندئذ شتى العبادات والطقوس الشرقية والرومانية فى العاصمة يبعثها الجديد وإحيائها؛ تلك، التى كانت قد اختفت بعد نصف قرن أو أكثر. فَهُدِّمَتْ المبانى المشيدة من الحجارة المأخوذة من المعابد القديمة. وأُعيدت الممتلكات المصادرة للمعابد. ونجح الوالى فى إقناع المسيحيين الطموحين بالعودة إلى دياناتهم السابقة. الحقيقة أنه لم يلجأ لوسائل الإكراه فى هذا المجال، لكنَّ السلطة أعلنت أنها ستحرم المسيحيين بلا رحمة من حماية القانون، وسوف تضم سلك الإكليروس إلى صفوف الجيش بعد هزيمة ثيودوسيوس مباشرة. ولم تراود محاربى يوجينيوس الشكوك إطلاقاً فى أن ثيودوسيوس سيتعرض للهزيمة؛ بمثل هذه الثقة تمَّ النظر إلى التكهنات، التى أشاعها فلافيان، ألمع ممثلى فن العرافة القديم.

لا شك أن المراقب الملتزم بالحقائق بدقة سيعتبر السؤال التالى غير ضرورى وفى غير محلّه: ما هو المنحى الذى كان سيتخذه التاريخ الدينى والفكرى لحضارتنا، فيما لو تحققت نبوءة فلافيان؟ لكن لمخيلتنا الحق فى معالجة هذا الموضوع. إذ يوجد عدد كبير من الحجج، التى يمكن أن نواجه بها الرأى السائد، والقائل بأن فرص نجاح عودة الديانات السابقة آنذاك كانت ضئيلة. ولا يجب أن ننسى بأن المسيحية بعد مرور قرنين ونصف، استسلمت لسيطرة الإسلام

بصورة تكاد أن تكون بدون مقاومة إطلاقاً، وذلك فى البلدان، التى كانت جذورها فيها (أى المسيحية) هى الأعمق والأقوى؛ خضعت بعد مرحلة من النزاعات العقائدية الحادة مباشرة أو أثناءها بالأحرى. بالرغم من أن هذه البلدان لم تفتقر فى القرن السابع إلى رجال من أمثال القديس أمبروزى من حيث الموقف الأخلاقى والحماس؛ مثلما لا يفتقر إليهم أى مكان وأى زمان. يضاف إلى ذلك القوة الدعائية الكامنة فى تكريس الذات اللا نفعى ـ الصادق أو الظاهرى ـ لمثَلٍ أعلى، التى أثرت كل ذلك التأثير على انتشار المسيحية، والتى كان لابدَّ لها من أن تزاح تدريجياً لصالح ديانات أخرى، مع انتقال العناصر ذوى القيمة الأخلاقية الأدنى، ولأسباب مصلحية إلى معسكر المنتصرين. فذكرى يوليان الإلهى ـ التى مجدَّها الشاعر الإسبانى الورع برودينسيوس نفسه حوالى عام ٤٠٠ م ـ أثرت أيضاً دعائياً لصالح قناعات الإمبراطور العظيم الدينية. كما أن أكثر أعضاء مجلس الشيوخ هيبية واحتراماً، حرسوا بمودة إرث الماضى الأفضل؛ والفضل فى إنقاذ أعمال الكلاسيكيين اللاتين، يعود إلى حماسهم وحماس أحفادهم الأدبى».

راودت هذه الخواطر ذهن واحد من أكثر المؤلفين معرفة بالحقبة الإمبراطورية المتأخرة، ومؤلف عمل تاريخى لا يزال أساسياً فى دراسة تلك المرحلة، وهو أرنست شتاين (ولد فى منطقة كراكوف فى بولونيا، درس فى فيينا، ومارس نشاطه العلمى فى برلين وبروكسل، وتوفى فى فريبورغ السويسرية)؛ راودته هذه الخواطر، عندما تطرق لموضوع يوجينيوس وبعث الديانات السابقة فى روما. قد تسمح لنا هذه الكلمات، التى تفوه بها رجل يُعَدُّ مرجعاً فى مجال اختصاصه، بفهم أفضل لعظمة القيمة التاريخية، التى تميزت بها المعركة الأخيرة، التى خاضها بذلك القدر من اليأس، المدافعون عن الآلهة القديمة فى أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة تحديداً؛ معركة خطيرة وزاخرة بالأحداث، بالرغم من أنها تكاد أن تنسى كلياً، وهى مهملة ولا تعار الأهمية، التى تستحقها ـ حتى من قبل العديد من المؤرخين.

تشد شخصية يوليان الجاحد منذ قرون الباحثين والكتّاب، والمسرحيين والروائيين والفلاسفة؛ وكما كان الأمر قبل قرون، خلال حياته، لا يزال يثير الخلافات والجدال، ويصبح بمثابة المحرك الرمزى لبعض التيارات والآراء. فكم من الأعمال المختلفة الأنماط كُرِّسَ بكافة

اللغات الأوروبية لهذا الحاكم وسياسته. وكم من الأحقاد تثير حتى اليوم كل إيماءة، وكل محاوله هادفة للإشارة إلى القيم، التى خدمها؛ والأهداف، التى حققها؛ والسبل، التى سلكها لبناء صرحه! وكما نعلم، حكم يوليان فترة قصيرة جداً، أما تجسيد مُثُله فى الواقع علناً، فقد استمر لفترة أقصر، إذ لم تتجاوز السنة ونصف السنة، منذ أواخر خريف عام ٣٦١ وحتى يونيو عام ٣٦٣. كادت الفترة الزمنية، التى منحتها الآلهة لآخر أتباعها اللامعين والمؤثرين سياسياً أن تكون مماثلة تماماً: يوجينيوس، وأربوغاست، ونيكوماخوس، بدءاً من سيطرتهم على إيطاليا فى مطلع ربيع عام ٣٩٣. ولكن ليست فترة حكمهم القصيرة هى السبب فى أن النسيان طواهم ومعهم العمل، الذى حاولوا إنجازه؛ فسلطة يوليان لم تكن سوى نيزك! يكمن السبب فى شىء آخر: التوثيق فى كلتا الحالتين ومن كافة الجوانب مختلف تماماً. فقد بقيت محفوظة عدة مجلدات من كتابات يوليان نفسه، كما حُفظت مجلدات المؤرخ أميان مرسيلينوس، وخطابات ليبانيوس المشبعة بالمديح والإطراء، وكراريس غريغورى النزينزى ـ لتقتصر على تعداد أهم مجموعات المراجع، التى تتحدث بشكل موسع ومتألق عن تلك المحاولة الأولى لبعث الديانات السابقة. أما عن أستاذ الأدب، الذى ارتدى الأرجوان الإمبراطورى؛ وعن الأرستقراطى، الذى دافع عن آلهة آبائه؛ وعن القائد ـ الوزير الفرنكونى، الوفى لروما وآلهتها، الذى هوى كالصاعقة على بنى جلدته بشجاعة تفوق شجاعة الرومان المعاصرين ـ فلا نعرف عنهم وعن أعمالهم سوى مِزَقٍ من روايات عرضية وجزئية.

يمكن لمخيلة الروائى أو لسرعة بديهة ودقة ملاحظة كاتب المقالات، أن تتمم بشكل رائع ضآلة وجزئية المعطيات فى المصادر؛ وعلى أى حال، كانت ستدفع للتأمل. أما المؤرخ، فيجب أن يقتصر على ما هو معلوم ومحدد. لكنه سيعترف أيضاً: أن فقر وضآلة المعلومات لا تنتقص بأى شكل، ولا يمكنها أن تنتقص من أهمية الحقيقة، التى لا يرقى لها الشك، ألا وهى، أن المحاربين من أجل قضية تعددية الآلهة فى أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة، كانوا فعلاً على وشك الانتصار، وعلى أقل تقدير، الانتصار العسكرى فى ساحة المعركة. لا أظننا فيما لو تحقق هذا الانتصار، نجد صعوبة فى تصور نتائجه اللاحقة فى مجال السياسة الدينية والثقافية.

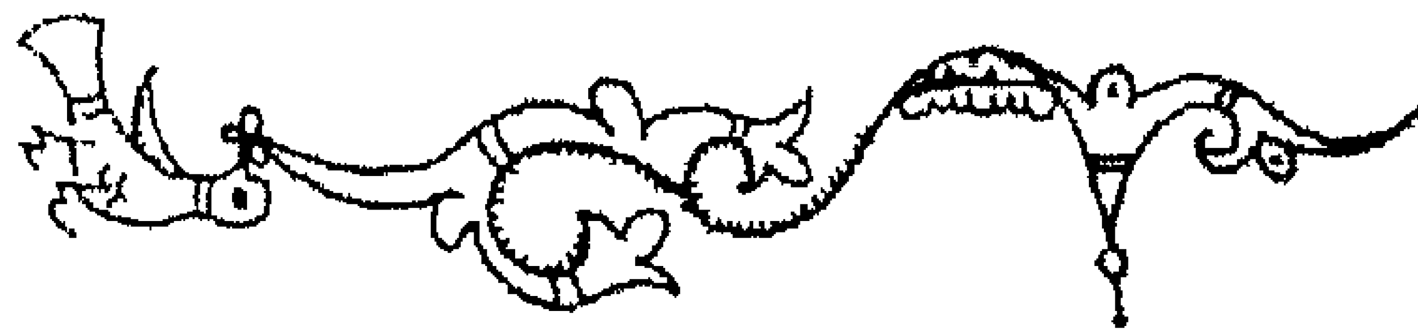
نهر فريجيدوس:

تأجل خوض المعركة إلى أواخر الصيف، إلى مطلع سبتمبر من العام التالى ٣٩٤. كانت

تسمية هذه السنة أيضاً مختلفة ما بين شطرى الإمبراطورية. لأن أشخاصاً مختلفين تولوا مناصب القناصل فى كل من الشطرين. فحيث حكم يوجينيوس اتخذ التأريخ الصيغة التالية: «عام تولى نيكوماخوس فلافيان منصب القنصل» ؛ كان قنصلاً وحيداً ـ ولنضف أن ابنه تولى فى الوقت ذاته منصب والى مدينة روما. أما فى البلدان الخاضعة لسيطرة ثيودوسيوس، فنجد تأريخاً مختلفاً: «عام تولى أركاديوس للمرة الثالثة وهونوريوس للمرة الثانية منصبا القنصلين».

لم يُقْدِمْ يوجينيوس وأربوغاست على الهجوم، فقد بسطا نفوذيهما على غالة، وإسبانيا، وبريطانيا، وإيطاليا، واكتفيا بذلك، ولم يرغبا بشيء أكثر. كانا على استعداد للدفاع عنها بشتى الوسائل، لكنهما لم يرغبا فى التقدم أكثر نحو الشرق، وخاصة فى اقتحام البلقان. فقد أدركا جيداً، بأن الموقع جبلى وعر، تشقه الأنهر والوديان العميقة، حيث يمكن للعدو أن يجرهما إلى المصيدة أو أن يفرض عليهما المعركة فى المكان الملائم له. وكانت الكوارث، التى تعرض لها اثنان غيرهما من المغامرين فى البلقان بمثابة أمثلة مخيفة: مغنيتسيوس قبل ما يقارب الأربعينى عاماً؛ وقبل ستة أعوام فقط ـ مكسيموس.. وكان كل منهما، شأنه شأن يوجينيوس الآن مغتصباً للعرش، ونودى بكل منهما قيصراً فى غالة، وتجندت جيوشهما بشكل أساسى من سكان تلك البلاد. ولذلك فإن سيِّد الغرب الحالى وقائد جيوشه لم يفكرا إطلاقاً بتكرار الخطأ المهلك، الذى راح ضحيته مَنْ سبقهما. وتركا مبادرة التحركات العسكرية لثيودوسيوس.

لم يجد الحاكم الشرعى أمامه خياراً آخر سوى الانتقال للهجوم وحسم المعركة لصالح المسيحية فى نفس الشهر (سبتمبر) فى وادى نهر فريجيدوس، فكان ذلك نهاية حقبة تاريخية عظيمة من التعددية الدينية لصالح الدين الواحد والأوحد.



الرهبنة والديرية فى مصر

* نشأة الزهد والطوائف المتعددة التى مارسته قبل المسيحية
* العقائد المصرية القديمة والمبادىء والأمثال التى انبثقت من حكمائهم
* جماعة الفلسفة الأفلاطونية الحديثة

معناها:

الرهبنه فى المسيحية معناها الزهد والتنسك أو الانعزال والانفراد بقصد التبتل والعبادة مع اختيار التقشف طوعا ولكن الرهبنة فى الديانة الاوزيرية السابقة للديانات المساوية كانت تعنى الخروج إلى المستنقعات خاصة فى شمال الدلتا والصحارى لإعمارها وبناء الاديرة الاوزيرية والقرى من أجل زراعة هذه المناطق واستصلاحها للقضاء على مراتع الاله ست واعوانه من الشياطين والبدو. ويرجع إلى هذه الفكرة (فى المعتقد الاوزيرى) الفضل فى تعمير صحارى مصر وواحاتها وتجفيف المستنقعات المحيطة بالنيل وزراعتها.

أما الديرية فهى نسبة إلى الدير وهو البيت أو الموضع الذى يخصص لسكنى الرهبان أو الراهبات والالتجاء اليه للتعبد.

نشأة الزهد:

النسك نزعة فلسفية قامت بين عدة طوائف وجماعات مختلفة بين شعوب وممالك الشرق منذ قرون قبل ظهور المسيحية ومنها ما ظل قائما حتى القرون الأولى المسيحية. وكانت أنشطتها التقليدية فى النسك على حسب المبادىء التى كانت تعتنقها. أما عن أهم تلك الطوائف والجماعات المختلفة والمبادىء والنظم التى سارت على نهجها فهى: ــ

أولا: طائفة البراهمة:

المشهورة فى بلاد الهند وهم يدينون بمذهب كنفوشيوس وبوذا. وتاريخهم فى الزهد والحياة الانفرادية ووالتقشف الصارم واذلال الجسد وكبح نزواته وميوله بطرق غاية فى الخشونة والقسوة مضرب الامثال وكانوا يؤلفون من أفرادهم جماعات عديدة بعضها يعيشون فى الكهوف أو بين الادغال والغابات كما التجأ البعض الى الهياكل ومناسك المعابد أو قرب شواطىء الانهار المقدسة حيث كانوا يمارسون نوعا من ضروب الرياضة البدنية القاسية لتعذيبه بشتى الوسائل الوحشية مع الصوم والحرمان.

ونظرا لأن الطائفة المذكورة كانت تعتقد بأن السعادة والخلاص فى الآخرة يقوم على الطهارة والأمانة الذاتية وأن جسد الانسان هو سبب كل الشرور والمعرقل للوصول الى الغاية المنشودة والفضيلة فدفعهم هذا الى تكبيل ذلك الخصم اللدود بقيود وأغلال غاية فى القسوة والصرامة فمنهم من كانوا يعذبون أجسادهم بالكى والمناخس الحديدية. ويقتحمون النيران المتقده فى صمت وجلد بالغ ويمشون وينامون فوق لوحات رشقت سطوحها بمسامير مدببة ومنهم من يكف عن الكلام أياما عديدة أو من يصعد إلى قمم الجبال العالية ويقطع القفار والصحارى النائية ولا يتذر الا بخرق بالية لاتكاد تستره أو تحمى من القر والحر. وقد تمكن جماعاتهم من نشر دينهم حسب مبادئهم وأنظمتهم فى أنحاء الهند والصين واليابان وفى الجزر الواقعة فى البحار التى حولها. وكما أنهم اعتقدوا أن العالم لا يستقر أو لا يهداء له حال الا باعتناق مبادئهم. فكونوا منهم جماعات على هيئات تبشيرية وسافرت للدعاية لهم فى بلاد أوروبا والامريكتين.

ومما يذكر أنه حوالى عام ٢٥٩ ق.م. عزم «اوسوكا» امبراطور الهند على نشر تعاليم بوذا فى أقطار البحر المتوسط كما أرسل بعثات لهذا الغرض الى مصر فى عصر «بطليموس فيلادلفوس» ولكن يظهر أن تلك النظم البوذية لم تصادف نجاحا فى مصر.

وقد كان هناك فئة من المتوحدين المصريين تسمى "Egyptian Gymonosphists". وكان منهم «أبولونيوس تيانا "Apollonius of Tyana". وكانوا يزاولون حياة نسكية خاصة. وذكرت بعض الروايات على أن هذا النوع من الحياة يرجع الى أصل هندى. كما أنه كانت هناك فئة من أولئك النساك وتعيش منعزلة حتى أوائل القرن الأول للميلاد وأنها من أحفاد فئة بوذيه. على أن حلقة الاتصال بين مصر والهند كانت قائمة على المبادلة التجارية بين الهند والاسكندرية وظلت تلك العلاقة حتى بدء القرن الثالث ثم أخذت فى الافول. ومن الجائز أن تكون هناك فئة من الهنود أو من سلالتهم ظلت باقية فى المدينة العالمية الاسكندرية. وعلى أغلب الاحتمال كانت تمارس تقليدها وأنظمتها فى النسك بطرقها الخاصة مما دعا البعض الى الظن أن رهبان مصر قد تأثروا بها الا ان هذا الزعم لا صحه له لا من قريب أو من بعيد للاختلاف بين الجنسين وصعوبة اللغة والجهل التام فى الديانات والعادات والتقاليد الهندية. ولذلك لا يمكن أن تكون هناك صلة بين أصول الزهد الهندية والرهبنة المصرية.

ثانيا: الجماعات الدينية:

منها طائفة الاسينيين[١] Essenes وقد نشأت منذ القرن الثانى قبل الميلاد وعاشت بعيدا عن مدينة أورشليم حيث أنفردت بمساكنها حول شواطىء البحر الميت. وكان أفرادها يحرمون الزواج على أنفسهم ويعيشون حياة مشاعية بسيطة ويكدون للحصول على القوت ويتصدقون بما لديهم على أبناء الفقراء ويقدمون الاحسان بسخاء للمعوزين من الناس. وكان من عاداتهم أن يشترطوا على طالب من يريد الانضمام الى صفوفهم أن يقضى مدة لا تقل عن ثلاثة أعوام تحت الاختبار فأذا تبين منه فى خلالها ما يبرهن على استعداده للانخراط فى الحياة الجديدة، وافق رئيس تلك الجماعة على قبوله فى حظيرتها بعد أن يتعهد بخدمة الله بكل أمانة ونشاط ولا يظهر أسرار الطائفة ولو عرض نفسه للموت.

وكذلك جماعة النساك الاخرى الذى قال عنهم الفيلسوف اليهودى «فيلو Felo» المعروفين باسم «السرابيوتاى Therapeutai» الذين كانوا يعيشون حول بحيرة مريوط وقرب برقه ووادى النطرون. وهذه الفئة كانت تعتمد فكرتهم على أساس أنظمة تقشفية قوامها تنقية الروح من الشوائب والنزوات وعولت على العيش خارج المدن بعيدا عن مباهج الحياة وفى منازل أو أكواخ غاية فى البساطة ومظاهر الابهة أو التنعم ومنعزلة.

وقد قال عنهم «فيلو» أنهم يبدأون بالصلاة عند الفجر ثم يمضون يومهم بالتأمل فى التوراه ثم يختمونه بالصلاة عند المساء. وقد عرف عنهم مداومة الصيام ويجتمعون أيام السبوت للعبادة معا داخل معبد عام يقع وسط منازلهم أو أكواخهم، كما أعتادوا الاحتفال بيوم الفصح فيجلسون على الارض الجرداء أذلالا للجسد مع تناول طعامهم من الخبز والملح. ثم يقوم بعض من أفرادهم بترنيمات وتختتم ببعض الرقصات الدينية. ومما لوحظ بين تلك الفئة من النساك أشتراك بعض من العذارى العجائز معهم أثناء تأدية طقوسهم الدينية. وكان

(١) كان الاسينيون ينقسمون الى اربع درجات وكان التمييز بينها عسير لدرجة ان أصحاب الطبقة العليا منهم تساوت فى صفوفها مع أصحاب الطبقة السفلى منهم وبالرغم ان اغلبهم كانوا عزابا الا أن البعض منهم رأى ضرورة الزواج لحفظ النوع وكان منهم متزوجين وكانوا شغوفين بالانغماس فى اللذات وشديدى الاحترام للقانون الموسوى ومارسوا الفنون السحرية وعبادة الشمس وأنكروا قيامة الجسد مما يدل على مسافة الخلف بينهم وبين عقائد الرهبان المسيحيين. ويغلب أن تلك الفئة قد تلاشت بعد خراب أورشليم عام ٧٠ للميلاد.

يطلق عليهن اسم «رابيوترادس» وقد تأثرت تلك الجماعة بالفلسفة اليونانية والمصرية وقالوا بفساد المادة التى تغلبوا عليها بالزهد واذلال الجسد وحياة الطهر والكمال.

ثالثا: طائفة المنقطعين:

وهذه الجماعة تعرف باسم «كتويكاى Katoikoi» وهى تشكل لونا خاصا وتضاف الى الصور المصرية القديمة لمظاهر النسك وكانت أفرادها تشمل طائفة من الفقراء عرفت أيضا باسم المتصوفين أو المعتذلين وكرست حياتها لخدمة الاله «سرابيس» منذ العصر البطلمى. وكانوا يعيشون داخل المعابد وعملوا كوسطاء بين الاله سرابيس وعامة الشعب الذين كانوا يفدون طلبا للشفاء من بعض الامراض أو بقصد تفسير الأحلام ويشتركون فى تشييع جنازة العجل أبيس. وكان أهل القرى يقدمون لهم من الزاد ما يسدون به أودهم. كذلك جماعة كهنة هليبوليس كانت تعيش على الكفاف وكان أفرادها حاولوا أن يسموا بعواطفهم الى أرقى مراتب النسك والتدين.

رابعا: ديانة مصر القديمة:

كانت العقائد الدينية بمصر القديمة ذات سيطرة على عقول المصريين وتغلغلت فى أعماق نفوسهم وكان لها تأثير كبير فى جميع أدوار حياتهم والعامل الاول فى أنهم تبوأوا مركز الصدارة فى الحضارة بين أمم العالم القديم وفى النبوغ الادبى والفنى. فعقيدة الحياة بعد الموت أهم تلك العقائد وأقدمها على الاطلاق. اذ فطن المصريون منذ فجر التاريخ الى أن حياة الانسان ليست من العبث بحيث تزول فى هذه الدنيا الفانية. وقد اهتدوا بطبيعة الحال الى التفكير فى الاخرة والى اعتبارها دار الخلود. ولذلك بنوا لدنياهم بيوتا من اللبن والخشب بينما أتخذوا للاخرة قبورا أشد صلابة لتحمل تقلبات الزمن وقسوة الطبيعة. فنحتوها فى الصخر وشيدوا الاهرامات المقامة بالاحجار الضخمة. وكذلك حفظوا الاجساد بعد الموت للاحتفاظ بها من التحلل والفناء. وصنعوا لها التماثيل العديدة لارشاد الارواح الى أصحابها عند زيارتها للقبور كما كانوا يعتقدون. ولعل من دواعى الانصاف للتاريخ ولهم أن ننوه هنا أن تفكيرهم فى الاخرة لم يكن ماديا خالصا على النحو الذى يبدو لاول وهلة. ونحن على غالب الاحتمال نرى أن تفكيرهم هذا كان روحيا.

ومهما يكن من شيء فيبدوا ان نظرة المصريين الى الحياة الاخرى أصبحت روحية خالصة بلاشك وذلك قبل مضى وقت طويل من بدء ظهورها اذ لدينا فى متون الاهرام وهى أقدم وأغنى الوثائق الهامة لتاريخ العقائد المصرية منذ حوالى ٢٥٠٠ عام ق.م. وكذلك فى كتاب الموتى فيما بعد نصوص صريحة تبين بوضوح تام على أنهم أصبحوا يؤمنون بأن مصير الانسان فى الاخرة يترتب على سلوكه فى هذه الدنيا. وأن كل شخص مسئول عن تصرفاته أن خيرا وأن شرا. وأن هناك حسابا يتلوه ثواب أو عقاب، وأليك نص من كتاب الموتى يقول فيه صاحبه».... لقد كنت قائما بواجباتى نحو أبى وأمى محبا لاخوتى وأخواتى ولم أصنع شرا بأحد خوفا من دينونة أوزريس».

واليك أيضا فقرة من وصية تركها أحد ملوك الاسرة التاسعة لابنه يقول فيها: «أن من عاش عيشة التقوى والفضيلة كان نصيبه الخلود فى الحياة الأخرى. وأن من جاوزت حسناته سيئاته أمام أوزريس طابت له الحياة الاخرى. أما من لم يضبط نفسه فى الحياة الدنيا فأن مصيره الى الهلاك.

وفى طقوس أوزريس وأيزيس الدينية كان الكهنة يخصصون لالهتهم فترات مختلفة للصوم والعبادة مع الامتناع عن أكل اللحوم والسمك وشرب الخمر. وكذلك فى أمثال حكماء المصريين مثل «كاجمنى» الذى كان وزيرا للملك «حونى» من ملوك الاسرة الثالثة. ثم الحكيم «بتاح حتب» الذى كان وزيرا للملك «أسيسى» من ملوك الأسرة الخامسة ما شابه أمثال «سليمان الحكيم». وقد دون بتاح حتب هذا مواعظة وحكمة بعد أن بلغ من العمر مائة وعشر سنوات أى بعد ماعركته الايام واقتبس أكثرها من السلف وقدمها نصائح للخلف ومن هذه الحكم.

(١) من كاجمنى

ـ أسلك طرق الاستقامة لئلا ينزل عليك غضب الله.

ـ احذر أن تكون عنيدا فى خصامك فتستوجب عقاب الله.

ـ اذا كان المرء خبيرا بأحوال دنياه سهل عليه أن يكون قدوة طيبة لذريته.

(ب) من بتاح حتب

ـ يعز الله من يشاء ويذل من يشاء وبيده مقاليد الامور ومن العبث ان يتعرض الانسان لارادته.

ـ ما أعظم الانسان الذى يهتدى الى الحق والى الصراط المستقيم.

ـ أن تدبير شئون الخلق بيد الله الذى يحب خلقه.

ـ أن حدود العدالة لثابته وغير قابله للتغيير.

ـ اذا شئت أن تعيش من مال الظلم أو تغتنى منه نزع الله نعمته منك وأفقرك.

ـ لاتكن يابسا فتكسر ولالينا فتعصر.

ـ اذا شئت أن تطاع فسل ما يستطاع.

ـ لا تغتر بعملك ولا تشمخ بأنك عالم فأن العلم بحر لا يصل الى آخره أى متبحر. وخذ المشورة أو النصيحة من الجاهل كما تتلقاها من العالم أو العاقل.

ليكن أمرك ونهيك لحسن الادارة لا لأظهار الأمارة وحب الرياسة.

وحكيم آخر كان يتقلد مركز الوزارة أيضا فى زمن الدولة الحديثة فى عصر الملك توت عنخ آمون وهو الفيلسوف «آنى» وقد جاء من ضمن تعاليمه وحكمه:

ـ ليست السعادة فى الثرورة واقتناء الاموال وأنما هى فى استنارة العقول بالفضيلة والتعلق بالقناعة والرضى والكفاف.

ـ لا تكن ثرثارا وكن قليلا فى كلامك حذرا فى أحاديثك وفى زياراتك.

ومن أرق نصائح ذلك الحكيم السامية العبارات الجلية التى تركها للام حين قال «ضاعف الخبز لامك واحملها كما حملتك على كتفها بعد أن ولدتك لأشهر وبقى ثديها فى فمك ثلاث سنوات. أنها لم تتأذ قط من فضلاتك ولم تتساءل قط لماذا تشغل نفسها بهذه الفضلات. وقد ساقتك الى المدرسة ثم لما تعلَمت الكتابة وقفت بجنابك كل يوم تقدم لك من عندها خبزا وجعة. فأذا كبرت وتزوجت وصار لك بيت تقوم عليه فتذكر دائما أن أمك هى

التى ولدتك. وليكن من حظك الا تجد أمك هذه ما يحملها على لومك ولا على أن ترفع يديها الى الله شاكية.

وما من شك أن هذه الحكم والنصائح آيات بينات ودليل رائع على ما تحمل من سمو الفضائل وأنبل العواطف والمشاعر الفياضة. وليكن معلوما أنه كان هناك حكماء عديدون آخرون بين قدماء المصريين ظهروا فى عصور مختلفة ولهم من التعاليم والحكم والامثال الشىء الكثير أيضا.

ومن دواعى الفخر والاعجاب أن قدماء المصريين هم أول شعب فى الوجود نادى بفكرية الخلود كما صدق قول زعيم المؤرخين القدماء اليونان «هيرودت» عنهم فى بعض عباراته «أنهم كانوا يعرفون الله ويقدسونه وأشد الشعوب مخافة منه».

ومما هو جدير بالذكر أن نشير الى بعض الحقائق الاصلية فى الديانة المسيحية وما كان يوازيها فيما وصل اليه العقل المصرى القديم فى نضاله الطويل للوصول الى قواعد الديانة المصرية فى أدوارها المتأخرة. ففكرة البعث وخلود الروح والثواب والعقاب فى العالم الاخر كانت من أسس الديانتين. كما أن كثيرا من الاراء التى أنطوت عليها الديانة الجديدة لم تكن غريبة على عقول المصريين. فالثالوث المقدس فى المسيحية يقابل الثالوث المصرى القديم من أوزريس وأيزيس وحوريس.

كما كان هناك ثواليث أخرى محلية كثيرة. وفكرة ولادة الاله من عذراء بكر يقابلها كذلك فكرة ولادة الاله آبيس من عجلة بكر تحل فيها روح الاله «بتاح» والعماد بالماء المقدس معروف فى الديانتين. والصليب الذى هو رمز الحياة الروحية فى المسيحية كان رمز الخلود عند المصريين القدماء. اذ نلاحظ آلهتهم على الدوام وفى يدهم ذلك الصليب ذو الرأس وهو علامة عنخ عندهم ورمز للحياة أيضا. فليس بعجيب أذا أن يقبل المصريون على المسيحية وكذلك الرهبانية دون جهد كبير.

ومما يتبين لنا من تلك المبادىء المصرية القديمة وما برزت فيها من صور الفلسفات الدينية المختلفة والفضائل والامثال والحكم العديدة التى أتسمت بها والميول النسكية التى أنطوت عليها فأنها دفعت بعض الكتاب والمؤرخين الى التفكير أن الرهبنة المسيحية قد تأثرت بمثل

هذه الاتجاهات النسكية فيها صورة للتقليد. وفسرها معتنقو الرهبنة على أشكالها المختلفة التى ظهرت بها على مختلف العصور ولكن مما لا جدال فيه فان الرهبنة المسيحية قامت على التعاليم والمبادىء والنظم التى نادى بها المسيح والرسل.

خامسا: جماعة الفلسفة الافلاطونية الحديثة:

نشأت هذه الفلسفة فى الاسكندرية التى تشتهر بالافلاطونية الحديثة على يد أشهر أتباعها «امونيوس سقاس». وقد أعتنق والده الديانة المسيحية وعاش مع أسرته الفقيرة بالاسكندرية. وقد أنتشرت فلسلفة «سقاس» أنتشارا عظيما حتى وصلت الى جميع العقول كما ذاعت بسرعة وسط العامة الذين أمكنهم فهمها وكذلك بين كبار المثقفين. فاهتم بدراستها كما أعجب بها فلاسفة عظماء مثل القديس «أوغسطينوس» وكان لها تأثيرها العميق على كثير من قاده المسيحية. وليس فى الامكانى أن نحدد مقدار التأثيرات المسيحية التى أشتملت عليها فلسفة «أمونيوس» هذا. ولكن يمكن القول أن الفلسفة أخذت على يديه اتجاها يختلف عن سابقيه. لان الافلاطونية الحديثة لم تكن مجرد فلسفة وأنما كانت أيضا نظاما دينيا. أو كما يقول البعض أنها «حولت الهالينية الى لاهوت».

وقد توفى أمونيوس سقاس حوالى عام ٢٤٣م دون أن يترك لنا كتبا وأنما أمكن الوقوف على مبادئه وفلسفته من كتابات تلميذه «أفلوطين» «الذى ولد فى مدينة أسيوط عام ٢٠٤ للميلاد. ودرس الفلسفة فى مدينة الاسكندرية لمدة أحدى عشرى سنة على يد «أمونيوس سقاس» وأهم مبادىء هذه الفلسفة الافلاطونية الحديثة:ـ

أ ـ الدعوة الى التحرير من عبودية الجسد بالحياة النسكية التقشفية.

ب ـ مراعاة الجانب التأملى فى الحياة ونادى بعض أتباعه بأنه أذا تطهرت الروح من النزعات المادية وسمت عن الدنياويات أمكنها أن تصل الى درجة من الروحانية النورانية والتأمل فى الله.

جـ ـ ولن تتحرر الروح عن الملذات المادية والنزوات الدنيوية الا عن طريق التقشف وأذلال الجسد والاعتزال عن العالم ومباهجه والزهد فيه.

الاديرة المصرية والرهبنة

أولاً: أديرة الوجه البحرى

الرهبنة المصرية

* أوائل النساك.
* الرهبنة الأنطونية وأثرها.
* مناطق جماعات الرهبان.

أولا «أهم أديرة الوجه البحرى»

يرجع تاريخ ظهور الرهبنة على ضفاف وادى النيل منذ ظهور الديانة الجديدة بين المصريين وانتشار المسيحية فى مصر وانتظام كنيستها على أسس ثابتة الدعائم. بدافع من الروحانية والزهد بما توحى بهما الديانة المسيحية. ومع ظهورها بدأت مظاهر النسك تنتشر تدريجيا فكان أول ما وصل الى علمنا عن أوائل النساك كان «فرونونيوس» ١٣٨ ـ ١٦١م. ذكر الآب شينو "Chenau" فى كتابه عن «قديسى مصر» صفحة ٤٧٤ أن القديس المذكور وهو أحد رهبان صحراء (نيتيريا كان ممن اعتنق الرهبنة فى مصر السفلى قبل انتشارها. وأول من فكر فى معيشة العزلة بهذه الصحراء ليجرب هذا النوع الغريب من المعيشة. كما ذكر «كورزن Curzon فى كتابه «زيارات أديرة الشرق» صفحة ٧٦ أن هذه الفكرة تحققت فى أواسط القرن الثانى للميلاد. وأن القديس المذكور اعتزل الحياة فى هذا الوقت بوادى النطرون ومعه سبعون أخا بقصد النسك.

وينوه العالم الانجليزى «ولس بدج Wallis Budge» على أن تلك الحملة الرهبانية المنظمة ما هى الا واحدة من حملات متعددة كانت تحدث تباعا دون أن تسجلها المخطوطات المعاصرة. ويرجيع ذلك الى غالب الاحتمال لحدوثها فى الخفاء بغير اعلان أو ضوضاء. لأن الديانة الجديدة وأساسها يقوم على أنكار الذات وعدم التباهى بأمثال هذه الأشكال من العبادة والتنسك. وكانت تخص الزاهدين والرهبان أو المعتدلين على الاحتفاظ بأعمالهم سرا خفيا لا يعلمه الا الخالق. وأصدق دليل على هذا الزعم ذلك المثل الثانى الذى يظهر فى قصة حياة «الأنبا بولا» الذى هرب من الوادى فى الصعيد الأوسط وتوغل فى الصحراء الشرقية حتى

اهتدى الى احدى كهوف الجبال المطلة على البحر الأحمر وهو فى سن مبكرة. ومكث بها حتى بلغ من الكبر عتيا. حتى يقال أنه توفى فى العام الثانى عشر بعد المائة من حياته.

ولولا أن اهتدى الى مكانه فى أعماق الصحراء «القديس أنطونيوس» مصادفة وقيل بألهام من الله بتسخير «قنطورا» أشار اليه عن مكانه لظل أمره مجهولا. وعلى ذلك يمكن الجزم بأن الأمثلة المجهولة من هؤلاء النساك والمعتذلين المعاصرين أكثر كثيرا مما هو معروف.

أما عن القديس بولا فيعتبر من زعماء النساك ومن أعظم أقطاب الرهبنة المسيحية. فلابد من الالمام بفكرة وجيزة عن تاريخ حياته بقصد اماطة اللثام على هؤلاء المعتذلين من كبار المتوحدين وطرقهم فى الزهد. ولد «بولا» حوالى عام ١٥٠ للميلاد من أبوين موسرين وأصبح يتيما فى السادسة عشر من عمره. فتولى الوصاية عليه زوج أخته. وقيل عنه أنه كان يتحين الفرص للايقاع به. وقد تثقف بثقافة عصره المزدوجة وهى الثقافة الأغريقية والمصرية على السواء. ودرس أصول الدين المسيحى الذى تعلق به. ولما شعر أن زوج أخته المذكور قد عزم على تسليمه الى أيدى الولاة فى أحدى موجات الاضطهاد التى كثيرا ما كانت تجتاح المسيحيين فى العصر الرومانى، قرر بولا أن يهجر العالم بما فيه ويرحل الى الصحراء لعبادة الله ومباشرة حياة التقشف والرهبنة. وقد وصل فى تجواله الى المكان الذى أقام فيه الدير وحمل اسمه فيما بعد حتى اليوم.

وقد جاء فى كتاب «البستان» للرحالة الكبير «بلاديوس» وصف طريف للكهف الذى كان يقيم فيه بولا. ونظامه المعاشى وأسلوبه فى العبادة وشخصيته وكيف قضى نحبه فى سلام. فالكهف الذى اهتدى اليه كان واسعا من الداخل ذا فوهة صغيرة يغلقها بحجر كبير. ويمتاز بنظافته الفائقة وأنبساط أرضه ونعومة التراب المنثور عليه. وبجوار الكهف بعض النخيل الذى كان يقتات بثمره. ويرتدى برداء من الليف الذى يجمعها منه. وقد وجد بولا فى هذا المكان السلام الشامل والحياة الكامله التى كان ينشدها. وعاش قرابة تسعين عاما فى هذه البقعة الموحشة ولكن هذه الوحشة لم تؤثر على حلاوة شخصيته كما يتبين من رواية لقائه مع «القديس أنطونيوس». وكان يقضى أيامه ولياليه فى التعبد والصلاة والتأمل الهادىء. فلما وافته المنية ورقد الى الأبد فى أثناء الصلاة وأنطونيوس على مقربة منه احتار فى أمر دفن جثته لأن أرض الجبل الذى كان يعيش عليه صخرية. وهنا يروى «بلاديوس» قصة الأسدين اللذين

ظهرا وحفرا الحفرة التى أنزل فيها جسد الأنبا بولا بعد أن استولى انطونيوس على ردائه الليفى وحمله معه.

والشاهد أن أصول الرهبنة فى مصر عميقة الجذور بعيدة الغور وتاريخها أقدم من تاريخ القديس أنطونيوس. ولكن البداية لها لم تكن من نوع الحركات الاجتماعية المنظمة. وأنما أخذت وضعها الثابت المعروف والشهرة العالمية الذائعة الصبت على يد الأنبا أنطونيوس حيث تطورت تطورها التاريخى حتى أطلق عليها المؤرخون ذلك الأسمى الذى أسبغوه عليها وهو «الرهبنة الأنطونية» نسبة اليه. وكان هذا الدور بلا شك هى الخطوة البارزة حقا من مراحل تاريخ الرهبنة المصرية بشكلها المألوف لأن ما سبق ذلك لا يمكن اعتباره الا بمثابة مقدمات ارتجالية مهدت لهذا النظام الجديد.

وان كانت هذه الأدوار الأولى متداخل بعضها فى بعض ويصعب رسم حدودها المضبوطة فى نقط ثابتة معينة كالأنظمة والحركات التى تنمو نموا طبيعيا تبعا للظروف والأحوال. وقوام الرهبنة الأنطونية فى عصرها الأول كان ينطوى على العزلة الفردية التامة واغراق الراهب فى ضروب الزهد والمبالغة فى التقشف والصوم وتعذيب الجسد واذلاله لخلاص الروح. كما كانت حياة القديس أنطونيوس ذاتها مثلا أعلى لهذا النوع من النسك. وقد كتب عنها بالتفصيل القديس «أثنا سيوس الرسولى» بطريرك الأسكندرية وأسقفها الذى تزاور معه وعرف عن حياته كثيرا.

نشأة أنطونيوس

ولد أنطونيوس حوالى القرن الثالث للميلاد فى بلدة «قمن العروس» بمركز الوسطى بأقليم بنى سويف من والدين مسيحيين أثرياء. وكان والده مزارعا ويملك مزرعة خصبة تبلغ مساحتها ٣٠٠ فدان. وعاش الأبن فى بيت والديه حياة الترف وتعلم منهما قواعد الدين المسيحى. وأن كان من المحقق أنه لم يأخذ قسطه من التعليم الدنيوى أذ عرف عنه أنه ظل أميا لا يعرف الكتابة أو القراءة حتى أواخر أيامه. ولم يتصل بالثقافة اليونانية بتاتا فظل مصريا صميما فى طبعه وتفكيره. وحوالى عام ٢٧٠ ميلادية بينما كان فى العشرين من عمره توفى والده وترك له ثروة كبيرة وأختا صغيرة يقوم على تربيتها والعناية بشئونها الا أن أنطونيوس

الذى استهوته قواعد العقيدة المسيحية كان كثير التردد على كنائسها وبدأت تظهر عليه أعراض الاستخفاف بالحياة الدنيا حتى أنه فى ذات يوم عندما كان فى الكنيسة سمع الكاهن يعظ الشعب مرددا قول الكتاب المقدس بأن المرء اذا أراد الكمال وجب عليه أن يبيع ما يملك وأن يوزعه على المعوزين ليكسب بذلك ملكوت السموات. فاعتبر أنطونيوس هذا الكلام موجها اليه من الله. وسارع الى اجابة الدعوة ببيع أملاكه الا ما يكفى لسد حاجة أخته ووزع قيمتها على المساكين. ثم قرر بيع البقية الباقية أيضا عندما سمع الكاهن مرة أخرى يردد الآية القائلة لاتهتم بالغد بل اجعل الغد يهتم بنفسه يكفى اليوم شره. ثم عهد بشقيقته الى جماعة من العذارى اللواتى دأبن الاجتماع بحجر الكنيسة للتعبد وتدريب النفس على القداسة ورحل هو الى سفوح الجبال الشرقية المجاورة لحافة الوادى بعد أن عبر النهر حيث بنى لنفسه صومعة انفرد فيها. وكان أحيانا يخرج منها ليبحث عمن سبقوه الى العزلة والتقشف لكى ينقل منهم دروسه الأولى فى الرهبنة وهكذا أخذت هذه الحياة الجديدة كل تفكيره. فشرع يتوغل فى الصحراء تدريجيا للابتعاد ما أمكن عن سكان الوادى وظل يواصل رحلاته حتى استقر به الحال نهائيا فى الجبال الواقعة قرب ساحل البحر الأحمر. وعاش بقية أيام حياته فى كهف على قمة جبل بقرب من الدير الذى يحمل اسمه الى اليوم. ومات حوالى عام ٣٥٥م وكان يبلغ من العمر ١٠٥ من السنين بعد أن طلب من تلاميذه أن لا يحنطوا جسده على طريقة أسلافه من قدماء المصريين وأن يدفنوه فى مغارته.

وعرف عن القديس أنطونيوس أنه لم ينزل فى مدة الخمسة والثمانين عاما التى قضاها فى تلك البقعة الى الوادى على غالب الاحتمال سوى مرتين ولأسباب ضرورية عندما شعر بأن أخواته فى الدين هنالك فى حاجة الى هدايته ومساهمته فى تشجيعه عندما حاقت بهم المحن الكبرى التى حلت بالمسيحية فى أوائل عهدها بمصر. أما المحنة الأولى فهى الاضطهاد المرير الذى أنزله الامبراطور الرومانى مكسيمينوس بمسيحى مصر عام ٣١١م فلم ير القديس بدا من الخروج عن عزلته ليشد أزر المؤمنين ويقويهم فى أمانتهم لما بلغ الاضطهاد أشده. فكان يزور السجون ويتنقل فى المدائن معرضا حياته لأشد الأخطار فى شجاعة ورباطة جأش منقطعى النظير. والمحنة الثانية وقعت عند استفحال هرطقة «آريوس» الأسكندرى فى أثناء حكم الأمبراطور قسطنطين الكبير. فهبط أنطونيوس من الصحراء الشرقية الى المدن المصرية عام ٣٣٨م لكى يساعد القديس أثناسيوس فى كفاحة الدامى ضد الهراطقة من أتباع آريوس

المذكور ولا شك فان شخصيته كانت من أكبر الدعائم فى رد المصريين الى حظيرة الايمان المسيحى الحق وكبت هذه الضلالة أو البدعة الجديدة.

أما نظام حياة القديس أنطونيوس[1] فى عزلته فكان بسيطا بالرغم من شده تقشفه بتناول القليل من الخبز الجاف الذى أدركه التعطين وبعض الملح ولا يشرب غير الماء. وكان أفطاره مرة واحدة عند الغروب. وأحيانا كان يمضى ثلاثة أيام أو أربعة فى صيام كامل عن الطعام والشراب. وروى أنه كان فى بعض الأوقات يمد فترة الصيام التام حتى تصل الى أسابيع عدة. وكان يقضى لياليه ساهرا يصلى فاذا نام كان نومه لفترة وجيزة وعلى حصيرة من سعف النخيل. ولم يغتسل طوال حياته الرهبانية أبدا كما أنه لم يدهن جسده بالزيت وكان رداؤه عبارة عن فروة غير مدبوغة يلبسها مقلوبة لكى يقع شعرها على جسده أمعانا فى تعذيب نفسه بخشونتها. ولم يكن يتدثر بغطاء أثناء نومه الا بعد أن تقدم فى السن وأخذ منه الضعف كل مأخذ فكان يضع فوقه احدى الفراء.

أما شخصيته فقد أطال وشاد فى وصفها القديس أثناسيوس. فكان حليما لا يغضب وبلغ من الحكمة وعمق التفكير مع بساطته مبلغا رائعا. وأسلوبه فى الكلام كان قويا واضحا ومقنعا بالرغم من أنه كان أميا ولم يتكلم سوى اللغة المصرية ولم يدرس علوم الأغريق وفلسفتهم وكان ذهنه حاضرا وقريحته وقادة كما يظهر من جدله مع من زاره فى عزلته. وظل ايمانه بعقيدته ثابتا كالصخر كما بقيت نفسه هادئة تشع السلام على من حواليها. وكان شفيقا بالناس رحيما بهم قادرا على معالجة ما يصادفهم من الأزمات الروحية بدون أن يقسو عليهم أو يبعث اليأس فى نفوسهم واسع الادراك محبوبا من الجميع على السواء.

فلا غرو اذا أن تجتذب مثل تلك الشخصية الفذة أعدادا هائلة من الرهبان الذين تتلمذوا عليه. وأصبح هو فى نظرهم المثل الأعلى للحياة الكاملة. يقتدون به وينسجون على منواله. حتى أن الصحراء أصبحت تعج بجماعاتهم فى جبالها الشرقية. ولكن النظام ظل فى أساسه نظاما فردى أى قوامه العزلة والتقشف والصوم لأن تعذيب الجسد والحرمان كان هو الوسيلة

(١) عندما ذاع صيت الأنبا أنطونيوس فى النسك وشدة ورعه وتقواه واتصلت أخباره بالأمبراطور قسطنطين فأرسل اليه يدعوه الى زيارة القسطنطينية كى يراه، فاستعظم الرهبان تلك الدعوة وافتخروا بها وألحوا عليه بأن يلبى طلبها ولكنه اكتفى بأن رد عليها برسالة.

الموصلة لنجاة النفس وخلاص الروح. وكان الأخوة من أتباع أنطونيوس يتنافسون فى هذا الميدان الى حدود تفوق الوصف.

غير أن نظام العزلة التامة زاوله هؤلاء الجبابرة من المتوحدين كان مصيره الطبيعى أن يتطور تطورا بطيئا الى نوع من الرهبنة الاجتماعية المخففة لمجابهة الصعاب المادية والروحية التى كانوا يتعرضون لها فى تلك الصحارى والقفار الموحشة. وأخذت بوادر هذا التطور فى الظهور شيئا فشيئا حتى فى أثناء حياة القديس أنطونيوس نفسه. وتعتبر هذه المرحلة هى الخطوة الثانية فى تطور الأنظمة الرهبانية المسيحية وهى المتوسطة بين التعاليم والنظم الأنطوانية الأولى وقوانين الديرية الباخومية.

ولا شك أن هذا التطور كان أمرا أنسانيا طبيعيا فى الظروف القاسية التى كانت تحيط بالمتوحدين الذين عمدوا الى انتزاع أنفسهم انتزاعا كاملا من كل الصلات البشرية. ولم يحسبوا للمخاوف والأخطار التى كانت تتهددهم أى حساب. فمن الناحية المادية وجدوا أنفسهم يعيشون فى صحارى وقفار جرداء تندر فيها ينابيع الماء. وتكاد تكون خلوا من موارد الغذاء. ولابد لهم من الارتحال أميالا عدة ليحصلوا على ما يمكنهم من سد رمقهم من المأكل والمشرب مهما كان ضئيلا. فاذا نزلت بأحدهم نازلة المرض وعجز عن التنقل كان مصيره الموت المحقق. ثم أن الصحراء الى جانب ذلك كانت تجوس جنباتها الحيوانات الضارية ويجوب أكنافها قطاع الطرق من أهل البادية وأنصاف المتوحشين وكلاهما لا تعرف الرحمة الى قلبه سبيلا. أما من الناحية الروحية فقد كان النساك ولا سيما البادئون منهم فى مستهل الرهبنة يتعرضون لأزمات نفسية عنيفة تؤدى بكيانهم المعنوى. ولدينا أمثلة وأن كانت قليلة من الرهبان الذين أصابهم الجنون فكفروا بكل شىء وعادوا يعيشون فى المدينة عيشة غير طبيعية بعد أن قضوا أعواما فى جوف الصحراء على الكفاف وقتل الغرائز الأنسانية والتقشف والتأمل والصراع من أنفسهم. ونذكر من بين هؤلاء «فالنس Valens الفلسطينى وكذلك «بطليموس» المصرى.

ولذلك كان من الطبيعى لهولاء المتوحدين أن يفكروا فى التخفيف من عزلتهم بعض الشىء بدافع الغريزة البشرية حب البقاء. فأخذوا فى تركيز صفوفهم فى مناطق معينة حول

الشخصيات الكبرى من الآباء الروحيين الأمجاد ليتتلمذوا على أب لهم فى الروح اشتهر بالقداسة والعلم بأصول الديانة والتفقه فى الكتب المقدسة. وليسترشدوا بتعليمه ويتشبهوا به فى قدسيته وأن كان كل منهم لا زال يحافظ على حياة التوحد التى وهب نفسه لها فى كهفه أو قلايته دون أن يتعرض له جاره أو يقطع عليه أحد زملائه حبل التفكير والتأمل والعبادة. ولكن مغاورهم وقلاليهم كانت قريبة بعض القرب من بعضها تقوم حول قلاية أبيهم الروحى. وبهذه القربى أيضا يتغلبون على الصعاب المادية التى كانت تواجههم فاذا ما نزلت بأحدهم نازلة المرض أو كارثة غير منظورة كان له من جيرانه من الأخوة عون فى الشدائد والنوازل وهم فى نفس الوقت يجتمعون الى أبيهم الروحى بين آونة وأخرى ليشد أزرهم ويحسن توجيههم ويساعدهم فى التغلب على أزماتهم النفسية.

ومن العوامل الأخرى التى دفعتهم الى هذه الحياة الاجتماعية المخففة هى الأضطهادات الدينية المريرة التى كانت حكومة الأمبراطورية تشنها بعنف ضد المسيحيين للقضاء عليهم. فنجد أن المتوحدين بعد اضطهادات «ديسيوس ودقلديانوس» بصفة خاصة يجمعون صفوفهم عند الضرورة للدفاع عن أنفسهم ومهما يكن من أمر هؤلاء الرهبان المسالمين فان كثرة أعدادهم وقد بلغت الألوف المؤلفة وهم مسلحون بعصيهم الغليظة أنما كانوا يكونون جيشا لا يستهان به. ولا تستطيع أى حكومة أن لا تقيم لخطرهم على عمالها أى وزن. وقد زادت أعداد الرهبان زيادة هائلة حتى امتلأت صحراوات مصر الشرقية والغربية بجماعاتهم وتركزت فيها.

المناطق التى التجأت اليها جماعات الرهبان

امتلأت البلاد منذ القرون الأولى لظهور الديانة المسيحية بجماعات وفيرة من الرهبان. وانتشرت فى طول البلاد وعرضها وفى شمالها وجنوبها لا فى صحاريها وقفارها فحسب بل وشملت العديد من جنبات وادى النيل حتى أصبحت الأديرة التى كانت تتركز فيها أفرادهم الكثيرة فى عصر من عصورها تزيد على المئات فى عددها. وما زلنا حتى عهدنا هذا نسمع العديد من أسماء البلدان والمدن والقرى يطلق عليها اسم دير وعلى الأخص فى كثير من بلدان الوجه القبلى مثل بلدة دير تأسا ودير الجنادلة ودير ريفا ودير درونكة ودير الزاوية وغير ذلك. أما أهم المناطق التى تركزت فيها جماعات النساك وكان دورها تاريخيا خطيرا فهى: ــ

أولا: منطقة بسبير:

تقع هذه المنطقة فى مصر الوسطى ويصعب تحديد مكانها تماما ولكن يقال أنها كانت واقعة فى الجبال التى تبعد بضعة أميال عن الحافة الشرقية من الوادى قريبة من مدينة بنى سويف. وهى المنطقة التى بدأ فيها القديس أنطونيوس حياته الرهبانية الأولى ثم انتقل منها الى الجبال النائية التى تطل على البحر الأحمر. ثم تبعه الى «بسبير» وما حولها عدد هائل من الرهبان الذين شغفوا بشخصيته التى اجتذبتهم ورغبوا فى الالتفاف حوله والتتلمذ عليه وعاشوا فى رعايته الروحية. وقد ازداد عددهم فى حياته وفى شيخوخته حتى بلغوا الألوف حسب ما جاء فى وصف الرحالة والكتاب الذين صوروا بأقلامهم لنا الحياة العامية للرهبان والنساك فى ذلك العصر فى المنطقة المذكورة بطريقة رائعة تنتزع الأعجاب.

وكان يقيم فى المنطقة المذكورة على مقربة من كهف أب الرهبان القديس أنطونيوس زعيم النساك «الأنبا بولا» الذى سبق أن ذكرنا نبذة وجيزة عن تاريخ حياته وكذلك عن القديس أنطونيوس. وقد اهتدى الأنبا بولا الى الكهف الذى قضى فيه مدة حياته فى نفس المنطقة. وكان بالمغارة نبع الماء الذى كان يرتوى منه. كما بنى فى المكان أيضا نفس الدير الذى يحمل اسمه حتى اليوم. وفيه عدد من الرهبان الى الآن وهو فى جبل القلزم القريب من البحر الأحمر. ومن رضاء الله على الأنبا بولا هذا وتقديرا لنسكه وصلاحه انه سخر له غرابا كان يحمل اليه كل يرم نصف رغيف يقتات به ولغذائه اليومى. وعاش بقية عمره على هذا الحال. كما روى أن الذى كتب ترجمة حياته نقلا عن رواية القديس أنطونيوس هو مكاريوس تلميذه.

أما سبب الاهتداء الى الأنبا بولا ومكانه فيرجع كما قيل أن الأنبا أنطونيوس لما بلغ من العمر سن التسعين حاربه الشيطان بفكر الأعجاب على أنه هو أول من اتخذ القفر مسكنا وأول من أتقن فضائل عديدة أذ خدم ذاته وخدم تلاميذه والكنيسة وجاهد فى سبيل العقيدة والايمان مرارا ضد الوثنيين والفلاسفة والهراطقة. وقد سبق أن حارب هذه الأفكار قديس نيتيريا الكبير (الأنبا مكاريوس) من قبل. فأوعز الله الى «القديس أنطونيوس» بهاتف فى دجى الليل يقول له أنه تقدمك فى هذه البرية انسان يسكن فى مجاهلها أذهب وفتش عليه. وفى صبيحة الغد ترك الكهف الذى يقيم فيه وتوغل فى البرية يومين وليلة وهو لا يكف خلالها



أيقونة تمثل الأنبا بولا والأنبا أنطونيوس مؤرخة سنة ١٤٩٣ قبطى أى ١٧٧٣م. ويلاحظ الغراب يحمل اليهما رغيفاً من الخبز

عن الصلاة والتضرع طالبا من ربه أن يهديه الى مكان النساك. ثم شاهد وحشا صاعدا الى الجبل وهذا الوحش هو ذلك المخلوق الخرافى المسمى «بالسنتور» والغريب فى شكله أن جسمه جسم جواد ووجهه أشبه بالأنسان. وكثيرا ما نشاهد صور هذا المخلوق مرسومة مع صور الأنبا أنطونيوس ذلك لأنه يقال عنه أنه ساعده وأشار اليه عن المكان الذى كان فيه للأنبا بولا. فتعقب الأنبا أنطونيوس الحيوان المذكور حتى أرخى الليل سدوله وشرع يفتش عن مكان يأوى اليه فترة الليل. فصادف مغارة فمال اليها ولما دنا منها لمح داخلها فى الظلام الحالك نور سرج يضىء فيها فعلم أنه وجد من يبحث عنها.

وأما الأنبا بولا لما أحس به أسرع الى الباب وأغلقه وتنحى عنه وشرع يصلى وظل القديس أنطونيوس يقرع الباب باكيا وبعد أخذ ورد طويل فتح الأنبا بولا البابا الضيق فتقابلا وتعانقا ثم جلسا يتفاوضان ويتفاهمان عن حال الدنيا. واذا يظهر الغراب فجأة بينهما وهو يحمل لهما رغيفا كاملا فتأكد الأنبا بولا ما وعده الله به. ثم قال بولا لضيفه عن معرفته منذ زمان بالتجائه فى تلك البرية وأن الله قد وعده بزيارة القديس أنطونيوس اليه لكى يواريه التراب عند انتهاء زمن غربته فى ذلك العالم ومفارقة الجسد.

أما أهمية المنطقة المذكورة أيضا فعلاوة أنها ارتبطت بذكرى اثنين من أقطاب النسك والرهبنة فى تاريخ المسيحية على الأطلاق فما زالت حتى اليوم تحوى الآثار التى تحمل اسميهما. وهى عبارة عن ديرين عجيبين فى الواقع يتشابهان فى منظرهما بصفة عامة

ويشتركان فى الظروف والأدوار التى مرت عليهما وأن اختلفا فى تفاصيل الأبنية من حيث كثرتها واتساعها.

أما دير الانبا بولا: فيقع غرب أحد جبال الجلالة القبلية العالية وتحيطه هضاب مرتفعه. وهو مبنى على هضبة مرتفعه. وهو أبعد الاديرة عن المدن كما أن الطريق الموصل اليه من أصعب الطرق وأخطرها ومحصور من جميع الجهات بجبال عالية تكاد تحجب عنه تيار الهواء وضوء الشمس وكان الوصول الى هذا الدير بصفة خاصة فى الازمنة السالفة لا يستغرق وقتا طويلا ومجهودا شاقا فحسب بل الطريق اليه كثيرة الوعورة بين سلاسل الجبال منهك وشديد الخطورة. ويتعرض فيه الرحالة أحيانا الى قطاع الطرق واللصوص من قبائل البدو أو الوحوش الضارية. وكانت الابل هى الوسيلة الوحيدة التى اتخذها الرحالة فى الذهاب اليه وقتئذ. وكان يحتاج الرحالة الى مسيرة يومين من دير الانبا انطونيوس اليه والى ستة أيام من شاطىء النيل والى ثلاث ساعات من شاطىء البحر الاحمر. وبالرغم من تغيير طرق المواصلات اليوم عما كانت عليه سابقا بحيث أنشئت الطرق المعبدة الى تلك المنطقة وأمكن الوصول اليها بسهولة وفى وقت قصير ولا يمكن مقارنته عما كانت قبلا الا أن الرحلة تحتاج لمجهود لا يستهان به.

أما مساحة الدير فتبلغ حوالى خمسة أفدنه وهو مستطيل طوله ٢٠٠ متر وعرضه ١٠٠ متر وقد أقيم فى نهاية القرن الرابع وبقرب المكان الذى كان يتعبد فيه الانبا بولا. وقد زاد فى مساحته واحاطته الامبراطور «جوستنيان» ويوجد بداخله أربع كنائس وأهمها هى الكنيسة التى شيدت على اسم مؤسس الدير ويرجع عهدها الى بناء الدير أو قبله بقليل. وذلك لان الرهبان عندما أستقر بهم المقام هناك لابد وأنهم قد بنوا كنيسة يجتمعون فيها للاشتراك فى الصلوات العامة ولم يكن أمامهم أنسب لذلك الغرض من مكان المغارة التى قضى فيها القديس معظم حياته. وتمتاز الكنيسة المذكورة بغرابة موقعها فهى مبنية على بعد ثلاثة أمتار تحت سطح الأرض فى نفس المغارة التى عاش فيها الانبا بولا وليست مبنية كلها وأن سقف الهيكل القبلى والأوسط من الجبل نفسه. وقد هجم البدو القاطنين فى المنطقة على الدير وسلبوا ما وصلت اليه أيديهم وقتلوا الكثير من رهبانه والحقوا به الحريق والخراب وكان يتكرر ذلك الهجوم على الأديرة مرارا وفى فترات مختلفة ومنها ما وقع فى عام ١٤٨٤ للميلاد وقد تولى الاصلاح فيه الأنبا غبريال السابع البطريرك الخامس والتسعون فى عداد البطاركة «١٥٢٥ ـ ١٥٦٨ ميلادية». وفوق الكنيسة الأولى توجد كنيسة أخرى تسمى باسم «أبى سيفين». وقد شيدها

المعلم ابراهيم الجوهرى فى أواخر القرن الثامن عشر. ويسجل ذلك الكتابة المدونة على أحد أبواب الكنيسة. ثم كنيسة ثالثة وتسمى بكنيسة الملاك وهى شديدة الشبه بكنيسة الرسل فى دير الأنبا أنطونيوس مما يدل على أنهما بنيا فى زمن واحد وغالبا من نفس الشخص. ونظرا لأن الأنبا «خرستودولس» كان من رهبان هذا الدير. فلما تعين مطرانا على القدس قام بعمل عمارة كبيرة فيه وأضاف مساحة اليه كما أدخل فيه ضمن حدوده عين الماء الرئيسية. أما الكنيسة الرابعة فهى مكرسة على اسم العذراء وهى تقع بداخل الحصن القديم ويستخدم الرهبان كنيسة الملاك السابق ذكرها لاقامة الصلاة فيها معظم أيام السنة لاتساعها ودفئها كما لا تستعمل الكنائس الأخرى فى الدير الا فى أعياد القديسين المكرسة على أسمائهم الكنائس أو الهياكل.

أما ما يشتمل عليه الدير المذكور بخلاف ما ذكرناه من الكنائس هى الأجزاء والأقسام الآتية.

الأسوار: وهى نوعان منها القديم والحديث. ولكانهما يتفقان فى الارتفا ع والضخامة ويبلغ ارتفاعها حوالى عشرة أمتار وعرضها متران وسطحها مستو على خلاف سطوح أسوار دير أنطونيوس.

اقسامه: قسمان أحدهما قديم على ما كان عليه ويحوى فى الجهة القبلية منه جميع المبانى من الكنائس والقلالى والمخازن وغيرها. وفى الجهة البحرية حديقة الدير. أما القسم الاخر فيحوى المبانى التى أضافها الأنبا خرستودولس للدير وبه عين الماء الرئيسية ثم عين أخرى صغيرة بها نخيل والمقبرة.

الحصن: وهو أهم ما فى الاديرة جميعا بعد الكنائس وهى الحصون القديمة التى أنشئت ليلجأ الرهبان اليها عندما يقتحم البدو والأعداء عليهم الدير. وهى عبارة عن مبنى ضخم مرتفع يخيل للناظر أنه عديم النوافذ والأبواب. ولكن لها باب فى الدور الاعلى وأمامه كوبرى يتحرك طرفه عند الحصن أو يمكن تثبيت طرفه الاخر على بناء عال فى مواجهته. وعلى ذلك الكوبرى يمكن للرهبان أو الرحالة أن يدخلوا الحصن. ولكنه أذا ما رفع سد الباب سدا محكما ويتعذر على أى شخص دخول الحصن. وبذلك يمكن من بداخله أن يبقوا فى أمان لفترة طويلة دون الحاجة الى الخروج. وكانوا يخزنون عادة بداخلة ما يحتاجون من المأكل وفيه بئر الماء كما فى أعلاه كنيسة يجتمعون فيها للصلاة ويظلون على هذه الحال حتى تنقشع

جموع المهاجمين من العربان واللصوص وتعود فترة من الامان فى المنطقة ويعود الهدؤ وتسرى الحياة العادية فى الاديرة.

المكتبة: وعلى غالب الاحتمال كانت توضع فى الحصن وكان الرهبان فى جميع الاديرة يعتزون بالمخطوطات ويحافظون على أقتنائها ويتخذون لها مكانا أمينا فى الدير وقلما كان يخلو دير من أنفس المخطوطات وكان من بين الرهبان أنفسهم فئة شغوفة بكتابة المخطوطات المختلفة والعناية بنسخها وتزيينها وتجليدها. ولكن للاسف فأن أغلبها وقع فريسة للحريق أثناء فترات الهجوم من البدو. ومنها ما احتال على الحصول عليه فريق من رحالة الغرب وما تبقى منها من المخطوطات القديمة فقد تحول الى مكتبة الدار لبطريركية. ولا يوجد من هذه المخطوطات بمكتبة الدير الآن الا بعضها القليل القيمة وكثير من الكتب المطبوعة.

مقر الضيوف: مكان بسيط ويشبه القلايات وهو يختلف كثيرا عن المكان المعد الان للضيوف فى دير الانبا أنطونيوس ففيه يجد الزائر ما يحتاج من أماكن الراحة ولوازمها الى حد كبير.

المخازن والاماكن الاخرى: يوجد داخله مخزن الغلال. ومكان لطحن الحبوب. ومخزن للوقود اللازمة للدير طول أيام السنة. وكذلك مكان عجن وخبز العيش والمائدة والمقبرة. والحديقة. ومطحنة للجبس وعيون الماء وعددها ثلاث، ومنها ما أغتسلت فيها مريم أخت هارون، وثالثة خارج الدير وعلى مقربة منها بعض نخيل وخضروات ويقال عندها تلاقى الانبا أنطونيوس مع الانبا بولا.

والشاهد ان هذه الاماكن تشبه كلها ما بدير الانبا أنطونيوس ويلاحظ أن الفترات التى صادفها ذلك الدير فى العصور المختلفة تشابه تلك الادوار التى مرت على دير الانبا أنطونيوس. كما يظهر من زيارة أحد الرحالة الذين زاروا الدير فى القرن السابع عشر وهو «سيكار» شاهد ما يؤيد وجود رئيس عام للديرين معا. كما ذكر بعض الرحالة أيضا وصفا دقيقا يوضح وعورة الطريق البالغة والخطورة المريعة التى يتعرض لها من البدو المتوحشين واللصوص ومن الوحوش المفترسة كذلك وكانت هذه من البواعث التى نفرت الكثير من السياح والحجاج من الزيارة.

أما دير الانبا أنطونيوس: فيقع عند سفح جبل القلزم وهو أحد سلاسل جبال الجلالة عند

أسفل تل مرتفع يطل على البحر الاحمر وجبال سيناء. وقد أنشيء عند العين التى كان يشرب منها أنطونيوس وقريب من المغارة التى عاش فيها فى حوالى أواخر القرن الرابع للميلاد.

وهو يعتبر أكبر الاديرة جميعها بسبب أتساع مساحته التى تبلغ ١٨ فدانا وكانت تبلغ حوالى أربعة أفدنة قبل أيام الامبراطور «جوستينيان» بالقرن السادس الميلادى. وكانت ستة أفدنة عام ١٦٧٠م أيام زيارة الرحالة الآب «فانسليب» ثم زادت مساحته بعد الاصلاح الاخير حيث بنى فيه السور الجديد أيام البطريرك كيرلس الرابع المعروف بأبو الاصلاح.

طريقة دخول الدير

لم يكن للدير فى الأزمنة الغابرة أبواب للدخول اليه منها وكل ما كان له هو باب صغير الحجم من الناحية الخلفية من السور القديم. وقد أهمل استعمالة بعد عمل السور الثانى أيام الامبراطور «جوستنيان». ولم تكن الطريقة بقرع الابواب بل بواسطة قرع الاجراس. وكان الوصول الى داخل الدير بواسطة آلة أشبة بدولاب خشبى وتسمى «بالساقية». وهى طريقة بدائية شاقة ومخيفة ووجد فيها رحالة الغرب غرابة وصعوبة فى صعودهم لداخل الدير.

وقد ظل الدير بدون باب حتى عام ١٨٥٩ م حيث أنشيء السور الضخم الجديد كما صنع للدير باب ضخم كما ظلت الآلة الرافعة بجانبة. ولم يكن يفتح هذا الباب للزائرين الا فى مناسبات خاصة فقط وذلك عند قدوم البطريرك نفسه ومرة واحدة كل عام عند أدخال الغلال أو الوقود اللازم للدير.

لمحة عن تاريخة: لم يصل الى علمنا وصف تفصيلى عن أصل ذلك الدير. وكان ما أمكن الحصول عليه هى بعض نبذات وشذرات وجيزة سطرها بعض الرحالة والمؤرخين فى العصور المختلفة وبعض الروايات والقصص المتفرقة التى توارثها النساك عن بعضهم البعض وروى أن كثيرين من الزهاد سكنوا مغارات طبيعية بجوار القديس أنطونيوس بالقرب من عين الماء لامكان الحصول عليه بدون عناء. والقيام بغرس الأشجار بقربها للاستظلال ثم كونوا جماعات متقاربه يقوم كل منها بتبادل المنافع. ثم بنوا سورا يجمع شتات قلاليهم ويحميهم من غارات الاعداء من البدو واللصوص والظواهر الطبيعية وبذلك تم أنشاء الدير ولا نعرف بالضبط شيئا عن التاريخ الذى أقيم فيه الدير أنما يظهر من أقوال الرحالة الذين قدموا لزيارته. وكذلك دير الانبا بولا أنهما كانا موجودين فى القرن الرابع. أذ روى أحدهم عند زيارته حوالى

عام ٤٠٠م وذهب الى المكان الذى كان يعيش فيه الأنبا بولا. ويذكر أيضا أنه رأى من ذلك المكان البحر الاحمر ومرتفعات جبال سيناء. وما يؤيد تلك الرواية ما وصفه فيها من حقائق لم تكن معروفة من قبل الا لمن زار تلك الجهات حقا.

ويغلب على الظن أن الدير المذكور كان فى أول أمره بسيطا مثل ما نشاهد فى أديرة وادى النطرون. وكانت مساحتة لا تزيد عن الثلاثة أفدنة وتحتوى على قلالى الرهبان وكنيسة واحدة باسم القديس أنطونيوس وقليل من الابنية الاخرى وبه سور بسيط يحوية. أما فى أيام الامبراطور جوستنيان عام ٥٣٧ م فقد أراد حماية حدود مصر فبنى الحصن المشهور فى سيناءلحماية رهبان الروم بدير «سانت كاترين» ثم عمر ديرى أنطونيوس وبولا وزاد فى مساحتهما وأضاف كثيرا الى مبانيهما ثم أقام السور الثانى للدير الذى استمر قائما حتى أيام البطريرك كيرلس الرابع وهو من البقايا التى لازالت موجودة حتى الان.

وفى القرن الخامس عشر ساد عصر طويل مظلم للأديرة اذ هجم عليها البدو عام ١٤٨٤م وقتلوا من فيها بعد نهبها ثم أضرموا النار فيها واحرقوا مخطوطاتها النفيسة.

أما عن موعد بناء تلك الكنيسة فقد تحدث عنها «فانسليب» ومعنى ذلك أنها بنيت قبل عام ١٦٧٠م. ويغلب أنها شيدت عام ١٤٨٠م بواسطة شخص يسمى «لطف الله شاكر» بدليل ما هو مكتوب على الكنيسة نفسها وبدليل تشابة الكنيسة مع كنيسة الملاك بدير الانبا بولا وتلك الكنيسة كان قد بناها الشخص المذكور نفسه.

أهم محتويات الكنيسة الاثرية:

أ ـ صورة قديمة لانطونيوس وبجواره صورة مشوة الخلقة.

ب ـ صورة قديمة مزينة بالليقة الذهبية تمثل السيد المسيح وحوله الملائكة.

ج ـ مصابيح وقناديل منها مصابح عربى من الزجاج الملون لعله من زمن المؤيد.

والكنيسة المذكورة تنقسم الى أربعة أقسام متساوية يعلو كل منها ثلاث قباب وتنفصل عن بعضها البعض بواسطة حاجزين من الخشب وارتفاعها متران ونصف. أما حجاب الهيكل وارتفاعه أربعة أمتار وهو من الخشب المطعم بالعاج فيقال أنه صنع فى مدينة أخميم.

ثالثا. كنيسة العذراء:

وهى مبنية فى الطابق الثانى من الدير وتمتاز بصغرها ولا يستعملها الرهبان فى الصلاة الا

نادرا وبها ثلاثة أقسام لها حاجز يفصل القسم الاول عن الثانى وهو من الخشب تعلوه صور أثرية منها صورة تمثل اجتماع القديسين أنطونيوس وبولا.

رابعا. الكنيسة الجديدة:

وهى أحدث كنائس الدير من عمل البطريرك كيرلس الرابع. وهى على الطراز الحديث وبها أثنتى عشرة قبة.

خامسا. كنيسة الانبا مرقس:

وقد شيدت هذه الكنيسة على اسم القديس مرقس ويغلب أنه كان من رهبان الدير الاتقياء. وبنيت غالبا فى القرن السابع عشر الميلادى. وتقع فى وسط الحديقة بعيدة عن المبانى. ويوجد قبره فى هذه الكنيسة. وقد تناول «فانسليب» ذكر هذه الكنيسة عند زيارتة مما يدل على أنها أنشئت قبل حضوره الى الدير المذكور.

أما الاجزاء الاخرى لهذا الدير فهى نفس الاجزاء التى ذكرت بدير الانبا بولا ولو أنها فى دير الانبا أنطونيوس أكثر أتساعا وأتم استعدادا خصوصا فى المضيفة التى جهزت أخيرا على أتم راحة واستعداد. كما أن حديقة هذا الدير علاوة على اتساعها وحسن تنسيقها وجمال منظرها فهى تحوى أشجارا متنوعة عديدة كالكروم والزيتون والكمثرى وتنمو فيها أنواع الخضروات المختلفة. ومن العنب يصنع الرهبان النبيذ اللازم للاباركة ومن الزيتون يستخرجون الزيت الذى يستعمل فى أيقاد المشاعل وأنارة القناديل فى الهياكل. ورى الحديقة سهل حيث تصل اليها الماء من العين التى تقع فى أعلى نقطة من الحديقة اذ ينساب منها الماء الى أجزائها المختلفة وعين الماء الرئيسية فى دير الانبا أنطونيوس تنبع من الجبل من مغارة طويلة. وكانت قبلا تقع خارج الدير ثم أدخلها فية البطريرك كيرلس الرابع.

ولم ينج من الحريق السابق ذكره سنة ١٤٨٤م الا اليسير من محتوياتها التى كانت موضوعة فى أماكن خفية حصينة بالدير المذكور. وفى أواخر القرن الثامن عشر عمل المعلم ابراهيم الجوهرى على ترميم أسوار الدير. ثم بنى السور الامامى للدير القديم وهو يعرف الان بسور الجوهرى. ثم قامى البطريرك كيرلس الرابع فى منتصف القرن التاسع عشر بأصلاحات واسعة النطاق فى دير أنطونيوس الذى فيه قضى البطريرك المذكور أيام رهبنته. ومن بعده لم تتم أصلاحات تذكر بالدير ومن أعماله الجليلة بدير أنطونيوس هى:

أ ـ أقامة سور ضخم واسع أحاط بالاسوار القديمة.

ب ـ ضم اليه مساحة واسعة ومنها الجزء الامامى الذى أضافه اليه.

جـ ـ شيد الكنيسة الجديدة وشونة الوقود وصفان من القلالى والمطعمة.

كنائس الدير

أولا. كنيسة القديس أنطونيوس:

ولعها أقدم المبانى فى الدير وربما أنشئت فى حياة القديس أو بعد وفاته بقليل. وقد ظلت حافظة لشكلها حتى اليوم رغم الاجيال وتقلبات الزمن التى مرت عليها وهجمات البدو. ويشاهد أن حوائطها مزينة بصور الفرسكات القديمة وأغلبها مطموس المعالم بسبب آثار الدخان على جدرانها ومع ذلك ظلت على حالتها حتى وقتنا هذا محافظة للشكل الاصلى. أما طول الكنيسة فعشرون مترا وعرضها عشرة أمتار. وتنقسم من الداخل الى أربعة أقسام. قسمان منها للمصلين ثم قسم للشيوخ والكهنة والرابع به الهياكل الثلاثة. ويعلو كل قسم منها قبة واحدة.

أما القسم الرابع حيث توجد الهياكل فتعلوه ثلاث قباب. ويلاحظ أن القسم الأول من الكنيسة هو أوسعها وأكثرها انخفاضا ويكثر على جدرانه الرسوم الجصية الدينية ومنها:

أ ـ صورة لمار جرجس فوق جواده وهو يطعن التنين.

ب ـ صورة كبيرة لكنيسة متعددة القباب تحت الاولى.

جـ ـ مذبح مكرس على اسم الحيوانات الاربعة ثم به صورة قديمة جميلة تمثل السيد المسيح.

أما القسم الثالث من الكنيسة ويعلو درجتين عن القسمين السابقين ويفصله عن القسم الثانى حاجز خشبى وفوقة عارضة مثبتة بجدار الكنيسة وبها صور عديدة. ثم يتدلى أمام الهيكل مصابيح قديمة من الزجاج الملون وبيض النعام مثلما نشاهده دائما فى أغلب الكنائس القبطية القديمة. أما القسم الرابع وبه الهياكل الثلاثة وبينة وبين القسم الثالث حاجز مرتفع مصنوع من حشوات خشبية صغيرة بصلبان من العاج مثل أحجبة الكنائس القديمة. وعلى

الحاجز كتابة باللاتينية باسم شخص «يسمى برناردس من صقلية يذكر أنه زار الاديرة أواخر عام ١٦٢٥م. ويقال انه أول زائر كاثوليكى للدير.

أما هياكلها فمربعه تقريبا وتنتهى كلها كالمعتاد بفجوة فى الحائط الغربى ويتوسطها مذبح حجرى وتعلوه قبة خشبية.


(القديس أنطونيوس)

مميزات كنائس الاديرة:

أ ـ ليست لها شرفات عليا وخالية من المعمودية.

ب ـ وجود هياكل أخرى فى أقسام الكنيسة.

جـ ـ وجود تقاسيم وحواجز بين كل قسم.

د ـ أنعدام المقاعد فى كنائس الاديرة.

هـ ـ استعمال الهياكل الوسطى والاستغناء عن الجانبية منها.

ثانيا. كنيسة بطرس وبولس:

وتتصل بكنيسة القديس أنطونيوس بدهليز طويل يستخدمه الرهبان للصلاة فى شهر كيهك لقلة الرطوبة فية ولوقايتة من كل جانب.

ومن الاماكن الهامة فى دير أنطونيوس جزء سبق الكلام عليه فى دير الانبا بولا باختصار وهو الحصن: وتبلغ مساحتة ٢٠٠ مترا مربعا وارتفاعه ١٥ مترا ومكون من ثلاث طبقات. وتوجد فى أعلاة الكنيسة وهى على هيئة هيكل يكرس دائما على أسم الملاك ميخائيل ومثلة أيضا موجود بدير الانبا بولا أى بالحصن والسبب أن الملاك المذكور هو حامى المعذبين من أجل التمسك بأهداب الدين.

ومكانه عادة فى قلب كل دير من الاديرة القديمة ليلجأ اليه الرهبان اذا هددهم البدو بالهجوم وهم فى مجاهل الصحراء وقرب سفوح الجبال. فكانوا يقيمون بداخله حتى تزول موجة الاخطار. وهو عبارة عن بناء عجيب مرتفع أشبه بالطابية ولا يمكن الوصول اليه اذا أحكم النساك اغلاقه. والباب الذى يمكن الوصول اليه لايفتح الا فى الطابق الثانى اذ توضع أمامه عارضة من الخشب تتحرك على مفصلات ضخمة مثبتة فى وضع رأسى وترتكز على عتبة الباب. فعند أنزال العارضة كونت قنطرة متحركة واتصلت ببناء عال يقام تجاه الحصن.

وللوصول الى الحصن يصعد الشخص الى البناء المواجة له بواسطة سلم مقام لهذا الغرض. ثم يمشى الى القنطرة المتحركة ويمر بالباب فيصل الى الدور الثانى داخل الحصن.

وهذه الحصون مازالت موجودة فى الاديرة القديمة الى الان رغم عدم استعمالها. وهى توضح مدى ما كان يتعرض له الرهبان من صنوف العذاب والقتل من البدو وغيرهم من اللصوص فى تلك الازمان. فكان عندما يشعرون بخطورة الحال وتظهر بوادر الشر من أولئك البرابرة المتوحشين. يدخل الرهبان الحصن بعد ما يجمعون معهم كل ما يهمهم من الاشياء التى تلزمهم من أطعمه وشموع ووقود وزيوت ثم يسرعون برفع القنطرة بواسطة جنزير مثبت فى نهايتها ويدور حول بكرة مثبتة بالدور الثالث من الحصن. ثم يغلق الباب غلقا محكما فيصبح الحصن أشبه بقلعة منيعة يصعب مهاجمتها. وكانوا يحتاطون لتوفير الماء اللازم لديهم بمد أنابيب فخارية تحت الارض تصل عين الماء بصهريج فى الحصن حتى يحصلوا على الماء وهم بعيدون عن الاخطار. وكان أحيانا يحفرون فى داخل منطقة الحصن للوصول الى بئر تكفى حاجتهم من الماء وهم بأمان بداخله أيضا. وكثيرا ما كانوا يقيمون فترات طويلة داخل الحصن يبتهلون الى ربهم أن يزيل عنهم شراذم المهاجمين من الاعداء المحاصرين.

وكذلك من الاماكن مخزن الغلال ويطلق عليها «الدكسار» تحفظ فيه الحبوب التى تلزم لسكان الدير طول العام ويقع مكانه داخل الدير تحت الساقية مباشرة.

ثم مخزن الوقود: ويقع عند مدخل الدير مباشرة ناحية اليسار ومساحته تقرب من الفدان وهو فى أوطأ مكان بالدير وفيه تخزن الرهبان الوقود فى وقت محدود من العام. فيخرج الرهبان بجمالهم الى أمكان بعيدة لجمع النباتات الجافة كالبوص والاشجار الجافة اللازم لهم طوال العام. ونظرا لاعمالهم الكثيرة واحمالهم كانوا يضطرون الى فتح باب الدير الموصد فى هذا الوقت من السنة لسهولة ادخال أحمالهم اليه.

ومن أهم الاماكن الرئيسية فى دير الانبا أنطونيوس كانت مكتبة هذا الدير بصفة خاصة وكانت عامرة بأنفس الكتب والمخطوطات القيمة النادرة وتاريخها حافل بأروع القصص والروايات الفاخرة. وما أنفردت به من كنوز العلوم والفنون. كما كانت حافلة بجموع عديدة من نوابغ الرهبان وفضلائهم ومنهم من كان على جانب كبير من العلم والدراية بأمور الدين

والتفقه فى أحكامه. ثم ثبت شدة شغفهم بالنساخة والتأليف والمطالعة. وكانت قلالى الرهبان كذلك مليئة بشتى الكتب والمخطوطات القيمة للمداومة على كثرة القراءة وسعة الاطلاع.

ومن بين العبارات التى عثر عليها مدونة على صفحة من صفحات أحدى المخطوطات الخاصة بالبسخة مايؤيد دراية الرهبان التامة وشدة أهتمامهم بفن النساخة وتكوين أنواع المداد المختلفة. وهى توضح أن أحد رهبان دير الانبا أنطونيوس فى الجبل الشرقى ويسمى «بطرس الدرنكى» كان أشهر نساخ عصره وكان ماهرا فى كيفية تركيب الحبر والالوان اللازمة لتزيين المخطوطات والكتب ورسم الصور والزخارف المتنوعة فكان من المداد الاسود والاصفر والازرق والاخضر والذهبى والفضى يستخرج الدهان اللازم للتصوير. وكان اللون الاحمر يستعمل فى كتابة العناوين وبدء الفصول والاسود فى كتابة النصوص. أما الالوان الاخرى فكانت لعمل الصور بالكتب ومنها رسم الصلبان أو الشهداء والقديسين أو الرسل والملائكة أو بعض المناظر الدينية المقتبسة من الكتاب المقدس أو التوراة. وأحيانا تزخرف برسوم الطيور أو الحيوانات الوديعة أو بغيرها من الاشكال النباتية أو الهندسية.

ويروى الراهب «بطرس الدرنكى»[1] هذا أنه كان فى دير الانبا أنطونيوس مائة ناسخ وقد اختصوا بمهنة النساخة فى الدير المذكور. فكانوا ينسخون الكتب المقدسة القديمة. واختص كل عشرة منهم بنسخ صنف خاص من الكتب. وكان لهم رئيس يشرف على أعمالهم. كما ذكر أنه هو نفسه نسخ كتبا كثيرة لعدة كنائس بالقاهرة. وهذه الرواية أن دلت على شيء فأنما تبرهن على مقدار ما كانت تؤدية الاديرة ورهبانها بصفة عامة من خدمات علمية وفنية جليلة للعالم أجمع. فكانت مناطقها منارات لامعة للهداية والصلاح وكان روادها من النساك من الزعماء أصحاب الفضل الأول فى نشر الثقافة والحضارة فى عصور كان الجهل والظلام يخيمان على جميع أرجاء المسكونة. وقد فطن العالم الى عظمة التراث العلمى الخالد والكنوز الفنية الرائعة فى مخطوطاتها وكتبها النادرة والمستودعة فى مكتباتها وتهافتت أمم الغرب على

(١) ينسب الراهب المذكور الى قريته «درونكة» من أعمال أسيوط وقد شاهد أحد الرحالة «فانسليب» عام ١٦٧٠م أن سكانها كانوا يتكلمون القبطية وأن بعضهم كان يعرف اليونانية أيضا. وكانت تشتهر بديرها القديم فى أعلى جبلها.

الحصول على أحد كنوزها من الاديرة المصرية. وكثيرا ما كانوا يرسلون الرحالة المهرة والكتاب المتخصصين منهم للاحتيال على اقتناء تلك الكنوز العلمية بكافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة حتى أصبحت أمهات المكتبات العالمية الان سواء فى فرنسا وأنجلترا وهولندا والفاتيكان وأمريكا ذا خرة بمخطوطات أديرة وكنائس مصر القديمة الثمينة.

وكذلك هناك مبنى خاص يسمى «الجو» وهو بناء ضخم وعال وبه ثلاث طبقات ويستخدم لخزن ما يحتاج اليه الدير سنويا من الزيوت والشموع والمواد الغذائية المختلفة والحبوب كالغلال والفول والعدس والبقول الجافة وغيرها وهو فى عهدة أمين الدير الذين يطلق عليه اسم «الربيتة».

ثم توجد «المائدة»: وهى داخل حجرة مستطيلة وفى وسطها وعليها يجتمع الرهبان فى أيام الصوم الكبير. وأما فى الايام الاخرى فيتناول الرهبان مأكلهم وهم منفردون داخل قلاليهم الخاصة.

ثم مكان آخر يطلقون عليه كلمة «التافوس» وهى كلمة يونانية الاصل معناها «مقبرة» وهى تقع فى الجزء الغربى من دير القديس أنطونيوس. ويضم بين جوانبه رفاة كثيرين من رهبان الدير. وهذه هى أهم الاماكن التى يضمها الدير المذكور.

مغارة القديس أنطونيوس

كان لابد الا ننسى الاشارة الى تلك البقعة التى أصطفاها القديس المذكور. واتخذها مقرا يزاول فيه حياته النسكية وتقع فوق الجبل بالمنطقة وفى واحدة من المغاور الطبيعية حيث كان يعيش بعيدا عن مباهج العالم وضجيجه. والوصول الى هذه المغارة شاق كثير الصعوبة ويحتاج الى وقت وجهد كبير وفى أثناء الطريق عند الصعود اليها يلتقى الصاعد بمنظر يستلفت النظر الى مكان يتخلله مجموعة احجار متراصة ومستندة الى صخرة عالية كأنها من عمل أنسان وتدل ما تبقى من آثارها بأنها كانت مسكنا يتألف من حجرتين بطول يقرب من سبعة أمتار. ويروى أنها كانت معدة لاقامة الراهب المسمى «بولس البسيط» الذى كان تلميذا للقديس أنطونيوس. وقد عرف بشدة تقشفه وزهده حتى كان يقضى أغلب أيامه فى الصيام والتعبد وقد وهبه الله القدرة على شفاء المرضى والذين بهم مس من الشيطان. وقد كتب عنه

الراهب الرحالة «بلاديوس» الذى زار مصر حوالى عام ٤٠٠ للميلاد ووصفه بالبساطة المتناهية.

منطقة وادى النطرون



* مراكز النساك بالوادى:
* تلال نيتريا
* مستعمرة كليا «القلالى»
* برية الأسقيط
* نظام الحياة المعيشية بين رهبانها
* القديس مكاريوس الاسكندرى
* القديس أنبا مقار
* القديس يوحنا القصير

ثانيا. منطقة وادى النطرون

تطوق منطقة ذلك الوادى من الشمال سلسلة تلال وتعرف بصحراء أوجبل «نيتريا» أو جبل «برنوج» وتقع الان الى الغرب من منتصف الطريق الصحراوى بين مصر والاسكندرية تقريبا. وتعتبر أقدم المناطق التى هرع اليها نساك ما قبل المسيحية وكذلك المتوحدون منذ فجر العصور المسيحية فى القرنين الثانى والثالث للميلاد. كما أطلق على الاماكن التى التجأت بأطرافة الرهبان وطوائف النساك أسماء أخرى مثل «برية شيهات» بمعنى ميزان القلوب أو «برية الاسقيط» أو «وادى هبيب» ومنطقة سليا أو خليا أو صحراء القلالى.

والواقع أن المنطقة المذكورة علاوة على ما كانت تشتهر به من هدؤ عجيب وأنها أماكن سلام حقيقى يخيم حولها جماعات نساكها العديدين الا أنها أنفردت بمميزات خاصة فاقت بها عن سائر المناطق والاديرة الاخرى. فمن الناحية المادية تكثر فيها الاملاح والمعادن النافعة وفيها بعض العيون التى تشفى مياهها أمراض المعدة. ونشأت فيها معامل لصناعة الزجاج. كما يكثر فيه نمو نبات البردى اللازم لعمل الحصر وضفر أنواع من السلال وكذلك فى صناعة

الورق الذى لاغنى عنه للمخطوطات. كما أن المياه الجوفية فيها توجد على مقربة من سطح الارض فى كثير من أجزائها الامر الذى سهل عملية حفر الابار. وهذا مكن بلا شك فريق الرهبان من زراعة الارض فى المنطقة فى مساحة واسعة مما جذبت اليها أعدادا غفيرة من الرهبان علاوة على جفاف جوها المحتمل وانعدام المطر فيه مما ساعد على بناء قلاليهم بسهولة بأبسط المواد المتوفرة فيه. كما لا ننسى وقوع الوادى واديرته فى منطقة سهلة فى مواصلاتها الى حد كبير بالنسبة الى وعورة مواصلات الاديرة الاخرى وبعدها. ولذلك فقد شجعت تلك المزايا على مجيء كثير من الرحالة القادمين من جهات نائية من أنحاء عديدة من العالم واجتذبت جماعات وفيرة من رهبان مصر فزخرت المنطقة فى أجزائها المختلفة بالقلالى والاديرة العديدة التى انتشرت فى جميع جنبات الوادى الكبير المذكور.

مراكز النسك بوادى النطرون:

وكانت تلك المنطقة المتسعة الارجاء منقسمة الى ثلاثة مراكز هامة للرهبنة. أحداها باسم «تلال نيتريا» بمستعمرة Nitria والثانية تعرف باسم القلالى Cellia أوسليا والثالثة وهى «برية الاسقيط Scetis». وتبدأ كذلك من ناحية الشمال الى الجنوب مع أنحراف بسيط ناحية الشرق.

ومن الرحالة القدامى من الغرب الذين زاروا تلك المنطقة وتغنوا بما شاهدوه فيها ونوهوا عن سمو الحياة النسكية بين الرهبان وأنظمتهم المثالية وفضائلهم نذكر منهم على سبيل المثال «الاب يوحنا كاسيان Jean Cassien» جاء الى وادى النطرون عام ٣٩٠/٤٠٠م، وأقام بين رهبانه وكتب الكثير من الكتب الخاصة عن أخبار رهبان ذلك الوادى. وعبارات من أقوالهم وأظهر أعجابه الشديد عن زهدهم وتقشفهم. وكذلك الرحالة المشهور «الاب بلاديوس Palladius» جاء أواخر القرن الرابع وزار مصر للمرة الاولى من عام ٣٨٨/عام ٣٩٩م. ومكث فى «برية شيهات» لدراسة حياة الرهبنة. ثم عاد الى بيت لحم ومنها الى أورشليم ورسم أسقفا لهلينوبوليس عام ٤٠٠م ثم عاد لزيارة مصر مرة ثانية ثم كتب فى أوائل القرن الخامس مؤلفا تاريخيا هاما شرح فيه ما شاهده ووصف ما كان عليه رهبان الاسقيط من الفضائل والاخلاق الروحية السامية وحياتهم فى الزهد والتقشف ويعرف كتابة باسم «بستان الرهبان» وكان له أثر لا يستهان به فى أنتشار الرهبنة فى كثير من جهات العالم ومن ضمن ما ذكره من

ملاحظات أنه كان يوجد فيه خمسة آلاف راهب يعيشون مع بعضهم مثنى وثلاث فى جماعات صغيرة بخلاف ٦٠٠ راهب يعيشون فرادا متناثرين داخل الصحراء. وقد وصف أيضا أنه كان بينهم عدد من الخبازين لاعداد الخبز اللازم للرهبان وعدد من النساجين لنسج الكتان وعمل أرديتهم. والزراعين وصناع النبيذ من الكروم التى كان يزرعونها. كما كان بعض التجار يرتادون هذه المنطقة لشراء ما يزيد عن حاجة الرهبان. وكان بينهم مجموعة من الاطباء من الرهبان للعناية بمداواة المرضى.

أما حياتهم الدينية فقد كانت موضع أعجاب بلاديوس الشديد أذ انه نوه أنه كان يسمع تراتيلهم الشجية للمزامير اذا ما ارخى الليل سدوله. وقد سما به الخيال حتى تصور بأنه أنتقل الى جنة الفردوس. وكان مما يلاحظ أقتران احتقار الناسك لهذا العالم ومباهجة باظهار المحبة المطلقة لبنى الانسان والحيوان على السواء. وقد شوهد أيضا على كثير من المتوحدين شدة شغفهم للحيوان حتى الضوارى منها حتى آنست الوحوش لهم ولم تفزع عند رؤيتهم. كما ذكر أن المتوحدين كانوا يمارسون العبادة كل على طريقته الخاصة التى تروق فى نظره وهم يتسابقون فى ميدان البطولة الروحية واذلال الجسد والحرمان وكبت الغرائز والتقشف والامعان فى الوحدة.

كذلك من الرحالة الذين زاروا مصر وجاء الى منطقة وادى النطرون هو القديس «جيروم الايطالى» عام ٣٨١م وكانت تصاحبه تلميذتة الناسكة «باولا». ووضع كتبا عن الرهبان المصريين شملت أخبارهم وأقوالهم على ضوء ما رأى وسمع كما أسس ديرين فى بيت لحم بفلسطين واحد منهما للرهبان والاخر للراهبات. وفى عام ٤٠٤ قام القديس المذكور بترجمة قوانين «الانبا باخوميوس» الى اللاتينية فتناولها الرهبان الايطاليون بالدراسة واتخذوها دستورا لهم.

---

(١) «ديديم Didymus» ولد عام ٣٠٩ أو ٣١٤م أى لم تعرف سنة الميلاد تماما. وقد فقد بصره وهو فى الرابعة من عمره ولذلك لم يتلق العلم أو المبادىء الاولية منه كما ذكر ذلك هو بنفسه. ولكن تعطشه الشديد الى العلوم وقوة أرادته تغلبت على كل المصاعب التى صادفته. وتوسل فى صلاوته أن يمنحه الله البصيرة الداخلية. وتعلم الابجدية بطريقة اللمس على لوحات محفورة أما المقاطع والكلمات عن طريقة الانتباه والاصغاء. وصار أستاذا لعدة علوم ووصل لمعرفة فائقة بالكتب المقدسة. ولذلك أتخذ القديس أثناسيوس ذلك الاستاذ الضرير عميدا لمدرسة اللاهوت بالاسكندرية كخليفة صالحة لجهابذه العلماء=

وقد ذكر الرحالة الاب «روفينوس Ruffinus» الذى كان تلميذا للعالم الشهير «ديديم (ديدموس) الضرير»[1] أنه زار وادى النيل عام ٣٧١م وقال ديدومس أنه كان فى وادى النطرون وقتئذ نحوا من ٥٠ ديرا.

كما ورد فى كتاب «تقى الدين المقريزى» من مؤرخى العصور الوسطى أنه كان بالمنطقة المذكورة نحوا من مائة دير وحوالى ٧٠ ألف راهب ويقول أيضا أنهم أستقبلوا عمرو بن العاص عند فتحه لمصر وهذه رواية مبالغ فيها اذا قورنت بما رواه المؤرخون المعاصرين.

على أنه لم يبدع كاتب أو مؤرخ عن تاريخ ذلك الوادى واديرته بصفة عامة وظهرت أبحاثه عنها فى مؤلفات علمية ضخمة أكثر مما قام به العالم الاثرى الكبير «أيفلين هوايت E. White» فى العصر الاخير عن أديرة وادى النطرون اذ تمكن من كتابة ثلاثة مجلدات كبيرة عن تاريخها وماتحوية من كنوز أدبية وفنية وبلغت عدد صفحاتها نحوا من ٧٧٠ صفحة كبيرة بخلاف ٥٠٠ صفحة أخرى مملؤة بالصور الفوتوغرافية.

وقد بدأت الرهبنة فى وادى النطرون فى قلالى صغيرة منقورة فى التلال أو الصحراء فى أول أمرها كما نشأت غالبا فى جميع أديرة القطر المصرى عامة. وكانت تلك القلالى متقاربة وتمارس معيشة فردية ثم أملت الظروف الطبيعية على ملتجىء تلك القلالى من النساك ضرورة العمل على التجمعات المقاربة تدريجيا الى أن نمت فكرة التجمع بعد ذلك داخل الاديرة

= السابقين الذين تقلدوا عمادة ذلك الكرسى الخطير أمثال «بنتينوس Pantaenus» وكلمنت «Clement» وأكلمندس وأوريجانوس وغيرهم. وكان ترتيبه الثانى عشر من أولئك العمداء الفطاحل الذين تقلدوا العمادة. وقد ذاع صيت ديديموس وكان القديس أنطونيوس يمتدحه ويذكره بالفخر. ولما كان فى دور الرجوله كان قد زار الانبا أنطونيوس الاسكندرية بقصد الحد من بدعة «آريوس» فدخل قلاية ديديم هذا وسأله عما اذا كان يشعر بالحزن لفقد بصره فظهر من جوابه على هذا السؤال مقدار تأثره الشديد من تلك الكارثة عليه. فكانت عبارة أنطونيوس له بلسما شافيا اذ قال «لا يحزنك فقد بصرك اذ نزعت عنك أعين جسدية كالتى يمتلكها الفيران والذباب. وأحرى بك أن تبتهج لان لك أعينا كالملائكة ترى بها اللاهوت وتدرك نوره» كما أمتدحه كثير من قديسى الغرب وكتابه. وكان القديس جيروم تلميذا لديديموس وأنه أتخذه قدوة له فى دراسة الكتاب المقدس. كما ترجم له أحد كتبه وتتلمذ له أيضا لمدة ثمانى سنوات «روفينوس» وقد وصفوه بأنه أشبه بالرسل فى خلقه ويمتاز بفكر نير مع بساطة فى الكلمات. وقد أعاد لمدرسة الاسكندرية مجدها القديم وظل مدرسا حتى نهاية حياته عام ٣٩٨م وترك مؤلفات عديدة فى اللاهوت والتفسير. وكان سندا للقديس أثنا سيوس وتمكن بفضل آرائة النيره القوية وحججه الدامغة أن يحافظ على مكانة الكنيسة وثباتها ويحطم الهراطقة الاريوسيين ويفند كل مغالطاتها الفلسفية.

وظهرت بصفة خاصة حركة أنشاء الأديرة الكبرى بقصد حماية الرهبان والدفاع عنهم عندما بدأت الغارات العدائية من هجمات البدو عليهم.

ويظهر أن جبل «نيتريا» كان المكان الأول الذى قصده النساك فى منطقة وادى النطرون وقد سبق التنوية حسب ما ذكرة الاب «شينو Chenau» فى كتابة «قديسو مصر» أن القديس «فرونتون» أول من فكر فى حياة العزلة قبل انتشارها فى صحراء نيتريا. ثم أيد ذلك «كرزون Cellia فى مؤلفه «زيارات أديرة الشرق صفحة ٧٦» بأن القديس المذكور أعتزل الحياة بقصد الزهد فى أواسط القرن الثانى الميلادى بوادى النطرون وتبعه سبعون من الاخوة للغرض نفسه. ولم يذكر التاريخ شيئا عن مصيرهم بعد ذلك.

ولكن حسب ما ورد فى كتابى «قاموس الاثار المسيحية للاب» دون فرانند كابرول ج٢ وص ٣١٢٧ وكتاب «قديسو مصر ج ٢ ص ٣٨١» أن بعض الفضل فى هذا العمل يعود الى تلميذه ورفيقه «القديس تيودورTheodore.

أما تاريخ هذين القديسين فيمكن استخلاصه من سيرتهما من كتاب «قديسو مصر» السابق الاشارة اليه فجاء فى سيرة القديس تيودور أنه عاش فى عهد الامبراطور قسطنطين الاكبر الذى حكم من عام ٣٣٧/٣٠٦م وأنه عاش أيضا فى زمن القديس أنطونيوس الذى كانت وفاته عام ٣٥٦م.

أما الراهب آمون مؤسس اديرة نيتريا فكان مولده فى الربع الاخير من القرن الثالث للميلاد من أسرة مصرية ثرية. ولما ناهز الثانية والعشرين حثه أهله على الاقتران فنزل عن رغبتهم. غير أنه أقنع زوجته الشابه بأفضلية حياة التبتل وفعلا أتفقا على أن يعيشا كأخوين تحت سقف واحد. وأجمع المؤرخون على صحة هذه الرواية وأن العروسين كانا يعيشان بمنزلهما حياة

---

(١) وصف «روفينوس» عند قدومه مع بعض مرافقيه لزيارة رهبان نيتريا كيف قابلوهم بترحاب كبير وهرعوا الى أستقبالهم وقدموا لهم ما تيسر من الخبز وأوراق الكرنب وحساء الفول بعد ما غسلوا أرجلهم ثم قادوهم الى الكنيسة وعملوا كل ما فى طاقتهم لراحتهم من عناء الطريق ومشقة السفر الطويل. ثم يذكر ما ينطوون عليه من المحبة والتواضع والتقوى ورفعة الخلق النبيل. ثم قال أن الرهبان فى نيتريا يقدمون القليل من النبيذ تحية الى الزائرين. غير أن رهبان، سليا كانوا ينفرون من رؤية الزائرين ولذلك لا يرغبون فى مقابلتهم أعتقادا منهم أن من يزوره البشر لاتزوره الملائكة ومن هؤلاء كان «مكاريوس الاسكندرى».

التقوى والصلاح والزهد. كما روى بلاديوس أن آمون قصد برية نيتريا بجنوب بحيرة مريوط بعد انقضاء ثمانية عشر عاما من زواجة أى ما بين عام ٣٢٠ وعام ٣٣٠م للتفرغ الى ممارسة النسك وقد وافقته زوجته على ذلك. وقد زعم بعض الرحالة ومنهم «روفينوس»[١] الشهير أنه لم يكن فى نيتريا ذلك الحين دير من الاديرة. ولو أن «بلاديوس» ذكر أنه كان يوجد القليل من الاديرة. وقد ذاع صيت القديس آمون واشتهر بنسكه فانضم اليه كثير من الاتباع والنساك وكثرت القلالى حول صومعته ولم يعرف تماما عدد الرهبان الذين عمروا منطقة نيتريا ولو أنه ذكر فى تاريخ الاديرة لبعض المؤرخين أنه كان يوجد فى أواخر القرن الرابع للميلاد نحوا من ٥٠ ديرا يجتمع فيها نحو ٥٠٠٠ من الرهبان ويصعب تحديد موقع جبل نيتريا بالضبط حيث التجأت حوله هؤلاء الجموع من الرهبان. ومع ذلك لابد أن موقعه كان يحتل أحد جانبى وادى النطرون المعروف اليوم فى المكان الذى كانت تتجفف فى أسفله المستنقعات الملحية. ولو أن هذا المكان المعروف باسم جبل نيتريا أول ما قصده النساك فى تلك الناحية الا أنهم ما برحوا أن التجاؤا أيضا الى الصحراء. وقد أطلق عليها اسم صحراء «سليا» أو صحراء القلالى ثم هرعت جماعات أخرى عديدة من الرهبان وعمروا «برية الاسقيط» الموحشة وتعرف أيضا باسم «برية شيهات» التى بعد صحارى سليا أو خليا المذكورة.

وكانت هذه الجماعات من الرهبان تتبع فى نسكها طريقة وسطا بين الانعزالية التامة والحياة الجماعية وهى نفس النظام الذى سار عليه أتباع القديس أنطونيوس. وذكر أن المتوحدين فى نيتريا كانوا يمارسون العبادة كل على طريقته الخاصة وكانوا يتسابقون فى ميدان البطولة الروحية واذلال الجسد والحرمان وكبت الغرائز والتقشف والامعان فى الوحدة. وقد بلغ ببعضهم التفنن فى مقاومة شهوات الغرائز الطبيعية وتعذيب الجسد الى حد يصعب على الانسان تصوره. وكانوا لا يتركون قلاليهم فى الصحراء للاجتماع ببعضهم الا يومى السبت والاحد من كل أسبوع لحضور صلوات القداس. وكان ذلك فى الكنيسة التى يقصدها الجميع من رهبان نيتريا للعبادة وموقعها فى أسفل الوادى وتابعة لاسقف مدينة «هرمبوليس الصغيرة» وهى دمنهور الحالية. وكان يقيم صلوات القداس فيها كهنة الابروشية المذكورة.

وكان نظام الحياة المعيشية بين أولئك الرهبان بصفة عامة غاية فى البساطة بالرغم من تقشفة الشديد فكان الفرد يتناول طعامه البسيط ويشمل القليل من الخبز الجاف وبعض الملح

ولا يشرب غير الماء وكان الافطار عند معظمهم مرة واحدة عند غروب الشمس ومنهم من أمتاز في الزهد والتعبد ويمضى ثلاثة أو أربعة أيام فى صيام كامل عن الطعام والشراب وبعضهم كان يمضى أغلب لياليه ساهرا فى صلوات طويلة وأذا أعياه التعب لجاء الى سنة من النوم لفترة وجيزة مستلقيا على حصيرة من سعف النخيل أو أحيانا منبطحا على الارض متخذا وسادة من الحجر امعانا فى التقشف وتعذيب الجسد. وقد أشتهر أيضا كثير من النساك بحياة نسكية صارمة تدعو للدهشة والاعجاب الشديد خصوصا ما يتعلق بالاقلال من الطعام أو الشراب وكثرة الصيام لفترة طويلة. وقد تركت مسألة قدرة الناسك على الصيام الى مقدرة كل راهب حسب تحمله وبالرغم من هذه الاصوام فلم يكن يركن الراهب الى الكسل فترة صيامه بل كان يقوم بعمله اليومى المقرر عليه أنجازه كالمعتاد.

ومن الاركان الاساسية فى حياة الرهبنة بخلاف المداومة على الصلاة التزام الصمت وتحاشى التحدث مع الاخرين من الرهبان ولا يجوز الاتصال الا مع بعض الشيوخ منهم والمشهود لهم بالقداسة والورع والتقوى. وعندما يقوم الرهبان بعملهم اليومى المكلف كل فرد منهم بعمله لا يكف عن تلاوة تراتيل المزامير والمدايح الدينية بنغمات شجية بحيث اذا ما أنتهوا من عملهم وتلاوة المزامير لزم الرهبان الصمت وهو من أوجب الامور لحمايتهم الروحية وحرصا على السلام الدائم بين تلك الجماعات أو بين النساك والمنفردين كما أن دوام الرهبان على الصلاة من أهم الوسائل لمحاربة الشيطان واغراءاته ودفع حالات الملل والسآمة التى قد تنشأ من تلك الحياة الرهبانية. ومن أجل ذلك خصص الرهبان أغلب ساعات النهار والليل للصلاة. وما هو جدير بالملاحظة أن على الراهب القيام للصلاة عند منتصف الليل بمجرد سماعه لصياح الديك، وهذه الصلاة ذات أهمية خاصة لاستنادها على قول «داود النبى» كما ورد ذلك فى احدى مزاميره. وعدد الصلوات الرهبانية هى سبع ثلاث منها أثناء النهار والاربع الاخرى خلال فترات الليل. ولذلك تحتم على الرهبان أن يركنوا الى فترة وجيزة من النعاس أمعانا فى التيقظ والسهر لمحاربة الافكار الشريرة الشيطانية والمحافظة على طهارة النفس ودوام الصفا الروحى.

ومن عادة الناسك الا يتأنق فى ملبسه فكان رداؤه غاية فى البساطة والخشونة ورخص الثمن ويحاك بغير عناية، وأحيانا يظهر ممزقا كثير الرقع امعانا فى التواضع والزهد ومحاربة شهوات

الجسد، وكان البعض يحيكون حللهم ويصنعوها من سعف وألياف النخيل تشبها وتقليدا لما فعله زعماء النساك والسواح القدماء الذين كانوا يهيمون فى الصحارى والقفار كأنصاف عراة ومعظمهم كان يكتفى بارتداء قميص بدون أكمام كما صار أغلبهم حفاة الاقدام الا أذا أشتدت حرارة الصيف فكان يضطر الراهب الى احتذاء الصندل وخصوصا اذا عزم على ترك قلايته الى السفر من مكان الى آخر فى الصحراء، وكان العكاز من الادوات اللازمة، ولا غنى عنه للرهبان وعلى الاخص المسنين منهم للارتكاز عليه وقت وقوفه الطويل أثناء الصلاة، واعتقد الراهب فى عصاه كرمز للسلاح الروحى يتغلب به على قوة الشيطان، وقد ذاعت شهرة أولئك النساك وأخبار أنتشار قلاليهم وأديرتهم التى أمتلات بها البرارى والقفار وأندهش الناس مماسمعوه عن بالغ زهدهم وطرقهم المثالية فى المعيشة القشفة وأنظمتهم الغريبة فجذبت اليهم جماعات عديدة من سكان البلاد وصادفت حياتهم النسكية هوى فى نفوسهم فتبعوها كما تهافت كثير من رحالة الغرب والعلماء من أهالى أوروبا للقدوم الى زيارة أولئك الرهبان فى أماكنهم متكبدين كل مشقات السفر الطويل الجسيم وأخطاره للوقوف على أنظمتهم المعيشية وتاريخهم وعلومهم وفنونهم وكل ما يتعلق بعاداتهم وطرقهم فى الحياة، ثم عادوا ونشروا جميع ماجمعوه من أخبارهم وعن نسكهم وفضائلهم النادرة فى أنحاء العالم المتمدين وكان هذا من أهم البواعث التى شجعت على قيم هذه الأنظمة الرهبانية فى كثير من ممالك الغرب.

وقد ورد فى كتاب «سير آباء الكنيسة» وصف لزيارة الانبا أنطونيوس الى القديس آمون فى صومعته التى كانت تبعد عنه بمسافة ثلاث عشر يوما كما روى القديس «اثناسيوس Athansius» بأن الانبا أنطونيوس كان يحترم القديس آمون أحتراما عظيما. ويظهر أن أتصاله به هو الذى جعله يتوسع فى أنشاء الجماعات من الرهبان على نظامه الانطونى. وقد ذكر القديس أثناسيوس أن الأنبا أنطونيوس قد تنبأ بوفاة القديس آمون فى صومعته فى صحراء نيتريا. وكانت وفاته قبل سنة ٣٥٦ للميلاد وهى السنة التى توفى فيها القديس أنطونيوس. وقد قدر البعض وفاة القديس أمون بوجه التقريب بين عام ٣٤٠م وعام ٣٥٠م. واسم هذا القديس لا تخلو من ذكره قائمة من بين شهداء الكنيسة الارثوذكسية وتحتفل الكنيسة بذكراه فى عيده الموافق اليوم الرابع من شهر أكتوبر.

وكان آمون يرى زوجتة مرتين كل عام فى منزل حياتهم الزوجية التى كانت قد حولتة ديرا للراهبات والتفت حولها كثيرات من العذراى اللائى رغبن فى ممارسة الحياة النسكية، فكانت زيارته لها بقصد الاطمئنان عليها والوقوف على مدى الحركة والادارة بالدير الذى تشرف عليه زوجته.

وفى أواخر أيام القديس آمون أخذ عدد الاخوة فى الزيادة فى جبل نيتريا فرغب البعض فى بناء القلالى فى أماكن بعيدة عنه فى الصحراء لينعموا بالسلام المنشود فتوغلوا داخل البرية حتى «سليا Cellia» وهى تبعد عن جبل نيتريا هذا بما يقرب من أثنى عشر ميلا، وقد ورد فى كتاب "Marcotis De Cosson p. 47" أن الطعام الذى كان يلزم الى رهبان سليا كان يأتى اليهم من نيتريا، وهذا دليل على ما كانت عليه من رواج بعكس ما كانت علية سليا من جفاف.

ومما هو جدير بالذكر أن القديس آمون ترك بعده مجموعة من أفاضل التلاميذ الافذاذ ومنهم على سبيل المثال القديس تيودور وأغاثو وثنثائيل وهور وبامو، وقد خلفه القديس بامو فى الزعامة فى جهة سليا.

وعندما أخذت نيتريا تفقد مكانتها وأهميتها بدأت سليا فى الازدياد والازدهار وحلت محل نيتريا وزادت عنها أتساعا وشهرة، وسبب هذه الشهرة ترجع فى الواقع الى المؤسس الحقيقى لمنطقة سليا وهو «القديس أبو مقار الاسكندرى» ونظرا لان كثيرين من القديسين كانوا يحملون اسمه فقد التبس على كثير من القراء المقصود الحقيقى من أولئك القديسين ولذلك نوهت بعض المؤلفات الى أشهر ثلاثة منهم أطلق عليهم الاسم المذكور وهم القديس مقار الكبير وهو مؤسس الدير المعروف باسمه وزعيم منطقة شيهات أوبرية الاسقيط ثم القديس أبو مقار الاسكندرى وهو زعيم منطقة سليا ثم القديس أبو مقار أسقف أدكو.

مقار الاسكندرى:

أما أبو مقار الاسكندرى فكان مولده بمدينة الاسكندرية فى مستهل القرن الرابع للميلاد من أبوين فقيرين ولذلك اشتغل خباز لبضع سنوات ثم كان يصنع الفطائر ويبيعها لكسب معاشه، كما قيل أنه أشتغل بمهنة الرعى أيضا. ثم ترك الاسكندرية بمظاهرها وتوغل فى

الصحراء حتى أعتكف فى برية موحشة وشرع يتدرب على النسك والتقشف وظل على هذه الحال سبع سنوات، ثم أصبح بعد ذلك يقتصر فى غذائه اليومى على مقدار ضئيل لا يتصوره العقل أذ أنه كان يكتفى بأوقيتين من الخبز تقريبا طول اليوم. وكان يمضى ليله فى الترانيم والتسابيح والتأمل ـ ثم أنتشرت أخباره أنتشارا عظيما وذاعت شهرته الفائقة فى الزهد وشدة التقشف فهرعت اليه جماعات من النساك والتفوا حوله لممارسة حياة الزهد، ثم أزداد عدد الرهبان وكانوا يعيشون حياة أنفرادية وكل ناسك له قلايته فكثرت القلالى فى تلك المنطقة حتى سميت صحراء القلالى، وقد أيد هذه الزيارة الرحالة «بلاديوس» الذى زار المنطقة وقتئذ عام ٣٩١ وعمر هذا الجزء الموحش من هذه الصحراء نحوا من ستمائة راهب، وقد علمهم «مقار السكندرى» كيفية بناء تلك القلالى أو حفرها.

وقد عرف عن مقار السكندرى هذا أنه لم يباشر حياة الرهبنة قبل سن الاربعين وذلك بعد أن تعمد وانتظم فى سلك الموعظين وزار القديس أنطونيوس فى الصحراء الشرقية ومارس على يديه حياة النسك سنة ٣٣٥م ثم ذهب أيضا الى نيتريا حيث تتلمذ على يد القديس بامو رئيس الجماعات الرهبانية فى الموضع المذكور بعد وفاة القديس آمون، ثم ظل هناك فترة رسم بعدها قسا وأصبح من هيئة الكهنوت حوالى سنة ٣٥٥ ميلادية. ثم أشتهر منذ ذلك الوقت باسم مقار السكندرى ثم تاقت نفسه الى الحياة الانعزالية فترك نيتريا واتجه جنوبا الى سليا حوالى سنة ٣٧٣م. ويشاهد أن مقدمه كان سبب شهرة عظيمة للمنطقة فزادت فيها أعداد الرهبان المنفردين وكثرت قلاليهم بطبيعة الحال حتى أصبحت سليا معروفة باسم صحراء القلالى. وكان مقار السكندرى شديد الشغف بالتنقل والرحلات والحياة بين سائر الجماعات الرهبانية فى وادى النطرون ورغبة منه فى الاطمئنان على مدى ما وصلت اليه حياته النسكية، ولذلك أصبحت له أربع قلالى واحدة فى جبل نيتريا والثانية فى سليا والثالثة كانت خارج وادى النطرون فى الصحراء الليبية والرابعة فى برية الاسقيط حيث كان كثير التردد على سمية القديس مقار السكندرى الكبير. وقد شاركه فى منفاه فى جزيرة فيلة جنوب مدينة أسوان وذلك عندما نفاهما الامبراطور فالنس الاريوسى بسبب وقوفهما فى وجه البدعة التى اثارها أريوس.

ومن أبرز ما أتصف به الانبا مقار السكندرى شدة تمسكه وأمعانه فى حياة الزهد وكثيرا ما تردد على المتوحدين الذين برعوا فى الزهد وينافسهم فى نسكهم فى هدوء وصمت. وتبارى

في ذلك مع بعض الرهبان الذين أشتهروا بزهدهم العجيب في دير تابينسى بالصعيد، ذلك أنه ترامى الى سمعة بأن رهبان دير الانبا باخوميوس هناك لا يذوقون طعاما مطهيا على النار مدة صوم الاربعين المقدسة، وشرع القديس المذكور بالامتناع عن تناول طعام مطهى لمدة سبع سنوات وأن يجعل غذاءه على الخضروات والحشائش البرية. ولم يكتف الانبا مقار السكندرى بهذا الزهد، بل سافر الى دير تابينسى فى رحلة أستغرقت منه خمسة عشر يوما لقطعها وهناك طوى فترة صوم الاربعين المقدسة واقفاً فى أحدى القلايات، دون أن يذوق طعاما ماعدا أوراق الكرنب كل يوم أحد فيخفى أمام رهبان الدير صيامه العنيف، وبالرغم من هذه الحياة العنيفة القاسية وامعانه الشديد فى اذلال الجسد فانه لم يخالف قوانين الدير من حيث العمل اليومى المعتاد الذى يقوم بعملة كل راهب في الدير فأنه قضى مكاريوس أيامه فى دير تابينسى في ضفر الخوص وعمل السلال فى صمت وسكوت. غير أن رهبان الدير المذكور لم يتعودوا مثل تلك الحياة القاسية، فطلب الى رئيسهم القديس باخوميوس أن يأمره بترك الدير حتى لا يكون حجر عثرة لهم ولما سأله الأنبا باخوميوس عن أسمه وأصله وعرف منه أنه مقار السكندرى احتفل به رهبان الدير وأكبروه وزادوا فى احترامه. ثم غادر الدير وعاد الى سليا وفيه مازال يمعن فى زهده وتقشفه الشديد حتى قيل أن لحيته تساقط شعرها ولم يبق له سوى شعر قليل على شفته العليا وعلى ذقنه. ولذلك كانت أرشاداته الى اتباعه من الرهبان موضع التقدير والاحترام الشديد والقبول كما كانت نسكيته الرفيعة مضرب الامثال من سائر الاديرة فى وادى النطرون وقد وافته المنية فى أواخر القرن الرابع الميلادى بعد جهاد خالد مجيد[1] فى سبيل نشر المسيحية الارثوذكسية الصحيحة كما قيل أنه عمر طويلا حتى بلغ

---

(١) أتخذت سليا التى أشرف على رئاسة أدارتها الانبا مقار السكندرى مركزا مستقلا وأصبح الكاهن الوحيد لكنيستها التى شيدت بها فى عهده أذ لم يكن بها سوى كاهن هو الرئيس وعلى ذلك صعبت مهمته كثيرا لاضطراره لتفقد المتوحدين فى قلاليهم التى كانت مبعثره فى جوانب تلك البقعة الموحشة من الصحراء ولا يخفى ما كان يحتاج اليه أولئك النساك من رعاية وعناية تامة أكثر من أخواتهم المقيمين فى القلالى القريبة المتجاورة. ونظرا لما كان يتمتع به من السلطان الروحى وقوة التأثير الشخصى بسبب أعماله وفضائلة الجيدة وسلوكه وطهارة النفس دفعت هذه الصفات السامية الى اتخاذها المثل العليا لهم وحرص كثير من أتباعه من الرهبان على تقليد القديس المذكور فى طريقة حياته وزهده وقد وصل الكثير من أولئك الاتباع من الرهبان الى درجة عالية من الرهبنة.

من العمر تسعة وثمانين عاما. أما المركز الثالث الذى انسحب اليه فريق من الرهبان ورغبوا فى ممارسة حياة النسك فيه فى الصحراء المطلقة فقد كان شديد الغور وقد أطلق عليه كلمة الاسقيط أو «برية شيهات» وقد ذاعت شهرة ذلك المكان حتى تبوأ مكان الزعامة فى جميع منطقة وادى النطرون على الاطلاق، وترجع تلك الشهرة فى الواقع الى المؤسس الاول لها وهو الانبا مقار الكبير.

ولد أبو مقار فى فجر القرن الرابع الميلادى وبعض المراجع ذكرت عام ٣٠٠ تقريبا من والدين أشتهرا بالتدين. وذكر الانبا سيرابيون أن والده كان قسيسا لبلدة شبشير أحدى بلاد المنوفية الحالية فى الدلتا، ولذلك دأب مقار هذا منذ نشأته على الذهاب الى الكنيسة حيث رسمه أسقف الاقليم المجاور قارئا كنسيا، ثم أجبره أبوه على الزواج غير أنه كان ميالا الى حياة النسك والتبتل وأمتنع عن معاشرة زوجته وكان يحتج دائما بدافع المرض، ولكى يبعد مقار عن نفسه ذلك الصراع العميق أستأذن من والده فى الذهاب الى البرية بقصد الترويح وتبديل الهواء فسافر مع أحدى القوافل الذاهبة الى وادى النطرون حيث شاهد حياة النساك القاطنين فى نيتريا. ثم عاد مقار الى بلده وعلم أن زوجته قد توفيت وهى عذراء وأن والده قد فقد بصره وبقى الى جواره وقام على خدمته حتى وفاته، وما لبث أن توفيت والدته بعد ذلك بقليل. ثم خرج مقار من بلدته الى احد الاكواخ القريبة بعد أن وزع ماورثة من والديه على الفقراء وعاش ناسكا متقشفا وكان ذلك فى عام ٣١٥ ميلادية.

غير أن أقامته خارج القرية لم تدم طويلا أذ صمم فى عام ٣٣٠ ميلادية على تركها والذهاب الى نتريا مرة ثانية ليعيش بين رهبانها غير أنه ذكرت قصتان تختلفان فى سبب ذهاب مقار الى وادى النطرون. الاولى أنه أتهم ظلما بفعل الشر مع امرأة أثناء أقامته خارج القرية فثار عليه أهلها وأوسعوه ضربا حتى أجبر أن يتعهد بالعمل ليكفل نفقة تلك المرأة مدة حملها غير أنه لما تبين عدم صحة ما أتهموه به وذلك باعتراف المرأة التى نطقت ببرائته عندما تعثرت ولادتها، هرع أهل القرية اليه يطلبون منه الصفح والمغفرة على أسائتهم فلذلك ترك المكان الى الاسقيط فرارا لذاته، أما القصة الثانية فقيل أن أهل قريتة رغبوا فى رسامته قسا ليظل بينهم غير أنه كان يرغب فى ممارسة النسك وفضل الهروب الى نيتريا.

ومهما يكن من أمر هاتين القصتين بخصوص مجىء مقار الكبير الى صحراء نيتريا فأن حلوله فيها كان حوالى ٣٣٠ ميلادية وكذلك لم يدم بقاؤه بها طويلا، أذ تركها ثم أنتقل الى

صحارى القلالى «سليا» حيث تقابل هناك مع بعض القديسيين ثم أعتزلها بعيدا نحو الجنوب فى المكان الذى أطلق عليه صحراء «بترا» الواقعة شمال برية شيهات عند نقطة اتصالها بصحراء القلالى. ثم حفر مقار لنفسه «فى بترا مغارة» على مقربة من أحدى القلاع الرومانية القديمة ثم حفر بئرا يستقى منها من المكان المذكور وقد ذاع صيت القديس أنطونيوس وقتئذ فى الصحراء الشرقية، حيث أنطلق اليه مقار ولبس أسكيم الرهبانية عنده توطئة بدخوله النظام الانطونى فى الرهبنة ويروى أنه ذهب مرة أخرى الى القديس أنطونيوس قبل رسامته كاهنا.

ومع أن القديس مقار الكبير هو أول من كون الجماعات الرهبانية فى «شيهات» أو «برية الاسقيط» غير أنه لم يكن أول من ترهب بها، ذلك أنه ورد فى سيرة مقار فى أحدى جولاته فى الصحراء الواقعة جنوب صخرة بترا وهى صحراء شيهات، ووصل الى مرج أخضر وفى سطه ماء وحوله شجر صفصاف وأذ لفت نظره فجأة منظر آدميين ليس على بدنهما ما يسترهما الا بعض الجلود شعرها بالغ الطول وكذلك أظافر اليدين والرجلين طويلة أشبه بأظافر الحيوان، ففزع مكاريوس منهما ثم تحدث معهما وسألهما عن كثير من الأشياء وعرف منهما أنهما من السواح(١) الجائلين فى البرية وأنهما لم يريا أحدا منذ أن سكن الرية منذ زمان طويل

---

(١) السواح فى تاريخ الكنيسة القبطية هم قوم نساك شديدى التقشف والتعبد مع ممارسة حياة غاية فى القسوة والعزلة الانفرادية التامة، ويقضون معظم أيامهم هائمين فى بعض الصحارى أو البرارى ينتقلون من مكان الى آخر ويقيمون فى كهوف يحفرونها لانفسهم فى الصخور ولم يخضعوا لنظام من الرهبنة الخاصة بل كان يعيش الفرد منهم حياة نسكية مريرة حسب ظروف البيئة التى وجدوا فيها. وكان الشخص من أولئك السواح لا يرتبط بالصلاة فى كنيسة معينة. ومن أمثلتهم الأنبا «بولا» الذى يعتبر أول السواح فى الصحراء الشرقية.

على أن أول السواح فى الصحراء الغربية وفى منطقة وادى النطرون هو «بطليموس المصرى» الذى روى عنه أنه جاء الى مكان يخلو من الماء فكان يطفىء ظمأه بقطرات الماء التى كان يجمعها بأسفنجة يحفظها معه لهذا الغرض كما أن اثنين لم تذكر المراجع اسميهما وقد شاهدهما القديس مكاريوس الكبير فى أحدى جولاته فى صحراء شيهات وكانا شبه عاريين أو أنهما اكتفيا بمئزرين لستر العورة. وأشهر أولئك السواح الذين سيظل اسمهما خالدا أبد الدهر هو «القديس أبو نفر السايح» وكان من أعظم النساك فى التقوى والتواضع. وكان فى الأصل راهبا من الصعيد ولد فى قرية بقرب مدينة طيبة وذكر السنكسار القبطى أن وفاته كانت فى ١٠ بؤونة بصحراء طيبة وبالرغم من أن أعماله كانت خفية وحتى مشاهير رهبان الأقباط يجهلون تاريخ حياته تماما ولم يذكر اسمه الا نادرا ولكن يظهر أن حياته كانت مثلا أعلى للنساك حتى قدر الله لها الخلود. =

ولم ينظرهما أحد من البشر سواه وأثناء تجوالهما فى البرية يشاهدون حيوانات مختلفة الأجناس.

= ويروى القديس «بافنوتيوس» الذى الهب الله قلبه شغفا بتفقد خدام الله من أولئك النساك والذى رأى منهم عددا كبيرا وكتب عن أخبارهم كثيرا وكان منهم القديس أبو نفر هذا، وقد شاهده عاريا تماما ولا يغطى جسده سوى شعر رأسه وكذلك لحيته المسترسلة فى الطول المبالغ فيه وأنه ارتعد من هيئته وظن أنه روح ولكن زالت شكوكه عندما رسم علامة الصليب أمامه، وبدا بتلاوة الصلاة الربانية وخصوصا عندما ناداه باسمه فقد زالت مخاوفه للتو ثم شرع فى الصلاة سويا ثم جلسا يتحادثان عن عجائب الله. وبعد ذلك سأله القديس بافنوتيوس عن سبب مجيئة فى الصحراء وكيف يعيش فيها فأجابه «أبو نفر» أنه كان يعيش فى دير ملىء بالرهبان الأتقياء الأطهار وسمعتهم يتحدثون يوما عن سكان الصحراء من النساك وما هم عليه من سمو الخلق وحسن الفضائل فسأل «أبو نفر» واحدا منهم عما اذا كانت فضائلهم تفوقهم سموا وتقوى فأجابوه بالايجاب لانهم يعيشون بعيدين عن سكان الأرض ويمارسون عيشة غاية فى التقشف والقسوة فاذا مرض أحدهم لا يجد من يزوره واذا اشتدت عليه الهموم والكروب لا يجد من يسرى عنه من سكان الارض واذا بلى ملابسه لا يجد من يكسيه أو غير ذلك من المطالب أو الحاجيات فلا يجدون من يمدونهم بها كمثل أولئك الذين يعيشون فى الاديرة. فحالما سمعتهم يتحدثون هكذا التهب قلبى وعندما أرخى الليل سدوله أخذت قطعة من الخبز الجاف وخرجت من الدير. ثم صليت وطلبت من سيد المجد أن يهدينى الى المكان الذى أذهب اليه فرحلت وسهل الله طرقى حيث التقيت بأحد القديسين من النساك وبقيت بجوار، فترة علمنى فيها طرق النسك ثم جئت الى هذا المكان حيث وجدت تلك النخلة وهى تثمر أثنتى عشر سباطة سنويا تكفى كل واحدة منها غذاء شهر كامل ثم أشرب من ماء تلك البئر، وبقيت هنا ستين عاما لم أر فيها أنسيا سواك. وفيما هما منهمكان فى ذلك الحديث ظهر ملاك الرب بينهما وناولهما من جسد ودم المسيح ثم تناولا قليلا من الزاد وتغيرت هيئة القديس أبو نفر وصار كما لو كان لهيبا من نار ثم ركع وسجد أمام السيد المسيح ثم ودع القديس بافنوتيوس وأسلم روحه فقام بتكفينه بعد أن لفه بقطعة من الكتان ودفنه بالكهف ثم أراد القديس بافنوتيوس أن يحل محله ولكن حدث بعد أتمام عملية الدفن فى الكهف أن سقطت النخلة وجفت البئر. وقد حدث ذلك بسماح من الله لكى يعود القديس بافنوتيوس الى العالم ويعلن عن حياة القديس أبو نفر. ويظهر أن كثيرين من أمثال أولئك النساك السواح أنزوت حياتهم بين ربوع الصحارى والبرارى ولم يهتد أحد الى أماكنهم وأن من عرف منهم صدفة قليل بالنسة للأعداد الكثيرة التى هامت فى الصحارى والقفار المصرية أمعانا منهم فى التقشف والتعبد للتقرب من الخالق وقد شيدت كنائس على اسم القديس أبو نفر منها فى ظاهر مصر فى نهاية القرن الثانى عشر للميلاد نقلا عما ذكره الشيخ المؤتمن أبو المكارم سعد الله كما ذكر «أميلينو Amélineau» أنه بنيت كنيسة له فى البتانون بمديرية شبين الكوم «بمحافظة المنوفية» فى القرن التاسع. ثم شيدت كنيسة ودير على أسمه فى بلدة دلجا «بمحافظة» أسيوط فى نهاية القرن الثانى عشر للميلاد، كما شيدت كنيسة له أيضا بقرية ناحية أسوان حسب رواية أبو صالح الارمنى، هذا وتعيد الكنيسة القبطية بهذا القديس مرتين سنويا الأولى ١٠ يونيو ويوافق يوم نياحته والثانية يوم تدشين كنيسته بظاهر مصر فى ١٢ هاتور. =

وقد اشتغل مقار الكبير فى «بترا» بعمل السلال التى كان يعطيها للجمالين الذين وفدوا لحمل النطرون ليبتاعوا له بثمنها خبزا يابسا ليقتات به، وذاع زهده فالتجأ اليه أعدادا كثيرة من الرهبان المجاورين الذين رغبوا فى الحياة الرهبانية على يديه وحسب ارشاداته فكان يلبسهم زى الرهبنة ويعلمهم طريقة ضفر الخوص وعمل السلال، وكيفية حفر المغارات فى التلال وتظليلها بالضعف.

ولم يكن أولئك الراغبين فى الحياة الرهبانية عنده من المصريين فقط بل جاء اليه جماعات كثيرة من روما واسبانيا وكبادوكية باسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين وبلاد النوبة وأرمينيا وأقاموا فى قلالى متجاورة على صخرة بترا.. وكانت شخصية مقار الكبير سببا فى أجتذاب هذه الاعداد الوفيرة من أوروبا التى ذاع صتها فى هذه المناطق. وكان ممن تتلمذ فى ذلك المكان على يد القديس مكاريوس الكبير من غير المصريين هما شابان يافعان من الأمراء وهما أبناء الامبراطور فالنتينس الاول المسيحى «٣٧٥/٣٦٤ ميلادية» وهو الأمبراطور الذى عرف بشدة حبه للمسيحيين من رعيته حتى لقبه المصريين باسم قسطنطين الجديد، وقد اهتم بتربية أبنائه تربية دينية حتى امتلأ القصر الأمبراطورى بصلوات مستمرة نهارا وليلا.

وقد كان رغبة الأميرين فى تكريس حياتهما لله وممارسة الرهبنة ولكن والديهما عارض هذه الرغبة، ثم طلبا منه السماح لهما بزيارة مدينة «نيقيا» فصرح لهما حيث تقابلا هناك مع أحد الرهبان ويدعى «يوحنا» أشتهر بورعه وتقواه حتى أسترعت صفاته وفضائله بعض رجال الدولة فكانوا يقصدونه دواما للتبرك بأقواله والاستماع الى مواعظه ونصائحه فاستقبل الراهب هذين

= ومن بين أولئك السواح الذين ذاع صيتهم فى مصر وخصوصا فى العصور الوسطى الأنبا «فريج» والذى يطلق عليه «الأنبا رويس» وكان يعيش فى زمن البطريرك الأنبا متاوس السابع والثمانين وذلك عام ١٢٦٠ للميلاد ويقطن على مقربة من قلايته كما أصبح من السواح المشهورن وعرف بشدة ورعه وأمانته وتعلقه بخالقه حتى وهبه القدرة على شفاء المرضى وشفى كثيرين من أسقامهم وأمراضهم الروحية والجسدية حتى كانوا يلقبونه برجل المعجزات وكانت كنيسة العذراء بحارة زويلة مكانه المفضل كما روى أن البابا كثيرا ما كان يسأل عنه ويفتقده دائما خصوصا فى أثناء الصلاة فى القداس كما قيل أنه شيع جنازته عند وفاته ودفنه فى الكنيسة المسماة على اسمه والمجاورة للكنيسة المرقسية الكبرى الآن. وكذلك الأنباء برسوم العريان كان من أمثال أولئك النساك الصالحين الذين أذلوا الجسد الى أقصى حدود الأذلال حتى تصفو وتسمو الروح وقيل أنه كان يعيش منذ أكثر من خمسة قرون وهجر الدنيا ونزواتها ليعيش أيامه متعبدا كروح بلا جسد.

الأخوين بكل ما يليق بمكانتهما من احترام وتبجيل حيث أقاما عنده مدة من الزمن ثم أطلعاه عن رغبتهما فى الرهبنة. ولكن الراهب المذكور خشي من عقاب الأمبراطور فأرسلهما الى بلاد الشام عند أحد مشاهير رهبانها وهو الآب أغابيوس ليتتلمذا على يديه فأقاما عنده ست سنوات حيث عاشا حياة الزهد الكاملة بالورع والتقوى ولبسا ملابس الرهبان السوريين السوداء وقد ذاع خبر تقواهما وعرف عنهما من الصلاح وسمو الفضائل مما دعا البحارة الى كتابة اسميهما على قلاع سفنهما تبركا. وقيل أن أباهما الذى ظل يبحث عنهما دون جدوى عرف مكانهما من هذه القلاع، ولما أراد الوالد أن يرشح أحدهما ليتقلد كرسى كنيسة القسطنطينية رفض كل منهما تولى تلك الوظيفة الدينية الكبرى وصمما على الالتجاء الى منطقة النسك بوادى النطرون فركبا البحر ووصلا الى مصر ثم اخترقا الصحراء وسارا فيها حتى وصلا الى مكان القديس مقار الكبير فى برية الأسقيط، ورغبا فى الحياة معه. ولما وقف على قوة ارادتهما وشدة عزمهما على النسك رحب بهما وأعطاهما فأسا ليحفرا قلايتيهما ثم علمهما طريقة ضفر الخوص وعمل السلال. ثم خلع هذان الراهبان الأمبراطوريان الملابس الرهبانية السريانية وألبسهما القديس مقار ملابس الرهبان المصريين وقد فعلا هذا رغبة فى اخفاء مظهرهما عن مندوبى الأمبراطور أبيهما وكان لا يكف بطبيعة الحال عن ارسالهم فى البحث عنهما.

ولما كان هذان الراهبان القديسان أجنبيين عن المصريين فلم يكن من السهل عليهما التفاهم مع النساك المصريين فظلا طول حياتهما دون زيارة أى انسان، ولم يفتحا قلايتهما الا لعامل كبير السن من عمال مناجم النطرون وكانت مهمته بيع انتاج عملهما من السلال، وعند ذهابهما الى الصلاة فى الكنيسة كانا يقضيان طول فترة الصلاة دون أن يرفعا وجهيهما عن الأرض، وكان طعامهما يتكون من الخبز الجاف والملح.

ويظهر أن الحياة النسكية القاسية التى مارسها الشابان القديسان وسط تلك البرية المحرقة مع شظف العيش فى المأكل والمشرب والملبس بخلاف ما اعتادا عليه من الحياة فى قصر أبيهما الأمبراطورى كانت من العوامل التى عجلت بوفاتهما وهما فى شرخ الشباب ولم يعمرا طويلا ورحلا من الدنيا فى سنة واحدة فى حوالى عام ٣٨٤ للميلاد، وقد قام القديس مقار بدفنهما بعد أتمام الصلاة على رفاتهما بنفسه فى المكان القريب من المغارة التى حفراها. وكانت أخبار

الرهبان عنهما تشيد بسيرتهما العطرة وفضائلهما وسمو أخلاقهما حتى شرع الكثير من الرهبان الى التسابق فى بناء القلالى بجوار مغارتهما، كما شيد القديس مقار كنيسة تذكارية حسنة على مقربة من تلك القلالى الجديدة التى أطلق عليها اسم قلالى «جماعة الروم». وبذلك تأسست جماعة رهبانية حول المكان الذى دفن فيه الراهبان «مكسيموس ودوماديوس» وهو غير المكان المعروف حاليا بدير البراموس كما ورد ذلك فى رواية بعض المراجع.

أما القديس مقار الكبير فأنه بعد ازدحام صخرة بترأ بالعديد من الرهبان شرع فى الانتقال الى منطقة أخرى تصبح حياته فيها أشد خشونة وقسوة أمعانا فى الزهد فانتقل داخل شيهات الى موقع جنوب الوادى وهو المكان الذى أطلق عليه اسم «أسقيط القديس مقار» تمييزا له عن سائر برية شيهات وأقام هناك داخل قلاية حفرها بنفسه ليمضى بها بقية أيام غربته فى شظف من العيش وحيث لا تتوفر المياه كثيرا بسبب أنخفاض منسوبها وقلة صلاحيتها. ولكن سرعان ما أنتشر الرهبان فى المكان وعمر بالكثير من الوفود من النساك فألبسهم مقار أسكيم الرهبانية وأمر جميعهم أن تكون جماعاتهم فى وحدات متقاربة مما يبرهن على أن القديس مقار الكبير قد فطن الى أهمية الناحية الاجتماعية فى حياة الرهبنة ولو أنه لا يوجد ما يدل على قيام نظام دير عمل القديس مقار على خلقه وايجاده فى حياته.

ولم تنقطع زيارة مقار لجماعته الرهبانية الاولى، بل دأب على تفقدها مع بعض الرهبان لوجود النخيل والبردى بكثرة على مقربة منها، فاذا قام بالخدمة الدينية من تعاليم طقسية وصلاة فى الكنيسة التذكارية فى زيارة من هذه الزيارات عاد مع جماعته من الرهبان مزودين بما كانوا يحملونه من سعف النخيل والبردى اللازمين فى العمل اليدوى للضفر وصنع الحصر والسلال، ولم يكف القديس عن الاكثار من أقامة القلالى وحفر المغاور والآبار وبناء الكنائس ليهىء الى تلاميذه العديدين كل ما يمكن لراحتهم وظل يجاهد طول حياته للنهوض بالحياة الرهبانية حتى وصلت الى عهدها الذهبى فى عصره وتبوات منطقة وادى النطرون بصفة عامة شهرة عالمية ومركزا ساميا فى عالم النسك والرهبنة. وكانت وفاة القديس مقار عام ٣٩٠ للميلاد وذكر الأسقف سرابيون فى أخبار وفاته «أن جماعة من الرهبان حملوا جسد الاب القديس العظيم الى المغارة التى بجانب البيعة التى بناها القديس، وانصرفوا الى قلاليهم بحزن

عظيم». وعلى ذلك يمكن أن نحدد تأسيس جماعة مقار الكبير «في الأسقيط» في المدة التي تقع بين وفاة القديسين «مكسموس ودوماديوس» وبين وفاة القديس أبو مقار أي بين سنتي ٣٨٤/٣٩٠م.

ويجاور دير مقار الحالي، موقع القلالي التي تكونت فيها جماعة القديس مقار، ويقال أن القديس المذكور شهد قبل وفاته جماعتين رهبانيتين أخريتين في برية شيهات، الأولى وهي جماعة القديس «يوحنا كلويس» المعروف باسم يوحنا القصير وأصله من عائله فقيرة من مدنية البهنسا الحالية أي أقاليم «اكسيرنكس Oxrynchus» وولد عام **٣٣٩**م ولما بلغ الثامنة عشر من عمره رغب في حياة الرهبنة وقبل أن ينخرط في سلكها رحل الى بعض الأماكن الموحشة ليدرب نفسه وليتعرف على مدى صلاحيته وقدرته على احتمال العيشة الدينية القاسية. ولما آنس في نفسه المقدرة انصرف الى منطقة وادى النطرون ليتتلمذ على القديس «بامو» الذى خلف القديس آمون بعد وفاته وأصبحت له رئاسة نيتيريا وأعداد الرهبان المنفردين في سيليا. ورؤى أن السبب في اختياره للقديس «بامو» لأنه كان من بلدته. فأقام في قلالة الى جواره. ومن أغرب الاختبارات التي أجريت على يوحنا القصير هذا لقبوله في الدخول بسلك الرهبنة. وكان لها تأثير في حياته ما ورد ذكره عن القديس بامو أنه أعطى يوحنا غصنا جافا كان يتوكأ عليه أثناء تنقلاته. وأمره أن يغرسه على مسافة بعيدة وبتعهده دواما بالسقي بالرغم من جفاف الغصن والصعوبة البالغة في نقل المياه اليه. ومع ذلك لم يكف يوحنا عن تنفيذ أمر معلمه حتى نبتت الشجرة أو العصا بعد ثلاث سنوات وحملت أثمارا حسب ما ورد في القصة. وقد قدم القديس بامو تلك الثمار الى تلاميذه قائلا «خذوا كلوا من ثمار شجرة الطاعة». وقد توالت زياراته الى قلاية يوحنا يعلمه الأنجيل ويدربه على حياة النسك حتى وصل الى مرتبة عالية فاق فيها جميع زملائه بل فاق جميع رهبان منطقة شيهيت بسبب شدة تواضعه ونقاوة قلبه.

وقد أمضى يوحنا القصير في عشرة القديس بامو اثنتى عشرة سنة وعندما قاربت أيامه على الانتهاء من هذا العالم. أوصى القديس تلميذه قائلا «يا يوحنا يا ولدى عندما أرحل من هذا العالم اذهب وعش في المكان حيث زرعت الشجرة اذ أن هذه الشجرة التي لك الفضل في

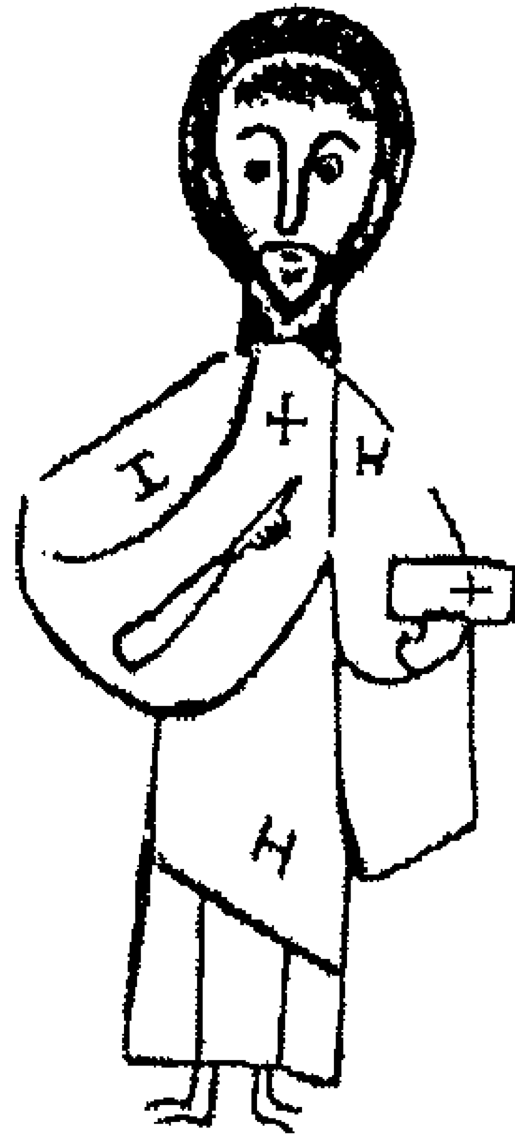
أنباتها هى رمز لهذه النفوس التى ستنقذها فى هذا المكان والتى ستجعل لك ذكرى أمام الله». وعندما توفى الأنبا باميو ذهب يوحنا عند مكان الشجرة وابتنى له مغارة وسط برية شيهات. وفى مكان يقع على مقربة من دير تأسس فيما بعد وهو المعروف اليوم بدير السريان أو يوحنا كاما، ثم ذاعت سيرة الأنبا يوحنا النسكية فاجتمع حوله كثيرا من الأخوة الذين رغبوا فى الحياة حوله. وحفروا لهم بئرا لتوفر عليهم مشاق السفر الى مسافات بعيدة لاحضار الماء من الآبار القديمة. ولما زاد عدد القلالى وكثرت جموعهم بنى لهم يوحنا كنيسة حوالى عام ٣٠٠ للميلاد. الا أن رهبان هذه المجموعة فروا أوائل القرن الخامس للميلاد بسبب هجوم البرابرة وهدمهم القلالى والكنائس فى شيهات وقتل الكثير من رهبانها. ثم انتقل يوحنا القصير بمن معه من هذه الجماعة الى الصحراء الشرقية حيث كان يعيش تلاميذ القديس انطونيوس. وقد مات يوحنا القصير فى تلك الصحراء الشرقية ودفن فيها.

أما المجموعة الثانية التى شهدها القديس مقار الكبير فى برية شيهات فهى مجموعة «الانبا بشوى» وقد ولد فى بلدة «أبشنشا» بمركز أجا بمديرية الدقهلية الحالية، وتوفى والده فتولت تربيته أمه مع أخوته السبعة وكان بشوى أصغرهم. ولما بلغ مرحلة الشباب رغب فى ممارسة الحياة الرهبانية فرحل الى منطقة وادى النطرون وأصبح زميلا الى يوحنا القصير فى البرية وفعلا تتلمذ معه على يد الأنبا بامو وثابر بشوى على حياة النسك فظل ثلاث سنوات لم ير خلالها غير وجه مرشده كما عكف على دراسة الانجيل والتوراة. وقيل أنه حفظ سفر أرميا حتى لقبه البعض «بشوى الأرمى». وقد عاش بشوى مع زميله يوحنا القصير فى المكان الذى زرعت فيه شجرة الطاعة. ثم انفصل عنه بعد فترة وجيزة وسكن فى مغارة قريبة منه. ولم يعرف بالضبط التاريخ الذى بدأت فيه جماعة الأنبا بشوى الرهبانية ولكن يمكن الاستدلال عليه على أن قيامها على غالب الاحتمال مرتبط بزمن وفاة الأنبا بامو الذى حدث حوالى عام ٣٧٤ للميلاد وانتقال الأنبا بشوى الى المغارة التى عاش فيها بعد انفصاله عن الأنبا يوحنا القصير. وهذه المغارة هى النواة التى تجمعت حولها قلالى الرهبان الذين سكنوا الى جوار الأنبا بشوى وألبسهم الاسكيم كما شيد لهم كنيسة والتى كانت الرابعة فى عداد كنائس برية شيهات فى القرن الرابع للميلاد.

ولما أغار البرابرة على جماعة الرهبان فى القرن الخامس بوادى النطرون وهجموا على

جماعة الانبا بشوى هرب هو ورهبانه من وجه الغزاة. وقيل أن الانبا بشوى التجأ الى القديس بولا الطموهى وأقام عنده حتى وأفته المنية ثم نقلت رفاته فيما بعد الى المكان الذى بنى عليه ديره الحالى.

وخلاصة القول أن أول المجموعات الرهبانية الاربعة فى برية شيهات[1] بعد جماعة القديس آمون هى الجماعة التى تكونت حول القديس مقار الكبير فى «بترا» فى شمال شيهات ثم الجماعة التى تكونت حول قلاية القديسين «مكسيموس ودومادیوس» حوالى سنة ٣٣٤م. وفى المدة التى تقع بين عام ٣٨٥/٣٧٥م تكونت جماعة كل من يوحنا القصير والانبا بشوى فى وسط شيهات. ومما يؤيد هذه التواريخ بالاضافة الى ماورد فى أخبار هؤلاء الرهبان أن الرحالة الاب «يوحنا كاسيان» الذى زار برية شيهات حوالى عام ٣٨٥م رأى بها اربع كنائس وكان لكل كنيسة منها كاهن أعظم أو أيغومانس «ومن المعروف أن كل جماعة من تلك الجماعات شيدت فى وسطها كنيسة لاقامة صلوات القداس فيها.



رهبنة وادى النطرون

* النكبات التى حلت بوادى النطرون ورهبانه.
* أثر رهبنة وادى النطرون فى تاريخ الكنيسة.
* نشاط رهبان وادى النطرون عمليا وعلميا.
* أثر رهبنة وادى النطرون فى العالم الخارجى.

النكبات التى حلت بوادى النطرون ورهبانه:

كان القرن الرابع ومستهل الخامس للميلاد العصر الذهبى للوادى ورهبانه وأزدهرت فيه القلالى وأيد هذا القول رحالة الغرب الذين زاروا المنطقة فى ذلك الزمن أمثال روفينوس وبلاديوس وجيروم وغيرهم ونوهوا عن أنتشار الاديرة فيه ووصل عددها الى خمسين ديرا وبلغ عدد رهبانه خمسة الاف راهب. وكانت المنطقة تنعم بالسكون والهدؤ العجيب وخصوصا فى

(١) على مقربة من منطقة شيهات أو الاسقيط كانت توجد بلدة «بيامون» التى ورد أسمها فى قصة أل ٤٩ شيخا الذين قتلهم البرابرة فى أحدى غزواتهم على الرهبان ودفت أجسادهم بتلك القرية. وفى أوائل القرن الخامس أقامت الحكومة الرومانية قلعة لحماية المنطقة من غارات البرابرة.

زمن القديس مقار الكبير أشهر مؤسسى الرهبنة فى الوادى المذكور[١] ولكن لم تدم تلك النهضة المباركة أذ بعد وفاته بقليل أغار على المنطقة وجميع أديرتها البرابرة والحقوا بها الخراب والدمار. وقيل أن مقار الكبير كان قد تنبأ بما حل بها من نكبات البربر ولم يكفوا عن هجماتهم وأعمال السلب والنهب والقتل بذلك الوادى وتكررت غاراتهم عليه فترات عديدة وفى عصور مختلفة نذكر منها على سبيل المثال:ـ

(١) **الغارة الاولى:** حدثت حوالى عام ٤١٠ للميلاد. وقد كانت فى عهد البطريرك الانبا ثيوفيلس وهو البابا الثالث والعشرين من ٣٨٥/٤١٢م وقد أيد حادثة ذلك الهجوم القديس ارسانيوس[٢] فى مذكراته.

---

(١) أكتسب الوادى صفة التقديس بسبب ما ذاع بين المسيحيين من رواية التجاء السيدة العذراء مع طفلها المقدس أبان هروبها الى أرض الوادى المذكور. كما أعتاد بطاركة الاسكندرية المجيء الى برية شيهات لدير مكاريوس الكبير للقيام بمهمة طبخ الميرون. كما كانت التقاليد تحتم على البطاركة أن يقيموا أول قداس لهم بعد الرسامة فى مدينة الاسكندرية فى دير أبى مقار فى هذا الوادى. وكان المكان الهادىء الامين الذى لجاء اليه البطاركة أبان فترات الفوضى والمنازعات والاضطهادات التى تعرضت لها البلاد فى العصور المختلفة.

(٢) كان أرسانيوس رومانى الاصل من أسرة عريقة من الشيوخ ومن رجال البلاط وفيلسوفا ذائع الصيت ولهذا تقلد مناصب رفيعة فى العصر الامبراطورى وقد روى عنه أنه مربى أبناء الملوك ربما كان له فضل فى تهذيب وتعليم أولاد الامبراطور «ثيودسيوس» وقد رغب فى ترك حياة المظاهر العالمية وممارسة معيشة التنسك. فرحل الى وادى النطرون ببرية شيهات وهناك وصل الى قلاية القديس «يوحنا القصير» الذى عرف أنه أحد رجال البلاط بقصر الامبراطور أركاديوس ابن تاودسيوس الكبير. وبالرغم من أن أرسانيوس توسل فى تواضع وتذلل وخشوع للقديس يوحنا برغبته للدخول فى الرهبنة الا أن القديس أظهر له احتقاره فى أول الامر ولم يعبأ بعلو مركزه بل تركه واقفا على بعد وجلس لتناول طعامه مع رهبانة وبعد برهة القى اليه الانبا يوحنا قطعة من الخبز الجاف وهو فى مكانة فانحنى أرسانيوس من بعيد ليتناولها ولما رأى ذلك منه تأكد من صلاحيته للرهبنة ورحب القديس يوحنا القصير به بين الرهبان. ويظهر أن الجفاف والخشونة مع القسوة مع الراغبين الاحداث لدخول الرهبنة أمر لابد منه لاختبار مدى طاعة الشخص وتواضعه. والقديس أنطونيوس أعطى الى مكاريوس الكبير درسا فى أحتقار ذاته عندما ذهب ليتتلمذ عليه وقد أصبح هذا النظام قانونا يتبع لا مع حديثى الرهبنة من المصريين وأيضا مع الاوربيين. فقد روعى بين قوانين الرهبان والديريين هناك. ويروى عن أرسانيوس ترك برية شيهات حوالى عام ٤١١م وذهب الى كانوب على مقربة من الاسكندرية حيث زاره البطريرك ثيوفيلوس عدة مرات. وقيل أنه رفض أثناء أقامته بكانوب مقابلة سيدة رومانية قد عبرت البحر لتظفر بكلمة منه. ثم أقام مدة فى بلدة «تروجا» وهى طرا الان بين القاهرة وحلوان وسافر أكثر من مرة من تروجا الى كانوب والاسكندرية فى أخريات حياته. =

(٢) **الغارة الثانية:** وقعت بالمنطقة المذكورة بعد عشرين عاما من الغارة الاولى أى حوالى عام ٤٣٠م وذلك فى زمن كيرلس الكبير البطريرك الرابع والعشرين ٤١٢/٤٤٤م. وهرب أغلب الرهبان منها ولم يبق بها الا القديس أرسانيوس غالبا. وقد أقام فى الجبل وحده وظل هناك متوكلا على الله مرددا هذه العبارة «أن عناية الرب تشمل الجميع وما من أمر يحدث الا بمشيئته. فلو كان الله قد أراد التخلى عنى فلماذا أتمسك بالحياة». وروى أن أرسانيوس كان يمر بعد ذلك بين صفوف اللصوص المسلحين دون أن يشعروا به لان الله يخفيه عن أبصارهم. وقيل أن عهده فى برية شيهات كان زاهرا فى الرهبنة كما أخذت أعدادا وفيرة من الرهبان الوفود للصحراء وعمروا كثيرا من القلالى.

(٣) **وكذلك حصلت غارة ثالثة:** على الوادى من البرابرة أيضا وكانت فى زمن البابا ديوسقورس البطريرك الخامس والعشرين من ٤٤٤/٤٥٨م. وقد ذكر أن بين من أستشهد فى تلك الغارة القديس موسى كما قتل كثير من الرهبان. والظاهر من واقع الامر أنه بعد كل غارة من انقضاض البرابرة على الوادى ونهب ما فيه وقتل الكثير من نساكة واحلال الدمار فيه وهروب البقية من الرهبان كان يعمد الكثير من أهل الاحسان والبر من المسيحيين وبعض البطاركة الى تعمير ما تخرب من أديرته وقلالية وكنائسة بقصد أعادة المنطقة الى سابق عهدها المجيد والتشجيع الى رجوع النساك اليه وتعميرة وكانت تدب الحياة فى المنطقة وتزداد وفود النساك وتزدهر برهبانها كما كانت. ولا ننسى أهل الفضل وما كانوا يغدقونه على أولئك الرهبان من نذور وكل ما كانوا فى حاجة اليه. وقد حدث فى عهد البطريرك يوحنا الراهب التاسع والعشرين ٤٩٤/٥٠٣م أن أغدق الامبراطور «زينون» الذى أشتهر بالتقوى وطيبه القلب على دير القديس مكاريوس الكثير من لوازم الدير ورهبانه.

(٤) وكان تكرار هجوم البرابرة على منطقة وادى النطرون لا ينقطع خصوصا أذا ما ترامى الى علمهم بانتعاش الاديرة وازدهارها فكانوا يعيدون الكرة والانقضاض على الاديرة ورهبانها وسلب وقتل وتشتيت سكانها من الرهبان. وكان فى تلك الفترة فى عهد البطريرك دميانوس

=وقد توفى أرسانيوس بعدما عمر طويلا ودفن فى المكان الذى قضى فية بقية أيامه بالدير المقام فوق جبل طرا بالقرب من القاهرة. وقد بناه الامبراطور أركاديوس وحسب ما روى أنه توفى قبل أرسانيوس بعشرين عاما وقد تناول أبو صالح الارمنى من القرن ١٢ وكذلك المقريزى من القرن ١٥ وصف الدير المذكور وكان يسمى دير القصير أو دير البغل.

الخامس والثلاثين من ٥٦٩/ ٦٠٥م. بعدما حل السكون والسلام بوادى النطرون وعمرت الاديرة الاربعة وأخذت فى النمو. وقد أحرقوا وقتلوا الكثير من سكان الوادى مما أحزن البابا المذكور كثيرا. وقد زار البابا بنيامين الثامن والثلاثين من ٦٢٢/٦٦١م أديرة وادى النطرون حوالى عام ٦٣٠م وعلم بما يلاقى الرهبان من مصاعب ودمار من هجوم الاعداء وما يحدثونه من خراب. وقد أعاد ما تخرب منها كما دشن كنيسة جديدة على الجبل المقدس وهو مقر القديس مقار الكبير عند سفح القلالى.

(٥) وقبيل نهاية أيام البطريرك مرقس الثانى التاسع والاربعين من ٨٠٩/٨٧٦م نعم الوادى بالسكون الشامل والازدهار. ولكن فجاه تعرض لهجمات البرابرة فأعملوا السب والنهب والقتل بين نساكة وحل به الخراب كالمعتاد فهرب أغلب الرهبان وتشتتوا فى جميع أنحاء القطر كما أسروا عددا كبيرا من نساكة وقد أثر هذا الحادث تأثيرا شديدا على البطريرك مما أفجعه كثيرا فمات كمدا بسببه.

(٦) وكان البطريرك شنودة الخامس والخمسين من ٨٥٩/ ٨٨١م قد أشتهر بشدة ورعة وتقواه واصلاحاته العديدة التى قام بها وخاصة بوادى النطرون وغرس الكروم والبساتين ومعاصر للزيوت وأساس لانشاء الكنائس منها كنيسة كبيرة أطلق عليها أسم كنيسة القديسين وتلاميذه. وكانت أعماله هذه مما شجعت الكثير من المؤمنين على مساعدته. وقد شاهد أن اعداد الرهبان بدأ ينمو ويزداد فى وادى النطرون ويعود اليه ازدهاره ولذلك فقد عزم البطريرك المذكور هو وحاشيته على زيارة وادى النطرون اثناء عيد الفصح. والظاهر أن هذه الاخبار وصلت الى مسامع البرابرة فقدموا سرا من الوجه القبلى واستولوا على كنيسة القديس مقار وتوابعها ونهبوا ما فيها من متاع وزاد. ومنها طافوا بالاديرة الاخرى طردوا من فيها من رجال الدين وغيرهم بالقوة بعد أن جردوهم مما عليهم. وهذا ما ذكره المؤرخ «كاترمير» فى رسالته عن مصر «ج٢ صفحة ٤٧٦ و ٤٧٧» ومن كتاب الامير «طوسون صفحة ٤٤».

وقد ذكر كاترمير أيضا أن هذه الاديرة عانت كثيرا من المصائب بعد ذلك بزمن يسير. فقد ألقى الاعراب رحالهم فى الصحراء وأخذوا يرتقبون خروج الرهبانى للتذود بالماء فينقضون عليهم ويأخذون أوانى الماء منهم ويجردونهم مما عليهم. ولما عادت السكينة وأستتب الامن أهتم هذا البطريرك بترميم دير القديس مقار الكبير واحاطه بسوير منيع بقصد حماية الرهبان والمسيحيين من أذى وسطو الاعراب فى المستقبل.

نتائج غارات البرابرة المتكررة

كان لتكرار الهجمات الوحشية على الوادى وأديرته علاوة على ما أفنته من رهبانة وتشتيت شمل ما كان يتبقى منهم فأنها أبادت تراثا لامعا لا يقدر بثمن من كنوز علمية جادت بها أسمى قرايح الانسانية من نتائج أفاضل أولئك الاباء القديسين الذين كانوا نبراسا منيرا ومباركا بتعاليمهم النورانية السامية لا للوادى وسكانه وما حوله من بلدان القطر فحسب بل وغيره لجميع شعوب المسكونة بأجمعها بدليل تأثير تعاليمهم البالغة على أقطار بلاد الغرب وتهافت شعوبهم على أقتناء بعض ما تركوه من مؤلفات ومخطوطات قيمة واقتدوا بهم فى تنفيذ ما حصلوا عليه من تعاليمهم. كما أملت تلك الغارات اللعينة وأحداثها على بعض البطاركة وكثير من المؤمنين والرهبان الى التفكير فى حماية تلك الاماكن المقدسة وما لها من أنبل الذكريات وكذلك حفظ حياة نساكها من غدر وهجوم أولئك البرابرة لها. فبدات فكرة تشييد الحصون الداخلية المسماة «بالجواسق» فى كل مناطق الاديرة المختلفة التى مازالت باقية وقائمة حتى الان بالرغم من زوال غارات اولئك البرابرة وهى تدل على مقدار ما كان يعانيه الرهبان من ظلم ووحشية تنفر منها الانسانية من أولئك الوحوش الادمية. وزيادة فى الحماية أحاطوا الاديرة من الخارج بالاسوار الضخمة العالية واحكموا أغلاقها أمعانا فى الامان من شرهم.

ولقد نوهت أغلب المصادر التاريخية على اختلافها على أن بيوت العبادة وقلالى النسك والاماكن التى انشئت لكى يذكر فيها أسم الخالق وتمجيده ولنشر السلام والبر والعدالة على الارض تعرضت من وقت لاخر الى هجرم العربان واللصوص والفرس والقبائل البربرية المتوحشة وغيرهم من جيش الخرسانيين وقضت عليها أو على معظمها قضاء تاما. وكان من تلك النتائج التى أساءت الى الرهبنة المصرية على مرور العصور أنه لم يبق من تراث الاباء النساك فى الوجه البحرى من مئات[1] الاديرة على اختلاف أنواعها الا أربعة أديرة للرهبان فى منطقة وادى النطرون الان وكذلك أربعة أو خمسة أديرة خاصة بالعذارى من الراهبات.

أما الاديرة الخاصة بالنساء الان وباقية جميعها بالقاهرة وبعضها فى مصر القديمة وبجوار الكنائس. فقد تناول الكلام عنها مؤرخ العصور الوسطى «تقى الدين المقريزى» وذكر أنها

(١) أمتلات الصحارى وبقاع عديدة بالوجهين بالاديرة والقلالى والنساك حتى قيل أن المسافر من الاسكندرية لاسوان بالقرنين الخامس والسادس لم يكن فى حاجة لان يحمل زادا للطريق فكان يمكنه التزود بما يحتاجه للرحلة من الاديرة والقلالى المنتشرة بكثرة على أطراف وادى النيل وصحارية الشرقية والغربية.

كانت معروفة فى زمانة وكانت عامرة بالبنات المترهبات أو العذارى الابكار كما كان يطلق عليهن فى أيامه. ولكل دير منها رئيسة لتقوم بالاشراف عليه ومراعاة طقوس العبادة والصلوات حيث يذهبن الى الكنائس المجاورة لها.

وهذه الديارات الان هى:-

١- دير الامير تادرس بحارة الروم شرقى كنيسة العذراء وتقيم فيه من الراهبات عدد ١٣.

٢- دير مارجرجس للراهبات بحارة زويلة. وعدد راهباتة ٤٠.

وبه مقصورة عالية يرجيع تاريخها الى القرن العاشر للميلاد.

٣- دير العذراء للراهبات بحارة زويلة وهو بجوار الكنيسة وقد ذكر المقريزى فى كتابة. وقد جدد بناءه الانبا مرقس البطريرك الاول بعد المائة من ١٦٤٢ الى ١٦٥٢م. ثم البطريرك الانبا كيرلس الخامس وبه عدد ٢٥ راهبة.

٤- دير القديس مرقوريوس أبى السيفين بجوار كنيسة أبى سيفين بمصر القديمة وبه مقصورة بها صورة قديمة أثرية للقديس أبى سيفين. وقد جدد بناءه أيضا الانبا كيرلس الخامس.

وعلى نفس نظام أديرة البنات أخذت البلاد الاخرى من الشرق أو الغرب نظامها فى رهبنة النساء وأقامت على أساسها الاديرة التى تقوم راهباتها بالخدمات الانسانية القويمة.

مواقف رهبان وادى النطرون وأثرها فى تاريخ الكنيسة القبطية

كانت جماعات وادى النطرون من الرهبان يكونون قوة لا يستهان بها ورأى فيها بطريرك الاسكندرية أشبه بجيش هائل على أهبة الاستعداد للدفاع عنه وعن مبادئه. وكانوا سببا فى زيادة سلطان البابا وازدياد جبروته[1] وعلى الاخص بعد تولى عرش الامبراطورية من هم من الموالين للمذهب الاثناسيوسى. وقد حدث أن طلب الانبا ثيوفيلس البابا من الامبراطور «تاودوسيوس الاول» وقتئذ السماح له بالاستيلاء على معبد «باكوس Bacchus» لانشاء كنيسة فى مكانه فتم له ما أراد. وكان هذا القرار مما شجع الانبا ثيوفيلس على القضاء على

(١) وصلت سلطة البابا فى وقت من الاوقات الى تحدى سلطة الحكام كما حدث فى عهد كيرلس الكبير «٤١٢/٤٤٤م» الذى نازع والى الاسكندرية فى سلطته أذ أستخدم البابا المذكور جيش الرهبان لطرد اليهود من الاسكندرية بالرغم من شكوى الولاة من هذه السطوة. الا أن البلاط الامبراطورى أهمل=

جذور الديانات السابقة في الاسكندرية. واستخدم في هذا الشأن جيش الرهبان الذى كانت تتكون الغالبية منه من منطقه وادى النطرون. ودمروا معبد سرابيس أعظم معاقل الآلهة السابقة. وقصة دخولة لهيكل سرابيس هذا وهدمه وتدمير تمثاله الهائل. وفرار مجموعة اتباعه وذلك بزعامة الانبا ثيوفيلس البطريرك. الذى شجع بعمله هذا أن يقضى المسيحيون على كل أماكن الديانات السابقة بالاسكندرية والاقاليم وتحطيم ما فيها من التماثيل والصور القديمة.

كذلك ساهم الرهبان بنشاطهم المتواصل في القضاء على أصحاب التعاليم الدخلية التى تتسم بالهرطقة من أتباع آريوس(١) كما أعتمد باباوات الاسكندرية على رهبان وادى النطرون في جهادهم المستمر للتخلص من سلطان الاباطرة تحت ستار المناقشات البيزنطية في الأمور الدينية.

....

= شكواهم ولم يعبأ بها فأدى هذا بطبيعة الحال الى التمادى فى النفوذ والصولة حتى أتهمت الرهبان بمقتل الفيلسوفة «هيباشيا» «أبنة الفيلسوف» «ثيون» التى كانت تشرف على أدارة المدرسة الافلاطونية الحديثة بالاسكندرية. وهنا فقط تدخل الامبراطور أركاديوس وأصدر أمره بعدم تدخل رجال الكليريوس فى المسائل السياسية وتحديد عدد خدام الكنيسة. ولكن لم ينته النزاع بين البابوات والاباطرة عند هذا الحد بل ظل حتى الغزو العربى للبلاد.

(١) كانت أخطر البدع التى ظهرت فى الكنيسة هى هرطقة «أريوس» وقد استعان البابا بالرهبان لمحاربتها ومضمونها يقول.

«أن المسيح مخلوق وأنه ليس أزلى أزلية الله وعلى ذلك لا يساوى الابن للاب فى الجوهر وأن نال السلطان من أبيه الذى هو أعظم منه».

وقد أنبرى القديس أنطونيوس للاشتراك فى الدفاع ومحاربة هذه البدعة وكان من أبطالها العظام القديس أثناسيوس العظيم. فسافر الانبا أنطونيوس خصيصا الى الاسكندرية وكان وقتئذ شيخا جليلا للدفاع ودحض تلك البدعة. كما والى الكتابة مؤكدا وحدانية الجوهر أو الكلمة. وقد أنضم اليه رهبان نيتيريا بوادى النطرون الذين أصبحوا يجلون أثناسيوس كثيرا وبعد اختفائه هناك عندهم عدد من السنين فى فترة أقصائه الثالث عن كرسى الباباوية من سنة ٣٥٦ و ٣٦٢م.

وقد أنضم رهبان الانبا باخوميوس كما ورد فى رسالة الانبا تادرس رئيس الدير وقتئذ لمحاربة هرطقة آريوس وفيها قاد رهبان وادى النطرون عامة الشعب لمعارضة تعاليم آريوس ومحاربتها.

وهذا دفع الاريوسيون الى الهجوم على هؤلاء الرهبان عندما سنحت لهم الفرصة. وكانت فى زمن البابا بطرس الثانى البطريرك الحادى والعشرين الذى خلف القديس أثناسيوس على الكرسى المرقسى بخلاف رغبة الامبراطور فالنس الاريوسى المذهب والذى لم يرجع اليه الرهبان فى أنتخابه، فأراد الامبراطور فالنس هذا أن يمكن أتباع آريوس من القضاء على أتباع المذهب الاصيل الذى وجد فيهم قوة لمقاومة الاستعمار البيزنطى على مصر. وقد أخذ شأن أتباع آريوس فى الافول بعد وفاة الامبراطور فالنيس وبدأت جماعات=

ومن أهم أعمالهم الجلية قيام الرهبان بنسخ الانجيل باللغة القبطية بدقة والعمل على التوسع بنشره بين الناس وزيادة نسخة رغبة فى التخلص من الاراء الدخيلة على الكنيسة لتدعيم القومية القبطية حتى أن الحضارة البيزنطية رغم ما كان لها من الصولة والجبروت

....

= رهبان وادى النطرون فى الانتعاش والهدوء. ولكن عكرصفو هذا الهدوء قيام بدعة أخرى قام بها أحد رهبان الوادى عام ٣٨٥م ويدعى «هيراكس Hierax» فقد خرج بتعاليم مخالفة للمسيحية ومنها أراء خطيرة بان الزواج خطيئة لا تغتفر وأنه ليس هناك قيامة للاجساد بعد الموت ولكن الأرواح هى التى تبعث فقط. واعتمد فى هذا الرأى على ما ورد فى رسالة بولس الرسول الى العبرانيين عن ملكى صادق الكاهن فى وقت سيدنا ابراهيم، وأنه بلا أب وبلا أم بلا نسب بلا بداية أيام أو نهاية حياة، واعتبر روحا رمزيا ونفى وجوده المادى.

وكانت تلك التعاليم ذات تأثير كبير على حياة بعض النساك البسطاء فانقادوا لها فلما سمع بأخبارها الانبا ثيوفيلس البطريرك الثالث والعشرين خشى من استفحال أمرها فسارع بأصدار أوامره الى القديس مكاريوس الكبير ليعقد مجمعا مكانيا لبحث تلك المشكلة وشكل مكاريوس المجمع من بعض شيوخ البرية الذين أستعرضوا ما جاء فى الاصحاح السابع من رسالة بولس الرسول الى العبرانيين وهو قوله «لان ملكى صادق هذا ملك ساليم كاهن الله العلى» الذى أستقبل ابراهيم راجعا من كسرة الملوك وباركة، الذى قسم له ابراهيم عشرا من كل شىء أولا ملك البر ثم أيضا ملك ساليم أى ملك السلام، بلا أب بلا أم بلا نسب لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة بل هو مشبه بأبن الله هذا يبقى كاهنا الى الابد ثم أنظروا ما أعظم هذا الذى أعطاه ابراهيم رئيس الاباء عشرا أيضا من رأس الغنائم وأما الذين هم من بنى لاوى الذين يأخذون الكهنوت فلهم وصية أن يبشروا الشعب بمقتضى الناموس أى أخوتهم مع أنهم قد خرجوا من صلب ابراهيم ولكن الذى ليس له نسب منهم قد عشر ابراهيم وبارك الذى له المواعيد وبدون كل مشاجرة الاصغر يبارك من الاكبر...»، وانتهى المجمع الى تفسير مشكلة ملكى صادق بان تاريخه معروف وأنه من أصل بشرى وأن والديه معروفان فابوه هيراقلاس وأمه أستريا وكانا وثنيين ولكن ملكى صادق تحول الى عبادة الله الحقيقى ولما رأى والديه لم يمتنعا عن تقديم الذبائح الى الكواكب دعا الله ان يبيدهم ففتحت الارض فاها وابتلعت عائلته، وتركته بلا أب وبلا أم». وعاش ملكى صادق سبع سنوات بعد هذه الحادثة فى القفار حتى استدعاه سيدنا إبراهيم ليصبح كاهنا لله العلى. وهكذا استطاع البطريرك تيوفيلس أن يقضى على هذه الهرطقة، وهو فى عاصمة البلاد ولم تكلفة هذه المشكلة سوى اصدار أمره الى زعيم من زعماء الرهبان بوادى النطرون لدحضها والقضاء عليها فى مهدها.

وأشتهر الرهبان باهتمامهم بالنواحى العلمية والدراسات العميقة المتصلة بالدين المسيحى من العهدين ومؤلفات زعماء المسيحية الاوائل، واهتموا بتعليم الرهبان الاميين ومعرفة الكتب المقدسة. واشتهر البعض بحفظ اجزاء كبيرة من الكتب المقدسة عن ظهر قلب حتى كان ذلك مضرب الامثال بين رحالة الغرب وذاع صيت «سرابيوس». فى كل ما يتعلق بعلم اللاهوت والاكثار من نسخ الكتب ونشرها وتوزيعها على بعض الكنائس الفقيرة فساهموا فى نشر الحركات العلمية. وقد نسب لمكاريوس الاسكندرى تدوين كتابه «قانون رهبانى» من ثلاثين مادة شملت القداسة والتواضع وانسكاب الروح والعمل والصمت والسهر الخ..

وتيارها القوى لم تقو على الحاق أى ضرر أو مساس بالاداب أو القومية القبطية ـ فكان للرهبانية المصرية الاثر الاكبر فى هذا الاتجاه القومى المجيد. ولم تقف جهود الرهبان عند هذا الحد بل أنهم قاموا بنشاط عظيم فى تحويل بعض الوثنين الى أعتناق المسيحية لاعن طريقة استعمال الشدة أو العظات الكلامية وأنما بسلوكهم الذى كان عظة صامتة لاولئك الوثنيين.

النشاط العلمى والعملى لرهبان وادى النطرون

العمل اليدوى عند الرهبان ضرورى وكما نوه بولس الرسول فى أقواله عن أهمية العمل للعابد المسيحى وهو نفسه كان يعمل ليعيش من ممارسة عمل الخير. كذلك من قوله المشهور «أن من لا يعمل لا يأكل» كما أكد بولس الرسول مرة أخرى أهمية العمل فيما تحدث به الى كهنة كنيسة أفسس في قوله «أنتم تعلمون أن حاجاتي وحاجات الذين معى خدمتها هاتان اليدان». وقد عاش القديس أنطونيوس فى بداية حياتة الرهبانية دون أن يفطن الى كسب عيشة عن طريق العمل اليدوى. فقبل بعض الخبز الذى أحضره اليه بعض الرفاق. ولكن لما شعر بأن الملل بدأ يتسرب اليه وقراء التعاليم المسيحية التى نادت بأن الكسول لا يأكل بدأ يشغل بعض وقته فى العمل اليدوى فى صناعة السلال. وكان يبيعها له أحد تلاميذه وينفق جزءا منها على قوته والباقى يتصدق به. فأصبح العمل حتميا لا لسد مطالب الحياة بل ولمنع محاربة الشياطين للنساك. وقيل عن القديس «هور» أنه منذ دخوله صحراء نيتريا عاش فى قلايتة التى بناها بنفسه ولم يأكل خبز الكسل طول حياته. ورهبان آمون كسبوا عيشهم من استخراج النطرون وبيعه للقوافل وكان الشيوخ منهم يعلمون الشباب وغيرهم من القادمين عليهم الراغبين فى الرهبنة حولهم طريقة العمل اليدوى كما علم القديس مقار الكبير تلاميذه طريقة ضفر السعف والليف لعمل الحبال. كما عمل منهم فى الافران كما أشتغل البعض منهم أيضا فى غزل ونسيج الكتان اللازم لصنع ملابسهم ومنهم من عمل أسكافيا أو الخدمة فى المطعم لتقديم ما يلزم للرهبان عند تناول الاكلة العامة التى يشتركون فيها أو فى تنظيف الكنيسة أو لخدمة الرئيس أو بعض الاخوة أثناء المرض أو الاشتغال بالزراعة للخضر والفاكهة فى الحديقة أو المساعدة فى بناء القلالى والصوامع الكبير التى أستقبلت جماعات عديدة من الرهبان كما أن هناك من الرهبان من تولى جمع السعف والجريد والاخشاب والاحجار والمواد الاخرى اللازم للبناء.

وتتضح أهمية العمل اليدوى فى قول أحد اباء وأدى النطرون ينصح فيها أحد الرهبان «أهتم بعمل يديك مارسة أن أمكنك ليلا ونهارا لكى لا تثقل على أحد، حتى يكون لك ما تعطى المسكين حسب ما أمر به الرسول، لكى تصرع شيطان الضجر وتزيل عن نفسك بقية الشهوات لان الشيطان منكب على البطالة وهو فى الشهوات كامن. وذات مرة سأل مرة الاب «بيمين» قائلا: قل لى كلمة «فأجابه قائلا: وأظب على عمل يديك ما استطعت ذلك لتعمل منه صدقة لانه مكتوب ان الرحمة تطهر الخطايا. وفى الاسقيط أصبح العمل اليدوى أجباريا ولعدد أكثر من الساعات وذلك بالنسبة لشباب الرهبان على أنهم لم يعفوا من العمل فى بعض أيام القديسين التى كان يمكن أعفاء بعض الرهبان من العمل فيها، والغرض من ذلك ضرورة شغل أوقاتهم حتى لا يفكر الواحد منهم فى أشباع غرائزه الشبابية. وأصبح لزاما على جميع الرهبان سواء عاشوا جماعات أو أفرادا أن يحملوا عملهم اليومى لتقديمه لرئاستهم، التى تولت بيعه والانفاق على سائر الرهبان الذين حملوا معهم مؤنة الاسبوع والخامات اللازمة لعملهم اليدوى عند عودتهم الى قلاليهم بعد نهاية الكنيسة واجتماع الاحد.

الموارد المادية للرهبان وكيفية التصرف فيها

علمنا ما كان يكسبه كل راهب لمعاشة عن طريق العمل اليدوى وهو من الموارد الاساسية لجميع الرهبان ويضاف اليه مورد آخر فى غاية الاهمية وهو ما يكتسبه الرهبان فى فترة الحصاد، اذ عرف عن خروج الراهب «هور» وتلاميذه والقديس مقار الكبير ومعه ثلاثمائة من الرهبان للحصاد فى الضياع القريبة من هذه الجماعات فى أقليمى برفا وغرب الدلتا ويلاحظ أن رهبان سيليا لم يفكروا فى الاشتراك فى هذا العمل لبعدهم عن الاراضى الزراعية نسبيا. ورجع الرهبان بعد الحصاد حاملين أجورهم وقيل أن أغلب الرهبان عملوا بنشاط فى فترة الحصاد حتى بلغ ما حصله الواحد منهم حوالى ثمانين مكيالا من الحنطة وأودعت كميات القمح التى جمعت فى مخازن الجماعة الرهبانية، وفى هذا ما يدل على أن الرهبان تقاضوا أجورهم من عين المحصول.

كذلك ما كان يحمله نصارى مصر من فاخر النذور والقرابين ومحاسن التحف، وما كان يقدمه أغنياء الدولة الرومانية الذين نظروا للرهبان نظرة أجلال وتقدير، وغيرهم من المسيحيين الذين كانوا يحضرون للزيارة تبركا وطلبا للشفاء من بعض الاسقام والتى أشتهر بعض شيوخ

من أولئك الرهبان من أبرائها وكان ذلك من الموارد ذات الاهمية. أذ يروى عن عذراء مريضة جاءت من بلدها تسالونيكى وتركت للقديس مكاريوس الاسكندرى كيسا كبيرا ملئتة بالقطع الذهبية. ثم أن أحد أغنياء القسطنطينية وضع مبلغا عظيما من المال عند قدمى مكاريوس الكبير، ومن الموارد الهامة أيضا والتى أثرت فى أنعاش الرهبان أقتصاديا ما قدمه اليهم بعض أباطرة الدولة اليزنطية مثل الامبراطور أركاديوس الاثناسيوسى المذهب فقد أرسل مكتوبا الى واليه بمدينة الاسكندرية يأمره فيه أن يدفع للقديس أرسانيوس الذى كان معلما للامبراطور قبل ترهبة فى وادى النطرون ضريبة سنة ليصرفها كيف شاء فشكره القديس أرسانيوس وأردف بقوله، «ماكتبتهم به الى من المال فليأمر جلالتكم أن يقسم على ذوى الحاجة وأبناء الديارات، ورب المجد يجازيك عن ذلك» ثم توالت بعد ذلك أعطيات الاباطرة المسيحيين للرهبان حتى أننا نجد فى القرن الخامس الميلادى أمرا من الامبراطور زينون سنة ٤٧١/٤٩١ ميلادية بان ينقل الى دير أبى مقار جميع ما يحتاجه الرهبان من قمح وزيت ونبيذ وغيره مما يلزم أصلاح القلالى.

وهناك منبع اقتصادى آخر وهو ما أحضره الراغبون فى الرهبنة من مال جمعوه من بيع أملاكهم وقدموه لشيوخ الرهبان ليبقى تحت تصرفهم تشبها بما فعل المسيحيون الاوائل فى العهد الرسولى الذين باعوا أملاكهم وقدموا أثمانها للرسل ليكون كل شيء فى حياتهم مشتركا بينهم، وأن الراهب «أبو لونيوس» الذى أشتغل بالتجارة فى شبابه بالمدينة وربح منها أموالا طائلة، عندما فضل حياة الرهبنة با ع كل تجارته واشترى بمالة بعض حاجيات أخذها معه الى خمسة الاف راهب فى نيتريا وعاش هناك راهبا مدة عشرين عاما.

ونوه الرحالة الذين زاروا وادى النطرون ان رهبان نيتريا صنعوا الكعك وباعوه للزائرين، ويقصد به قطع صغيرة من الخبز الذى يخبز بعد تعريضه للشمس وهو المعروف الان بالعيش الشمسى. ومن مجموع تلك الموارد كان ينفق الرهبان على أنفسهم كما كانوا يقدمون الطعام لزائريهم عملا بتعاليم الانجيل الداعية الى أضافة[١] الغرباء وكذلك أعطاء الصدقات الى

(١) الضيافة والزيارة عند الرهبان من التقاليد الهامة التى يعهد بها رئيس الجماعة الرهبانية والمشرف الاقتصادى فهو يستقبل الغرباء والراغبين فى الشفاء وأيوائهم فى بيت الضيافة الواقع بجوار الكنيسة وهو المرشد لهم بالتعليمات الواجب أتباعها فى سلوكهم مع الرهبان ـ ويمتاز مكان الضيافة بأعداده بكل وسائل الراحة للمرضى والزائرين وفية فئة من الرهبان خصصة شيخ الرهبان للقيام بخدمة المرضى=

الفقراء فقدموا كميات كبيرة من غذائهم ومن الاقمشة التى نسجوها الى فقراء المنطقة المحيطة بهم كما أرسلوا سنويا سفنا الى الاسكندرية مشحونة بالقمح لتوزع على المسيحيين المسجونين فى سجونها والغرباء والمحتاجين فى عاصمة البلاد.

ومما أطلعنا عليه من معلومات هامة فى هذا الصدد الرحالة «روفينوس» الذى زار نيتريا حوالى عام ٣٧٤ ميلادية فيذكر أن حالة الجماعات الرهبانية الاقتصادية فى وادى النطرون قد أنتعشت فى النصف الثانى من القرن الرابع انتعاشا كبيرا وذلك عن طريق أضافة المنح والهبات السابق ذكرها الى الموارد الناتجة من عمل الرهبان أنفسهم حتى أصبحت الجماعات الرهبانية تعطى للكنيسة بسخاء.

وسائل أدارة شئون جماعات الرهبان بالوادى

كان لكل منطقة من جماعات الرهبان رئيسها الخاص وله سلطة الاشراف على الادارة العامة فيها وأذا زادت الاعداد التى كانت تلتف حوله من النساك ترتب على ذلك زيادة المطالب وكثرة الاعباء التى تتطلبها تلك الزيادة المطردة فيتحتم ضرورة تعيين مشرف أقتصادى

= والزائرين، وفى نيتريا اشتهر الراهب «أبو لونيوس» بأنه اتخذ مهنة الطب وسيلة بقصد خدمة الآخرين وللزائر أن يقيم فى بيت الضيافة مدة لا تتعدى ثلاث سنوات، ومن العرف والتقاليد بين الرهبان يقضى بترك الزائر المقيم فى بيت الضيافة فى الاسبوع الاول بدون عمل، وبعدها يعهد اليه بالعمل فى الحديقة أو فى الفرن أو فى المطبخ أما اذا كان من كبار القوم فانهم يعطونه كتابا يقرأه ـ ويظهر أن فرصة الاسبوع الاول أعطيت ليستريح الزائر من مشاق السفر غير أن من الشروط الهامة التى فرضت على الزائر حتى فى هذا الاسبوع، هو الا يتحدث مع واحد من الرهبان من الصباح حتى وقت الظهيرة ـ وذلك حتى لا يشغل الرهبان عن التفرغ لصلاتهم وعبادتهم. والظاهر أن مضيفة سليا لم تضع لزائريها كل تلك الشروط لان أكثر الغرباء لم يفضلوا الاقامة بها مدة طويلة.
أما فى قلالى الرهبان أنفسهم فأن أكثرهم اهتموا بزائريهم وخصوصا أولئك الذين وفدوا اليهم رغبة فى الاستماع الى تعاليمهم. وقد أتسعت القلالى فى نيتريا وشيهات حتى كانت كافية لاستقبال عدد من الزائرين. وأصبح من التقاليد اذا دخل الزائر قلاية الراهب قام للتو بغسل قدمية وقدم له الطعام فى الساعة التاسعة من النهار. أما اذا جاء الزائر من جهات بعيدة فأن الراهب يضع له المائدة فى الحال.
ويحرص الراهب على الاحتفاظ بجزء من طعامه فى قلايتة لاى زائر يطرق بابه، وحسب وصاية «القديس موسى الاسود» لرهبانه لوجوب احتفاظ الراهب بنصف تعيين الخبز الذى يصرف اليه ما بعد العصر خشية حضور أحد الزائرين كما أوصى بأن يجهز الراهب للزائر حساء من الفول بعد تقديم بعض الخضر وهى عادة من أوراق الكرنب. ويراعى أن ما كان يقدم للضيوف هو طعام بسيط من عيش جاف والملح وحساء وبعض الخضر ولا تقدم الفاكهة الا نادرا ولا يتذوقها الرهبان الا مرات قليلة طول العام.

ليعمل على تنمية الايرادات وتدبير ما يلزم للصرف عليها من أمثال أولئك المشرفين الاقتصاديين الراهب «أوريجين» الذى تولى فى عهد رئاسة القديس بامو فى نيتريا. وفى جماعة القديس مقار الكبير الذى خلفه لرئاستها تلميذه بافنوتيوس فى منطقة شيهات كان الراهب يوحنا، وكان المشرف الاقتصادى يتعهد بالاشراف على مخازن الجماعة التى يودع فيها القمح الذى كان يحضره جماعة الرهبان بعد عودتهم من الحصاد ومخازن المواد الاخرى من الحبوب والزيوت اللازمة لحاجات الرهبان والشموع ومواد البخور وكل ما يلزم لشئون الدير، كما كان يشرف على أدارة الافران والمخابز والمطابخ بتلك الجماعات الرهبانية.

وكانت هناك سبعة أفران فى منطقة نيتريا لتجهيز الخبز اللازم لجماعة الرهبان العديدة كما كانت تتعهد بتقديم الخبز أيضا للنساك الاوائل فى سيليا وظل هذا التعهد لمدة طويلة ويظهر أنه لم يتوقف الابعد رئاسة الانبامكاريوس الاسكندرى لجماعة سليا لفترة وجيزة ونظرا لكثرة الاعمال وزيادتها كان يساعد المشرف الاقتصادى فى أعماله عدد كبير من الرهبان. ومن طريف ما أتبع من نظام عام سليم يدعو للاعجاب والتقدير لتلك الجماعات الرهبانية هو مراعاة طريقة الاكتفاء الذاتى بحيث لا تزيد مصروفات الجماعة على ايراداتها مع الحرص بدقة فى الوقت نفسه على تخصيص جزء من هذه الايرادات للتصدق منه على الفقراء والمحتاجين.

رهبنة وادى النطرون وتأثيرها فى العالم الخارجى

كان لهذه الرهبنة أثرها العظيم فى العالم الخارجى وسرى تيارها خارج مصر وأنتشر فى كثير من بلدان الغرب والشرق، واتخذ كل مؤسس لها فى تلك البلاد نظاما وأشكالا خاصا تتناسب وظروف البيئة التى نشأت بها فأخذ الرهبان على عاتقهم نشر المسيحية فى تلك البلاد والدأب على حمايتها ونشر ثقافتها فى تلك الآفاق والمحافظة عليها من أن تمتد اليها أيدى البرابرة تطمس معالمها. وأول بادرة من آثارها فى أقاليم الغرب يرجع غالبا الى «الانبا اثناسيوس البطريرك العشرين» حيث ذهب الى أوربا مرتين الاولى عند أبعاده عن كرسيه بين ٣٣٨/٣٣٥م حيث قضى هذه المدة فى مدينة «تريف Treve» على شاطىء نهر الموزل بفرنسا حيث كتب بعض أخبار رهبان مصر وخاصة القديس أنطونيوس وهذه الحادثة ترتبط بقيام «الرهبنة الغالية» «فى فرنسا لان القديس» «مارتن Martin» أسقف مدينة «تور Tours» درج

على حياة أثناسيوس الرهبانية ثم أسس جماعة رهبانية حوالى ٣٦٢ ميلادية قريبة من «بواتية» وتبعها بأخرى فى مدينة «تور» بعدما صار أسقفا لها عام ٣٧٢ ميلادية وقد وصل رهبان تلك الجماعة الاخيرة ثمانين راهبا قضوا حياتهم فى صلوات طويلة وصوم قاسى وسكنوا الكهوف والاكواخ وجمعوا فى حياتهم النسكية بين الانفراد والشركة ولم يجتمعوا الا لتناول الطعام والصلاة فى الكنيسة وهى طريقة أشبه ما كان يحذو به رهبان وادى النطرون وفى غيره من أماكن الرهبنة المصرية.

اقصاء الانبا اثناسيوس للمرة الثانية، الي أوربا ٣٤٠/٣٤٩م. وفى تلك المرة عمل على نشر النظام الرهبانى وقد توجه الى روما ومعه أثنان من فطاحل رهبان وادى النطرون وهما أمونيوس وايزيسيدور الراهب المشرف على بيت الضيافة وفى روما نشروا أخبار أنطونيوس وطريقة الرهبنة فى مصر. وقد أقاموا الثلاثة بمنزل أرملة مسيحية تدعى «مارسيلا» وقد أفاض أثناسيوس فى الكلام عن الارامل والعذارى فى مصر عن حياة الرهبنة المثالية ولذلك لا نعجب من كثرة وجود بيوت للراهبات والعذارى فى روما. وكانت بداية النواة الاولى لانتشار أديرة النساء حيث وضعت «مارسيلا» بدء تلك الحياة وأجتذبت كثيرات منهن ولبعضهن من نساء الطبقة الراقية اللائى بعن جميع حليهن ومتاعهن وقدم لمؤسسى الرهبنة ثم انخرطن فى الحياة النسكية.

ثم أسكن الراهب «أمبروز» حياة رهبنة فى ايطاليا وأصبح أسقفا لميلانو وكانت شخصيته تفوق نفوذ الاباطرة، كما أصبح «يوزيب» أسقفا لمدينة فرساى بفرنسا، ولم يكد ينتهى القرن الرابع الميلادى حتى امتلات جهات كثيرة من أيطاليا وجزر البحر التيرانى بالجماعات الرهابنية. ومن مشاهير الرحالة الذين كان لهم أكبر الاثر فى نشر الرهبنة المصرية وتعاليمها ودون أحاديث وعادات الرهبان هو المؤرخ الرحالة «بلاديوس Palladius».

وقد ولد فى غلاطية عام ٣٦٤ ميلادية وترهب فى فلسطين وظل بها ثلاث سنوات ثم زار الاسكندرية عام ٣٨٧ ميلادية وهناك قابل أشهر رهبانها وعاش فى كهف بقرب الاسكندرية. وقد راعه ما جمعة عن رهبان الاسقيط ونتريا وسيليا حيث ظل بها حوالى ثمانى سنوات نعم فيها بعشرة القديس مقار الاسكندرى وتحدث مع رهبانهم ثم رجع للاسكندرية عام ٤٠٠م بعدما زار بعضا من الجماعات الرهبانية والاديرة فى الوجة القبلى، ووقف على كثير من حياتهم وفضائلهم وعاداتهم وتقشفهم، ثم رحل الى فلسطين حيث تعرف بالقديس «جيروم» وأقام معه

مدة فى أحد الاديرة وبعدها رحل الى الاستانة لزيارة يوحنا فم الذهب بطريرك القسطنطينية وقد نفى فى فترة اضطهاد يوحنا فم الذهب حيث أستفاد من فترة النفى هذه حيث قام بفائدة كبرى للتاريخ حيث عكف على أخراج مؤلفة المشهور «الفردوس» أو «بستان الرهبان» الذى يعتبر من المع المؤلفات الهامة عن الرهبنة والديرية فى مصر، وأهم شخصياتها ونظمها وقوانينها وأقوال رهبانها وأحاديثهم. وهو الكتاب الذى أثر وأعطى للعالم المتمدين أكبر الفضل فى تعرف نظم الاديرة والرهبنة وما تقوم علية من حياة نبيلة سامية وتعاليم فاضلة. وقد عكف الرهبان على دراسته وفهم ما فيه وعقدت المناقشات الخاصة للوقوف على ما سطر فيه من تعاليم وارآء.

الرحالة الغربيون الذين ساهموا فى نشر الرهبنة

كان للرحالة من آباء الغرب فضل كبير فى نشر الرهبنة مثل:

الراهب الفرنسى «يوحنا كاسيان» وقد تولى كتابة تراجم الاباء المصريين وتعاليمهم والقوانين التى وضعوها وحاول أن يطبق هذه القوانين الرهبانية المصرية على الديرين اللذين شيدهما فى جنوب فرنسا على مقربة من مرسيليا.

ثم «روفينوس» وكان قسا فى مدينة «أكوليا» وزار مصر حوالى عام ٣٧٢م ومكث مدة فى وادى النطرون حوالى عامين حيث وقف هناك على تعاليم آباء البرية العظام وأنظمتهم وفضائلهم وكتب تاريخه عن الرهبان المصريين فنشر أخبارهم بين أهل الغرب. وقد ترك روفينوس وادى النطرون نتيجة قيام موجات الاضطهاد «الاريوسى». وكذلك القديس «جيروم» وهو من رحالة آباء الغرب الافاضل ويعتبر حلقة أتصال بين الشرق والغرب وهو الذى نقل ما عرفة من نظم «الانبا باخوميوس» عام ٤٠٤م الى اللغة اللاتينية وأعتبرها آخر مرحلة منظمة لحياة الرهبنة فبادر الرهبان الايطاليون الى اتخاذها دستورا لهم. ثم كتب قانونا للراهبات بعث به الى الراهبة «مارسيلا» بقصرها الذى امتلأ بالعذارى فى روما. وكانت زيارة «جروم» هذا الى مصر فى أواخر القرن الرابع وكانت تصحبه الراهبة الرومانية «بولا» ومكث الاثنان عامين بوادى النطرون ثم أنتقلا الى فلسطين حيث أسست هناك ديرا من مالها الخاص.

وقد ظلت الرهبنة والديرية فى أوروبا بأشكال مختلفة ولم تتخذ حالة الاستقرار الى أن أتخذت طابعها الديرى الخاص على يد القديس «بندكت» ومعناه المبارك فى القرن السادس

للميلاد وقد عرف من تاريخه أنه كان يعيش حياة الرهبنة فى كهف «سبياكو Subiaco» على بعد أربعين ميلا من مدينة روما واجتمع حوله بعض الرهبان ثم أعتزلهم الى «مونتكاسينو» عام ٥٢٠م. ثم وضع نظامه الجديد الذى أصبح قانون الديرية فى أوروبا كلها وفرق فيه بين الديريين والرهبان المتوحدين. وأهمية قانونه أنه قانون عام مشترك قام على تنفيذه رئيس وليس فيه منافسة بين الرهبان فى الحياة النسكية مثل رهبان مصر بل كان بعيدا عن القسوة ومعقولا خصوصا للبادئين فى الحياة الرهبانية. وليس معنى ذلك أنه لم يكن مشتملا على شيء من جفاف فى بعض شروطه ومنها: ـ

١ـ عدم مغادرة راهب الدير لديره طوال أيام حياته الا بأذن من رئيسه.

٢ـ لا يخرج الراهب على القواعد الرئيسية للحياة الرهبانية والديرية ومنها الفقر الاختيارى والتواضع والطاعة وقد جمع الراهبات والعذارى فى أدارة خاصة بهن ونظمت حياتهن وفق قانون وتولت أخته «أسكولستيكا Scholastica» أدارة أول واحد من هذه الاديرة.

وقد أثر قانون «بندكت "Benedict"» [١] فى مدينة العصور الوسطى. وكان من أقوى البواعث على نشر الديانة المسيحية بين البرابرة وقتئذ. فأينما انتشر قانونه تغير وجه المجتمع والاقليم تغيرا تاما وكانت تقطع الغابات وتجفف المستنقعات وتبنى المدارس وتقام الملاجيء والمستشفيات. وأصبحت الاديرة أماكن للتبشير بالمسيحية فى البلاد الوثنية ومجمعا لانتشار العلوم والفنون والحرف والصناعات.

ومن العوامل الهامة التى ساعدت على نجاح نظام القديس «بندكت» وانتشار حركته انتشارا عظيما، هو أنه بدأ بقوانينه فى زمن أخذت فيه الرهبانية والديرية فى الاحتضار فى روما وفرنسا بسبب المنافسة بين الرهبان فى النسك رغبة فى الوصول الى المثل العليا. وكان بندكت نفسه من هؤلاء الرهبان الذين نافسوا النساك فى ذلك المضمار فى كهوفهم الا أنه فطن الى أنقاذ هذه الحياة من الفناء أو مما كان يهددها من الافول فعمل على تقوية ذلك البناء الموشك على التداعى والانهيار بأقامة النظم والقوانين التى وضعها على أنقاضه بما يلائم الظروف

---

(١) القديس «بندكت» هو مؤسس الرهبنة فى الغرب كان شديد الاعجاب بالرهبنة القبطية، وما اتسمت به من روائع المثل العليا حيث قال عبارته المشهورة تقديرا لها ولآدابها «أن من يبغى الوصول لذروة الكمال المسيحى يجد خير نموذج يحتذيه فى حياة وسير الآباء المصريين».

الغريبة ويتمشى مع الطبيعة الانسانية وكان هذا السبب فى نجاح نظريته وظلت قوانينة الاساس الذى شيدت عليه النظم الديرية فى أوروبا.

كذلك أنتقلت الرهبنة على يد الانبا أثناسيوس الى شمال أفريقيا عن طريق «القديس أغسطينوس» الذى يعد من أعظم فلاسفة الكنيسة الغربية فبعد ما ترك روما عام ٣٨٨م وعرف الرهبنة ونظامها وعين قسا فى شمال أفريقيا. ولما أصبح أسقفا عام ٣٩٦م أنشأ نوعا من الرهبانية فى أبروشيته لا بين الرهبان فحسب بل وبين النساء وأصبح لهن الاديرة الخاصة بهن حسب ما وضعه لها من الانظمة والقوانين وانتعشت حركات الرهبنة أنتعاشا كبيرا بين الجنسين فى القرن الخامس للميلاد.

وكان القديس باسيليوس الكبير هو المؤسس للأديرة فى جبل أتوس ببلاده فى اليونان. وكان قد جاء الى مصر فى القرن الرابع الميلادى وعاش سنوات عديدة فى أديرة الأنبا باخوميوس فى الصعيد ونقل نظامها وأتخذ من قوانينها وتعاليمها مثلا أتبعها فى الأديرة التى شيدها فى بلاده.

ومن صفحات التاريخ المجيدة عن الرهبان القبط ومبشريهم أنهم وصلوا فى كرازاتهم بالمسيحية الى جهات بعيدة واجهوا فيها أخطار الموت ببسالة وبطولة لا تعرف الخوف فمنهم من وصل الى سواحل فرنسا الجنوبية والى بلجيكا حيث وصف المؤرخ الألمانى «هرناك» كيف تمكن الأنبا أثناسيوس وهو فى منفاه فى بلجيكا على نشر رسالة المسيحية وتأسيس كنيسة انتعشت هناك. وفى سويسرا فى مدينة «زيورخ» أشتهر شهداء أقباط من بين الذين بشروا بالمدينة. كما اشتهر فى سويسرا أيضا «القديس موريس» وأخته «وأرينا» وهى التى وجهت اهتمام السويسريات الى العناية بنظافتهن حتى يقال أنه مازالت تصور هناك هذه الأخت وهى حاملة مشطا بدائيا أى «فلاية» وأبريق ماء وفى ألمانيا استشهد عام ٢٦٨م حوالى ثلاثة آلاف من أبناء الصعيد من فرقة طيبة ممن رحلوا بقصد التبشير هناك. ولا تزال قبورهم معروفة فى مدينة «ترير».

وفى جزيرة قبرس أسس الرهبان القبط على التلال بالقرب من قرية «بلاتان» ديرا أطلقوا عليه اسم القديس مقار. كما ذكر العالم الأنجليزى «برمستر» فى بحث نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية أنه كان للأقباط هناك بقبرص أسقف ويمتد اختصاصه على قبرص ورودس. كما

ذكر الدكتور «الفريد بتلر» فى كتابه عن الكنائس القبطية القديمة أن المبشرين القبط وصلوا فى رحلاتهم الى الجزر البريطانية ووصل الرهبان المصريين الى أرلندا فى القرن الرابع الميلادى حيث تركوا آثارهم هناك أذ يوجد الى يومنا هذا فى بلدة «أوليدة ديزرت» بأيرلندا قبور سبعة من الرهبان المصريين ولا تزال تذكر أسماؤهم فى الصلاة بكنيسة تلك الجهة كما يذكر اسم القديس «باتريك» بأنه شفيع أيرلندا أما فى أسبانيا فان القانون الذى أصدره مجمع «سرقسطة» عام ٣٨٠م فيه ما يدل على انتشار الرهبنة المصرية هناك. وفى هذا القانون ما يحرم على رجال الأكليروس أن يصبحوا رهبانا.

الرهبنة فى فلسطين: انتقلت الرهبنة هناك على نظام القديس أنطونيوس. وأول من أسسها هناك هو الراهب «هيلاريون» وكان من أهل غزة وولد بها عام ٢٩١م. وتلقى تعليمه ليعيش حياة النسك ولنشر الرهبنة بعد أن مهدت لها جماعات أشتهرت بتنسكها أطلق عليها «أبداء وبنات القيامة» فنشرت الرهبنة فى كثير من جهات فلسطين. «ومن أخبار ميلانيا» الرومانية أنها بنت كثيرا من القلالى فى مدينة أورشليم. وفتحت أبوابها لاستقبال الرهبان المصريين الفارين من الاضطهاد الرومانى كما أنها أنفقت عليهم الكثير من مالها.

الرهبنة فى العــــراق: ثم قامت الرهبنة والديرية أيضا بالعراق على يد الراهب «أوجين المصرى» حوالى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى. وكان قد تتلمذ على يد القديسين أنطونيوس وباخوميوس. فبنى ديرا على مقربة من مدينة الموصل كما كون جماعات رهبانية شمال بلاد العرب وفى أرمينيا وفارس.

ثم نشأت جماعة رهبانية على جبل عزلا بجوار «نصيبين» عام ٥٠٤م على يد راهب يدعى «ابراهيم». وقد صار رهبانه على نفس النظم والزى والعادات التى سادت بين رهبان وادى النطرون كذلك انتشرت الرهبنة فى أسيا الصغرى وكان الفضل فى نشرها هناك الى القديس باسيليوس الكبير. وكانت الرهبنة فيها على نظام وادى النطرون. وكان يغلب على نظام القديس باسيليوس طابع الجماعة أو النظام الديرى. وكان يتبع الجماعة الرهبانية ملاجىء ومدارس للأطفال.

الرهبنة فى سوريا: نشأت أيضا فى القرن الرابع للميلاد واتخذت طابعا خاصا مع أنها تأثرت بالنظام الأنطونى. وأهم مظهر فى حياة الرهبان المعروفين «بالعموديين» نسبة الى سمعان

العمودى وهو مؤسسها وقد تأثر بالرهبنة المصريةى الا أنه اتخذ الحياة فوق عمود أساسا لنسكه الزائد وقلده فى طريقته بعض الرهبان فسموا بالعموديين.

وقد ذاعت شهرتهم بسبب زهدهم الشديد وتنافسهم فى حياة النسك وبعضهم اتخذ وسائل تصل الى درجة الشذوذ مبالغة فى اذلال الجسد واضعافه لتسمو الروح مثل حمل الأحجار أو الحديد وغيرها. فكان نسكهم وما اشتهروا به من فضائل سبباً فى تحويل كثيرين من الوثنيين الى المسيحية. وكانوا سندا للدفاع عن الكنيسة عندما تعرضت للبدع التى شنها الهراطقة ضدها فوقفوا صفا واحدا مع رهبان وادى النطرون لمناصرة الكنيسة ومبادئها الأرثوذكسية.

والشاهد أن رهبنة وادى النطرون كانت من المفاخر التى جادت بها عباقرة الآباء من الرهبان المصريين الذين أناروا بفضائلهم وتعاليمهم أغلب ممالك المسكونة. وقد بلغت ذروة هذه الرهبنة فى القرن الرابع وأوائل الخامس للميلاد. وما سبق تلك الفترة من الزمان كان عصر الاستشهاد الذى جاء بعده العصر الذى امتاز بأمانة الشهداء وايجاد بيئة روحية تمتاز بالسمو والكمال الأنسانى وأنكر فيه الفرد ذاته.

وقد اجتذبت تلك المناطق الصحراوية حيث عمرت بآباء الرهبان المصريين كثيرا من جماعات الشعوب المختلفة من السريان والأحباش والفلسطينيين واليونان والأرمن واللاتين وسكان شمال أفريقيا وغيرهم لينهلوا من ينابيع تعاليمهم الصافية وليحذوا حذو طرقهم المستقيمة. وكان لكل أسرة من جماعات تلك الشعوب معلم من جنسه يقدر على التفاهم مع أبناء جنسه وارشادهم. وهذا النظام هو الذى ورثته الجامعات فى العصور الوسطى حيث انتشر فى رحابها نظام الأمم وأيضا نظام الأروقة فى الجامعة الأزهرية.

ظلت مناطق وادى النطرون منارات لامعة تشع بنورها وتعاليمها على أغلب ممالك المسكونة الى أن ظهر قبيل أواخر القرن الخامس الميلادى وباء آدمى لعين تعرض له الوادى بهجمات وحشية من قبائل العربان والبربر المتوحشة وتعرض رهبانه للسلب والنهب والقتل وهدمت القلالى واحرقت البيع وما حولها. وقد اهتم البطاركة منذ القرن السادس بضرورة اعادة ما تخرب من تلك الأديرة ومبانيها واعادة تشييد القلالى للرهبان والعمل على أعادة تعميرها بالرهبان بعد هروب أغلبها منها. وقد أخذ الانتعاش يعود الى تلك المناطق الى حد ما. وبالرغم مما بذل من وسائل عديدة لانعاشها الا أن المنطقة لم تصبح لها تلك الهيبة والعظمة التى

كانت لها بالقرن الرابع. وقد بدأ التفكير بعد ذلك فى العمل على تحصين هذه الأديرة ذات التاريخ الخالد الأثيل ضد غارات اللصوص والبرابرة المتوحشين الذين لم يكفوا عن تكرار هجماتهم لتلك المنطقة ولكن هيهات لها أن تعود الى مكانتها الأولى.

أثر الرهبان المصريين فى الكرازة ونشر المسيحية

لا شك في أنتشار المسيحية في كثير من بلدان الشرق كان على أيدى المبشرين من الرهبان المصريين، وكانت الكنيسة القبطية توالى تدعيم بعثاتها بأساتذة من المعلمين من مدرسة الأسكندرية اللاهوتية. فساعد ذلك على نجاح كرازتهم. وخصوصا مع الحماس الدينى والتفانى والنشاط الذى أظهره رهبان القبط وما أمتازوا به من المثل العليا التى شجعت شعوب تلك البقاع على أعتناق مبادئهم واتباع تعاليمهم. وكانوا هم الذين اهتموا بتنظيم الكنائس والأديرة كما توسعوا فى نشر المسيحية التى ظهرت آثارها فى منطقة ليبيا حيث أنتشرت الأبروشيات فى الخمس مدن الغربية مما يدل على انتعاش الكنيسة فيها منذ منتصف القرن الثالث للميلاد.

وقد ذكر أوسابيوس القيصرى عن قيام «بنتينوس» بالتبشير فى بلاد الهند. والظاهر أن العلاقة بين الكنيسة المصرية والهند ترجع الى عهد طويل. فقد ورد فى كتاب تاريخ البطاركة «لساويرس ابن المقفع» حضور كاهن هندى الى مصر فى زمن البطريرك سمعان الأول فى أواخر القرن السابع للميلاد يطلب منه رسامة أسقف للهند.

أما عن بلاد العرب فقد ورد عن المؤرخ الألمانى «هرناك» أستنادا على قول أوسابيوس ما يؤكد زيارة العالم الكبير «أوريجانوس» للبلاد العربية وقيادته لمجمع فى «بصرا».

أما عن بلاد الحبشة فقد دخلت المسيحية فيها منذ منتصف القرن الرابع الميلادى على يد «فرومنتيوس» أى رجل الله. وظاهر من معنى اسمه أنه كان مصريا وقد احترف مهنة التجارة فى مدينة صور ويجوب البحار شمالا وجنوبا. وأول من أعتنق المسيحية فى بلاد الحبشة كان ملكها ثم تبعه بعد ذلك رجال البلاط ثم بدأت تنتشر بين أفراد الشعب. فكان دخول المسيحية فى بلاد الحبشة على هذه الصورة على خلاف ما كان يحدث فى البلاد الأخرى حيث كانت تبدأ طريقها الى الشعب فى أول الأمر ثم يعتنقها رجال القصر ثم الملك.

ولما عاد فرومنتيوس الى مصر طلب من الأنبا أثناسيوس بطريرك الأسكندرية وقتئذ أن يرسل أسقفا لرعاية المسيحيين فى بلاد الحبشة. فجمع الأنبا اثناسيوس مجمعا من الأساقفة الأقباط

وتشاوروا فيما بينهم عمن يرسلونه اليها فأجمعوا على سيامه فرومنتيوس نفسه وأرسلوه أسقفا على عاصمة الحبشة «اكسوم» في ذلك الوقت. وقد هاجر الى الحبشة وبلاد النوبة كثير من الرهبان بدافع الغيرة على نشر الدين المسيحى بحسب عقيدتهم ومذهبهم بين شعوب لم يتطرق الجدل الدينى بينهم. فكان لأولئك الرهبان المهاجرين الى الحبشة الفضل فى نشر المسيحية فيها وتأسيس الأديرة وتثبيت العقيدة الأرثوذكسية. وقد أخذت الأديرة فى الازدهار هناك فى القرنين السادس والسابع للميلاد. وشرع الرهبان فى التفرغ الى دراسة الرهبنة وتفهمها معتمدين فى ذلك على ما يترجمونه من الكتب القبطية أو اليونانية الشائعة عند الرهبان الأقباط فى مصر. ومنذ القرن الرابع الميلادى والكنيسة المصرية ترسل مطرانا الى الحبشة كرئيس للكنيسة الأثيوبية وكان له فيها مكانة ممتازة.

الكرازه فى السـودان: ذكر المؤرخ يوحنا الافسسى أنه فى القرن السادس للميلاد كان البطريرك القبطى «ثيوديسيوس» منفيا فى القسطنطينية. وفى ذلك الوقت أرسل «يوليانس» الى بلاد النوبة لتبشيرها بالمسيحية وذلك بمساعدة الأمبراطورة «تيودور» التى كانت تؤمن بمذهب الكنيسة المصرية على عكس زوجها الامبراطور «جوستينيان» الذى كان شديد التعصب والأضطهاد لذلك المذهب وأتباعه. فوصل يوليانس الى النوبة حوالى عام ٥٤٣م. وبشرها بالمسيحية فرحب به الملك وأتباعه فعمدهم وعلمهم الكثير عن المسيحية وفضائلها. وحذرهم من أخطاء مذهب حزب الأمبراطور. فلما وصلت بعثة الأمبراطور بعد ذلك لم يقبل ملك النوبة رسالتها ورفض بقائها فى النوبة وعادت تجر أذيال الخيبة والفشل.

ثم تواليت بعد ذلك البعثات التبشيرية من طرف الكنيسة المصرية. وكان من أشهر المبشرين الذين ذكر أسمهم بالفخر بين القبط هو «لونجينوس» الذى عرض نفسه لأخطار الموت وسار فى رحلة طويلة شاقة على الجبال المحاذية للبحر الاحمر حتى وصل الى مملكة «علوه» عند ملتقى أنهار عطبرة والنيل الأزرق والنيل الأبيض وكانت عاصمتها مدينة «سوبا». وتقع بالقرب من مدينة الخرطوم الحالية. فقام «لونجيلوس» هذا بعد وصوله اليها بتبشيرها بالمسيحية فآمنت بمذهب الكنيسة المصرية. وقد حاول الأمبراطور «جستنيان» أن يستميلهم الى مذهبه فلم يقبلوا اليه حتى بعد استعمال القوة معهم لتنفيذه.

وقد ظلت الكنيسة القبطية توالى ارسال الأساقفة وكهنة الى بلاد النوبة وعلوة وكذلك الى مملكة أخرى تتوسطها أسمها «مقرة» أتحدت منذ القرن السابع للميلاد مع النوبة وصارت مملكة واحدة عاصمتها دنقلة القديمة. وقد استمرت المسيحية فى النوبة تابعة للكنيسة القبطية حتى نهاية حكم المماليك.

أديرة وادى النطرون الباقية اليوم

* دير الأنبا بيشوى
* دير السريان
* دير البراموسى
* دير الأنبا مقار

كان وادى النطرون يزخر بأعداد كبيرة من الأديرة والقلالى فى الأزمنة القديمة حيث ذكر الرحالة «روفينوس» الذى زار الوادى حوالى عام ٣٥١م أنه كان فى الوادى المذكور نحوا من خمسين ديرا كما نوهنا سابقا. ولكن أحداث الزمان والغزوات المتلاحقة التى سبق الكلام عنها أبادت الكثير من أديرة ذلك الوادى وتراثه ولم يبق به الآن من الأعداد الكثيرة التى ترعرعت بين أرجائه سوى أربعة منها وهى: ـ

(١) ديرى الأنبا بشوى. (٢) دير السيريان.

(٣) دير البراموس. (٤) دير الأنبا مقار.

ويجدر بنا أن نتناول كل دير من هذه الأديرة بلمحة وجيزة عن تاريخه وآثاره الهامة.

أولا ـ دير الأنبا بشوى

ويعتبر من أشهر أديرة وادى النطرون الأربعة، ويرجع انشاؤه على أغلب الاحتمالات الى أواخر القرن الرابع الميلادى. كما أعيد ترميمه عام ٦٤٥م على يد الأنبا «بنيامين الأول». كما أعيد أيضا بناؤه حوالى عام ٨٤٠م ويعتبر المبنى الرئيسى للكنيسة يرجع الى هذا التاريخ. ومنشىء الدير المذكور هو «الأنبا بشوى» وكان تلميذا للقديس مقار أحد زعماء النسك فى

الوادى. وقد اشتهر بشدة ورعه وتقواه وقد وهب شبابه للتعبد وأصبح ناسكا ذائع الصيت. وسرعان ما التف حول صومعته كثير من التلاميذ الذين شغفوا بحياة الرهبنة. ومنهم أحد السريان المقلب «بأفرام» وهو ناسك وفد من سوريا وسعى يبحث عن الأنبا بشوى هذا بسبب ما سمع عنه وعن روعه وقداسته. ويروى أنه بينما كان يتحدث مع الأنبا بشوى داخل قلايته ولم يكن يعرف أحدهما لغة الآخر لاختلافهما فى الجنس الا أنهما فهما كل منهما الآخر بالهام سماوى. كما يروى أيضا أن الأنبا أفرام هذا كان قد ترك عكازه خارجا بجوار قلاية القديس. ولما أنصرف من عنده خارجا بعد فترة من الزمن وجد أن عصاه قد غرست فى الأرض وتأصلت فى التربة ونمت واورقت الأغصان والأوراق والزهر وأصبحت شجرة من خشب التمر هندى. ومازالت الى اليوم فارعة مزهرة وتوجد خارج الهيكل القبلى للكنيسة وتنسب الى أفرام هذا السريانى الجنس. فهذه الشجرة التى نشاهدها اليوم فى دير السريان كانت مكان القلاية الأولى للأنبا بشوى المذكور.

أما عن بوابة هذا الدير فتعد من أحسن مثل لها فى جميع أديرة الوادى الأخرى ومنها يصل الزائر الى القصر أو «الحصن» مباشرة وهو من أمتن القصور فى كل الوادى. وهو مكون من ثلاثة طوابق. وفى الطابق العلوى منه توجد كنيسة الملاك ميخائيل كما هى العادة فى جميع حصون الأديرة عامة. وفى أعلى حجاب هيكلها الخشبى مدون تاريخ انشائه وهو عام ١٤٩٨ ش تساوى ١٧٨٢ للميلاد. وقد شيدها المعلم ابراهيم الجوهرى.

أما فى الطابق الثانى ففيه كنيسة السيدة العذراء. وفى الطابق الأول توجد الطاحونة وبئر الماء وقاعة صغيرة تسمى «أوضة الجارية» وصندوق يحتوى على قليل من المخطوطات منها كتاب عن تاريخ بطاركة الاسكندرية لساويرس بن المقفع ولعله أقدم مخطوط من نوعه للكاتب المذكور. وكذلك مخطوط قديم عن أخبار القديسين. أما عن منظر سور الدير من فوق سطح الحصن فهو جذاب ويستلفت الانظار.

أما عن كنيسة الدير فهى أوسع كنائس الوادى، وأمتاز كذلك مكان المرنمين Choir فيها برحابته أيضا. وهى فى الواقع مثل فريد لأقدم النماذج المبكرة فى تصميم الكنائس. وترجع اعادة بنائها الى حوالى عام ٨٤٩/٨٣٠م. وتتكون من ثلاثة هياكل ومكان متسع للمرنمين

كما ذكرنا وأجنحة جانبية تتجه لناحية الغرب. هذا وقد أدخلت عليها تعديلات فى المبانى ترجع الى نهاية القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر. ومنها عدة تغييرات فى المبنى الرئيسى. كما أضيف اليها رواقان وعدة هياكل صغيرة وطريق للمطعم وكان من جراء ما أحدثه النمل الأبيض من تخريب بمبانى الكنيسة واتلاف أخشابها أن قام البطريرك الأنبا ميخائيل الثانى ببعض الانشاءات والتعديلات فيها عام ١٣٣٠ للميلاد.

أما عن الأحجبة الخشبية المصنوعة من حشوات فمنقوشة بالرسوم البارزة من خشب الصنوبر وموضوعة أمام الهياكل الثلاثة. وكذلك الأبواب الخشبية الأخرى المشغولة تعتبر نموذجا فاخرا للصناعة الخشبية الدقيقة. وهى الحرفة التى أشتهر بها النجارون القبط. وقد اعتبره العالم الانجليزى «افلين هوايت EveyIn White» من أجمل ما صمم لها فى هذا الوادى منذ القرن الحادى عشر للميلاد.

وعلاوة على اتسا ع هذا الدير عن سائر أديرة الوادى كذلك حدائقه أكبر وأوسع جيدة التربة عامرة بأشجار الفاكهة بأنواها كالكروم والنخيل والرمان والزيتون والنبق والخضروات وغيرها. وبئرها تمتاز بعذوبة مياهها وغزارتها. ويوجد بحرى الدير وشرقيه آثار لمعامل الزجا ج والفخار التى كانت رائجة فى تلك المنطقة. واشتهر فى تلك الصناعة طائفة مهرة من الرهبان. ومن بقايا تلك القطع من الزجاج وقواعد الكؤوس المزين بعضها بالمينا وما فيها من آثار الألوان وكذلك من الأوانى الفخارية المهشمة بها يتبين لنا مدى الدقة والاتقان التى كانت تقوم عليها تلك الصناعة فى تلك العصور العريقة فى القدم ومهارة العمال الفائقة فى انجازها.

ثانيا، دير السريان

يقع هذا الدير على مقربة مئات الياردات من دير الأنبا بشوى وأنه أسهل الأديرة وصولا اليها. وهو أحسن الأديرة فى الوادى المعروفة لسهولة الوصول اليه، ولجمال ما فيه من زخارف جصية فريدة بكنيسة العذراء فيها، كما أنه أهم الأديرة التى تحوى اثمن المخطوطات القيمة التى تفيد الطلاب والباحثين فى أبحاثهم.

أما هذا الدير فكان يعرف باسم دير القديس «يوحنا كاما» حيث توجد كنيسته فى الزاوية الشمالية الشرقية وتدل أبنيتها على قدمها وأنها أقيمت مع سور الدير نفسه. ولم يكن السريان

هم الذين بنوا ديرهم هذا، ولكن حدث أنه وفد جماعة من رهبان السريان عام ٩٨٤م وتوطنوا فى أحد الأديرة ثم استولوا عليه بعد ذلك فى زمن غير معروف تماما. وقد ذكر المؤرخ «أبو المكارم سعدالله ابن مسعود» على أن الدير المذكور قد بنى على اسم القديس «أبو كاما الأسود».

ويعتبر دير السريان من المزارات الهامة التى تجتذب السياح والحجاج كثيرا. وسبب شهرته ترجع فى الغالب الى وجود القلاية الأصلية التى كان يعتكف فيها الأنبا بشوى وما ترامى من أخبار عنها من أن الله كلمه فيها. كما أن بجوارها شجرة «الأنبا أفرام السريانى» وكانت عصاه ثم تأصلت فى التربة ونبتت ثم أورقت. وبجوار المكان أيضا توجد البئر المعروفة باسم التسعة والأربعين شهيدا من شيوخ برية شيهات الذين قتلهم البربر فى احدى غزواتهم فى ذلك المكان.

أما النواة الأولى من مبانى هذا الدير فترجع الى القرن التاسع للميلاد ويؤيد العالم «ايفلين هوايت» ذلك التاريخ لكنيسة العذراء بالدير. ويحتمل أن يكون حصن الدير قد أقيم ما بين عام ٨٤٠/ ٨٥٠م نظرا لما لاحظه على تصميمه البدائى. أما عن كنيسة العذراء فقد أعيد بناؤها على يد البطريرك «بنيامين الأول» فى القرن السابع للميلاد. وأن السريان استحوذوا عليها فى القرن الثامن. ثم بعد هجمات البربر عليها أعاد أقامتها وأصلاحها بعض الأخوة قبل عام ٨٥٠ للميلاد. واتبع فى تصميمها نظام القرن السادس الميلادى. أما عن الكنيسة المذكورة فلا شك أنها أهم وأحسن أثر معروف فى الوادى وهى مثل ممتاز لكنيسة فاخرة عريقة فى القدم.

أما الاحجبة الخشبية ذات الحشوات المطعمة والابواب الفاخرة بحشواتها المنقوشة برسوم بارزة دقيقة تعتبر من أقدم وأجمل الآثار النادرة الباقية فى الدير. ويرجع تاريخها الى القرن العاشر أو أوائل القرن الحادى عشر غالبا.

أما عن المكان المخصص للمرنمين Choir، الذى أقيمت عند مدخله الأبواب الدقيقة الصنع من خشب الصنوبر فيرجع عهده الى القرن التاسع للميلاد. وتحوطه القباب فى كلا الجانبين ومنها اثنان من أنصاف القباب وهى فى الغالب من أقدم الترتيب المعمارى الذى اتبع فى

الكنائس وهى الحالة الوحيدة الباقية فى وادى النطرون. ويشاهد أن أنصاف تلك القباب هذه تحوى رسوما جصية طريفة بالألوان تختص بتاريخ حياة السيدة العذراء. ففى القبلية منها نرى منظرا للبشارة والميلاد وفى الشمالية منظر للوفاة وآخر يمثل الصعود وما حول الرسوم من الكتابة فهى من الكتاب المقدس وباللغة السريانية. وفى هياكل الكنيسة الثلاثة تزخر النقوش الجصية الشهيرة ويرجع تاريخها غالبا للقرن العاشر الميلادى. والنوافذ الكائنة فى هذه الهياكل تعتبر أقدم ما عرف فى مصر من النوافذ الجصية كما أن ما تعشق فيها من مجموعة أو طاقم الزجاج جميل الرسم بديع التخطيط. وناهيك عما يشاهد هنا من نقوش رائعة على الجص المحفور على جدران الهياكل ويعلوها أفريز طويل بحشوات ذات نقوش جميلة كما أن الأعمدة وتيجانها أشبه بأشجار النخيل. كما يشاهد مناظر الزهريات الغريبة وهى أشبه بالقلب مما يؤيد أثر الطابع المصرى القديم. وعلى جانبى الشرقية أو «القبلة» تحت نهاية الأفريز توجد عصابة رأسية الوضع طريفة نقشت بمقرنص نباتى الشكل. وهذه النقوش الجصية القديمة تشبه الى حد كبير ما وجد من نقوش جصية فى جامع أحمد بن طولون التى ترجع الى عام ٨٧٩م. وهذا الشكل يقع شرق الرواق «الايوان Porch» حيث يقع فى غربه مبنى صغير آخر وفيه تقع البئر التى اشتهرت بأن البرابرة لجأوا اليها ليغسلوا سيوفهم وحرابهم من الدماء بعد أن قتلوا التسعة والأربعين شيخا من الرهبان فى احدى هجماتهم على أديرة برية شيهات.

ويوجد فى ناحية من صحن الكنيسة فى داخل قبة نصفية الشكل منظر طريف لصور جصية بالألوان من القرن العاشر الميلادى وهى تمثل صعود السيد المسيح. وفى النهاية الغربية من الجناح الجنوبى توجد قلاية الأنبا بشوى وهى بلاشك من الأماكن ذات التاريخ الأثيل والعريقة فى قدمها وهى من الأيام الأولى للدير، وفيها كان القديس المذكور يناجى خالقه.

أما المطعم فيمتد من الشرق الى الغرب ويظهر من شكله أنه ليس المبنى الأصلى القديم. ويغلب أنه أقيم على أنقاض مبنى آخر أقدم منه عهدا ويسبق أسوار السور المؤرخة بعام ٨٧٠ للميلاد. أما القصر أو الحصن القديم فى الدير فهو أعلى القصور فى الوادى. وهو يتكون من أربعة طبقات بينما القصور فى الأديرة الأخرى تتكون من ثلاثة طوابق فقط. وتوجد كنيسة الملاك ميخائيل كالعادة فى الطابق الرابع منه بالحصن المذكور.

ثالثا. دير البراموس

يقع هذا الدير فى الطرف الشمالى الغربى لوادى النطرون غربى الملاحات وتبلغ مساحته حوالى فدانين وأربعة قراريط. وكلمة «براموس» فى الأصل يونانية وتفسيرها من اللغة القبطية Pa- Romeos بمعنى «الذى للروم أو التابع للروم» والدير معروف أيضا بدير الروم نسبة الى الأميرين الأخوين مكسيموس ودومادیوس ابنى ملك الروم لانديوس الذين حضرا من سوريا الى الأنبا مقار الكبير فى برّية الأسقيط بقصد الترهب عنده. فلما وافتهما المنية وكان ذلك فى حياة مقار الكبير دفن رفاتهما فى نفس المكان حيث بنى دير براموس وسماه القديس مقار على اسميهما. وقد أطلق عليه بعض المؤرخين ومنهم «تقى الدين المقريزى» دير أبى موسى الأسود، وذلك لأن الأنبا موسى هذا كان رئيسا لذلك الدير وكان جسده مدفونا به.

مـبـانـي الدير: يحيط بالدير السور الذى يضم مبانيه وأظهر ما يشاهد فى تلك المبانى الاختلاف الواضح فى المبانى القديمة فيه والمنشآت الحديثة ويمكن تقسيمها الى قسمين يختلف أحدهما عن الآخر. أما القسم الأول ويشمل المبانى القديمة منه ومنها القصر القديم وهو المعروف فى الأديرة باسم «الحصن أو الجوسق» ، وقد سبق الكلام عنه فى الأديرة السابقة وعن الطبقات التى يتكون منها والغرض من أنشائه وأهميته. وأهم مبانى هذا القسم هى الكنائس وهى أربع:

١. **كنيسة العذراء:** وهى قديمة أثرية وظاهر أن معظم الأديرة تحوى كنيسة باسم العذراء دليل على شدة الاعتقاد بأن السيدة العذراء والدة الاله قد باركت تلك الأماكن عند قدومها الى مصر. وهذه الكنيسة متسعة وتبلغ مساحتها ١٢٠٠ مترا مربعا ويغطى صحنها قبو من الطوب. وهياكلها تقع فى الناحية الشرقية وتلوها القباب ويفصل صحن الكنيسة عن جناحيها القبلى والبحرى صفان من الأعمدة الرخامية. وفى صحن الكنيسة يوجد «اللقان» وهو الحوض الذى يملأ بالماء يوم خميس العهد من كل عام ويغسل منه الكاهن أرجل بعض أفراد الشعب أقتداء بما فعل السيد المسيح حينما غسل أرجل تلاميذه. والحوض المذكور مربع الشكل وهو من الحجر. ويوجد فى هذه الكنيسة عمود أثرى يعرف باسم عمود «أرسانيوس» لوجود نقوش عليه من عمل القديس المذكور. وقد جاء فى سيرته: «أنا ذهبت الى دير براموس وعملت

نقوشا على عمود هناك تذكارا لى». وقد كان أرسانيوس معاصرا للقديس مقار الكبير وكانت له قلاية بمغارة بجوار ذلك العمود.

وتقام الصلاة طوال مدة الصيام الكبير فى هذه الكنيسة.

٢. **كنيسة الشهيد مارجرجس:** وتقع داخل كنيسة العذراء من الشمال الغربى وتبلغ مساحتها خمسة وعشرين مترا مربعا.

٣. **كنيسة الأمير تادرس:** وتقع داخل كنيسة العذراء كذلك ومن ناحية الشمال وتبلغ مساحتها ٢٥ مترا مربعا أيضا وتوجد بها رفاة الأنبا موسى(١) الأسود والقس ايسيدروس(٢).

٤. **كنيسة الملاك ميخائيل:** وهى توجد عادة فى الطابق الأعلى من حصون الدير وقد سبق الكلام عنها أيضا فى حصون الأديرة الأخرى، ويحتفل فى هذه الكنيسة بعيد الملاك ميخائيل حيث تقام الصلاة فيها ليلة العيد حتى صباح اليوم التالى بدون انقطاع.

٥. **المنجلية والمائدة:** وتوجدان فى داخل كنيسة مارجرجس، أما المنجلية وهى كلمة قبطية ومعناها «مكان القراءة أو المقرأة» وهى منحوتة من حجر أبيض طولها ١٢٧سم وعرضها ٤٧سم، وكل استعمالها للقراءة أثناء تناول الطعام، وكان من يقوم بالقراءة فيها هو «الربيتة»(٣).

أما المائدة فهى مستطيلة الشكل وتبلغ ١٤ مترا فى الطول ومترا واحدا فى العرض وهى

---

(١) أصله بربرى وثنى وكان لصا فاتكا قتل مائة من الانفس ثم تنصر وترهب وصنف عدة مؤلفات قيمة وأشتهر بزهده، وكان ممن يطوى الأربعين فى صومه وأصبح فى عداد القديسين، وغالبا أنه استشهد فى أحدى غارات البربر على الوادى.

(٢) لا يعرف مكان ميلاده، من رهبان الجيل الرابع مصرى، وترهب فى برية الأسقيط، وأشتهر بورعه وتقواه وفضائله النسكية حتى انتخبه الرهبان قسا للأسقيط، ولما تجمع حوله كثير من الرهبان بنى لهم ديرا بمساعدة القديس موسى الاسود.

(٣) الربيتة، كلمة سوريانية الاصل معناها «رب بيت» وهى وظيفة تطلق على أمين الدير ويعينه رئيس الدير بموافقة جميع رهبانية، كما يجب اخطار البطريرك أو القائمقام بهذا التعيين. ومن واجباته أنه يقوم بأعمال رئيس الدير فى أثناء غيابه ويتعهد أثاثات الدير والمكتبة.

مقسمة الى ثلاثة أقسام يفصل بين كل قسم وآخر مجرى محفور. وكان القسم الأول من جهة الشرف معدا لجلوس الرؤساء والشيوخ، والثانى للكهنة والقسوس ومن فى مرتبتهم، والثالث للرهبان، ولم يعد استعمالها لهذا الغرض الآن لأن كل راهب يتناول طعامه فى قلايته بمفرده، وقد اكتفى بوضع الخبز عليها ليتناول كل راهب ما يكفيه منه عند الحاجة.

٦. **حجرة الملح والأباركة**: وهى فى نهاية المائدة وعن يمينها تقع حجرة الأباركة، وتوجد فيها معصرتان وتستعمل احداها الآن ومجهزة بكل أجزائها اللازمة لعصر الزبيب واستخراج الأباركة لاستخدام عصيرها فى القداس، ويقوم بعملها رهبان الدير بأنفسهم بطريقتهم البدائية القديمة كما يحفظونها بداخل قدورها المعتادة القديمة. ومن مبانى الدير القديمة أيضا حجرة القربان ولكنها توجد خارج كنيسة مارجرجس.

أما القسم الثانى فيشمل المبانى الحديثة من الدير المذكور ومنها:

١. **كنيسة يوحنا المعمدان**: وتقع بين الحديقتين البحرية والقبلية، وقد بنيت على أنقاض كنيسة أنبا أبولو وأنبا أبيب عام ١٦٠٠ للشهداء وتوافق ١٨٨٤ للميلاد. وهذا التاريخ مدون على بابها البحرى وقد حدث بها اصلاح وتجديد بدليل ما كتب على حجابها الجديد «شيدت فى عهد البابا كيرلس مطران البحيرة والمنوفية ووكيل الكرازة المرقسية فى عهد رئاسة القمص يوحنا وهو الأنبا يؤانس التاسع عشر. وقد بناها على نفقته الخاصة عام ١٦٢٦ الشهداء وتوافق ١٩١٠ ميلادية وتقام الصلاة طول العام فى هذه الكنيسة ما عدا أيام الصوم الكبير.

٢ـ القصر الجديد: وقد شيد عام ١٦٢٧ للشهداء ويوافق ١٩١١ ميلادية، لاستقبال الضيوف والزائرين الذين يفدون لزيارة الاماكن المقدسة للعمل على راحتهم.

٣ـ الحدائق وماكينة المياه: بالدير حديقتان واحدة بحرية والأخرى قبلية ويتعهد رهبان الدير بالعناية بها، والاكثار من زراعة أشجار الفاكهة بأنواعها والخضروات. وقد استحضر القمص برنابا رئيس الدير السابق ماكينة للحديقة البحرية لرفع المياه، كما استعملت أيضا لطحن

الغلال ولتوليد الكهرباء التى أدخلت فى الكنيستين الشرقية والغربية والقصر الجديد للضيافة كذلك، وتم ذلك على نفقة الأنبا يؤانس عام ١٩٣١ ميلادية.

٤. **المكتبة**: وتحتوى على ما أمكن الاحتفاظ به من المخطوطات والكتب القيمة الباقية ورئيس الدير ورهبانه حريصون على العناية والاهتمام بها لكيلا تمتد اليها الأيدى العابثة كما تعرضت لها من قبل وأفقدتها اثمن كنوزها العلمية والاثرية، وقد سبق أن تولى أحصائها المرحوم يسى عبدالمسيح أمين مكتبة المتحف القبطى الأسبق، ووضع لها فهارس على النظام الحديث ثم نظمها الى مجموعات رئيسية ثلاثة: تاريخية ولا هوتية وطقسية. وقد منع الدير الاطلاع على المكتبة أو مخطوطاتها أمعانا فى الوقاية من تعرضها لسرقة. ولكن أمكن أخيرا بالسماح للباحثين والمهتمين بالشئون الكنسية وتاريخ الرهبنة الاطلاع على تلك الكتب والمخطوطات بشرط الحصول على التصريح الرسمى من غبطة البطريرك.

وتعتبر مكتبة هذا الدير ومخطوطاتها من أنفس الكتب الموجودة بالاديرة، وهى تبلغ حوالى ٤٧٢ مخطوطا، ٢٨٩ مطبوعا، وأغلبها يبحث فى الشئون الدينية ومعظمها نسخت فى عهد الأنبا كيرلس الخامس الذى يرجع اليه الفضل فى جمع أشتات الكتب القبطية وترميمها وتجليدها، وكان من رهبان هذا الدير فى القرن التاسع عشر، هذا فضلا عن المكتبة التى خلفها القمص عبدالمسيح المسعودى، وهى محفوظة بداخل خزائن خاصة ومدون عليها، خزانة المسعودى وهى تشمل عدة كتب ومراجع قيمة فى عدة لغات.

٥. **المنارتان**: وتقعان فى مدخل الحديقة البحرية، وقد شيدتا على نفقة نيافة الاب الجليل الانبا توماس مطران المنيا والاشمونين عام ١٦٣٧ للشهداء يوافق ١٩٢٠ للميلاد فى عهد رئاسة القمص مينا.

٦. **قلالى الرهبان**: وهى تتكون من غرفة تستعمل للجلوس وتناول الطعام ومن داخلها حجرة أخرى للنوم، وهذه القلالى من دورين وهى جانب الحديقة البحرية.

٧. **أما المخبز «الطابونة»**: التى أعدت لتجهيز الخبز للرهبان فشيدت على الطريقة الحديثة. وبجوارها يقع «الطافوس» وهى كلمة يونانية ومعناها المدفن.

رابعا. دير الأنبا مقار

ويقع فى الجنوب الشرقى لدير الأنبا بشوى ودير السريان. وتبلغ مساحته فى الأصل حوالى فدان و٢٢ قيراطا، وقد أضيفت اليه تعديلات وتنظيمات عديدة ومبان بفضل جماعة الرهبان المثقفة ورئيسهم الفاضل الروحى الجليل، وينسب هذا الدير الى القديس أبو مقار الكبير الذى ذكرت سيرته فى الكلام عن وادى النطرون ورهبانه.

وهذا الدير أغنى أديرة وادى النطرون بما يحويه من أروع الآثار وأهمها ذلك التابوت الموجود فى كنيسة أبى مقار ويحوى رفاة ستة عشر من الآباء البطاركة. كما يوجد أجساد التسعة والأربعين شيخاً الشهداء الذين قتلهم البربر وهم مدفونون بكنيسة الشيوخ.. كذلك التابوت الرخامى الذى يحمل رفاة القديسة هيلاريا ابنة الملك زينون التى تنكرت فى زى الرجال وترهبنت بهذا الدير ودفنت فى أرضية قصره القديم الذى بناه والداها فوق المكان الذى تحوى أرضيته تابوتها.

ومن الذكريات الهامة التى ترتبط بهذا الدير ذات التاريخ الخالد المجيد أنه كان المكان المفضل للزيارة من جميع بطاركة الأسكندرية وبصفة خاصة فى الأزمنة التى كانت تنتاب فيها البلاد موجات الفتن والفوضى والاضطرابات ويعم البغى، والاضطهادات من ناحية الاباطرة الرومان القساة والحكام الغاشمين، فكان بعض البطاركة والأساقفة يلجأون الى دير الأنبا مقار الكبير حيث ينعمون فيه بالسلام والهدوء، وكذلك يجتمعون فيه عندما كانوا يقومون بعملية طبخ الميرون المقدس، وأحيانا يدشنون الكنائس والهياكل التى تكون قد شيدت فى المكان المذكور.

وكان من العادات المتبعة عند انتخاب البطريرك للكرسى المرقسى كان لابد بعد تكريسه فى الاسكندرية أن يتوجه بعدها مباشرة الى دير الانبا مقار حيث لابد من اتمام عملية الرسامة والتقديس بالدير المذكور. ومن الدير المذكور تخرج أكبر عدد من بطاركة الأسكندرية، كما دفن فيه أكبر عدد من أجسادهم أيضا. وهذا دليل على مقدار الاهمية التاريخية العظمى والمكانة الرفيعة المرموقة التى تبوأها ذلك الدير الشهير خلال الازمنة المختلفة فى كافة أنحاء البلاد المصرية بل وفى جميع أقطار المسكونة أيضا وهذا أسبغ بلا شك صفة التقديس للمكان المذكور.

وأهم الكنائس والهياكل الأثرية الباقية بالدير المذكور باختصار:

أولا: كنيسة الأنبا مكاريوس: وتبلغ في طولها من بحرى الى قبلى ٢١ مترا وعرضها من شرق الى غرب حوالى ١٥ مترا وملتصقة من الجهة البحرية بالسور البحرى، وكان بها خمسة هياكل وهى:



(١) هيكل الرسل.

(٢) هيكل مرقس الأنجيلى.

(٣) هيكل مقار بناه مقار أسقف منوف.

(٤) هيكل شنودة.

(٥) هيكل بنيامين. ولم يبق منهم غير الأول والأخير ولأهميته فسنتناوله لذلك بشيء من التفصيل.

هيكل بنيامين: تبلغ مساحته ثمانية أمتار في ثمانية الا ثلثا. وبناء قبته من أبدع وأتقن ما بنى من نوعها فى وادى النطرون، بناه الرهبان فى عهد البطريرك بنيامين الثامن والثلاثين فى عداد البطاركة الذين تولوا رياسة الكرسى المرقسى. وقد حضر الأنبا بنيامين بنفسه وقام بتكريس هذا الهيكل، وفيما هو يباشر عملية التكريس روى أنه شاهد شخصا نورانيا واقفا بزاوية الهيكل فتمنى لو تتاح له الفرصة لأن يعينه أسقفا على احدى الأبروشيات، ولكنه سمع صوتا يقول «هذا مكاريوس قد حضر اليوم بفرح مع أولاده».

وهذا الهيكل له منزلة سامية وروعة رهيبة واحترام عظيم ويتحتم على كل بطريرك أن يصلى فيه بعد رسامته، وكذلك حفلة تقديس الميرون تكون بهذا الهيكل ومن القوانين التى وضعها له الأنبا بنيامين أنه غير مصرح لأى كاهن أن يصلى فيه الا من رسم عليه...

ثانيا ـ كنيسة أبى أبسخيرون: وتتسع من بحرى الى قبلى بحوالى ١٧ مترا ومن الشرق الى الغرة ١٨ مترا. وتقع قبلى غربى كنيسة الأنبا مقار، وكانت قديما متصلة بها.

ثالثا ـ كنيسة الشيوخ: وهم التسعة والأربعون راهبا من شيوخ برية شيهات الذين استشهدوا وقتلهم البربر فى احدى غزواتهم على وادى النطرون.

ومن حول دير القديس مقار[1] الكبير توجد آثار عديدة لا حصر لها من القلالى بعضها كان كبير الاتساع وذات أسوار وداخلها حجرات كثيرة وتحوطها أسوار كأنها أديرة صغيرة، وهذه كلها كانت عامرة بالنساك. وقد أمكن حصر أسماء عديدة لأصحاب رهبانها الذين كانوا يتعبدون فيها والبلدان التى وفدوا منها.

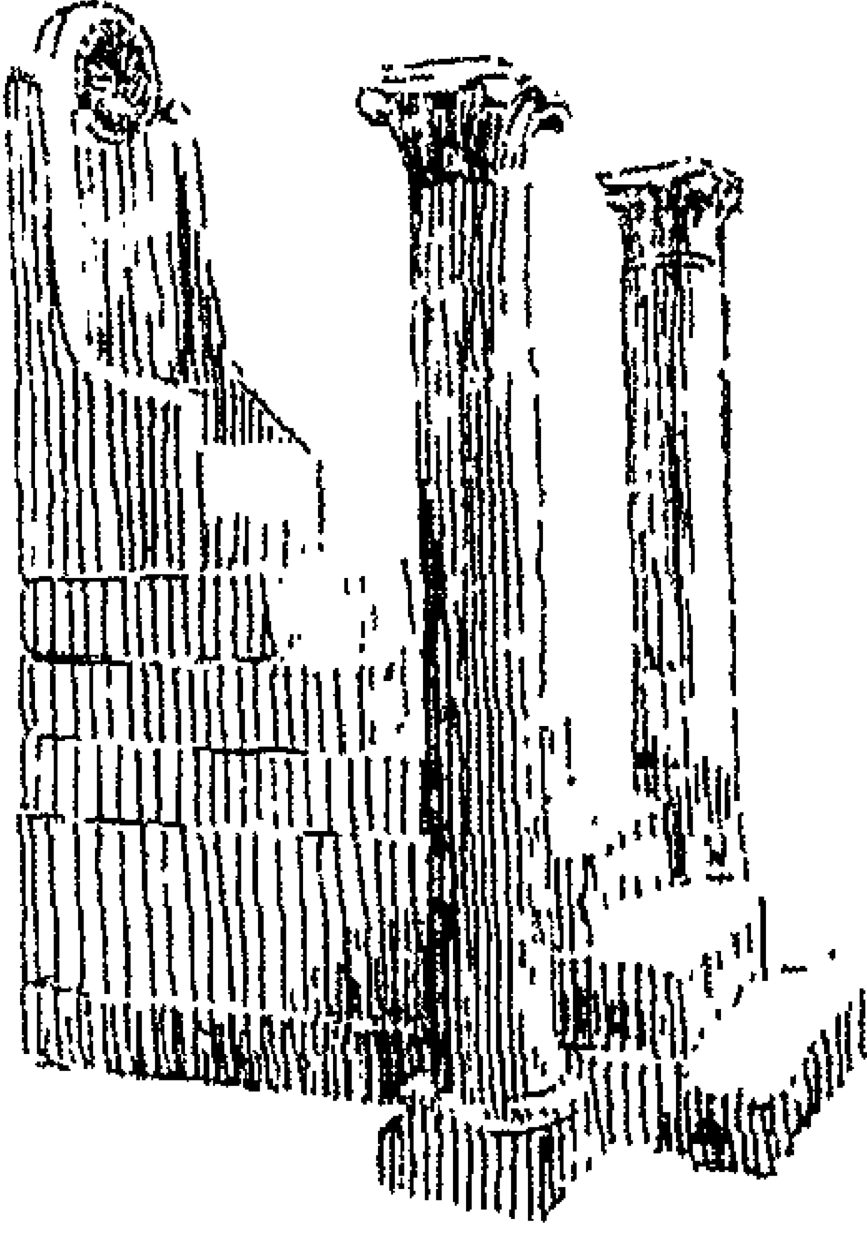
رابعا ـ **المكتبة:** ولو أن ما تبقى بها من الكتب والمخطوطات قليل لا يتناسب مع ما كان عليه دير الأنبا مقار من شهرة عظيمة فى العلوم والفنون الا أن فى مكتبته طائفة من الكتب القديمة والخطية منها كتاب تكريس هيكل بنيامين وتاريخ نساخته ترجع الى عام ١٠٤٦ للشهداء ويوافق ١٣٣٠ للميلاد وهو باللغتين القبطية والعربية وبعض كتب صلوات الأكاليل والمعمودية قديمة أيضا ومدونة بالقبطية والعربية. وكذلك ميامر عن أخبار القديسين الرهبان والشهداء. وهى موجودة بكثرة ونظرا لقدمها فقد تكون أصح من غيرها مما نشر عن أخبار القديسين فى جهات أخرى.

وقد اشتهر هذا الدير منذ القدم بما كان يحويه من طائفة من النساخ المهرة فى نساخة الخط القبطى والعربى. وكانوا يرسمون الحروف القبطية على أشكال طيور جميلة جذابة المنظر، كما كانوا يتفننون فى صنع الوان الحبر الذى يصورون به الحروف والرسوم حتى أنه فى عهد البطريرك الأنبا «غبريال بن تريك» البطريرك السبعين، طرد راهب من البرية لسوء سلوكه، فذهب ووشى الى الحافظ أن الرهبان يعملون الكمياء فأوفد معه أستاذين وحضروا الى دير أبو مقار. فوجدوا رهبانا نساخا وعندهم كتب الأبقطى وصنعة الأصباغ، فقال له أن هذه كتب الكيمياء فقبضوا عليهم ومن جملتهم مرقس الناسخ وقمص أبو يحنس وقمص أبو مقار ونهبوا أوانى دير أنبا بشوى وأحضروهم الى الوزير. ولما تحقق أن هذه صبغة صنع الالوان التى يستعملونها فى النساخة أخلى سبيلهم وأعطى لهم كتاب الأمان وأرسلهم الى أديرتهم مكرمين.

---

(١) عانى، القديس من اضطهاد الأمبراطور «فالنس» الأريوسى المبدأ شدائد عنيفة دفاعا عن الايمان والثبات على المبدأ حتى أنه نفى الى أسوان فى جزيرة أنس الوجود فى فيلة حيث شفى ابنة حاكمها الوثنى المذهب من مرضها التى كانت تعانى منه فاعتنق أبوها مذهبه، وهكذا تحول سكان الجزيرة الى الديانة المسيحية على يده حتى اضطر الأمبراطور الى اطلاق سراحه، فلما عاد من منفاه قضى بقية عمره مرشدا ومعلما للرهبان. وقيل أنه ترك ٥٠ موعظة بعد أن رحل الى سيده الأعظم عن تسعين عاما.

بعض أديرة أشتهرت بالوجه البحرى



بقايا دير سقارة بالمتحف القبطى

* دير مار مينا بمريوط
* دير تل الهر شمال قناة السويس.
* دير تل اتريب بالقرب من بنها.
* دير ابى هور بشبين الكوم.
* دير الشهيدة دميانة ببلدة بلقاس.
* دير سقارة ـ دير القصير / اديرة حلوان.
* صفحة ناصعة عن آداب وتقاليد الرهبان.
* الرهبنة عند النساء.
* منطقة سيناء وأهميتها فى النسك.

سبق أن تكلمنا عن الأعداد الهائلة من الأديرة والقلالى التى امتلأت. بها البلاد المصرية فى جميع أطراف وادى النيل وصحاريه الشرقية والغربية وتناثرت فى كافة البقاع القريب منها والبعيد وكانت خلايا عامرة تنبض بالحياة النورانية السامية المليئة بالرحمة والايمان وأشبه بمنارات لامعة تهدى الضالين من الرحالة أو المسافرين من متاعب الأسفار وأخطار الطريق فى الأزمنة البدائية، فكانت خير ملجأ وملاذ هادئ أمين لكل ضال أو مريض أوملهوف أو فقير فيجد كل عابر اليها ضالته المنشودة فى سماحة رهبانها الأفاضل، وما اشتهروا به من الكرم وحب الضيافة والمحبة وانكار الذات العجيب.

هذه الشرايين النابضة التى أفادت الانسانية كثيراً، وارتوت منها النفوس العطشى فى البرارى والقفار، بل وفى البقاع الأخرى من الحضر انهالت عليها جحافل الشر وأبادت معظمها، والبعض منها ما زالت آثاره باقية، والغالبية أبيدت عن أخرها ولم يبق منها شيئاً الا الأسماء التى كانت ترددها بعض المراجع القديمة الباقية والتى حفظت تلك الأسماء وما كان لها من أهمية.

ومنها نذكر على سبيل المثال لا الحصر، ما حاق ببعض الأديرة من خراب ذلك ما ورد فى

كتاب تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع من القرن العاشر الميلادى، «أنه فى أيام الأنبا أندرونيكوس» البطريرك السابع والثلاثون «٦١٦/٦٢٢م» جاءكسرى ملك الفرس بقوة عظيمة واخذ مصر وتسلط عليها: «جعل اهتمامه أن يفتح المدينة العظمى اسكندريه، وكان هناك ستمايه دير عامره بهاناتون مثل أبراج الحمام (...) وكان جيش الفرس قد أحاط بها من غرب الديارات ولم يبق للرهبان ملجأ، فقتلوا جميعاً بالسيف الا قليلا منهم اختفوا فخلصوا. وجميع ما كان هناك من المال والأوانى نهبه الفرس وأخربوا الديارات».

دير القديس مينا بمريوط(١):

يعتبر هذا القديس وديره وبيعته من أروع ما كتب فى تاريخ الكنيسة القبطية وأثرها الخالد، أما ما عرفناه عن مولد هذا القديس وتاريخ حياته أو استشهاده، فقد كان عن طريق الرواة والقصص والأساطير. وقد حدث اختلاف بين الكتاب والرواة وصدرت أقاويل عديدة عن ذلك القديس وتاريخه حتى ذكر البعض أنه كان يوجد أثنان بهذا الاسم أحدهما مصرى الجنس والاخر أجنبى من فريجيا بآسيا الصغرى، الا أن الدكتور «الفريد بتلر» المؤرخ الانجليزى ينوه بما يؤكد مصريته فى الاسم نفسه لأنه اسم أول ملوك الفراعنة، وهو الملك مينا موحد الوجهين ومؤسس مدينة منف عاصمة مصر القديمة.

وورد عن مينا هذا أنه ولد من أبوين ورعين كريمين فى مدينة «نيقيوس» فى مصر واسمها بلغة المصريين «ابشادى»، وكان والده «أودوكسيوس» أخا «أبسطاس» الوالى فى ذلك الزمن ـ وكان والدهما معروفا بشجاعته ومهابته وحسن سيرته،واستقامته ومحبة الناس وتقديرهم له ـ وحدث أن ولى حاكما على كورة أفريقيا ـ فلما ترك نيقيو س حزن أهلها على رحيله لأنهم خسروا رجلا فاضلا تقيا عفيفا ـ فاستقبله أهل أفريقيا بالبشر والترحاب لما سمعوا عن حسن سيرته وطهارته. وكانت زوجته عاقراً وكثيراً ما كانت تقضى أياما فى الصوم والصلاة واعطاء الصدقات متوسلة الى الله لكى يرزقها نسلا. وفعلا استجاب الله دعاءها ورزقت بطفل أسمته

---

(١) ذكر المؤرخ أبو العباس أحمد المعروف باسم اليعقوبى الذى عاش فى القرن التاسع وأوائل العاشر الميلادى فى مؤلفه «كتاب البلدان» ديرين فى مصر وهما دير أبو مينا «غرب الأسكندرية» ودير أبو شنودة «عند أخميم» ربما لعظم شهرتهما بعهده.

مينا، ففرح والداه وسلماه الى أحد الكهنة لتعليمه. فأظهر منذ نعومة اظفاره ورعاً وتقوى وميلا طبيعيا الى مداومة الصوم والصلاة.

وعندما أكمل الحادية عشرة من عمره توفى والده ثم لحقت به والدته «أوفوميه» بعد ثلاث سنوات، وتركا له ثروة طائلة، ولما شب الصبى ظهر شغفه للعبادة والميل للصوم والتصدق. وفى سن الخامس عشة أختير فى سلك الجندية، وكانت تظهر عليه دلائل القوة والشجاعة والأقدام ودلائل النعمة بادية على محياه، وكان محبوبا من الجنود لتواضعه وزهده وتقواه، حريصا على طهارة جسده وبتوليته.

وفى عصر الامبراطور دقلديانوس بدأت ترسل منشوراته الى كل الممالك والكور يأمرهم بألايخرجوا على عبادة الامبراطورية الوثنية والسجود للالهه وتقديم الذبائح ورفع البخور لها وتوعد بالعذاب والتنكيل الشديد لكل من يخالف الاوامر فترك الجندية وخرج الى البرية فى مكان مقفر وظل متوحدا يتعبد لله بعيدا عن مشاهدة معبوداتهم النجسة وقضى زمانا طويلا وهو فى هذا الهدؤ حتى أراد الله أن يصطفيه للشهادة والجهاد الصالح ونيل أكليل الخلود ـ وحدث أن كان عيد الملوك فى المدينة التى فيها القديس مينا فخرج بين جموع غفيره من الناس وامتلأ بالروح القدس وبشر بالانجيل فى وسطهم وأرتاع الشعب من ذلك وطرأ عليهم ثبات عجيب وحتى والى المدينة ذهل عندما رآه فى ملابس الرهبان القديسين وهو يندد بعبادة الاوثان ويبشر باسم سيده المسيح ورفع أسمه أمام الجمع الحاشد احتفاء بعيد الملوك المذكور. فأمر الحاكم بالقبض عليه وأودعه السجن ثم أمره بالسجود الى الآلهة فرد عليه القديس بكلام لاذع وسخر بأصنامه فحنق عليه الوالى وأذاقة من صنوف القسوة والعذاب ما تقشعر منه الابدان ليثنيه عن عزمه حتى تقدم اليه واحد من الواقفين متوسلا الى القديس ليرحم شبابه ويسجد للالهه كى لا يهلك. ولم يزده ذلك الا أستمساكا بسيده واظهارا لتفاهة اصنامهم الفاسدة النجسة المائتة التى يسجدون اليها. فزاد عليه العذاب حتى جرى دمه وتقطع لحمه ثم وضعوا المشاعل تحته والجموه وطوقوا عنقه بالحديد وكرروا عليه العذاب ثم القوه فى السجن، ويروى ان الوالى لما أشتد حنقه عليه أمر بعض الجنود بنشره فكان المنشار يذوب كالشمع اذا اقترب من جسمه فافضح الملوك وآلهتهم. ولما تحير الوالى فى أمره وعناده ألف مجلسا وكتب قضيته ثم أمر بقطع رأسة بالسيف وكانت شهادتة فى يوم ١٥ من شهر هاتور. وقد أراد عباد

الاوثان أحراقة ولكن تمكنت أختة من أخذ جسده كما أوصاها بعد أن دفعت ما كان معها من المال الى الجند ثم لفته ونزلت به الى الاسكندرية ولما وصلت به هناك تلقوه بأكبار واحترام عظيم وكفنوه فى أكفان نقية طاهرة.

ولما أنقضى زمان الاضطهاد نقلت رفاة القديس من الاسكندرية الى المكان الذى يحمل اسمه الان وذلك على أثر رؤيا ظهرت للبطريرك فى ذلك الوقت. فيروى أنه بعد وضع رفاته فى تابوت حملوه على ظهر جمل وتركوه خارج الاسكندرية وهم يتتبعونه حتى وصل الى مكان «بحيرة بياض» ويقال أن هذه هى الجهة التى نشأت فيها أمه. وفى المكان المذكور توقف الجمل الذى يحمل التابوت فجأة فى الصحراء الغربية وعبثا حاولوا أجباره على السير فاضطر مرافقو الجمل الى استبدال الجمل بأخر ولكنه توقف الثانى عن المسير وظل فى مكانه لا يتحرك كما فعل الحيوان الاول وعلى ذلك قرر الاتباع دفن رفاة القديس فى ذلك المكان بمنطقة مريوط ، حيث شيدوا فيها ديره وبيعته التى ظهرت فيها آيات وعجائب وشفاءات عظيمة للمرض وذاعت شهرة تلك المنطقة فى جميع انحاء العالم القديم فأصبحت كعبة يفد اليها الحجاج من كل صوب فى كل عام لزيارة قبر القديس لنوال بركته وطلباً للاستشفاء من أسقامهم. وكان يوجد بالقرب من قبره بئر يأخذ الحجاج من مائها فى أوائى خاصة وكانت تصنع من الفخار فى مصانع بالمنطقة وعليها صورة القديس بارزة على سطحها وكانوا يعتقدون أن تلك المياه تشفى أمراض العيون.

وقد أقيمت حول ضريحه فى منطقة مريوط مدينة عظيمة يرجع تاريخها الى القرن الثالث الميلادى، كما أن الامبراطور أركاديوس بنى بجوارها كنيسة فاخرة من الرخام، وكانت تعتبر من أروع ما أنتجته يد الانسان فى الفخامة والجمال وعدت من أعظم كنائس القطر. وقد بناها الامبراطور المذكور وفاء لنذر كان قد تعهد به بمناسبة شفاء أحد أبنائه من مرض خطير. ومن طريف ما يذكر وصفا عن ذلك المكان ما رواه الرحالة العربى البكرى سنة ١٠٨٦ للميلاد فى مخطوط فى المكتبة الاهلية فى باريس حيث يقول «وفيه بنى كنيسة عظيمة تحوى عجائب الصور والنقوش وتوقد قناديلها ليلاً ونهاراً وفيها قبو عظيم وفى أحدى مبانيها صور جميلة من الرخام عليه صورة أنسان قائم على رجليه فوق جملين وأحدى يديه مبسوطة والاخرى مقبوضة، ويقال أنها صورة أبى مينا، وكل ذلك مبنى من الرخام. وفى هذه الكنيسة صور



الانبياء كلهم عليهم السلام، وصورة زكريا ويحيا وعيسى فى عـامـود رخـام عظيم، وعلى يمين الداخل باب يغلق عليـهـا، وصورة مريم قد اسدلت عليها ستائر وصور جميع الحيوانات وأهل الصناعات، ومن جملتها صورة تاجر رقيق ومعه خريطة أى «كيس نقود» بيده مفتوحة لا سفل «أعنى أن تاجر الرقيق لا ربح له» وفى وسط الكنيسة قبة فيها ثمانى صور يزعمون أنها صورا للملائكة، وفى جهة من الكنيسة مسجد محرابة الى القبلة ويصلى فيه المسلمون وحول الكنيسة ثمار كثيرة، ويقولون أن سبب بناء هذه الكنيسة أن قبرا كان موضعها وكان بالقرب منه قرية وأن رجلا من أهلها كان مقعدا فر منه حماره فزحف وأمسكه وركبه وأنصرف الى بلدتة صحيحا فتسامع الناس ذلك فلم يبق عليل الا وقصد ذلك القبر فيجلس عليه فيبرا فبنيت عليه هذه الكنيسة وقصدها أولو الاسقام ليستشفوا. وظل ذلك بعد أعادة بنائها. ويدفع لها من القسطنطينية كل عام ١٠٠٠ دينار

وقد تهدمت تلك الكنيسة وكذلك اندثرت بلدة الحجاج التى كانت قائمة وظلت أطلالها شاخصة بين الرمال. وأول من بدأ بالحفائر فى تلك المنطقة العالم الالمانى «كاوفمان» فى عام ١٩٠٧م.

ثم شرع المتحف القبطى بالاشتراك مع المعهد الالمانى فى مواصلة الحفائر العلمية بالمنطقة ، كما شرعت البطريركية القبطية بهمة وارشاد غبطة البابا الراحل الانبا كيراس السادس فى العمل على أعادة تلك البقعة الى سابق عهدها الزاهر وشيد فيها دير كبير وكنيسة فاخرة على أسم القديس مينا أيضا، ووالى قداسته الاهتمام المتواصل بهذه المنطقة وزيادة أعمال التعمير والبناء فيها وغرس الحدائق كما كانت عليه من قبل أذ أنها أشتهرت بالزراعة وعلى الاخص الفاكهة كالكروم والتين والزيتون وكذلك الشعير. ومن طريف ما عثرت عليه الحفائر مجموعة من الحمامات التى كان يؤمها الحجاج، وكانت تصل المياه اليها عن طريق الابار التى أنتشرت كثيراً بتلك البقعة. وقد كشف منها أكثر من ثمانين بئرا، وتنقل المياه الى الحمامات بطريق السواقى والقنوات التى كانت تربط بين الابار والحمامات.

وقد كانت تلك المنطقة أيضا تتمتع فى غابر الزمان بشعبية هائلة وأتخذها عظماء البطالسة والرومان مكانا للمتعة والاستجمام، وذاعت شهرته وأمتدت الى ممالك أوروبا عامة وأصبح كعبة يؤمها الحجاج من كل جهات المسكونة ويكنون لها الولاء والتقديس منذ أقدم العصور. ولا تزال فى روما حتى الان كنيسة قديمة تحمل أسم القديس المذكور وقد بدأت تجتذب اليها العديد من الزائرين اليوم. وقد نقلت اليها رفاة البطريرك الراحل الانبا كيرلس السادس بناء على وصية منه قبل وفاته.



أيقونه قبطية فريدة للسيد المسيح واضعاً يده على كتف القديس مينا. من القرن ٧م نقلت من باويط إلى اللوفر بباريس

ومازال يعثر الى اليوم على بقايا من الاوانى الفخارية التى تعرف بقنانى القديس مينا الفخارية من أحجام مختلفة بين أنقاض ديرة فى الصحراء الغربية غرب مدينة الاسكندرية. ويوجد فى المتحف البريطانى وغيره من المتاحف الاوروبية مجموعات عديدة من هذه الاوانى التى كان يحملها الحجاج مملوءة بالماء عند زيارة ضريحة ويشاهد على سطحها صورة مطبوعة بارزة للقديس مينا وهو قائم يرفع بكلتا يدية للصلاة بين جملين جاثمين وأحيانا نراهما منحيين أجلالا له عند قدمية وكأنهما يقبلانهما، وأحيانا عليها صلبان صغيرة وبعض الاحرف اليونانية أو القبطية ويقصدون بها أختصار لاسم القديس مينا. وهذه الاوانى لا يمكن أن تقوم واقفة بل يجب حملها بواسطة خيوط تربط بين العنق والاذنيين للاناء. ومن الاثار النادرة التى يجدها الاثريون أحيانا مطمورة بين الرمال فى المنطقة أو فى اركان مبانيها القديمة قطع الموزاييك الرخامية الرائعة بألوانها الجميلة البراقة ومنها الاخضر والارجوانى والاصفر والابيض والاسود والتى كانت تغطى بعض أرضيات ذلك الدير وصحن الكنيسة، وهى تشهد على مدى ما كانت عليه مبانى تلك المنطقة من الفخامة والعظمة والجمال.

ويظهر أن الشهرة العظيمة التى ذاعت فى أغلب الاقطار عن عظمة مبانى ذلك الدير وبيعتة حتى كانوا يطلقون عليها أسم مدينة الرخام مما شجع الملوك وبعض الخلفاء على أقتناء بعض أعمدتها وقطعها الرخامية النادرة وقد روى عن الخليفة المأمون أنه أرسل بعض عماله الذين أظهروا أعجابهم الشديد بمبانى منطقة أبى مينا فعملوا على أنتزاع الكثير من أعمدتها وقطعها الرخامية الفاخرة ومنها ما كان بألوان جذابة جميلة وقيل أنها أستخدمت فى تزيين بعض قصر

المأمون فى مدينة بغداد. ويغلب على الظن أن هذه المنطقة هجرت وتحولت الى أنقاض فى القرن الثالث عشر الميلادى ثم أخذ البدو فى السطو عليها والشروع فى النبش بين أنقاضها وأقتطاع بعض رخامها وقطع الموزاييك فيها وبيعها الى تجارم الاثار بالاسكندرية.

دير تل الهر:

ويقع هذا الدير فى سهل الطينة عند الطرف الشمالى لقناة السويس من الجهة الشرقية وفى نصف ساعة بين تل الفرما «التى سميت فى العصور الوسطى بمدينة الفرما، ثم وردت «الفرماء» أو تل الفرما وكان أسمها بالقبطية Peremoun وباليونانية Pelousion» والقنطرة الشرقية . وكانت قديما طريق القوافل بين مصر والشام التى تمر على مسافة قليلة جنوبا منه . وكان الدير تابعا لا سقفية الفرما وهى أقدم أسقفيات مصر وقد ترهب فى الدير المذكور الناسك القديس العالم أيسيذروس الفرمى وهو من مواليد الاسكندرية، وأصبح رئيسا للدير وتنيح فيه عام ٤٤٩ ميلادية. ومن نفس الدير أرسل منه الاف من رسائلة المشهورة الى ملوك وبطاركة وأساقفة وولاه وعظماء وأغنياء عصره تارة يذكرهم فيها بمبادئ الاداب القومية وتارة مؤنبا أياهم ومقوما أعوجاجهم وحينا مرشدا ومعزيا ولذلك كانوا يطلقون عليه «معلم المسكونة».

ومع أنه كان راهبا بسيطا فى دير بسيط بعيدا عن مراكز السلطة الدينية والزمنية لكن كان صوته مسموعا جداً لاعند أكابر مصر فحسب بل فى أنحاء العالم الاخرى من المسكونة وهو قاطن فى قلايته فى ذلك الدير لا يخشى من أن يقرع فى رسائلة عند الضرورة بطريركى عصره وهما الانبا توفيلس والانبا كيرلس لعيوبهما وسوء تصرفهما رغما من صلة القرابة التى كان تربطه بهما ويذكر أنه عندما انتشر خبر وفاة الانبا انطونيوس الكبير فى عام ٣٥٦ ميلادبية وبلغ النبأ الى تلميذه القديس هلاريون مؤسس الرهبنة فى الشام قام من ديره بجوار مدينة غزة بصحبة أربعين راهب وساروا الى جبل القلزم ليقوموا بواجب العزاء نحو ذلك الراحل العظيم معلمهم وكوكب البرية. فمروا فى طريقهم على مدينة الفرما واستراحوا فى ذلك الدير ثم استانفوا السير الى جبل القلزم. وليس هناك من المصادر ما يدلنا على مصير الدير المذكور بعد نياح مؤسسة القديس أيسيذروس وكم من الزمان ظل قائما، الا أنه مما لا يدعو مجالا الى الشك فى زوال هذا الدير بعد عام ١١١٨ للميلاد حيث أستولى «بودين الاول» ملك الفرنجة

على الفرما وأحرقها جنودة كما جاء فيما ورد بكتاب أبى المكارم «ورقة ٥٨» ولم تقم للمدينة قائمة بعد ذلك. وقد كان بالفرما أدير ة أخرى عديدة وبيع وكان مصيرها الخراب على يد الفرس والعرب.

دير اتريب:.

كان قديما ديرا بمدينة أتريب عاصمة القليوبية وكانت هذه المدينة تقع على الضفة الشرقية للنيل «الفرع الدمياطى» بالقرب من بنها العسل حاليا وشمال شرقى منها وقد أشتهر هذه الدير فى التاريخ المسيحى لمصر بسبب أعجوبة كانت تحدث فى كنيسة الدير من كل عام خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. وعرفت هذه الاعجوبة بأعجوبة السيدة العذراء بكنيسة مدينة أتريب فى أيام خلافة المأمون «٨١٣ /٨٣٣ ميلادية» ومن هذه الاعجوبة ان حمامة بيضاء كانت تنزل من مكان مجهول وتأتى فى ذلك الدير بكنيستة فى يوم ٢١ بؤونة وهذا اليوم يوافق عيد العذراء ثم تدخل المذبح ثم تغيب عن النظر الى مثل هذا اليوم من السنة التالية . وتدرجت هذه الاعجوبة من العجائب المعروفة باسم «مجموعة الاثنين والسبعين أعجوبة للعذراء مريم» وهى محفوظة باللغة العربية والحبشية وكثير من اللغات الاخرى فى مخطوطات عديدة ونشرت فى مؤلفين «ميامر وعجائب السيدة العذراء مريم لمجموعة من أقوال آباء الكنيسة القبطية الارثوكسية طبع على نفقة جرجس حنين «مصر ١٦١٩ للشهداء يوافق ١٩٠٢ ميلادية».

وقد نوة المؤرخون الشابوشتى فى «كتاب الديارات » وياقوت الحموى فى كتابة «معجم البلدان» والقزوينى فى مؤلفه «آثار البلدان» وكذلك أبو المكارم فى كتاب « كنائس وديارات مصر» الى الدير المذكور كما ذكره المقريزى فى كتابة «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والاثار» ٦٢ فيقول «أن الدير قد تلاشى فى أيامه حتى لم يبق به الاثلاثة من الرهبان لكن الشعب والزائرين يجتمعون فى عيده ولا يمكننا تحديد تاريخ تأسيس هذا الدير أنما يرجح أن يكون قديم العهد أذ أن أتريب كانت أسقفية قبل سنة ٣٢٥ وقد قامت البطريركية القبطية مع بعض المهتمين بالاثار القبطية بأجراء مجسات وحفائر فى تلك المنطقة وكشفت عن بقايا من قطع الفخار وبعض التيجان الرخامية وربما اذا توسعت اللجنة الاثرية فى حفائرها قد تصل الى أشياء هامة تميط اللثام عن غوامض الدير المذكور وتاريخة وخصوصاً أن ما ذكر حسب

الوصف الوارد فى ميمر أعجوبة كنيسة أتريب أنها كانت عظيمة الاتساع ومزدانة بكثير من أعمدة الرخام الابيض وبأبدع الزخارف.

دير سيرياقوس أو دير أبى هور،

سمي بدير سرياقوس لوقوعة بجوار بلدة سرياقوس الواقعة على بعد ١٧ كيلو متر شمال شرق القاهرة بمركز شبين القناطر بمحافظة القليوبية وسمى بدير أبى هور لانه شيد على أسم القديس أبا هور من سرياقوس وأستشهد فى أيام دقلديانوس بمدينة «أنصنا» فى اليوم الثانى عشر من شهر أبيب . وقد تناول خمسة من المؤرخين الكلام عن الدير المذكور ووصفوه وبمقارنة وصف الشابوشتى لهذا الدير مع وصف المقريزى يتبين أنه كان فى أوج عمرانه فى القرن العاشر الميلادى وأضمحل فى القرن الخامس عشر. وكانت لهذا الدير شهره عجيبة فى نوعها ـ وجدير بنا أن نذكر هنا وصف الشابوشتى له. «وهذه البيعة بسرياقوس من أعمال مصر، عامرة كثيرة الرهبان لها أعياد يقصدها الناس. وفيها على ما يذكر من أهلها أعجوبة وهى أن من كانت بها خنازير [١] يقصد هذا الموضع ليعالج به، فيأخذه رئيس الموضع ويأتيه بخنزير فيرسله على موضع الوجع فيأكل الخنزير الذى فية لايتعدى ذلك الموضع، فاذا تنظف الموضع زر علية من رماد خنزير فعل مثل هذا الفعل من قبل ومن زيت قنديل البيعة فيبرأ ثم يأخذ الخنزير فيذبح ويحرق ويعد رمادا لمثل هذا الحال.

ولا يختلف ياقوت والمقريزى فى وصفهما هذا الدير من حيث المعانى وختم المقريزى وصفه بهذه الملاحظة : وهو «أعنى الدير الى الان كذلك كما ذكروه» ثم قال : «ولهذه البيعة دخل عظيم لمن يبرأ من هذه العلة، وفيها خلق من النصارى» أما أبن فضل الله العمرى فى كتابة «مسالك الابصار فى ممالك الامصار» فتكلم عن مظاهر هذا الدير كقوله «بيعة أبى هور ـ وهى سرياقوس عامرة برهبانها مثرية بفضة قناديلها وذهب صلبانها كثيرة القلالى، مذهبة بالوقود جنح الليالى ولها أعياد مقصودة الاوقات منتظر الميقات». ولا نعرف متى أندثر هذا الدير وموقعه تماماً بالنسبة الى موقع القرية سرياقوس حاليا . وليست له بقايا.

---

(١) مرض من الامراض الخطيرة وهو عبارة عن عقد تظهر فى الرقبة أو فى الابط الحفر الاوروبية «خلف الورك» وهو مرض درنى تلتهب فيه العقد وتتضخم وتتجبس وتتقيح وهو معد عندما يتقيح وهو سل. وهذا من تشخيص المرحوم العالم الدكتور جورجى بك صبحى.

دير جميانه المشهور بدير أو كنيسة الست جميانة «أو دميانة»:

يقع فى وادى الزعفران فى منطقة البرارى على مسيرة ساعتين بحرى بلدة بلقاس وقد ذكرة المقريزى ص ٦٥ بقوله وهو على اسم بوجرج قريب من دير العسكر على ثلاثة ساعات منه، وكل ما وصل اليه علمنا يشهد بأن الدير أو الكنيسة المقامة بوادى السبسبان بالزعفرانة كانت على أسم تلك الشهيدة وقائمة بقرب المكان الذى عاشت فيه واستشهدت فية وتوجد بين المخطوطات العربية المسيحية سيرة «ميمر» باسم القديسة جميانة باللغة العربية تحتوى على خبر حياتها واستشهادها برفقة أربعين عذراء بوادى السيسبان بالزعفرانة فى البرارى فى عهد دقلاديانوس الكافر فى أواخر القرن الثالث الميلادى ووضع هذه السيرة الانبا يؤانس أسقف البرلس عما وجده بقلم «خرستودولس» تلميذ القديس يوليوس الاقفهصى كاتب الشهداء فى القرن السادس للميلاد.

أما القديسة دميانة فكانت الابنة الوحيدة لمرقس والى منطقة البرلس بأقليم الغربية. كانت شابة فاتنة الجمال ولما بلغت الخامسة عشر من عمرها رغبت فى حياة التبتل فشيد لها والدها قصرا خاصا اعتزلت فيه وأعزل معها أربعون من العذارى القبطيات من بنات أعيان الولاية ليمارسن حياة النسك معها. وحدث أن والدها عملا بأوامر دقلديانوس أنه أرغم أن يبخر للاوثان. فلما سمعت أبنته بذلك هالها الامر وأظهرت له خطأة وشجعته على التوبة فتاب وأعترف بأيمانة بالمسيح أمام الامبراطور فكان جزاؤه القتل. أما هى فأرسل اليها القيصر قائدا ومعه فرقة من الجنود ليحملها على أنكار أيمانها والا أعدمها. فانتهرت القائد وسخرت بأمر القيصر وأحتملت كل صنوف القسوة والعذاب بصبر. وأنتهى الامر بقطع رأسها ورؤوس العذارى الاربعين اللائى آمن بسببها وذلك فى أوائل القرن الرابع الميلادى.

ثم جمع القديس يوليوس الاقفهى (من أقفهى مركز الفشن) الاجساد ودفنها بالاكرام ودون سيرتهن. وأمر قسطنطين الكبير بتشييد كنيسة فوق القبر ودشنها البابا الكسندروس الاسكندرى فى ١٢ بشنس ورسم لها أسقفا وكهنة ولا يزال لها دير باسمها على مسافة ١٢ كيلو متر شمالى بلقاس ويؤمة القبط فى عيدها سنويا فى ١٢ بشنس.

دير سقارة[١] :ـ

لم تشتهر تلك المنطقة بما خلفتة من أروع الاثار التاريخية منذ فجر العصر المصرى القديم فحسب بل ظلت لها شهرتها أيضا منذ العصر المسيحى المبكر. فقد أنشأ فيها الرهبان المصريون ديرا كان يطلق عليه دير الانبا أرميا وهو فى الغالب أسم المؤسس له ويرجع تاريخة الى القرن السادس الميلادى. وقد تناوله الدمار والخراب كما حدث لغيره من الاديرة حوالى منتصف القرن الثامن. وقام بالحفائر فيه العالم الاثرى «كويبل[٢] Quibeli» عـام ١٩٠٧ حيث كشف عن أنقاض كنيسة رائعة برهن ما وجد من آثارها من أعمدة وتيجان وافاريز باهرة النقوش من الحجر الجيرى وبعض القبلات ذات الزخارف البالغة الدقة والكوات المزينة بصور الفرسكات بالألوان البديعة وتبرهن بجدارة على مقدار مابلغة فن المعمار والنحت الدقيق من المهارة والبراعة ماينتزع الاعجاب. وقد نقلت هذه الاثار للاحتفاظ بها فى المتحف القبطى ومنعا من أن تمتد اليها الايدى العابثة وتزدان بها أهم قاعات فن النحت بالمتحف المذكور الان.

دير القصير بطرة:.

ويعرف بدير البغل. وقد تكلم عنه المؤرخ تقى الدين المقريزى صفحة ٥٠٢ فذكر أن الحاكم بأمر الله أمر بهدمه ونهب ما فيه . وفيه أقام القديس أرسانيوس الذى طلب منه الامبراطور أركاديوس تعليم أبنائه مدة . وهو مقام على أعلى الجبل وبه بئر منقورة فى الجبل وهو دير حسن محكم البناء. وفى هيكله صورة مريم فى لوح والناس يقصدون الموضع للنظر الى هذه الصورة.

---

(١) ذكر دير سقارة المؤرخ القبطى يوحنا أسقف نقيوس فى مؤلفة التاريخى:

H. Zotenberg. Chronique de Jean. eveque de Nikiou, P. 488;

J. Maspero et Gaston Wiet, Materiaux. P. 260

عندما تكلم عن «أنستاسيوس» الذى علم له فى هذا الدير أنه سيكون أمبراطور على بيزانس عام ٤٩١ /٥١٨م. وليس هناك معلومات أكثر من ذلك عن ذلك الدير ولا بقايا له.

(٢) أخرج كويبل من أنقاض حفائر دير سقارة هذا كثيرا من الاثار القيمة التى تكفى لتجهيز متحف كامل والمنطقة كانت عامرة بالإديرة والكنائس الفاخرة التى شيدها المسيحيون فيها منذ القرن السادس للميلاد.

وفى أعلاة غرفة بناها «أبو الجيش خماروية بن أحمد بن طولون» ولها أربع طاقات الى أربع جهات وكان كثير التردد بهذا الدير معجبا بالصورة التى فيه يستحسنها ويشرب على النظر اليها. وهو مطل على القرية المعروفة باسم شهران وعلى الصحراء وعلى البحر [النيل]. وهى قرية كيرة عامرة وهو أيضا يعرف بدير شهران[1]. ودير القصير هذا هو أحد الديارات الهامة.

ويظهر أن التسمية بدير البغل لانه كان الدابة التى أستخدمها لنقل الماء من العين الى أعلى الدير المذكور.

أديرة حلوان:

حلوان من البلدان التى تحيط بها الصحراء والتلال فى أغلب جهاتها فكانت من المناطق التى تلجأ اليها النسك والرهبان لبعدها عن مباهج المدن وضجيج الحياة حيث يجدون الاماكن اللائقة لممارسة معيشة التقشف والزهد ولابد أن تكون قد عمرت كغيرها من البلاد المصرية الاخرى بقلالى الرهبان وبعض الاديرة المصرية منذ العصور المسيحية الاولى.

وقد أثبتت الحفائر التى قام بها الاستاذ زكى يوسف سعد فى حلوان عن وجود دير كبير والدليل على عظم أتساعة أنه كان يتكون من ست وستين حجرة موزعة على جوانبه . الاربعة . وفى الجهة القبلية منه كنيسة متوسطة الحجم. وقد قسم فناء الدير الى أقسام عدة. ففى الجهة البحرية منه أثار أشجار وهى غالبا كانت بمثابة الحديقة الخاصة بالدير. ومازالت بعض القنوات التى كانت تستعمل لريها باقية وهى مبنية بالطوب الاحمر. وفى الجهة القبلية مقبرة الدير لدفن الموتى من الرهبان. وقد عثر مع أحدى الجثث على خاتم من الفضة كتب على قاعدتة المستديرة اسم صاحبة ويدعى «قزمان». ويظهر أنه كان كبير رهبان الدير لانفراد مقبرته بالفخامة والاتساع . ويظهر ان تاريخ الدير يرجع إلى القرن السادس بسبب ما عثر عليه فيه من أوانى الفخار والقطع الزجاجية من العصر المذكور.

(١) يقال أن «الانبا برسوم العريان» أنفرد بدير شهران بالمعصرة فى أواخر حياتة حيث مارس فيه أعمال التقوى والبر حتى وفاتة ولذا دعى دير شهران بدير برسوم العريان اليوم ويقال أن جسدة أودع بكنيسة الدير المذكور.

وقد ذكر المؤرخان «الشابوشتى وأبو صالح» أن الوالى «عبد العزيز أبن مروان» أقام عند حضورة الى حلوان فى ذلك الدير ثم أمر بعد ذلك ببناء القصر للاقامة فى حلوان نهائيا. وقد ظل الدير زاهرا وعامرا الى ما بعد عام ١٥٢ هجرية بسبب العثور على قطع من العملة الذهبية والبرنزية يبدأ تاريخها من عام ٧٩ الى عام ١٥٧ هجرية.

وقد ورد فى تاريخ المؤرخ عبدالحكم أنه عندما تفشى الطاعون فى الفسطاط ترك الوالى عبدالعزيز بن مروان المدينة وأقام فى حلوان فى الصحراء عند مكان يدعى «أبو قرقورة[١]» حيث حفر عينا للماء ليروى منها أشجار النخيل التى غرسها فى حلوان.

كما يقول المؤرخ «الكندى» أنتشر وباء الطاعون فى مصر عام ٧٠هـ أى ٦٩٠ ميلادية. فترك الوالى عبدالعزيز بن مروان المدينة وسار الى الشرق وعندما وافقة المكان بقى فيه جندة هناك وكذلك الحرس والشرط. وبنى هناك مساجد وقصورا وعمر الاقليم بالناس وغرس النخيل والكروم الذى تغنى بها الشعراء. (ص ١٨/١٦ من كتاب الحفائر الملكية بحلوان تأليف سعد زكى يوسف).

هذا وقد وجد مدير الحفائر الملكية أيضا بجوار منطقة الحفائر التى ترجع مقابرها الى الاسرتين الاولى والثانية الفرعونية على أطلال دير قديم آخر وهو أصغر حجما من الدير السابق. وهذا دليل على أن المنطقة أجتذبت النساك للاقامة فيها.

صفحة ناصعة عن آداب وتقاليد الرهبان

للرهبان عادات وتقاليد تعد من الاداب النبيلة الفاضلة والتى تعبر عن صفاء النفس والقناعة فمنها على سبيل المثال أنه أذا رغب أحد الرهبان الدخول الى قلاية زميل له من الرهبان طرق بابه وهو يقول بالقبطية عبارة «أريد أغابى» بمعنى أصنع محبة أى تفضل وأفتح الباب. وهى تحية مصحوبة بالاستئذان. فأذا رد عليه «أغابى» دخل اليه. وأن لم يرد فينصرف الى حال سبيله. وكانت من عادة الراهب أن يتحتم عليه أن يمضى أيام حياتة داخل الدير

(١) «أبو» تحريف لكلمة الاب أو الانبا وهو الرئيس الروحى للرهبان وقرقورة تحريف لاسم صاحب الدير المذكور وهو جربجوريوس. وقد وجدت تلك الاسماء مذكورة مرارا بين كثير من الرهبان والقديسين.

حتى جاء عن لسان القديس أنطونيوس ومن عباراته المأثورة قوله «كما يموت السمك أذا خرج من الماء كذلك يموت الراهب اذا أبطاء خارج قلايتة» . وقد حدثنا تاريخ الرهبنة عن كثير من الاباء الرهبان الذين التحقو ا بالدير ظلوا بداخلة ولم يخرجوا منه حتى رحيلهم من هذه الدنيا. كما عرف عن بعضهم أنهم حتى مقابلة الاهل رفضوها بتاتا مثل تادريس تلميذ الانبا باخوميوس رفض أن يقابل أمة وكذلك أرشيليدس لم تقابلة أمه رغم الحاحها الشديد.

ومن قوانين الرهبنة أن يقيم الراهب فى ديرة ولا يبرحة الا اذا أنتدبة رئيسه ويحدث ذلك بعد ثلاث سنوات من رهبنتة . ويجب عدم تعيين الكهنة الرهبان خداما فى كنائس العالم.ويشترط فى الراهب أن يصرف جميع عمره فى الصوم والصلاة وكذلك فى الاشغال وتكرار لذكر الله وتلاوة لكتبة وتفهما لمعانيها وقراءة فى سير القديسين للتشبة بمحبية وتفكراً فى كمال صفاتة وعظائم مبدعاتة وحسن نظام مخلوقاتة . ومن الاعمال التى يشتغل بها الرهبان فى الدير هى الخدمات الكنيسة ـ العبادات النهارية والليلية. والقيام بتأدية ما يطلب منهم من خدمات للدير ويكلفون بها من رئيس الدير- والعناية بالمرضى من الرهبان.

ويجب أن يكون جماعة الاخوة مدمنين الصلوة والصوم وقراءة الكتب المقدسة كما يأمرهم رئيس الدير ويتناوبوا فى الخدمة جمعة بجمعة داخل الكنيسة وخارجها فى سائر الخدمات الكهنوتية والجسمانية. وأن يكونوا ذوى أخلاق جميلة بعضهم من بعض ومع كل واحد ولا يسعوا فى الاسواق والطرق سعياً بغير وقار ولا يناطق بعضهم البعض بالهزل والمرح ومتضاحكين متلاعبين بل يلزمون الصمت والوقار عند المخالفين لدينهم . أما تقدير الطعام والشراب فأن كان أكثر الدير فلاحين فليطعموا فى الاسبوع الاول آخر السادسة والاخرى آخر النهار وأن لم يكونوا فلاحين فليقنعوا بمرة واحدة أما فى التاسعة وأما فى آخر النهار.

وكما قال القديس باسيليوس فى نسكياتة على أخوة المجمع أن يكونوا كنفس واحدة ورأى واحد وأجسادهم وأن كانت كثيرة فقد صارت جملتها آلة واحدة مجتمعة لتلك النفس الواحدة المجتمعة برباط المحبة وكل واحد منهم لا يعيش لذاته وحده بلى بمرضاه الله. وأن يتجملوا بكل ما يزينة وأن لا يجاوروا النساء ولا يأكلوا اللحم فى أديرتهم ولا فى غيرها ولا يتزينوا ولا يتطيبوا ويشدون أوساطهم بمناطق من جلد غلاظ وأن تكون كسوتهم الصوف

الخشن لباس الزهد وكذلك شكلهم في جميع أمورهم ويتجنبون زى العلمانيين وعاداتهم كالاباء الذين أخذ عنهم أهل الفضل والخير وكانوا رهبانا بالحقيقة يقدرون في أنفسهم أنهم موات. وكانت توقع عقوبات على كل من خالف من الرهبان قانون الرهبنة أو أرتكب ذنبا.

ومن النشرات القيمة التى نشرها الاستاذ «لفور Lefort» باللغات الاجنبية وترجمها البعض من الفرنسية على سبيل المثال ما يبين ما كانت علية الرهبنة وآدابها من حسن النظام ودقة التنفيذ فيما يلى:

«أى راهب ذم أخاه فليضرب مائة مطانوة فى كل يوم»

«أى راهب خلع منطقتة ونام بدونها يفرز من الكنيسة مدة ٤٠ يوما».

«أى راهب أكل سرا وشرب نبيذا فليفرز من الكنيسة ٥٠يوما».

أى راهب ضرب راهبا آخر فليعمل ٤١ مطانوة ويأكل خبزا جافا بدون آدام»

«أى راهب حلف ولا يكون كلامه نعم نعم لا لا فليخرج من الشركة وقتا ويضرب مائة مطانوة ويأكل الخبز الجاف خمسة أيام».

«أى راهب أخذ كتابا ولم يحافظ عليه واهمله فليضرب ٥٠ مطانوة»

ويحتم قانون الرهبنة أن لاينام الراهب وهو حاقد على أخيه بل قبل أن ينام يتوجه الى أخيه فى قلايتة ويضرب له مطانوة ويقول له «أخطأت فسامحنى» عملا يقول الرسول بولس أغضبوا ولا تخطئوا . لا تغرب الشمس على غضبكم ولا تجعلوا لا بليس موضعا. «أف ٤ : ٢٧/٢٦».

ولا تزال هذه العادة باقية للان. كذلك ذكر فى كتاب «المجموع الصفوى» المشار اليه بالباب العاشر أيضا ما يلزم على الراهب اتباعة ما ملخصة:

«ترك الزواج وترك الاقرباء بالجسد والقنايا والشهوات العالمية والمقام فى البرية ولباس

الصوف وشد الوسط بسير وترك المآكل اللحمية دائما وما لا تدعو الضرورة اليه من الخمر والاقتصاد في الاغذية على ما لا تقوم الحياة الجسدانية بغيره».

«رئيس الدير يتحتم أن يكون قد نشأ فيه وعرف سننة وعلم منه جهاد في الرهبنة وليس جاهل ولا خفيف الرأى ولم تعرف له هفوة في ديره ولا خارجا عنه ويكون حسن الثناء ماهرا عالما بالقوانين الشرعية يفهم مايتنازع فيه ويقوم بالرئاسة باجتهاد وكان مرضيا من رئيسة فأذا شهدت له جماعة الرهبان بذلك من غير مراء يكون بينهم فى أمره فليجعل رئيسا» . وينبغى أن يدبر كل واحد بما يليق به مصنف الحاجة ومقدارها بالنسبة الى أختلاف إحوالهم بحسب التقدم والتأخر فى أعمارهم ، والزيادة والنقص فى شغالهم والتعب والراحة فى صنائعهم والعظمة والصغر في هيئات ابدانهم والقرب والبعد من حالات عاداتهم والصحة والمرض في أمزجتهم . وينبغى أن تكون سيرته كاملة فى جميع وصايا الله لكيلا يظن أحد أنه غير ممكن أن تقام وصايا الله وينبغى أن يكون شكله وعمله اذا كان ساكنا يقنعهم فى التعليم أكثر من كلامه» هذه لمحة لبعض الاداب والتقاليد والقوانين التى يتحتم على الرهبان الاقتداء بها والمحافظة عليها طوال حياتهم وأنها نماذج من المثل الانسانية النبيلة والخلق الفاضل القويم حقا.

الرهبنة عند النساء:

ليس من الانصاف أن نتكلم عن قيام الرهبنة عند الرجال دون أن نتناولها بالحديث عند النساء خصوصا وقد ورد فى أقوال كثير من كبار الرحالة من العلماء والمؤرخين ما يؤيد أن منهن من أظهر من ضرب المثل العليا الانسانية والبطولة فى الزهد والتبتل وأنكار الذات ما لم يقم به الا أشجع الافاضل من زعماء الرهبان.

وفى الواقع أن النساكة كانت معروفة لدى النساء فى العصور التى سبقت ظهور المسيحية فى مصر ويستدل على ذلك من وجود اللاجئات فى المعابد المصرية على غرار ما سمعناه عن وجدو لاجئات معبد سرابيس وغيرهن من لاجئات معابد آمون فى مدينة طيبة. غير أن البحث عن بدء الحياة النسكية بين النساء فى القرون الاولى للمسيحية مشوب بالابهام والغموض، وليس هناك من الادلة ما يشير اليه كتاب العهد الجديد عن قيام الكنيسة بالانفاق على الارامل

اللائى أشتهرن بحسن السيرة واللواتى طلب منهن أن يصبحن تحت أشراف الكنيسة فى بيوت خاصة بالعذارى . وكانت تلك البيوت تضم بلا شك عددا من العذارى اللواتى فضلن عيشة البتولية والقيام بخدمة الكرازة.

ويلاحظ أن أولئك العذارى لم يعشن فى بادئ الامر حياة رهبانية أنعزالية بل عشن فى بيوتهن ومن خالت فى نفسها القدرة على التبتل وممارسة حياة التنسك أعتزلت عن سائر زميلاتها فى نفس المنزل ثم أنتقلت بعد ذلك الى بيوت العذارى لممارسة حياة النسك. وفى أحدى تلك المنازل التى حوت العذارى اودع الانبا أنطونيوس مؤسس الرهبنة الكبير أخته قبل شروعة فى الانعزال فى الصحراء ومباشرتة للرهبنة. وفعل كذلك الانبا ديمتريوس الكرام وهو البابا الثانى عشر فى عداد البطاركة «١٨٨ / ٢٣٠م» أذ أودع زوجته فى تلك المنازل وكان قد تعهد معها عند زواجه على معيشة البتولية وحذأ حذوه أيضا الانبا آمون مؤسس الرهبنة فى نيتريا بوادى النطرون أذ الحق زوجته كذلك فى أحدى تلك المنازل ومن ذلك يمكننا أن نتبين أن بدء «الديرية النسائية» كانت على أغلب الاحتمالات أسبق الى «ديرية الرجال».

وقد أنتشرت بيوت العذارى فى البلاد المصرية خلال القرن الثالث الميلادى وكثر ظهور المبشرات والواعظات اللواتى تتلمذن على أيدى معلمى ذلك العصر، ومنهن من قاسى وتحمل الكثير من صنوف القسوة والعذاب والاضطهاد حتى وصل فى نهاية الامر الى الاعدام وعلى الاخص فى عهد الطغيان الرومانى وعلى سبيل المثال ما حدث للقديسة دميانة وتابعتها الشهيدة اربسيما وغير هن من العذارى كثيرات حتى رفعتهن الكنيسة الى مرتبة الشهداء ويذكر تاريخهن سنويا فى أعياء استشهادهن .

أما عن تاريخ القديسة بربارة مثلا وكانت من مشاهير الشهيدات فيروى أنها كانت فتاة عذراء رائعة الحسن والجمال وولدت فى أوائل القرن الثالث للميلاد فى أحدى مدن آسيا الصغرى من أب ثرى وغنى وقد تلقت علومها على يد العالم اللاهوتى العظيم «أوريجانوس» المصرى وأعتنقت الديانة المسيحية ورفضت الزواج ممن تقدم لها من أبناء الاسر العريقة وآثرت أن تكرس حياتها طاهرة لخدمة الله. وقد حاول والدها أن يقصيها عن عزمها وأستعمل معها من الوان القسوة والتعذيب ما لا يطاق لتقلع عن غيها فلم يزدها ذلك الا أستمساكا بما

قر عليه رأيها . واخيرا شكا والدها أمرها الى الوالى الرومانى وقتئذ وهو «مرقيان» واتفق معه على زيادة تعذيبها الا أنها احتملت كل أنواع العذاب بصبر عجيب واضطر الوالى فى النهاية الى التخلص منها بقتلها هى وتابعتها القديسة «يوليانا» وقد شيدت لها كنيسة كرست على أسمها بمصر القديمة منذ القرن السادس الميلادى غالباً وقد وصفها المؤرخ تقى الدين المقريزى فى عصره وقال أنها كانت أجمل كنائس القاهرة وقيل أيضا أنه كان بقربها دير للراهبات كانت تلجأ اليه العذارى اللائى رغبن فى تكريس حياتهن لله وخصصن أنفسهن لحياة الرهبنة.

أما عن تطور حياة النسك عند العذارى الى حياة الشركة الديرية فقد أستقرت وثبتت عندما أسس الانبا باخوميوس لاخته ديرا فى الصعيد على مقربة من مدينة اخميم وكان يضم أربعمائة من العذارى . ثم أتبعه بدير آخر عندما زادت الاعداد منهن . وقد سن لهذين الديرين قانونا سار علية العذارى اللائى التحقن بها ثم أنتشرت بعد ذلك أديرة النساء فى جميع أنحاء القطر ثم أنتقل هذا النظام أيضا الى الخارج وأنتشر فى كثير من ممالك أوروبا وكذلك أقام الانبا شنودة ديرا للنساء تحت رئاستة وكان به من الراهبات عددا هائلا بلغ نحو من ١٨٠٠ راهبة.

الرحالة بالاديوس ومشاهداته لا ديرة النساء:

وقد ذكر الاب «بلاديوس» فى اواخر القرن الرابع الميلادى وصفا طريفا لاحد اديرة النساء التى زارها فى منطقة «أتريب قرب سوهاج . وقد شيده أحد الاغنياء وكان يشرف عليه أحد شيوخ الرهبان الذى أقام فيه حجرة عالية لا تتصل بالراهبات فى داخل الدير وكان ينفتح بابها لخارج الدير. ويظهر أن مهمة ذلك الشيخ هى مراقبتهن أحيانا ثم تزويدهن بالتعاليم والمواعظ التى كان يلقيها عليهن من مكانه الرفيع ثم ذكر أيضا أنه كان هناك فى مدينة «أنتينوى» ببلدة بويط قرب مدينة ديروط وتسمى اليوم بلدة الشيخ عبادة قرب الروضة شمال ملوى حوالى أثنى عشر ديرا للراهبات . وكانت تشرف على أحدى هذه الاديرة الام «ناليس» التى قيل عنها أنها لم تجد ما يدعو للاحتفاظ بمفتاح الدير لديها لمنع الراهبات من الخروج. وهذا دليل على أن النظام الرهبانى لديها لم يستدع وجود أى نوع من التزمت فى معاملة الراهبات.

أما الرئيسة المذكورة وقد قضت فى النسك ثمانين عاما وكانت محبوبة جدا بين الراهبات وقد قامت معها راهبة تدعى «تاؤور» مدة ثلاثين عاماً. ثم ذكر أحد الاثرياء ويدعى الياس أنه أقام ديرا للراهبات بجهة «أتريب» وتولى الانفاق عليه من مالة الخاص. وكذلك ذكر بعض المؤرخين وجود اديرة عديدة للراهبات فى اقليم «أكسيرنكوس» أى « البهنسة» مما يؤيد أنتشار تلك الاديرة لكثرة أقبال النساء والعذارى على حياة الزهد والعبادة وقد تكلم بلاديوس عن الفضائل والزهد والتقشف الذى ظهر من كثير منهن. كذلك روى عن الاخت «أو لمبياس» وما قامت به من أعمال البر وتوزيع ثروتها على الفقراء ووهبت حللها الحريرية للمذبح ولبست الخرق البالية، وكانت تقضى معظم وقتها فى الصلاة والتعبد وتقوم بعمل الخبز والقربان ولا تأكل اللحم بتاتا وتكتفى بالخبز الجاف المغموس فى الخل والخضر المطبوخة بالزيت أيام العيد.

أنتشار أديرة الراهبات غرب مدينة الاسكندرية

جاء فى تاريخ البطاركة ما يبين أنتشار الاديرة منذ النصف الثانى من القرن السادس الميلادى غرب الاسكندرية حتى وصلت الى ٦٠٠ دير عامرة بالرهبان والراهبات مثل خلايا النحل كما نوه كتاب السنكسار أيضا مراراً عن وجود أديرة النساء بظاهر الاسكندرية ولا سيما الجهة الغربية منها فيما بين القرن الخامس والثامن الميلادى، وروى أن الناسكة القديسة «مريم» دخلت الى أحدى أديرة العذارى بظاهر الاسكندرية ولبست الثوب المقدس ويقال أيضا أن الانبا بقطر رئيس دير الزجاج فى المنطقة أيضا سلم أم القديس تاوفيلس الراهب الى دير الراهبات هناك كما جاء فى «كتاب السنكسار تحت ١٣ طوبة».

شدة التقشف والميل للعزلة بين الراهبات

ويظهر أن النظام فى أديرة الراهبات لم يمنع من أعتزال الكثير منهن الى حياة الرهبنة الانفرادية. فقد تدرج بعض الراهبات فى حياة التقشف الشديد حتى أمكن بعضهن أن يمارسن عيشة الرهبان الخشنة القاسية ويلجأن الى سكنى البرارى والكهوف والقبور والصحارى وكن يتنكرن فى زى الرهبان ولم يعرف أنهن من الراهبات الابعد وفاتهن وعند تجهيز عملية

الدفن. وعلى سبيل ذلك الراهبة «أسكندرة» التي حبست نفسها خارج مدينة الاسكندرية عشر سنوات لا تكلم فيها أنسيا وتأخذ طعامها من فتحة صغيرة كما عثر الرهبان على راهبات منفردات على مقربة من صحراء نيتيريا في وادى النطرون وكان من بينهن أوربيات رغبن في حياة العزلة والتبتل مثل الراهبة «ميلانيا» التي جاءت الى وادى النطرون في أواخر القرن الرابع الميلادى وقامت بمحادثات مع رهبانة ثم انتقلت الى فلسطين لتمارس حياة نسكية جديدة.

وقد حوى وادى النطرون أيضا راهبات مقنعات كن يلبسن زيّ الرجال مثل الراهبة «ليديا» التي يقال عنها أنها كانت من مشاهير الاديبات وجاءت من منطقة تسالونيكي ببلاد اليونان وتزيت بزى الرهبان وزارت مقار السكندرى واقامت مدة عام في أحدى القلالي في «سيليا» وكانت تقابل القديس المذكور كأحد الرهبان كل أسبوع. ومن الراهبات المنفردات الراهبة «أبولينارية» أبنة الامبراطور «أنتيموس» الكبير وقد فضلت حياة التبتل ورفضت الزواج وسافرت في قافلة للحج في بيت المقدس ومنها الى ا لاسكندرية ولبست رداء الرهبان ثم ذهبت الى برية الاسقيط بوادى النطرون وتسمت باسم الراهبة «دورثيوس» في زمن القديس مقار الكبير . وظلت تمارس النسك كأى راهب آخر ولم يعرف أمرها الا بعد وفاتها وتجهيزها للدفن. كما وجدت راهبات أخريات مقنعات أنتشرن بين رهبان وادى النطرون. بعضهن من تطورت معيشتهن الى نوع من الديرية ودخلن ديرا للنساء على مقربة من نيتريا أمثال الراهبتين بوتيوس وبوزبيت.

ومما يدل على تصميم الراهبات على التمسك بعيشة التبتل وعدم العودة الى الحياة العالمية ما ورد عن الراهبة «أفروسينا» التي سمت نفسها باسم «زبرجد» أنها رفضت الدخول لدير الراهبات الواقع بغرب الاسكندرية أذ قالت في نفسها مارددته : « فان أنا ذهبت الى دير النساء جاء والدى وأخذنى فيؤدبنى الى شهوات نفسه ولكن أن أنا أمضى الى ديارات الرهبان الرجال وأتزىّ بزى الرجال وأجعل نفسى خصى». وكذلك ذكر أحد الاباء القديسين من الرهبان كان يسير مع بعض الاخوة في البرية ذات يوم فسمعوا صوت أنين أنسان عند حافة الجبل فلما تتبعوه وعرفوا مصدره وجدوا مغارة بداخلها سيدة وقالت لهم عند سؤالهم أياها

أنها قاطنة فى ذلك المكان منذ مدة طويلة حوالى ثمانية وثلاثين عاماً - فكانت تعيش طوال تلك المدة على أكل العشب ولم تر أحداً حوالى الثمانية والثلاثين عاماً وأن الله أرسلهم ليدفنوها. وبعد ما فرغت من حديثها هذا أسلمت الروح، وهذا ما عرف صدفة عن بعض تلك الراهبات المقنعات. أما ما لم يعرف عن أمرهن من غيرهن من الراهبات فلابد وأن يكون عدداً كبيراً نظراً للغموض والتخفى الذى لازم حياتهن فى داخل تلك الصحارى الموحشة وقلاليها.

ومن ذلك يتضح أن النساء نافسن الرجال فى احتمال أقسى أنواع المعيشة النسكية كما ضربن من أمثلة البطولة والتضحية ما يقدم عليه أشجع الأبطال وجابهن كل ألوان التعذيب المرير وأهواله الوحشية بالفخر والترحاب وهانت عليهن أنفسهن وقدمنها فى النهاية كقرابين طاهرة فى سبيل التمسك بديانتهن رافضات كل الأمجاد الباطلة الزائفة فنلن أكاليل الطهر والخلود من رب المجد هناك فى أورشليم السمائية.

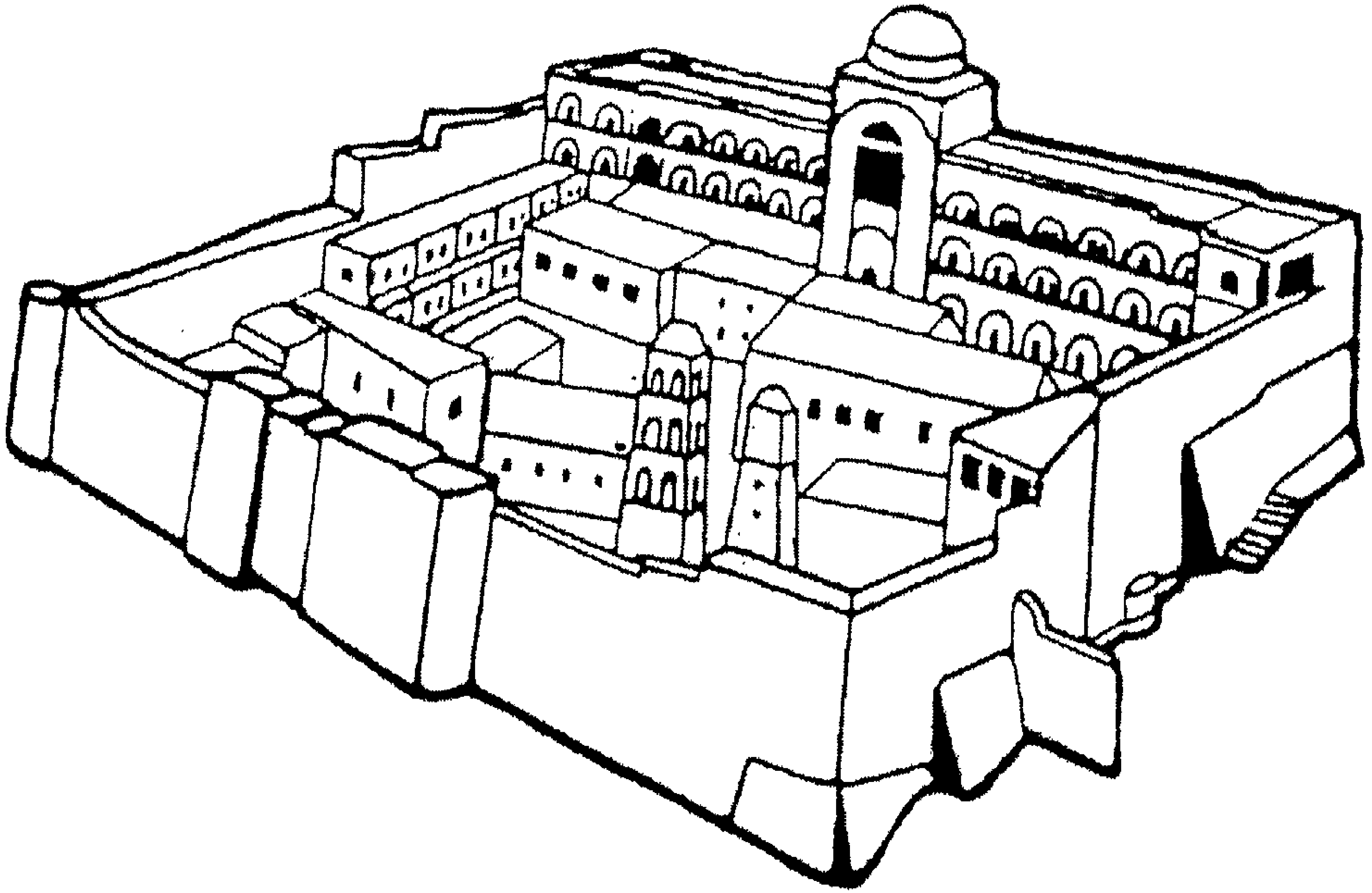
هذا وكان ازدهار أديرة العذارى منذ القرن الرابع وظلت زاهرة حتى القرن السابع أى بدأت فى نفس العصر الذى نشأت فيه وترعرعت فيه أديرة الرهبان وفى أماكن مجاورة لأديرتهم كلهم فرعان ثابتان من أصل شجرة واحدة سطعت أنوارها كاللآلئ وعمت البلاد جميعها، حتى أفاءت على المسكونة بأجمعها خلال الأجيال الغابرة بما فاض من غزير علومها وفنونها وتعاليمها وروحانياتها السامية فأخرجتها من الظلمات إلى النور. ثم انطفأت أديرة الراهبات مع نفس الزمن الذى انطوت وانمحت فيه أديرة الرهبان أيضاً وعفا عليها الزمن منذ العصور الوسطى.

منطقة سيناء (١) واهميتها فى النسك

فى قلب شبه جزيرة سيناء يقوم الدير المشهور المعروف باسم دير سانت كاترين شامخاً كالطود العظيم تحوطه هالة من المهابة والجلالة، قد أسبغت على المنطقة وديرها تلك الشهرة الفائقة، بل وامتاز بمكانة مرموقة فى البلاد المصرية وغيرها، وجعلت منه كعبة ذائعة الصيت

(١) «مفكات» هو الاسم المصرى القديم لمنطقة سيناء ومعناها الفيروز.

يؤمها الحجاج عامة من مشارق الارض ومغاربها ، ومن جميع الممالك على أختلاف اجناسها ومللها بقصد الزيارة ورؤية آثار المنطقة المقدسة وما تحملة من ذكريات دينية خالدة.



دير سانت كاترين

نساك مصر والتجاؤهم لمنطقة سيناء:.

أجمع المؤرخون على أن مصر تبوأت المكانة الاولى فى أعتناق الديانة المسيحية منذ ظهورها حوالى منتصف القرن الاول الميلادى تقريبا على يد الرسول مرقس، وقلما عانى شعب من شعوب الارض قاطبة من صنوف العذاب المرير والاضطهاد الوحشى مثلما قاسى قبط مصر فى أول الأمر على يد أباطرة الرومان لاعتناقهم تلك الديانة. وهذا دفعهم بطبيعة الحال الى التحول الى عيشه النسك والرهبنة منذ القرن الثانى والثالث للميلاد، وهرب الكثير منهم الى البرارى والقفار ومنهم الكثير من رحل الى منطقة شبة جزيرة سينا وسكنوا فى مغاورها قبل بناء الدير المذكور بأعوام عديدة ، وزخرت سيناء بالنساك من مصر وغيرها من ولايات

الامبراطورية الرومانية، وفضل كثير منهم البقاء حيث روى أن القديسة هيلانة والدة الامبراطور قسطنطين العظيم زارت ذلك المكان منذ عام ٣٣٦ للميلاد، وأمرت ببناء برجين فى المكان الذى بنى فيه الدير فيما بعد، بقصد حماية النساك من غارات البدو عليهم. ولم يمنع ذلك من تعرضهم لهجماتهم الوحشية المتكررة . ولم تكن زيارة القديسة هيلانة لهذا المكان المقدس هى الاولى من نوعها قبل أنشاد الدير المذكور ، بل روى أن القديسة «سيلفيا» أيضا ذهبت الى سيناء عام ٤٦٠ للميلاد ، وتركت وصفا طريفا لتلك الرحلة عند نزولها من الجبل حيث رأت كنيسة صغيرة وحولها قلالى النساك فى المنطقة المذكورة.

الامبراطور جوستينيان وتحصين أماكن النساك:

على أن حياة الرهبان لم تكن تخلو من الويلات والمصاعب اذا كثيرا ما كانوا يتعرضون لهجوم قبائل البدو ونهب أمتعتهم والتنكيل بهم وهدم مساكنهم وقلاليهم حتى بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية. وعلى ذلك قررالرهبان فيما بينهم على أنتداب وفد منهم للرحيل الى القسطنطينية لمقابلة الامبراطور جوستينيان حيث شكوا اليه حالهم وطلبوا منه أن يبنى لهم حصنا يضم شملهم ويحميهم من هجمات البدو فرق لحالهم وأستجاب الى ملتمسهم وبنى الدير الحالى عام ٥٤٥ للميلاد ثم بنى أيضا الكنيسة الكبرى على ذكرى وفاة الامبراطورة «تيودورا» زوجته. كما أرسل اليهم حامية من مائتى رجل بعائلاتهم. مائة من بلاد الروم ومثلها من مصر ثم أمر بمرتب من الحبوب يرسل اليهم سنويا من مصر لقوتهم وسكنوا بجوار الدير هذا. وقد تشتت أغلبهم على أثر الفتح العربى وزوال دولة الروم وسكنوا ا لبادية ودخلوا فى الاسلام من زمن بعيد. وقيل أن منهم مازالوا يقيمون بجوار الدير ويخدمون الرهبان بأجرهم والرهبان يحسنون اليهم ويأخذون بناصرهم حتى اليوم.

دير سانت كترين واصلة:

لم يكن يحمل الدير عند أنشائه أسم القديسة كترين بل كانت كنيسة وقنئذ تسمى «بكاتدرائية التجلى» ولم يطلق أسمها على الدير الذى أشتهر به الا فى القرن التاسع الميلادى حينما نقلت بقايا جسدها وحفظت فى داخل الكنيسة التى كرست على أسمها. ومنذ ذلك التاريخ عرف الدير باسم دير سانت كترين.

أهمية الدير وآثاره الخالدة:

أى جانب ما يمتاز به دير سانت كترين من ذكريات روحية فهو يحتفظ بآثار باقية قيمة وكنوز ثمينة لا تقدر جمعت منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر فالكاتدرائية الكبرى نفسها بالدير تعتبر متحفا حقيقيا من آثار الفنون المسيحية الجميلة وتبهر الناظر مما فيها من أغنى وأروع مجموعة من الصورة القديمة التى عرفها التاريخ. وناهيك عما يحوية هيكل تلك الكنيسة من نقوش رائعة تخلب ألباب الناظرين وتمثل مناظر للسيد المسيح بين الرسل والانبياء، ومؤسسى الكاتدرائية وكلها مصورة بقطع الفسيفساد ببراعة تامة وأتقان منقطع النظير كما يحوى هيكلها أيضا تابوتين من الفضة ورسم على غطاءت كل منهما صورة القديسة كاترين مصنوعة من الذهب الخالص المرصع بالاحجار الكريمة وهما من هبات قياصرة الروسيا بطرس الاكبر عام ١٦٨٨ وأسكندر الثانى عام ١٨٦٠م وقد أستخدما فى حفظ بعض الهدايا الثمينة التى كان يبعثها الملوك والملكات الى الدير خلال العصور المختلفة.

على أن أثمن هذه الكنوز ذلك التابوت المحفوظ تحت قبة المظلة على يمين المذبح وهو يحوى صندوقين من الفضة المزخرفة أحدهما يضم جمجمة القديسة كاترين يحوطها تاج ذهبى مرصع بالجواهر والاخرى يضم يدها اليسرى وتزينها الخواتم الذهبية المرصعة بالاحجار الكريمة أيضا. وهذه البقايا من رفاتها يعرض للرؤيا أمام رهبان الدير وحجاجة فى يوم ٥ نوفمبر من كل عام وهو يوافق عيد ذكراها السنوى. ومن الاثار التى تلفت الانظار تلك الابواب الخشبية وما تحوية من حشوات منقوشة ومنها باب مدخل الكنيسة الخشبى. وقد زين بنقوش دقيقة ترجع الى العصر الفاطمى. أما باب الصحن فترجع زخارفة الفنية الى القرن الخامس الميلادى وتمتاز رسوم حشواته بمناظر خلابة تمثل الحيوان والطير والنقوش النباتية والازهار أما هيكل كنيسة العليقة فيضم مجموعات هائلة قديمة وحديثه من الملابس الكهنوتية المطرزة بخيوط الذهب والفضة والرسوم الجميلة وتيجان الاساقفة الذهبية الرائعة والكؤوس والصوانى الدقيقة الصنع وكذلك كثير من الصلبان الذهبية والفضية على اختلاف أحجامها وأشكالها والاناجيل ذوات الاغطية من الذهب الخالص والفضة الا أن أهم من تلك الكنوز وأبعدها أثرا فى النفس هى تلك البقايا من أجساد القديسين الذى يحتفظ بها الدير المذكور مثل جمجمة القديس يوحنا فم الذهب. وذراع القديس باسيليوس والفك الاسفل للقديس جريجورى من نيسا الى جانب ذخيرة كاترين نفسها.

ويوجد بالدير مسجد اسلامى قائم بجوار الكاتدرائية داخل الدير وهو يعتبر من أعظم الاثار ذات المظاهر الهامة في دير سانت كاترين. و بناؤه بسيط مستطيل الشكل ومساحتة صغيرة حوالى عشرة أمتار فى الطول وسبعة أمتار فى العرض وبه عمودان قويان ترتكز عليهما العقود التى تحمل السقف. وقد تم أنشاؤه فى عهد الدولة الفاطمية بناء على رغبة الوزير «أبو جعفر أنوشتكين» عام ١١٠٦م أثناء حكم الخليفة «الامر بأحكام الله» كما و رد ذلك فى سجل النص المكتوب بالكوفيه على منبر الجامع. إما المئذنة فتوجد فى الشرق مواجهة للبناء الخاص بجرس الكنيسة. وهى عبارة عن برج منفصل يبلغ أرتفاعه حوالى عشرة أمتار تقريبا. وأهم الاثار الباقية فى داخل الجامع هما المقرأة الخشبية والمنبر الخشبى ويرجع تاريخهما الى عام ١١٠٦ للميلاد . أما المنبر ففريد فى نوعة ولا يوجد ما يماثل هذا الاثر فى العالم الاسلامى عامة سوى منبرين آخرين باقيين أحدهما يوجد فى مدينة قوص بالوجه القبلى وثانيهما محفوظ فى بلدة حبرون فى فلسطين وكلاهما من العصر الفاطمى أيضا والنقوش فى حشواتها من طراز العصر المذكور وتحتوى على الزخارف التلقيدية من أشكال النبات والمناظر الهندسية.

أما المسجد المذكور فقد ورد مرارا فى أوصاف حجاج الغرب الذين كانوا يحجون الى الدير فى العصور الوسطى وكانت كتاباتهم بطريقة تدعو الى الاستغراب والعجب. فمنهم مثلا ما يدعى «يعقوب من مدينة فيرونا» «الذى زار الدير فى عام ١٣٣٥م» وكذلك «ليوناردو فرسكوبالدى» الذى جاء عام ١٣٨٤م قد سجلا وجود هذا المسجد بنفحة تملاها الدهشة والروعة التى يتمثل فيها عظم التسامح الدينى. وهذا الامر أن دل على شئ فإنه يوضح حقيقة أن الغرب لم يكن قد أعتاد أن ينظر بتلك النظرة السمحة الى موضوعات تتعلق بالعقيدة أو الدين فى بلادهم مثلما كان مألوفا لدينا فى مصر وهذا مما لا يدعو مجالا الى الشك على أن مصر كانت أكثر تسامحا من أقطار أوروبا فى تلك العصور. والمشرف على خدمة الجامع طائفة من أحدى القبائل تعرف بالجماليين. وهم يحتفظون بمفاتيح المسجد ويعنون بكل ما يتعلق به من شئون النظافة والخدمة يتوارثون هذا العمل فيما بينهم ولاينازعهم فيه أحد ويتقاضون ما يلزمهم من الجراية يوميا أو أسبوعياً من رهبان الدير.

عهد الامان لرهبان دير سانت كترين

ومن أثار الفتح الاسلامى التى يعتز بها نساك دير طور سينا ذلك العهد الذى قيل عنه ان

النبى عليه السلام منح رهبان الدير المذكور عهداً مكتوباً لحماية أرواحهم ومتاعهم تحت الحكم الاسلامى. كما قيل أن ذلك العهد الاصلى قد أستولى عليه السلطان سليم الاول عند فتح مصر عام ١٥١٧م. وأعطى الرهبان صورة منه مترجمة بنصوصة وممهرة بأمضائه ومهما يكن من شئ فسواء أكان العهد النبوى حقيقيا أو مزيفا فالواقع أنه جدد بطريقة من الطرق ، وأن أمتيازات الحماية والرعاية لنساك الدير ظلت قائمة.ومن طريف تقاليد بدو سينا ورهبانها أيضا أنهم يزعمون أن النبى عليه السلام زار طور سيناء على جمل وأن الجمل المذكور ترك أثر قدمه على قمة الجبل.

مكتبة الدير:

ويحتوى الدير على مكتبة من افخر وأروع مكتبات الدنيا وفيها من الكنوز العلمية والفنية والاثرية ما يفوق كل وصف وتزخر بمخطوطات لاحصر لها من جميع اللغات والاشكال والعصور ، وليست كلها خاصة بالدير أو اللاهوت، بل هى من جميع فروع العلم والمعرفة ، كما أنها تمتاز بمجموعة نادرة من الوثائق واللفائف المختلفة الاحجام والاطوال. وقد يصل بعضها الى عدة امتار فى أطوالها ، وهى عبارة عن مراسيم وفرمانات وعهود أصدرها خلفاء وسلاطين الاسلام توصية لصالح رهبان الدير والعمل على تأمينهم وراحتهم، وهى تزيد على الالفين من القطع، وأقدم تلك الوثائق عهدا والمحفوظة الآن فى مكتبة الدير يرجع تاريخها إلى اوائل القرن الثانى عشر الميلادى أى منذ العصر الذى أنشى فيه الجامع فى العصر الفاطمى.

وأعظم النفائس الخطية الذائعة الصيت التى كانت تضمها مكتبة الدير هو المخطوط النادر المعروف باسم «توراة سيناء Codex Sinaiticus وقيل أنه يرجع الى القرن الرابع الميلادى، وقد اكتشفه فى مكتبة الدير العلامة الروسى «تيشندورف» عام ١٨٩٦م ، وحمله الى بطرسبورج وعرضه على قيصر الروسيا وقتئذ، فاشتراه بمبلغ من المال الى أن جاءت الثورة السوفيتية ، وتمكن المتحف البريطانى فى لندن من الحصول عليه بعد أن دفع مبلغا باهظا قدره مائة ألف من الجنيهات الذهبية. أما «التوراة السريانى Codex Syriacus» ، وهو من أندر الكنوز الدينية من القرن الخامس للميلاد، فلا يزال باقيا فى المكتبة، وهو الترجمة السريانية للتوراة ، ومأخوذ من نص يونانى يرجع تاريخه الى حوالي القرن الثانى، ولهذا يظن أنه أقدم ترجمة عرفت للكتاب المقدس.

موارد الدير من روائع الهبات والنذور

أذا رجعنا الى سجلات الدير لا دركنا العجب من كثرة الاعداد الوفيرة من المحسنين على الدير ورهبانه فشملت الاباطرة والملوك والباباوات والامراء والعظماء منذ أقدم العصور الوسطى، وكان البطاركة والاساقفة من جميع أنحاء العالم المسيحى ينظرون بالود والاحترام الكلى الى تلك المنطقة وكان «جريجورى» بابا روما العظيم فى القرن السادس من أعظم معضدى هذا الدير، كما كان الاخلاص والمحبة بين رهبانة وبين رجال الدين فى أوروبا باستمرار حتى أيام الخلافات والانفصال. وكانت الهدايا والنذور والعطاءات والتبرعات ترسل باستمرار الى الدير وكثير من الملوك والامراء والعظماء على اتصال دائم برهبانه،كما كانوا يمدونه بالهدايا والهبات السخية أمثال شارل السادس ولويس الحادى عشر ولويس الرابع عشر من ملوك فرنسا وايزابيل ملكة اسبانيا والامبراطور مكسيمليان الالمانى وغير ذلك من أمراء عديدين. على أن معظم المعضدين المخلصين لرهبان هذا الدير كانوا قياصرة الروسيا، وكانوا يمدون الدير بالهدايا والهبات الثمينة العديدة أيضا، وما زال الرهبان يحتفظون بآثارهم داخل الكنيسة ويعتزون بها.

زوار الدير وحجاجه:

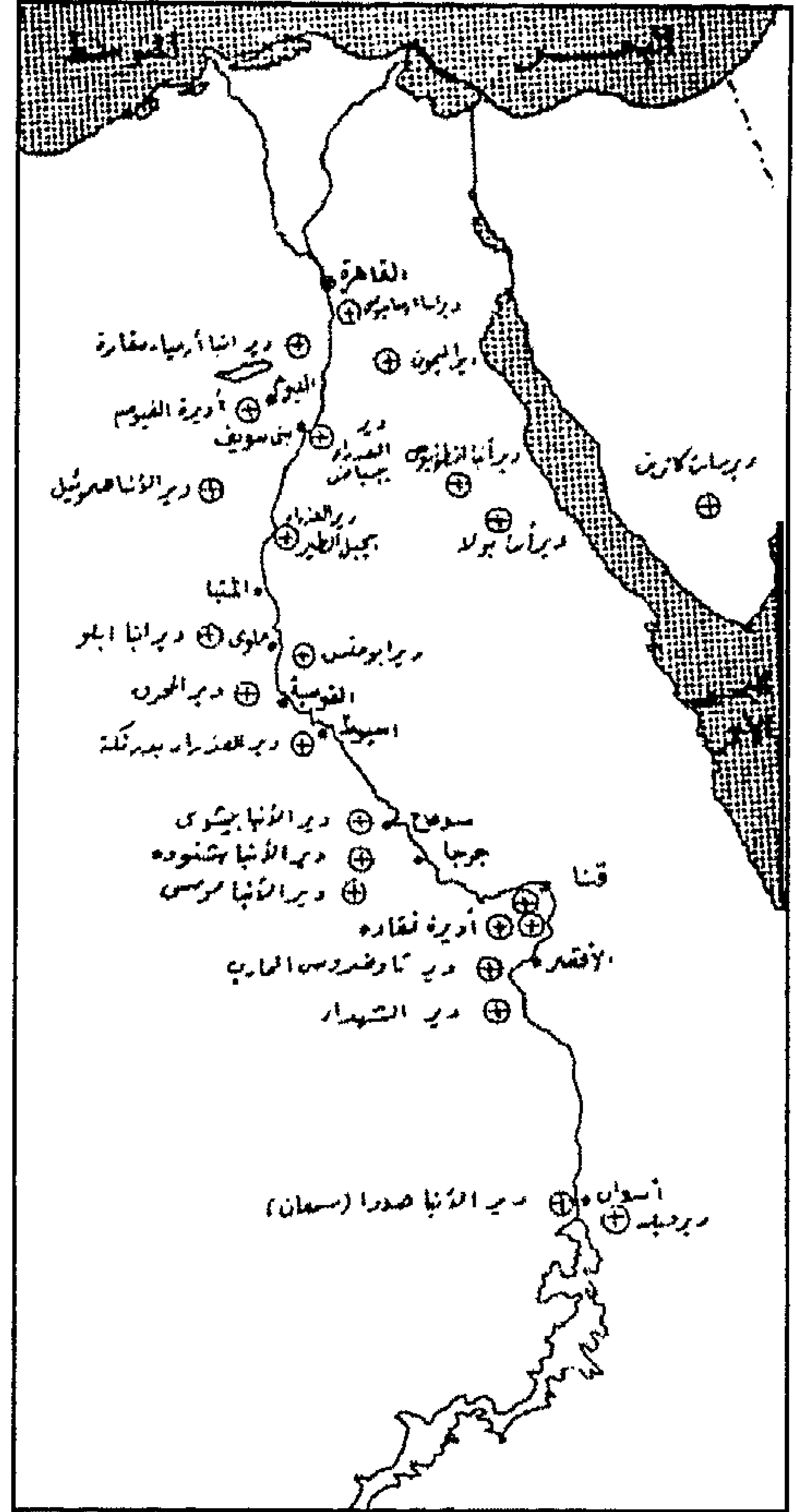
أما عن الحجاج والسياح المختلفين الملل والاجناس الذين كانوا يؤمون الدير ومنطقته فلا يمكن حصر أعدادهم الوفير، وكثير منهم كانوا من شخصيات ورتب عالية . وقد كتب أحد الرحالة السويسريين المشهورين وهو« بورخارت» فى أوائل القرن التاسع عشر وصفا فى زمنه عن عدد السياح والزوار الذين وفداو لزيارة المنطقة من الاجناس المختلفة وكان وفيرا وعلى الاخص الارمن والمصريين والقبط المسلمين. وقيل أيضا أن أكثر الشعوب زيارة لهذا الدير كانوا من الروس، فيؤمه الرجال منهم والنساء فى أفواج عديدة ويمكثون فيه عدة أيام يزورون فيها أغلب مناطقه وضواحيه، وكثيراً ما كانوا يقدمون النذور والهدايا وما زالت تنهال على الدير ورهبانه حتى اليوم أذ حدث بعد نهاية الحفل التقليدى الذى تم فى المكان فى ذكرى مرور أربعة عشر قرنا من الزمان على أنشاء دير سانت كاترين فى شبه جزيرة سيناء، حيث أقيمت فيه الاحتفالات الدينية التقليدية، وكان ذلك يوافق يوم الاحد ١٨ سبتمبر من عام ١٩٦٦ بحضور جلالة ملك اليونان قسطنطين والرئيس القبرصى الأسقف مكاريوس وعدد كبير من المطارنة والاساقفة من ممثلى كنائس المسكونة، وفى هذه المناسبة فى ختام الاحتفال أهدى الملك

قسطنطين الى مطران الدير قلادة اليونان الكبرى وهى مرصعة بالماس، وكذلك قدم الرئيس القبرصى هدية تذكارية فاخرة عبارة عن صينية من الفضة الخالصة، ثم أهدى جميع المطارنة والاساقفة الحاضرين من الدول المختلفة أيضا هباتهم الثمينة من الذهب الخالص وبعضها محلى بالماس والاحجار الكريمة، الى جانب الهدايا الخاصة التى قدمت الى مطران الدير.

ومما يدعو الى الغرابة والدهشة والتساؤل أن يظل هذا الدير وما يحويه من أروع وأندر كنوز العالم الثمينة صامدا على البقاء طوال هذه الاعوام وسط تلك البادية الموحشة النائية عن العالم المتمدين بالرغم من اختلاف قبائلها فى الجنس والعادات والطباع الخشنة عن رهبان الدير. فلابد وأن تكون هناك من الأسباب والبواعث التى روضت أولئك القوم وجعلتهم يغيرون من أخلاقهم ويألفون الحياة الهادئة الشريفة الى جانب أولئك النساك الوادعين ودفعتهم الى السهر على حمايتهم وتأمين ديارهم فضخامة الدير ومتانة أسواره القوية جعلت منه قلعة حصينة بالنسبة الى البدو الساكنين حوله، كما أنه يقوم فوق جبل يقدسه اليهود والنصارى والمسلمون على السواء. كما لا ننسى أن النبى عليه السلام أعطى رهبان الدير كما ذكرنا آنفا عهدا يعتزون به لحمايتهم وصدق عليه سلاطين المسلمين من أقدم العصور حتى اليوم، وأن رهبانه بنوا جامعا يتعبد فيه المسلمون داخل اسواره قرب الكاتدرائية، فضربوا المثل الاعلى فى التسامح الدينى مما لم يعد هناك مجال للتعصب أو الاضطهاد، كما أنهم يعولون فقراء البدو ويحسنون معاملة الزائرين من كل جنس ودين، وأن وجود الدير نفسه مصدر رزق كبير للبدو لانتفاعهم من تأجير أبلهم للسائحين ومرافقة الحجاج الذين يزورونه هو والمناطق المقدسة التى تحيط به.

ثانيا: أهم أديرة الوجه القبلى

دير نهيا: يقع فى منطقة بالجيزة وقد وصفه المؤرخ العربى «عبدالرحمن الجبرتى» فى كتابه عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ص ٥٠٦ جزء ٢، فقال أنه من أحسن ديارات مصر وأنزهها وأطيبها موضعا وأجلها موقعا، عامر برهبانه وسكانه، وله فى أيام النيل منظر عجيب حيث الماء يحيط به من جميع جهاته، واذا انصرف الماء وزرعت الارض أظهرت أراضيه غرائب النواوير، وأصناف الزهر، وهو من المتنزهات الموصوفة والبقاع المستحسنة، وله خليج يجتمع



فيه سائر الطير فهو أيضا متصيد ممتع، وقد وصفه الشعراء وذكرت حسنه وطيبه. وقد خرب هذا الدير.

وظاهر من أوصافه أنه كان من الاديرة المشهورة المرموقة، وقد سطت عليه الايدى العابثة فى عصور الفوضى والاضطرابات، كما حصل للعديد من الاديرة الاخرى.

دير طموية: وطموية قرية بالجيزة، وقال «الشابوشتى» أن طموية فى الغرب أزاء حلوان، والدير راكب البحر، وحوله الكروم والبساتين والنخل والشجر، وهو نزه، عامر، آهل وله فى النيل منظر حسن... وهو أحد متنزهات أهل مصر، ومواضع لهوها المشهورة، وقد تغنى بحسن مناظره بعض الشعراء.

ويظهر من أوصاف أولئك المؤرخين العرب أن تلك الاديرة كانت تقصدها الناس فى العصور الوسطى كأماكن للترويح عن النفوس ولتفريج الكروب والهموم وخاصة بين بساتينها.

أديرة الفيوم

كانت الفيوم عامرة بكثير من الاديرة منذ أول ظهور الرهبنة فى مصر. وقد وصف كتاب تاريخ الفيوم القديم «لابن عثمان النابولسى الصفدى الشافعى» من أمراء الشام، وكان من أتباع نجم الدين السلطان الايوبى، وحينما ولاه على الفيوم، أمره السلطان أن يرفع اليه تقريرا مفصلا عن حالتها، فجاء ضمن كتابه ذكر ثلاثة عشر ديرا وخمسة وعشرين كنيسة موجودة فى ذاك الاقليم حوالى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد.

ويقال أن أشهر أديرة الفيوم هو دير «النقلون» ويقال أيضا «دير القلمون» وربما كان أنشاؤه بعد أضمحلال دير النقلون وغالبا تم فى القرن السابع للميلاد.

أما أديرة الفيوم حسب ما ذكرها «أبو عثمان النابلسى الشافعى السابق» فهى:

١ـ دير أبى اسحق بجوار اللاهون وهو بحريها.

٢ـ دير سيلة قبليها.

٣ـ دير العامل قبلى العدوة.

٤ـ دير سدمنت على بحر الفيوم.

٥ـ دير النقلون فى الجبل قريب من قمبشا.

٦ـ دير دموشيه وهو قبليها.

٧ـ دير أبى شنودة قبلى منشأة أولاد عرفة.

٨ـ دير بموية وهو شرقيها.

٩ـ دير قانو وهو غربيها.

١٠ـ دير سنورس وهو غربيها.

١١ـ دير دسيا وهو بحريها.

١٢ـ دير ذات الصفا وهو قبليها.

١٣ـ دير القلمون وهو آخر الاعمال قريب من البهنسا.

دير الانبا صموئيل: ويسمى هذا الدير بدير القلمون[١] أيضا، وهو يقع فى منطقة وادى

(١) وتسمى بالقبطية Pounemou والقلمون بالعربية وقربها من جبل القلمون الواقع فى الجزء الجنوبى من الفيوم ومعنى الكلمة الغاب ومنها أشتقت الكلمة العربية قلم وسمى بذلك لوجود الدير بمنطقة يكثر فيها الغاب وقد ذكر أبو صالح الارمنى أنه كان لهذا الدير أطيان كثيرة بالصعيد وشنرا، وملاحات يستخرج منها سنويا بالعدد ١٠٠٠ أردب ملح ونخيل يدر حوالى ١٢ ألف أردب من البلح. وكان فيه حوالى عام ٨٩٤م للشهداء أكثر من مائة راهب ويؤمه كثير من الزائرين، والان به حوالى أربعة رهبان يعيشون من حسنات أهل البر أذ ليس له أملاك. وقد عمره القمص أسحق البرموسى عام ١٨٩٥م. والوصول اليه بالركائب من محطة مغاغة من قرية النزودة أو من الفيوم بعد مسيرة أربع ساعات. وقد تخرج من هذا=

الريان. وقد شيده القديس صموئيل القلمونى حوالى القرن السابع للميلاد. وقد أغار عليه البدو والبربر مرتين، وأسروا القديس المذكور وأخذوه معهم وأساءوا معاملته، ولكن الله خلصه من ظلمهم ثم عاد بعد ذلك الى ديره حيث اجتمع حوله بعض الرهبان، ثم أدركه الدمار، وهجره رهبانه حتى نهاية القرن التاسع عشر، حيث بدأ يعمره بعض الرهبان من دير براموس. وفى الدير كنيسة على اسم السيدة العذراء. وقد ذكر أبو المكارم فى مؤلفه بأنه كان فى دير الانبا صموئيل القلمونى أربعة[1] جواسق ويقصد بها الحصون مما يدل على عظم ما بذله الرهبان من عناية وتحصين لحمايته من سطو البرابرة واللصوص، وما كانوا يتعرضون له من هجماتهم الوحشية المريرة. وكان مدخل الجوسق من داخل الكنيسة بسقالة، وكانوا يدفنون موتاهم تحت الجوسق.

دير الطير: بمدينة سمالوط، وهو دير قديم يطل على النيل، وله سلالم منحوته فى الجبل أمام بلدة سمالوط وهو يقرب من الجبل المعروف بجبل الكهف. وفى يوم عيده يقصده جمع غفير للزيارة والتبرك. ويروى أن السيدة العذراء التجأت اليه أثناء رحليها فى أرض مصر.

دير أبو فانه: وكان من الاديرة المشهورة فى العصور المسيحية الاولى منذ القرن السادس للميلاد وكان عامرا بالرهبان وهو يقع جنوب غرب ألمنيا وغرب بلدة الشيخ عبادة. ومازالت به

=الدير بطريرك واحد وهو الانبا غبريال الثامن والثمانون حوالى عام ١٤٠١ ميلاديا.
ويقال أن هذا المكان كان يسكنة النساك منذ أواخر القرن الثالث والرابع للميلاد وتروى قصة الشابين «بانين وبناو Panine & Panau» اللذين رغبا فى ممارسة الزهد وقررا التوغل فى الصحراء وقابلهما الملاك ميخائيل فى زى رهبانى وأرشدهما الى القديسين «تيموثاوس وفيلوثاوس وكريستودورس» بجبل القلمون من أعمال مدينة الفيوم. ويذكر القديس أثناسيوس أن الانبا أنطونيوس زار منطقة أرسنوية وهى الفيوم اليوم، وكانت تسمى فى أيام المؤرخ اليونانى «هيرودوت» مدية التماسيح «Crocodileopolis» وعندما أضطر أنطونيوس الى عبور قناة «أرسنوية» لزيارة الاخوة وتفقد أحوالهم وتشجيعهم يقال أنه وجد القناة ملاى بالتماسيح. ويذكر السنكسار أن الانبا أنطونيوس شعر بحاجة ملحة لزيارة الاخوة هناك لتعزيتهم وتقوية عزيمتهم وأيمانهم وكان ذلك بعد عشرين عام من ممارسته أعمال الزهد والرهبنة.
ومن أهم الاثار العريقة فى تلك المنطقة حسب ما ورد من أقوال الاب متى وهو من أشهر الاباء الذين عمروا تلك المنطقة أخيرا، هو الكهف الذى كان يلجا اليه الانبا صموئيل للتعبد بجبل القلمون، وهو يقع على بعد أربعة أو خمسة كيلو مترات شرق الدير بجبل القلمون. والوصول اليه غاية فى الصعوبة، ولو أن كثيرا من الرهبان زاروه من قبل.

(١) ورد هذا الزعم أى دير القلمون فى الكتاب الخاص بتاريخ أبو المكارم «فى ورقة» «٧١ظ».

بقايا من آثاره كقطع من الفرسك التى كانت تزين بعض مبانيه أو هياكله مما يدل على أهميته. وقد شرع المتحف القبطى فى بناء استراحة فى الصحراء القريبة منه للبدء فى عمل الحفائر اللازمة فى أنقاضة لاستجلاء ما غمض من تاريخه.

أديرة باويط[١]: تقع باويط على الضفة اليسرى للنيل بقرب بلدة ديروط. وقد اشتهرت بما وجد فيها من آثار قبطية عظيمة من العصر المسيحى المبكر، وما كان فيها من أديرة وقد تولى الحفائر فى هذه المنطقة العالم الفرنسى «كليدا Clédat» منذ عام ١٩٠١م، وعثر على آثار كنيستين واحدة على اسم القديس «أبولو» والثانية على اسم القديس «رفائيل» ثم تبعه بعد ذلك فى مواصلة الحفائر فيها أيضا العالم الاثرى «شاسينا Chassinat» عام ١٩١١م حيث وجد حوالى ثلاثين من الهياكل فى جهات مختلفة كانت تكون جزءا من مبانى دير كبير.

هذا وقد جمعت آثار قبطية فى غاية الاهمية والعظمة من تلك المنطقة ترجع الى القرن السادس للميلاد. وقد نسقت قاعة فسيحة بالمتحف القبطى من آثار تلك المنطقة وتحمل أسمها أيضا وجميع آثارها من الافاريز والاعمدة والتيجان والواجهات والبوابات من الحجر المنقوش بأتقان ومهارة فائقة وتعتبر كلها آية فى فن النحت فى الابداع والدقة والبراعة.

وكذلك توجد قاعة أخرى من آثار تلك المنطقة وتحمل اسم بلدة باويط أيضا. وتزين احدى قاعات متحف اللوفر بباريس بقسم الاثار المسيحية فيه وهذه كلها تعطينا فكرة جلية عن مدى ما بلغه فن المعمار والنحت الرفيع فى ذلك الزمن ومقدار ما وصلت اليه الاديرة من روعة فنية فى تلك البلدان.

الدير المحرق

يشتهر هذا الدير باسم دير السيدة العذراء المعروف بالمحرق. وقد أجمع كثير من الكتاب والمؤرخين على أنه ليس بين كافة الاديرة القبطية العديدة على ما فيها من عظمة روحية، وما حازت بعضها من شهرة عالمية ذائعة، ما لهذا الدير الذى تبوأ مركز الصدارة وشرف الامتياز الكلى بينها، بسبب تاريخه الفريد المجيد، لانه كان الموضع المقدس الذى طال مقام العائلة المقدسة فيه أكثر من غيره من الاماكن الاخرى أثناء رحلتها المباركة فى أرض مصر. كما

(١) باويط قرية تقع على الضفة اليسرى للنيل قرب بلدة دشلوط تبع مركز ديروط بالوجه القبلى.

Oxyrhynchus
Bani Mazār
D. al-Sanqūriyyah
Kom Nimrūd
Kom al-Rāhib
al-Shaykh Ḥasan
Samalūṭ
D. al-ʿAdhrāʾ (Jabal al-Ṭayr)
Tihnā al-Jabal
AL-MINYĀ
D. Apa Hūr
Zāwiyat al-Mayyitīn
Banī Ḥasan
Speos Artemidos
Qaṣr Hūr
D. Abū Fānā (D. al-Ṣulṭān)
Antinoopolis
Nawāy
al-Ashmūnayn
Mallawī
D. al-Dīk
D. al-Naṣārā
D. Sunbāṭ
D. Abū Ḥinnis
D. al-Barshā
Daljā
D. Mawās
al-Shaykh Saʿīd
Tell al-ʿAmarnah
D. Abū Sarābāmūn
Bāwīṭ
Dayrūṭ
D. al-Quṣayr
Ṣanabū
Mīr
Būq
D. al-Muḥarraq
D. Tādrus
D. Mār Mīnā
D. al-Jabrāwī
D. Bugtur Shū
Manfalūṭ
D. al-ʿAdhrāʾ
D. Abū Isḥāq
al-Jawlī
Abnūb
ASYŪṬ
Manqabād
D. Bisrah
D. al-ʿAwanah
D. Durunkah
D. Abū Mūshā
D. Rīfah
D. al-Zāwiyah
Wādī Sarjah
D. Abū Maqrūfah
D. al-Janādlah
D. al-Balayzah
Abū Tīj
D. Tāsā
al-Badarī
D. Apa Hermine
Ṭimā
Qāw al-Kabīr
Qāw Gharb
D. Anbā Bakhūm
D. al-Shuh...
D. al-Mal...
D. al-ʿAdh...
al-Marāghah
al-dayr al-Aḥmar (D. Anbā Bishāī)
al-dayr al-Abyaḍ (D. Anbā Shinūdah)
Akhmīm
SŪHĀJ
D. Mar Jirjis al-Ḥadīdī
Monastery or monastery location
Cities
Ancient sites reoccupied by monks
0 25 50 km
0 15 30 miles

D. Apā Tūmā
D. Anbā Bakhūm
D. al-Qurqās
wādī bīr al-ʿayn
D. al-Malāk Mīkhāʾīl
D. al-Shuhadāʾ
D. al-Madūdī
D. al-ʿAdhrāʾ
Akhmīm
SŪHĀJ
D. Mār Jirjis al-Ḥadīdī
D. Anbā Bisādah

أصبحت القاعة التى أقامت فيها مدتها هى نفس الهيكل الذى يقام فيه القداسات والصلوات بكنيسة العذراء فى الدير المحرق حيث أجرى فيها السيد له المجد، وهو طفل عجائب وآيات شفائية عديدة. وفى نفس المكان أيضا رأى يوسف البار خطيب العذراء حلمه عن موت هيرودس ملك اليهود واوعز اليه بالعودة الى أرض فلسطين.

موقع الدير المحرق ووصفه: يقع دير العذراء الشهير بالمحرق عند سفح الجبل الغربى المعروف بجبل قسقام. ويقع فى محافظة أسيوط بنحو ٤٨ كيلو مترا شمال المدينة المذكورة، ويبعد بحوالى ١٢ كم غرب بلدة القوصية وقد زار الرحالة الفرنسى الاب «فانسليب» مدينة قسقام وكانت خربة وقتئذ وأمضى بالدير المحرق شهرا عام ١٦٦٤م.

وتمتد الصحراء والتلال والكسبان الرملية غرب الدير بمسافات شاسعة حيث البرية الداخلية. والدير فى البرية الخارجية، أما شمال الدير وشرقه فتوجد المروج الخضراء بسبب الفيضان الذى يصل الى مقربة من الدير، وعلى مر الزمن أخصبت الأرض وأصبحت صالحة للزراعة. ويعتبر الدير المذكور أوسع وأكبر جميع الاديرة فى الصحراء المصرية بل وفى الشرق كله، آذ تبلغ مساحته حوالى عشرين فدانا، وله سمعة تاريخية عالية وأشتهر رهبانه بالعلم والتقوى وممارسة الكرازة فى خارج البلاد المصرية حيث وصل بعض الرهبان الى جنوب أوروبا ووسطها وشمالها حتى أيرلندا.

أسماء الدير: أطلق عليه عدة أسماء منها:

١ـ يسمى بدير العذراء نسبة الى السيدة العذراء حيث أقامت العائلة المقدسة فى القاعة التى صارت هيكل الكنيسة الاثرية التى يحيط بها الدير. ولذلك تعتبر شفيعة الدير ورهبانه والمنطقة المحيطة به ولذا تقدم النذور باسمها وتجرى العجائب فيه لجميع الزوار من جميع الملل والاجناس. ولهذا يعد الدير مقصدا لجيمع الحجاج وأصبح كمكان مقدس مثل القدس أو جبل الزيتون.

٢ـ دير قسقام: أو دير جبل قسقام لان الدير قائم بجوار مدينة تسمى بهذا الاسم، وقد عفا عليها الزمن ولم يبق منها سوى الدير الذى يحمل اسم المدينة التى زالت. والكلمة أصلها قبطية ومعناها «مدفن الحلفا» وذلك لان فقراء تلك المنطقة كانوا يكفنون موتاهم بالحلفا.

٣ـ دير المحرق ـ وعللوا هذه التسمية للاسباب الاتية؟

أ ـ كان الدير يظل فترة طويلة معظم أيام السنة بعيدا عن الماء كما كانت تنضب فية المياه قبل غيره من الحياض، وسميت الأرض التى من حوله بالمحرق فسمى الدير تبعا لذلك.

ب ـ كان الحوض الموجود فى وسط الدير موبؤا بكثرة نمو أعشاب الحشائش الجبلية فيه بغزارة فكانت حيلتهم الوحيدة للتخلص منها هى بأحراقها بالنار وعلى ذلك تسمى بالدير المحرق.

جـ ـ تعرض الدير لهجمات الاعراب واللصوص فهدموه وأحرقوه بالنار التى ظلت آثارها عليه فسمى بالمحرق، ثم أعيد بناؤه بعد ذلك.

د ـ كذلك روى أن حربا نشبت بين حاكم مقاطعة الاشمونيين وحاكم قسقام أنتصر الأول وأحرق قسقام فصارت المنطقة كلها تعرف بالمحرقة، وأصبح هذا الدير يعرف بالمحرق على هذا الاساس.

وقد ذكر الاب الرحالة «جوليان Jullien» الذى زار الدير المحرق عام ١٨٨٣م أن رئيس الدير وقتئذ أبلغه أن دير العذراء هذا، هو من أديرة الانبا باخوميوس التى شيدها فى الصعيد، وأنه يمثل الحط الذى يحدها من الشمال ولذلك سمى «بالمقرر» ثم حرفت تلك الكلمة الى «المحرق».

كما يروى المؤرخ أبو المكارم رأيا آخر أذ يرجع سبب تلك التسمية الى آنه كان يسكن فى الجهة المجاورة رجل شرير أشتهر بالكفر والالحاد يسمى خرتابن ماليك «فانزل الله عليه عاصفة أحرقتة ولم يبق له أثر فسميت تلك الجهة بالمحرقة.

كنائس الدير

١ـ كنيسة العذراء: وتوجد فى الجهة الغربية من الدير وهيكلها هو نفس الغرفة التى سكنتها العائلة المقدسة. وتعتبر فريدة فى نوعها، وهى الوحيدة فى مصر بل وفى العالم كله لان المسيح دشنها وباركها ولها من الذكريات السامية المجيدة ما يعجز عن وصفة اللسان، وهذه الكنيسة أقدم كثيرا من الدير فهى ترجع الى القرن الاول للميلاد بينما باخوميوس بنى الدير منذ القرن الرابع. والذى دفعه الى أنشاء هذا الدير واختياره هذه البقعة لتكون ديرا يحيط بتلك الكنيسة الاثرية ذات التاريخ المقدس المجيد وليضم من يلوذ حول تلك المنطقة من النساك والمتوحدين.

٢ـ كنيسة القديس تكلا هيمانوت الحبشي: وكانت فوق سطح كنيسة العذراء الاثرية فوق الجزء المسقوف منها وكان يصل اليها الرهبان الاحباش لاقامة الصلاة فيها. ولكنها ازيلت عام ١٩٣٦ خشية تأثيرها على تقويض الكنيسة الاثرية وتهديدها بالسقوط.

٣ـ كنيسة يوحنا المعمدان: وتقع فى الجهة البحرية من كنيسة العذراء وقد عرفت آثارها صدفة بين أنقاض الردم.

٤ـ كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل: وتوجد عادة فى الطابق الاعلى من الحصن.

٥ـ كنيسة القديس مارجرجس: وتقع جنوب كنيسة العذراء الاثرية، وقد شيدت عام ١٨٠٠م فى عهد القمص ميخائيل الابوتيجى من «١٨٧٠/ ١٨٨٤م».

٦ـ كنيسة العذراء الجديدة: وقد أنشئت خارج أسوار الدير لاستقبال الاهالى لاقامة الصلوات فيها والعماد. وقد تم أنشاؤها عام ١٩٦٤م فى عهد الرئيس الحالى الايغومانس قزمان بشاى أما بقايا الاسوار القديمة فقد تعهد بناؤها الامبراطور «زينون» منذ القرن الخامس لحماية الرهبان من غارات البرابرة، أما الاسوار الحديثة فقد بنيت بالحجر الجيرى والاسمنت على النظام الحديث منذ عهد الانبا باخوميوس الأول أسقف الدير منذ عام ١٩٢٠ للميلاد. وظل العمل فيها مدة طويلة حتى أتم مبانية وغيرها من المبانى الاخرى بعهد القمص قزمان الحالى. ويحوط الدير بداخله حدائق واسعة بديعة تحوى كثيرا من أنواع المزروعات والأشجار والازهار والفاكهة.

أديرة أسيوط وقراها

أشتهرت المدينة بكثرة ما شيد فيها وما حولها من القرى من الاديرة والتى ذاع صيت رهبانها فى النسك والتقوى خلال العصور المسيحية. وأهمها فى منطقة أسيوط «دير العظام» أو دير السبعة جبال أو دير القديس يوحنا» الواقع فى صحراء أسيوط على مقربة من منطقتها الاثرية فى تلالها فى الغرب المسماة «أسطبل عنتر». ويظهر أنه كان عامرا بالرهبان. وبين الحفائر التى أجريت بين أنقاض الدير المذكور عثر على جرة على سطحها نص قبطى مدون بالمداد الاسود كتبة أحد الرهبان عام ٨٧٢ للشهداء ومضمون ما جاء فيه شرح عن حالة البؤس والقحط والاوبئة التى تفشت فى مصر فى ذلك الزمان والاضطهاد الذى حل بالبلاد وعلى الاخص فى مدينة أسيوط. والجرة المذكورة محفوظة فى قسم الفخار بالمتحف القبطى.

دير المطل: وهو على أسم السيدة مريم وهو على طرف الجبل تحت الدير السابق المعروف باسم دير السبعة جبال قبالة أسيوط.

دير الجبراوى: من المناطق الاثرية الهامة في محافظة أسيوط وهو عند قرية المعابدة على شاطيء النيل الشرقي. وفى المنطقة قبور محفورة فى الصخر لطائفة من حكام الاقاليم بالمقاطعة الثانية عشرة من عصر الدولة المصرية القديمة وقد أنشيء هذا الدير فى هذه البقعة منذ العصور المسيحية الاولى، وسكنه كثير من الرهبان الذين أشتهروا بالتقوى والعلم بدليل ما تركوه من مخطوطات قبطية قيمة وأنبرى للعناية بها وحلها بعض العلماء الاجانب. ويبعد دير الجبراوى عن مدينة أسيوط بحوالى عشرين كيلو مترا بالجبل الشرقى عند منطقة عرب مطير مركز أبنوب.

دير درنكة أو أدرونكة: يقع على مقربة من أسيوط وقد أنشيء فوق جبل تلك القرية على أسم السيدة مريم وقد ورد أن السيدة العذراء كانت بها كآخر البقاع التى قد ألتجأت اليها أثناء رحلتها فى أرض مصر. ويسمى كذلك بدير الانبا «ساويرس»(١) ذلك أن أحد مشاهير رهبانه ويسمى ساويرس وقد وصل الى كرسى البطريركية، وقيل عنه أنه عند وفاته حدثت آية وكان قد أنذرهم بها قبل وفاته، فأخبرهم بأن عند موته سوف ينشق الجبل وتسقط منه كلتة عظيمة على الكنيسة ولا تضرها، فلما حدث ذلك فى بعض الايام وسقطت الكتلة الجبلية الضخمة علم الرهبان بذلك الدير بان الانبا ساويرس قد مات وحينئذ اطلقوا أسمه على هذا الدير.

دير تادرس: وهو تحت دير ساويرس. وتادرس هذا استشهد فى عهد الامبراطور دقلديانوس.

دير ريفا: ريفا من القرى القريبة من أسيوط وتبعد عنها بحوالى سبعة كيلو مترات. وفى المنطقة آثار لهياكل وقبور محفورة فى الصخور وعليها النقوش والنصوص المصرية القديمة

---

(١) ورد ذكر هذا الدير فى كتاب

Amélineau, E.L. histoire de l'Egypte Chrétienne. paris, 1895. P. 127:

حيث عين موقعة عند سفح جبل «أريبا» جنوب مدينة أسيوط وقد حول مطران كرسى محافظة أسيوط الانبا ميخائيل منطقة هذا الدير بما أنشأه فيها من مبان رائعة تثير الاعجاب الى مزار مقدس يجتذب الزائرين والحجاج الذين يؤمونة باعداد هائلة من كل صوب وخاصة فى عيد السيدة العذراء فى شهر أغسطس من كل عام.

وهى غالبا جبانة لحكام أقليم الحادى عشر فى عصر الدولة المصرية القديمة. وظاهر أن النساك المصريين بنوا ديرهم فى تلك البقعة بدليل وجود آثار القلالى التى كان يتعبد فيها رهبانهم حول تلك الهياكل والبرابى المصرية القديمة وكان يوجد فى بلدة ريفا هذه دير خاص للراهبات العذارى وكان يسمى بدير «هناوة» وكذلك دير آخر يسمى بدير «قرقونة» ويقع فى بقعة ريفا وادرنكة.

دير موشا: وهى أحدى القرى القريبة كذلك من محافظة أسيوط. وقد بنى هذا الدير على اسم الرسول «توما رسول الهند». وهو يقع بين الغيطان ولا يمكن الوصول اليه فى وقت فيضان النيل الا فى قارب وله أعباد تقام لذكراه.

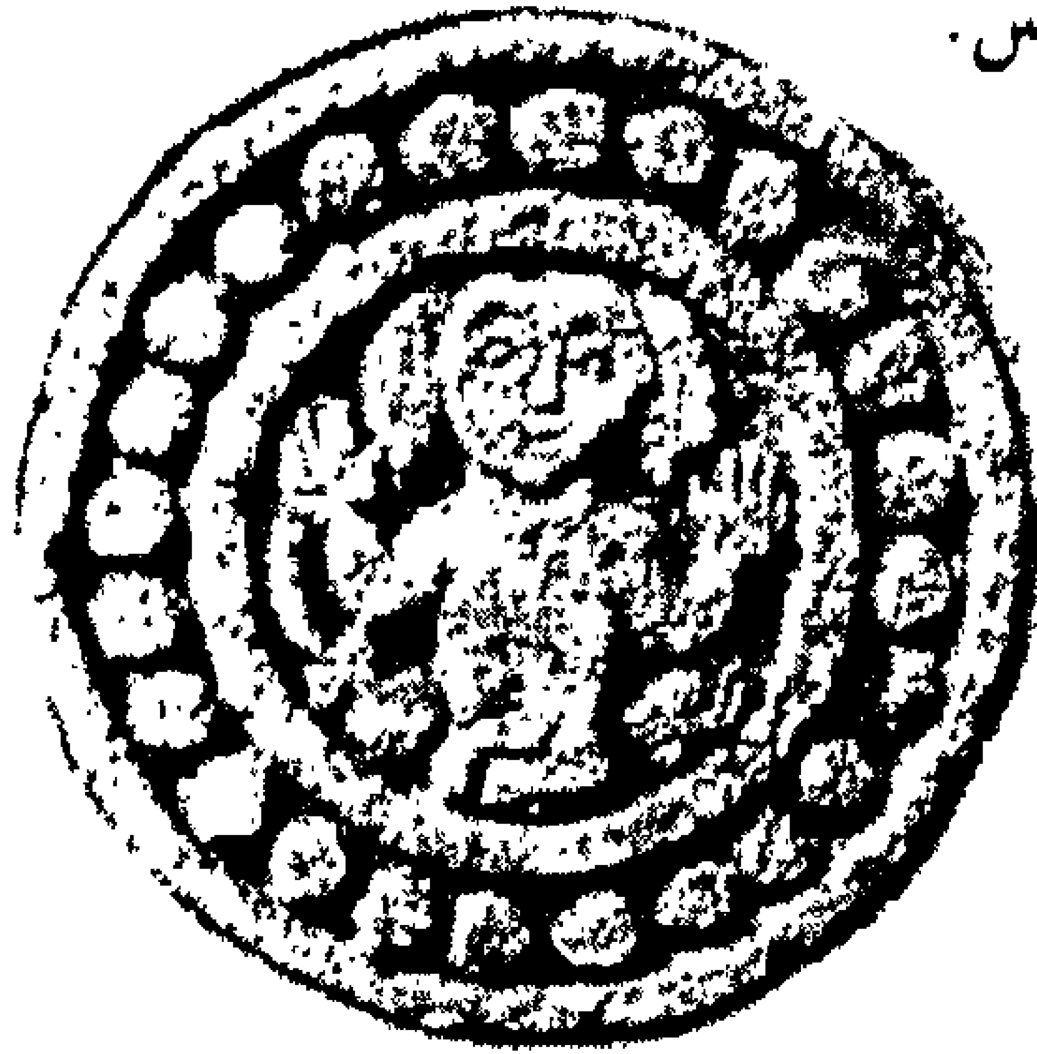
ويقول المؤرخ تقى الدين المقريزى بأن أغلب نصارى هذه الاديرة كانوا يجيدون معرفة اللغة القبطية كما ذكر أيضا أن نساء نصارى تلك الاقاليم وأولادهم لا يكادون يتكلمون الا اللغة القبطية الصعيدية ولهم معرفة تامة باللغة الرومية «أى اللغة اليونانية».

أديرة أخرى كانت منتشرة حول ضواحى أسيوط ومنها:

١ـ دير زبو السرى ببلدة شطب[١] بمركز أسيوط ويروى أن جسد الأمير تادرس مدفون فيه.

٢ـ دير التنادة باسم «بوفام» فى أبشاى أسيوط.

٣ـ دير الجنادلة بمركز أبى تيج بأسيوط وفية كنيسة مقروفيوس.



٤ـ دير أبو سادر «تيادر» ويجاوره جبل الطليمون.

٥ـ دير داخل البلد للارمن.

٦ـ دير سمالوط بالاشمونيين وبه بيعة بوفام.

٧ـ دير بقطر بناحية أبنوب ومنفلوط وكان به عدة بيع.

٨ـ دير العسل المجاور لمنية بنى خصيب وبه أربع عشرة بيعة.

(١) شطب معناها المحبوبة. وهى تبعد حوالى سبعة كيلو متر جنوبى أسيوط، وعلى الخط الحديدى الان أسمها مشتق من التسمية المصرية القديمة «شمس حتب». وقد ذكرت هذه البلدة فى نص أمير أسيوط القديم «خيتى» حيث يقول أن مقدمة أسطوله كانت عند بلدة شطب وتقع جبانة أمراء شطب على بعد ١٣ كيلو مترا من سطح الجبل الغربى عند قرية «دير ريفا» الحالية.

الأنبا باخوميوس[1] وأديرته

المؤسس لانظمة الشركة المقدسة من عام ٢٩٠/٣٤٨م

كلمة «باخوم» فى الاصل قبطية ومعناها «الباشق» وهو نوع من النسور وهو يعتبر المشرع الاول للحياة الرهبانية المشتركة، ويدين بفضله العظيم الشرق والغرب المسيحيان كما يدين له العالم غير المسيحى كذلك، وهو يسمى أبا الشركة للرهبنة وزعيمها البطولى الذى لا يبارى.

مولده ومسقط رأسه:

أختلف المؤرخون والكتاب فى السنة التى ولد فيها، وكذلك فى البلدة التى نشأ فيها، فقيل أنه ولد عام ٢٧٥ وذكر البعض عام ٢٩٠م فى مقاطعة طيبة جنوب بلدة اسنا وفى رواية أخرى قيل فى بلدة «كنوبوسكيون» التى يقال أن موقعها الآن «بلدة قصر الصياد» بمديرية قنا. وتحليلا لكلمة «كنوبوسكيون» عن اللاتينية والاغريقية يقصد بمعناها «الرهبنة أو بمجموعة الاديرة» ولذلك فأن تسمية تلك المنطقة به لم يطلق عليها الا بعد أن شيد بها الانبا باخوميوس أديرته.

وكان والداه وثنيين فقضى سنى حياته الاولى حسب الطقوس الوثنية فى العبادة، لم نعرف الكثير عن سيرة حياتة الاولى وتربيته، الا أنه عندما بلغ العشرين من العمر أنخرط فى سلك الجندية وأشترك فى المعارك التى نشبت بين قسطنطين والامبراطور مكسميانوس «عام ٣١٠م». وكانت خاتمتها أنتصار الاول وقتل الثانى، وحدث أن سار باخوميوس مع بعض رفاقه من الجنود حتى مدينة أسنا ولابد أنهم قاسوا من متاعب الطريق وأهوال الحرب كثيرا، وهناك مروا

(١) تاريخ حياة باخوميوس دونت بلغات مختلفة: الاولى هى باليونانية وكتبت بعد وفاة تلميذه «تادرس» بزمن وجيز عام ٣٦٨م. وقد ألفها أحد الرهبان الذى لم يعرف القديس وجمع أخباره من أفواه تلاميذه ومعاصريه، ويظهر من أمعان النظر فيها أنها صحيحة ويمكن الوثوق بما جاء فيها. والثانية هى باللغة القبطية الصعيدية نقلا عن الترجمة اليونانية لافادة الرهبان الذين جهلوا اليونانية، ويظهر فيها أن الكاتب وكان أحد رهبان باخوميوس قد أضاف الى الاصل تفاصيل غريبة وفقا لما كان يعهده فى القوم من الشغف فى عجائب الامور. ثم نقلت هذه السيرة الى اللغة القبطية البحيرية لمنفعة الرهبان فى أديرة أخرى. والثالثة هى السيرة بالعربية التى نقلت اليها بعد زمن طويل فى القرن الرابع عشر لميلاد.
وقد تولى العالم أميلينو طبع الترجمتين القبطية والعربية للقديس فى باريس عام ١٨٨٩ ولم ينصفه ثم جاء بعده المستشرق العالم الاب «لادوز Ladeuse» حيث أشاد باعمال باخوميوس وفضله العظيم والذى طبعة فى باريس أيضا عام ١٨٩٨ بعنوان:

Etudes sur le Cenobitisme pakhomien. Fontemoin, Paris 1898.

على القرى القبطية حيث وجد طائفة من المسيحيين أشفقوا عليهم وأحسنوا أستقباله هو وزملاؤه وأكرموهم وقضوا حاجياتهم، فتعجب باخوميوس من حميد خصالهم وأكرامهم دون معرفة سابقة بهم فسأل عنهم، فقيل لهم «أنهم النصارى» يطلبون فى ذلك وجه الله الكريم ممتثلين أوامر أنجيلهم. فرغب أن يقراء أنجيلهم ليقتدى بسيرنهم، فلما أطلق سراح الجند ورجعوا الى وطنهم عكف على دراسة الديانة المسيحية وتعمد وتفقه فى مبادىء تلك الديانة عام ٣١٤م.

ويجب الا ننسى ما كان للتربية العسكرية التى مارسها فى مستهل حياته وهو فى عنفوان شبابه من فضل وأثر عظيم فى تكوين شخصيته الفذة فى التاريخ القبطى بما درج عليه من حب النظام والطاعة والمقدرة على القيادة المنظمة.

بدء باخوميوس فى النسك:

قيل أن البلدة التى نزل بها باخوميوس كانت تعرف اليوم «قصر الصياد» على الضفة الشمالية للنيل بأزاء بلدة نجع حمادى. وقضى ثلاث سنوات متنقلا فيها بالقرى يواسى المساكين ويعزى الحزانى ويفتقد الفقراء والمعوزين فسمت نفسه وتملك الزهد مشاعرة، وقرر أن يترك العالم ويرحل الى البرية لممارسة الرهبنة.

ففى الرابعة والعشرين من عمره أنتقل اى مسافة قريبة من القرية حيث وجد شيخا جليلا وناسكا فاضلا يدعى «بليمون» فقصده باخوميوس ليتتلمذ عليه، فحاول القديس بليمون هذا أن يثنية عن عزمة كما هى الحال التى كان يتبعها شيوخ النساك والزعماء منهم مع الشبان البادئين والراغبين فى الرهبنة. فشرح له شدة ما يعانية الراهب فى البرية من قسوة وأذلال من أماتة الجسد وكبح جماحة والزهد التام فى حياة الدنيا ومباهجها وملاذها وبين له الحياة القشفة والصوم بدون أنقطاع والسهر وغير ذلك من الاعمال الشاقة التى يتحتم على الراهب القيام بها ولكن هذا العرض لم يزد باخوميوس إلا استمساكا بما عاهد به خالقه كما طلب من القديس بليمون هذا أن يصلى من أجله حتى يعينه الله ويثبت عزيمتة ويهبة الصبر والجلد، حتى يكون جديرا بخدمة المسيح ومحبته، عندئذ قبلة الراهب الشيخ بليمون معه وأخذ يدربه فى شئون الرهبنة بأعلاء الحواس وأنكار الذات والطاعة العمياء وممارسة الصوم والصلاة. ثم ألبسه ثوب الاسكيم الرهبانى وقد مكث معه سبع سنوات.

ولابد أن باخوميوس قاسى فى مستهل عهده بالنسك مثلما عانى ممن سبقوه الى التوحد، ويظهر أنه فطن بثاقب بصيرتة أن التقرب من الذات الالهية والبعد عن مظاهر الدنيا لا يتطلب ما يراود النساك أنفسهم عليه وقتئذ من تعذيب الجسد الى حد يفوق التصور والاقدام على أعمال أخرى خارقة فى داخل أجحار أو قبور بقصد الاذلال وأنكار الذات فى أعماق البرارى والقفار الموحشة، فكان هذا مما هداه الى التفكير فى وضع قوانينه التى ذاع صيتها فى جميع المسكونة والتى أصبحت هى الاساس التى يسير على مبادئة العالم المسيحى حتى عصرنا الحالى.

باخوميوس وتشييد ديره «تبانيسى»:

بعد أن مكث سبع سنوات مع الانبا بليمون كما أسلفنا، أنصرف الى البرية حتى وصل لبقعة مقفرة قرب قنا فى مواجهة دندره وتسمى «تبانيسى» وبعد قضاء مدة فى حياة التقشف وأنكار الذات. روى أنه أوحى اليه من ربه بأن يشيد ديرا حيث تجمع فية من بقى من أتباع القديس بليمون وغيرهم من راغبى النسك الذين يهيمون على وجوهم فى الصحراء والقفار، ولما تكاثرت جموعهم فكر بحسب خبرته العسكرية أن يبدأ بوضع نظام داخلى للدير، فرتب أعمال الرهبان المختلفة وضبط مواعيدها ونظم مناهج الصلاة وأوقات الصيام، وعهد الى أحد زعماء الرهبان فى الاشراف على الدير وعين مساعدا له وأمناء، وبث فيهم روح التضحية وخدمة الفرد للمجموع.

نظامة الديرى:

أتبع باخوميوس نظاما فى الدير هو أقرب الشبة الى النسق العسكرى وهو ما أقتبسة من الهيئة الوحيدة المنظمة أثناء التحاقه فى سلك الجندية فى الجيش الرومانى. وقد نظم الخدمة داخل الدير لكل راهب حسب مقدرته وطاقته الجسمية ولم يرهق صائما أو ضعيفا بعمل شاق، ويروى فى كتاب «بستان الرهبان» كثير من القصص والروايات التى تؤيد شدة تمسك الانبا باخوميوس بالطاعة والنظام وتنفيذ القوانين بدقة تامة فى مؤسساته. ومن أهم بنوده الاساسية أن يخضع جميع الرهبان لقانون واحد.

وقد ورد فى الأساطير الدينية أن باخوميوس قد جاءه الوحى من الروح القدس على يد

ملاك أنباءه بالوصايا التى يجب على الاخوة أن يسيروا بموجبها، ثم دفع اليه الملاك بلوح نقشت عليه الوصايا وقيل أنها ست ووضعت فى صيغة الامر وهى:

١ـ ليتناول الراهب من المأكل والمشرب ما يشاء وعلى قدر قوة هؤلاء الرهبان ما يأكلون ويشربون تلزمهم بالعمل. ولا تنهاهم لا عن الاكل ولا عن الصوم أما الضعفاء والصائمون فتطالبهم بالاعمال الخفيفة.

٢ـ وعليك أن تقيم لهم القلالى يسكنونها معا ثلاثة ثلاثة.

٣ـ وعليهم جميعا أن يتناولوا الطعام معا فى قاعة واحدة.

٤ـ وعليهم أن لا يناموا منبطحين على الارض ولكن عليك أن تصنع لهم المقاعد حتى اذا ما أستلقوا فوقها أمكنهم أن يسندوا رؤوسهم عليها.

٥ـ وعليهم أثناء الليل أن يلبسوا جلبابا بغير أكمام، وأن يشدوا أوساطهم بحزام، ويجب أن يعطى لكل منهم طاقية لغطاء الرأس. وعليهم أن يتناولوا العشاء الربانى فى يوم السبت وفى أول يوم من الاسبوع «يوم الاحد» وطواقيهم فوق رؤوسهم دون أن يكون عليها أغطية أخرى، وعلى صدر كل طاقية منها صليب مشغول من القرمز.

٦ـ وعليك أن تقسم الرهبان الى أربع وعشرين مرتبة أو درجة، وأن تميز كل مرتبة بحرف من الحروف الهجائية وهى الابجدية اليونانية من ألفا الى الاوميجا، لكل مرتبة منها حرف.

وهذه الوصايا هى التى ذكرها الرحالة الاب بلاديوس فى كتابه «بستان الرهبان». وقد نوه الرحالة المذكور على الوصية الاخيرة بما يفهم من منطوقة أن كل حرف يرمز به الى صفة من الصفات تشترك فيها طبائع جماعة الرهبان الذين يندرجون الى هذا الحرف أو القسم، فالبسطاء فى الروح يرمز لهم بحرف «أيتا» وصعاب الميراث والمعاندون يرمز لهم بحرف «أكسى» وهكذا بحيث يستطيع رئيس الدير أن يعرف من هذا الوضع صفة كل راهب وطبيعته دون عناء.

ثم يذكر بلاديوس أن ملاك الله أضاف شفويا الى ما جاء فى اللوح المكتوب أنه اذا جاء الى الدير راهب غريب يرتدى زى مخالف لزيهم لن يدخل معهم الى المائدة، وعلى من يبتغى دخوله راهبا فى الدير أن يكلف بالعمل اليدوى ثلاث سنين قبل أن يمنح زى الرهبان وحلقة

الرأس «التي تميز هؤلاء الرهبان، أى حلق ذوابة شعر الرأس فى المكان الذى يضعون عليه طواقيهم. وعلى الرهبان أثناء تناولهم الطعام أن يضعوا على رؤوسهم القلانس التى تحجب رؤوسهم ووجوهم حتى لا يرمقوا بعضهم بعضا وهم يأكلون، وعليهم الايتجاذبوا أطراف الحديث وهم على المائدة، والايتطلعوا من جانب لاخر. كذلك أمر الملاك باخوميوس أن يطلب الى رهبانة ترديد أثنتى عشر مزمورا كل يوم وأثنتى عشر كل مساء وأثنتى عشر ثالثة أبان الليل وعندما يتقدمون للطعام يرتمون المزمور الكبير».

وقد استخف باخوميوس من الاعباء المفروضة على الرهبان، فقال الملاك «أن الاجزاء التى عينتها للرهبان للقراءة قليلة جدا حقا، لكى يكون فى وسع الضعفاء من الرهبان تفنيذ القوانين دون أن يتقاعسوا عنها. أما الرهبان الذين بلغوا الكمال فأن أجتهادهم لا يحدده قانون».

على أن رواية الاسطورة الدينية كان لها أثر تاريخى بالغ الاهمية، ذلك أن قصة اللوح المكتوب والوصايا الستة المنقوشة عليه وظهور الملاك للانبا باخوميوس تعيد البنا ذكرى أنبياء العهد القديم وقصصه المجيدة، كما جاء فى قصص موسى ولوحى الوصايا العشرة، ولكن منطوق القواعد الرهبانية الوارده فيها هو ما نسعى الى تسجيله، لان هذه النواة المبدئية هى الاساس الذى بنى عليه القديس باخوميوس قوانينه الهائلة التى أحدثت أنقلابا هائلا فى الاوضاع الرهبانية المألوفة فى ذلك الزمن، وأثرت أعظم تأثير فى توجيه الاجيال القادمة فى كل أقطار المسكونة، لانها أصبحت الاساس العظيم الذى أبتنى عليه الخلف الصالح تلك الانظمة الديرية.

باخوميوس والتعليم:

من مآثر باخوميوس الجليلة اهتمامه وعنايته بالتعليم بين الرهبان فقد كان القدامى من النساك يحتقرون القراءة والكتابة ويعرضون عن اقتناء الكتب ويتجنبون الدرس والتعليم، فصمم باخوميوس على القضاء على تلك الفكرة القديمة. وقضى على الامية قضاء مبرما وجعل معرفة القراءة شرطا من شروط الدخول فى الدير. ولابد على الراهب من تحصيلها فى سنى التجربة والاختبار الاولى. كما أنه نظم ثلاثة دروس يوميا، عند الساعات الاولى والثالثة والسادسة من النهار للمبتدئين، ثم دروسا أخرى عامة يعقدها رؤساء الاديرة بأنفسهم يومى

الصيام الاسبوعى أى الاربعاء والجمعة فى تفسير الكتب المقدسة والتعاليم المسيحية. وكان حضورها أجباريا على كل الاخوة. وكان المقصود من التعليم هو توفير ما يلزم للراهب لقراءة الكتب المقدسة وكتب الصلوات وتاريخ الرسل والتعاليم الدينية البحتة، فكان الغرض من التعليم دينيا قبل كل شيء وليس دنيويا. وكان للتعليم أكبر الاثر فى السمو بالاديرة الباخومية، وأصبحت المراكز الممتازة اللامعة فى عالم العلم والتعليم، والمعامل الحصينة التى حفظت فيها مؤلفات آباء الكنيسة والآداب القديمة ومحتويات مكتبات الاديرة العديدة من كتب المواعظ، وكتب الصلوات، والميامر وأقوال القديسين وحياتهم، والشروح ورسائل التأمل والتصوف وغيرها من الموضوعات العديدة التاريخية والادبية، وكانت كل هذه المكتبات وما تحويها من المؤلفات مفتوحة على مصراعيها لكل قارىء يريد الاستفادة بما فيها.

منشآت [(١)] الانبا باخوميوس من الاديرة الاخرى:

ولم يمض على القديس باخوميوس سوى بضع سنوات بعد تشييده لدير «تابينسى» حتى كثر حوله أعداد الاخوة من النساك واضطر الى انشاء دير آخر قال البعض أنه أقيم فى قرية، وقال غيرهم فى قفر ويقع شمال الدير الاول فى مكان يسمى «أفوا». وفى بعض المراجع دعوه «برو» وفى النصوص القبطية أطلقوا عليه «فبو» وفى العربية اسم «فاو».

دير فاو:

زاد هذا الدير ونما وعظمت أهميته حتى جعل القديس باخوميوس مقامه فيه وصار مركز بقية اديرته جميعها، ثم شيد فيه كنيسة بديعة فسيحة الارجاء بلغت ١٥٠ دراعا فى الطول و٧٥ دراعا فى العرض. وقد ذكرها أبو صالح الارمنى من مؤرخى القرن الثالث عشر. وقد تناول وصفها فى كتابه ومن قوله: «وجميع الصور فيها كانت فص زجاج مذهب وملون وعمدها رخام. هدمها الحاكم بأمر الله».

أما ما جاء فى وصف الدير: «كان للدير سور كبير مرتفع الجدران، ولا يدخل اليه الا من

(١) وصلت الاديرة الباخومية الى أقصى الشمال عند مدينة كانوب على مصب فرع الدلتا الكانوبى على ساحل الاسكندرية الشرقى حيث أقيم دير زاهر وهو معبد أبو صير القديم على مسيرة ١٠ كم على ساحل البحر غرب الاسكندرية فى منطقة مريوط. وقد حوله النساك الى دير فى العصر الرومانى ما زالت آثار قلاليه وصوامعه قائمة بجوار أسواره من الداخل. وأساس كنيسته فى رحبة المعبد الوسطى ما زالت تشاهد.

باب واحد. وكان الزائر اذا دخل الدير يجد أولا منزل الضيوف، ثم قريبا منه المعامل العمومية كالمطبخ والمطعم والخبز وغير ذلك من المصانع، ثم منتدى الرهبان، ومجلسهم العمومى ثم الكنيسة تفوق الابنية كلها علوا وأحكاما، ثم أخيرا مقام الرهبان، وهو عبارة عن بيوت شتى فيها قلالى متعددة يسكن كل راهب واحدة منها مع ردهة عظيمة يجتمعون فيها لاشغالهم العمومية، فتجد هذه الابنية العديدة أشبه بقرية تخطها الازقة والشوارع وتزينها البنايات المنظمة، بينها جنائن صغيرة يقوم الرهبان بفلاحتها».

ذكرنا أن القديس باخوميوس جعل مركز الرئاسة العمومية فى دير «فاو» المذكور. ثم وضع منذ ذلك الحين فى ترتيبه الذى سار عليه نظامه فى تدبير الاديرة فجعل رئيسا عاما على جميع الرهبانية ثم رؤساء خصوصيين يطيعون الرئيس العام، وكان بقرب الرئيس وكيل يتولى تدبير الرهبانية فى أحوالها الزمنية يسمى «ايكونومس» أى مدير المنزل. وهذه الهيئة النظامية سار عليها الغرب. ثم شاعت حتى صارت تعم كل الرهبانيات بعد ذلك.

وقد كان الانبا «ثاودروس رئيس دير تبانيسى» عندما ينتهى من عمل الدير ومهامه يسير كل يوم الى دير «فاو» ليواجه القديس باخوميوس ويسمع ارشاداته، ثم يعود ويكررها على رهبانه.

دير بليمون:

بعد أن أتم القديس باخوميوس ديرى «تبانيسى، فاو» قدم عليه من بلدة «شينسيت» عابد قديس يدعى «ابونه» ، كان رئيسا على جماعة من الرهبان المتوحدين، وقد توسل ذلك القديس الى الانبا باخوميوس أن يقبله ورهبانه فى طاعته ويجعل مقامهم ديرا على طريقته المستحدثة، فأجابه الى طلبه، وذهب معهم الى «شينسيت» ، وأقام هناك ديرا قانونيا، وأصبح بعد زمن قليل من أشهر أديرة القديس باخوميوس وأعظمها شأنا وأكثرها رهبانا، ويعرف الآن باسم دير بليمون على بعد ثلاث ساعات من بلدة «قصر الصياد» .

ويوجد فى داخل الدير المذكور ثلاث كنائس: الاولى كرست على اسم الشهيد مرقوريوس المعروف بأبى السيفين، وهى أجمل الكنائس الثلاثة وأقدمها، وتعلوها القباب العديدة، ذات أسوار عالية وعقودها بيضاوية الشكل، وفيها خمسة هياكل، وهى مزينة بنقوش بديعة. والكنيسة الثانية شيدت تذكارا للقديس بليمون وهى على مثال الكنيسة الاولى ولو أن أسوارها أقل علوا وعقودها مقوسة. أما عن الكنيسة الثالث فهى عبارة عن هيكل أقيم فوق سطح الدير

على ذكر السيدة العذراء ويروى أن هذه الكنائس بنيت بعد تشييد الدير بزمن بعيد، ولم يصبح للرهبان مقام فى ذلك الدير اليوم أنما مازال مزارا يؤمة الناس فى كثير من المناسبات للتبرك.

دير العذارى:

يقع هذا الدير فى ناحية السليمات التابعة لمدينة دشنا. وقد ورد فى سيرة الانبا باخوميوس بشأن اقامة ذلك الدير، أن أخته «مريم» جاءت تزوره فى احدى السنين وهو يمارس النسك فى ديره «بتبابنا»، ولم يكن يرضى مقابلة النساء فأرسل اليها البواب يبلغها: «أن لا يسؤك يا أختى الا تشاهدى وجهى وكفاك أن تعرفى أنى حى سالم، فهيا أنظرى يا أخيه لعل الله يدعوك الى الزهد بالعالم والعيشة النسكية، فان رضيت بذلك أرسلت بعضا من رهبانى يبنون لك ديرا بعيدا من هنا».

فأذرفت مريم أخته الدموع عند سماعها ذلك الكلام ثم لبت دعوة أخيها. فبنى لها ديرا عبر النهر وسمى بدير العذارى. ثم تواردت اليه الفتيات بقصد التبتل، واتبعن قانون الانبا باخوميوس الذى عين لهن مرشدا من أحد شيوخ رهبانه يدعى «بطرس». وكان يقوم بفلاحة الدير بعض من الاخوة الذين يعودون الى ديرهم فى «تبابنا» فى المساء ولا يسمح لهم بتعاطى الطعام عند الراهبات.

أما العذارى الراهبات فكن ينسجن أثواب الرهبان ويخطنها من الصوف والكتان الذين يرسلهما اليهن الوكيل الاكبر «الايكونومس».

دير طيبيو:

كان يزداد الاقبال على الحياة الرهبانية بدرجة كبيرة، وانتشرت الرغبة فى العيشة النسكية على يد القديس باخوميوس كثيرا، وقد وصلت أخباره الى مسامع رجل أشتهر بالورع والتقوى ومن أصل شريف عريق يسمى «بترنيوس» وكان هو نفسه قد شيد ديرا يسمى «طيبيو» فى أحد أملاك أسرته الواسعة، فأرسل الى القديس برسالة رقيقة وهى: «فلتشملنا محبتك بنظرها ولتتفضل الى حقارتنا لكى نستظل نحن أيضا فى حمى هذه العيشة النسكية التى أوحى بها اليك السيد المسيح» فأجاب القديس باخوميوس سؤال بترنيوس ونظم ديره فى سلك أديرته.

وكان بترنيوس قد أوقف كل أرزاقه على هذا الدير. فتولى أمره مدة الى أن أقامه الانبا باخوميوس رئيسا على دير «تزمنت» بقرب مدينة أخميم وأقام «أبولونيوس» مقامه فى «طيبيو» التى تسمى اليوم بلدة «الطواوى».

دير توموشينس:

كان ذلك الدير يضم جماعة من النساك المنفردين، فاتفقوا مع رئيسهم ويدعى «يونان» على الانضواء تحت قانون القديس باخوميوس فكتبوا اليه بما قر عليه رأيهم، فأجاب ملتمسهم. وبذلك كانت تلك هي الجماعة الثالثة من النساك التى رغبت فى الانضمام الى رهبانية القديس باخوميوس.

ومما يروى من سيرية القديس باخوميوس المدونة بالقبطية ولها صلة بالدير المذكور، أنه فى أحد الايام وهو فى دير فاو جاءه عند المساء أحد السعاة يخبره بأن أحد الرهبان فى دير «توموشينس» هذا على وشك النزاع، وهو لم يعمد بعد بماء المعمودية. فسار الانبا باخوميوس من ساعته مع تلميذه الانبا تاؤدرسى، فمشى نصف ليلته حتى وصل الى دير توموشينس، وهى تبعد عن فاو حوالى ثلاثين كيلو مترا تقريبا، وبينهما النيل. فلما دخل الدير أبصر ملاكين نزلا من السماء ليعمدا الراهب المنازع وانتهى الأمر.

وأهم ما يشاهد فى الطريق من دير توموشينس حتى جهة أخميم آثار عديدة لكثير من الاديرة التى كانت تزخر بها تلك البقاع، ومنها ما كان يسمى بدير «طاسا» الذى يدعى بالقبطية "TSI" .

دير أخميم:

أراد أسقف مدينة أخميم وقتئذ ويدعى «آريوس» أن يقرب الرهبان من مدينته فأعطاهم أرضا قريبة من أسوار المدينة، فشيد فيها باخوميوس ديرا كبيرا يعرف باسم دير «أشمين أو أشميم» ثم عرب باسم دير أخميم، وهى المدينة التى سماها اليونان «بانوبوليس» أى مدينة الاله «بان». وقد واجه القديس مقاومة شديدة من بعض سكان تلك المدينة التى كانت معقلا من معاقل جماعة الفلسفات اليونانية الرومانية. وكان يسكن تلك المدينة كثير من الاقوام والشبان المتفلسفين، وكثيرا ما كانوا يتقدمون يتحدون الرهبان، ويجادلونهم ويعرضون عليهم

من أنواع المشاكل والحجج المتعددة بقصد وضع العراقيل أمامهم والازدراء بهم والعمل على تثبيط هممهم بكل الوسائل. الا أن القديس باخوميوس فطن الى خطورة المكان الذى يقع فيه دير أخميم، وأقام فيه من فطاحل الرهبان المتضلعين فى العلوم الدينية واللاهوت ليكسروا من شوكتهم وزهوهم.

واليك بعض المشاكل على سبيل المثال، والتى وردت فى سيرة الانبا باخوميوس المدونة باليونانية وهى: سأل بعض أهل أخميم المتفلسفين الانبا ثاودروس: من هو الانسان الذى مات ولم يلد: قال آدم. ثم سأل أيضا: وأى انسان ولد ولم يمت: قال أخنوخ. قال وأى حى مات ولم تفسد جيفته بالنتن؟ قال: امرأة لوط التى صارت نصب ملح.

دير مينه:

ثم ازدهر دير أخميم ونما عدد الرهبان بقرب تلك المدينة نموا هائلا حتى أضطر القديس باخوميوس الى تشييد دير ثالث سماه دير «مينه» وأقام عليه بترونيوس رئيسا. وهذا الدير كان موقعه بجوار دير «طاسى». ولما لاحظ زيادة عدد العذارى[1] الراغبات فى الزهد، أقام على مقربة من دير مينة هذا ديرا رابعا خصصه للعذارى المتزهدات، وسرعان ما أزهر وامتلأ بهن حتى بلغ من آوى آليه من الرهبات نحوا من أربعمائة راهبة.

دير أسنا:

بعد أن أتم القديس باخوميوس تلك الاديرة العديدة، وانتشرت بسببها الحياة النسكية فى مناطق الشمال، الهمه الله فى الرؤيا أن ينشىء له أديرة فى الجنوب، فسار الى منطقة «طيبة» ومنها الى «اسنا» حيث كان تنصيره فيها. وهناك شرع فى تشييد دير عند سفح جبلها فى منطقة تعرف عند اليونان باسم «بخنوم» وبالقبطية «تنوم».

وبعد فترة من الزمان اجتمع أساقفة تلك الناحية، وكهنتها للنظر فى أمور الدين وأستقدموا الانبا باخوميوس الى كنيسة اسنا وأمطروه بأسئلة عديدة ليتحققوا من صحة ما يذاع عنه من

(١) لما زاد عدد النساء اللائى تهافتن على معيشة النسك وضع باخوميوس الانظمة والقوانين لهن كما فعل للرهبان وجعل رئيسة الدير تشترك مع الرئيس فى شئون الراهبات. وكانت العادة عند وفاة أحدى الراهبات أن يوضع جسدها بجوار النهر، فيأتى الرهبان ويأخذونه فى قارب حيث يتولون مهمة دفنه.

المعجزات كمعجزة أسرار القلوب والانباء بأمور مستقبلة الى غير ذلك مما كان يتناقله القوم بصدده، فأجاب القديس بكل ما اتصف به من حكمة ووداعة على هذه الاسئلة.

وكان فضل القديس باخوميوس عظيما فيما بذله من جهود الجبابرة لا يواء جميع الرهبان الغفيرة التى تكاثر وفودها عليه فى تلك البقاع، فلم يكف عن تشييد الاديرة اللازمة لهم، حتى قيل أنها بلغت ما يقرب من العشرة أديرة، وتفرع منها غيرها بمرور الازمان، حتى بلغت شمالا فى أطراف مدينة كانوب عند مصب فرع الدلتا الكانوبى على ساحل الاسكندرية حيث بلغ تعداد رهبانها حينئذ سبعة آلاف من الرهبان.

ادارة القديس باخوميوس الرشيدة بأديرته

كان النظام الدقيق الذى ابتدعته عبقرية الانبا باخوميوس النادرة وجبروته الفائق فى تأسيس حكومة وطيدة الاركان ذات دستور محبوك الحلقات، لادارة شئون أديرته العديدة مضرب الأمثال. فقد قسم الادارة الى قسميها الطبيعيين وهما الادارة المحلية لكل دير والحكومة المركزية لكافة الأديرة. وفى كلا الادارتين كانت الطاعة المطلقة أساس الدستور، وقد روى المعاصرون أمثلة عجيبة تدل على روح الطاعة العمياء بين الرهبان، منها أن الرئيس اذا طلب واحدا من الاخوة وهو يكتب ترك القلم عند آخر حرف كان يكتبه، وسارع الى تلبية أمره، ثم يعود الى أكمال الكلمة التى لم يتم كتابتها. وهذا راجع الى التعاليم التى اكتسبها القديس وهو فى سلك الجندية الرومانية.

أما الادارة المحلية للدير فكانت توكل الى رئيسه، ولكل رئيس نائب يساعده فى الاشراف على الاعمال اليومية العادية التى يتطلبها الدير. ثم كان لكل دير أمين حتى اليوم يدعى «ربيتة». كما كان فى الاديرة القبطية، وللمكتبة أيضا خازن وكان عادة من النساخ، وهنالك المعلمون والخبازون والنجارون والبناؤون والحدادون والزراع والنساجون والجمالون وغيرهم من الفئات العديدة التى تتطلبها ظروف الحال فى كل دير حسب المنطقة التى يكون فيها، ولكل من هذه الفئات رئيس يشرف على عملها تحت رعاية رئيس الدير أو نائبه، ولما كثر الرهبان وتنوعوا فى الاديرة الباخومية قسموا الى أسر وكل أسرة منها تضم رهبان أمة معينة، ومن المعروف أن حياة الشركة فى تلك الاديرة اجتذبت الرهبان من أمم متباينة مثل السريان واليونان

واللاتيين والارمن والاحباش وغيرهم. وكان لكل أسرة معلم من جنسهم يمكنه التفاهم مع أبناء قطره ويرشدهم. ومن الجائز أن هذا النظام هو الذى ورثته الجامعات فى العصور الوسطى حيث انتشر فى رحباتها نظام الامم، وكان منها جامعة باريس تحوى خمس أمم تشمل الفرنسيين والانجليز والنرمانديين والبيكارديين والنرمان والبريطان، وربما أخذ عن هذا النظام أيضا نظام الاروقة الذى ساد الجامعة الازهرية الى عهد قريب مثل أروقة الصعايدة والبحاروة والمغاربة والشراقوة والاحباش وغيرهم.

وكان مما قرره الانبا باخوميوس هو أن الدير الذى يعتبر وحدة قائمة بذاتها لا ينبغى أن يكون فى معزل عن الاديرة الاخرى وهنا يبدأ نظام المركزية الدقيق ويتدرج الى أن يصل الى الادارة البيروقراطية العليا فى الدير الرئيسى الذى يقيم فى رياسته أب الشركة أو الرئيس الاعلى وهو خليفة باخوميوس. وكان كل ثلاثة أو أربعة أديرة متقاربة يكونون ما يسمى بالقبيلة، ويشترك رؤساؤها فى انتخاب واحد من بينهم فيكون زعيما فى تلك القبيلة، وهم يجتمعون من وقت لآخر للتشاور فيما يلاقونه من صعاب وفيما يهمهم من الأمور، وجميع الرؤساء وزعماء القبائل يخضعون خضوعا تاما مطلقا لا رجعة فيه ولا نقاش ولا استئناف للرئيس العام.

واشراف هذا الرئيس العام يأتى عن طريقين:

١ـ الطريق الاول هو الزيارة، وكان باخوميوس دائم الحركة والتنقل بين أديرته للتفتيش عليها والعلم بدقائق أعمالها، وكان بترونيوس الذى خلفه فى الرياسة بعد مماته ثم من تلاهما من الرؤساء كانوا ينسجون على منوالها وخصوصا الآب الروحى الكبير.

٢ـ والطريق الثانى مركزى يتلخص فى عقد اجتماعين كل عام، وكان جميع رهبان المؤسسات الباخومية يحضرون هذين الاجتماعين فى الدير الرئيسى فى «فاو أوبيو pbau» أو دير الرياسة العليا اذا انتقلت منه لغيره، وتحدد للاجتماع الاول موسم القيامة احتفالا بعيد الصعود وهو من أهم أعياد القبط. والاجتماع الثانى فى ٢٢ مسرى الموافق ١٣ أغسطس. والغرض من هذا الاجتماع الاخير هو بحث حالة الاديرة الداخلية والخارجية وتقديم التقارير الخاصة بكل دير منها، وبعد طرح مسائل الاديرة على بساط البحث ومحاسبة كل رئيس عما قدمت يداه فى أثناء العام المنصرم، يقرر المجلس السياسة العليا العامة التى يجب على الرؤساء

اتباعها لحسن سير العمل والنظام والعبادة فى جميع الاديرة، ثم يعلن الرئيس العام أسماء الرؤساء الفرعيين الجدد كما يعلن التنقلات بين رؤساء مختلف الاديرة. وأخيرا فى جلسة ختامية يحضرها الرهبان قاطبة، تعقد فيها صلاة جامعة وفى مشهد رهيب مؤثر يعلنون مغفرة الخطايا والصفح العام عن ذنوب المذنبين، ثم يبارك الرئيس الاعلى جميع الحاضرين.

ومن العجيب أن نظم وقوانين باخوميوس العظيم ظهرت أنظمته فى الديرية البندكتية التى أسسها القديس بندكت الذى أقتبس الكثير من أفكار القديس فى حياة الشركة اقتباسا يكاد يكون فى بعض الاحيان نقلا حرفيا. وأصبحت الصبغة الانسانية الروحية فى رهبنة الغرب مصرية المنبت. وقد ظلت قوانين باخوميوس وتعاليمه منتشرة تتداولها أيدى الرهبان الغربيين خلال العصور الوسطى.

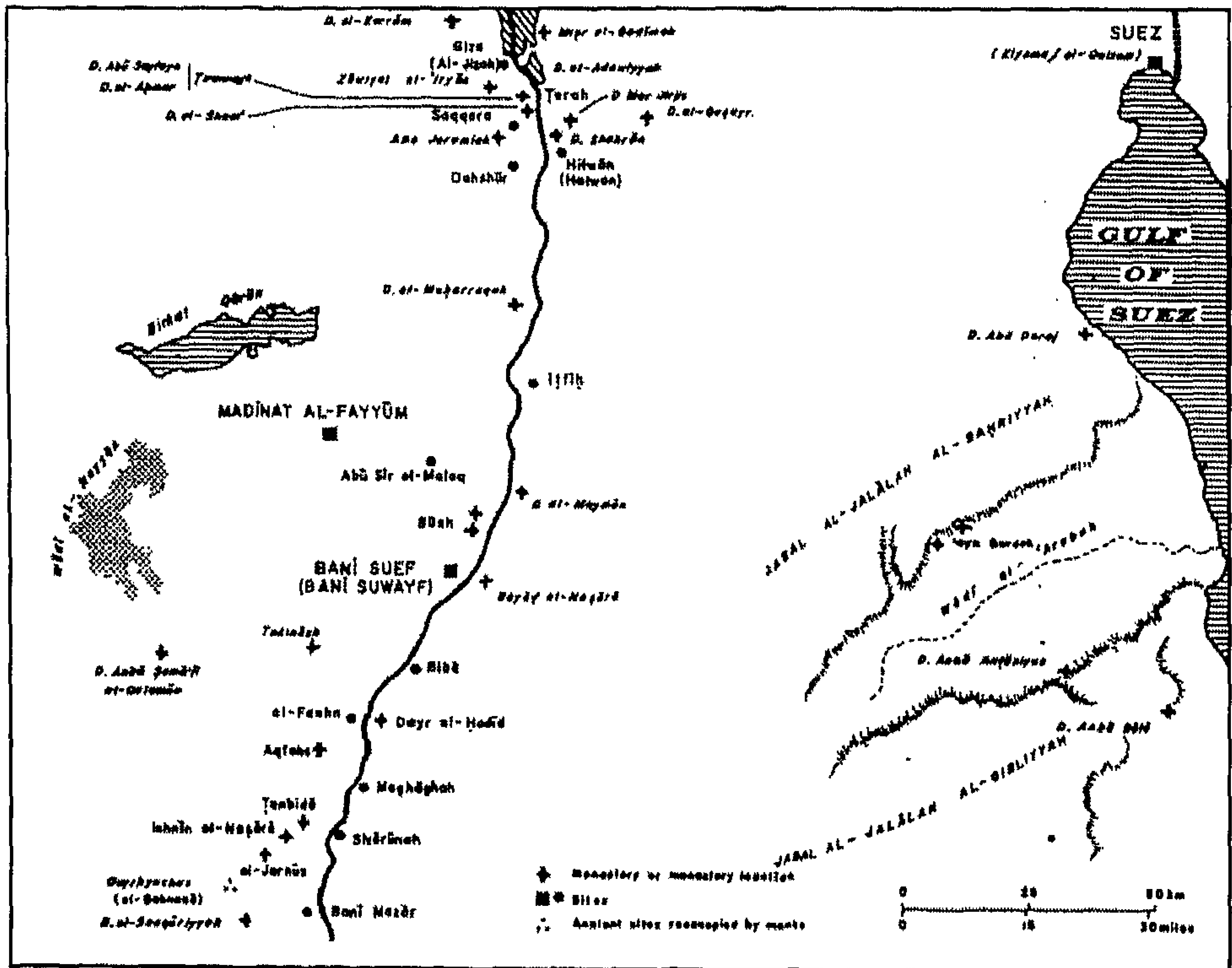
رحيل القديس باخوميوس:

كان المجهود الجبار الذى يقوم بأعبائه القديس باخوميوس من الاعمال العديدة وتنظيم الاديرة الكثيرية التى قاسى وعانى الكثير فى تشييدها حملا ثقيلا على كاهل الزعيم الاكبر كما لا يخفى ما كان يبذله دائما فى التنقل بين أديرته ومن مكان الى آخر واعظا ومرشدا ومنظما، وبهمة لا تعرف الكلل أو الملل، وحتى عندما وقع الطاعون فى أرض مصر عام ٣٤٨م، وأنتشر ذلك الوباء حتى امتد الى الاديرة الباخومية، وكان يحصد الكثير من الاخوة، فكان باخوميوس وهو مثل أعلى للزعماء يتنقل بين تلاميذه من المصابين عندما وقعت الكارثة بهم فى كل مكان، وكان يقوم بتمريضهم ويساهم فى دفن موتاهم، ويعمل على تقوية جمعهم بالايمان والصلاة غير مكترث بما يحفه من المخاطر حتى اذا ما فات عيد الصعود من تلك السنة الا وبدأ هو أيضا يشعر بأعراض المرض تهده هدأ حتى خارت قواه وعرف بقرب رحيله الى الرفيق الاعلى.

عندئذ جمع أبناءه حوله وأوصاهم أن يتمسكوا بأهداف النظام الذى وضعه، فلا يفتروا فى الصلاة أو العمل، وأنه متى جاءت الساعة فلهم أن ينتخبوا من يشاءون لرئاستهم، ولكنه يقترح عليهم مجرد اقتراح أن يكون خلفه «بترونيوس» ويظهر من ذلك أن القديس لم يكن مستبدا فى حكومته، بل ديمقراطيا أذ ترك لجماعته حرية الانتخاب من يرونة صالحا لزعامتهم.

وفى النهاية توفى باخوميوس يوم ١٥ مايو حسب التقويم اليونانى أو ٢٢ مايو حسب التقويم القبطى. وما زالت السنة التى حدثت فيها الوفاة غير مضبوطة تماما وقيل عام ٣٤٨م عن سبعة وخمسين من العمر.

وقد قام بجنازته تلميذه الانبا «تاودروس» ـ أو تادرس ودفنه فى الجبل المجاور بالدير. ثم نقله خفية الى مكان آخر وفى بقعة غير معلومة تنفيذا لوصيته حتى لا يكون جسده محلا للتبجيل أو العبادة، وكان تادرس يأتى ليلا عند قبره ويصلى دون أن يعلم به أحد من الاخوة. فكان رحيله يوما رهيبا عم فيه الحداد والحزن الشديد بين جموع وجحافل الناس والرهبان. وترك من الآثار الجليلة المباركة بين أرجاء المسكونة ما لا يقوى للدهر على محوها.



الأنبا شنودة[1] الاخميمى وأديرته ٣٤٣/٤٥١م

أصله ونشأته:

يرجح المؤرخون أنه ولد عام ٣٤٣م فى قرية تدعى شنلالا قرب مدينة أخميم[2] بالوجه القبلى من أبوين اشتهرا بالتقوى والفضيلة، ونشأ ابنهما محبا للصدق وعمل الخير ميالا للصوم والصلاة والتقشف منذ نعومة أظفاره، فأرسله والده وهو فى سن التاسعة الى خاله الانبا «بجول» الذى كان ناسكا ذائع الصيت فى ورعه بالقرب من مدينة سوهاج، فسر منه وتنبأ له بمستقبل ذى شأن فى تاريخ المسيحية. وقد تحققت نبوءته فيما بعد وحاز فعلا على شهرة فائقة فى شجاعته وبره وايمانه وقد ورد فى سيرته أن خاله الانبا «بجول» ألبسه رداء «أسكيم الرهبنة» وهو فى ذلك السن الصغير كما أوعز الله له فى رؤيا ثم انتظم فى سلك الرهبنة وبلغ من شدة تقشفه أنه كان لا يتناول طعام أفطاره الذى يحتوى على قليل من الخبز والملح والماء الا وقت الغروب يوميا. وفى الاربعين المقدسة كان يقتات بالنباتات فقط. كما ذكر عنه المؤرخ تقى الدين المقريزى، أنه كان مرارا يطوى فى الاربعين المقدسة. وحدث بعد ذلك أن أثرت عليه تلك المعيشة الصارمة التى كان يحياها اذ ضعف جسمه ونحل حتى لصق جلده بعظمه.

وكان كثير الصلاة والتضرع الى الله من أجل الخطاة ويقضى معظم الليل فى التعبد ولاينام الا فترة وجيزة. كما عرف عنه شدة الرغبة فى الانفراد خارج الدير ليتفرغ للعبادة ويوصى الرهبان بألا يقطعوا عليه صلاته بخالقه. ويروى أن أبليس كان لا ينفك عن محاربته وكثيرا ما كان يظهر له على هيئة ملاك محاولا أن يثنيه عن ورعه وتقواه وهجر حياة التقشف والنسك، ولكنه تغلب عليه بقوة صلاته وصومه المتواصل ودوام يقظته. ويقال أنه عمر طويلا ووصل الى الثامنة عشر بعد المائة، ونظرا لما امتاز به من حدة الذكاء والزهد والتقوى أجمع

---

(١) أصل اسمه مصرى قديم وذكرت بعض المراجع هو «سانتر» بمعنى «ابن الله» وكتب بالقبطية «شينوتى» ثم فى العربية «شنودة» ولكن جاء عن لسان أحد علماء القبط أن أسمه الحقيقى هو «خنودة» أو «عنخ نوده» وتترجم بالعربية باسم «حى هو الله».

(٢) كانت العاصمة الدينية للمقاطعة التاسعة فى العصر الفرعونى القديم «مين» واسمها بالمصرية القديمة هو «برمين» بمعنى بيت الاله مين. وبالقبطية «أومين» وسماها الاغارقة «بانوبلس Panopolis» أى مدينة الاله «بان» الذى يقابل الاله «مين Min» عند الفراعنة وهو المعبود الذى كان رمزا للخصوبة والنسل. وكان بالمدينة مدرسة لتعليم الغنوصية وكان يسكنها كثير من المتفلسفين.

الرهبان على اختياره خلفا لخاله الانبا «بجول» رئيسا للمتوحدين فى الدير الابيض الذى تولى ادارته منذ عام ٣٨٨م، ثم قام بعدة اصلاحات جديدة حوله، وعلى الاخص الكنيسة العظيمة التى شيدها.

وقد وجد حول ديره عدة أديرة أخرى بعضها للرهبان والبعض الآخر للراهبات وضع لها الانبا شنودة نظما جديدة وقواعد غاية فى الشدة والصرامة خصوصا فيما يتعلق بالاشرار والكهنة السيىء السيرة، وقد أصبح تأثيره على الاقاليم المجاورة عظيما وذاع صيته حتى هرعت اليه الالوف من الزائرين والحجاج من مشارق الارض، ومغاربها من سوريا والقسطنطينية واليونان وروما وبلاد الغال وأسبانيا وغيرها من الاقطار البعيدة اكبارا لشأنه واحتراما لمقامه، وممن كان معه من القديسين من الرهبان فى ذلك الوقت ومن معاصريه هم باخوميوس ومكاريوس الكبير ويوحنا وغيرهم. وكان الحجاج يحملون اليه الهدايا والنذور ويتلقون منه النصح والارشاد ويتهافتون على الالمام بما تركه من مواعظ وحكم سامية خالدة.

ولما زاد عدد الرهبان كثيرا فى عهده اضطر الى انشاء عدة أديرة ومنها ما خصص للعذارى[١] اللائى نذرن بتولتهن للرهبنة. وعلاوة على الاديرة العديدة التى أنتشرت فى زمنه وزيادة عدد الرهبان، الا أنه انتشر كثير من النساك المتوحدين بالمغائر والجبال المجاورة لديره. وقد فرض عليهم ضرورة الحضور الى الدير الكبير أربع مرات سنويا للتناول من الاسرار المقدسة. كما فرض على الرهبان فى الدير قوانين يسيرون تماما بمقتضاها. وكان يحتم على الحديثى العهد أن يمضوا أولا زمنا خارج الدير لاختبارهم. ثم يصرح لهم بعد ذلك بالدخول الى الشركة متى ثبت له مقدرتهم على معيشة النسك الطاهرة ويسمح للراهب منهم بالاقامة فى غرفة خاصة. وكان يتعهدهم بنفسه جميعا ويحتم عليهم التخلى عن كل ما يملكون. وكانت الطاعة والعفة من الشروط الاساسية الهامة التى اذا لم تتوفر للراهب يطرد من الشركة. كما أن جميعهم فى الزى والأكل سواء، فانعدمت فيما بينهم الفوارق الاجتماعية.

هذا ومن فضائله التى أدخلها على نظم الرهبنة أنه لم يجعل عمل الراهب قاصرا على الصوم والصلاة ومباشرة الطقوس الدينية فحسب بل حتم عليه استغلال أوقات الفراغ للعمل

---

(١) عندما كثرت أعداد العذارى الراغبات فى ممارسة الحياة النسكية أقام الانبا شنودة ديرا للنساء. وقد جعله تحت رئاسته، وقد وصل عدد الراهبات فيه الى الف وثمنمائة راهبة.

في أى مهنة تناسب استعداده بعد الانتهاء من واجباته الروحية. وعلى ذلك لم يعد الاعتماد على الرهبان على ما يحتاجون اليه من المأكل والملبس من الهبات والصدقات والنذور التى تأتى اليهم من سكان البلاد المجاورة وغيرها كما كان من قبل. وكان من نتيجة ذلك أنتشار كثير من المهن والصناعات المختلفة بين الرهبان كما أنشئت المصانع اللازمة لها، ومن أبرز الصفات التى أشتهر بها الانبا شنودة وأتباعه شدة تعصبهم الى عقيدتهم فكانوا مدافعين ممتلئين بالحماس الكلى للارثوذكسية فصارعوا صراعا عنيفا مع الاديان الاخرى والسلطات السياسية وضد البدعة الاريوسية، كما اشتهروا بمحاربتهم لمعابد المصريين وآثارهم وهدم هياكلهم وأصنامهم. وقد تم ذلك في عصر الامبراطور «ثيودوسيوس Theodosius». وكان الانبا شنوده يعيش فى ديره كما كان يحيا النبى ايليا فى جبل الكرمل كرجل روحى قوى الشكيمة صارم العزيمة مقداما يستمد الوحى من ربه. فكانت تهابه وتخشاه حكام مدينة طيبة وحتى القبائل البربرية نفسها. وقد عرفه الامبراطور وقدره كذلك. كما رافق «الانبا كيرلس» البطريرك الرابع والعشرين كأسقف يمثل الكنيسة فى مجمع أفسس عام ٤٣١ للميلاد لمحاكمة «نسطورس» الملحد حيث أبدى شنودة من مواقفه الحماسية ما يشرف، وهو قبطى الاصل، وبالرغم من معرفته باللغة اليونانية الا أنه كان يكتب مواعظه وخطاباته بالقبطية اعتزازا بقوميته.

هذا وقد ترك الانبا شنودة عدة مؤلفات قيمة من مخطوطاته، وعثر فى القرن الماضى على مجموعة كبيرة منها فى الدير الابيض اقتسمها المتحف البريطانى والمكتبة الاهلية بباريس. وقام بنشر أغلب تلك المخطوطات بالفرنسية العالمين «اميلينو Amélneau» و «ريفيلو Revillout». ولايزال الاقباط يحتفلون سنويا الى يومنا هذا بعيد له فى ديره الشهير فى أخميم. ويؤمه عدد كبير من الزائرين والحجاج من جميع الملل والهيئات تبركا لذكراه واعتقادا منهم أنه يشفى أمراضهم. وقد بنيت على أسمه كنائس عديدة فى أنحاء كثيرة من القطر تخليدا لذكراه.

أوجه الخلاف بين شنوده وباخوميوس

يظهر من تتبع حياة الانبا شنوده وسيرته أنه وجد فى نظام الانبا باخوميوس ما اعتبره تساهلا زائدا ومع أنه أحتفظ بتعاليم الشركة، الا أنه أدخل عليها من القوانين والتعديلات ما

جعل حياة الاخوة في رعايته أشد واقسى مما كانت عليه الاوضاع المقبولة عند باخوميوس. وكان الانبا شنوده يعادى كل شيء بيزنطى دخيل. وهذا يفسر لنا موقفه العنيف من نسطوروس وحركته في القسطنطينية، كما يفسر لنا الفرق الهائل بين مؤسساته ومؤسسات باخوميوس من ناحية أخرى، أذ بينما كانت هذه الاخيرة دولية في طابعها يقصدها جميع الاجناس كالمصرى والبيزنطى واللاتينى والفلسطينى والليبى والافريقى على السواء بينما الانبا شنوده أقتصر هو في أديرتة على الاقباط فقط فأصبحت أديرته معاقل مصرية صميمة وبينما كنائس باخوميوس خاصة بالرهبان فقط الا ان شنوده فتح كنائس الدير للشعب كذلك يأتون اليه في أيام الاحاد والاعياد فيعظهم ويرشدهم لحبه الشديد لشعبه ومقاسمته لاتعابهم كفلاحين يرزحون تحت نير الرومان فهاجم ظلم كبار الحكام والملاك ودعا للرفق بالفقراء. كما أمتاز شنوده بقوته في الكتابة وبلاغته كما كانت فصاحته الخطابية من أظهر مواهبة.

ويغلب على الظن أن قصر أديرة الانبا شنوده على الاقباط فقط ذلك الوضع المحدد الضيق أدت الى قلة المعلومات التى كانت مثار النقد في كتب الرحالة والحجاج الذين شغفوا بزيارة مؤسسات الاباء المصريين في أقصى القفار والصحارى المصرية لاسيما الاب الرحالة «بلاديوس» الذى لم يورد في كتاب «بستان الرهبان» أى أشارة للانبا شنوده أو جماعته الرهبانية، وغير معقول أن بلاديوس كان يجهل وجودها، ولكن من الجائز أنه لم ترق في نظره المبادىء التى ساروا عليها وفضل الايتناول الكلام عنها وعن مؤسسها.

آثار الانبا شنوده

الدير الابيض: يبعد هذا الدير عن مدينة سوهاج بحوالى ثمانية كيلو مترات. والسبب في تسميته بهذا الاسم ربما يرجع الى أنه مشيد أغلبه من الحجر الجيرى، وينسبون بناءه الى الانبا شنوده حوالى القرن الرابع الميلادى ويخيل الى من يشاهد ذلك الدير وهو مقبل اليه كأنه ينظر الى معبد عظيم من معابد الفراعنة التى أنشئت قبل الميلاد بمئات من السنين على طراز معابد مصر القديمة. وهذا النمط الذى اتخذه الرهبان في تشييد هذا الدير جعله ينفرد على سائر الاديرة العديدة التى أقيمت في وادى النيل في نظام المبنى وخواصه.

على أن معظم الاحجار التى أستخدمت في بنائه أن لم تكن جميعها قد أخذت من معابد

مصرية كانت قائمة على مقربة من الدير، بدليل ما يشاهد على سطوح تلك الاحجار من الرسوم والكتابات الهيروغليفية العديدة ـ وقد لجاء الاقباط الى أخفائها عن الاعين بتغطيتها بالملاط أو بطبقة من الجبس ولما سقطت القشرة التى كانت عالقة بتلك الاحجار ظهرت الرموز والرسوم المصرية القديمة واضحة تماما. ويلاحظ أنه يتخلل البناء أحيانا كتلا ضخمة من الجرانيت الاسود أو الوردى ومعظمها يحمل النقوش والكتابة الفرعونية. وهذه الكتل الصخرية ظاهرة بوضوح فى أكتاف وأعتاب الابواب الخارجية لهذا الدير. ولم يكتف مشيدو الدير بأخذ مواد البناء من المعابد المصرية فحسب بل طبقوا الطراز المصرى القديم تماما وأتخذ المعماريون أول ما وقع بصرهم عليه عندما شرعوا فى تشييده، فمنه أقتبسوا وعليه أعتمدوا، كما يجب الاننسى أنهم أحفاد المصريين القدماء. فورثوا عن معمارى أجدادهم القدماء كثيرا. ومهما طرأ على نظام المبنى من التغيير فى شكله فلابد من أن يصطبغ بالطراز المصرى القديم فى روحة وطابعة.

أما الأبواب الخارجية لهذا الدير فظاهر منها خمسة. أربعة منها مسدودة بكتل حجرية أما الباب الخامس منها فهو الباب الموصل الى داخل الدير ويعرف باسم باب البغل. وفى وسط العتبة العليا رسم بارز للصليب داخل اكليل دائرى. أما توزيع الابواب فهو كالاتى: بابان فى الجهة الغربية ومثلهما فى الجهة القبلية وآخر كبير يقع فى منتصف الجدار البحرى للدير.

ويتخلل الجدران الخارجية للدير فى الاجزاء العليا منها نوافذ ضيقة، ويظهر أنها كانت تستعمل كمغازل يراقب منها الرهبان حركات العدو من الاعراب الذين كثيرا ما كانوا يسطون على الدير لنهب مافيه. ويشاهد بعد الدخول من بابه العمومى صالة مستطيلة يتخللها على اليمين جدار ذو أقواس تعلوها كرانيش ذات نقوش وزخارف نباتية جميلة منحوتة على الحجر الجيرى. ثم يوجد على جدران تلك الساحة «قبلات أى شرقيات» عديدة بوسطها نقوش وزخارف متنوعة ـ فمنها مايتوسطها شكل القوقعة "Shell" ومنها ما بوسطه أغصان الكروم المورقة ويتدلى منها عناقيد العنب كما أن الاغصان تخرج من أوانى جميلة دقيقة الصنع. والبعض يتخلله نفوش وزخارف نباتية متداخلة بعضها فى بعض ويتوسطها صليب صغير داخل أكليل دائرى. والقبلتان اللتان لهما شكل القوقعة فى تلك الصالة تقومان كلا منهما على عمودين مستديرين من حجر الجرانيت الاسود.

وفى أحدى جوانب تلك القاعة «ناووس» يكاد يكون كاملا من حجر الجرانيت الاسود

وعليه النقوش والخراطيش والكتابة المصرية القديمة مما يدل على أن رهبان الدير كانوا قد حملوه الى الدير من أحد المعابد المصرية التى كانت مجاورة لهم للاحتفاظ به لديهم. وقد يفسر وجود هذا التابوت أن الدير أقيم محل المعبد المصرى القديم حيث أن فكرة نقل التابوت شبه مستحيلة ولا هدف منها.

ثم ننفذ بعد ذلك الى صالة أخرى مستطيلة الشكل. ويشاهد على جدرانها من حين لاخر القبلات. ومنها قبلة غريبة الشكل وفى تجويفها الاعلى نسر باسط جناحيه ثم أشبة بتاج فوق رأسه وهو داخل اكليل، وخارج هذا الشكل طاؤوسان متعاكسان فى وضعهما وفوقهما أفرع نباتيه. وعلى الكورنيش الاعلى الخارجى للقبلة غز الان فى حالة عدو أو حركة بين فرع نباتى.

وفى وسط تلك الصالة لاتزال فيها بعض الاعمدة القائمة من الجرانيت الاحمر، ثم أعمده مبنية بالطوب الاحمر من الخارج. أما باطن تلك الاعمدة فيظهر أنها من الرخام أو الجرانيت، ثم نرى فوق بعض تلك الاعمدة تيجانا من الجرانيت على جانب كبير من دقة الصنع وجمال النقش، وأن عددا كبيرا من تلك التيجان الجرانيتية الضخمة ملقى على أرضية تلك الصالة الوسطى وعلى بعض التيجان شكل بارز لوجه آدمى وحول رأسه أشبة بأكيل ويتدلى من رقبته أشبة بعمود كالقصبة الهوائية. أما النقوش البارزة الاخرى التى تزين تلك التيجان فهى رسوم نباتية. وتحوى قبابها من الرسوم الملونة على طبقة من الجبس أشكالا زخرفية جميلة ولو أن معظمها قد زال من تأثير الدخان الذى طمس معالم الكثير من تلك الرسوم. على أن الصليب يشاهد فى وسط شكل أشبه بالسرة.

أما عن الكنيسة التى فى هذا الدير فهى غريبة فى نظامها وطرازها، كما تختلف عن النظام الملاحظ فى كنائس مصر القديمة التى تعاصر تقريبا لكنيسة هذا الدير، فمما يلاحظ عند الدخول اليها قبتان كاملتان فى الوسط الواحدة تلى الاخرى، ثم تليهما الهيكل وفوقه قبة نصفية الشكل مرسوم على أحد جدرانها صورة رائعة بالالوان من نوع الفرسكات وتمثل السيد المسيح جالس على العرش ويمسك بيده صليبا جميل الصنع بالألوان قوامها اللون الذهبى. وحول العرش صورة الاربعة حيوانات فى أشكال غريبة تخالف ما تعودنا رؤياه على صور الايقونات المرسومة على اللوحات الخشبية ثم حوله صور أخرى لعلها للرسل أو لبعض القديسين. وعلى الجانب الايمن من الهيكل جناح على شكل نصف دائرة وتعلوه أيضا قبة

نصفية تعلو هيكل الكنيسة الوحيد وفى داخل هذا الجناح ستة أعمدة متوسطة الحجم من الجرانيت ذات تيجان منقوشة وقواعد. وبين تلك الاعمدة وبعضها قبلات، وفى الجزء العلوى منها أشكال القواقع ورسوم أخرى. ثم تعلو الاعمدة كرانيش من الحجر مزينة بالنقوش والرسوم الزخرفية، ثم يعلوه أيضا أعمدة أخرى أصغر حجما من الاولى ذات تيجان ويتخللها أيضا أشكال القبلات الصغيرة ذات الزخارف والنقوش البديعة أما القبة النصفية لهذا الجناح فتزدان برسوم ملونة قوامها صليب كبير الحجم ويرتكز عليه أشبه برداء وحول الصليب أشبة بسيدات ربما المريمتان وأشخاص الرسل والقديسين. وهذا الجناح الايمن للهيكل مخصص لجلوس النساء أثناء الخدمة والصلاة.

أما الجانب الايسر للهيكل فيحوى جناحا أشبة بالجناح الايمن أذ تعلوه نصفية ثم توجد به خمسة أعمدة متوسطة الحجم من الجرانيت ذات تيجان ثم تعلوها كرانيش من الحجر الجيرى ويتخللها أشكال صلبان وقبلات وفى أعلاها نقوش لقواقع أو أفرع الكرم التى تخرج من فوهات أوانى بديعة الصنع ويتدلى من بين الافرع عناقيد العنب. وفى وسط أحدى القبلات توجد كتابة قبطية باللون الارجوانى ومعظم حروفها مفقوده. ثم يعلو الكورنيش أعمدة أصغر من الاخرى ذات تيجان صغيرة وفيما بينها نشاهد القبلات أيضا. أما القبة النصفية فى هذا الجناح فلا تحوى رسوما مثل ما لوحظ فى القباب النصفية الاخرى. وعلى غالب الاحتمالات أنها زالت أو طمست معالمها بعد طلاء القبة بالجبس أو الملاط.

ونشاهد فى داخل الهيكل ستة أعمدة من الجرانيت ذات تيجان مختلفة الاشكال والنقوش، وفوق تلك الاعمدة كورنيش من حجر الجرانيت الاسود يزدان بنقوش زخرفية نباتية ثم تعلو الكورنيش عادة أعمدة أخرى ذات تيجان أصغر من الاولى كما شوهد ذلك فى الجناحين المجاورين للهيكل. وفى وسط بعض الاعمدة يوجد رسم بارز للصليب. وللهيكل حجاب من الخشب المطعم بالعاج البسيط وتعلوه أيقونة تمثل الانبا شنوده وتلميذه ويصا. يرجع تاريخها الى عام ١٥٧٨ الشهداء.

ومن طريف ما يلاحظ أيضا فى أقسى الناحية الغربية القبلية من الدير الابيض وبالقرب من الساقية قبة كبيرة مبنية من الطوب الاحمر بترتيب دقيق، ولا تزال آثار الرسوم الملونة التى كانت تزينها باقية عليها الى الان. وهذه القبة فى حاجة ماسة الى الترميم السريع خوفا من سقوطها.

أما عن هذه الكنيسة فهى آخر المبانى الباقية من الدير الابيض وقد قام بتأسيسها الانبا شنودة نفسه حوال عام ٤٤١ للميلاد حينما كانت المؤسسة الديرية فى عز مجدها ولذلك لا غرابة فى أنها كانت أعظم مبانى الدير وأبقاها على الزمن واذ اندثرت جميع تلك المبانى بسبب ما طرأ عليها من أحداث الزمان. فقد ورثت هذه الكنيسة اسم المؤسسة كلها وأصبحت تعرف بالدير الابيض. وهى تعد من أعظم وأهم الكنائس القبطية الاثرية معماريا.

وتمتاز باتساعها الكبير ورحابة مبانيها اذ يبلغ طولها ٧٥ مترا وعرضها ٣٧ مترا وأرتفاع جدرانها ٢٠ مترا مما جعلها تبدو من الخارج كأنها أحد القلاع العظيمة أو أحد المعابد المصرية القديمة. هذا وقد عفت يد الزمن على كثير من مبانيها فلم يبق منها الان سوى هياكلها، وهى المستعملة الان كنيسة حيث لا تزال تقام الشعائر الدينية حتى الان.

ولم يحفظ لنا التاريخ عنها الا قليلا، أذ بعد عصرها الذهبى ايام شنوده لم يرد لها ذكر حتى القرن الثامن. وذكر أن فى القرن الثالث عشر حدث زلزال أدى الى تصدع مبانيها وسقوط سقف الهيكل وتطلب الامر أجراء بعض الترميمات التى غيرت شكل الكنيسة. وهناك نص من نفس هذا العصر فيه أشارة الى «النبى شنوده» ويحدثنا المؤرخ تقى الدين المقريزى فى القرن الخامس عشر عن خراب الدير فى عصره، وكيف كان يشغل مساحة قدرها أربعة أفدنة وثلاثة أرباع الفدان، فأذا به يشغل فدانا واحدا. وأخيرا جاء التخريب الواسع النطاق فى أواخر القرن الثامن عشر أثناء المعاركة الحربية التى دارت بين الفرنسيين والمماليك.

الدير الاحمر: يبعد هذا الدر عن الدير الابيض بحوالى أربعة كيلو مترات الى الشمال. وقدسمى بهذا الاسم لان أغلبه مبنى بالطوب الاحمر، كما أن جدرانه مغطاه فى أكثر أجزائها باللون الاحمر وينسب هذا الدير الى قديس مشهور وهو الانبا بشوى الذى يعزى إليه أيضا بناء الدير الشهير المعروف بهذا الاسم فى منطقة وادى النطرون. ومساحة هذا الدير تبلغ حوالى ثمانية قراريط أى حوالى نصف مساحة الدير الابيض.

أما حوش الكنيسة فالظاهر أنه كانت مقامة فيه عدة أعمدة من الجرانيت الاسود ومحفور فى الوسط الصليب داخل دائرة. وهناك آثار وبقايا عديدة لاعمدة من الجرانيت الاحمر. أما الطراز الذى أتبع فى تشييد هذا الدير وهو نفس التصميم الذى نراه فى نظام الدير الابيض أى طراز المعابد المصرية القديمة، والاختلاف عنها فى أن المواد التى أستعملت فى المبانى هو

الطوب الاحمر بدلا من الحجر. ولهذا الدير حوش واحد بخلاف الدير الابيض، ومن وسط الحوش المذكور ننفذ الى كنيسة الدير وهي وأن كانت صغيرة فى مساحتها الا أنها غنية فى رسومها ونقوشها واعمدتها وقبلاتها.

على أن مدخل الباب الموصل الى الكنيسة من الحجر الجيرى، وعلى عتبته السفلى نقوش وحروف مصرية قديمة مما يدل على أنها أخذت من المعابد المصرية القديمة التى كانت تجاور هذا الدير. وفوق العتبة العليا للباب ناووس فوقه صليب داخل دائرة. أما هيكل الكنيسة فهو شبية بهيكل الدير الابيض، ففى صحن الكنيسة قبة كاملة مرتفعة خالية الرسوم أو النقوش، ويغلب على الظن أنها كانت تحوى رسوما ملونة زالت معالمها إما بسبب ترميهما وتغطيتها بالملاط أو الجبس على أيدى عمال عديمى الخبرة واما أنها تساقطت لتعرضها للتأثيرات الجوية أو لتقادم العهد عليها. ثم يلى الصحن الهيكل وتعلوه قبة نصفية وفى وسطها رسوم بالالوان بعضها ظاهر مثل رسم السيد المسيح وحوله الرسل والبعض الاخر غير واضح.

وعلى كل جانب من الهيكل جناح تعلوه قبة نصفية فى وسطها آثار للرسوم الملونة التى كانت تزدان بها تلك القباب ونشاهد أيضا الاعمدة الجرانيتية ذات التيجان الدقيقة النقوش والرسوم البارزة، والكرانيش التى تلى تلك الاعمدة والتى تحوى نقوشا بديعة على الحجر، ثم تعلوها أيضا أعمدة أخرى من الحجر ويتخللها القبلات التى تزدان بالرسوم الملونة غير أن أغلبها غير ظاهر أو أدركه البلى والزوال. ويراعى أن تيجان الاعمدة التى تزين هيكل كنيسة الدير الاحمر أدق وأبدع فى نقوشها وأشكال أوراقها التى تمثل نبات الاكنتا البارزة من تيجان أعمدة الدير الابيض. وفى داخل الهيكل اربعة أعمدة متوسطة الحجم اثنان منها من الجرانيت الاحمر وأثنان من الرخام. ويتبين أن هذا الهيكل بالدير الاحمر تمتاز جدرانه وقبابة بكثرة الرسوم الملونة أكثر من الرسوم الموجودة فى كنيسة الدير الابيض.

ويشاهد كذلك على الجدران الوسطى للهيكل التى تلى الكرنيش الواقع فى أعلى الاعمدة رسوم عديدة ملونة تمثل حيوانات غريبة الشكل يظهر جزء منها وهو غاية فى الدقة والجمال والاتقان. وعلى جدران الهيكل آثار الحريق ظاهرة. ويعزوها البعض الى تكرار هجمات الاعراب على الدير وأضرام النار فية. ويوجد فيه بعض الابواب التى توصل الى المعمودية والى غرف جانبية لعلها استخدمت كمخازن للدير.

وللهيكل كالعادة حجاب من الخشب المطعم بالعاج البسيط، وعليه ايقونه قديمة للانبا بشوى ومما يلاحظ أيضا على الباب الخارجي للدير الذى يوصل الى حوش الكنيسة أنه من الحجر الجيرى الغنى بنقوشه الزخرفية الدقيقة وعتبته العليا من حجر الجرانيت وهى منقوشة بالزخارف المصرية القديمة. وظاهر على الباب المذكور آثار البلى وهو ف حاجة الى الاصلاح والترميم.

أديرة منطقة طيبه «الأقصر»

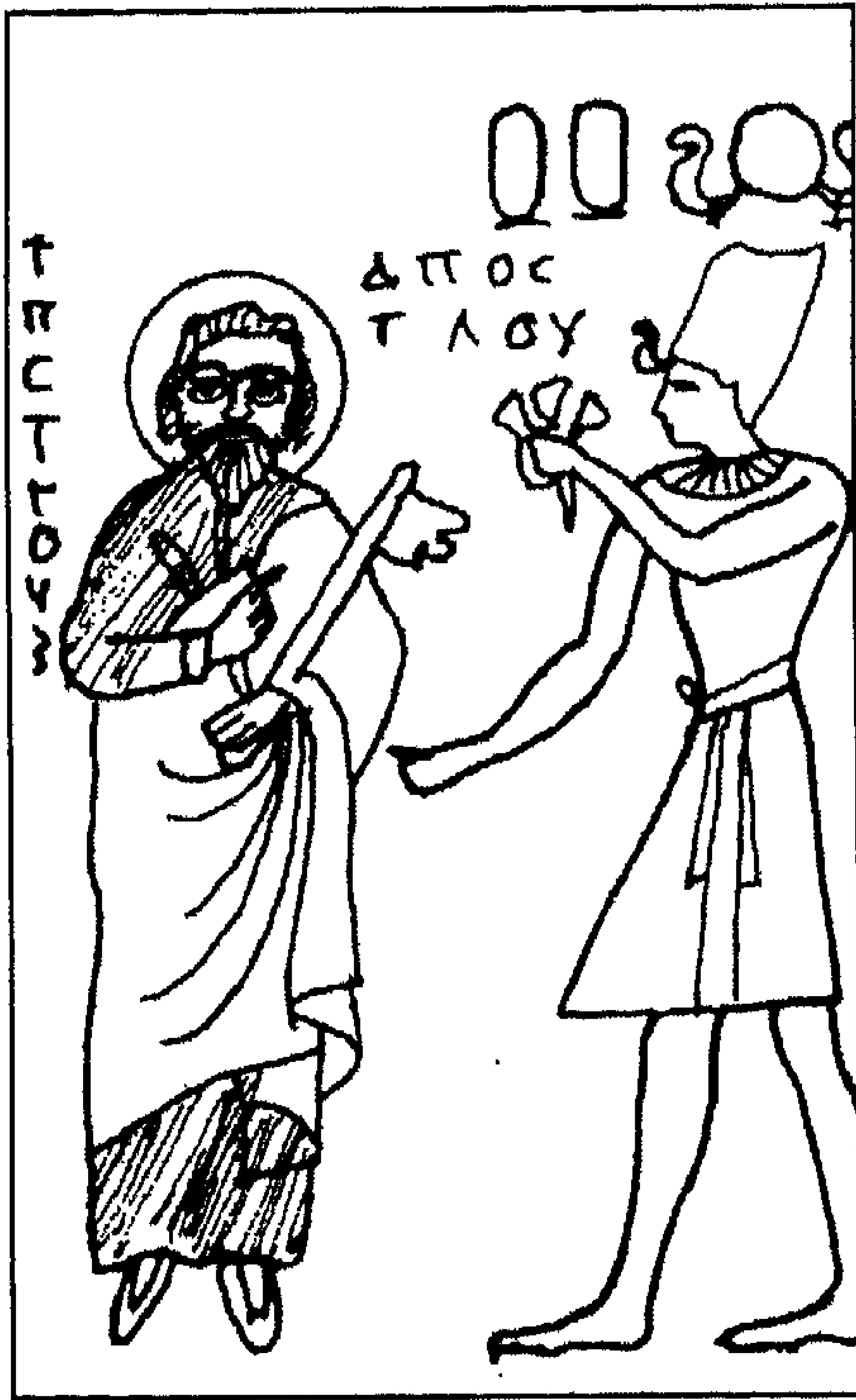
* الدير البحرى
* دير القديس تيودور بمعبد مدينة هابو
* دير القديس فيبامون بناحية مدينة أرمنت
* أديرة نقاده
* دير الأنبا سمعان باسوان

بنى الرهبان المصريون عدة أديرة فى منطقة طيبة وهى الاقصر الحالية الان ومنها:

الدير البحرى: وهو من الاديرة التى شيدها المسيحيون فى طيبة منذ القرن السابع للميلاد وذلك داخل المعبد الجنائزى للملكة المصرية حتشبسوت وأصبح اليوم علما عليه.

دير بمعبد مدينة هابو: فى معبد مدينة هابو فى طيبة أنشىء به دير على اسم القديس تيودر وبه كنيسة على أسمه أيضا وترجع الى القرن الثانى عشر.

دير القديس فيبامون بأرمنت: ومن الطريف أن يكشف الدكتور حشمت مسيحة المدير العام



احتلت الاديرة والكنائس العديد من المعابد الفرعونية كما استولت على اوقافها وممتلكاتها. وفى وادى السبوعة بالنوبة احتلت كنيسة معبد رمسيس الثانى ورسمت على احد جدرانه أمام نقش لرمسيس القديس بطرس

لمصلحة الاثار فى أبحاثه القيمة أخيرا عن طبوغرافية مدينة «ممنونيا أوجيمى» غرب الاقصر عن أماكن بأسماء عدة أديرة كانت منتشرة فى كافة نواحيها. ومنها على سبيل المثال دير قرنة مرعى «ودير أبيفانيوس» ويقع بين أطلال مبانى الاسرة الحادية عشرة بعلوة الشيخ عبد القرنة، «ودير فيبامون» فى معبد الدير البحرى ودير المحارب غرب ممنونيا ودير الانبا مينا ودير بيسنتيوس ودير الرسل ودير الرومى عند وادى الملكات وغيرها. كما ذكر سيادته بمؤلفة عما كانت تزخر بها المنطقة المذكورة بالعديد من الكنائس القبطية القديمة.

أديرة منطقة نقادة: أشتهرت تلك المنطقة منذ فجر التاريخ بعظمة آثارها وتاريخها القديم المجيد، وقد ظل صيتها التاريخى كذلك حتى فى العصور المسيحية المبكرة، وازدهرت فيها الاديرية ازدهارا عظميا كما كان عددها كبيرا بدليل ما بها للان من آثار لعدة أديرة ومازالت بها آثار للكنائس وقد رممت حديثا وتحمل أسماء الاديرة التى كانت منتشرة منذ عهود الرهبنة الاولى ومنها:

١ـ دير القديس فكتور أو بقطر.

٢ـ دير الصليب المقدس.

٣ـ دير الليف.

٤ـ دير المجمع بنقادة وفيه أربع كنائس وهى كنيسة العذراء، وأبو يحنس، وميخائيل، ومارجرجس.

٥ـ دير بسندة أو بسنتيوس.

٦ـ دير الملاك بنقادة بجهة بلدة قامولا.

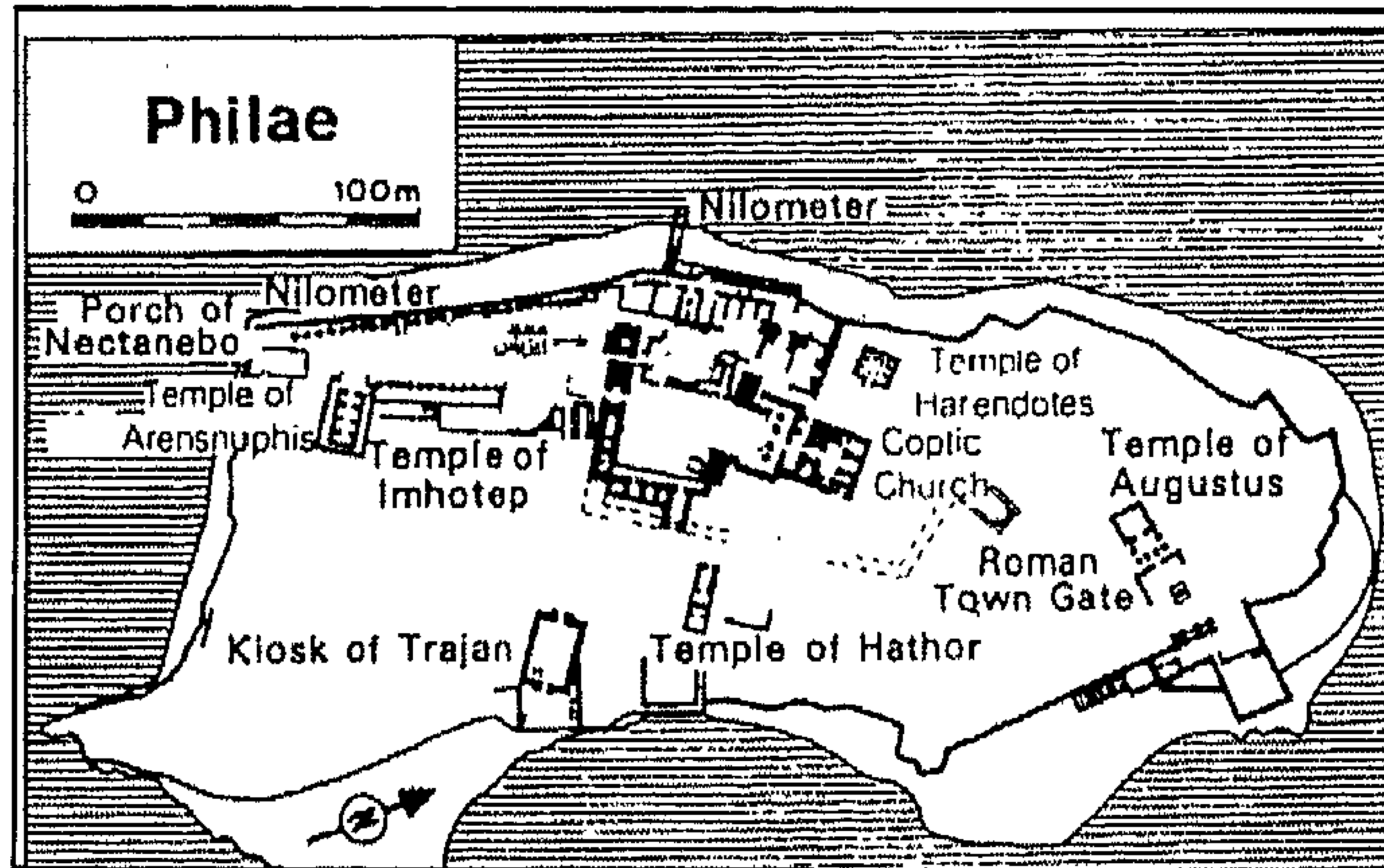
٧ـ دير القزاز أو «الزجاج». ويقع على بعد حوالى عشرة كيلو مترات غرب بلدة نقادة فى الصحراء.

وقد أجريت فى أنقاضه حفائر من بعثة فرنسية بالاشتراك مع المتحف القبطى منذ عام ١٩٤٨. ومازالت تجرى للان فى بعضها الشعائر الدينية فى المواسم والاعياد.

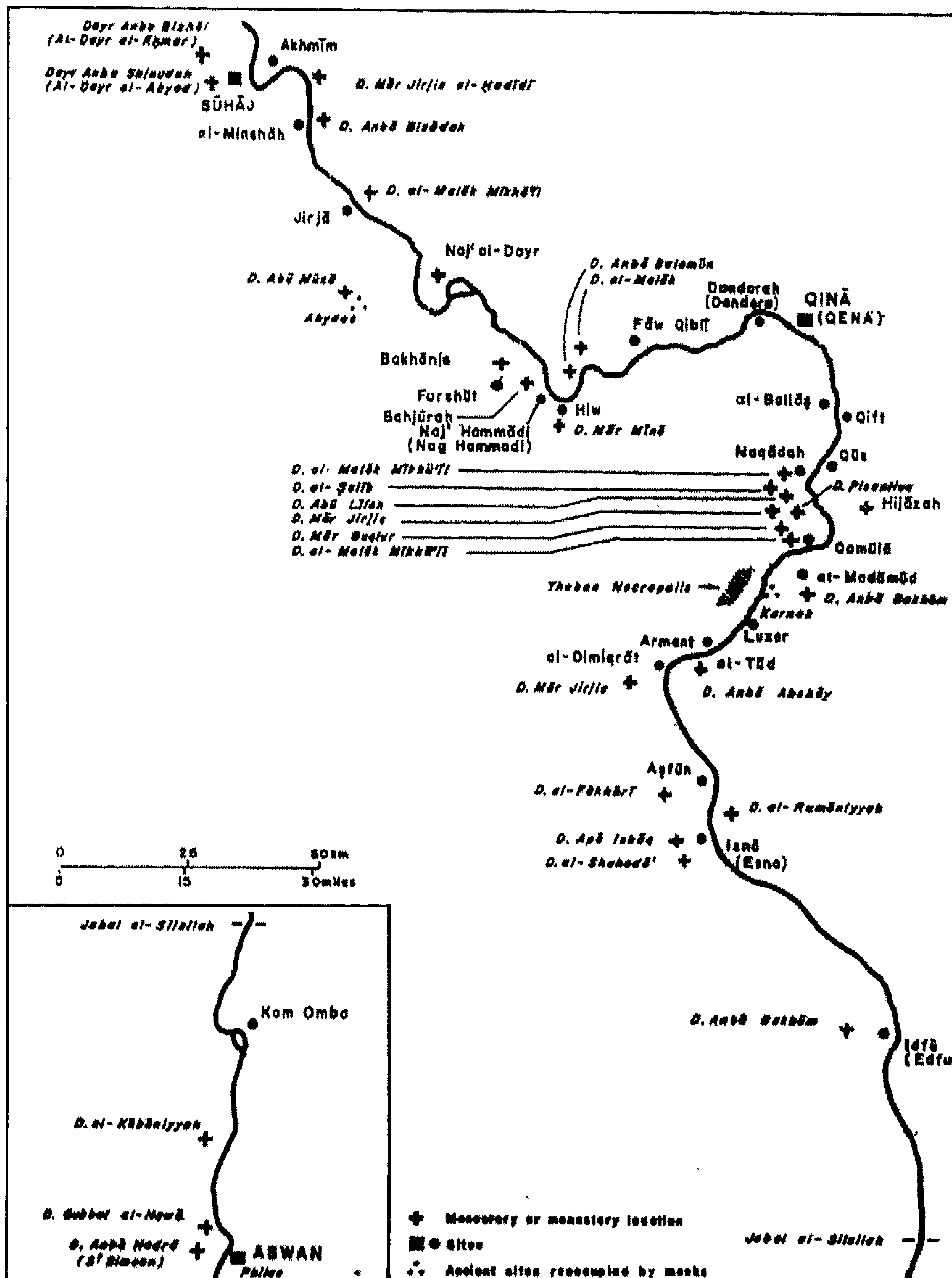
دير سمعان فى مدينة أسوان

أنتشرت الاديرة كذلك فى أقصى حدود القطر، وأهم ما بقى منها فى أسوان هو دير الانبا سمعان ويسمى أيضا بدير الانبا هيدرا. وقد بنى فى القرن السابع أو قبلها. وموقعة بالصحراء غرب أسوان. وقد ظل عامرا بالرهبان حتى القرن الثانى عشر للميلاد. وقد طرا عليه عدة تغييرات فى بنائه. ويتكون من طابقين ومازال محتفظا بأغلب مبانيه، ومنها الكنيسة الرئيسية فيه، وكذلك يحتوى على الكثير من البقايا الاثرية وشواهد القبور المحفورة عليها الكثير من النصوص القبطية، والقلالى وبقايا لعدد من الرسوم الجصية بالالوان ومصورة على بعض الجدران وهى تمثل غالبا أشكال الرسل والقديسين أو بعض الرهبان الذين سكنوا فترة فى أحدى قلالى الدير المذكور. ويلاحظ تشوية أغلب وجوه تلك الصور نتيجة العبث والتخريب خصوصا فى أيام الفوضى والاضطهادات والحروب.

وكان هناك أديرة أخرى لها أهميتها التاريخية والفنية ولكن تناولتها يد الدمار والتخريب وزالت معظم معالمها. ومنها دير فى فيلة يقع شرق مدنية أسوان مقابل لدير سمعان بالغرب(*).



(*) انظر: تاريخ الرهبنة والديرية فى مصر. د. رءوف حبيب مدير المتحف القبطى سابقا، مكتبة المحبة.


Dayr Anba Bishāi
(Al-Dayr al-Aḥmar)
Dayr Anba Shinudah
(Al-Dayr al-Abyad)
Akhmīm
SŪHĀJ
D. Mār Jirjis al-Ḥadīdī
al-Minshāh
D. Anbā Bisādah
D. al-Malāk Mīkhā'īl
Jirjā
Naj' al-Dayr
D. Abū Mūsā
Abydos
D. Anbā Balamūn
D. al-Malāk
Dandarah
(Dendera)
QINĀ
(QENA)
Fāw Qiblī
Bakhānis
Farshūt
Bahjūrah
Naj' Hammādī
(Nag Hammadi)
Hiw
D. Mār Mīnā
al-Ballāş
Qift
Naqādah
Qūs
D. al-Malāk Mīkhā'īl
D. al-Ṣalīb
D. Abū Līfah
D. Mār Jirjis
D. Mār Buqtur
D. al-Malāk Mīkhā'īl
D. Pisentius
Hijāzah
Qamūlā
Theban Necropolis
al-Madāmūd
D. Anbā Bakhūm
Karnak
Luxor
Armant
al-Dimiqrāt
al-Tūd
D. Mār Jirjis
D. Anbā Abshāy
Asfūn
D. al-Fakhūrī
D. al-Rumāniyyah
D. Anbā Isḥāq
D. al-Shuhadā'
Isnā
(Esna)
0 25 50 km
0 15 30 miles
D. Anbā Bakhūm
Idfū
(Edfu)
Jabal al-Silsilah
Kom Ombo
D. al-Kūbāniyyah
D. Qubbat al-Hawā
D. Anbā Hadrā
(St Simeon)
ASWAN
Philae
Monastery or monastery location
sites
Ancient sites reoccupied by monks
Jabal al-Silsilah



فهرس الجزء الأول



فهرس الجزء الثانى

هامش سفلى:



فهرس الجزء الثالث
[المجلدين]



فهرس الجزء الرابع [الأخير]
[المجلدين]

المخطوط: فساد العربان بالصعيد.

هامش سفلي: فساد العربان (سالم ابن حبيب + عرب الجزيرة) فى الوجه البحرى، فى الوقت الذى يتحارب فيه الأمراء فيما بينهم.

المخطوط: فتنة الراهب عماد المرشار مع البطرك.

هامش سفلي: اشتداد فساد العربان واحراق زروع «دجوة» ونهب قافلة السويس.

عرب الصوالحة تنهب مركب فى السويس وأخذوا آلاتها، وتمنع الماء عن الأهالى.

المخطوط: مجلس محاسبة البطرك ابن لقلق بسبب رشا المناصب.

هامش سفلي: غضب الباشا والسلطنة على محمد جركس.

الرعية تهاجم عسكر الباشا بسبب غلاء القمح.

نزاعات بين عسكر محمد جركس وعسكر إسماعيل بك.

القتل على الخازوق.

فساد عرب سالم ابن حبيب فى البلاد.

المخطوط: فرسان الحلقة تعتقل الملك العادل فى ٩ ذو القعدة ٦٣٦ = ١٣ يونيو ١٢٣٩. لحساب الملك الصالح أيوب، الذى يقتل بعد ذلك العديد من فرسان الحلقة.

نهب الكنيسة المعلقة وغلقها.

الفرنج تستولى على نابلس والغور وغزة والقدس وعسقلان بموافقة الملك الصالح غازى.

نزاعات بين بعض الاساقفة والبطرك.

هامش سفلي: كسر جسر بدوية فتغرق كل بلاد المنزلة.

المخطوط: السلطان يجرد عسكر لليمن وينقلهم على اسطول بحر القلزم.

السلطان يفرج عن أسرى الفرنج ومنهم الكونت «تابوت» طيهم كل الساحل والقدس ماعدا غزة ونابلس

المخطوط: فتنة محمد بك جركس.

سيرة يوأنس، البطرك (١٠٥) . مدته ١٧٢٧/١٧٤٥م.

سيرة مرقس، البطرك (١٠٦). مدته ١٧٤٥/١٧٦٩م.

هامش سفلى: محمد على وبناء دولته. السياسية الداخلية.

المخطوط: سيرة يوحنا، البطرك (١٠٧). مدته ١٧٧٠/١٧٩٦م.

إبراهيم بك ومراد بك.

المعلم إبراهيم الجوهرى.

هامش سفلى: نص اتفاقية لندن ١٨٤٠ ونهايات محمد على.

المخطوط: طاعون الكبة سنة ١٥٠٧ للشهداء = ١٧٨٣م. قبطية = ١٧٩١م.

سيرة يوأنس، البطرك (١٠٨). مدته ١٧٩٦/١٨٠٩م.

الحملة الفرنسية.

هامش علوى: مشروع المعلم يعقوب لاستقلال مصر عقب خروج الحملة الفرنسية من مصر.

هامش سفلى: مصر من ١٨٤٨ إلى ١٨٥٤ (إبراهيم باشا) + (محمد سعيد).

مصر من ١٨٥٤ إلى ١٨٦٣

المخطوط: سيرة بطرس، البطرك (١٠٩). مدته ١٨٠٩/١٨٥٢ م.

محمد على وفتح السودان.

البطرك يعالج ابنة محمد على.

محاولة ضم الكنيسة القبطية إلى كنيسة روما.

سيرة كيرلس، البطرك (١١٠). فى عهده الغى سعيد باشا الجزية.

انشاء الكنيسة الكبرى بالقاهرة. مؤامرة لقتل البطرك

هامش سفلى:

المخطوط:

* كامل صالح نخله: البابا بنيامين الاول.
مكتبة المحبة. القاهرة. د. ت.
* القس منسى يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية.
مكتبة المحبة. القاهرة ١٩٨٣.
* القمص يوحنا سلامه: اللآلىء النفيسة فى شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة. جزئان.
مكتبة مار جرجس. القاهرة ١٩٩٩.
* هـ. أيدرس بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى.
ترجمة: د. عبداللطيف أحمد على.
دار النهضة العربية. القاهرة ١٩٦٨.
* يوحنا النقيوسى: تاريخ العالم القديم.
مترجم عن النص الفرنسى المأخوذ من الحبشية.
قدم له ونشره: القمص بيشوى عبدالمسيح.
القاهرة ١٩٩٦.
* السنكسار: مكتبة المحبة. د. ت.
* مجموعة من كبار علماء اللاهوت الارثوذكس: التدبير الإلهى فى تأسيس الكنيسة.
القاهرة ١٩٩٧.
- Aziz S. ATIYA: The Coptic Encyclopedia. Macmillan. New york, Toronto, Oxford.

هذه الموسوعة

مبدئياً علينا أن نؤمن بأن هناك مايسمى بالقوة الطليعية التى قادت البشرية نحو التطور والتقدم . فعندما نرى المصريين وقد تحولوا إلى أمة متحدة تقيم الدولة الواحدة لأول مرة فى التاريخ ،بمؤسساتها المتعددة والقوانين التى تنظم علاقاتها الاجتماعية ، وما تمارسه فيها اللغة والكتابة كوظيفة كبرى. فحين ذاك يبدأ تاريخ البشرية الذى صنعه المصريون منذ آلاف السنين على ضفاف نيلهم ،وسجلوه كتابة ورسماً ونحتاً على جدران عمايرهم ومسلاتهم وأهراماتهم وأوراق البردى فأمكننا بذلك معرفة أين بدأ البشرية تاريخها ومن الذى صنعه.

ولكن عندما قسم تاريخ أمتنا المصرية إلى بطلمى وروماني وأموى وعباسى وفاطمى وأيوبى ومملوكى وعثمانى .. إلخ قام بعض المرتزقة والمنتفعين بنهب هذه الأقسام وافتعلوا بينها تناقضات وصراعات . ولم يعد فى ذهنهم أن هناك تاريخاً طويلاً متواصلاً لأمتنا المصرية يمتد لآلاف السنين نفتخر به وليس لنا سواه.

إلى جانب هؤلاء المرتزقة كان هناك كتابات تاريخية أدركت أن تاريخ المصريين ووطنهم الأم نسيج واحد ينساب عبر التاريخ منجزاً أعظم حضارات البشر ،دون أى تقسيمات أو فواصل ،من هذه الكتابات الأثرية مخطوطنا « تاريخ البطاركة » الذى رصد أول فترة من تاريخ المصريين تمتد لعشرين قرناً، من بدايات القرن الأول الميلادى وحتى بدايات القرن العشرين .

يرصد فيه العديد من أحداثنا التاريخية التى لم ترد فى مخطوطاتنا التراثية المعروفة ، ننشره هنا كاملاً ومحققاً.

وقد استكملت فى موسوعتنا هذه أحداث القرن العشرين حتى نهايته، وزودته بـالملاحق العديدة وأضفت (من الكتب التراثية) متابعات موازية للأحداث الـ... بالمخطوط من أجل المقارنة والدراسة ، إلى جانب العديد من اللوحات والخرائط لنستكمل بها رؤية تاريخنا .

عبد العزيز جمال الد...



MADBULI BOOKSHOP مكتبة مدبولى

6 Talat Harb SQ. Cairo Tel : 5756421 ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٥٧٥٦٤٢١

مكتبة مدبولى